

ابن خليفه عليوى
خريج جامعة الأزهر الشريف

جافح النفوس في أسباب التروك وشرح آياتها

الجزء الأول

الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الفهرس

الموضوع

الصفحة

١٧	تعدد النازل والسبب واحد
١٨	القول في أول ما نزل من القرآن الكريم
٢٠	القول في آخر ما نزل من القرآن الكريم
٢٣	اليوم الذي أنزل فيه القرآن الكريم
٢٣	بيان ما نزل بمكة المكرمة وبالمدينة المنورة
٢٤	القول في التسمية
٢٧	القول في سورة الفاتحة
٢٨	القول في بيان سبب نزول قوله تعالى: «الم. ذلك الكتاب» (آية ١ - ٢٠)
٣٠	تفسير الآيات من (١ - ٢٠)
٦٣	القول في بيان سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الناس اعبدوا ربكم»
٦٥	مراتب النداء
٧١	القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً»
٧٩	القول في سبب نزول قوله تعالى: «واستعينوا بالصبر والصلاة»
٨٢	القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هادوا»
٨٨	القول في سبب نزول قوله تعالى: «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم»
٩٠	القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقالوا لن نمسنا النار إلا أياماً معدودة»
٩٤	القول في سبب نزول قوله تعالى: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم»
٩٦	القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولمّا جاءهم كتاب من عند الله»
١٠٢	القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل من كان عدوا لجبريل»
١٠٩	القول في سبب نزول قوله تعالى: «أوكلها عاهدوا عهداً»
١١٠	القول في سبب نزول قوله تعالى: «واتبعوا ما تلتوا الشياطين»
١٢٣	القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا»
١٢٦	القول في سبب نزول قوله تعالى: «ما يؤدّ الذين كفروا من أهل الكتاب»
١٢٨	القول في سبب نزول قوله تعالى: «ما ننسخ من آية أو ننسها»
١٣٢	القول في سبب نزول قوله تعالى: «أم تريدون أن تسألوا رسولكم»
١٣٦	القول في سبب نزول قوله تعالى: «ودّ كثير من أهل الكتاب»
١٣٨	القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقالت اليهود ليست النصرارى على شيء»
١٤١	القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه»

الموضوع

الصفحة

- ١٤٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولله المشرق والمغرب..»
- ١٤٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه»
- ١٥١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إننا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً»
- ١٥٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى»
- ١٥٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته»
- ١٥٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت»
- ١٥٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا»
- ١٦٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة»
- ١٦٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «سيقول السفهاء من الناس»
- ١٧١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم»
- ١٧٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات»
- ١٧٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الصفا والمروة من شعائر الله»
- ١٧٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى»
- ١٨١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «واللهم إله واحد..»
- ١٨٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طيباً»
- ١٩١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب»
- ١٩٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ليس البر أن تولتوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب»
- ٢٠٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «كتب عليكم القصاص في القتلى»
- ٢١٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم»
- ٢١٦ (فصل في الاعتكاف)
- ٢١٦ (فروع)
- ٢١٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»
- ٢٢١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يسألونك عن الأهلة..»
- ٢٢٢ (فائدتان)
- ٢٢٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وليس البر أن تأتوا البيوت من ظهورها»
- ٢٢٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم»
- ٢٢٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الشهر الحرام بالشهر الحرام»
- ٢٣٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وأنفقوا في سبيل الله..»

الموضوع

الصفحة

- ٢٣٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «فمن كان منكم مريضاً...»
- ٢٣٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وتزودوا...»
- ٢٣٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم»
- ٢٤٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس»
- ٢٤٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «فإذا قضيت مناسككم...»
- ٢٤٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن الناس من يعجبك قوله»
- ٢٥٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن الناس من يشري نفسه»
- ٢٥٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ادخلوا في السلم كافة»
- ٢٥٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة»
- ٢٥٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يسألونك ماذا ينفقون»
- ٢٥٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يسألونك عن الشهر الحرام»
- ٢٦٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يسألونك عن الخمر والميسر»
- ٢٦٧ (فصل في تحريم الخمر)
- ٢٦٨ (فصل في أحكام تتعلق بالخمر)
- ٢٧٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تنكحوا المشركات...»
- ٢٧٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ويسألونك عن المحيض»
- ٢٧٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «نساءكم حرث لكم...»
- ٢٨٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم»
- ٢٨٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «للذين يؤلون من نسائهم...»
- ٢٨٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الطلاق مرتان...»
- ٢٩٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإذا طلقتم النساء...»
- ٢٩٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا إكراه في الدين...»
- ٢٩٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله»
- ٢٩٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم»
- ٢٩٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن تُبذروا الصدقات فنعمنا هي...»
- ٣٠٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ليس عليك هدام...»
- ٣٠٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار»
- ٣٠٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا»

الموضوع

الصفحة

- ٣٠٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإن كان ذو عسرة..»
- ٣١٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله»
- ٣١٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه»
(سورة آل عمران)
- ٣١٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الم. الله لا إله إلا هو الحي القيوم»
- ٣٢٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل للذين كفروا ستغلبون»
- ٣٢٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «شهد الله أنه لا إله إلا هو..»
- ٣٣١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل اللهم مالك الملك..»
- ٣٣٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء»
- ٣٣٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله..»
- ٣٣٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم..»
- ٣٤١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «فقل تعالوا ندع أبناءنا..»
- ٣٤٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل يا أهل الكتاب تعالوا..»
- ٣٤٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن أول الناس بإبراهيم للذين اتبعوه»
- ٣٤٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ودت طائفة من أهل الكتاب»
- ٣٤٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقالت طائفة من أهل الكتاب»
- ٣٤٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه..»
- ٣٥١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذين يشترون بعهد الله..»
- ٣٥٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ما كان لبشر..»
- ٣٥٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أفغير دين الله يبغون..»
- ٣٥٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن يتبع غير الإسلام ديناً..»
- ٣٥٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «كيف هدى الله قوماً..»
- ٣٦٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذين كفروا بعد إيمانهم»
- ٣٦١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل»
- ٣٦٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس»
- ٣٧٠ ما هي الشروط التي يصح بها الحج
- ٣٧٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب»
- ٣٧٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»

الموضوع

الصفحة

٣٧٨ من هم أهل الخيرية
٣٧٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لن يضرركم إلا أذى»
٣٨١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ليسوا سواء...»
٣٨٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم»
٣٨٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «واذ غدوت من أهلك...»
٣٨٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولقد نصركم الله بيدر...»
٣٩٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ليس لك من الأمر شيء...»
٣٩٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «والذين إذا فعلوا فاحشة»
٣٩٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تنهوا ولا تحزنوا...»
٤٠٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما محمد إلا رسول...»
٤٠٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «سنلق في قلوب الذين كفروا الرعب»
٤٠٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولقد صدقكم الله وعده»
٤١٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما كان لنبي أن يقُل»
٤١٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أولمّا أصابكم مصيبة»
٤١٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله»
٤٢٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لقد سمع الله قول الذين قالوا»
٤٢٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين قالوا إن الله عهد إلينا»
٤٢٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لتبلىنّ في أموالكم وأنفسكم»
٤٢٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا تحسبنّ الذين يفرحون بما أتوا»
٤٢٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار»
٤٣٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «فاستجاب لهم ربهم إني لا أضيع عمل عامل منكم»
٤٣١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا يفرنك قلب الذين كفروا»
٤٣٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم»
٤٣٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا»
	(سورة النساء)
٤٣٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وأتوا اليتامى أموالهم»
٤٣٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى»
٤٤٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح»

الموضوع

الصفحة

- ٤٤٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «للرجال نصيب مما ترك الوالدان»
- ٤٤٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى»
- ٤٤٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «بوصيكم الله في أولادكم»
- ٤٥٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يحمل لكم أن ترثوا النساء كرهاً»
- ٤٥٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء»
- ٤٥٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «والمحصنات من النساء...»
- ٤٦٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم...»
- ٤٦٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان»
- ٤٦٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الرجال قوامون على النساء...»
- ٤٦٩ ما تدل عليه الآيات
- ٤٦٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل»
- ٤٧١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى»
- ٤٧٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم...»
- ٤٧٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب»
- ٤٨٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات...»
- ٤٨٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله»
- ٤٨٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا...»
- ٤٩٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن يطع الله والرسول...»
- ٤٩١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين قيل لهم...»
- ٤٩٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أينما تكونوا يدرككم الموت»
- ٤٩٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «فما لكم في المنافقين فئتين»
- ٤٩٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما كان المؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ»
- ٥٠٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً...»
- ٥٠٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في الأرض...»
- ٥٠٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا يستوى القاعدون من المؤمنين...»
- ٥٠٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين توفاهم الملائكة...»
- ٥١٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن يهاجر في سبيل الله...»
- ٥١٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة...»

الموضوع

الصفحة

- ٥١٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنا أنزلنا إليك الكتاب ..»
- ٥٢٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ليس بأمانيتكم...»
- ٥٢٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله»
- ٥٢٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ويستفتونك في النساء ..»
- ٥٣١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً»
- ٥٣٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط»
- ٥٣٥ حكم شهادة الأقرباء بعضهم على بعض
- ٥٣٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله ..»
- ٥٣٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا يحب الله الجهر بالسوء..»
- ٥٣٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يسألك أهل الكتاب ..»
- ٥٤٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لكن الله يشهد بما أنزل إليك»
- ٥٤٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ..»
- ٥٤٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ..»
- ٥٤٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ..»
- (سورة المائدة)
- ٥٤٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تحلثوا شعائر الله»
- ٥٥٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم ..»
- ٥٥٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يسألونك ماذا أحل لهم ..»
- ٥٥٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله»
- ٥٦٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ..»
- ٥٦٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ..»
- ٥٦٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر»
- ٥٦٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «سماعون للكذب أكالون للسحت»
- ٥٧١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور..»
- ٥٧٤ اختلاف العلماء فيمن نزلت آيات الحكم بما أنزل الله
- ٥٧٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وأن احكمم بينهم بما أنزل الله»
- ٥٧٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود»
- ٥٨٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنما وليكم الله ورسوله»

الموضوع

الصفحة

- ٥٨٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا ..»
- ٥٨٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإذا ناديتكم إلى الصلاة اتخذوها هُزْؤاً»
- ٥٨٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل هل أنبئكم بشر من ذلك ..»
- ٥٨٥ (أقوال الحكماء في ماهية المسخ وسببه)
- ٥٨٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك»
- ٥٩١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لتجدنّ أشدّ الناس عدواة»
- ٥٩٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تُحرّموا طيبات»
- ٥٩٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم»
- ٥٩٧ (مسائل تتعلق بالإيمان لا بد من معرفتها)
- ٥٩٨ (الخلف باعتبار المحلوف عليه على أقسام)
- ٥٩٨ (الأيمان ثلاثة أقسام)
- ٥٩٩ (اليمين الغموس)
- ٥٩٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر»
- ٦٠٣ (ما هي الدلائل على تحريم الخمر)
- ٦٠٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل لا يستوى الخبيث والطيب ..»
- ٦٠٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء»
- ٦٠٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم»
- ٦١١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا شهادة ..»

سورة الأنعام وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

٥ القول في بيان سبب نزول قوله تعالى: «ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس»
٨ القول في بيان سبب نزول قوله تعالى: «قل أى شىء أكبر شهادة»
١٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومنهم من يستمع إليك»
١٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى»
١٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل إني على بينة من ربي»
١٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل هو القادر على أن يبعث عليكم»
٢٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم»
٢٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما قدروا الله حق قدره»
٣٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن أظلم من افترى على الله كذباً»
٣٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولقد جئتمونا فرادى»
٣٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وجعلوا لله شركاء الجن»
٣٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم»
٤٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه»
٤٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أو من كان ميتاً فأحييناه»
٤٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قد خسر الذين قتلوا أولادهم»
٤٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وأتوا حقه يوم حصاده»
٤٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذين خرقوا دينهم»
٤٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا»
٥٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أو لم يتفكروا ما بصاحبهم»
٥٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يسألونك عن الساعة»
٥٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له»

سورة الأنفال

٥٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يسألونك عن الأنفال»
٦٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق»
٦٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إذ تستغيثون ربكم»
٦٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم»
٦٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح»

الموضوع

الصفحة

- ٦٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا تخونوا الله والرسول»
- ٧٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإذ يمكركم الذين كفروا»
- ٧٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإذا تلى عليهم آياتنا»
- ٧٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث»
- ٧٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإذ قالوا اللهم»
- ٧٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما كان صلاتهم عند البيت»
- ٧٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم»
- ٨١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم»
- ٨٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض»
- ٨٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن شر الدواب عند الله»
- ٨٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وأما تخافن من قوم خيانة»
- ٨٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها النبي حسبك الله»
- ٨٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها النبي حرص المؤمنين على القتال»
- ٩١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض»
- ٩٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى»
- ٩٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض»
- سورة براءة**
- ٩٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم»
- ٩٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ما كان للمشركين أن يعمرؤا مساجد الله»
- ٩٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء»
- ١٠٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض»
- ١٠٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة»
- ١٠٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنما المشركون نجس ..»
- ١٠٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقالت اليهود عزير ابن الله»
- ١١٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن كثيراً من الأحبار والرهبان»
- ١١٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنما النسيء زيادة في الكفر»
- ١١٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله»
- ١١٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «انفروا خفاً وثقالاً ..»
- ١٢١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «عفا الله عنك لم أذنت لهم»
- ١٢٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ألا في الفتنة سقطوا ..»

- ١٢٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن تصبك حسنة تسؤهم...»
- ١٢٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل أففقوا طوعاً أو كرهاً»
- ١٢٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومهم من يلمزك في الصدقات»
- ١٢٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومهم الذين يؤذون النبي»
- ١٢٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يحذر المنافقون...»
- ١٢٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب»
- ١٢٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «مخلفون بالله ما قالوا...»
- ١٣٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومهم من عاهد الله...»
- ١٣٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين يلمزون المطوعين»
- ١٣٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله»
- ١٣٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تصل على أحد منهم مات أبداً»
- ١٤١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ليس على الضعفاء...»
- ١٤٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا على الذين إذا ما أتوك...»
- ١٤٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن الأعراب من يؤمن بالله»
- ١٤٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن حولكم من الأعراب منافقون»
- ١٤٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم»
- ١٤٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وآخرون مرجون لأمر الله...»
- ١٥٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً...»
- ١٥٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم»
- ١٥٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين»
- ١٥٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين»
- ١٥٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما كان المؤمنون لينفروا كافة...»
- سورة يونس**
- ١٦٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم»
- سورة هود وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها**
- ١٦١ القول في بيان سبب نزول قوله تعالى: «ألا إنهم يثنون صدورهم»
- ١٦٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولئن أخرنا عنهم العذاب»
- ١٦٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وأقم الصلاة طرفي النهار»
- سورة يوسف وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها**
- ١٦٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «نحن نقص عليك أحسن القصص...»

سورة الرعد

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء» ١٦٧
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولو أن قرآناً سيرت به الجبال» ١٦٨
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «يمحو الله ما يشاء...» ١٧٠

أقوال العلماء في الحو والإثبات

سورة إبراهيم

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً» ١٧٤

سورة الحجر

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولقد علمنا المستقدمين...» ١٧٤
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن المتقين في جنات ونعيم» ١٧٥
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «ونزغنا ما في صدورهم من غلٍ...» ١٧٦
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني...» ١٧٧
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنا كفيناك المستهزئين...» ١٨٠

سورة النحل

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «أتى أمر الله...» ١٨١
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم» ١٨٢
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «والذين هاجروا في الله» ١٨٣
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً...» ١٨٣
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً» ١٨٤
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «يعرفون نعمة الله...» ١٨٥
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الله يأمر بالعدل» ١٨٦
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولقد تعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر» ١٨٧
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «من كفر بالله من بعد إيمانه...» ١٨٩
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «ثم إن ربك للذين هاجروا...» ١٩٠
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «ادع إلى سبيل ربك...» ١٩١

سورة بني إسرائيل وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تزواجرة...» ١٩٣
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإما تعرضن عنهم» ١٩٣
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك» ١٩٤
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقل لعبادي يقولوا التي أحسن» ١٩٥

الموضوع

الصفحة

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما منعنا أن نرسل بالآيات...» ١٩٦
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «واذ قلنا لك إن ربك...» ١٩٧
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «وان كادوا ليفتنونك...» ١٩٩
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «وان كادوا ليستفزونك...» ٢٠٠
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقل رب زدني علماً...» ٢٠٢
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ويسألونك عن الروح...» ٢٠٢
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل لئن اجتمعت الإنس...» ٢٠٣
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقالوا لن نؤمن لك...» ٢٠٤
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن» ٢٠٦
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً» ٢٠٦

سورة الكهف

- سبب نزول سورة الكهف ٢٠٨
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم» ٢٠٩
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل لو كان البحر مداداً» ٢١٠
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل إنما أنا بشر مثلكم» ٢١١

سورة الروم

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما ننزل إلا بأمر ربك...» ٢١٢
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ويقول الإنسان إنذا ما مت» ٢١٣
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «سيجعل لهم الرحمن وذا...» ٢١٤

سورة طه

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» ٢١٥
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ويسألونك عن الجبال...» ٢١٦
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تعجل بالقرآن» ٢١٧
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تمدن عينيك...» ٢١٧

سورة الأنبياء

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ما آمنت قبلهم من قرية» ٢١٨
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد» ٢١٨
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «واذا رآك الذين كفروا» ٢١٩

سورة الحج

- ٢٢١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن الناس من يجادل في الله»
- ٢٢١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن الناس من يعبد الله على حرف»
- ٢٢٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «هذان خصمان...»
- ٢٢٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن يرد فيه بالحاد»
- ٢٢٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لن ينال الله لحومها»
- ٢٢٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا»
- ٢٢٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته»

سورة المؤمنون

- ٢٢٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قد أفلح المؤمنون...»
- ٢٢٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين هم في صلاتهم خاشعون»
- ٢٣٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولقد أخذناهم بالعذاب...»

سورة النور

- ٢٣١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الزاني لا ينكح إلا زانية...»
- ٢٣٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «والذين يرمون أزواجهم...»
- ٢٣٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذين جاؤا بالإفك عصبة»
- ٢٤٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا»
- ٢٤٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل للمؤمنين بغضوا من أبصارهم...»
- ٢٤٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «والذين يبتغون الكتاب...»
- ٢٤٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإذا دعوا إلى الله ورسوله»
- ٢٤٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات»
- ٢٤٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم»
- ٢٤٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ليس على الأعمى حرج...»
- ٢٥٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله»
- ٢٥١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم»

سورة الفرقان

- ٢٥١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً»
- ٢٥٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ويوم بعض الظالم على يديه»

- ٢٥٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن»
- ٢٥٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر»
سورة الشعراء
- ٢٥٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أفرأيت إن متعناهم...»
- ٢٥٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وانذر عشيرتك الأقربين...»
- ٢٥٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاؤون...»
- ٢٥٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات»
سورة القصص
- ٢٦٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين آتيناهم الكتاب...»
- ٢٦١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وقالوا إن نتبع الهدى...»
- ٢٦١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أفمن وعدناه...»
- ٢٦٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وربك يخلق ما يشاء»
- ٢٦٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذي فرض عليك القرآن...»
سورة العنكبوت
- ٢٦٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الم * أحسب الناس...»
- ٢٦٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ووصينا الإنسان بوالديه»
- ٢٦٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن الناس من يقول آمنا بالله»
- ٢٦٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب»
- ٢٦٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وكاين من دابة...»
- ٢٦٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أولم يروا أنه جعلنا حراماً آمناً»
سورة الروم
- ٢٦٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الم * غلبت الروم...»
- ٢٦٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ضرب الله لكم مثلاً من أنفسكم»
سورة لقمان
- ٢٦٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ومن الناس من يشتري لهو الحديث»
- ٢٦٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولولأن ما في الأرض من شجرة أقلام»
- ٢٦٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الله عنده علم الساعة»
سورة السجدة
- ٢٧٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع...»

- ٢٧٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «أفئن كان مؤمناً...»
- سورة الأحزاب
- ٢٧١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها النبي اتق الله»
- ٢٧١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ما جعل الله لرجل من قلبين»
- ٢٧٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «اذكروا نعمة الله عليكم»
- ٢٧٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «من المؤمنين رجال صدقوا»
- ٢٧٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها النبي قل لأزواجك»
- ٢٧٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما كان لمؤمن...»
- ٢٧٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «واذ تقول للذي أنعم الله عليه»
- ٢٧٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ترجى من تشاء»
- ٢٧٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم»
- ٢٧٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الله وملائكته يصلون على النبي»
- ٢٧٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «هو الذي يصلي عليكم وملائكته»
- ٢٧٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنا أحللتنا لك أزواجك»
- ٢٧٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا يحل لك النساء من بعد»
- سورة سبأ
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية» «وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها»
- ٢٧٨ قرية من نذير إلا قال مترفوها»
- سورة فاطر
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «أفئن زين له سوء عمله» «إن الذين يتلون كتاب الله»
- ٢٧٨ كتاب الله»
- ٢٧٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذي أحلنا دار المقامة»
- سورة يس
- ٢٧٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يس» إلى قوله «أم لم نذرهم»
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً» «إنا نحن نعى الموتى» «وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه»
- ٢٨٠ الموتى» «وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه»
- سورة الصافات
- ٢٨٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنها شجرة الزقوم»
- ٢٨١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً» «أفبعذابنا يستعجلون»

سورة ص

٢٨١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ص * والقرآن ذى الذكر»

سورة الزمزر

٢٨٢ القول في سبب نزول قوله تعالى: «والذين اتخذوا من دونه أولياء» «أمن هو قانت آناء الليل» «والذين اجتنبوا الطاغوت»

٢٨٣ القول في سبب نزول قوله تعالى: «الله نزل أحسن الحديث» «قل يا عبادى الذين

أسرفوا على أنفسهم» «قل أغير الله تأمروني أعبد»

٢٨٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما قدروا الله حق قدره» «ما يجادل

في آيات الله...»

سورة السجدة - فصلت

٢٨٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وما كنتم تستترون»

٢٨٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذين قالوا ربنا الله» «أفمن يلقى

في النار» «ولو جعلناه قرآناً أعجبياً»

سورة الشورى

٢٨٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «والذين يجاجون في الله»

٢٨٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجراً» «ولو بسط الله الرزق

لعباده» «وما كان لبشر أن يكلمه الله»

سورة الزخرف

٢٨٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن» «لولا نزل هذا

القرآن على رجل» «ومن يغشى عن ذكر الرحمن» «ولما ضرب ابن مريم مثلاً»

سورة الدخان

٢٨٨ القول في سبب نزول قوله تعالى: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان» «إن شجرة

الزقوم» «ذق إنك أنت العزيز الكريم»

سورة الجاثية

٢٨٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «يغفروا للذين لا يرجون أيام الله» «من اتخذ إلهه

هواه» «ما هي إلا حياتنا الدنيا»

سورة الأحقاف

٢٩٠ القول في سبب نزول قوله تعالى: «قل ما كنت بدعاً من الرسل» «إن كان من عند

الله وكفرتم به»

- ٢٩١ القول في سبب نزول قوله تعالى: «لو كان خيراً ما سبقونا إليه» «وبلغ أربعين سنة» ...
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «والذى قال لوالديه أف» «وإذ صرفنا
 ٢٩٢ إليك نفراً من الجن»

سورة محمد (عليه الصلاة والسلام)

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله» «وكأين من قرية
 ٢٩٣ هى أشد قوة من قريتك» «ومنهم من يستمع إليك» «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول»

سورة الفتح

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً» «لقد رضي
 ٢٩٤ الله عن المؤمنين»
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «وهو الذى كف أيديهم عنكم» «ولولا
 ٢٩٥ رجال مؤمنون» «لقد صدق الله رسوله الرؤيا»

سورة الحجرات

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا تقدموا بين يدي الله ورسوله» «لا ترفعوا
 ٢٩٦ أصواتكم فوق صوت النبي»
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات» «إن
 ٢٩٧ جاءكم فاسق نبأ»
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا» «لا يسخر
 ٢٩٩ قوم من قوم»
 القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تنازروا بالألقاب» «ولا يغتب بعضكم بعضاً» «إنا
 ٣٠٠ خلقناكم من ذكروا نثى»

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «قالت الأعراب آما...»

سورة ق

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما
 ٣٠١ في ستة أيام»

سورة الذاريات

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «وفى أمواهم حق للمسائل والمخروم» «فإن الذكرى
 ٣٠٢ تنفع المؤمنين»

سورة الطور

- القول في سبب نزول قوله تعالى: «أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون»

سورة النجم

القول في سبب نزول قوله تعالى: «هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض» «أفرايت الذي تولى» ٣٠٣

سورة القمر

القول في سبب نزول قوله تعالى: «اقتربت الساعة وانشق القمر» «سيزم الجمع ويولون الدبر» «إن المجرمين في ضلال وسعر» ٣٠٤

سورة الرحمن

القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولين خاف مقام ربه جنتان...» ٣٠٥

سورة الواقعة

القول في سبب نزول قوله تعالى: «فلا أقسم بمواقع النجوم...» ٣٠٥

سورة الحديد

القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح» ٣٠٥

القول في سبب نزول قوله تعالى: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم» «اتقوا الله وآمنوا برسوله» «لئلا يعلم أهل الكتاب» ٣٠٦

سورة المجادلة

القول في سبب نزول قوله تعالى: «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها» ٣٠٧

«ألم ترى إلى الذين نهوا عن النجوى» «وإذا جاؤك حيوك» ٣٠٧

القول في سبب نزول قوله تعالى: «إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس» «إذا ناجيتم الرسول» «أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم» ٣٠٨

القول في سبب نزول قوله تعالى: «إذا ناجيتم الرسول» «ألم ترى إلى الذين تولوا قوماً» ٣٠٨

«لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله» ٣٠٩

سورة الحشر

القول في سبب نزول قوله تعالى: «هو الذي أخرج الذين كفروا» «ما قطعتم من لينة» «والذين تبوءوا الدار والإيمان» ٣١٠

القول في سبب نزول قوله تعالى: «ويؤثرون على أنفسهم» «ألم تسر إلى الذين نافقوا» ٣١١

الذين نافقوا» ٣١١

سورة الممتحنة

القول في سبب نزول قوله تعالى: «لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء» ٣١١

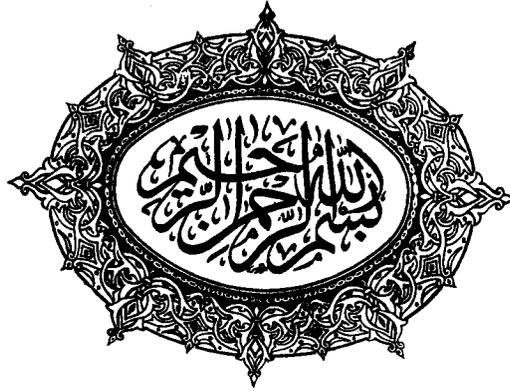
القول في سبب نزول قوله تعالى: «قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم» «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين» «إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات» ٣١٣

- ٣١٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «ولا تمسكوا بعصم الكوافر...»
سورة الصف
- ٣١٤ القول في سبب نزول قوله تعالى: «سبح لله ما في السموات وما في الأرض»
سورة الجمعة
- ٣١٥ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإذا رأوا تجارة أو لهواً»
سورة المنافقون ، وغزوة بني المصطلق
- ٣١٥ سورة التغابن
- ٣١٦ القول في سبب نزول قوله تعالى: «إن من أزواجكم وأولادكم...»
- ٣١٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وإن تعفوا وتصفحوا...»
سورة الطلاق
- ٣١٧ القول في سبب نزول قوله تعالى: «فطلقوهن لعدتهن» «ومن يتق الله يجعل له مخرجاً»
سورة التحريم
- القيول في سبب نزول قوله تعالى: «يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك» «إن
٣١٨ تتوبا إلى الله..»
سورة الملك
- ٣١٩ القول في سبب نزول قوله تعالى: «وأسروا قولكم أو اجهروا به»
سورة القلم
- القول في سبب نزول قوله تعالى: «ما أنت بنعمة ربك بمجنون» «ولا تطع كل حلافٍ
٣١٩ مهين» «وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك»
- ٣٢٠ سورة المعارج قوله تعالى: «سأل سائل» «ابطمع كل امرئ»
- سورة الجن قوله تعالى: «قل أوحى إليّ» «وأنه كان رجال» «وأن لو استقاموا
٣٢٢ على الطريقة» «وأن المساجد لله» «قل إني لن مجيرن من الله أحد»
- ٣٢٢ سورة المزمل قوله تعالى: «يا أيها المزمل» «فاقرؤ ما تيسر منه»
- سورة المدثر قوله تعالى: «يا أيها المدثر» «ذري ومن خلقت وحيداً» «عليها
٣٢٤ تسعة عشر» «بل يريد كل امرئ منهم أن يؤثي صحف منشرة»
- ٣٢٥ سورة القيامة قوله تعالى: «لا تحرك به لسانك لتعجل به» «أولئك فأولئ»
- سورة الإنسان قوله تعالى: «ويطعمون الطعام على حبه» «وإذا رأيت ثم
٣٢٦ رأيت نعباً» «لا تطع منهم آثماً أو كفوراً»
- ٣٢٧ سورة المرسلات قوله تعالى: «وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون»

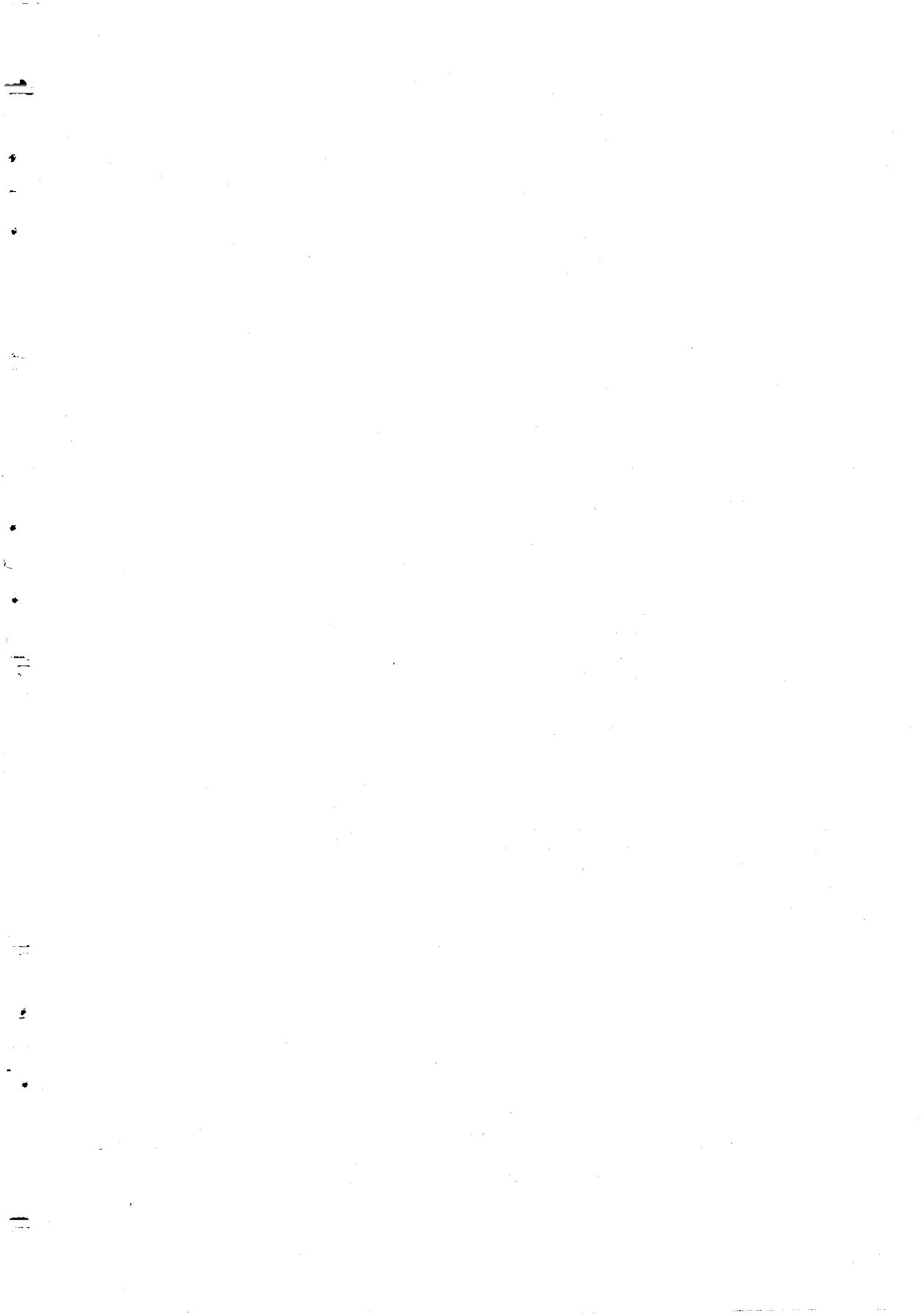
الصفحة

الموضوع

٣٢٧ سورة النبأ قوله تعالى: «عمّ يتساءلون»
٣٢٧ سورة النازعات قوله تعالى: «قالوا تلك إذا كرة خاسرة»
 سورة عبس قوله تعالى: «عبس وتولى» «قتل الإنسان ما أكفره» «لكل امرئ منهم
٣٢٨ يومئذ شأن يغنيه»
٣٢٩ سورة التكوير قوله تعالى: «وما تشاؤون إلا أن يشاء الله»
٣٢٩ سورة المطففين قوله تعالى: «ويل للمطففين...»
٣٣٠ سورة الطارق قوله تعالى: «والسما والطارق» «فلينظر الإنسان مما خلق»
٣٣٠ سورة الغاشية قوله تعالى: «أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت»
٣٣١ سورة الفجر قوله تعالى: «يا أيها النفس المطمئنة»
٣٣١ سورة الليل قوله تعالى: «وسيجئها الأتقى»
٣٣٢ سورة الضحى
٣٣٣ سورة الم نشرح
٣٣٣ سورة التين
٣٣٤ سورة العلق
٣٣٤ سورة القدر
٣٣٥ سورة إذا زلزلت
٣٣٥ سورة العاديات
٣٣٦ سورة التكاثر
٣٣٦ سورة الهمزة
٣٣٦ سورة الفيل
٣٣٧ سورة قريش وسورة الماعون
٣٣٨ سورة الكوثر وسورة الكافرون
٣٣٩ سورة تَبَّتْ
٣٤٠ سورة الإخلاص والمعوذتين



المجموع جزو الأول



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

((المقدمة)) *

الحمد لله الملك القدوس السلام، ذى الجلال والإكرام، وذى الطول والانعام. لا إله إلا هو المتعالى العلام. الذى أنزل القرآن الكريم نوراً وهدى ورحمة بحسب الوقائع والمصالح منجماً، وجعله بالتحميد مفتحاً وبالاستعاذة محتتماً، وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً. نزل به جبريل الأمين على قلب سيد المرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الصادق الوعد الأمين. صلى الله عليه وعلى آله وخلفائه وجميع المهاجرين والأنصار، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد :

فيقول العبد الفقير إلى ربه القدير (عليوى خليفه عليوى) القلعه حى مولداً: قلعة المضيق. محافظة حماه. الشافعى مذهباً. السورى موطناً. لقد رأيت من تمام الفائدة لطلاب العلوم الشرعية أن أجمع لهم في كتاب واحد أقوال العلماء سلفاً وخلفاً في أسباب النزول إذ أن الجمع ذاته هو من مقاصد التأليف ولأن من الواجب على كل مؤلف كتاباً ما في فن قد سبق إليه أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد:

أولها : استنباط شىء كان مُعضلاً.

ثانيها : أوجعه إن كان متفرقاً.

ثالثها : أوشرحه إن كان غامضاً.

رابعتها : أو حُسنُ نظم وتأليف.

خامستها : أو إسقاط حشو وتطويل.

وإني لأرجو العليّ القدير أن لا يخلو كتابي هذا من هذه المقاصد التي ذكرت.

هذا : وقد ألفت أئمة الإسلام الأعلام في هذا الفن كتباً كثيرة في معرفة أحكام القرآن وسبب نزوله. وكل بحسب ما قسم الله له من العلم والفهم والمعرفة، وقد يسّر الله لي أن أقتني أثرهم، وأسلك طريقهم في نقل الأخبار الواردة في نزول القرآن الكريم رجاء أن يُضمَّ اسمي إلى عقد ديوان أسمائهم، وأنال ثوابه في دار النعيم بما يُنعم به عليهم. وإني

لمتأكد أن الخوض في مثل هذا الشأن خطره كبير إذا لم أحسن التدبير والتعبير، كيف لا وقد قال البشير النذير صلى الله عليه وسلم: [من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ] * وقال: [من قال بالقرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار] * وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما سُئل عن قوله تعالى: «وَفَاكِهَةً وَأَبًّا»، أي سماء تظلني، وأي أرض تُقلني إذا قلت في كتاب الله تعالى ما لا أعلم.

لذا فإنني سأبتعد في كتابي هذا — إن شاء الله تعالى — عن كل قول لم يكن متابعاً، وسأبتعد مهما أمكنني — إن شاء الله تعالى — عن التفرد في المقال مهما كان راويه عدلاً، لأنَّ التفرد لا يخلو من مقال، وسأترك التطويل مهما أمكنني في الأسباب الواضحة، إلا أنني قد أطنب أحياناً في الروايات إن كان ما فيها مشوقاً للأعمال والاقبال على الله تعالى، أو قد أذكر أقوالاً كثيرة إيضاحاً للمعنى المراد من نزول الآية * واقتداءً بسلفنا الأبرار من العلماء الأخيار، وتجديداً لما طال عهده وكاد يدرس رسمه، لقلّة التأليف فيه قمت بهذا الجهد المتواضع تنبيهاً للهمم وتحريضاً على العمل للمقصرين من أمثالي عن بلوغ الأمل، والله تعالى أسأل التوفيق لإتمام ما قصدت، وإليه أرجب في تيسير ما أردت، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويتقبله مني قبولاً حسناً، وهو حسبي ونعم الوكيل عليه توكلت وإليه المصير.

المؤلف

* ((معنى سبب النزول)) *

القرآن الكريم قسمان:

قسم نزل من الله تعالى ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة، وإنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق جلّ جلاله. وهذا ظاهراً لا يحتاج إلى بيان. والآيات في هذا الموضوع كثيرة مثل آيات النظر في النفس وفي الكون للوصول إلى إثبات وجود الخالق جل جلاله.

وقسم نزل مرتبطاً بأسباب خاصة — وهو موضوع بحث كتابي هذا الذي سميته (جامع النقول في أسباب النزول) وهو بيان ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه، أو مبينة لحكمة أيام وقوعه، وذلك بأن تقع حادثة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، أو سؤال وجه إليه، فينزل المولى جل جلاله الآية أو الآيات لتبين ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب ذلك السؤال، سواء أكانت تلك الحادثة خصومة وقعت بين المسلمين، كالتى وقعت بين الأوس والخزرج بتحريض من اليهود حتى تنادوا: السّلاح السّلاح، فأنزله تعالى في ذلك الآيات الحكيمة في سورة آل عمران من قوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا إن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ*...» إلى غيرها من الآيات بعدها وهي من أبلغ ما يُتَقَرُّ المؤمن من طاعة أهل الكتاب فيما يأمرونهم من الانقسام والشقاق، وتدعوهم إلى المحبة والوحدة والاتفاق. أم كانت تلك الحادثة خطأ فاحشاً ارتكب وذلك كالسكران الذي أمّ الناس وهو في نشوة سكره لا يدري ولا يعي ما يقول فقرأ بعد الفاتحة (قل يا أيّها الكافرون أَعْبُدُوا مَا تَعْبُدُونَ) وحذف لفظ (لا) من «لَا أَعْبُدُ» فنزلت الآية الكريمة في تلك الحادثة تنهى عن قربان الصلاة في حال السكر فقال تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا لا تقرُّبوا الصلوة وأنتم سُكَّارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...» وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يتعلّق بأمر مضى مثل قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ قَالُوا...» الآيات. أم يتعلّق بمحاضر مثل قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً...» أم يتعلّق بمستقبل مثل قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا...» وسيأتيك بيان هذا مفصلاً في حينه إن شاء الله تعالى.

* ((فوائد معرفة أسباب النزول)) *

لأسباب النزول فوائد كثيرة أجملها فيما يلي:

الفائدة الأولى:

معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل، وهذه فائدة عظيمة لأن فيها نفعاً عاماً للمؤمن وغير المؤمن، أمّا المؤمن فيزداد إيمانه، ويحرص على تنفيذ أحكام الله تعالى في الأرض. والعمل بكتابه لما ينكشف له من المصالح والمزايا التي نيّطت بهذه الأحكام التي نزل من أجلها القرآن، وذلك كقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» * وأمّا الكافر فتهديه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان بالله تعالى لما يعلم من أسرار التشريع الإسلاميّ أنّه قائم على أساس رعاية مصالح الإنسان لا على الاستبداد والتحكّم والطغيان، وحسبك شاهداً على ذلك تحريم الربا والخمر والرشوة ونحوها من المفسد لما فيها من ظلم الإنسان لنفسه، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

الفائدة الثانية:

القدرة على فهم الآية، ودفع الغموض عنها لأنه لا يمكن معرفة تفسير الآية تفسيراً صحيحاً إلاّ بالوقوف على قصتها، وبيان نزولها، وفي هذا المعنى قال ابن تيمية رحمه الله: (معرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالسبب) وذلك كقوله تعالى: «وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَسَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» فظاهر اللفظ الكرم يدلّ على أنّ للإنسان أن يُصلّى إلى أيّة جهة شاء، ولا يجب عليه التوجّه شطر البيت الحرام لا في السفر ولا في الحضر. ولكن حينما يعلم أنّ هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة، أو فيمن صلّى باجتهاده، ثم بان له خطؤه تبيّن له أن الظاهر غير مُراد، إنّما المراد التخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة، أو على المجتهد في القبلة إذا صلّى وتبيّن له خطؤه. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: [إن هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أيّنا توجّهت] * وقيل: عميت القبلة على قوم فصلّوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبيّنوا خطأهم فعذروا.. إلى آخر ما فيها من أقوال ستأتيك مفصلة في حينها إن شاء الله تعالى.

الفائدة الثالثة :

دفع توهم الحصر عما يفيد ظاهره الحصر، وذلك كقوله تعالى: «قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ...» فذهب الشافعي رضي الله عنه إلى أن الحصر في هذه المحرمات غير مراد بعينها - لأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوا إلا أن يُحَرِّمُوا ما أحلَّ الله و يُجِلُّوا ما حرَّم الله عناداً منهم ومُحَادَةً لله ورسوله. فنزلت الآية بهذا الحصر. نقل السبكي عن الشافعي قوله: إن الكفار لما حرَّموا ما أحلَّ الله، وأحلُّوا ما حرَّم الله، وكانوا على المضادة والمخادعة جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه، نازلاً منزلة من يقول لك: لا تأكل اليوم حلاوة فتقول: لا آكل اليوم إلا حلاوة، والغرض المضادة لا التقى والاثبات على الحقيقة، فكأنه قال تعالى: لا حرام إلا ما أخلتتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حلاً ما وراءه إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل. قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن. ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية.

الفائدة الرابعة :

تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، وذلك كنزول أول سورة المجادلة، إذ أنَّ أَوْسَ بْنَ الصَّامِتِ ظَاهِرَ مِنْ زَوْجَتِهِ حَوَّلَةَ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، والحكم الذي تضمنته الآيات خاص بها وحدهما (على هذا الرأي) أما غيرهما فيعلم بدليل آخر قياساً أو سواه.

الفائدة الخامسة :

معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصّص لها، وذلك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باق قطعاً، فيكون التخصيص قاصراً على ما سواه، فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنه ممّا خرج بالتخصيص مع أنه لا يجوز إخراجه قطعاً للإجماع المذكور.

قال الغزالي في المستصفي: (ولذلك يشير إلى امتناع إخراج السبب بحكم التخصيص بالإجتهد) غلط أبوحنيفة رحمه الله في إخراج الأمة المستفرشة من قوله عليه الصلاة

والسلام: [الوَلَدُ لِلْفِرَاشِ] والخبر إنما في وليدة زَمْعَةَ إذ قال عبد الله بن زمعة: هو أخى وابن وليدة أبى وُلِدَ على فراشه. فقال عليه الصلاة والسلام: [الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ] فأثبت للأمة فراشاً، وأبوحنيفة لم يبلغه السبب فأخرج الأمة من العموم.

الفائدة السادسة:

معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين حتى لا يشتبه بغيره فَيَتَّهَمُ البرىء ويُبرَأُ المُريب، ولهذا [رَدَّتْ عَائِشَةُ عَلَى مِرْوَانَ حِينَ اتَّهَمَ أَخَاهَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ بِأَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ آيَةٌ: «وَالَّذِي قَالَ لِيَا لِدِينِهِ أُمُومٌ كَمَا...»] وقالت: والله ما هوبه ولو شئتُ أن أُسميه لَسَمَّيْتُهُ...].

الفائدة السابعة:

تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحي في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سبب نزولها وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص، والأزمنة والأمكنة كُلُّ أولئك من دواعي تَقَرُّرِ الأشياء، وانتقاشها في الذهن، وهذه فوائد عظيمة نص عليها الأئمة في كتبهم.

* ((طريق معرفة سبب النزول)) *

لا طريق لذلك إلا النقلُ الصحيح إذ لا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسمع مِمَّنْ شاهدوا التنزيلَ لِلْوَعِيدِ فِي ذَلِكَ، وعلى هذا فإذا رُوي سبب النزول عن صحابي فهو مقبول، وإن لم يُعزَّزْ برواية أخرى تُقَوِّيه إذ قول الصحابي فيما لا مجال للإجتهاد فيه، فهو في حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قال ذلك برأيه، أو من تلقاء نفسه، فخير الصحابي لا مستند له إلاَّ السماع والنقل، أو المشاهدة والرؤية.

أما إذا رُوي سبب النزول بحديث مرسل، أي سقط من سنده الصحابي، وانتهى إلى التابعي، فحكمه أنه لا يقبل إلاَّ إذا صحَّ واعتضدَّ بمرسل آخر، وكان الراوي له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة، كمجاهدٍ وعكرمةٍ وسعيد بن جبير.

* ((التعبير عن سبب النزول)) *

قال الزرقاني: تختلف عبارات القوم في التعبير عن سبب النزول، فتارة يُصرَّح فيها بلفظ السبب فيقال: (سبب نزول الآية كذا وكذا)، وهذه العبارة نصٌّ في السببية لا تحتمل غيرها، وتارة لا يُصرَّح بلفظ السبب، ولكن يُؤقِّ بقاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرِّد حادثة، وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببية أيضاً.

قال: مثل ما أخرجه مسلم عن جابر قال: [كانت اليهود تقول: (من أتى امرأة من دُبرها (في قُبْلِها) جاء الولد أخوَن) فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «نَسَاؤُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأْتُوا حَرَثَكُمْ أَتَى شِئْتُمْ وَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنْكُمْ مَلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»] وما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال: [أنزلت: «نَسَاؤُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ» في إتيان النساء في أدبارهن أى على الكيفية التي تقدّمت. وقال الزرقاني: ومرة يُسأل الرّسول فيُوحى إليه ويُجيب بما نزل عليه ولا يكون تعبيراً بلفظ سبب النزول. ولا تعبيراً بتلك الفاء ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام كرواية ابن مسعود عندما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح فقال: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...» قال: وحكم هذه أيضاً حكم ما هونصّ في السببية ومرة أخرى لا يصرح بلفظ السبب ولا يؤقِّ بتلك الفاء، ولا بذلك الجواب المبني على السؤال بل يُقال: نزلت هذه الآية في كذا (مثلاً)، وهذه العبارة ليست نصّاً في السببية، بل تحتملها وتحتمل أمراً آخر هو بيان ما تضمّنته الآية من الأحكام، والقرائن وحدها هي التي تُعيّن أحد هذين الاحتمالين أو تُرجحه. ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان في موضوع واحد، إحداها نصٌّ في السببية لنزول آية أو آيات، والثانية ليست نصّاً في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات، هنالك نأخذ في السببية بما هونصّ، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية لأنّ النصّ أقوى في الدلالة من المحتمل.

* ((تعدّد الأسباب والنازل واحد)) *

إذا وردت روايتان في نازل واحد من القرآن، وكانت كلّ رواية منها ذكرت سبباً صريحاً غير ما ذكرته الأخرى. فهنا ينظر فيها، فإمّا أن تكون إحداها صحيحة والأخرى غير صحيحة، وإمّا أن تكون كلتاها صحيحة ولكن لأحدهما مرجّح دون الأخرى،

وإمّا أن تكون كلتاها صحيحة ولا مرجح لإحداها على الأخرى، ولكن يمكن الأخذ بها معاً. وإمّا أن تكون كلتاها صحيحة ولا مرجح، ولا يمكن الأخذ بها معاً، فتلك صور أربع لكل منها حكم خاص نسوقه إليك.

الصورة الأولى :

وهي ما صحت فيه إحدى الروایتين دون الأخرى، فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب، وردّ الأخرى غير الصحيحة، مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جُنْدُبٍ | قال: [اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين، فأنته امرأة فقالت: (ياعمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك) فأنزل الله: «**وَالصُّحْحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**»] وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها، وكانت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أَنَّ جَرَوْأَ دَخَلَ بَيْتَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ تَحْتَ السَّرِيرِ فَاتَى، فَكَثَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ لَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَقَالَ: يَا خَوْلَةَ مَا حَدَّثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ جَبْرِيْلُ لَا يَأْتِينِي! فَقُلْتُ فِي نَفْسِي، لَوْ هَيَأَتِ الْبَيْتَ وَكُنْتُ فِيهِ فَأَهْوَيْتُ بِالْمِكَتَسَةِ تَحْتَ السَّرِيرِ فَأَخْرَجَتِ الْجَرَوْ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَعْدُ حَيْثُهُ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ أَخَذَتْهُ الرَّعْدَةُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «**وَالصُّحْحَىٰ**» إلى قوله فترضى] قال الزرقاني: فنحن بين هاتين الروایتين نُقدّم الرواية الأولى في بيان السبب لصحتها دون الثانية لأن في إسنادهما من لا يُعرف. قال ابن حجر: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة. لكن كونها سبب نزل الآية غريب. وفي إسناده من لا يُعرف. فالمعتمد ما في الصحيح.

وأما الصورة الثانية :

وهي صحة الروایتين كليهما وإحداها مُرَجَّحٌ — فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالرّاجحة دون المرجوحة. والمرجح أن تكون إحداها أصح من الأخرى، أو أن يكون راوى إحداها مشاهداً للقصة دون راوى الأخرى. مثال ذلك: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: [كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب، فمرّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدّثنا عن الرّوح، فقام ساعة ورفع رأسه فعرفت أنّه يُوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: «**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ**

رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»] وما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قال: [قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسألُ هذا الرجل، فقالوا أسألوه عن الروح فسألوه فأنزل الله: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ» الآية] فهذا الخبر الثاني يدل على أنها بمكة، وأن سبب نزولها سؤال قريش إيَّاه، أما الأول فصريح أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إيَّاه. وهو أرجح من وجهين:

أحدهما: أنه رواية البخاري. (أمَّا الثاني) فإنه رواية الترمذي. ومن المقرر أن مارواه البخاري أصح مما رواه غيره.

ثانيها: أن راوى الخبر الأول وهو ابن مسعود كان مشاهداً للقصة من أولها إلى آخرها كما تدل على ذلك الرواية الأولى، بخلاف الخبر الثاني فإن راوية ابن عباس، لا تدلُّ على أنه كان حاضر القصة، ولا ريب أن للمشاهدة قوَّة في التَّحَمُّل وفي الأداء وفي الاستيثاق لغير المشاهدة، ومن هنا أعملنا الرواية الأولى، وأهملنا الثانية.

وأما الصورة الثالثة:

وهي ما استوت فيه الروايتان في الصحة ولا مرجح لأحدهما لكن يمكن الجمع بأن كلاهما من السببين حصل. ونزلت الآية عقب حصولهما معاً لتقارب زمنيتهما - فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب لأنه الظاهر، ولا مانع يمنعُه قال ابن حجر: [لا مانع من تعدد الأسباب] وقد مثل لذلك بما أخرجه البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس: [أن هلال بن أمية كذب امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سَمْحَاء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (الْبَيْتَةُ أَوْحَدٌ فِي ظَهْرِكَ) فقال يا رسول الله: إذا وجدنا مع امرأته رجلاً ينطلقُ يلتمسُ البَيْتَةَ - وفي رواية أنه قال: والذي بعثك بالحق نبياً إني لصادقٌ ولِيُنزِلَنَّ اللهُ تعالى ما يُبْرِي ظهري من الحدِّ، فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه: «وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ...» حتى بلغ «إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ» وأخرج الشيخان (واللفظ للبخاري) عن سهل بن سعد: [أن عُومراً أتى عاصمَ بِنِ عَدِيٍّ - وكان سيد بنى عجلان - فقال: كيف تقولون في رجلٍ وجدَّ مع امرأته رجلاً أَيْقَلْتُهُ فَتَقْتُلُونَهُ، أم كيف يصنع؟ سل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فأتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: (في رواية مسلم) فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم: فكره رسول الله صلى الله

عليه وسلم المسائل وَعَابَهَا، فقال عُوَيْمَرُ: والله لا أنتهى حتّى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فجاءه عُوَيْمَرُ فقال يا رسول الله: رجلٌ وَجَدَ مع امرأته رجلاً أيقنته فتقتلونه، أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتيك، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنة بما سمى الله في كتابه فلاعتها] فهاتان الروايتان صحيحتان، ولا مرجح لأحدهما على الأخرى. ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما لقرب زمانيهما على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بن أمية، ثم قفاه عُوَيْمَرُ قبل إجابته، فسأل بواسطة عاصم مرة، وبنفسه مرة أخرى، فأنزل الله الآية إجابة للحدثين معاً. ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع أولى من إعمال احدهما وإهمال الأخرى، إذ لا مانع يمتنع الأخذ بها على ذلك الوجه، ثم لا جائز أن نردّها معاً لأنها صحيحتان، ولا تعارض بينهما، ولا جائز أيضاً أن نأخذ بواحدة ونردّ الأخرى لأن ذلك ترجيح بلا مرجح، فتعيّن المصير إلى أن نأخذ بها معاً، وإليه جنح النووى وسبقه إليه الخطيب. فقال: (لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد).

وأما الصورة الرابعة :

وهى استواء الروايتين في الصحة دون مرجح لأحدهما، ودون إمكان للأخذ بها معاً لبعده الزمان بين الأسباب — فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروايتان، أو تلك الروايات — لأنه إعمال لكل رواية. ولا مانع منه. قال الزركشى في البرهان: وقد ينزل الشىء تعظيماً لشأنه، وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه. وقد مثل لذلك الزرقاني بما أخرجه البيهقي والبخاري عن أبي هريرة [أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف على حمزة حين استشهد وقد مثل به فقال: (لَأُمَثِّلَنَّ بسبعين منهم مكانك) فنزل جبريل — والنبي صلى الله عليه وسلم واقف — بخواتم سورة النحل: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ» إلى آخر السورة، وهن ثلاث آيات. وأخرج الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال: [لَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ أُصِيبَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَرْبَعَةٌ وَسِتُّونَ، وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ سِتَّةٌ مِنْهُمْ حَمْزَةُ، فَمَتَّلُوا بِهِ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: لَشُنْ أُصِيبْنَا مِنْهُمْ يَوْمًا مِثْلَ هَذَا لَتَرْبِيبَنَّ (أي لنزيدن) عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ...» الآية.

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد، والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة على حين أن بين غزوة أحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين، فبَعُدَ أن يكون نزول الآية كان مرّة واحدة عقبها معاً. وإذن لا مناص لنا من القول بتعدد نزولها. مرّة في أحد ومرّة يوم الفتح.

* ((تعدد النازل والسبب واحد)) *

قد يكون الأمر الواحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعدّدة: على عكس ما سبق. ولا مانع من ذلك عقلاً ولا شرعاً، لأنه لا ينافي الحكمة في اقناع الناس، وهداية الخلق، وبيان الحق عند الحاجة بل إنه قد يكون أبلغ في الاقناع وأظهر في البيان.

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان ما أخرجه ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظلّ شجرة فقال: (إنّه سيأتيكم إنسانٌ ينظرُ إليكم بعيني شيطانٍ فإذا جاء فلا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع رجلٌ أزرق العينين، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: علام تشمئني أنت وأصحابك؟ فانطلق الرجلُ فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله: «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُو بِمَأْلَمٍ يَنَالُونَ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالوا: فأنزل الله: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَخْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ» استخوذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ»

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذي [عن أم سلمة أنها قالت: يا رسول الله: لا أسمعُ الله ذَكَرَ النَّسَاءَ فِي الْهَجْرَةِ بِشَيْءٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى تَعْصُمَكُمْ مِنْ بَعْضِ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُدْأُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقَاتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

والله عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ» * وأخرج الحاكم أيضاً عنها أنها قالت: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: تَذَكَّرُ الرَّجَالَ وَلَا تَذَكَّرُ النِّسَاءَ فَأَنْزَلَتْ: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ» وَأَنْزَلَتْ: «أَنْسَى لَا أَضِيْعُ عَمَلٍ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى» * وأخرج الحاكم أيضاً أنها قالت: تَغْزُو الرِّجَالَ وَلَا تَغْزُو النِّسَاءَ. وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفَ المِيرَاثِ، فَأَنْزَلَ اللهُ: «وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ» وَأَنْزَلَ: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ».

* ((القول في أول ما نزل من القرآن الكريم)) *

ورد في ذلك أقوال أربعة :

القول الأول :

وهو أصحها، أنه صدرُ سورة «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» إلى قوله تعالى: «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» وهو قول ابن عباس ومجاهد كما ذكره صاحب الكشاف (جـ ٤ ص ٢٧٠) وذكر أن أكثر المفسرين على أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب كذا قال * والذي ذهب أكثر الأئمة إليه هو الأول وأما الذي نسبته إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول * ودليل القول الأول.

أولاً : روى البخاري ومسلم (واللفظ للبخاري) عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: [أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصَّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ (وهو التبعُد) اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِنَدْوَى، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ مِثْلَهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ، وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلِكُ فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ» اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ...» * وفي بعض الروايات حتى بلغ «مَا لَمْ يَعْلَمْ» فرجع بها إلى خديجة يَرْجُفُ فَوَاذُهَا... الحديث... [رواه البخاري عن يحيى بن بكير ومسلم عن محمد بن رافع كلاهما عن عبدالرزاق.

ثانياً : وصحح الحاكم في مستدركه، والبيهقي في دلائله عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: [أَوَّلُ سُورَةٍ نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»].

ثالثاً : وصحح الطبراني في الكبير بسنده عن رجاء العطاردي قال: [كَانَ أَبُو مُوسَى يَقْرِئُنَا فَيُجْلِسُنَا حِلَقًا، وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ أَبْيَضَانِ، فَإِذَا تَلَا هَذِهِ السُّورَةَ: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»] قال: هذه أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم].

القول الثاني :

أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ إِطْلَاقًا «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» قَالَ أَبُو سَلْمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فَقَدْ سُئِلَ عَنْ أَيِّ الْقُرْآنِ أَنْزَلَ قَبْلُ؟ قَالَ: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» (قلت) أَيُّ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ: أَوْ «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ»؟ قَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ. أَيُّ الْقُرْآنِ أَنْزَلَ قَبْلُ؟ قَالَ: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» قَالَ: قلت: أَوْ «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ»؟ قَالَ جَابِرٌ: أَحَدَثَكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [إِنِّي جَاوَرْتُ بَحْرَاءَ شَهْرًا فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي نَزَلَتْ فَاسْتَبَطَنْتُ بَطْنَ الْوَادِي، فَنَوْدِيْتُ فَنظَرْتُ أَمَامِي وَخَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي. ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا هُوَ عَلَى الْعَرْشِ فِي الْهَوَاءِ — وَفِي رِوَايَةٍ عَلَى عَرْشٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ — يَعْنِي جَبْرِيْلَ، فَأَخَذَتْنِي رَجْفَةً فَاتَيْتُ خَدِيجَةَ فَأَمَرْتُهُمْ فَدَثَرُونِي، ثُمَّ صَبَوْا عَلَيَّ الْمَاءَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ»] رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ زَهْرَبْنِ حَرْبٍ عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنِ الْأَوْزَعِيِّ * وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُدَّثِرَ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ اقْرَأْ لِأَنَّ جَابِرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِصَّةَ الْأَخِيرَةَ، وَلَمْ يَسْمَعْ أَوْلَهَا وَهِيَ الَّتِي فِي غَارِ حِرَاءَ، فَتَوَهَّمُ أَنَّ سُورَةَ الْمُدَّثِرِ أَوَّلَ مَا نَزَلَ بِدَلِيلِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْ غَارِ حِرَاءَ، وَبَعْدَ فِتْرَةِ الْوَحْيِ قَالَ: [فَبَيْنَمَا أَنَا أُمَشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجَثَّثْتُ مِنْهُ رُغْبًا فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ زَمَلُونِي زَمَلُونِي، فَدَثَرُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ: «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ كَانَتْ بَعْدَ نَزُولِ «اقْرَأْ» قلت: وَجِئْتُ عَلَى وَزْنِ فَرِحْتُ، مَعْنَاهُ ثَقُلَ جِسْمِي عَنِ الْقِيَامِ، وَسَبَبُهُ فِرْعَ الرَّسُولِ وَخَوْفُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

القول الثالث :

أن أول ما نزل هو سورة الفاتحة، وقد استدل أصحابه بحديث مرسل سقط من سنده الصحابي، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق في بدء الوحي. وهو مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ورواه الشيخان، إذن قبطل هذا القول الثالث كما بطل القول الثاني، وثبت الأول. والله أعلم.

القول الرابع :

أن أول ما نزل هو «بسم الله الرحمن الرحيم»، واستدل قائلوه بما أخرجه الواحدى بسنده عن عكرمة والحسن قالا: [أول ما نزل من القرآن «بسم الله الرحمن الرحيم» وأول سورة «اقرأ»] وهذا الاستدلال مردود لسببين: إحداهما: أن الحديث مرسل فلا يناهض المرفوع الثاني أن البسمة كانت تنزل دائماً صدرأ لكل سورة إلا ما استثنى في سورة براءة. إذن فهي نازلة مع ما نزل من صدر سورة اقرأ فلا يستقيم اعتبار الأولية في نزولها قولاً مستقلاً برأسه.

* ((القول في آخر ما نزل من القرآن الكريم)) *

كثرت أقوال العلماء واختلفت في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، واستند كل منهم إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وأصحها مايلي:

١ - آخر آية نزلت: «يَسْتَفْتُونَكَ فُلِ اللَّهِ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ..» الآية. قال البخاري في كتاب التفسير: حدّثنا سليمان بنُ حَرْبٍ حدّثنا شعبة عن أبي اسحاق، سمعت البراء رضي الله تعالى عنه قال: [آخر سُورَةٍ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ وَآخِرَ آيَةٍ نَزَلَتْ يَسْتَفْتُونَكَ..] * وأخرجه مسلم في الفرائض عن أبي موسى وبندار، وأخرجه أبو داود فيه عن مسلم بن إبراهيم، وأخرجه النسائي فيها عن بندار وغيره * قلت: وذكر البخاري في باب: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ» حدّثنا قَبِيصَةُ بِنُ عَقْبَةَ حدّثنا سفيان عن عاصم عن الشَّعْبِيِّ عن ابن عباس رضي الله عنها قال: [آخر آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةُ الرَّبَا] وروى عن ابن عباس أيضاً من وجه آخر أن آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ» [أخرجه الطبري من طُرُقٍ عَنْهُ * قلت: ولعل البخاري أراد أن يجمع بين قولي ابن عباس فبوّب بها إشارة

إليها، فافهم هذا* ولفظ الطبرى: كان من آخر ما نزل من القرآن آيات الربا* هذا منقطع، لأنه مروى عن الشعبي عن عمر رضي الله تعالى عنه، والشعبي لم يلق عمر.

٢ - قوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ» منقول عن ابن عباس رضي الله عنها، وهو قول الضحاک أيضاً كما في تفسير عبد بن حميد عن الضحاک. آخر آية نزلت «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ»* وفي رواية أبي صالح عنه نزلت بمكة، وتوفى النبي صلى الله عليه وسلم بعدها بأحد وثمانين يوماً* وقيل: نزلت يوم النحر بمنى في حجة الوداع* وفي تفسير ابن أبي حاتم من حديث ابن لهيعة. حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبیر قال: [عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية الكريمة تسع ليال]* وعند مقاتل سبع ليال، وهي آخر آية نزلت* وعند القرطبي ثلاث ليال* وقيل: ثلاث ساعات، وقال صلى الله عليه وسلم: [اجعلوها بين آية الربا وآية الدين]* وقيل: إنّه صلى الله عليه وسلم عاش بعدها أحد وعشرين يوماً* (فإن قلت) ما التوفيق بين قولي ابن عباس رضي الله تعالى عنها؟ قلت: طريق الجمع بينها أنّ هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الربا، لأنها معطوفة عليها فتدخل في حكمها. (فإن قلت) روى عن البراء أنّ آخر آية نزلت: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ» كما تقدّم في القول الأول فما الجمع بينهما؟ قلت: قيل بأن الآيتين نزلتا جميعاً، فيصدق أن كلاً منها آخر بالنسبة لما عداها وفيه تأمل* قلت: إن الآخرة أمر نسبي كالأولوية فلا يخفى صدق الآخرة على شيء بالنسبة إلى ما قبله. وكذا يُجاب عما قال ابى بن كعب رضي الله عنه: آخر آية نزلت: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ...» الآية وهو القول الثالث. رواه الحاکم أبو عبد الله في صحيحه عن الأصم بن بكار بن قتيبة عن أبي عامر العقدي عن شعبة.

وفي بقية الأقوال قال القاضي أبو بكر في الانتصار: (هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكلُّ قال بضرب من الإجهاد وغلبة الظن، ويحتمل أنّ كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيره سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو* قلت: وكأنه يشير إلى الجمع بين هذه الأقوال المتشعبة وهي:

القول الأول : أن آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» أخرجه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس.

القول الثاني : أن آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين» أخرجه البخاري عن ابن عباس والبيهقي عن ابن عمر.

القول الثالث : أن آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه» إلى قوله سبحانه «والله بكل شيء عليم».

القول الرابع : أن آخر القرآن نزولاً قول الله تعالى في سورة آل عمران: «فاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ» إلى آخرها.

القول الخامس : أنه آية: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا».

القول السادس : أن آخر آية نزلت: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ».

القول السابع : «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» إلى آخر السورة.

القول الثامن : آخر ما نزل سورة المائدة.

القول التاسع : آخر سورة الكهف: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا».

القول العاشر : آخر ما نزل هو سورة: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» رواه

مسلم عن ابن عباس قال الزرقاني في مناهل العرفان: ولكنك تستطيع أن تحمل هذا الخبر على أن هذه السورة آخر ما نزل مشعراً بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم ويؤيده ما روى من أنه صلى الله عليه وسلم قال: [حين نزلت: (نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي)] وكذلك فهم بعض كبار الصحابة كما ورد أن عمر رضي الله عنه بكى حين سمعها وقال: [الكمال دليل النزول] وبمحتمل أيضاً أنها آخر ما نزل من السور فقط، ويدل عليه رواية ابن عباس: [آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ»].

* ((اليوم الذي أنزل فيه القرآن)) *

هو يوم الإثنين، سئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَرَأَيْتَ صَوْمَ يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ؟ قال: [فيه أنزل على القرآن] * وأول شهر أنزل فيه القرآن شهر رمضان. قال الله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» * وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نَزَلَتْ صُحُفٌ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنزِلَتِ التَّوْرَةُ لَسْتُ مَضِينٍ مِنْ رَمَضَانَ وَأُنزِلَ الْإِنْجِيلُ لثَلَاثِ عَشْرَةَ حَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ. وَأُنزِلَ الزَّبُورُ لثَمَانَ عَشْرَةَ حَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ. وَأُنزِلَ الْقُرْآنُ لِأَرْبَعَةِ وَعِشْرِينَ حَلَّتْ مِنْ رَمَضَانَ].

* ((بيان ما نزل بمكة وبالمدينة)) *

قال الإمام علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف بالخازن في تفسيره (ج ١ ص ٨):

واعلم أنَّ الله تعالى أنزل القرآن المجيد من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى سماء الدنيا في شهر رمضان في ليلة القدر، ثم كان ينزله مفرقاً على لسان جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُدَّةَ رسالته نجوماً عند الحاجة، وحدث ما يحدث على ما شاء الله تعالى. وترتيب نزول القرآن غير ترتيبه في التلاوة والمصحف. فأما ترتيب نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأول ما نزل من القرآن بمكة: اقرأ باسم ربك الذي خلق * ثم نون والقلم * ثم يا أيها المزمل * ثم المدثر * ثم تبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ * ثم إذا الشمس كورت * ثم سبح اسم ربك الأعلى * ثم والليل إذا يعشى * ثم والفجر * ثم والضحى * ثم ألم نشرح * ثم والعصر * ثم والعاديات * ثم إنا أعطيناك الكوثر * ثم الهاكم التكاثر * ثم أَرَأَيْتَ الَّذِي * ثم قل يا أيها الكافرون * ثم الفيل * ثم قل هو الله أحد * ثم والنجم * ثم عبس * ثم سورة القدر * ثم سورة البروج * ثم التين * ثم لإيلاف قريش * ثم القارعة * ثم القيامة * ثم الهمة * ثم المرسلات * ثم ق * ثم سورة البلد * ثم الطارق * ثم اقتربت الساعة * ثم ص * ثم الأعراف * ثم الجن * ثم يس * ثم الفرقان * ثم فاطر * ثم مريم * ثم طه * ثم الواقعة * ثم الشعراء * ثم النمل * ثم القصص * ثم سورة بنى إسرائيل * ثم يونس * ثم هود * ثم يوسف * ثم الحجر * ثم الأنعام * ثم والصفات * ثم لقمان * ثم سبأ * ثم الزمر * ثم المؤمن * ثم السجدة * ثم حم عسق

* ثُمَّ الزخرف * ثُمَّ الدخان * ثُمَّ الجاثية * ثُمَّ الأحقاف * ثُمَّ الذاريات * ثُمَّ الغاشية *
 * ثُمَّ الكهف * ثُمَّ التحل * ثُمَّ نوح * ثُمَّ ابراهيم * ثُمَّ الأنبياء * ثُمَّ قد أفلح المؤمنون *
 * ثُمَّ تنزيل السجدة * ثُمَّ الطور * ثُمَّ الملك * ثُمَّ الحاقة * ثُمَّ سأل سائل * ثُمَّ عم يتساءلون *
 * ثُمَّ النازعات * ثُمَّ إذا السماء انفطرت * ثُمَّ إذا السماء انشقت * ثُمَّ الروم * ثُمَّ العنكبوت .
 قال الخازن : واختلفوا في آخر ما نزل بمكة : فقال ابن عباس : العنكبوت . وقال
 الضحاك وعطاء : المؤمنون . وقال مجاهد : ويل للمطففين : فهذا ترتيب ما نزل من القرآن
 بمكة فذلك ثلاث وثمانون سورة على ما استقرت عليه روايات الثقات .

وأما ما نزل بالمدينة فأحد وثلاثون سورة، فأول ما نزل بها سورة البقرة * ثُمَّ الأنفال *
 * ثُمَّ آل عمران * ثُمَّ الأحزاب * ثُمَّ الممتحنة * ثُمَّ النساء * ثُمَّ إذا زلزلت الأرض * ثُمَّ
 الحديد * ثُمَّ سورة محمد صلى الله عليه وسلم * ثُمَّ الرعد * ثُمَّ سورة الرحمن * ثُمَّ هل أتى على
 الإنسان * ثُمَّ الطلاق * ثُمَّ لم يكن * ثُمَّ الحشر * ثُمَّ الفلق * ثُمَّ الناس * ثُمَّ إذا جاء نصر
 الله والفتح * ثُمَّ النور * ثُمَّ الحج * ثُمَّ إذا جاءك المنافقون * ثُمَّ المجادلة * ثُمَّ الحجرات * ثُمَّ
 التحريم * ثُمَّ الصف * ثُمَّ الجمعة * ثُمَّ التغابن * ثُمَّ الفتح * ثُمَّ التوبة * ثُمَّ المائدة . قال
 الخازن : ومنهم من يقدم المائدة على التوبة . فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بالمدينة .
 واختلفوا في الشورى، فقيل نزلت بمكة وقيل نزلت بالمدينة * (من الخازن وغيره) .

* ((القول في التسمية)) *

«بسم الله الرحمن الرحيم»

أدب حسن أدب الله به نبيّه الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام بتعليمه تقديم ذكر
 اسمائه الحسنی أمام جميع أفعاله، وجعل ذلك سنة حسنة يستن بها المسلمون، وسبيلاً
 يتبعونه عليها في افتتاح أوائل منطقتهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت
 دلالة ما ظهر من قول القائل «بسم الله الرحمن الرحيم» على ما بطن من مراده فالتالي
 للقرآن الكريم يفتتح : «بسم الله الرحمن الرحيم» أي أبدأ (بسم الله) أو (بسم الله) أبدأ
 أو أقرأ، وعند النهوض إلى القيام أنهض قائماً (بسم الله) أو (بسم الله) أنهض قائماً . وكذا
 عند قعوده وسائر أفعاله يُبني عن مراده . وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنها فيما رواه
 أبو روق عن الضحاك عنه [قال : إنَّ أوَّل ما نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه

وسلم قال: يا محمد قل أستعيذُ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم. قال: قال له جبريلُ: قل بسم الله يا محمد. يقول اقرأ بذكر الله ربك، وقم واقعد بذكر الله].

وقد اختلف العلماء في كون البسملة من الفاتحة وغيرها من السور سوى سورة براءة أم لا، فذهب الشافعي وجماعة من العلماء إلى أنها آية من الفاتحة، ومن كل سورة ذكرت في أولها سوى براءة وهو قول ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة وسعيد بن جبيرة وعطاء وابن المبارك وأحمد في إحدى الروايتين عنه، ويدل على ما ذهب إليه هؤلاء الأعلام:

١ - إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة سوى سورة براءة مع الأمر بتجريد القرآن من كل ما ليس منه، ومن ثم لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة.

٢ - أخرج مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أنه قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنزلت عليّ آناً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم)] وروى أبو داود والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف انقضاء السورة حتى ينزل عليه «بسم الله الرحمن الرحيم» وروى الدارقطني عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إذا قرأتم الحمد لله فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرآن والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها].

٣ - أجمع المسلمون على أن ما بين الدفتين كلام الله تعالى. والبسملة بينها فوجب جعلها منه، وهم أدلة كثيرة غير ما ذكرت.

وذهب الأوزاعي ومالك وأبو حنيفة إلى أن البسملة ليست بآية من الفاتحة. زاد أبو داود: ولا من غيرها من السور، وإنما هي بعض آية في سورة النمل، وإنما كتبت للفصل والتبرك. قال مالك: ولا يستفتح بها في الصلاة المفروضة.

وللشافعي قول أنها ليست من أوائل السور مع القطع بأنها من الفاتحة، وحجة من منع كون البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها:

١ - حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح

الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين.

٢ - وأن أول ما نزل به جبريل اقرأ بسم ربك الذي خلق، ولم يذكر البسملة في أولها

فدكَّ على أنها ليست منها.

٣ — وأن محل القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والاستفاضة، ولأن الصحابة أجمعوا على عدد كثير من السور منها سورة الملك ثلاثون آية، وسورة الكوثر ثلاث آيات، وسورة الإخلاص أربع آيات، فلو كانت البسمة منها لكانت خمساً.

ويرجح ما ذهب إليه أصحاب القول الأول بما أخرج مسلم في إفراده عن أنس قال: [بَيَّنَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم يَبَيِّنُ أظْهَرْنَا إِذْ غَفَا غَفْوَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مَبْتَسِمًا فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (أَنْزَلْتُ عَلَيَّ آتِفًا سُورَةَ فَقَرَأْتُ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنْ أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ.»)] الحديث.

من أجل هذا الحديث قال البيهقي: هذا أحسن ما احتج به أصحابنا في أن بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن، وأنها من فواتح السور سوى براءة. ما روينا في جمع الصحابة كتاب الله عز وجل في المصاحف، وأنهم كتبوا فيها «بسم الله الرحمن الرحيم» على رأس كل سورة سوى سورة براءة، فكيف يتوهم متوهم أنهم كتبوا فيها مائة وثلاث عشرة آية ليست من القرآن؟ وقد علمنا بالروايات الصحيحة عن ابن عباس أنه كان يعدُّ «بسم الله الرحمن الرحيم» آية من الفاتحة وروى الشافعي بسنده عن ابن عمر أنه كان لا يدع «بسم الله الرحمن الرحيم» لام القرآن، والسورة التي بعدها، زاد غيره عنه: أنه كان يقول: لَمَّا كُتِبَتْ فِي الْمَصْحَفِ لِمَ لَمْ تُقْرَأْ! وروى الشافعي عن ابن عباس أنه كان يفعلُه ويقول انتزع الشيطان منهم خير آية في القرآن وفي أفراد البخاري من حديث أنس أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ [قال: كانت مَدًّا. ثُمَّ قَرَأَ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» يَدُّ اللَّهُ، وَيَدُّ الرَّحْمَنَ، وَيَدُّ الرَّحِيمَ] فقد ثبت بهذه الأدلة الصحيحة الواضحة أن البسمة من الفاتحة، ومن كل موضع ذكرت فيه وانظر في هذا الشأن تفسير الخازن (ج ١ ص ١٣) وتفسير المراغي (ج ١ ص ٢٦) وتفسير الطبري (ج ١ ص ٣٨) وتفسير الكشاف للزمخشري (ج ١ ص ٢٤) وفيه عن ابن عباس: [من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى] والظاهر ثلاث عشرة لخلو براءة عن التسمية. أو أنه كان يعتقد بوجود التسمية في براءة، أو أنه أضاف إليها التي في النحل في قوله تعالى: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» والله أعلم.

(٣٠)
النحل

* ((القول في سورة الفاتحة)) *

ذهب أكثر العلماء إلى أنها مكية، ومن أوائل ما نزل من القرآن لما روى البيهقي في دلائله بسنده عن أبي ميسرة: عمر بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: **[[إني إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداءً فقد والله خشيتُ على نفسي أن يكون هذا أمراً]]** قالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعلَ بك، إنك لتؤذى الأمانة وتصلُ الرَّحِمَ، وتصدق [الحديث، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: إذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصا عليه فقال: **[[إذا خلوتُ وحدي سمعتُ نداءً خلقي يا مُحَمَّدُ يا مُحَمَّدُ، فأنطلقُ هارباً في الأفق]]** فقال: لا تفعل إذا أتاك فائتبت حتى تسمع ما يقول، ثم اثنتي فأخبرني، فلما خلا ناداه يا مُحَمَّدُ قل: **«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»** حتى بلغ **«وَلَا الضَّالِّينَ»** * وهذا دليل على أنها مكية، ومن أوائل ما نزل من القرآن، إلا أنه لا يصلح للاحتجاج به على أولية ما نزل مطلقاً وذلك من وجهين:

الوجه الأول :

أنه لا يفهم من هذه الرواية أن الفاتحة التي سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في فجر النبوة: أولُ عهده بالوحي الجلي وهو في غار حراء. بل يفهم منها أن الفاتحة كان نزولها بعد ذلك العهد، وبعد أن أتى الرسول إلى ورقة. وذلك بعد نزول سورة (اقرأ) في غار حراء.

الوجه الثاني :

أن الحديث مرسل سقط من سنده الصحابي، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة في بدء الوحي، وهو مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم * وليس كلامنا فيه هنا إنما كلامنا هنا في إثبات أن الفاتحة مكية. وهو منقول عن ابن عباس قال: **[[قام النبيُّ صلى الله عليه وسلم بمكة فقال: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الحمد لله رب العالمين»** فقالت قريش: رض الله فاك * وقاله الحسن وقتادة.

وقال مجاهد: إن الفاتحة مدنية. وعدّها الحسن بن الفضل من هفوات مجاهد * فقال: لكل عالم هفوة، وهذه بادرة من مجاهد لأنه تفرّد في هذا القول. وللتفرّد مقال * وقطعاً أن الفاتحة مكية لقوله تعالى: **«وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **[[والذي نفسى بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته]]** وهذه

الآية من سورة الحجر، وهي مكية بلا خلاف، والمقصود بالسبع المثاني: الفاتحة، فدل على ما قلناه. والله أعلم.

**** (القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:)****

« الم * ذلك الكتاب... »

قال الواحدي في أسباب النزول: (ص ١٢) أخبرنا أبو عثمان الزعفراني قال: أخبرنا أبو عمر بن مطر قال: أخبرنا جعفر بن محمد بن الليث قال أخبرنا أبو حذيفة قال: حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: أربع آيات من أول هذه السورة — أي البقرة — نزلت في المؤمنين — أي قوله تعالى: «الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *» قال: وآيتان بعدها نزلتا في الكافرين — أي: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» قال: وثلاث عشرة بعدها نزلت في المتأففين. أي من قوله تعالى: «وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ *» إلى قوله تعالى: «يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ

لَهُمْ مَشَوْفِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» صدق الله العظيم * ولكن قال الضحاك في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...» الآية نزلت في أبي جهل، وخمسة من أهل بيته * وقال الكلبي: يعني اليهود. (من الواحدى ص ١٣) * وفي القرطبي (١): وقال ابن عباس والكلبي: نزلت في رؤساء اليهود: منهم حَيَّيُّ بن أخطب وكعب ابن الأشرف ونظراؤهما * وقال الربيع بن أنس نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب. وصحح القرطبي ما قاله ابن عباس والكلبي.

وفي الطبري (٢) (ج ١ ص ٨٤) وكان ابن عباس يرى أن هذه الآية نزلت في اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم توبيخاً لهم في جحودهم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم به مع علمهم به ومعرفتهم بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وإلى الناس كافة * قال أبو جعفر: وروى عن ابن عباس في تأويل ذلك قول آخر وهو ما حدثنا به المثنى بن إبراهيم قال: حدثنا عبد الله بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - في - قوله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره جل ثناؤه أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول * قال أبو جعفر وأولى هذه التأويلات تأويل ابن عباس رضي الله عنها وسيأتيك المزيد من الإيضاح فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الحزرجي الأندلسي. المفسر العالم العابد العارف المتوفي في التاسع من شوال سنة ٦٧١هـ.

(٢) هو إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠هـ.

* ((تفسير الآيات)) *

« أَلَمْ » قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال: هي مما استأثر الله بعلمه: فردوا علمها إلى الله تعالى حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين. وقاله أيضاً عامر الشعبي وسفيان الثوري والربيع بن خيثم. واختاره أبو حاتم بن حبان * ومنهم من فسرها * واختلف هؤلاء في معناها * فقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هي أسماء للسورة قال أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره الكشاف (ج ١ ص ٨٣): وعليه إطباق الأكثر * ونُقِلَ عن سيبويه أنه نص عليه. ويعتضد لهذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة [أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة أَلَمْ * السجدة. وهل أتى على الإنسان] * وقال سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: أَلَمْ * وحَم * وأَلَمْص * وص. فواتح افتتح الله بها القرآن.

قلت: والقول الذي ترتاح إليه النفس أن حروف الهجاء في أوائل السور هي من المتشابه الذي استأثره الله بعلمه. وهي سرُّ الله في القرآن. فنحن نؤمن بظواهرها ونكل العلم فيها إلى الله تعالى. وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها * قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: [في كل كتاب سرُّ وسرُّ الله في القرآن أوائل السور] * وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: [إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي] * وأورد على هذا القول بأنه لا يجوز أن يخاطب الله عباده بما لا يعلمون * وأجيب عنه: بأنه يجوز أن يكلف الله عباده بما لا يعقل معناه كرمي الجمار فإنه مما لا يعقل معناه. والحكمة فيه هو كمال الإنقياد والطاعة، فكذلك هذه الحروف يجب الإيمان بها ولا يلزم البحث عنها.

وقال آخرون من أهل العلم: هي معروفة المعاني. ثم اختلفوا فيها فقيل: كل حرف منها مفتاح اسم من أسماء الله تعالى. فالألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد * وقيل الألف آلاء الله. واللام لُطْفُهُ. والميم ملكه. ويؤيد هذا أن العرب تذكر حرفاً تريد كلها، قال الراجز:

قُلْتُ لَهَا قِفِي فَقَالَتْ قَافٍ لَا تَحْسَبِي أَنَا نَسِينَا الْإِيجَافِ

قولها قاف أي وقفتُ، فاكتفت بجزء الكلمة. عن كلها. والإيجاف الإسراع في السير * قال ابن عباس: [الْم. أنا الله أعلم] * وقيل: هي أسماء مقطعة لو علم الناس

تأليفها لعلوا اسم الله الأعظم. ألا ترى أنك تقول: الر، وحـم، ون، فيكون مجموعها الرحمن وكذلك سائرهما ولكن لم يتيها تأليفها جميعاً وقال ابن عباس: [هي أقسام فقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها. لأنها مباني كتبه المنزلة، وأسمائه الحسنی، وصفاته العلیا، وإنما اقتصر على بعضها. وإن كان المراد كلها. فهو كما تقول: قرأت الحَمْدَ لله. وترید أنك قرأت السورة بكاملها. فكأنه تعالى أقسم بهذه الحروف أن هذا الكتاب هو الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ.

وقيل إنَّ الله تعالى لما تحدّاهم بقوله: «فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ» وفي آية بعشر سور مثله فمعجزوا عنه. أنزل هذه الأحرف. ومعناه أن القرآن ليس هو إلا من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها فكان يجب أن تأتوا بمثله، فلمّا عجزتم عنه دلّ ذلك على أنه من عند الله لا من عند البشره^(١) وقيل: إنهم لمّا عرضوا عن سماع القرآن، وأراد الله صلاح بعضهم أنزل هذه الأحرف. فكانوا إذا سمعوها قالوا: كالمتعجبين اسمعوا إلى ما يجيء به محمد فإذا أصفوا إليه وسمعوه، رسخ في قلوبهم، فكان ذلك سبباً لإيمانهم. وقيل: إن الله تعالى حير عقول الخلق في ابتداء خطابه ليعلموا أن لا سبيل لأحد إلى معرفة خطابه إلا باعترافهم بالعجز عن معرفة كنه حقيقة خطابه.

واعلم أن مجموع الأحرف المنزل في أوائل السور. أربعة عشر حرفاً في تسع وعشرين سورة. وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون. وهي نصف حروف المعجم [الخازن (ج ١ ص ١٩)]. قوله تعالى: «ذَلِكَ الْكِتَابُ» أي هذا الكتاب هو القرآن. وقيل: فيه إضمار. والمعنى هذا الكتاب الذي وعدتك به، وكان الله قد وعد نبيّه صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء، ولا يخلق على كثرة الرّد، فلما نزل القرآن قال هذا: ذلك الكتاب الذي وعدتُك به. وقيل: إن الله وعد بنى إسرائيل أن ينزل كتاباً ويرسل رسولاً من ولد إسماعيل، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبها من اليهود خلق كثير أنزل الله تعالى هذه الآية: «الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ» أي هذا الكتاب الذي وعدتُ به على لسان موسى أن أنزله على النبيّ الذي هو من ولد إسماعيل * «ذَلِكَ»

(١) انظر تفسير الخازن (ج ١ ص ١٩) وتفسير ابن كثير (ج ١ ص ٣٦) وتفسير الطبري (ج ١ ص ٧٢)

والكشاف (ج ١ ص ٧٦) وتفسير المراغي (ج ١ ص ٣٩)

بمعنى هذا قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن جبير وغيرهم والكتاب: مصدر بمعنى المكتوب. وهو النقوش والرقوم الدالة على المعاني. والمراد به الكتاب المعروف الذي سَمَّاهُ اللهُ قرآناً، وأنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للتعبد بتلاوته، والعمل بأحكامه، وللإعجاز بسورة منه. وفي أبي السعود: «ذَلِكَ الْكِتَابُ» ذا اسم إشارة، واللام عماد جيء به للدلالة على بُعد المشار إليه، والكاف للخطاب. والمشار إليه هو المستمى، فإنه منزَّل منزلة المشاهد بالحسِّ البصرى. وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيدان بعلو شأنه، وكونه في الغاية القاصية من الفضل، والشرف إثر تنويهه بذكر اسمه. أي هذا بيان لحاله في نفس الأمر، وأنه قريب لحضوره. وهذا لا ينافي بعده رتبةً «لَا رَيْبَ فِيهِ» الريب: الشك مع تهمة وحقيقته على ما قاله الزمخشري في الكشاف (ج ١ ص ١١٣) «قلق النفس، واضطرابها. ومنه الحديث: دع ما يريبك: أي ذاهباً إلى ما يطمئن به قلبك، فإن كون الشيء في نفسه مشكوكاً فيه غير صحيح مما تعلق له النفس الزكية وتضطرب معه. وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له، أي إذا وجدت نفسك مضطربة في أمر فدعه، وإذا وجدت ما مطمئن فيه فاستمسك به لأن اضطراب قلب المؤمن في شيء علامة كونه باطلاً محلاً لأن يشك فيه، وطمأنينته فيه علامة كونه حقاً وصدقاً» أي لا شك فيه أنه من عند الله، وأنه الحق والصدق. وقيل هو خبر بمعنى النهي. أي لا ترتابوا فيه. وفي الخازن: فإن قلت قد ارتاب فيه قوم فما معنى لا ريب فيه؟ قلت: معناه أنه في نفسه حق وصدق فمن حقق النظر عرف حقيقة ذلك.

والمعنى: إن هذا الكتاب لا يعتريه ريب في كونه من عند الله، ولا في هدايته وإرشاده، ولا في أسلوبه وبلاغته، فلا يستطيع أحد أن يأتي بكلام يقرب منه بلاغة وفصاحة — وإلى هذا أشار بقوله: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأنتوا بسورة من مثله» وارتباب كثير من الناس فيه إنما نشأ عن جهل بحقيقته، أو عن عمى بصيرتهم، أو عن التعتت عناداً واستكباراً، واتباعاً للهوى، أو تقليداً لسواهم. كذا ذكره المراعى في تفسيره (ج ١ ص ٤٠).

«هُدًى لِلْمُتَّقِينَ» الهدى عبارة عن الدلالة وقيل: دلالة بلطف، وقيل: الهداية: الإرشاد والمعنى: هو هدى للمتقين إلى الصراط المستقيم، مع المعونة والتوفيق للعمل بأحكامه، إذ هم قد اقتبسوا من أنواره، وجنوا من ثماره، وهو لغيرهم هدى، ودلالة على الخير، وإن لم يأخذوا بهديه، وينتفعوا بإرشاده، وكون بعض الناس لم يهتدوا بهديه لا

يخرجه عن كونه هُدى، فالشَّمْسُ وإن لم يرها الأعمى، والعسل عسلٌ وإن لم يجد طعمه ذو المِيرةً والمتقى: اسم فاعل من وقاه فاتقى، والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف * وقيل: التقوى في عرف الشرع حفظ النفس مما يؤثم، وذلك بترك المحظور، وبعض المباحات * قال ابن عباس رضي الله عنهما: [المتقى من يتقى الشرك والكبائر والفواحش] * وهو مأخوذ من الإِتقَاء، وأصله الحجز بين الشَّيئين، يقال اتقى بترسه إذا جعله حاجزاً بينه وبين ما يقصده * وفي الحديث: [كنا إذا اشتد البأس اتقىنا برسول الله صلى الله عليه وسلم] * معناه: إنا كنا إذا اشتد الحربُ جعلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجزاً بيننا وبين العدو، فكأنَّ المتقى يجعل امثال أوامر الله واجتناب نواهيه حاجزاً بينه وبين النار * وقيل: المتقى هو من لا يرى نفسه خيراً من أحد * وقيل التقوى ترك ما حرم الله وأداء ما افترض * وقيل: التقوى ترك الإصرار على المعصية وترك الإغترار بالطاعة * وقيل التقوى: أن لا يراك مولاك حيث نهاك * وقيل: التقوى الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه * وفي الحديث: [جماع التقوى في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»] * . . * وخص المتقين بالذكر تشريفاً لهم، لأن مقام التقوى مقام شريف عزيز، ولأنهم هم المنتفعون بالهداية، ولو لم يكن للمتقين فضل إلا قوله تعالى: «هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ» لكفاهم * قال الخازن: فإن قلت كيف قال هدى للمتقين، والمتقون هم المهتدون؟ قلت: هو كقولك للعزيز الكريم: أعزك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة له إلى ما هو ثابت فيه كقوله تعالى: «أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» * أي أن المتقين في هذه الآية هم الذين سمَّت نفوسهم فأصابت ضرباً من الهداية، واستعداداً لتلقى نور الحق، والسعى في مرضاة الله بقدر ما يتصل إليه إدراكهم و يبلغ إليه اجتهادهم، ولأنهم اتقوا الشرك وبرؤا من النفاق، وركوب الفواحش التي حرمها الله جل ثناؤه * روى الترمذي وابن ماجه من رواية أبي عقيل عبدالله بن عقيل عن عبدالله بن يزيد، عن ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس، عن عطية السعدى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس] ثم قال الترمذي حسنٌ غريب * وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبدالله بن عمران، عن إسحاق بن سليمان، يعنى الرازى، عن المغيرة بن مسلم عن ميمون أبي حمزة قال: كنتُ جالساً عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له: أبو عفيف من أصحاب معاذ، فقال له شقيقُ بن سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدثنا عن معاذ

بن جبل؟ قال: بلى. سمعته يقول: يُحبسُ النَّاسُ يومَ القيامةِ في بقيعٍ واحدٍ، فينادى منادُ أينَ المَتَّقُونَ؟ فيقومون في كَتَفِ مَنْ الرَّحْمَنُ لا يَحْتَجِبُ اللهُ مِنْهُمْ ولا يَسْتَرُ، قُلْتُ: مَنْ المَتَّقُونَ؟ قال قوم اتقوا الشركَ وعبادةَ الأوثان وأخلصوا لله العبادةَ فيمروُن إلى الجنةِ. (انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٠) والطبري (ج ١ ص ٧٧) والحازن (ج ١ ص ٢١) والمراغى (ج ١ ص ٤٠) والكشاف (ج ١ ص ١١٦) والفتوحات الإلهية لعمر العجيل الشافعي الشهير بالجمل (ج ١ ص ١١).

«الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» أي الذين يصدقون قاله ابن عباس: فقد فسر الإيمان بالتصديق * وقال الربيع: يؤمنون: يخشون * ومعنى الإيمان عند العرب التصديق فيدعى المصدق بالشيء قولاً مؤمناً به كما تقول: أنا مؤمنٌ بقولك أي مصدق بقولك، وعليه قول الله تعالى: «وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ» يعني: وما أنت بمصدق لنا في قولنا، وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل * والإيمان في لسان الشرع: عبارة عن التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالأركان، ويصدقُه قوله عليه الصلاة والسلام: [ليس الإيمانُ بالتمنُّى ولا بالتحلِّي ولكنَّ ما وقَّرباً لِقَلْبٍ وصدَّقَهُ العملُ] * وإذا فسر الإيمان بما ذكرتُ في لسان الشرع. فإنه يزيد وينقص، وهو مذهب أهل السنة من أهل الحديث وغيرهم. وعلى الأول لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق لا يتجزأ حتى يتصور كماله مرةً ونقصانه أخرى، وفائدة هذا الخلاف تظهر في مسألة، وهي أن المصدق بقلبه إذا لم يجمع إلى تصديقه العمل بموجب الإيمان من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك من أركان الدين، هل يُسمَى مؤمناً أم لا؟ فيه خلاف. والمختار عند أهل السنة لا يُسمَى مؤمناً لقوله عليه الصلاة والسلام: [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن] فنفي عنه اسم الإيمان، أو كمال الإيمان * وأنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصانه. وقالوا متى قبل الزيادة والنقص كان ذلك شكاً وكفراً.

وقال المحققون من متكلمي أهل السنة: أن نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص. والإيمان الشرعى يزيد وينقص بزيادة الأعمال ونقصانها * قال الحازن: وهذا أمكن الجمع بين ظواهر نصوص الكتاب والسنة التي جاءت بزيادة الإيمان ونقصانه، وبين أصله من اللغة * وقال بعض المحققين: إن نفس التصديق قد يزيد وينقص بكثرة النظر في الأدلة والبراهين، وقلة إمعان النظر في ذلك، ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى وأثبت من إيمان غيرهم، لأنهم لا تعترهم شبهة في إيمانهم ولا تُزلزل، وأما غيرهم من آحاد الناس

فليس كذلك إذ لا يشك عاقل أن نفس تصديق أبي بكر رضي الله عنه لا يساويه تصديق غيره من آحاد الأمة. والدليل على أن الأعمال من الإيمان ما روى عن أبي هريرة قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإيمان بضع وسبعون شعبةً أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبةً من الإيمان] أخرجاه في الصحيحين.

(البِضْعُ) بكسر الباء ما بين الثلاثة إلى العشرة، (والشعبة) القطعة من الشيء. (وإماطة الأذى عن الطريق) هو عزل الحجر والشوك ونحو ذلك عنه. (والحياء) بالمد: هو انقباض النفس عن فعل القبائح، وإنما جعل الحياء من الإيمان، وهو اكتساب لأن المستحي ينزجر باستحيائه عن المعاصي، فصار من الإيمان.

قوله تعالى: «بِالْغَيْبِ» (الغيب) هنا مصدر وضع موضع الاسم. فليل للغائب غيب. وهو ما كان مغيباً عن العيون. قال ابن عباس: الغيب هنا كل ما أمرت بالإيمان به ممّا غاب عن بصرك من الملائكة والبعث والجنّة والتار والصراف والميزان. وقال عبدالرحمن بن يزيد عند عبدالله بن مسعود، فذكرنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به: فقال عبدالله بن مسعود: إن أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان بيننا لمن رآه، والذي لا إله غيره: ما آمن أحد قط أفضل من إيمان غيب، ثم قرأ: «الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ» إلى قوله: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» وقال قتادة: في قوله تعالى: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» اقال: آمنوا بالجنّة والتار، والبعث بعد الموت، وبيوم القيامة وكل هذا غيب. وقال الربيع بن أنس: الذين يؤمنون بالغيب، آمنوا بالله وملائكته ورسوله واليوم الآخر وحنّته وناره ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت فهذا كله غيب. «وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» يقيمون الصلاة: أي يداومون عليها في مواقيتها بمحدودها وإتمام أركانها، وحفظها من أن يقع فيها خلل في فرائضها، وسنها وآدابها، يقال قام بالأمر، وأقام الأمر إذا أتى به معطى حقوقه، والمراد به الصلوات الخمس. والصلاة في اللغة: الدعاء والرحمة، ومنه قوله تعالى: «وَصَلِّ عَلَيْهِمْ» أي أدع لهم، وأصله من صليت العود إذا ليّنته. فكأن المصلّي يلين ويخشع. وفي الشرع: اسم لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسجود وقعود ودعاء مع النية. قال ابن عباس: «وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ» أي يقيمون الصلاة بفروضها. وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها وركوعها وسجودها. وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على

مواقبتها وإسباغ الطهور بها، وتام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فهذا إقامتها. (الخازن ج ١ ص ٢٣) و(ابن كثير ج ١ ص ٤٢) و(الطبري ج ١ ص ٨٠) وقال: وأرى أن الصلاة المفروضة سُميت صلاة لأن المصلّي متعرّض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربّه فيها من حاجاته، تعرّض الداعي بدعائه ربّه استنجاح حاجاته وسؤله. ولما للصلاة من خطري تهذيب النفوس والسّموم بها إلى الملكوت الأعلى أبان الله تعالى عظيم آثارها بقوله: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» وجعلها النبي صلى الله عليه وسلم عماد الدّين فقال: [الصلاة عماد الدّين والزكاة قنطرة الإسلام] وقد أمر الله بإقامتها بقوله: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ»، وبالمحافظة عليها وإدامتها بقوله: «الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ» وبأدائها في أوقاتها بقوله: «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا»، وبأدائها في جماعة بقوله: «وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ» وبالخشوع فيها بقوله: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» قوله تعالى: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» الرزق في اللغة العطاء، ثم شاع استعماله فيما ينتفع به الحيوان، وجمهرة المسلمين على أن كل ما يُنتفع به حلالاً كان أو حراماً فهو رزق، وخصه جماعة بالحلال فقط، كما هو مذهب القدرية، ولذا قال الزمخشري في الكشاف (ج ١ ص ١٣٢): أضاف الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم إنما ينفقون من الحلال الطلق... الخ وقد ردّ عليه الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنير الإسكندري المالكي في كتاب (الإنصاف فيما تضمّنه الكشاف من الاعتزال) بقوله: فهذه بدعة قدرية، فإنهم يرون أن الله تعالى لا يرزق إلا الحلال، وأمّا الحرام فالعبد يرزقه لنفسه، حتى يقسموا الأرزاق قسمين: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائه، وإذا أثبتوا خالقاً غير الله فلا يأنفون عن إثبات رازق غيره، أمّا أهل السنّة فلا خالق ولا رازق في عقدهم إلا الله سبحانه تصديقاً بقوله تعالى: «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتَى تُؤْفِكُونَ»، أيها القدرية وقولُه (يُنْفِقُونَ) أي يخرجون ويتصدّقون في طاعة الله تعالى وسبيله، ويدخل فيه الإنفاق الواجب كالزكاة والنذر والإنفاق على النفس، وعلى من تجب نفقته عليه، والإنفاق في الجهاد إذا وجب عليه، والإنفاق في المندوب. وهو صدقة التطوع، ومواساة الفقراء، وهذه كلها مما يُمدح بها. وأصل «مِمَّا» من ما. ومن للتبعض فأدخلها على الإنفاق صيانة لهم وكفّاً عن السرف والتبذير المنهى عنها في الإنفاق.

وفي الطبرى عن الضحاك في قوله: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» قال: كانت النفقات قربات يتقرَّبون بها إلى الله تعالى على قدر ميسورهم وجهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات في سورة براءة مما يذكر فيهنَّ الصدقات، هنَّ المثبتات التاسخات * وفيه عن ابن مسعود. وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» هي نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة * والأولى أن تكون الآية عامة في الصدقات الواجبة والمندوبة لورود النفقة بصيغة المضارع دلالة على دوام استمرارها في كل وقت الحصاد وفي كل عام، في الأموال الزكوية، وفي النفقات الواجبة، والمندوبة، وهو اختيار ابن جرير الطبرى فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدين - زكاةً كانت ذلك أو نفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال، وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك، لأن الله تعالى عمَّ وصفهم ومدحهم بذلك، وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه * وقال ابن كثير تعقيباً على الطبرى بقوله: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حقُّ الله تعالى وعبادته، وهي مشتملة على توحيدهِ والثناء عليه وتمجيده والابتهاج إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنعف المتعدى إليهم، وأولى الناس بذلك القربات والأهلون والماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» * وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» أي يصدقون بالقرآن المنزل عليك، وبالكتب المنزلة على الأنبياء من قبل كالتوراة والإنجيل والزبور وصُحف الأنبياء كلها فيجب الإيمان بذلك كله * قال ابن عباس: «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» أي يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم ولا يحدون ما جاؤهم به من ربه * وفي الطبرى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب * ونقله السدى في تفسيره عن ابن عباس، وابن مسعود وأناس من الصحابة، واختاره ابن جرير رحمه الله * ويُسْتَشْهَدُ لما قاله بقوله تعالى: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ» الآية وبقوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يَتلى عَلَيْهِمْ

قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أَوْلَيْكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ
مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ» * وبما ثبت في
الصحيحين من حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى أَنَّ رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال: [ثَلَاثَةٌ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِى .
وَرَجُلٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ اللَّهِ، وَحَقَّ مَوَالِيهِ . وَرَجُلٌ أَدَّبَ جَارِيَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، ثُمَّ أُعْتَقَهَا
وَتَزَوَّجَهَا] * وقوله تعالى: «**وَبِالْآخِرَةِ**» يعنى: وبالدار الآخرة. سُمِّيتْ آخِرَةٌ لِتَأْخِرُهَا عَنِ
الدنيا وكونها بعدها * قال أبو جعفر: أمَّا الآخرة فإنها صفة للدار كما قال جلَّ ثناؤه «**وَإِنَّ**
الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» وإنما وصفت بذلك لمصيرها آخرة لأولى
كانت قبلها كما تقول للرجل أنعمتُ عليك مرَّةً بعدَ أخرى فلم تشكرلى الأولى ولا
الآخرة، وإنما صارت الآخرة آخرة للأولى لتقدم الأولى أمامها فكذلك الآخرة سُمِّيتْ
آخرةً لِتَقْدَمَ الدار الأولى أمامها، فصارت التالية لها آخرةً. قال: وقد يجوز أن تكون
سُمِّيتْ آخرةً لِتَأْخِرُهَا عَنِ الْخَلْقِ كما سُمِّيتِ الدنيا دنيا لدونها من الخلق * وقوله تعالى:
«**هُمُ يُوقِفُونَ**» من الإيقان واليقين: هو التصديق الجازم الذي لا شبهة فيه ولا تردد،
ويعرف اليقين بالله واليوم الآخر بآثاره في الأعمال، فمن يشهد الزور، أو يشرب الخمر،
أو يأكل حقوق الناس يكن إيمانه بها خيالاً يلوح في الذهن لا إيماناً يقوم على اليقين.
والمعنى أنهم يستيقنون ويعلمون علم اليقين أنها كائنة * وفي الطبرى عن ابن عباس:
وبالآخرة هم يُوقنون. أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان. أي لا هؤلاء
الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك، ويكفرون بما جاءك من ربك * قال أبو جعفر
الطبرى: وهذا التأويل من ابن عباس. قد صرَّحَ عن أن السورة من أولها وإن كانت
الآيات التي في أولها من نعم المؤمنين تعريض من الله عز وجل بدم الكفار أهل الكتاب
الذين يزعمون أنهم بما جاءت به رسل الله عز وجل الذين كانوا قبل محمد صلوات الله
وسلامه عليهم وعليه مصدقون. وهم بمحمد عليه السلام مكذبون، ولما جاء به من
التوحيد جاحدون. ويدعون مع جحودهم ذلك أنهم مهتدون، وأنه لن يدخل الجنة إلا من
كانَ هوداً أو نصارى. فأكذب الله جلَّ ثناؤه ذلك من قبلهم بقوله: «**أَلَمْ** * **ذَلِكَ**
الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِفُونَ» وأخبر جلَّ ثناؤه عباده أنَّ هذا الكتاب هدى لأهل الإيمان

بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به المصدقين بما أنزل إليه، وإلى من قبله من رسله من البينات والهدى خاصةً دون من كذب بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به. وادّعى أنه مصدق بن قبل محمد عليه السلام من الرسل. وبما جاء به من الكتب، ثم أكد جلاً ثناؤه أمر المؤمنين من العرب، ومن أهل الكتاب المصدقين بمحمد عليه السلام، وبما أنزل إليه، وإلى من قبله من الرسل بقوله: «**أُولَئِكَ عَلَيَّ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**» أولئك: أي الذين هذه صفتهم «**عَلَيَّ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ**» أي على رشاد ونور من ربهم، وقيل على استقامة «**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**» أي الناجحون الفائزون. نجوا من النار. وفازوا بالجنة. والمفلح الظافر بالمطلوب أي الذي انفتحت له وجوه الظفر، ولم تستغلق عليه. وعن ابن عباس: «**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**» أي الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا. وفي تفسير ابن كثير (ج ١ ص ٤٤) وقد نقل عن مجاهد وأبي العالية والربيع بن أنس، وقتادة رحمهم الله. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصري. حدثنا أبي حدثنا ابن لهيعة، حدثني عبيد الله بن المغيرة عن أبي الهيثم — واسمه سليمان بن عبدالله عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له يا رسول الله: إنا نقرأ من القرآن فرجوا، ونقرأ من القرآن فنكاد أن نياس، أو كما قال؟ قال: [أفلاً أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**ألم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**» إلى قوله تعالى: «**المفلحون**» هؤلاء أهل الجنة. قالوا إنا نرجو أن نكون هؤلاء. ثم قال: «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ**» إلى قوله: «**عظيم**» هؤلاء أهل النار. قالوا لسنأهم يا رسول الله؟ قال: أجل.] وقوله تعالى: «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**» تقدم معنا أن الله عز وجل صدر هذه السورة بأربع آيات أنزلها في المؤمنين. وبآيتين أنزلها في الكافرين. وبثلاث عشرة آية أنزلها في المنافقين. فأما التي في الكفار فقوله تعالى: «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**» أي جحدوا وأنكروا، وأصل الكفر في اللغة الستر والتغطية، ومنه سمى الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته. قال الشاعر: في ليلة كفر النجوم غمّامها. (أي سترها) وقال الخازن في تفسيره (ج ١ ص ٢٤) والكفر على أربعة أضرب. كفر إنكار: وهو أن لا يعرف الله أصلاً ككفر فرعون وهو قوله: «**مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**» وكفر جحود: وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ككفر إبليس. وكفر عناد: وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقر بلسانه ولا يدين به ككفر أمية بن أبي الصلت وأبي طالب حيث يقول في شعره:

ولقد عَلِمْتُ بأنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ من خَيْرِ أديانِ البرَّةِ دينا
لَوْلَا الملامَةُ أو حذارِ مَسَبَّةٍ لوجدتَنِي سَمحاً بِذاك مبينا
وكفر نفاق: وهو أن يقرَّ بلسانه ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه فجميع هذه الأنواع كفره
وحاصله أن من جحد الله، أو أنكر وحدانيته، أو أنكر شيئاً ممَّا أنزله على رسوله. أو أنكر
نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. أو أحداً من الرسل فهو كافر. فإن مات على ذلك فهو في
النار خالداً فيها، ولا مفرَّلةً.

وقال الخازن: نزلت في مشركى العرب وقيل في اليهوده والمعنى «إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا» أي غطوا الحقَّ وستره بما كتب عليهم في الأزل أنهم «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ»
أي سواء عليهم إنذارك وعدمه «أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» بما جنَّتهم به، كما قال تعالى:
«إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَبْرُوا
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» وقال تعالى في حق المعاندين من أهل الكتاب: «وَلَكِنْ آيَّتِ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ» الآية قال ابن كثير في التفسير (ج ١
ص ٤٥): أي إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ومن أضله فلا هادي له، فلا
تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلغهم الرسالة، فن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن
تولى فلا تحزن عليهم ولا يهتك ذلك: «فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ * إِنَّمَا
أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله
تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» قال:
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص أن يؤمن جميع النَّاسِ ويُتابعوه على الهدى
فأخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضلُّ
إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول. وبذا يعلم أنَّ هذه الآية في أقوام حَقَّتْ
عليهم كلمة العذاب في سابق علم الله الأزلَى أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. ثم ذكر سبب تركهم
الإيمان: فقال تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ» أي طبع الله عليها، فلا تعى خيراً ولا
تفهمه، وأصل الختم التغطية، وحقيقته الاستيثاق من الشيء لكي لا يخرج منه ما حصل
فيه، ولا يدخله ما خرج منه، ومنه ختم الكتاب. قال أهل السنة: ختم الله على قلوبهم
بالكفر لما سبق في علمه الأزلَى فيهم، وإنما خص القلب بالختم لأنه محل الفهم والعلم.
«وَعَلَى سَمْعِهِمْ» أي وختم على موضع سمعهم، فلا يسمعون الحقَّ ولا ينتفعون به لأنها
تعبُّه وتنبؤ عن الاصغاء إليه كأنها مستوثق منها بالختم أيضاً وذكر السمع بلفظ التوحيد،

ومعناه الجمع، قيل إنما وحد السمع لأنه مصدر والمصدر لا يُثنى ولا يجمع * «وَعَلَى
أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ» الغشاوة: الغطاء، ومنه غاشية السَّرح. أي وجعل على أبصارهم
غشاوة، فلا يرون الحق، وهى غطاء التعامى عن آيات الله ودلائل توحيده * «وَأَلْهَمَ
عَذَابٌ عَظِيمٌ» يعنى في الآخرة. وقيل الأسر والقتل في الدنيا. والعذاب الدائم في
العقبى، وحقيقة العذاب هو كل ما يؤلم الإنسان و يُعيبه و يُشقُّ عليه * وقيل: هو الإجماع
الشديد * وقيل: هو ما يمنع الإنسان من مراده، ومنه الماء العذب لأنه يمنع العطش،
والعظيم ضد الحقير. (ذكره الخازن في تفسيره ج ١ ص ٢٥) * وقال السدى: ختم الله:
أي طبع الله * وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، فختم الله على
قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى، ولا يسمعون ولا
يفقهون ولا يعقلون * وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أنَّ القلب في مثل
هذه، يعنى الكف، فإذا أذنب العبد ذنباً ضم منه، وقال بإصبعه الخنصر هكذا، فإذا
أذنب ضم، وقال بإصبع أخرى، فإذا أذنب ضم، وقال بإصبع أخرى هكذا حتى ضم
أصابعه كلها، ثم قال: يطبع بطابع * قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أنَّ الله عز وجل قد
وصف نفسه بالخنم والطبع على قلوب الكافرين مجازة لكفرهم كما قال: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ
عَلَيْهَا كُفْرَهُمْ».

وفي الطبري قال مجاهد: بُنِيتُ أَنَّ الذنوب على القلب تُحَفُّ به من نواحيه حتى تلتقى
عليه، فالتقاؤها عليه. الطبع والطبع الختم * وفيه عن الربيع بن أنس قال: هاتان الآيتان
إلى «وَأَلْهَمَ عَذَابٌ عَظِيمٌ» هُمُ الَّذِينَ بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار، وهم
الذين قُتِلوا يوم بدر، فلم يدخل من القادة أحدٌ في الإسلام إلا رجلاً من أوسفيان بن حرب
وأحكم بن أبي العاص * وَمِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ» إلى
قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول،
ومعتب بن قشير، وَجَدُّ بن قيس وأصحابهم، وذلك أنهم أظهروا كلمة الإسلام لِيَسْتَمُوا بها
من النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وَأَسْرُوا الكفر واعتقدوه، وأكثرهم من اليهود *
وفي الخازن: وصفة المنافق. أن يعترف بلسانه بالإيمان و يُقرُّ به، وينكره بقلبه، ويصبح
على حال ويمسى على غيرها * وقد علمت أن الله سبحانه وتعالى افتتح سورة البقرة بذكر
الذين أحلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم أَلْسِنَتُهُمْ، ووافق سرهم علمهم، وفعلهم
قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً قلوباً وألسنةً، ثم ثلث بالذين آمنوا

بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وبطنوا خلاف ما أظهروا، وهم الذين قال فيهم: «مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ» وسمّاهم المنافقين، وكانوا أحبب الكفرة، وأبغضهم إليه، وأمقتهم عنده لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتديليساً. وبالشرك استهزاءً وخداعاً. ولذلك أنزل فيهم: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم وفضحهم وسفهمهم واستجهلهم. واستهزأ بهم وتهكم بفعلهم، وسجّل بطغيانهم وعمههم. ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة. والناس : جمع إنسان سُمي به لأنه عُهدَ إليه فنسى قال الشاعر: وَسُمِّيَتْ إِنْسَانًا لِأَنَّكَ نَاسِيٌ وَقِيلَ: سَمِيَ إِنْسَانًا لِأَنَّهُ يَسْتَأْنِسُ بِمَثَلِهِ. (الكشاف ج ١ ص ١٦٥) والمرامى (ج ١ ص ٤٨) والخازن (ج ١ ص ٢٥) وفي الطبري (ج ١ ص ٩٠) * وأجمع أهل التأويل على أنَّ الآية نزلت في قوم من أهل النفاق. وأن هذه الصفة صفتهم * وروى عن ابن عباس: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» يعنى المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم * وعن قتادة في قوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» حتى بلغ: «فَمَا رَیَحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» قال: هذه في المنافقين * وعن مجاهد قال: هذه الآية إلى ثلاث عشرة في نعت المنافقين * وعن ابن جريج في قوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ...» الآية قال: هذا المنافق يخالف قوله فعله. وسرُّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه * قال الطبري: وتأويل ذلك أنَّ الله جلَّ ثناؤه لما جمع لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أمره في دار هجرته، واستقرَّ بها قراره، وأظهر الله بها كلمته، وفشا في دور أهلها الإسلام، قهر بها المسلمون من فيها من أهل الشرك من عبدة الأوثان، وذلك بها من فيها من أهل الكتاب أظهر أحرار يهودها لرسول الله صلى الله عليه وسلم الضغائن، وأبدوا له العداوة والشنآن حسداً وبغياً، إلا نفرأ منهم هداهم الله للإسلام فأسلموا كما قال جل ثناؤه: «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» وطابقتهم سرّاً على معادة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وبغيتهم الغوائل قوم من أراھط الأنصار الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه، كانوا قد عتوا في شركهم وجاهليتهم قد سُموا لنا بأسمائهم كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم، وركوناً إلى اليهود لما هم عليه من الشرك، وسوء البصيرة

بالإسلام، فكانوا إذا لقوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان به من أصحابه، قالوا لهم: حذراً على أنفسهم إنا مؤمنون بالله وبرسوله وبالبعث، وأعطوهم بالسنتهم كلمة الحق ليدرؤا عن أنفسهم حكم الله فيمن اعتقد ما هم عليه، مقيمون من الشرك لو أظهروا بالسنتهم ما هم معتقدوه من شركهم، وإذا لقوا إخوانهم من اليهود وأهل الشرك والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به فَخَلَوْا بهم قالوا: «إنا معكم إنما نحن مستهزؤن» فإياهم عنى جلَّ ذكره بقوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» نفي عنهم الإيمان بالكلية. أي وما هم بداخلين في عداد المؤمنين الصادقين الذي يشعرون بعظيم سلطان الله، ويعلمون أنه مطلع على سرهم ونجواهم، إذ هم كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات ظناً منهم أن ذلك يرضى ربه، ثم هم بعد ذلك منغمسون في الشرور والمآثم من كذب وغش ومراء ومخاتلة وخيانة وطمع إلى غير ذلك من صفاتهم البشعة التي نقلها عنهم الرواة «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا» أي يخالفون الله. والخديعة: الحيلة والمكر، وأصله في اللغة: الإخفاء. والمخادع يظهر ضد ما يضمر ليتخلص، فهو بمنزلة المنافق. ويقال: خدع الضبُّ إذا توارى في جحره، وضبُّ خادع إذا أوهم حارسه الإقبال عليه، ثم خرج من باب آخر. والخدع هنا من جانب المنافقين لله والمؤمنين، والتعبير بصيغة المخادعة للدلالة على المبالغة في حصول الفعل وهو الخدع، أو للدلالة على حصوله مرة بعد أخرى، وخداعهم للمؤمنين بإظهار الإيمان، وإخفاء الكفر للإطلاع على أسرارهم، وإذاعتها إلى أعدائهم من المشركين واليهود، والله خادعهم أي يظهر لهم نعيم الدنيا ويُعجِّله لهم بخلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة، والمخادعة هنا عبارة عن فعل الواحد، والله تعالى منزّه عن أن يكون منه خداع. وإنما ذكر الله نفسه وأراد به رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك تفخيم لأمره وتعظيم لشأنه. وقيل: أراد به المؤمنين، وإذا خادعوا المؤمنين فكأنهم خادعوا الله تعالى، وذلك أنهم ظنوا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لم يعلموا حالهم، ولتجرى عليهم أحكام الإسلام في الظاهر، وهم على خلافه في الباطن، وبذا يعلم أن الخداع مذموم إلا أنه يكون حسناً إذا كان الغرض منه استدراج الغير من الضلال إلى الرشد حُسْبَةً لله تعالى ومن ذلك استدراجات التنزيل ولطائفه على لسان الرسل في دعوة الأمم، كذا ما معناه في تفسير الكرخي قاله الطيبي. وقوله تعالى: «وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ» أي ضرر عملهم لاحق

بهم، فهم يَغْرُونَ أنفسهم بالأكاذيب والرياء ويلقونها في مهاوى الهلاك والردى،
 وسيجازيهم على ذلك ويعاقبهم عليه، فلا يكونون في الحقيقة إلا خادعين أنفسهم ﴿وَمَا
 يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم غير شاعرين بذلك، والشعورُ
 إدراك الشيء من وجه يدق ويختفي. مشتق من الشَّعْر لدقته وقيل: هو الإدراك بالحاسة.
 مشتق من الشَّعَار، وهو ثوب يلي الجسد، ومنه مشاعر الإنسان؟ أي حواسه الخمس التي
 يشعربها. وقد نفى الله عزَّ وجلَّ الشعور عنهم في مخادعتهم لله، لأنهم لم يحاسبوا أنفسهم على
 أقوالهم، ولم يراقبوه في أفعالهم، ولم يفكروا فيما يرضيه، بل جروا في ريائهم على ما ألفوا،
 وتعودوا فهم يعملون عمل المخادعين. وما يشعرون. فإذا عرض لهم زاجر من الدين يحول
 بينهم وبين ما يشتهون وجدوا لهم من المعاذير ما يسهل أمره، إما بأمل في المغفرة، أو
 تحريف في أوامر الكتاب، لما رسخ في نفوسهم من عقائد الزيغ التي يُسَمِّونها إيماناً، وهم
 في الحقيقة مخدوعون، وعن الصراط السويِّ ناكبون. ذكره المراغي في تفسيره (ج ١
 ص ٥٠) ﴿وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هذه الجملة مقررة لما يفيدته قوله: ﴿وَمَا
 هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ من استمرار عدم إيمانهم، أو تعليل له كأنه قيل: ما لهم لا يؤمنون؟ فقيل:
 فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَمْنَعُهُ. والمرض حقيقة فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال اللائق
 به. ويوجب الخلل في أفعاله، وقد يؤدي إلى الموت. استعير هنا لما في قلوبهم من الجهل
 وسوء العقيدة، وعداوة النبي صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك من فنون الكفر المؤدية إلى
 الهلاك الروحاني، والآية تحتملها، فإن قلوبهم كانت متألة تحرقاً على ما فاتهم من
 الرياسة، وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول واستعلاء شأنه يوماً فيوماً، والتشكُّر
 ﴿مَرَضٌ﴾ للدلالة على كونه نوعاً مبهماً غير ما يتعارفه النَّاس من الأمراض. نقله الْجَمَلُ
 من البيضاوي وأبي السعود (ج ١ ص ١٧) وقال الجلال: مَرَضٌ . شَكٌّ ونفاقٌ فهو
 يمرض قلوبهم. أي يُضعفها. هذا إشارة إلى المعنى المجازي. وقوله: فهو يمرض
 قلوبهم.. الخ.. هذا إشارة إلى المعنى الحقيقي، وسمى الشكُّ في الدين والنفاق مرضاً لأنه
 يضعف الدين كالمريض يضعف البدن. وعن ابن عباس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال:
 شكٌّ. وهو قول مجاهد وعكرمة والحسن البصري وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة.
 وعن عكرمة وطاوس: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ يعني الرياء ﴿فَرَّادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ يعني
 أن الآيات كانت تنزل تترى. أي آية بعد آية، فكلما كفروا بآياته إزدادوا بعد ذلك كفراً

ونفاقاً، أو بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيهم التذكير والإنذار. وقيل: زادهم كفراً بزيادة التكاليف الشرعية لأنهم كانوا كلما ازدادت التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفراً، كالذي قال جلّ جلاله في تنزيهه: «وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا مِنْ سُورَةٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْنَا زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ» . فالزيادة التي زيدها المنافقون من الرجاسة إلى رجاستهم، هو ما وُصفوا به من النفاق والرياء والمخادعة.. الخ. وفي رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ هنا قال ابن زيد: شرّاً إلى إلى شرِّهم، وضلالةً إلى ضلالتهم * قوله تعالى: «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي مؤلِّمٌ. بفتح اللام على طريق الإسناد المجازي حيث أسند الألم للعذاب. وهو في الحقيقة إنما يسند إلى الشخص المعذب * وعن الضحّاك قال: هو العذاب الموجه، وكل شيء في القرآن من الأليم فهو الموجه * والمراد أنه مؤلِّمٌ يُلْصِقُ وجعه إلى قلوبهم * «بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» أي بتكذيبهم الله ورسولَهُ في السَّرِّ، فإنهم كان كاذباً ما كرين مخادعين * سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كَفَّه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم؟ * ذكروا أجوبةً عن ذلك، منها ما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله عنه: [أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ الْعَرَبُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ] * ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تأخير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام، ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأن قتله إيّاهم إنما هو على الكفر فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم. فيقولون: إن محمداً يقتل أصحابه * قال القرطبي: وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يُعطى المؤلف مع علمه بسوء اعتقادهم * قال ابن عطية: وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضي اسماعيل والأبهري * وعن ابن الماجشون. ومنها: ما قال مالك إنما كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليبيّن لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه * قال القرطبي: وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه وإن اختلفوا في سائر الأحكام، قال: ومنها ما قال الشافعي: إنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يُظهرونه يجب ما قبله * ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما: [أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ،

فإذا قالوها عَصَمُوا مِنِّي دَعَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ] ومعنى
 هذا أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقدُها وجد ثواب ذلك
 في الدار الآخرة، وإن لم يعتقدُها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا، وكونه كان خليط
 أهل الإيمان: «يُسَادُّونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
 وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ» الآية. فهم يخالطونهم في
 بعض المحشر، فإذا حقت المحققة تميَّزوا منهم وتخلَّفوا بعدهم: «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا
 يَشْتَهُونَ»، ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث. ومنها ما قاله
 بعضهم: أنه إنما لم يقتلهم لأنه كان يخاف من شرِّهم مع وجوده عليه الصلاة والسلام بين
 أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبيِّنات فأما بعده فيقتلون إذا أظهرُوا النفاق، وعلمه
 المسلمون. قال مالك: المنافق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزنديق اليوم. قال
 ابن كثير: وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا؟ أو
 يفرق بين أن يكون داعية أم لا؟ أو يتكرَّر منه ارتداده أم لا؟ أو يكون إسلامه ورجوعه
 من تلقاء نفسه، أو بعد أن ظهر عليه؟ على أقوال متعدِّدة موضع بحثها وتقديرها وعزوها
 كتاب الأحكام. قُلبت: الزنديق في اللغة القائل ببقاء الدهر. فارسي معرب، وهو
 بالفارسية: زنديكراي. يقول بدوام بقاء الدهر. والزندقة الضيق. وقيل: الزنديق منه لأنه
 ضيق على نفسه، (التهذيب) الزنديق معروف وزندقته أنه لا يؤمنُ بالآخرة ووَخْدَانِيَّة
 الخالِق. وليس في كلام العرب زنديق، وإنما تقول العرب رَجُلٌ زَنْدَقٌ وَزَنْدَقِيٌّ إذا كان
 شديد البخل، فإذا أرادت العرب معنى ما تقول العامة قالوا: مُلْحَدٌ وَدَهْرِيٌّ، فإذا أرادوا
 معنى السِّنِّ قالوا: دَهْرِيٌّ (اللسان ج ١٠ ص ١٤٧). وقول من قال كان عليه الصلاة
 والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك
 الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين همُّوا أن يفتكوا برسول الله صلى الله عليه وسلم
 في ظلماء الليل عند عقبه هناك عزموا على أن يُنْفَرُوا به التاقه ليسقط عنها، فأوحى الله إليه
 أمرهم، فاطلع على ذلك حذيفة. قال ابن كثير: ولعلَّ الكف عن قتلهم كان لمدرِك من
 هذه المدارك أو لغيرها. وقوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» يعني المنافقين. وقيل اليهود،
 والمعنى إذا قال لهم المؤمنون: «لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ»، أي بالكفر وتعويق النَّاسِ عن
 الإيمان بالله تعالى، وعن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن «قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

مُضْلِحُونَ» يعني يقولونه كذباً، لأنّ الفساد نقيض الصلاح والمفسدة خلاف المصلحة. **«وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ»** قال السُّدِّيُّ في تفسيره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عبّاس، وعن مِرَّة الطيب الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم: **«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ»** قال: هم المنافقون. أمّا لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قال الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية وقال أبو جعفر في تفسيره (ج ١ ص ٩٧) عن الربيع: **«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ»** يقول لا تعصوا في الأرض. قال فكان فسادهم على أنفسهم ذلك معصية الله جلّ ثناؤه لأنّ من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض لأنّ إصلاح الأرض والسماء بالطاعة قال: وأولى التأويلين بالآية من قال: إن قول الله تبارك اسمه: **«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ»** نزلت في المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن كان معنياً بها كل من كان يمثل صفتهم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة قال: هذا لاجتماع الحجة من أهل التأويل على أنّ ذلك صفة من كان بين ظهراني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين، وإنّ هذه الآيات فيهم نزلت وما ذكر شاهده قول الله جلّ ثناؤه في كتابه مخبراً عن قيل ملائكتك: **«قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ»** يعنون بذلك أن تجعل في الأرض من يعصيك ويخالف أمرك، فكذلك صفة أهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه وشكهم في دين الله الذي لا يقبل من أحد عملاً إلاّ بالتصديق به والايقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، وبمظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في أرض الله، وهم يحسبون أنّهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها، فلم يسقط الله جلّ ثناؤه عنهم عقوبته في الدنيا، وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، ولن تجد لهم نصيراً (الآ) كلمة تنبيه ينبت بها المخاطب **«إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ»** يعني في الأرض بالكفر، وهو أشدّ الفساد **«وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ»** وهذا القول من الله جلّ ثناؤه تكذيب للمنافقين في دعواهم إذ أمرُوا بطاعة الله فيما أمرهم الله به، ونهوا عن معصية الله فيما نهاهم الله عنه. قالوا إنّما نحن مصلحون لا

مفسدون، ونحن على رشد وهُدَى فيما أنكرتموه علينا دونكم لا ضالون، فكذبهم الله عز وجل في ذلك من قبلهم، فقال ألا إناهم هم المفسدون المخالفون أمر الله عز وجل المتعدون حدوده الراكبون معصيته. التاركون فروضه وهم لا يشعرون. وذلك لأنهم يظنون أن ما هم عليه من النفاق وإبطان الكفر صلاح، وهو عين الفساد. وقيل: لا يشعرون ما أعد الله لهم من العذاب، أولأن الإفساد أصبح غريزة في طباعهم بما تمكن فيها من الشبه بتقليدهم أحبارهم الذين أشربت قلوبهم تعظيمهم والثقة بأرائهم وقد بين سبحانه وتعالى حالهم بقوله: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ» يعني المنافقين وقيل اليهود «آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ» يعني المهاجرين والأنصار، وقيل عبدالله بن سلام وأصحابه من مؤمن أهل الكتاب. والمعنى أخلصوا في إيمانكم كما أخلص هؤلاء في إيمانهم لأن المنافقين كانوا يُظهرون الإيمان «قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ» أي الجهال وفي الخازن (ج ١ ص ٢٧) فإن قلت كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم: «أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ» قلت: كانوا يُظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بذلك فردَّ الله ذلك عليهم بقوله: «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ» يعني الجهال. وأصل السفه خفة العقل. ورقة العلم، وإنما سمي الله المنافقين سفهاء لأنهم كانوا عند أنفسهم عقلاء رؤساء، فقلب ذلك عليهم وسمَّاهم سفهاء «وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ» يعني إنهم كذلك. قلت: والسَّفَّةُ في اللغة: خِفَّةُ الجِلْمِ. وأصله الخفة والحركة. وقيل: الجهل وهو قريبٌ بعضه من بعض. وفي التنزيل: «إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ» أي إلا من سفِه الحق وقال أبو عبيد: معنى سَفِهَ نَفْسَهُ. أهلك نفسه وأوبقها وفي الحديث الثابت المرفوع حين سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكبر فقال: [الكِبْرُ أَنْ تُسَفِّهَ الحَقَّ، وتَغْمِظَ النَّاسَ] فجعل سفه واقعا معناه أن تجهل الحق فلا تراه حقاً وقال بعض أهل اللغة: والسَّفَّةُ في الأصل الخِفَّةُ والطَيْشُ. وفي قوله تعالى: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً» قال اللحياني: بلغنا أنهم النساء والصبيان الصغار، لأنهم جهال بموضع النفقة. وروى عن ابن عباس أنه قال: النساء أسفه السفهاء والأنثى سفية، والجمع سفيات وسفانه وسفَّة وسفاهة وفي التهذيب: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ» يعني المرأة والولد، وسميت سفية لضعف عقلها، لأنها لا تحس سياسة مالها، وكذلك الأولاد ما لم يؤنس رشدهم. وقوله تعالى: «فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً»

السفيه: الخفيف العقل من قولهم: تَسَفَّهَتِ الرِّيحُ الشيء إذا استخفَّتْ فحركته. وقال مجاهد: السفیه الجاهل والضعيف الأحمق. وفي أبي السعود «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا...» أي قيل لهم من قبل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف إثر نهيهم عن المنكر إتماماً للنصح وإكمالاً للإرشاد.

الخلاصة:

إنَّ الْمُؤْمِنِينَ نَصَحُوا الْمُنَافِقِينَ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: النَّهْيُ عَنِ الْإِفْسَادِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّخَلُّيْ عَنِ الرِّذَالِ. وَثَانِيهَا: الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنِ التَّحَلِّيِ بِالْفَضَائِلِ. وَلَا يَخْفَى أَنَّ اللَّامَ فِي النَّاسِ لِلْجِنْسِ. وَالْمُرَادُ بِهِ الْكَامِلُونَ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَامِلُونَ بِقَضِيَّةِ الْعَقْلِ. أَوْ لِلْعَهْدِ الْخَارِجِيِّ الْعِلْمِيِّ. وَالْمُرَادُ بِهِ الرُّسُلُ وَمَنْ مَعَهُ. وَالْمَعْنَى آمَنُوا إِيمَانًا مَقْرُونًا بِالْإِخْلَاصِ مَتَمَحِّضًا عَنِ شَوَائِبِ النِّفَاقِ مِمَّا ثَلَا لِإِيمَانِهِمْ. وَقَدْ أَشَارَ الْجَلَالُ إِلَى الْإِحْتِمَالِ الثَّانِي بِقَوْلِهِ: أَصْحَابُ النَّبِيِّ. عَلَى تَفْسِيرٍ مِنْ قَالَ «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ» أَرَادُوا بِالسُّفَهَاءِ أَتْبَاعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أَمَّا الْمُهَاجِرُونَ مِنْهُمْ فَلَأَنَّهُمْ عَادُوا قَوْمَهُمْ وَأَقَارِبَهُمْ وَهَجَرُوا أَوْطَانَهُمْ وَتَرَكَوا دِيَارَهُمْ لِيَتَّبِعُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَسِيرُوا عَلَى هُدْيِهِ. وَأَمَّا الْأَنْصَارُ فَلَأَنَّهُمْ شَارَكُوا الْمُهَاجِرِينَ فِي دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ. وَهَذَا لَا يُسْتَبَعَدُ مِنْ اسْتِيحَابِ الْحَرَمَاتِ وَانْهَكِ فِي الصَّفَاهَاتِ وَالغَوَايَاتِ وَالضَّلَالَاتِ أَنْ يُسَمَّى الْهُدَى سَفَهًا وَضَلَالًا «أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ» وَحَدِّثَهُمْ دُونَ مَنْ عَرَّضُوا بِهِمْ وَنَسَبُوهُمْ إِلَى السُّفَهَاءِ «وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ» مَا الْإِيمَانُ وَمَا حَقِيقَتُهُ، حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ سَفَهَاءٌ أَوْ عَقْلَاءَ، وَقَدْ خَتَمْتَ هَذِهِ الْآيَةَ بِـ (لَا يَعْلَمُونَ) وَسَابِقَتَهَا بِـ (لَا يَشْعُرُونَ) لِأَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ. وَالْفَائِدَةُ الْمَرْجُوءَةُ مِنْهُ. وَهِيَ السَّعَادَةُ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ لَا يَدْرِكُهَا إِلَّا مَنْ يَعْلَمُ حَقِيقَتَهُ، وَيَدْرِكُ كُنْهَهُ، فَهَمْ أَخْطَأُوا فِي إِدْرَاكِ مَصْلِحَتِهِمْ وَمَصْلَحَةِ غَيْرِهِمْ، أَمَا نِفَاقُهُمْ وَإِفْسَادُهُمْ فِي الْأَرْضِ فَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْوَضُوحِ مَبْلَغَ الْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ. الَّتِي تَصِلُ إِلَى الْحَوَاسِ وَالْمَشَاعِرِ، وَلَكِنْ لَا حَسَّ لَهُمْ حَتَّى يُدْرِكُوهُ. (اِقْتِبَاسًا مِنَ الْمِرَاغِيِّ تَارَةً وَنَصًّا أحياناً وَذَلِكَ فِي ج ١ ص ٥٤) «قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا» يَعْنِي هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ إِذَا لَقُوا الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ (قَالُوا آمَنَّا) كَأَيْمَانِكُمْ «وَإِذَا خَلَوْا» أَي رَجَعُوا، وَقِيلَ هُوَ مِنَ الْخَلْوَةِ «إِلَى» قِيلَ بِمَعْنَى الْبَاءِ أَي بِـ «شَيَاطِينِهِمْ» وَقِيلَ بِمَعْنَى مَعَ أَي مَعَ شَيَاطِينِهِمْ، وَالْمُرَادُ بِشَيَاطِينِهِمْ رُؤَسَاؤُهُمْ وَكَهَنَتُهُمْ.

قال ابن عباس: وهم خمسة نفر: كعب بن الأشرف من اليهود بالمدينة، وأبو بردة في بني أسلم، وعبد الدار في جهينة، وعوف بن عامر في بني أسد، وعبد الله بن السواد بالشام ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان تابع له * وقيل: هم رؤساؤهم الذين شابهوا الشياطين في ترددهم. كذا ذكره الخازن في تفسيره (ج ١ ص ٢٧) * «قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ» أي على دينكم «إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ» أي بمحمد وأصحابه بما نظر لهم من الإسلام لنا من شرهم، ونقف على سيرهم ونأخذ من غنائمهم وصدقاتهم * قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه. وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه: انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم فذهب فأخذ بيد أبي بكر الصديق فقال: مرحباً بالصديق سيد بني تيم وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار. الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ بيد عمر فقال: مرحباً بسيد بني عدي بن كعب الفاروق القوي في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ بيد علي فقال: مرحباً بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له علي: اتق الله يا عبد الله ولا تفتق، فإن المنافقين شر خلق الله تعالى، فقال: مهلاً يا أبا الحسن إني لا أقول هذا نفاقاً، والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم، ثم تفرقوا، فقال عبد الله لأصحابه: كيف رأيتموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيراً * وفي رواية زيادة بعد فأثنوا عليه خيراً، وقالوا: لم نزل بخير ما عشت فينا. فرجع المسلمون إلى النبي وأخبروه بذلك فنزلت * قال السدي عن أبي مالك: خلوا: يعني مضوا. وشياطينهم سادتهم وكبراءهم ورؤساؤهم من أحرار اليهود. ورؤس المشركين والمنافقين * وقال الضحاك عن ابن عباس: وإذا خلوا إلى أصحابهم، وهم شياطينهم * وفي رواية سعيد بن جبیر عن ابن عباس: «وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ» من يهود الذين يأمرهم بالكذب، وخلاف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم * وقال مجاهد: «وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ» إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين * وقال قتادة: «وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ» إلى رؤسهم وقادتهم في الشرك والشر * وبنحو ذلك فسره أبو مالك وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس * قال ابن جرير: وشياطين كل شيء مردته، ويكون الشيطان من الإنس والجن كما قال تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ

عَدُوًّا شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا» كذا في ابن كثير (ج ١ ص ٥١) وأورد ما في المسند عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، فَقُلْتُ يَارَسُولَ اللَّهِ، أَوَّلَ الْإِنْسِ شَيَاطِينٍ؟ قَالَ: نَعَمْ] * «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» أي يجازيهم جزاء استهزائهم بالمؤمنين، فسمي الجزاء باسمه لأنه في مقابلته * قال ابن عباس: يفتح لهم باب الجنة، فإذا انتهوا إليه سُدَّ عنهم، وُردوا إلى النار * «وَيَمُدُّهُمْ» أي يتركهم ويمهلهم. والمد والإمداد واحد. وأصله الزيادة. وأكثر ما يأتي المد في الشرِّ، والإمداد في الخير * «فِي طَغْيَانِهِمْ» أي في ضلالهم. وأصل الطغيان مجاوزة الحد * «يَعْمَهُونَ» أي يترددون في الضلالة متحيرين * وفي الكرخي تعليقا على قول الجلال: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» يجازيهم باستهزائهم. أي عليه وهذا جواب عما يقال كيف وُصِفَ اللهُ تعالى بأنه يستهزئ، وقد ثبت أن الاستهزاء من باب العبث والسخرية وذلك قبيح على الله تعالى ومنزرة عنه. وإيضاً فيه أنه سمي جزاء الاستهزاء استهزاء مشاكلة في اللفظ، ومنه «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا»، «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ» ولم يقل الله مستهزئ بهم قصداً إلى استمرار الاستهزاء وتجده وقتاً فوقتاً كما كانت نكايات الله فيهم، ومنه: «أَوَّلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ» ولأن التعبير بالفعل المضارع يفيد التكرير والإستمرار وقال آخرون: قوله تعالى: «إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» وقوله: «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ» وقوله: «فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ» وقوله: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» وما أشبه ذلك إخبار من الله تعالى أنه يجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان كما قال تعالى: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» وقوله تعالى: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ» فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظهما فقد اختلف معناها * وإلى هذا المعنى وجَّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك. لأن الاستهزاء والمكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله تعالى بالإجماع. وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك * وروى الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: «اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ» قال: يسخرهم للنقمة منهم * فقد أولَّ الاستهزاء بالسخرية التي عبر عنها بالنقمة

منهم، والتَّعَمُّةُ في اللغة: المكافأة بالعقوبة * قال الليث: يقال لَمَ أَرْضَ مِنْهُ حَتَّى نَعِمْتَ
وانْتَقَمْتَ إِذَا كَافَأَهُ عِقُوبَةً بِمَا صَنَعَ * وفي قوله تعالى: «وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ»
قال السدي: عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهداني عن ابن
مسعودٍ وعن أناسٍ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: يَمُدُّهُمْ: يُعْمِلُ لَهُمْ * وقال
مجاهد: يزيدهم * وقال الضحاك: عن ابن عباس: «(في طغيانهم يعمهون)» في كفرهم
يترددون * وكذا فسره السدي بسنده عن الصحابة، وبه يقول أبو العالية وقتادة والربيع
بن أنس ومجاهد وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد: في كفرهم وضلالتهم * وفي (اللسان) قال
ابن سيده: طَغَى يَطْغَى طَغْيًا وَيَطْغُو طَغْيَانًا جَاوَزَ الْقَدْرَ وَارْتَفَعَ وَغَلَا فِي الْكُفْرِ وَفِي
حَدِيثٍ وَهَبٍ: [إِنَّ لِلْعِلْمِ طُغْيَانًا كَطُغْيَانِ الْمَالِ] أي يحمل صاحبه على التَّرخُّصِ بما
اشْتَبَهَ مِنْهُ إِلَى مَا لَا يَجِلُّ لَهُ، وَيَتَرَفَّعُ بِهِ عَلَى مَنْ دُونَهُ، وَلَا يُعْطَى حَقَّهُ بِالْعَمَلِ بِهِ كَمَا
يَفْعَلُ رَبُّ الْمَالِ. وَكُلُّ مُجَاوِزٍ حَدَّهُ فِي الْعَصِيانِ طَاغٌ * وباختصار: كلُّ شيءٍ جَاوَزَ الْقَدْرَ
فَقَدْ طَغَى كَمَا طَغَى الْمَاءُ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ، وَكَمَا طَغَتِ الصَّيْحَةُ عَلَى ثَمُودَ. كما في قوله تعالى:
«فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ» قال الزجاج: الطاغية طُغْيَانُهُمْ، وقال قتادة: بعث الله
عليهم صيحةً. وقيل: أَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ أي بصيحة العذاب * وَالْعَمَّةُ في اللغة: التَّحْيِيرُ
والتَّرْدُدُ * وقيل: العمَّة التَّرْدُدُ في الضلالة والتَّحْيِيرُ في منازعة أو طريق * قال ثعلب: هو أن
لا يعرف الحجة * وقال اللحياني: هو تردده لا يدرى أين يتوجّه * وقال ابن الأثير: العمَّة
في البصيرة كالعمى في البصر * وقال بعضهم: العمى في العين، والعمَّة في القلب، وقد
يُسْتَعْمَلُ العمى في القلب أيضاً قال الله تعالى: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ».

وإذا كان العمَّة التردد. فهذا يعني أنهم يترددون في البقاء على الكفر وتركه إلى
الإيمان، وترددهم في الكفر لا ينافي كونهم في الباطن عليه المقتضى لجزمهم به لأن بعضهم
كان شاكاً في حقيقة الإسلام، وبقايم كان عليه أمارة الشك لما يشاهده من الآيات
الباهرة، فهم وإن أصرُّوا على الكفر إنما إصرارهم تجلُّدٌ وعناد * وقوله تعالى: «أُولَئِكَ»
يعني المنافقين الموصوفين بالصفات السابقة من قوله: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ...» إلى
هنا: «الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى» أي استبدلوا الكفر بالإيمان. وإنما أخرجه
بلفظ الشراء والتجارة توسعاً على سبيل الاستعارة لأن الشراء فيه إعطاء بدلٍ وأخذ آخره

في الخازن: فإن قُلت كيف قال اشتروا الضلالة بالهدى. وما كانوا على هدى؟ قُلت: جعلوا لتمكنهم منه كأنه في أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلوه، واستبدلوه بها. والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء * قلت: كل إنسان مفطورٌ على الهدى أصلاً لقوله عليه الصلاة والسلام: [(كل مولود يولد على الفطرة) أي على الإسلام (فأبواه يهودانه، أو يمجسانه أو يمجسانه)] فكانت الهداية في أيديهم حقاً، فاختاروا الضلالة بدل الهدى الذي كله نورٌ وخيرٌ وبركة. وباختيارهم الضلالة «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ» أي ماربحوا في تجارتهم، والربح الفضل عن رأس المال، وأضاف الربح إلى التجارة لأن الربح فيها يكون * «وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» أي مصيبين في تجارتهم لأن رأس المال هو الإيمان، فلماً أضاعوه، واعتقدوا الضلالة فقد ضلُّوا عن الهدى * قيل: وما كانوا مهتدين في ضلالهم * كذا في الخازن (ج ١ ص ٢٨) * وعبارة السمين «اشْتَرَوْا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى» الشراء هنا مجاز عن الاستبدال بمعنى أنهم لمَّا تركوا الهدى. وآثروا الضلالة جعلوا بمنزلة المشترين لها بالهدى، ثم رشح هذا المجاز بقوله: «فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ» فأسند الربح إلى التجارة. والمعنى فما ربحوا في تجارتهم * والباء هنا: «بِالْهُدَى» للعرض والمقابلة وهي تدخل على المتروك أبداً كما هنا، والتجارة صناعة التجار، وهي التصدي للبيع والشراء لتحصيل الربح، وهو الفضل على رأس المال. وهؤلاء ما كانوا مهتدين لطرق التجارة، فإن المقصود منها سلامة رأس المال والربح، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبين لأن رأس مالهم الفطرة السليمة، والعقل الصرف، وهما قيمة الإنسانية في الحياة، فلما دنسوها باتباع الأهواء والشهوات، واعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم واحتل عقلهم، ولم يبق لهم رأس مال يتوصلون به إلى إدراك الحق ونيل الكمال، فبقوا خاسرين من الربح فاقدين للأصل * والضلال والضلالة في اللغة: ضدُّ الهدى والرشاد * وقال أبو منصور: والإضلال في كلام العرب ضد الهداية والإرشاد يقال: أضللت فلاناً إذا وجهته للضلال عن الطريق. وإياه أراد لبيد:

مَنْ هَدَاهُ سَبِيلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ ، وَمَنْ شَاءَ أَضَلَّ
قال لبيد: هذا في جاهليته. فوافق التنزيل العزيز: «يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» * وضللت الدار، والمسجد والطريق وكلَّ شيءٍ مقيم ثابت لا تهتدى له، يعني أن المكان لا يضلُّ وإنما أنت تضلُّ عنه.

ومن رحمة الله بهم أن بعث النبي محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً لهم إلى الصراط

المستقيم فلم يهتدوا باقتفاء أثره فأضلوا السبيل. فاشتروا الضلالة بالهدى: «وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ» أي يذهب كيدهم باطلاً ويحيق بهم ما يريد الله تعالى، وضل الشيء يضلُّ ضلالاً أي ضاع وهلك* والهدى في اللغة: ضد الضلال. وهو الرشاد والدلالة. ولفظه يذكر ويؤنث فيقال: هذه هدى مستقيمة ودُكِّرَ في قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى» أي الصراط المستقيم الذي دعا إليه، هو طريق الحق. وقوله تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى» أي إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال كما في قوله تعالى: «وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ» أي بينا لهم طريق الهدى وطريق الضلالة «فَاسْتَحَبُّوا» أي آثروا الضلالة على الهدى. وقوله تعالى: «أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ» أي أو لم يبين لهم* وفي الحديث: [أنه قال لعلِّي (سَلِ اللهُ الْهُدَى) وفي رواية: (قل اللهم الهدى وسدّنى واذكر بالهدى هدايتك الطريق وبالسداد تسديدك السهم)]* والمعنى إذا سألت الله الهدى فأخطر بقلبك هداية الطريق، وسل الله الاستقامة فيه كما تتحرّاه في سلوك الطريق، لأن سالك الفلاة يلزم الجادة، ولا يُفَارِقُهَا خوفاً من الضلال، وكذلك الرامى إذا رمى شيئاً سدد السهم نحوه ليصيبه، فأخطر ذلك بقلبك ليكون ما تنويه من الدعاء على شاكلة ما تستعمله في الرمي* ومن أساء الله تعالى (الهادي) أي الذي بصّر عباده، وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا بربوبيته وهدى كل مخلوق إلا ما لا بُدَّ له منه في بقائه، ودوام وجوده فمن أقام على الإيمان فقد اهتدى. ومن ضلَّ فلا هادى له من دون الله قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ» أي يريد لا يهتدى* وهدى: بمعنى بيّن في لغة أهل الغور. يقولون: هديت لك بمعنى بيّنتُ لك. ويقال بلغتهم نزلت (أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) ومن معانى الهدى: النهار قال ابن مقبل:

حتى استبنت الهدى والبيد هاجمة يخشعن في الآلِ غُلفاً أو يُصَلِّينا

والهدى أيضاً الطاعة والورع واتباع السيرة* في الحديث: [واهدوا بهدي عمّار] أي سيروا بسيرته في طاعته وورعه وتبأوا بهيته، وما أحسن هديه. أي سمته وسكونه، وفلان حسن الهدى والهدية أي الطريقة والسيرة* وفي حديث عبدالله بن مسعود: [إنَّ أحسن الهدى هدي محمد] أي أحسن الطريق والهداية والطريقة والنحو والهيئة* وفي حديثه الآخر: [كُنَّا نَنْظُرُ إِلَى هَدْيِهِ وَدَلَّهِ]* وفي الحديث: [الهدى الصالح والسَّمْتُ الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة] ومعنى الحديث: أن هذه الحال من شمائل الأنبياء، من جملة خصائصهم وأنها جزء معلوم من أجزاء أفعالهم، وليس المعنى أن

النبوة تتجزأ، ولا أن من جمع هذه الخلال كان فيه جزء من النبوة، فإن النبوة غير مكتسبة ولا مجتلبة بالأسباب، وإنما هي كرامة من الله تعالى، والمراد جزء من خمسة وعشرين جزءاً مما جاءت به النبوة ودعت إليه، وتخصيص هذا العدد مما يستأثر النبي صلى الله عليه وسلم بمعرفته. وفي الطبري (ج ١ ص ١٧) والذي هو أولى عندي بتأويل الآية ما روينا عن ابن عباس وابن مسعود من تأويلهما قوله: «اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى» أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وذلك أن كل كافر بالله فإنه مستبدل بالإيمان كفوفاً باكتسابه الكفر الذي وجد منه بدلاً من الإيمان الذي أمر به، أو ما تسمعُ الله جل ثناؤه يقولُ فيمن اكتسب كفوفاً به مكان الإيمان به ورسوله: «وَمَنْ يَتَّبِدِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» وذلك هو معنى الشراء لأن كل مُشترِ شيئاً فإنما يستبدل مكان الذي يؤخذ منه من البديل آخر بدلاً منه. فكذلك المنافق والكافر استبدلا بالهدى والضلالة، والنفاق، فأضلها الله وسلبها نور الهدى، فترك جميعهم في ظلمات لا يبصرون. وقال أبو جعفر في تأويل قوله: «فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ» وتأويل ذلك أن المنافقين بشرائهم الضلالة بالهدى خسروا ولم يربحوا لأن الربح من التجار المستبدل من سلعته المملوكة عليه بدلاً هو أنفس من سلعته أو أفضل من ثمنها الذي يبتاعها به، فأما المستبدل من سلعته بدلاً دونها ودون الثمن الذي يبتاعها به فهو الخاسر في تجارته لا شك. فكذلك الكافر والمنافق لأنهما اختارا الحيرة والعمى على الرشاد والهدى. والخوف والرعب على الحفظ والأمن فاستبدلا في العاجل بالرشاد الحيرة، وبالهدى الضلالة، وبالحفظ الخوف، وبالأمن الرعب، مع ما قد أعدَّ لها في الآجل من أليم العقاب، وشديد العذاب، فخابا وخسرا ذلك هو الخسران المبين. وروى عن قتادة: «فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة. وقوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا» المثل عبارة عن قول يشبه ذلك القول قولاً آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ولهذا ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه وهو أحد أقسام القرآن السبعة، ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان لأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ولأن المثل تشبيه الشيء الخفي بالجلي، فيتأكد الوقوف على ما هيته، وذلك هو النهاية في الإيضاح، وشرطه أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه كمثل الذي استوقد ناراً لينتفع بها. «فَلَمَّا أَضَاءَتْ» يعنى النار «مَا حَوْلَهُ»

يعنى حول المستوقد «دَهَبَ اللهُ بِسُورِهِمْ» قال الخازن: فإن قلت كيف وحد أولاً (الأسدى) ثم جمع ثانياً؟ قلت: يجوز وضع الذى موضع الذين كقوله: «وَحَضُّنْتُمْ كَالَّذِي حَاضُوا» وقيل إنما شبه قصتهم بقصة المستوقد، وقيل: معناه مثل الواحد منهم كمثل الذى استوقد ناراً «وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ» قال ابن عباس نزلت في المنافقين. يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة، فاستدفاً ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك أذ طفئت ناره فبقى في ظلمة حائراً متخوفاً، فكذلك حال المنافقين أظهروا كلمة الإيمان فأمنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وتزوجوا من المسلمين (١) وقاسموهم في الغنائم، فذلك نورهم، فلما ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف. الخازن (ج ١ ص ٢٩) وقال: فإن قلت ما وجه تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة؟ قلت: وجه تشبيه الإيمان بالنور أن النور أبلغ الأشياء في الهداية إلى المحجة القصوى، وإلى الطريق المستقيم وإزالة الحيرة، وكذلك الإيمان هو الطريق الواضح إلى الله تعالى، وإلى جنبه، وشبه الكفر بالظلمة لأن الضال عن الطريق المسلوكة في الظلمة لا يزداد إلا حيرةً وكذلك الكفر لا يزداد صاحبه في الآخرة إلا حيرةً. وفي ضرب المثل للمنافقين بالتار ثلاث حِكَم:

احداها: أن المستضىء بالنار مُستضىء بنور غيره، فإذا ذهب ذلك بقى هو في ظلمته، فكأنهم لما أقرؤا بالإيمان من غير اعتقاد قلوبهم كان إيمانهم كالمستعار.

الثانية: أن النار تحتاج في دوامها إلى مادة الحطب لتدوم فكذلك الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم.

الثالثة: أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد قبلها ضياءً، فشبّه حالهم بذلك.

ثم وصفهم الله تعالى فقال: «صُمُّ» أي عن سماع الحق لأنهم لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه «بُكْمٌ» أي خرس عن النطق بالحق فهم لا يقولونه «عُمَى» أي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له فهو أعمى.

(١) عبارة الخازن: وناكحوا المسلمون فالتعين بما ذكرت أبلغ في المعنى، ولعلها فينا كحهم المسلمون كما في الطبرى (ج ١ ص ١١٠) وسيأتى ذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

«فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ» أي عن ضلالتهم ونفاقهم * وقال ابن كثير في التفسير (ج ١ ص ٣٥) نقلاً عن الرازي: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا...» الآية. يقال: مَثَلٌ ومَثَلٌ ومثيل أيضاً والجمع أمثال قال الله تعالى: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ» وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياءً لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى واستحبابهم الغي على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع * أي قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» وهو الصواب، لا فتاح ضرب المثل بالاضاعة المقابلة للإيمان، واختتامه بالظلمة المقابلة للكفر، وهو خلاف ما ذهب إليه ابن جرير رحمه الله إذ زعم أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمْ الْآخِرُ وَمَاهُمْ إِلَّا بِمُؤْمِنِينَ» * قال ابن كثير: والصواب أن هذه الآية إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سلّبوه، وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية ههنا، وهي قوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا...» وقد استدل لما ذهب إليه بما رواه السدي في تفسيره عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة في قوله تعالى: «فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ» زعم أن ناساً دخلوا في الإسلام مقدم نبي الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ثم إنهم نافقوا، وكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله من قدى، أو أذى فأبصر حتى عرف ما يتقى منه فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشر * وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية قال: أمّا النور فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به، وأمّا الظلمة فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نُزع منهم فعتوا بعد ذلك * وهذان الدليلان يؤيدان ما ذهب إليه وكذا ما روى الطبري في تفسيره (ج ١ ص ١١٠) عن ابن عباس قال: ضرب الله للمنافقين مثلاً فقال:

«مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ» أي يُبصرون الحقَّ ويقولونَ به حتى إذا خرجوا به من ظلمة الكفر أطفؤهُ بِكُفْرِهِمْ به، ونفاقهم فيه، فتركهم في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى ولا يستقيمون على حق. وعنه أيضاً قال: هذا مثل ضرب به الله للمنافقين أَنَّهُمْ كانوا يفتنون بالإسلام، فيناكحهم المسلمون، ويوارثونهم، ويقاسمونهم الفىء، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العزَّ كما سلب صاحب النار ضوؤه، وتركهم في ظلمات يقول في عذاب. وقال قتادة: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ» هى لا إله إلا الله أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا، وأمّوا في الدنيا ونكحوا النساء، وحقنوا بها دماءهم حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون. وقال مجاهد: أمّا إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى الكافرين والضلالة. وأعجبنى قول الربيع بن أنس قال: ضرب مثل أهل النفاق فقال: «مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً» قال: إنما ضوء النار ونورها ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها، كذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الإخلاص أضاء له فإذا شكَّ وقع في الظلمة. وهذا يفيد أن الإخلاص نور والشك ظلمة، بل هو أشدُّ الكفر. قال عبدالرحمن بن زيد: هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا، ثم كفروا، فذهب الله بنورهم، فانتزع كما ذهب بضوء هذه النار، فتركهم في ظلمات لا يبصرون. والصم في اللغة: انسداد الأذن وثقل السمع. وفي حديث الإيمان: [الصمُّ البكمُّ رؤوس الناس] الصمُّ البكمُّ بالنصب مفعول بالفعل قبله، وهو كما في النهاية: [وَأَنْ تَرَى الْحُفَّاءَ الْعُرَاةَ الصَّمَّ الْبَكْمَ...]. الخ. جمع الأصم وهو الذى لا يسمع، وأراد به الذى لا يهتدى، ولا يقبل الحق. وهنا من صمم العقل لا صمم الأذن، أنشد ثعلب:

قُلْ مَا بَدَأَ لَكَ مِنْ زُورٍ وَمِنْ كَذِبٍ حَلْمَى أَصْمٌ وَأَذُنٌ غَيْرُ صَمَاءٍ
استعار الصم للحلم، وليس بحقيقة. وقال الليث: الصمم في الأذن ذهاب سمعها، وفي القنائة اكتناز جوفها، وفي الحجر صلابته، وفي الأمر شدته. والبكم: الخرس مع عى وبله، وقيل: هو الخرس ما كان. وقال ثعلب: البكم: أن يولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصره. وقال الأزهري: بين الأخرس والأبكم فرق في كلام العرب.

فالأخرس الذي خُلِقَ ولا نطقَ له كالهيمة العجباء، والأبكم الذي لسانه نطقٌ وهو لا يعقل الجواب، ولا يُحسُنُ وجه الكلام. والعمى معروفٌ * قوله تعالى في صفة الكفار: «صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ..» كانوا يسمعون و ينطقون و يُبصرون. ولكنهم لا يعون ما أنزل الله، ولا يتكلمون بما أمروا به، فهم بمنزلة الصم البكم العمى * ويقال: إنَّ سمعهم لما لم ينفعهم لأنهم لم يُعُوا به ما سَمِعُوا، وبَصَرَهُمْ لما لم يجد عليهم لأنهم لم يعتبروا بما عاينوه من قدرة الله وخلقته الدال على أنه واحد لا شريك له، ونطقهم لَمَّا لم يُغن عنهم شيئاً إذ لم يؤمنوا به إيماناً ينفعهم. كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يُبصر ولا يعى ونحو منه قول الشاعر:

أصمُّ عمًّا ساءهُ سَمِيعٌ يقول: يتصامم عما يسوءُهُ وإنَّ سمعه فكان كأنه لم يسمع فهو سميع ذو سميع، أصمُّ في تغايبه عمًّا أريد به. ورفعت الثلاثة (صمُّ بكمُّ عميُّ) على إضمار مبتدأ. وهي أخبار متباينة لفظاً ومعنى، لكنها في معنى خبر واحد، لأن ما لها إلى عدم قبول الحق. مع كونهم سمع الآذان صماء الألسن. بُصراءُ الأعين، فليس المراد نفي الحواس الظاهرة * وقوله تعالى: «أَوْ كَصَيِّبٍ» أي كأصحاب صَيِّب وهو المطر وكل ما نزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صَيِّبٌ: «مِنَ السَّمَاءِ» أي من السحاب. لأنَّ كُلَّ ما علاك فأظلكَ فهو سماء. ومنه قيل لسقف البيت سماء. وقيل: من السماء بعينها، وإنما ذكر الله تعالى السماء وإن كان المطر لا ينزل إلا منها ليرد على من زعم أن المطر ينعقد من أبخرة الأرض بطبعها كما زعم الحكماء، وإنما هو بتأليف الله عزَّ وجلَّ «فيه» أي الصَّيْب «ظُلُمَاتٌ» جمع ظلمة «وَرَعْدٌ» هو الصوتُ الذي يسمع من السحاب «وَبَرْقٌ» يعني النَّار التي تخرج من السحاب، وقد أوضحت هذه الآثار الإلهية في كتابي (سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية) وأقتها دلائل علمية على وجود الصانع جلَّ وعلا. وهي مما ينبغي على كل مسلم الوقوف على ما فيها لمقارعة الخصم بالحجة البينة * «يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ» جمع صاعقة، وهي الصيحة التي يموت كل من يسمعا، أو يُعشى عليه «حَدَرَ الْمَوْتُ» أي مخافة الهلاك «والله مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» أي عالم بما لهم. في كلمة (أو) في قوله تعالى: «أَوْ كَصَيِّبٍ» خسة أقوال أظهرها أنها للتفصيل بمعنى أنَّ النَّاظِرِينَ في حال هؤلاء منهم من يشبههم بحال المستوقد الذي هذه صفته، ومنهم من يشبههم بأصحاب صَيِّب هذه صفته * والثاني: أنها للإيهام أي إن الله

تعالى أبهم على عباده تشبيههم بهؤلاء وهؤلاء الثالث: أنها للشك بمعنى أنّ الناظر يشك في تشبيههم الرابع: أنها للإباحة في تطبيق أي المثلين عليهم فهو أبلغ في البيان، وكاف في وصف حالهم ومآلهم والخامس: أنها للتخيير. أي أبيع للناس أن يشبهوهم بكذا أو كذا، أو خُيروا في ذلك * وزاد الكوفيون فيها معنيين آخرين: أحدهما: بمعنى الواو والثاني: كونها بمعنى بل * والصيبُ في اللغة: نزول المطر. قال أبو اسحاق «أو كصيبٍ مِنَ السَّمَاءِ» الصيبُ هنا المطر. وهذا مثل ضربه الله تعالى للمناققين. كأنَّ المعنى: أو كأصحاب صيب، فجعل دين الإسلام لهم مثلاً فيما ينالهم فيه من الخوف والشدائد، وجعل ما يستضيئون به من البرق مثلاً لما يستضيئون به من الإسلام، وما ينالهم من الخوف في البرق، بمنزلة ما يخافونه من القتل. قال: والدليل على ذلك قوله تعالى: «يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ» وكلُّ نازلٍ من علو إلى سفلى فقد صاب يصبُ وأنشد:

كأنهم صابت عليهم سحابة صواعقها لطيرهن ذبيب

وقال الليث: الصوبُ: المطر. وصاب الغيث بمكان كذا وكذا، وصابت السماء الأرض: جادتها والرعدُ: الصوت الذي يسمع من السحاب. وأرعدَ القوم وأبرقوا أصابهم رعدٌ وبرقٌ * وفي المثل: (رُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ) يضرب للذي يكثر الكلام ولا خير عنده. وسحابة رعادة: كثيرة الرعد وقوله تعالى: «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ» * قال الزجاج: جاء في التفسير أنه ملكٌ يَرْجُرُ السَّحَابَ * وقال ابن عباس: الرعدُ ملكٌ يُسوقُ السَّحَابَ كما يُسوقُ الحادى الإبلُ بجدائه * وسئل وهب بن منبه عن الرعد، فقال: الله أعلم * وقيل: الرعد صوت السحاب، والبرق ضوءٌ ونورٌ يكونان مع السحاب. قالوا: وذكر الملائكة بعد الرعد في قوله عز وجل: «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ» يدل على أن الرعد ليس بملك. وقال الذين قالوا الرعد ملك: ذكر الملائكة بعد الرعد، وهو من الملائكة كما يذكر الجنس بعد النوع * وسئل عليُّ رضي الله عنه عن الرعد، فقال: ملكٌ. وعن البرق فقال: مخاريقٌ بأيدي الملائكة من حديده * وقال الليث: الرعد ملك اسمه الرعد يسوق السحاب بالتسبيح، قال: ومن صوته اشتق فعل رَعَدَ رَعْدٌ، ومنه الرَّعْدَةُ والارتعاده وقال الأخفش: أهل البادية يزعمون أن الرعد هو صوتُ السَّحَابِ، والفقهاء يزعمون أنه ملك * قلتُ: وأحيل القارئ الكريم إلى كتابي (سبعون برهاناً عليماً على وجود الذات الإلهية) الجزء الأول البرهان الخامس

والعشرون: [إرسال الصواعق من السحاب تبصرة لأولى الألباب (ص ٢٠٩)] إذ استجد فيه ما يشرح صدرك للإسلام، ويطمئن نفسك بالإيمان. وفي البرق قال ابن عباس: البرق سوط من نور يزجر به المَلَكُ السَّحاب. والبرق الذي يلعب في الغيم، وجمعه بُروق (والبرق) هو ما يلعب في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان: ولهذا قال تعالى: «يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» أي ولا يُجدي عنهم حذر شيئاً لأنَّ الله محيطٌ بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته، وإرادته كما قال: «هَلْ آتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ ورائِهِمْ مُحِيطٌ» بهم، ثم قال: «يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ» أي لشدة وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ» يقول: يكاد يحكم القرآن يدل على عورات المنافقين. وفي رواية عنه: لشدة ضوء الحق كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه وتارة تُعرض لهم الشكوك، أظلمت قلوبهم فوقوا حائرين. وعنه أيضاً: «كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْهُوا فِيهِ» يقول: كُلَّمَا أَصَابَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ عَزِيزِ الْإِسْلَامِ اطْمَأَنَّنُوا إِلَيْهِ، وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَغْتَبِ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ» وروى عن ابن عمر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق. قال: [اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك] أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. «حَذَرَ الْمَوْتِ» أي مخافة الهلاك «وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» أي عالم بمجالهم. وقيل يجمعهم ويعذبهم «يَكَادُ الْبَرْقُ» أي يقرب، يقال كاد يفعل ولم يفعل «يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ» أي يختلسها، والخطف استلاب الشيء بسرعة. «كُلَّمَا» أي متى جاء «أضاء لهم» يعني البرق «مَشْهُوا فِيهِ» أي في إضاءته ونوره «وإذا أظلم عليهم قاموا» أي وقفوا متحيرين. قال الخازن: وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى للمنافقين، ووجه التمثيل أنَّ الله عز وجل شبههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة في ليلة مظلمة أصابهم مطرفيه ظلمات، وهي ظلمة الليل وظلمة المطر، وظلمة السحاب، من صفة تلك الظلمات، أنَّ الساري لا يمكنه المشي فيها، ورعدٌ من صفة أن يضم سامعوه أصابعهم إلى آذانهم من

هوله. وبرق من صفته أن يخطف أبصارهم، ويعميا من شدته، فهذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن، وصنيع الكافرين والمنافقين معه، فالمطر هو القرآن لأنه حياة القلوب، كما أن المطر حياة الأرض، والظلمات ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك والنفاق، والرعد ما خوفوا به من الوعيد، وذكر التار والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة. فالكافرون والمنافقون يَسُدُّون آذانهم عند قراءة القرآن وسماعه مخافة أن تميل قلوبهم إليه. لأن الإيمان به عندهم كفر والكفر موت.

وقيل: هذا مثل ضربه الله تعالى للإسلام، فالمطر هو الإسلام، والظلمات ما فيه من البلاء والمحن، والرعد ما فيه من ذكر الوعيد والمخاوف في الآخرة، والبرق ما فيه من الوعد. يجعلون أصابعهم في آذانهم. يعنى المنافقين إذا رأوا في الإسلام بلاءً وشدةً هربوا حذراً من الهلاك «والله مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ» يعنى لا ينفعهم الهرب لأن الله من ورائهم يجمعهم ويعذبهم «يكاد البرق» يعنى دلائل الإسلام ترعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة، كلما أضاء لهم يعنى المنافقين، وإضاءته لهم هو تركهم بلا ابتلاء ولا امتحان مشوا فيه، يعنى على المسألة بإظهار كلمة الإيمان. وقيل: كلما نالوا غنيمة وراحة في الإسلام ثبتوا، وقالوا إنا معكم، وإذا أظلم عليهم قاموا يعنى إذا رأوا شدةً وبلاءً تأخروا «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ» أي بصوت الرعد «وَأَبْصَارِهِمْ» بوميض البرق، وقيل: لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما أذهب أسماعهم وأبصارهم الباطنة «إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، أي هو الفاعل لما يشاء لا منازع له فيه. (الخانز جـ ١ ص ٣١) وقوله تعالى: «يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ» أي أناملها فهو من أنواع المجاز اللغوى، وهو إطلاق الكل على الجزء، ونكته التعبير عنها بالأصابع، الإشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغة في الفرار من شدة الصوت، فكأنهم جعلوا الأصابع جميعها، والظاهر أن التمثيلين من جملة التمثيلات المؤلفة وهو أن تشبه كيفية منتزعة من مجموع تضامنت أجزاءه وتلاصقت حتى صارت شيئاً واحداً بأخرى مثلها، فالغرض تمثيل حال المنافقين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة، شُبِّهت حيرتهم، وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفنت ناره بعد إبقاءها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ
الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ٢١، ٢٢)
إلى قوله: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا..» العبادة: الطاعة^(١). أو قل: خضوع ينشأ عن استشعار
القلب بعظمة المعبود. أو وَحَدُّوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ولم تكونوا شيئاً * والربُّ: هو الذي
يسوسُّ من يُرَبِّيه ويُدَبِّرُ شؤنه * والتد: الشريك والكفء، يقال فلان ندُّ فلان إذا كان
مماثلاً له في بعض الشئون. وسيأتيك المزيد من الإيضاح فيما بعد إن شاء الله تعالى * قال
الواحدي في أسباب نزوله (ص ١٣) أخبرنا سعيد بن محمد الزاهد، قال أخبرنا أبو علي بن
أحمد الفقيه، قال أخبرنا أبوذر القهستاني، قال حدثنا عبدالرحمن بن بشر قال: حدَّثنا
روح قال حدَّثنا شعبة عن سفيان الثوري عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال: كل
شيء نزل فيه «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» فهو مكِّي، و«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» فهو مدني * يعني أن
يا أيها الناس خطاب لأهل مكة، ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة حيثما ورد
الخطابان. وقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ..» خطاب لمشركي مكة إلى قوله:
«وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» وهذه الآية نزلت في المؤمنين، وذلك أن الله
تعالى لمَّا ذكر جزاء الكافرين بقوله: «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» ذكر خبر المؤمنين «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..» *
قال القرطبي: وهذا يرده. أي ما ذكر من الخطابين أن هذه السورة والنساء والحجرات
مدنيتان باتفاق، وفيها «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» وأمَّا قوله: أي مجاهد وعلقمة في «يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا» فصحيح * وقال عروة بن الزبير: ما كان من حدِّ، أو فريضة فإنه نزل في
المدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة * قلت: ولعل هذا التعريف
أوضح من (يا أيها الناس — و— يا أيها الذين آمنوا) لأنه ليس كل آية فيها كذلك *
ونقل القرطبي في تفسيره عن ابن عباس: «اعْبُدُوا رَبَّكُمُ» وحدوا ربكم. أي أفردوا

(١) أصل العبادة الخضوع والتذلل والطاعة. والتعبُّد التَّسُّكُّ. والمقصود بها توحيد الله تعالى. والتزام شرائع
دينه، والعمل بها أو الخضوع لله تعالى بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة. (المؤلف).

الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه. ونقل عنه أيضاً «يا أيها الناس أعبدوا ربكم» للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين، أي وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم * وفي معنى «اعبدوا ربكم» قال الخطيب الشربيني في تفسيره: تحريكاً للسامع، وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة، وتفخيماً لشأنها، وجبراً لمشقة العبادة بلذة المحاطة * والصحيح أن لفظ الخطاب * بصيغة (الناس) يعم جميع الموجودين وقت النزول لفظاً، ومن سيوجد بعدهم إلى يوم القيامة، تنزيلاً للمعدوم منزلة الموجود.

قال الخطيب: وذلك لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للقبيلين، ثابت إلى قيام الساعة إلا ما خصه الدليل * وفي الخازن (ج ١ ص ٣١) «يا أيها الناس أعبدوا ربكم» قال ابن عباس: (يا أيها الناس) خطاب لأهل مكة و(يا أيها الذين آمنوا) خطاب لأهل المدينة. قال الخازن: وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين. (اعبدوا ربكم) قال ابن عباس: وحدوا ربكم... وكل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد، وأصل العبودية التذلل، والعبادة غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الافضال والإنعام، وهو الله تعالى: «الَّذِي خَلَقَكُمْ» أي ابتدع خلقكم على غير مثال سبق. «وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» أي وخلق الذين من قبلكم. «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» لعل وعسى حرفا ترجح، وهما أي كل منهما من الله واجب «تَتَّقُونَ» أي لكى تشجوا من العذاب، وقيل: معناه تكونوا على رجاء التقوى بأن تصيروا في ستر ووقاية من عذاب الله، وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا» أي خلق لكم الأرض بساطاً ووطاءً مذلةً، ولم يجعلها حزنَةً لا يمكن القرار عليها، والحزن ما غلظ من الأرض «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً» أي سقفاً مُرفوعاً، والمتفكر في العالم يجده كالبيت المعمور فيه كل ما يحتاج إليه، فالسواء مرفوعة كالسقف، والأرض مفروشة بالبساط، والنجوم كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت وفيه ضروب النبات المهيأة لمنافعه، وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه، فيجب على الإنسان المسخر له هذه الأشياء شكر الله تعالى عليها «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» يعني السحاب «مَاءً» يعني المطر «فَأَخْرَجَ بِهِ» أي بذلك الماء «مِنَ الثَّمَرَاتِ» يعني من ألوان الثمرات، وأصناف النبات «رِزْقًا لَكُمْ» أي وعلفاً لدوابكم «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا» يعني أمثالاً تعبدونهم كعبادته، والتد المثل «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أي بعقولكم أن هذه

الأشياء والأمثال لا يصح جعلها أنداداً لله. وأنه واحدٌ خالق لجميع الأشياء. وأنه لا مثل له ولا ضدَّ له...

واعلم أنَّ النداء في اللغة على سبع مراتب:

الأول : نداء مدح كقوله تعالى: «يا أيُّها النبي» «يا أيها الرسول».

الثاني : نداء ذم كقوله تعالى: «يا أيها الذين هادوا» «يا أيها الذين كفروا».

الثالث : نداء تنبيه كقوله تعالى: «يا أيها الإنسان» «يا أيها الناس».

الرابع : نداء إضافة كقوله تعالى: «يا عبادي».

الخامس : نداء نسبة كقوله تعالى: «يا بني آدم» «يا بني إسرائيل».

السادس : نداء تسمية كقوله تعالى: «يا داود» «يا إبراهيم».

السابع : نداء تضييف كقوله تعالى: «يا أهل الكتاب».

ويا حرف وُضع في أصله لنداء البعيد، صوتٌ يهتف به الرجل بمن يناديه. والنداء في الأصل طلب الإقبال، والمراد به هنا التنبيه، وأي مبنى على الضمِّ في محل نصب، والهاء للتنبيه، والناس نعت لأى على اللفظ، وحركته اعرابية، وحركة أي بنائية. وفي قوله تعالى: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: [قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لَهُ نِدَاءً وَهُوَ خَلْقُكَ] الحديث. وروى يزيد بن الأصم عن ابن عباس قال: [قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: ما شاء الله وما شئت، فقال: أ جعلتني لله نداً؟ قُلْ ما شاء الله وحده] رواه بن مردويه. وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح به. وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد والعقيدة من الشرك الأكبر والعياذ بالله، أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه لا ربَّ لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم من التوحيد هو الحق الذى لا شك فيه، هكذا قاله قتادة وابن عباس رضي الله عنهم. وروى عكرمة عن ابن عباس: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً» قال الأنداد: هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول والله وحياتك يافلان وحياتي، ويقول لولا كَلْبَةٌ هذا لأتانا اللصوص البارحة، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلان. هذا كله به

شرك* وفي الحديث: [نعم القوم أنتم لولا أنكم تُنددون. تقولون ما شاء الله وشاء فلان]* وقال أبو العيالة: فلا تجعلوا لله أنداداً أي عدلاء. شركاء، وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبومالك وإسماعيل بن أبي خالد* وقال مجاهد: (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) قال تعلمون أنه إلهٌ واحدٌ في التوراة والإنجيل كذا في ابن كثير في التفسير (ج ١ ص ٥٧)* وقال أبو جعفر في تفسيره (ج ١ ص ١٢٦) والأنداد جمع ند. والند العدل والمثل، كما قال حسان بن ثابت:

أَنْهَجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنْدٍ فَشَرُّكُمْ لِحَيْرِكَمَا الْفُسَادُ

يعنى بقوله: ولست له بندٌ. لست له بمثل. ولا عدل، وكل شيء كان نظيراً لشيء وشيهاً فهو له ندٌ قال تعالى: «ليس كمثله شيء»* وعن ابن مسعود: (فلا تجعلوا لله أنداداً) قال: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله* وقال ابن زيد: الأنداد: الآلهة التي جعلوها معه، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له* وعن عكرمة (فلا تجعلوا لله أنداداً) أي تقولوا لولاً كلبنا لدخل علينا اللصُّ الدار، لولا كلبنا صاح في الدار، ونحو ذلك، فهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيره، أو يتخذوا له نداً وعدلاً في الطاعة، فقال: كما لا شريك لي في خلقكم وفي رزقكم الذي أرزقكم، وملكى إيتاكم، ونعمتى التي أنعمتها عليكم فكذلك، فأفردوا إلى الطاعة وأخلصوا إلى العبادة، ولا تجعلوا لي شريكاً ونداً من خلق، فإنكم تعملون أن كل نعمة عليكم متى* وقوله تعالى: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين* فإن لم تفعلوا ولكن فاعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» (آية ٢٣، ٢٤)* قال القتيبي: الريبة والريب الشك.

وقوله تعالى: (لا ريب فيه) لا شك فيه. والسورة: قطعة من القرآن الكريم لها أولٌ وآخر. أقلها ثلاث آيات كما في الكوثر، والآية طائفة من السورة، متميزة بفصل، يسمى الفاصلة، والسورة إن جعلت واوها أصلية منقولة من سور المدينة، لأنها محيطة بطائفة من القرآن معززة محوزة على حياها، أو محتوية على أنواع من العلم، أو من السورة التي هي الرتبة. لأن السور كالمنازل والمراتب يرتقى فيها القارىء. أولها: مراتب الطول والقصر والفضل والشرف، وثواب القراءة... وإن جعلت الواو مبدلة من الهمزة: فن السورة التي هي البقية، والقطعة من الشيء، والحكمة في تقطيع القرآن سوراً لإفراد الأنواع، وتلاحق

الأشكال، وتناسب النظم، وتنشيط القارىء، وتسهيل الحفظ والترغيب فيه، فإنه إذا ختم سورة نفس ذلك عنه بعض كربة، كالمسافر إذا علم أنه قطع ميلاً، أو طوى بريداً، والحافظ متى حفظها اعتقد أنه أخذ من القرآن حظاً تاماً، وفاز بطائفة محدودة مستقلة، فَعَظُمَ ذلك عنده، وابتهج به إلى غير ذلك من الفوائد، أي وإن كنتم في شك، لأن الله تعالى عليهم أنهم شاكون «مما نزلنا على عبدنا» أي محمد صلى الله عليه وسلم لما تقرّر إثبات الربوبية لله سبحانه وتعالى. وأتته الواحد الخالق، وأنه لا ضد له ولا ند، أتبعه بإقامة الحجّة على إثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأنه من عند الله تعالى لا من عند نفسه، كما تدعون فيه، وقوله: «على عبدنا» إضافة تشريف لمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن القرآن مُنزل عليه من عند الله سبحانه وتعالى. «فأتوا» أمر تعجيز «بسورة من مثله» أي من مثل نظم القرآن. ومن حيث الفصاحة والبلاغة، والايجاز والإطالة والأحكام التشريعية والأخبار المغيبة، وهذا مما يدل على كون القرآن معجز، فتارة يأتي القصّة باللفظ الطويل، ثم يعيدها باللفظ الوجيز، ولا يخلُ بالمقصود الأوّل، وأنه فارقت أساليبه أساليب الكلام، وأوزانه أوزان الأشعار، والخطب والرسائل، ولهذا تحدّى العرب به فعجزوا عنه، وتحيروا فيه، واعترفوا بفضله، وهم معدن البلاغة، وفرسان الفصاحة، ولهم النظم من النثر ومن الأشعار، والخطب والرسائل، حتى قال الوليد بن المغيرة في وصف القرآن: والله إن له خلوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمغدق وأنّ أعلاه لمثمره فإن قلت: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل؟ معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب، وعلو الطبقة في حسن النظم، أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشراً عربياً أو أمياً لم يقرأ الكتب، ولم يأخذ من العلماء، ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك. «وادعوا شهداءكم من دون الله» أي استعينوا بأهتكم التي تعبدونها من دون الله، والمعنى أن الأمر كما تقولون أنها تستحقّ العبادة. فاجعلوا الاستعانة بها في دفع ما نزل بكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وإلا فاعلموا أنكم مبطلون في دعواكم أنها آلهة وقيل معناه وادعوا أناساً يشهدون لكم «إن كنتم صادقين» أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقول من تلقاء نفسه «فإن لم تفعلوا» أي فيما مضى «ولن تفعلوا» فيما بقي، وهذه الآية دالة على عجزهم، وأنهم لم يأتوا بمثله ولا بمثل شيء منه أبداً، وذلك أنّ النفوس الأبية إذا فُرعت بمثل هذا التقرير استفرغت

الوسع في الإتيان بمثل القرآن، أو بمثل سورة منه، ولو قدروا على ذلك لأتوا به، فحيث لم يأتوا بشيء ظهرت المعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، وبان عجزهم، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، والقرآن من جنس كلامهم، وكانوا حُرَّاصاً على إطفاء نوره، وإبطال أمره، ثم مع هذا الحرص الشديد لم تُوجد المعارضة من أحدهم، ورضوا بسبي الذراري وأخذ الأموال والقتل، وإذا ظهر عجزهم عن المعارضة صحَّ صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا كان الأمر كذلك، وجب ترك العناد وهو قوله تعالى: «فَاتَّقُوا النَّارَ» أي فآمنوا واتقوا بالإيمان النار «التي وقودها» أي حطبها «الناس والحجارة» قال ابن عباس: يعني حجارة الكبريت، لأنها أكثر التهاباً وقيل جميع الحجارة، وقيل الأصنام لقوله تعالى: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ» أي حطبها، ولذا قرن الناس مع الحجارة لأنهم كانوا يعبدونها معتقدين فيها النفع والضرر والشفاعة لهم، فجعلها الله عذابهم في نار جهنم التي «أُعِدَّتْ» أي هَيِّئْتُ «لِلْكَافِرِينَ» خالدين فيها، أبداً وبئس المصير. وفي البيضاوي: «وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» الشهداء جميع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة أو الناصر، أو الإمام، وكأنه سُمِّيَ به لأنه يحضر المجالس، وتُبرم بمحضرة الأمور. ومعنى «دون» أدنى مكان من الشيء، ومنه تدوين الكتب لأنه أدناه البعض من البعض، ودونك هذا أي خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للتفاوت في الرتب، فقيل زيد دون عمرو أي في الشرف، ومنه الشيء الدون، ثم اتسع فيه فاستعمل في كُلِّ تجاوز حدٍّ إلى حدٍّ، وتخطى أمر إلى أمر. قال الله تعالى: «لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين، «ومن» متعلقة بادعو، والمعنى: وادعوا إلى المعارضة من حضركم، أو رجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآهتكم غير الله، فإنه لا يقدر على أن يأتي بمثله إلا الله «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» شرط حذف جوابه. وقدره الجلال: في أن محمداً قاله من عند نفسه فافعلوا ذلك، فإنكم عربيون فصحاء مثله، وكذلك نصَّ غيره كالسمن والبيضاوي على أنه شرط حذف جوابه، لكن يعكز عليه القاعدة المشهورة من أنه إذا اجتمع شرطان وتوسَّط الجزاء بينهما يكون الأول قيد في الثاني، ويكون الجواب المذكور جواباً عنه ويمكن تصويب ما ذكره من أن معنى الجوابين مُتَّحِدٌ لأن فاتوا بسورة أو فافعلوا إن كنتم صادقين، كالجواب الواحد وقوله: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا» إن الشرطية داخلة على

جملة لم تفعلوا. وتفعلوا مجزور بلم فتكون في محلّ جزم بها، وقوله: «فاتقوا» جواب الشرط، ويكون قوله: «ولن تفعلوا» جملة معترضة بين الشرط وجزائه، ومعنى الاعتراض في الغالب التوكيد ويجيء لغيره، بحسب المقام، وعبر (بَلَنَ) دون لا لأنها أبلغ منها في نفي المستقبل واستمراره. «فاتقوا النار» جواب الشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من الفساد، إذ بذلك يتحقق تسببه عنه، وترتب عليه، كأنه قيل فإذا عجزتم عن الإتيان بمثله كما هو المقرّر، فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه، فإنه مستوجب للعقاب بالنار (والموقود) بفتح الواو أي ما توقد به، وأمّا بضمها فهو المصدر، هذه التفرقة على المشهور في أن المفتوح اسم للألة، والمضموم مصدر، وبعضهم قال: كل من الفتح والضمّ يجرى في الآلة والمصدر، فما توقد به النار يقال له وُقُود بالفتح والضمّ، وإيقادها كذلك، وكذا يقال في الضوء والسطور والسطور، ونحو ذلك. وقوله: «أعدت للكافرين» يقال أعد له كذا هيأة له فدل على أنها مخلوقة إذ الأخبار عن أعدادها للكافرين، والأخبار عن ذلك بلفظ الماضي دليل على وجودها، ودل على ذلك قوله تعالى في حق آل فرعون: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ» فما زعمته المعتزلة من أنها تُخلَقُ يوم الجزاء افتراء وهُزَاء، وما أوهى حجّتهم إذ قالوا: إن خلقها قبله عبث لا فائدة فيه، فلا يليق بالحكيم وهو مردود بالضرورة لما تقرر عند أهل السنّة والجماعة من بطلان القول بتعليل أفعاله تعالى بالفوائد لا يستل عما يفعل سبحانه. وتأويلهم بأنه يعبر عن المستقبل بالماضي لتحقيق الوقوع، ومثله كثير في القرآن. وهو مدفوع بأنه خلاف الظاهر، ولا يصار إليه إلا بقريته، وهي غير موجودة، ومخالف للدلائل القاطعة من القرآن والسنّة كقوله تعالى: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» وقوله عليه الصلاة والسلام في أرواح الشهداء: [بأنها في حواصل طير خضرتسرح في الجنة] وفي قوله تعالى: «فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ» يعني مثل القرآن، قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير والطبري والزمخشري والرازي ونقله عن عمرو بن مسعود وابن عباس والحسن البصري، وأكثر المحققين، ورجح ذلك بوجوه من أحسنها أنّه تحدّاهم كلهم متفرقين ومجتمعين، سواء في ذلك أميهم وكتابيهم، وذلك أكمل في التحدّي، وأشمل من أن يتحدّى أحادهم الأميين ممن لا يكتب، ولا يُعاني شيئاً من العلوم. وبدليل قوله تعالى:

«فَاتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ» وقوله تعالى: «قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» * وقال بعضهم: من مثل محمد صلى الله عليه وسلم. يعنى من رجل أمى مثله، والصحيح الأول لأن التحدى عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم، وقد تحداهم بهذا في مكة، والمدينة مرّات عديدة مع شدة عداوتهم له. وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال تعالى: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا» لن لنفى التأييد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبيراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف. ولا مُشْفِقٍ أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أجدال الأبدان، ودهر الدهارين، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ولا يمكن وأنى يتأتى ذلك لأحد! والقرآن كلام الله خالق كل شيء، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين، ومن تدبّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ، ومن جهة المعنى قال الله تعالى: «أَلَمْ يَكُنْ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ نُنزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ لُجُجًا مُجْتَمِعَةً» (ابن كثير ج ١ ص ٦٠) * وفي الطبرى (ج ١ ص ١٢٨) عن قتادة: «فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» يعنى من مثل هذا القرآن حقاً وصدقاً لا باطل فيه ولا كذب * وكذا عن مجاهد قال أبو جعفر: وما قاله مجاهد وفتادة هو التأويل الصحيح لأن الله جل ثناؤه قال في سورة أخرى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ» ومعلوم أن السورة ليست لمحمد بنظير ولا شبيهه * فلا يجوز أن يقال فاتوا بسورة من مثل محمد * وفي قوله: «وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» قال ابن عباس: يعنى أعوانكم على ما أنتم عليه إن كنتم صادقين * وعن مجاهد «وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ» ناس يشهدون، وفي رواية قال: قوم يشهدون لكم * وفي قوله تعالى: «فَاتِقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» فمن عبد الله ابن عمر قال: هي حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلّق السموات والأرض في السماء الدنيا يُعدها للكافرين * ولعله يقصد بذلك حجارة تشبه الشهب، والله أعلم * وعن ابن مسعود قال: حجارة الكبريت جعلها الله كما شاء * وعنه وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (أتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة) أما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود يُعذبون به مع النار * وكذا عن ابن جريح قال: وقال لى عمرو بن دينار: حجارة أصلب من هذه وأعظم * وعن ابن مسعود قال أيضاً: حجارة من الكبريت خلقها الله

عنده كيف شاء كما شاء الطبرى (ج ١ ص ١٣١).

والخلاصة :

فإن لم تفعلوا ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعد أن بذلتم الجهد، ولن تفعلوه فليس في استطاعتكم إذن فاحذروا من العناد، واعترفوا بكونه منزلاً من عند الله لئلا تكونوا أنتم وأصنامكم وقوداً للنار التي أعدت لأمثالكم من الكافرين.

* (القول في تأويل قوله تعالى :) *

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيَى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» سورة البقرة آية (٢٦)

ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٤):

عن ابن عباس من رواية ابى صالح قال: لما ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلين للمنافقين، يعنى قوله: «مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً»، وقوله: «أو كصيب من السماء» قالوا: الله أجلُّ وأعلى من أن يضرب الأمثال، فأنزل الله هذه الآية وقال الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين المثل، ضحكك اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله الآية وعن ابن عباس في قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيَى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا»، قال: وذلك أَنَّ الله ذكر آلهة المشركين فقال: «وإنَّ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا» وذكر كيد الآلهة، فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: أرايتم حيثُ ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أيُّ شيء يصنع بهذا؟ فأنزل الله الآية وفي الطبرى (ج ١ ص ١٣٨) عن الربيع بن أنس في قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيَى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا»، قال: هذا مثل ضربه الله للدينيا أَنَّ البعوضة تحيا ما جاءت، فإذا سمت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن إذا امتلأوا من الدنيا يأخذهم الله عند ذلك، قال ثم تلا «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ» الآية وفي رواية زاد: فإذا خلَّى آجالهم، وانقطعت مدتهم صاروا كالبعوضة تحيا ما جاءت، وتموت إذا

رؤيت، فكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا المثل إذا امتلأوا من الدنيا يأخذهم الله، فأهلكهم، فذلك قوله: «حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ» * وقد رجح الطبري ما ذهب إليه ابن مسعود وابن عباس. وذلك أَنَّ الله جَلَّ ذكره أخبر عباده أَنه لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فافوقها عقيب أمثال قد تقدمت في هذه السورة ضربها للمنافقين دون الأمثال التي ضربها في سائر السور غيرها * والأولى أن يقال إِنَّه تعالى لا يستحي أن يضرب في الحق من الأمثال صغيرها وكبيرها ابتلاءً بذلك عباده، واختباراً منه لهم ليميز به أهل الإيمان والتصدق به من أهل الضلال، والكفر به، إضلالاً منه به لقوم، وهدايةً منه به لآخرين كما نقل الطبري عن مجاهد في قوله: «مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ» * يعنى الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون، ويعلمون أنها الحق من ربهم، ويهديهم الله بها، ويضلُّ بها الفاسقين، يقول يعرفه المؤمنون، فيؤمنون به، ويعرفه الفاسقون فيكفرون به * ونقل عن مجاهد مثله. ونقل عن ابن جريج بنحوه، خصها الله بالذكر في القلَّة، فأخبر أَنه لا يستحي أن يضرب أقل الأمثال في الحق، وأحقرها، وأعلاها، إلى غير نهاية في الإرتفاع جواباً منه جل ذكره لمن أنكر من منافق خلقه ما ضرب لهم من المثل بموقد النار والصيب من السماء على ما نعمتها به من نعمتها * ودليل ما ذكره عجز الآية «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا» * وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا...» * الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به ويزم عليه * وقيل: هو انقباض النفس عن القبائح. هذا أصله في وصف الإنسان، والله تعالى منزه عن ذلك كله، فإذا وُصف الله تعالى به يكون معناه الترك، وذلك لأن لكل فعلٍ بدايةً، فبداية الحياء هو التغير الذي يلحق الإنسان من خوف أن ينسب إليه ذلك الفعل القبيح، ونهايته ترك ذلك الفعل القبيح، فإذا ورد وصف الحياء في حق الله تعالى، فليس المراد منه بدايته وهو التغير والخوف، بل المراد منه ترك الفعل الذي هو نهاية الحياء وغايته، فيكون معنى «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا» * أي لا يترك المثل لقول الكفار واليهود ما قيل * (ما) صلة فيكون المعنى أن يضرب مثلاً بعوضة، وقيل: ليس هي بصلة بل هي للإبهام * والبعوض: صغار البق، ويطلق بالاشتراك على شيئين أحدهما البق المعروف بمصر، وهو حيوان صغير شديد اللسع منتن الرائحة، والآخر التاموس الذي

يطير، وعبارة القاموس: البقَّة البعوضة دويرة حمراء منتنة، والمراد به هنا الناموس كما ذكره المفسرون وعبارة الخازن (ج ١ ص ٣٦) والبعوض صغار البق، وهو من عجيب خلق الله تعالى، فإنه في غاية الصغر، وله خرطوم مجوّف، وهو مع صغره (وهو أضعف الخلق) يعض خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمال، فيبلغ منه الغاية، حتّى إنّ الجمال يموت من قرصة «مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا»، يعنى الذباب والعنكبوت، وما هو أعظم منها في الجثّة وقيل: معناه فادونها وأصغر منها. وهذا القول أشبه بالآية لأنّ الغرض بيان أنّ الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الصغير الحقير، وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلّم مثلاً للدنيا بجناح البعوضة، وهو أصغر منها، وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات، فقيل هو أحقر من ذرة، وأجمع من نملة، وأطيش من ذبابة.

«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا» يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلّم والقرآن «فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ» يعنى ضرب المثل «الْحَقُّ» يعنى الصدق، «مَنْ رَبَّهُمْ» الثابت الذي لا يجوز إنكاره. لأن ضرب المثل من الأمور المستحسنة في العقل وعند العرب «وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا»، أي بهذا المثل «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا» أي من الكفار، وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون به ضلالاً «وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا» يعنى المؤمنين، يُصدقونه ويعلمون أنه الحق، وما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» يعنى الكافرين. وقيل المنافقين: وقيل اليهود والفسق الخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله، والفاسيقين مفعول ليضل، وإلّا استثناء مفرغ، ويجوز عند الفراء أن يكون منصوباً على الإستثناء، والمستثنى منه محذوف. تقدير وما يُضِلُّ بِهِ أَحَدًا إِلَّا الْفَاسِقِينَ وقد وصفهم الله بقوله: «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ» صفة للفاسيقين ذكرت للذم وتقرير للفسق. والنقض فك التركيب، وأصله فك طاقات الحبل، واستعماله في إبطال العهد من حيث أن العهد يستعار له الحبل لما فيه من ربط أحد المتعاهدين بالآخر، فإنّ أطلق مع لفظ الحبل كان ترشيحاً للمجاز، وإن ذكر مع العهد كان رمزاً إلى شيء هو من رواده، وهو أن العهد حبل في إثبات الوصلة بين المتعاهدين، والعهد الموثق، ووصفه لما من شأنه أن يُراعى ويتعهد كالوصية واليمين، وهذا العهد إما العهد المأخوذ بالعقل وهو الحجج القائمة على عبادة الدّالة على توحيده، ووجوب وجوده وصدق رسله، وعليه حُمل قوله تعالى: «وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ» أو المأخوذ من الرّسل على الأمم إذا بعث إليهم رسولٌ مُصدّق بالمعجزات صدقوه واتّبعوه ولم يكتموا أمره

ولم يخالفوا حكمه، وإليه أشار بقوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» ونظائره وقيل: عهودُ الله ثلاثة: عهدُ أخذِه على جميع ذرية آدم بأن يُقرُّوا برَبوبيتِه وعهدُ أخذِه على النسيبِ بأن يقيموا الدِّينَ ولا يتفرَّقوا فيه وعهدُ أخذِه على العلماء بأن يُبيِّنوا الحقَّ ولا يكتُموه (البيضاوى) «من بعدِ ميثاقِه ويقطعون ما أمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ» وفي البيضاوى: أي من كل قطعة لا يرضاها الله كقطع الرحم والاعراض عن موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام، والكتب في التصديق، وترك الجماعات المفروضة، وسائر ما فيه رفض خير، أو تعاطي شرٍّ، فإنَّه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصود بالذات من كل وصل وفصل * والأمرُ: هو القولُ الطالب للفعل وقيل مع العلو، وقيل: مع الاستعلاء وبه سُمي الأمر الذي هو أحدُ الأمور تسمية للمفعول به بالمصدر، فإنَّه مما يؤمَّر به * «وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ» بالمعاصي والتعويق عن الإيمان * «أُولَئِكَ» الموصوفون بما ذكر «هُمُ الْخَاسِرُونَ» لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم، أي بإهمال العقل عن النظر في مخلوقات المؤدية إلى الإيمان به تعالى * والخاسر من خسر أحد أمور ثلاث (المال، والبدن، والعقل) وهؤلاء من الثالث * وفي الخازن «من بعدِ ميثاقِه» أي من بعد عقده وتوكيده، وفي معنى هذا العهد. أقوال:

أحدها: أنه الذي أخذه عليهم يوم الميثاق وهو قوله تعالى: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى».

الثاني: المراد به الذي أخذه على أحبار اليهود في التوراة أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلّم، وبيَّنوا نعتَه وصفته.

الثالث: المراد به الكفار والمنافقون الذين نقضوا عهداً أبرمه الله تعالى، وأحكمه بما أنزل في كتابه من الآيات الدالة على توحيدِه.

وذكر ابن كثير في التفسير (ج ١ ص ٦٤) قال السُّدِّي في تفسيره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مُرَّة عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: لَمَّا ضرب الله هذين المثَلين للمنافقين يعني قوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا» وقوله: «أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ» الآيات الثلاث. قال المنافقون: الله أغلَى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال فأنزل الله هذه الآية إلى قوله هم الخاسرون * ونقل السُّدِّي في تفسيره عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة «يضلُّ به كثيراً» يعني به المنافقين

«ويهدي به كثيراً» يعنى به المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالةً إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله بما ضربهم، وأنه لِمَا ضُرب له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به، ويهدي به يعنى المثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هُدىً إلى هُداهم، وإيماناً إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً، وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به * «وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» قال: هم المنافقون وكذا أبو العالية، والربيع بن أنس * وعن سعد «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا» يعنى الخوارج * وعن مصعب بن سعد قال: سألتُ أبى: فقُلْتُ قوله تعالى: «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ» إلى آخر الآية، فقال: هم الحرورية * قال ابن كثير: وهذا الإسناد وإن صح عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه فهو تفسير على المعنى. لا أن الآية أريد منها التَّنصيص على الخوارج الذين خرجوا على على بالنهروان فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل لأنهم سُموا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام، والقائم بشرائع الإسلام * وفي قوله تعالى: «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ..» الآية * قال ابن كثير: اختلف أهلُ التفسير في معنى العهد. الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عمّا نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رُسُلِهِ ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به * وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحدٌ من الناس غيرهم أن يأتي بمثله، الشهادة لهم على صدقهم * قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الاقرار بما قد تبيّنت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرُّسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق * وقال ابن كثير: وروى عن مقاتل بن حيان أيضاً نحو هذا. وهو حسن * وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية في قوله تعالى: «الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ» إلى قوله: «أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» قال: هي ستُّ خصال من المنافقين إذا كانت فيهم، الظهرة على النَّاس، أظهروا هذه الخصال: إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا أؤتمنوا خانوا، ونقضوا عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض * وإذا

كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أحلفوا، وإذا أوتمنوا خانوا. وفي قوله تعالى: «وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ» قيل المراد به صلة الأرحام والقرابات كما فسره قتادة كقوله تعالى: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ» ورجحه ابن جرير. وفي قوله تعالى: «أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» قال مقاتل بن حيان: في الآخرة وهذا كما قال تعالى: «أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء نسبة الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر، فإنما يعنى به الكفر، وما نسبة إلى أهل الإسلام فإنما يعنى به الذنب.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ»

سورة البقرة (آية : ٤٤) جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ١٤) قال ابن عباس في رواية الكلبي عن أبي حاتم: نزلت في يهود المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوى قرابته، ولمن بينهم رضاع، وبين رضاع من المسلمين. أتيت على الدين الذي أنت عليه، وما يأمرك به، وهذا الرجل يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم فإن أمره حق، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلون. وفي القرطبي: وعن ابن عباس أيضاً: كان الأخبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم باتباع التوراة، وكانوا يخالفونها. وقال فرقة: كانوا يحضون على الصدقة وبيخلون. قلت وفي حديث الإسراء: روى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسرى بي: [مررت على ناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب فلا يعقلون] رواه الإمام أحمد في مسنده (ج ١ ص ١٢٠) ورواه الرازي في تفسيره (ج ١ ص ٤٩٦) * وفي صحيح مسلم عن أسامة بن زيد قال: [سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنيه، فيدورها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه الناس، فيقولون يا فلان: مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! فيقول: بلى، كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية] * وفي تفسير الطبري (ج ١ ص ٢٠٤) قال ابن جريج: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ» أهل الكتاب

والمنافقون، كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، و يدعون العمل بما يأمرون به النَّاسَ،
 فعيّرهم الله بذلك، فن أمر بخير فليكن أشدَّ النَّاسِ فيه مُسَارِعَةً * وقال ابن زيد: هؤلاء
 اليهود كان إذا جاء الرجل يسألهم ما ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق.
 فقال الله لهم: «**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**» * يقول الله تعالى فيما معناه: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون
 الناس بالبرِّ (وهو جماع الخير)، أن تنسوا أنفسكم، فلا تأمرونها بما تأمرون الناس به، وأنتم
 مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قصّر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم
 صانعون بأنفسكم؟ فتنهبوا من رقدتكم، وتنبصروا من عمايتكم، والغرض أن الله تعالى
 ذمهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير
 ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبرمع تركهم له، بل على تركهم له فإن
 الأمر بالمعروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من
 أمرهم به ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام: «**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى
 مَا أَنْهَاكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
 وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**» فكلُّ من الأمر بالمعروف وفعله واجب، ولا يتسقط أحدهما بترك الآخر على
 أصح قول العلماء من السلف والخلف * روى أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير عن
 جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مثلُ العالمِ
 الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ لَا يَعْمَلُ بِهِ كَمِثْلِ السَّرَاحِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيُحْرَقُ نَفْسُهُ] * قال ابن
 كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه * وقد ورد في بعض الآثار (أنه يغفر للجاهل
 سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لا يعلم) * وروى الضحاك
 عن ابن عباس: [قال: جاءه رجلٌ فقال يا ابن عباس: إني أريد أن أمر بالمعروف وأنهى
 عن المنكر، قال: أبلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: إن لم تخش أن تفضح بثلاث آيات من
 كتاب الله فافعل، قال: وما هن؟ قال: قوله تعالى: «**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ
 أَنْفُسَكُمْ**» أحكمت هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني؟ قال: قوله تعالى: «**لِمَ تَقُولُونَ
 مَا لَا تَفْعَلُونَ**» كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» أحكمت هذه؟ قال: لا،
 قال: فالحرف الثالث؟ قال قول العبد الصالح: شعيب عليه السلام: «**وَمَا أُرِيدُ أَنْ
 أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ**» أحكمت هذه؟ قال: لا، قال:

فابدأ بنفسك] رواه ابن مردويه في تفسيره * وقال الخطيب الشربيني في تفسيره: والآية ناعية على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه بسوء صنيعه، وخبث نفسه، وإن فعله فعل الجاهل بالشرع، أو الأحمق الخالي عن العقل، فإن الجامع بين العلم والعقل يأبى عن كونه واعظاً غير متعظ نفسه * والمراد بها حثُّ الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها. بالتمكيل لها ليقوم نفسه، ثم يقوم غيره، لا منع الفاسق عن الوعظ، فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر * وقوله تعالى: «بِالْبِرِّ» هو اسم جامع لجميع أنواع الخير والطاعات، وتفسيره بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنه المراد في هذا المقام، ولأن الإيمان بنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم أصل كلِّ برٍّ والبر أيضاً سعة الخير من الصلوة والطاعة، والفعل منه برٌّ كعلم يعلم. والبرُّ بالفتح الاجلال والتعظيم، ومنه ولدُ برٌّ بالديه أي يُعظمها، والله تعالى برُّ لسعة خيره على خلقه * وفي البيضاوي: البرُّ: بالكسر التوسُّع في الخير مأخوذ من البرِّ بالفتح وهو الفضاء الواسع، والبرُّ بالكسر ثلاثة أقسام * برٌّ في عبادة الله * و برٌّ في مراعاة الأقارب * و برٌّ في معاملة الأجانب * وقوله تعالى: «وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ» أي تتركونها بالنسيان لأن نسيان الشيء يلزمه تركه، فهو من استعمال الملزوم في اللازم، أو السبب في المسبب، وسرُّ هذا التجوُّز الإشارة إلى أن ترك ما ذكر لا ينبغي أن يصدر عن العاقل إلا نسياناً * قوله: «وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ» التوراة حال والعامل فيها تنسون، تبيكيت وتقرير كقوله: «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» وكذا الإستفهام في قوله: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ» فهو للتقرير مع التقرير والتعجب من حالهم.

وفي الخازن (ج ١ ص ٤٦) في سبب النزول: وقيل إن جماعة من اليهود قالوا لمشركى العرب: إنَّ رسولاً سيظهر منكم، ويدعوكم إلى الحق، وكانوا يُرغبونهم في اتباعه، فلمَّا بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم حسدوه وكفروا به، فبكتهم الله، ووبخهم بذلك حيث إنهم كانوا يأمرون الناس باتباعه قبل ظهوره فلما ظهر تركوه وأعرضوا عنه، فنزلت الآية * وقوله تعالى: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» ما ذكر في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم فتبعبونه؟ * والعقل قوة تُهيء قبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيدة الإنسان بتلك القوة عقل، ومنه قول على بن أبي طالب رضي الله عنه:

وإنَّ العَقلَ عقلان فطبوخٌ ومسموعٌ

ولا يَنْفَعُ مَطْبُوعٌ إِذَا لَمْ يَكُ مَسْمُوعٌ
 كما لا تَنْفَعُ الشَّمْسُ وضوءُ الْعَيْنِ مَسْمُوعٌ
 وأصل العقل الإمساك لأنه مأخوذ من عقال الدابة، كعقل البعير بالعقال لينعه من
 الشُّرُودِ، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود، والأفعال القبيحة، قيل: من
 وعظ بقوله أي بدون فعله ضاع كلامه، ومن وعظ بفعله نفذت سهامه، وقال بعضهم:
 ابدأ بنفسك فانها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
 فهناك يُسمعُ ما تقول ويُقتدى بالقول منك ويُنفَعُ التَّعْلِيمُ
 القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ
 مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» سورة البقرة (آية: ٤٥، ٤٦)

قال الواحدى في أسباب النزول (ص ١٤): عند أكثر أهل العلم أنَّ هذا الخطاب
 لأهل الكتاب، وهو مع ذلك أدب لجميع العباد. وقال بعضهم: هو خطاب للمسلمين
 قال: والأول أظهرٌ ومعنى الآية على ما ذكر: واستعينوا أيها الأبحار من أهل الكتاب
 بحبس انفسكم على طاعة الله وكفها عن معاصي الله، وبقامة الصلاة المانعة من
 الفحشاء والمنكر، المقربة من مرضاة الله العظيمة إقامتها* والأولى أن يقال إن الخطاب
 للمسلمين لا الكافرين لأنَّ من ينكر الصلاة والصبر على دين محمد صلى الله عليه وسلَّم لا
 يُقال له: استعن بالصبر والصلاة، فوجب صرفه إلى من صدق محمداً صلى الله عليه وسلَّم
 وآمن به* قال الخازن في تفسيره (ج ١ ص ٤٧) وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لبنى
 إسرائيل لأنَّ صرف الخطاب إلى غيرهم يوجب تفكيك نظم القرآن، ولأنَّ اليهود لم
 ينكروا أصل الصلاة والصبر لكن صلاتهم غير صلاة المؤمنين، فعلى هذا القول: إنَّ الله
 تعالى لمَّا أمرهم بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلَّم والتزام شريعته، وترك الرياسة،
 وحب الجاه والمال قال لهم: استعينوا بالصبر: أي بحبس النفس عن اللذات، وإن
 صمَّمْتُمْ إلى إقام الصلاة هان عليكم ترك ما أنتم فيه من حب الرياسة والجاه والمال*
 وعلى القول الأول يكون معنى الآية: واستعينوا على حوائجكم إلى الله، وقيل: على ما
 يشغلكم من أنواع البلاء، وقيل: على طلب الآخرة بالصبر، وهو حبس النفس عن
 اللذات وترك المعاصي، وقيل: بالصبر على أداء الفرائض، وقيل: الصبر هو الصوم، لأنَّ

فيه حبس النفس عن المفطرات وعن سائر اللذات، وفيه انكسار النفس بالصلاة، أي إجمعا بين الصبر والصلاة، وقيل: معناه واستعينوا بالصبر على الصلاة وعلى ما يجب فيها من تصحيح النية، وإحضار القلب، ومراعاة الأركان والآداب مع الخشوع والخشية، فإن من اشتغل بالصلاة ترك ما سواها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. أي إذا أهّمه أمر لجأ إلى الصلاة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه نعى له أخوه قثم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيها السجود، ثم قام إلى راحلته، وهو يقول: استعينوا بالصبر والصلاة. وهذا يدل على أن الخطاب للمسلمين لا إلى اليهود كما ذهب إليه الواحدى، والصبر الحقيقي إنما يكون بتذكر وعد الله بحسن الجزاء لمن صبر عن الشهوات المحرمة التي تميل إليها النفس، وعمل أنواع الطاعات التي تشق عليها، والتفكر في أن المصاب بقضاء الله وقدره، فيجب الخضوع له والتسليم لأمره، والاستعانة بالصبر تكون باتباع الأمر واجتناب النواهي بقمع النفس عن شهواتها، وحرمانها لذاتها، وتكون بالصلاة لما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر، ولما فيها من مراقبة الله في السر والنجوى، وناهيك بعبادة يناجي فيها العبد ربّه في اليوم خمس مرات * «وإنّها» بمعنى الصلاة، وقيل الاستعانة والأول أظهر ذكره الجلال. جرياً على قاعدة عود الضمير للأقرب * وقيل: للأمر التي أمر بها بنو إسرائيل، ونهوا عنها من قوله: «اذكروا نعمتي» إلى قوله: «واستعينوا» * «لكبيرّة» أي ثقيلة، شاقة كقوله تعالى: «كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» * «إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» يعنى المؤمنين، ولم تشقل عليهم كثقلها على غيرهم لأن نفوسهم مُرتاضة بأمثالها متوقعة في مقابلتها الثواب الذي يستحق لأجله مشاقها، ويستلذ بسببه متاعها، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم: [وجعلت قرة عينى في الصلاة] * البيضاوى.

وقيل: الخاشعين: الخائفين، وقيل: المطيعين المتواضعين لله، وأصل الخشوع السكون. فالخاشع ساكن إلى الطاعة، وقيل الخشوع الضراعة، وأكثر ما تستعمل في الجوارح. والاستثناء «إلا على الخاشعين» مفرغ وشرطه أن يسبق بنى فيؤول الكلام هنا بالنفى أي وإنها لا تُخفّف ولا تُسهّل إلا على الخاشعين * «الَّذِينَ يَطْمَئِنُّونَ» أي يستسيقون وقيل يعلمون «أَنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ» يعنى في الآخرة — وفيه دليل على ثبوت رؤية الله تعالى في الآخرة، لأن اللقاء لا يتحقق إلا بالرؤية إنها رؤية تليق به جل جلاله.

وقيل: ملاقوا ثواب ربهم * «وَأَتَهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» يعني بعد الموت فيجازيهم بأعمالهم * وفي الصحيح: [أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلَمْ أُرَوِّجْكَ؟ أَلَمْ أَكْرِمْنَاكَ؟ أَلَمْ أُسْخِرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَدْرُكَ تَرَأْسَ وَتَرْتَع؟] فيقول: بلى، فيقول الله تعالى: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فيقول: لا، فيقول الله: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي [وهذا كقوله تعالى: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ»] * وفي الخطيب: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» أفردها بالذكر — أي دون غيرها من الأركان — تعظيماً لشأنها، فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة، وصرف المال فيها، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النية بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجات الرحمن، وقراءة القرآن، والتكلم بالشهادتين، وكف النفس عن الأطينين (وهما الأكل والجماع) * وعن الضحاك في قوله تعالى: «وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» قال: إنها لثقيلة، ويعنى بقوله: «إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» إلا على الخاضعين لطاعته. الخائفين سطواته المصدقين بوعده ووعيده * وعن مجاهد قال: «إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» المؤمنین حقاً * وقال ابن زيد: الخشوع الخوف والخشية لله. وقرأ قول الله: «خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ» قال: قد أذلَّهُم الخوف الذي نزل بهم وخشعوا له * وإن قال قائل: وكيف أخبر الله جل ثناؤه عمَّن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظنُّ أنه ملاقيه أي «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ» والظنُّ شك. والشاك في لقاء الله كافر؟ قيل له: إن العرب قد تُسمي اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة، والمغيث صارخاً والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تُسمي بها الشيء وضده، وما يدل على أنه يُسمى به اليقين قول دريد بن الصمة:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِالْفَى مُدَجِّجٍ سُرَاتِهِمْ فِي الْفَارِسِ الْمَسْرِدِ

يعنى بذلك تيقنوا ألفى مدجج تأتيكم * وقول عمير بن طارق:

بَأَنْ يَغْتَرَّوْا قَوْمِي وَأَقْعُدُ فِيكُمْ وَأَجْعَلُ مِنَ الظَّنِّ غَيْباً مُرَجِّمًا

يعنى وأجعل مني اليقين غيباً مرجماً، وما يدل عليه قوله تعالى: «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا» أي فتيقنوا أنهم واقعون فيها.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» سورة البقرة (آية: ٦٢).

ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٥) عن مجاهد قوله: لَمَّا قَصَّ سلمان — أي الفارسُ — على النبي صلى الله عليه وسلم قصة أصحاب الدير. قال: هم في النار، قال سلمان: فأظلمت على الأرض. فنزلت «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا» إلى قوله: «يَحْزَنُونَ» قال: فكأنما كشف عنى جبل * وعن السُّدِّي قال: نزلت في أصحاب سلمان الفارس لَمَّا قدم سلمان على رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يخبر عن عبادة أصحابه، واجتهادهم، وقال يارسول الله كان يُصلُّون، ويؤمنون بك، وَيَشْهَدُونَ أَنَّكَ نَبِيٌّ، فَلَمَّا فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يا سلمانُ هم من أهل النار] فأنزل الله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا» الآية نزلت في سلمان الفارسى، وكان من أهل جندى سابور من أشرافهم، وما بعد هذه الآية نزلت في اليهود والمراد بالذين آمنوا هم المصدقون رسول الله فيما أتاهم به من الحق من عند الله «وَالَّذِينَ هَادُوا» يعنى اليهود، سُمُّوا بذلك لقولهم «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ» أي ملنا إليك * وقيل: هادوا أي تابوا عن عبادة العجل * وقيل: إنهم ماألوا عن دين الإسلام ودين موسى عليه السلام (الخانن ج ١ ص ٥٤) * ويقال هادوا وتهودوا إذا دخل في اليهودية، ويهود إذا عرّبى من هاد إذا تاب سُمُّوا بذلك لَمَّا تابوا من عبادة العجل، وإما معرب يهودا، وكأنهم سُمُّوا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام (البيضاوى) * «وَالنَّصَارَى» جمع نصرانى كالندمى والياء في النصرانى للمبالغة كما في أحمر سُمُّوا بذلك لأنهم نصرؤا المسيح أو لأنهم كانوا مَعَةً في قرية يقال لها نصران، فسُمُّوا باسمها، أو باسم من أسسها (البيضاوى) * «وَالصَّابِئِينَ» أصله من صبأ إذا خرج من دين إلى دين آخر سُمُّوا بذلك لخروجهم من الدين * قال عمر وابن عباس: هُم قوم من أهل الكتاب. قال عمر: ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب * وقال ابن عباس: لا تحلُّ ذبائحهم ولا مَتَاكحتهم * وقيل: هم قوم بين اليهود والمجوس لا تحلُّ ذبائحهم ولا مناكحتهم، وقيل: هُم بين اليهود والنصارى يخلقون أوساط رؤسهم، وقيل: هُم قوم يقرؤون بالله، و يقرؤون الرُّبُور، ويعبدون الملائكة، ويصلُّون إلى

الكعبة، أخذوا من كل دين شيئاً * والأقرب أنهم قوم يعبدون الكواكب، وذلك أنهم يعتقدون أنّ الله تعالى خلق هذا العالم، وجعل الكواكب مدبرة له فيجب على البشر عبادتها وتعظيمها، وأنها هي التي تقرب إلى الله * ويقال إنهم على دين صابئ بن شيص بن آدم * وقال مجاهد: الصابئون: قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين * وعن اسحاق بن راهويه: الصابئون: فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم * وكان الحسن يقول: في الصابئين إنهم كالمجوس * وروى عنه أنهم قوم يعبدون الملائكة * وعن الحسن قال: أخبرني زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة، ويصلون الخمس، قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية قال: فأخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة، وقال أبو جعفر الرازي: بلغني أنّ الصابئين قوم يعبدون الملائكة ويقرؤون الزبور، ويصلون للقبلة، وكذا قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وأخبر ابن أبي الزناد عن أبيه قال: الصابئون قوم مما يلي العراق وهم بכוثي، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوماً، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات * وسئل وهب بن منبه عن الصابئين: فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً * وقال عبدالرحمن بن زيد: الصابئون: أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب، ولا نبي إلا قول لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم يعني في قول: لا إله إلا الله * وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب، يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام * وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم * قال القرطبي: والذي تحصّل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة، ولهذا أفتى أبو سعيد الاصطخري: بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم * واختار الرازي: أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعباد والدعاء، أو بمعنى أنّ الله فوّض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلى الكشترانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام، ردّاً عليهم ومبطلاً لقولهم * قال ابن كثير: وأظهر الأقوال — والله أعلم — قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبه، أنهم قوم

ليسوا على دين اليهود ولا النصرارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم بأقون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه، ولهذا كان المشركون ينزون من أسلم بالصابىء، أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك * وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبي * قلت: وصبأ في اللغة: تطلق على الذي خرج من الدين، ويُنَحَّثَمُ أنهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة * «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في ملة الإسلام دخولاً أصلياً «وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ» الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم * قال الخازن (في ج ١ ص ٥٤) فإن قلت: كيف قال في أوّل الآية «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا» وقال في آخرها «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» فافائدة التعميم، أولاً، ثم التخصيص آخرًا؟ قلت: اختلف العلماء في حكم الآية فلهم فيه طريقان:

أحدهما: إنه أراد أن الذين آمنوا على التحقيق، ثم اختلفوا فيهم، فقليل هم الذين آمنوا في زمن الفترة وهم طلاب الدين مثل حبيب التجار، وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل، وبحيرا الراهب، وأبي ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، فمنهم من أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وتابعه، ومنهم من لم يدركه، فكأنه تعالى قال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم فلهم أجرهم عند ربهم * وقيل: هم المؤمنون من الأمم الماضية * وقيل: هم المؤمنون من هذه الأمة «والذين هادوا» يعنى الذين كانوا على دين موسى ولم يبدلوا «والنصارى» الذين كانوا على دين عيسى، ولم يُغيروا «والصابئين» يعنى في زمن استقامة أمرهم * من آمن منهم * ومات وهو مؤمن. لأن حقيقة الإيمان تكون بالوفاة.

وأما الطريقة الثانية: فقالوا إن المذكورين بالإيمان في أول الآية إنما على طريق المجاز دون الحقيقة، وهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك * وقيل: هم المنافقون الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، واليهود والنصارى والصابئين، فكأنه تعالى قال: هؤلاء المبطلون. كل من آمن منهم الإيمان الحقيقي صار مؤمناً عند الله * وقيل: إن المراد من قوله: «إِنَّ الَّذِينَ» يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلم في الحقيقة حين الماضى، وثبتوا على ذلك في المستقبل وهو المراد من قوله تعالى: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً» أي في إيمانه «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»

أي في الآخرة أي حين يخاف الكفار من العقاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر
 وتفويت الثواب* الأجر في الأصل مصدر. يقال أجره الله يأجره أجرًا من بابى ضرب
 وقتل، وقد يعبر به عن نفس الشيء المُجَازَى به، والآية الكريمة تحتل المعنيين. أي فلهم
 أجرهم ثابتاً عند ربهم، والعندية مجاز لتعالیه جلّ جلاله عن الجهة، وقد تخرج إلى ظرف
 الزمان إذا كان مظروفها معنى، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: [إِنَّا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ
 الْأُولَى] * (قصة سلمان) ذكر الطبري في تفسيره (ج ١ ص ٥٤) عن السدي «(إِنَّ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا..» الآية قال نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان
 الفارسي. وكان سلمان من جند يسابور، وكان من أشرفهم، وكان ابن الملك صديقاً له
 مؤاخياً، لا يقضى واحد منها أمراً دون صاحبه، وكانا يركبان إلى الصيد جميعاً فبينما هما
 في الصيد إذ رفع لها بيوت من خباء فأتياه فإذا هما فيه برجل بين يديه مصحف يقرأ فيه.
 وهو يبكي فسألاه ما هذا؟ فقال الذي يريد أن يعلم هذا لا يقف موقفكما فإن كنتما
 تُريدان أن تعلمنا ما فيه فانزلا حتى أعلمكما، فنزلا إليه، فقال لهما: هذا كتاب جاء من
 عند الله أمر فيه بطاعته ونهى عن معصيته، فيه ألا تزني ولا تسرق، ولا تأخذ أموال الناس
 بالباطل فقص عليها ما فيه، وهو الانجيل الذي أنزله الله على عيسى، فوقع في قلوبها
 وتابعا فأسلما، وقال لهما: إن ذبيحة قومكما عليكم حرام، فلم يزالا معه كذلك يتعلمان
 منه حتى كان عيداً للملك فجعل طعاماً، ثم جمع الناس والأشرف، وأرسل إلى ابن الملك،
 فدعاه إلى صنيعه لياكل مع الناس، فأبى الفتى، وقال: إني عنك مشغول. فكل أنت
 وأصحابك، فلما أكثر عليه من الرسل أخبرهم أنه لا يأكل من طعامهم، فبعث الملك
 إلى ابنه فدعاه، وقال: ما أمرك هذا؟ قال: إنا لا نأكل من ذبائحكم إنكم كُفَّارٌ لا تحلُّ
 ذبائحكم. فقال له الملك: من أمرك بهذا، فأخبره أنَّ الراهب أمره بذلك، فدعا الراهب،
 فقال: ماذا يقول ابني؟ قال: صدق ابنك، قال له: لولا أن الدم فينا عظيم لقتلتك، ولكن
 اخرج من أرضنا، فأجَّله أجلاً فقال سلمان: فقمننا نبكى عليه، فقال لهما: إن كنتما
 صادقين، فأنا في بيعة بالموصل مع ستين رجلاً نعبد الله فيها فأتونا فيها، فخرج الراهب،
 وبقى سلمان وابن الملك، فجعل يقول لابن عبد الملك: انطلق بنا وابن الملك يقول نعم،
 وجعل ابن الملك يبيع متاعه يريد الجهاز، فلما أبطأ على سلمان خرج سلمان حتى أتاهم،
 فنزل على صاحبه وهو رب البيعة، وكان أهل تلك البيعة من أفضل الرهبان، فكان

سلمان معهم يجتهد في العبادة ويتعب نفسه، فقال له الشيخ: إنك غلام حدث تتكلف
 من العبادة ما لا تطيق، وأنا خائف أن تفترو وتعجز فافرق بنفسك وخفف عليها، فقال له
 سلمان: رأيت الذي تأمرني به أهو أفضل، أو الذي أصنع؟ قال: بل الذي تصنع، قال:
 فخلّ عثي، ثم إنَّ صاحب البيعة دعاه، فقال: أتعلّم أنّ هذه البيعة لي، وأنا أحقُّ الناس
 بها، ولو شئت أن أخرج هؤلاء منها لفعلت ولكني رجُلٌ أضعف عن عبادة هؤلاء، وأنا
 أريد أن أتحوّل من هذه البيعة إلى بيعة أخرى هم أهون عبادة من هؤلاء، فإن شئت أن
 تقيم ههنا فأقم، وإن شئت أن تنطلق معي فانطلق. قال له سلمان: أيُّ البيعتين أفضلُ
 أهلاً؟ قال: هذه. قال سلمان: فأنا أكون في هذه، فأقام سلمان بها، وأوصى صاحب
 البيعة عالم البيعة بسلمان، فكان سلمان يتعبّد معهم، ثم إنَّ الشيخ العالم أراد أن يأتي
 بيت المقدس فقال لسلمان: إن أردت أن تنطلق معي فانطلق، وإن شئت أن تقيم فأقم،
 فقال له سلمان: أيهما أفضل أنطلق معك أم أقيم؟ قال: لا، بل تنطلق معي، فانطلق معه،
 فرؤوا بمُقْعَدٍ على ظهر الطريق ملقى، فلما رأهما نادى: يا سيّد الرهبان. ارحمني يرحمك
 الله، فلم يكلمه، ولم ينظر إليه، وانطلقا حتى أتيا بيت المقدس، فقال الشيخ لسلمان:
 اخرج فاطلب العلم، فإنّه يحضر هذا المسجد علماء أهل الأرض، فخرج سلمان يسمع
 منهم، فرجع يوماً حزيناً، فقال له الشيخ: مالك يا سلمان؟ قال: أرى الخير كله قد ذهب
 به من كان قبلنا من الأنبياء وأتباعهم، فقال له الشيخ: يا سلمان. لا تحزن فإنه قد بقي
 نبيٌّ ليس من نبيِّ بأفضل تبعاً منه، وهذا زمانه الذي يخرج فيه، ولا أراني أن أدركه،
 وأما أنت فشابٌ لعلك أن تدركه، وهو يخرج في أرض العرب، فإن أدركته فأمن به
 واتبعه، فقال له سلمان: فأخبرني عن علامته بشيء؟ قال: نعم، هو مختم في ظهره بخاتم
 النبوة، وهو يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، ثم رجعا حتى بلغا مكان المُقْعَد، فناداها
 فقال: يا سيد الرهبان ارحمني يرحمك الله، فعطف إليه حماره، فأخذ بيده فرفعه فضرب به
 الأرض ودعا له، وقال: قُمْ بإذن الله، فقام صحيحاً يشتدُّ، فجعل سلمان يتعجب وهو
 ينظر إليه يشتدُّ، وسار الرّاهب فتغيب عن سلمان، ولا يعلم سلمان، ثم إن سلمان فرغ،
 فطلب الراهب، فلقيه رجلان من العرب من كلب فسألها: هل رأيتما الرّاهب؟ فأناخ
 أحدهما راحلته: قال: نعم، راعى الصرمة هذا، فحمله فانطلق به إلى المدينة، قال
 سلمان: فأصابني من الحزن شيء لم يصبني مثله قطُّ، فاشترته امرأة من جهينة، فكان

يرعى عليها هو وغلأم لها يتراوحان الغنم هذا يوماً وهذا يوماً، فكان سلمان يجمع الدراهم ينتظر خروج محمد صلى الله عليه وسلّم، فبينما هو يوماً يرعى إذ أتاه صاحبه الذي يقبّبه، فقال: أشعرت أنه قد قدم اليوم المدينة رجلٌ يزعم أنه نبيٌّ، فقال له سلمان: أقم في الغنم حتى آتيك، فهبط سلمانُ المدينة، فنظر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلّم ودار حوَّلة، فلما رآه النبيُّ صلى الله عليه وسلّم عرف ما يريد، فأرسل ثوبه حتى خرج خاتمهُ، فلما رآه أتاه وكلمه، ثم انطلق، فاشترى بدينار، ببعضه شاة، وبيعه خبزاً، ثُمَّ أتاه به فقال ما هذا؟ قال سلمان: هذه صدقة، قال لا حاجة لي بها، فاخرجها فليأكلها المسلمون، ثُمَّ انطلق، فاشترى بدينار آخر خبزاً ولحماً، فأتى به النبيّ صلى الله عليه وسلّم فقال: ما هذا؟ قال: هذه هدّية، قال: فاقعد، فقعد فأكلا جميعاً منها، فبينما هو يحدثه إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون ويصلُّون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعثُ نبياً، فلمَّا فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له النبيُّ صلى الله عليه وسلّم: يا سلمان، هم من أهل التّار فاشتد ذلك على سلمان. وقد كان قال له سلمان: لو أدركوك صدّقوك واتّبِعوك، فأنزل الله هذه الآية: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.» الآية. فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى حتى جاء عيسى، فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة، وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكاً، وإيمان النصارى أنه من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه، حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلّم فمن لم يتبع محمداً صلى الله عليه وسلّم منهم، ويدع ما كان عليه من سنّة عيسى والإنجيل كان هالكاً. وروى الطبري عن مجاهد قوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا.» الآية قال سلمان الفارسي للنبيّ صلى الله عليه وسلّم عن أولئك النّصارى وما رأى من أعمالهم: قال: لم يموتوا على الإسلام، قال سلمان: فأظلمت على الأرض، وذكر اجتهادهم فنزلت هذه الآية، فدعا سلمان، فقال: نزلت هذه الآية في أصحابك، ثم قال النبيُّ صلى الله عليه وسلّم: [من مات على دين عيسى، ومات على الإسلام قبل أن يسمع بي فهو على خير، ومن سمع بي اليوم ولم يؤمن بي فقد هلك] وروى ابن عباس قوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ» إلى قوله: «وَلَا هُمْ يَخْرَتُونَ» فأنزل الله تعالى بعد هذا: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» وفي الطبري

(جـ ١ ص ٢٥٤): وهذا الخبر يدلُّ على أنَّ ابن عباس كان يرى أن الله جلَّ ثناؤه كان قد وعدَّ من عمل صالحاً من اليهود والنصارى والصابئين على عمله في الآخرة الحجة، ثم نُسِّخ ذلك بقوله: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» الآية * وقد صرَّح ابن عباس بالنسخ فيما رواه القرطبي في تفسيره عنه قال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا.» الآية منسوخ بقوله تعالى: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» * وقال غيره: ليست بمنسوخة وهي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلَّم * وفي تفسير الخطيب: وقال أبو عمرو بن العلاء: سُئِمُوا الْيَهُودَ يَهُودًا لِأَنَّهُمْ يَتَهَوَّدُونَ. أي يتحرَّكُونَ عند قراءة التوراة، ويقولون: إن السموات والأرض تحرَّكت حين أتى الله موسى التوراة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ بِيَهُ نِمْنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» سورة البقرة (آية: ٧٩)

ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٥) قوله: نزلت هذه الآية في الذين غيَّروا صفة النبي صلى الله عليه وسلَّم، وبدَّلوا نعمته * وقال الكلبي: إنهم غيَّروا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في كتابهم، وجعلوه آدمَ سَبَطاً طويلاً، وكان ربعة أشمرَ صلى الله عليه وسلَّم، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم: انظروا إلى صفة النبي الذي يُبعثُ في آخر الزمان ليس يُشبهه نعت هذا، وكانت للأخبار والعلماء مأكلة من سائر اليهود، فخافوا أن يُذهبوا مأكلتهم إن بيَّنوا الصِّفة، فن تم غيَّروا * وفي لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي: وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت في أخبار اليهود، وجدوا صفة النبي صلى الله عليه وسلَّم مكتوبة في التوراة: أكحل أعين ربعة جعد الشعر حسن الوجه، فعوه حسداً وبعياً، وقالوا: نجد طويلاً أزرق سبط الشعر * وهذه الآية تحدتت عن صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل * «فَوَيْلٌ» الهلاك والدمار: وهى كلمة تقولها العرب لكل من وقع في هلكة. وأصلها في اللغة: العذاب والهلاك، وحلول الشرِّ، والويله: الفضيحة والبلية. وقيل: هو تفجُّع، وإذا قال القائل: واوئلتاه! فإنما يعنى وافضحتاه، وفي حديث

«ثُمَّناً قَلِيلاً» أي المآكل والرشا التي كانوا يأخذونها من سفلتهم، قال الله تعالى: «فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» من الرشا، أو من المعاصي * وإنما كرر الويل ليفيد أن الهلاك مرتب على كل واحد من الفعلين على حدته لا على مجموع الأمرين، والرشا بضم الراء وكسرهما جمع رشوة بثليتها: وهي ما يدفع إلى الحاكم ليحكم بحق، أو ليمتنع من ظلم * وفي الطبرى (ج ١ ص ٢٩٩) «فَوَيْلٌ لَهُمْ» قال ابن عباس: فالعذاب عليهم * فقد أوّل الويل بالعذاب، وذكر عن زياد بن فياض قال سمعتُ أبا عياض يقول: الويل: ما يسيل من صديد في أصل جهنم * وروى عن عثمان بن عفان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [الويلُ جبلٌ في النار] * قال أبو جعفر فعنى الآية على ما روى عن ذكر قوله في تأويل «وَيْلٌ»، فالعذاب الذي هو شراب صديد أهل جهنم في أسفل الجحيم لليهود الذين يكتبون الباطل بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله * وفي قوله تعالى: «لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْشْتَرَوْا بِهِ ثَمناً قليلاً»، قال: يعنى بذلك الذين حرّفوا كتاب الله من يهود بنى اسرائيل، وكتبوا كتاباً على ما تأوّلوه من تأويلاتهم مخالفاً لما أنزل الله على نبيه موسى عليه السلام، ثم باعوه من قوم لا علم لهم بها، ولا بما في التوراة، جهال بما في كتب الله لطلب عرض من الدنيا خسيس، فقال الله لهم: «فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» * عن ابن عباس قال: الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال: هذا من عند الله ليشترخوا به ثمناً قليلاً، قال عرضاً من عرض الدنيا، وعن مجاهد قال: هؤلاء الذين عرفوا أنه من عند الله يحرفونه.

القول في تأويل قوله تعالى :

«وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» سورة البقرة (آية ٨٠، ٨١)

جاء في أسباب النزول في الواحدى (ص ١٦) قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ويهود تقول: إنما هذه الدنيا سبعة آلاف سنة إنما يُعَذَّبُ الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد في النار من أيام الآخرة، وإنما هي سبعة أيام، ثم ينقطع

العذاب فأنزل الله تعالى في ذلك: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً...» وروى الضحاك عن ابن عباس أنه قال: وجد أهل الكتاب في التوراة ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين، قالوا: لن نعذب في النار إلا ما وجدناه في التوراة، فإذا كان يوم القيامة اقتحموا في النار فساروا في العذاب حتى انتهوا إلى سقر، وفيها شجرة الزقوم، إلى آخر يوم من الأيام المعدودة، فقال لهم خزنة النار: يا أعداء الله زعمتم أنكم لن تُعذبوا في النار إلا أياماً معدودات، فقد انقطع العدد وبقى الأمد. وفي باب السيوطي: وأخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس أن اليهود قالوا: لن ندخل النار إلا تحلة القسم: الأيام التي عبدنا فيها العجل أربعين ليلة، فإذا انقضت انقطع العذاب، فنزلت الآية. وفي تفسير الطبري (ج ١ ص ٣٠) حَدَّثَ أُسْبَاطُ عَنِ السُّدِيِّ «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً...» قال: قالت اليهود: إن الله يُدخلنا النار فتمكث فيها أربعين ليلة حتى إذا أكلت النَّارُ خطايانا واستثقتنا نادى مُنادٍ: أخرجوا كل مختون من ولد بني إسرائيل: فلذلك أمرنا أن نختن. قالوا: فلا يدعون منا في النار أحداً إلا أخرجوه. وعن أبي العالية قال: قالت اليهود: إن ربنا عقب علينا في أمرنا، فأقسم ليعذبنا أربعين ليلة، ثم يخرجنا فأكذبهم الله. وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها قوم آخرون يعنون محمداً وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على رؤوسهم [بل أنتم فيها خالدون لا يخلفكم فيها أحد] فأنزل الله جل ثناؤه: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً» وقال عكرمة: اجتمعت يهود يوماً تخاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً» وسُمُّوا أربعين يوماً، ثم يخلفنا أو يلحقنا فيها أناس، فأشاروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كذبتم، بل فيها خالدون مخلدون، لا نلحقكم ولا نخلفكم فيها إن شاء الله أبداً] وقال الطبري: حَدَّثَنِي يُونُسُ، قَالَ أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُمْ [أَنْتُمْ كَذَبْتُمْ، وَبِالتَّوْرَةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سَيْنَاءَ، مَنْ أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ؟] قالوا: إن ربهم غضب عليهم غضبة فتمكث في النار أربعين ليلة، ثم نخرج فتخلفوننا فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كذبتم، والله لا نخلفكم فيها أبداً] فنزل القرآن تصديقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم وتكذيباً لهم

«وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا» إلى قوله: «هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» «وَقَالُوا» أي اليهود «لَنْ تَمَسَّنَا» أي لن تُصِيب أجسامنا «النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً» أي قدرًا ثم يزول عَنَّا العذاب و«إِلَّا أَيَّاماً» استثناء مفرغ، وأياماً منصوب على الظرف بالفعل قبله، والتقدير لن تَمَسَّنَا النار أبدًا إِلَّا في أيام قلائل يحصرها العَدُّ، لأن العَدَّ يحصر القليل. ومعدودة يضبطها العَدُّ، ويلزمها في العادة القَلَّةُ فهي قليلة من باب التفسير باللازم «قُلْ» يا محمد لليهود «أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا» أي مَوْتَقًا أن لا يعذبكم إلا هذه المدة. «فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ» أي وعده، هذا جواب الاستفهام المتقدم في قوله: «أَتَّخَذْتُمْ» وهل هذا بطريق تضمين الاستفهام معنى الشرط، أو بطريق إضمار الشرط بعد الاستفهام وأخواته؟ قولان، واختار الزمخشري القول الثاني فإنه قال: لن يخلف متعلق بمحذوف تقديره إن اتَّخَذْتُمْ عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده* وقال ابن عطية: فلن يخلف الله عهده، اعتراض بين أثناء الكلام. كأنه يعني بذلك أن قوله: أم تقولون معادل لقوله: «أَتَّخَذْتُمْ» فوقعت هذ الجملة بين المتعادلين معترضة. والتقدير أي هذين واقع؟ اتَّخَذْتُمْ العهد، أم قولكم بغير علم. فعلى هذا لا محلَّ لها من الاعراب وعلى الأول محلها الجزم «أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى» تمسكم وتخلدون فيها. وهو إثبات لما بعد حرف النفي وهو قوله: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ» والجواب: بَلَى تمسُّكم النَّارُ أبدًا، وأم هنا يحتمل أن تكون متصلةً، وهي التي يطلب بها. وبالهزمة التَّعِين، وحينئذ فالاستفهام للتقرير المؤدى إلى التبيكيت لتحقق العلم بالشق الأخير، كأنه قيل: أم لم تتخذوه بل تقولون.. الخ* ويحتمل أن تكون منقطعة، وهي التي بمعنى بل، والاستفهام لإنكار الإِتِّخَاذِ ونفيه، ومعنى «بل» الاضراب والانتقال من التوبيخ بالإنكار على اتَّخَاذِ العهد إلى ما تفيدهُ هزنتها من التوبيخ على القول* وقوله: «بَلَى» حرف جواب كنعم وجير وأجل وأى، إِلَّا أَنَّ بَلَى جواب لنفي متقدم أي إبطال ونقض وإيجاب له، سواء دخله استفهام أم لا، فتكون إيجاباً له نحو قول القائل. ما قام زيد؟ فتقول: بَلَى. أي قدم قام، وقوله أليس زيد قائماً؟ فتقول: بَلَى. أي هو قائم. قال تعالى: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى»* ويروى عن ابن عباس أنهم لو قالوا نعم لكفروا* «مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً» في الطبري (ج ١ ص ٣٠٤) عن ابن عباس: «بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» أي من عَمِلَ مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يُحِيط كفره بمآله من

حسنة، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون* قال: وأما «بلى» فإنها اقرار في كل كلام في أوله جحد، كما نعم اقرار في الاستفهام الذي لا جحد فيه، وأصلها بل التي هي رجوع عن الجحد المحض في قولك: ما قام عمرو بل زيث، فزيدت فيها الياء ليصلح عليها الوقوف إذا كانت بل لا يصلح عليها الوقوف إذ كانت عطفاً ورجوعاً عن الجحد، ولتكون أعنى «بلى» رجوعاً عن الجحد فقط، وقرار بالفعل الذي بعد الجحد، فدلّت الياء منها على معنى الاقرار والانعام — أي الزيادة والمبالغة يُقالُ فعل كذا، ونعم أي زاد وبالع، وذلك لفظ بل على الرجوع عن الجحد* وقال السدي: «بلى من كَسَبَ سَيِّئَةً» أما السيئة فهي الذنوب التي وعد عليها النار «وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» اجتمعت عليه فأت عليها، قبل الإنابة والتوبة منها* وأصل الاحاطة بالشيء الاحداقُ به بمنزلة الحائط الذي تحاط به الدار، فَتُحَدَّقُ به، ومنه قول الله جلّ ثناؤه «نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا» فتأويل الآية* من أشرك بالله واقترف ذنباً جماً فات عليها قبل الإنابة والتوبة، فأولئك أصحاب النار هم فيها مخلدون أبداً، وبنحو ما قال الطبري قال الضحاك في «وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» مات بذنبه* وعن ابن عباس: «وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» قال يُحِيطُ كفره بماله من حسنة* وعن مجاهد: «وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» قال: ما أوجب الله فيه النار* وعن قتادة «وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» قال أمّا الخطيئة، فالكبيرة الموجبة* وعن قتادة قال: الخطيئة الكبائر* وسأل رجلُ الحسن عن قوله: «وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» فقال: ما ندرى ما الخطيئة يا بنى، اتل القرآن فكلُّ آية وَعَدَّ اللهُ عَلَيْهَا النَّارَ فِيهِ الْخَطِيئَةُ* وعن ابن جريج قال: قلت لعطاء «وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» قال الشرك، ثم تلا «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ» أخذه مما بعده، وقد صرح به الجلال في تقريره، وهذا ما عليه إجماع المفسرين من أنّ السيئة الشرك كما قاله الواحدى* قلت: وهو مذهب أهل السنة لقوله: «فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» فإن الخلود في النار هو للكفار والمشركين. وأيضاً قوله تعالى: «مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً..» في معنى التعليل لما أفادته بل. ومن تحتل الشرطية والموصولية، والأنسب بقوله في الآية التي تليها «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ..» هو الثاني: وأتى بالفاء في الشق الأول دون الثاني إيذاناً بتسبب الخلود في النار عن الشرك، وعدم تسبب الخلود في الجنة عن الإيمان بل هو بمحض فضل الله تعالى، وسمى جلّ جلاله أهل النار. أصحاب النار لمصاحبتهم الذنوب في

الدنيا، وهى التى أوردتهم النار، والمراد بالخلود الإقامة الدائمة التى لا نهاية لها. لقوله تعالى: «خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا».

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ٧٥).

ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٦) عن ابن عباس ومقاتل قالوا: نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى ليذهبوا معه إلى الله تعالى، فلما ذهبوا معه سمعوا كلام الله تعالى، وهو يأمر وينهى، ثم رجعوا إلى قومهم، فأما الصادقون فأدوا ما سمعوا، وقالت طائفة منهم: سمعنا الله من لفظ كلامهم يقول: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا، ولا بأس * وعند أكثر المفسرين نزلت الآية في الذين غيروا آية الرجم، وصفة النبى محمد صلى الله عليه وسلم * وكذا في البيضاوى، وفي الطبرى (ج ١ ص ٢٩١) قال حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة عن ابن اسحق في قوله: «وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ..» الآية قال: ليس قوله يسمعون كلام الله. يسمعون التوراة، كلهم قد سمعها، ولكنهم الذين سألو موسى رؤية ربهم، فأخذتهم الصاعقة فيها * وذكر عن محمد بن اسحاق قال: بلغنى عن بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى: ياموسى، قد حيل بيننا وبين رؤية الله عز وجل، فأسمعنا كلامه حين يكلمك، فطلب ذلك موسى إلى ربه، فقال: نعم، فأمرهم، فليطهروا وليطهروا ثيابهم، ويصوموا، ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتى الطور، فلما غشيتهم الغمام أمرهم موسى عليه السلام فوقعوا سجوداً، وكلمه ربه، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل، فلما جاؤهم حرّف فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبنى إسرائيل إن الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عز وجل لهم فهم الذين عنى الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم * قال أبو جعفر الطبرى: وأولى التأويلين اللذين ذكرت بالآية وأشبههما بما دلّ عليه ظاهر التلاوة، ما قاله الربيع بن أنس، والذي حكاه ابن اسحاق عن بعض أهل العلم من أن الله تعالى ذكره، إنما عنى بذلك من سمع كلامه من بنى إسرائيل سماع موسى إياه منه، ثم حرّف ذلك وبدّل من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إياه، وذلك أنّ الله جل ثناؤه

إنما أخبر أن التحريف كان من فريق منهم كانوا يسمعون كلام الله عز وجل استعظماً من الله لِمَا كانوا من البهتان بعد توكيد الحجة عليهم والبرهان، وإيداناً منه تعالى ذكره عباده المؤمنين. وقطع أطماعهم من إيمان بقايا نسلهم بما أتاهم به محمدٌ من الحق والنور والهدى، فقال لهم: كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود إياكم، وإنما تخبرونهم بالذي تخبرونهم من الأنبياء عن الله عز وجل عن غيب لم يشاهده، ولم يعاينوه، وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه، وأمره ونهيه، ثم يبده ويحرفه ويحجده، فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم أخرى أن يحجدوا ما أتيتوهم به من الحق، وهم لا يسمعون من الله وإنما يسمعون منكم، وأقرب إلى أن يحرفوا ما في كتبهم من صفة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ونعته، وبيدئوهم به عالمون فيحجده، ويكذبوا من أوائلهم الذين باشروا كلام الله من الله جلّ ثناؤه ثم حرفوه من بعد ما عقلوه وعلموه متعمدين التحريف.

وقوله تعالى: «أَفَتَطْمَعُونَ» خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه هو الدّاعي إلى الإيمان، وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له وقيل: هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأنهم كانوا يدعونهم إلى الإيمان أيضاً، ومعنى أفطمعون: أفترجون، الهمزة للاستفهام، وتدخل على ثلاثة من حروف العطف، الفاء كما هنا، والواو كقوله تعالى: «أولا يعلمون» ثم كقوله: «انتم إذا ما وقع آمنتُم به» واختلف في مثل هذه التراكيب، فذهب الجمهور إلى أن الهمزة مقدمة من تأخير لأنّ لها الصّدر. ولا حذف في الكلام والتقدير: فأتطمعون. وألا تعلمون. وثم إذا ما وقع * وذهب الزمخشري إلى أنها داخله على محذوف دل عليه سياق الكلام. والتقدير هنا: أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم فتطمعون «أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ» أي يصدّقكم اليهود بما تخبرونهم * وقيل: معناه أفطمعون أن يؤمنوا لكم أي ينقادوا لكم مع أنهم لم يؤمنوا بموسى عليه السلام، وكان هو السبب في خلاصهم من الدّلّ، وظهور المعجزات على يده «وَقَدْ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ» وقد كان. الواو للحال. والتقدير أفطمعون في إيمانهم، والحال أنهم كاذبون مُحرفون لكلام الله تعالى، وقد مقرّبة للماضي من الاستقبال سوّغت وقوعه حالاً، ويسمعون خبر كان. والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه كرهط وقوم * قيل: المراد بالفريق هم الذين كانوا مع موسى يوم الميقات، وهم الذين سمعوا كلام الله تعالى * وقيل: المراد بهم الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الأقرب لأن الضمير

راجع إليهم في أفطمعون أن يؤمنوا لكم، فعلى هذا يكون معنى يسمعون كلام الله يعنى التوراة، لأنه يصح أن يقال لمن سمع التوراة يسمع كلام الله * ولم يرض الطبرى هذا القول من الخازن فقال: ولو كان تأويل الآية على ما قاله الذين زعموا أنه عنى بقوله يسمعون كلام الله يسمعون التوراة، لم يكن لذكر قوله: يسمعون كلام الله معنى مفهوم لأن ذلك قد سمعه المحرف منهم وغير المحرف، فخصوص المحرف منهم بأنه كان يسمع كلام الله إن كان التأويل على ما قاله الذين ذكرنا قولهم دون غيرهم ممن كان يسمع ذلك سماعهم لا معنى له، فإن ظنَّ ظانُّ إنما صلح أن يقال ذلك لقوله يُحَرِّفُونَهُ فقد أغفل وجه الصواب في ذلك، وذلك أنَّ ذلك لو كان كذلك لقال ليقيل أفطمعون أن يؤمنوا لكم، وقد كان فريق منهم يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، ولكنه جلَّ ثناؤه أخبر عن خاص من اليهود كانوا أعطوا من مباشرتهم سماع كلام الله ما لم يعطه أحد غير الأنبياء والرسل، ثم بدَّلُوا وتحرفوا ما سمعوا من ذلك، فلذلك وصفهم بما وصفهم به للخصوص الذي كان خصَّ به هؤلاء الفريق الذي ذكرهم في كتابه تعالى ذكره... وذلك إخبار من الله جلَّ ثناؤه عن اقدمهم على البهت ومناجتهم العداوة له ولرسوله موسى عليه السلام، وأن بقاياهم من مناجتهم العداوة لله ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلَّم بغياً وحسداً على مثل الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عصر موسى عليه الصلاة والسلام * «يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ» (من بعد ما عقلوه) متعلق بيحرفونه. والتحريف الإمالة والتحويل، والضمير في عقلوه يعود على الكلام، أي من بعد تعقلهم إيَّاه. وعقلوه: فهموه بعقولهم، ولم يبق لهم في مضمونه، ولا في كونه كلام رب العزة ريبة أصلاً. «وَهُمْ يَظُنُّونَ» جملة حالية، وفي العامل فيها قولان: أحدهما عقلوه، ولكن يلزم منه أن تكون حالاً مؤكدة لأن معناها قد فهم من قوله عقلوه، والثاني وهو الظاهر أنه حال علمهم بذلك. أي فساد مخالفته، ويعلمون أيضاً أنهم كاذبون.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ»
سورة البقرة (آية: ٨٩)

ذكر الوحى في أسباب النزول قال ابن عباس: كان يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلما

التقوا هزمت يهود خيبر، فعادت اليهود بهذا الدعاء. وقالت: اللهم إنا نسألك بحق النبي الأُمّي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلَمَّا بعث النبي صلى الله عليه وسلّم كفروا به، فأُنزل الله تعالى: «وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا»، أي بك يا محمد إلى قوله: «فلعنهُ الله على الكافرين»، ومثل هذا في القرطبي * وقال السُّدي: كانت العرب تمرُّ بيهود، فتلقى اليهود منهم أذنى، وكانت اليهود تجد نعت محمد في التوراة أن يبعثه الله فيقاتلون معه العرب. فلَمَّا جاءهم محمد صلى الله عليه وسلّم كفروا به حسداً وقالوا: إنما كانت الرسل من بني إسرائيل، فما بال هذا من بني إسماعيل * وفي لباب السيوطي: وأخرج ابن أبي حاتم، من طريق سعيد، أو عكرمة عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلّم قبل مبعثه. فلَمَّا بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء وداود بن سلمة: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم: أحد بني النضير ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأُنزل الله تعالى: «ولمَّا جاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا..» الآية * وفي الطبري (ج ١ ص ٣٢٥) حدّث عن قتادة الأنصاري عن أشياخ منهم، قالوا: فينا والله وفيهم يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة، يعني «ولمَّا جاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا»، قالوا: كنا قد علوناهم دهرًا في الجاهلية ونحن أهل الشرك. وهم أهل الكتاب. فكانوا يقولون إنَّ نبيًّا الآن مبعثه قد أظلَّ زمانه يقتلكم قتل عادٍ وإرم، فلَمَّا بعث الله تعالى ذكره رسوله من قريش، واتبعناه كفروا به، يقول الله: «فلَمَّا جاءَهُمْ ما عرفوا كفروا به..» * وعن ابن عباس «وكانوا من قبل يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» يقول يستنصرون بخروج محمد صلى الله عليه وسلّم على مشركي العرب يعني بذلك أهل الكتاب، فلَمَّا بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلّم ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه * وعن علي الأزدي في قوله تعالى: «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا»، قال: اليهود كانوا يقولون: اللهم ابعث لنا هذا النبي

يحكم بيننا وبين الناس، يستفتحون: يستنصرون به على الناس * «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» يعنى القرآن «مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ» يعنى التوراة، وهذا التصديق في صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأن نبوته وصفته ثابتة في التوراة «وَكَانُوا» يعنى اليهود «مِنْ قَبْلُ» أي من قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم «يَسْتَفْتِحُونَ» أي يستنصرون به «عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» يعنى مشركى العرب، وذلك أنهم كانوا إذا أجزهم أمرٌ ودهمهم عدوٌ يقولون: اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا يُنصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، الخازن (ج ١ ص ٦٤) * وفي المصباح: فتح الله على نبيته: نصره، واستفتحت: استنصرت * وفي المختار: والاستفتاح: الاستنصار، والفتح: النصر * «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا» أي الذي عرفوه، يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم عرفوا نعته وصفته وأنه من غير بنى اسرائيل «كَفَرُوا بِهِ» أي جحدوه وأنكروه بغياً وحسداً * «فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ» جملة من مبتدأ وخبر، متسببة عما تقدم والمصدر هنا مضاف للفاعل، وأتى بعلى تنبيهاً على أن اللعنة قد استعلت عليهم وشملتهم، وقال على الكافرين، ولم يقل عليهم إقامة للظاهر مقام المضمير لينبه على السبب المقضى لذلك وهو الكفرة قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: «وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» قال: يستنصرون يقولون نحن نعين محمداً عليهم، وليسوا كذلك بل يكذبون * والآية التي تليها تتعلق بها وهي قوله تعالى: «بِشْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ» سورة البقرة (آية: ٩٠) أي بشس شيء اشتروا به أنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق، واشتروا بمعنى باعوا، والباء في به داخله على المأخوذ والمعنى: بشس ما باعوا به حظ أنفسهم «أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» يعنى القرآن «بَغْيًا» أي حسداً، مفعول له ليكفروا أي حسداً على «أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ» وقد ترت على ليفيد أنه على إسقاط الخافض لا أنه مفعول من أجله «مِنْ فَضْلِهِ» يعنى الكتاب والنبوة «عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم «فَبَاؤُوا» أي فرجعوا «بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ» أي مع غضب قال ابن عباس: الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلها، والثاني: بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم * وقيل الأول:

بكفرهم بعيسى والإنجيل، والثاني: بمحمد صلى الله عليه وسلّم والقرآن * وقيل الأول بعبادتهم العجل. والثاني بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلّم * فيكون معنى «بأوا» هنا استوجبوا واستحقوا واستقرّوا بغضب على غضب، وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلّم وبالقرآن * وعن عكرمة وقتادة مثله، قال السدي: أمّا الغضب الأول فهو حين غضب عليهم حين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلّم * وعن ابن عباس مثله * «وَاللَّكَافِرِينَ» يعني الجاحدين بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلّم من النَّاس كلهم * والكفر في اللغة نقيض الإيمان، أمّا بالله وكفرنا بالطاغوت. والكُفْرُ: كُفْرُ النعمة، وهو نقيض الشكر، والكفر: جُحودُ النعمة، وهو ضدُّ الشكر، وقوله تعالى: «إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ وَنَّ» أي جاحدون. وكافره حقّه: جحده، ورجُلٌ مُكْفَرٌ مجحود النعمة مع إحسانه، ورجل كافر: جاحدٌ لأنعم الله، مشتق من السَّئِر، وقيل: لأنّه مُعْطَى على قلبه * قال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء * كفر إنكار بأن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به * والعياذ بالله وكفر جحود * والعياذ بالله وكفر معاندة * والعياذ بالله - وكفر نفاق * والعياذ بالله من لقي ربّه بشيء من ذلك لم يغفر له، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. فأما كفر الإنكار، فهو أن يكفر بقلبه ولسانه، ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد، وكذلك روى في قوله تعالى: «سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» أي وهم هؤلاء الذين كفروا بتوحيد الله، وأما كفر الجحود فإن يعترف بقلبه ولا يُقرُّ بلسانه فهو كافر جاحدٌ ككفر إبليس، وكفر أميّة بن أبي الصلّيت، ومنه قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ» يعني كفر الجحود: وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه، ويُقرُّ بلسانه ولا يدين به، حسداً وبغياً ككفر أبي جهل وأضرابه * وفي التهذيب: يعترف بقلبه، ويُقرُّ بلسانه ويأبى أن يقبل كأبي طالب حيث يقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أديان البريّة دِينًا

لَوْلَا الملامة أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ لَوَجَدْتَنِي سَمِحًا بِذَلِكَ مُبِينًا

وأما كُفْرُ النَّفَاقِ، فإن يُقرُّ بلسانه، ويكُفّر بقلبه ولا يعتقد بقلبه * قال الهروي: سئل الأزهري عن يقول بخلق القرآن أنسميه كافرًا؟ فقال: الذي يقوله كُفْرٌ، فأعيد عليه السؤال ثلاثاً، ويقول ما قال: ثم قال في الآخر: قد يقول المسلم كُفْرًا * روى عن النبي

صلى الله عليه وسلم أنه قال: [قِتَالُ الْمُسْلِمِ كَفْرٌ، وَسِبَابُهُ فِسْقٌ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ فَقَدْ كَفَرَ] * قال سُمر: والكفر أيضاً بمعنى البراءة كقوله تعالى حكاية عن الشيطان في خطيبته إذا دخل النار: «إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ»، أي تبرأت * وكتب عبد الملك إلى سعيد بن جبير يسأله عن الكفر فقال: الكفر على وجوه: فكفر هو شرك يتخذ مع الله إلهاً آخر، وكفر بكتاب الله ورسوله: وكفر بادعاء ولدٍ لله، وكفر مدعى الإسلام، وهو أن يعمل أعمالاً بغير ما أنزل الله ويسعى في الأرض فساداً، ويقتل نفساً محرمةً بغير حق، ثم نحو ذلك من الأعمال كفران: أحدهما: كفر نعمة الله، والآخر: التكذيب بالله * وفي التنزيل العزيز: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ» قال بعضهم: يعنى اليهود لأنهم آمنوا بموسى عليه السلام، ثم كفروا بعزير، ثم أزدادوا كُفْرًا بمحمد صلى الله عليه وسلم * وقال تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»، معناه أن من زعم أن حكماً من أحكام الله الذي أتت به الأنبياء عليه السلام باطل فهو كافر، وفي حديث ابن عباس: قيل له: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»، وليسوا كمن كفر بالله واليوم الآخر * وقد أجمع الفقهاء أن من قال: إِنَّ الْمُحْصَنِينَ لَا يَجِبُ أَنْ يَرْجَعُوا إِذَا زَانُوا وَكَانَا حُرَيْنِ، كافر، وإنما كفر من ردَّ حكماً من أحكام النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه مكذبٌ له، ومن كذب بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر * وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: [إذا قال الرَّجُلُ للرجل أنت لى عدو، فقد كفر أحدهما بالإسلام] * أراد كفر النعمة لأن الله عز وجل آلف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً، فمن لم يعرفها فقد كفرها * وفي الحديث: [من ترك قَتْلَ الْحَيَاتِ خَشِيَةَ التَّارِقِ فَقَدْ كَفَرَ] أي كفر النعمة. وكذلك حكم الحديث الآخر: [مَنْ أَتَى حَائِضًا فَقَدْ كَفَرَ] وحديث الأنواء [إن الله لينزل الغيث فيصبح قومٌ به كافرين، يقولون: مُطَرْنَا بِنُوءٍ كَذَا وَكَذَا] أي كافرين بذلك دون غيره حيث ينسبون المطر إلى النوء دون الله * ومنه الحديث: [فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا التَّسَاءُ لِكُفْرِهِنَّ. قِيلَ أَيْ كُفِرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: لَا وَلَكِنْ يَكْفِرْنَ الْإِحْسَانَ وَيَكْفِرْنَ الْعَشِيرَ] * أي يجحدن إحسان أزواجهن. وفي الحديث الآخر: [سبب المسلم فسوق وقتاله كفر] والأحاديث من هذا النوع كثيرة تحتاج إلى جمع في مؤلف ولا تخلو من فوائد كثيرة * والكفر في اللغة أيضاً: التغطية، والكافر ذو كفر. أي ذو تغطية لقلبه بكفره، كما يقال للابس السلاح كافر، وهو الذي غطاه السلاح، وذلك

أن الكافر لَمَّا دعاه الله إلى توحيدِه فقد دعاه إلى نعمة، وأحَبُّها لَهُ إذا أجاَّبَهُ إلى ما دعاه إليه، فلمَّا أبى ما دعاه إليه من توحيدِه كان كافراً نعمة الله، أي مغطياً لها بإبائه، حاجباً له عنه. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال في حجة الوداع: [ألا لا تَرْجِعَنَّ بَعْدِي كَفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ] * وفي قوله عليه الصلاة والسلام كَفَّاراً قولان: أحدهما: لا بلبس السِّلَاحِ مُتَهَيِّئِينَ لِلْقِتَالِ. كأنه أراد بذلك النهى عن الحرب، والقول الثاني: أَنَّهُ يُكْفِّرُ النَّاسَ فَيَكْفُرُ كَمَا تَفْعَلُ الْخَوَارِجُ إِذَا اسْتَعْرَضُوا النَّاسَ فَيَكْفُرُونَهُمْ، وهو كقوله عليه الصلاة والسلام: [من قال لأخيه ياكافر فقد باء به أحدهما] لأنَّهُ إمَّا أَنْ يَصُدِّقَ عَلَيْهِ أَوْ يَكْذِبَ، فَإِنْ صَدَقَهُ فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِنْ كَذَبَ عَادَ الْكُفْرَ إِلَيْهِ بِتَكْفِيرِهِ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ * وَكَفَّرَ الرَّجُلَ: نَسَبَهُ إِلَى الْكُفْرِ. وكل من ستر شيئاً فقد كفره وكَفَّرَهُ، وَالْكَافِرُ: الزَّرَاعُ لِسْتِرْمَالِ الْبُذُورِ بِالتُّرَابِ، وَالْكَفَّارُ: الزَّرَاعُ وَمِنهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ» أي أعجب الزَّرَاعُ نَبَاتُهُ * وقد قيل: الكفار في هذه الآية الكفار بالله، وهم أشدُّ إعجاباً بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين، والكافر: الليل. وفي الصحاح: الليل المظلم لأنه يستر بظلمته كل شيء.. والبحث يطول شرحه جداً وتقدم طرفاً منه قوله: «عَذَابٌ مُهِينٌ» أي يهانون فيه. وهو صفة لعذاب، وأصله مهون لأنه من الهوان، وهو اسم فاعل من أهان يهين إهانته، مثل أقام يقيم إقامة. فنقلت كسرة الواو إلى الساكن قبلها، فسكنت الواو بعد كسرة فقلبت ياءً، والإهانة الإذلال والخزى، وقال: وللكافرين. ولم يقل ولهم تنبيهاً على الْعِلَّةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلْعَذَابِ الْمُهِينِ * قال الجلال: ذو إهانة. أي وإذلال لَهُمْ لما أَنَّ كَفَرَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بخلاف عذاب العاصي إذ هو مطهر له فقط، ولما كان كفرهم سببه البغى والحسد ومنشأ ذلك التكبُّر قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ» أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين * أخرج الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ يَغْلُوهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّى يَدْخُلُوا سِجْنًا فِي جَهَنَّمَ يُقَالُ لَهُ بُولُسٌ تَغْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبِيَاءِ يُسْقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، غُصَّارَةٌ أَهْلِ النَّارِ.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» سورة البقرة (آية: ٩٧، ٩٨)

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ١٧) عن ابن عباس قال: أقبلت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم، نسألك عن أشياء فإن أجبنا فيها اتبعناك، أخبرنا من الذى يأتيك من الملائكة؟ قال: جبريل، قالوا: ذلك الذى ينزل بالحروب والقتال، ذلك عدونا، لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالمطر والرحمة اتبعناك، فأنزل الله تعالى: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ..» إلى قوله: «فإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» * وفي لباب السيوطي وأخرج ابن اسحاق بن راهويه في مسنده، وابن جرير من طريق الشَّعْبِيِّ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَأْتِي الْيَهُودَ فَيَسْمَعُ مِنَ التَّوْرَةِ، فَيَتَعَجَّبُ كَيْفَ تُصَدِّقُ مَا فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: فَرَبَّهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: نَشَدْتُمْ بِاللَّهِ أَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ؟ فَقَالَ عَالِمُهُمْ: نَعَمْ، نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، قُلْتُ: فَلِمَ لَا تَتَّبِعُونَهُ؟ قَالُوا: سَأَلْنَاهُ مِنْ يَأْتِيهِ بِبُيُوتِهِ، فَقَالَ: عَدُونَا جِبْرِيلُ لِأَنَّهُ يَنْزِلُ بِالْغُلْظَةِ وَالشَّدَّةِ وَالْحُرُوبِ وَالْهَلَاكِ، قُلْتُ: فَكَيْفَ رُسُلُكُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ قَالُوا: مِيكَائِيلُ يَنْزِلُ بِالْقَطْرِ وَالرَّحْمَةِ، قُلْتُ: وَكَيْفَ مَنْزِلَتُهُمَا مِنْ رَبِّهِمَا؟ قَالُوا: أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنِ الْجَانِبِ الْآخَرِ، قُلْتُ: فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِجِبْرِيلَ أَنْ يَغَادِيَ مِيكَائِيلَ، وَلَا يَحِلُّ لِمِيكَائِيلَ أَنْ يُسَالِمَ عَدُوَّ اللَّهِ جِبْرِيلَ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهَا وَرَبَّهَا سَلِمَ لِمَنْ سَلِمُوا، وَحَرِبَ لِمَنْ حَارَبُوا، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَخْبِرَهُ، فَلَمَّا لَقِيْتَهُ قَالَ: أَلَا أَخْبِرُكَ بِآيَاتِ نَزَلَتْ عَلَيَّ؟ فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَرَأَ: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ» حَتَّى بَلَغَ «لِلْكَافِرِينَ» قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَاللَّهِ مَا قُمْتُ مِنْ عِنْدِ الْيَهُودِ إِلَّا إِلَيْكَ لِأَخْبِرُكَ بِمَا قَالُوا لِي، وَقُلْتُ لَهُمْ: فَوَجَدْتُ اللَّهَ سَبَقَنِي * وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ إِلَى الشَّعْبِيِّ، لَكِنَّهُ لَمْ يَدْرِكْ عُمَرَ، إِنَّ الْحَدِيثَ مَنْقُوعٌ، وَلَهُ طَرَقَ أُخْرَى عَنِ الشَّعْبِيِّ وَالتَّسَدِيُّ عَنْ عُمَرَ وَهُمَا مَنْقُوعَانِ، وَكَذَا رَوَاهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ * قَالَ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ (ج ١ ص ٣٤١) أَجْمَعَ أَهْلَ الْعِلْمِ بِالتَّوَاتُؤِ بِإِيلِ جَمِيعًا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ جَوَابًا لِلْيَهُودِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ زَعَمُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عَدُوٌّ لَهُمْ، وَأَنَّ مِيكَائِيلَ وَلِيُّهُمْ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي السَّبَبِ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ قَالُوا ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا كَانَ سَبَبَ قِيْلِهِمْ ذَلِكَ

من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر نُبُوَّتِهِ، ثم ذكر عن ابن عباس أنه قال: [حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا يا أبا القاسم: حدثنا عن خلال نسألك عنهنَّ لا يعلمهنَّ إلا نبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلوني عمَّا شئتم فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهنَّ، أخبرنا عن أيِّ الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، وكيف يكون الذكر منه والأنثى، وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ومن وليه من الملائكة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنني، فأعطوه ماشاء من عهد وميثاق، فقال نشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً، فطال سقمه منه فنذر نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرِّمَ أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان أحبَّ الطعام إليه لحم الإبل (قال أبو جعفر فيما أرى) وأحبَّ ألبانها؟ فقالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشهد الله عليكم وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق؟ فأبها علا كان له الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد، قال: وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم اشهد. قالوا: أنت الآن تحدثنا عن وليك من الملائكة، فعندها نتبعك، أو نفارقك، قال فإنَّ وليَّ جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليُّه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليُّك سواهُ من الملائكة تابعتناك وصدقناك، قال: فما يمنعكم أن تُصدِّقوه؟ قالوا: إنَّه عدونا فأنزل الله عزَّ وجلَّ: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيْلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» إلى قوله: «كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» فعندها بأوا بغضب على غضب وبقية الآيات على هذا القول هي: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ * أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *» سورة البقرة (آية: ٩٩، ١٠٠، ١٠١).

ذكر عن الشعبي : قال : نزل عمر الروحاء ، فرأى رجالاً يتدرون أحجاراً يُصلّون إليها ، فقال : ما هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ههنا ، فكره ذلك ، وقال : إنما رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أدركته الصلاة بواد ، فصلّى ، ثم ارتحل فتركه ، ثم أنشأ يحدثهم ، فقال : كنت أشهد اليهود يوم مدارسهم ، فأعجب من التوراة كيف تُصدّق الفرقان ، ومن الفرقان كيف يصدّق التوراة ، فبينما أنا عندهم ذات يوم ، قالوا : يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك ، قلتُ : ولم ذلك ؟ قالوا : إنك تغشانا وتأتينا ، قال : قلتُ : إني آتيكم ، فأعجب من الفرقان كيف يُصدّق التوراة ومن التوراة كيف تُصدّق الفرقان ، قال : ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به ، قال فقلت لهم عند ذلك أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو ، وما استرعاكم من حقّه واستودعكم من كتابه ، أتعلمون أنّه رسول الله ؟ قال : فسكتوا قال : فقال عالمهم وكبيرهم : إنّهُ قد عظم عليكم فأجيبوه ، قالوا أنت عالما وسيّدنا فأجبه أنت ، قال : أمّا إذا أنشدتنا به ، فإننا نعلم أنّه رسول الله ، قال : قلتُ ويحكم أي هلكتم ، قالوا : إنا لم نهلك ، قال : قلتُ كيف ذلك ، وأنتم تعلمون أنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا تتبعونه ولا تُصدّقونه ، قالوا : إن لنا عدوّاً من الملائكة وسلماً من الملائكة ، وأنّه قرن به عدوّنا من الملائكة ، قال : قلتُ ومن عدّوكم ؟ ومن سلمكم ؟ قالوا : عدّونا جبريل ، وسلمنا ميكائيل . قال : قلتُ وفيم عاديتم جبريل ، وفيم سالمتم ميكائيل ؟ قالوا : إنّ جبريل ملكُ الفظاظة والغلظة والاعسار الشديد ، والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملكُ الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا ، قال : قلتُ وما منزلتها من ربّها ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره . قال : قلتُ فوالله الذي لا إله إلا هو إنها والذي بينها لعدوّ لمن عاداهما ، وسلّم لمن سالمها . ما ينبغي لجبريل أن يُسلم عدوّ ميكائيل ، ولا لميكائيل أن يسلم عدوّ جبريل ، قال : ثمّ قتُ فاتبعت النبيّ صلى الله عليه وسلم فلحقته ، وهو خارج من خرفة لبنى فلان ، فقال لي : يا ابن الخطاب ألا أفرئك آيات نزلن فقرأ عليّ : « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ » حتى قرأ الآيات . قال : قلتُ بأبي وأمي يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لقد جئتُ ، وأنا أريد أن أخبرك الخبر ، فأسمع اللطيف الخبير ، قد سبقني إليك بالخبر والأقرب في سبب عداوة اليهود لجبريل عليه السلام لأنّه كان ينزل بالقرآن على محمد

صلى الله عليه وسلم كما يشعر بذلك قوله «فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ..» أي إن عاداهُ أحد، فالسبب في
 عداوته أنه نزل عليك القرآن مُصَدِّقاً لكتابهم وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن ولموافقته
 لكتابهم، ولذلك كانوا يُحرفونه ويحجدون موافقته له، كقولك إن عاداك فلائ فقد آذنته
 وأسأتُ إليه، وإن عادى جبريل أحدٌ من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً
 مُصَدِّقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في النزول بما ينفعهم
 ويصحح المنزّل عليهم، ويمكن أن يتوجّه الجزاء إلى قوله: «بِإِذْنِ اللَّهِ» إلى آخره. أي إن
 عاداهُ أحدٌ فلا وجه لعداوته لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه، وباختياره، وإنما جاء
 بإذن الله، وأمره الذي لا محيص عنه، ولا سبيل إلى مخالفته، وجاء به مُصَدِّقاً هادياً
 مُبشراً، فهو من حيث إنه مأمور وجب أن يكون معذوراً، ومن حيث أنه أتى بالهداية
 والبشارة يلزم أن يكون مشكوراً، فعداوته من هذا السبيل عداوة الله تعالى، ولو أنه تعالى
 أمر ميكائيل بذلك لانقاده لأمره أيضاً لا محالة، ولتوجه الإشكال عليه، فما الوجه في
 تخصيص جبريل بالعداوة؟ روى الطبري عن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب
 انطلق ذات يوم إلى اليهود، فلما ابصروه رحبوا به، فقال لهم عمر أما والله ما جئتُ لحبكم
 ولا للرغبة فيكم، ولكن جئتُ لأسمع منكم فسألهم وسألوه، فقالوا: من صاحب
 صاحبكم؟ فقال لهم جبريل، فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يُطلِعُ محمداً على سرنا،
 وإذا جاء جاء بالحرب والسنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء
 بالخصب وبالسلم، فقال لهم عمر: أفتعرفون جبريل، وتذكرون محمداً، ففارقهم عمر عند
 ذلك، وتوجّه نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزل عليه
 هذه الآية: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» * وروى عن
 السدي: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ» قال: كان لعمر بن الخطاب أرض بأعلى المدينة، فكان يأتيها، وكان ممره على
 طريق مدارس اليهود، وكان كلما دخل عليهم سمع منهم، وأنه دخل عليهم ذات يوم،
 فقالوا يا عمر: ما في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحدٌ أحبُّ إلينا منك إنهم يرون
 بنا، فيؤذوننا، وتمرُّ بنا فلا تؤذينا، وأنا لنطمعُ فيك، فقال لهم عمر: أي يمين فيكم أعظم؟
 قالوا: الرحمسُ الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، فقال لهم عمر: فأنشدكم
 بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمداً صلى الله عليه وسلم

عندكم؟ فأسكتوا! فقال: تكلموا، ما شأنكم؟ فوالله ما سألتكم وأنا شاكٌ في شيء من ديني، فنظر بعضهم إلى بعض، فقام رجلٌ منهم، فقال: أخبروا الرجل لتخبرته أولاً خبرته؟ قالوا: نعم إننا نجد مكتوباً عندنا، ولكن صاحبه من الملائكة الذي يأتيه بالوحي هو جبريل، وجبريل عدوُّنا، وهو صاحب كل عذاب أو قتال، أو خسف، ولو أنه كان وليه ميكائيل إذا لأمَّنا به، فإن ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث، فقال لهم عمر: فأنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أين مكان جبريل من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، قال عمر: فأشهدكم أن الذي هو عدوُّ للذي عن يمينه عدوُّ للذي هو عن يساره، والذي هو عدوُّ للذي هو عن يساره عدوُّ للذي هو عن يمينه، وأنه من كان عدوهما فإنه عدوُّ الله، ثم رجع عمر ليخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فوجد جبريل قد سبقه بالوحي، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقرأه عليه، فقال عمر: والذي بعثك بالحق لقد جئتُك وما أريد إلا أن أخبرك. وكذا رواية الشعبي وفي آخرها: وقد أنزل عليه «من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزلهُ على قلبك بإذن الله» إلى قوله: «فإن الله عدوُّ للكافرين» وفي الخازن (ج ١ ص ٦٦) «قل من كان عدوًّا لجبريل» قال ابن عباس: نزول هذه الآية أن عبد الله بن سوريا: حبر من أحبار اليهود، قال للنبي صلى الله عليه وسلم أي ملك يأتيك من السماء؟ قال: جبريل. قال: ذلك عدونا، ولو كان ميكائيل لآمننا بك، إن جبريل ينزل بالعذاب والشدة والخسف، وأنه عادانا مراراً، وأشد ذلك علينا، إن الله أنزل على نبيِّنا أن بيت المقدس سيخرب على يد رجلٍ يقال له: بختنصر، فلما كان زمنه بعثنا من يقتله، فلقبه ببابل غلاماً مسكيناً فأخذه ليقتله، فدفع عنه جبريل، وقال: إن الله أمره بهلاككم فلن تُسلط عليه، وإن لم يكن هو فعلى أي حق تقتله، فلما كبر ذلك الغلام، وقوى غزانا، وخرب بيت المقدس، فلهذا نتخذُه عدوًّا، فأنزل الله هذه الآية وقيل: قالوا إن الله أمره أن يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا فاتخذناه عدوًّا وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس قال: أقبلت يهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء فإن أنبأنا بهن عرفنا أنك نبيٌّ واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ اسرائيل على بنيه إذ قال: والله على ما نقول وكيل. قال هاتوا، قالوا: فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تدكَّر؟ قال: يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل

ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتكي عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا — قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل — فحرم لحومها. قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيده مخراق من نار يزرجه بالسحاب، يسوقه حيث أمره الله تعالى، قالوا: فإذا هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: صوته. قالوا: صدقت. قالوا: إنما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها. إنّه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام. قالوا: جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب، والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان. فأنزل الله تعالى: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ» إلى آخر الآية ورواه الترمذي والنسائي من حديث عبدالله بن الوليد. وقال الترمذي حسن غريب قال البخاري قوله تعالى: «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ» قال عكرمة: جبراً وميكا وإسراف عبد. وإيل: الله. وعن أنس بن مالك قال: سمع عبدالله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو في أرض يخترق فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراف الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: أخبرني بهذا جبرائيل آنفاً. قال: جبريل؟ قال: نعم، قال: ذلك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ» وأما أول أشراف الساعة فنار تحترق الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعته. قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي رجل عبدالله بن سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: أرأيتم إن أسلم؟ قالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج عبدالله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا: هو شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله انفرد به البخاري من هذا الوجه وليس فيه ذكر جبريل عليه السلام وقوله تعالى: «فإِنَّهُ نَزَّلَهُ» يعني جبريل نزل بالقرآن «عَلَى قَلْبِكَ»

يا محمد، وإنما خصّه بالذكر لأنه خزانة الحفظ، وأضافه إلى ضمير المخاطب دون ياء المتكلم، وإن كان ظاهر الكلام، يقتضي أن يكون على قلبى، إما مراعاة لحال الأمر بالقول فيردُّ لفظه بالخطاب، وإما لأنَّ ثم قولاً آخر مضمراً بعد قل: والتقدير: قل يا محمد قال الله من كان عدواً لجبريل * «بِإِذْنِ اللَّهِ» أي بأمره، فيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام إلى تنزيله وصدق عزمته عليه، وهو حال من فاعل نزله * قال ابن الخطيب: تفسير الإذن هنا بالأمر أي بأمر الله أولى من تفسيره بالعلم لأن الإذن حقيقة في الأمر مجاز في العلم، ويجب الحمل على الحقيقة ما أمكن. «مُصَدِّقًا» أي موافقاً. أحوال من مفعول نزله، وفي ذكر الأخيرين تنبيه على أن القرآن مشتمل على بيان ما وقع به التكليف من أفعال القلوب والجوارح * «لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» أي لما قبله من الكتب السموية السابقة المنزلة: «وَهَدَىٰ وَبُشِّرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ» أي في القرآن هداية للمؤمنين إلى الأعمال الصالحة التي يترتب عليها الثواب، وبشرى لهم بثوابها إذا أتواها، والمفهوم المخالف، أي وعذاباً وشدة على الكافرين * «مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ» قال الخازن في تفسيره (ج ١ ص ٦٦) لَمَّا بَيَّنَّ فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ لِأَجْلِ أَنَّهُ نَزَلَ بِالْقُرْآنِ عَلَى قَلْبِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجِبَّ أَنْ يَكُونَ عَدُوًّا لِلَّهِ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي نَزَّلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِأَحَدٍ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِجَمِيعِهِمْ، وَبَيَّنَّ أَنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ بِقَوْلِهِ: «فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» وعبارة البيضاوى: وأفرد المكان بالذكر للتنبية على أن معاداة الواحد، والكل سواء في الكفر، واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدهم، فكأنه عادى الجميع، إذ الموجب لمحبتهم وعداوتهم على الحقيقة واحد. ولأنَّ الحاجة كانت فيهما وأما عداوتهم لله فإنها لا تضره ولا تؤثر، وعداوتهم إلى العذاب الدائم الذي لا ضرر أعظم منه * وقيل: المراد من عداوتهم لله عداوتهم لأوليائه، وأهل طاعته فهو كقوله: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرُسُلَهُ» أي يحاربون أولياء الله، وأهل طاعته * وقدم جبريل على ميكائيل لفضله عليه، لأنَّ جبريل ينزل بالوحي الذي هو غذاء الأرواح، وميكائيل ينزل بالمطر الذي هو سبب غذاء الأبدان، وجبريل وميكائيل اسمان أعجميان. ومعناها عبْدُ الله، لأنَّ جبر وميك بالسريانية هو العبد وإيل هو الله * وقوله: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» في الخازن. قال ابن عباس: هذا جواب لابن سوريا حيث قال لرسول الله صلى

الله عليه وسلم: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بينه فنتبعك بها، فأنزل الله هذه الآيات * ومعنى بيّنات واضحات مفصلات بالحلل والحرام والحدود والأحكام * «وَمَا يَكْفُرُ بِهَا» أي وما يجحد بهذه الآيات «إِلَّا الْفَاسِقُونَ» أي الخارجون عن طاعتنا وما أمروا به، واللام للعهد، أي الفاسقون المعهودون، وهم أهل الكتاب المحرفون لكتابهم الخارجون عن دينهم، أو للجنس، وهم داخلون فيه دخولاً أولياً.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ»
سورة البقرة (آية: ١٠١)

في الخازن (ج ١ ص ٦٧) قال ابن عباس لما ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخذ عليهم من العهود في محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يؤمنوا به قال مالك بن الصيف: والله ما عهد إلينا في محمد عهداً، فأنزل الله هذه الآية * أو كلما: استفهام إنكاري، عاهدوا عهداً: هو قولهم: إنّه قد أظل زمان نبي مبعوث، وإنّه في كتابنا، وقيل: إنهم عاهدوا الله عهداً كثيرة ثم نقضوها. «نَبَذَهُ» أي طرح العهد ونقضه «فَرِيقٌ مِنْهُمْ» يعني اليهود «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» يعني كفر فريق منهم بنقض العهد، وكفر فريق منهم بالجحد للحق * قال الحسن البصري: في قوله تعالى: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» قال: نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه، ونبذوه يعاهدون اليوم وينقضون غدأه * وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم * وقال ابن جرير: أصل النبذ الطرح والإلقاء، ومنه سُمي اللقيط منبذاً، ومنه سُمي النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طُرِحَا في الماء * وقال ابن كثير في التفسير (ج ١ ص ١٣٤): فالقوم ذمّهم الله بنبذهم العهود التي تقدّم الله إليهم في التمسك بها، والقيام بحقّها، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرّسول المبعوث إليهم وإلى النّاس كافة الذي في كتبهم نعتّه وصفته، وأخباره، وقد أمروا فيها باتباعه وموازرتة ونصرتة كما قال تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ..» الآية وقال ههنا: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ» الآية. أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم ممّا فيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم، أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلم

السحر واتباعه، ولهذا أرادوا كيداً برسول الله صلى الله عليه وسلم وسحروه في مشيطة ومشاقة وجفت طلعة. ذكر تحت راعونة بئر أروان، وكان الذي تولى ذلك منهم رجل يقال له لبيد بن الأعصم لعنه الله وقبحه، فأطلع الله على ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم، وشفاهُ منه، وأنقذه كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وقال السدي: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ» قال: لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوا بالتوراة، فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن. فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: «كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» قال قتادة: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه ووجدوا به. وإنما حملهم على ذلك عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وهم علماء اليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وكتمو أمره، وكان أولئك النفر قليلاً. وهي جملة في محل نصب على الحال، وصاحبها فريق. وإن كان نكرة لتخصيصه بالوصف، والعامل فيها نبذ. والتقدير مشبهين بالجهال، ومتعلق العلم محذوف تقديره إنه كتاب الله مع أنهم لا يُدخلهم فيه شك، والمعنى أنهم كفروا عناداً واعلم أنه تعالى دلَّ بالآيتين على أن حال اليهود أربع:

فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب، وهم الأقلون المدلول عليهم بمفهوم قوله: «بل أكثرهم لا يؤمنون».

وفرقة جاهرُوا بنبذ عهدها وتحظى حدودها تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيون بقوله: «نبذوه فريق منهم».

وفرقة لم يجاهرُوا بنبذها ولكن نبذوا لجهلهم، وهم الأكثرون المدلول عليهم بمنطوق قوله: «بل أكثرهم لا يؤمنون».

وفرقة تمسكون بها ظاهراً ونبذوها خفية عالين بالحال بغياً وعناداً، وهم المتجاهلون المدلول عليهم بقوله: «كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (البيضاوي).

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ

بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ
وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ
أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ١٠٢)

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢٠) عن عمران بن الحارث قال: بينا نحن
عند ابن عباس إذ قال: إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فيجىء أحدهم
بكلمة حق فإذا جُرب من أحدهم الصدق كذب معها سبعين، فيُشرها قلوب الناس،
فأطلع على ذلك سليمان، فأخذها فدفنها تحت الكرسي، فلما مات سليمان، قام شيطان
في الطريق، فقال: ألا أدلكم على كنز سليمان المنيع الذي لا كز مثله؟ قالوا: نعم،
قال: تحت الكرسي، فأخرجوه، فقالوا: هذا سحر سليمان سحره الأمم. فأنزل الله
«وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ...» الآية وقال الكلبي: إن الشياطين
كتبوا السحر والنار نيجات على لسان آصف. هذا ما علّم آصف بن برخيا الملك، ثم
دفنوها تحت مصلاه حين نزع الله ملكه، ولم يشعر بذلك سليمان، ولما مات سليمان
استخرجوه من تحت مصلاه، وقالوا للناس: إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه، فلما علم
علماء بني اسرائيل قالوا: معاذ الله أن يكون هذا علم عليم سليمان، وإنما القلة، فقالوا:
هذا علم سليمان، وأقبلوا عليّ تعلّمه، ورفضوا كتب أنبيائهم ففشت الملامة لسليمان،
فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عذر سليمان على
لسانه، ونزل براءته مما رمى به، فقال: «وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ» الآية وقال
السرّي: إن الناس في زمن سليمان كتبوا السحر فاشتغلوا بتعلّمه، فأخذ سليمان تلك
الكتب فدفنها تحت كرسيه ونهاهم عن ذلك. ولما مات سليمان، وذهب به كانوا يعرفون
دفن الكتب، فتمثّل شيطان على صورة إنسان، فأتى نفرأ من بني اسرائيل وقال: هل
أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي فحفروا فوجدوا
تلك الكتب، فلما أخرجوها قال الشيطان: إنّ سليمان ضبط الجن والإنس والشياطين
والطيور بهذا، فأخذ بنو اسرائيل تلك الكتب، فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود، فبرأ
الله عزّ وجل سليمان من ذلك، وأنزل الآية: «وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ
سُلَيْمَانَ...» وفي باب السيوطي: أخرج ابن جرير عن شهر ابن حوشب قال: قالت
اليهود: انظروا محمداً يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، أفأ كان ساحراً

يركب الريح!!؟ فأنزل الله تعالى: «وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ...» الآية * وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية أنَّ اليهود سألو النبي صلى الله عليه وسلم زماناً عن أمور من التوراة لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله عليه ما سألوه عنه فيخصمهم، فلمَّا رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل إلينا ممَّا، وأنهم سألوه عن السَّحر وخاصموه به، فأنزل الله «وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ...» * وفي الخطيب: قال السدى: كانت الشياطين تسترق السمع فيستمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت وغيره، فيأتون الكهنة، ويخلطون بما يسمعون في كل كلمة سبعين كذبة، ويخبرونهم بها، فاكتتب الناس ذلك، وفشا في بني اسرائيل أنَّ الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس، وجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ودفنها تحت كرسيه، وقال: لا أسمع أن أحداً يقول إنَّ الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه، فلمَّا مات سليمان، وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، ودفنه الكتب، وخلف من بعدهم خلف تمثَّل الشيطان على صورة إنسان، فأتى نفرًا من بني اسرائيل، فقال: هل أدلكم على كزلا تأكلونه أبدأ؟ قالوا: نعم، قال: فاحضروا تحت الكرسي وذهب معهم، فأراهم المكان. وأقام ناحية، فقال: ادن، فقال: لا، ولكنى ههنا، فإن لم تجدوه فاقتلوني، وذلك أنَّه لم يكن أحدٌ من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق، فحفروا وأخرجوا تلك الكتب، وقال الشيطان: إن سليمان كان يضبط الجنَّ والإنس والشياطين والطيور بهذا، ثم طار الشيطان، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، وأخذ بنو اسرائيل تلك الكتب فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم برأ الله سليمان من ذلك وأنزل تكذيباً لمن زعم ذلك «وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ...» * قال أبو جعفر الطبري في تفسيره (ج ١ ص ٣٥٢) يعنى بقوله: «وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ» الفريق أخبار اليهود وعلمائها الذين وصفهم جلَّ ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذي أنزله على موسى وراء ظهورهم تجاهلاً منهم، وكفراً بما هم به عالمون كأنهم لا يعلمون، فأخبر عنهم أنهم رفضوا كتابه الذي يعلمون أنَّه منزل من عنده على نبيه صلى الله عليه وسلم، ونقضوا عهده الذي أخذه عليهم في العمل بما فيه، وآثروا السَّحر الذي تلتته الشياطين في ملك سليمان بن داود، فاتبعوه وذلك هو الخسران والضلال المبين * وفي ابن كثير (ج ١ ص ١٣٤) وكان حين ذهب ملك سليمان ارتدَّ فنام من الجن والانس، واتبعوا الشهوات، فلما أرجع الله إلى

سليمان ملكه، وقام الناس على الدين كما كان، وإن سليمان ظهر على كتبهم فدفعها تحت كرسيه، وتوفى سليمان عليه السلام، فظهر الانس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان، فأخفاه عتاً، فأخذوا به فجعلوه ديناً فأنزل الله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ» الآية، واتبعوا الشهوات التي كانت تتلو الشياطين، وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله * وذكر ابن كثير عن ابن عباس قال: كَانَ أَصْفُ كَاتِبِ سُلَيْمَانَ، وَكَانَ يَعْلَمُ الْأَسْمَاءَ الْأَعْظَمَ، وَكَانَ يَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ سُلَيْمَانَ، وَيُدْفِنُهُ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ، فَلَمَّا مَاتَ سُلَيْمَانَ أَخْرَجَتْهُ الشَّيَاطِينُ، فَكَتَبُوا بَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ سِحْرًا وَكُفْرًا، وَقَالُوا: هَذَا الَّذِي كَانَ سُلَيْمَانَ يَعْمَلُ بِهَا، قَالَ: فَأَكْفَرَهُ جَهَالُ النَّاسِ وَسُبُّهُ، وَوَقَفَ عِلْمَاءُ النَّاسِ. فَلَمَّ يَنْزِلُ جَهَالُ النَّاسِ يَسُبُّونَهُ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانَ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا..» * أي يعنى اليهود نبذوا كتاب الله، واتبعوا كتب السحر. والأولى أن تكون هذه الجملة معطوفة على مجموع الجملة السابقة من قوله: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ..» إلى آخرها لأن عطفها على نبذ يقتضي كونها جواباً لقوله: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ»، واتباعهم لما تتلو الشياطين ليس مترتباً على مجيء الرسول، بل كان اتباعهم لذلك قبله. وما موصولة، وعاندها محذوف. التقدير تتلوه * ومعنى تتلوا تقرأ من التلاوة، وقيل معناه تفتري وتكذب، أي تلت. أي قرأت، أو افترت وكذبت * «عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ» فيه قولان: أحدهما: أن على بمعنى في أي في زمن ملكه، والثاني: أن يُضْمَنَ تتلوه معنى تتقول. أي فتتقول على ملك سليمان، وتتقول يتعدى بعلى قال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ» وهذا الثاني أولى، فإن التجوز في الأفعال أولى من التجوز في الحروف وهو مذهب البصريين، وإنما أحوج إلى هذين التأويلين، أن تلا إذا تعدى بعلى كان المجزور بعلى شيئاً يصح أن يتلى عليه، نحو تلوْتُ على زيد القرآن، والملك ليس كذلك. والتلاوة الاتباع أو القراءة وهو قريب منه، وسليمان، علمٌ أعجمى فذلك لم ينصرف * وقال أبو البقاء: فيه ثلاثة أسباب (العجمة والتعريف والألف والنون) وهذا إنما يثبت بعد دخول الاشتقاق فيه والتصريف حتى تعرف زيادتها، وأنها لا يدخلان في الأسماء الأعجمية * وكرر جلَّ جلاله «وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانَ» فذكره ظاهراً تفخيماً له وتعظيماً * يعنى بالسحر، ولم يعمل

به، وفيه تنزيه سليمان عليه السلام عن السحر، وذلك أنَّ اليهود أنكروا نبوة سليمان. قالوا: إنما حصل له ذلك الملك وسخرت الجن والإنس له بسبب السحر. الخ. ما تقدم * «وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا» يعني الذين اتخذوا السحر لأنفسهم هم الذين كفروا، ثم بين سبب كفرهم فقال تعالى: «يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ» يعني ما كتب لهم الشياطين من كتب السحر، وقيل: يحتمل أن يكون يُعَلِّمُونَ. اليهود الذين عُثُوا بقوله «وَاتَّبِعُوا» * وسمى السحر سحراً لخفاء سببه، فلا يفعل إلا في خفية، وقيل: معنى السحر الإزالة وصرف الشيء عن وجهه تقول العرب ما أسحرك عن كذا! أي ما صرفك عنه، فكأن الساحر لَمَّا رأى الباطل في صورة الحق فقد سحر الشيء عن وجهه، أي صرفه. هذا أصله في اللغة، وأما حقيقته فقد قيل: إنَّه عبارة عن التمويه والتخييل.

ومذهب أهل السنة أنَّ له وجوداً وحقيقة، والعمل به كفر، وذلك إذا اعتقد أن الكواكب هي المؤثرة في قلب الأعيان * وروى عن الشافعي أنَّه قال: السحر يخبل ويمرض، وقد يقتل، حتى أوجب القصاصا على من قَتَلَ به * وقيل: إن السحر يؤثر في قلب الأعيان، فيجعل الإنسان على صورة حمار، والحمار على صورة الكلب، وقد يطير الساحر في الهواء، وهذا القول ضعيف (عند أهل السنة) لأنهم قالوا: إنَّ الله تعالى هو الخالق الفاعل لهذه الأشياء عند عمل الساحر لذلك، لا أنَّ الساحر هو الفاعل لها المؤثر فيها (الخازن ج ١ ص ٦٨) * وقال: والأصح أن السحر يخبل ويؤثر في الأبدان بالأمراض والجنون والموت. يدل على ذلك أنَّ للكلام تأثيراً في الطباع. فقد يسمع الإنسان ما يكره فيحتم، وقد مات قوم بكلام سَمِعُوهُ. فالسحر بمنزلة العلل في الأبدان * وقال الخازن: وأما حكمه فإنه من الكبائر التي نهى عنها، ومحرم تعلُّمه لما روى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [اجتنبوا السبع الموبقات. قيل يا رسول الله، وما هنَّ؟] قال: الإشراك بالله والسحر، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والزنا والتَّوَلَّى يوم الزَّحْف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات] أخرجه في الصحيحين * فعَدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم السَّحْر من الكبائر، وثناه بالشرك، وأمرنا باجتنابه * وقوله: [الموبقات] يعني: المهلكات. والسَّحْر على قسمين:

أحدهما: يكفر به صاحبه، وهو أن يعتقد أن القدرة لنفسه في ذلك وهو المؤثر، أو يعتقد أن الكواكب هي المؤثرة الفعالة، فإذا انتهى به السَّحْر إلى هذه الغاية صار كافراً

بِاللَّهِ تَعَالَى وَيَجِبُ قَتْلُهُ، لَمَا رَوَى عَنْ جَنْدَبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [حَدَّثَ
السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ] أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ.

والقسم الثاني من السحر: وهو التخيل الذي يشاكل اليرنجيات والشعبذة، ولا
يعتقد صاحبه لنفسه فيه قدرة، ولا أنَّ الكواب هي المؤثرة، ويعتقد أن القدرة لله تعالى،
وأنَّه سبحانه هو المؤثر فهذا القدر لا يكفُّرُ به صاحبه، ولكنه معصية وهو من الكبائر ومحرم
فعله، فإن قتل بسحره قُتل قصاصاً لما روى عن مالك أنَّه بلغه أن حفصة زوج النبي صلى
الله عليه وسلم قتلت جارية لها سحرها، وقد كانت دبَّرتُها، فأمرت بها فقتلت. أخرجه
في الموطأ وفي المراغي (ج ١ ص ١٨٠) وقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا
بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بآثار الحيات والثعابين حتى خيَّلَ إلى الناس أنها
تسعى، وقد اعتاد الذين اتخذوه صناعة للمعاش أن يتكلَّموا بأساء غريبة وألفاظ مبهمة،
اشتهر بها الناس أنها من أساء الشياطين وملوك الجن، ليوهمو أنَّ الجنَّ يستجيبون
دعاءهم، ويُسخَرُونَ لهم، وهذا هو منشأ اعتقاد العامة أن السَّحر عمل يُستعان عليه
بالشياطين وأرواح الكواكب، ومثل هذا تأثير في إثارة الوهم، دلَّت التجربة على وجوده،
وهو يُغني منتحل السَّحر عن توجيه همته وتأثير إرادته فيمن يُعمل له السحره وقال الغزالي
في الإحياء ما نصه: السحر نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر، وبأمور حسابية في
مطالع النجوم، فيُتخذ من تلك الخواص هيكل على صورة الشخص المسحور و يترصد له
وقت مخصوص من المطالع، وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف
للشريع. ويتوصل بسببها إلى الإستعانة بالشياطين، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء
الله العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور وفي تفسير ابن كثير (ج ١ ص ١٣٦) وقول
الحسن البصرى رحمه الله: وكان السَّحر قبل زمان سليمان بن داود صحيح لا شك فيه
لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام، وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى:
«الَّذِينَ تَرَى إِلَى الْمَلَأُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى» الآية، ثم ذكر القصة بعدها وفيها
«إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ» أي المسحورين على المشهوره وفي تفسير غرائب القرآن
ورغائب العرفان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ج ١
ص ٣٤٨) الموضوع على هامش تفسير الطبري قال: ثم السحر على أقسام: منها سحر
الكلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر، وهم قوم يعبدون الكواكب، ويزعمون أنها هي

المدبرة لهذا العالم، ومنها تصدُرُ الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة، ويستحدثون
 الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية، وهم الذين بعث الله تعالى
 إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقاتلهم ورداً عليهم مذاهبهم * ومنها سحر أصحاب الأوهام
 والنفوس القوية بدليل أن الجذع الذي يتمكن الإنسان من المشي عليه لو كان موضوعاً
 على الأرض لا يمكنه المشي عليه لو كان كالجسر، وما ذلك إلا لأنَّ تخيُّل السقوط متى
 قوى أوجبه، وقد أجمعت الأطباء على نهى المعروف عن النظر إلى الأشياء الحمر،
 والمصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللعنان، أو الدوران، وما ذلك إلا لأن النفوس
 خلقت مطيعة للأوهام * وحكى في الشفاء عن أرسطو. أن الدجاجة إذا تشبَّهت كثيراً
 بالديكة في الصوت وفي الحراب مع الديكة نبت علي ساقها مثل الشيء الثابت على ساق
 الديكة * وهذا يدلُّ على أنَّ الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية * وأجمعت الأمم
 على أن الدعاء مظنةُ الإجابة، وأن الدعاء باللسان من غير طلب نفساني قليل الأثر *
 يحكى أن بعض الملوك عرض له فالج، فدخل عليه بعض الخذاق من الأطباء على حين
 غفلة منه، وشافهه بالشِّم والقدح في العرض، فاشتد غضب الملك، وقفز من مرقده قفزة
 اضطرارية وزالت تلك العلة المزمنة * والاصابةُ بالعين مما اتفق عليه العقلاء. والتحقُّق
 فيه أنَّ النفسَ إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السموات كانت
 كأنها روح من الأرواح السماوية، وكانت قوية التأثير في مواد هذا العالم، أمَّا إذا
 كانت ضعيفة شديدة التعلُّق بهذه اللذات البدنية فحينئذٍ لا يكون لها تصوُّر البتة إلا في
 هذا البدن، فإذا أراد أن يتعدى تأثيرها إلى بدن آخر اتخذ تمثال ذلك الغير، ووضعه عند
 الحسِّ، فاشتغل الحسُّ به، وتبعه الخيال عليه، وأقلمت النفس الناطقة بالكلية على ذلك
 فقويت التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية، ويعضدهُ الانقطاع عن المألوفات
 والمشتهيات، وتقليل الغذاء والاعتزال عن النَّاس، ثم إن كانت النفس مناسبة لهذا الأمر
 بحسب ما هيتهما وخاصيتها عظم التأثير * وأما الرقي فإن كانت بألفاظ معلومة فالأمر فيها
 ظاهر لأنَّ الغرض منها أن حسَّ البصر كما اشتغل بالأمر المناسبة للغرض، فحسَّ السَّمع
 أيضاً يشتغل بها، فإنَّ الحواس متى تطابقت متوجهة إلى الغرض الواحد كان توجه النفس
 إليه أقوى، وإن كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة
 والدهشة، ويحصل لها إذ ذاك انجذاب وانقطاع عن المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل

فيقوى التأثير النفساني فيحصل الغرض. وهكذا القول في الدخن. قالوا: فثبت أن هذا القدر من القوة النفسانية مستقل بالتأثير، فإن انضم إليه الاستعانة بالقسم الأول. وهو تأثيرات الكواكب قوى الأثر جداً لا سيما إن حصل لهذه النفس مدد من النفوس المفارقة المشابهة لها، أو من الأنوار الفائضة من النفوس الفلكية. ومنها سحر من يستعين بالأرواح الأرضية وهو المسمى بالعزائم وتسخير الجن، ومنها التخيلات الآخذة بالعيون وتسمى الشعوذة، وذلك أن أغلاط البصر كثيرة فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة، والشط متحركاً، والقطرة النازلة ترى خطأ مستقيماً، والعنبة ترى في الماء كالزجاجة، ويرى العظيم من البعيد صغيراً، وقد لا تقف القوة الباصرة على المحسوس وقوفاً تاماً إذا أدركت المحسوس في زمان صغير جداً، فيخلط البعض ببعض، ولا يتميز، فإن الرحى إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرة بألوان مختلفة، ثم أديرت فإن البصر يرى لوناً واحداً كأنه مركب من كل تلك الألوان. وأيضاً النفس إذا كانت مشغولة بشيء فرما حضر عند الحس شيء آخر، فلا يشعر الحس به البتة، كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان ويتكلم معه فلا يعرفه، ولا يفهم كلامه لما أن قلبه مشغول بشيء آخر، وكذا الناظر في المرأة ربما قصد أن يرى سطح المرأة، هل هو مستو أم لا، فلا يرى شيئاً مما في المرأة، فالمشعوذ الحاذق يظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به، ويأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استقر بهم الشغل بذلك الشيء والتحديد نحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة، فيبقى ذلك العمل خفياً لتعاون الشيطان اشتغالهم بالأول، وسرعة إتيانه بالثاني. ومنها الأعمال العجيبة التي تظهر من الآلات المركبة على التسب الهندسية، أو لضروب الخيلاء كفارسين يقتتلان، فيقتل أحدهما الآخره ومنه الصور التي يُصورها الروم والهند، حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، وقد يُصورها ضاحكة أو باكية، وقد يُفرق بين ضحك السرور وضحك الخجل، ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، وعلم جرّ الأثقال، وهذا لا يعد من السحر عرفاً لأن لها أسباباً معلومة يقينية. ومنها الاستعانة بخواص الأدوية والأحجاره ومنها تعليق القلب وهو أن يدعى الساحر أنه قد عرف الاسم الأعظم، وأنّ الجنّ ينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن كان السامع ضعيف القلب قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك، وحصل في قلبه نوع من الرعب، وحينئذ تضعف القوى الحساسة، فيتمكن الساحر من أن يفعل فيه ما شاء، وإن

من جرّب الأمور وعرف أحوال الناس علم أن لتعليق القلب أثراً عظيماً في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار ومنها السعى بالثميمة والتضريب من وجه خفية لطيفة، وذلك شائع في الناس فوذه جملة كلام في أقسام السحر وعند المسلمين كلها مستندة إلى قدرة الله تعالى، فإنه لا يمتنع وقوع هذه الخوارق بإجراء العادة عند سحر السحرة، واتفقوا على أن العلم به ليس بقبیح ولا محظور لأن العلم لذاته شريف ولعموم قوله تعالى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»، ولأن الفرق بينه وبين المعجزة يمكن به، إلا أن اجتنابه أقرب إلى السلامة، واتفقت المعتزلة على تكفير من يجوز ذلك، قالوا: لأنه مع هذا الاعتقاد لا يمكنه أن يعرف الأنبياء والرسل * وزُيِّفَ بأنَّ الانسان لو ادعى النبوة وكان كاذباً في دعواه فإنه لا يجوز من الله تعالى اظهار الخوارق على يده لئلا يحصل التلبيس، أمّا إذا لم يدع النبوة فظهرت الخوارق على يده لم يفض ذلك إلى التلبيس، فإن الحق يتميز عن المبطل بما أن الحق تحصل له هذه الأشياء مع ادعاء النبوة، والمبطل لا تحصل له هذه الأشياء مع ادعاء النبوة، وإن حصلت لم يتم، فصولة الباطل كنار العرفج * وعن أبي حنيفة أنه قال: يقتل الساحر إذا علم أنه ساحر ولا يستتاب، ولا يقبل قوله: إني أترك السحر، وأتوب منه، فإذا أقر أنه ساحر فقد حلّ دمه، وإن شهد شاهدان على أنه ساحر، أو وصفوه بصفة يعلم أنه ساحر قُتل، ولا يستتاب، وإن أقر بأني كنت أسحر مرة وقد تركت ذلك منذ زمان قبل منه ولم يقتل * قوله تعالى: «وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ» قال الخازن: (جـ ١ ص ٦٨) أي ويعلمون الذي أنزل على الملكين، والإنزال هنا بمعنى الإلهام والتعليم، أي ما ألهما وعُلِّمَهما وقرىء في الشاذ الملكين بكسر اللام. قال: هما رجلان ساحران كانا ببابل، وقيل علجان. ووجهه أن الملائكة لا يعلمون السحر، والقراءة المشهورة بفتح اللام، فإن قُلت كيف يجوز أن يضاف إلى الله تعالى إنزال ذلك على الملائكة، وكيف يجوز للملائكة تعليم السحر؟ قال ابن جرير الطبري: إن الله تعالى عرّف عباده جميع ما أمرهم به، وجميع ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونهاهم بعد العلم منهم بما يؤمرون به، وينهون عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك لما كان للأمر والنهي معنى مفهوم، والسحر ما نهى عباده من بني آدم عنه، فغير منكر أن يكون الله تعالى علّمهُ الملكين اللذين سمّاهما في تنزيله وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم كما أخبر عنها أنها يقولان لمن جاء يتعلّم ذلك منها: إنما نحن فتنة فلا تكفر، ليختبر بها عبادة الذين نهاهم عن السحر وعن التفريق بين المرء وزوجه، فيتحمض المؤمن بتركه التعليم منها،

ويجربى للكافر بتعلمه الكفر والسحر منها، و يكون الملكان في تعليمها ما علما من ذلك مطيعين لله تعالى. إذ كان عن إذن الله تعالى لها بتعليم ذلك، وغير ضارهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منها بعد نهى إياه عنه بقولها «إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ» إذا كانا قد أديا ما أمرا به وقال غيره: إنها لا يتعمدان ذلك بل يصفان السحرة و يذكران بطلانه. و يأمران باجتنابه، فالشقي من ترك نصحتها وتعلم السحر من وصفها، والسعيد من قبل نصحتها، وترك تعلم السحر منها؛ وقيل إن الله تعالى امتحن الناس بهما في ذلك الزمان، فالشقي من تعلم السحر منها، فيكفر به، والسعيد من تركه فيبقى على إيمانه، والله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء، كما امتحن بنى إسرائيل بنهر طالوت بقوله: «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي» وقوله: «يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ» الناس مفعول أول والسحر مفعول ثان. واختلفوا في هذه الجملة على خمسة أقوال:

أحدها: أنها حال من فاعل كفروا، أي كفروا معلمين.

الثاني: أنها حال من الشياطين. وردّه أبو البقاء، بأن لكن لا تعمل في الحال،

وليس بشيء. فإن لكن فيها رائحة الفعل.

الثالث: أنها في محل رفع على أنها خبر ثانٍ للشياطين.

الرابع: أنها بدل من كفروا، أبدل الفعل من الفعل.

الخامس: أنها استثنائيةٌ أخبر عنهم بذلك، هذا إذا أعدنا الضمير من يعلمون على

الشياطين. أما إذا أعدناه على الذين اتبعوا ما تتلوا الشياطين فتكون حالا من فاعل

اتبعوا، أو استثنائية فقط.

قوله: «بِبَابِلَ» قيل: هي بابل العراق بأرض الكوفة، سميت بذلك لتبليبل الألسنة

بها عند سقوط صرح نمروده وقيل: إنها بابل نهاوند. والأول أصح وأشهره وبابل متعلق

بأنزل، والباء بمعنى في أي في بابل ويجوز أن تكون في محل نصف على الحال من الملكين،

أو من الضمير في «أُنزِلَ» فيتعلق بمحذوف ذكر هذين الوجهين أبو البقاء وبابل لا

ينصرف للعجمة والعلمية، فإنها اسم أرض، وإن شئت قلت للتأنيث والعلمية قوله:

«هَارُوتَ وَمَارُوتَ» اسمان سريانيان.

قصة الآية على ما ذكر ابن عباس وغيره، قالوا: إن الملائكة لما رأوا ما يصعد إلى

السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام غيروهم، وقالوا: هؤلاء

الذين جعلتهم في الأرض، واحترتهم وهم يعصونك، فقال الله تعالى: لو أنزلتكم إلى الأرض وركبتم فيكم ما ركبتم فيهم لركبتم مثل ما ركبوا. قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك، قال الله تعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أهبطها إلى الأرض، فأختاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة، وأعبدهم، وكان اسم هاروت عزاء، وماروت عزايا فغيّر اسمها لَمَّا قارفا الذنوب، وركب الله فيها الشهوة وأهبطها إلى الأرض، وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحق، ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق والزنا وشرب الخمر فكانا يقضيان بين الناس يومها فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعظم وصعدا إلى السماء فما مرّ عليها شهر حتى افتتنا، وقيل: بل افتتنا في أول يوم، وذلك أنه اختصم إليها امرأة يقال لها الزُّهرة، وكانت من أجمل أهل فارس، وقيل: كانت ملكة، فلَمَّا رأياها أخذت بقلوبها، فقال أحدهما لصاحبه، هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي؟ قال: نعم، فراودها عن نفسها، فأبت وانصرفت، ثم عادت في اليوم الثاني ففعل ما مثل ذلك فأبت وقالت: لا، إلا أن تعبدوا هذا الصنم وتقتلوا النفس وتشربوا الخمر، فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء، فإن الله تعالى قد نهانا عنها، فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح خمر، وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراودها عن نفسها، فعرضت عليها ما قالت بالأمس. فقالا: الصلاة لغير الله عظيم، وقتل النفس عظيم، وأهون الثلاث شرب الخمر فشربا، فلَمَّا انتشيا وقعا بالمرأة فزنيا بها فرأهما إنسان فقتلاه خوف الفضيحة وقيل إنها سجدا للصنم، وقيل: جاءتها امرأة من أحسن الناس تخاصم زوجها، فقال أحدهما للآخر: هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي؟ قال: نعم، قال: هل لك أن تقضى على زوجها؟ فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة فسألاها نفسها فقالت: لا، إلا أن تقضيا لي على زوجي، فقضيا، ثم سألاها نفسها، فقالت: لا، إلا أن تقتلاه، فقال أحدهما لصاحبه: أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة. فقتلاه، ثم سألاها نفسها. فقالت: لا، إلا أن لي صنماً أعبده. إن أنتما صليتما معي عنده فعلت، فقال أحدهما لصاحبه: مثل القول الأول فردّ عليه مثله. فصليا معها عنده فسخت شهاباًه والحق أنه لا تعويل على مثل هذه الروايات لما أن مدارها على روايات اليهود مع ما فيها من المخالفة لأدلة العقل

والنقل (من أبي السعود والحاظر ج ١ ص ٦٩) وفيه روايات أخرى أضربت عن ذكرها للعلة التي ذكرت. وقد قام إجماع المسلمين على أنّ الملائكة معصومون، فضلاء أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون ولا يتناسلون... وأن حكم الرسل من الملائكة حكم النبيين في العصمة في باب البلاغ عن الله عز وجل، وفي كل شيء ثبتت فيه عصمة الأنبياء فكذلك الملائكة، وأنهم مع الأنبياء في التبليغ إليهم كالأنبياء مع أمهم، وقد كان أشد الناس افتراء على الملائكة والأنبياء بنى اسرائيل، وقد ذكر الله عز وجل في هذه الآيات افتراء اليهود على سليمان أولاً، ثم عطف على ذلك قصة هاروت وماروت ثانياً. لأن معنى الآية، وما كفر سليمان، يعني بالسحر الذي افتعله عليه الشياطين، واتبعتهم في ذلك اليهود، فأخبر عن افتراءهم وكذبهم. وقد ذكر المعتزلة وغيرهم في إبطال هذه القصة وجوهاً:

الوجه الأول: أنّ في القصة أن الله تعالى، قال للملائكة: لو ابتليتم بما ابتليت به بنوا آدم لعصيتموني، قالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نعصيك. وفيه رد على الله تعالى، وذلك كفر، وقد ثبت أنهم كانوا معصومين قبل ذلك فلا يقع هذا منهم.

الوجه الثاني: أنها خيرة بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وذلك فاسد لأن الله تعالى لا يُخير من أشرك، وإن كان قد صحت توبتها فلا عقوبة عليها.

الوجه الثالث: أن المرأة لما فجرت فكيف يعقل أنها صعدت إلى السماء وصارت كوكباً، وعظم الله قدرها بحيث أقسم بها في قوله: «فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِي الْكُنَّسِ».

فبان بهذه الوجوه ركة هذه القصة. لذا قال أبو السعود: لما أنّ مداره رواية اليهود يقضى أن هذه القصة غير صحيحة، وأنها لم تثبت بنقل معتبر، وتبع في ذلك البيضاوي، التابع في ذلك للفخر الرازي، والسعد التفتازاني وغيرهما ممن أطال في ردها «وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا» يعني وما يعلمان أحداً حتى ينصحاها أولاً ويقولوا «إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَةٌ» أي ابتلاء ومحنة. قوله: «وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ» هذه الجملة عطف على ما قبلها، والضمير في يعلمان فيه قولان: أحدهما: أنه يعود على هاروت وماروت. والثاني: أنه عائد على الملكين. ويؤيده قراءة أُبَيِّ بإظهار الفاعل وما يعلم الملكان. والأول هو الأصح، وذلك أن الاعتماد إنما هو على البديل دون المبدل منه، فإنّه في حكم الطرح،

فراعاته أولى و(أحد) هنا الظاهر أنه الملازم للنفي، وأنه الذي همزته أصل بنفسها، وأجاز أبو البقاء أن يكون بمعنى واحد فتكون همزته بدلاً من واو. «فَلَا تَكْفُرْ» أي لا تتعلم السحر، فتعمل به فتكفر، قيل: يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات، فإن أبي قبول نُصحهما وصمّم على التّعليم يقولان له: ائت هذا الرماد قبل عليه، فإذا فعل ذلك خرج منه نورٌ ساطع في السماء، فذلك الإيمان والمعرفة، وينزل شيء أسود مثل الدخان حتى يدخل مسامعه وذلك غضب الله تعالى — والعياذ بالله * الفتنة: الاختبار والإمتحان وافرادها مع تعدّدهما لكونها مصدرًا وحملها عليها حمل مواطأة للمبالغة كأنها نفس الفتنة، والقصر لبيان أنها ليس لها فيما يتعاطيانه شأن سواهما لينصرف النَّاسُ عن تعلّمه، أي وما يعلمان ما أنزل عليهما من السّحر أحدًا من طالبيه حتى ينصحاه قبل التعليم، ويقولان له: إنّها نحن فتنة وابتلاء من الله عز وجلّ، فمن عمل بما تعلّم منا واعتقد حقيقته كفر، ومن توقّى عن العمل به، أو اتّخذ ذريعة للالتقاء عن الاغترار بمثله بقى على الإيمان فلا تكفر باعتقاد حقيقته وجواز العمل به * «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا» يعني من الملكين «مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ» أي علم السّحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين كالتقويه والتخيل والتفتّث في العقد، ونحو ذلك مما يحدث عند البغضاء والنشوز، والخلاف بين الزوجين ابتلاءً من الله تعالى لا أنّ السحر له تأثير في نفسه بدليل «وما هم» يعني السحرة «بِضَّارَيْنِ بِهِ» أي بالسحر «مِنْ أَحَدٍ» أي أحدًا «إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» أي بعلمه وقضائه وتكوينه، فالساحر يسحر، والله تعالى يقدر، ويكون ذلك بقضائه تعالى وقدرته ومشيئته «وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ» يعني السحر لأنهم يقصدون به الشرّ، أي لأنهم يقصدون به العمل، أو لأنّ العلم يجر إلى العمل غالباً * وقوله: «وَلَا يَنْفَعُهُمْ» صرّح بذلك إيذاناً بأنّه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر، بل هو شرٌّ محض لأنهم لا يقصدون به التخلص عن الاغترار بفعل من يدعى النبوة من السحرة، أو تخليص الناس منه حتى يكون فيه نفع في الجملة وفيه أن الاجتناب عمّا لا تؤمن غوائله خير كتعلّم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجرّ إلى الغواية * «وَلَقَدْ عَلِمُوا» راجع في المعنى لقوله: «وَاتَّبِعُوا.» فهو معطوف عليه، والضمير في علموا فيه خمسة أقوال: أحدها: أنّه ضمير اليهود الذين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. والثاني: أنّه ضمير اليهود الذين في عهد سليمان عليه السلام. الثالث: أنّه ضمير جميع اليهود. الرابع: أنّه ضمير الشياطين.

الخامس: أنه ضمير الملكين عند من يرى أن الاثنين جمع. «لَمَنِ اشْتَرَاهُ» أي اختار السحر، أو دفع مالا للسحرة ليسحروا له فهو بمثابة الشراء «مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ» يعني ما له نصيب في الجنة، ومن موصولة في محل رفع بالابتداء، واشتراه صلته، وقوله ما له في الآخرة من خلاق، جملة من مبتدأ وخبر، ومن مزيدة في المبتدأ، وفي الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالاً منه، ولو أخرج عنه لكان صفة له، والتقدير ما له خلاق في الآخرة، وهذه الجملة في محل الرفع على أنها خبر للموصول، والجملة في حيز النصب سادة مسددة مفعول علموا إن جعل متعدياً إلى اثنين، أو مفعول له الواحد إن جعل متعدياً للواحد «وَلَيْسَ مَا شُرِّوا بِهِ أَنفُسَهُمْ» أي باعوا حظ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق، اللام جواب قسم محذوف، والمخصوص بالذم محذوف أي وبالله لبئس ما باعوا به أنفسهم السحر، أو الكفر، وفيه إيذان بأنهم حيث نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد عرضوا أنفسهم للهلاك وباعوها بما لا يزيدهم إلا تباراً. «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» فإن قلت كيف أثبت لهم العلم أولاً في قوله: «وَلَقَدْ عَلِمُوا» على التوكيد القسَمي، ثم نفاه عنهم آخراً في قوله: «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» قال الخازن: قد علموا أن من اشترى السحر ما له في الآخرة من خلاق، ثم مع هذا العلم خالفوا واشتغلوا بالسحر، وتركوا العمل بكتاب الله تعالى. وما جاءت به الرسل عناداً منهم وبعياً، وذلك على معرفة منهم بما لمن فعل ذلك منهم من العقاب، فكأنهم حين لم يعلموا بعلمهم كانوا منسلخين منه. «وَلَوْ أَنَّهُمْ» يعني اليهود «آمَنُوا» بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن «وَاتَّقَوْا» يعني اليهودية والسحر وما يؤثمهم «لَمَنُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» أي لكان ثواب الله إياهم «خَيْرٌ» لهم يعني هذا الثواب «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أنه خير لما آثروا السحر على الثواب.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا واسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» سورة البقرة (آية: ١٠٤)

ذكر الواحدى في أسباب النزول : (ص ٢١) قال ابن عباس في رواية عطاء: وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها - أي راعيناً - فلما سمعتم اليهود يقولونها للنبي صلى الله عليه وسلم أعجبهم ذلك، وكان (راعيناً) في كلام اليهود سباً قبيحاً، فقالوا: إنا كنا نسب

محمداً سرّاً، فالآن أعلنوا السبَّ لمحمد فإنه من كلامه، فكانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون: يا محمد راعنا ويضحكون، ففظن بها رجلٌ من الأنصار، وهو سعد بن عبادة، وكان عارفاً بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله! عليكم لعنة الله، والذي نفس محمد بيده لئن سمعناها من رجلٍ منكم لأضربنَّ عنقه، فقالوا: ألسنتم تقولونها؟ فأنزل الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا...» الآية وكذلك في تفسير الخطيب الشربيني* وفي ابن كثير (ج ١ ص ١٤٨) قال الضحاك عن ابن عباس: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا...» قال كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم أرعننا سمعك* وإنا راعنا كقولك عاطنا* وعن قتادة نحو ذلك، وقال مجاهد: «لَا تَقُولُوا رَاعِنَا...» لا تقولوا خلافاً* وفي رواية: لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك* وقال عطاء: لا تقولوا (راعنا) كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها* وقال الحسن: (لا تقولوا راعيناً) قال: الراعن من القول السخري منه ناهم الله أن يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم، وما يدعوههم إليه من الإسلام* وكذا روى عن ابن جريج أنه قال مثله. وقال أبو صخر «لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا» قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فيقول أرعننا سمعك، فأعظم الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقال ذلك له* وقال السدي: كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فإذا لقيه فكلمه قال: ارعني سمعك، واشمع غير مُسمع، وكان المسلمون يحسبون أنَّ الأنبياء كانت تفخم بهذا فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع غير صاغر— وهي كالتي في سورة النساء— فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا راعيناه قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا أنَّ الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا. لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها لنبيه صلى الله عليه وسلم، نظير الذي ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا تقولوا للعنكب الكرم، ولكن قولوا الحبلبة، ولا تقولوا عبدى، ولكن قولوا فتاى]* وفي تفسير الزمخشري (ج ١ ص ٣٠٢) كان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله: أي راقبنا وانتظرنا وتأنَّ بنا حتى نفهمه ونحفظه، وكانت لليهود كلمة يتسابون بها عبرانية، أو سريانية، وهي راعنا، فلما سمعوا بقول المؤمنين راعنا افترصوه وخاطبوا به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم يعنون بها تلك

المسببة، فهني المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناه وهو (انظرننا) من نظره إذا إنتظره... وقرأ عبد الله بن مسعود راعونا على أنهم كانوا يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير. وقرأ الحسن: راعينا، بالتنوين من الرعن وهو الهوج: أي لا تقولوا قولاً راعناً منسوباً إلى الرعن بمعنى رعنياً.

والمعنى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا واسمَعُوا» نهي سبحانه الصحابة عن كلمة، كانت تدور على ألسنتهم حين خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم وهي كلمة (راعنا) ومعناها راعنا سمعك: أي اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه ونراجعك القول لفهمه عنك، وانظرننا: أي راقبنا، وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تُلقيه علينا وفهمه، وسبب نهيهم عنها أنَّ اليهود لما سمعوا اقتربوها وصاروا يخاطبون بها النبي صلى الله عليه وسلم لا وين بها ألسنتهم لموافقة جزءها العري لكلمة (راعينو) العبرية التي معناها (شرب) فأرشد الله نبيه الكريم لذلك، وأمر أصحابه أن يقولوا (انظرننا) وهي خير منها وأخف لفظاً، وتفيد معنى الإنظار والإمهال كما تفيد معنى المراقبة التي تُستفاد من النظر بالعين، إذ تقول: نظرت الشيء ونظرت إليه إذا وجهت إليه بصرك ورأيت (المرامى ج ١ ص ١٨٤) * «وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي لليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى كفرياتهم، وجعلوه سبباً للتهاون برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كفر لا شك فيه لأن من يصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه شرير، فقد أنكر نبوته، وأنه موحى إليه من قبل ربه، ومتى فعل ذلك فقد كفر واستحق العذاب المؤلم وفي الطبرى غير ما ذكر (ج ١ ص ٣٧٤) قال ابن زيد في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا» قال: راعنا القول الذي قاله القوم. قالوا: سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين، قال: قال هذا الراعن، والراعنُ الخطأ، قال: فقال للمؤمنين: لا تقولوا خطأً كما قال القوم، وقولوا انظرننا واسمعوا، قال: كانوا ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويكلمونه، ويسمع منهم ويسألونه ويحييهم * وفي الخازن (ج ١ ص ٧١) في قوله: «واسمَعُوا» أي ما تؤمرون به وأطيعوا، نهي الله تعالى عباده المؤمنين أن يقولوا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم راعنا لئلا يتطرق أحد إلى شتمه، وأمرهم بتوقيره وتعظيمه، وأن يتخيروا لخطابه صلى الله عليه وسلم من الألفاظ أحسنها، ومن المعاني أدقها، وإن سأله يسألوه بتبجيل وتعظيم ولين، ولا يخاطبوه بما يسرُّ اليهود إن هذا التأديب ليس خاصاً بمن كان في عصره من المؤمنين بل يعمُّ ما جاء بعدهم أيضاً إلى

يوم الدين. فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم، وكان يجب عليهم الاستماع له والانصات لتدبره — هو الذي يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شيء، وهو كلام الله الذي به كان الرسول رسولاً تجب طاعته والاهتداء بهديه — فإذا هذا الأدب الذي يقابله به الأكثرون؟ إنهم يلغظون في مجلس القرآن، فلا يستمعون ولا ينصتون، ومن أنصت واستمع فإنما ينصت طرباً بالصوت واستلذاً بتوقيع نغمات القارئ، وإنهم ليقولون في استحسان ذلك واستجادته ما يقولون في مجلس الغناء، وهتزون للتلاوة ويصوتون بأصوات مخصوصة، كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق، ولا يلتفتون إلى شيء من معانيه، إلا ما يرونه مدعاةً لسرورهم من مثل قصة يوسف عليه السلام مع الغفلة عما فيها من العبرة، وإعلاء شأن الفضيلة. ولا سيما العفة والأمانة، أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها؟ «أَقْلَمَ يَدَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ * أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ» كذا قاله الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير المراغي (ج ١ ص ١٨٥).

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» سورة البقرة (آية: ١٠٥)

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢١): قال المفسرون — في سبب نزول هذه الآية — إن المسلمين كانوا إذا قالوا لخصائهم من اليهود: آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، قالوا: هذا الذي تدعوننا إليه ليس بخير مما نحن عليه، ولوددنا لو كان خيراً. فأنزل الله تعالى تكديباً لهم «مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...» الآية. قال أبو جعفر الطبري في تفسيره (ج ١ ص ٣٧٧): فتأويل الكلام، ما يُحِبُّ الكافرون من أهل الكتاب أن لا ينزل الله عليهم الفرقان. وما أوحاه إلى محمد صلى الله عليه وسلم من حكمه وآياته، وإنما أحببت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك حسداً وبغياً منهم على المؤمنين، قال: وفي هذه الآية دلالة بيّنة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين والاستماع من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم باطلاعه جل ثناؤه إيّاهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب

والمشركين من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مُسْتَبْطَنُونَ» «مَا يَوَدُّ» أي ما يحب «الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» يعني اليهود «وَلَا الْمُشْرِكِينَ» يعني عبدة الأوثان لأن الكفر اسم جنس تحته نوعان: أهل كتاب، وهم الذين بدلوا كتابهم وكذبوا الرسل. وعبدة الأوثان، وهم من عبدوا غير الله «أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ» يعني ما أنزل الله عز وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم من الوحي والنبوة «أَنْ يُنَزَّلَ» ناصب ومنصوب في تأويل مصدر مفعول بيود. أي ما يودون إنزال خير، وبنى الفعل للمفعول للعلم بالفاعل وللتصريح به في قوله «مِنْ رَبِّكُمْ» وأتى بما في النفي دون غيرها لأنها لنفي الحال، وهُمْ كانوا متلبسين بذلك. وقوله «مِنْ خَيْرٍ» وحى، وهو القائم مقام الفاعل. ومن زائدة أي أن ينزل خيرٌ من ربكم، وحسن زيادتها هنا، وإن كان ينزل لم يباشره حرف النفي انسحاب النفي عليه من حيث المعنى لأنه إذا نفيت الودادة انتفى متعلقها، وهذا له نظائر في كلامهم نحو. ما أظنُّ أحداً يقول ذلك إلا زيد. برفع زيد بدل من فاعل يقول. وإن لم يباشر النفي لكتنّه في قوة ما يقول أحدٌ ذلك إلا زيد. وهذا على رأى سيبويه وأتباعه، وأمّا الكوفيون والأخفش فلا يحتاجون إلى شيء من هذا. وقوله: «وَاللَّهُ يَخْتَصُّ» يستعمل متعدياً ولازماً، فعلى الأول: فاعله ضمير مستتر فيه، والموصول بصلته في محل النصب على المفعولية. والمعنى والله يختصُّ... الخ. وعلى الثاني: الفاعل هو الموصول بصلته. والمعنى: يتميز برحمته من يشاء الله تمييزه، أي يختص بنسبته ورسالته من يشاء من عباده، ويفضل بالإيمان والهداية على من أحب من خلقه رحمة منه لهم. «وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» يعني أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم فإنه منه ابتداءً وتفضلاً عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك بل له الفضل والمئة على خلقه، (الخازن ج ١ ص ٧١). وقال ابن كثير (ج ١ ص ١٤٩): يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من بهتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينهم، ونبّه تعالى على ما أنعم الله به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى: «وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» ولذا وجب على المؤمنين أن يشكروا الله تعالى على ما تفضل به عليهم من البعثة المحمدية والرسالة الإسلامية، وهدايتهم إلى الإيمان به والعمل بشريعته فضلاً من الله ونعمة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢١) قال المفسرون: إن المشركين قالوا: أترون محمداً يأمر أصحابه بأمرٍ ثم ينههم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً، ما هذا في القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً فأنزل الله: «وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ...» الآية، وأنزل إيضاحاً «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا...» الآية. وفي الخازن (ج ١ ص ٧١) نفس الرواية زاد بعد ما يقوله إلا من تلقاء نفسه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: «وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ» فأنزل «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ...» فبين بهذه الآية وجه الحكمة في النسخ، وأنه من عنده لا من عند محمد صلى الله عليه وسلم. قال البهني: لما حرم الله سبحانه وتعالى قولهم راعنا بعد جلّه وكان ذلك من باب النسخ، قال: ما ننسخ بغير عطف لشدة ارتباطه بما قبله. وفي أبي السعود ما نصّه: وهذا كلام مستأنف مسوق لبيان سرّ النسخ الذي هو فردٌ من أفراد تنزيل الوحي. وإبطال مقالة الطاعنين فيه إثر تحقيق حقيقة الوحي. وردّ كلام الكارهين له. وقرئ ما ننسخ من آية. وما نُنسخ: بضم النون من أنسخ أو نساها، وقرئ نساها ونسّاها بالتشديد، ونسّاها على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرأ عبدالله: ما ننسك من آية أو ننسخها. وقرأ حذيفة ما ننسخ من آية أو ننسخها. ونسخ الآية إزالتها بإبدال أخرى مكانها، وإنساخها الأمر بنسخها، وهو أن يأمر جبريل عليه السلام بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها. ونسوها تأخيرها وإزالتها لا إلى بدل. وإنساؤها أن يذهب بحفظها عن القلوب. والمعنى: أن كل آية يُذهب بها على ما توجه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معاً، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أو غير بدل. جاء في تفسير الطبرى (ج ١ ص ٣٧٩) عن قتادة قوله «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا» كان ينسخ الآية بالآية بعدها، ويقرأ نبي الله صلى الله عليه وسلم الآية أو أكثر من ذلك، ثم تنسى وترفع. وعنه قال: كان الله تعالى ذكره يُنسى نبيّه صلى الله عليه وسلم ما شاء وينسخ ما شاء. وعن مجاهد قال: كان عبيد بن عمير يقول: نساها نرفمها من عندكم.

وعن الحسن قال في قوله تعالى: «أَوْ نُنسِهَا» قال: إن نبيكم صلى الله عليه وسلم أقرء قرآناً نسيه، وكذلك كان سعد بن أبي وقاص يتأول الآية إلا أنه كان يقرؤها أو نُسها بمعنى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه عنى أو تنسها أنت يا محمد ولكن قوله جل شأنه: «وَلَسْنَا شَيْئًا لَتَذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» ما ينبيء عن أن الله تعالى ذكره لم يُنس نبيّه شيئاً ما آتاه من العلم، ومال الطبرى إلى الأول وقال وأما قوله: «وَلَسْنَا شَيْئًا لَتَذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» لم يخبر أنه لا يذهب بشيء منه، وإنما أخبر أنه لو شاء لذهب بجميعة فلم يذهب به والحمد لله، بل ذهب بما لا حاجة بهم إليه منه. وذلك أن ما نسخ منه فلا حاجة بالعباد إليه، وقد قال تعالى ذكره: «سَنَقِرُّكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» فأخبر أنه يُنسى نبيّه منه ما شاء.

وأصل النسخ في اللغة يكون بمعنى النقل والتحويل. ومنه نسخ الكتاب، وهو أن ينقل من كتاب إلى كتاب آخر، وذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأولى بل يقتضى إثبات مثله في كتاب آخر. فعلى هذا المعنى يكون القرآن الكريم كله منسوخاً، وذلك أنه نسخ من اللوح المحفوظ، ونزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وقد يكون النسخ بمعنى الرفع والإزالة، وهو إزالة شيء بشيء يعقبه كنسخ الشمس الظل، والشيب الشباب، فعلى هذا المعنى يكون بعض القرآن منسوخاً، وبعضه ناسخاً، وهو المراد من حكم هذه الآية وهو إزالة الحكم بحكم يعقبه.

وفي اصطلاح علماء الشرع. عبارة عن رفع الحكم الشرعى بدليل شرعى متأخر عنه. أو قل: بيان انتهاء الحكم المستفاد من الآية المتلوة. وحكمته أن الأحكام ما شرعت إلا لمصلحة الناس، وهي تختلف باختلاف المكان والزمان، فإذا شرع حكم في وقت كانت الحاجة إليه ماسة، ثم زالت الحاجة فن الحكمة نسخه وتبديله بحكم يوافق الوقت الآخر فيكون خيراً من الأول، أو مثله في فائدته للعباد، وما مثل ذلك إلا مثل الطبيب الذي يغيّر الأغذية والأدوية باختلاف الأزمنة والأمزجة، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم هم مصلحوا النفوس، يغيرون الأعمال الشرعية، والأحكام الخلقية، التي هي للنفوس بمثابة العقاقير والأدوية للأبدان، فما يكون منها مصلحة في وقت قد يكون مفسدة في وقت آخره وخلاصة المعنى: ما نغيّر حكم آية أو ننسيكه إلا أتينا بما هو خير منه لمصلحة العباد بكثرة الشواب، أو مثله فيه (الخازن ج ١ ص ٧١ والمراغى ج ١ ص ١٨٧) وفيه وقال

الأستاذ الإمام أي محمد عبده: والمعنى الصحيح الذي يلتزم مع السياق. أن الآية هنا ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم، أي ما ننسخ من آية نقيمها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخرها، أو ننسها الناس لطول العهد من جاء بها، فإننا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتي بخير منها في قوة الاقتناع وإثبات النبوة. أو مثلها في ذلك، ومن كان هذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه * وقد سبقه إلى مثله محي الدين بن عربي في تفسيره. وفي تفسير الخطيب: وهو أي النسخ على وجوه:

أحدها: أن تثبت التلاوة وينسخ الحكم كآية الوصية للأقارب، وآية عدّة الوفاة بالحوال.

الثاني: أن ترفع التلاوة ويبقى الحكم كآية الرجم - الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجمهما البتة.

الثالث: أن يرفع الحكم والتلاوة كما روى أقوماً من الصحابة قاموا ليلة ليقرأوا سورة، فلم يذكروا منها إلا بسم الله الرحمن الرحيم. فعدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه الصلاة والسلام: [تلك سورة رفعت بتلاوتها وأحكامها]. قيل كانت سورة الأحزاب مثل سورة البقرة، فرفع أكثرها تلاوة وحكماً. ثم من نسخ الحكم ما يرفع ويقام غيره مقامه: كما أن القبلة نسخت من بيت المقدس إلى الكعبة، والوصية للأقارب نسخت بالميراث، وعدّة الوفاة من الحول إلى أربعة أشهر وعشر، ومصابرة الواحد للعشرة بمصابرة للإثنين * قال البغوي: والنسخ إنما يعترض على الأمر والنواهي دون الأخبار والنسخ جائز عقلاً وواقع سمعاً خلافاً لليهود، فإن منهم من ينكره عقلاً لكنّه منعه سمعاً، وشدّت طائفة قليلة من المسلمين فأنكرت النسخ * احتج الجمهور من المسلمين على جواز النسخ ووقوعه بأن الدلائل قد دلّت على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونبوّته لا تصحّ إلا مع القول بالنسخ، وهو نسخ شرع من قبله، فوجب القطع بالنسخ، ولنا على اليهود إلزامات. ومنها أن الله تعالى حرّم عليهم العمل يوم السبت. ولم يجرّمه على من كان قبلهم * ومنها أنه قد جاء في التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه الصلاة والسلام: عند خروجه من الفلك: إني جعلت كلّ دابة مأكولاً لك ولذريتك، وأطلقت ذلك لكم، ثم إنه تعالى حرم على موسى عليه الصلاة والسلام وعلى بني إسرائيل كثيراً من الحيوانات *

ومنها أن آدم عليه السلام كان يزوج الأخت للأخت، وقد حرّمه على من بعده. وعلى موسى عليه الصلاة والسلام، فثبت بهذا جواز النسخ، وحيث ثبت جواز النسخ فقد اختلفوا فيه على وجوه:

أحدها: أن القرآن نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالطورا والانجيل وغيرهما.
الوجه الثاني: المراد من النسخ هو نسخ القرآن ونقله من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا.

الوجه الثالث: وهو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات. بدليل آخر. وهو المراد بقوله تعالى: «مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا» لأن الآية إذا أطلقت، فالمراد بها آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا. الخازن (ج ١ ص ٧٢) وقال: (مسئلة) قال الشافعي رضي الله عنه: الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة. واستدل بهذه الآية وهو أنه تعالى قال: «مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا» وذلك يفيد أنه تعالى هو الآتي، والمآتي به هو من جنس القرآن، وما كان من جنس القرآن فهو قرآن، وقوله: «نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا» يفيد أنه هو المنفرد بالآتيان بذلك الخير وهو القرآن الذي هو كلام الله دون السنة، ولأن السنة لا تكون خيراً من القرآن ولا مثله واحتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بأن آية الوصية للأقربين منسوخة بقوله صلى الله عليه وسلم: [لا وصية لوارث] أجاب الشافعي رضي الله عنه بأن هذا ضعيف لأن كون الميراث حقاً للوارث يمنع من صرفه إلى الوصية، فثبت أن آية الميراث مانعة من الوصية وتقرير هذا وبسطه معروف في أصول الفقه وقوله تعالى: «نَأْتِ بِخَيْرٍ» أي بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم، وأكثر لأجوركم، وليس معناه أن آية خير من آية لأن كلام الله تعالى كله واحد «أَوْ مِثْلَهَا» أي في المنفعة والشواب، فإ نسخ إلى الأيسر كان أسهل في العمل كالذي كان على المؤمنين من فرض قيام الليل، ثم نسخ ذلك فكان خيراً لهم في عاجلهم لسقوط التعب والمشقة عليهم، وما نسخ إلى الأشق كان أكمل في الثواب كالذي كان عليهم من صيام أيام معدودات في السنة تُسخ ذلك وفرض صيام شهر رمضان، فكان صوم شهر كامل في كل سنة أثقل على الأبدان، وأشق من صيام أيام معدودات، فكان ثوابه أكمل وأكثر. أما المثل، فكأنسخ التوجه إلى بيت المقدس وصرفه إلى المسجد الحرام، واستواء الأحر في ذلك لأن على

المصلى التوجه إلى حيث أمره الله تعالى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» أي على النسخ والتبديل، والمعنى ألم تعلم يا محمد أنى قادرٌ على تعويضك ممّا نسخت من أحكامي، وغيرته من فرائضي التي كنت أفترضتها عليك ما أشاء مما هو خيرٌ لك ولعبادى المؤمنين، وانفع لك ولهم عاجلاً وآجلاً. (الخازن ج ١ ص ٧٣) * والخطاب في «أَلَمْ تَعْلَمْ» للنبي صلى الله عليه وسلم. والمراد منه هو وأمته لقوله تعالى في الآية التي بعدها: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» وأول الآية «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ...» الآية * يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر، فكما خلقهم كما يشاء يسعد من يشاء ويشقى من يشاء ويصح من يشاء ويمرض من يشاء ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء ليحل ما يشاء ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يستل عما يفعل وهم يستلون، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا، وترك ما عنده زجروا وفي هذا المقام ردٌ عظيم وبيانٌ بليغ لكفر اليهود. وتزييف شبهتهم لعنهم الله في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً تحزّصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» سورة البقرة (آية: ١٠٨)

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢٢): قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي كعب ورهط من قريش، قالوا: يا محمد اجعل لنا الصفا ذهباً، ووسع لنا أرض مكة، وفجر الأنهار خلالها تفجيراً نؤمن بك. فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال المفسرون أيضاً: إن اليهود وغيرهم من المشركين تمنعوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فن قائل يقول: يأتينا بكتاب من السماء جملة واحدة كما أتى موسى بالتوراة، ومن قائل يقول: وهو عبد الله بن أبي أمية المخزومي، اثنتى بكتاب من السماء فيه من رب العالمين إلى ابن أبي أمية اعلم أنى قد أرسلت محمداً إلى الناس، ومن قائل يقول: لن نؤمن

لك أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، فأنزل الله تعالى الآية * وفي لباب السيوطي: وأخرج عن أبي العالية قال: قال رجلٌ يا رسول الله لو كانت كفارتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أعطاكم الله خيراً، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فإن كفرها كانت له خزيًا في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزيًا في الآخرة، وقد أعطاكم خيراً من ذلك قال تعالى: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا» والصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن فأنزل الله «أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ...» الآية * وفي الخازن (ج ١ ص ٧٣) وقيل إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً كما سأل قوم موسى فقالوا أرنا الله جهرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي الطبري (ج ١ ص ٣٨٥) زيادة على ما تقدم عن السدي «أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ»، أن يريهم الله جهرة، فسألت العرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالله فيروه جهرة * وعن مجاهد قال: فسألت قريش محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله لهم الصفا ذهباً، قال: نعم، وهو لكم كمائدة بنى إسرائيل إن كفرتم فأبوا ورجعوا. فأنزل الله «أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ...» الآية * والمراد أن الله تعالى ذم من سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء على وجه التعنت والافتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكديباً وعناداً. وقد نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ سَأَلْتُمْ عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ»، أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه، فلعله أن يحرم من أجل تلك المسئلة، ولهذا جاء في الصحيح [إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرم فحرم من أجل مسئلته] ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجتمع مع امرأته رجلاً فإن تكلم تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها، ثم أنزل الله حكم الملاعنة * ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال] * وفي صحيح

مسلم [ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه] * وقد امتثل الصحابة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتحلوا بذلك الخلق العظيم قال أنس بن مالك رضي الله عنه: [نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع] * وعن ابن عباس قال: ما رأيتُ قوماً خيراً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن اثنتي عشرة مسألة كلها في القرآن (يسألونك عن الخمر والميسر) — ويسألونك عن الشهر الحرام — ويسألونك عن اليتامى) يعني هذا وأشباهه * واختلف أهل العربية في معنى (أُم) التي في قوله: «أُم تُرِيدُونَ» فقال بعض البصريين هي بمعنى الاستفهام، وتأويل الكلام، أتريدون أن تسألوا رسولكم. وقال آخرون منهم: هي بمعنى استفهام مستقبل منقطع من الكلام، وجرى الجلال على أنها بمعنى بل فيكون التقدير أم بل أتريدون. وهو يشير إلى أن أم هنا منقطعة، مقدرة ببل والهمزة وهو الظاهر، ويكون اضراب انتقال من قصّة لا إضراب إبطال، ولم تجعل أم متصلة لفقدها شرطها، وهو تقدّم همزة الاستفهام، أو التسوية، وليست هي معادلة للهمزة المذكورة في قوله: «أَلَمْ تَعْلَمْ»، وأصل تريدون: ترودون لأنه من راد يروود فنقلت حركة الواو على الراء فسكنت الواو بعد كسرة قلبت ياءً «أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ» ناصب ومنصوب في محل نصب مفعول به لقوله: تريدون: أي أتريدون سؤال رسولكم؟ «كَمَا سُئِلَ مُوسَى» الكاف منصوبة محلاً صفة مصدر محذوف، وما مصدرى، وكما في محل المفعول المطلق. أي سؤالاً مثل سؤال موسى. «مِنْ قَبْلُ» أي من قبل رسولكم، ومن قبل زمانكم، وذلك أن موسى سأله قومه، فقالوا: أرنا الله جهرة. ففي الآية منعهم ونهيم عن الأسئلة المقترحة بعد ظهور الدلالات والمعجزات وثبوت الحجج والبراهين على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم «وَمَنْ يَتَّبِدَلْ» أي يستبدل «الْكَفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ». والأظهر أنه خطاب للمؤمنين أعلمهم أن اليهود أهل غش وحسد، وأنهم يتمنون للمؤمنين المكاره، فنهاهم الله تعالى أن يقبلوا من اليهود شيئاً ينصحونهم به في الظاهر، وأخبرهم أنّ من ارتدّ عن دينه فقد أخطأ قصد السبيل * وفي الكشاف (ج ١ ص ٣٠٣) «وَمَنْ يَتَّبِدَلْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ» ومن ترك الشقة بالآيات المنزلة وشك فيها واقترح غيرها «فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» * وفي المراعى

(ج ١ ص ١٨٩) أي ومن يترك الثقة بالآيات البيّنة المنزلة بحسب المصالح، ويطلب غيرها تعنتاً وعناداً للنبي صلى الله عليه وسلم فقد اختار الكفر على الإيمان، واستحب العمى على الهدى، وبعد عن الحق والخير، ومن حاد عن الحق وقع في الضلال. «فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ».

قال: وسبب نزول الآية أن رافع بن خزيمة، ووهب بن زيد قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: اثنتا بكتاب من السماء نقرؤه، وفجر الأنهار نتبعك، وقد تقدم نحو هذا. وسواء السبيل. أي أخطأ الطريق الحق. والسواء في الأصل الوسط أي الطريق المستقيم وهو من إضافة الصفة للموصوف * وفي ابن كثير (ج ١ ص ١٥٢) «وَمَنْ يَتَّبِدَّ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ» أي من يشتر الكفر بالإيمان «فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء وأتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم، والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر كما قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارِ» * وقال أبو العالية: يتبدل الشدة بالرخاء وأصل الضلال عن الشيء الذهاب عنه والحيد. أي حاد عن سواء السبيل أي الصراط المستقيم وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، وجعله لهم طريقاً يسلكونه إلى رضاه، وسيلاً يركبونها إلى محبته والفوز بجنانه، فجعل جل ثناؤه الطريق الذي إذا ركب محجته السائر فيه، ولزم وسطه المجتاز فيه نجا وبلغ حاجته، وأدرك طلبته لدينه الذي دعا إليه عباده مثلاً لإدراكهم بلزومه، واتباعه إدراكهم طلباتهم في آخرتهم، كالذي يدرك اللازم محجة السبيل بلزومه إياها طلبته من النجاة منها، والوصول إلى الموضع الذي أمه وقصده. وجعل مثل الحائد عن دينه والحائد عن اتباع ما دعاه إليه من عبادته من حرمانه ما رجا أن يدركه بعمله في آخرته، وينال به في معاده وذهابه عمّا أمّل من ثواب عمله، وبعده به من ربه مثل الحائد عن منهج الطريق وقصد السبيل الذي لا يزداد وغولاً في الوجه الذي سلكه إلا إزداد من موضع حاجته بُعداً، وعن المكان الذي أمه وأراده نأياً (الطبري ج ١ ص ٣٨٨) وقال: وهذه السبيل التي أخبر الله عنها أنّ من يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواءها: هي الصراط المستقيم الذي أمرنا بمسئلته الهداية له بقوله: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ».

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ
أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» سورة البقرة (آية: ١٠٩)

جاء في أسباب النزول للواحدى: قال ابن عباس: نزلت في نفر من اليهود، قالوا
للمسلمين بعد وقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم؟ ولو كنتم على الحق ما هزمتكم،
فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم وذكر أن كعب بن الأشرف اليهودى كان شاعراً، وكان
يهجو النبى صلى الله عليه وسلم ويعترض كفار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود
في المدينة حين قدمها رسول الله عليه وسلم يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه
أشد الأذى، فأمر الله تعالى نبيه بالصبر على ذلك والفعو عنهم، وفيهم أنزلت: «وَدَّ كَثِيرٌ
مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» إلى قوله: «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا..» والتحقيق أن العفو والصفح
عنهم كان قبل نزول آية القتال، ولهذا قال «حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» فيهم من القتال،
وقد أذن الله تعالى بعد ذلك في قتالهم، وضرب الجزية عليهم. إذا فهذه الآية منسوخة بقوله
تعالى: «فَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» وبقوله تعالى:
«فَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» وفي الخطيب: وأبى النسخ جماعة من المفسرين
والفقهاء. واحتجوا بأن الله تعالى لم يأمر بالعفو والصفح مطلقاً، وإنما أمر به إلى غاية، وما
بعد الغاية يخالف ما قبلها. وما هذا سبيله لا يكون من باب النسخ، بل يكون الأول قد
انقضت مدته، والآخر يحتاج إلى حكم آخر. وفي الخازن (ج ١ ص ٧٣) نزلت هذه الآية
في نفر من اليهود، وذلك أنهم قالوا لحذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد لو
كنتم على الحق ما هزبتكم فارجعوا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلاً منكم، فقال عمار بن
ياسر: كيف نقض العهد فيكم؟ قالوا: شديد. قال: إني عاهدت أن لا أكفر بمحمد صلى
الله عليه وسلم ما عشت، قالت اليهود: أمّا هذا فقد صبا، وقال حذيفة: أمّا أنا فقد
رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالاسلام ديناً، وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة
وبالمؤمنين إخواناً، ثم أنها أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بذلك،
فقال: أصبتما الخير، وأفلحتما فأنزل الله تعالى: «وَدَّ» أي تمتى «كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»

يعنى اليهود «لَوْ يُرَدُّونَكُمْ» أي يا معشر المؤمنين «مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا» أي ترجعون إلى ما كنتم عليه من الكفر «حَسَدًا» أي يحسدونكم حسداً وأصل الحسد: تمنى زوال النعمة عمن يستحقها، وربما يكون مع ذلك سعى في إزالتها، والحسد مذموم لما روى عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إياكم والحسد فإنَّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النَّارُ الحطب، أو قال: العُشب. أخرجه أبو داود فإذا أنعم الله على عبده نعمة فتمنى آخر زوالها عنه فهذا هو الحسد، وهو حرام، فإن استعان بتلك النعمة على الكفر والمعاصي، فتمنَّى آخر زوالها عنه فليس بحسد، ولا يحرم ذلك لأنه لم يحسده على تلك النعمة من حيث أنها نعمة بل من حيث أنه يتوصّل بتلك النعمة إلى الشرّ والفساد «مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» أي من تلقاء أنفسهم لم يأمرهم الله بذلك «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» يعنى في التوراة. أن قول محمد صلى الله عليه وسلم ودينه حق لا يشكون فيه، فكفروا به حسداً وبغياً «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا» أي فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وحسد. وكان هذا الأمر بالعمو والصفح قبل أن يؤمر بالقتال «حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» أي بعدابه، وهو القتل والسبي لبني قريظة، والاجلاء والني لبني النضير، قال ابن عباس: هو أمر الله له بقتالهم في قوله «فَاتَّبَعُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...» الآية كما تقدم «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فيه وعيد وتهديد لهم * وفي الطبري (ج ١ ص ٣٨٨) عن ابن عباس قال: كان حُيَيُّ بن أخطب، وأبوياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم، وكانا جاهدين في رد الناس عن الاسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ...» الآية * والعمو والصفح متقاربان في المصباح: عفا الله عنك أي محاذنوك، وعفوت عن الحق أسقطته كأنك محوته عن الذي هو عليه، وعافاه الله محاذنه الأسقام * وقبه أيضاً: صفحت عن الذنب صفحاً من باب نفع. عفوت عنه وصفححت عن الأمر. أعرضت عنه وتركته * فعلى هذا يكون العطف في الآية للتأكيد، وحسنه تغاير اللفظين. وقال بعضهم: العفو ترك العقوبة على الذنب، والصفح ترك اللوم والعتاب عليه * وعبارة البيضاوى في قوله تعالى «حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» الذى هو الاذن في قتالهم، وضرب الجزية عليهم، أو قتل قريظة، واجلاء بنى النضير وهذا كله يقتضى أن هذه الآية نزلت قبل الأمر بالقتال. وينافيه ما تقدم عن الخازن وغيره في سبب نزولها بعد أحد، وقد كان الأمر بالقتال قد نزل وحصل

القتال بالفعل، إلا أن يقال الذي كان قد حصل إنما كان في قتال العرب، وأما قتال بني إسرائيل من اليهود والنصارى فقد تأخر الأمر به. والإذن فيه عن غزوة الأحزاب، أو قبلها بيسير. وفي ابن كثير (ج ١ ص ١٥٣) عن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى قال الله «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل صنديد قريش. قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح. ولم أره في الكتب الستة، ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد. وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قتلهم هم أصحاب القدرة والشوكة ولأن الصفح لا يكون إلا من القادر، فكأنه يقول لهم: لا تغرنكم كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فأنتم على قتلهم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، وأهل الحق مؤيدون بعناية الله، ولهم العزة ما ثبتوا عليه، ثم أكد الوعد السابق بالنصرة بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، أي فالله هو القادر على أن يهبكم من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى، ويثبتكم بما أنتم عليه من الحق فتغلبوا على من يناوئكم و يظهر لكم العدوان اغتراراً بكثرتهم، واعتزازاً بقوته «وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» المراعى (ج ١ ص ١٩١).

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»

في الواحدى والقرطبي: نزلت في يهود أهل المدينة، ونصارى أهل نجران وذلك أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بيسى والانجيل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شيء من الدين، فكفروا بموسى والتوراة فأنزل الله تعالى هذه الآية. وكذا في الخازن (ج ١ ص ٧٤) وقال مجاهد: في تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء. وقال قتادة: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى

شَيْءٍ» قال: بل قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، وعن أبي العالية والربيع بن أنس قالوا: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا القول يقتضى أن كلاً من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى. ولكن ظاهر سياق الآية يقتضى ذمهم فيما قالوه من علمهم بخلاف ذلك، ولهذا قال تعالى: «وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ» أي وهم يعلمون شريعة التوراة والانجيل كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً، ومقابلة للفساد بالفساد لإبطال العمل بالشرائع السابقة بشريعة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. وقد صرح ابن اسحاق بالسمع عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله عليه وسلم فأتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والانجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله في ذلك من قولها «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ» قال: إن كلا يتلوا في كتابه تصديق من كفر به أن يكفر اليهود بعيسى، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفي الانجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه. وفي الخازن (ج ١ ص ٧٤) «وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ» يعنى وكلا الفريقين يقرؤن الكتاب، وليس في كتابهم هذا الاختلاف، فدلّت تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم لما فيه على كفرهم، وكونهم على الباطل. وقيل: إن الانجيل الذى تدين بصحته النصارى يحقق ما في التوراة من نبوة موسى وما فرض الله فيها على بنى إسرائيل من الفرائض، وأن التوراة التى تدين بصحتها اليهود تحقق نبوة عيسى، وما جاء به من عند ربه من الأحكام، ثم كلا الفريقين قالوا: ما أخبر الله عنهم بقوله: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ» مع علم كل واحد من الفريقين ببطلان ما قاله. وفي اللسان (ج ٣ ص ٤٣٩) ويهود: اسم قبيلة. قال: أولئك أولى من يهود بمذجه. إذا أنت يوماً قُلتها لم تُؤنّب وقيل: إنما اسم هذه القبيلة يهود. فغرب بقلب الذال دالاً، قال ابن سيده: وليس هذا بقوي، وقالوا: اليهود فأدخلوا الألف واللام فيها على إرادة

النسب يريدون اليهوديين ... وسميت اليهود اشتقاقاً من هادوا. أي تابوهم قلت وفي التنزيل: «إِنَّا هَدَدْنَا إِلَيْكَ» أي تبنا إليك. وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير. قاله ابن سيده: عَدَاةٌ بِأَلْيَ لَأَن فِيهِ مَعْنَى رَجَعْنَا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تَبْنَا إِلَيْكَ وَرَجَعْنَا وَقَرَّبْنَا مِنَ الْمَغْفِرَةِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى «فَتَوَّابُوا إِلَى بَارِيكُمْ»، وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا»، وَالتَّوْبَةُ: التَّوْبَةُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَنَصْرَانُ قَرْيَةٌ بِالشَّامِ يَنْسَبُ إِلَيْهَا النَّصَارَى. وَيُقَالُ: نَاصِرَةٌ. وَالتَّنَصُّرُ: الدُّخُولُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ قُلْتُ: وَاسْمُ الْقَرْيَةِ نَصُورِيَّةٌ وَهِيَ مِنْ قَرْيَةِ الشَّامِ. وَالتَّنَصَّرِيُّ مَنْسُوبٌ إِلَيْهَا، وَلَكِنْ قَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ: هَذَا قَوْلُ أَهْلِ اللُّغَةِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ إِلَّا أَنَّ نَادِرَ النَّسَبِ يَسْعُهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَمَوْا نَصَارَى. لِقَوْلِ «عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ» وَالْحَوَارِيُّونَ أَصْفِيَاءُ عِيسَى، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا. مِنَ الْحَوَارِ وَهُوَ الْبَيَاضُ الْخَالِصُ. قِيلَ كَانُوا قَصَارِينَ يَحْمِلُونَ الثِّيَابَ. وَيَبْيُضُونَهَا وَقَوْلُهُ «مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ» ظَاهِرَةٌ أَنَّ النَّصْرَةَ لَهُ، وَهَذَا لَا يَلِئُمْ جَوَابَهُمْ بِقَوْلِهِمْ «نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ» فَجَعَلُوا النَّصْرَةَ لِلَّهِ، وَقَدْ أَشَارَ الْجَلَالُ إِلَى أَنَّ الْإِضَافَةَ مِنْ إِضَافَةِ أَحَدِ الْمُتَشَارِكِينَ إِلَى الْآخَرِ لَمَّا بَيْنَهُمَا مِنَ الْإِخْتِصَاصِ بِقَوْلِهِ: أَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ يَكُونُونَ مَعِيَ أَيُّ مَصَاحِبِينَ لِي. وَأَشَارَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ «إِلَى اللَّهِ» مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ هُوَ حَالٌ حَيْثُ قَالَ مُتَوَجِّهًا إِلَى نَصْرَةِ اللَّهِ. وَقَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ (ج ٤ ص ١٠١) فَان قُلْتُ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ، قُلْتُ: يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ مُطَابِقًا لِجَوَابِ الْحَوَارِيِّينَ «نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ» وَالَّذِي يَطَابِقُهُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى مِنْ جَنْدِي مُتَوَجِّهًا إِلَى نَصْرَةِ اللَّهِ، وَإِضَافَةَ أَنْصَارِي خِلَافَ إِضَافَةِ أَنْصَارِ اللَّهِ، فَان مَعْنَى نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ نَحْنُ الَّذِينَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ، وَمَعْنَى مِنْ أَنْصَارِي مِنَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ يَخْتَصِمُونَ بِي يَكُونُونَ مَعِيَ فِي نَصْرَةِ اللَّهِ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ مَنْ يَنْصُرُنِي مَعَ اللَّهِ لِأَنَّهُ لَا يَطَابِقُ الْجَوَابَ. قَالَ: وَالذَّلِيلُ عَلَيْهِ قِرَاءَةٌ مِنْ قَرَأَ مِنْ أَنْصَارِ اللَّهِ. وَالْحَوَارِيُّونَ أَصْفِيَاؤُهُ الْخَ مَا ذَكَرَهُ الْجَلَالُ قُلْتُ: يَعْنِي أَنَّ بَعْضَهُمْ يَدَّعِي أَنَّ إِلَى مَعْنَى مَعَ أَيُّ مِنْ أَنْصَارِي مَعَ اللَّهِ. وَقَوْلُهُ: قِرَاءَةٌ مِنْ قَرَأَ أَنْصَارِ اللَّهِ. أَيُّ لَوْ كَانَتْ مَعْنَى مَعَ لَمَّا صَحَّ سَقُوطُهَا فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ، وَهَذَا غَيْرُ لَازِمٍ، لِأَنَّ كُلَّ قِرَاءَةٍ لَهَا مَعْنَى يَخْتَصُّهَا إِلَّا أَنَّ الْأَوَّلَى تَوَافَقَ الْقِرَاءَتَيْنِ. وَقَوْلُهُ «نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ» مِنْ إِضَافَةِ الْوَصْفِ إِلَى مَفْعُولِهِ أَيُّ نَحْنُ الَّذِينَ نَنْصُرُ اللَّهَ أَيُّ نَنْصُرُ دِينَهُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» يَعْنِي مُشْرِكِي

العرب، قالوا في نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أنهم ليسوا على شيء «مِثْلَ قَوْلِهِمْ» يعني مثل قول اليهود للنصارى، والنصارى لليهود، وقيل: أممٌ كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب... الخ. الأقوام قالوا في أنبيائهم ليسوا على شيء لأن قوله: «كَذَلِكَ» أي مثل ذلك الذي سمعت من قوله. والكاف في محل نصب إما على أنها نعت لمصدر محذوف قُدم على عامله لافادة الحصر أي قولاً مثل ذلك القول بعينه لا قولاً مغايراً له «قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ» أي يقضي. رجع في الكشف الضمير إلى الفريقين وقبلة البيضاوى. وقضية اللفظ أن يقال بين الفِرَق أي فرقة اليهود، وفرقة النصارى، وفرقة الذين لا يعلمون، لكنه خص الأولين بالذكر لأن المراد توبيخهما حيث نظما أنفسهما مع علمهما في سلك من لا يعلم. ورجعه البغوى إلى المبطل والمحق، وهو شامل للفرق المذكورة (كرخى) «بَيِّنْتُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» يعنى بين الفرق، أو بين المحق والمبطل «فِيَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» يعنى من أمر الدين، فيدخلُ المحق الجنة والمبطل النار. وأما القيامة: فهي مصدر من قول القائل: قُمت قياماً وقياماً كما يقال عدتُ فلاناً عيادةً، وصننتُ هذا الأمر صيانةً، وإنما عنى جلَّ جلاله بالقيامة قيامُ الخلق من قبورهم لربهم، فعنى يوم القيامة. يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم.

القول في تأويل قوله تعالى :

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَتَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» سورة البقرة (آية: ١١٤)

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢٢): قال ابن عباس: نزلت الآية في ططلوس الرومى وأصحابه من النصارى، وذلك أنهم غزوا بنى إسرائيل فقتلوا مقاتلتهم، وسبوا ذراريهم، وحرقوا التوراة، وخرّبوا بيت المقدس، وقدّفوا فيه الجيف * وقال قتادة: هو بختنصر وأصحابه، غزوا اليهود، وخرّبوا بيت المقدس، وأعانتهم على ذلك النصارى من أهل الروم * وفي رواية عن ابن عباس قال: نزلت في مشركى أهل مكة، ومنعهم المسلمين من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام * وكذا في القرطبي. وفيه: والمعنى كيف تدعون أيها النصارى أنكم من أهل الجنة، وقد خربتم بيت المقدس، ومنعتم المصلين من الصلاة فيه...؟! * وروى سعيد عن قتادة قال: أولئك أعداءُ الله النصارى حملهم

إبغاض اليهود على أن أعانوا بُخْتَنَصَّرَ البابلي المجوسى على تخريب بيت المقدس * قلت: ويجوز أن يكون الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً، ومن أظلم ممن آذى الصالحين؟! أي لا أحد أظلم منه. لأن من استفهام في محل رفع بالابتداء. وأظلم أفعل تفضيل خبره. ومعنى الاستفهام هنا النفي أي لا أحد أظلم منه. ولما كان المعنى على ذلك أورد بعض الناس سؤالاً وهو أن هذه الصيغة قد تكرر في القرآن «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى» «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ» «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ» وكل واحدة منها تقتضى أن المذكور فيها لا يكون أحد أظلم منه. فكيف يوصف غيره بذلك؟ وفي ذلك جوابان:

أحدهما: أن يختص كل واحد بمعنى صلته، كأنه قال: لا أحد من المانعين أظلم من منع مساجد الله، ولا أحد من المفترين أظلم من افترى على الله، ولا أحد من الكذابين أظلم من كذب على الله تعالى، وهكذا كل ما جاء منه.

الثاني: أن هذا نفي للأظلمية ونفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالمية لأن نفي المقيد لا يدل على نفي المطلق، وإذا لم يدل على نفي الظالمية لا يكون تناقضاً لأن فيها إثبات التسوية في الأظلمية وإذا ثبتت التسوية في الأظلمية لم يكن أحد من وصف بذلك يزيد على الآخر لأنهم متساوون في ذلك. وصار المعنى، ولا أحد أظلم ممن منع، ومن افترى ومن ذكر.

ولا إشكال في تساوى هؤلاء في الأظلمية، ولا يدل ذلك على أن أحد هؤلاء يزيد على الآخر في الظلم، كما أنك إذا قلت: لا أحد أفقه من زيد وبكر وخالد لا يدل على أن أحدهم أفقه من الآخر بل نفي أن يكون واحد أفقه منهم * وقوله: «فَمَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ» المنوع في الحقيقة هو الناس، وإنما أوقع المنع على مساجد لما أن فعلهم من طرح الأذى والتخريب ونحوها متعلق بالمسجد لا بالناس، والمنوع بيت المقدس على قول، أو المسجد الحرام على قول. ومن خرب مسجداً من هذين فقد خرب مساجد كثيرة بالقوة لأنها أفضل المساجد على الإطلاق. «أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ» بالصلاة والتسبيح «وَسَعَى فِي خَرَابِهَا» بالهدم والتعطيل. قال الجلال: نزلت إخباراً عن الروم الذين خربوا بيت المقدس، أو في المشركين لما صدوا النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن البيت * وفي أبي السعود فقد روى أن التصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس

الأذى، ويمنعون النَّاسَ أن يصلُّوا فيه، وأنَّ الروم غزوا أهله فخرَّبوه وأحرقوا التوراة، وقتلوا وسبوا. وقد نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن فلطيوس الرومى ملك النصارى وأصحابه غزوا بنى إسرائيل، فقتلوا مقاتلتهم، وسبوا ذرارهم، وأحرقوا التوراة، وخرَّبوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف، وذبحوا فيه الخنازير، ولم يزل حرباً حتى بناه المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه * وقيل: إنَّ بختنصرَ المجوسى من أهل بابل هو الذي غزا بنى إسرائيل، وخرَّب بيت المقدس، وأعان على ذلك النصارى من أجل أن اليهود قتلوا يحيى بن زكريا عليه السلام. قاله السدى كما في الطبرى (ج ١ ص ٣٩٧) وفيه قال ابن زيد في قوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا» قال هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، وبين أن يدخل مكة حتى نحى هديته بذي طوى، وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحدٌ يُردُّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه فما يصدُّه، وقالوا لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدرٍ وفيها باقى * ورجح الطبرى قول من قال: هم النصارى الذين سعوا في خراب بيت المقدس... الخ * وفي تفسير نظام الدين النيسابورى (١) (ج ١ ص ٣٧٤) وعن الحسن وقتادة والسدى: نزلت في بختنصرَ حيث خرَّب بيت المقدس، وأعان على ذلك بعض النصارى * وردَّ بأن بختنصرَ كان قبل مولد المسيح بزمان وفيه. وقيل: نزلت في مشركى العرب الذين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إلى الله بمكة، وأجَّوه إلى الهجرة فصاروا مانعين له ولأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام * وقد تقدم أنَّه قد يجيء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً. ومثله «وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ» والمنزول فيه الأحنس بن شريق كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى. وقال نظام الدين النيسابورى: في قوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ...» استعمال لفظ الظلم في هذا المعنى في غاية الحسن. لأن المسجد موضوع لذكر الله تعالى فيه، فالمانع من ذلك واضح للشيء في غير موضعه، وأمَّا أنَّه لا أظلم منه فلائنه إن كان مشركاً فقد جمع مع شركه هذه الخصلة الشنعاء فلا أظلم منه، وإن كان يدعى الإسلام ففعله مناقض لقوله لأن من اعتقد أنَّ له

(١) أي تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى

النيسابورى الموضوع على هامش تفسير الطبرى.

معبوداً عرف وجوب عبادته له عقلاً أو شرعاً، والعبادة تستدعى متعبداً لا محالة، فتخريب المتعبّد ينبئ عن إنكار العبادة، وإنكار العبادة يستلزم إنكار المعبود، فهذا الشخص لا يكون في الحقيقة مسلماً، وإنما هو منخرط في سلك أهل النفاق، والمنافق كافرٌ أسوأ حالاً من الكافر الأصلي بالاتفاق * «أُولَئِكَ» المانعون «مَا كَانَ لَهُمْ» أي ما ينبغي لهم «أَنْ يَدْخُلُوهَا» في حالٍ من الأحوال «إِلَّا خَائِفِينَ» على حال التهيّب وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبششوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها ويلوها، ويمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق الواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم، وقيل: هذه بشارة للمؤمنين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام، وعلى سائر المساجد، وأنه يُذِلُّ المشركين لهم حتى لا يدخلوا المسجد الحرام إلا خائفين من أن يُعاقَبُوا أو يُقَتَّلُوا إن لم يُسَلِّمُوا، وقد أنجز الله هذا الوعد، فمنعهم من دخول المسجد الحرام، ونادى فيهم عام حجّ أبو بكر: ألا لا يَحْجُنَّ بعد العام مشرك. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإخراج اليهود من جزيرة العرب، وصار بيت المقدس في أيدي المسلمين. «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ» ذلٌّ بمنعهم المسلمون من دخول المساجد: أو بالجزية في حق أهل الذمّة، وبالسبي والقتل في حق أهل الحرب، وفيه ردعٌ لهم عن ثباتهم على الكفر، وقيل: الخزي فتح مدائنهم قسطنطينية وعمورية ورومية... الخ. «وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» والعذاب العظيم يناسب الظلم العظيم فخزي الدنيا بما يعقبه الظلم من الفساد المؤدى إلى الذل والهوان. ولا ظلم أكبر من إبطال العبادة من المساجد والسعى في خرابها، وقد تحقق ما أوعده به الله، فحلّ بالرومانيين الخزي في الدنيا، فتقسّمت دولتهم، وتشتت ملكهم ولحقهم الذل والهوان على يد غيرهم من الأمم القوية الفاتحة، ومنها الأمة الإسلامية. وعذاب الآخرة هو ما أعدّه الله للفجار في جهنم وبئس القرار؛ روى الطبري في تفسيره (ج ١ ص ٣٩٨) عن السدي «أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ» قال: فليس في الأرض رومي يدخلها اليوم إلا وهو خائف أن تضرب عنقه وقد أخيف بأداء الجزية؛ وعن الحسن في قوله: «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ» قال يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون؛ وعن السدي: «وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» قال: وأما العذاب العظيم، فإنه عذاب جهنم الذي لا يخفف عن أهله، ولا يقضى عليهم فيها فيموتوا؛ وهذه الجملة، وما بعدها لا محلّ لها لاستئنافها عما قبلها، ولا يجوز أن تكون حالاً لأن خزيهم ثابت على كل حال لا يتقيد بحال دخول المساجد خاصة.

هذا: وقد جوّز أبو حنيفة دخول المساجد كلها لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قدم عليه وقد ثقیف فأنزلهم المسجد. وأجیب بأنّه في أول الإسلام. ثم نسخ. وقد ورد الحديث بالاستعاذة من خزی الدنيا وعذاب الآخرة. أخرج الإمام أحمد عن بشر بن أرطاة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو [اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزی الدنيا وعذاب الآخرة] وهو حديث حسن.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» سورة البقرة (آية: ١١٥)

روى الواحدى في أسباب النزول عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية كئت فيها، فأصابتنا ظلمة، فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منّا: قد عرفنا القبلة هي ها هنا قبل الشمال، فصلّوا وخطّوا خطوطاً وقال بعضهم: القبلة ها هنا قبل الجنوب وخطّوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قلنا من سفرنا سألنا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فسكت، فأنزل الله تعالى: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ...» الآية. وذهب ابن عمر رضي الله عنه أن الآية نازلة في التطوع بالنافلة. فقال: صلّ حيث توجّهت بك راحلتك في التطوع* وروى عطاء عن ابن عباس قال: إن النجاشي لما توفى قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم إن النجاشي توفى فصلّ عليه — أي صلاة الغائب — فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يحضروا وصفهم، ثم تقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم: إن الله أمرني أن أصلّي على النجاشي، وقد توفى فصلّوا عليه، فصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنفسهم. كيف نصلى على رجل مات وهو يصلى على غير قبلتنا؟ وكان النجاشي يصلى إلى بيت المقدس حتى مات، وقد صرفت القبلة إلى الكعبة: فأنزل الله تعالى: «فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ...»* وقال ابن عباس: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ» فهذا قول ابن عباس عند عطاء الخرساني. وقال: أول ما نسخ من القرآن شيان: القبلة، قال الله تعالى: «فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» قال فصلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى البيت

العتيق* وفي رواية أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاهر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، فاستقبلها بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب قبلة إبراهيم، فلما صرفه الله تعالى إليها ارتاب من ذلك اليهود وقالوا: «مَا وَلَا هُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟» فأُنزل الله تعالى: «فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَنَّمَّ وَجْهُ اللَّهِ» وفي تفسير القرطبي: اختلف العلماء في المعنى الذي نزل فيه «فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَنَّمَّ وَجْهُ اللَّهِ» على خمسة أقوال: فقال عبدالله بن عامر بن ربيعة: نزلت فيمن صلى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة* أخرجه الترمذي عنه عن أبيه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر في ليلة مظلمة، فلم ندر أين القبلة، فصلى كل رجل منا على حياله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت «فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَنَّمَّ وَجْهُ اللَّهِ» وضعف الحديث لوجود أشعث السمان في سنده. لكنه قال: وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى هذا وقالوا: إذا صلى في الغيم لغير جهة القبلة، ثم استبان له بعد ذلك أنه صلى لغير القبلة فإن صلاته جائزة، وبه يقول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق، وهو قول أبي حنيفة ومالك. غير أن مالكا قال: تستحب له الإعادة في الوقت* وقال المغيرة والشافعي: لا يجزئه لأن القبلة شرط من شروط الصلاة* قال القرطبي: وما قاله مالك أصح لأن القبلة تبيح الضرورة تركها في المحاربة، وتبيحها أيضاً الرخصة حالة السفر* وقال ابن عمر: نزلت في المسافرين ينتقل حيثما توجهت به راحلته* أخرجه مسلم عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت «فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَنَّمَّ وَجْهُ اللَّهِ» قلت: ولا خلاف بين العلماء في جواز النافلة على الراحلة لهذا الحديث* وقال قتادة: نزلت في النجاشي.. الخ. ما تقدم* وقال ابن زيد: كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس. وقالوا: ما هتدى إلا بنا، فلما حوّل إلى الكعبة قالت اليهود: «مَا وَلَا هُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا» فنزلت «وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...» الآية والقول الخامس: أن الآية منسوخة كما نقلته لك عن ابن عباس رضي الله عنها. قال القرطبي: فكأنه كان أي ابن عباس يجوز في الابتداء أن يصلى المرء كيف شاء، ثم نسخ ذلك، وقال قتادة: الناسخ قوله تعالى: «قَوْلًا وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» أي تلقاه، حكاه أبو عيسى الترمذي. وقول سادس:

روى عن مجاهد والضحاك أنها محكمة المعنى: أينما كنتم من شرق وغرب، فثم وجه الله الذي أمرنا باستقباله وهو الكعبة. وعن مجاهد أيضاً وابن جبير لما نزلت «اذْعُوبِي اسْتَجِبْ لَكُمْ»، قالوا إلى أين؟ فنزلت «فَأَيُّهَا تَوَلَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ»، وتجد هذه الأقوال ونحوها في تفسير الطبري (ج ١ ص ٤٠٠) * وفي غرائب القرآن قول لأبي مسلم: أن كلا من اليهود والنصارى زعمت أن الجنة لهم وحدهم فردَّ الله عليهم وذلك أن اليهود إنما استقبلوا بيت المقدس لإعتقادهم أنه تعالى صعد إلى السماء من الصخرة، والنصارى استقبلوا المشرق لأن عيسى ولد هناك «إِذْ انْتَبَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا»، فكل منها وصف معبوده بالحلول في الأماكن، ومن كان هكذا فهو مخلوق لا خالق فكيف تخلص لهم الجنة، وهم لا يفرقون بين المخلوق والخالق * وفي قول لعلَى بن عيسى: أنه خطاب للمسلمين. أي لا يمنعكم تخريب من خرب مساجد الله عن ذكره حيث كنتم من أرضه فله بلاد المشرق والمغرب والجهات كلها في أي مكان فعلتم التولية التي أمرتهم بدليل قوله: «فَوَلَّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» «فَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ»، قلت: وفي السمين: «وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ» جملة مرتبطة بقوله: «مَنْعَ مَسَاجِدِ اللَّهِ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا»، يعني أنه إن سعى ساعٍ في المنع من ذكره تعالى، وفي خراب بيوته فليس لك مانعاً من أداء العبادة في غيرها لأن المشرق والمغرب وما بينهما له تعالى، والتنصيص على ذكر المشرق والمغرب دون غيرها لوجهين:

أحدها: لشرفها حيث جعلها الله تعالى.

والثاني: أن يكون من حذف المعطوف للعلم به، أي لله المشرق والمغرب وما بينهما.

كقوله: «تَقِيكُمْ الْحَرَّ» أي والبرد.

وفي المشرق والمغرب قولان: أحدهما: أنها اسما مكان الشروق والغروب. والثاني: أنها اسما مصدر أي الإشراق والإغراب، والمعنى لله تولى إشراق الشمس من مشرقها وإغرابها من مغربها، وجاء المشارق والمغرب باعتبار وقوعها في كل يوم، والمشرقين والمغربين باعتبار مشرق الشتاء والصيف ومغربيهما * وفي تفسير النسفي في قوله: «فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ»، أي جهته التي أمر بها ورضيها، والمعنى إنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها فإنَّ التولية ممكنة في كل مكان * قلت وهذا بالتأكيد منسوخ

بقوله تعالى: «**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**» لأن التوجه إلى الكعبة فرض في الفريضة على خلاف في نافلة السفر كما علمت. وإن على جميعهم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه، فأمرهم باستقباله فهو القبلة فإن القبلة ليست قبلة لذاتها بل لأن الله تعالى جعلها قبلةً وأمر بالتوجه إليها «**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**» فهو قبلة الله التي وجهكم إليها. وقوله: «**فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ**» أي وجه الله تعالى بعلمه وقدرته، والوجه صفة ثابتة لله تعالى لا من حيث الصورة، وقيل: فتم رضا الله أي يريدون بالتوجه إليه رضاهُ «**إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ**» من السَّعة، وهو الغنى أي يسع خلقه كلهم بالكفاية والافضال والجود والتدبير وقيل: واسع المغفرة «**عَلِيمٌ**» أي بأعمالكم ونياتكم حيثما تصلُّوا وتدعوا، لا يغيب عنه منها شيء.

مَسْئَلَةٌ تَعَلَّقَ بِحُكْمِ الْآيَةِ :

قال الخازن في تفسيرة (ج ١ ص ٧٦): وهي أن المسافر إذا كان في مفازة أو بلاد شرك، واشتبهت عليه القبلة، فإنه يجتهد في طلبها بنوع من الدلائل، ويصلى إلى الجهة التي أدى إليها اجتهاده ولا إعادة عليه، وإن لم يصادف القبلة، فإن جهة الاجتهاد قبلته، وكذا الغريق في البحر إذا بقى على اللوح فإنه يصلى على حسب حاله، وتصح صلاته، وكذلك المشدود على جذع بحيث لا يمكنه الاستقبال.

القول في تأويل قوله تعالى :

«**وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانُونَ***»
بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»
 سورة البقرة (آية: ١١٦، ١١٧)

قال الواحدى في أسباب النزول: نزلت في اليهود قالوا: عزيز ابن الله، وفي نصارى نجران حيث قالوا: المسيح ابن الله، وفي مشركى العرب قالوا: الملائكة بنات الله * وكذا في تفسير الخطيب. وفي القرطبي. خرَّج البخارى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [قال الله تعالى: كذَّبْنِي ابْنُ آدَمَ، ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إِيَّائِي فزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إِيَّائِي فقولهُ لى ولد، فسبحانى أن أأخذ صاحبة أو ولدًا] * وقوله: «**اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا**» بمعنى صنع، فيعدى لواحد، أو بمعنى صيَّر، والمفعول الأول محذوف أي صيَّر بعض مخلوقاته ولدًا إلا أنه مع كثرة

ورود هذا التركيب لم يذكر معه إلا مفعول واحد مثل «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا»
«مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ» «وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا» * «سُبْحَانَ!» تنزهها له
عن الاتخاذ لأن اتخاذ الولد لبقاء النوع، والله منزه عن الفناء والزوال. «بَلْ لَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» ملكاً وخلقاً وعبداً، والملكية تنافي الولادة، وعبر بما تغليبا لما لا
يعقل، أي التي لغير أولى العلم مع قوله قَانِتُونَ. تغليبا لما لا يعقل أي للإعلام بأنهم في
غاية من القصور عن فهم معنى الربوبية. وفي نهاية من النزول إلى معنى العبودية إهانة
لهم، وتنبهاً على إثبات مجانستهم بالخلوقات المنافية للألوهية * وقيل: إن الولد إنما اتخذ
للحاجة إليه والانتفاع به عند عجز الوالد وكبره، والله تعالى منزه عن ذلك كله، فإضافة
الولد إليه محال. «كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ *» يعني أن أهل السموات والأرض مطيعون لله
ومقرون له بالعبودية، وأصل القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع * وفي اللسان
(ج ٢ ص ٧٣) القنوت: الإمساك عن الكلام. وقيل: الدعاء في الصلاة. والقنوت:
الخشوع والاقرار بالعبودية، والقيام بالطاعة التي ليس معها معصية. وقيل: القيام وزعم
ثعلب أنه الأصل. وقيل: إطالة القيام. وفي التنزيل العزيز «وَقَوْمُوا لِّلَّهِ قَانِتِينَ» قال زيد
بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: وقوموا لله قانتين، فأمرنا بالسكوت، ونهينا
عن الكلام، فأمسكنا عن الكلام فالقنوت: ههنا: الإمساك عن الكلام في الصلاة. وفي
القيام حديث جابر قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الصلاة أفضل؟ قال: طول
القنوت، يريد طول القيام، وقد تكرر ذكر القنوت في الحديث وورد بمعان متعددة،
كالطاعة والخشوع، والصلاة، والدعاء، والعبادة، والقيام، وطول القيام، والسكوت وقال
ابن الأنباري: القنوت على أربعة أقسام: الصلاة، وطول القيام، وإقامة الطاعة
والسكوت * وقال ابن سيده: القنوت الطاعة. هذا هو الأصل. ومنه قوله تعالى:
«وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ» وقوله تعالى: «كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ» أي مطيعون، ومعنى الطاعة
ههنا: أن من في السموات مخلوقون لا يقدر أحدٌ على تغيير الخلق، ولا ملكٌ مقرب، فأثار
الصنعية والخلقة تدل على الطاعة، وليس يعني بها طاعة العبادة، لأن فيها مطيعاً وغير
مطيع، وإنما هي طاعة الإرادة والمشينة، أي التصرف المطلق بمن فيها، وما عليها * وقد
دلت الآية على نوع آخر من قبائح أفعال اليهود والنصارى والمشركين جميعاً فقد مر ذكرهم
في قوله: «كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ» وفي قوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ

مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ..» والضمير يصلح للعود إليهم كما تقدم فاليهود قالوا عزير ابن الله، والنصارى قالوا المسيح ابن الله، والمشركون من العرب قالوا الملائكة بنات الله، وقد نزه المولى جلَّ وعلا ذاته العلية، وبرهن على ذلك بأن له كل ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وإبداعاً وصنعاً، ومن جملتهم الملائكة والمسيح وعزير، والولد لا بد أن يكون من جنس الوالد، ومن أين المناسبة بين واجب الوجود لذاته، وممكن الوجود لذاته، اللهم إلا في مطلق الوجود، وذلك لا يقتضى شركة في الحقيقة الخاصة بكل منها، بل الملائكة وعزير والمسيح عابدون له مقرون برؤسيتهم، منكرين لما أضافوا إليهم من الولدية، يحكى أنّ عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه قال لبعض النصارى: لولا تمرّد عيسى عن عبادة الله تعالى لصرتُ على دينه، فقال النصرانيُّ: كيف يجوزُ أن ينسب ذلك إلى عيسى مع جدّه في طاعة الله، فقال عليٌّ: إن كان عيسى إلهاً فالإله كيف يعبدُ غيره، وإنما العبد هو الذي يليق به العبادة، فانقطع النصرانيُّ وهت * وقوله: **«بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»** أي خالقها ومبدعها ومنشئها على غير مثال سبق، والمشهور رفع بديع على أنّه خبر مبتدأ محذوف أي هو بديع، وقرىء بالجرّ على أنّه بدلٌ من الضمير في لهُ، وقرىء بالنصب على المدح، وبديع السَّمَاوَاتِ من باب الصفة المشبهة أضيفت إلى منصوبها الذي كان فاعلاً في الأصل، والأصل بديعُ سمواته وأرضه أي بدعت لمجيئها على شكل فائق حسن غريب، ثم شبّهت هذه الصفة باسم الفاعل، فنصبت ما كان فاعلاً، ثم أضيفت إليه تخفيفاً، وهكذا كل ما جاء من نظائره، فالإضافة لا بد وأن تكون من نصب لثلاث يلزم إضافة الصفة إلى فاعلها، وهو لا يجوز، كما لا يجوز في اسم الفاعل الذي هو الأصل (من السمين والكشاف ج ١ ص ٣٠٧) * **«وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا»** أي قدره. وأراد خلقه، وأهل القضاء الحكم والفراغ. والقضاء في اللغة: على وجوه كلها ترجع إلى انقطاع الشيء وتمامه والفراغ منه. فيقال: قضى القاضى بهذا إذا فصل الدعوى، وانقضى الشيء انقطع، وقضى حاجته قطعها عن المحتاج، وقضى الأمر إذا أتمّه وأحكمه لأن إتمام العمل قطع له، وقضى دينه أداهُ لأنّه انقطع كل منها عن صاحبه، ومعنى قضى أمراً. أتمّه، أو حكم بأنه يفعله **«فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»** أي وإذا أراد إحداث أمر وإيجاد، فإنما يأمره أن يكون موجوداً فيكون، والكلام تمثيل وتشبيه لتعلق إرادته بإيجاد الشيء فيعقبه وجوده، بأمرٍ يضدّر فيعقبه الامتثال. والإيجاد والتكوين من أسرار الألوهية، عبّر عنها بما

يقرّ بها من الفهم، وهو أن يقول للشيء كن فيكون. وهو كناية عن سرعة الإيجاد ويكون من كان التامة بمعنى أحدث فيحدث، وليس المراد به حقيقة أمر وامتثال بل تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقّف (البيضاوي) * وفي الشهاب تعليقا على قوله: بل تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته... الخ. قال: بأن شُبّهت الحال التي تتصوّر من تعلق إرادته تعالى بشيء من المكوّنات وسرعة إيجاده إِيّاهُ بحالة أمر الأمر النافذ تصرفه في المأمور المطيع الذي لا يتوقّف في الإمتثال فأطلق على هذه الحالة ما كان يستعمل في تلك من غير أن يكون هناك أمرٌ وقولٌ * قلت: وقد أكّد جل جلاله بهذا استبعاد الولادة لأن من كان يتصف بهذه الصفة العظيمة من القدرة وسرعة الإيجاد كانت حالته تقتضي مباينته لأحوال الأجسام في توالدها، فهي مخلوقة، والمخلوق مفعول لا فاعل. فالصفتان متباينتان في الفاعلية والمفعولية، والله خالق كلّ شيء وهو على كل شيء قدير. فيكون قد قرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له، ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولد؟ كما نبه تعالى أن خلق عيسى بكلمة كن فكان قال تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ»

سورة البقرة (آية: ١١٩)

جاء في أسباب النزول للواحدى : قال ابن عباس: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: [ليت شعري ما فعل أبواي؟] فنزلت هذه الآية. لكن ضعفه الخطيب. وقال مقاتل: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا فأنزل الله تعالى: «وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ» * وفي الخطيب والمختار أنها نزلت في كفار أهل الكتاب. وفي ابن كثير (ج ١ ص ١٦٢) عن محمد بن كعب القرظي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ليت شعري ما فعل أبواي. ليت شعري ما فعل أبواي؟] فنزلت «وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ» * فما ذكرها حتى توفاه الله عز وجل. ورواه ابن جرير عن أبي كريب، عن وكيع عن موسى بن عبيده. وقد تكلموا فيه، وقد حكاه القرظي عن ابن عباس، ومحمد بن كعب، قال القرظي: وهذا كما يقال لا تسأل

عن فلان. أي قد بلغ فوق ما تحسب وقد ذكرنا في التذكرة أن الله أحیی له أبویه حتى آمنّا به. قال ابن كثير: والحديث المروى في حياة أبویه عليه السلام ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها، وإسناده ضعيف * لمّا بين تعالى غاية إصرارهم على العناد، وتصميمهم على الكفر بعد نزول ما يكفي في باب الإقتداء والإهتداء من الآيات البينات أراد أن يُسَلِّيَ وَيُسَرِّيَ عن رؤوله لئلا يضيق صدره فقال: إنا أرسلناك يا محمد بالحق بالصواب حسب ما تقتضيه الحكمة، وهو أن لا يكون ذلك أن تجبرهم على الإيمان، بل لا يتجاوز حالك عن أن تكون بشيراً لمن اتبعك بكل خيرٍ ونذيراً لمن خالفك بكل سوء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنك غير مسئول عن أصحاب الجحيم، وهو من أساء النار، وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم من قوله تعالى: «**قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ**» والجاحم المكان الشديد الحر، وهذا كقوله: «**فَاتَمَّا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**» * وفي الخازن (ج ١ ص ٧٧) «**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ**» أي بالصدق، وقال ابن عباس: بالقرآن * وقيل: بالإسلام. وقيل معناه: إنّا لم نرسلك عبثاً بل أرسلناك «**بِالْحَقِّ بَشِيرًا**» أي مبشراً لأوليائي، وأهل طاعتي بالثواب العظيم «**وَنَذِيرًا**» أي منذراً ومخوفاً لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم * وأخرج البخارى عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، فقال: أجل، والله إنّه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيها النبيّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَنَذِيرًا، وحرزاً للأُميين، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفَع بالسيئة السيئة ولكن يعفو، ويعفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عمياً، وأذناً صُمّاً، وَقُلُوبًا غُلْفًا * «**وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ**» أي فلا يضرنك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم، فأنت لم تبعث ملزماً ولا جباراً، بل بعثت معلماً وهادياً بالدعوة وحسن الأسوة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**» سورة البقرة (آية: ١٢٠)

في الواحدى. قال المفسرون: إنهم كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم الهدنة،
 ويطمعون أنه إذا هادهم وأمهلم اتبعوه ووافقوه. فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال ابن
 عباس: هذا في القبلة، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلى النبي
 صلى الله عليه وسلم إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم، فيئسوا
 منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية * أي ولن ترضى عنك اليهود إلا
 باليهودية ولا النصارى إلا بالنصرانية. قال الخطيب: وفي هذا مبالغة في إقناطه صلى الله
 عليه وسلم عن إسلامهم، وذلك أنهم كانوا يسألونه الهدنة، ويطمعونه أنه إن أمهلم
 اتبعوه فأنزل الله تعالى هذه الآية * فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم فكيف يتبعون
 ملتته؟. وفي القرطبي نحو هذا. وعبارته أنهم كانوا يسألونه المسألة والهدنة ويعدون النبي
 صلى الله عليه وسلم بالإسلام، فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم وأمره
 بجهادهم * «قُلْ» تعليماً للجواب «إِنَّ هُدَى اللَّهِ» أي دين الإسلام «هُوَ الْهُدَى» أي
 هو الذي يصح أن يُسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما يدعون إلى اتباعه
 ما هو هدى إنما هو أهواء ألا ترى إلى قوله تعالى: «وَلْتَن» اللام الموطئة للقسم «إِتَّبَعْتَ
 أَهْوَاءَهُمْ» أي آراءهم الزائفة التي يدعونك إليها «بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ» أي
 من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة «مَالِكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ» يحفظك «وَلَا
 نَصِيرٍ» يمنعك منه. وقد أفادت الآية أن الكفر كله ملّة واحدة لقوله تعالى: «مِلَّتْهُمْ»
 فوحد الملّة، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعى وداود وأحمد بن حنبل، وفي رواية لأحمد
 ومالك أن الكفر مللٌ، فلا يرث اليهودي النصراني، ولا يرثان المجوسى، وعلى القول الأول
 يرث كل واحد منها الآخر. وقيل: في قوله تعالى: «وَلْتَنُ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ» أنه خطاب
 للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به أمته، والمعنى إياكم أخطب، ولكن أؤدب وأنبى،
 فقد علمتم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد جاءكم بالحق والصدق، وقد عصمته، فلا
 تتبعوا أنتم أهواء الكافرين، ولتن اتبعتم أهواءهم بعد الذي جاءكم من العلم والبيئات
 مالكم من الله من ولي ولا نصير. وفي هذا تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق
 اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياداً بالله من أنهم يحرفون كلام الله عن
 مواضعه بتأويلاتهم الفاسدة، وأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به من صفات نبينا محمد صلى
 الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل إلى آخر ما ذكره تعالى من صفاتهم السيئة في القرآن

الكريم من قتلهم الأنبياء بغير حق، وإنكارهم لشرائعهم التي جاؤهم بها، وأكلهم الرشا وأموال الناس بالباطل وغير ذلك من الصفات الذميمة، وهذا القول جار على مجرى العرف في خطاب الملوك، أن يقال لِمَلِكٍ: إذا فعلت كذا كانت العاقبة كذا، ويُراد إذا فعلته دولتك، أو أمتك. والكلام هنا جاء على هذا الأسلوب ليرشد من يأتي بعده أن يصدع بالحق، و ينتصر له، ولا يبالي بمن خالفه مهما قوى واشتد أمره، فمن عرف الحق، وعرف أن الله ولي أمره وناصره لا يخاف في تأييده لوم اللائمين، ولا إنكار المعاندين.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أَلَيْكَ يَوْمُنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» سورة البقرة (آية: ١٢١)

ذكر الواحدى في أسباب النزول عدة أقوال في أسباب نزول هذه الآية منها: قال ابن عباس في رواية عطاء والكلبي: نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة كانوا أربعين رجلاً من الحبشة وأهل الشام وقال الضحاك: نزلت فيمن آمن من اليهود وقال قتادة وعكرمة: نزلت في محمد صلى الله عليه وسلم وعبارة الخطيب تشير إلى أنها نزلت في اليهود فقال: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ» أي يعرفونه كما أنزل لا يحرفونه، ولا يُغَيِّرُونَ ما فيه من نعت محمد صلى الله عليه وسلم «أُولَئِكَ يَوْمُنُونَ بِهِ» أي بكتابهم دون المحرفين «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ» أي بالكتاب المؤتى بأن يُحَرِّفَهُ «فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» لمصيرهم إلى النَّارِ وفي القرطبي: قال قتادة: هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. فالكتاب على هذا التأويل القرآن. وقال ابن زيد: هم من أسلم من بنى إسرائيل. فالكتاب على هذا التأويل التوراة. والآية تعم الكتابين وأهلها. واختلفوا في معنى «يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ» فقيل: يتبعونه حق اتباعه باتباع أوامره ويحبتون نواهيها، ويحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويعملون بما تضمنه. وفي هذا قال عكرمة: أما سمعت قول الله تعالى: «وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا» أي اتبعها، وهو معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم. وروى نصر بن عيسى عن مالك، عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله «يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ» قال: يتبعونه حق اتباعه. لكن في إسناده مجاهيل. وأن معناه صحيح. قال أبو موسى الأشعري: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة وعن عمر بن الخطاب رضي الله

عنه: هُمُ الَّذِينَ إِذَا مَرُّوا بِآيَةِ رَحْمَةِ سَأَلُوهَا مِنْ اللَّهِ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةِ عَذَابٍ تَعَوَّدُواهُ وَقَالَ الْحَسَنُ: هُمُ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ بِحُكْمِهِ وَيُؤْمِنُونَ بِمِثْلَابِهِ، وَيَكُونُ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ إِلَى عَالِمِهِمْ وَقِيلَ: يَقْرَأُونَهُ حَقَّ قِرَاءَتِهِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: وَفِيهِ بَعْدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى يَرْتَلُونَ أَلْفَظَهُ، وَيَفْهَمُونَ مَعَانِيَهُ، فَإِنَّ بِفَهْمِ الْمَعَانِيِ يَكُونُ الْإِتْبَاعُ لِمَنْ وَقَفَ زَادَ الْحَازَنُ (ج ١ ص ٧٨) فِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهِيَ قَوْلُهُ: أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ السَّفِينَةِ الَّذِينَ قَدِمُوا مَعَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: وَكَانُوا أَرْبَعِينَ رَجُلًا: إِثْنَانِ وَثَلَاثُونَ رَجُلًا مِنَ الْحَبْشَةِ، وَثَمَانِيَةَ مِنْ رَهْبَانِ الشَّامِ مِنْهُمْ بِحَيْرَا الرَّاهِبِ وَقِيلَ: هُمْ مُؤْمِنُوا أَهْلَ الْكِتَابِ مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ وَقِيلَ هُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاصَّةً وَقِيلَ: هُمْ الْمُؤْمِنُونَ عَامَّةً وَفِي ابْنِ كَثِيرٍ (ج ١ ص ١٦٣) وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ حَقَّ تِلَاوَتُهُ أَنْ يَحِلَّ حِلَالُهُ وَيَحْرَمَ حَرَامُهُ، وَيَقْرَأُ كَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ، وَلَا يَحْرِفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يَتَأَوَّلُ شَيْئًا عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الصَّحِيحُ لِأَنَّ الْكِتَابَ الَّذِي يَمْدَحُ عَلَى تِلَاوَتِهِ هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْمَحْفُوظُ مِنَ التَّحْرِيفِ أَوْ التَّبْدِيلِ. فِي الطَّبْرِيِّ (ج ١ ص ٤١١) عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ» قَالَ: هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمَنُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَصَدَّقُوا بِهِ «أُولَئِكَ» يَعْنِي الَّذِينَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ «يُؤْمِنُونَ بِهِ» أَي يَصْدُقُونَ بِهِ «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ» أَي يَجْحَدُ مَا فِيهِ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ وَنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» أَي خَسَرُوا أَنْفُسَهُمْ حَيْثُ اسْتَبَدَلُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» البقرة آية (١٣٣) في الواحدى نزلت الآية في اليهود حين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: ألسنت تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية؟ وفي القرطبي: والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى دين إبراهيم ما يُعص به نبيّه، وأنهم على اليهودية والنصرانية، فرد الله عليهم قولهم وكذبهم. وفي الطبرى (ج ١ ص ٤٣٩) عن الربيع قوله «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ» يعنى أهل الكتاب وشهداء، جمع شاهد أو شهيد. بمعنى الحاضر. أي ما كنتم حاضرين. ويعنى تعالى ذكره بقوله: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ»

أكنتم، ولكنه استشفهم بأمر إذ كان استفهماً مستأنفاً على كلام قد سبقه كما قيل «ألم. تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين. أم يقولون افتراء»، وكذلك تفعل العرب في كل استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه، تستفهم فيه بأمر. وفي الكشف (ج ١ ص ٣١٣) هي أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها للإنكار، وردّ الزمخشري الخطاب فيه للمؤمنين. بمعنى ما شاهدتم. قال ابن المنير: رحمه الله. وإنما اختار على هذا التفسير أن تكون متصلة، لأنه لو جعلها منقطعة كالأول لكان مضمون الكلام نفي شهود المخاطبين، وهم اليهود على هذا التفسير الثاني لوفاء يعقوب والوصية بالإسلام، وحينئذ يكون ذلك كاقامة حجّتهم على جحد الإسلام، وإنكار أن يكون الأنبياء مسلمين، والغرض ضد ذلك، وإنما كان الكلام يقتضى النفي حينئذ لأن الاستفهام من الله تعالى على ظاهره، فتعيّن صرفه إلى الإنكار لأن السياق يقتضيه، ولهذا كان نفياً لشهود المسلمين، وفاة يعقوب ووصيته على التفسير الأول لا سيما والمعتاد خطاب اليهود المعاصرين للنبي عليه الصلاة والسلام بما يخاطب به أوائلهم، وتنزيلاً لعلمهم ورضاهم منزلة حضورهم وتعاطيهم كقوله تعالى: «وإذ قتلتم نفساً - وإذ قتلتم ياموسى» إلى أشباه ذلك، فإذا كانت أم متصلة والخطاب لليهود فقد جرى الأمر في خطابهم على المعتاد، وإذا كانت منقطعة انعكس الأمر. وقد جرى المفسرون على أنه خطاب لأهل الكتاب. أي كان يهودياً أو نصرانياً، لما روى من أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أأنت تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية. وخلاصة ذلك. أنتم يا معشر اليهود لم تحضروا ذلك إذ قال يعقوب لبنيه حين حضرته الوفاة «ما تعبدون من بعدي؟»، ومراده من هذا السؤال أخذ المشيقات عليهم بشباتهم على الإسلام والتوحيد، وأن يكون مقصدهم في جميع أعمالهم وجه الله ومرضاته، وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان، فلا تدعوا الأباطيل وتنسبوه إلى اليهودية أو النصرانية، فإني ما أرسلت إبراهيم وبنيه إلا بالحنيفية المسلمة، وبها وصوا بنينهم وعهدوا إلى أولادهم من بعدهم. «قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالِاهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهِهُمُ وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، أي قالوا: نعبد الإله الذى قامت الأدلة العقلية والحسية على وجوده، ووجوب عبادته لا نشرك به سواه، ونحن له منقادون خاضعون، معترفون له بالعبودية، متوجهون إليه عند الملمات. وكان سبب هذا السؤال خوف يعقوب على بنيه من عبادة غير الله حيث كانوا في عصر فشت فيه عبادة الأصنام

والكواكب والحيوان وغيرها وهذا السرُّ في قول إبراهيم عليه السلام « **وَاجْتُنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ** » وقد جعلوا إسماعيل (وهو عمُّه) أباً تشبيهاً له بالأب. روى الشيخان قوله عليه الصلاة والسلام: [عَمُّ الرَّجُلِ صَنُؤُ أَبِيهِ] وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أن دين الله واحد في كل أمة، وعلى لسان كل نبي، وروحه التوحيد والاستسلام لله رب العالمين، والاذعان لهدى الأنبياء المرسلين، وهذا كان يوصى التبيين أهمهم كما قال: « **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** » قال المراغى في تفسيره: (ج ١ ص ٢٢٢) فالقرآن يحثُّ النَّاسَ على الاتفاق في الدين الذي أساسه أمران: أولهما التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه. وثانيها الاستسلام لله والخضوع له في جميع الأعمال، فمن لم يتصف بذلك فليس بالمسلم. أي على الدين القيم الذي كان عليه الأنبياء. قال: والناس يطلقون الإسلام اليوم لقباً على طوائف من الناس لهم ميزات دينية، وعبادات تميزهم من سائر الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى، وقد يكون من بعض أهله من لم يكن مستمسكاً مخلصاً لله في أعماله، بل قد يكون مبتدعاً ما ليس منه، أو فاسقاً قد اتخذ إلهه هواً. والإسلام الذي دعا إليه القرآن هو الذي دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يدع إلى الإسلام بمعنى ذلك اللقب المعروف اليوم * قلت: وهناك بون شاسع بين ما جاء به الإسلام من الأخلاق القويمة وبين ما عليه غالب المسلمين اليوم من المفاسد الخلقية الذميمة، فالمسلم الكامل بإسلامه هو كالدُّرة النقية أو الجوهرة الثينة التي لا تقوم بأثمان الدنيا كلها لَمَّا انطبعت عليه نفسه الزكية من الإيمان الصادق، والإخلاص في جميع أعماله مبتغياً بها وجه الله العظيم، فأينما يتوجه يتوجه بخير ولا يأتي إلا بخير. سبحانه الله!! كل أمره حسن. وقوله « **إِذْ حَضَرَ** » إذ منصوب بشهداء على أنه ظرف لا مفعول به. أي أكنتم شهداء وقت حضور الموت إياه، وحضور الموت كناية عن حضور أسبابه ومقدماته (وقوله: يعقوب) سُمِّي بذلك لأنه هو وأخوه العيص كانا توأمين في بطن واحد، فتقدم العيص وقت الولادة في الخروج مسابقةً ليعقوب، فتأخر يعقوب عنه ونزل على إثره، وعقبه في الخروج ذكره الخازن في تفسيره (ج ١ ص ٨٥) قال ابن عباس * وقيل: سُمِّي يعقوب لكثرة عقبه، وكان له من الولد اثنا عشر، وهم روبيل وشمعون ولاوى وهودا، وعبالون ويشجرودان وقتالي، وجاء وآشر ويوسف وبنيامين. وقوله « **إِذْ قَالَ** »

أي يعقوب «لَيْتِيهِ» لأولاده الاثني عشر «مَا تَعْبُدُونَ» ما اسم استفهام في محل نصب لأنه مفعول مقدم لتعبدون، وهو واجب التقديم لأن له صدر الكلام. أي أي شيء تعبدونه. وأتى جلّ جلاله بلفظ «مَا» دون مَنْ، لأن المعبودات ذلك الوقت كانت غير عقلاء كالأوثان والأصنام والشمس والقمر، فاستفهم بما التي لغير العاقل، فعرف بنوه ما أراد. فأجابوه بالحق إذ الجواب على وفق السؤال قوله «مِنْ بَعْدِي» قيل: إن الله تعالى لم يقبض نبيا حتى يخيره بين الحياة والموت، فلما خير يعقوب، وكا قد رأى أهل مصر يعبدون الأوثان والسنيران، فقال: انظرني حتى أسأل ولدي، وأوصيهم، فأمهله فجمع ولده، وَوُلْدَ وَلَدِهِ، وقال لهم: قد حضر أجلي «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟» وهو قول عطاء «قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ»، إنما قدم اسماعيل لأنه كان أكبر من إسحاق^(١) وأدخله في جملة الآباء، وإن كان عمّا لهم لأن العرب تسمى العم أبا قال عليه الصلاة والسلام في عمه العباس: ردوا على أبي. وذلك في فتح مكة «إِلَهًا وَاحِدًا» لا شريك له لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» أي مخلصون له بالعبودية والطاعة، مستقيمين على المِلَّة الحنيفية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام. وهي جملة حالية من فاعل نعبُد. أي نعبد حال كوننا مسلمين، أو جملة معطوفة على نعبد وهي أبلغ، أو جملة اعتراضية مؤكدة. والآية التي تليها متعلقة بها وهي «تِلْكَ» إشارة إلى الأمة المذكورة التي هي إبراهيم ويعقوب وبنوهما الموحدون «أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ» مضت «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ» أي إن أحدا لا ينفعه كسب غيره متقدماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما كسبتم وذلك لافتخارهم بأبائهم «وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» ولا تؤاخذون بسيئاتهم. والخطاب لأهل الكتاب. أي يا معشر اليهود والنصارى دعوا ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهلهم، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية، فإن اليهودية لم تأت إلا بعد موسى والنصرانية لم تأت إلا بعد عيسى، فلا تقمروا على الله الكذب فتضيفونها إليهم، فانهم أمة موحدة مسلمة غير مشركة بالله شيئاً، وفي هذا تعريض

(١) وقد أقت البرهان على ذلك من التوراة والقرآن، وذلك في كتابي صحيح السيرة. (ج ١) أنه أسبق منه في الولادة بأربع عشرة سنة وأنه جدُّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهو بحث نفيس جداً جداً.

باليهود والنصارى المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم تركوا عقيدة التوحيد التي جاء بها أنبياءهم إلى عقيدة الشرك وعبادة العجل والأصنام والأوثان، فضلاً عن ادعاء اليهود بأن عزيزاً ابن الله، والنصارى بأن عيسى ابن الله. قاتلهم الله أتى يؤفكون.

القول في تأويل قوله تعالى :

«وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

سورة البقرة آية (١٣٥)

جاء في أسباب النزول للواحدى: قال ابن عباس: نزلت في رؤوس يهود المدينة: كعب الأشرف، ومالك بن الصَّيْف، وأبى ياسر ابن أخطب، وفي نصارى أهل نجران، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها. فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بعيسى والانجيل ومحمد والقرآن. وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا، فلا دين إلا ذلك، ودعوهم إلى دينهم وفي القرطبي: دعت كل فرقة إلى ما هي عليه، فردَّ الله ذلك عليهم فقال: «بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً» أى قل يا محمد لهم: بل نتبع ملة أى شريعة ابراهيم حنيفاً لأنه حنف إلى دين الله وهو الإسلام. والحنف: الميل. ومنه رجلٌ حنفاء، ورجلٌ أحنف وهو الذى تميل قدماه كل واحدة منها إلى أختها بأصابعها. والملة فى اللغة: الشريعة والدين. وفى الحديث [لا يتوارث أهلُ مِلَّتَيْنِ] الملة: الدين كملة الإسلام والنصرانية واليهودية، وقيل: هى معظم الدين، وجملة ما يجيء به الرُّسل.. قال أبواسحاق: الملة فى اللغة سنَّتُهُم وطريقهم، ومن هذا أخذ الملة أى الموضوع الذى يختبر فيه لأنه يؤثر فى مكانها يؤثر فى الطريق وفى الخازن (ج ١ ص ٨٦) قال ابن عباس الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام قال الشاعر:

وَلَكِنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا حَنِيفاً دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِينٍ

والعرب تسمى كل من حج أو اختتن حنيفاً تنبيها على أنه على دين ابراهيم عليه السلام. وقيل: الحنيفية الحتان، وإقامة المناسك، وحنيفاً حال من المضاف إليه نحو رأيت وجهه هنيئاً قائمة وقوله «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» يعنى ابراهيم عليه السلام، وفيه تعريضٌ باليهود والنصارى ومشركى العرب حيث ادعوا أنهم على ملة ابراهيم مع أنه لم يكن

مشركا وهم مشركون، وقد كان الناس من مضر يحجون البيت في الجاهلية يسمون حنفاء فأنزل الله تعالى ذكره «حَتَفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ»* وفي ابن كثير (ج ١ ص ١٨٦) وقال أبو العالية: الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلاً* وقال أبو قلابه: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم* وقال قتادة: الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله، يدخل فيه تحريم الأمهات والبنات والحالات والعمات، وما حرم الله عز وجل والختان* وعلى كل فاليهود والنصارى ليسوا من ملة إبراهيم بدليل قوله «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» لكون النصارى قائلين بالتثليث، واليهود بالتشبيه، وأيضاً قالوا عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله، فليسوا من ملة إبراهيم التي هي محض التوحيد، ولهذا أعقب الله تعالى هذه الآية بتعليم المؤمنين طرائق الإيمان فقال تعالى «فَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ» يعنى قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا آمنا بالله وصدقنا بأنه واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» (١) «وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا» يعنى القرآن «وَمَا أَنْزَلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ» يعنى وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم وهو عشر صحائف، وإنما قدم جلّ جلال الإيمان به لأن معرفة النبي والكتاب متوقفة على معرفته، وفيه إبطال ما ذهب إليه التعليمية والمقلّدة من أن طريق معرفة الله الكتاب والسنة «وَأَسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ» وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر، وأحدهم سبط وكانوا أنبياء، وقيل السبط هو ولد الولد، وهو الحاقد، ومنه قيل للحسن والحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأسباط في بنى اسرائيل كالقبايل في العرب من بنى اسماعيل، وكان في الأسباط أنبياء (الخانز ج ١ ص ٨٧) وكذا في غرائب القرآن (ج ١ ص ٤٣٨)* أى فهم حفدة يعقوب لأنهم أولاد أولاده، أو ذرارى أبنائه الاثنى عشر. عدد بعض الأنبياء لتقدمهم وشرفهم، ثم عم لتعذر التفضيل. وفي قوله تعالى «وَمَا أَنْزَلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ» أعاد الموصول «وَمَا» لتلايتهم من إسقاطه اتحاد المنزّل مع أنه ليس كذلك، وذكر اسماعيل وما بعده لكونهم مروّجين ومقرّرين لما أنزل على إبراهيم فكأنه منزل عليهم أيضاً، وإلا فليسوا منزلاً عليهم في الحقيقة. وهكذا قل في

(١) وقد بيّنتُ أطرافاً كثيرة من تشبيات أهل الكتاب في كتابي (عقيدة السلف والخلف في ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله)

كل ما ورد بنحوه في القرآن الكريم «وَمَا أُوتِيَ مُوسَى» من التوراة «وَعِيسَى» من الانجيل «وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ» من الكتب والآيات عبر بالآيات دون الإنزال كسابقه فراراً من التكرار الصوري الموجب للنقل في العبارة. وقوله: «وَعِيسَى» لم يعد الموصول بأن يقول: وما أُوتِيَ عيسى. إشارة إلى اتحاد المنزّل عليه مع المنزّل على موسى، فإن الانجيل مقرر للتوراة، ولم يخالفها إلا في قدر يسير فيه تسهيل كما قال تعالى: «وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ»، والمعنى آمناً أيضاً بالتوراة والانجيل والكتب التي أوتى جميع النبيين وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونور، وأن الجميع من عند الله، وأن جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هُدىً وحقٍ «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ» أى لا نؤمن ببعض الأنبياء، وكما تبرأت النصرارى من محمد صلى الله عليه وسلم، وأقرت ببعض الأنبياء بل نؤمن بكل الأنبياء بلا استثناء، وإن كنا لا نفرق بينهم بالإيمان إلا أننا نفرق بينهم في الأفضلية. لما ورد به الدليل. وطريق معرفة نبوة الأنبياء ظهور المعجزة على أيديهم، ولما ظهر المعجز على يد نبيتنا محمد صلى الله عليه وسلم وجب الاعتراف بنبوته، والإيمان به، وبما أنزل عليه كما اعترفوا بنبوة ابراهيم وموسى وعيسى، فإن تخصيص البعض بالقبول، وتخصيص البعض بالردّ يوجب المناقضة في الدليل، وهذا مما يدل عقلاً ونقلًا على أن المسلمين على دين الله الحق، وما عداهم على الباطل والضلال ولهذا قال تعالى «فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا» أى بما آمنتم به. ومثل صلة فهو كقوله «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» أى ليس مثله شىء، وقيل: فإن أتوا بإيمان كمايمانكم وتوحيد كتحديدكم «فَقَدِ اهْتَدَوْا» والمعنى حصلوا ديناً آخر يساوى هذا الدين في الصحة والسداد، فقد اهتدوا، ولكن لما استحال أن يوجد دين آخر يساوى هذا الدين في الصحة والسداد استحال الاهتداء بغيره، لأن هذا الدين مبناه على التوحيد، والاقرار بكل الأنبياء، وما أنزل إليهم، وقيل: معناه فإن آمنوا بكتابهم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا، ولعلّ ما ذهب إليه الجلال هو الصحيح إذ قال «بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ» وقرأ أبى «بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ» «وَإِنْ تَوَلَّوْا» عما تقولون لهم، ولم ينصفوا فما هم إلا «فِي شِقَاقٍ» أى في مناوأة ومعادنة لا غير وليسوا من طلاب الحق بشيء، أو وإن تولوا عن الشهادة والدخول في الإيمان بها «فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ» ضمان من الله لإظهار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم، وإجلاء بنى النضير، ومعنى السين

أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» وعيدٌ لهم: أى يسمع ما ينطقون، و يعلم ما يضمرون من الحسد والغل، وهو معاقبتهم عليه.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» سورة البقرة (آية: ١٣٨)

جاء في أسباب النزول للواحدى. قال ابن عباس: إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولدٌ، فأتى عليه سبعة أيام صبغوه في ماء لهم يقال له المعمودى ليطهره بذلك، ويقولون هذا ظهور مكان الختان، فإذا فعلوا ذلك صار نصرانياً حقاً، فأنزل الله الآية. وفي الخازن (ج ١ ص ٨٧) قال ابن عباس. «صِبْغَةَ اللَّهِ» دين الله، وهو مصدر مؤكد منتصب عن قوله آمناً بالله، وهى فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ، والمعنى تطهير الله لأن الإيمان يطهر النفوس. وقال البغوى فى تقريرها، ثم إن إطلاق مادة لفظ الصبغ على التطهير مجاز تشبيهى، وذلك أنه شبه التطهير من الكفر بالإيمان بصبغ المغموس فى الصبغ الحسى، ووجه الشبه ظهور أثر كلٍّ منهما على ظاهر صاحبه، فيظهر أثر التطهير على المؤمن حساً ومعنى بالعمل الصالح، والأخلاق الطيبة كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، ولا ينافى ذلك كونه مشاكلة. أى كقولك لمن يغرس الأشجار اغرس كما يغرس فلان تريد رجلاً يصطنع الكرام. وحاصله أن الصبغ ليس بمذكور لا فى كلام الله ولا فى كلام النصارى، ولكن غمسهم الأولاد عبارة عن الصبغ، وإن لم يتكلموا به، والآية نازلة فى سياق هذا فكأن لفظ الصبغ مذكوره وفى ابن كثير (ج ١ ص ١٨٨) عن ابن عباس أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال: إن بنى إسرائيل قالوا: يارسول الله هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله، فناداه ربه: يا موسى سألوك هل يصبغ ربك؟ فقل نعم: أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغى، وأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً» قال ابن كثير: كذا وقع فى رواية ابن مردويه مرفوعاً، وهو فى رواية ابن أبى حاتم موقوف، وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم. وفى الكشاف (ج ١ ص ٣١٦) والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية، ويقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: — قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ — وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل

صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا، أو يقول المسلمون: صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم* وفي الطبرى (ج ١ ص ٤٤٤) عن قتادة (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً) أن اليهود تصبغ أبناءها يهود، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى. وأن صبغة الله الإسلام، فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أطهر، وهو دين الله الذى بعث به نوحاً والأنبياء بعده* وعن أبى العالية «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً» ومن أحسن من الله ديناً* وهو قول السدى وابن عباس وابن زيد. وفي الخطيب «صِبْغَةَ اللَّهِ» أى دينه الذى فطر الناس عليه بظهور أثره على صاحبه. كالصبغ للثوب، وأورد السبب الذى أورده الواحدى، والعبارات التى ذكرها الزمخشرى. وفي القرطبي: «صِبْغَةَ اللَّهِ» غُسْلُ اللَّهِ، أى اغتسلوا عند إسلامكم الغسل الذى أوجبه الله عليكم، قال: وهذا المعنى جاءت السُّنَّةُ الثابتة فى قيس بن عاصم وثُمَامَةَ بن أَثَال حين أسلما، روى أبو حاتم البُسْتِي فى صحيح مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن ثُمَامَةَ الحنفى — أى ابن أَثَال — فرَّبه النبى صلى الله عليه وسلم يوماً فأَسْلَمَ، فبعث به إلى حائظ أبى طلحة — بستان من النخيل إذا كان عليه جدار — فأمره أن يغتسل فاغتسل وصلى ركعتين، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (حَسُنَ إِسْلَامُ صَاحِبِكُمْ* قُلْتُ: وهو بعيد الاستدلال عما نحن بصدده، ولعله أراد أن ذلك بمنزلة غسل الإسلام والجنابة لأهل الإسلام فتكون الدلالة قريبة المعنى والله أعلم «وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» مطيعون: معطوف على آمنا، فهو داخل معه تحت الأمر. أى وقولوا: وَنَحْنُ الخ... وقوله «صِبْغَةَ اللَّهِ» الخ... معترض بين قولوا آمنا ونحن له عابدون. قوله «وَمَنْ أَحْسَنُ» مبتدأ وخبر، وهذا استفهام معناه النفى، أى لا أحد، وأحسن هنا فيها احتمالان: أحدهما أنها ليست للترفضيل إذ صبغة غير الله منتف عنها الحسن. الثانى أن يراد التفضيل باعتبار من يبصر أن فى صبغة غير الله حسناً لا عن ذلك بالنسبة إلى حقيقة الشيء، ومن الله متعلق بأحسن فهو فى محل نصب، وصبغةٌ نصب على التمييز من أحسن، وهو من التمييز المنقول من المبتدأ، والتقدير، ومن صبغته أحسن من صبغة الله، فالترفضيل إنما يجرى بين الصبغتين لا بين الصابغين، وهذا غريب أعنى كون التمييز منقولاً من المبتدأ* يعنى أنه يصبغ عباده بالإيمان ويطهرهم به من أضرار الكفر، فلا صبغة أحسن من صبغته، وتقدّم أن «وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ» عطف على آمنا. وهذا العطف يردُّ قول من زعم أن صبغة الله بدل من ملّة إبراهيم، أو نصب على الاغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما

فيه من فك النظم، وإخراج الكلام عن التامة واتساقه. وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذى ذكره سيبويه * (من السمين والكشاف ج ١ ص ٣١٦)

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» سورة البقرة آية (١٣٩)

جاء في تفسير الخطيب: ولما قالت اليهود للمسلمين نحن أهل الكتاب الأول، وقبلتنا أقدم، ولم تكن الأنبياء من العرب لأنهم عبدة الأوثان، ولو كان محمد نبياً لكان ممثلاً لنا أهل الكتاب. نزل (قُلْ) لهم (أَتَحَاجُّونَنَا) أى اتجادلوننا وتخاصموننا (فى الله) أى فى شأنه أن اصطفى النبى صلى الله عليه وسلم من دونكم، ويقولون لو أنزل الله على أحدٍ لأنزل علينا، وترون أنكم أحقُّ بالنبوة منا «وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ» نشترك جميعاً فى أننا عباده، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده، لا يخص به عجميٌّ دون عربى إذا كان أهلاً للكرامة «وَلَنَا أَعْمَالُنَا» نجازى بها «وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ» تجازون بها، أى كما أن لكم اعمالاً يعتبرها الله فى إعطاء الكرامة ومنعها، فنحن كذلك، فالعمل هو أساس الأمر، وبه العبرة «وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» فى الدين والعمل دونكم، فنحن أولى بالاصطفاء فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوة. والهمزة للانكار، والجمل الثلاث أحوال * وفى القرطبي: قال الحسن: كانت المحاجة أن قالوا: نحن أولى بالله منكم لأننا أبناء الله وأحباؤه * وقيل: لتقدم آبائنا وكتبنا، ولأننا لم نعبد الأوثان. فعنى الآية: قل لهم: يا محمد أى قل لهؤلاء اليهود، والنصارى الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وادعوا أنهم أولى بالله منكم لقدم آبائهم وكتبهم «أَتَحَاجُّونَنَا» أى اتجادبوننا الحجة على دعواكم والرَّبُّ واحد، وكل مجازى بعمله، فأبى تأثير لقدم الدين. ومعنى «فى الله» أى فى دينه، والقرب منه والخطوة له «وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ» أى مخلصون له العبادة ذلك المفهوم المخالف على التوبيخ لأهل الكتاب. أى ولم تخلصوا له أنتم، فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم. إننا لا نشرك به شيئاً، ولا نعبد غيره أحداً كما عبد أهل الأوثان معه الأوثان، وأصحاب العجل معه العجل، فكيف تخاصموننا فى الله وتجادلوننا فيه؟! والاخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله تعالى فلا يشرك فى دينه، ولا يُرائى بعمله. قال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك،

والإخلاص أن يعافيك الله منها وهذه الآية منسوخة بآية السيف. وقوله: «أتجاؤوننا» هذه الجملة في محل نصب بالقول قبلها، والضمير في قل يحتمل أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم، أو لكل من صلح للخطاب، والضمير المرفوع في أتجاؤوننا لليهود والنصارى، أو لمشركى العرب، والمحاجَّة مفاعلة من حَجَّه يُحَجُّه «في الله» لا بد من حذف مضاف أى في شأن الله، أو في دين الله. والمعنى: أي اتخاصموننا في اصطفاء الله نبياً متاً، ولا ينبغي هذا منكم، والحال أنه ربنا وربكم، فله أن يجعل النبوة فيمن شاء بمحض الفضل، وإن توهمتم أن النبوة مرتبة على العمل فلا ينبغي أيضاً منكم ما ذكر لأن لنا عملاً كما لكم عمل، فله أن يرتب النبوة على عملنا كما له أن يرتبها على عملكم بل نحن أولى منكم بها لأننا مخلصون في عملنا دونكم. وعبارة البيضاوى في قوله «وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ» - فله أن يصطفى من عباده من يشاء - أي بمحض الفضل بما نستحق به الإكرام* أى عمل نستحق الإكرام بسببه بأن يرتب عليه النبوة، فكأنه أوزمهم على كل مذهب يقصدونه و يقيمون عليه افحاماً وتبكيئاً، فإن كرامة النبوة إما تفضل من الله تعالى على من يشاء من عباده، والكل فيه سواء. وإما إفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلى بالإخلاص، فكما أن لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله في إعطائها فلنا أيضاً أعمال.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لَلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَاقِبَتِهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ » سورة البقرة (الآية: ١٤٢، ١٤٣)

ذكر الواحدى في أسباب النزول أن الآية نزلت في تحويل القبلة، وذلك لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فضلى نحوبيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: «قد نرى تقلب وجهك في السماء» إلى آخر الآية. فقال السفهاء من الناس:

وهم اليهود، ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قال الله تعالى: «قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ
 وَالْمَغْرِبُ» إلى آخر الآية. رواه البخارى عن عبدالله بن رجاء. قلت: ورواية أبي ذر في
 البخارى من قوله تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ...» إلى آخر الآية، وروى الآية الأولى
 إلى «مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ...» ورواية البخارى عن البراء رضى الله عنه «أن رسول
 الله صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشرة شهراً، أو سبعة عشر شهراً،
 وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أو صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم
 فخرج رجل ممن كان صلى معه، فرعى أهل المسجد، وهم راكعون، فقال: أشهد بالله
 لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكان
 الذى مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله
 «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ» «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ
 النَّاسِ» أى الجهال من الناس، والسفه خفة في النفس لنقصان العقل في الأمور الدينية
 والدينيوية، ولا شك أن ذلك في باب الدين أعظم لأن العادل عن الأمر الواضح في أمر
 دنياه يعد سفياً. فن كان كذلك في أمر دينه كان أولى بهذا الإسم، فلا كافر إلا وهو
 سفيه، ولهذا كان اليهود والمشركون والمنافقون سفهاء لنزول الآية فيهم. وفي التنزيل:
 «إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ» قال الزجاج: القول الجيد عندى في هذا أن سَفِهَ في موضع
 جهل، والمعنى والله أعلم. إلا من جهل نفسه. أى لم يفكر في نفسه. فوضع سَفِهَ في موضع
 جهل، وفي الحديث المرفوع حين سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكبر فقال: الكِبْرُ
 أن تسفه الحق، وتغميط الناس * فجعل سفه واقعاً معناه أن تجهل الحق فلا تراه حقاً.
 فيكون معنى السفهاء في الآية: الجهلاء الذين يجهلون ما جاء به النبي صلى الله عليه
 وسلم من الحق لقصور علومهم وخفة عقولهم. روى ثعلب عن ابن الأعرابي أنه قال:
 الزَّامَةُ: السَّرَابُ، والسَّافِيَةُ: الأحمق * وفي قوله تعالى: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي
 جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا» قال اللحياني: بلغنا أنهم النساء والصبيان الصغار لأنهم جهال
 بموضع الثقة. قال: وروى عن ابن عباس أنه قال: النساء أسفه السفهاء * وفي التهذيب:
 وسميت - أى المرأة - سفية لضعف عقلها. ولأنها لا تحسن سياسة مالها. وكذلك الأولاد
 ما لم يؤنس رشدهم، وقول المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم: أُنْسَفَهُ أَحلامنا؟ * معناه
 أنجهل أحلامنا. وقوله تعالى: «فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا» السفيه:

هنا. الخفيف العقل من قوهم: تسفحت الرياح الشيء إذا استخفته فحرركته * وقيل:
نزلت الآية في مشركى مكة خاصة، وذلك أنهم قالوا قد تردد على محمد أمره، واشتاق
مولده، وقد توجه إلى نحو بلدكم، فلعله يرجع إلى دينكم. وقيل: نزلت في المنافقين، وإنما
قالوا ذلك استهزاء بالإسلام. والأولى أن يقال: إن لفظ السفهاء فى الآية عام فيدخل فيه
جميع الكفار والمنافقين واليهود. لاحتتمال وقوع الكلام المذكور فى الآية من كلهم. إذ لا
فائدة فى التخصيص. ولأن الأعداء يبالغون فى الطعن والقبح فإذا وجدوا مقالاً قالوا أو
مجالاً جالوا. قلت: وقد أجمع الأمة على أن هذه الآية دليل واضح على النسخ فى أحكام
الله تعالى. وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما نسخ من القرآن، ودلت على جواز نسخ
السنة بالقرآن وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس، وليس فى ذلك
قرآن، فلم يكن الحكم إلا من جهة السنة، ثم نسخ ذلك بالقرآن، وفيها دليل على جواز
القطع بخبر الواحد، وذلك أن استقبال بيت المقدس كان مقطوعاً به من الشريعة
عندهم، ثم أن أهل قباء لما أتاهم الآتى، وأخبرهم أن القبلة تحولت إلى المسجد الحرام،
قبلوا قوله، واستداروا نحو الكعبة، فتركوا المتواتر بخبر الواحد، وهو مظنون * وفى الطبرى
(ج ٢ ص ٣) عن ابن عباس قال: لما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت فى
رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتى
رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف
ونافع بن أبى نافع هكذا قال ابن حميد: وقال أبو كريب، ورافع بن أبى رافع، والحجاج
بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، والربيع بن الربيع بن الحقيق، وكنانة بن أبى
الحقيق. فقالوا: يا محمد ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة
ابراهيم ودينه، أرجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك، وإنما يريدون فتنته عن
دينه، فأنزل الله فيهم: «سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي
كَانُوا عَلَيْهَا» — إلى قوله — «إِلَّا لَتَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ» ثم
ذكر عدة روايات فى نفس المعنى وبألفاظ متقاربة لما ذكرت * وقوله تعالى «سَيَقُولُ
السُّفَهَاءُ» أتى بالسين مع ما مضى القول المذكور لاستمرارهم عليه. بناء على أن الآية
متقدمة فى نظم القرآن متأخرة فى النزول عن آية «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّمَاءِ»
كما ذكره ابن عباس وغيره. فعنى سيقول السفها أنهم يستمرون على هذا القول، وإن

كانوا قد قالوه، وحكمة الاستقبال أنهم كما قالوا ذلك في الماضي منهم أيضاً من يقوله في المستقبل وقوله «مِنَ النَّاسِ» في محل نصب على الحال من السفهاء، والعامل فيه سيقول، وهى حال مبينة فإن السفه كما يوصف به الناس يوصف به غيرهم من الحيوان والجماد، وكما ينسب القول إليهم حقيقة ينسب لغيرهم مجازاً، فرغ المجاز بقوله من الناس. «مَا وَلَاَهُمْ» أى أى شىء صرفهم «عَنْ قِبَلْتَهُمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيَّهَا» فاهنا استفهامية، والجملة بعدها خبرها، وهى مع خبرها في محل نصب بالقول، والاستفهام لإلنكار. أى أى شىء، وأى سبب اقتضى انصرفهم عن قبلتهم التى كانوا عليها. أى لأى سبب يقتضى ذلك، وإنما هو من تشبههم وتصرفهم برأيهم، ومحصل الجواب المذكور بقوله «قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ» بيان السبب المقتضى لذلك، وهو إرادة المالك المختار. والقبلة هى التى يستقبلها الإنسان، وإنما سَمِيَتْ قبلة لأن المصلى يقابلها وتقابله، ولما قال السفهاء ذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: «قُلْ» يا محمد «اللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ» يعنى أن له قطرى المشرق والمغرب، وما بينهما ملكا، فلا يستحق شىء أن يكون لذاته قبلة لأن الجهات كلها شىء واحد، وإنما تصير قبلة لأن الله تعالى هو الذى جعلها قبلة فلا اعتراض عليه، وبعبارة أخرى فيأمر بالتوجه إلى أى جهة شاء. أى لا يختص به مكان دون مكان لخاصة ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه، وإنما العبرة بارتسام امره أى امتثاله لا بخصوص المكان، وتخصيص هاتين الجهتين بالذكر لمزيد ظهورهما حيث كان أحدهما مطلع الأنوار والاصباح والآخر مغربا، ولكثرة توجه الناس إليهما لتحقيق الأوقات لتحصيل المقاصد والمهمات «يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» هدايته من عباده بالتوجه إليها. «إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» يعنى إلى جهة الكعبة، وهى قبلة ابراهيم عليه السلام «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا» الكاف في قوله: وكذلك. كاف التشبيه جاء لمشبه به، وفيه وجوه* أحدها إنه معطوف على ما تقدم من قوله في حق ابراهيم «وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا - وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»* الثانى: أنه معطوف على قوله «يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» وكذلك هَدَيْنَاكُمْ وَجَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا* الثالث: قيل: معناه كما جعلنا قبلكم وسطاً بين المشرق والمغرب - كذلك جعلناكم أمة وسطاً. يعنى عدولاً خياراً. أى مزكين بالعلم والعمل أى ممدوحين بها لأن الوسط مستلزم للخيار والعدول. وأصل الوسط مكان تستوى إليه المساحة من سائر الجوانب، ثم استعير للخصال

المحمودة، ثم اطلق على المتصف بها، والآية دلت على أن الاجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانتلمت به عدالتهم. أى اختلت. «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» وذلك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ثم يقول لكفار الأمم: ألم يأتكم نذير؟ فينكرون ويقولون ما جاءنا من نذير، فيسأل الله الأنبياء عن ذلك، فيقولون كذبوا، قد بلغنا فسألهم البينة— وهو أعلم بهم — إقامة الحجة، فيقولون: أمة محمد صلى الله عليه وسلم تشهد لنا، فيؤتى بأمة محمد عليه الصلاة والسلام، فيشهدون لهم أنهم قد بلغوا، فتقول الأمم الماضية: من أين علموا، وإنما كانوا بعدنا؟ فيسأل الله تعالى هذه الأمة: فيقولون: أرسلت إليهم رسولاً، وأنزلت علينا كتاباً أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل، وأنت صادق فيما أخبرت، ثم يؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته فيزيكهم ويشهد بصدقهم. (الخازن ج ١ ص ٨٩) * «وَمَا جَعَلْنَا» صَيَّرْنَا «الْقِبْلَةَ» لك الآن الجهة «الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا» أولاً، وهى الكعبة، وكان صلى الله عليه وسلم يصلى إليها، فلما هاجر أمر باستقبال بيت المقدس تألفاً لليهود، فصلى إليها ستة أو سبعة عشر شهراً، ثم حول... «إِلَّا لِنَعْلَمَ» علم ظهور. وهو استثناء مفرغ من أعم العلل. أى وما جعلنا ذلك لشيء من الأشياء إلا لنتحن الناس. أى نعاملهم معاملة من يمتحنهم، فنعلم حينئذ من يتبع الرسول فى التوجه إلى ما أمر به من الدين أو القبلة. والالتفات إلى الغيبة مع إيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للإشعار بعلية الاتباع * (أبو السعود) * وقوله، علم ظهور. جواب عما يفهم من الآية من حدوث العلم، فأجاب بأن المراد إلا ليظهر علمنا من يتبع الخ.. فالذى يتجدد ظهور العلم لا نفسه.. وفى الحقيقة الذى يحدث متعلق العلم وهو إيمان بعض وكفر بعض * (وفى الخازن) والمعنى. لنعلم العلم الذى يستحق العامل عليه الثواب والعقاب. وقيل: العلم هنا بمعنى الرؤية أى لنرى ونميز من يتبع الرسول فى القبلة ممن ينقلب على عقبيه، وقيل: معناه إلا لتعلم رسلى وحزبى وأوليائى من المؤمنين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وكما من شأن العرب إضافة ما فعله الأتباع إلى الكبير كقولهم: فتح عمر العراق، وجبى خراجها، وإنما فعل ذلك أتباعه عن أمره. وقيل: إنما قال إلا لتعلم، وهو بذلك عالم قبل كونه على وجه الرفق بعباده ومعناه إلا لتعلموا أنتم إذ كنتم جهالاً به قبل كونه، فإضافة العلم إلى نفسه رفقا بعباده المخاطبين. وقيل: معناه لعلمنا لأنه تعالى سبق فى علمه أن تحويل القبلة سبب هداية قوم وضلالة

آخرين. ومعنى من يتبع الرسول أى يطيعه فى امر القبلة وتحويلها «مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ» أى يرجع إلى ما كان عليه من الكفر فيرتد. وفى الحديث أنه لما تحولت القبلة إلى الكعبة ارتد قوم إلى اليهودية، وقالوا: رجع محمد إلى دين آباءه. «وَأِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ» أى وكانت القبلة المحولة شاقة ثقيلة على من ألف التوجه إلى القبلة الأولى، فإن الإنسان ألوف لِمَا يتعوده، وثقل عليه الانتقال منه، إلا على الذين هداهم الله بمعرفة أحكام دينه وسر تشريعه، فعلموا أن التعبد باستقبالها إنما يكون بطاعة الله بها، لا بسرِّ فى ذاتها أو مكانها، وأن الحكمة فى اختيار قبلة ما هو اجتماع الأمة عليها، وهو من أسباب اتحادهم وجمع كلمتهم.

«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» يعنى صلاتكم إلى بيت المقدس، وذلك أن حىي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا للمسلمين، أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس، إن كانت على هدى فقد تحوّلتم عنه وإن كانت على ضلالة فقد دتم الله بها مدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة. فقال المسلمون: إنما الهدى فيما أمر الله به، والضلالة فيما نهى الله عنه. قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا، وكان قد مات قبل تحول القبلة إلى الكعبة، أسعد بن زرارة من بنى النجار، والبراء بن معرور من بنى سلمة وكانا من النقباء، ورجال آخرون، فانطلق عشائرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله: قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فأنزل الله تعالى «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» يعنى صلاتكم إلى بيت المقدس. «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ» يعنى لا يضيع أجورهم، والرفقة أحص من الرحمة، وأرق، وقيل: الرفقة الرحمة، وقيل: الفرق بين الرفقة والرحمة، أنّ الرفقة مبالغة فى رحمة خاصة وهى دفع المكروه، وإزالة الضرر، وأمّا الرحمة فإنها اسم جامع يدخل فى ذلك المعنى، ويدخل فيه أيضاً جميع الافضال والانعام فذكر الله الرفقة أولاً بمعنى أنه لا يضيع أعمالهم، ثم ذكر الرحمة ثانياً لأنها أعم وأشمل (الخازن ج ١ ص ٩٠) * وفى الخطيب «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ» ثباتكم على الإيمان، وأنكم لم تُزلزلوا ولم تترائبوا بل شكر سعيكم، وأعدّ لكم الثواب العظيم. أو صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يثيبكم عليها لأن سبب نزولها أن حىي بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا: للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس إلى آخر ما تقدم * وفى القرطبي:

«وما كان الله ليضيع إيمانكم» اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصل إلى بيت المقدس كما ثبت في البخارى من حديث البراء بن عازب — كما تقدّم — والمراد بالإيمان الصلاة، وقد تظاهرت الروايات عليها. وإضافة الإيمان إلى الأحياء «إيمانكم» من باب الشفاق على أنفسهم خشية إحباط ثواب صلاتهم أيضاً نحو بيت المقدس، لذا وجّه الخطاب إلى الأحياء ودخل فيهم الموقى منهم وفي قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ» في هذا التركيب وما أشبهه محاورة في القرآن وغيره نحو «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظِلَّكُمْ» «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ» قولان: أحدهما قول البصريين، وهو أن خبر كان محذوف، وهذه اللام تُسمى لام الجحود ينتصب الفعل بعدها بإضمار أن وجوباً فينسبك منها ومن الفعل مصدر منجرٌ بهذه اللام، وتتعلق هذه اللام بذلك الخبر المحذوف والتقدير، وما كان الله مريداً لإضاعة إيمانكم، وشرط لام الجحود عندهم أن يتقدّمها كون منفي، واشترط بعضهم مع ذلك أن يكون كوناً ماضياً، ويفرق بينها وبين لام كى ما ذكرنا من اشتراط تقدّم كون منفي، ويدل على هذا مذهب البصريين التصريح بالخبر المحذوف في قوله: سَمَوْتَ وَلَمْ تَكُنْ أَهْلًا لِتَسْمُوهُ والقول الثاني: للكوفيين، وهو أن اللام وما بعدها في محل الخبر، ولا يقدران شيئاً، وإن اللام للتوكيد. (سمين) وقوله: «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ» تعليل لما قبله.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» سورة البقرة (آية: ١٤٦، ١٤٧)

قال الواحدى في أسباب النزول: نزلت في مؤمنى أهل الكتاب: عبدالله بن سلام، وأصحابه كانوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته وبعثه في كتابهم، كما يعرف أحدهم ولده إذا رآه مع الغلمان، قال عبدالله بن سلام: لأننا أشدّ معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم متى باني، فقال له عمر بن الخطاب: كيف ذاك يا ابن سلام؟ قال: لأنى أشهد أن محمداً رسول الله حقاً يقيناً، وأنا لا أشهد بذلك على ابني لأنى لا أدري ما أحدث النساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام. وفي القرطبي: وروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام — بفتح السين واللام — أتعرف محمداً صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم، وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته

فعرفته، وإني لا أدري ما كنا من أمه وقيل: «يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ»، أي البيت الحرام هو القبلة. ولا يخفى بعده بل يحمل الأمر على العموم في قوله: «لَيْكُتْمُونَ الْحَقَّ» وذلك الحق هو القبلة التي وجه الله عز وجل إليها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فكتمتها اليهود والنصارى وكتموا كذلك أمر محمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فأطلع الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وأمتة على خيانتهم بكتمان ذلك، وذلك قوله تعالى: «لَيْكُتْمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أن كتمان الحق معصية «الْحَقِّ» أي الذين يكتمونونه هو الحق «مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِتِينَ» أي من الشاكين في أن الذين تقدّم ذكرهم علموا صحة نبوتك، وقيل: يرجع إلى أمر القبلة، المعنى أن بعضهم عاند وكتّم الحق فلا تشك في ذلك، قال الخازن: فإن قلت النبي صلى الله عليه وسلم لم يتر ولم يشك فما معنى هذا النهي؟ قلت: هذا الخطاب وإن كان للنبي صلى الله عليه وسلم، ولكن المراد غيره، والمعنى فلا تشكوا أنتم أيها المؤمنون قلت: وهم غير راسخي الإيمان من أمتة، ممن يخشى عليهم أن يغتروا بزخرف القول من أولئك المخادعين الذين جعلوا همهم إشعال نار الفتنة بين المؤمنين، وفي الطبري (جـ ٢ ص ١٧) أوقع الشك على القبلة فعن الربيع قال: قال الله تعالى ذكره لنبيه عليه السلام: «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِتِينَ» يقول: لا تكن في شك أنها قبلتك وقبلة الأنبياء من قبلك وكذا قال ابن زيد: ولعلّه لا يخلوا من الصحة والله أعلم. قال أبو جعفر الطبري: فإن قال لنا قائل: أو كان النبي صلى الله عليه وسلم شاكاً في أن الحق من ربه، أو في أن القبلة التي وجهه الله إليها حق من الله تعالى ذكره حتى نهى عن الشك في ذلك، فقييل له: «فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُؤْمِتِينَ» قيل: ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم والنهي له، والمراد به أصحابه المؤمنون به.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ» سورة البقرة (آية: ١٥٤)

ذكر الواحدى في أسباب النزول : أنها نزلت في قتلى بدر، وكانوا بضعة عشر رجلاً، ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين، وذلك أن الناس كانوا يقولون للرجل يقتل في

سبيل الله مات فلان، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها، فأنزل الله هذه الآية. وهذا تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يُحسُّ به من الحيوانات، وإنما هي أمرٌ لا يُدرك بالعقل، بل بالوحى كذا قاله البيضاوى. وقال الخطيب في تفسيره: وهذا ما عليه أكثر المفسرين. قال ابن عادل: ويحتمل أن حياتهم بالجسد وإن لم تُشاهد و يؤيد بأن الروح ثابتة لجميع الأموات بالاتفاق، فلوم تكن حياة الشهيد بالجسد لاستوى هو وغيره، ولم تكن له مزية، ويمكن اعتماده بأن الأرض لا تبلى أجسامهم وأن أزواجهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة، وتأوى إلى قناديل تحت العرش، كما ورد به الخبر الصحيح، ولذا فإنهم فضّلوا على غيرهم بأنهم يرزقون من مطاعم الجنة وما كلفها، وغيرهم من المؤمنين منعمون بما دون ذلك. وعن الحسن أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أزواجهم على أزواجهم، فيصل إليهم الرّوح، أي الاستراحة، والتلذذ والتنعم والفرح كما تعرض النار على أرواح فرعون غدّواً وعشياً، فيصل إليهم الوجع والغم، بينا الشهداء لهم مزيد انعام من الله تعالى كل يوم بكرة وعشياً. والأرواح جواهر قائمة بأنفسها تبقى بعد الموت داركة، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، ونطقت به الآيات والسّنن. وفي لباب السيوطى: عن عباس قال: قتل تيم بن الحمام ببدر، وفيه وفي غيره نزلت «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ» الآية، قال أبو نعيم: اتفقوا على أنه عمير بن الحمام. وأنّ السدئى صحفه. وفي الخازن (ج ١ ص ٩٥) نزلت فيمن قتل ببدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين، وهم عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وعمير بن أبى وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة الزهرى أخو ابن أبى وقاص، وذو الشمالين: واسمه عمير بن عبد عمرو بن العاص بن نضلة بن عمرو بن خزاعة، ثم بنى غبشان، وعافل بن البكير من بنى سعد بن ليث بن كنانة، ومهجع مولى لعمر بن الخطاب، وصفوان بن بيضاء من بنى الحارث بن فهر، ومن الأنصار ثمانية، وهم سعد بن خيشمة ومبشر بن عبد بن المنذر، ويزيد بن الحارث بن قيس بن فسح، وعمير بن الحمام، ورافع بن المعلى، وحارثة بن سراقه، وعوف ومعوذ ابنا الحارث بن رفاعه بن سواد، وهما ابنا عفراء، وهي أمها كان الناس يقولون لمن قتل في سبيل الله مات فلان، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقيل: إن الكفار والمنافقين قالوا: إن الناس يقتلون أنفسهم ظلماً لمرضاة محمد من غير فائدة فنزلة هذه الآية، وأخبر أن

من قتل في سبيل الله فإنه حيٌّ وفي غرائب القرآن لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري: قال: إن أكثر المفسرين على أنهم أحياء في الحال، فمن الجائز أن يجمع الله تعالى من أجزاء الشهيد جملة فيحيها ويوصل إليها النعيم، وإن كانت في حجم الذرة فيرى معظم جسد الشهيد ميتاً، فلا يحسُّ بحياته، وإليه الإشارة بقوله: «وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ» وما يؤيد هذا القول الآيات الدالة على إثبات عذاب القبر «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا» أي غِرِفُوا فَأَدْخِلُوا النار والفاء للتعقيب، وقال صلى الله عليه وسلم: [القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران] * وقيل المعنى لا تُسْمُوهم بالأموات وقولوا لهم الشهداء الأحياء، أو المراد قولوا هم أحياء في الدين وأنهم على هدى ونور من رهم لا كما يزعم المشركون أنهم ليسوا من الدين في شيء * والمعنى: ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هو ميت، فإن الميت من الخلق من سلبته حياته، وأعدمته حواسه، فلا يلتذُّ لذة ولا يدرك نعيماً، فإن من قتل منكم ومن سائر خلقي في سبيلي أحياءٌ عندي في حياة ونعيم وعيش هني ورزق سني، فرحين بما آتيتهم من فضلي وحببتهم به من كرامتي * وعن مجاهد في قوله تعالى: «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» من ثمر الجنة، ويجدون ريحها، وليسوا فيها * وعن قتادة قوله: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ» كما يحدث أن أرواح الشهداء تعارف في طير بيض يأكلن من ثمار الجنة، وإن مساكنهم سدرة المنتهى، وإن للمجاهدين في سبيل الله ثلاث خصال من الخير من قُتِلَ في سبيل الله منهم صار مرزوقاً، ومن غلب آتاه الله أجراً عظيماً، ومن مات رزقه الله رزقاً حسناً * وقد تظاهرت هذه الدلائل على أن الشهداء مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها في برزخهم قبل بعثهم، ومنعمون بالذي ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر من لذيذ مطاعمها الذي لم يطعمها الله أحداً غيرهم في برزخه قبل بعثه فيها كانوا أحياء يرزقون، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء، أو قال قبة في روضة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً * وقوله: أرواحهم في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت. بمعنى أن الطيور للأرواح كاهواج للجالس فيها، وهذا مما يدل على أن حياتهم ليست بالجدس، ولا من جنس ما يحس من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك إلا بالكشف والوحى. هذا ما عليه أكثر المفسرين. والله أعلم. والأصح أن نؤمن بذلك،

ولا نبحت عنه لأنه من عالم الغيب، فنفوض الأمر إلى الله.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ» سورة البقرة (آية: ١٥٨)

روى الواحدى عن عائشة رضي الله عنها: [قالت نزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يحجون لمناة، وكانت مناة حذو قُدد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية] رواه البخاري عن عبدالله بن يوسف عن مالك * وروى البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك رضى الله عنه عن الصفا والمروة، فقال: كُنَّا نرى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ» * وقال عمرو بن الحسين: سألت ابن عمر عن هذه الآية فقال: انطلق إلى ابن عباس فسله، فإنه أعلم من بقى بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فأثبته فسألته، فقال: كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له إساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى نائلة، زعم أهل الكتاب أنها زنيا في الكعبة فسخها الله تعالى حجرتين، ووضعها على الصفا والمروة ليعتبر بهما، فلما طالت المدة عبدا من دون الله تعالى، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينها مسحوا الوثنين، فلما جاء الإسلام، وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف لأجل الصنمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وفي القرطبي: وذكر الصفا لأنَّ آدم وقف عليه، وأنثت المروة لأن حواء وقفت عليها * «مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» أي أعلام دينه، جمع شعيرة، وهي العلامة، أي من أعلام مناسكه وامتعباته... وفيه أيضاً. وعن ابن عباس قال: كان في الجاهلية شياطين تعزف الليل كله بين الصفا والمروة، وكان بينها آهة، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون: يا رسول الله لا تطوف بين الصفا والمروة فإنها شرك. فنزلت. وكذا في الطبري (ج ٢ ص ٢٨) * وفيه قال ابن زيد في قوله: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» قال: كان أهل الجاهلية قد وضعوا على كل واحد منها صنماً يعظمونها فلما أسلم المسلمون كرهوا الطواف بالصفا والمروة لمكان الصنمين. فقال الله تعالى: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» وقرأ

«ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب» وسَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما وعن قتادة قوله: «إِنَّ الصَّافَاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» الآية. فكان حتى من تهامة في الجاهلية لا يسعون بينها فأخبرهم الله إن الصفا والمروة من شعائر الله، وكان من سُنَّة إبراهيم وإسماعيل الطواف بينهما والصفا جمع صفاة، وهى الصخرة الصلبة الملساء، وقيل هي الحجارة الصافية، وفي اللسان قال ابن السكيت: الصفا العريض من الحجارة الأملس: جمع صفاة يكتب بالالف. فإذا ثنَّى قيل صفوان، وهو الصَّفَواء أيضاً، ومنه الصفا والمروة، هما جبلان بين بطحاء مكة والمسجد. والمروة الحجر الرخو، وجمعها مرو ومروات، وهذان أصلهما في اللغة، وإنما عنى الله بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفي المسعى بينها من المسافة مقدار (٧٦٠ ذراعاً) والصفا تجاه البت الحرام، والآن عليهما المباني وصار بينهما سوقاً. ولذلك أدخل فيها الألف واللام، وكل ما كان معلماً لقربان يتقرَّب به إلى الله تعالى من صلاة ودعاء وذبيحة فهو شعيرة من شعائر الله، ومشاعر الحج معالمه الظاهرة للحواس، ويقال شعائر الحج، فالمطاف والموقف والمنحر كلها شعائر، والمراد بالشعائر هنا المناسك التي جعلها الله أعلاماً لطاعته، فالصفا والمروة منها حيث يُسعى بينها وقوله: «مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» أي لا من شعائر الجاهلية كما كان كذلك أولاً: «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ» أي قصد البيت، هذا أصله في اللغة، وفي الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة لإقامة المناسك، من شرطية في محل رفع بالابتداء، وحج في محل جزم بالشرط والبيت نصب على المفعول به لا على الظرف، والجواب قوله فلا جناح «أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» أي يدور بهما ويسعى بينهما. وفي الخازن (ج ١ ص ٩٧) اختلف العلماء في حكم (السعى) بين الصفا والمروة في الحج والعمرة. فذهب جماعة إلى وجوبه وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة وبه قال الحسن، وإليه ذهب مالك والشافعي، وذهب قوم إلى أنه تطوُّع، وهو قول ابن عباس، وبه قال ابن سيرين، وذهب الثوري وأبو حنيفة إلى أنه ليس بركن، وعلى من تركه دم، وروى عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء أنَّ من تركه فلا شيء عليه، واختلفت الرواية عن أحمد في ذلك فروى عنه أنَّ من ترك السعى بين الصفا والمروة لم يجزه حجُّه، وروى عنه أنه لا شيء في تركه عمداً ولا سهواً، ولا ينبغي أن يتركه، ونقل الجمهور عنه أنه تطوُّع. وسبب هذا الإختلاف أن قوله تعالى: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» يصدق عليه أنه لا إثم عليه في فعله فدخل تحته الواجب والمندوب والمباح،

فظاهر هذه الآية لا يدل على أنَّ السَّعى بين الصَّفا والمروة واجب، أو ليس بواجب لأنَّ اللفظ الدَّال على القدر المشترك بين الأقسام الثلاثة لا دلالة فيه على خصوصية أحدهما فإذا لا بُدَّ من دليل خارج يدل على أنَّ السَّعى واجب، أو غير واجب. فحجَّة الشافعي، ومن وافقه في أن السَّعى بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة ماروى الشافعي بسنده عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتني بنت أبي تُجْزاة، واسمها حبيبة: إحدى نساء بني عبد الدَّار، قالت: دخلت مع نسوة من قريش دار آل أبي حُسين فنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسعى بين الصفا والمروة، فرأيته يسعى، وصححه الدار قطني* وروى الشيخان عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم رأيت قول الله: «إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» فما أرى على أحدٍ شيئاً أن لا يطَّوَّفَ بها. فقالت عائشة: كلاً، لو كان كما تقول كانت فلا جناح عليه أن لا يطَّوَّفَ بها إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار كانوا يهلون لمناة، وكانت مائة حدوٍ قَدَد، وكانوا يتحرَّجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلَمَّا جاء الإسلام سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى «إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...» الآية. وروى مسلم عن جابر في حديثه الطويل في صفة حجة الوداع، قال: ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله، أبدؤا بما بدأ الله به، فبدأ بالصَّفا: الحديث. فإذا ثبت أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم سعى وجب علينا السَّعى لقوله تعالى: «فَاتَّبِعُوهُ» ولقوله صلى الله عليه وسلم: [خُذُوا عَنِّي مَنْاسِكَكُمْ] والأمر للوجوب. ومن القياس أن السَّعى أشواط شرعت في بقعة من بقاع الحرم، ويؤتى به في إحرام كامل، فكان ركناً كطواف الزيارة واحتجَّ أبو حنيفة، ومن لا يرى وجوب السَّعى بقوله: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» وهذا لا يُقال في الواجبات، ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا» فبيَّن أنَّه تطوع وليس بواجب* وأجيب عن الأول بأن قوله تعالى: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ» ليس فيه إلا أنه لا إثم على فاعله، وهذا القدر مشترك بين الواجب وغيره، فلا يكون فيه دلالة على نفي الوجوب، وعن الثاني وهو التمسك بقوله تعالى: «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا» فضعيف لأن هذا لا يقضى أن يكون المراد من هذا التطوع هو الطواف المذكور أولاً، بل يجوز أن يكون المقصود منه شيئاً آخر يدل على ذلك قول الحسن أن المراد بقوله: «وَمَنْ

تَطَوَّعَ خَيْرًا» جميع الطاعات في الدين، يعني فعل فعلاً زائداً على ما افترض عليه من صلاة وصدقة وصيام وحج وعمرة وطواف وغير ذلك من أنواع الطاعات وقال مجاهد: «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا» بالطواف بها، وهذا على قول من لا يرى الطواف بها فرضاً وقيل معناه: ومن تطوع خيراً فزاد في الطواف بعد الواجب، والقول الأول أولى للعموم انتهى الخازن قال وفي الصحيحين قالت عائشة رضي الله عنها: ثم قد سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بها فليس لأحد أن يدع الطواف بها. ذكره ابن كثير في التفسير (ج ١ ص ١٩٩) وفيه: وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ» قال أبو بكر بن عبد الرحمن فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء. وروى الإمام أحمد عن صفية بن شيبة أن امرأة أخبرتها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الصفا والمروة يقول: [كتب عليكم السعي فاسعوا] وهو دليل الشافعي ومن وافقه لأن فاسعوا أمر، والأمر يقتضي الوجوب، وعلى الأخص إذا حُفَّتْ به قرينة وهو فعل النبي صلى الله عليه وسلم له وقيل: إنه واجب وليس بركن فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة، وقال ابن كثير: والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينها وقال: خذوا عني مناسككم، فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج إلا ما خرج بدليل، والله أعلم. وينبغي على الساعي بينها — اقتداءً بأسماعيل هاجر زوج الخليل إبراهيم عليه السلام — أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه، وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبت عليه إلى مماته، أون يحول من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام «وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ» شاكرٌ لعلمه بالإثابة عليه «عليمٌ» بنيته. قال الخطيب في تفسيره: الشكر من الله أن يعطي العبد فوق ما يستحقه، فإنه يشكر اليسير، ويعطي الكثير. وفي الخازن (ج ١ ص ٩٨) «فإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ» أي مجاز على الطاعة «عليمٌ» أي بنيته. وحقيقة الشاكر في اللغة: هو المظهر للإنعام عليه، والشكر هو تصور النعمة، وإظهارها، والله تعالى لا يوصف بذلك لأنه لا يلحقه المنافع والمضار، فالشاكر في صفة الله تعالى مجاز، فإذا وصف به أريد به أنه المجازي على

الطاعة بالثواب، إلا أنَّ اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد مظهرة في الإحسان إليهم* وفيه إشارة إلى الوثوق بوعده، وعظيم إحسانه، وفي غرائب القرآن: وعن النبي صلى الله عليه وسلم: [من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر] وقال يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين. ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أترضى أن نجزيك كما جزينا الشاكر، فيقول نعم يارب، فيقول تعالى: لقد أنعمتُ عليك فشكرت، وابتليتك فصبرت لأضعفَنَ لك الأجر، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين* فيكون معنى «شاكرٌ» أي مجازهم على الطاعة، سمي الطاعة شكراً تشبيهاً بجزاء النعمة، وفيه تلطف للعباد كما تقدم مثل «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنًا». كأنه يقول إني وإن كنت غنياً عن طاعتك إلا أنى أجعل لها من الموقع ما لوصح عليّ أن انتفع بها لما ازداد وقعه على ما حصل. عليم بالسرائر فيوفى كل ذي حق حقه وهو وعدٌ ليناسب قرينة الشكر، وإن كان أيضاً يحتمل التحذير من الاخلال بوظائف الاخلاص في العبادة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» سورة البقرة (آية: ١٥٩)

ففي الواحدى: نزلت في علماء أهل الكتاب لكتمانهم آية الرجم، وأمر محمد صلى الله عليه وسلم* وفي لباب السيوطى عن ابن عباس قال: سأل معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجة بن زيد نفرأ من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة، فكتموها إيآهم، وأبوا أن يخبروهم، فأنزل الله فيهم «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَاهْدَىٰ...» الآية* وفي الخطيب: تنبيهان: أحدهما، اختلف في هؤلاء اللاعنين، فقال ابن عباس رضي الله عنها جميع الخلائق إلا الجن والإنس* وقال عطاء: هم الجن والإنس، وقال الحسن: هم جميع عباد الله* وقال مجاهد: البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا أمسك المطر، وتقول هذه من شؤم ذنوب بنى آدم، ووردت مثل هذا الأخبار الكثيرة* ثانيها: هذه الآية توجب إظهار علوم الدين منصوبة ومستنبطة، وتدل على امتناع أخذ الأجرة على ذلك، وقد روى الأعرج عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه أنه قال: إنكم تقولون أكثر أبوهريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأيم الله لولا آية في كتاب الله ما حدثتُ أحداً بشيء أبداً، وتلا «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ...» الآية* وفي القرطبي:

واختلفوا من المراد بذلك «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى» فقيل
أحبار اليهود، ورهبان النصارى... وقيل: المراد كل من كتم الحق، فهي عامة في كل
من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بثه، وذلك مفسرٌ في قوله عليه الصلاة والسلام: [من
سئل عن علم — يعلمه — فكتمه أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار] أخرجه ابن ماجه
عن أبي هريرة، وعمر بن العاص، لكن قال القرطبي: و يعارضه قول عبدالله بن مسعود:
ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة وقال عليه الصلاة
والسلام: [حدثوا الناس بما يفهمون، أتحنون أن يكذب الله ورسوله] قال: وهذا محمول
على بعض العلوم كعلم الكلام، أو ما لا يستوى في فهمه جميع العلوم، فحكم العالم أن
يحدث بما يفهم عنه، وينزل كل إنسان منزلته وتحقيق الآي هو أن العالم إذا قصد
كتمان العلم عسى، وإذا لم يقصده لم يلزم التبليغ إذا عرفه أنه مع غيره، وأما من سئل
فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية وللحديث وكذا قاله القرطبي، وقال: ولا يجوز تعليم
الكافر القرآن والعلم حتى يسلم، وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجدال والحجاج ليجادل به
أهل الحق، ولا يُعلم الخصم على خصمه حجة يقطع بها ماله، ولا للسلطان تأويلاً يتطرق
به إلى مكاره الرعية، ولا ينشر الرخص في السفهاء فيجعل ذلك طريقاً لارتكاب
المحظورات، وترك الواجبات ونحو ذلك، يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا
تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تضعوها في غير أهلها فتظلموها] وروى عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه قال: [لا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير] يريد تعليم الفقه من ليس
أهله ودليل الكتمان لمن يفتتن به قول أبي هريرة رضي الله عنه قال: تحفظت عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم وعائين، فأما أحدهما فبثته، وأما الآخر فلو بثته قطع هذا
البلعوم. أخرجه البخارى وفسر العلماء قوله هذا بأن الذي لم يبثه يتعلق بأمر الفتن،
والنص على أعيان المرتدين والمنافقين. وهذا مما لا يتعلق بالبينات والهدى. وقوله:
«يَلْعَنَهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» قال: دواب الأرض لما رواه البراء بن عازب عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم. أخرجه ابن ماجه عن محمد بن الصباح وإسناده حسن.
وقال البراء بن عازب وابن عباس «اللَّاعِنُونَ» كل المخلوقات ما عدا الثقلين: الجن
والإنس، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الكافر إذا ضرب في قبره فصاح،
سمعه الكل إلا الثقلين ولعنه كل سامع] وقال ابن مسعود والسدي: هو الرجل يلعن

صاحبه فترتفع اللعنة إلى السماء، ثم تنحدر فلا تجد صاحبها الذي قيلت فيه أهلاً لذلك، فترجع إلى الذي تكلم بها فلا تجده أهلاً، فتنتقل فتقع على اليهود الذين كتموا ما أنزل الله تعالى فهو قوله: «وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» فن مات منهم ارتفعت اللعنة عنه، فكانت فيمن بقى من اليهود والكتمان: تارة يكون بستر الشيء وإخفائه، وتارة أخرى بإزالته، ووضع آخر مكانه، واليهود فعلوا في التوراة كليهما، فقد أخفوا حكم رجم الزاني، وأنكروا بشاراة التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وتعسفوا في تأويل ما ورد فيها من ذلك على وجه لا ينطبق على محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك فعلوا بالدلائل الدالة على نبوة عيسى عليه السلام وزعموا أنها لغيره، وأنهم لا يزالون إلى الآن ينتظرونه، والبيئات: هى الأدلة الواضحة الدالة على أمر محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الرجم، وتحويل القبلة، والهدى: هو ضروب الإرشاد التي فيها، والكتاب يراد به الكتب المنزلة جميعاً. واللعن: الابعاد والطرده. قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون: أي الملائكة والمؤمنون على الصحيح لأنهم هم المؤهلون لذلك غضباً لله تعالى. إذ لا خلاف في جواز لعن الكفار. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره. فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأتياً لا ندرى بما يحتم الله له. والدليل على الأول قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» فالكافرون من غير المؤمنين كافرون وهم الملعونون. وأتى بصلة الذين فعلاً مضارعاً. وكذلك بفعل اللعنة دلالة على التجدد والحدوث، وأن هذا يتجدد وقتاً فوقتاً، وكررت اللعنة تأكيداً في ذمهم.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَالْهَكْمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِبُ الرِّيحُ الرِّجَالَ وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»
سورة البقرة (آية: ١٦٣، ١٦٤)

ذكر الواحدى في أسباب النزول عن عطاء: قال أنزلت بالمدينة على النبي صلى الله عليه وسلم «وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» فقالت كفار قريش بمكة كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» حتى بلغ «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» وفي رواية عن أبي الضحى قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ «وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ...» تعجب المشركون وقالوا: إله واحد!! إن كان صادقاً فليأتنا بآية فأنزل الله تعالى «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...» إلى آخر الآية «بِعَقْلُونَ» وكذا في الخازن (ج ١ ص ٩٩) وفيه في قوله عز وجل «وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ» سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه، فأنزل الله هذه الآية وسورة الإخلاص، ومعنى الوحدة: الانفراد، وحقيقة الواحد هو الشيء الذي لا يتبعض، ولا ينقسم، والواحد في صفات الله أنه واحد لا نظير له، وليس كمثل شيء، وقيل: واحد في ألوهيته، وربوبيته، ليس له شريك لأن المشركين أشركوا معه الآلهة فكذبهم الله تعالى بقوله وإلهكم إله واحد، يعنى لا شريك له في ألوهيته ولا نظير له في الربوبية. والتوحيد هو نفي الشريك والقسم والشبيه، فالله تعالى واحد في أفعاله لا شريك له يُشاركه في مصنوعاته، وواحد في ذاته لا قسم له، وواحد في صفاته لا يُشبهه شيء من خلقه * وأمّا أنه واحد في أفعاله فلأن ما سواه ممكن الوجود لذاته، وبقدر البون بين الواجب للذات، والممكن للذات يوجد التفاوت بين فعليهما إن فرض للممكن فعل من نفسه قال تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِتُّكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» ثم أنه تعالى خصّ الموضوع بذكر الرحمن الرحيم، لأنّ ذكر الألّهية والفردانية يفيد القهر والعلو. فعقبها بذكر الصفتين ترويحاً للقلوب عن هيبة الإلهية، وعزة الفردانية، وإشعاراً بأنه ما خلق الخلق إلا للرحمة والإحسان * وأمّا أنه واحد في ذاته فلأنه لو شاركه غيره في حقيقته لزم تركيبه ممّا به الإشتراك وما به الإمتياز، وكل مركب مفتقر وكل مفتقر ممكن * وأمّا أنه واحد في صفاته فلأن صفات غيره من غيره، وصفاته من نفسه، ولأن صفات غيره زمانية دون صفاته، ولأن صفات غيره متناهية، وصفاته غير متناهية كعلمه مثلاً فإن له معلومات غير متناهية، بل له في كل معلوم علوم غير متناهية بحسب أحياز ذلك المعلوم وأوقاته وسائر أحواله، ولأن موصوفية ذاته بالصفات ليست

بمعنى كونها حالة في ذاته، وكون ذاته محلاً لها، ولا بمعنى أن ذاته تُستكمل بها لأن ذاته كالبدء لتلك الصفات، ولن يستكمل المبدأ بما عن المبدأ بل ذاته مستكاملة بذاته، ومن لوازم ذلك الاستكمال الذاتي تحقق صفات الكمال، وقد يفضي التقرير هنا إلى حيث تقصر العبارة عن الوفاء به، وذلك أنه لا خبر عند العقول من صفاته كما أنه لا خبر عندها من ذاته، فإنه لا نعرف من علمه إلا أنه الأمر الذي لأجله ظهر الأحكام والاتقان في المخلوقات، كما أننا لا نعلم من ذاته إلا أنه مبدأ جميع الممكنات. مَنْ طُبع على قلبه — والعياذ بالله — منى بالخذلان. ومن كشف له الغطاء — برحمة من الله — صار حيران. فلا إحاطة لذرة الماء بكرة الماء ولا ظهور لضوء السهى عند حلول الشمس كبد السماء. قال أحد العارفين في هذا المعنى:

أُظِرْفَتْ مِنْ إِجْلَالِهِ	أَشْتَأْفُهُ فَإِذَا بَدَا
وَصَيَانَةً لِحَمَالِهِ	لَا خِيْفَةَ بَلْ هَيْبَةً
وَالْعَيْشُ فِي إِقْبَالِهِ	فَالْمَوْتُ فِي اذْبَارِهِ
وَأَرْوَمٌ طَيِّفٌ خِيَالِهِ	وَأَصْدٌ عَنْهُ إِذَا بَدَا

«لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» * وقوله «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» تقرير للوحدانية بنفى غيره من الألوهية، وإثباتها له سبحانه وتعالى «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» * يعني أنه المولى لجميع النعم وأصولها وفروعها فلا شيء سواه بهذه الصفة لأن كل ما سواه إمّا بنعمة وإمّا بمنعم عليه. وهو المنعم على خلقه الرحيم بهم * وعن أسماء بن يزيد قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين] «وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» * وفتح آل عمران «الْم * الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» [أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث صحيح * وفي الطبري (ج ٢ ص ٣٧) عن سعيد قال: سألت قريش اليهود، فقالوا حدّثونا عما جاءكم به موسى من الآيات، فحدّثوهم بالعصا، وبيده البيضاء للناظرين، وسألو النصارى عما جاء به عيسى من الآيات، فأخبروهم أنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله، فقالت قريش عند ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً، فنزداد يقيناً، ونتقوى به على عدوّنا، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ربّه فأوحى إليه أنى معطيهم، فأجعل لهم الصفا ذهباً، ولكن إن كذبوا عدّبتهم

عذاباً لم أعذبه أحداً من العالمين. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ذرني وقومي فأدعوهم يوماً بيوم. فأنزل الله تعالى «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...» الآية أَنَّ فِي ذَلِكَ لآية لهم إن كانوا إنما يريدون أن جعل لهم الصفا ذهباً، فخلق الله السموات والأرض واختلاف الليل والنهار أعظم من أن أجعل لهم الصفا ذهباً ليزدادوا يقيناً * وعن السدي «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: غير لنا الصفا ذهباً إن كنت صادقاً أنه منه، فقال الله إِنَّ هَذِهِ الْآيَاتُ لآيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. وقال: قد سألت الآيات قومٌ قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين.

«خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» جمع السموات. وأفرد الأرض. قال البيضاوي: بَأَنَّ السَّمَاوَاتِ طبقات متفاصلة بالذات، مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرضين * وقال الخطيب: وهذا إنما يأتي على قول بعض الحكماء أن المراد بالأرضين. الأقاليم * والأولى ما أجاب به البغوي. من أَنَّ كلاً منها جنسٌ آخر. والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب. أي فهي طبقات كالسَّمَاوَاتِ، والآية في السَّمَاوَاتِ: سمكها وارتفاعها من غير عمد ولا علاقة، وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك، والآية في الأرض مدها وبسطها وسعتها، وما يرى فيها من الأشجار والأنهار والجبال والبحار، والجواهر والنبات وغير ذلك (الخطيب) * وفي الخازن (ج ١ ص ٩٩) «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» وَعَلَّمَهُ كَيْفِيَةَ الاسْتِدْلَالِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ الصَّانِعِ، وَرَدَّهُمْ إِلَى التَّفَكُّرِ فِي آيَاتِهِ وَالنَّظَرِ فِي عَجَائِبِ مَصْنُوعَاتِهِ، وَإِتْقَانِ أَعْمَالِهِ، فِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، إِذْ لَوْ كَانَ فِي الْوُجُودِ صَانِعَانِ لِهَذِهِ الْأَفْعَالِ لَاسْتِحَالَ اتِّفَاقُهُمَا عَلَى أَمْرٍ وَاحِدٍ، وَلَا امْتِنَعَ فِي أَعْمَالِهِمَا التَّسَاوَى فِي صِفَةِ الْكَمَالِ، فَيُثَبَّتُ بِذَلِكَ أَنَّ خَالِقَ هَذَا الْعَالَمِ وَالْمُدَبِّرَ لَهُ وَاحِدٌ قَادِرٌ مُخْتَارٌ * فَبَيْنَ سُبْحَانِهِ وَتَعَالَى مِنْ عَجَائِبِ مَخْلُوقَاتِهِ ثَمَانِيَةَ أَنْوَاعٍ:

أولها: قوله: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» وإنما جمع السموات لأنها من أجناس مختلفة، كل سماء من جنس غير جنس الأخرى، ووحدة الأرض لأنها جنس واحد وهو التراب (١) والآية في السماء هي سمكها وارتفاعها بغير عمد ولا علاقة وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم. والآية في الأرض مدها وبسطها على الماء، وما يرى

(١) وقد برهننتُ في كتابي سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية. الجزء الأول. أن الأرض سبع طبقات كما أن للسموات كذلك فن أراد الوقوف عليها فليرجع إليه فهو بحث نفيس جداً جداً. (المؤلف).

فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والأنهار والأشجار والثمار والنبات. (وقد برهنت في كتابي سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية أنها جميعاً من خلق الله، وأظهرت ما فيها من أسرار إلهية دالة على الحضرة الربانية) المؤلف.

النوع الثاني : قوله تعالى: «وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» أي تعاقبها في المجيء والذهاب وقيل اختلافهما في الطول والقصر والزيادة والنقصان والنور والظلمة، وإنما قدم الليل على النهار، لأن الظلمة أقدم، والآية في الليل والنهار أن انتظام أحوال العباد سبب طلب الكسب والمعيشة يكون في النهار، وطلب النوم والراحة يكون في الليل، فاختلاف الليل والنهار إنما هو لتحصيل مصالح العباد.

النوع الثالث : قوله تعالى: «وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ» أي السفن. واحده. وجمعه سواء. وسمى البحر بجزراً لا تساعه وانبساطه، والآية في الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء، وهي موقرة بالأثقال والرجال فلا ترسب، وجريانها بالرياح مقبلة ومدبرة وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجان البحر، فلا ينجى منه إلا الله تعالى.

النوع الرابع : قوله تعالى: «بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ» يعني ركوبها، والحمل عليها في التجارات لطلب الأرباح، والآية في ذلك أن الله تعالى لو لم يقو قلب من يركب هذه السفن لما تم الغرض في تجارتهم ومنافعهم، وأيضاً فإن الله تعالى خص كل قطر من أقطار العالم بشيء معين، وأحوج الكل إلى الكل، فصار ذلك سبباً يدعوهم إلى اقتحام الأخطار في الأسفار من ركوب السفن وخوض البحر وغير ذلك، فالحامل ينتفع لأنه يربح والمحمول إليه ينتفع بما حمل إليه.

النوع الخامس : قوله تعالى: «وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ» يعني المطر: قيل أراد بالسما السحاب سمي سماء لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء، خلق الله الماء في السماء، والسحاب، ومنه ينزل إلى الأرض، وقيل: أراد السماء بعينها، خلق الله الماء في السماء، ومنه ينزل السحاب، ثم منه إلى الأرض. «فَأَحْيَا بِهِ» أي بالماء «الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» أي يبسها وجديها، سماه موتاً مجازاً لأنها إذا لم تنبت شيئاً ولم يصبها المطر فهي كال ميتة. والآية في إنزال المطر، وإحياء الأرض به. إن الله تعالى جعله سبباً لإحياء الجميع من حيوان ونبات، ونزوله عند وقت الحاجة إليه بمقدار المنفعة، وعند الاستسقاء والدعاء، وإنزاله بمكان دون مكان.

النوع السادس : قوله تعالى: «وَبَتَّ» أي فرق «فِيهَا» أي في الأرض «مِنْ كُلِّ ذَاتَةٍ» قال ابن عباس: يريد كل مادبَّ على وجه الأرض من جميع المخلوقات من الناس وغيرهم. والآية في ذلك أن جنس الإنسان يرجع إلى أصل واحد وهو آدم ثم ما فيهم من الاختلاف في الصور والأشكال والألوان والألسنة والطباع والأخلاق. والأوصاف إلى غير ذلك، ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان — أي أن كل نوع يرجع إلى أصل واحد وما فيه من الاختلاف في الألوان والطباع، وقد أكد هذا العلم الحديث أن بني الإنسان يعودون إلى أصل واحد هو الإنسان القديم، أي آدم عليه السلام. وقد أقمت البرهان على ذلك في كل من كتابيَّ سبعون برهاناً علمياً... والحجج العصماء في نقض نظرية داروين في التَّشْوِء والارتقاء (المؤلف).

النوع السابع : قوله تعالى: «وَتَضْرِيْفُ الرِّيَّاحِ» يعني في مهاها قبولاً ودبوراً وشمالاً وجنوباً. ونكباء وهي الريح التي تأتي من غير مهتِّ صحيح، فكل ريح تختلف مهاها تسمى نكباء، وقيل تضريفها في أحوال مهاها لينة وعاصفة وحارة وباردة، وسميت ريحاً لأنها تريح. قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح. وقيل: ما هبت ريح إلاً لشفاء سقيم. أو ضده، وقيل البشارة في ثلاث رياح الصِّبا والشمال والجنوب. والدبور وهي الريح العقيم التي أهلكت بها عاد، فلا بشارة فيها، والآية في الريح أنها جسم لطيف لا يُمسك ولا يُرى، وهي ذلك في غاية القوة، تقلع الأشجار والصخر، وتُخرَّبُ البنيان العظيم، وهي مع ذلك حياة الوجود، فلو أمسكت طرفة عين لَمَاتِ الإنسان وكل ذى روح، وأنتن ما على وجه الأرض.

النوع الثامن : قوله تعالى: «وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّاءِ وَالْأَرْضِ» أي الغيم المذلل. سمي سحاباً لسرعة سيره كأنه يُسحب. والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظيمة، يبقى مُعلقاً بين السماء والأرض.

ففي هذه الأنواع الثمانية المذكورة في هذه الآية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار، وأنه الواحد في ملكه، فلا شريك له ولا نظير وهو المراد من قوله: «وَالْهَكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...» «(آيات)» جمع آية وهي الدلالة على وحدانية الصانع جل جلاله، وإنما جاء لفظ الآيات بصيغة الجمع لأن في كل واحد مما ذكر من هذه الأنواع آيات كثيرة تدل على أن لها خالقاً مدبراً مختاراً «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» ينظرون بصفاء عقولهم،

و يتفكرون بقلوبهم فيعلمون أن هذه الأشياء خالقاً مدبراً مختاراً وصانعاً قادراً على ما يريد. قال البيضاوى: وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله، وحث على البحث والنظر فيه. وتعلم أن الشافعى رحمه الله قد ذم علم الكلام واشتهر قوله فيه: لأن يلقى العبد ربّه بكل ذنب ما عدا الشرك خير له من أن يلقاه بعلم الكلام. وحمله العلماء على التوغل فيه فيصير الباحث فلسفياً. قلت: وفي الرياح. روى أبو داود عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الريح من روح الله تأتي بالرحمة، وتأتى بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوا، وأسألوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرها] كذا ورد في سنن أبي داود، وأخرجه أيضاً ابن ماجه فى سننه. وفي القرطبى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تَسُبُّوا الرِّيحَ فإنها من روح الله تأتي بالرحمة والعذاب، ولكن سلوا الله من خيرها وتعوذوا من شرها] وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [نُصِرْتُ بالصَّبَا وأهَلَكْتُ عَادُ بالدَّبُورِ] وفي التنزيل في غزوة الأحزاب قال الله تعالى في حق الكافرين ونصرة المؤمنين «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُحُودًا لَمْ تَرَوْهَا» وهى ريح الصبا. وقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» تقرير للوحدانية. لأن الاستثناء هنا إثبات من نفي، فهو بمنزلة البدل، والبدل هو المقصود بالنسبة، وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً، ولكن لا يستحق منهم العبادة. وقوله: «لَا إِلَهَ هُوَ» رفع على أنه بدل من إسم لا على المحل، إذ محله الرفع على الابتداء، أو هو بدل من لا وما عملت فيه لأنها وما بعدها في محل رفع بالابتداء، أي بدل من الضمير المستكن في الخبر أي لا إله كائن، أو موجود إلا الله. وقوله «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ» خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن الرحيم كما قدره الجلال. وقوله «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» الخلق. هنا بمعنى المخلوق إذ الآيات التي تشهد إنما هي في المخلوق الذي هو السموات والأرض، وحينئذٍ فالإضافة بيانية. والليل: اسم جنس يفرق بينه وبين واحده بالياء، فيقال ليل وليلة كتمر وتمرّة، والصحيح أنه مفرد، ولا يحفظ له جمع، ولذلك خطأ الناس من زعم أن الليالى جمع ليل بل الليالى جمع ليلة. وقدم الليل على النهار كما تقدم لأنه سابقه قال تعالى: «وَأَيُّ لَيْلٍ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ» وهذا أصح القولين: وقيل: النور سابق الظلمة. وقوله: «مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ» من الأولى معناها ابتداء الغاية أي إنزاله من جهة السماء، وأما الثانية فتُحتملُ ثلاثة أوجه. أحدها أن تكون

ليبان الجنس، فإن المنزل من السماء ماء وغيره، والثاني أن تكون للتبعيض فإن المنزل منه بعض لا كل، والثالث أن تكون هي وما بعدها بدلاً من قوله: «مِنَ السَّمَاءِ» بدل اشتمال بتكرير العامل، وكل من الأولى والثانية متعلق بأنزل. قوله: «فَأَحْيَا بِهِ» أي أظهر نضارتها وحسنها وقوله: «مِنَ كُلِّ ذَاتَةٍ» كل مفعول به لبث، ومن زائدة على مذهب الأخفش أو تبعيضية. وزيادتها أصح وذلك تأكيداً في مبالغة الخلق والبث. ولا يستقيم معنى البعضية إذ يصير المعنى وبث فيها بعض الدواب فيكون البعض الآخر مبعوث من نفسه بنفسه، قوله: «وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ» مصدر صَرَفَ ويجوز أن يكون مضافاً للفاعل والمفعول محذوف. أي وتصريف الرياح السحاب، فإنها تسوق السحاب. وأن يكون مضافاً للمفعول، والفاعل محذوف أي وتصريف الله الرياح... «وَالسَّحَابِ» مشتق من السحب لجرّ بعضه بعضاً «بَيْنَ السَّمَاءِ» في بين قولان: أحدهما أنه منصوب بقوله: المسخر بين فيكون ظرفاً للتسخير. والثاني يكون حالاً من الضمير المستتر في اسم المفعول فيتعلق بمحذوف أي كائناً بين السماء * وفي الحديث: [وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَمَجَّ بِهَا] المَجُّ قذف الريق ونحوه من الفم. والمراد عدم الاعتبار والاعتداد بها، إذ من تفكر فيها فكأنه حفظها ولم يلقها من فيه، وقال بعض العلماء: إن الله كتابين: كتاباً مخلوقاً هو الكون. وكتاباً منزلاً هو القرآن. ويرشدنا هذا إلى طرق العلم بذلك. بما أوتيناه من العقل، فن اعتبر بها وأوصله اعتباره إلى الإيمان بالمبدع الحى القيوم فقد فاز، ومن أعرض عنها فقد هلك وخاب وخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوًا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ١٦٨، ١٦٩)

جاء في أسباب النزول للواحدى قول الكلبي: أنها نزلت في ثقيف وخزاعة، وعامر بن صعصعة، حرّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام، حرّموا البحيرة والسائبة، والوصيلة والحامى * وفي الخطيب قال البيضاوى: نزلت في قوم حرّموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس * وقول الكلبي كتفسير لما أبهم في قول البيضاوى أي حرّموا على أنفسهم ذلك على وجه التورّع كما تفعله الصوفية. قال الخطيب: وما قاله — أي البيضاوى — مرجوح

كما قاله شيخنا زكريا، ثم قال: والمشهور أنها نزلت فيهم آية المائدة. أي «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ..» وأما هذه الآية نزلت في الكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب والوصائل ونحوها. ومن ثم عبّر هنا بيا أيها الناس، وثم بيا أيها الذين آمنوا والمعنى يا أيها الناس كلوا مما أحللت لكم من الأطعمة على لسان رسول صلي الله عليه وسلم، فطيبته لكم مما تحرمونه على أنفسكم من البحائر والسوائب والوصائل، وما أشبه ذلك مما لم أحرمه عليكم دون ما حرّمته عليكم من المطاعم والمآكل من ميتة ودم ولحم خنزير، وما أهل به لغيري، ودعوا خطوات الشيطان الذي يوبقكم فيهلككم ويردكم موارد العطب، ويحرّم عليكم أموالكم فلا تتبعوها ولا تعملوا بها، إن الشيطان لكم أيها الناس عدوٌ مبين. قد أبان لكم عداوته بإبائه عن السجود لأبيكم وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة، واسترله بالخطيئة، وأكل من الشجرة، التزموا طاعتي فيما أمرتكم به، ونهيتكم عنه مما أحللته لكم، وحرّمته عليكم دون ما حرّمتموه أنتم على أنفسكم وحللتموه طاعة منكم للشيطان، واتباعاً لأمره قال السدي «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ»: أما السوء فالمعصية، وأما الفحشاء فالزنا «وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» فهو ما كانوا يحرمونه من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي ويزعمون أن الله حرّم ذلك فردّ الله عليهم بقوله: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» فأخبرهم تعالى في هذه الآية أن قولهم: إن الله حرّم هذا من الكذب الذي يأمرهم به الشيطان. فهم مطيعون له، متبعون خطواته، مقتفون آثار أسلافهم الضلال وآبائهم الجهال. وهذا معنى الآية التالية للآيتين السابقتين «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» سورة البقرة (آية: ١٧٠). وفي الطبري (ج ٢ ص ٤٦) عن ابن عباس «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ» يقول عمله وعن مجاهد قال: خطيئته وعن السدي «خطوات الشيطان» يقول طاعته وقال آخرون (النذور في المعاصي) قاله أبو مجلز غير أن حقيقة تأويل الكلمة هو ما بيّنت من أنها بعد ما بين قدميه، ثم تستعمل في جميع آثاره وطرقه، إذ الخطوات واحدها خطوة (بالضم) وهي ما بين قدمي الماشي. يقال اتبع خطواته، ووطئ على عقبه إذا اقتدى به واستن بسنته، ومُبيّن: أي ظاهر العداوة لذوى البصائر، والسوء ما

يسوءك وقوعه أو عاقبته. والفحشاء لفظ عام، وهو كل ما يفحش قبحه في أعين الناس من المعاصي والآثام، وهي أقبح وأشد من السوء، ويأمركم أي يوسوس لكم ويتسلط عليكم كأنه أمر مطاع، وأنتم في انقيادكم له، كأنكم مأمورون «أَلْفَيْتَنَا» وجدنا. وعقل الشيء عرفه بدليل، وفهمه بأسبابه ونتائجه* وفي الخازن (ج ١ ص ١٠١) والحلال: المباح الذي أحله الشرع، وانحلت عقدة الخطر عنه، وأصله من الحل الذي هو نقيض العقد. والطيب: ما يستلذ، والمسلم لا يستطيب إلا الحلال، ويعاف الحرام، وقيل: الطيب هو الطاهر. لأن التحس تكرهه النفس وتعافه* وحلالاً حال من ما «طيباً» صفة مؤكدة أي فيكون معنى الطيب هو معنى الحلال — وإن لم يستلذ كالأدوية، وعلى هذا فيكون الطيب أخص من الحلال «ومن» في قوله: «مِمَّا فِي الْأَرْضِ» تبعيضية في موضع مفعول كلوا أي كُلُّوا بعض ما في الأرض إذ لا يؤكل كل ما في الأرض* وقوله: «إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ»... الخ. تعليل للنهي عن الاتباع* وقوله: «إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ»... الخ. بيان لعداوته، ووجوب التحرز عن متابعتها، واستعير الأمر لتزيينه، وبعثه لهم على الشر تسفياً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم (البيضاوي)* وفي سبب نزول قوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ...» الآية* في الخازن (ج ١ ص ١٠٢) قال ابن عباس: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى الإسلام، فقال رافع بن خارجه ومالك بن عوف «بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْتَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» كانوا خيراً منا وأعلم منا، فأنزل الله هذه الآية* وقيل: إن الآية متصلة بما قبلها، والضمير في لهم يعود إلى قوله «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً» قبل هذه الآيات. وهم مشركوا العرب «قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْتَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» يعني من عبادة الأصنام، وقيل: بل الضمير في لهم يعود على قوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ» والمعنى: وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله يعني في تحليل ما حرموا على أنفسهم «قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْتَا» يعني وجدنا «عَلَيْهِ آبَاءَنَا» من التحريم والتحليل قال الله تعالى: «أُولَئِكَ كَانُوا آبَاءَهُمْ» يعني الذين يتبعونهم «لَا يَعْقلُونَ شيئاً» يعني لا يعلمون شيئاً من أمر الدين. لفظه عام ومعناه خاص، وذلك أنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا. «وَلَا يَهْتَدُونَ» أي إلى الصواب* وقوله تعالى «بَلْ نَتَّبِعُ» بل هنا للإضراب عن الأوَّل. أي لا نتبع ما أنزل الله، وليس إضراب خروج قصة من قصة، بل إنه إضراب إبطال لا إضراب انتقال، وعلى هذا فيقال: كل إضراب في القرآن فالمراد

به الانتقال من قصة إلى قصة إلا في هذه الآية، وإلا في قوله: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ» فإنه محتمل للأمرين، فإن اعتبرت قوله: أم يقولون افتراه كان إضراب انتقال. وإن اعتبرت افتراه وحده كان إضراب ابطال.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابُ بِالْمَعْقَرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» سورة البقرة (آية: ١٧٤، ١٧٥)

ذكر الواحدي في أسباب النزول قول الكلبي عن ابن عباس قال: نزلت في رؤساء اليهود. وعلمائهم، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا وكانوا يرجون أن يكون المبعوث منهم، فلما بعث من غيرهم خافوا ذهاب ما كلتهم، وزوال رياستهم، فعمدوا إلى صفة محمد صلى الله عليه وسلم فغيروها، ثم أخرجوها إليهم، وقالوا: هذا نعت محمد الذي يخرج في آخر الزمان لا يشبه نعت هذا النبي الذي بمكة، فإذا نظرت السفلة إلى النعت المتغير وجدوه مخالفاً لصفة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يتبعونه. وفي القرطبي نحو هذا. وعبارته «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ» يعني علماء اليهود، كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته. وهذه الآية وإن كانت في الإخبار عن اليهود وكتماهم للحق فإنها تتناول من المسلمين من يكتم الحق منهم مختالاً لذلك بسبب دنيا يصيبها. وما ذكر في القرطبي هو نفسه مذكور في الطبري وابن كثير (ج ٢ ص ٥٣) و(ج ١ ص ٢٠٦) وكذا في الخازن (ج ١ ص ١٠٤) وهو قول المفسرين، ولكن قال الإمام الرازي: وعند المتكلمين هذا ممتنع لأن التوراة والانجيل قد بلغا من الشهرة والتواتر إلى حيث تعدد ذلك فيها بل كانوا يكتمون التأويل لأنه قد كان منهم من يعرف الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا هو المراد بالكتمان فيصير المعنى إن الذين يكتمون معاني ما أنزل الله من الكتاب «وَيَشْتَرُونَ بِهِ» أي بالكتمان، وقيل يعود الضمير إلى ما أنزل الله من الكتاب. ومن في من الكتاب للبيان، وهي حال من العائد على الموصول تقديره أنزله الله حال كونه من الكتاب، والعامل فيه أنزل، أو حال من الموصول نفسه، فالعامل في الحال يكتمون، ويجوز أن تكون

من بمعنى في. والكتاب هو التوراة. «ثَمناً قَلِيلاً» أى عوضاً يسيراً وهى المآكل التى كانوا يأخذونها من سفلتهم «أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار» إستثناء مفرع لأن قبله عاملاً يطلبه، وهذا من مجاز الكلام، جعل ما هو سبب للنار ناراً لقلوبهم: أكل فلان الدّم يريدون الدية التى سببها الدم. يعنى ما يأكلون فى بطونهم إلا ما يؤديهم إلى النار، وهو الرشا والحرام، فلما كان يفضى بهم ذلك إلى النار، فكأنهم أكلوها أو أنهم يأكلونها حقيقة «وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أى كلام رحمة وما يسرهم، بل يكلمهم بالتوبيخ لقوله تعالى: «أخسّسوا فيها ولا تكلمون» ذلك لكتمانهم كلامه فى الدنيا، وقيل: أراد به الغضب، يقال فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه. وفى التنزيل أيضاً «فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» والسؤال كلام. والمراد من الآية والله أعلم أنه تعالى لا يكلمهم بتحية وسلام وخير، وإنما يكلمهم بما تعظم به الحسرة والغم عند المناقشة والمساءلة «وَلَا يُرَكِّبُهُمْ» أى لا ينسبهم إلى التزكية، ولا يثنى عليهم، ولا يقبل أعمالهم كما يقبل أعمال الأزكياء، أو لا ينزلهم منازل الأزكياء. أو لا يطهرهم من دنس الذنوب. «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أى مؤلم يصل ألمه إلى قلوبهم وإلى كل ذرة فى أجسامهم. «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة» أى أولئك الموصوفون بالصفات الستة من قوله «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ...» إلى هنا، وهذا بيان لحالهم فى الدنيا بعد أن بين حالهم فى الآخرة. والمعنى أنهم اختاروا الضلالة على الهدى، واختاروا العذاب على المغفرة لانهم كانوا عالمين بالحق، ولكن كتموه وأخفوه، وكان فى إظهاره الهدى والمغفرة، وفى كتمانهم الضلالة والعذاب فلما أقدموا على إخفاء الحق وكتمانهم كانوا بائعين الهدى بالضلالة والمغفرة بالعذاب «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ!!» ما استفهامية صحبها معنى التعجب مثل كيف تكفرون. أو أنها موصولة. أى ما الذى صبرهم، وأى شيء جسدهم على النار حتى تركوا الحق، واتبعوا الباطل! وفى الطبرى فى «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» قال: اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك ما أجرأهم على العمل الذى يقربهم إلى النار، وأسند هذا القول إلى قتادة والحسن. وعن مجاهد «فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ» قال: ما أعملهم بالباطل. وفى رواية عنه: ما أعملهم بأعمال أهل النار. وهو قول الحسن وقتادة أيضاً، والمعنى أنهم فى عذاب شديد عظيم هائل يتعجب من رأيهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عيادا بالله من ذلك.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» سورة البقرة (آية: ١٧٧)

في الواحدى. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً سأل نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم عن البر فأنزل الله تعالى هذه الآية قال: وذكر لنا أن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم دعا الرجل فتلاها عليه وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ثم مات على ذلك وجبت له الجنة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكذا قوله في الطبرى (ج ٢ ص ٥٦) لكن بدل وجبت له الجنة. يرجى له، ويطمع له في خير فأنزل الله «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» وكانت اليهود توجهت قبل المغرب والنصارى قبل المشرق «ولكنَّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر». الآية وفيه. عن الربيع بن أنس قال: كانت اليهود تصلى قبل المغرب والنصارى قبل المشرق فنزلت ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب» وعن ابن عباس قوله «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» يعنى الصلاة. يقول ليس البر أن تصلوا ولا تملوا، فهذا منذ تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض، وحدَّ الحدود فأمر الله بالفرائض والعمل بها» وعن مجاهد «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» وأن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله» ويرجح قول من قال عنى الله بذلك اليهود والنصارى، وذلك أن اليهود تصلى فتوجه قبل المغرب، والنصارى تصلى فتوجه قبل المشرق فأنزل الله فيهم هذه الآية يخبرهم فيها أن البر غير العمل الذى يعملونه ولكنه ما بيناه في هذه الآية وهو قول قتادة والربيع بن أنس، ويرجح ذلك أن الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولومهم والخبر عنهم، وعمَّا أعد لهم من أليم العذاب. وهذا في سياق ما قبله» وقال الخطيب في تفسيره: «أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ» أى فى الصلاة «قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» على قولين. أحدهما أنهم المسلمون. والثانى أهل الكتابين. فعلى الأول معناه ليس البر كله فى الصلاة، ولكن البر ما فى هذه الآية. قاله ابن عباس ومجاهد

وعطاء. وعلى الثاني ليس البر صلاة اليهود إلى المغرب، وصلاة النصارى إلى المشرق، فإنهم أكثرها الخوض في أمر القبلة حين حولت. وادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلته، فرد الله تعالى عليهم وقال: ليس البر ما أنتم عليه فإنه منسوخ ولكن البر ما في هذه الآية ويعكرك عليه أن قبلة اليهود بيت المقدس، وهو للشمال بالنسبة للكعبة، والله أعلم بأسرار كتابه ومراده وقال قوم: هو عام لهم وللمسلمين. أى ليس البر مقصوداً بأمر القبلة * والبر: لغة التوسع في الخير، وأصله من البر المقابل للبحر. وفي لسان الشرع كل ما يتقرب به إلى الله من الإيمان به وصالح الأعمال وفاضل الخير، أو قل: البر. كل فعل مرضى عند الله تعالى. أو قل: هو اسم جامع لكل الطاعات، وأعمال الخير المقربة إلى الله تعالى الموجبة للثواب والمؤدية إلى الجنة، ثم بين تعالى في هذه الآية خصلاً من البر فقال: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» أي ولكن البر من آمن بالله، فكان المراد بالبر هنا الإيمان بالله، وهو أعظم البر إذ به يُخَلِّصُ الإنسان نفسه من النار، فهو في الحقيقة إحسان إلى النفس ذاتها بدليل «وَالْيَوْمَ الْآخِرِ» أي ومن البر أيضاً الإيمان باليوم الآخر، وإنما ذكر الإيمان باليوم الآخر لأن عبدة الأوثان كانوا ينكرون البعث بعد الموت «وَالْمَلَائِكَةَ» أي ومن البر الإيمان بالملائكة كلهم لأن اليهود قالوا: إن جبريل عدونا «وَالْكِتَابِ» الظاهر أراد به القرآن. لأن اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم ينكرونه. وقيل: جميع الكتب المنزلة لسياق ما بعده وهو قول «وَالنَّبِيِّينَ» يعنى أجمع. وإنما خصّ الإيمان بهذه الأمور الخمسة لأنه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن يصدق بها. فن قوله: ليس البر الخ .. نصف السورة السابق كان متعلقاً بأصول الدين، وبقبائح بني اسرائيل، وهذا النصف غالبه متعلق بالأحكام الفرعية تفصيلاً ليعمل بها المؤمنون «وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ» يعنى من أعمال إيتاء المال على حبه أى حب الله، أو على حبه المال. وهو في محل نصب على المال. والعامل فيه آتى. أى آتى المال حال محبته له، واختياره إياه روى الشيخان عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله. أئى الصدقة أعظم أجراً؟ قال: [أن تصدق وأنت صحيح صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان] * قوله حتى إذا بلغت الحلقوم أى الروح ولفلان كذا. كناية عن الموصى له. وقد كان لفلان كناية عن الوارث «ذَوَى الْقُرْبَى» أى القرابة فى الخطيب قال عليه الصلاة والسلام: [الصدقة

على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم ثنتان] لأنها صدقة وصلته ولا شك أن القرابة أحق الناس بالبر إذ المركوز في الفطرة أن الإنسان يألم لفاقة ذوى رحمه وعدمهم أشد مما يألم لغيرهم، فهو يرى أن هوانه بهوانهم، وعزه بعزهم، فن قطع رحمه وامتنع عن مساعدتهم، وهم بائسون وهو في نعمة من الله وفضل، فقد بعد عن الدين والفطرة (المراعى ج ٢ ص ٥٦) * وفي ابن كثير (ج؟ ص ٢٠٧) عن أبي ذر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الإيمان؟ فتلا عليه «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ» إلى آخر الآية، ثم سأله أيضاً فتلاها عليه، ثم سأله فقال: [إذا عملت حسنةً أحبها قلبك وإذا عملت سيئةً أبغضها قلبك] لكنه منقطع كما قال ابن كثير لأن مجاهداً لم يدرك أبا ذر فإنه مات قديماً * وقال ابن كثير: وأما الكلام على تفسيره هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين — فقد جرى على القول بالعموم — فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتنال أوامره والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ولهذا قال: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» الآية كما قال في الأضاحي والهدايا «لَنْ يَتَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ يَتَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ» سورة الحج آية (٣٧) «وَالْيَتَامَى» اليتيم هو الذى لا أب له مع الصغر، وقيل: يقع على الصغير والبالغ. أى يريد المحاو يبع منهم والمراد إيتاء أوليائهم لأن الإيتاء لليتامى لا يصح، وهذا مع الصغر لعدم إدراكهم لذلك. «وَالْمَسَاكِينَ» جمع مسكين. سُمِّيَ بذلك لأنه دائم السكون إلى الناس لأنه لا شيء له، أو لأن الحاجة أسكتته، والعجز قد أقعده عن طلب ما يكفيه. قال أبو إسحاق: المسكين الذى أسكنه الفقير أى قلل حركته * وهو بعيد لأن مسكينا في معنى فاعل. وقوله الذى أسكنه الفقير يخرج به إلى معنى مفعول. فيكون فقيراً لإيقاع الفقر عليه. والفقير في اللغة هو الذى له بعض ما يقيمه. والمسكين أسوأ حالاً من الفقير. وهو قول ابن السكيت، قال يونس: وقلت لأعرابي: أفقير أنت أم مسكين؟ فقال: لا والله بل مسكين، فأعلم أنه أسوأ حالاً من الفقير. واحتجوا على أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير بقول الراعى:

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد فأنبت أن للفقير حلوبة، وجعلها وفقاً لعياله، قال: وقول مالك في هذا كقول يونس. وروى عن الأصمعي أنه قال: المسكين أحسن حالاً من الفقير، وإليه ذهب أحمد بن عبيد. قال: وهو الصحيح عندنا لأن الله تعالى قال: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ» فأخبر أنهم مساكين وأن لهم سفينة تساوى جملة. أي من المال. وقال: «لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَخَسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَعْيَاءَ مِنَ التَّعَقُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً...» فهذه الحال التي أخبر بها عن الفقراء هي دون الحال التي أخبر بها عن المساكين. قال ابن برّي: وإلى هذا القول ذهب علي بن حمزة الأصهباني اللُّقوي، ويرى أن الصواب. وما سواه خطأ، واستدل على ذلك بقوله تعالى: «مَسْكِينًا ذَا مَقْرَبَةٍ» فأكد عز وجل سوء حاله بصفة الفقر لأن المترتبة الفقر، ولا يؤكد الشيء إلا بما هو أوكد منه. واستدل على ذلك بقوله عز وجل: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ» فأثبت أن لهم سفينة يعملون عليها في البحر، واستدل أيضاً بقول الراجز:

قل لك في أجر عظيم تؤجره تغيث مسكيناً قليلاً عسكريه

عشر شياه سمعه وبصره قد حدث النفس بمصر يحضره

فأنبت أن له عشر شياه، وأراد بقوله عسكريه غنمه وأنها قليلة. واستدل أيضاً ببيت الراعي. وزعم أنه أعدل شاهد على صحة ذلك، وهو قوله: أما الفقير الذي كانت حلوبته... الخ. لأنه قال: أما الفقير الذي كانت حلوبته، ولم يقل الذي حلوبته وقال: فلم يترك له سبد. فأعلمك أنه كانت له حلوبة تقوت عياله، ومن كانت هذه حاله فليس بفقير ولكن مسكين، ثم أعلمك أنها أخذت منه فصار إذ ذاك فقيراً. يعني ابن حمزة بهذا القول أن الشاعر لم يثبت أن للفقير حلوبة لأنه قال: الذي كانت حلوبته. أي فيما مضى. ولم يقول الذي حلوبته فثبت ملكيته لها. وهذا كما تقول: أما الفقير الذي كان له مالٌ وشروة فإنه لم يترك له سبد، أي وبر. وقيل: الشعر. والعرب تقول: ماله سبدٌ ولا لسبدٌ، أي ماله ذو وبر ولا صوف متلبد يكتى بها عن الإبل والغنم، ويدخل في الغنم المعز لأن الشعر له. وأراد أنه إذا لم يكن فقيراً، فهو إما غني وإما مسكين، ومن له حلوبة واحدة فليس بغني، وإذا لم يكن غنياً لم يبق إلا أن يكون فقيراً أو مسكيناً، ولا يصح أن

يكون فقيراً على ما تقدم ذكره، فلم يبق أن يكون إلا مسكيناً، فثبت بهذا أن المسكين أصلح حالاً من الفقير قال علي بن حمزة: ولذلك بدأ الله تعالى بالفقير قبل من يستحق الصدقة من المسكين وغيره، وأنت إذا تأملت قوله تعالى: «**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ**» وجدته سبحانه قد رتبهم فجعل الثاني أصلح حالاً من الأول. والثالث أصلح حالاً من الثاني. وكذلك الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن (اللسان جـ ١٣ ص ٢١٦ وجـ ٣ ص ٢٠٢) مع زيادة عليها بغية الإيضاح «**وَأَبْنِ السَّبِيلِ**» هو المسافر البعيد عن ماله ولا يمكنه الإتيان بأهل أو بذى قرابة، وسُمي ابن السبيل أي الطريق لِملازمته إياها في السفر، أو لأنَّ الطريق تبرزه فكأنها ولدته (كرخى) والسبيل في اللغة: الطريق وما وَضَحَ منه يذكُر ويؤنث. وسبيل الله: طريق الهدى الذي دعا إليه، وابن السبيل المسافر الكثير السفر، سُمي ابناً لها لملازمته إياها، وفي الحديث: [حريم البئر أربعون ذراعاً من حوالها، لأعْظانِ الإبل والغنم، وابن السبيل أَوْلَى شارب منها] أي عابر السبيل المجتاز بالبئر أو الماء أحقُّ به من المقيم عليه، يمكِّن من الورد والشرب، ثم يدعه للمقيم عليه: والمراد من الآية أن المسافر الذي انقطع به وهو يريد الرجوع إلى بلده، ولا يجد ما يتبلغ به فله في الصَّدَقَاتِ نصيبٌ قال الشافعي: وابن السبيل عندي: ابن السبيل هو من أهل الصدقة الذي يريد البلد غير بلده لأمر يلزمه. ويُعطى ابن السبيل قدر ما يبلغه البلد الذي يريد في نفقته وحمولته وفي الخازن (ج ١ ص ١٠٥) وقيل: هو الضيف ينزل بالرجل لأنه إنما وصل إليه من السبيل، وهو الطريق، والأول أشبه لأن ابن السبيل اسمٌ جامع للمسافر وفي الطبري (ج ٢ ص ٥٧) عن قتادة «**وَأَبْنِ السَّبِيلِ**» قال: هو الضيف، قال: قد ذكر لنا أنَّ نبي الله صلى الله عليه وسلم كما يقول: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت]. قال: وكان يقول: [حق الضيافة ثلاث ليال، فكل شيء أضافه بعد ذلك صدقة]. وهو بعيد النجعة لأنه لا ارتباط بين اسمي ابن السبيل والضيف لغة ومعنى فكيف يُتَأَوَّلُ أحدهما بالآخر «**وَالسَّائِلِينَ**» يعنى الطالبين المستطعمين، عن علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [للسائل حق ولو جاء على فرس] أخرجه أبو داود. وكذا أخرجه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم. وعن أم نجيد قالت: قلت يا رسول الله إنَّ المسكين ليقوم على بابي فلم أجد شيئاً أعطيه إياه، قال: [إن لم تجدي إلا ظلفاً مُحَرَّقاً فادفعيه إليه في يده]

أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح * قوله: ولو كان ظلفاً: هو خوف الشاة، وفي كونه محرّقاً مبالغة في قلة ما يُعطى. قوله: «وفى الرقاب» معطوف على المفعول الأول، وهو ذوى. أي وآتى المال في الرقاب. أي دفعه في فكها. أي لأجله وبسببه، ويشمل ذلك ابتياع الأرقاء وعتقهم، ومساعدة الأسرى على الإفتداء، وإعانة المكاتبين على أداء نجومهم (المكاتب هو الرقيق يشتري نفسه من مولاه بثلثين يجعله نجوماً - أقساطاً) وفي جعل هذا نوعاً من البذل واجباً على المسلمين، دليل على رغبة الشارع في فك الرقاب، واعتباره أن الإنسان خلق ليكون حُرّاً إلا في أحوال عارضة تقضى المصلحة العامة فيها أن يكون الأسير رقيقاً. والبذل هذه الأصناف لا يتقيد بزمن معيّن، ولا بامتلاك نصاب محدود من المال. ولا بتقدير المال المبذول بمقدار معيّن كالزكاة الواجبة، بل هو موكول إلى سخاء المُعطى وحال المعطى. وقد أغفل الناس أداء هذه الحقوق التي حثّ عليها الكتاب الكريم، مع ما فيها من التكافل العام بين المسلمين، ولو أدوها لكانوا في معاشهم من خير الأمم، ولدخل كثير من الناس في الإسلام، لما يرون فيه من جميل العناية بالفقراء، وأنّ لهم حقوقاً في أموال الأغنياء * «وَأَقَامَ الصَّلَاةَ» المفروضة، فأداها على أقوم وجه في أول أوقاتها، ولا يتحقق ذلك بأداء أفعال الصلاة وأقوالها فحسب بل إنما يكون بوجود سرّ الصلاة وروحها، ومن آثاره تحلى المصلّي بالأخلاق الفاضلة، وتباعده من الرذائل، فلا يفعل فاحشة ولا منكراً كما قال تعالى مبيناً فوائدها: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» ولا يكون هلوياً جزوعاً إذا مسّه الضر، ولا بخيلاً منوعاً إذا ناله الخير كما قال جلّ اسمه «إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ» كما لا يخشى في الله لومة اللائم، ولا يُبالى في سبيل الله ما يلقى من الشدائد. ولا بما ينفق من فضله ابتغاء مرضاته (المراغى ج ٢ ص ٥٧) * «وَأَتَى الزَّكَاةَ» بمعنى الواجبة قال: وقلما تجيء الصلاة في القرآن الكريم إلا وهي مقترنة بالزكاة، ذاك أن الصلاة تهذب الروح، والمال قرين الروح، فبذله ركن عظيم من أعمال البر، ومن ثمّ أجمع الصحابة على محاربة مانعي الزكاة من العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن مانعها يهدم ركناً من أركان الإسلام، وينقض أساس الإيمان * «وَالْمُؤَفَّقُونَ بِعَهْدِهِمْ» يعني ما أخذه الله من العهود على عباده بالقيام بحدوده، والعمل بطاعته. وقيل: أراد بالعهد ما يجعله الإنسان على نفسه ابتداء من نذر

وغيره، وقيل: العهد الذي كان بينه وبين النَّاس، مثل الوفاء بالمواعيد، وأداء الأمانات (الخازن ج ١ ص ١٠٦) * ومثل العهود العقود، فيجب علينا الوفاء بها ما لم تكن مخالفة لقواعد الدين العامة، وفي الوفاء بالعهود والعقود حفظ كيان المجتمع من أن ينفطر عقده كما أن الغدر والاختلاف فيها هادم للنظام، مفسدٌ للعمران، فما من أمة فقدت الوفاء بالعهد (وهو ركن الأمانة وقوام الصدق) إلا حلَّ بها العقاب الإلهي، فانتزعت الثقة من بين أفرادها حتى بين الأهل والعيال، فيعيشون متخاذلين وكأنهم وحوش مفترسة، ينتظر كل واحد وثبة الآخر عليه، إذا أمكن يده أن تصل إليه، ومن ثمَّ يضطر أفرادها إلى الاستيثاق في عقودهم بكل ما يقدرون عليه، ويحترس كل منهم من غدر الآخر، فلا يكون هناك تعاون ولا تناصر، بل تباغضٌ وتحاسد، ولا سيما بين الأقارب، ولو شمل الناس الوفاء لسلموا من هذا البلاء. «إِذَا عَاهَدُوا» يعني إذا وعدوا أنجزوا، وإذا نذروا أوفوا، وإذا حلفوا بروا في أيمانهم، وإذا قالوا صدقوا في أقوالهم، وإذا ائتمنوا أدوا «وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ» أي في الشدة والفقر والفاقة «وَالضَّرَائِعِ» أي المرض والزمانه «وَحِينَ الْبَأْسِ» يعني القتال والحرب في سبيل الله، وسمى الحرب بأساً لما فيه من الشدة، روى الشيخان عن البراء قال: كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسَ نَتَّقِي بِهِ وَأَنْ الشَّجَاعَ مِنْهُ الَّذِي يَحَاذِي بِهِ. يعني النبي صلى الله عليه وسلم. احمرَّ البأس: أي اشتدَّ الحرب، ونتقي به: أي نجعله وقاية لنا من العدو. وخصَّ هذه المواطن الثلاثة مع أن الصبر المحمود في جميع الأحوال، لأنَّ من صبر فيها كان في غيرها أصبر، فالفقر إذا اشتدَّت وطأته ضاق الصدر، وكان يفضى إلى الكفر، والضُّرُّ إذا برَّح بالبدن أضعف الأخلاق والهضم، وفي الحرب التعرض للهلاك بخوض غمرات المنية، والظفر مقرون بالصبر، وبالصبر يحفظ الحق الذي يناضل صاحبه دونه، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر. وبتابع هذه الأوامر كانت الأمة الإسلامية أعظم أمة حربية في العالم، قوله: «وَالصَّابِرِينَ» نصب على المدح، أي ليس المراد أنه يقدر عامل من مادة المدح بل المراد أنه معمول لفعل محذوف كأخص، أو أذكر هكذا صرَّحوا به. وعبارة أبي السعود: نصب على الاختصاص، ولم يدرج في سلك ما قبله بأن يقال: والصَّابِرُونَ تنبيهاً على فضيلة الصبر (ولفت النظر إليه، والتفكر فيه وفي نتائجه) وهو في الحقيقة معطوف على ما قبله من حيث المعنى. قال أبو علي: إذا ذُكرت صفات للمدح، أو للذم، وخولف

الأعارب في بعضها فذلك تفتنُّ، و يسمى قطعاً لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع المذكور، ومزيد اهتمام بشأنه، وقد قرىء والصابرون: كما قرىء والموفين * وعبارة الكرخى: ولم يعطف لمزيد شرف الصبر. قال الراغب: ولما كان الصبر من وجه مبدأ للفضائل، ومن وجه جامعاً للفضائل إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ غير إعرابه تنبيهاً على هذا المقصود وهذا كلام حسن. فالآية جامعة لمجامع الكمالات الإنسانية، وهي صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس * «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا» في دعواهم الإيمان. دون الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. قال الواقدى رحمه الله تعالى: إنَّ الواوات في هذه الأوصاف تدل على أنَّ من شرائط البر استكمالها وجمعها، فن قام بواحد منها لا يستحق الوصف بالبر، فلا ينبغي إذا اظلم إنساناً وأوفى بعهده أن يكون من جملة من قام بالبر، وكذا الصابر في البأساء لا يكون قائماً بالبر إلا عند اجتماع هذه الخصال. ولذلك قال بعضهم: هذه الصفات خاصة بالأنبياء لأنَّ غيرهم لا تجتمع فيه هذه الأوصاف * وقال آخرون: هي عامة في جميع المؤمنين * «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» أي وأولئك هم الذين جعلوا بينهم وبين سخط الله وقاية بالبعد عن المعاصي التي توجب خذلان الله في الدنيا. وعذابه في الآخرة، وعبارة أبي السعود: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» الله أي عن الكفر وسائر الرذائل. وتكرير الإشارة لزيادة تنويه شأنهم. وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِعَدْوٍ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» *

سورة البقرة (آية: ١٧٨، ١٧٩)

في الواحدى : قال الشعبي : كان بين حيتين من أحياء العرب قتال . وكان لأحد الحيين طول على الآخر، فقالوا نقتل بالعبد منا الحر منكم، وبالمرأة الرجل فنزلت هذه الآية * قلت: وأخرج البخارى في كتاب التفسير: عن ابن عباس رضي الله عنها أنه قال: كان في بنى إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: « كُتِبَ

عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أُخِيهِ شَيْءٌ» فالعفو أن يقبل الدية في العمد. فاتباع بالمعروف. وأداء إليه بإحسان. يتبع بالمعروف و يؤدي بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة مما كتبت على من كان قبلكم فن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم، قتل بعد قبول التوبة. هذا هو لفظ البخارى بعينه متناً وشرحاً، وهو من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما. والحديث أخرجه البخارى أيضاً في الديات عن قتبية، وأخرجه النسائي في التفسير عن عبد الجبار، وفي القصاص عن الحارث بن مسكين. قوله: «فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أُخِيهِ شَيْءٌ» معناه قبول الدية في العمد، وقيل فيمن قتل وله وليان فعفا أحدهما، فلآخر أن يأخذ مقدار حقه من الدية. وقال الخطابي: العفو في الآية يحتاج إلى تفسير، وذلك أن ظاهر العفو يوجب أن لا تبعة لأحدهما على الآخره فامعنى الاتباع والإعفاء؟ فعناه أن من عفى عنه الدم بالديه فعلى صاحب الدية اتباع أي مطالبة بالدية، وعلى القاتل أداء الدية إليه. ومعنى كلام الزمخشري في الكشاف (ج ١ ص ٣٣١) أن معنى أخوه هو وليُّ المقتول، وقيل له أخوه لأنه لا يسه من قبل أنه ولي الدم، ومطالبه به. أو ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينها من الجنسية والإسلام. قوله: «شَيْءٌ» أي من العفو. إنما قيل ذلك للاشعار بأن بعض العفو عن الدم، أو عفو بعض الورثة يسقط القصاص، ولم يجب إلا الدية. قوله: «فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ» أي فليكن اتباع، أو فالأمر اتباع «ذَلِكَ» أي الحكم المذكور من العفو والدية لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة، وحرّم عليهم العفو وأخذ الدية، وعلى أهل الانجيل العفو وحرّم القصاص والدية، خيرت هذه الأمة بين الثلاث القصاص والدية والعفو توسعة عليهم وتيسيراً «كَمَا كُتِبَ» على من كان قبلكم: هم أهل التوراة والانجيل. قوله: «فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ» أي بعد التخفيف. وتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل، أو القتل بعد أخذ الدية. وهو معنى قوله: قُتِلَ بَعْدَ قَبُولِ الدِّيَةِ. وهو على صيغة المعلوم من الماضي. وقيل: تفسيراً لقوله فن اعتدى قوله: «فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة وفي القرطبي: بعد أن ذكر حديث البخارى قال: هو أن القاتل فرض عليه إذا أراد الوليُّ القتل الإستسلام لأمر الله والإنقياد لقصاصه المشروع. وأنَّ الوليَّ فرض عليه الوقوف عند قاتل وليه، وترك التعدي على غيره كما كانت العرب تتعدى فتقتل غير القاتل وهو معنى قوله

عليه الصلاة والسلام: [إن من اعتمى الناس على الله يوم القيامة ثلاثة: رجل قتل غير قاتله، ورجل قتل في الحرم، ورجل أخذ بذخول الجاهلية] الذَّخْلُ بفتح السكون. قيل: العداوة والحقد. وقيل: الثأر وطلب المكافأة بجنابة جنيت عليه من قتل أو جرح ونحو ذلك وفي القرطبي: قال الشعبي وقتادة وغيرهما: إن أهل الجاهلية كان فيهم بغى، وطاعة للشيطان، فكان الحى إذا كان فيه عزٌ ومنعة فقتل لهم عبد، قتله عبد قوم آخرين، قالوا لا نقتل به إلا حراً، وإذا قُتل منهم امرأة، قالوا لا نقتل بها إلا رجلاً، وإذا قُتل لهم رضيع قالوا لا نقتل به إلا شريفاً، ويقولون: (القتلُ أَوْقَى للقتل) — بالواو والقاف، ويروى (أبى) بالباء والقاف، ويروى (أنفى) بالنون والفاء — فهاهم الله عن البغى فقال: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ...» الآية. وقال: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ» وبين الكلامين في الفصاحة والجزل بونٌ عظيم. أي أعلمهم الله تعالى أن الذي فرض لهم من القصاص أن يقتلوا بالرجل الرجل القاتل دون غيره، وبالأنتى الأنتى القاتلة دون غيرها من الرجال، وبالعبد العبد القاتل دون غيره من الأحرار. فهاهم أن يتعدوا القاتل إلى غيره في القصاص. وهو قول الشعبي كما في الطبرى (ج ٢ ص ٦٠) نزلت في قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا قتال عمية فقالوا: نقتلُ بعبدنا فلان بن فلان، وبفلانة فلان بن فلان فأنزل الله «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى» وفي الطبرى عن السدى قوله «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى» قال: اقتتل أهل ملتين من العرب أحدهما مسلم والآخر معاهد في بعض ما يكون بين العرب من الأمر فأصلح بينهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كانوا قتلوا الأحرار والعبيد والنساء على أن يؤدى الحر دية الحر، والعبد دية العبد، والأنتى دية الأنتى فقاصهم بعضهم من بعض فنزلت الآية. وعن السدى عن أبى مالك قال: كان بين حيين من الأنصار قتال كان لأحدهما على الآخر الطول، فكأنهم طلبوا الفضل، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليصلح بينهم فنزلت الآية «الْحُرُّ بِالْحُرِّ...» الآية فجعل النبي صلى الله عليه وسلم الحر بالحر والعبد بالعبد، والأنتى بالأنتى. وقد لا يكون الأمر بعيداً أن تكرر نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدت عنها هذه الروايات. ولا يخفى أنَّ ما في الصحيح أصح. وهى الراجحة وما عداها مرجوحة قطعاً. وفي الطبرى (ج ٢ ص ٦١) عن ابن أبى جعفر عن أبيه عن

الربيع قوله: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ» الآية. قال: حدَّثنا عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه كان يقول: أيُّما حر قتل عبداً فهو قود به، فإن شاء مولى العبد أن يقتلوا الحر قتلوه وقاصُّوهم بثمان العبد من دية الحر، وأدوا إلى أولياء الحر ببقية ديته، وإن عبد قتل حراً فهو به قود، فإن شاء أولياء الحر قتلوا العبد وقاصُّوهم بثمان العبد وأخذوا بقية دية الحر، وإن شاؤا أخذوا الدية كلها، واستحيوا العبد، وأي حر قتل امرأة فهو بها قود، فإن شاء أولياء المرأة قتلوه وأدوا نصف الدية إلى أولياء الحر، وإن امرأة قتلت حراً فهي به قود، فإن شاء أولياء الحر قتلوها وأخذوا نصف الدية، وإن شاؤا أخذوا الدية كلها، واستحيوها وإن شاؤا عفوا. وعن الحسن أن علياً قال في رجل قتل امرأته: قال: إن شاؤا قتلوه وغرموا نصف الدية. وعن الحسن قال: لا يقتل الرجل بالمرأة حتى يعطوا نصف الدية. وعن ابن عباس قوله «وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى» وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله تعالى «التَّفْسُ بِالنَّفْسِ» فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم في العمد رجالهم ونسائهم في النفس وما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم في العمد في النفس، وما دون النفس رجالهم ونسائهم. قلتُ: وأخرج البخارى في كتاب التفسير عن أنس أن الرُّبَيْعَ عمته كسرت ثنية جارية فطلبوا إليها العفو فأبوا فعرضوا الأرش فأبوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلا القصاص. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله أتكسر ثنية الرُّبَيْعِ؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيته. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنس كتابُ الله القصاص فرضى القوم فعفوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأَبْرَهُ الرُّبَيْعِ بضم الراء مصغر الربيع ضد الخريف. وهي بنت النضر: عمته أنس. والجارية الشابة. وأنس بن النَّضْرِ. بفتح النون وسكون الضاد المعجمة هو أخو الربيع، قوله: [الأبره] أي جعله باراً في قسمه، وفعل ما أَرَادَهُ. قيل: كيف يصح القصاص في الكسر وهو غير مضبوط؟ وأجيب بأن المراد بالكسر القلع أو كان كسراً مضبوطاً. قلتُ: في الجواب نظراً، والصواب أن يقال أراد بالكسر الكسر الذي يمكن فيه المماثلة. والله أعلم. وفي الخازن (ج ١ ص ١٠٦) بعض الإيضاح لما تقدّم ذكره «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ» قال: نزلت في حين من أحياء

العرب اقتتلوا في الجاهلية بسبب قتيل، فكانت بينهم قتلى وحروب وجراحات كثيرة، ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الإسلام. وقيل: نزلت في الأوس والخزرج، وكان لأحد الحيين طول على الآخر في الكثرة والشرف، وكانوا يتكحون نساءهم بغير مهر، وأقسموا لَتَقْتُلَنَّ بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين، وجعلوا جراحاتهم ضعفي جراحات أولئك، فرفعوا أمرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية، وأمره بالمساواة فرضوا وسلّموا. وقيل: إنما نزلت هذه الآية لإزالة الأحكام التي كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط بلا عفو، والنصارى يوجبون العفو بلا قتل، والعرب في الجاهلية كانوا يوجبون القتل تارة، ويوجبون أخذ الدية تارة، وكانوا يتعدون في الحكيم، فإن وقع القتل على الشريف قتلوا به عدداً، ويأخذون دية الشريف أضعاف دية الخسيس، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم أوجب الله رعاية العدل، وسوى بين عباده في حكم القصاص. فأنزل الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ» أي فرض عليكم القصاص في القتل. وقال الخازن: فإن قلت: كيف يكون القصاص فرضاً، والولى مخير فيه بين العفو والقصاص وأخذ الدية؟ قلت: إن القصاص فرض على القاتل للولى لا على الولي. وقيل: إذا أردتم القصاص فقد فرض عليكم. والقصاص: المساواة والمماثلة في القتل والدية والجراح. من قص الأثر: إذا اتّبعت، فالمفعول به يتبع ما فعل فيفعل به مثل ذلك، فلو قتل رجل رجلاً بعضاً، أو خنقه، أو شدخ رأسه بجرفات فيقتل القاتل بمثل الذي قُتل به، وهو قول مالك والشافعي، وإحدى الروایتين عن أحمد، وقيل يُقتل بالسيف، وهو قول أبي حنيفة والرواية الثانية عن أحمد، ومن العجيب أني رأيت في الكشاف للزمخشري (ج ١ ص ٣٣١) قولاً له وهو قال محمود — أي ابن عمر الزمخشري — : مذهب مالك والشافعي رضي الله عنهما أن الحر لا يقتل بالعبد، والذكر لا يقتل بالأنثى... الخ. قال أحمد الاسكندري (في كتابه الإنصاف فيما تضمنته الكشاف): وهذا من الزمخشري وهم على الإمامين فإنها يقتصان من الذكر للأنثى بلا خلاف عنها. وأما الحر والعبد عندهما. فهو الذي وهم الزمخشري عنها. قلت: وفي الخازن (ج ١ ص ١٠٦) في «الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبِيدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى» ومعناه أنه إذا تكافأ الدمان من الأحرار المسلمين، أو العبيد من المسلمين، أو الأحرار من المعاهدين، أو العبيد منهم،

فيقتل كل صنف إذا قتل بمثله الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى وبالذكر، ولا يقتل مؤمن بكافر، ولا حر بعبد، ولا والدٌ بولد، ويقتل الذمى بالمسلم والعبد بالحر والولد بالوالد. قال هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد. ويدلُّ عليه ما روى البخارى في صحيحه عن أبى جحيفة قال: سألت علياً: هل عندكم من النبي صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن؟ قال: لا. والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتى الله عبداً فهماً في القرآن. وما في هذه الصَّحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفك الأسير، وأن لا يقتل مؤمن بكافر* وقد أخرج مسلم عن علي نحو هذا من غير رواية أبى جحيفة. العقل هنا هو الدية، والعاقلة: الجماعة من أولياء القاتل الذين يعقلون* عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [لا تقام الحدود في المساجد ولا يقتل الوالد بالولد] أخرجه الترمذى* وذهب أصحاب الرأى إلى أن المسلم يقتل بالذمى، والحر بالعبد. وهذه الآية مع الأحاديث حجةٌ لمذهب الشافعي ومن وافقه، ويقولون: هي مفسرة لما أهبم في قوله: «النَّفْسُ بالنَّفْسِ..» وأن تلك واردة لحكاية ما كتب على بنى إسرائيل في التوراة، وهذه الآية خطاب للمسلمين بما كتب عليهم* وذهب أصحاب الرأى إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله «النفس بالنفس» وتقتل الجماعة بالواحد، ويدل عليه ما روى البخارى في صحيحه عن ابن عمر أن غلاماً قُتِلَ غيلةً، فقال عمر: لو اشترك فيه أهل صنعاء لقتلتهم به* قال البخارى: وقال مغيرة بن حكيم عن أبيه: أن أربعة قتلوا صبياً فقال عمر مثله. وروى مالك في الموطأ عن ابن المسيب أن عمر قتل نفراً خمسة أو سبعة برجل واحد قتلوه غيلة، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم جميعاً* الغيلة: أن يقتل الرجل خديعة ومكرأ من غير أن يعلم ما يراد به — وقوله: (لو تمالأ) أي تعاونوا واجتمعوا عليه* والخلاصة أن القصاص على القاتل أياً كان لا على أحدٍ من قبيلته، ولا فرد من أفراد عشيرته، وقد جرى العمل من لدن رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم على قتل الرجل بالمرأة، والحر بالعبد، إذا لم يكن سيده، فإن كان هو غزراً بشدة تمنع أمثاله هذا الاعتداء، ولا يقتل الوالد بولده لأن المقصد من القصاص ردع الجاني عن الإستمرار في مثل هذا الجناية. والوالد بفطرته مجبول على الشفقة على ولده حتى ليبدل ماله وروحه في سبيله، وقلماً يقسوا عليه، ولكن كثيراً ما يقسوا الولد على والده، وللحاكم أن يعزِّر قاتل ولده بما يراه زاجراً لأمثاله، ومرتباً لهم* كذا ذكره المراغى في تفسيره (ج ٢

ص ٦٢) وهو مخالف لما عليه الجمهور. وما ذكره المراعى هو مذهب الكوفيين والثورى وأبى حنيفة وغيرهم. ففى القرطبى تحت تنبيهات:

أولها: أن القصاص موكل إلى أولى الأمر لأن الله تعالى خاطب جميع الأفراد المؤمنين بالقصاص، واجتماعهم على إقامته محال، وبما أنهم أنابوا السلطان عنهم في إقامة الحدود، فهو الذي يتولى تنفيذه إذا لم يكن دية أو عفو من الأولياء.

ثانيها: ذهب الكوفيون والثورى على أن الحرّ يقتل بالعبد، والمسلم بالذمى. وذهب أبوحنيفة وأصحابه والثورى وابن أبى ليلى على أن الحرّ يقتل بالعبد كما يقتل العبد به. وهو قول داود، وروى ذلك عن على، وابن مسعود رضي الله عنها. وبه قال سعيد بن المسيّب، وقتادة وإبراهيم النخعى والحكم بن عُيينه. والجمهور من العلماء لا يقتلون الحر بالعبد للتوسيع والتقسيم في الآية. فأفاد كلام القرطبى هذا أنه لا مساواة بين الحر والعبد.

ثالثها: لا يُقتل مسلم بكافر لقوله عليه الصلاة والسلام: [لا يُقتل مسلمٌ بكافرٍ] أخرجه البخارى عن على بن أبى طالب ؑ وأما حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل يوم خيبر مسلماً بكافر، لا صحة له فهو منقطع وضعيف والصحيح ما ذكره البخارى [لا يُقتلُ مسلمٌ بكافرٍ] إذ هو يخصص عموم قوله تعالى: «كتب عليكم القصاص في القتلى» الآية. وعموم قوله «النفس بالنفس».

رابعها: وأجمع العلماء على أن المرأة تقتل بالرجل، والرجل يقتل بالمرأة. والجمهور لا يرون الرجوع بشيء من الدية. وفرقة ترى الاتباع بفضل الديات.

خامستها: اختلف أهل العلم في الرجل يقتل ابنه عمداً، فقالت: طائفة لا قود عليه، وعليه ديته، وهذا قول الشافعى وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأى، وروى ذلك عن عطاء ومجاهد وقال مالك وابن نافع وابن عبدالحكم: يقتل به وقال ابن المنذر: وهذا نقول لظاهر الكتاب والسنة وروى القرطبى عن مذهب مالك أنه إذا قتل الرجل ابنه متعمداً مثل أن يُضجعه ويذبحه أو يبصره — صبر الإنسان وغيره: على القتل أي يجبس ويرمى حتى يموت — مما لا عذر له فيه ولا شبهة في ادعاء الخطأ، أنه يقتل به قولاً واحداً. فأما إن رماه بالسلاح أدباً، أو خنقاً فقتله. ففيه في المذاهب قولان: يُقتل به، ولا يُقتل به، وتغلّظ الدية، وبه قال جماعة من العلماء، ويقتل الأجنبى بمثل هذا وقال ابن العرى: سمعت شيخنا فخر الإسلام الشاشى يقول في النظر. لا يقتل الأب بابنه لأن

الأب كان سبب وجوده، فكيف يكون هو سبب عدمه؟ قال القرطبي: وهذا يبطل بما إذا زنى بابنته فإنه يُرجم، وكان سبب وجودها، وتكون هي سبب عدمه. وقال: وقد أثاروا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا يُقَاد الوالد بولده]. وهو حديث باطل.. وكان مالك والشافعي وأحمد وإسحاق يقولون: إذا قتل الابن الأب قُتل به، وهو الحق لأن قتل الوالد من أشد العقوبات الذي نهى الله عنه، عدا ما فيه من قطعة رحم، وعظيم جرم.

سادسها: تقتل الجماعة بالواحد، وتقدّم فعل عمر لذلك — وقتل عليّ رضي الله عنه الحرورية — أي طائفة من الخوارج نُسيبوا إلى حروراء موضع قريب من الكوفة — قتلهم بعبدالله بن خباب. فإنه توقف عن قتالهم حتى يُحدثوا، فلمّا ذبحوا عبدالله بن خباب كما تُذبح الشاة، وأخبر عليّ بذلك قال: الله أكبر، نادوهم أن أخرجوا إلينا قاتل عبدالله بن خباب. فقالوا: كُلُّنا قتله ثلاث مرات. فقال علي لأصحابه: دونكم القوم. فما لبث أن قتلهم عليّ وأصحابه. وهذا الواجب اتباعه لأنه لو لم تقتل الجماعة بالواحد لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك في قتلهم الواحد بعد الواحد، وفي هذا ظلمٌ عظيم وفسادٌ كبير.

وبعد أن ذكر الله تعالى وجوب القصاص وهو أساس العدل، ذكر بعده العفو، وهو مقتضى التراحم قال: «فَمَنْ عَفَى لَهٗ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» أي ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد ورضى بالدية أو العفو عنها، أو قبول الدية في قتل العمد «مِنْ أَخِيهِ» أي من دم أخيه. وأراد بالأخ ولى المقتول، وإنما قيل له أخ لأنه لا بَسَّه من قبل أنه ولى الدم، والمطالب به. وقيل: إنما ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بما هو ثابت بينهما من الجنسية وأخوة الإسلام. وفي قوله «شَيْءٌ» دليل على أن بعض الأولياء إذا عفا سقط القود، وثبتت الدية لأن شيئاً من الدم قد بطل. «فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ» أي فليستبع الولى القاتل بالمعروف فلا يأخذ أكثر من حقه، ولا يعنفه، وترتيب الاتباع على العفو يفيد أن الواجب أحدهما، وهو أحد قولى الشافعي. والثاني: الواجب القصاص، والدية بدل عنه، فلو عفا ولم يسمها فلا شيء ورجح أي الثاني بأنه الذي عليه الأكثرون. وصححه الشيخان وهو المعتمد «وَوَ» على القاتل «أَدَاءً» للدية «إِلَيْهِ» أي العافي وهو الوارث «بِإِحْسَانٍ» بلا مطل ولا بخس أي لا يؤخر الدفع، أو

الوعد به ولا ينقص من الدية شيئاً. وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافراً، وأن الفاسق مؤمن. قال الخازن في تفسيره (ج ١ ص ١٠٧) ذلك من وجوه:

الوجه الأول: أن الله تعالى خاطبه بعد القتل بالإيمان وسماه مؤمناً بقوله: «يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ»، فسماه مؤمناً حال ما وجب عليه من القصاص، وإنما وجب عليه بعد صدور القتل منه، وقتل العمد والعدوان من الكبائر بالإجماع فدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن.

الوجه الثاني: أنه تعالى أثبت الأخوة بين القاتل وولى الدم بقوله: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ» وأراد بالأخوة أخوة الإيمان، فلولا أن الإيمان باق على القاتل لم تثبت له الأخوة.

الوجه الثالث: أنه تعالى ندب إلى العفو عن القاتل، والعفوا يليق إلا عن المؤمن لا عن الكافر.

وقوله تعالى: «ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ» يعنى الذي ذكر من الحكم بشرع القصاص، والعفو عن القصاص، وأخذ الدية تخفيف من ربكم، يعنى في حقكم ورحمة، وذلك لأن العفو، وأخذ الدية كان حراماً على اليهود، وكان القصاص حتماً في التوراة، وكان في شرع النَّصَارَى أخذ الدية، ولم يكتب عليهم القصاص، وقيل: كان عليهم العفو دون القصاص، وأخذ الدية، فخير الله هذه الأمة بين القصاص أو العفو وأخذ الدية توسعة عليهم وتيسيراً وتفضيلاً لهم على غيرهم. «فَمَنْ اعْتَدَ بَعْدَ ذَلِكَ» يعنى بعد هذا التخفيف فقتل الجانى بعد العفو، أو قبول الدية «فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، وهو أن يقتل قصاصاً، ولا تقبل منه دية، ولا يعفى عنه، وقيل المراد بالعذاب الأليم عذاب الآخرة في (غرائب القرآن) كان الوليُّ في الجاهلية يؤمِّن القاتل بقبول الدية، ثم يظفره فيقتله، وعن قتادة قال: العذاب الأليم أن يقتل لا محالة، ولا يقبل منه الدية كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [لا أعافى أحداً قتل بعد أخذه الدية] وهو مذهب الحسن وسعيد بن جبير، وضعفه غيرهم. ولما كانت الآية مشتملة على إيلام العبد الضعيف، وأنه لا يليق بكمال رحمته عقبا بقوله «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»، قال المفسرون: القصاص إزالة الحياة، وإزالة الشيء لا تكون نفس ذلك الشيء، فالمراد لكم في شرع القصاص حياة. وأيُّ حياة؟ وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب

حتى كاد يفنى بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة. ويحتمل أن يقال نفس القصاص سبب لنوع من الحياة، وهي الحاصلة بالارتداد عن القتل لأن القاتل إذا قيد منه ارتدع من كان يهتمُّ بالقتل فلم يقتل ولم يُقتل. فكان القصاص سبب حياة نفسين. وقرأ أبو الجوزاء ولكم في القَصَصِ حياةٌ أي فيما قُصَّ عليكم من حكم القتل والقصاص. وقيل: القصاص القرآن. أي لكم في القرآن حياة للقلوب * هذا: وقد اتفق علماء البيان على أن قوله سبحانه: «وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ»، بلغ في الإيجاز نهاية الإعجاز. وذلك أن العرب عبّروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة كقولهم: قتل البعض إحياء للجميع، وأكثروا القتل ليقلَّ القتل، وأوجز ذلك قولهم: القتل أنفى للقتل * والترجيح مع ذلك للآية من وجوه:

الأول: أن قولهم لا يصح على العموم لأن القتل ظلماً ليس أنفى للقتل قصاصاً، بل ادعى له. ولو خصص فقيل القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً طال. والآية تفيد هذا المعنى من غير تقدير وتكلف.

الثاني: أن القتل قصاصاً لا ينفي القتل ظلماً حيث أنه قتل، بل من حيث أنه قصاص، وهذه الحيثية معتبرة في الآية لا في كلامهم.

الثالث: أن الحياة هي الغرض الأصلي، ونفي القتل إنما يراد لحصول الحياة، فالتنصيص على المقصود الأصلي أولى.

الرابع: التكرار من غير ضرورة مستهجن وأنه في كلامهم لا في الآية.

الخامس: أن الحروف المفلوطة التي يعتمد عليها في اعتبار الوجازة لا المكتوبة. هي في الآية عشرة وفي كلامهم أربعة عشر.

السادس: أن الأغلب في كلامهم أسباب خفاف، وذلك مما يحل بسلامة التركيب. والآية مع غاية وجازتها فيها السبب والوتد والفاصلة.

السابع: ظاهر قولهم يقتضى كون الشيء سبباً لانتفاء نفسه وهو محال. وفي الآية جعل نوع من القتل وهو القصاص سبباً لنوع من الحياة، ولا استبعاد فيه لظهور التغاير.

الثامن: المطابقة مرعية في الآية لمكان التضاد بين لفظي القصاص وحياة. بخلاف كلامهم.

التاسع: اشتمال الآية على لفظ يصلح للتفاوت وهو الحياة بخلاف كلامهم، فإنه

يشتمل على نفي اكتنفته قتلان وأنه لكما يليق بهم.

العاشر: اشتمال الآية على اسمين وأداة، واشتمال كلامهم على ثلاثة أسماء وأداة، وإن اعتبرت أداة التعريف في الآية واحدة، وفي كلامهم ثنتان، وإن اعتبر التووين في الآية تقاصت الأدوات وتبقى زيادة الأسماء مجالها على أن أفعال التفضيل إذا لم يكن فيه اللام والإضافة يستعمل بمن فتقدير كلامهم القتل أنفي للقتل من كل شيء فأين الجواز؟.

«يَا أُولَى الْأَلْبَابِ» يا ذوى العقول، وأولوا جمع لا واحد له من لفظه، وواحد ذو بمعنى صاحب، وأولات للإناث واحدها ذات بمعنى صاحبة قال تعالى: «وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ» واللب العقل، ولب النخلة قلبها. وخالص كل شيء لبه، خاطب العقلاء الذين يتفكرون في العواقب ويعرفون جهات الخوف فلا يرضون باتلاف أنفسهم لا تلاف غيرهم، إلا في سبيل الله «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» يتعلق بمحذوف أي أريتكم ما في القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس لتكونوا على بصيرة في إقامته راجين أن تعملوا عمل أهل التقوى في الحكم به، وهو خطاب له فضل اختصاص بالأئمة أو لعلمكم تتقون نفس القتل لخوف القصاص. قاله الحسن والأصم. والسؤال هنا: إذا صح أن المقتول إن لم يقتل فهو يموت لأن المقدر من عمره ذلك القدر، وكذا إذا هم إنسان بقتل آخر فارتدع خوفاً من القصاص فإن ذلك الآخر يموت وإن لم يقتله ذلك الإنسان، لأن كل وقت صح وقوع قتله صح وقوع موته فكيف يفيد شرع القصاص حياة؟ والجواب أنه تعالى قد جعل لكل شيء سبباً يدور مسببه معه وجوداً وعدمًا. وشرعية القصاص مما جعلها الله تعالى سبباً لحياة من أراد حياته بعد أن تصور الهام قتله، وذلك بأن تذكر القصاص فارتدع عما هم به، ففائدة شرع القصاص هي فائدة سائر الأسباب والوسائل ومنكر فائدته منكر فائدتها، وكلا الانكارين مذموم، وصاحبها عند العقلاء مذموم.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّقْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي

الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»
سورة البقرة (آية: ١٨٧)

جاء في أسباب النزول للواحدى: قال ابن عباس في رواية الوالى. وذلك أن المسلمين كانوا في شهر رمضان إذا صلوا العشاء حُرِّم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم أنَّ ناساً من المسلمين أصابوا من الطعام والنساء في شهر رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية * وعن البراء بن عازب قال: كان المسلمون إذا أفطروا يأكلون ويشربون ويمسحون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا لم يفعلوا شيئاً من ذلك إلى مثلها، وأن قيس بن حرمة الأنصارى كان صائماً، فأتى أهله عند الإفطار، فانطلقت امرأته تطلب شيئاً وغلبته عيناه فنام، فلما انتصف النهار من غدٍ غشى عليه، قال: وأتى عمر امرأته وقد نامت فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت: «أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ» إلى قوله: «الْفَجْرِ» ففرح المسلمون بذلك * وعن البراء قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار فنام قبل أن يطعم لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى، وإن قيس بن حرمة الأنصارى كان صائماً، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل فغلبته عيناه، وجاءته امرأته، فلما رأتها قالت: خيبة لك، فأصبح صائماً، فلما انتصف النهار غشى عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية: «أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ» ففرحوا بها فرحاً شديداً. رواه البخارى عن عبدالله بن موسى عن اسرائيل * وفي التسنق أخذاً من الخازن (ج ١ ص ١١٥) أنه كان في ابتداء الأمر بالصوم إذا أفطر الرجل حلَّ له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلى العشاء الأخيرة، أو يرقد قبلها، فإذا صلى أو رقد حرم عليه ذلك كله إلى الليلة القابلة، ثم إن عمر بن الخطاب واقع أهله بعد ما صلى العشاء، فلما اغتسل أخذ يبكى ويلوم نفسه، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم قال يارسول الله: أعتذر إلى الله وإليك من هذه الخطيئة، إني رجعتُ إلى أهلى بعد ما صلَّيتُ العشاء فوجدتُ رائحة طيِّبة، فسوّلتُ لى نفسى فجامعت أهلى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما كنت بذلك جديراً يا عمر، فقام رجالٌ فاعترفوا بذلك فنزل في عمر وأصحابه: «أَحِلَّ لَكُمْ» أي أبيض لكم ليلة. أراد بالليلة ليلالى الصيام الرفث إلى

نسائكم الرفث كلام يستقيح لفظه، من ذكر الجماع ودواعيه، وهو هنا كناية عن الجماع* قال ابن عباس: إنَّ الله تعالى حي كرم يكتى، فا ذكره من المباشرة والملامسة وغير ذلك إنما هو الجماع* أي لأنه لا يكاد يخلوا من الرفث، وهو الإفصاح بما يجب أن يكون عنه كلفظ الوطاء، وعُدَّتْ بِإِلَى لَتَضْمَنَهُ مَعْنَى الْإِفْصَاحِ، وَكَتَى عَنِ الْجَمَاعِ هُنَا بِلَفْظِ الرَّفْثِ الدَّالِ عَلَى مَعْنَى الْقُبْحِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ: «وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ» اسْتَهْجَانًا لَمَّا وَجَدَ مِنْهُمْ قَبْلَ الْإِبَاحَةِ، وَلِذَلِكَ سَمَاهُ فِيمَا يَأْتِي خِيَانَةً «هَنَّ لِبَاسٍ» تَعْلِيلٌ لَمَّا قَبْلَهُ * وَعِبَارَةُ السَّمِينِ: لَا مَحَلَّ لَهُ مِنَ الْإِعْرَابِ لِأَنَّهُ بَيَانٌ لِلْإِحْلَالِ، فَهُوَ اسْتِنَافٌ وَتَفْسِيرٌ وَقَدْ هَنَّ لِبَاسٍ لَكُمْ عَلَى وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هَنَّ تَنْبِيهُاً عَلَى ظَهْوَرِ احْتِيَاجِ الرَّجُلِ لِلْمَرْأَةِ، وَعَدَمِ صَبْرِهِ عَلَيْهَا، وَلِأَنَّهُ هُوَ الْبَادِي بِطَلْبِ ذَلِكَ. وَكُنِيَ بِاللِبَاسِ عَنِ شِدَّةِ الْمَخَالِطَةِ * أَي هَنَّ سَكَنَ «لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٍ» سَكَنَ «لَهَنَّ» أَي كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» أَي شَبَّهَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ لِلْآخِرِ بِالسَّكَنِ، لِاسْتِمَالِهِ عَلَى صَاحِبِهِ فِي الْعِنَاقِ وَالضَّمِّ بِاللِبَاسِ الْمَشْتَمَلِ عَلَى لَابِسِهِ. أَي كَالْفِرَاشِ وَاللِّحَافِ * وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ تَمَثِيلٌ لَصُعُوبَةِ اجْتِنَابِهِنَّ وَشِدَّةِ مَلَابَسَتِهِنَّ، أَوْ لِسُرِّ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ عَنِ الْفَجْوَرِ، وَكَمَا قِيلَ: لَا يَسْكُنُ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ كَسَكُونِ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ إِلَى الْآخَرِ * «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ» بِالْجَمَاعِ لَيْلَةَ الصِّيَامِ ... هَذَا فِي الْمَعْنَى هُوَ سَبَبُ النُّزُولِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَرِيدُ فِيمَا اتَّمَنَّاكُمْ عَلَيْهِ، وَخِيَانَتُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يِبَاشِرُونَ فِي لَيَالِي الصِّيَامِ * وَالْمَعْنَى يَظْلِمُونَهَا بِالْجَمَاعَةِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَهُوَ مِنَ الْخِيَانَةِ، وَأَصْلُ الْخِيَانَةِ أَنْ يُؤْتَمَنَ الرَّجُلُ عَلَى شَيْءٍ فَلَا يُؤَدِي فِيهِ الْأَمَانَةَ. وَيُقَالُ لِلْعَاصِي خَائِنٌ لِأَنَّهُ مُؤْتَمَنٌ عَلَى دِينِهِ «فَتَابَ عَلَيْكُمْ» أَي فَتَبْتُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ، وَتَجَاوَزَ عَنْكُمْ، لِأَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَحذُوفٍ أَي فَتَبْتُمْ فَتَابَ ... الخ. «وَعَفَا عَنْكُمْ» أَي مَحَا ذُنُوبَكُمْ * رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنِ الْبِرَاءِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ كَانُوا لَا يَقْرَبُونَ النِّسَاءَ رَمَضَانَ كُلَّهُ، فَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ «عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ...» الْآيَةَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا نَفَعَ اللَّهُ بِهِ النَّاسَ، وَرَخَّصَ لَهُمْ وَيَسَّرَهُ «فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ» أَي جَامِعُوهُنَّ، فَهُوَ حَلَالٌ لَكُمْ فِي لَيَالِي الصِّيَامِ، وَسَمِيَتِ الْجَمَاعَةُ مَبَاشِرَةً لِتَلَاصِقَ بِشِرَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ بِصَاحِبِهِ وَالتَّقْدِيرُ: فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ أَي فَالْوَقْتُ الَّذِي كَانَ يَحْرَمُ عَلَيْكُمْ فِيهِ الْجَمَاعُ مِنَ اللَّيْلِ أَمْحَتْ لَكُمْ الْمَبَاشِرَةَ فِيهِ «وَابْتَغُوا» أَي اطْلُبُوا «مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» * فِي الْخُطْبِ: أَي مَا قَسَمَ

لكم وثبت في اللوح المحفوظ من الولد بالمباشرة. أي لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها، ولكن لا ابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل، أو قصد العفة كما جاء في الخبر (من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه) * وقال مجاهد: ابتغوا الولد فإن لم تلد هذه فهذه * وقال مقاتل: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ. وقيل: وابتغوا المحل الذي كتب الله لكم، وحلله دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرم * وقيل: هو نهي عن العزل لأنه في الحرائر وفي الخازن: وقيل: اطلبوا ليلة القدر * «وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ» في الخطيب: والخازن وغيرها أنها نزلت في رجل من الأنصار. قال عكرمة: اسمه أبوقيس، وذلك ظلَّ نهاره يعمل في أرض وهو صائم، فلما أمسى رجع إلى أهله بتمر، فقال لامرأته: قدمي الطعام، وأرادت المرأة أن تطعمه شيئاً سخناً، فأخذت تعمل له في شيء وكان في ابتداء الإسلام، من صلى العشاء، أو نام قبلها حرم عليه الطعام والشراب. فلما فرغت من طعامه إذ هو قد نام، وكان قد أعيأ وكلَّ فأيقظته، فكره أن يعصى الله ورسوله، وأبى أن يأكل، فأصبح صائماً مجهوداً، فلم ينتصف النهار حتى غشي عليه، فلما أفاق أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قال: يا أبا قيس. مالك أمسيت طليحاً، فذكر له حاله، فاغتم لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية * قال الخطيب: وقد شبَّه سبحانه وتعالى أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، وما يمتد معه من غيش الليل بخيطين (أبيض وأسود) واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله «مِنَ الْفَجْرِ» عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه * ومعنى الآية: وكلوا واشربوا في ليالي الصوم حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود بياض النهار من سواد الليل. وسميا خيطين لأن كل واحد منها يبدو في الأفق ممتداً كالخيط قال الشاعر:

فَلَمَّا أَضَاءَتْ لَنَا سَدْفَةٌ وَلَاخَ مِنْ الصُّبْحِ خَيْطٌ أَنَارَا

السدف: اختلاط الظلام. وسدف الفجر: أضاء * روى الشيخان عن سهل بن سعد قال: لما نزلت: «وَكُلُّوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ» ولم ينزل من الفجر، فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحداهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى تتبين له رؤيتهما، فأنزل الله عز وجل بعده «مِنَ الْفَجْرِ» فَعَلِمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنِ عَدِيِّ

قال: أخذ عدتي عقلاً أبيض وعقلاً أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبين فلما أصبح قال: يا رسول الله جعلت تحت وصادق عقالين، قال: إنَّ وِسادَكَ إِذَا لَعْرِضَ أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الْأَبْيَضَ وَالْأَسْوَدَ تَحْتَ وَسَادَتِكَ. وعدتي: هو عدتي بن حاتم رضي الله عنه وفي رواية له قال: قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود. أهما الخيطان؟ قال: إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين، ثم قال: بل هو سواد الليل وبياض النهار ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ﴾ من الفجر ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ أي دخوله بغروب الشمس كما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم] * والأمر في أتموا للوجوب. وهو يتناول كل الصيام * أجاب أصحاب الشافعي عنه: بأن هذا إنما ورد في بيان أحكام صوم الفرض، فكان المراد منه صوم الفرض، ويدل على إباحة الفطر من النفل ما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: [هل عندكم شيء؟ قلنا: لا، قال: فإني صائمٌ، ثم أتانا يوماً آخر، فقلت يا رسول الله: أهدى لنا حيسٌ. قال: أرينيه فلقد أصبحت صائماً، فأكل] أخرجه مسلم. الحيس: هو خلط الأقط والتمر والسمن. وقد يجعل عوض الأقط دقيق. وقيل: هو التريزق نواه ويخلط بالسويق. والأول أعرف * «وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ» الاعتكاف هو الاقبال على الشيء والملازمة له على سبيل التعظيم. وهو في الشرع: عبارة عن الإقامة في المسجد على عبادة الله تعالى. وسبب نزول هذه الآية أن نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعتكفون في المسجد، فإذا عرض لرجل منهم حاجة إلى أهله خرج إليها وخلا بها، ثم اغتسل ورجع إلى المسجد فنها عن ذلك، حتى يفرغوا من اعتكافهم * واعلم أن الله تعالى بين أن الجماع يحرم على الصائم بالنهار وبياح له في الليل، فكان يحتمل أن يكون حكم الاعتكاف كحكم الصوم فيبين الله تعالى في هذه الآية أن الجماع يحرم على المعتكف في النهار والليل حتى يخرج من اعتكافه. وسيأتيك بحث الاعتكاف إن شاء الله تعالى * «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» أي الأحكام المذكورة. وهي قوله تعالى: «فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ» إلى قوله: «في المساجد» وحدود الله ما حدّها لعباده ليقفوا عندها * وقيل: حدود الله فرائض الله. وأصل الحد في اللغة: المنع. والحدُّ الحاجز بين الشيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر. وحدُّ الشيء الوصف المحيط به معناه المميز

له عن غيره* وقيل معنى حدود الله: المقادير التي قدّرها، ومنع من مخالفتها* «فَلَا تَقْرَبُوهَا» نهي تعالى أن يقرب الحد: الحاجز بين الحق والباطل لئلا يُداني الباطل فضلاً أن يُتخطى عنه. ويجوز أن يراد بحدود الله محارمه ونواهيه* قال الخطيب: في تفسيره وعلى هذا فالنهي عن قربان ظاهر كما قال عليه الصلاة والسلام: [إن لكلّ ملكٍ حمى، وإن حمى الله في أرضه محارمه، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه] رواه الشيخان* «كَذَلِكَ» أي كما بيّن لكم ما ذكر «يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» أي لكي يتقوا مخالفة الأوامر والنواهي فينجوا من العذاب، (الخطيب والقرطبي والخازن) زاد القرطبي: قال ابن العربي: وهذا يدل على أنّ سبب الآية جماع عمر رضي الله عنه لا جوع قيس لأنه لو كان السبب جوع قيس لقال: فالآن كلوا، ابتدأ به لأنه المهم الذي نزلت الآية لأجله* ويستفاد من قوله تعالى: «وَكُلُّوا وَأَشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ» على أنه من أصبح جنباً فليغتسل، وليتم صومه ولا حرج عليه، وهذا مذهب الأئمة الأربعة، وجهور العلماء سلفاً وخلفاً لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنها قالتا: [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصبحُ جنباً من غير احتلام، ثم يغتسل ويصوم]* وفي حديث أم سلمة عندها: [ثم لا يفطر، ولا يفضي] وفي حديث مسلم عن عائشة أن رجلاً قال يا رسول الله: تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [وأنا تُدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم] فقال: لست مثلنا يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: [والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى] لكن في مسند الإمام أحمد وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن الفضل بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [إذا نودي للصلاة (صلاة الصبح) وأحدكم جنب فلا يصم يَوْمَئِذٍ] والأصح حمل الحديث هذا على نفي الكمال. أي لا صوم له كاملاً لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز، وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها.

* ((فصل في الاعتكاف)) *

الاعتكاف سنة، ولا يجوز في غير المسجد، وذلك لأن المسجد يتميز عن سائر البقاع بالفضل لأنه بنى لإقامة الطاعات والعبادات فيه * ثم اختلفوا فنقل عن عليّ أنه لا يجوز إلا في المسجد الحرام لقوله تعالى: «وَلَطَّهَّرْنَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَمِنَ الْعِبَادَةِ فِيهِ أَهْلًا وَمَسْجِدًا لِلَّهِ الَّذِي اسْمُهُ السُّجُودُ» فخصه به * وقال عطاء: لا يجوز إلا في المسجد الحرام ومسجد المدينة * وقال حذيفة: يجوز في هذين المسجدين، ومسجد بيت * وقال الزهري: لا يصح إلا في الجامع * وقال أبو حنيفة: لا يجوز إلا في مسجد له إمام ومؤذن * وقال الشافعي ومالك وأحمد: يجوز في سائر المساجد لعموم قوله تعالى: «وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ» إلا أن المسجد الجامع أفضل حتى لا يحتاج إلى الخروج من معتكفه لصلاة الجمعة * روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: [أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه بعده].

* ((فرع)) *

الفرع الأول: يجوز الإعتكاف بغير صوم، والأفضل أن يصوم معه، وقال أبو حنيفة: الصوم شرط في الإعتكاف ولا يصح إلا به، وقال الشافعي: يجوز الإعتكاف بلا صوم، وحجته ما روى عن ابن عمر قال: [يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام. قال: فأوف بندرك] أخرجاه في الصحيحين، ومعلوم أنه لا يصح الصوم في الليل.

الفرع الثاني: لا يُقَدَّرُ للاعتكاف زمان عند الشافعي، وأقله لحظة، ولا حدّ لأكثره، فلو نذر اعتكاف ساعه صحّ نذره، ولو نذر أن يعتكف مطلقاً يخرج من نذره باعتكاف ساعة. قال الشافعي: وأحب أن يعتكف يوماً، وإنما قال ذلك للخروج من الخلاف، فإن أقلّ زمن الاعتكاف عند مالك وأبي حنيفة يوم بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر، ويخرج منه بعد غروب الشمس.

الفرع الثالث: الجماع حرام في حال الإعتكاف ويفسد به، وأما ما دون الجماع كالقبلة ونحوها فمكروه ولا يفسد به عند أكثر العلماء، وهو أظهر قول الشافعي، والثاني يبطل به، وهو قول مالك، وقيل إن أنزل بطل اعتكافه، وإن لم ينزل فلا، وهو قول أبي حنيفة،

وأما الملامسة بغير شهوة فجائز، ولا يفسد به الإعتكاف لما روى عن عائشة رضي الله عنها: [أنها كانت ترجل النبي صلى الله عليه وسلم وهي حائض، وهو معتكف في المسجد وهي في حجرتها يناولها رأسه — زاد في رواية — وكان لا يدخل البيت إلا للحاجة إذا كان معتكفاً] أخرجه في الصحيحين * الترجيل: تسريح الرأس. وقولها إلا للحاجة: حوائج الإنسان كثيرة. والمراد منها ههنا كل ما يضطر الإنسان إليه مما لا يجوز فعله في المسجد وموضع معتكفه.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ١٨٨)

روى الواحدى في أسباب النزول عن مقاتل قال: نزلت هذه الآية في امرىء القيس بن عابس الكندى، وفي عبدان بن أشوع الحضرمى، وذلك أنها اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم في أرض، وكان امرؤ القيس المطلوب، وعبدان الطالب، فأنزل الله تعالى هذه الآية فحكم عبدان في أرضه ولم يخاصمه وفي الخطيب: روى أن عبدان الحضرمى ادعى على امرىء القيس الكندى قطعة أرض، ولم يكن له بينة فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيس، فهمم بالحلف فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا» فارتدع عن اليمين وسلم الأرض لعبدان فنزلت الآية. وعبارة الخازن: نزلت في امرىء القيس بن عابس الكندى ادعى عليه ربيعة بن عبدان الحضرمى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحضرمى: ألك بينة؟ قال: لا، قال: فلك يمينه، فانطلق ليحلف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إن حلف على ماله ليأكله لَيْقِيَنَّ الله وهو عنه معرض. فأنزل الله هذه الآية والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أي من غير الوجه الذي أباحه الله له، وأصل الباطل: الشيء الذاهب. وقال: أما حكم الآية بالباطل على وجوه:

الأول : أن يأكله بطريق التعدى والنهب والغصب.

الثاني : أن يأكله بطريق اللهو كالقمار، وأجرة المغنى وثمان الخمر والملاهى ونحو ذلك.

الثالث : أن يأكله بطريق الرشوة في الحكم وشهادة الزور.

الرابع : الخيانة وذلك في الوديعة والأمانة ونحو ذلك.

وإنما عبر عن أخذ المال بالأكل لأنه المقصود الأعظم. ولهذا وقع في التعارف فلان يأكل أموال الناس، بمعنى يأخذها بغير حلها، وفي المعنى قال المراهي: أي لا يأكل بعضكم مال بعض، وسماه ماله إشعاراً بوحدة الأمة وتكافلها، وتنبهاً إلى أن احترام مال غيرك احترام وحفظ لمالك كما أن التعدي على مال غيرك جنابة على الأمة التي هو أحد أعضائها، ولا بُدَّ أن يصيبه سهم من كل جنابة تقع عليها، إذ هو باستحلال مال غيره يجرىء غيره على استحلال أكل ماله إذا كان في طاقته، والباطل كلمة معروفة المعنى عند الناس بوجهها الكثيرة، ويدخل فيها:

- ١ - الربا لأنه أكل لأموال الناس بدون مقابل من صاحب المال المعطى.
 - ٢ - الأموال التي تلقى إلى الحكام رشوة لهم.
 - ٣ - الصدقة على القادر على الكسب الذي يكفيه.
 - ٤ - أخذ القادر على الكسب صدقة فلا يحل لمسلم أن يقبل صدقة وهو غير مضطر إليها.
 - ٥ - باعة التمام والعزائم وختمان القرآن، والعدد المعلوم من سورة يس لقضاء الحاجات، أو رحمة الأموات.
 - ٦ - التعدي على الناس بغصب المنفعة بأن يسخر بعضهم بعضاً في عمل لا يعطيه عليه أجراً، أو ينقصه من الأجر أو أجر المثل.
 - ٧ - ضروب الغش والاحتيال كما يقع من السماسرة من التلبيس والتدليس، فيزيئون للناس السلع الرديئة، والبضائع المزجاة، ويورطونهم في شرائها، ويوهمونهم ما لا حقيقة له، بحيث لو عرفوا الخفايا ما باعوا وما اشتروا.
 - ٨ - الأجر على عبادة من العبادات كالصلاة والصوم لأن العبادة إنما تكون بالنية وإرادة وجه الله تعالى ابتغاء لمرضاته، وامثالاً لأمره، فتي شاب هذا حظ من حظوظ الدنيا خرج العمل عن كونه عبادة، إذ لا يقبل الله من الأعمال إلا ما أريد به رضا فحسب، ودافع الأجر عليها خاسراً لماله، وآخذه خاسراً لماله.
- ومن علم العلم والدين بالأجر فهو كسائر الصناعات والأجراء لا ثواب له على أصل العمل، بل على اتقانه والإخلاص فيه، ولا يجوز أخذ الأجر على جواب السائل عن فتوى دينية تُعرض له، إذ الإجابة فريضة على أهل الذكر العارفين. وكتمان العلم محرّم.

«وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ» أي وتلقوا أمور تلك الأموال التي فيها الحكومة إلى الحكام في الخازن (ج ١ ص ١١٨) قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه المال، وليس عليه بيّنة فيجحد ويخاصم إلى الحكام، وهو يعلم أن الحقّ عليه، وهو آثم بمنعه وفي الطبرى (ج ٢ ص ١٠٧) زيادة على هذه الرواية: وهو يعرف أن الحقّ عليه، وهو يعلم أنّه آثم آكل حراماً وعن مجاهد في قوله: «وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ» قال: لا تُخاصم وأنت ظالم. وعن قتادة في قوله: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ» قال: وكان يقال من مشى مع خصمه وهوله ظالم فهو آثم حتى يرجع إلى الحقّ. واعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضى لا يحلُّ لك حراماً، ولا يحقُّ لك باطلاً، وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى ويشهد به الشهود، والقاضى بشر يخطئ ويصيب، واعلموا أنّه من قد قضى لأخيه بالباطل فإنّ خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينها يوم القيامة فيقضى على المسبطل للحق، ويأخذ مما قضى به للمبطل على الحق في الدنيا. وعن قتادة أيضاً في قوله «وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ» قال: لا تُدَلِّ بِمَالِ أَخِيكَ إِلَى الْحَاكِمِ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ ظَالِمٌ فَإِنَّ قِضَاءَهُ لَا يُحِلُّ لَكَ شَيْئاً كَانَ حَرَاماً عَلَيْكَ. وعن السدى: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ..» الآية. قال: أمّا الباطل. يقول يظلم الرجل منكم صاحبه، ثم يخاصمه ليقطع ماله، وهو يعلم أنه ظالم فذلك قوله وتدلّوا بها إلى الحكام. وعن عكرمة في قوله: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ» قال: هو الرجل يشتري السلعة فيردّها ويرد معها دراهم. وقال ابن زيد في قوله: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ» يقول: يكون أجدل منه وأعرف بالحجة فيخاصمه في ماله بالباطل ليأكل ماله بالباطل وقرأ: «بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ» قال: هذا القمار الذي كان يعمل به أهل الجاهلية. وأصل الادلاء إرسال الرجل الدلو في سبب متعلقاً به في البئر. فقيل للمُحتجّ لدعواه أدلى بحجته كيت وكيت إذا كانت حجته التي يحتج بها سبباً له هو به متعلق في خصومته كتعلق المستقي من بئر بدلو قد أرسلها فيها بسببها الذي الدلوبة متعلقة يقال فيها جميعاً أعنى من الإحتجاج ومن إرسال الدلو في البئر بسبب أدلى فلان بحجته فهو يدلى بها إدلاءً. وأدلى دلوه في البئر فهو يدلها إدلاءً. وقيل: هو أن يقيم شهادة الزور عند الحاكم وهو يعلم ذلك. وكان شريح القاضي يقول إني لأقضى لك، وإنى لأظنك ظالماً

ولكني لا يسعني إلا أن أقضى بما يحضرنى من البيّنة، وإنّ قضائي لا يحلّ لك حراماً روى الشيخان عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: [إنما أنا بشرٌ، وأنه يأتيني الخصم، فلعلّ بعضهم أن يكون أبلغ من بعض (وفي رواية: ألحن بحجته من بعض) فأحسب أنه صادق، فأقضى له، فن قضيتُ له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها] * قولها: سمع جلبة خصم: يعنى أصوات خصم. قوله: ألحن بحجته: يقال فلان ألحن بحجته من فلان. أي أقوم بها منه، وأقدر عليها. من اللّحن: بفتح الحاء، وهو الفطنة * «لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا» أي طائفة وقطعة «مِنَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ» يعنى بالظلم. وقال ابن عباس: باليمين الكاذبة، وقيل: بشهادة الزور «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» يعنى أنكم على الباطل، وأنّ ما تدّعون وترجونه في كلامكم كذباً وزوراً، وهي السبب في تفرق الناس * وفي السمين «بِالْإِثْمِ» يحتمل أن تكون - الباء - للسببية فتتعلق بقوله: «لِتَأْكُلُوا»، وأن تكون للمصاحبة. فتكون حالاً من الفاعل في لتأكلوا. وتتعلق بمحذوف أي لتأكلوا ملتبسين بالإثم. وأنتم تعلمون جملة في محل نصب على الحال من فاعل لتأكلوا، وذلك على رأى من يميز تعدد الحال. وأمّا من لا يميز ذلك فيجعل. بالإثم: غير الحال * وفي الآية والحديث عبرة لو كلاء الدعاوى (المحاميين) فلا ينبغي لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقبل الوكالة في دعوى يعتقد أن صاحبها مبطل. ويعتمد في ذلك على خيالاته (١) في القول ولحنه في الخطاب.

والناظر إلى ما عليه المسلمون اليوم من غرامهم بالتقاضى. والإدلاء إلى الحكام محض الإيذاء والانتقام، وإن أضرب نفسه، يتعلم بغيرهم عن فهم دينهم وهدى كتابهم، ومن ثمّ ساءت حالهم، فنفذت ثرواتهم، وخربت بيوتهم، وفرقت جماعاتهم، ولو تأدبوا بأدب الكتاب الذي إليه ينتسبون لكان لهم من هدايته ما يحفظ حقوقهم ويمنع تقاطعهم وعقوقهم، وحلّ فيهم التراحم محلّ التراحم، وقد بلغ من أمرهم أن ظنّوا أنهم عن هدى الدين أغبياء، وعمّوا عمّا أصابهم لأجل هذا من الأرزاء (المراعى ج ٢ ص ٨٣).

(١) الخلافة بكسر الحاء: المخادعة. وقيل: الخديعة باللسان. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل كان يخدع في بيعة: إذا بعت فقل لا خلافة: أي لا خداع. (المؤلف)

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» سورة البقرة (آية: ١٨٩)

في أسباب النزول للواحدى : قال معاذ بن جبل يا رسول الله: إن اليهود تغشانا ويكشرون مسألتنا عن الأهلة. فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال قتادة: ذكر لنا أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم: لِمَ خُلِقَتْ هذه الأهلة؟ فأنزل الله تعالى «قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ» وقال الكلبي: نزلت في معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنمة، وهما رجلان من الأنصار. قالوا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يكون كما كان. لا يكون على حالة واحدة فأنزلت هذه الآية. وكذا في تفسير الخطيبه وفي الطبرى (ج ٢ ص ١٠٨) قال قتادة: سألوا نبي الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك: لِمَ جُعِلَتْ هذه الأهلة، فأنزل الله فيها ما تسمعون. هي مواقيت للناس. فجعلها لصوم المسلمين ولاإفطارهم ولناسكهم وحجهم ولعدّة نساءهم ومحلّ دينهم في أشياء، والله أعلم بما يصلح خلقه. وكذا روى عن الربيع وعن السدى قال: هي مواقيت للناس. فهي مواقيت الطلاق والحيض والحج. وقد كان هذا سؤالاً منهم على وجه الفائدة عن وجه الحكمة في تبيين حال الهلال في الزيادة والنقصان، ومحاق الأهلة وتغير أحوالها. وما المعنى الذي خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة أبداً على حال واحدة لا تتغير بزيادة ولا نقصان... فقل يا محمد خالف بين ذلك ربكم لتصويره الأهلة التي سألتهم عن أمرها ومخالفة ما بينها وبين غيرها فيما خالف بينها وبينه مواقيت لكم ولغيركم من بنى آدم في معاشهم ترقبون زيادتها ونقصانها ومحاقها واستمرارها لتعلموا بها وقت حلول ديونكم وانقضاء مئة إجارة من استأجرتموه ووقت صومكم وإفطاركم، فجعلها مواقيت للناس. والأهلة جمع هلال، وهو أول حال القمر حين يراه الناس أول ليلة من الشهر «قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ» جمع ميقات. والمعنى إنا فعلنا ذلك لمصالح دينية ودنيوية ليعلم الناس أوقات حجهم وصومهم... الخ. «وَالْحَجِّ» أي وللحج، وإنما أفرد الحج بالذكر، وإن كان داخلاً في جملة العبادات لفائدة عظيمة، وهي أن العرب في الجاهلية كانت تحجّ

بالعدد وتبدّل الشهور، فأبطل الله ذلك من فعلهم، وأخبر أن الحج مقصور على الأشهر التي عيّنها لغرض الحج بالأهلة، وأنه لا يجوز نقل الحج عن تلك الأشهر التي عينها الله تعالى له كما كانت العرب تفعل بالنسيء* ويمكن أن يقال: توقف الصوم على الهلال قد علم من قوله: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» والزكاة تتعلق بالحول. والأصل في تقدير السنين لعودة الشمس من نقطة كأول الحمل مثلاً إلى مثلها بمركتها الخاصة، والأيمان والجهاد لا يتعلقان بوقت معيّن، والصلاة تتعلق باليوم والليلة، فلم يبق من الأركان المتعلقة بالشهر سوى الحج فتعيّن ذكره* وقوله تعالى: «فَلَنْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ» هذا من جواب السائل بغير ما سأل عنه تنبيهاً على أن الأولى لهم أن يسألوا عن هذا المجاب به لأنه هو الذي يعينهم، وذلك أنهم سألوا عن سبب اختلاف القمر في ذاته فأجيبوا ببيان فائدة هذا الاختلاف إشارةً إلى أنّ هذا هو الذي ينبغي أن يسئل عنه لأنّه من أحكام الظاهر التي شأن الرسول التصدي لبيانها، وأمّا سبب اختلافه فهو من قبيل المغيبات التي لا غرض للمكلف في معرفتها، ولا يليق أن تُبين له. ولكن قرّر أبو السعود وكذا الخازن إلى أنّ الجواب مطابق للسؤال. ونصّ الأول: كانوا قد سألوه عليه السلام عن الحكمة في اختلاف حال القمر، وتبدّل أمره، فأمره الله تعالى أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة في ذلك معالم للناس... الخ.

* ((فائدة)) *

كل ما جاء من السؤال في القرآن أجيب عنه بـ «فَلَنْ» بلا فاء. إلا في طه «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ» فبالفاء، لأن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال، وفي طه كان قبله. إذ تقديره: إن سئلت عن الجبال فقل...

* ((فائدة أخرى)) *

الفرق بين الوقت، وبين المدة والزمان، أنّ المدة المطلقة: امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهائها، والزمان: مُدَّة منقسمة إلى الماضي والحال والمستقبل. والوقت: الزمان المفروض لأمر. (الكرخي).

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» بقية الآية المتقدمة.

في غرائب القرآن عن البراء قال: نزلت هذه الآية فينا. كان الأنصار إذا حجوا، فجاؤا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت. فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه غير بذلك فنزلت رواه البخارى ومسلم. وكذا ذكر في أسباب النزول للواحدى * وفي رواية كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره. فأنزل الله الآية. وقال المفسرون: كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام. إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه. فإن كان من أهل. المدر: المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سُلماً فيصعد فيه. وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل من الباب حتى يحل من إحرامه، ويرون ذلك ذمّاً إلا أن يكون من الحمس، وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم وبنو عامر بن صعصعة وبنو النَّضْر بن معاوية. سُموحماً لتشدهم في دينهم. قالوا: فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بيتاً لبعض الأنصار، فدخل رجل من الأنصار على إثره من الباب وهو محرم، فأنكروا عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لِمَ دَخَلْتَ من الباب وأنت محرم؟ فقال: رأيتك دخلت من الباب فدخلت على إثرك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني أحمسي. قال الرجل: إن كنت أحمسيًا فإني أحمسي ديننا واحد، ورضيتُ بهديك وسمتك ودينك. فأنزل الله تعالى هذه الآية (الخطيب) * وفي الغرائب والخطيب. وأما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله بناء على الأسباب المروية في نزوله وعليه أكثر المفسرين فهو أنهم لما سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة. قيل لهم: اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعينكم، وارجعوا إلى ما البحث عنه أهم، ولا تعتقدوا أن جميع ما سنح لكم هو على شاكلة الصواب، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم تحسبونها برّاً، وليست من البر في شيء * أو أنه تعالى لما ذكر الحكمة في الأهلة، وهى جعلها مواقيت للناس والحج وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبروها في الحج فلا جرم تكلم الله تعالى فيه استطراداً لمزيد الإهتمام بشأنه لما فيه من المنافع الدينية والدنيوية، أو اتفق وقوع القصصين في وقت واحد فنزلت الآية فيها معاً في وقت واحد. وقيل: إنه تمثيل

لتعكيسهم في سؤلهم فإن الطريق المستقيم هو الاستدلال بالمعلوم على المظنون. فأمّا أن يُستدل بالمظنون على المعلوم فذاك عكس الواجب، ولما ثبت بالدلائل أن للعالم صناعاتاً مختاراً حكيماً، وثبت أن الحكيم لا يفعل إلاّ الصواب البريء عن العبث والسّفه، فإذا رأينا اختلاف حال القمر ووجب أن نعلم أن فيه حكمة ومصلحة، وهذا استدلال بالمعلوم على المجهول، فأمّا أن يستدل بعدم علمنا بما فيه من الحكمة على أن فاعله غير حكيم فهو استدلال بالمجهول على المعلوم، فكأنه تعالى يقول: لَمَّا لم تعلموا حكمته في اختلاف نور القمر صرتم شاكين في حكمة الخالق، أو قاربتم الشك فقد أتيتم الأمر من ورائه، وهذا ليس من البر، ولا من كمال العقل إنما البرُّ أن تأتوا الأمور من وجوهها التي يجب أن تؤتى منها، وهذا باب مشهور في الكناية. قال الأعشى:

وكاس شربت على رغبة وأخرى تداويت منها بها
لكن يعلم الناس أني أمرؤ أتيت المعيشة من باها

وعن أبي مسلم أنّ هذا إشارة إلى ما كانوا يفعلونه من النسء، وكان يقع الحج في غير وقته، فذكر إتيان البيوت من ظهورها مثلاً لمخالفتهم الواجب في الحج وشهوره إنه تعالى أمرهم بالتقوى التي تتضمن الإتيان بجميع الواجبات والاجتناب عن الفواحش والمنكرات إرادة أن يظفروا بالمطالب الدينية والدنيوية. وفي الخازن (ج ١ ص ١١٩) وقال الزهري: كان ناس من الأنصار إذا أهلوا بالعمرة لم يجعلوا بينهم وبين السماء شيئاً، وكان الرجل يخرج مُهلاً بالعمرة فتبدوله الحاجة بعد ما خرج من بيته، فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف الباب أن يحول بينه وبين السماء، فيفتح الجدار من ورائه، ثم يقوم في حجرته، فيأمر بجأجته، ثم بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هلّ زمن الحديبية بالعمرة، فدخل حجرة فدخل رجل من الأنصار من بني سلمة على أثره فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لم فعلت ذلك؟ قال: لأني رأيتك دخلت. فقال عليه الصلاة والسلام: إني أحسبُ. فقال الأنصاري: وأنا أحسبُ. يقول: أنا على دينك فأنزل الله تعالى: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا» يعني في حال الاحرام وغيره «وَأَتُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» تفوزون برضا الله في الدنيا والآخرة، وتفعلون في أعمالكم وتصلون إلى غاية آمالكم. فالتقون ملهمون إلى طريق الرشاد كما قال تعالى: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا».

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»

سورة البقرة (آية: ١٩٠)

روى الواحدى عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صُدَّ عن البيت هو وأصحابه نحر الهدى بالحديبية، ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه، ثم يأتي القابل على أن يخلوا له مكة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء، وصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان العامل المقبل تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي لهم قريش بذلك، وأن يصدّوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام في الحرم فأنزل الله تعالى «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...» يعنى قريشاً وفي القرطبي: هذه أول آية نزلت في الأمر بالقتال، ولا خلاف في أن القتال كان محظوراً قبل الهجرة بقوله تعالى: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» وقوله تعالى: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ» وقوله: «وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا» وقوله: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَوِّطٍ» وما كان مثله مما نزل بمكة، فلمّا هاجر إلى المدينة أمر بالقتال فنزل «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ» قال الربيع بن أنس وغيره: وروى عن أبي بكر الصديق أنّ أول آية نزلت في القتال «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا...» قال القرطبي: والأول أكثر. وإن آية الإذن إنما نزلت في القتال عامة لمن قاتل ولمن لم يقاتل من المشركين. وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة.. الخ. * أي يحمل لكم القتال إن قاتلكم الكفار. فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت من ظهورها فكان عليه الصلاة والسلام يقاتل من قاتله ويكف عن كفت عنه حتى نزل «فاقتلوا المشركين» فنسخت هذه الآية قاله جماعة من العلماء وقال ابن زيد والربيع نسخها «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» فأمر بالقتال لجميع الكفار وقال ابن عباس وعمر بن عبدالعزيز ومجاهد: هي محكمة. أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم * قال أبو جعفر النحاس: وهذا أصح القولين في الستة والنظر. فأما السنة فحديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة فكره ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان،

رواه الأئمة* وأمّا النَّظَر، فإن (فاعل) لا يكون في الغالب إلا من اثنين. كالمقاتلة والمشاهدة والمخاصمة، والقتال لا يكون في النساء ولا في الصبيان، ومن أشبههم كالرهبان والزَّمنى والشيوخ والأجراء فلا يقتلون. وهذا أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام إلا أن يكون لهؤلاء إذابة. أخرجه مالك وغيره* أي أنّ أي صنّف مما ذكر إذا قاتل يقتل. ففي الطبري عن يحيى بن يحيى الغساني قال: كتبتُ إلى عمر بن عبدالعزيز أسأله عن قوله «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» قال: فكتب إليّ أن ذلك في النساء والذرية ومن لم ينصب لك الحرب منهم* وفي الخازن (ج ١ ص ١١٩) «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي في طاعة الله وطلب رضوانه. أخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعةً و يقاتل حميةً و يقاتل رياءً أي ذلك في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله «الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ» كان في ابتداء الإسلام أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالكف عن قتال المشركين، ثم لما هاجر إلى المدينة أمر بقتال من قاتله منهم بهذه الآية* أي أن الآية محكمة لا منسوخة. قال الربيع بن أنس: هذه أول آية نزلت في القتال، ثم أمر الله بقتال المشركين كافة قاتلوا أو لم يقاتلوا بقوله تعالى: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» وبقوله: «اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ» فصارت آية السيف ناسخة لهذه الآية. وقيل: إنها محكمة، ومعناها على هذا القول. وقاتلوا في سبيل الله الذين اعدوا أنفسهم للقتال فأما من لم يعد نفسه للقتال كالرهبان والشيوخ والزمنى والمكافيف والمجانين فلا تقتلهم لأنهم لم يقاتلوكم* «وَلَا تَعْتَدُوا» وقال ابن عباس: ولا تقتلوا النساء والصبيان والشيوخ والرهبان، ولا من ألقى إليكم السلام روى مسلم عن بريدة قال: [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا بالله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تعتدوا ولا تمتثلوا ولا تقتلوا وليداً» قوله: ولا تغلوا. الغلول: الخيانة، وهو ما يخفيه أحد الغزاة من الغنصيمة، وقوله: ولا تعتدوا. أي ولا تنقضوا العهد. وقيل في معنى الآية. لا تعتدوا أي لا تبدؤهم بالقتال. فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية القتال كذا قاله الخازن في تفسيره (ج ١ ص ١١٩)* «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» المتجاوزين ما حد

لهم * قال الجلال: وهذا منسوخ بآية براءة — أي وهي «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» أي قاتلوا أو لم يقاتلوا. بل قيل إنه نسخ بها سبعون آية — أو بقوله «وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ» وجدتموهم «وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ» أي مكة، وقد فعل بهم ذلك عام الفتح، أي فعل ذلك بمن لم يسلم منهم. «وَالْفِتْنَةُ» الشرك منهم. وسمى الشرك فتنة لأنه فساد في الأرض «أَشَدُّ» أعظم من القتل لأنه يؤدي إلى الخلود في النار، «مِنَ الْقَتْلِ» لهم في الحرم، أو الاحرام الذي استعظموه «وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» أي في الحرم «حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ» فيه «فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ» القتل والاخراج «جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإِنْ انْتَهَوْا» عن الكفر وأسلموا «فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ» لهم «رَحِيمٌ» ٣٣.

القول في تأويل قوله تعالى :

«الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» سورة البقرة (آية: ١٩٤)

روى الواحدى عن قتادة قال: أقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في ذى القعدة/ في السنة السادسة/ حتى إذا كانوا بالحديبية صدَّهم المشركون، فلما كان العام المقبل دخلوا مكة، فاعتَمروا في ذى القعدة وأقاموا بها ثلاث ليال، وكان المشركون قد فَجَرُوا عليه حين رُدُّوه يوم الحديبية، فأقصه الله تعالى منهم فأنزل «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ..» الآية * وفي الخطيب: وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج معتمراً في ذى القعدة سنة ست، وصدَّه المشركون عن البيت بالحديبية، ورجع في العام القابل في ذى القعدة، وقضى عمرته سنة سبع، واستعظم المسلمون قتالهم في الشهر الحرام نزلت هذه الآية. أن هذا الشهر بذلك، وهتكه، بهتكه فلا ينالوا به * وفي القرطبي: وروى عن الحسن أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أنهيت يا محمد عن القتال في الشهر الحرام؟ قال: نعم فأرادوا قتاله فنزلت هذه الآية إلا أن الذي ذكره الخطيب أشهر وعليه أكثر المفسرين * وعبارة أبي السعود «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ...» فقد قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذى القعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء في ذى القعدة أيضاً وكراهتهم القتال فيه: هذا الشهر الحرام بذلك الشهر الحرام، وهتكه بهتكه

فلا تبالوا» وعبارة المراعى خرج المؤمنون مع النبي صلى الله عليه وسلم للنسك عام الحديبية، فصدّهم المشركون، وقاتلّوهم رمياً بالسّهام والحجارة في شهر ذى القعدة سنة ست، ثم صالحوهم على أن يرجعوا إلى مكة في العام القابل، ولما خرجوا في ذلك العام لعمرة القضاء كرهوا قتال المشركين، وإن اعتدّوا ونكثوا العهد في الشهر الحرام، فبيّن لهم أنّ المحذور في الأشهر الحرم هو العدوان بالقتال لا المدافعة عن النفس، وأنّ المشركين بإصرارهم على الفتنة وإيذائهم المؤمنين فعلوا ما هو أشدّ قبحاً من القتل بتأييدهم للشرك، ومنعهم للحق» ونحوه في الخازن (ج ١ ص ١٢٠) وكذا في الغرائب» وفي الطبرى (ج ٢ ص ١١٤) عن ابن عباس في قوله «وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ» قال: هم المشركون حسبوا محمداً صلى الله عليه وسلم في ذى القعدة فرجعه الله في ذى القعدة، فأدخله البيت الحرام، فاقترض له منهم» وعن مجاهد في قوله «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ..» قال: فخرت قريش بردها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية محرماً في ذى القعدة عن البلد الحرام. فأدخله الله مكة في العام المقبل من ذى القعدة فقضى عمرته، وأقصه بما حيل بينه وبينها يوم الحديبية» وعن قتادة قوله: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ..» قال: أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فاعتمروا في ذى القعدة ومعهم الهدى حتى إذا كانوا بالحديبية صدّهم المشركون فصالحهم نبي الله صلى الله عليه وسلم على أن يرجع من عامه ذلك حتى يرجع من العام المقبل، فيكون بمكة ثلاثة أيّام ولا يدخلها إلا بسلام راکب، ويخرج ولا يخرج بأحد من أهل مكة فنحروا الهدى بالحديبية، وحلقوا وقصروا حتى إذا كان من العام المقبل أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى دخلوا مكة فاعتمروا في ذى القعدة، فأقاموا بها ثلاث ليال، فكان المشركون قد فخرُوا عليه حين ردّوه يوم الحديبية، فأقصه الله منهم، فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردّوه فيه في ذى القعدة، فقال الله: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ...» وأخبر ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ» حتى فرغ من الآية قال: هذا كله قد نسخ أمره أن يجاهد المشركين، وقرأ قاتلوا المشركين كافة كما يُقاتلونكم كافة. وقرأ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار العرب، فلما فرغ منهم قال الله جل ثناؤه، قاتلوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. حتى بلغ قوله: وهم صاغرون. قال: وهم الروم

قال: فوجه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم * «وَالْحُرْمَاتُ» جمع حرمة، وإنما جمعت لأنه أراد حرمة الشهر وحرمة البلد، وحرمة الإحرام «قِصَاصٌ» القصاص: المساواة والمماثلة، وهو أن يفعل بالفاعل مثل ما فعل، والمعنى أنهم لما منعوكم عن العمرة، وأضاعوا هذه الحرمات في سنة ست، فقد وقفتم حتى قضيتموها على رغمهم في سنة سبع. وقيل هذا في القتال . ومعناه فإن بدؤكم بالقتال في الشهر الحرام فاقتلوهم فيه فإنه قصاص «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» أي بالقتال «فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ» أي فقاتلوه «بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» سُمِّيَ الجزاء بالاعتداء على سبيل المشاكلة «وَاتَّقُوا اللَّهَ» في الانتصار وترك الاعتداء أي لِمَا أباح لهم الاقتصاص بالمثل، وشأن النفس حُبُّ المبالغة في الانتقام حذرهم من ذلك فقال: واتقوا الله «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» بالعون والنصر. وفي الطبري: حدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ» أقبل نبي الله وأصحابه فاعتمروا في ذي القعدة ومعهم الهدى حتى إذا كانوا بالحديبية صدَّهم المشركون، فصالحهم نبي الله صلى الله عليه وسلم على أن يرجع من عامه ذلك حتى يرجع من العام المقبل، فيكون بمكة ثلاثة أيام، ولا يدخلها إلا بسلاح راكب، ويخرج ولا يخرج بأحدٍ من أهل مكة، فنحروا الهدى بالحديبية وحلقوا وقصروا حتى إذا كان من العام المقبل أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى دخلوا مكة، فاعتمروا في ذي القعدة، فأقاموا بها ثلاث ليالٍ، فكان المشركون قد فخروا عليه حين ردَّوه يوم الحديبية، فأقصه الله منهم، فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردَّوه فيه في ذي القعدة فقال الله: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ» فيكون معنى «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ» عمرة في شهر حرام بعمرة في شهر حرام. وشهر ذي القعدة من الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال والقتل، وتضع فيه السلاح، ولا يقتل فيه أحدٌ أحداً ولولت الرجل فيه قاتل أبيه، أو ابنه، وسمى ذا القعدة لعودهم فيه عن المغازي والحروب، فسماه الله بالاسم الذي كانت العرب تسميه به، وتكون الآية قد نزلت في عمرة القضاء أي أن ذا القعدة الذي دخلتم فيه مكة وقضيت عمركم بالشهر الحرام الذي صددتم فيه عن البيت * وفي ابن كثير في قوله: «فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ» نزلت بمكة حيث لا شوكة، ولا جهاد، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة، وقد ردَّ هذا القول ابن جرير، وقال: بل الآية مدنية بعد عمرة القضاء، وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله. وعبارة أبي

السعود: الشهر الحرام بالشهر الحرام، فقد قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذى القعدة فقبل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء في ذى القعدة أيضاً وكرهتهم القتال فيه، هذا الشهر الحرام بذاك الشهر الحرام، وهتكه بهتكه فلا تبالوا.

***(القول في تأويل قوله تعالى : ((
«وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»**

في الواحدي: عن الشعبي قال: نزلت في الأنصار أمسكوا عن النفقة في سبيل الله فنزلت هذه الآية * وعن عكرمة قال: نزلت في النفقات في سبيل الله * وعن ابن أبي جبير قال: كانت الأنصار يتصدقون ويطعمون ما شاء الله، فأصابهم سنة فأمسكوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية * وعن النعمان بن بشير في قوله: «وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» قال: كان الرجل يذنب الذنب فيقول: لا يغفر لي. فأنزل الله هذه الآية * وأخرج الحكم بن عمر أنه قال: كُتِبَ بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبه بن عامر الجهني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج من المدينة صف عظيم من الروم، ووقفنا لهم صفاً عظيماً من المسلمين، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا مقبلاً، فصاح الناس فقالوا: سبحان الله!! ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنا أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصريه، قلنا: بعضنا لبعض سراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن أموالنا قد ضاعت فلو أننا أقننا فيها، وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى في كتابه يرد علينا ما هممنا به فقال: «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» في الإقامة التي أردنا أن نقيم في الأموال.. فأمرنا بالفتوة، فما زال أبو أيوب غازياً في سبيل الله حتى قبضه الله عز وجل * وفي الخطيب: وروى أنّ رجلاً من المهاجرين حمل على صف العدو فصاح به الناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب الأنصاري: نحن أعلم بهذه الآية، وإنما نزلت فينا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصرناه وشهدنا معه المشاهد، وآثرناه

على أهلنا وأولادنا وأموالنا، فلمّا فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها رجعنا إلى أهلينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها فكانت التهلكة: الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، فما زال أبوأيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية في زمن معاوية فتوفى هناك، ودفن في أصل سورها، وهم يستسقون به * وقال محمد بن سيرين وعبيدة السلماني: الإلقاء إلى التهلكة: هو القنوط من رحمة الله تعالى * قال أبو قلابة: هو الرجل يصيب الذنب فيقول هلكت ليست لي توبة، فيياس من رحمة الله، وينهمك في المعاصي فنهاهم الله عن ذلك كما قال تعالى: «إِنَّهُ لَا يِيَّاسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» * وفي القرطبي: في قوله تعالى: «وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ»، قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وجهور من الناس: المعنى لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة، فيقول الرجل: ليس عندي ما أنفقه، وإلى هذا المعنى ذهب البخارى إذ لم يذكره غيره * قلت: ومما يؤكد هذا المعنى ما ورد في الطبرى: حدّثنا أبو كريب قال: ثنا أبو بكر قال: ثنا أبو إسحاق عن البراء قال: سأله رجل: أحل على المشركين وحدى فيقتلونى أكنت ألقىت بيدي إلى التهلكة؟ فقال: لا إنَّ التهلكة في النفقة، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ» فيكون المعنى: وأنفقوا أموالكم أيها المؤمنون بإعداد العدة لاعتزاز ديني الذي شرعته لكم، وجاهدوا بها عدوكم الناصبين لكم الحرب على الكفرى ولا تقعدوا عن النفقة والجهاد فيغزوكم الأعداء فتهلكوا، لأن من قعد عن الجهاد، وحبس ماله عن النفقة في سبيله فقد استسلم للتهلكة، ومثل ذلك قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا»، وقوله تعالى: «وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» أي أحسنوا أيها المؤمنون في أداء ما ألزمتكم من فرائض، وتجنب ما أمرتكم بتجنبه من معاصي، ومن الانفاق في سبيلى، عوّد القوى منكم على الضعيف ذى الخلة، فإنى أحب المحسنين في ذلك، وهم الذين يحسنون الظن بى، وأداء فرائضى، ويعودون على من ليس في يده شيء * وفي ابن كثير: زيادة على ما تقدم من الأقوال. وقال الحسن البصرى: «وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» قال هو البخلى * وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس: التهلكة عذاب الله، وقال ابن أبى حاتم، وابن جرير جميعاً حدّثنا يونس بن وهب، أخبرنى أبو صخر عن القرطبي محمد بن كعب أنه كان يقول في

هذه الآية

«وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» قال: كان القوم في سبيل الله فيتزود الرجل فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس من زاده حتى لا يبقى من زاده شيء أحب أن يواسى صاحبه فأنزل الله «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» وبه قال ابن وهب أيضاً أخبرني عبدالله بن عياش عن زيد بن أسلم في قوله الله «وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» وذلك أَنَّ رجلاً كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير نفقة، فإما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالاً فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يهلك رجالاً من الجوع والعطش، أو من المشى * وقال لمن بيده فضل «وَأُحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ».

قال ابن كثير: ومضمون الآية: الأمر بالانفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والاختبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة فقال: «وَأُحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» * وفي السمين قوله: «بأيديكم» في هذه الباء وجهان: أحدهما: أنها زائدة في المفعول به، لأن ألقى يتعدى بنفسه قال تعالى: «فَأَلْقَى عَصَاهُ» (وعلى هذا جرى الجلال).

والثاني: أن يضمن ألقى معنى فعل يتعدى بالباء، فيتعدى تعديته، فيكون المفعول به في الحقيقة هو المجرور بالباء تقديره: ولا تفضوا بأيديكم إلى التهلكة، كقوله: أفضت بجني إلى الأرض أي طرحته على الأرض، ويكون قد عبّر بالأيدى عن الأنفس لأن بها البطش والحركة * قلت: وعلى القول بزيادتها يكون المعنى: ولا تقبضوا التهلكة بأيديكم: أي لا تجعلوها آخذة بأيديكم ما لكة لكم. أو ولا تُلْقُوا أَنْفُسَكُمْ بأيديكم كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده: إذا تسبب لهلاكها، وليس من معاني التهلكة — والله أعلم — الحمل على العدو بمفرده. روى الشافعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الجنة، فقال له رجل من الأنصار: رأيت يا رسول الله إن قُتِلْتُ صابراً محتسباً؟ قال: لك الجنة، فانغمس في جماعة العدو فقتلوه * وأن رجلاً من الأنصار ألقى درعاً كان عليه حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الجنة، ثم انغمس في العدو فقتلوه بين يدي الرسول * وروى أَنَّ

رجلاً من الأنصار تخلف من أصحاب بئر معونة فرأى الطير عكوفاً على من قُتل من أصحابه، فقال لبعض من معه: سأقتدم إلى العدو فيقتلونني، ولا أتخلف عن مشهد قُتل فيه أصحابي، ففعل ذلك، فذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: فيه قولاً حسناً.

*** (القول في تأويل قوله تعالى : ((**
«فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَدَى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ
أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ نُسْكَ» سورة البقرة (الآية: ١٩٦)

في الواحدى قال كعب بن عجرة: نزلت هذه الآية — فن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه — وقع القمل في رأسى، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم. فقال: أحلق وافده صيام ثلاثة أيام. أو النسك، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين صاع. وعن كعب بن عجرة أيضاً قال: فَيَ نزلت هذه الآية. أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أدنه، فدنوت مرتين أو ثلاثاً، فقال: أيؤذيك هوامك؟ قال ابن عون: وأحسبه قال نعم، فأمرنى بصيام، أو صدقة، أو نسك ما تيسره. رواه مسلم عن أبي موسى عن ابن أبى عدى، عن ابن عون* وروى ابن عطاء عن ابن عباس قال: لما نزلنا الحديبية جاء كعب بن عجرة تنثر هوام رأسه على جبهته، فقال: يا رسول الله القمل قد أكلنى. قال: أحلق وافده، قال: فحلق كعب فنحرقه، فأنزل الله عز وجل في ذلك الموقف: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَدَى مِنْ رَأْسِهِ..» الآية قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصيام ثلاثة أيام، والنسك: شاة، والصدقة: الفرق بين ستة مساكين لكل مسكين مُدّه وما ورد في الواحدى ورد بحروفه في الخطيب* وفي ابن كثير. قال البخارى: حدثنا آدم حدثنا شعبة عن عبدالرحمن بن الأصهبانى سمعت عبدالله عن معقل، قال: قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد يعنى مسجد الكوفة فسألته عن فدية من صيام فقال: حملت إلى النبي صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهى، فقال: «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا أما تجد شاة؟» قلت: لا، قال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، وأحلق رأسك» فنزلت فَيَ خاصة، وهى لكم عامة* وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن مجاهد عن عبدالرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة قال: أتى على النبي صلى الله عليه وسلم،

وأنا أوقد تحت قدر، والقمل يتناثر على وجهي، أو قال: حاجبي. فقال: [يؤذيك هوام رأسك؟] قلت: نعم. قال: [فاحلقه وسم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكة] قال أيوب: لا أدري بأيتهن بدأه وأوهنا للتخيير. قال ابن كثير: وهو مذهب الأئمة الأربعة وعمامة العلماء أنه يخير في هذا المقام إن شاء صام وإن شاء تصدق بفرق (١)، وهو ثلاثة أصع لكل مسكين نصف صاع، وهو مدآن، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء أى ذلك فعل أجزاءه، ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة بالأسهل فالأسهل «ففدية من صيام أو صدقة أو نسك»، ولما أمر النبي صلى الله عليه وسلم كعب بن عجرة بذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال: انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام، فكل حسن في مقامه، والله الحمد والمثمة. وفي ابن كثير: وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عيَّاش قال: ذكر الأعمش قال: سألت إبراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية «ففدية من صيام أو صدقة أو نسك»، فأجابه بقوله: يحكم عليه طعام، فإن كان عنده اشترى شاة، وإن لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعام فتصدق، وإلا صام لكل نصف صاع يوماً، قال إبراهيم كذلك سمعت علقمة يذكر قال: لما قال لي سعيد بن جبير من هذا ما أظرفه؟ قال: قلت: هذا إبراهيم، فقال: ما أظرفه كان يجالسنا، قال: فذكرت ذلك لإبراهيم قال: فلما قلت يجالسنا انتفض منها. وفيه أقوال غير هذا فلا فائدة في إطالة ذكرها. ونقل عن عطاء أنه كان يقول: ما كان من ذبح فبمكة وما كان من طعام وصيام فحيث شاء والآية هنا عود إلى إتمام أحكام الحج، فذكر حكم المحصر وعدم جواز الحلق قبل بلوغ الهدى محله، إلا لمن كان مريضاً أو به جروح ونحوها فإنه يخلق وعليه أن يصوم ثلاثة أيام أو يذبح شاة أو يتصدق بفرق على ستة مساكين، فإذا زال الخوف من العدو، فن أتم العمرة وتحلل وبقى متمتعاً إلى زمن الحج ليحج من مكة فعليه دم، لأنه أحرم بالحج من غير الميقات، فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيام في أيام الإحرام بالحج، وسبعة إذا رجع إلى بلده إلا إذا كان مسكنه وراء الميقات. والمواقيت: ذو الحليفة والجحفة وقرن ويللم وذات عرق. فن كان من أهل هذه المواضع فما دونها إلى مكة فهو من حاضري المسجد الحرام فالمكي إذا تمتع أو قرن فلا هدى عليه

(١) الفرق بالتحريك: مكيال بالمدينة وزن ستة عشر رطلاً

ولا بدل له لأنه لا يجب عليه أن يحرم من الميقات فأقدمه على التمتع لا يوجب خللاً في حجه فلا يجب عليه الهدى. ويدل على ذلك ما أخرجه البخارى تعليقاً من حديث عكرمة قال: سئل ابن عباس عن متعة الحج، فقال أهل المهاجرون والأنصار وأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وأهللنا، فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اجعلوا إهلاً لكم بالحجّ عمرة إلا من قلّد الهدى] فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب، وقال: [من قلّد الهدى فإنه لا يحلّ من شيء حتى يبلغ الهدى محلّه] ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحجّ فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفا والمروة، وقد تم حجنا وعلينا الهدى كما قال تعالى: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ» إلى أمصاركم. والشاة تجزىء. فجمعوا بين النسكين في عام بين الحج والعمرة فإن الله أنزله في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأباحه للناس من غير أهل مكة قال تعالى: «ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» * وفي الحديث زيادة، قال الحميدى: قال أبو مسعود الدمشقي: هذا حديث غريب ولم أجده إلا عند مسلم بن الحجاج ولم يخرج في صحيحه من أجل عكرمة فإنه لم يرو عنه في صحيحه.

وعندى أن البخارى إنما أخذه من مسلم * (وأعلم) أنه يجوز الاحرام من قبل المواقيت لحديث أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ أَحْرَمَ مِنْ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ بِحَجٍّ أَوْ عَمْرَةٍ كَانَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ] وفي رواية [غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ] أخرجه أبو داود وقال: «يرحم الله وكيعاً!! أحرم من بيت المقدس» يعنى إلى مكة، وخص في هذا الشافعى. وكرهه مالك لأن عمر بن الخطاب أنكر على عمران بن حصين إحرامه من البصرة، وأنكر عثمان على ابن عمر إحرامه قبل الميقات. ومما لا شك فيه أن الاحرام من الميقات أفضل لأنه عليه الصلاة والسلام لم يحرم من بيته بل كان يحرم من ميقاته الذى وقته لأُمَّته. وقد وقت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة (ذا الحليفة) - قرية خربة بينها وبين مكة مائتا ميل - ولأهل الشام (الجحفة) - قرية خربة بينها وبين مكة خمس مراحل، وهى قرب القرية المعروفة برايع - ولأهل نجد (قرن) وهو جبل مشرف على عرفات على بعد مرحلتين من مكة - ولأهل اليمن (يَلْمَلَمَ) - مكان على مرحلتين من مكة * وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا

الحديث. واختلفوا في ميقات أهل العراق. فروى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم وقت لأهل المشرق (العتيق) وحسنه الترمذى. ويروى أن عمر بن الخطاب قال: وقت لهم (ذات عرق) وهذا هو الصحيح، ولم يكن باجتهاد منه بل لما روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت لأهل العراق ذات عرق - قرية على مرحلتين من مكة - وعلى كل فن أحرم ما قبل هذه المواقيت فأحرامه صحيح لأنه زاد ولم ينقص.

وقد دلت الآية على وجوب العمرة لأنه تعالى أمر بإتمامها في أول الآية فقال: «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» فكما أن الحج واجب فكذلك العمرة. ففي القرطبي: قال ابن جريج: وأخبرت عن عكرمة أن ابن عباس قال: العمرة واجبة كوجوب الحج من استطاع إليه سبيلاً. ومن ذهب إلى وجوبها من التابعين عطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبي وسعيد بن جبيرة وأبو بردة ومسروق وعبيد الله بن شداد والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكيين. وقال الثوري: سمعنا أنها واجبة. وسئل زيد بن ثابت عن العمرة قبل الحج فقال: صلاتان لا يضرك بأيهما بدأت. ذكره الدارقطني. وروى مرفوعاً عن محمد بن سيرين عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إنَّ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ فَرِيضَتَانِ لَا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ] وكان مالك يقول: «العمرة سنة ولا نعلم أحداً أرخص في تركها» وهو قول النخعي وأصحاب الرأي فيما حكى ابن المنذر. وأوجبها أبو حنيفة كالحج.

*** ((القول في تأويل قوله تعالى :)) ***

«وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ»

في الواحدى: عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، يقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوها الناس فأنزل الله تعالى: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ» وفي الخطيب: قال أهل التفسير: الكعك والزيت والسويق والتمر ونحوها. فإن خير الزاد التقوى أى ما يتقى به سؤال الناس وغيره. وفي البخارى وغيره: أن أهل اليمن كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد. ويقولون نحن متوكلون، ونحن نحج بيت الله تعالى أفلا يطعمنا، فيكونون كلاً على الناس، فيسألونهم، وربما يفضى بهم الحال إلى النهب

والغضب فقال الله عز وجل: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» أى تزودوا ما تتبَّلغون به، وتكفون به وجوهكم * وفى القرطبي: «وَتَزَوَّدُوا» أمر باتخاذ الزاد قال ابن عمر وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد: نزلت الآية فى طائفة من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد، ويقول بعضهم: كيف نخرج بيت الله ولا يطعمنا فكانوا يبقون عالة على الناس فنهوا عن ذلك وأمروا بالزاد. وقال عبدالله بن الزبير: كان الناس يتكل بعضهم على بعض بالزاد فأمروا بالزاد. وكان للنبي صلى الله عليه وسلم فى مسيره راحلة عليها زاد * وقال بعض الناس: «وَتَزَوَّدُوا» الرفيق الصالح. قال ابن عطية: وهذا تخصيص ضعيف. والأولى فى معنى الآية «وَتَزَوَّدُوا» لمعادكم من الأعمال الصالحة.

قلت: إلا أن القول الأول هو الأصح. أى أن المراد بالزاد فى قوله تعالى «وَتَزَوَّدُوا» هو الزاد المتخذ فى سفر الحج. المأكول حقيقة لما ذكر البخارى كما تقدم وعليه أكثر المفسرين. قال الشعبي: الزاد: التمر والسويق * وقال ابن جبير: الكعك والزيت. وقال أبو الفرج الجوزى: وقد لبس إبليس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد، وظنوا أن هذا هو التوكل، وهم على غاية الخطأ. قال رجل لأحمد بن حنبل: أريد أن أخرج إلى مكة على التوكل بغير زاد، فقال له أحمد: اخرج فى غير القافلة. فقال: لا، إلا معهم، قال: فعلى جُرْبٍ^(١) الناس توكلت * وفى الطبرى: حدثنى الحسين بن على الصوائى: قال: ثنا عمرو بن عبدالغفار قال: ثنا محمد بن سوقة عن نافع عن ابن عمر قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوذة رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر فأنز الله «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» فنهوا عن ذلك. وأمروا أن يتزودوا الكعك والدقيق والسويق * وفى الخازن: وقيل فى معنى الآية وتزودوا من التقوى فإن الإنسان لا بد له من سفر فى الدنيا، ولا بد فيه من زاد ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب، وسفر من الدنيا إلى الآخرة ولا بد فيه من زاد أيضاً، وهو تقوى الله عز وجل والعمل بطاعته، وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول فإن زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفوس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم فى الآخرة وفى هذا المعنى قال الأعشى:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقي ولا قيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثلها وإنك لم ترصد كما كان أرصدا

(١) جُرْبٍ (بضمين) جمع جراب، وهو الوعاء المتخذ من جلد يوضع فيه الدقيق ونحوه.

وأيضاً فليس السفر من الدنيا أهون من السفر في الدنيا، وهذا لا بد له من زاد فكذلك بل يزداد فإن زاد الدنيا يخلصك عن عذاب منقطع موهوم، وزاد الآخرة ينجيك من عذاب أبدى معلوم، زاد الدنيا يوصلك إلى متاع الغرور، وزاد الآخرة يبلغك دار السرور، وزاد الدنيا سبب حصول حظوظ النفس، وزاد الآخرة سبب الوصول إلى عتبة الجلال والقدس. وفيه دليل على أن القادر على استصحاب الزاد في السفر إذا لم يستصحب عصي الله في ذلك. فيه إبطال حكمة الله تعالى، ورفع الوسائط والروابط التي عليها تدور المناجح، وبها تنظم المصالح. دعوى أن بعض العارفين زهد فبلغ من زهده أن فارق الناس وخرج من الأمصار، وقال لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني رزقي، فأخذ يسبح فأقام في سفح جبل سبعاً لم يأته شيء حتى كاد يتلف، فقال يارب إن أحببتني فأتني برزقي في الذي قسمت لي، وإلا فاقبضني إليك فألهمه الله تعالى في قلبه، وعزتي وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار. وتقيم بين الناس، فدخل المدينة وأقام بين ظهرائي الناس، فجاء هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب، فأوجس في نفسه من ذلك، فسمع أردت أن تبطل حكمته بزهدك في الدنيا أما علمت أنه يرزق العباد بأيدي العباد أحب إليه من أن يرزقهم بيد القدرة. وفي قوله: «وَاتَّقُونِي يَا أُولِي الْأَلْبَابِ» قال الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه واتقوني يا أهل العقول والأفهام بأداء فرائض عليكم التي أوجبها عليكم في حجكم ومناسككم وغير ذلك من ديني الذي شرعته لكم، وخافوا عقابي باجتناب محارمي التي حرمتها عليكم تجوا بذلك مما تخافون من غضبي عليكم وعقابي، وتدرکوا ما تطلبون من الفوز بجنتي.

* ((القول في تأويل قوله تعالى :)) *

«لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ» سورة البقرة (الآية: ١٩٨)

في الواحدى : عن أبي أمامة التيمي قال: سألت ابن عمر فقلت: إنا قوم ذو كرى في هذا الوجه، وإن قوماً يزعمون أنه لا حج لنا، قال: ألستم تلبون؟ ألستم تطوفون بين الصفا والمروة؟ ألستم ألستم؟ قال: بلى، قال: إن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عما

سألت عنه، فلم يرد عليه حتى نزلت «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ» فدعاه فتلا عليه حين نزلت، فقال: أنتم حجاج* وعن ابن عباس قال: كان ذو المجاز وعكاظ متجر ناس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ» في موسم الحج* وروى مجاهد عن ابن عباس قال: كانوا يتقون البيوع والتجارة في الحج يقولون: أيام لذكر الله فأنزل الله تعالى «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ» فاتجروا* وفي الخطيب: نزلت ردعاً لناس من العرب كانوا يتأثمون أن يتجروا أيام الحج، وإذا دخل العشر كفؤوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق، ويسمون من يخرج بالتجارة الدّاج. ويقولون: هؤلاء الدّاج وليسوا بالحجاج. وروى البخارى [أنه كانت عكاظ ومجته وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية، يتجرون فيها أيام الموسم، وكانت معاشهم منها، فلما جاء الإسلام تأثموا فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيع لهم] وعن عمر رضى الله عنه أنه قيل له: كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال: وهل كانت معاشنا إلا من التجارة في الحج* عكاظ: سوق لقيس. ومجته: سوق لكنانة بمر الظهران. وذو المجاز: سوق لهذيل. وفي القرطبي ما نصه: في هذه الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحجاج مع أداء العبادة، وأنّ القصد إلى ذلك لا يكون شركاً، ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه خلافاً للفقراء — الصوفية — وفي الطبرى: وفي رواية عطاء عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج. وفي القرطبي: حدثني يعقوب بن إبراهيم قال: ثنا ابن عليّة، قال: ثنا ليث عن مجاهد في قوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ» قال: التجارة في الدنيا والأجر في الآخرة* وفي غرائب القرآن للنيسابورى: عن أبى مسلم أنّه حمل الآية على ما بعد الحج. قال: والتقدير، واتقون في كل أفعال الحج، ثم بعد ذلك ليس عليكم جناح أن تبتغوا — أى عطاء منه وتفضلاً في الرزق بسبب التجارة والربح بها كقوله «وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» وكقوله: «فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ» وزيف قوله هذا بأن حمل الآية على موضع الشبهة أولى من حملها لا على موضع الشبهة، ومحل الاشتباه هو التجارة في زمان الحج، وأما بعد الفراغ فالحل معلوم. وقياس الحج على الصلاة فاسد. فإن الصلاة أعمالها متصلة فلا يحل في أثنائها التشاغل

بغيرها، وأعمال الحج متفرقة تحتل التجارة في خلالها، وأيضاً الفاء في قوله: «فإِذَا أَفْضْتُمْ» ظاهرة في أن هذه الافاضة حصلت عقب ابتغاء الفضل، وذلك يدل على أن المراد وقوع التجارة في زمان الحج، ويؤيده قراءة ابن عباس — المتقدمة — فضلاً من ربكم في مواسم الحج — ... ومن المعلوم أنه إنما يباح ما لم يشغل عن العبادة ... وعن جعفر الصادق رضي الله عنه: أن ابتغاء الفضل ههنا طلب أعمال أخر زائدة على أعمال الحج موجبة لفضل الله تعالى ورحمته كإعانة الضعيف وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وإرواء العطشان. وقال النيسابوري: واعلم أن الفضل ورد في القرآن بمعانٍ: منها: ما يتعلق بالمصالح الدنيوية من المال والجاه والغذاء واللباس. وهو المسمى بالرزق «فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» ومنها ما يتعلق بالمصالح الأخروية وهو الفضل والثواب والجنة والرحمة «تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ» «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ» ومنها ما يتعلق بمواهب القرابة «ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» «وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» ورفع الجناح قد يستعمل في الواجب والمندوب مثل ما يستعمل في المباح كما مر في قوله: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» وفي الخازن: وقال بعض العلماء: إنَّ التجارة إن أوقعت نقصاً في أعمال الحج لم تكن مباحة، وإن لم توقع نقصاً فيه كانت من المباحات التي الأولى تركها لتجريد العبادة عن غيرها لأن الحج بدون التجارة أفضل وأكمل. ولعلّ سندهم قوله تعالى: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» والاخلاص هو أن لا يكون له حامل على الفعل سوى كونه عبادة.

والحاصل: أن الإذن في هذه التجارة جار مجرى الرخص كذا في الكرخي. والذي تلخص في كتب الفروع في هذه المسئلة: أن في التشريك بين العبادة وغيرها ثلاثة طرق: قال ابن عبدالسلام: إنه لا أجر فيه مطلقاً. أي سواء تساوى القصدان أم اختلفاه وقد اختار الغزاليّ فيما إذا شرك في العبادة غيرها من أمر دنيوي. اعتبار الباعث على العمل. فإن كان القصد الدنيوي هو الأغلب لم يكن فيه أجر. وإن كان القصد الدينيّ أغلب فله بقدره وإن تساوى تساقطاه وقال ابن حجر في شرح المنهاج: والأوجه أن قصد العبادات يثاب عليه بقدره، وإن انضم إليه غيره مساوياً أو راجحاً وخالفه الرملي: فأعتمد طريقة الغزالي. ولكن يقال: جاء قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ

رَبِّكُمْ» كالأستدراك والاحتباس مما عساه يسبقُ إلى الفهم من منع التجارة في الحج. وذلك أَنَّ الآيات السابقة أرشدت إلى حرمة الرِّفث والفسوق والجدال في الحج، والتجارة تفضى إلى الجدال والنزاع في قيم السلع قلَّة وكثرة، فعقب ذلك ببيان حكمها، وأبان أن الكسب في أيام الحج مع ملاحظة أَنَّهُ فضل من الله غير محظور، لأنه لا ينافي الإخلاص في هذه العبادة، وإنما الذي ينافيها أن يكون المقصد التجارة فحسب، بحيث لو لم يرج الكسب لم يسافر للحج — وقوله تعالى: «فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ» أي يطلب من الحاج إذا دَفَعَ من عرفات إلى المزدلفة أن يذكر الله عند المشعر الحرام بالدعاء والتحميد والثناء والتلبية، وإنما طلب منه ذلك خشية أن يتركه بعد البيت، فطلب منه المضيَّ في الذكر ما دام في هذا الموضع، وعرفة موضع الوقوف في الحج، وهى عمدة أفعال الحج. ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن بإسناد صحيح عن الثوري عن بكير عن عطاء عن عبدالرحمن بن معمر الدبلي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الحجَّ عَرَفَاتٍ] ثلاثاً — فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك. وأيام منى ثلاثة «فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ» ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر لأن النبي صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس. وقال: [لتأخذوا عني مناسككم] وقال في هذا الحديث [فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك] وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة. واحتجوا بحديث الشعبي عن عروة بن مضر بن حارثة بن لام الطائي قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة، فقلت يا رسول الله: إني جئتُ من جبل طيء أكلت راحلتى، واتعبتُ نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لى من حج؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه، وقضى تفضئه] رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي. ثم قيل: وإنما سميت عرفات لما رواه عبدالرازق. أخبرني ابن جريج قال: قال ابن المسيب: قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم فحجَّ به حتى إذا أتى عرفة قال: عرفتُ، وكان قد أتاها مرة، قبل ذلك فلذلك

سميت عرفة. وقال ابن المبارك عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء قال: إنما سميت عرفة لأن جبريل كان يرى إبراهيم المناسك فيقول عرفت عرفت. فسميت عرفات. وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤس الجبال كأنها العمائم على رؤس الرجال دَفَعُوا، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدفعة من عرفة حتى غرَبَت الشمس. رواه ابن مردويه من حديث زمعة بن صالح. وزاد. ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس حتى إذا أسفر كل شيء، وكان في الوقت الآخر دفع، قال ابن كثير في التفسير: وهذا أحسن الإسناد. وقوله: «وَأَذْكُرُوهُ كَمَا هَذَا كُمْ» أي كما علمكم تذكرونه بأن يكون بتضرع وخيفة وطمع في ثوابه، صادر عن رغبة ورهبة كما قال صلى الله عليه وسلم: [الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] ولا تعدلوا عنه إلى ما كنتم تفعلونه في الجاهلية من الشرك واتخاذ الوسطاء بينكم وبينه. فلا تفرغ قلوبكم له. فقد كانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هولك تملكه وما ملك. ويؤيد هذا تذييل الآية بقوله: «وَأَنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ» أي وإن كنتم من قبل هذا الهدى من الضالين عن الحق في العقائد والأعمال بعبادة الأوثان والأصنام، وبتخاذ الوسطاء الذي يشفعون عنده ويقربون إليه زلفى.

*** ((القول في تأويل قوله تعالى :)) ***

**«ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»** سورة البقرة (الآية: ١٩٩)

في الواحدى: عن عائشة قالت: كانت العرب تفيض من عرفات، وقريش ومن دان بدينها تفيض من جُمَع من المشعر الحرام فأنزل الله تعالى: «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ» وأخبر ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أضللت بعيراً لى يوم عرفة، فخرجت أطلبه بعرفة، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً مع الناس بعرفة، فقلت: هذا من الحمس ما له ههنا؟! قال سفيان: والأحمس: الشديد الشحيح على دينه، وكانت قريش تسمى الحُمس، فجاء الشيطان فاستهواهم، فقال لهم: إنكم إن عظيمتم غير حرمكم استحنف الناس غيركم، فكانوا لا يخرجون من الحرم. ويقفون بالمزدلفة، فلما جاء الإسلام أنزل الله عز وجل «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ

النَّاسُ» يعنى عرفة. رواه مسلم عن عمرو الناقد عن ابن عيينه* وفي ابن كثير: «ثُمَّ» ههنا للعطف خبر على خبر، وترتيبه عليه كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل، ويقولون نحن أهل الله في بلدته، وقطان بيته قال البخارى: حدّثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمّون الخمس. وسائر العرب يقفون بعرفات.

فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها فذلك قوله: «من حيث أفاض الناس» وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم: واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع* وفي الطبرى: «ثُمَّ أَيْضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ» قيل الخطاب للخمس، فإنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كانوا يقفون بالمزدلفة، وهي من الحرم، وكانوا يقولون نحن قطين الله - أي سكان حرمه - فينبغى لنا أن نعظم الحرم، ولا نعظم شيئاً من الحل، وكانوا مع معرفتهم واقرارهم أن عرفة موقف إبراهيم عليه السلام لا يخرجون من الحرم. ويقفون بجمع، ويفيضون منه. ويقف الناس بعرفة، فليل لهم أفيضوا مع الجملة* والمراد بـ «الناس» إبراهيم عليه السلام كما قال: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ» وهو يريد واحداً. والمعنى أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم من مزدلفة جمع، أي ثم أفيضوا إلى منى لأن الأفاضة من عرفات قبل الأفاضة من جمع.

فالمعنى: عليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحد تحقيقاً للمساواة وتركاً للتفاخر وعدم الامتياز لأحد على أحد، وذلك من أهم مقاصد الدين. وقيل المراد بـ «الناس» ههنا آدم وحده بدليل قراءة سعيد بن جبير، ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس بالياء وقال هو آدم عهد إليه فنسى، ووجه هذا أن الوقوف بعرفات والأفاضة منها شرع قديم، وما سواه مبدع محدث وقوله: «وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ» ممّا أحدثتم من تغيير المناسك بعد آدم وإبراهيم، وإدخال الشرك في أعمال الحج «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» أي إنّه تعالى واسع المغفرة والرحمة لمن يستغفره مع الإنابة والتوبة، روى البخارى عن شدّاد بن أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [سيّد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربى لا

إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي، وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَنْطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. مِنْ قَالِهَا فِي لَيْلَتِهِ فَمَاتَ فِي لَيْلَتِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالِهَا فِي يَوْمِهِ فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ] وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: عَلِمْنِي دَعَاءَ أَدْعُوا بِهِ فِي صَلَاتِي فَقَالَ: [قُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] وَالْغُفُورُ يَفِيدُ الْمُبَالِغَةَ فِي الْغُفْرِ، وَكَذَا الرَّحِيمُ. وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ مِنْ عِبَادَةِ التَّائِبِينَ وَيَغْفِرُ لَهُمْ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَمْرَ الْمَذْنُوبِ بِالِاسْتِغْفَارِ. ثُمَّ وَصَفَ نَفْسَهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ كَثِيرُ الْغَفْرَانِ كَثِيرُ الرَّحْمَةِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَغْفِرُ لِلْمُسْتَغْفِرِينَ، وَيَرْحَمُ الْمَذْنُوبِينَ مِنْهُ وَكَرَّمَهُ.

*** ((القول في تأويل قوله تعالى :))***

«فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ»
سورة البقرة (آية: ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢)

في الواحدى : قال مجاهد: كان أهل الجاهلية إذا اجتمعوا بالموسم ذكروا فعل آبائهم في الجاهلية، وأيامهم وأنسابهم فتفاخروا فأنزل الله تعالى «فادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا»، وعبارة القرطبي: كانت عادة العرب إذا قضت حجها تقف عند الجمرة فتفاخر بالآباء، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم وغير ذلك حتى أن الواحد منهم ليقول: اللهم إن أبى كان عظيم القبة، وعظيم الجفنة، كثير المال فأعطني مثل ما أعطيته فلا يذكر غير أبيه. فنزلت الآية ليلزموا أنفسهم ذكر الله أكثر من التزامهم ذكر آبائهم أيام الجاهلية* هذا قول جمهور المفسرين. وقال ابن عباس وعطاء والضحاك والربيع: معنى الآية: واذكروا الله كذا ذكر الأطفال آبائهم وأمهاتهم: أبه أمه* أي فاستغثوا به والجنوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم* وقالت طائفة: معنى الآية: اذكروا الله وعظموه وذنبوا عن حرمة، وادفعوا من أراد الشرك في دينه ومشاعره

كما تذكرون آباءكم بالخير إذا غَضَّ أحد منهم، وتحمون جوانبهم وتذُبُون عنهم * وقال أبو الجوزاء لابن عباس: إن الرجل اليوم لا يذكر أباه فما معنى الآية؟ قال: ليس كذلك، ولكن أن تغضب الله تعالى إذا غُصِيَ أشد من غضبك لوالدك إذا شُتَا * وفي الطبرى: حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: قال: تفاخرت العرب بينها بفعل آبائها يوم النحر حين فرغوا. فأمروا بذكر الله مكان ذلك * وقال حدثني بشر بن معاذ قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة، قال: كان أهل الجاهلية إذا قضاوا مناسكهم بنى قعدوا حلقاً فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية، وفعالهم به يخطب خطيبهم، ويحدِّث محدثهم، فأمر الله عز وجل المسلمين أن يذكروا الله كذكر أهل الجاهلية آباءهم، أو أشد ذكراً * ويرى الطبرى أن الصواب في تأويل الآية أن يقال إنَّ الله جل ثناؤه أمر عباده المؤمنين بذكره بالطاعة له في الخضوع لأمره، والعبادة له بعد قضاء مناسكهم، وذلك الذكر جائز أن يكون هو التكبير الذي أمر به جل ثناؤه بقوله: «**واذكروا الله في أيام معدودات**» الذي أوجبه على من قضى نسكه، فألزمه حينئذٍ من ذكره ما لم يكن له لازماً قبل ذلك، وحثَّ على المحافظة عليه محافظة الأبناء على ذكر الآباء في الإكثار منه بالاستكانة له والتضرع إليه بالرغبة منهم إليه في حوائجهم كتضرع الولد لوالده، والصبي لأمه وأبيه، أو أشد من ذلك إذا كان ما كان بهم وبآبائهم من نعمة فنه وهو وليتهم * أي أن المقصود منه الحثُّ على كثرة الذكر لله عز وجل. ولهذا كان انتصاب قوله: «**أو أشدُّ ذكراً**» على التمييز. تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، وأو ههنا لتحقيق الماثلة في الخبر كقوله: «**فهي كالحجارة أو أشد قسوة**» وقوله: «**يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية**» فليست ههنا للشك قطعاً. وإنما هي لتحقيق الخبر عنه كذلك أو أزيد منه، وقيل «**أو**» بمعنى الواو أي وأشد ذكراً أي وأكثر ذكراً للآباء لأنه هو المنعم عليهم وعلى الآباء، فهو المستحق للذكر والحمد مطلقاً، وقوله: «**فبين الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا**» عبارة الخازن: يعنى أن المشركين كانوا يسألون الله في حجهم الدنيا ونعيمها، كانوا يقولون: الله أعطنا إبلاً وغنماً وبقراً وعبيداً وإماءً، وكان أحدهم يقوم فيقول: الله إن أبى كان عظيم الفته كبير الجفنة، كثير المال، فاعطني مثل ما أعطيت، قال قتادة: هذا عبد نيتة الدنيا، لها أنفق ولها عمل ونصب. روى البخارى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [تعمس

عبدُ الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطى رضى وإن لم يعطى سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش] قوله عليه الصلاة والسلام: تعس عبد الدينار، هذا دعاء عليه بالهلاك، وهو الوقوع على الوجه من العثار، والخميصة ثوب من خز أو صوف معلّم. قوله: وانتكس: هذا دعاء عليه أيضاً لأن من انتكس على رأسه أو في أمره فقد خاب وخسر. قوله: وإذا شيك: هذا فعل ما لم يسم فاعله تقول: شاكته الشوكة إذا دخلت في جسمه، والانتقاش: اخراج الشوكة من الجسم. وإنما كان سؤال المشركين للدنيا ولم يطلبوا التوبة والمغفرة ونعيم الآخرة لأنهم كانوا ينكرون البعث «ومآله في الآخرة مِن خَلْاقٍ» أي وماله في الآخرة من حظ ولا نصيب. وقوله: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» يعنى المؤمنین وعبارة الخازن: واعلم أن الله تعالى قسم الداعين فريقين: فريق اقتصر في الدعاء على طلب الدنيا وهم الكفار لأنهم كانوا لا يعتقدون البعث والآخرة. والفريق الثاني: هم المؤمنون الذين جمعوا في الدعاء بين طلب الدنيا والآخرة. وذلك أن الإنسان خلق ضعيفاً محتاجاً لا طاقة له بالآم الدنيا ومتاعها. فالأولى له أن يستعيز بالله من شرها وآلمها لأنه لو اضطرب على الإنسان عرق من عروقه لشوّش عليه حياته في الدنيا، وتعطل عن الاشتغال بطاعة الله تعالى: فثبت بذلك أن طلب الدنيا في الدعاء من أمر الدين فلذلك قال الله تعالى إخباراً عن المؤمنین «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً» قيل إن الحسنة في الدنيا عبارة عن الصحة والأمن والكفاية والتوفيق إلى الخير والنصر على الأعداء والولد الصالح والزوجة الصالحة. روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة] وقيل الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة الجنة. وقيل الحسنة في الدنيا: الرزق الحلال والعمل الصالح. وفي الآخرة: المغفرة والثواب. وقيل من آتاه الإسلام والقرآن وأهلاً ومالاً فقد أوتي في الدنيا الحسنة وفي الآخرة حسنة. يعنى في الدنيا عافية وفي الآخرة عافية. وروى مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: [هل كنت تدعو الله بشيء، أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول: الله ما كنت معافينى به في الآخرة فعجله لى في الدنيا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبحان

الله!! لا تطيقه ولا تستطيعه ، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة
وقنا عذاب النار] قال: فدعا الله به فشفاه. وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك قال:
كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: [اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة
وقنا عذاب النار] وعن عبدالله بن السائب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول بين الركنتين: [ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار]
أخرجه أبو داود والانساف أنه سبحانه لو سلط الآم على عرق واحد في البدن، أو على
منبت شعرة واحدة عجز الإنسان عن الصبر عليه، وقد يفضى ذلك به إلى الجزع ويعوقه
عن اكتساب الكمالات، ويحمله على إهمال وظائف الطاعات، ومن ذا الذي يستغنى عن
إمداد الله إياه في دنياه وعقباه. «أولئك» إشارة إلى المؤمنين الداعين بالحسنتين. ووجه
هذا القول أن الله ذكر حكم الفريق بكماله فقال: وما له في الآخرة من خلاق. وقيل:
يرجع إلى الفريقين. أي كل فريق له نصيب بحسب ما دعاه، ومشى الجلال في تقريره
على الإحتمال الأول. وفي الغرائب: وعن علي رضي الله عنه قال: الحسنة في الدنيا المرأة
الصالحة، وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار: امرأة السوء. وقوله: «أولئك لهم
نصيب» وأتى نصيب «مما كسبوا» من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة،
وهو الثواب الذي هو المنافع الحسنة. فن للابتداء. ويحتمل التعليل. أي من أجل ما
كسبوا كقوله «مما خطيئاتهم أغرقوا» والكسب ما يناله المرء بعمله. ومنه يقال
للأرباح إنه كسب فلان. أو لهم نصب مما دُعوا به يعطيهم بحسب مصالحهم في الدنيا
واستحقاقهم في الآخرة. وسمى الدعاء كسباً لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة
بالكسب «ومما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» وفي ابن كثير: قال سعيد
بن جبير عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله
عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله
فيهم «فمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ» وكان
يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: «رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ
حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» فأنزل الله «أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع
الحساب» ولهذا مدح من يسأله الدنيا والآخرة فقال: «وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي
الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» فجمعت هذه الدعوة كل خير في

الدنيا، وصرفت كل شر، فإن كل الحسنه في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافيه ودار رحبه، وزوجه حنه، ورزق واسع وعلم نافع وعمل صالح، ومركب هين وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها فإنها كلها مندرجه في الحسنه في الدنيا. وأما الحسنه في الآخرة: فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحه. وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام. وقال القاسم: أبو عبد الرحمن: من أعطى قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وجسداً صابراً فقد أوتى في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ووقى عذاب النار وقوله: «والله سريعُ الحسابِ» السرعة نقيض البطء. والحساب مصدر كالحاسبة وهو العدُّ. قال الزجاج: هو مأخوذ من قولك حسبك كذا. أي كفاك. وذلك أن فيه كفاية وليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان، ومعنى كون الله محاسباً لخلقه، قيل إنه يعلمهم ما لهم وعليهم بأن يخلق العلم الضروري في قلوبهم بمقادير أعمالهم وكمياتها وكيفياتها، وبمقادير ما لهم من الثواب والعقاب، ووجه هذا المجاز أن الحساب سبب لحصول علم الانسان بماله وعليه فإطلاق الحساب على هذا الاعلام اطلاق اسم السبب على المسبب. عن ابن عباس أنه قال: لا حساب على الخلق بل يقفون بين يدي الله يعطون كتبهم بأيمانهم فيها سيئاتهم فيقال لهم: هذ سيئاتكم قد تجاوزت عنها، ثم يعطون حسناتهم، ويقال هذه حسناتكم قد ضعفتموها لكم. وقيل: المحاسبة المجازة «وكأئن من قرية عمت عن أمر ربها ورؤسليه فحاسبناها حساباً شديداً» ووجه المجاز أن الحساب سبب للأخذ والاعطاء. وقيل: إنه تعالى يكلم العباد في أحوال أعمالهم، وكيفية ما لها من الثواب والعقاب، فن قال: إن كلامه ليس بحرف ولا صوت، قال: إنه تعالى يخلق في أذن المكلف سمعاً يسمع به كلامه القديم كما يخلق في عينه رؤية يرى بها ذاته القديمة، ومن قال: إنه صوت، قال: إنه تعالى يخلق كلاماً يسمعه كل مكلف. إما بأن يخلق ذلك الكلام في أذن كل واحد منهم، أو في جسم يقرب من أذنه بحيث لا يبلغ قوة ذلك الصوت مبلغاً يمنع الغير من فهم ما كلف به، فهذا هو المراد من كونه محاسباً لخلقه. ومعنى كونه سريع الحساب أن قدرته تعالى متعلقة بجميع الممكنات من غير أن يفترق في إحداث شيء إلى فكر وروية ومدة وعدة، ولذلك ورد في الخبر أنه يحاسب الخلق في مقدار حلب شاة.

وروى في لمحة. أو أنه سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم، لأنه قادر على أن يعطى مطالب جميع الخلائق في لحظة واحدة كما ورد في الدعاء المأثور: [يامن لا يشغله سمع عن سمع] أو أن وقت جزائه وحسابه سريع. يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب البعاد. كقوله تعالى: «افْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ» كذا في الغرائب: نقلاً عن الخازن.

*** ((القول في تأويل قوله تعالى :)) ***

«وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبَّسَ الْمِهَادِ *»

سورة البقرة (الآية: ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦)

في الواحدى: قال السدى: نزلت في الأحنس بن شريق الثقفى. وهو حليف بنى زهرة أقبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأظهر الإسلام وأعجب النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام. والله يعلم إنى لصادق وذلك قوله: «وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ» ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فر بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر. فأحرق الزرع وعقر الحُمُر، فأنزل الله تعالى «وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ» * وفي الخطيب: هو الأحنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة، واسمه أبى، وسمى الأحنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بنى زهرة عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان منافقاً حلوا المنظر، حلوا الكلام للنبي صلى الله عليه وسلم، يحلف أنه مؤمن، ومحِبُّ له، ويقول: يعلم الله أنى صادق، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى مجلسه، وقوله تعالى: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» متعلق بالقول. أي يعجبك ما يقوله في أمور الدنيا: أسباب المعاش، أو في معنى الدنيا لأن ادعاء المحبة بالباطل يطلب به خطأ من حظوظ الدنيا، ولا يريد الآخرة كما يراد بالإيمان الحقيقي، والمحبة الصادقة للرسول صلى الله عليه وسلم، فكلامه إذاً في الدنيا لا في الآخرة. أو يعجبك قوله في الحياة الدنيا حلاوة وفصاحة، ولا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الدهشة واللكنة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام. فلا يتكلم

حتى يعجبك كلامه «وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ» أنه موافق لكلامه «وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» أي أشد الخصومة لك ولا تباغك لعداوته لك. وقال الحسن: ألدُّ الخِصَامِ: أي كاذب القول * وقال قتادة: شديد الفسوق في المعصية، جدل بالباطل، يتكلم بالحكمة، ويعمل بالخطيئة * وفي الحديث [إنَّ ابغض الرجال إلى الله الألد الخصم] «وَإِذَا تَوَلَّى» أي انصرف عنك بعد إلانة القول وحلاوة المنطق «سَعَى» أي مشى «فِي الْأَرْضِ لِنَفْسٍ فِيهَا» قال ابن جرير: يقطع الرحم، ويسفك دماء المسلمين «وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ» وذلك أن الأخنس كان بينه وبين ثقيف خصومة فببتم ليلاً فأحرق زرعهم وأهلك مواشيهم، وقيل: وإذا كان والياً فعل ما يفعله ولاية السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل. وقيل: يظهر الظلم حتى يمتن الله تعالى بشؤم ظلمه القطر. فيهلك الحرث والنسل. وحكى الزجاج عن قوم أن الحرث: النساء. والنسل: الأولاد، قال: وهذا ليس بمنكر لأن المرأة تسمى حرثاً. أي ويدل له قوله تعالى: «فَاتُوا حَرْثَكُمْ أَنِّي سَأْتُمْ» «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ» أي لا يرضى به، لأن المحبة وهي ميل القلب بحالة في حقه تعالى. فهي مستعملة في حقه تعالى في معنى الرضا «وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ» في فلك «أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ» أي حملته الأنفة والحمية على العمل «بِالْإِثْمِ» الذي يؤمر بإتقانه «فَحَسْبُهُ» أي كافيهِ «جَهَنَّمَ» جزاءً وعذاباً، وهي عِلْمٌ لدار العقاب. وهو في الأصل مرادف للنار. وسميت بذلك لبعدها. وأصلها من الجهم وهو الكراهة * وفي القرطبي: زيادة على ما تقدم في الواحدى والخطيب: فربزرق لقوم من المسلمين، وبعُمر فأحرق الزرع، وعقر الحمر. قال المهدوى: وفيه نزلت «وَلَا تَطْعَمُ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِتَمِيمٍ» و «وَيُلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ» وقال ابن عطية: ما ثبت قط أن الأخنس أسلم * وقال ابن عباس: نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قتلوا في غزوة الرِّجِيع * وقد أوضح هذا الطبرى في تفسيره قال: لما أصيبت هذه السرية: أصحاب خبيب بالرجيع بين مكة والمدينة (١) فقال: رجالٌ من المنافقين: يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا، لا هم قعدوا في بيوتهم، ولا هم أدوا رسالة أصحابهم، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قول المنافقين وما أصاب أولئك التفر من الشهادة والخير من الله «وَمَنْ

(١) راجع كتابي صحيح السيرة وفقها ستجد الموضوع وافياً مما يسرُّ بالكل و يشرح صدرك

النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أي ما يظهر بلسانه من الإسلام، ويُشهد الله على ما في قلبه من النفاق، وهو ألد الخصام أي ذو جدال إذا كلمك وراجعك.. وقال أبو جعفر: حدثني محمد بن أبي معشر، قال أخبرني أبي: أبو معشر نجيح سمعت سعيد المقبري يذكر محمد بن كعب، قال سعيد: إن في بعض الكتب: إن الله عبداً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرٌ من الصبر، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين يشترون الدنيا بالدين. قال الله تبارك وتعالى: أعلى يجترؤن وي يغترون، وعزقي لأبعث عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران* فقال محمد بن كعب: هذا كتاب الله جل ثناؤه. فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله عز وجل: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ» فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل، ثم تكون عامة بعد. وحدث الطبري عن القرطبي عن نوف وكان يقرأ الكتب، قال: إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل: قوم يحتالون الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرٌ من الصبر، حلفتُ بنفسى لأبعث عليهم فتنة تترك الحليم فيهم حيران* قال القرطبي: تدبرتها في القرآن فإذا هم المنافقون. فوجدتها: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ*» «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ» وكل ما تقدم ذكره موجود في ابن كثير. وقوله: «وَلَبِئْسَ الْيَاهَادُ» أي جعلت جهنم لهم بدل مهاد يفترشونه كذا في التسمين. وهو جواب قسم مقدر أي والله. وفي الخازن: والمعنى أن العذاب بالنار يجعل تحته وفوقه. قال ابن مسعود: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد اتق الله فيقول عليك بنفسك* وروى أنه قيل لعمر رضي الله عنه: اتق الله، فوضع خذّه على الأرض تواضعاً لله تعالى.

قال المراغي: دلت الآيات السابقة على أن المقصد من كل العبادات هو تقوى الله بإصلاح القلوب. وإنارتها بذكره تعالى، لاستشعارها عظمتة وفضله، وعلى أن طلب الدنيا من الوجوه الحسنة لا ينافي التقوى بل يعين عليها، خلافاً لما ذهب إليه أهل الأديان السابقة من أن تعذيب الأجساد وحرمانها من طيبات الدنيا هو أسُّ الدين وأصله، وأن من يطلب الدنيا، ويجعل لها عناية خاصة ليس له في الآخرة من خلاق.

*** ((القول في تأويل قوله تعالى :)) ***
«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ»
 سورة البقرة (الآية: ٢٠٧)

في الواحدى: قال سعيد بن المسيب: أقبل صهيب مهاجراً نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتبعه نفرٌ من قريش من المشركين، فنزل عن راحلته، ونثر ما في كنانته، وأخذ قوسه، ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أنى من أركم رجلاً، وأيم الله لا تصلون إلىّ حتى أرمى بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقى في يدي منه شيء، ثم افعلوا بى ما شئتم، قالوا: دلنا على بيتك ومالك بمكة ونخلّى عنك، وعاهدوه إن دلّهم أن يدعوه ففعل، فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قال: أبا يحيى ربح البيع ربح البيع ربح البيع، وأنزل الله «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ...» وقال الحسن: أتدرون فيمن نزلت هذه الآية؟ في المسلم يلقى الكافر فيقول له: قل لا إله إلا الله، فإذا قلنا عَصَمْتَ مالك ودمك. فأبى أن يقوها، فقال المسلم: والله لأشرين نفسى الله، فتقدّم فقاتل حتى قُتل. وفي الخطيب: وقال أكثر المفسرين: نزلت في صهيب بن سنان الرومى. أخذه المشركون في رهط من المؤمنين، فعذبوهم، فقال لهم: إني شيخ كبير لا يضرّ أمثكم كنتُ أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالى وتذرونى ودينى، ففعلوا، وكان شرط عليهم راحلة ونفقة، فأقام بمكة ما شاء الله، ثم خرج إلى المدينة، فلتقاه أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما في رحال: فقال له أبو بكر: ربح بيعك أبا يحيى، فقال: وما ذاك؟ فقال: أنزل الله فيك قرآناً، وقرأ عليه هذه الآية. فعلى هذا يكون يشرى بمعنى يشتري: أي يبيع ويبذل، وفي الخطيب أيضاً: وقيل نزلت في الزبير والمقداد بن الأسود. وذلك أنّ كفار قريش بعثوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة، أن قد أسلمنا، فابعث إلينا نفراً من علماء أصحابك يعلموننا دينك، وكان ذلك مكرراً منهم، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو هريرة: عشرة من جملتهم خبيب، فقتلوهم وأسروا خبيبا، قال أسره: والله ما رأيت أسيراً خيراً من خبيب، والله وجدته يوماً يأكل قطعاً من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، وإن كان إلا رزقاً رزقه الله خبيبا، ثم أرادوا قتله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل، وأرادوا أن يصلبوه، فقال: دعونى أصلى

ركعتين، فتركوه حتى صلاهما، ثم قال: لولا أخشى أن تحسبوا أنّ ما بي من جزع لزدت.
ثم قال: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدءاً، ولا تبق منهم أحداً، ثم أنشأ يقول:

ولستُ أبالي حينَ أقتل مسلماً على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

ثم صلبوه حياً، فقال: الله إنك تعلم أنه ليس أحد حولي يبلغ سلامي رسولك فأبلغه سلامي، ثم قام عقبه بن الحارث فقتله، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الخبر قال: [أيكم ينزل خبيباً عن خشبته وله الجنة؟] فقال الزبير بن العوام: أنا يا رسول الله وصاحبي المقداد. فخرجنا يسيران بالليل، ويكتمان بالنهار حتى وصلا إليه ليلاً، وإذا حول الخشبة أربعون رجلاً من المشركين نيام. فأنزله الزبير، وحمله على فرسه وسارا، فانتبه الكفار فلم يجذوه. فأخبروا قريشاً، فركب منهم سبعون، فلما لحقوهما قذف الزبير خبيباً فابتلعت الأرض. فسمى بليغ الأرض. ثم رفع الزبير العمامة عن رأسه وقال أنا الزبير بن العوام، وأمي صفية بنت عبدالمطلب، وصاحبي المقداد بن الأسود، فإن شئتم ناضلتكم، وإن شئتم نازلتكم، وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا إلى مكة، وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عنده، فقال يا محمد إن الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك، فنزلت فيها هذه الآية * وفي القرطبي: وقيل نزلت فيمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. وعلى ذلك تأولها عمرو على وابن عباس رضي الله عنهم. قال عليّ وابن عباس: اقتتل الرجلان، فقال المغيرة للمفسد: اتق الله، فأبى المفسد، وأخذته العزة، فشرى المغيرة نفسه من الله وقاتله فاقتلا أي قتل * وقال أبو الخليل: سمع عمر بن الخطاب إنساناً يقرأ هذه الآية، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل * وقيل: نزلت فيمن يقتحم القتال. حمل هشام بن عامر على الصف في القسطنطينية فقاتل حتى قتل. فقرأ أبوهريرة رضي الله عنه «**وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**» ومثله عن أبي أيوب. وقال قتادة: هم المهاجرون والأنصار * وقيل: نزلت في علي كرم الله وجهه حين تركه النبي صلى الله عليه وسلم على فراشه ليلة خرج إلى الغار * وفي الطبري عن عكرمة قال: نزلت في صهيب بن سنان وأبي ذر الغفاري: جندب بن السكن، أخذ أهل أبي ذر أباً ذر فأنفلت منهم فقدم على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رجع مهاجراً عرضوا له، وكانوا بمر الظهران فأنفلت أيضاً حتى قدم

على النبي صلى الله عليه وسلم، وأما صهيب فأخذه أهله، فافتدى منهم بماله ثم خرج مهاجراً، فأدركه منقذ بن عمير جدعان فخرج له ما بقي من ماله وخلي سبيله.

والحق أن الوصف عام في كل من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله سواء في جهاد الأعداء أم بمعروف أو نهى عن المنكر. فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وأما تفسير الآية: فذكر المفسرون أن المراد بهذا الشراء: البيع. ومنه قوله: «وشروه بثمن» أي باعوه. والمعنى أن المسلم يبيع نفسه بثواب الله تعالى في الدار الآخرة. وهذا البيع هو أن يبذل نفسه في طاعة الله من صلاة وصيام وحج وجهاد وأمر بمعروف ونهى عن منكر. فكان ما يبذله من نفسه كالسلعة، فصار كالبائع. والله تعالى المشتري. والثمن: هو ثواب الله تعالى في الآخرة «ابتغاء مرضاة الله» أي طلب رضاه وفيه دليل على أن كل مشقة يتحملها الإنسان يجب أن تكون على وفق الشرع، ومطلوباً بها جانب الحق، وإلا كان عمله ضللاً وكده وبالاً «والله رؤف بالعباد» فن رأفته أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، ومن رأفته أن المصّر على الكفر مائة سنة إذا تاب أسقط عقابه وأعطاه ثوابه «فأولئك يُبدّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً» ومن رأفته أن النفس له والمال له ثم إنه يشتري ملكه بملكه فضلاً منه وامتناناً ورحمة وإحساناً.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٠٨)

في الواحدى: قال عطاء عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبدالله بن سلام وأصحابه، وذلك أنهم حينما آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فآمنوا بشرائعه وشرائع موسى، فعظّموا السبت، وكرهوا لَحْمَانِ: الإبل وألبانها بعد ما أسلموا فأنكر ذلك عليهم المسلمون، فقالوا: إِنَّا نَقَوَى عَلَى هَذَا وَهَذَا، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إِنَّ التَّورَةَ كِتَابُ اللَّهِ، فَدَعْنَا فَلْنَعْمَلْ بِهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ فَالتَّسَلَّمَ هُنَا مَعْنَاهُ الْإِسْلَامُ قَالَه ابن عباس. وعليه قول الشاعر الكندى:

دَعَوْتُ عَشِيرَتِي لِلتَّسَلَّمَ لَمَّا رَأَيْتُهُمْ تَوَلَّوْا مَدْبِرِينَ

أَي دَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا ارْتَدَّتْ كُنْدَهُ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ الْأَشْعَثِ

بن قيس الكِنْدِي، ولأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالدخول في المسالمة التي هي الصلح. وإنما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجنح للسلم إذا جنحوا له، وأما أن يتبدى بها فلا، ويدخل في الذين آمنوا المصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، والمصدقون بمن قبله من الأنبياء والرسل، وما جاؤا به، وقد دعا الله تعالى كلا الفريقين. أي أهل الكتاب والمؤمنين إلى العمل بشرائع الإسلام وحدوده والمحافظة على فرائضه التي فرضها، ونهاهم عن تضييع شيء من ذلك، فالآية عامة لكل من شمله اسم الإيمان، وهو قول مجاهد رضي الله عنه. وكافةً هنا بمعنى جميعاً، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بأحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار] وفي القرطبي: وقال مقاتل: استأذن عبدالله بن سلام وأصحابه أن يقرؤا لتوراة في الصلاة، وأن يعملوا ببعض ما في التوراة فنزلت: «**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**» زاد مسلم في صحيحه: فإن اتباع السنة واجب. وقيل لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليه الشيطان: «**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**» ظاهر العداوة بأمره إياكم بالكفر واتباع غير ما شرعه الله لكم. ولأن التمسك بالتوراة بعد نسخها من اتباع آثار الشيطان. وفي الخازن: وروى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم حين أتاه عمر فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود وتعجبنا، فنرى أن نكتب بعضها، فقال صلى الله عليه وسلم: [أتهوكون كما تهوكت اليهود والنصارى، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو أن موسى حى ما وسعه إلا اتباعي] وقوله: [أتهوكون] أى تتحiron أنتم فى دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى وقوله: [لقد جئتكم بها] يعنى بالملة الحنيفية بيضاء نقية. أى لا تحتاج إلى شىء. قال حذيفة بن اليمان: فى هذه الآية للإسلام ثمانية أسهم: فعل الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. قال: وقد خاب من لا سهم له * وفى الغرائب وقيل الخطاب للمنافقين. والتقدير يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا بكليتكم فى الإسلام. ولا تتبعوا آثار تزوين الشيطان وتسويله بالأقامة على النفاق * وفى الآية وعيد وتهديد لمن فى قلبه شك ونفاق، أو عنده شبهة فى الدين.

*** (القول في سبب نزول قوله تعالى) ***

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ إِنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ» سورة البقرة (الآية: ٢١٤)

في الواحدى: قال قتادة والسدى: نزلت هذه الآية في غزوة الخندق لما أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والحز والبرد، وسوء العيش، وأنواع الأذى. وكان كما قال تعالى: «وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ» وقال عطاء: لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة اشتدَّ الضرُّ عليهم بأنهم خرجوا بلا مال. وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسرقوم من الأغنياء النفاق، فأنزل الله تطيباً لقلوبهم «أَمْ حَسِبْتُمْ» الآية * وفي الخطيب: وقيل نزلت في حرب أحد * ونظيره في القرطبي * وفي الخازن: نزلت في غزوة الأحزاب، وهى غزوة الخندق، وذلك أنَّ المسلمين أصابهم ما أصابهم من الجهد والشدة والخوف والبرد، وضيق العيش الذى كانوفيه يومئذ * وفيه: وقيل نزلت في غزوة أحد * ثم أورد ما ذكره الواحدى وفي الغرائب: وقيل نزلت في حرب أحد لما قال عبدالله ابن أبى لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى متى تقتلون أنفسكم وتنصرون الباطل، لو كان محمد نبياً ما سلط الله عليهم الأسر والقتل * والمعنى أم حسبتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الإيمان بى، والتصديق لرسولى دون أن تعبدوا الله بما تعبدكم به وابتلاككم بالصبر عليه، وأن ينالكم من أذى الكفار، ومن احتمال الفقر والفاقة، ومكابدة الضر والبؤس في المعيشة ومقاساة الأهوال في جهاد العدو كما نال ذلك من قبلكم من المؤمنين.: «مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا» حالهم التى هى مَثَلٌ فى الشدة. و: «مَسَّتْهُمُ» بيان للمثل، وهو استئناف كأن قائلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقيل مَسَّتْهُمُ: «الْبَأْسَاءُ» وهى عبارة عن تضيق جهات الخير والمنفعة عليه.: «وَالضَّرَّاءُ» وهى إشارة إلى انفتاح أبواب الشر والآفة إليه: «وَزُلْزَلُوا» حركوا وأزعجوا بأنواع البلاء والرزايا إزعاجاً شديداً، شبيهاً بالزلزلة، وهى من زل الشيء عن مكانه، والتضعيف فى اللفظ للتضعيف فى المعنى. وقيل: معناه خُوفوا. وليس ببعيد لأن الخائف لا يستقر بل

يضطرب لِقَافِهِ، ولهذا لا يقال ذلك إلا في الخوف المقيم المقعد. ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك شيئاً هو الغاية في الدلالة على كمال الضرّ والبؤس والمحنة فقال: «حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ» لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك غاية في الشدة لا مطمح وراءها: «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» أى فقيل لهم ذلك إجابة إلى طلبهم، فكونوا أنتم معاشر المؤمنين كذلك في تحمل الأذى والمتاعب في طلب الحق، فإن نصر الله قريب لأنه آت، وكل ما هو آت قريب. وقال النيسابورى: والحاصل أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يناهم من المشركين والمنافقين أذى كثير، ولما أذن لهم في القتال ناهم من الجراح وذهاب الأموال والأنفس ما لا يخفى، فعزاهم تعالى في ذلك، وبين أن حال من قبلهم في طلب الدنيا كان ذلك، والمصيبة إذا عمّت هانت، وذكر الله تعالى من قصة إبراهيم عليه السلام، وإلقائه في النار، ومن أمر أيوب عليه السلام، وما ابتلاه به، ومن أمر سائر الأنبياء في مصابرتهم على أنواع المكاره ما صار ذلك سلوة للمؤمنين. روى خباب بن الارت قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعولنا؟ فقال: [قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه، والله ليتمنّى الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون] وقصارى القول: إن للإيمان حقوقاً واجبات تؤدي إلى سعادة الدارين، من أهلها سلب النعمة التي أنعم بها على السابقين، فعلى المسلم أن يجعل همّة تطبيق آى كتاب الله على أعماله، وأن يُعرض عن الاحتفال بعيوب الناس، وأن يتعاون مع المؤمنين على البر والتقوى، ويهجر من رغب عنها، اكتفاءً بزخرف الدنيا وزينتها، فليتأمل المسلمون وليعتبروا بما خوطب به أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، وهم موضع التجلّة والاحترام، وكيف عوتبوا هذا العتاب الشديد على ظنهم أنهم يدخلون الجنة، وهم لم يقاسوا من البأساء والضراء واحتمال الشدائد في سبيل نصرة الدين، مثل ما قاسى الذين سبقوهم بالإيمان حتى استحقوا الجنة، فكيف لا يعاتب المسلم نفسه — وهو يعلم أنه دون الصحابة إيماناً ودعوة إلى الحق، وصبراً على المكاره في سبيل الله.

* (القول في سبب نزول قوله تعالى) *

«يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ
فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢١٥)

في الواحدى: قال ابن عباس في رواية أبى صالح: نزلت في عمرو بن الجموح الأنصارى، وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثير، فقال يا رسول الله: بماذا يتصدق؟ وعلى من ينفق؟ فنزلت هذه الآية * وفي رواية عطاء: نزلت هذه الآية في رجل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أنفقها على خادمك» فقال: إن لى أربعة فقال: «أنفقها على والديك» فقال: إن لى خمسة فقال: «أنفقها على قرابتك» فقال: إن لى ستة، فقال: «أنفقها في سبيل الله وهو أحسها» أى أقلها ثواباً، والظاهر أن الآية محمولة على نفقة التطوع لأن الزكاة لا تعطى للمذكورين * فى القرطبي: قال السدى: نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة، ثم نسختها الزكاة المفروضة، وهى مبيّنة لمصارف صدقة التطوع، فوجب على الرجل الغنى أن ينفق على أبويه المحتاجين ما يصلحهما في قدر حالهما من حاله من طعام وكسوة وغير ذلك، قال مالك: ليس عليه أن يزوجه أباه لأنه رآه يستغنى عن التزوج غالباً، ولو احتاج حاجة ماسة لوجب أن يزوجه، لولا ذلك لم يوجب عليه أن ينفق عليها، فأما ما يتعلق بالعبادات من الأموال فليس عليه أن يعطيه ما يحج به أو يغزو، وعليه أن يخرج عنه صدقة الفطر لأنها مستحقة بالفقهاء والإسلام * وفى الطبرى: قال: ثنى حجاج، قال: قال ابن جريج: سأل المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم أين يضعون أموالهم؟ فنزلت: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ..» الآية قال: فذلك النفقة فى التطوع، والزكاة سوى ذلك كله * وما ذكره الواحدى ذكره الخازن. وفى الخازن وأبى السعود قوله: «فَلِلْوَالِدَيْنِ» قد علمت أن الآية فى صدقة التطوع فلا يشكّل ذكر الوالدين، وقدمها لوجوب حقها على الولد لأنها السبب فى وجوده، وقدم الأقربين لأنّ الإنسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء، فتقديم القرابة أولى من غيرهم، ولأنهم أبعاض الوالدين، وقدم اليتامى لأنهم لا يقدرّون على الكسب ولا لهم منفق، فانظر هذا الترتيب الحسن فى كيفية الانفاق، فالأليق أن الإنسان ينفق على الوجوه المذكورة فى

الآية، فيقدم الأولى على طبقها، ولم يذكر فيها السائلين والرقاب كما في الآية الأخرى اكتفاء بها، أو بعموم قوله: «وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ» فإنه شامل لكل خير وقع في أذى مصرف* «فإن الله به عليم» فيجازيكم أحسن الجزاء. وفي الغرائب عن السدي أن الآية منسوخة بفرض الزكاة* وقال المحققون: ويروى عن الحسن أنها ثابتة، فقد يكون الانفاق على الفروع والأصول واجباً. ويحتمل أن يكون المراد من أحبّ التقرب الى الله تعالى في باب النفقة فليراع هذا الترتيب. فيقدم الوالدين لأنها كالسبب لوجوده، وقد رتباه صغيراً، ثم الأقربين لأن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بمصالح جميع الفقراء، والترجيح لا بد له من مرجح، والقراءة تصلح للترجيح، لأنه أعرف بحاله والاطلاع على غنى الغنى مما يحمل المرء على الانفاق، وأيضاً لولم يعطه قربه احتاج إلى الرجوع إلى غيره، وذلك عازاً وشناراً، وأيضاً قريب المرء كجزء منه، والانفاق على النفس أولى من الانفاق على الغير، ثم اليتامى لعدم قدرتهم على الاكتساب لصغرهم، ثم المساكين الذين هم غير اليتامى، وأبناء السبيل لأنهم بسبب الاشتراك في دار الإقامة من أنفسهم، ثم أبناء السبيل المنقطعون عن بلدهم وما لهم ما يتبّلغون به إلى أوطانهم. أى اصرفوها في هذه الوجوه مرتباً. كما جاء الحديث: [أُمَّكَ وَأَبَاكَ وَأَخْتِكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ] وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبعاً، ولا مزماراً، ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان* كذا ذكره ابن كثير في التفسير.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

يَسْتُلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلٌّ قِتَالٍ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»

سورة البقرة (الآية: ٢١٧)

في الواحدى: أخبر عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية من المسلمين، وأمر عليهم عبدالله بن جحش الأسدي، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة ووجدوا بها

عمرو بن الحضرمي في غير تجارة لقريش في يوم بقي في الشهر الحرام. فاختصم المسلمون، فقال قائل منهم: لا نعلم هذا اليوم إلا من الشهر الحرام، ولا نرى أن تستحلوا لطمع أشفيئتم عليه، فغلب على الأمر الذي يريدون: عرض الحياة الدنيا، فشدوا على ابن الحضرمي فقتلوه، وغموا غيره، فبلغ ذلك كفار قريش. وكان ابن الحضرمي أول قتيل قُتل بين المسلمين وبين المشركين، فركب وفد كفار قريش حتى قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: اتحل القتال في الشهر الحرام؟ فأنزل الله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ..» واستاقوا العير، فوافق على ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: [لم آمركم بالقتال في الشهر الحرام] فقالت قريش: استحل محمد الشهر الحرام فأنزل الله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ» إلى قوله: «وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» أي قد كانوا يقتلونكم وأنتم في حرم الله بعد إيمانكم، وهذا أكبر عند الله من أن تقتلوهم في الشهر الحرام مع كفرهم بالله. قال الزهري: لما نزل هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير، وفادى الأسيرين. ولما فرج الله تعالى عن أهل تلك السرية ما كانوا فيه من غم طمغوا فيما عند الله من ثواب، فقالوا: يانبي الله أنطمع أن تكون غزوة ولا نعطي فيها أجر المجاهدين في سبيل الله؟ فأنزل الله تعالى فيهم: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا..» الآية ثم عزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من العير الخمس. فكان أول خمس في الإسلام. وقسم الباقي بين أصحاب السرية، فكان أول غنيمة في الإسلام، وفادى الرسول بالأسيرين. كذا ذكر الواحدى. وفي الغرائب قال: أكثر المقترين على أن هؤلاء السائلين هم المسلمون حيث اختلج في صدورهم أن يكون الأمر بالقتال مقيداً بغير الشهر الحرام، والمسجد الحرام. فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن جحش، وهو ابن عمه النبي صلى الله عليه وسلم في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمة المدينة، وبعث معه ثمانية وهو من المهاجرين: سعد بن أبي وقاص الزهري، وعكاشة بن محصن الأسدي، وعتبة بن غزوان السلمى، وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسهيل بن بيضاء، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبد الله، وخالد بن بكر. وكتب لأميرهم عبد الله بن جحش كتاباً، وقال: [سر على اسم الله، ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين، فإذا نزلت منزلاً فافتح الكتاب، وقرأه على أصحابك، ثم امض لما أمرتك، ولا تستكرهن أحداً من أصحابك على السير معك] فسار عبد الله

يومين، ثم نزل وفتح الكتاب فإذا فيه [بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فسر على بركة الله بمن تبعك من أصحابك حتى تنزل على بطن نخلة، فترصد بها غير قریش لعلك أن تأتيها منه بخبر] فلما نظر عبد الله في الكتاب قال: سمع وطاعة، ثم قال لأصحابه ذلك: وقال: إنه قد نهاني أن أستكره أحداً منكم، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع، قد أضلَّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما كان يعتقانه، فاستأذنا أن يتخلفا في طلب بغيرهما، فأذن لهما فتخلفا في طلبه، ومضى عبد الله ببقية أصحابه حتى نزلوا بطن نخلة — بين مكة والطائف — فبينما هم كذلك مرَّت بهم غير لقریش تحمل زبيياً وأدماً وتجارة من تجارة الطائف. فيهم عمرو بن الحضرمي، والحكم بن كيسان، وعثمان بن عبد الله المغيرة، ونوفل بن عبد الله المخزوميان، فلما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هابوهم، فقال عبد الله بن جحش: إن القوم قد ذعروا منكم، فاحلقوا رأس رجل منكم فليعرض لهم. فإذا رأوه مخلوقاً أمئوا. وقالوا: قوم عُمَارُ، فحلقوا رأس عكاشة، ثم أشرف عليهم. فقالوا قوم عُمَارُ لا بأس عليكم فأمئوهم، وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة، وكانوا يرون أنه من جمادى، وهي رجب، فتشاور القوم فيهم، وقالوا: لئن تركتموهم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم، فأجمعوا أمرهم في مواجهة القوم، فرمى واقد بن عبد الله السهمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، فكان أول قتيل من المشركين، واستأسروا الحكم وعثمان، فكانا أول أسيرين في الإسلام، وأقلت نوفل فأعجزهم، واستاق المؤمنون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فقالت قریش: قد استحل محمد الشهر الحرام، شهراً يأمن فيه الخائف، ويتفرق فيه الناس لمعايشهم، سفك فيه الدماء، وأخذ فيه الحرائب، وغير ذلك أهل مكة من كان فيها من المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن جحش وأصحابه: [مَا أَمَرْتُكُمْ بِالْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَوَقَفَ الْعَيْرُ وَالْأَسِيرِينَ، وَأَبَى أَنْ يَأْخُذَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً، فَعَظَّمْ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ السَّرِيَّةِ، وَظَنُوا أَنْ قَدْ هَلَكُوا، وَسَقَطُوا فِي أَيْدِيهِمْ، وَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّا قَتَلْنَا ابْنَ الْحَضْرَمِيِّ، ثُمَّ أَمْسَيْنَا فَنظَرْنَا إِلَى هَلَالِ رَجَبٍ، فَلَا نَدْرِي أَيْ رَجَبٍ أَصْبَنَاهُ، أَمْ فِي جَمَادَى، وَأَكْثَرَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ] فنزلت: «يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ..» فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العير فعزل منها الخمس، فكان أول خمس، وقسم الباقي بين أصحابه أصحاب السرية، فكان أول غنيمة في الإسلام، وبعث أهل مكة في فداء

أسيرهم، فقال: بل نقفها حتى يقدم سعد وعتبة، وإن لم يقدما قتلناهما بهما، فلما قدما فاداهما، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان بن عبد الله فرجع إلى مكة فمات بها كافراً. وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق على المسلمين، فوقع في الخندق مع فرسه فتحطما جميعاً وقتله الله، وطلب المشركون جيفته بالثمن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خُذُوهُ فَإِنَّهُ خَبِيثٌ الْجَيْفَةُ خَبِيثٌ الدَّيَّةُ» وفي الخطيب نحواً من هذا. وقال: وأكثر الأقباط يل على أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «فَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» وما أوردته لك من الغرائب بحروفه في ابن كثير. وفيه: وأنزل الله يُعَيِّرُ أَهْلَ مَكَّةَ: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلٌّ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ» لايحُلُّ، وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكبر من القتل عند الله في الخازن: واختلف العلماء في حكم هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها محكمة، وأنه لا يجوز الغزو في الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه، فيقاتلوا على سبيل الدفع، روى عن عطاء أنه كان يحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا في الشهر الحرام، ولا أن يقاتلوا فيه، وما نسخت في القول الثاني الذي عليه جمهور العلماء وهو الصحيح أنها منسوخة بقوله: «فَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» وبقوله: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» يعنى في الأشهر الحرم وغيرها في الغرائب قال أبو عبيد: والناس بالثغور اليوم جميعاً على هذا القول يرون الغزو مباحاً في الأشهر الحرم كلها، ولم أر أحداً من علماء الشام والعراق ينكره عليهم. وكذلك أحسب قول أهل الحجاز، والحجة في إباحاته قوله تعالى: «فَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» ويمكن أن يقال إن قوله: «قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ» نكرة في حيز الإثبات فيتناول فرداً واحداً لا كل الأفراد. فلا يلزم منه تحريم القتال في الشهر الحرام مطلقاً، فلا حاجة فيه إلى تقدير النسخ. والله أعلم بقوله تعالى: «قِتَالٌ فِيهِ» بدل اشتمال من الشهر: «قُلٌّ» لهم: «قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ» أى عظيم وزراً إن كان عمداً، فإن كان خطأ كفعل السرية فلا إثم فيه: «وَصَدُّ» منع الناس: «عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» فيه: «وَكُفْرٌ بِهِ» أى بالله: «وَوَصَدُّ» عن: «الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» أى مكة: «وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ» وهم النبي صلى الله عليه

وسلم وأصحابه: «أَكْبَرُ» أى أعظم وزراً: «عِنْدَ اللَّهِ» مما فعلته السريّة من قتل ابن الحضرميّ فى الشهر الحرام خطأ، وبناء على الظن: «وَالْفِتْنَةُ» أى الشرك منكم: «أَكْبَرُ مِنْ الْقَتْلِ» لكم فيه. فلما نزلت هذه الآية كتب عبدالله بن أنيس إلى مؤمنى مكة إذا عيركم المشركون بالقتال فى الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر، وإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة، ومنعهم المسلمين عن البيت: «وَلَا يَزَالُونَ» أى الكفار: «يَقَاتِلُونَكُمْ» أيها المؤمنون: «حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ» إلى الكفر. فى ذلك إخبار عن عداوة الكفار لهم، وانهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم: «إِنِ اسْتَطَاعُوا» فيه استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوه إن ظفرت فى فلا تبقى على، وهو واثق بأنه لا يظفر به: «وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمْتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ» بطلت: «أَعْمَالُهُمْ» الصالحة: «فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» فلا اعتداد بها ولا ثواب عليه. فال الخطيب: والتقيد بالموت يفيد أنه لورجع إلى الإسلام لم يطل عمله كما هو مذهب الشافعى رضى الله عنه خلافاً لأبى حنيفة رضى الله عنه حيث قال: إن الردة تحبط الأعمال مطلقاً لقوله تعالى: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»: «وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» كسائر الكفرة.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا قُلٌّ كَبِيرٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا» سورة البقرة (الآية: ٢١٩)

فى الواحدى: نزلت فى عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار رضى الله تعالى عنهم، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أفتنا فى الخمر والميسر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وفى الخطيب: روى أنه لما نزل بمكة قوله تعالى: «وَمَنْ تَمَرَاتِ التَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا..» كان المسلمون يشربونها، وهى لهم حلالاً يومئذ، ثم إن عمر ومعاذاً فى نفر من الصحابة، قالوا: أفتنا فى الخمر يا رسول الله فإنها مذهبة للعقل. فنزلت هذه الآية. فشرها قوم، وتركها آخرون، ثم إن عبدالرحمن بن عوف صنع طعاماً فدعا ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتاهم بخمر فشربوها وسكروا، فحضرت صلاة، فقدموا بعضهم ليصلى

بهم فقرأ: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ أعبدوا ما تعبدون هكذا إلى آخر السورة بحذف لا، فأنزل
 الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا
 تَقُولُونَ» فحرّم السكر في أوقات الصلاة، فتركها قوم، وقالوا: لا خير في شيء يحول بيننا
 وبين الصلاة، وتركها قوم في أوقات الصلاة، وشربوها في غير وقتها، حتى كان الرجل
 يشرب بعد صلاة العشاء يصبح وقد زال عنه السكر، ويشرب بعد صلاة الصبح،
 فيصحو إذا جاء وقت الظهر، ثم إن عتبان بن مالك صنع طعاماً ودعا رجالاً من المسلمين
 فيهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقد كان شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه، وشربوا
 الخمر حتى اشتدت فيهم، ثم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدوا الأشعار، فأنشد سعد
 قصيدة فيها هجاء للأنصار وفخر لقومه، فأخذ رجلٌ من الأنصار لحي البعير، فضرب به
 رأس سعد فشحّه موضحةً، فانطلق سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا له
 الأنصارى، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزل «إِنَّمَا الْخَمْرُ
 وَالْمَيْسِرُ» إلى قوله: «فَقَهْلٌ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا ياربُّ قال
 القفال: الحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب، إن القوم كانوا ألقوا شرب الخمر،
 وكان انتفاعهم به كثير، فعلم الله لو منعهم دفعة واحدة لشقّ عليهم، فاستعمل في التحريم
 هذا التدرج والرفق، وسمى عصير العنب والتمر إذا اشتد وغلا خمرًا، لأنّه يخمر العقل، كما
 سمي سُكْرًا لأنه يسكره أي يجزئه، وهو حرام مطلقاً، وكذا كل ما أسكر عند أكثر
 العلماء، وقال أبو حنيفة: نقيع الزبيب والتمر إذا طبخ حتى ذهب ثلثاه، ثم اشتد حلّ
 شرابه ما دون السكره وسمى القمار ميسراً لأنه أخذ مال الغير بيسر، والمعنى
 «يَسْتَلُونَكَ» عن تعاطيها لقوله تعالى: «قُلْ» لهم «فِيهِمَا» أي تعاطيها «إِنَّمَا كَبِيرٌ»
 أي عظيم لما يحصل بسببها من الخاصمة والمشاتمة وقول الفحش «وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ»
 باللذات والفرح، ومصادقة الفتیان، وتشجيع الجبان، وتوفير المروءة، وتقوية الطبيعة في
 الخمر، وإصابة المال بلا كد في الميسر «وَأْتَمَّهُمَا» أي ما ينشأ عنها من المفاصد «أَكْبَرُ»
 أي أعظم «مِنْ نَفْعِهِمَا» المتوقع منها، ولهذا قيل إنّ هذا هو المحرّم للخمر، فإن المفسدة
 إذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل. وما نقل عن أبي حنيفة والثوري وابن أبي
 ليلى، وابن شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو
 حلال. وإذا سكر منه أحدٌ دون أن يعتمد الوصول إلى حدّ السكر فلا حدّ عليه قال

القرطبي: وهذا ضعيف يرده النَّظَر والخبر على ما يأتي بيانه في المائدة والتحل، إن شاء الله تعالى. «والمَيْسِر» الميسر: قار العرب بالأزلام قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله، فأيهما قَمَرَ صاحبه ذهب بماله وأهله. فنزلت الآية. وقال مجاهد ومحمد بن سيرين والحسن وابن المسيب وعطاء وقتادة ومعاوية بن صالح وطاوس وعلي بن أبي طالب وابن عباس أيضاً: (كل شيء فيه قار من نرد وشطرنج فهو الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب: أي فصوص النرد إلا ما أبيع من الرهان في الخيل والقرعة في افراز الحقوق) * وقال مالك: الميسر ميسران: ميسر اللهو، وميسر القمار، فن ميسر اللهو الترد والشطرنج والملاهي كلها. وميسر القمار: يتخاطر الناس عليه * قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الشطرنج ميسر العجم. وروى مالك في الموطأ عن داود بن حصين أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: كان من ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين. وهذا محمول عند مالك وجهور أصحابه في الجنس الواحد. حيوانه بلحمه، وهو عنده من باب المزبنة أي كبيع الرطب في رأس النخل بالتمر، أو كبيع الزبيب بالعنب، والزيتون بالزيت، والشيرج بالسُّمُّم، ونحو ذلك. والطيء عنده كله جنس واحد، وكذلك الحيتان من سمك وغيره. وروى التستائي عن عثمان رضي الله عنه قال: (اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث). إنه كان رجلاً ممن كان قبلكم تعبد، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إننا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر. فقالت: إني ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليّ. أو تشرب من هذه الخمر كأساً، أو تقتل هذا الغلام، قال: فأسقينى من هذه الخمر كأساً، فسقته كأساً، قال: زيدوني، فلم يرم — أي يبرح — حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يَجْتَمِع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه * وروى أن الأعمش لما توجه إلى المدينة ليُسلم، فلقه بعض المشركين في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم بأنه يريد محمداً صلى الله عليه وسلم، فقالوا: لا تصل إليه. فإنه يأمر بالصلاة، فقال: إنَّ خدمة الرب واجبة، فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء، فقال: اصطناع المعروف واجب، فقليل له: إنه ينهى عن الزنى، فقال: هو فحش وقبيح في العقل، وقد صرتُ شيخاً فلا أحتاج إليه، فقليل له: إنه ينهى عن شرب الخمر، فقال: أمّا

هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع، وقال: أشرب الخمر سنة، ثم أرجع إليه، فلم يصل إلى منزله حتى سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات * وفي الطبري: عن أبي توبة المصري قال: سمعتُ عبد الله بن عمر يقول: أنزل الله عز وجل في الخمر ثلاثاً، فكان أول ما أنزل «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ..» الآية، فقالوا يا رسول الله: نتنفع بها ونشرها كما قال الله عز وجل في كتابه، ثم نزلت هذه الآية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى..» الآية، قالوا يا رسول الله: لا نشرها عند قرب الصلاة، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [حُرِّمَتِ الْخَمْرُ] * وعن الشعبي قال: نزلت في الخمر أربع آيات «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ..» فتركوها. ثم نزلت «تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا» فشربوها ثم نزلت الآيتان في المائدة «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ...» إلى قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» وفي الخازن: ويروى أن حمزة بن عبدالمطلب شرب الخمر يوماً، وخرج فلقى رجلاً من الأنصار وبيده ناضح له، والأنصاري يتمثلُ بيبتين لكعب بن مالك يمدح قومه وهما:

جمعنا مع الإيواء نصراً وهجرةً فلم يُرْحَى مثلنا في المعاشر
فأحيأونا من خير أحياء من مضى وأمواتنا من خير أهل المقابر

فقال حمزة: أولئك المهاجرون، وقال الأنصاري: بل نحن الأنصار، فتنازعا، فجرد حمزة سيفه، وعدا على الأنصاري، فهرب الأنصاري، وترك ناضحه، فقطعه حمزة، فجاء الأنصاري مستعدياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بفعل حمزة، فغرم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ناضحاً، فقال عمر: اللهم بين لنا في الخمر بيناً شافياً، فأنزل الله تعالى الآية التي في المائدة إلى قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» فقال عمر: انتهينا يارب، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام * قال أنس: حرمت الخمر ولم يكن يومئذٍ للعرب عيش أحبَّ منها، وما حرم عليهم شيء أشدَّ من الخمر، وروى الشيخان عن أنس قال: ما كان لنا خمرٌ غير فضيخكم، وإني لقايم أسقى أبا طلحة، وأبا أيوب وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجلٌ فقال: حرمت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، فما سألوها عنها، ولا راجعوها بعد خبر هذا الرجل * الفضيف بالضاد والخاء المعجمتين: شراب يُتخذ من بسر مطبوخ، والاهراق: الصَّبُّ، والقلال: جمع قلة وهي الجرة الكبيرة.

* (فصلٌ في تحريم الخمر ووعيد من شربها) *

قال الخازن في تفسيره: أجمعت الأمة على تحريم الخمر، وأنه يُحدّ شارها، ويفسّق بذلك مع اعتقاد تحريمها، فإن استحلّها كفر بذلك ويجب قتله، روى الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا وَمَاتَ وَهُوَ يَدْمَنُهَا لَمْ يَتَبْ مِنْهَا لَمْ يَشْرَبْ فِي الْآخِرَةِ] ولفظ مسلم عن جابر: أن رجلاً قدم من جيشان، وجيشان من اليمن، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن شراب يشربونه بأرضهم من الذرة يقال له المزر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أَوْ مُسْكِرٌ هُوَ؟] قال: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَإِنَّ عَلَى اللَّهِ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ قَالُوا: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟] قال: عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار] وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ مُسْكِرًا بَخَسَتْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ، قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟] قال: صديد أهل النار] وأخرج أبو داود عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَجَعَلَهَا فِي بَطْنِهِ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ صَلَاةٌ سَبْعًا، وَإِنْ مَاتَ فِيهَا، مَاتَ كَافِرًا، فَإِنْ أَذْهَبَتْ عَقْلَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْفَرَائِضِ (وفي رواية: عن القرآن) لَمْ يَقْبَلْ صَلَاتَهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَإِنْ مَاتَ فِيهَا مَاتَ كَافِرًا] وأخرج الترمذي عن أنس قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر عشرة: [عاصرها ومعتصرها، وشارها وساقيا، وحاملها والمحمولة إليه، وبتاعها ومبتاعها وواهبها وآكل ثمنها].

* (فَضْلٌ فِي أَحْكَامِ تَعَلُّقِ الْخَمْرِ) *

وفيه مسائل (الأولى في ماهيتها): قال الشافعي: الخمرة عبارة عن عصير العنب النىء الشديد الذي قذف بالزبد، وكذلك نقيع الزبيب والتَّمْر المتخذ من العسل والحنطة والشعير والأرز والذرة، وكل ما أسكر فهو خمره وقال أبو حنيفة: الخمر من العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب، فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه حلّ شربه، والمسكر منه حرام، واحتج على ذلك بما روى عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى بعض عمّاله أن أرزق المسلمين من الطّلاء ما ذهب ثلثاه، وبقي ثلثه * وفي رواية أما بعد فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان، فإنّ له اثنين ولكم واحد. أخرجه النسائي. الطّلاء: بكسر الطاء والمدّ: الشراب المطبوخ من عصير العنب الذي ذهب ثلثاه وبقي ثلثه * واحتج أيضاً بما روى عن ابن عباس قال: حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها. والسكر من كل شراب. أخرجه النسائي * واستدل أيضاً على أن السكر حرام لما روى عن أبي الأحوص عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن بردة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: [اشربوا ولا تسكروا] وعن عائشة نحوه. أخرجه النسائي وقال: هذا حديث غير ثابت. واستدل الشافعي على أن الخمر حرام من عدّة أشياء بما روى عن ابن عمر أن عمر قال على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمّا بعد أيها النّاس إنه نزل تحريم الخمر، وهى من خمسة، العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل ثلاث، وددت أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد إلينا فيهنّ عهداً ننتهى إليهنّ. الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا. أخرجه البخارى ومسلم * وأخرجنا عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن البتّع، فقال: [كل شراب أسكر فهو حرام] البتّع: شراب يتخذ من العسل كان أهل اليمن يشربونه * وفي اللسان: والبتّع مثل القمّع والقمّع: نبيذ يُتخذ من عسل كأنه الخمر صلابة، وقال أبو حنيفة: البتّع الخمر المتخذ من العسل فأوقع الخمر على العسل * وفي الخازن: وعن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إنّ من العنب خمرأ، وإن من البرّ خمرأ، وإنّ من الشعير خمرأ، وإنّ من التمر خمرأ] أخرجه أبو داود، وزاد في رواية [والذرة: وإنّى أنها كم عن كل مسكر] وللمزمذني نحوه، وزاد [وإن من العسل خمرأ] * وأخرج البخارى عن ابن عباس أنّه سئل عن البادق،

قال: سبق حكم محمد. الباذق: فأسكر فهو حرام عليك، والشراب الحلال الطيب، ليس بعد الحلال الطيب إلا الحرام الخبيث* قال صاحب المطالع الباذق: بفتح الدال المعجمة هو الطلاء المطبوخ من عصير العنب، كان أول من صنعه وسمّاه بنو أمية لينقلوه عن اسم الخمر، وكل ما أسكر فهو خمر لأن الاسم لا ينقله عن معناه الموجود فيه* وقال ابن الأثير في النهاية: الباذق: الخمر تعريب باذه: وهو اسم للخمر بالفارسية، أي لم يكن في زمانه* عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: [نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتّر] أخرجه أبو داود. والمفتّر: كل شراب أحمى الجسد وصار فيه فتور وضعف وانكسار* واستدل الشافعي على ما أسكر كثيره فقليله حرام بما روى عن جابر بن عبد الله أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ما أسكر كثيره فقليله حرام] أخرجه الترمذي وأبو داود.

المسئلة الثانية (في الحكم بنجاسة الخمر): في الخازن: الخمر وما يلحق بها نجسة العين، ويدل على نجاستها قوله تعالى: «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ» والرجس في اللغة: التجس والشئ المستقذر، وقوله تعالى: «فَاجْتَنِبُوهُ» فأمر باجتنابها، فكانت نجسة العين، ويدل على نجاستها أيضاً أنها محرمة تناول لا للاحترام، ولأنّ الناس مشغوفون بها، فينبغي أن يحكم بنجاستها تأكيداً للزجر عنها.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِضْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٢٠)

في الواحدى: عن سعيد بن جبیر قال: لمّا نزلت «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا» عزلوا أموالهم فنزلت. «قُلْ إِضْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ» فخلطوا أموالهم بأموالهم* وروى سعيد عن ابن عباس أنه قال: لمّا أنزل الله عز وجل «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» و«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا» انطلق من كان عنده مالٌ يتيماً فعزل طعامه عن طعامه، وشرابه

من شرابه، وجعل يفصل الشيء من طعامه فيجلس له حتى يأكله أو يفسد، واشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ..» فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم* وفي الطبري: عن السدي قال: كانت العرب يشددون في اليتيم حتى لا يأكلوا معه في قصعة واحدة، ولا يركبون له بعيراً، ولا يستخدمون له خادماً، فجاؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عنه فقال «قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ» يصلح له ماله وأمره له خير، وإن يخالطه فيأكل معه ويطعمه ويركب راحلته، ويحمله ويستخدم خادمه ويخدمه فهو أجود «وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ» أي بها يجازى كلاً منها. ففي ذلك وعيد ووعد لمن خالطهم لافساد وإصلاح «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُمُ» أي لضيق عليكم بتحريم المخالطة، وما أباح لكم مخالطتهم. وأصل العنت: الشدة والمشقة ومعناه كلفكم في كل شيء ما يشق عليكم «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» غالب على أمره يقدر على الاعنات وغيره «حَكِيمٌ» يحكم بما تقتضيه الحكمة.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ وَلَأُمَّهُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»
سورة البقرة (الآية: ٢٢١)

في الواحدى: حدث خالد بن معروف عن مقاتل بن حيان قال: نزلت في مرشد الغنوى. استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في عناق أن يتزوجها، وهى امرأة مسكينة من قريش، وكانت ذات حظ وجمال، وهى مشركة، وأبو مرثد مسلم. فقال: يا نبي الله إنها لتعجبني، فأنزل الله عز وجل «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَّ...» وروى السدى عن أبى مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال: نزلت في عبدالله بن رواحة، وكانت له أمة سوداء وأنه غضب عليها فلطمها، ثم أنه خرج، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره خبرها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: [ما هى يا عبدالله؟ فقال: يا

رسول الله هي تصوم، وتُصلي وتُحسِنُ الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسوله، فقال: يا عبدالله هذه مؤمنة، قال عبدالله: فوالذي بعثك بالحق لأعتقها ولأ تزوجها [ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا: نكح أمةً، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، وينكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله تعالى فيه «وَلَأُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ» الآية* وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً من غنمى يقال له مرثد بن أبي مرثد حليفاً لبنى هاشم إلى مكة ليخرج ناساً من المسلمين بها أسراء، فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها عناق، وكانت خليلة له في الجاهلية، فلما أسلم أعرض عنها، فأنته فقالت: ويحك يا مرثد ألا نخلو، فقال لها: إن الإسلام قد حال بيني وبينك، وحرّمه علينا، ولكن إن شئت تزوجتك إذا رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأذنه في ذلك، ثم تزوجتك؟ فقالت له: أنت تبرّم، ثم استغاثت عليه فضر به ضرباً شديداً، ثم خلّوا سبيله، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً وأعلمه الذي كان من أمره وأمر عناق وما لقي في سببها، فقال يا رسول الله: أتجلّ أن أتزوجها، فأنزل الله ينهاه عن ذلك «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ» أى لا تتزوجوا أيها المسلمون «الْمُشْرِكَاتِ» أي الكافرات «حَتَّى يُؤْمِنَ» بدين الإسلام وعمد عليه الصلاة والسلام* وفي الخطيب روى أبو داود وغيره أن سبب نزول آية الروم «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً..» الآية. قالوا: والآية وإن كان شاملة للكتابات لكتها مخصوصة بغيرهن بقوله «وَالْمُحْصَنَاتِ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» وقد تزوج عثمان بنصرانية. فأسلمت، وتزوج حذيفة بيهودية، وطلحة بن عبيدالله بنصرانية* قال الخطيب: فإن قيل: كيف أطلقتم اسم الشرك على من لم ينكر إلا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال الحسن بن فارس: لأنّه يقول القرآن كلام غير الله؛ ومن يقول القرآن كلام غير الله فقد أشرك مع الله غير الله* وقال تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» إلى قوله: «سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» ولكن يقال إنّ المراد من المشركات في الآية اللاتي يعبدون الأوثان ففي ابن كثير، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ» استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب. وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومكحول والحسن والضحاك وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وغيرهم* وقال ابن

كثير: فأما ما رواه ابن جرير: حدّثني عبيد بن آدم بن أبي إياس العسقلاني، حدّثنا أبي، حدّثنا عبد الحميد بن بهرام الفزاري، حدّثنا شهر بن حوشب قال: سمعت عبد الله بن عباس يقول: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات، وحرم كلّ ذات دين غير الإسلام قال الله عز وجل: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ..» وقد نكح طلحة بن عبد الله يهودية، ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية، فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً حتى همّ أن يسطو عليها، فقالاً: نحن نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب، فقال: لئن حلّ طلاقهنّ لقد حلّ نكاحهنّ ولكني أنتزعهنّ منكم صغرة قاة فهو حديث غريب جداً، وهذا الأثر غريب عن عمر أيضاً، قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله بعد حكايته الاجماع على إباحتة تزوج الكتابيات. وإنما كره عمر ذلك لثلاث يزهّد النّاس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني كما حدّثنا أبو كريب، حدّثنا ابن ادريس، حدّثنا الصّلت بن بهرام عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر خلّ سبيلها، فكتب إليه، أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها؟ فقال: لا أزعّم أنها حرام ولكني أخاف أن تعاطوا المؤمنات منهنّ. وهذا إسناد صحيح. ونقل عن عمر قوله: المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة. قال: وهذا أصحّ إسناداً من الأول. ونقل ابن كثير عن محمد بن علي وصالح بن أحمد أنها سألا أبا عبد الله: أحمد بن حنبل عن قوله الله «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ» قال مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام. وفي الغرائب قال الحاكم النيسابوري: اختلف العلماء في الآية في موضعين: الأول: في لفظ النكاح. فقال أكثر أصحاب الشافعي: إنه حقيقة في العقد لقوله صلى الله عليه وسلم: [لا نكاح إلا بوليّ وشاهدي عدل] ولا شك أن المتوقف على الولي والشاهد هو العقد لا الوطاء، ولقوله صلى الله عليه وسلم أيضاً: [ولدت من نكاح لا من سفّاح] ولقوله تعالى: «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَ مِنْكُمْ» وقال الجمهور من أصحاب أبي حنيفة: أنه حقيقة في الوطاء لقوله تعالى: «حتى تنكح زوجاً غيره» والنكاح الذي ينتهي إليه الحرمة ليس هو العقد بل هو الوطاء بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: [لا حتى تذوق عسليته و يذوق عسليتك] وقال صلى الله عليه وسلم: [ناكح اليد ملقوك] ومن الناس من قال: النكاح عبارة عن الضمّ، يقال: نكح المطر الأرض إذا وصل إليها، ونكح النعاس عينه. والضمّ حاصل في العقد وفي الوطاء،

فيحسن استعمال اللفظ فيها جميعاً. قال ابن جنى: سألت أبا علي عن قولهم: (نكح المرأة) فقال: فرقت العرب بالاستعمال فرقاً لطيفاً، فإذا قالوا: نكح فلان فلانه: أرادوا أنه تزوجها وعقد عليها، وإذا قالوا: نكح امرأته أو زوجته لم يريدوا غير المجامعة إلا أن المفسرين أجمعوا على أن المراد بالنكاح في هذه الآية هو العقد. أي لا تعقدوا على المشركات * الموضوع الثاني: لفظ المشرك هل يتناول الكفار من أهل الكتاب أم لا؟ قال الأكثرون: نعم لقوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» إلى قوله: «سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»، ولقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»، فلو كان كفر اليهود والنصارى غير الشرك لاحتصل أن يغفر الله لهم، وذلك باطل بالاتفاق. وأيضاً التصارى قائلون بالتثليث، وليس ذلك في الصفات، فإن أكثر المسلمين يثبتون لله تعالى صفات قديمة، فإذا هو في الذات وهذا شرك محض * روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أميراً، وقال: [إذا لقيت عدواً من المشركين فادعهم إلى الاسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، وإن أبوا فادعهم إلى جزية وعقد الذمة، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم] سَمَى من يقبل الجزية وعقد الذمة بالمشرك. وقال أبو بكر الأصبم: كل من جحد رسالته فهو مشرك من حيث أن تلك المعجزات التي ظهرت علي يده كانت خارجة عن حدّ البشر، وهم أنكروها وأضافوها إلى الجنّ والشياطين. فقد أثبتوا شريكاً لله سبحانه في خلق هذه الأشياء الخارجة عن قدرة البشر * واعترض عليه بأن اليهودي حيث لا يسلم أن ما ظهر على يد محمد صلى الله عليه وسلم هو من جنس ما لا يقدر العباد عليه لم يلزم أن يكون مشركاً بسبب إضافة ذلك إلى غير الله. (والجواب): أنه لا اعتبار باقراره وإنما الاعتبار بالدليل، فإذا ثبت بالدليل أن ذلك المعجز خارج عن قدرة البشر، فن أضاف ذلك إلى غير الله كان مشركاً، كما لو أسند خلق الحيوان والنبات إلى الأفلاك والكواكب. احتج المخالف بأنه تعالى فصل بين أهل الكتاب والمشركين في الذكر حيث قال: «مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمَشْرِكِينَ» «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ» والعطف يقتضى التغاير، وأجيب بأن كفر الوثني أغلظ، وهذا القدر يكفي في العطف، أو لعله خصّ أولاً، ثم عمّم * وهل هذه الآية منسوخة أم لا؟ ففي الخازن: وقيل إنَّ حكم الآية نزل في مشركات العرب: الوثنيات خاصة، ولم ينسخ منها شيء، ولم يستثن، وإنما

حكما عام مخصوص: قال قتادة «وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ» يعنى مشركات العرب اللاتي ليس فيهن كتاب يقرانه فعلى قول من قال: إن اسم الشرك لا يتناول إلا الوثنيات تكون الآية محكمة، وعلى قول الأكثرين أن اسم الشرك يتناول الوثنيات والكتابيات وغيرهن تكون الآية محكمة في حق الوثنيات منسوخة في حق الكتابيات. أي اللاتي هن كتاب سماوى يقرانه، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى: «وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ» أي حرة لأن سبب نزولها العيب على من تزوج أمة — كما تقدم في الواحدى — وترغيبه في نكاح حرة مشركة كذا ذكر الجلال: واللام في «وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ» هذه اللام للتوكيد فهي تشبه لام القسم، والمراد بالأمة وكذا بالعبد في قوله «وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ» أمة الله وعبده، لأنَّ الناس كلهم عبيد الله وإماؤه. أي ولا امرأة مؤمنة حرة كانت أو مملوكة «خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبْتَكُمْ» للمبالغة، والجواب محذوف، أي ولو كانت المشركة تعجبكم بما لها وجماها ونسبها، فالمؤمنة خير منها لأن الإيمان يتعلق بالدين والمال والجمال، والنسب يتعلق بالدنيا، ورعاية الدين أولى من رعاية الدنيا إن لم يتيسر الجمع بينهما، وقد تحصل المحبة والتآلف عند التوافق في الدين فتكمل منافع الدنيا أيضاً من حسن الصحبة والعشرة وحفظ الغيب وضبط الأموال والأولاد، أما عند اختلاف الدين فتعكس هذه القضايا، وقد يرى أصداد ما توقع منها، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تُنكح المرأة لأربع: لماها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك] وقوله: «وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا» لا خلاف ههنا في أنَّ المراد به الكل، وأنَّ المؤمنة لا يحلُّ تزويجها من الكافر على اختلاف أقسام الكفر «أُولَئِكَ» المشركات والمشركون. أي عموم أهل الشرك لأن اسم الإشارة واقع على كل من الإناث والذكور لأنه يصلح لها كما قال ابن مالك: * وبأُولَى أُشِرْ لجمع مطلقاً حال كونهم «يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» أي إلى ما يؤدي إليها، فإن الزوجة مظنة الألفة والمحبة في الظاهر، وقد تحمل المودة على الاتفاق في الدين، فلعل المؤمن يوافق الكافر، والاحتراز عن مظنة الارتداد أهمُّ من الطموح إلى إسلام المشرك، فحَقَّقهم أن لا يوالوا ولا يُصاهروا، ولا يكون بينهم وبين المؤمنين إلا المناصبة والقتال، وقيل: المراد أنهم يدعون إلى ترك المحاربة والجهاد. وفي ترك الجهاد استحقاق النار والعذاب. وغرض هذا القائل أن يجعل هذا فرقا بين الذميمة وغيرها. فإنَّ الذميمة لا تحمل زوجها على ترك الجهاد.

وقيل: إن الولد الذي يحدث ربما دعاه الكافر إلى الكفر فيصير الولد من أهل النار، فهذا هو الدعوة إلى النار. «والله يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ» حيث أمر بالتزواج بالمسلمة حتى يكون الولد مسلماً من أهل الجنة، أو المراد أن أولياء الله وهو المؤمنون يدعون إلى الجنة والمغفرة، وما يؤدي إليها، فهم الذين يجب موالاتهم ومصاهرتهم وأن يؤثروا على غيرهم «بِأَذْنِهِ» بتوفيق الله وتيسيره للعمل الذي يستحق به الجنة والغفران «وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» يتعظون، ومعناه واضح.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاغْتَسِلُوا ۖ وَالنِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» سورة البقرة (الآية: ٢٢٢)

في الواحدى: حدث ثابت عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يأكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيت، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله عز وجل «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاغْتَسِلُوا ۖ وَالنِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ..» الآية. رواه مسلم * وروى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [إن اليهود قالت: لمن أتى امرأته من دبرها كان ولده أحول، فكان نساء الأنصار لا يدعن أزواجهن يأتوهن من أدبارهن، فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله عن إتيان المرأة وهي حائض، وعمّا قالت اليهود، فأنزل الله عز وجل «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاغْتَسِلُوا ۖ وَالنِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ» — يعنى الاغتسال — «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» — يعنى القبل — «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» [فإنما الحرث حيث ينبت الولد ويخرج منه * وفي القرطبي والطبري أي السائل «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ» ثابت بن الدحداح، وقيل: أسيد بن حضير. وعباد بن بشر، وهو قول الأكثرين. وسبب السؤال فيما قال قتادة وغيره: إن العرب في المدينة وما والاها كانوا قد استنثوا بستة بنى إسرائيل في تجنب مؤاكلة الحائض ومساكنتها فنزلت هذه الآية * وقال مجاهد: كانوا يتجنبون النساء

في الحيض، ويأتونهنَّ في أدبارهن مدة زمن الحيض، فنزلت الآية * وفي صحيح مسلم أيضاً عن أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهنَّ في البيوت، فسأل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ..» الآية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اصنعوا كلَّ شيء إلاَّ النكاح] فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلاَّ خالفنا فيه، فجاء أسيدُ بنُ خُضَيْرٍ، وعَبَّادُ بنُ بشر فقالا: يا رسول الله: إنَّ اليهود تقول كذا وكذا. أفلا نجامعهنَّ؟ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أن قد وجدَ - غضب - عليهما، فخرجا فاستقبلهما هديَّة من لبيْنِ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل في أثرهما فسقاها فعرفا أنه لم يجد عليهما * قال علماؤنا: كانت اليهود والمجوس تجتنب الحائض وكانت التَّصارى يجامعون في الحيض، فأمر الله بالقصد بين هذين. وقد أجمع العلماء أن للمرأة ثلاث أحكام في الدم الخارج منها:

الأول: الحيض: ودمه أسودٌ خائرٌ تعلقوه حُمْرةً فترك له الصلاة والصوم، ولا تقضى الصلاة، وإنما تقضى الصوم بعدة أيامه بعد طهرها لحديث معاذ قال: [سألت عائشة رضي الله عنها فقُلْتُ: ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة؟ قالت: أحروريَّة - طائفة من الخوارج الذين قاتلهم على رضي الله عنه - أنت؟ قُلْتُ: ليست بحروريَّة، ولكني أسأل، قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة] أخرجه مسلم * وأقل مدة الحيض ثلاثة أيام وأكثره خمسة عشر يوماً، وما زاد عن خمسة عشر يوماً أو قلَّ عن ثلاثة أيام فيكون دم استحاضة، وقيل يرجع إلى عادة النساء في ذلك. وأقلُّ الطهر خمسة عشر يوماً. هذا: والمستحاضة تتوضأ لكل صلاة بعد دخول الوقت كالمعدور، وتصلِّي الفرض وما شاءت من النوافل.

الثاني: دم النفاس: وهو الخارج بعد الولادة، قيل أكثره شهران، وقيل أربعون يوماً، وأقله لحظة والغسل منه كالغسل من الجنابة.

الثالث: دم ليس بعادة: ولا طبع مئهنَّ ولا خلقية، وإنما هو عرق انقطع سائله: دم أحمرٌ لا انقطاع له إلا عند البرء منه، وحكمه أن تكون المرأة منه طاهرة لا يمنعها من صلاة وصوم وجماع لحديث فاطمة بن أبي جحش: يا رسول الله إنِّي لا أطهر، أفادع الصلاة؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إنما ذلك عرقٌ فليس بالحیضة، إذا أقبلت الحيضة فدعى الصلاة، فإذا ذهب قدرها فاغسل عنك الدم وصلّى] وشدّت طوائف من الخوارج فقالوا: بوجوب الصلاة على الحائض ولا دليل لهم لا من كتاب ولا سُنّة، وهذا الحديث حجةٌ عليهم، وهو أصح ما روى في هذا الباب * واختلف العلماء فيمن أتى امرأته وهي حائض ماذا عليه؟ نقل عن مالك والشافعي وأبي حنيفة أن يستغفر الله تعالى ولا شيء عليه * وروى عن محمد بن الحسن: يتصدّق بنصف دينار * وقال أحمد: ما أحسن حديث عبد الحميد عن مِقْسَم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم [يتصدق بدينار، أو نصف دينار] أخرجه أبو داود، وفي كتاب الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إذا كان دمًا أحمر فدينارٌ، وإن كان دمًا أصفر فنصف دينار] وقوله تعالى: «فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ»، أي فاعتزلوا مجامعتهن، وقد قام إجماع المسلمين على حرمة في الحيض، واتفق العلماء على حلّ الاستمتاع بالمرأة بما فوق السرة، وتحت الركبة، واختلفوا فيما دون السرة وفوق الركبة، فالشافعي وأبو حنيفة وأبي يوسف قالوا: يجب اعتزال ما اشتمل عليه الإزار بناء على أن المحيض مصدر كالحجىء والمبيت. والتقدير فاعتزلوا تمتع النساء في زمان الحيض: ترك العمل بالآية فيما فوق السرة وتحت الركبة للإجماع. فبقى الباقي على الحرمة * وعن زيد بن أسلم أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: ما يحلُّ لى من امرأتى وهي حائض؟ قال: [لتشددَّ عليها إزارها، ثم شأنك بأعلاها] وقيل ما سوى الفرج حلال لأن المراد بالمحيض موضع الحيض، فالمعنى فاعتزلوا موضع الحيض من النساء. نعم المحيض الأول مصدر، فيصلح عود الضمير إليه في قوله «هُوَ أَدَى» أي الحيض شيء يستقذر ويؤذى من يقربه، نفرةً وكراهة على أنه يحتمل أن يكون بمعنى المكان، والتقدير هو ذا أذى. وإنما قدم قوله «هُوَ أَدَى» لترتيب الحكم. وهو وجوب الاعتزال عليه، وذلك أن دم الحيض فاسد يتولد من فضلة تدفعها طبيعة المرأة من طريق الرحم، حتى لو احتبست تلك الفضلة لمرضت المرأة، فذلك الدم جارٍ مجرى البول والغائط، فكان أذى وقذراً، ولا يرد عليه دم الاستحاضة حيث لا يوجب الاعتزال لأنَّ ذلك دمٌ صالح يسيل من عرق يتفجر في عنق الرحم، ويؤيده ما روى في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: [جاءت فاطمة بنت أبي جحش، فقال يا رسول الله إني امرأة أستحاض فلا أطهر، أفأدع الصلاة؟ فقال: لا، إنما ذلك عرقٌ وليست بالحیضة،

فإذا أقبلت الحيضة فدعى الصلاة، فإذا أدبرت فاغسلي عنك الدم وصلي [ومعنى العرق: إنه علّة حدثت بها من تصدّع العروق. وأصل الحيض في اللغة: السيل، يقال حاض السيل وفاض، قال الأزهري: منه قيل الحوض لأنّ الماء يفيض إليه. أي يسيل. أما السنّ المحتمل للحيض، فأصحّ الوجوه أنّها تسع سنين، فإن رأت الصبيّة دمًا قبل استكمال التسع، فهو دم فساد، قال الشافعي: وأعجل من سمعت من النساء يحضن، نساء تهامة يحضن لتسع سنين * وقيل: إن أول وقت الامكان يدخل بالطعن في السنة التاسعة، وقيل بمضى ستة أشهر من السنة التاسعة، والاعتبار على الوجوه بالسنين القمرية تقريباً على الأظهر لا تحديداً، حتى لو كان بين رؤية الدم وبين استكمال التسع على الوجه الأصح ما لا يسع حيضاً وطهراً كان ذلك الدم حيضاً، وإلا فلا.

ويحرم بالحيض عشرة أشياء: الصلاة والصوم والاعتكاف والمكث في المسجد والظواف ومسّ المصحف، وقراءة القرآن والسجود والغشيان بنص القرآن. والطلاق في حق بعضهن، ثم إن أكثر فقهاء الأمصار على أنّ المرأة إذا انقطع حيضها لا يحلّ مجامعتها إلا بعد أن تغتسل عن الحيض. وهذا قول مالك والأوزاعي والشافعي والثوري * والمشهور عن أبي حنيفة أنها إن رأت الطهر دون عشرة أيام لم يقربها زوجها حتى تغتسل، ويمضى عليها وقت صلاة، وإن رآته عشرة أيام جازله أن يقربها قبل الاغتسال * حجة الشافعي: أن القراءة المتواترة حجة بالإجماع فإذا حصلت قراءتان متواترتان وجب الجمع بينهما ما أمكن، فمن قرأ يطهرن - بالتخفيف، فانتفاء الحرمة عنده انقطاع الدم، ومن قرأ يطهرن - بالثقل فالنهاية تطهرها بالماء والجمع بين الأمرين ممكن بأن يكون النهاية حصول الشيشين * ومعنى قوله: «وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ» أي لا تجامعوهن، وهذا كالتأكيد لقوله: «فَاعْتَزِلُوا» ويحتمل أن يكون ذلك نهياً عن المباشرة في موضع الدم، وهذا نهى عن الإلتذاذ بما يقرب من ذلك الموضع أيضاً قوله: «فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ» تعليق للآتيان على التطهر بكلمة إذا فوجب أن لا يجوز الآتيان عند عدم التطهر، والمراد بالتطهر الاغتسال لأنّ هذا الحكم عائداً إلى ذات المرأة فوجب أن يحصل في كل بدنها لا في بعض من أبعاض بدنها * وعن عطاء وطاوس هو أن تغسل الموضع وتتوضأ * وقال بعضهم: غسل الموضع * ثم القائلون بوجوب الاغتسال أجمعوا على أنّ التيمم يقوم مقامه عند اعواز الماء. وقوله تعالى: «مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» أي من المآتي الذي أمركم به وحلّه لكم وهو

القبل. قاله ابن عباس ومجاهد وإبراهيم وقتادة وعكرمة* وقال الأصم والزجاج: فأتوهن من حيث يحل لكم غشيانهن، وذلك بأن لا يكنَّ صائمات ولا معتكفات ولا محرمات* وعن محمد بن الحنفية فأتوهن من قِبَلِ الحلال دون الفجور «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ» مما عسى أن يبدر عنهم من ارتكاب ما نهوا عنه من ذلك بمجامعة الحائض والطاهرة قبل الغسل، وإتيان الدبر «وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ» المتزهين عن تلك الفواحش، فالتائب هو الذي فعله ثم تركه، والمتطهر هو الذي ما فعله تنزهاً عنه لأنَّ الذنب كأنه نجاسة روحانية حكمية، إنَّما المشركون نجسٌ. أو يُحِبُّ التَّوَابِينَ الَّذِينَ يَطَّهَّرُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّوْبَةِ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأَقْدَارِ وَالْأَوْزَارِ.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» سورة البقرة (الآية: ٢٢٣)

في الواحدى: حدَّث ابن المنذر أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: كانت اليهود تقول في الذي يأتي امرأته من دبرها في قبلها إنَّ الولد يكون أحول فنزلت «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» رواه البخارى عن أبي نعيم. ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبى شيبه، كلاهما عن سفيان* وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه فأسأله عنها حتى انتهى إلى هذه الآية «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» فقال ابن عباس: إنَّ هذا الحى من قريش كانوا يتزوَّجون النساء، و يتلذذون بهنَّ مقبلات ومدبرات، فلما قدموا المدينة تزوَّجوا من الأنصار، فذهبوا ليفعلوا بهنَّ كما كانوا يفعلون بمكة فأنكرن ذلك وقُلنَّ: هذا شيء لم نكن نؤتى عليه، فانتشر الحديث حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى في ذلك «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» قال: إن شئت مقبلة وإن شئت مدبرة إن شئت باركة، وإنما يعنى بذلك موضع الولد للحرث يقول: أتت الحارث حيث شئت* رواه الحاكم أبو عبد الله في صحيحه عن أبى زكريا العنبرى عن محمد بن عبد السلام عن اسحاق بن إبراهيم عن المحاربى وروى عن جابر بن عبد الله أنه قال: قالت اليهود: إذا نكح الرجل امرأته مُجَبَّهَةً جاء ولدها أحول فنزلت «نِسَاؤُكُمْ

حَزْتُ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنِّي سِئْتُمْ» إن شاء مُجِيبَةً (أي منقلبة على وجهها تشبيهاً بهيئة السجود) وإن شاء غير مجيبة، غير أولئك في صمام واحد. رواه مسلم عن هارون بن معروف عن وهب بن جرير وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هلكتُ، فقال: وما الذي أهلكك؟ قال: حَوَلْتُ رَحْلِي (١) الليلة، قال: فلم يرد عليه شيئاً، فأوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنِّي سِئْتُمْ» يقول: أقبل وأدبر واتق الذببر والحیضة. وفي القرطبي: وروى أبوداود عن ابن عباس قال: إنَّ ابن عمر — والله يغفر له وهم — كان هذا الحى من الأنصار، وهم أهل وثن مع هذا الحى من يهود، وهم أهل كتاب، وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب ألا يأتوا النساء إلا على حرف. وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحى من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحى من قريش يشرحون شرحاً منكراً — أي يطئونها وهى نائمة على قفاها — ويتلذذون منه من مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرت عليه، وقالت: إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبى، حتى شرى أمرها (أي عظم وتفاقم ولجوا منه) فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنِّي سِئْتُمْ» أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعنى بذلك موضع الولده وروى الترمذي عن ابن عباس قال: [جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هلكتُ..] وساق الحديث. قال: هذا حديث حسن صحيح. وروى النسائي عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر: قد أكثر عليك القول إنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى بأن يؤتى النساء في أدبارهن، قال نافع: لقد كذبوا على، ولكن سأخبرك كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض على المصحف يوماً وأنا عنده حتى بلغ «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ» قال نافع: هل تدري ما أمر هذه الآية؟ إننا كنا معشر قريش نجبي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن ما كنا نريد من نساتنا فإذا هنَّ قد كرهن

(١) تحويل الرحل قيل ظاهره الكتابة عن الإتيان في غير الهل المعتاد، وقيل إنه الإتيان في الهل المعتاد لكن من جهة ظهرها.

ذلك وأعظمه، وكان نساء الأنصار إنما يؤتين على جنوبهن، فأُنزل الله سبحانه «نِسَاؤُكُمْ حَزَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَزَّتْكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» ومكان الحرث هو الفرج كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالنبات. أنشد ثعلب:

إِنَّمَا الْأَرْحَامُ أَرْضٌ سُونَ لَنَا مَحْتَرِثَاتُ
فَعَلِينَا الزَّرْعَ فِيهَا وَعَلَى اللَّهِ النَّبَاتُ

وما نسب لابن عمر رضي الله عنه عن طريق نافع ومالك وأصحابه في كتاب السر من جواز إتيان المرأة في دبرها محض اختلاق لأن ابن عمر رضي الله عنها كفر من يفعل ذلك. روى الدارمي في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال: قلت لابن عمر: ما تقول في الجوارى حين أحض بهن؟ (التحميض: أن يأتي الرجل المرأة في غير مأتاها) قال: وما التحميض؟ فذكرت له الذُّبر، فقال: هل يفعل ذلك أحدٌ من المسلمين!! أي لا يفعله إلا غير المسلم وهو الكافر. وأُسند عن خزيمة بن ثابت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [يا أيها الناس إن الله لا يستحي من الحق لا أتوا النساء في أعجازهن] وأُسند عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ أَقَى امْرَأَةً فِي دُبْرهَا لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] وفي رواية ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [تلك اللوطية الصغرى] يعنى إتيان المرأة في دبرها، وروى عن طاوس أنه قال: كان بدء عمل قوم لوط إتيان النساء في أدبارهن. وقال مالك لابن وهب وعلی بن زياد لما أخبراه أن ناساً بمصر يتحدثون عنه أنه يميز ذلك، فنفر من ذلك، وقال: كذبوا عليّ. كذبوا عليّ. كذبوا عليّ، ثم قال: أَلَسْتُمْ قَوْمًا عَرَبًا؟ ألم يقل الله تعالى: «نِسَاؤُكُمْ حَزَّتْ لَكُمْ» وهل يكون الحرث إلا في موضع المنبت وفي الطبري: ثنا روح بن القاسم عن قتادة قال: سئل أبو الدرداء عن إتيان النساء في أدبارهن فقال: هل يفعل ذلك إلا كافر وفي الطبري أيضاً: حدثني يونس قال: أخبرنا بن وهب، قال: أخبرنا عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال، أن عبد الله بن عليّ حدثه أنه بلغه أن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسوا يوماً، ورجل من اليهود قريب منهم، فجعل بعضهم يقول: إني لآتي امرأتی وهي مضجعة، ويقول الآخر: إني لآتيها وهي قائمة، ويقول الآخر: إني لآتيها على جنبها وباركة، فقال اليهودي: ما أنتم إلا أمثال البهائم، ولكننا إنما نأتيها على هيئة واحدة، فأُنزل الله تعالى ذكره «نِسَاؤُكُمْ حَزَّتْ لَكُمْ» فهو القبل وفي

ابن كثير زيادة على ما تقدم ذكره: قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب عن عامر بن يحيى عن عبد الله حنش، عن عبد الله بن عباس قال: أتى ناس من جَمِيرٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن أشياء فقال له رجل: إني أحب النساء فكيف ترى في؟ فأنزل الله «نِسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» قلت: وهذا الحديث حجة لمن قال إن «أَنَّى» في الآية بمعنى (كيف) حيث فسرها بعضهم بمعنى (أين) وكيف ومتى، وبعضهم بمعنى كيف فقط، ولكن يقال هنا: إِنَّ أَيْنَ إِنَّمَا هِيَ حَرْفُ اسْتِفْهَامٍ عَنِ الْأَمَاكِنِ وَالْمَحَالِّ فَقَط. فحينما تقول: أين مالك؟ يجاب بمكان كذا وكذا، أي أخبره عن محله، إذن فتكون أين مختصة بالسؤال عن الأماكن والمحال فقط، وكيف يسأل بها عن الصحة فقط، أو الهيئة، فيقال: كيف أنت؟ فيقال: بخير الحمد لله، أو معافى إن شاء الله، إذن فكيف يسأل بها عن حال المسئول عن حاله فقط: ومتى يستفهم بها عن المجيء، أو مطلق الحدث، فيقال: متى قدمت؟ فيقول: أمس. ومتى حدث هذا؟ فيقال: أمس. فهذه الثلاثة معاني لا ارتباط لها بمفهوم الآية لا من حيث المنطوق الموافق ولا المنطوق المخالف. أما (أَنَّى) فيستفهم بها عن عدة وجوه. فيقال: أَنَّى أَثْمَرْتِ الشَّجَرَةَ؟ فيقول: من عدة وجوه: من كون كذا وكذا وكذا... وعليه قوله تعالى: «أَنَّى يُخَيِّمُ الْمَوْتَى» فيقال من وجه كذا وكذا... لذا كان معنى قوله تعالى: «فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» أي من أي وجه شئتم من أوجه المأتى في المكان المعد للحرث، دليله ما ورد في الحديث الصحيح عن جابر وابن عباس من أن هذه الآية نزلت فيما كانت اليهود تقول للمسلمين: إذا أتى الرجل المرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول. وفي ابن كثير: قال أبو جعفر الطحاوي في كتابه مشكل الحديث: حدثنا أحمد بن داود بن موسى، حدثنا يعقوب بن كاسب، حدثنا عبد الله بن نافع، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً أصاب امرأة في دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك فأنزل الله «نِسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ» الآية. وقد أطنب ابن كثير رحمه الله في ذكر الأحاديث في هذا الموضوع. وبعضها صريح في تكفير من أتى المرأة في دبرها، وقوله تعالى: «نِسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ» جار مجرى البيان والتوضيح لقوله: «فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ» دلالة على أن الغرض الأصلي في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة، فينبغي أن يؤتى المأتى الذي هو مكان الحرث،

وفي الغرائب عن ابن عباس في «فَاتُوا حَزَنَكُمْ أَنِّي سِئْتُمْ» إن شاء عزل وإن شاء لم يعزل * وقوله تعالى: «وَقَدْ مُوا لَأَنْفُسِكُمْ» العمل الصالح كالتسمية عند الجماع، روى ابن عادل في تفسيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [من قال بسم الله عند الجماع فأتاه ولدٌ فله حسنات بعد أنفاس ذلك الولد، وعدد عقبه إلى يوم القيامة] «وَاتَّقُوا اللَّهَ» في أمره ونهيه «وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ» بالبعث فيجازيكم بأعمالكم «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» الذين اتقوه بالجنة لأنهم تلقوا ما خوطبوا به من الأوامر والنواهي بحسن القبول والامتثال بما يقصر عنه البيان من الكرامة والتعظيم، أو بكل ما يبشر به من الأمور التي تُسرِّبها القلوب، وتقربها العيون، وجعل المبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه من المبالغة في تشريف المؤمنين ما لا يخفى.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُضِلُّوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ فَلُوْبِكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ»

سورة البقرة (الآية: ٢٢٤، ٢٢٥)

في الواحدى : قال الكلبي : نزلت في عبدالله بن رواحة ينهيه عن قطعته ختنه بشر بن النعمان، وذلك أنَّ ابن رواحة حلف أن لا يدخل عليه أبداً، ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين امرأته، ويقول: قد حلفت بالله أن لا أفعل، ولا يحلُّ إلا أن أبرَّ في يميني، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي لباب السيوطي: نزلت في أبي بكر في شأن مسطح، قد حلف أن لا ينفق عليه بعد خوضه في حديث الافك * العرضة: كل ما يعرض فيمنع عن الشيء، أي لا تجعلوا الحلف بالله تعالى سبباً مانعاً لكم من البرِّ والتقوى، يدعى أحدكم إلى صلة رحم أو برِّ فيقول حلفتُ بالله أن لا أفعله، فيعتل بيمينه في ترك البرِّ، واللغو: كل مطروح من الكلام الذي لا يعتد به، ولغو اليمين هو ما سبق إلى اللسان على عجلة لصلة كلام من غير عقد ولا قصد كقول القائل: لا والله وبلى والله، وكلاً والله، قالت عائشة رضي الله عنها: [حينما سئلت عن لغو اليمين، قالت: لغو اليمين كقول الإنسان لا والله، وبلى والله] وقد أخذ به الشافعي رضي الله عنه * وقال قوم: هو أن يحلف على شيء يرى أنه صادق، ثم

يتبين أنه خلاف ذلك. أخذ به أبو حنيفة رضي الله عنه * وقال زيد بن أسلم: هو دعاء الرجل على نفسه كقول الإنسان أعمى الله بصرى إذا لم أفعل كذا وكذا، فهذا الغولا يؤاخذ الله به، قال تعالى: «وَيَذُحُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ»، وقال تعالى: «وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَفْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ» «وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ فَلَوْ بُكُمْ» أي قصدتم من الأيمان إذا حثتم ولم تبرأوا بها «والله غَفُورٌ» حيث لم يؤاخذكم باللغو «حَلِيمٌ» حيث لم يعجل بالمؤاخظة على يمين الجد ترتباً للتوبة. وأيمان اللغولا كفارة فيها * والمعنى العام للآية. إذا حلفت بالله أو بأسمائه أو صفاته أو أفعاله بالأ تملوا أرحامكم، ولا تتصدقوا، ولا تصلحوا بين الناس، أو على أي فعل من أفعال البر فاحثوا بأيمانكم وكفروا عنها، وسيأتي بيان مقدار الكفارة إن شاء الله تعالى. قوله: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ» هونيه عن الجراءة على الله بكثرة الحلف فإن من أكثر ذكر شيء في معنى من المعاني فقد جعله عرضة، قال الشاعر: فلا تجعلوني عرضة للوائم. وقد ذم الله تعالى من أكثر الحلف بقوله: «وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ» والحكمة فيه أن من حلف في كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك فلا يؤمن اقدمه على الأيمان الكاذبة. وأيضاً كلما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله كان أكمل في العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجلاً وأعلى عنده من أن يبتذله ويستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية. وقوله: «أَنْ تَبْرَأُوا» علة النهي. أي إرادة أن تبرأوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس لأن الحلف مجتزئ على الله غير معظّم له فلا يكون برّاً متقياً، فإذا ترك الحلف لاعتقاده أن الله أعظم وأجل من أن يستشهد باسمه العظيم في مطالب الدنيا اعتقد الناس في صدق لهجته وبعده من الأغراض الفاسدة، فعُدوه برّاً متحذراً من الاخلال بواجب حق الله فيدخلونه في وساطاتهم وإصلاح ذات بينهم. «والله غَفُورٌ حَلِيمٌ» يعني في ترك معاملة أهل العصيان بالعقوبة. قال الحليمي في معنى الحليم: إنه الذي لا يجبس انعامه، وإفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكنه يرزق العاصي كما يرزق المطيع، ويبقيه وهو منهمك في معاصيه كما يبقى البرّ المتقي، وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره فضلاً عن أن يدعوه كما يقيا التأسك الذي يدعوه ويسأله * وقال أبو سليمان الخطابي: الحليم ذو الصّفح والأناة الذي لا يستغزه غضب، ولا يستغفه جهلُ جاهل، ولا عصيان عاصي، ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، إنما الحليم الصفوح مع القدرة على الانتقام المتأني الذي لا يعجل بالعقوبة.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»

سورة البقرة (الآية: ٢٢٦، ٢٢٧)

في الواحدى: حدث عطاء عن ابن عباس قال: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنين وأكثر من ذلك، فوقت الله أربعة أشهر فن كان إيلاؤه أقل من أربعة أشهر فليس بإيلاءه وقال سعيد بن المسيب: كان الإيلاء ضراراً في الجاهلية، كان الرجل لا يريد المرأة ولا يجب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبداً، وكان يتركها كذلك لا أيماً ولا ذات بعلٍ، فجعل الله تعالى الأجل أربعة أشهر، وأنزل: «لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ...» الآية يؤلون من نسائهم. أي يحلفون أن لا يجامعوهن. فالإيلاء الحلف في الخطيب: قال قتادة: كان الإيلاء طلاقاً لأهل الجاهلية وقوله: «تربص» أي انتظر «أربعة أشهر» أي للمولى حق التثبت في هذه المدة، فلا يطالب بفيئة ولا طلاق. قال الشافعى رضى الله عنه: لا إيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر ويؤيده: «فإن فاءوا» أى رجعوا في المدة، أو بعدها عن اليمين إلى الوطاء لأن الفيئة وعزم الطلاق مشروعان عقب الإيلاء وحصول التربص، فلا بد أن يكون مدخول الفاء واقعاً بعدها «فإن الله غفور رحيم» لهم ما أتوه من ضرر بالحلف، رحيم بهم «وإن عزموا الطلاق» أى صمّموا عليه بأن يفيئوا فليوقعوه: «فإن الله سميع» لقولهم: «عليهم» بعزمهم. أى ليس لهم بعد تربص ما ذكر إلا الفيئة أو الطلاق. ففيه دليل على أنها لا تطلق بعد مضي المدة ما لم يطلقها زوجها. ونقل عن ابن عباس وأصحاب الرأى إذا مضت أربعة أشهر يقع عليه طليقة واحدة بائنة ونقل عن سعيد بن المسيب والزهرى طليقة واحدة رجعية ولو حلف ألا يطأها بأقل من أربعة أشهر لا يكون مولياً بل حالفاً، فإذا وطئها قبل مضي تلك المدة وجب عليه كفارة يمين إن كان الحلف بالله. وفي القرطبي: قال عبدالله بن عباس: كان إيلاء الجاهلية السنة والسنين وأكثر من ذلك، يقصدون بذلك إيذاء المرأة عند المسائة فوقت لهم أربعة أشهر، فن آلى بأقل من ذلك فليس بإيلاء حكيم. وذكر ابن ماجه أن التبيى صلى الله عليه وسلم قد آلى وطلق، وسبب إيلائه سؤال نساءه إياه من النفقة ما

ليس عنده* رواه مسلم وقيل سبب إيلائه صلى الله عليه وسلم منهن أن زينب ردت عليه هديته فغضب صلى الله عليه وسلم فألى منهن* واعلم أن الإيلاء له أركان أربعة: الخالف والمحلوف به والمحلوف عليه ومدة هي ظرف المحلوف عليه. (الركن الأول) الخالف: وهو كل زوج يتصور منه الوقاع، وكان تصرفه معتبراً في الشرع، فيصح إيلاء الذمى لعموم قوله: «لِلَّذِينَ يُؤُولُونَ» وبه قال أبو حنيفة. وقال أبو يوسف ومحمد: لا يصح إيلاؤه بالله تعالى ويصح بالطلاق والعتاق، وأيضاً لا فرق عندنا بين الحر والرقيق في الحد، وعند أبي حنيفة يتنصف برق المرأة، وعند مالك برق الرجل كما قالوا في الطلاق. لنا أن التخصيص خلاف الظاهر، وإن تقدير هذه المدة إن كان لأجل معنى يرجع إلى الجبلة والطبع، وهو قلة الصبر على مفارقة الزوج فيستوى فيه الحر والرقيق كالحيض، ومدة الرضاع ومدة العنة، ويصح الإيلاء في حال الرضا والغضب لعموم الآية. قال مالك: لا يصح إلا في حال الغضب. وأيضاً يصح الإيلاء من المرأة سواء كانت في صلب النكاح أو كانت مطلقة طلقه رجعية لأن الرجعية يصدق عليها أنها من نسائه بدليل أنه لو قال: نسائي طواق وقع الطلاق عليها، فتدخل تحت ظاهر قوله: «يؤولون من نسايتهم» ولهذا لو قال لأجنبية والله لا أجامعك لم يكن موالياً. وإيلاء الخصى صحيح لأنه يجامع كما يجامع الفحل غير أنه لا ينزل، ومن جُبت جميع ذكره لم يصح إيلاؤه على الأظهر لأنه لا يتحقق منه قصد الإيلاء لامتناع الأمر في نفسه، وكذا الأشل. ومن بقى من ذكره بعد الجب ما دون قدر الحشفة، فإن آلى ثم جب فالأصح ثبوت الخيار لها فإن لم تفسخ بقى الإيلاء على الأظهر لأن العجز عارض، وقد قصد الاضرار في الابتداء. وإذا كانت المرأة رتقاء أو قرناء فالحكم كما في الجب، ولا يصح إيلاء الصبى والمجنون بحال. (الركن الثاني) المحلوف به: وهو إما الله تعالى وصفاته، أو غيره، فإن حلف بالله كان مولىً، ثم إن جامعها في مدة الإيلاء خرج عن الإيلاء، وهل يجب عليه كفارة اليمين؟ الجديد وهو قول أبي حنيفة أنه يجب عليه كفارة اليمين لأن الدلائل الدالة على وجوب الكفارة عند الحنث باليمين عامة، وأتى فرق بين أن يقول: والله لا أقربك، ثم يقربها، أو بين أن يقول والله لا أكلمك ثم يكلمها. وإنما ترك ذكر الكفارة في الآية لأنها مبينة في سائر المواضع من القرآن وعلى لسان الرسول وقوله تعالى: «فإن الله عَفُورٌ رَحِيمٌ» يدل على عدم العقاب. وأنه لا ينافي الكفارة كالتائب عن الزنا أو القتل لا

عقاب عليه، ومع ذلك يجب عليه الحدّ والقصاص، وأما إن كان الحلف في الإيلاء بغير الله كما إذا قال: إن وطئتك فلله على عتق رقبة أو صدقة أو حج أو صوم أو صلاة فهل يكون مولياً؟ الجديد، وهو قول أبي حنيفة ومالك وجماعة من العلماء أنه يكون مولياً لأن العتق والطلاق المعلقين بالوطء يحصلان لو وطئ، فيكون ما يلزمه الوطء مانعاً له من الوطء، ويكون هو بتعليقه بالوطء مضرّاً بها فيثبت لها المطالبة كما في اليمين بالله تعالى حتى يضيق الأمر عليه بعد مضي أربعة أشهر لئىء أو يطلق، ولا يخفى أنه لو كان المعلق به إلزام قربة في الذمّة فعليه ما في نذر اللجاج، وفيه أقوال أصحها أنّ عليه كفارة اليمين، والثانى عليه الوفاء بما سمى. والثالث التخيير بين كفارة اليمين وبين الوفاء. (الركن الثالث) المحلوف عليه: وهو الجماع وهذا من صرايح ألفاظه وكذا الوطء والإصابة. ومن كناياتها المباضغة والملازمة والمباشرة فلا تعمل إلا بالنية. (الركن الرابع) المدة، فعن ابن عباس أنه لا يكون مولياً حتى يحلف أن لا يطأها أبداً وعن الحسن وإسحاق أنه مول وإن حلف يوماً، وهذان المذهبان في غاية البعد. وعن أبي حنيفة والثورى أنه لا يكون مولياً حتى يحلف على أن لا يطأها أربعة أشهر، أو فيما زاد. وعن مالك وأحمد والشافعى أنه لا يكون مولياً حتى تزيد المدة على أربعة أشهر. فعند الشافعى إذا آلى منها أكثر من أربعة أشهر أجل لأربعة أشهر، وهذه المدة تكون حقاً للزوج، فإذا مضت طالبة المرأة الزوج بالفيئة أو الطلاق، فإن امتنع الزوج منها طلقها الحاكم عليه، وعند أبي حنيفة إذا مضت أربعة أشهر يقع الطلاق بنفسه. حجة الشافعى: أن الفاء في قوله: «فإن فأوا» تقضى كون ما بعدها من حكمى الفيئة، والطلاق مشروعاً متراحياً عن انقضاء الأشهر الأربعة، وأيضاً قوله: «وإن عزموا الطلاق فإن الله سميعٌ عليمٌ» صريح في أن وقوع الطلاق إنما يكون بإيقاع الزوج، وفي أن الزوج لا بد أن يصدر عنه شيء يكون مسموعاً، وما ذلك إلا إيقاع الطلاق* أجاب أبو حنيفة بأن قوله: «فإن فأوا» تفصيل للحكم المتقدم كما تقول أنانزيلكم هذا الشهر فإن حمدتكم أقت عندكم إلى آخره، وإلّا لم أقم واتحول. وأيضاً الإيلاء طلاق في نفسه، فالطلاق إشارة إليه، وأيضاً الغالب أن العازم للطلاق والضرار وترك الفيئة لا يخلو من مقالة ودمدمة وحديث نفس فذلك الذى يسمعه الله كما يسمع وسوسة الشيطان. واستدل على صحة مذهبه في أن الفيئة لا بد أن تقع في الأشهر بقراءة عبدالله بن مسعود: فإن فأوا فيهن. وردّ بأنها شاذة فلا معول عليه، والرجوع إلى الحق أولى* الله حسبي.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»

سورة البقرة (الآية: ٢٢٩)

في الواحدى أخبر الربيع عن الشافعى عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كان الرجل إذا طلق امرأته ثم أرجعها قبل أن تنقضى عدتها كان ذلك له، وإن طلقها مائة مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها، ثم أمهلها حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها، ثم طلقها، وقال: والله لا آويك إلى ولا تحلين أبداً، فأنزل الله عز وجل: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ...» وقوله: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ» أى من المهور: «شَيْئاً» إذا طلقتموهن. فى الخطيب أنها نزلت فى جميلة أخت عبد الله بن أبى بن سلول، كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس، فشكته إلى أبيها، فقال: أرجعنى إلى زوجك، فإنى أكره للمرأة أن لا تزال رافعةً يديها تشكوز وجهها، فلما رأت أباهم لم يشكها رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل خلفه فجاهه فقال له: [مالك ولأهلك؟] فقال: والذى بعثك بالحق نبياً ما على وجه الأرض أحب إلى منى غيرك، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما تقولين] فقالت: هو منى أكرم الناس حُباً لزوجته، ولكن لا أنا ولا ثابت، لا يجمع رأسى ورأسه شىء والله لا أعيبه فى دين ولا خلق، ولكن أكره الكفر فى الإسلام. ما أطيقه بغضاً. أى أكره إن أقمت عنده أن أقع فيما يقتضى الكفر بغضاً فيه. ويحتمل أن تريد كفران العشرة — إني رفعت جانب الحياء فرأيتُه أقبِل فى عِدَّة، فإذا هو أشدُّهم سواداً وأقصرهم قامَةً، وأقبحهم وجهاً، فقال ثابت: قد أعطيتها حديقة فقل لها فلتردها على وأخلى سبيلها، فقال لها: [تردين على حديقتها وتملكين أمرك؟] قالت: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يا ثابت خذ منها ما أعطيتها وخل سبيلها] ففعل، وفى رواية [أقبل الحديقة وطلقها تطلقاً] * وفى القرطبي: ثبت أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد، وكانت عندهم العدة

معلومة مقدّرة، وكان هذا في أوّل الإسلام برههً، يطلقُ الرجل امرأته ما شاء من الطلاق، فإذا كادت تحلُّ من طلاقه راجعها ما شاء، فقال رجل لامرأته على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم: لا آويك ولا أدعك تحلين، قالت: وكيف؟ قال: أطلقك، فإذا دنا مضى عدتك راجعتك، فشكت المرأة ذلك إلى عائشة فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية بياناً لعدد الطلاق الذي للمرء منه أن يرتجع دون تجديد مهر ووليّ، ونسخ ما كانوا عليه. أخرجه الترمذي والحاكم عن عائشة رضي الله عنها. ومعنى الآية أن الطلاق الرجعي مرتان، ولا رجعة بعد الثالثة إلا أن تنكح زوجاً آخر، وهذا التفسير هو قول من جوز الجمع بين الطلاق الثلاث في دفعة واحدة وهو الشافعي. وقيل في معنى الآية أن التطلق الشرعي يجب أن يكون تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والارسال دفعة واحدة، وهذا تفسير من قال إن الجمع بين الثلاثة حرام إلا أن أبا حنيفة قال يقع الثلاث وإن كان حراماً. وقيل إن الآية دالة على عدد الطلاق الذي يكون للرجل فيه الرجعة على زوجته، والعدد الذي تبين به زوجته منه، والمعنى أن عدد الطلاق الذي لكم فيه رجعة على أزواجكم إذا كن مدخولاً بهن تطليقتان، وإنه لا رجعة له بعد التطليقتين إن سرّحها فطلقها الثالثة. كذا في الخازن. أي والثالثة تؤخذ من قول: «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» أو من قوله: «فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ...» وقوله: «فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ» يعني بعد الرجعة، وذلك أنه إذا راجعها بعد التطليقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف. وهو كل ما عرف في الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة: «أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» يعني أنه يتركها بعد الطلاق حتى تنقضي عدتها من غير مضارة، وقيل هو أنه إذا طلقها أدى إليها جميع حقوقها المالية ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء، ولا ينقّر الناس عنها كذا في الخازن. وفي القرطبي: والتسريح يحتمل لفظه معنيين: أحدهما تركها حتى تتم العدة من الطلقة الثانية، وتكون أملك بنفسها وهذا قول السدي والضحاك. والمعنى الآخر أن يطلقها ثالثة فيسرّحها وهذا قول مجاهد وعطاء وغيرهما وهو أصح لوجوه ثلاثة: أحدهما ما رواه الدارقطني عن أنس أن رجلاً قال يا رسول الله قال الله تعالى: «الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ» فَلِمَ صَارَ ثَلَاثًا؟ قال: «إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ» وفي رواية: هي الثالثة، ذكره ابن المنذر. الثاني: أن التسريح من ألفاظ الطلاق ألا ترى أنه قد قرئ وإن عزموا السراح. الثالث: أن فعل تفعيلاً يعطى أنه

أحدث فعلاً مكرراً على الطلقة الثانية، وليس في الترك أحداث فعل يعبر عنه بالتفصيل. قال أبو عمر: وأجمع العلماء على أن قوله تعالى: «أَوْ تَسْرِحُ بِإِحْسَانٍ» هي الطلقة الثالثة بعد الطلقتين، وإياها عنى بقوله تعالى: «فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهٗ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» * وفي الكرخي: الفاء في قوله: «فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ» للترتيب على التعليم، كأنه قيل إذا علمتم كيفية التطلق فعليكم أحد الأمرين. وإنما كان معناها ذلك لأن الإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان إنما يكون قبل استيفاء الطلقات الثلاث لا بعدها. والاحسان أعم من المعروف. لأن المراد بالمعروف عدم المضارة اعطاء المال جبراً لخاطرهن لما يحصل لهن بسبب الطلاق من الوحشة وانكسار الخاطر، وذلك على حسب ما كانوا يراعون في بذل المعروف لمن يرتحل عنهم * وقوله تعالى: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ» أي أعطيتموهن. وقد تقدم بيان سبب نزولها «شَيْئًا» يعني من مهر أو غيره، ثم استثنى الخلع فقال تعالى: «إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ» أي ولا يحل لكم أن تأخذوا منهن شيئاً في حال من الأحوال إلا في حال خوفهما عدم إقامة حدود الله أي بما حدّه من الحقوق الزوجية من حسن الصحبة والمعاشرة بالمعروف، وقيل هو يرجع إلى المرأة وهو سوء خلقها واستخفافها بحق زوجها: «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ» نفسها من المال ليطلقها. أي لا حرج على الزوج في أخذه ولا الزوجة في بذله.

قال الخازن: (فَصَلِّ فِي حُكْمِ الْخَلْعِ وَفِيهِ مَسَائِلُ) :

الأولى : قال الزهرى والنخعي وداود: لا يباح الخلع إلا عند الغضب والخوف من أن لا يقيما حدود الله. وذهب جمهور العلماء إلى أنه يجوز الخلع من غير نشوز ولا غضب غير أنه يكره لما فيه من قطع الوصلة بلا سبب * عن ثوبان أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [أَيُّ امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ] أخرجه أبو داود والترمذي.

* عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [أَبْغَضُ الْحَلَائِلِ إِلَى اللَّهِ الطَّلَاقُ] أخرجه أبو داود. ودليل الجمهور على جواز الخلع من غير نشوز قوله تعالى: «فَإِنْ طَبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا» فإذا جاز لها أن تهب مهرها من غير أن يحصل لها شيء فإذا بذلت كان ذلك في الخلع الذي تصير بسببه مالكة أمر نفسها أولى * وأجيب عن الاستثناء المذكور في هذه الآية أنه محمول على الاستثناء المنقطع.

(المسئلة الثانية): الخلع جائز على أكثر مما أعطاها، وبه قال أكثر العلماء، وقال بعضهم: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها، وهو قول عليّ، وبه قال الزهري والشعبيّ والحسن وعطاء وطاوس. وقال سعيد بن المسيّب: بل يأخذ دون ما أعطاها حتى يكون الفضل فيه * وحجة الجمهور أن الخلع عقد على معاوضة فوجب أن لا يقيد بمقدار معين، كما أن للمرأة أن لا ترضى عند عقد النكاح إلا بالكثير فكذلك للزوج ألا يرضى عند الخلع إلا بالبذل الكثير لا سيما وقد أظهرت الاستخفاف بالزوج حيث أظهرت بعضه وكرهته.

(المسئلة الثالثة): اختلف العلماء في الخلع هل هو فسخ، أو طلاق. فقال الشافعي في القديم: إنه فسخ، وهو قول ابن عباس وطاوس وعكرمة، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور. وقال الشافعي في الجديد: إنه طلاق وهو الأظهر، وهو قول عثمان وعليّ وابن مسعود والحسن والشعبيّ والنخعيّ وعطاء وابن المسيّب ومجاهد ومكحول والزهري، وبه قال أبو حنيفة ومالك وسفيان الثوري. وحجة القول القديم: أن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين، ثم ذكر بعده الخلع، ثم ذكر الطلقة الثالثة فقال: «فإن طلقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره» ولو كان الخلع طلاقاً لكان الطلاق أربعاً، وحجة القول الجديد أنه لو كان فسخاً لما صحّ بالزيادة على المهر المسمى كالإقالة في البيع، وأيضاً لو كان الخلع فسخاً، فإذا خالعه ولم يذكر مهراً وجب أن يجب المهر عليه كالإقالة، فإن الطلقة الثالثة قوله: «أو تسريحاً بإحسان» وفائدة الخلاف أنا إذا جعلناه فسخاً بانت منه بثلاث * : «تلك» الأحكام المذكورة في قوله: «ولا تنكحوا المشركات...» وهي ما تقدم من أحكام الطلاق والرجعة والخلع * : «حُدُوْهُ اللهُ فَلَا تَعْتَدُوْهَا» فلا تتجاوزوا عنها: «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُوْ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» والظالم اسم ذمّ وتحقير، فوقع هذا الاسم عليه ليكون جارياً مجرى الوعيد، وكيف لا والظالم ملعون: «أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ».

*(القول في سبب نزول قوله تعالى) *

«وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَبَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمَ أَرْكَى لَكُمْ وَأَظْهَرَ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» سورة البقرة (الآية: ٢٣٢)

في الواحدى: ذكر عن الحسن أنه قال: حدثني معقل بن يسار أنها نزلت فيه قال:
كنت زوجتُ اختاً لى من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له:
زوجتك وأفرشتك وأكرمتك فطلقتها، ثم جئت تخطبها!! لا والله لا تعود إليها أبداً، قال:
وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله عز وجل هذه الآية،
فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، فزوجتها إياه، رواه البخارى عن أحمد بن حفص، وفي
رواية فكفرت عن يميني وأنكحتها إياه. قوله: «فَلَبَّغْنَ أَجَلَهُنَّ» أى انقضت عدتهن:
«فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ» أى تمنعهن من: «أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ» أى المطلقين هن. وهذه
الآية دليل على أن المرأة لا تزوج نفسها إذ لو تمكنت منه لم يكن لعضل الولي فائدة، ولا
يُعارض ذلك بإسناد النكاح إليهن لأنه إنما أسند إليهن لتوقف النكاح على إذنه: «إِذَا
تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ» أى الأزواج والنساء: «بِالْمَعْرُوفِ» أى بما يعرفه الشرع ويستحسنه
من كونه بعقد حلال. وفيه دليل على أن العضل عن التزويج من غير كفاء غير منهي عنه
: «ذَلِكَ» أن ترك العضل: «أَرْكَى» أنفع: «لَكُمْ وَأَظْهَرَ» لكم وهن من دنس
الآثام لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ» ما فيه
المصلحة: «وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» ذلك لقصور عقولكم. في أن الخيرة فيما تأتون ولا فيما
تذرون من الخطيب وابن كثير. وفي الغرائب: وعن مجاهد والسدى أن جابر بن عبد الله
كانت له بنت عم فطلقها زوجها وأراد رجعتها بعد العدة فأبى جابر فنزلت * وقد تمسك
الشافعى بالآية في أن النكاح لا يجوز إلا بولي لأنه لو جاز للمرأة أن تزوج نفسها، أو
توكل من يزوجهما لما كان الولي قادراً على عضلها من النكاح. وهذا مبني على أن

الخطاب في: «لا تَعْضُلُوهُنَّ» للأولياء. وتمسك أبو حنيفة بقوله تعالى: «أَنْ يَنْكِحَنَّ أَرْوَاجَهُنَّ» على أن النكاح بغير ولي جائز، وذلك أنه تعالى أضاف النكاح إليها إضافة الفعل إلى فاعله، والتصرف إلى مباشرة، ونهى الولي عن منعها من ذلك ولو كان ذلك التصرف فاسداً لما نهى الولي عن منعها منه، ويتأكد هذا النص بقوله: «حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ» وأجيب بأن الفعل كما يضاف إلى المباشر فقد يضاف أيضاً إلى المتسبب مثل بني الأمير داراً، وإنما ذهبنا إلى هذا وإن كان مجازاً لدلالة الحديث على بطلان هذا النكاح. ففي ابن كثير، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلاقاً أو طلاقين، فتتنقض عدتها، ثم يدوله أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها* وكذا روى العوفي عنه عن ابن عباس أيضاً، وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي والزهرى والضحاك أنها نزلت في ذلك. قال ابن كثير: وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية. وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بد في النكاح من ولي كما قاله الترمذي وابن جرير عند هذه الآية كما جاء في الحديث: [لا تُزَوِّجُ المرأةُ المرأةَ ولا تُزَوِّجُ المرأةُ نفسها فإن الزانية هي التي تزوج نفسها] وفي الأثر الآخر [لا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيِّ مُرْشِدٍ وشَاهِدَيْنِ عَدْلٍ] وفي الخازن: في قوله: «فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحَنَّ أَرْوَاجَهُنَّ» خطاب للأولياء، والمعنى لا تضيقوا عليهن أيها الأولياء فتمنعوهن من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد تبتغون بذلك مضارتهن، فهو خطاب عام لجميع الأولياء، وإن كان سبب الآية خاصة* أو أنّ الخطاب للأمة جميعها، لأنها متكافلة في المصالح العامة، ليعلم المسلمون أنه يجب على من علم منهم بوقوع المنكر من أولياء النساء أو غيرهم أن ينهوه عن ذلك حتى يفيء إلى أمر الله، وأنهم إذا سكتوا عن المنكر ورضوا به يأثمون، إذ كثيراً ما يرجحون أهواتهم وشهواتهم على الحق والمصلحة، ثم يقتدى بعضهم ببعض، فيكثر الشر والمنكر فتلك الأمة كما قال تعالى: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ* كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ».

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ
وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٥٦)

في الواحدى: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلاة أي لا يعيـش لها ولد فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهـوده. فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..» قال سعيد بن جبير: فن شاء لحق بهم، ومن شاء دخل في الإسلام* وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار كان له غلام أسود يقال له صبيح، وكان يكرهه على الإسلام* وقال مسروق: كان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف إبنان فتنصرا قبل أن يُبعث النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قدما المدينة في نفر من الأنصار يحملون الطعام، فأتاها أبوها فلزمها، وقال: والله لا أدعكما حتى تُسَلِّما فأبيا أن يُسَلِّما، فاخْتَصُمُوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر؟ فأنزل الله عز وجل «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..» فخلّى سبيلها* وقال مجاهد: كان ناس مسترضعين في اليهود: قريظة والنضير، فلما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجلاء بنى النضير، قال أبناؤهم من الأوس الذين كانوا مسترضعين فيهم لنذهبن معهم ولنديننّ بدينهم. فنعمهم أهلهم وأرادوا أن يكرهوا على الإسلام فنزلت «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..» الآية أي على الدخول فيه، فن أعطى الجزية لم يكره على الإسلام، فهو عام مخصوص بأهل الكتاب، وقيل عام منسوخ، فكان هذا في الابتداء قبل أن يؤمر بالقتال، فصارت الآية منسوخة بآية السيف قاله ابن مسعود رضي الله عنه: كذا في الخطيب، وفي القرطبي: قال السدي: نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين، كان له ابنان. فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا، ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوها رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتكياً أمرهما، ورجب في أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من يردهما فنزلت «لَا إِكْرَاهَ

في الدِّينِ..» ولم يؤمر بقتال أهل الكتاب، وقال: (أبعدهما الله هُما أوَّل من كفر) فوجد أبو الحصين في نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم حيث لم يبعث في طلبها، فأُنزل الله جلَّ ثناؤه «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ» الآية، ثم إنه نسخ «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة (براءة) أي أنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدِّين الحنيف دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول، ولم ينقذ له أو يبذل الجزية قوتل حتى يقتل وهذا معنى الإكراه قال تعالى: «سْتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ آوَلٍ بِأَيْسٍ شَدِيدٍ تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ» وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» وفي الخازن: زيادة على ما تقدم ذكره من أسباب النزول: وقيل نزلت في أهل الكتاب إذا قبلوا بذل الجزية لم يكرهوا على الإسلام، وذلك أن العرب كانوا أمة أمية ولم يكن لهم كتاب يرجعوا إليه فلم يقبل منهم إلا الإسلام أو القتل، ونزل في أهل الكتاب «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» يعني إذا قبلوا الجزية، فن أعطى الجزية منهم لم يكره على الإسلام، فعلى هذا القول تكون الآية محكمة ليست منسوخة * وقوله: «قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» أي ظهر بالآيات البيِّنات أنَّ الإيمان رشد، والكفر غيٌّ، والعقل لا يختار الشقاوة على السعادة بعد تبينها، وأصل الغي بمعنى الجهل إلا أن الجهل في الاعتقاد والغي في الأعمال كذا في الكرخي. «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ» الشيطان، أو الأصنام «وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ» تمسك، فالسين والتاء زائدتان للمبالغة وليستا للطلب. أي بالغ في التمسك «بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى» بالعقدة المحكمة «لَا انْفِصَامَ لَهَا» أي لا انقطاع لها ولا زوال وهلاك «وَاللَّهُ سَمِيعٌ» لما يقال «عَلِيمٌ» بما يفعل من العزائم والعقائد.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :))*

«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»
سورة البقرة (الآية: ٢٦٢)

في الواحدى: قال الكلبي: نزلت في عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، أمَّا

عبدالرحمن بن عوف فإنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم صدقة، فقال: كان عندي ثمانية آلاف درهم، فأمسكتُ منها لنفسى ولعِيالي أربعة آلاف درهم وأربعة آلاف أقرضتُها ربي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت] وأما عثمان رضي الله عنه فقال علي: جهّز من لا جهاز له في غزوة تبوك، فجهز المسلمين بألف بعير بأقتابها وأحلاسها، وتصدّق برؤمة: ركية كانت له على المسلمين، فنزلت فيها هذه الآية وقال أبو سعيد الخدري: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رافعاً يده يدعو لعثمان ويقول: [يارب إنَّ عثمان بن عفان رضيتُ عنه فارص عنه] فما زال رافعاً يده حتّى طلع الفجر، فأنزل الله تعالى فيه «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...» الآية، وكذا في الخطيب ونحوه في الخازن، والمعنى الذين يعينون المجاهدين في سبيل الله بالإِنفاق عليهم في حوائجهم ومؤونتهم «ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَتًّا وَلَا أَدَى» أي لا يتبع نفقته التي أنفقها عليهم بالمتن والأذى، هو أن يُعيّره فيقول كم تسأل وأنت فقير أبداً وقد بليت بك. وأراحنى الله منك وأمثال ذلك. والمتن في اللغة الانعام، والمئة النعمة الثقيلة، يقال من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة، ويكون ذلك بالقول أيضاً، ومنه قول الشاعر:

فَتَى عَلَيْنَا بِالسَّلَامِ فَإِنَّمَا كَلَامُكَ يَا قَوْتُ وَدُرٌّ مَنْظَمٌ

والمتان في صفة الله تعالى معناه المتفضل، فمن الله إفضالٌ على عباده، وإحسان إليهم، فجميع ما هم فيه متة منه سبحانه وتعالى، ومن العباد تمييز وتكدير. فظهر الفرق بينهما. «لَهُمْ أَجْرُهُمْ» يعني ثوابهم «عِنْدَ رَبِّهِمْ» يعني في الآخرة «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» يعني يوم القيامة «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» يعني على ما خلّفوا من الدنيا.

* (القول في سبب نزول قوله تعالى :) *

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٦٧)

في الواحدى: عن جابر رضي الله عنه قال: أمر النبي صلى الله عليه وسلم بركة الفطر بصاع من تمر، فجاء رجل بتمر ردىء فنزل القرآن «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا

مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ» وعن السدي عن عدى بن ثابت عن البراء: قال: نزلت هذه الآية في الأنصار. كانت تخرج إذا كان جذاذ النخل من حيطانها أقتاء من التمر والبسر، فيعلقونها على جبل بين اسطوانتين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيأكل منه فقراء المهاجرين وكان الرجل يعمد فيخرج قنوه الحشف، وهو يظن أنه جائز عنه في كثرة ما يوضع في الأقتاء، فنزل فيمن فعل ذلك، **«وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ»** يعني القنوه الذي فيه حشف، ولو أهدى إليكم ما قبلتموه إلا على استحياء من صاحبه وغيظ فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، قاله البراء: كذا في الخطيب. وفيه: عن ابن عباس رضي الله عنها كانوا يتصدقون بحشف التمر وشراره فهو عن ذلك * هذا إذا كان كله أو بعضه جيداً، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، نعم إن كان كل ماله رديئاً فلا بأس بإعطاء الرديء. وفي أبي السعود **«يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم...»** هذا بيان لحال ما ينفق منه إثر بيان أصل الانفاق وكيفيته، أي أنفقوا من حلال ما كسبتم وجياده لقوله تعالى: **«لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ»** وليس في بقية التفاسير زيادة على ما تقدم، قوله: **«أنفقوا من طيبات ما كسبتم»** أنفقوا: زكوا **«من طيبات»** أي جياد **«ما كسبتم»** من المال بالتجارة والصناعة، وفيه دلالة على إباحة الكسب، وأنه ينقسم إلى طيب وخبيث، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وكان نبي الله داود لا يأكل إلا من عمل يده] * والزكاة واجبة في التجارة. فبعد الحول تقوم العروض: فيخرج منها قيمتها. ربع العشر أي ١/٢٠ % إن كان قيمتها عشرين ديناراً أو مائتي درهم فضة فيزكيها. قال سمرة بن جندب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نخرج الصدقة من الذي يُعدُّ للبيع * **«وممما»** أي من طيبات ما **«أخرجنا لكم من الأرض»** من الحبوب والثمار والمعادن. واتفق العلماء على إيجاب العشر في النخيل والكروم وفيما يقتات به من الحبوب، إن كان مسقياً بماء السماء، أو من نهر يجري الماء فيه من غير مؤنفة، وإن كان مسقياً بساقية أو نضح. أي فيه مؤنفة فيه نصف العشر لقوله صلى الله عليه وسلم: [فيما سقت السماء والعيون، أو كان عشرياً: العشر. وفيما يسقى بالتضح نصف العشر] وعنه صلى الله عليه وسلم: [ليس في حب ولا تمر

صَدَقَةٌ حَتَّى يَبْلُغَ خَمْسَةَ أَوْسُقٍ] والوسق (٦٠ صاعاً) قوله: «وَلَا تَيْمَمُوا» أي لا تقصّدوا «الْخَبِيثَ» أي الرديء «مِنْهُ» المذكور «تُنْفِقُونَ» في الزكاة «وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ» أي الخبيث «إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا» أي تُسامحوا «فِيهِ» بالحياء مع الكراهة، وهو على حدّ قول البراء المتقدّم. واختلف العلماء هل الآية في الزكاة المفروضة أم في التطوع؟ فقال عليّ بن أبي طالب وعبيدة السلمانيّ وابن سيرين: هي الزكاة المفروضة، نهى الناس عن إنفاق الرديء فيها بدل الجيّد. وقال ابن عطية: والظاهر من قول البراء بن عازب والحسن وقتادة أنّ الآية في التّطوع، ندبوا ألا يتطوعوا إلا بمختار جيّد. والحق أنّ الآية تعم الوجهين: فالأمر فيها للوجوب في الفرضيّة، وللندب في التطوع، لما روى البراء أن رجلاً علّق قنوّ حشّيف، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [بِئْسَمَا عَلَّقَ] فنزلت الآية خرّجه الترمذي. فالأمر على هذا القول للندب، ندبوا ألا يتطوعوا إلا بمجيد مختار «وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيُّ حَمِيدٌ» أي إنّ الله غنيٌّ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لمنفعتكم، فلا تتقربوا إليه بما لا يقبله لرداءته، وهو المستحق للحمد على جلائل نعمائه، ومن الحمد اللائق بجلاله تحمّي إنفاق الطيب مما أنعم به.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«إِنْ تُبْدَا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُوْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»
سورة البقرة (الآية: ٢٧١)

في الواحدى: قال الكلبي: لما نزل قوله تعالى: «وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ» الآية. قالوا يا رسول الله: صدقة السر أفضل، أم صدقة العلانية، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وكذا في الخطيب والقرطبي والغازن. وفي ابن كثير: وقال ابن أبي حاتم: حدّثنا أبي حدّثنا الحسين بن زياد المحاربيّ مؤدب محارب، أنا موسى بن عمير، عن عامر الشعبيّ في قوله: «إِنْ تُبْدَا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفَوْهَا وَتُوْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ»، قال: نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: وما خلّفت وراءك لأهلك يا عمر؟ قال: خلّفت لهم نصف مالى. وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه

إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: وما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟ فقال: عدة الله وعدة رسوله. فبكى عمر رضي الله عنه وقال: بأبي أنت وأمي يا أبا بكر، والله ما استبقتنا إلى باب خيرٍ قط إلا كنت سابقاً. قال ابن كثير: وهذا الحديث روى من وجه آخر عن عمر رضي الله عنه، وإنما أوردناه ههنا لقول الشعبي: إن الآية نزلت في ذلك، وقال: ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة، أو مندوبة، لكن روى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانياتها يقال بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانياتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفاً. وفي الخازن: وقيل إن الآية واردة في زكاة الفرض، وكان إخفاؤها خيراً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا لا يظنون بأحد أن يمنع الزكاة، فأما اليوم في زماننا فإظهار الزكاة أفضل حتى لا يساء الظن به. وقيل إن الآية عامة في جميع الصدقات الواجبة والتطوع، والإخفاء أفضل في كل صدقة من زكاة وغيرها، قوله: «إِنَّ تُبْدَا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ» أي إن تظهروا الصدقات فنعمة عملاً إظهارها لما فيه من الأسوة الحسنة، فيقتدى بالتصدق كثير من الناس ولأن الصدقة من شعائر الإسلام التي لو أخفيت لتوهم منعها «وَأَنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» أي وإن تعطوها الفقراء خفية فهي أفضل جبراً لخطأهم. ولما في ذلك من البعد عن شبهة الرياء، ولما دلت عليه الآثار والأحاديث: أخرج أحمد عن أبي أمامة أن أبا ذر قال: [يا رسول الله أي الصدقة أفضل؟ قال: صدقة سر إلى فقير، أو جهدي من مقل، ثم قرأ الآية] وروى الطبري مرفوعاً [أن صدقة السر تطفي غضب الرب] وروى البخاري: أن من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم القيامة إذ لا ظل إلا ظله، [ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه] وقد فهم من قوله: «الْفُقَرَاءَ» ولم يقل فقراءكم. أعني المسلمين — أن صدقة التطوع تُعطى للمسلم والكافر والبرّ والفاجر، لأن الله كتب الرحمة والإحسان في كل شيء، فقد ورد في الصحيحين [في كل ذي كبدٍ حرّى أجر] أي في جميع الأحياء، وتمنع الزكاة المفروضة التي هي أحد أركان الإسلام عن الكافر، ومثلها زكاة الفطر. قوله: «وَيُكْفَرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ» أي ويحوا عنكم بعض ذنوبكم لأن الصدقة لا تكفر جميع الذنوب، وأصل التكفير في اللغة التغطية والستر. وفي الخازن قال

ابن عباس: جميع سيئاتكم * وقيل أدخل من للتبعض ليكون العباد على وجل ولا يتكلموا، والمعنى: ونكفر عنكم الصغائر من سيئاتكم «والله بما تعملون خبير» يعني من إظهار الصدقات وإخفائها، فجازيكم عليه. وفي هذا ترغيب في إعطاء الصدقات سرّاً.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعْقُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٧٢، ٢٧٣)

في الخازن: قيل سبب نزول هذه الآية أن ناساً من المسلمين كان لهم قربات وأصهار في اليهود وكانوا ينفعونهم و ينفقون عليهم قبل أن يسلموا، فلما أسلموا كرهوا أن ينفعوهم وأرادوا بذلك أن يسلموا، وقيل كانوا يتصدقون على فقراء أهل المدينة فلما كثر المسلمون نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التصدق على المشركين كي تحمله الحاجة إلى الدخول في الإسلام لحرص النبي صلى الله عليه وسلم على إسلامهم فنزل «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ» ومعناه ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل أن يدخلوا في الإسلام فحينئذ يتصدق عليهم، وأعلمه الله تعالى أنه إنما بعث بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، فأما كونهم مهتدين فليس ذلك إليك * وفي الخطيب: وقيل إن أسماء بنت أبي بكره حجت فأتتها أمها تسألها وهي مشركة فأبت أن تعطيها فنزلت * وفي القرطبي: روى سعيد بن جبير مرسلأ عن النبي صلى الله عليه وسلم في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم] فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام * وذكر النقاش أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بصدقات فجاء يهودى، فقال: اعطنى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [ليس لك من صدقة المسلمين شيء] فذهب اليهودى غير بعيد فنزلت «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ» فدعاه رسول الله صلى الله

عليه وسلم فأعطاه* وفي الخطيب: وعن بعض العلماء لو كان المنفق عليه أشد خلق الله كان لك ثواب نفقتك، وأمّا الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها إلا في المسلمين* وجوز أبوحنيفة صرف صدقة الفطر إلى أهل الذمة* وفي الطبري: وقد قام الاجماع على أنّ الذمّي لا يعطى من زكاة الأموال شيئاً، أما صدقة التطوع فلا بأس بإعطائهم منها لقوله تعالى: «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ»، لذا يدفع لأهل الذمة من صدقة التطوع إذا احتاجوا.. بل وذكر أبو يوسف في كتاب الخراج أنّ عمر رضي الله عنه رأى شيخاً ضريباً يسأل على باب فقال له: ما أجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسنّ، فأخذ بيده، وذهب إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال أن انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته، ثم نخزله عند الهرم، «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ»، وهذا من مساكين أهل الكتاب. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه، وأجرى له رزقاً، وليس في بيت مال المسلمين إلّا الصدقات المفروضة، فأعطاه منها بدليل استشهاده بالآية «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ»، والله أعلم. وفي ابن كثير: قال أبو عبد الرحمن النسائي: أنبأ محمد بن عبد السلام بن عبد الرحيم، أنبأنا الفريابي، حدّثنا سفيان عن الأعمش، عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا: فرخص لهم فنزلت هذه الآية «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ..» الآية. وهذا رواه أبو حذيفة وابن المبارك وأبو أحمد الزبيرى، وأبو داود الحزمى عن سفيان وهو الثورى به، وقال ابن أبي حاتم: أنبأ أحمد بن القاسم بن عطية، حدّثني أحمد بن عبد الرحمن يعنى الدشتكى، حدّثني أبي عن أبيه، حدّثنا أشعث بن اسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ»، الآية. فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين* قوله تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ»، أي الناس إلى الدخول في الإسلام إنما عليك البلاغ والإرشاد، والحث على المحاسن والنهي عن القبائح، وقوله في آية أخرى «وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، إنما أراد هنا الدعوى إلى الهدى. كذا في الكرخى

«وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» هدايته إلى الدخول فيه «وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ» مال ولو على كافر ولكن هذا في غير صدقة الفرض «فَلَا تُفْسِكُمْ» لأن ثوابه لها «وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ» أي ثوابه لا غير من عرض الدنيا «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ» جزاؤه «وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ» تنقصون منه شيئاً. «لِلْفُقَرَاءِ» أي الصدقات السابقة، أو النفقات «الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي حبسوا أنفسهم على الجهاد. في الجلالين نزلت في أهل الصفة، وهم أربعمائة من المهاجرين، أرسدوا لتعلم القرآن والخروج مع السرايا. وفي الخازن: وهم فقراء المهاجرين كانوا نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر، وكانوا يأوون إلى صفة في المسجد يتعلمون القرآن بالليل ويرضخون النوى بالتهار، وكانوا يخرجون في كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أصحاب الصفة، فحث الله تعالى الناس على مواساتهم، فكان من عنده فضل أتاهم به إذا أمسى «لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ» يعني لا يتفرغون للتجارة وطلب العيش والكسب، وهم أهل الصفة الذين تقدم ذكرهم.. وقيل: هم قوم أصابهم جراحات في الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصاروا زمني، حصرهم المرض والزمانة عن الضرب في سبيل الله، «يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ» أي يظن من لم يختبر حالهم أنهم أغنياء من التعفف، وهو تفعل من العفة، وهي ترك الشيء والكف عنه، يقال تعفف إذا ترك السؤال والزم القناعة.

والمعنى: يظنهم من لم يعرف حالهم أغنياء لإظهار التجميل وتركهم المسئلة. وفي الشرع يحرم السؤال لغير ضرورة، روى أبو داود والترمذي من حديث عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا يجلُّ الصدقة لغنى ولا لذي مِرَّةٍ سوئ] والمره بكسر الميم القوَّة، والسوى: هو السليم الأعضاء، والمراد به القادر على الكسب. وروى أحمد وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يَغْنِيهِ فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَهَنَّمَ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا يَغْنِيهِ؟ قَالَ: مَا يُغْنِيهِ أَوْ يَعِشِيهِ]. وروى أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكْثُرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَهْرًا، فَلْيَسْتَقِلْ مِنْهُ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ] وروى أحمد والبخارى ومسلم عن أبي هريرة قال: [سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيصدق منه، ويستغنى به عن الناس، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه]

فمن يعلم أنه يسأل لنفسه تكثرأ كالشحاذين الذين جعلوا السؤال حرفة وهم قادرون على العمل — لا يعطى شيئاً، فقد رأى عمر رضي الله عنه سائلاً يحمل جراباً، فأمر أن ينظر فيه، فإذا هو خبز فأمر أن يؤخذ منه ويلقى إلى إبل الصدقة* وهذا يدل على جواز مصادرة أموال الشحاذين لأنهم اكتسبوها من وجه محرم غير مشروع وفي المراعى: وعن ابن عباس رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوماً على أصحاب الصفة، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال: [أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقى من أمتى على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائى] قال المراعى: ولا يحلُّ لأهل التكايا مشايخ الطرق أن يأكلوا أموال الناس، لأنهم لم ينقطعوا لتعلم علم ولا غزو في سبيل الله، بل قصارى أمر الأولين أن يأكلوا الصدقات والأوقاف ليعبدوا الله في هذه التكايا، فهي لهم كالأديار للنصارى وهم فيها كالرهبان، وإن كان بعضهم قد يتزوج، وكذلك مشايخ الطرق الذين ينزلون بجماعتهم بلداً بعد آخر، ويكلفون من يستضيفونه الذبائح والشيء الكثير من الطعام، ثم لا يخرجون إلا مثقلين بالمال والهدايا، بل قد يسلبون وينهبون باسم الدين، وفي معرض الكرامات، فهؤلاء الأوغاد يشبهون أنفسهم بأهل الصفة، ويزعمون أن لكلهم أموال الناس بالباطل أصلاً في الكتاب والسنة «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً»* وقوله: «تَعْرِفُهُمْ بِسِمَاتِهِمْ» السياء والسيمياء والسمة: العلامة التي يعرف بها الشيء، واختلفوا في معناها، فقيل: هي الخضوع والتواضع، وقيل: هي أثر الجهد من الحاجة والفقر، وقيل: هي صفرة ألوانهم من الجوع وراثثة ثيابهم من الضر* كذا في الخازن. والمعنى بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم كما قال تعالى: «سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ» وقال: «ولتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» وفي الحديث الذي في السنن [اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ] ثم قرأ «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ» وقوله: «لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا» أي لا يلحون في المسئلة، ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسئلة فقد ألحف في المسئلة قال البخارى: حدَّثنا ابن أبي مريم، حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شريك بن أبي نمر أن عطاء بن يسار وعبدالرحمن بن أبي عمرة الأنصارى قالوا: سمعنا أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لَيْسَ الْمَسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَا اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ: إِنَّمَا الْمَسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَفُ. اقْرؤُوا إِن شِئْتُمْ يَعْنِي

قوله «لا يسألون الناس إلحافاً»] وكذا رواه مسلم بهذا اللفظ عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفي البخارى عنه أيضاً قال: [ليس المسكين بالظواف عليكم فتطعمونه لقمة لقمة إنما المسكين المتعفف الذي لا يسأل الناس إلحافاً] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه عن رجل من مزينة أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فنسأل رسول الله كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله فوجدته قائماً يخطب وهو يقول: [ومن استعفف أعفاه الله، ومن استغنى اغناه الله، ومن سأل الناس وله عدل خمس أواق، فقد سأل الناس إلحافاً] فقلت بيني وبين نفسي لناقة لي خير من خمس أواق ولغلامى ناقة أخرى فهى خير من خمس أواق، فرجعت ولم أسأل * وأخرج أحمد عن أبي سعيد عن أبيه قال: سرحتنى أمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله، فأتيته فقعدت، قال: فاستقبلنى فقال: [من استغنى أغناه الله، ومن استعفف أعفاه الله، ومن استكف كفاه الله، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف] قال: فقلت ناقتى الياقوتة خير من أوقية، فرجعت فلم أسأله * والأوقية: أربعون درهماً. وأخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من سأل ولّة ما يغنيه جاءت مسئلته يوم القيامة خدوشاً أو كدوحاً في وجهه قالوا: يا رسول الله وما غناه؟ قال: خسونه درهماً أو حسابها من الذهب] وكذا رواه أهل السنن الأربعة. وقوله: «وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» فلا تخفى عليه حسن النية والإخلاص له في العمل، ولا تحرى النفع به وإيتاؤه أحقّ الناس به، فهو يجازى عليه بحسب هذا، ولا يخفى ما في هذا من الترغيب في الانفاق ولا سبياً على مثل هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَفْوَاهَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» سورة البقرة (الآية: ٢٧٤)

في الواحدى : عن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [نزلت هذه الآية في أصحاب أهل الخيل] وهذا قول أبي أمامة، أبي الدرداء ومكحول والأوزاعي ورباح بن يزيد قالوا: هم الذين يربطون الخيل في سبيل الله ينفقون عليها بالليل والنهار سراً وعلانية. نزلت فيمن لا يربطها تحيلاً ولا افتخاراً. وعن ابن عباس

قال في هذه الآية «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالتَّهَارِ..» في علف الخيل، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: [من ارتبط فرساً في سبيل الله فأنفق عليه احتساباً كان شبعه وجوعه وريه وظمؤه وبوله وروثه في ميزانه يوم القيامة] وعن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [المنفق في سبيل الله على فرسه كالباسط كفيه بالصدقة] وعن عجلان بن سهل الباهلي قال: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: من ارتبط فرساً في سبيل الله لم يرتبط رياءً ولا سمعةً كان من «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالتَّهَارِ..» الآية. وحدث عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس في قوله: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً..» قال: نزلت في علي بن أبي طالب. كان عنده أربعة دراهم فأنفق بالليل واحداً، وبالتهارة واحداً، وفي السرّ واحداً وفي العلانية واحداً. وفي رواية الكلبى: قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حملك على هذا؟ قال: حملني أن أستوجب على الله الذي وعدني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إن ذلك لك. فأنزل الله تعالى هذه الآية في الخطيب: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تصدق بأربعين ألف دينار: عشرة بالليل، وعشرة بالتهارة، وعشرة بالسرّ وعشرة بالعلانية، وفي علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدق بدرهم ليلاً وبدرهم نهاراً، وبدرهم سرّاً وبدرهم علانية. وفي القرطبي: وذكر ابن سعد في الطبقات قال: أخبرت عن محمد بن شعيب بن شابور قال: أنبأنا سعيد بن سينان عن يزيد بن عبد الله بن عريب عن أبيه عن جدّه عريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالتَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً..» الآية قال: [هم أصحاب الخيل] وقال قتادة: هذه الآية نزلت في المنفقين من غير تبذير ولا تقتيره قلت: وما ذكر سبباً لنزولها لا يقتضى خصوص الحكم به بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقوله: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالتَّهَارِ» الآية. ذلك أنّ الذين يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة يكون ذلك منهم دليل على الحرص البالغ والإهتمام التام كلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها، ولم يؤخروها متعللين بوقت وحال. والباء بمعنى في أي في الليل والنهار. سرّاً وعلانيةً منصوبان على الظرفية أيضاً أي في أوقات السرّ والعلن، أو على وصف المصدر أي إنفاقاً سرّاً وعلانيةً، أو على الحال لكونه بياناً عن كيفية الانفاق. وقيل لما نزل «لِلْفُقَرَاءِ

الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» بعث عبدالرحمن بن عوف بدنانير إلى أصحاب الصفة، وبعث علي بن بوسق من تمر فنزلت الآية. وكذا في الغرائب: وفي تقديم ذكر الليل وتقديم السر على العلانية دليل على أن صدقة السر أفضل لأن ذلك إيذاناً بمزيد الإخفاء على الإظهار. «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» أي يوم القيامة على ما فعلوا من الانفاق في الطاعات «وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» أي على ما خلفوه من الأولاد، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَّا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ»

سورة البقرة (الآية: ٢٧٨، ٢٧٩)

في الواحدي: حدث الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في بني عمرو بن عمير بن عوف من ثقيف، وفي بني المغيرة من بني المخزوم، وكانت بنو المغيرة يربون لشقيف، فلما أظهر الله تعالى رسوله على مكة، وضع يومئذ الربا كله، فأقى بنو عمرو بن عمير وبنو المغيرة إلى عتاب بن أسيد، وهو على مكة، فقال بنو المغيرة، ما جعلنا أشقى الناس بالربا، وضع عن الناس غيرنا، فقال بنو عمرو بن عمير: صولحنا على أن لنا ربانا، فكتب عتاب في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية والتي بعدها «فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ..» فعرف بنو عمرو أن لا يدان لهم بحرب من الله ورسوله يقول الله تعالى: «وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَّا تَظْلِمُونَ» فتأخذون أكثر «وَلَا تُظْلَمُونَ» تبخسون منه وقال عطاء وعكرمة: نزلت هذه الآية في العباس بن عبدالمطلب وعثمان بن عفان، وكانا قد أسلفا في التمر، فلما حضر الجذاذ قال لها: صاحب التمر، لا يبقى له ما يكفي عيالي إذا أنتما أخذتما حظكما كله، فهل لكما أن تأخذا النصف وأضعف لكما؟ ففعلا، فلما حل الأجل طلبا الزيادة، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاهما، وأنزل الله تعالى هذه الآية، فسمعا وأطاعا

وأخذوا رؤوس أموالهما وقال السدي: نزلت في العباس وخالد بن الوليد، وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبدالمطلب] وفي القرطبي: إن الآية نزلت بسبب ثقيف، وكانوا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن ما لهم من الربا على الناس فهو لهم، وما للناس عليهم فهو موضوع عنهم، فلما جاءت آجال رباهم بعثوا إلى مكة للاقتضاء، وكانت الديون لبني عبدة، وهم بنو عمرو بن عمير من ثقيف، وكانت على بني المغيرة المخزوميين، فقال بنو المغيرة: لا نعطي شيئاً فإن الربا قد رُفِعَ، ورفعوا أمرهم إلى عتاب بن أسيد، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الآية، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتاب، فعلمت بها ثقيف فكفّت. واعلم أنّ الربا قسمان: ربا النسيئة و ربا الفضل.

أما الأول (ربا النسيئة): فهو الذي كانوا يتعارفونه في الجاهلية، كانوا يدفعون المال مدة على أن يأخذوا كل شهر قدرًا معينًا، ثم إذا حل الدين طالب المديون برأس المال فإن تعذر عليه الأداء زادوا في الحق والأجل.

وأما الثاني (ربا الفضل): فإن يباع من من الحنطة بمنوين مثلاً. المروى عن ابن عباس أنه كان لا يحرم إلا القسم الأول، وكان يقول: لا ربا إلا في النسيئة، ويجوز ربا النقد، فقال له أبو سعيد الخدري: أشهدت ما لم تشهد، أسمعت ما لم تسمع فروى له الحديث المشهور في هذا الباب. وله روايات منها: الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح مثلاً بمثل، يداً بيد، فن زاد أو استزاد فقد أرى الآخذ والمعطى فيه سواء. ثم قال أبو سعيد: لا أراني وإيتاك في ظل بيت ما دمت على هذا، فيروى أنه رجع عنه.

قال محمد بن سيرين: كنا في بيت معنا عكرمة، فقال رجل يا عكرمة: أما تذكر ونحن في بيت فلان ومعنا ابن عباس، فقال: إنما كنت استحلتُ الصرف برأى، ثم بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمه، فأشهدوا أنّي حرّمته، وبرئت إلى الله منه، حجة ابن عباس أن قوله تعالى: «وأحلّ الله البيع» يتناول بيع الدرهم بالدرهم نقداً، وقوله: «وحرّم الربا» لا يتناوله، لأن كل زيادة ليست محرمة، فوجب أن تبقى على

الحل، ولا يخرج إلا العقد المخصوص الذي كما يسمّى فيما بينهم ربا، وهو ربا النسيئة وقد تأكد هذا الرأي بما روى أسامة بن زيد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الربا في النسيئة] وفي رواية: [الربا فيما كان يداً بيد] وذكر أبو المنهال أنه سأل البراء بن عازب وزيد بن أرقم، فقالا: كنا تاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصرف، فقال: [إن كان يداً بيد فلا بأس وإن كان نسيئة فلا يصح] وأما جمهور المجتهدين فقد اتفقوا على حرمة الربا في القسمين، أما النسيئة فبالقرآن، وأما النقد فبالخبر، ثم إن الخبر دل على حرمة ربا النقد في الأشياء الستة: النقدان والمطعمات الأربعة، ولا شك أن الربا إنما ثبت فيها المعنى، فإذا عرف ذلك المعنى ألحق بها ما يشاركها فيه، أما الأشياء الأربعة فللشافعي في علة الربا فيها قولان: الجديد أن العلة الطعم لما روى عن معمر بن عبد الله قال: كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الطعام بالطعام مثل بمثل] علق الحكم باسمى الطعام، والحكم المعلق بالإسم المشتق معلل بما منه الإشتقاق كالقطع المعلق باسم السارق، والجلد المعلق باسم الزاني، والقديم أن العلة فيها الطعم مع الكيل أو الوزن لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [الذهب بالذهب وزناً بوزن، والبر بالبر كيلاً بكيل] فعلى هذا يثبت الربا في كل مطعوم مكيل أو موزون دون ما ليس بمكيل ولا موزون كالسفرجل والمان والبيض والجوزة وقال مالك: العلة الاقتيات، فكل ما هو قوت أو يستصلح به القوت كالمالح يجري فيه الربا... وعن أحمد رواية كأبي حنيفة، والأخرى كالجديد، وأما النقدان فعن بعض الأصحاب أنّ العلة فيها لعينها لا لعلّة، والمشهور أن العلة فيها صلاحية الثمنية الغالية، فيشمل التبر والمضروب والحلّى والأواني المتخذة منها، ولا يتعدى الحكم إلى الفلوس على الأصح وإن راجت رواج الذهب والفضة لانتهاء العلة، وقال أحمد وأبو حنيفة: العلة فيها الوزن، فيتعدى الحكم إلى كل موزون كالحديد والرصاص، فهذا ضبط المذاهب وتفاريحها إلى الفقه.

وأما السبب في تحريم الربا: فهو أن من يبيع الدرهم بالدرهمين نقداً أو نسيئةً يحصل له زيادة درهم من غير عوض، وأخذ مال المسلم من غير عوض محرّم لقوله صلى الله عليه وسلم: [حرمة مال المسلم كحرمة دمه] وإبقاء رأس المال في يده مدة مديدة وتمكينه من أن يتجر فيه وينتفع به أمرٌ موهوم. فقد يحصل وقد لا يحصل، وأخذ الدرهم الزائد متيقن،

وتفويت المتيقن لأجل الموهوم لا يخلو من ضرره وقيل: سبب تحريمه أنه يمنع الناس من الإشتغال بالمكاسب لأن صاحب الدرهم إذا تمكّن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقداً أو نسيئةً أعرض عن وجوه المكاسب، فيختل نظام العالم * وقيل: لما يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، ولأنه تمكين للغني من أن يأخذ مالا زائداً من الفقير * وقيل إن حرمة الربا قد ثبتت بالتص، ولا يجب أن تكون حكمة كل تكليف معلومة لنا * وقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا» أي اتركوا «مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا» أي اتركوا بقايا ما شرطتم منه على الناس تركاً كلياً. كذا في أبي السعود * وفي السمين: والمراد اتركوا طلب ما بقي مما زاد على رؤوس أموالكم. «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» صادقين في إيمانكم، فإن من شأن المؤمن امتثال أمر الله تعالى «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا» ما أمرتم به «فَأَذْنُوا» فاعلموا أنتم، أو أيقنوا «بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» لكم، فيه تهديد شديد لهم. والمراد بالحرب القتل في الدنيا والنار في الآخرة. أي أيقنوا أنكم تستحقون القتل بمخالفة أمر الله تعالى ورسوله. وتنكيره للتعظيم. (الكرخي) * «وَإِنْ تُبْتُمْ» رجعتم عنه أي عن أكل الربا المأخوذ من قوله «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا» «فَلَكُمْ رُؤُوسٌ» أصول «أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ» بزيادة «وَلَا تُظْلَمُونَ» بنقص. وعبارة أبي السعود: أي لا تظلمون غرماءكم بأخذ الزيادة، ولا تظلمون أنتم من قبله بالمطل والنقص.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

**«وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَإِنْ تصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»** سورة البقرة (الآية: ٢٨٠)

في الواحدى : قال الكلبي: قالت بنو عمرو بن عمير لبنى المغيرة: هاتوا رؤوس أموالنا ولكم الربا ندعه لكم، فقالت بنو المغيرة: نحن اليوم أهل عسرة فأخرونا إلى أن تدرك الثمرة، فأبوا أن يؤخروهم، فأنزل الله تعالى «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ..» الآية. لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حلّ عليه الدين: إما أن تقضى وإما أن ترى، ثم يندب إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال: «وَإِنْ تصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أي وإن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين وفي الحديث: [من سره أن يظله الله يوم لا ظلّ إلا ظله فليسر على مُعسرٍ، أو ليضع عنه]

وقال عليه الصلاة والسلام: [من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة] وفي رواية [فله بكل يوم مثلاه صدقة] وروى محمد بن كعب القرظي: أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبياً فسأله عنه، فقال: نعم، هو في البيت يأكل خزيرة، فناداه فقال يا فلان: أخرج فقد أخبرت أنك ها هنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عني؟ فقال: إني معسر وليس عندي شيء، قال: الله إنك معسر؟ قال: نعم، فبكى أبو قتادة، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [من نفَس عن غريمه أو محام عنه كان في ظلِّ العرش يوم القيامة] رواه مسلم في صحيحه. وقال عليه الصلاة والسلام: [أتى الله بعبد من عباده يوم القيامة، قال: ماذا عملت لي في الدنيا؟ قال: ما عملت لك يارب مثقال ذرَّة في الدنيا أرجوك بها — قالها ثلاث مرات — قال العبد عند آخرها: يارب إنك كنت أعطيتني فضل مال وكنت رجلاً أبايع النَّاسَ، وكان من خلقي الجواز، فكنتُ أيسر على الموسر، وأنظر المعسر، قال: فيقول الله عز وجل: أنا أحقُّ من ييسر. أدخل الجنة] أخرجه البخاري ومسلم. ولفظ البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعلَّ الله أن يتجاوز عتاً، فتجاوز الله عنه] وفي حديث صحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من أعان مجاهداً في سبيل الله، أو غازياً، أو غارماً في عسرتة، أو مكاتباً في رقبته أظله الله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه] وروى أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسره] وسائر المفسرين أن الآية عامة في كل دين، ولهذا ورد كان تامّة، ولو فرض أن سبب النزول خاصّ فلا بد من إلحاق سائر الصور به لأن العاجز عن أداء المال لا يجوز تكليفه به، وهو قول أكثر الفقهاء كمالك وأبي حنيفة والشافعي.

والاعسار في الشرع: هو أن لا يجد في ملكه ما يؤديه بعينه، ولا يكون له ما لوباعه لأمكن أداء الدين من ثمنه، فن وجد داراً أو ثوباً لا يعدُّ من ذوى العسرة إذا أمكنه بيعها وأداء ثمنها، ولا يجوز له أن يحبس إلا قوت يومه لنفسه وعياله وما لا بد لهم من كسوة لصلاتهم ودفع الحرّ والبرد عنهم، وهل يلزمه أن يؤجّر نفسه من صاحب الدين أو غيره؟ الأصح أنه لا يلزمه، وكذا لو بذل له غيره ما يؤديه لا يلزمه القبول، فأما من له بضاعة كسدت عليه فواجب عليه أن يبيعها بالنقصان إن لم يمكن إلا ذلك، وإذا علم

الإنسان أن غريمه معسر حرم عليه حبسه، وأن يطالبه بما له عليه، ووجب الانظار إلى وقت
 الإيسار، فأتمًا إن كان له ريبة في إعساره جاز أن يجبسه إلى ظهور الإعسار، وإذا ادعى
 الإعسار وكذبه الغريم فإن كان الدين الذي الزمه حصل له عن عوض كالبيع أو
 القرض، فلا بدّ له من إقامة شاهدين عدلين على أن ذلك العوض قد هلك، فإن لم يكن
 عن عوض كإتلاف وضمنان وصدّاق، فالقول قوله، وعلى الغريم البينة لأنّ الأصل هو
 الفقر «وإن تصدّقوا» على المعسر بما عليه من الدين «خير لكم» لحصول الثناء الجميل
 في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى «إن كنتم تعلمون» أنّ هذا التصدق خير لكم
 فتعملوا به، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمه، أو تعلمون فضل التصدق على
 الانظار والقبض بعده، أو تعلمون أن ما يأمركم به ربكم أصلح لكم. وقيل: المراد
 بالتصدّق الانظار لقوله عليه الصلاة والسلام: [لا يحلّ دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان
 له بكل يوم صدقة]، وروى [من أنظر معسرًا أو وضع عنه أنجاه الله من كرب يوم
 القيامة] وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن
 الملائكة تلقت روح رجل كان قبلكم، فقالوا له: هل عملت خيراً قط؟ قال: لا، قالوا:
 تذكّر، قال: إلا أني رجل كنت أداين الناس، فكنت أمرفتياني بأن ينظروا الموسر،
 ويتجاوزوا عن المعسر، قال الله تعالى (تجاوزت عنه)] وأخرج البخاري عن أبي هريرة
 قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عز
 وجلّ عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد اتلافها أتلفه الله] وأخرج الشيخان عن أبي
 هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مطل الغنى ظلم] وروى الشيخان عن
 كعب بن مالك أنه تقاضى ابن أبي حدرد ديناً كان له في عهد رسول الله صلى الله عليه
 وسلم في المسجد، فارتفعت أصواتها حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في
 بيته، فخرج إليها حتى كشف سجف حجرته، فنادى، فقال: يا كعب قلت: لبيك يا
 رسول الله، فأشار بيده أن ضع الشطر من دينك، فقال كعب: قد فعلت يا رسول الله.
 قال: فم فاقضه وأخرج الشيخان عن أبي هريرة قال: كان لرجل على رسول الله صلى
 الله عليه وسلم سين من الإبل، فجاءه يتقاضاه: فقال: أعطوه فطلبوا سينه فلم يجدوا إلا
 سيناً فوقها، فقال: أعطوه فقال: أوفيتني وفاك الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [إنّ
 خيركم أحسنكم قضاءً] وفي رواية أنه أغلظ لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين

استتقضاه حتى هم به بعض الصحابه، فقال: [دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً] ثم أمر له بأفضل من سِئِهِ وأخرج مسلم عن أبي قتادة الأنصاري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال. فقام رجل فقال يا رسول الله: أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلاّ الدّيق فإن جبريل قال لي ذلك] وأخرج النسائي عن محمد بن جحش قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع رأسه إلى السماء، ثم وضع يده على جبهته، ثم قال: [سبحان الله!! ماذا نزل من التشديد!] فسكتنا وفرعنا، فلمّا كان من الغد، سألته: يا رسول الله ما هذا التشديد الذي نزل؟ فقال: [والذي نفسى بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله، ثم أُحيى، ثم قُتل، ثم أُحيى، وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه دينه] فاللهم أوف عنا دين الدنيا والآخرة.

**** (القول في سبب نزول قوله تعالى :) ****

«وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» سورة البقرة (الآية: ٢٨١)

في البيضاوى: قال ابن عباس: وهذه آخرة نزل بها جبريل، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ضعها في رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة، وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقيل أحداً وثمانين، وقيل سبعة أيام، وقيل ثلاث ساعات وقوله: في رأس المائتين والثمانين، وهى في المصحف كما ذكر، وفي الخازن زيادة: ومات صلى الله عليه وسلم لليلتين خلتا من ربيع الأول في يوم الإثنين سنة إحدى عشرة من الهجرة، وروى الشعبي عن ابن عباس: أن آخرة نزلت آية الرباه وفي ابن كثير: عن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...» الآية. وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول قال ابن كثير: فكان بين نزولها وموت النبي صلى الله عليه وسلم واحد وثلاثون يوماً... قال ابن جرير يقولون: إن النبي صلى

الله عليه وسلم عاش بعدها تسع ليال، وبدى يوم السبت، ومات يوم الاثنين * وقوله: «وَاتَّقُوا يَوْمًا» والمراد اتقاء ما يحدث فيه من الشدائد والأهوال، واتقاء ذلك لا يمكن إلاً باجتناب المعاصي، وفعل الأوامر في الدنيا، فهذا القول يتضمن الاتيان بجميع التكليف، وانتصب يوماً على أنه مفعول به، والمعنى تأهبوا بما تسلفون من العمل الصالح للقاء يوم ترجعون فيه إلى الله أي إلى ما أعد لكم من ثواب، أو عقاب، أو إلى علمه وحفظه، وذلك أن الإنسان له أحوال ثلاث على الترتيب:

الأولى : كونه جنيناً لا يملك تصرفاً فلا تصرف فيه إلا الله.

الثانية: خروجه إلى فضاء، وهناك يرى للأبوين ولغيرهما تصرف فيه ظاهر.

الثالثة : ما بعد الموت، وهناك لا يكون التصرف فيه ظاهراً في الحقيقة إلاً الله

تعالى، فكأنه عاد إلى الحالة الأولى.

وهذا معنى الرجوع إلى الله تعالى «ثُمَّ تُوقَى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ» أي جزاء ذلك، أو المكتسب هو الجزاء كما يقال: كسب الرجل لما يحصله بتجارته، والمراد أن كل مكلف فإنه يصل إليه جزاء عمله بالتمام عند الرجوع إلى الله تعالى. كقوله: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» آخر سورة البقرة (الآية: ٢٨٥، ٢٨٦)

في الواحدى : قال أبوهريرة: لما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم «وإن تُبَدُّوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله..» الآية. اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: كلفنا من

الأعمال ما لا نطبق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم؟ أراد قالوا: سمعنا وعطينا. قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم، وجرت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في إثرها، «أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ..» الآية. ونسخها الله تعالى فأنزل «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا..» الآية إلى آخرها. رواه مسلم عن أمية بن بسطام* وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: «وَأَنْ تَبْذُوبُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْضَعُوا يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ..» دخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا. فألقى الله تعالى الإيمان في قلوبهم. فقالوا: سمعنا وأطعنا، فأنزل الله تعالى: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» حتى بلغ أخطأنا. فقال: قد فعلت. إلى آخر البقرة. كل ذلك يقول قد فعلت. رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع.

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية «وَأَنْ تَبْذُوبُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ» جاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل وناس من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله: ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية، إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه، وأن له الدين وما فيها، وإنا لمؤاخذون بما نحدث به أنفسنا، هلكننا والله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هكذا أنزلت. فقالوا: هلكننا وكلفنا من العمل ما لا نطبق، قال: فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى: سمعنا وعطينا. قولوا: سمعنا وأطعنا. فقالوا: سمعنا وأطعنا. واشتد ذلك عليهم، فكتبوا بذلك حولاً، فأنزل الله تعالى الفرج والراحة بقوله: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا..» فنسخت هذه الآية ما قبلها. قال النبي صلى الله عليه وسلم: [إن الله تجاوز لأمتي ما حدثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا به]. وفي الخازن: قال الزجاج: لما ذكر الله في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصوم والحج والطلاق والإيلاء والحيض والجهاد، وقصص الأنبياء. وما ذكر من كلام الحكماء، ختم السورة بذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بجميع ذلك* قال الخازن: ومعنى آمن الرسول: صدق الرسول يعني محمداً صلى الله عليه وسلم. والمعنى صدق الرسول أن هذا القرآن. وجملة ما فيه من الشرائع والأحكام منزل من عند الله* وكذلك بما ظهر على أيدي الأنبياء من

المعجزات، ولهذا ذكر غمقيه إيمان المؤمنين بذلك، لمعجزات أظهرها الله تعالى على يد الرسول حتى استدلّت الأمة بها على أنّه صادق في دعواه، وهو المرتبة المتأخرة، ومن تأمل في نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم مبانيه. وقوله: «كُلُّ» أي كل واحد من المؤمنين، دلّ عليه التنوين، فهوتنوين عوض من المضاف إليه «آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ» قال الخازن: فهذه أربع مراتب من أصول الإيمان وضرورياته، فأما الإيمان بالله: فهو أن يؤمن بأن الله واحد لا شريك له، ولا نظيره، ويؤمن بجميع أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأنّه حيّ عالم قادر على كل شيء. وأما الإيمان بالملائكة: فهو أن يؤمن بوجودهم، وأنهم معصومون مطهرون، وأنهم السفارة الكرام البررة وأنهم الوسائط بين الله تعالى وبين رسله، وأما الإيمان بكتبه: فهو أن يؤمن بأن الكتب المنزلة من عند الله هي وحى الله إلى رسله، وأنها حقّ وصدق من عند الله بغير شكّ ولا ارتياب، وأن القرآن لم يحرف ولم يبدل ولم يغيّر، وأنّه مشتمل على المحكم والمتشابه، وأنّ محكمه يكشف عن متشابهه. وأما الإيمان بالرسل: فهو أن يؤمن بأنهم رسل الله إلى عباده، وأمنائوه على وحيه، وأنهم معصومون، وأنهم أفضل الخلق وأن بعضهم أفضل من بعض، وقد أنكر بعضهم ذلك وتمسك بقوله تعالى: «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» وأجيب عنه بأن المقصود من هذا الكلام شيء آخر، وهو إثبات نبوة الأنبياء، والردّ على اليهود والنصارى الذين يقرون نبوة موسى وعيسى وينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. وقد ثبت بالنص الصريح تفضيل بعض الأنبياء على بعض بقوله «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» وقوله: «لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» أي في الإيمان، ولا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميع رسله «وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» يعنى سمعنا قولك وأطعنا أمرك أي قال المؤمنون: سمعنا قول ربنا فيما أمرنا به. وأطعناه فيما ألزمتنا من فرائضه، واستعبدنا به من طاعته، وسلمنا له فيما أمرنا به ونهانا عنه «عُفْرَانِكَ رَبَّنَا» أي اغفر لنا غفرانك ربنا «وَالَيْكَ الْمَصِيرُ» المرجع بالبعث «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» أي ما تسعه قدرتها فضلاً منه ورحمة، أو مادون مدى طاقتها، أي غاية طاقتها، بحيث يتسع فيه طوقها ويتيسر عليه كقوله: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ» كذا في البيضاوى. «لَهَا مَا كَسَبَتْ» يعنى للنفس

ما عملت من الخير فلها أجره وثوابه «وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَت» يعني من الشر عليها وزره وعقابه، ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد، ولا بما لم يكسبه مما وسوست به نفسه.

وفي الغرائب : واعلم أن العلماء اتفقوا على أن الأمور التي تخطر بالبال مما يكرهها الإنسان، ولا يمكن إزالتها عن النفس لا يؤاخذ بها لأنها تجرى مجرى تكليف ما لا يطاق، وأما الخواطر التي يوطن الإنسان نفسه عليها، ويعزم على إدخالها في الوجود، فقد قيل إنه يؤاخذ بها لقوله تعالى: «ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم» وكما يؤاخذ باعتقاد الكفر والبدع، وأنه من أفعال القلوب. ثم قال بعضهم: إنما يؤاخذ بها في الدنيا لما روى الضحّاك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما حدّث العبد به نفسه من شر كانت محاسبة الله عليه. نعم يبتليه في الدنيا مجزن أو أذى فإذا جاءت الآخرة لم يسئل عنه ولم يعاقب، وروت أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: فأجابها بما هذا معناه، وقيل إن كل ما كان في القلب مما لا يدخل في العمل فإنه في محل العقول ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بعد نزول قوله: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» أن الله تجاوز لأمتي ما حدّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا. ويدخل في وسوست النفس مراتب القصد الأربعة ما عدا العزم. وهي الهاجس والخطر وحديث النفس والهَم، وقوله: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا...» تعليم من الله لعباده كيفية الدعاء، وهذا من غاية الكرم حيث يعلمهم الطلب ليعطيهم المطلوب «أَوْ أَخْطَأْنَا» تركنا الصواب لا عن عمد كما أخذت به من قبلنا، وقد رفع الله ذلك عن هذه الأمة كما ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: [رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] رواه الطبراني وغيره كذا في الكرخي. وفي الخازن: قيل كانت بنو إسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا به، أو أخطؤا عُجلت لهم العقوبة فيحرم عليهم شيء مما كان حلالاً لهم من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب. فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك «رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا» أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم التي بعثت نبيك محمداً صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيف السهل السمح وقوله: «رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» أي من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به «وَاغْفِرْ عَلَيْنَا» امح ذنوبنا

«وَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا» في الرحمة زيادة من المغفرة لأن الرحمة الإحسان وهي تشمل المغفرة التي هي غفران الذنوب وإيصال النعم في الدنيا والآخرة «أَنْتَ مُؤَلَّانَا» سيدنا ومتولى أمورنا «فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» بإقامة الحجّة والغلبة في قتالهم. فإن من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء. وفي الحديث: [لما نزلت هذه الآية فقرأها صلى الله عليه وسلم قيل له: عقب كل كلمة قد فعلتُ]. والآية أولها: «لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا..» إلى آخر السورة. وقوله قيل له: أي من قبل الله عز وجل أي قال الله له عقب كل كلمة من كلمات الدعوات، وهي سبع أولها لا تؤاخذنا وآخرها فانصُرنا على القوم الكافرين. فيكون قوله: قد فعلت وقع سبع مرات والمراد به أجبت دعائك ومطلوبك، وهذه رواية مسلم كما تقدم. وفي الحديث رواية أخرى ذكرها الخازن ونقسه. قال ابن عباس في قوله تعالى: «عُفِّرَانَكَ رَبَّنَا» قال: قد غفرت لكم، وفي قوله: «لَا تَوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» قال: لا أوأخذكم «رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرَاءً» قال: لا أحمل عليكم «وَلَا تُحْمَلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ» قال: ولا أحملكم «وَأَعْفُ غَمًّا وَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مُؤَلَّانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» قال: قد عفوت عنكم وغفرت لكم ورحمتكم ونصرتكم على القوم الكافرين * وروى عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال: آمين * قال ابن عطية: هذا يظن به أنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم. والله أعلم آخر سورة البقرة.

* ((سورة آل عمران وبيان ما فيها من أقوال في بيان سبب النزول)) *

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«الم * الله لا إله إلا هو الْحَيُّ الْقَيُّومُ» سورة آل عمران (الآية: ١، ٢)

إلى بضعة وثمانين آية كما سيأتي. في الواحدي: قال المفسرون: قدم وفد نجران، وكانوا ستين راكباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرفهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤل إليهم أمرهم، فالعاقب أمير القوم وصاحب شورتهم الذين لا يصدرن إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح، والسيد إمامهم وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم، وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان قد شرف فيهم، ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم، وكانت ملوك الروم قد شرفوه وولّوه وبنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات: جبات وأردية في جمال رجال الحارث بن كعب. يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوهم. فصلوا إلى الشرق، فكلم السيد والعاقب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: أسلما. فقالا: قد أسلمنا قبلك. قال: كذبتما، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكم الخنزير. قالوا: إن لم يكن عيسى ولد الله فن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى. فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: أستم تعلمون أنه لا يكون ولداً إلا ويشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: أستم تعلمون أن ربنا حتى لا يموت وأن عيسى أتى عليه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: أستم تعلمون أن ربنا قديم على كل شيء يحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يتحدث؟ قالوا: بلى، قال: أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعتها كما تضع المرأة ولدها، ثم غذى كما يغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويحدث؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا كما

زعمتم؟ فسكتوا. فأنزل الله عز وجل فيهم صدرأ من سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها. هكذا ذكر الواحدى. والغازن والخطيب والطبرى نقلاً عن ابن اسحاق، وعبارة أبى السعود: نزلت هذه الآيات في وفد نجران، وكانوا ستين راكباً، فيهم أربعة عشر من أشرفهم: ثلاثة منهم أكابرهم، أحدهم أميرهم وثنانهم وزيرهم وثالثهم حبرهم، فقدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه صلى الله عليه وسلم، فقالوا تارة عيسى هو الله: لأنه كان يحى الموتى، وتارة هو ابن الله، إذ لم يكن له أب، وتارة أنه ثالث ثلاثة: لقوله تعالى: فعلنا وقلنا — أي بصيغة الجمع — ولو كان واحداً لقال فعلتُ وقلتُ. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: أستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت وأن عيسى يموت؟ قالوا: بلى، وكرر عليهم أدلة كثيرة — كما ذكر الواحدى وغيره — وهم يقولون: بلى، ثم قال: فكيف يكون عيسى كما زعمتم؟ فسكتوا. وأبوا إلا الجحود. فأنزل الله من أول السورة إلى نيف وثمانى آية تقريراً لما احتج به النبي صلى الله عليه وسلم. وتمام القصة سيجىء إن شاء الله تعالى في آية المباحلة، قوله تعالى: «الم» أحسن ما ذكر أن معنى «الم» أنا الله أعلم، ومعنى «الم» أنا الله أعلم وأرى. وقيل إن أحرف الهجاء التي في أوائل السور هي أسماء للسور، وعليه اطباق أكثر المتكلمين، والحق أن التفويض أفضل أي يكتفى في تفسيرها بقوله: الله أعلم بمراده. «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» الحى هو الفعال الدراك، والقيوم، هو القائم بذاته، والقائم بتدبير خلقه، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور: في البقرة، الله لا إله إلا هو الحى القيوم، وفي آل عمران: الله لا إله إلا هو الحى القيوم. وفي طه: وعنت الوجوه للحى القيوم. ونقل البندى عن أكثر العلماء أن الاسم الأعظم هو «الله».

واعلم أن مطلع هذه السورة له نظم عجيب، ونسق أنيق، وذلك أولئك النصرارى كأنه قيل لهم: إما أن تنازعه في شأن الإله، أو في أمر النبوة، أما الأول فالحق فيه معه لأنه تعالى حى قيوم وأن عيسى ليس كذلك لأنه وُلِدَ وكان يأكل ويشرب ويحدث، والنصرارى زعموا أنه قتل، وما قدر على دفع القتل عن نفسه، وهذه الكلمة أعنى قوله «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» جامعة لجميع وجوه الدلائل على بطلان قول النصرارى بالتثليث لأن معنى «الله لا إله إلا هو» إخبار بأنه جل شأنه هو وحده المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وعيسى من جملة المخلوقين فلا يكون ولدأ ولا شريكأ ولا إلهأ،

وقوله: «الْحَيُّ الْقَيُّومُ» أي الحيُّ في نفسه الذي لا يموت أبداً القيم لغيره، وعيسى ليس كذلك فهو حيٌّ بالله مكتوب عليه إذافة الموت والفناء. وكان عمر رضي الله عنه يقرأ: القِيَامُ فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غنيٌّ عنها، ولا قوام لها بدون أمره وحده قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ».

**** (القول في سبب نزول قوله تعالى :) ****

«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ»
 قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ التَّحْتَانِ فَإِنَّهُ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ
 كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ» سورة آل عمران (الآية: ١٢، ١٣)

في الواحدى: قال الكلبي: عن أبي صالح عن ابن عباس: أن يهود أهل المدينة قالوا لما هزم الله المشركين يوم بدر: هذا والله النبيُّ الأُمى الذي بشرنا به موسى، ونجده في كتابنا بنعته وصفته، وأنه لا تُردُّ له راية، فأرادوا تصديقه واتباعه، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلما كان يوم أحد ونكب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا، وقالوا: لا والله ما هو به، وغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ إلى مدة، فنقضوا ذلك العهد، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة أي إلى أبي سفيان وأصحابه فوافقهم وأجمعوا أمرهم، وقالوا: لتكوننَّ كلمتنا واحدة، ثم رجعوا إلى المدينة، فأنزل الله فيهم (١) ها تين الآيتين وعبارة الطبرى: عن ابن عباس قال: لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر، فقدم المدينة جمع يهود في سوق بنى قينقاع، فقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشاً، فقالوا يا محمد: لا تغرتك نفسك إنك قتلت نفراً من قريش كانوا أعماراً، لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنتك لم تأت مثلنا، فأنزل الله عز وجل في ذلك قوله: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ» إلى قوله: «لأولى الأبصار» وروى الطبرى عن

(١) عبارة الواحدى: فأنزل الله تعالى هذه الآية. قلت: بل كان النزول إلى قوله: «لأولى الأبصار» كما ستره إن شاء الله تعالى.

سلمة عن ابن اسحاق قال: كان من أمر بني قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق بني قينقاع، ثم قال: يا معشر اليهود!!! احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم آتى نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم، فقالوا: يا محمد إنك ترى أنا كقومك، لا يغرناك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس، فأنزل الله الآية ﴿ وَحَدَّثَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَا نَزَلَتْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ إِلَّا فِيهِمْ «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ» إِلَىٰ قَوْلِهِ «لَا أُولَىٰ الْأَبْصَارِ».

وحدث عن عكرمة في قوله: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ..» قال فنحاض اليهودي في يوم بدر: لا يغرنا محمداً أنه غلب قريشاً وقتلهم، إن قريشاً لا تحسن القتال، فنزلت هذه الآية. قال أبو جعفر فكل هذه الأخبار تنبئ عن أن المخاطبين بقوله «سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ» هم اليهود المقول لهم «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ..» وفي الخازن: قيل أراد بالذين كفروا مشركي قريش. والمعنى: قل لكفار مكة ستغلبون يوم بدر وتخشرون في الآخرة إلى جهنم، فلما نزلت هذه الآية قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: إن الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم وقيل: إن أبا سفيان جمع جماعة من قومه بعد وقعة بدر فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم أورد ما ذكره الواحدى، وفي أبي السعود في قوله: «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ» خطاب لليهود، وهو جواب قسم مقدر، وهو من تمام القول المأمور به جىء به لتقرير وتحقيق ما قبله لكن عبارة القرطبي: واختلف في مخاطب بها، فقيل يهود المدينة، وقيل جميع الكفار، وقيل المؤمنون. وفي ابن كثير «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ» أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية أي دلالة على أن الله مُعِزُّ دِينِهِ، وناصرُ رُسُلِهِ، ومظهرُ كَلِمَتِهِ، ومعل أمره «فِي فِتْنَتَيْنِ» أي طائفتين «الَّتَقَاتَا» أي للقتال «فِيئَتُهُ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ» وهم مشركوا قريش يوم بدر وقوله «يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ» قال بعض العلماء فيما حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر أن المسلمين مثلهم في العدد رأى أعينهم، أي جعل الله ذلك فيأ رواه سبباً لنصرة الإسلام عليهم. قال ابن كثير: وهذا لا إشكال عليه إلا من جهة واحدة، وهى أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذ قبل القتال يحزر لهم المسلمين فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً. وهكذا كان الأمر، كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ثم

لما وقع القتال أمدهم الله بألف من خواص الملائكة وساداتهم* ثم قال: والقول الثاني: أن المعنى في قوله تعالى: «بَرَوْتَهُمْ مِثْلِيهِمْ رَأَى الْعَيْنِ» أي يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثلهم أي ضعفهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم، وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفي عن ابن عباس: أن المؤمنين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين. وكان هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس. وخلاف المعروف عند الجمهور أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سأل العبد الأسود لسبي الحجاج عن عدة قريش قال: كثير، فقال: كم ينحرون كل يوم؟ قال: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، قال النبي صلى الله عليه وسلم: [القوم ما بين تسعمائة إلى ألف] .. وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم. لكن وجه ابن جرير هذا وجعله صحيحاً كما تقول: عندى ألف وأنا محتاج إلى مثلها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف. كذا قال* قال ابن كثير: وعلى هذا فلا إشكال، لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين. وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية، وبين قوله تعالى في قصة بدر: «وَإِذْ يَرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيَقَلِّلْكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» فالجواب: أن هذا كان في حالة، والآخر كان في حالة أخرى كما قال السدي عن الطيب عن ابن مسعود في قوله تعالى: «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا» الآية قال: هذا يوم بدر، قال عبدالله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا. ثم نظرنا إليهم، فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً وذلك قوله تعالى: «وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيَقَلِّلْكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ» الآية. وقال أبو اسحاق عن أبي عبدة عن عبدالله بن مسعود قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جاني: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم فقللنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً قلت: ولماذا لا يكون المراد بالثلثين مطلق الكثرة لا خصوص المشركين في العدد، أي يرونهم أكثر من الثلاثمائة التي هي عددهم في الواقع وكذا العكس، وعلى كل من الاحتمالين فهذه الآية التي نحن بصدد بيان سبب نزولها تنافي آية الأنفال وهي قوله: «وَإِذْ يَرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقِيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيَقَلِّلْكُمْ

في أعينهم» فتلك الآية تقتضي أنّ كلاً من الفريقين قلل في أعين الآخر، وهذه الآية تقتضي أن كلاً منها كثر في أعين الآخر. فيكون المعنى: وإذ يريكموهم أي المؤمنون إذ التقيتم في أعينكم قليلاً نحو سبعين أو مائة، وهم ألف لتقدموا عليهم، ويقللكم في أعينهم ليقدّموا ولا يجبنوا من قتالكم، وهذا قبل التحام الحرب، فلما التحم أراهم إياهم مثلهم كما في آيتنا هذه. لكن في الخازن في قوله: «يَرَوْنَهُمْ مِثْلِيهِمْ» قرىء بالتاء: يعنى ترون أهل مكة ضعفي المسلمين يا معشر اليهود، وذلك أن جماعة من اليهود كانوا قد حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة، ولمن النصر، فرأوا المشركين مثل عدد المسلمين، ورأوا النصر للمسلمين، فكان ذلك معجزة، وقرىء يروْنهم بالياء، واختلفوا في وجه قراءة الياء، فجعل بعضهم الرؤية للمسلمين، ثم له تأويلان:

أحدهما: يرى المشركون المسلمين|مثلهم كما هم...

والثاني: وهو الأصح قلل الله المشركين في أعين المسلمين حتى رأوهم مثلهم. وقوله: «ستغلبون» فن قرأ بالياء فالأمر يكون متوجهاً إلى حكاية هذا اللفظ. أي قل لهم قولي لك سيغلبون. أي عن قريب كما تفيد السين. وفيها دليل على صحة البعث والحشر بإخبار الصادق. وقوله: ستغلبون قد وقع كما أخبر عن الغيب — من قتلى بنى قريظة، فقد قتل منهم النبي صلى الله عليه وسلم في يوم واحد ستمائة، جمعهم في سوق بنى قينقاع، وأمر السياف بضرب أعناقهم، وأمر بحفر حفيرة ورميهم فيها — فيكون معجزاً دالاً على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، نظيره في حق عيسى عليه السلام «وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» ثم إنه تعالى ذكر ما يجري مجرى الدلالة على صحة ذلك الحكم فقال: «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا» يوم بدر «فِئَةٌ» احدهما: جماعة «تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وهم المسلمون لأنهم يقاتلون لنصرة دين الله وإعلاء كلمته «وَأُخْرَى كَافِرَةٌ» وفئة أخرى كافرة: هم كفار قريش، وبيان كون تلك الواقعة آية من وجوه:

أحدها: أن المسلمين كان قد اجتمع فيهم من أسباب الضعف أمور منها: قلة العدد والعدد، كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، مع كل أربعة منهم بعير، ومعهم من الدروع ستة، ومن الخيل فرسان، ومنها: أنهم خرجوا غير قاصدين الحرب، فلم يتأهبوا: ومنها: أن ذلك ابتداء غارة في الحرب لأنها من أول غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان قد

حصل في المشركين أصداد هذه المعاني كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً، وفيهم أبو سفيان وأبوجهل، ومعهم مائة فرس، وسبعمائة بعير، وأهل الخيل كلهم دارعون، وكان معهم دروع سوى ذلك، وكانوا قد مُرِنوا على الحرب والغارات، وإذا كان كذلك كانت غلبة المسلمين خارقة للعادة فكانت معجزة.

وثانيها : أنه صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر عن ذلك باخبار الله في قوله تعالى : **«وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ»** يعنى جمع قريش، أو غير أبى سفيان، وكان أخبر قبل الحرب بأن هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، والإخبار عن الغيب معجز. **وثالثها : إمداد الملائكة — كما سيجىء في هذه السورة.**

ورابعها : قوله : «تَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ» وفيه أربعة احتمالات لأن الضمير في يرون إمّا أن يعود إلى الفئة الكافرة، أو إلى الفئة المسلمة، وعلى كلا التقديرين يجوز عود الضمير في مثليهم إلى كل منها، فهذه أربعة. الأول: أن الفئة الكافرة رأَت المسلمين مثل عدد المشركين قريباً من الفين. والثاني: أنها رأَت المسلمين مثل عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين، ودليل هذا الاحتمال قراءة من قرأ **«تَرَوْنَهُمْ»** بتاء الخطاب أي ترون يا مشركى قريش المسلمين مثل أنفسهم، ودليل الاحتمالين جميعاً أن عود الضمير في يرون إلى الأقرب، وهو الفئة الكافرة أولى، ولأنه سبحانه جعل هذه الحالة آية للكفار حيث خاطبهم بقوله: **«قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ»** فوجب أن يكون الراؤن هم الكفار حتى تكون حجة عليهم، ولو كانت الآية مما شاهدها المؤمنون لم يصح جعلها حجة على الكفرة، والحكمة في ذلك أن يهابهم المشركون ويحبوننا عن قتالهم، وهذا لا يناقض قوله في سورة الأنفال **«وَيُقَلِّلْكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ»** لاختلاف الوقتين، فكأنهم قتلوا أولاً في أعينهم حتى اجترؤا عليهم، فلما لا قوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، على أن تقليهم تارة في أعينهم وتكثيرهم أخرى ابلغ في القدرة وإظهار الآية.

الاحتمال الثالث : أن الرائين هم المسلمون، والمرئيين هم المشركون، فالمسلمون رأوا المشركين مثل المسلمين، والسبب فيه ما قرر عليهم أمرهم من مقاومة الواحد الاثنين في قوله تعالى: **«إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ»** والكافرون كانوا قريباً من ثلاثة أمثالهم، فلورأوهم كما هم لجبنوا وضعفوا.

الاحتمال الرابع : أن يكون الرّؤون المسلمون، ثم إنهم رأوا المشركين على الضعف من

عدد المشركين، وهذا قول لا يمكن أن يقول به أحد لأن هذا يوجب نصره الكفار، وإيقاع الخوف في قلوب المؤمنين، والآية تنافي ذلك.

وفي الآية احتمال خامس : وهو أن أول الآية قد بيّنا أنه خطاب مع اليهود، فيكون المراد ترون أيها اليهود المشركين مثل المؤمنين في القوة، وههنا بحث، وهو أن الاحتمال الأول والثاني يقتضي أن المعدوم صار مرئياً، والاحتمال الثالث يوجب أن يكون الموجود والحاضر غير مرئى، أما الأول فهو محال عقلاً، والقول به سفسطة، فلهذا قيل لعل الله تعالى أنزل الملائكة حتى صار عسكر المسلمين كثيراً، وعلى هذا تكون الرؤية رؤية البصر، ويكون مثلهم نصباً على الحال، أو تحمل الرؤية على الظنّ والحسبان، فإن من اشتد خوفه قد يظن في الجمع القليل أنه في غاية الكثرة لكن قوله: «رأى العَيْن» لا يجاب ذلك، إذ معناه رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها، معاينة كسائر المعاينات. وأمّا الثاني فهو جائز عند الأشاعرة إذ عند حصول الشرائط. وصحة الحاسة لا يكون الإدراك واجب الحصول، بل يكون عندهم جائزاً لا واجباً، والزمان زمان خوارق العادات، وأما المعتزلة فعندهم الإدراك واجب الحصول عند استجماع الشروط، وسلامة الحس، فاعتذروا عن ذلك بأن الإنسان عند الخوف لا يتفرغ للتأمل البالغ، فقد يرى البعض دون البعض، أو لعلّ الغبار صار مانعاً عن إدراك البعض، أو خلق الله تعالى في الهواء ما صار مانعاً عن رؤية ثلث العسكر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلّ به الكثير كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين، وكل ذلك محتمل وقوله: «والله يُؤتد» يقوى «بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ» نصره «إِنَّ فِي ذَلِكَ» المذكور «لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ» أي لذوى البصائر، أفلا تعتبرون بذلك فتؤمنون.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولَا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ»

سورة آل عمران (الآية: ١٨، ١٩، ٢٠)

في الواحدى وأبى السعود قال الكلبي: لما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار الشام، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان؟! فلما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعته، فقالا له: أنت محمد؟ قال «نعم» قالوا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم» قالوا: إنا نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك، وصدقناك، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سلاني» فقالوا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله، فأنزل الله تعالى على نبيه «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ...» فأسلم الرجلان، وصدقا برسول الله صلى الله عليه وسلم. وكذا في الخازن، وفيه إن هذه الآية نزلت في نصارى نجران فيما ادعوا في عيسى عليه السلام. هذا: ولم أعثر في التفاسير على غير هذين القولين: فقوله: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ...» قال صاحب الغرائب: واعلم أن الشهادة من الله تعالى ومن الملائكة ومن أولى العلم يحتمل أن تكون بمعنى واحد. ويحتمل أن لا تكون كذلك. أما الأول فتقريره من وجهين: أحدهما: أن الشهادة عبارة عن الاخبار المقرون بالعلم، فهذا المعنى مفهوم واحد، وهو حاصل في حق الله تعالى، وفي حق الملائكة وفي حق أولى العلم، أما من الله فذلك أنه أخبر في القرآن أنه إله واحد لا إله إلا هو، وذلك في مواضع كثيرة كالإخلاص وآية الكرسي وغيرها. والتمسك بالدلائل السمعية في هذه المسئلة

جائز، لأن العلم بنسبة محمد صلى الله عليه وسلم لا يتوقف على العلم بها، وأما من الملائكة وأولى العلم، وهم الذين عرفوا وحدانية الله تعالى بالدلائل القاطعة، فكلهم أخبروا أيضاً أن الله واحد لا شريك له. وثاني الوجهين أن تجعل الشهادة عبارة عن الاظهار والبيان، فالله تعالى أظهر ذلك، وبيّن بأن خلق ما يدل على ذلك، والملائكة وأولوا العلم أظهروا ذلك، وبيّنوه أيضاً. الملائكة للرسل والرسل للعلماء والعلماء لعامة الخلق، فالتفاوت إنما وقع في الشيء الذي به حصل الإظهار والبيان، فأما مفهوم الاظهار والبيان فشيء واحد في حق الكل، فكأنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن وحدانية الله تعالى أمر قد ثبت بشهادة الله وشهادة جميع المعتبرين من خلقه، ومثل هذا الدين المبين والمنهج القويم لا يضعف بمخالفة بعض الجهال من التصارى وعبدة الأوثان، فاثبت أنت وقومك يا محمد على ذلك فإنه هو الإسلام، والدين عند الله هو الإسلام. وأما الثاني فهو قول من يقول: شهادة الله تعالى على توحيدِهِ عبارة عن أنه خلق الدلائل الدالة على توحيدِهِ، وشهادة الملائكة وأولى العلم عبارة عن اقرارهم بذلك، ونظيره قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ» فالصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة وقال: فإن قيل المدعى للوحدانية هو الله فكيف يكون المدعى شاهداً؟ فالجواب أنه ليس الشاهد بالحقيقة إلا الله لأنه خلق الأشياء، وجعلها دلائل على توحيدِهِ، ثم وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل والتوصل بها إلى معرفة الوحدانية، ثم وفقهم حتى أُرشدوا غيرهم إلى ذلك، ولهذا قال: «قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ» * وفي الخطيب: قال ابن عباس رضى الله عنها: خلق الله الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، وخلق الله الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، فشهد لنفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم يكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر فقال: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» «وَ» أشهد بذلك «الملائكة» أى أقرؤا بذلك «وَ» شهد بذلك: «أُولُوا الْعِلْمِ» أى بالإيمان بذلك، والاحتجاج عليه، والمراد بالعلماء هنا هم الذين يثبتون وحدانية الله تعالى وعدله بالحجج الناطقة والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد. وفي ذلك تنويه بفضل علم التوحيد وشرف أهله * وفي الخازن: واختلفوا في أولى العلم، فقيل هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم أعلم الخلق بالله تعالى * وقيل هم علماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار * وقيل هم علماء مؤمنى أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام

وأصحابه * وقيل هم علماء جميع المؤمنين * وفي القرطبي: وقد قيل إن المراد بأولى العلم الأنبياء عليهم السلام. وقال بن كيسان: المهاجرون والأنصار * وقال مقاتل: مؤمنوا أهل الكتاب * وقال السدي: المؤمنون كلهم * قال القرطبي: وهو الأظهر لأنه عام * وقوله: «قائماً بالقسط» عبارة أبي السعود: بيان لكماله في أفعاله بعد بيان كماله في ذاته * هذا وفي انتصاب قائماً بالقسط وجوه: الأول أنه حال مؤكدة. والتقدير شهد الله قائماً بالقسط، أو لا إله إلا هو قائماً بالقسط، وهذا أوجه لكون الإلهية والتفرد بها مقتضياً للعدالة، مثل هذا أبوك عطوفاً، أو لا رجل إلا عبد الله شجاعاً، ويحتمل أن يكون حالاً من أولى العلم أى حال كون كل واحد منهم قائماً بالقسط في أداء هذه الشهادة. الثاني أن يكون صفة للنفي كأنه قيل لا إله قائماً بالقسط إلا هو، وقد رأيناهم يتسعون في الفصل بين الصفة والموصوف. الثالث: أن يكون نصباً على المدح، وإن كان نكرة كقوله: وياوئى إلى نسوة عظيم. وشعثاً مراضيع مثل السعالى. واعلم أن وجوب الوجود يلزمه الغنى المطلق والعلم التام، والفيض العام والحكمة الكاملة والرحمة الشاملة، وعدم الانقسام بجهة من الجهات، وعدم الافتقار بوجه من الوجوه إلى شيء من الأشياء، وعدم النقص والنقص في شيء من الأفعال والأحكام إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العليا، ومركز في العقل السليم أن من هذا شأنه لا يصدر منه شيء إلا على وفق العدالة وقضية التسوية ورعاية الأصلح عموماً أو خصوصاً، فكل ما يخيل إلى المكلف أنه خارج عن قانون العدالة، أو يشبه الجور، أو القبح وجب أن ينسب ذلك إلى قصور فهمه وعدم إحاطته التامة بسلسلة الأسباب والمسببات والمبادئ والغايات، فانظر في كيفية خلقه أعضاء الانسان حتى تعرف عدل الله وحكمته فيها، ثم انظر إلى اختلاف أحوال الخلق في الحسن والقبح والغنى والفقر والصحة والسقم، وطول العمر وقصره، واللذة والألم. واقطع بأن كل ذلك عدلٌ، وصواب، ثم انظر في كيفية خلقه العناصر وأجرام الأفلاك والكواكب، وتقدير كل منها بقدر معين، وخاصية معينة فكلها حكمة وعدالة، وانظر إلى تفاوت الخلائق في العلم والجهل والفطنة والبلادة والهداية والغواية، واقطع بأن كل ذلك عدل وقسط، فإن الإنسان، بل كل ما سوى الله تعالى لم يخلق مستعداً لادراك تفاصيل كلمات الله، فالخوض في ذلك خوض فيما لا يغنيه، بل لا يسعه ولا ينفعه إلا العلم الإجمالى بأنه تعالى واحد في ملكه، وملكه لا منازع له فيه، ولا مضار، ولا مانع لقضائه، ولا راد، وأن

ذلك بقضائه وقدره، وفي كل واحد من مصنوعاته ولكل شيء من أفعاله حكم ومصالح لا يحيط بذلك علماً إلا موجدته وخالقه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، هذا هو الدين القويم، والاعتقاد المستقيم، والعدول عنه مراء، والجدال فيه هراء، فمن نسبه إلى الجور في فعل من الأفعال فهو الجائر لا على غيره بل على نفسه إذ لا يعترف بجهله وقصوره. ولكن ينسب ذلك إلى علام الخفيات والمطلع على الكليات والجزئيات من أزل الأزال إلى أبد الآباده وقوله: «لا إله إلا هو»، إنما كرره للتأكيد، وقيل: إن الأ ول وصف وتوحيد، والثاني رسم تعليم. أي قولوا لا إله إلا هو. وقيل: فائدة تكرارها الاعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه، ففيه حثٌ للعباد على تكريرها والاشتغال بها، فإن من اشتغل بها فقد اشتغل بأفضل العبادات. أولاً لأن الأ ول قول الله والثاني حكاية قول الملائكة وأولى العلم، أو لأن الأ ول جرى مجرى الشهادة والثاني جرى مجرى الحكم بصحة ما شهد به الشهود. وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: الأ ول وصف والثاني تعليم أي قولوا وأشهدوا كما شهدت. من الخازن والكرخي. «العزيز» في ملكه والغالب الذي لا يقهر. وعبارة الكرخي: قوله العزيز في ملكه الحكيم في صنعه. فيه إشارة إلى أنه قدم العزيز لأن العزة تلائم الوجدانية، والحكمة تلائم القيام بالقسط فأتى بها لتقرير الأمرين على ترتيب ذكرهما. قال صاحب الكشاف: العزيز الحكيم صفتان مقرونان لما وصف به ذاته من الوجدانية والعدل. يعني أنه العزيز الذي لا يغالبه إلى آخره. الحكيم الذي لا يعدل عن العدل في أفعاله. وقوله تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ»، يعني إن الدين المرضي عند الله هو الإسلام كما قال تعالى: «وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»، نزلت الآية رداً على اليهود والنصارى، وذلك لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية، وادعت النصارى أنه لا دين أفضل من النصرانية ردَّ الله عليهم ذلك فقال: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ». والمعنى: شهد الله أنه لا إله إلا هو، وشهد أن الدين عند الله الإسلام. وأصل الدين في اللغة الجزاء. يقال: كما تدين تدان، ثم صار اسماً للملة والشريعة. ومعناه الانقياد للطاعة والشريعة. قال الزجاج: الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه، وأمرهم بالاقامة عليه، والإسلام هو الدخول في السلم، وهو الاستسلام والانقياد والدخول في الطاعة، وروى البغوي بسند الثعلبي عن غالب القطان، قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش، وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهى لى

عند الله وديعة، إن الدين عند الله الإسلام، قالها مراراً، قلت: سمع فيها شيئاً. فصليت الصبح معه، وودعته، ثم قلت له: إني سمعتك تردددها، فما بلغك فيها؟ قال والله لا أحدثك فيها إلى سنة، فكتبت على بابه ذلك اليوم، وأقمت سنة، فلما مضت السنة. قلت: يا أبا محمد قد مضت السنة فقال: حدثني أبو وائل عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل: إن لعبدي هذا عندى عهداً وأنا أحق من وقى بالعهد، ادخلوا عبدي الجنة] الخازن * وقوله: «وَمَا اخْتَلَفَ السَّيِّدِينَ أَوْ تَوَاتُوا الْكِتَابَ» في الخازن قال الكلبي: نزلت في اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام، والمعنى وما اختلف الذين أتوا الكتاب في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم: «إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ» يعني بيان نعتة وصفته في كتبهم، وقال الربيع: إن موسى عليه السلام لما حضره الموت دعا سبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل وأودعهم التوراة، واستخلف يوشع بن نون. فلما مضى القرن الأول والثاني والثالث وقعت الفرقة والاختلاف بينهم، وهم الذين أتوا الكتاب، وهم من أبناء الملوك السبعين حتى أهرقوا الدماء ووقع الشر والاختلاف بينهم، وذلك بعد ما جاءهم العلم. يعني بيان ما في التوراة من الأحكام * وعبارة الجلال: «وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ» اليهود والنصارى في الدين بأن وخذ بعض وكفر بعض. وعبارة البيضاوي: أو من أرباب الكتب المتقدمة في دين الإسلام. فقال قوم: إنه حق، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب ونفاهة آخرون مطلقاً، أو في التوحيد. فثلث النصارى، وقالت اليهود عزيز ابن الله. وقيل: هم قوم موسى اختلفوا بعده. وقيل: هم النصارى اختلفوا في أمر عيسى * وفي القرطبي بعد عبارة: وقالت اليهود عزيز ابن الله * وقالوا: كنا أحق بأن تكون النبوة فينا من قريش لأنهم أميون ونحن أهل الكتاب. وقوله: «بَغْيًا» أي ما كان ذلك الاختلاف، وتظاهر هؤلاء بمذهب وهؤلاء بمذهب إلا حسداً. والتقدير: وما اختلفوا إلا للبغي لا لغيره، فهو حيز الاستثناء: «بَيْنَهُمْ» وطلباً للرياسة. وقيل: هو اختلافهم في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما جاءهم العلم ببيئات بنعته في كتبهم، حيث آمن به بعض وكفر به بعض. وقيل: هو اختلافهم في الايمان بالانبياء، فمنهم من آمن بموسى، ومنهم من آمن بعيسى. ولم يؤمنوا بسبقية الأنبياء: «وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» أي المجازات له: «فإِنْ حَاجُّوكَ» أي جادلوك الذين كفروا يا محمد في التوحيد والدين: «فقل» لهم:

«أَسَلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ» أى أخلصت نفسى وعبادتى لله وحده، لم أجعل فيها لغيره شركاً بأن اعبيده، ولا أدعوا إلهاً معه، لأنّ دين الإسلام دين التوحيد، وهو الدين القويم الذى ثبت عندكم صحته كما ثبت عندى وحيه، وما جئت بشيء مبتدع حتى تجادلونى فيه، وخص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء، فهو تعبير عن جملة الشخص بأشرف أجزائه الظاهرة، وذلك لاشتماله على معظم القوى والمشاعر، ولأنه معظم ما تقع به العبادة من السجود والقراءة، وبه يحصل التوجه إلى كل شيء كذا فى القرطبي وأبى السعود، وقوله: «وَمَنْ آتَبَعَنِي» كذلك عقيدته: «وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» اليهود والنصارى: «وَالْأُمِّيِّينَ» مشركى العرب الذين لا كتاب لهم، وإن كانوا يكتبون و يقرؤون الكتاب: «أَأَسَلَمْتُمْ» أى فهل أسلمتم كما أسلمت أنا، فقد أتيتكم بالبينات بما يوجب عليكم أن تسلموا. أى أسلموا وانتهوا عن كفركم خير لكم: «فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا» إلى دين الله القويم، ونفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور. وفى القرطبي: وقد قرأ الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الآية عليهم، وقال لليهود: أتشهدون أن عزيزاً عبد الله ورسوله؟ فقالوا: معاذ الله أن يكون عزيزاً عبد الله، فقال الله عز وجل: «وَأَنْ تَوَلَّوْا» عن الإسلام والتوحيد الخالص لم يضروك: «فَأَنبَأَ عَلَيْكَ الْبَلَاغُ» أى وظيفتك تبليغ الرسالة، وقد بلغها عليه الصلاة والسلام على أبلغ وجه: «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» فيجازهم بأعمالهم، وهذا قبل الأمر بالقتال، فهو منسوخ بآية السيف لأن المفهوم اقتصار الرسالة على التبليغ، بل أمر بعده بقتالهم حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيَّتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ»
سورة آل عمران (الآية : ٢٦ ، ٢٧)

في الواحدى والخطيب: قال ابن عباس وأنس بن مالك: افتتح رسول الله صلى الله

عليه وسلم مكة، ووعد أمته ملك فارس والروم قالت المنافقون واليهود: هيهات هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وذكر المفسرون أنه صلى الله عليه وسلم خط على الخندق يوم الأحزاب، ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان الفارسي وحذيفة والنعمان بن مقرن المزني، وستة من الأنصار في أربعين ذراعاً، فحضرنا حتى إذا كنا تحت ذى ناب، أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروية كسرت حديدنا، وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان إرق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبر هذه الصخرة، فإمّا أن نعدل عنها، وإمّا أن يأمرنا فيها بأمره، فإننا لا نحب أن نجاوز خطه، قال: فرقى سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ضارب عليه قبة تركية، فقال: يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مروية من بطن الخندق، فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى ما يحيك فيها قليل ولا كثير، فرنا فيها بأمر فإننا لا نحب أن نجاوز خطك، قال: فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمان إلى الخندق، والتسعة على شفة الخندق، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعول من سلمان فضرها ضربة صدعها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيتها (يعنى المدينة) حتى كأن مصباحاً في جوف بيت مظلم وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح، فكبر المسلمون، ثم ضرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكسرهما وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيتها حتى كأن مصباحاً في جوف بيت مظلم، وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح، وكبر المسلمون، وأخذ يد سلمان ورق، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد رأيت شيئاً ما رأيت مثله قط!! فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوم فقال: رأيتم ما يقول سلماً؟ قالوا: نعم، يا رسول الله، قال: ضربت ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب كلاب، وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمي ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق الذي رأيتم، أضاءت لي منها القصور الحمراء في أرض الروم كأنها أنياب كلاب، وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمي ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب كلاب، وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمي ظاهرة عليها، فأبشروا، فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعدهم صدق وعدنا النصر بعد الحفر، فقال

المنافقون: ألا تحفرون الخندق من الفَرْقِ — الفرع — ولا تستطيعون أن تبرزوا؟ قال: فنزل القرآن «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» وأنزل الله تعالى في هذه القصة «قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكِ..» إلى قوله: «بِغَيْرِ حِسَابٍ» * وفي القرطبي: وقيل: نزلت دامغة لباطل نصارى أهل نجران في قومهم: ان عيسى هو الله، وذلك أن هذه الأوصاف — المتقدمة — تبين لكل صحيح الفطرة أن عيسى ليس في شيء منها، قال ابن إسحاق: أعلم الله عز وجل في هذه الآية بعنادهم وكفرهم وأن عيسى عليه السلام وإن كان الله تعالى أعطاه آيات تدل على نبوته من إحياء الموتى — وغير ذلك فإن الله عز وجل هو المنفرد بهذه الأشياء من قوله: «تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ» إلى قوله: «بِغَيْرِ حِسَابٍ» فلو كان عيسى إلهاً كان هذا إليه، فكان في ذلك اعتبار وآية بيته * وفي الخازن: زيادة على ما تقدم. وقيل إن اليهود قالوا: والله لا نطيع رجلاً جاء ينقل النبوة من بنى إسرائيل إلى غيرهم فنزلت هذه الآية. وقوله تعالى: «قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكِ» قال الحسن: إن الله تعالى أمر نبيه أن يسأله أن يعطيه ملك فارس والروم، ويرد ذلّ العرب عليهما، وأمره بذلك دليل على أنه يستجيب له صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء، وهكذا منازل الأنبياء إذا أمروا بدعاء استجيب دعائهم، أي قل يا الله «مَا لِكَ الْمُلْكِ» أي جنس الملك على الإطلاق ملكاً حقيقياً بحيث يتصرف فيه كيف يشاء كذا في أبي السعود. وقيل ملّك العباد وما ملكوا، وقيل: مالك ملك السموات والأرض، وقيل معناه بيده الملك يؤتیه من يشاء، وقيل: معناه ملك الملوك ووارثهم، يوم لا يدعى الملك أحد غيره، وفي بعض كتب الله المنزلة: أنا الله ملك الملوك، ومالك الملك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة، وإن هم عصوني جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسبّ الملوك، ولكن توبوا إلىّ أعظفهم عَلَيْكُمْ. كذا في الخازن. وفي القرطبي، قال عليّ رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: [لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ تَنْزَلَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَشَهِدَ اللَّهُ، وَقَالَ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمُلْكِ، إِلَى قَوْلِهِ: بِغَيْرِ حِسَابٍ، تَعَلَّقَنَ بِالْعَرْشِ وَوَلَيْسَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ، وَقَالَ يَارَبِّ: تَهْبِطُنَا دَارَ الذُّنُوبِ وَإِلَى مَنْ يَعْصِيكَ؟ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا يَقْرَأُ كُنَّ عَبْدَ عَقِيبٍ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ إِلَّا أَسَكَنْتُهُ حَظِيرَةَ الْقُدْسِ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَإِلَّا نَظَرْتُ إِلَيْهِ بَعِيْنِي الْمَكْنُونَةَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ نَظْرَةً، وَإِلَّا قَضَيْتُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ حَاجَةً أَدْنَاهَا الْفَقْرُ، وَإِلَّا أَعَدْتُهُ مِنْ عَدُوِّهِ بِنَصْرَتِهِ عَلَيْهِ، وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ] وقوله:

«تُوْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ» بيان لبعض وجوه التصرف الذي تستدعيه مالكية الملك، وتحقيق لاختصاصها به حقيقة، وكون مالكية غيره بطريق المجاز كما ينبغي عنه إيثار الإيتاء الذي هو مجرد الاعطاء على التملك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة «وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ» بإيثاره الملك «وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ» بنزعه منه «بِيَدِكَ» بقدرتك «الْخَيْرُ» أى الشر، والتقديم للاختصاص، وإنما خص الخير بالذكر لأنه المرغوب فيه، أو لأنه المقضى بالذات، والشر مقضى بالعرض إذ لا يوجد شر جزئى ما لم يتضمن خيراً كلياً «إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» تعليل لما سبق وتحقيق له «تُولِجُ» تدخل «اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ» تُدْخِلُهُ «فِي اللَّيْلِ» فيزيد كل منها بما نقص من الآخر، وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هذه الأمور العظام المحيرة للعقول والأفهام فقد رتبه على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ويؤته العرب ويعزهم أهون عليه من كل هتين «وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ» كالإنسان والطائر من النطفة والبيضة «وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ» كالنطفة والبيضة «مِنَ الْحَيِّ» وكالمسلم من الكافر وعكسه، فالمسلم حتى الفؤاد والكافر ميت الفؤاد، قال تعالى: «أَوْ مَن كَانَ مِنبأً فَأَحْيَيْنَاهُ» هذا ما عليه المفسرون. ولكن لما لا يقال (وتخرج الميت من الحي) كالشعر من الرأس والظفر من اللحم، «وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» أي ترزقه رزقاً واسعاً بلا ضيق، إذ المحسوب يقال للقليل. أي تعطى من تشاء من المال ما لا يقدر على إحصائه، وتُقْتَرَى عَلَى آخِرِينَ لِمَا لَكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَشِيئَةِ.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :))*

«لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً
وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ»

في الواحدى: قال ابن عباس: كان الحجاج بن عمرو وكهمس بن أبى الحقيق، وقيس بن زيد، وهؤلاء كانوا من اليهود يباطنون نفاقاً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر، وعبدالله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا لزومهم ومباطنهم لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم

وملازمتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: وقال الكلبي: نزلت في المنافقين: عبدالله بن أبي وأصحابه، كانوا يتولون اليهود والمشركين وياتونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى هذه الآية، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم. وقال جبير عن الضحاك عن ابن عباس: نزلت في عبادة بن الصامت الأنصاري، وكان بدرياً نقيباً، وكان له حلفاء من اليهود، لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب. قال عبادة يا نبي الله: إن معي خمسمائة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معي، فأستظهر بهم على العدو فأنزل الله تعالى «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ...» الآية: وقيل: نزلت في عمار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون: وكذا في الخازن والطبري والغرائب وفيه، وقد كرر الله ذلك — أي النهي عن مولات الكافرين — في آيات كثيرة «لَا تَتَّخِذُوا بِيَّانَةً مِنْ دُونِكُمْ» «لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ» «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» وقال: وكون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون راضياً بكفره والرضا بالكفر كفر فيستحيل أن يصدر عن المؤمن فلا يدخل تحت الآية لقوله: «لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ» «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» وثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر وذلك غير ممنوع منه.

والثالث: كالتوسط بين القسمين، وهو الركون إليهم والمعونة والمظاهرة لقرابة أو صداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك، ولهذا قال مقاتل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره، وكانوا يظهرون المودة لكفار مكة مع اعتقاد أن دينهم باطل فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهي عنه حذراً من أن يجره إلى استحسان طريقتهم، والرضا بدينه حتى يخصه بالموالاة دون المؤمنين فلا جرم هدد فقال: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ» أي من ولايته أو من دينه «فِي شَيْءٍ» يقع عليه اسم الولاية. يعني أنه منسلخ عن ولاية الله رأساً وهذا كالبيان لقوله: «مِنَ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» ليعلم أن الاشتراك بينهم وبين المؤمنين في الموالاة غير متصور، وهذا أمر معقول، فإن موالاة الوليِّ وموالاة عدوه ضدان: قال الشاعر:

تَوَدُّ عَدُوِّيْ ثُمَّ تَزْعُمُ أَنِّي صَدِيقُكَ لَيْسَ التُّوَكُّ عَنْكَ بِعَازِبٍ
وقوله: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» قال الجوهري: يقال اتقى تقيةً وتقاةً، مثل اتخمتُ تخمةً... قال الواحدى: ويجوز أن يجعل تقاةً ههنا مثل دعاة ورماة، فيكون حالاً

مؤكددة، وعلى هذين الوجهين يكون تتقوا متضمناً معنى تحذروا، أو تحافوا، ولهذا عدى، بمن ويحتمل أن يكون التقاة أو التقية بمعنى المتقى مثل ضرب الأمير لمضروبه، فالمعنى إلا أن تحافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. رخص لهم في مولاتهم إذا خافوهم والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا وإظهار الطوية كقول عيسى عليه السلام: (كن وسطاً وامش جانباً) أي ليكون جسدك بين الناس وقلبك مع الله، وللتقية عند العلماء أحكام، منها: إذا كان الرجل في قوم كفار يخاف منهم على نفسه جازله أن يظهر المحبة والموالاة ولكن بشرط أن يضمخ خلافه، ويُعرض في كل ما يقول ما أمكن، فإن التُّقِيَّةَ تَأْتِيهَا فِي الظاهر لا في أحوال القلب ومنها أنها رخصة فول تركها كان أفضل لما روى الحسن أنه أخذ مسيلمة الكذاب رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما، أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أنى رسول الله، قال: نعم، وكان مسيلمة يزعم أنه رسول بنى حنيفة، ومحمد رسول قريش فتركه، ودعا الآخر وقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، نعم، نعم، فقال: أتشهد أنى رسول الله، فقال: إني أصمُّ ثلاثاً. فقدّمه وقتله، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم، أما هذا المقتول فضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه. ونظير هذه الآية «إِلَّا مَنْ أَكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ» ومنها: أنها إنما تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالاة والمعاداة، وقد يجوز أن تكون أيضاً فيما يتعلق بإظهار الدين، فأما الذي يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا وغصب الأموال وشهادة الزور وقذف المحصنات، وإطلاع الكفار على عورات المسلمين فذلك غير جائز البتة، ومنها أن الشافعى جَوَّزَ التُّقِيَّةَ بين المسلمين كما جَوَّزَهَا بين الكافرين محاماة عن النفس، ومنها أنها جائزة لصون المال على الأصح كما أنها جائزة لصون النفس لقوله صلى الله عليه وسلم: [حرمة مال المسلم كحرمة دمه، ومن قُتِلَ دُونُ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ] ولأن الحاجة إلى المال شديدة، ولهذا يسقط فرض الوضوء ويجوز الاقتصار على التيمم إذا بيع الماء بالغبن. قال مجاهد: كان هذا في أول الإسلام فقط لضعف المؤمنين. وروى عوف عن الحسن أنه قال: التُّقِيَّةُ جَائِزَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا أَرْجَحُ عِنْدَ الْأُمَّةِ فِي الطَّبَرِيِّ: حَدَّثَنِي الْمُشْتَمِيُّ قَالَ: ثنا عبد الله بن صالح قال: ثنا معاوية بن صالح عن عليّ بن ابن عباس قوله: «لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ

الكافرين **أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**» قال: نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف، ويخالفونهم في الدين وذلك قوله: **«إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»** وقال ابن عباس: التقاة: التكلم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان * وقال عكرمة في قوله: **«إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»** ما لم يهرق دم مسلم، وما لم يستحل ماله * قال أبو العالية: التقية باللسان وليس بالعمل * وعن الضحاك قال: التقية باللسان، من حمل على أمر يتكلم به، وهو الله معصية فتكلم مخافة على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان فلا إثم عليه، إنما التقية باللسان * وعن ابن عباس: فإن ذلك لا يضره * وعن قتادة قال: لا يحل للمؤمن أن يتخذ كافراً ولياً في دينه، وفي قوله: **«إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»** قال: يكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك * وعن الحسن في قوله **«إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»** قال: صاحبهم في الدنيا معروفاً الرحم وغيره، فأما في الدين فلا * وفي القرطبي: وقيل إن المؤمن إذا كان قائماً بين الكفار فله أن يدارهم باللسان إذا كان خائفاً على نفسه، وقلبه مطمئن بالإيمان، والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل، أو القطع أو الإيذاء العظيم، ومن أكره على الكفر فالصحيح أن له أن يتصلب ولا يجيب إلى التلطف بكلمة الكفر، بل يجوز له ذلك * وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، قوله: **«وَيُحَذِرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ»** أي حذركم نعمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه، وعادى أوليائه وقوله: **«وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ»** أي المرجع والمنقلب ليجازي كل عامل بعمله، وفي الخبر عن مهران قال: قام فينا معاذ فقال: يا بني أود إنى رسول رسول الله إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار اللهم اجعلنا من أصحاب الجنة يا حى يا قيوم.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» سورة آل عمران (الآية: ٣١، ٣٢)

في الواحدى وابن كثير والخطيب والطبرى وغيرها من التفاسير: قال الحسن وابن

جريح: زعم أقوامٌ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله، فقالوا: يا محمد إنا نحُبُّ ربَّنَا، فأنزل الله هذه الآية: وفي الخازن: نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. فنزلت هذه الآية فعرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلم يقبلوها، وقال ابن عباس: وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش وهم في المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامهم، وعلّقوا عليها بيض التعام، وجعلوا في آذانها الشفوف، وهم يسجدون لها، فقال: يا معشر قريش، والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم، وإسماعيل، فقالت قريش: إنما نعبدها حباً لله لتقربنا إلى الله زلفى، فنزلت هذه الآية وقيل: إن نصارى نجران قالوا: إنما نقول هذا القول في عيسى حباً لله وتعظيماً له، فأنزل الله قل يا محمد إن كنتم تحبّون الله فيما تزعمون فاتبعوني يحببكم الله لأنه قد ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالدلائل الظاهرة، والمعجزات الباهرة، فوجب على كافة الخلق متابعتة، قال الخازن: والمعنى: قل إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله فكونوا منقادين لأوامره مطيعين له فاتبعوني فإن أتباعي من محبة الله تعالى وطاعته قال الخطيب في تفسيره: فن ادعى محبته وخالف سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو كذاب، وكتاب الله يكذّبه، وإذا رأيت من يذكر محبة الله ويصفق بيده مع ذكره ويطرب، وينعر ويصعق، فلا شك أنه لا يعرف ما لله، ولا يدرى ما محبة الله، ما تصفيقه وطربه ونعرتة وصعقته إلا أنه تصوّر في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسماها الله بجهله وادعائه، ثم صفق وطرب ونعر وصعق عند تصوّرها، وربما رأيت المنى قد ملأ إزار ذلك المحب عند صعقه، وحمق العامة حوالبه قد ملؤا أذقانهم بالدموع لما رأوه من حاله. ولمّا نزلت هذه الآية قال عبدالله بن أبي لأصحابه: إن محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبه كما أحبّ النصارى عيسى فنزل قوله: «قُلْ» لهم «أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ» فيما يأمركم به من التوحيد «فَإِنْ تَوَلَّوْا» أي أعرضوا عن الطاعة «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ» أي لا يرضى فعلهم، ولا يغفر لهم، قلت: وكذلك لا يرضى عن تبعمهم وتولّاهم ولا يغفر لهم. وفي القرطبي: وقال سهل بن عبدالله: علامة حبّ الله حبّ القرآن، وعلامة حبّ القرآن حبّ النبي صلى الله عليه وسلم، وعلامة حبّ النبي صلى الله عليه وسلم حبّ السنّة، وعلامة حبّ الله وحبّ القرآن وحبّ النبي وحبّ السنّة حبّ الآخرة، وعلامة حبّ الآخرة، أن يحبّ نفسه، وعلامة حبّ نفسه أن يبغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزاد والبُلغة. وروى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في

قوله تعالى: «**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**» قال: على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس. خرجه أبو عبد الله الترمذي. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [من أراد أن يحبه الله فعليه بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وألا يؤذى جاره] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل، ثم ينادى في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادى في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض] قوله: «**وَيُغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**» يعني أن من غفر له فقد أزال عنه العذاب وذلك ببركة اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام «**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**» غفور لمن اتبعني ما سلف منه قبل ذلك، رحيم به «**قُلْ**» لقريش «**أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ**» يعني إن طاعة الله متعلقة بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن طاعته لا تتم مع عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولهذا قال الشافعي رضي الله عنه: كل أمر أو نهى ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرى ذلك في الفريضة واللزوم مجرى ما أمر الله به في كتابه أو نهى عنه وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فإن طاعتكم محمد صلى الله عليه وسلم طاعتكم لي، فأما أن تطيعوني وتعصوا محمداً فلن أقبل منكم «**فَإِنْ تَوَلَّوْا**» أي أعرضوا عن طاعة الله ورسوله «**فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**» أي لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم. روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي. قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى] وأخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني].

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» سورة آل عمران (الآية: ٥٩)

في الواحددي: ذكر المفسرون أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما

لك تشتم صاحبنا؟ قال: وما أقول؟ قالوا: تقول إنه عبدٌ قال: أجل إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول. فغضبوا، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: وعن الحسن أنه جاء راهبان من نجران. فعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما الإسلام، فقال أحدهما: إنا قد أسلمنا قبلك، فقال: كذبتا، إنه يمنعكما من الإسلام ثلاث، عبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير، وقولكم لله ولداً. قالوا: من أبو عيسى؟ وكان لا يعجل حتى يأمره ربه، فأنزل الله تعالى الآية «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى..» وكذا في الخازن وغيره، وكاد يجمع المفسرون على ذلك، وقوله تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى» أي شأنه الغريب الذي لغرابته ينتظم في سلك الأمثال «عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ»، كشأنه في خلقه من غير أب ولا أم، وهو من تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم، وأوقع في النفس، لأن فاقد الأبوين أغرب من فاقد الأب، فكان أشد خرقاً للعادة من الموجود من غير أب، وأقطع للخصم وأحسم لمادة شهبته، والجماع كون كل منها من غير أب، على أن التشبيه تكفي فيه المماثلة من بعض الوجوه. وهذا جواب: كيف قال: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم. وآدم خلقه الله من التراب وعيسى من الهواء، وآدم خلق من غير أب وأم، وعيسى خلق من أم؟ وإيضاحه أن المراد تشبيهه به في الوجود من غير أب. والتشبيه لا يقتضي المماثلة من جميع الوجوه (الكرخي) وعن بعض العلماء أنه أسر بالروم. فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ فقالوا: لأنه لا أب له. فقال لهم: فآدم أولى لأنه لا أبوين له، قالوا: فإنه كان يحى الموتي، قال: فحزقيل أولى لأن عيسى أحيى أربعة نفر، وحزقيل أحيى ثمانية آلاف، قالوا: إنه كان يسريء الأكمه والأبرص، قال: فجرجيس أولى لأنه طبخ وأحرق، ثم خرج سالماً. كذا في السمين ««خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ»» أي خلق آدم من تراب يابس وهو أبلغ في القدرة فلم لا يقرؤن بأن الله خلق عيسى من مريم من غير أب. بل الشأن في خلق آدم أعجب وأغرب. أي قدره جسداً من طين ««ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ»» أي أنشأه خلقاً بالكلمة، وكذلك عيسى أنشأه خلقاً بالكلمة، أو المراد: اعلم يا محمد أن ما قال له ربك كن فإنه يكون لا محالة. والمراد بكن ادخاله في الوجود. قالت الحكماء: إنما خلق آدم من التراب لوجوه: ليكون متواضعاً، وليكون ستاراً، وليكون أشد التصاقاً بالأرض فيصلح للخلافة فيها، ولما فيه من إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام السفلية، وابتلاهم

بظلمات الضلالة، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو أرق الأجرام، وأعطاهم كمال القوة والقدرة، وخلق السموات من أمواج مياه البحار، وأبقاها معلقة في الفضاء، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام فأتاه النور والهداية، وكل ذلك برهان باهر، ودليل ظاهر على أنه تعالى هو المدبر بغير احتياج والخالق بلا مزاج وعلاج. خلق البشر من التراب لاطفاء نيران الشهوة والحرص والغضب، وخلق من الماء، خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً ليكون صافياً تتجلى فيه صور الأشياء، ثم مزج بين التراب والماء لامتزاج اللطيف بالكثيف، فصار طيناً «إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ» ثم إنه سلّ من اللطف أجزاءه الطين «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» ثم جعله طيناً لازباً «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ» ثم سنه وغير رائحته «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» وفي «كُنْ فَيَكُونُ» قال ابن عباس: معناه كن فكان.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ»

في الوجدى عن جابر بن عبد الله قال: قدم وفد أهل نجران على النبي صلى الله عليه وسلم: العاقب والسيد، فدعاهما إلى الإسلام فقالا: أسلمنا قبلك، قال: كذبتا إن شئتما أخبرتكما بما يمنعكما من الإسلام؟ فقالا: هات أئبئنا، قال: حبُّ الصليب، وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير. فدعاهما إلى الملاعنة، فوعدها على أن يفادياه بالغداة، فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ بيد علي وفاطمة، وبيد الحسن والحسين، ثم أرسل إليهما، فأبيا أن يجيبا، فأقرا له بالخراج. فقال صلى الله عليه وسلم: [والذي بعثني بالحق لو فعلا لمطر الوادى ناراً] فأنزل الله الآية* وفي الخطيب: فلما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباحلة، قالوا: حتى نرجع، وننظر في أمرنا، ثم نأتيك غداً، فخلا بعضهم ببعض، وقالوا للعاقب، وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبيُّ مرسل. ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم. والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتُم لنهلكنَّ، فإن أبيتُم إلاّ الإقامة على دينكم، وعلى ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل، وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وقد غدا محتضناً للحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشى خلفه، وعلى خلفها رضي الله عنهم آل البيت. وهو صلى الله عليه وسلم يقول لهم: [إذا دعوت فأمنوا] فقال أسقف نجران: وهو اسم سرياني - لرئيس النصارى وعالمهم، وهو غير العاقب: يا معشر النصارى!! إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبق على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم!! رأينا إلا نباهلك، وأن نقرّك على دينك، ونثبت على ديننا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن أبيتمّ المباهلة، فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم، فأبوا، فقال: إنما أنا بذكّم فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على ألا تغزونا، ولا تخنقنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفى حُلّة: ألف في صَفَر، وألف في رَجَب، نؤديها للمسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يؤدوها، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: [والذي نفسى بيده أنّ العذاب تدلى على أهل نجران، ولولا عثوا لمسخوا قردهً وخنازير، ولا اضطرم عليهم الوادى ناراً، ولا ستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر، ولما حال الحول على النصارى حتى هلكوا كلّهم] وعن عائشة رضي الله عنها: [أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة، ثم علي، ثم قال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت»] وفي ذلك دليل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم، وعلى فضل أهل الكساء رضي الله تعالى عنهم وعن بقية الصحابة أجمعين، وقوله: «فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ» أراد بالأبناء الحسن والحسين، وبالنساء فاطمة، وبالنفس نفسه صلى الله عليه وسلم وعلياً رضي الله عنه، وقيل هو على العموم لجماعة أهل الدين، وقوله تعالى: «ثُمَّ نَبْتَهِلُ» قال ابن عباس: نتصرّع في الدعاء. وقيل معناه: نجتهد ونبالغ في الدعاء. وقيل: معناه نلتعن، والابتغال الإلتعان يقال عليه بهلة الله أي لعنة الله، والمراد منها تبين الصادق من الكاذب. وتجاوز المباهلة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا أنها لا تجوز إلا في أمر مهم شرعاً وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة - فيشترط كونها بعد إقامة الحجّة، والسعى في إزالة الشبهة، وتقديم النصح والإنذار وعدم نفع ذلك. ومساس

الضرورة إليها، وأما قول المشركين «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ» فليس من قبل المباهلة. فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرض نفسه لذلك، ولم يكن ذلك القول في معرض الاحتجاج ولا دعاء ولا بإذن من الله تعالى لرسوله. وقوله تعالى: «فَتَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» يعني متاً ومنكم في شأن عيسى عليه السلام، أي الذي يقول إنه ابن الله، أو يقول إنه إله فعليه لعنة الله.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» سورة آل عمران (الآية: ٦٤)

في الخازن: قال ابن عباس: اجتمع عند النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وأحبار اليهود فتنازعوا عنده، فقالت: الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً وكلا الفريقين يدعى أنه أولى به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا الفريقين برىء من إبراهيم ودينه، بل كان حنيفاً مسلماً وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام؟ فقالت اليهود: ما تريد إلا أن نتخذك ربّاً كما اتخذت النصارى عيسى ربّاً، وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزيز، فأنزل الله عز وجل: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا» أي هلموا «إلى كلمةٍ سَوَاءٍ» يعني فيها إنصاف ولا ميل فيها لأحدٍ على صاحبه أي كلمة عدل لا يختلف فيها التوراة والإنجيل والقرآن وتفسير الكلمة قوله: «أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» وذلك أن النصارى عبدوا غير الله وهو المسيح، وأشركوا به، وهو قولهم: أب وابن وروح القدس، فجعلوا الواحد ثلاثة، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وذلك أنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الشرك ويسجدون لهم... ومعنى الآية قل يا محمد لليهود والنصارى: هلموا إلى أمرٍ عدل نصف وهو أن لا نقول عزيزاً ابن الله، ولا نقول المسيح ابن الله، لأن كل واحد منها بشر مخلوق مثلنا، ولا نطيع أحبارنا ورهباننا فيما أحدثوا من التحريم والتحليل من غير رجوع إلى ما شرع، ولا يسجد بعضنا لبعض لأنَّ السجود لغير الله حرام — بل وشرك — فلا نسجد لغير

الله، ولا نطيع أحداً في معصية الله «فَإِنْ تَوَلَّوْا» أي فإن أعرضوا عما أمرتم به «فَقُولُوا» أنتم هؤلاء «اشْهَدُوا بَأَنَّا مُسْلِمُونَ» أي مخلصون بالتوحيد والعبادة له. روى الشيخان عن ابن عباس أن أبا سفيان أخبره أن هِرْقُلَ أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشَّام في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماداً فيها أبا سفيان وكفار قريش. فأتوه، وهو بابلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عطاء الروم، ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دِخْيَةَ الكلبى إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل. فقرأ فإذا فيه [بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسين، و «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»] والأريس: الأكار. وهو الزراع والفلاح. وقيل: هم أتباع عبدالله بن أريس. رجل كان في الزمن الأول بعثه الله فخالفه قومه، وقيل هم الأروسيون وهم نصارى أتباع عبدالله بن أرس. وهم الأروسة، وقيل: هم الأريثيون. بضم الهمزة، وهم الملوك الذين يخالفون أنبياءهم، وقيل هم المتبخثرون، وقيل هم اليهود والنصارى الذين صددتهم عن الإسلام واتبعوك على كفرك (الخازن) مع بعض التصرف في بعض الألفاظ. وعبارة أبي السعود: روى أنه لما نزل قوله تعالى: «اتَّخِذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» قال عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، فقال: أليس كانوا يجللون ويحرمون لكم فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم. قلت: وقد رواه الترمذي وقال البيضاوى: انظر ما راعى الله سبحانه وتعالى في هذه القصة من المبالغة والإرشاد، وحسن التدرج في الحجاج، فبين أولاً أحوال عيسى، وما تعاور عليه من الأطوار الماضية للإلهية، ثم ذكر ما يحل عقبتهم، ويزيل شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثم لما أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد إليهم الإرشاد، وسلك طريقاً أسهل وألزم بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد أن ينفع ذلك أيضاً عليهم، وعلم أن الآيات والنذر لا تغني عنهم أعرضوا عن ذلك. وقال «اشْهَدُوا بَأَنَّا مُسْلِمُونَ» أي لما لزمتمكم الحججة فأعترفوا بأننا مسلمون دونكم، ومتصفون بما سمانا به إبراهيم عليه السلام

مسلمين منقادون لأحكامه معترفون بما لله علينا في ذلك من المن والأنعام غير متخذين أحداً رباً لا عيسى ولا عزيزاً ولا الملائكة لأنهم بشر مثلنا محدث كحدوثنا. ولا نقبل من الرهبان شيئاً بتحريمهم علينا. فنكون قد اتخذناهم أرباباً من دون الله. قال عكرمة: معنى يتخذ: يسجد. وروى أن ابن مالك قال: قلنا يا رسول الله: أينحنى بعضنا لبعض؟ قال: لا. قلنا: أيعانق بعضنا بعضاً؟ قال: لا، ولكن تتصافحوا. وفي الحديث: [ما ينبغي أن يُسجدَ لأحدٍ من دون الله].

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى)) *

«إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» سورة آل عمران (الآية: ٦٨)

في الواحدى: قال اليهود: والله يا محمد لقد علمت أننا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك. وأنه كان يهودياً. وما بك إلا الحسد. فأنزل الله تعالى هذه الآية. قلت: ولنزول هذه الآية سبب مرتبط بما قبله من نزول قوله تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» هَا أَنْتُمْ هُوَ لَا حَاجَّ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» أى إن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته والانتساب إلى دينه للذين سلكو طريقه ومنهجه. فوحدوا الله مخلصين له الدين، وستوستته، وعملوا بشرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به. وعبارة ابن كثير في تفسير الآية: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ...» يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه، وهذا النسبى يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم، والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار. ومن تبعهم بعدهم. وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [لكل نبي ولاة من النبيين، وإن ولّى منهم أبى وخليلى ربى عز وجل، ثم قرأ «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ» الآية. زاد فى رواية أخرى بعد: منهم أبى وخليلى الله عز وجل إبراهيم عليه السلام] وذكر الطبرى عن قتادة فى قوله: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ» يقول للذين اتبعوه على ملته وستته ومنهجه وفطرتة:

«وهذا النسبى» وهو نبيُّ الله محمد «والذين آمنوا» معه، وهم المؤمنون الذين صدّقوا نبيَّ الله واتبعوه. كان محمد رسول الله والذين معه من المؤمنين أولى الناس بإبراهيم: «والله وليُّ المؤمنين» بنصره ومعونته لهم في كل ما يصلح حالهم في الدنيا والآخرة.

(القول في سبب نزول قوله تعالى:)

«وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَو يُضَلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» سورة آل عمران (الآية: ٦٩، ٧٠، ٧١)

في الواحدى: نزلت الآية في معاذ بن جبل وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم * قلت: والآية نظير قوله تعالى: «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا...» وفي الطبرى عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن الصّيف وعدى بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نضع فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: «يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ» — إلى قوله: «والله وُاسِعٌ عَلِيمٌ» وعن قتادة: «يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ» يقول لم تلبسون اليهودية والنصارية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذى لا يقبل غيره الإسلام، ولا يجزى إلا به. وفي قوله: «وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون» قال قتادة: كتموا شأن محمد يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكره وعبارة ابن كثير: يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الاضلال، وأخبر أنّ وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون.. ولم يذكر سبباً لنزولها. وما ذكره الواحدى ذكره الخازن وكذ بقية المفسرين.

*(القول في سبب نزول قوله تعالى: ((

«وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»

سورة آل عمران (الآية: ٧٢، ٧٣، ٧٤)

في الواحدى: تواطأ اثنا عشر خبياً من يهود خيبر، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به في آخر النهار، وقولوا إنا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك، وأظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شك أصحابه في دينهم، وقالوا: إنهم أهل كتاب، وهم أعلم به منا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأخبر محمداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين * وقال مجاهد ومقاتل والكلبي: هذا في شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة، شق ذلك على اليهود لمخالفتهم، قال كعب بن الأشرف وأصحابه: آمنوا بالذى أنزل على محمد من أمر الكعبة، وصلوا إليها أول النهار ثم اكفروا بالكعبة آخر النهار، وارجعوا إلى قبلتكم الصخرة، لعلمهم يقولون: هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم منا، فرما يرجعون إلى قبلتنا، فحذر الله تعالى نبيه مكر هؤلاء. وأطلعه على سرهم وأنزل: «وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ..» وكذا في القرطبي والخازن. وجه النهار أوله. والوجه مستقبل كل شيء لأنه أول ما يوجه منه. وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» يعنى عن دين الإسلام إن ألقينا هذه الشبهة لعلمهم يشكون في دينهم، فيرجعون عنه، ولما دبّروا هذه الحيلة أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بها، فلم تتم لهم، ولم يحصل لها أثر في قلوب المؤمنين، ولولا هذا الاعلام من الله تعالى لكان ربياً أثر ذلك في قلوب بعض من كان في إيمانه ضعف. قوله تعالى: «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ» قال الخازن: هذا متصل بالأول، وهو من قول اليهود يقول بعضهم لبعض: ولا تؤمنوا أى ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم: أى وافق ملتكم وهى اليهودية، واللام في لمن صلة كقوله ردف لكم أى ردفكم. واعتبرها الجلال زائدة. وقال

القرطبي: وهذه الآية أشكل ما في السورة، فروى عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية: ولا تؤمنوا إلا لمن يتبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حجة لهم، فإنكم أصح منهم ديناً قال الطبري: الكلام كله خبر عن قول الطائفة التي قال الله عز وجل: «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار..» وهو غير واضح، وعبارة ابن كثير: «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم» أى تطمئنوا وتظهروا سروركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلا للمسلمين فيؤمنون به، ويحتجوا به عليكم أى أنه من كلام اليهود. فيكون: «ولا تؤمنوا» معطوف على آمنوا بالذي أنزل، فيكون المعنى حكاية عنهم: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أى تصدقوا إلا نبياً يقرر شرائع التوراة، فأما من جاء بتغيير شيء من أحكام التوراة، فلا تصدقوه. وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم، وعليه تكون اللام في «لمن» زائدة، ومن أجل ذلك قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: «قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ» وقد جئتمكم به، فلن ينفعكم هذا الكيد الضعيف، فهدى الله هو الإسلام، وما عداه ضلال وقوله: «أَنْ يُؤْتَىٰ» أى بأن يؤتى: «أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ» من الكتاب والحكمة والفضائل.. المعنى لا تقروا بأن أحداً يؤتى ذلك إلا لمن تبع دينكم «أَوْ» بأن «يُحَاجُّوكُمْ» أى المؤمنون يغلبوكم «عِنْدَ رَبِّكُمْ» يوم القيامة لأنكم أصح ديناً، قال تعالى: «قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ» فن أين لكم أنه لا يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتِيتُمْ: «وَاللَّهُ وَاسِعٌ» كثيرُ الفضل «عَلِيمٌ» بمن هو أهله «يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ» أى اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحسد ولا يوصف بما شرف به نبيكم محمداً صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء، وهداكم به إلى أكمل الشرائع «وَلِلَّهِ دُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» أى الكثير، فن قصر إنعامه وإكرامه على مراتب معينة، وإلى أشخاص معينين كان جاهلاً بكمال الله تعالى في قدرته وحكمته، ثم إنه تعالى كذبهم في دعواهم الاختصاص بالمناصب العالية، فإن فيهم الخيانة المستقبحة في جميع الأديان، ونقض العهد والكذب على الله وقتل الأنبياء وأكل الربا والرشا إلى غير ذلك من القبائح. وهو ما سترى طرفاً منها في هذه الآية.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِيَدَيْتَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »
سورة آل عمران (الآية: ٧٥، ٧٦)

في الخازن: نزلت في اليهود. أخبر الله عز وجل أن فيهم أمانة وخيانة، وقسمهم قسمين، والقنطار عبارة عن المال الكثير، والدينار عبارة عن المال القليل يقول منهم من يؤدي الأمانة وإن كثرت مثل عبد الله بن سلام وأصحابه، ومنهم من لا يؤديها وإن قلت. وهم كفار أهل الكتاب مثل كعب بن الأشرف وأصحابه، قال ابن عباس في هذه الآية: أودع رجل من قريش عبد الله بن سلام ألفاً ومائتي أوقية من ذهب. فأذاها إليه، فذلك قوله تعالى: «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ» يعني فنحاص بن عزوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فخانه، وجحده ولم يؤديه إليه * وقيل: أهل الأمانة هم النصارى وأهل الخيانة هم اليهود لأن مذهبهم أن يحلّ قتل من خالفهم في الدين وأخذ ماله بأى طريق كان * ونقل بن ابن عباس أنها نزلت في الوديعه. ومعنى الآية أن من أهل الكتاب، وهم اليهود من بنى إسرائيل أهل أمانة يؤدونها ولا يخونونها، ومنهم الخائن أمانته الفاجر في يمينه المستحل، ويكون في الآية دليل على تحذير المؤمنين أن يأتمنوهم على أموالهم، وتخوفهم الاغترار بهم لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين * وعن قتادة كما في الطبرى: في قوله: «إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا» قال: تقتضيه إياه. وعن مجاهد: في قوله: مادمت عليه قائماً قال: مواظباً. قال أبو جعفر: وأولى القولين بتأويل الآية قول من قال: معنى ذلك إلا مادمت عليه قائماً بالمطالبة والاقتضاء من قولهم: قام فلان بحق على فلان حتى استخرجه لى، أي عمل في تخليصه وسعى في استخراج منه حتى استخرجه * وقوله: «ذَلِكَ» أي من سبب ذلك الاستحلال والخيانة «بِأَنَّهُمْ قَالُوا» يعني اليهود «لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» أي لا إثم عليهم ولا حرج في أخذ مال العرب. وذلك أن اليهود قالوا: أموال العرب حلال لنا إنهم ليسوا على ديننا، ولا

حرمة لهم في كتابنا، وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم. وقيل: إن اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، والخلق لنا عبيد فلا سبيل علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا. فأكذبهم الله تعالى فقال: «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» يعني اليهود «وَهُمْ يَعْلَمُونَ» يعني أنهم كاذبون. وقد اختلقوا هذه المقالة، واثتفكوها بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحققها، وإنما هم قوم بهت، وفي ابن كثير عن ابن صعصعة بن يزيد أن رجلاً سأل ابن عباس فقال: إننا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة. قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا بذلك بأس قال: هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل: إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم. وعن سعيد بن جبير قال: لما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل، قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: [كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر] فيكون مرادهم بالأمي من ليس له كتاب، وشأنه يشمل ماله ودمه وعرضه فقد استباحوا دماء العرب وأموالهم وأعراضهم. ويقولون على الله الكذب في نسبة ذلك إليه. وقوله تعالى: «بَلَى» أي عليهم فيهم سبيل «مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ» الذي عاهد الله عليه، أو بعهد الله إليه من أداء الأمانة وغيره. وهي استئناف مقرررة للجملة التي تسد بلى مسدها، وفي السمين: ومن موصولة أو شرطية والرابط من الجملة الجزائية أو الخبرية هو العموم في المتقين، وعند من يرى الربط بقيام الظاهر مقام المضمريقول ذلك هنا، وقيل الجزاء أو الخبر محذوف تقديره يحبه الله، ودل على هذا الحذف قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» أي يحبهم بمعنى يشيهم وهم الذين يتقون الشرك، روى الشيخان عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر] وفي رواية [إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر].

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»

سورة آل عمران (الآية: ٧٧، ٧٨)

في الواحدى: عن سفيان عن الأعمش عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ لِيَقْطَعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ] فقال الأشعث بن قيس: فى والله. كان بينى وبين رجل من اليهود أرض — وفي رواية بئر وأرض — فجحذنى فقدمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فقال: لك بينة؟ قلت: لا. فقال لليهود: أتخلف. قلت: إذن يحلف فيذهب بى، فأنزل الله عز وجل «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا»، الآية. لكن روى البخارى عن عبدان، عن أبى حمزة عن الأعمش، وعن عبد الله بن أبى أوفى، أن رجلاً أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعط ليقوع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا»، وقال عكرمة: في أبى رافع ولبابة أبى الحقيق، وحيسى بن أخطب وغيرهم من رؤساء اليهود، كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة من شأن محمد صلى الله عليه وسلم وبدلوه وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنه من عند الله لثلاث يفوتهم الرشا والمآكل التي كانت لهم على أتباعهم. كذا في الواحدى. أي أن الآية نزلت في اليهود لما بدلوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم، وعهد الله إليهم في التوراة، أو فيمن حلف كاذباً في دعوى أو في بيع سلعة وفي الخطيب: وقيل نزلت في جماعة من اليهود جاؤا إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم ممتارين، فقال لهم: أتعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: لقد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا: لعله اشتبه علينا فروئياً حتى نلقاه، فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته، ثم رجعوا إليه، وقالوا: لقد غلطنا، وليس هو بالنتعت الذي نعت لنا. ففرح ومارهم وفي الطبرى

عن عدى بن عميرة قال: كان بين امرئ القيس ورجل من حضرموت، فارتفعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال للحضرمي: بَيِّنْتِكَ وَإِلَّا فِيمِيئَهُ. قال: يا رسول الله إن حلف ذهب بأرضي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها حق أخيه لقي الله وهو عليه غضبان] فقال امرؤ القيس: يا رسول الله فما لمن تركها، وهو يعلم أنها حق؟ قال: الجنة، قال: فإني أشهدك أني قد تركتها. قال جرير فكنت مع أيوب السخيتاني حين سمعنا هذا الحديث من عدى، فقال أيوب: إن عدياً قال في حديث العرش بن عميرة، فنزلت هذه الآية «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...» إلى آخر الآية. قال جرير: ولم أحفظ يومئذ من عدى. وكذا في بقية التفاسير، وفي الخازن: وقيل نزلت في ادعاء اليهود الذين قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل — وكتبوا ذلك بأيديهم وحلفوا أنه من عند الله — ولعل هذا القول أصح الأقوال لتوافق معناه مع مدلول الآية الثانية. لكن الأقرب حل الآية على الكل. فقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ» يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرُّسل. ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق. فكل ذلك من عهد الله الذي يجب الوفاء به، وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ» أي يستبدلون «بِعَهْدِ اللَّهِ» إليهم في الإيمان للنبي صلى الله عليه وسلم والوفاء بالميثاق وأداء الأمانة «وَأَيْمَانِهِمْ» أي حلفهم به تعالى كاذباً في قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه (البيضاوى) «ثَمَنًا قَلِيلًا» من الدنيا «أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ» أي نصيب «لَهُمْ فِي الآخِرَةِ» أي في نعيمها «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ» بما يشروهم، أولاً يكلمهم بشيء أصلاً، وإنما يقع ما يقع من السؤال والتوبيخ في أثناء الحساب من الملائكة. فلا يخالف النصوص الدالة على أنهم يستلون كقوله: «فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» وهذه الجملة واللتان بعدها كناية عن إهانتهم وشدة الغضب عليهم «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» أي ولا يرحمهم «يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ» أي ولا يشئى عليهم بالجميل ولا يظهرهم من الذنوب، «وَأَلَّهُمْ عَذَابَ أَلِيمٍ» أي مؤلم في الآخرة. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم: رجل حلف على سبعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرئ مسلم، ورجل منع فضل مائة

فيقول الله له: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك] وروى مسلم عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [من اقتطع حقَّ امرئ مسلم بيمينه حرّم الله عليه الجنة، وأوجب له النار. فقالوا: يا رسول الله: وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك] قوله: «وَأَنَّ مِنْهُمْ» يعني من اليهود، أو أهل الكتاب «لَقَرِيقاً» طائفة ككعب بن الأشرف، ومالك بن الصّيف، وحبي بن أخطب، وأبي ياسر وشعبة بن عمر الشاعر. (كذا في الكرخي) «يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ» أي يعطفونها بقرائته عن المنزل إلى ما حرقوه من نعمت النبي صلى الله عليه وسلم «لِيَتَحَسَّبُوهُ» أي المحرف «مِنَ الْكِتَابِ» الذي أنزله الله «وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ» أي في الواقع وفي اعتقادهم أيضاً «وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» أي مع ما ذكر من اللّيّ والتّحريف على طريقة التّصريح لا بالتّورية والتّعريض. (كذا في أبي السعود) «وَمَا هُوَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ» أي المحرف، والحال كونه ليس من عند الله «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» أنهم كاذبون. وفي الخازن: قال ابن عباس: إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً. وذلك أنهم حرّفوا التّوراة والإنجيل وألحقوا في كتاب الله ما ليس فيه.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«مَا كَانَ لِيَشِيرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ» * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أي أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون»

سورة آل عمران (الآية: ٧٩، ٨٠)

في الواحدي: قال الضحّاك ومقاتل: نزلت في نصارى نجران حين عبدوا عيسى * وقوله: «مَا كَانَ لِيَشِيرَ» يعني عيسى «أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ» يعني الإنجيل. وقال ابن عباس في رواية الكلبي وعطاء: إن أبا رافع اليهودي والرئيس من نصارى نجران. قالوا: يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [معاذ الله أن يعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غير الله. ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني] فأنزل الله هذه الآية. قال الحسن: بلغني أن رجلاً قال: يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على

بعض أفلا نسجد لك؟ قال صلى الله عليه وسلم: [لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله، ولكن أكرموا نبيكم، واعرفوا الحق لأهله] فأنزل الله تعالى هذه الآية * وكذا في الطبرى وفيه عن ابن جريج قال: كان ناس من يهود يتعبدون الناس من رهم بتحريفهم كتاب الله عن موضعه، فقال الله عز وجل: «مَا كَانَ لِيُبَشِّرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ» ثم يأمر الناس بغير ما أنزل الله في كتابه وفي الجلال: ونزل لما قال نصارى نجران: إن عيسى أمرهم أن يتخذوه رباً، أو لئما طلب بعض المسلمين السجود له صلى الله عليه وسلم «مَا كَانَ لِيُبَشِّرَ». الآية. وكذا في الخازن وابن كثير والغرائب، وقيل: زعمت اليهود أن أحداً لا ينال من درجات الفضل ما نالوه، فقال لهم الله: إن كان الأمر كما قلتُم وجب أن لا تشتغلوا باستبعاد الناس واستخدامهم، وهذا الوجه يحتمله لفظ الآية. لكن في الخازن وقال ابن عباس: في قوله تعالى: «مَا كَانَ لِيُبَشِّرَ» يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يؤتیه الله الكتاب يعنى القرآن، وذلك أن أبا رافع من اليهود والسيد من نصارى نجران قالوا: يا محمد تريد أن نعبدك... الخ. وقوله: «مَا كَانَ» أي لا ينبغي «لِيُبَشِّرَ» أي لكل فرد من أفراد البشر، وهو جميع بنى آدم لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط. ويوضع موضع الواحد والجمع «أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ» يعنى الفهم والعلم «وَالنَّبُوءَةَ» المنزلة الرفيعة «ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ» قال الخازن: ومعنى الآية إنه لا يجتمع لرجل نبوة مع القول للناس كونوا عباداً لى من دون الله وكيف يدعوا الناس إلى عبادة نفسه دون الله، وقد آتاه الله ما آتاه من الكتاب والحكم والنبوة، وذلك أن الأنبياء موصوفون بصفات لا يحصل معها ادعاء الإلهية والربوبية: منها: أن الله تعالى آتاهم الكتب السماوية، ومنها: إيتاء النبوة ولا يكون إلا بعد كمال العلم. وكل هذه تمنع من هذه الدعوى * قال الأصم كما في الغرائب: لو أرادوا أن يقولوا ذلك لمنهم الله منه، نظيره: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» «لَقَدْ كَذَبْتَ تَزَكَّىٰ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذَا لَأَذْفُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ» وقيل معناه إنه تعالى لا يشرف عبداً بالنبوة إلا إذا علم منه أنه لا يقول مثل ذلك الكلام. وقيل إن الرسول يدعى تبليغ الأحكام عن الله تعالى، ويحتج على صدقه بالمعجزة فلو أمرهم بعبادة نفسه بطل دلالة المعجزة على كونه صادقاً، والتحقيق أن

الأنبياء موصوفون بصفات لا يحصل معها هذا الادعاء لأن النفس ما لم تكن كاملة بحسب قوتها النظرية والعلمية لم تكن مستعدة لقبول نزول الكتاب السماوي عليه. وللحكم وهو فهم ذلك الكتاب وبيانه، وقد يعبر عنه بالسنة والنبوة، وهو كونه مأموراً بتبليغ ما فهم إلى الخلق. وفي قوله: «**ثُمَّ يَقُولُ**» تبعيد هذا القول عن مثل ذلك البشر «**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**» يعنى ولكن يقول لهم النبي: كونوا ربّانيين، قال ابن عباس: كونوا فقهاء علماء. وفي رواية عنه كونوا فقهاء معلّمين، وقيل: معناه حكماء حلّماء. وقيل: الربّاني الذي يرى الناس بصغار العلم وكباره، وقيل: الربّاني العالم الذي يعمل بعلمه، وقيل: الربّاني العالم بالحلال والحرام والأمر والنهي. والتحقيق: أنه يطلق على الفقيه العالم الورع في الدين، ولمّا مات ابن عباس رضي الله عنها قال محمد بن الحنفية: اليوم مات ربّانيّ هذه الأمة قال سيبويه: الربّاني منسوب إلى الربّ بمعنى كونه عالماً به ومواظباً على طاعته، كما يقال رجل إلهي، إذا كان مقبلاً على معرفة الإله وطاعته، «**بِمَا كُنْتُمْ**» الباء للسببية وما مصدرية «**تُعَلِّمُونَ**» من التعليم أو العلم، على القراءتين فيعلم منه أنّ التعليم أو العلم أو الدراسة وهي القراءة توجب على صاحبها كونه ربّانياً إذا كان مخلصاً لله فيها وعاملاً بما تعلمه وفي الحديث [نعوذ بالله من قلب لا يخشع ومن علم لا نفع] وفي الآية دليل على صحة قوله عليه الصلاة والسلام: [العلماء ورثة الأنبياء] وقوله تعالى: «**وَلَا يَأْمُرُكُمْ**» أي ولا ينبغي لبشر أن يُنصبه الله منصب الدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة، ثم يخالفه إلى أن يأمر الناس بعبادة نفسه ويأمرهم «**أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْتَّبِيبِينَ أَرْبَابًا**»، والمعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة واليهود والنصارى عن عبادة عزيز والمسيح بحيث قالوا له: أنتخذك رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبه الله، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه وينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء، ويراد بالنبيين غيره صلى الله عليه وسلم كأنه أخرج نفسه بتلك الدعوى عن زمرة الأنبياء «**أَيَأْمُرُكُمْ**» أي البشر وقيل الله «**بِالْكُفْرِ**» استفهام إنكارى من الله تعالى للمسلمين الذين طلبوا من الرسول أن يسجدوا له «**بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**»، إنما قاله على طريق الإنكار، يعنى لا يقول هذا ولا يفعله وما جاء به من الدين الحنيف يحرم ذلك كله «**وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**»، «**مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**».

**** (القول في سبب نزول قوله تعالى :) ****

**«أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أُسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً
وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ»** سورة آل عمران (الآية: ٨٣)

في الواحدي والخازن: قال ابن عباس: اختصم أهل الكتابين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا بينهم من دين ابراهيم كل فرقة زعمت أنها أولى بدينه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كلا الفريقين برىء من دين ابراهيم. فغضبوا، وقالوا: والله ما نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك فأنزل الله تعالى: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ» ولم يوجد شيء في بقية التفاسير زائداً على ما ذكرت وقوله: «أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ» أي أفغير دين الإسلام يطلبون ويعبدون؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار، فإنه لا دين لله إلا الإسلام في السموات والأرضين بدليل قوله: «وَلَهُ أُسْلِمَ» أي خضع وانقاد «مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً» الطوع الانقياد والاتباع بسهولة، والكره ما كان من ذلك بمشقة وإباء من النفس، واختلفوا في معنى قوله «طَوْعاً وَكَرْهاً» فقليل أسلم أهل السموات طوعاً وأسلم بعض أهل الأرض طوعاً وبعضهم كرهاً من خوف القتل والسبي. وقيل أسلم المؤمن طوعاً، وانقاد الكافر كرهاً. وقيل: هذا في يوم أخذ الميثاق في حين قال: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بلى» فن سبقت له السعادة قال ذلك طوعاً، ومن سبقت له الشقاوة قال ذلك كرهاً. وقيل أسلم المؤمن طوعاً فنفعه إسلامه يوم القيامة، والكافر يسلم كرهاً عند الموت في الوقت اليأس فلم ينفعه ذلك في القيامة. الخازن * ولكن لماذا لا يكون «أُسْلِمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي بالنظر في الأدلة، واتباع الحجة والانصاف من نفسه، ولم يكن سبيل لكفر الكافر إلا البغى والعناد، والآية على حد قوله تعالى: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً» فلا سبيل لأحد إلى الامتناع عن مراده، فيكون المراد استسلم له من فيها طوعاً وكرهاً، وسجد له من فيها طوعاً وكرهاً: وظلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ. والجملة حالية أي كيف يبغون غير دينه والحال هذه. فالمؤمن مستسلم بقلبه وقلبه خاضعاً مطيعاً لله، الكافر مستسلم لتصرف الله فيه. كافرأ بقلبه عاص بقلبه متكبراً عن عبادته، وهو حال كونه واقعاً تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع * لكن في ابن كثير: عن عطاء

بن أبي رباح عن النبي صلى الله عليه وسلم «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً» أما من في السموات فالملائكة، وأما من في الأرض فمن ولد على الإسلام، وأما كرها فمن أتى به من سببها الأمم في السلاسل والأغلال يقادون إلى الجنة وهم كارهون. وقد ورد في الصحيح [عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل]. ولكن المعنى الأول الذي ذكرته لك للآية أقوى. وقوله: «وَالِيهِ يُرْجَعُونَ» أي يوم المعاد فيجازى كلاً بعمله وفي القرطبي: في قوله: «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً» قال قتادة: أسلم المؤمن طوعاً والكافر عند موته كرهاً، ولا ينفعه ذلك لقوله «فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا» قال مجاهد: إسلام الكافر كرهاً بسجوده لله وسجود ظله لله «أَوَّلُ يَرَوْنَ إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفِيأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ». وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل: «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً» قال: الملائكة أطاعوه في السماء، والأنصار وعبد القيس في الأرض. وقال عليه الصلاة والسلام: [لا تسبوا أصحابي فإن أصحابي أسلموا من خوف الله، وأسلم الناس من خوف السيف] أي أن الملائكة والأنبياء والمرسلين وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلا المنافقين أسلموا لله طائعين. والمنافقين مكرهين بسبب مصالحتهم. والكافرين خوفاً من السيف والسبي.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ

مِنَ الْخَاسِرِينَ» سورة آل عمران (الآية: ٨٥)

في الخطيب: نزلت فيمن ارتدَّ عن الإسلام ولحق بالكفار، وهم اثنا عشر رجلاً، ارتدوا عن الإسلام، وخرجوا من المدينة، وأتوا مكة كفاراً، منهم الحارث بن سويد الأنصاري، وهو أخو الجلاس بن سويد، ثم بعد أن نزلت الآية أرسل إلى أخيه يطلب التوبة، قال ابن عباس وأسلم بعد نزول الآيات وفي الطبري: عن عكرمة في «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً» قال: فقالت الملل: نحن المسلمون، فأنزل الله عز وجل «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ

العالمين» فحج المسلمون، وقعد الكفار به، يعنى إن الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام، وإن كل دين سواه غير مقبول عنده لأن الدين الصحيح ما يأمر الله به، ويرضى عن فاعله ويشبهه عليه وقوله: «وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ» من الخسران. وهو العقاب وحرمان الثواب وحصول العقاب. قال عليه الصلاة والسلام: [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تجىء الأعمال يوم القيامة، فتجىء الصلاة فتقول يارب: أنا الصلاة فيقول: إنك على خير، ثم يجىء الإسلام فيقول: يارب أنت السلام وأنا الإسلام. فيقول الله تعالى: إنك على خير بك اليوم آخذ وبك أعطى. قال الله في كتابه: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

« كَيْفَ يُهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ واللّهُ لا يُهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَٰلَمِيَهُمْ لَعْنَةُ اللّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » سورة آل عمران (الآية: ٨٦ - ٨٩)

في الواحدى: عن ابن عباس رضي الله عنها قال: إن رجلاً من الأنصار ارتد فلحق المشركين، فأنزل الله تعالى « كَيْفَ يُهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ » إلى قوله: « غَفُورٌ رَّحِيمٌ » فبعث بها قومه إليه، فلما قرئت إليه قال: والله ما كذبنى قومي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا كذب رسول الله على الله، والله عز وجل أصدق الثلاثة، فرجع ثانياً، فقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه. وفي رواية عنه أيضاً: فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل له من توبة؟ فإني قد ندمت، فنزلت « كَيْفَ يُهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُوا » حتى بلغ «إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا» فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم. رواه النسائي في القرطبي: وقال الحسن: نزلت في اليهود لأنهم كانوا يبشرون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويستفتحون على الذين كفروا. فلما بعث عاندوا

وكفروا فأنزل الله عز وجل «**أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» وفي الطبري: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم وأقروا به، وشهدوا أنه حق فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فانكروه، وكفروا بعد إقرارهم حسداً للعرب حين بعث من غيرهم. قال الطبري: وقول الحسن هذا الأشبه بظاهر التنزيل، إلا أن غيره من الأقوال أكثر، والقائلين به أعلم بتأويل القرآن والحق أن الآية عامة في كل من آمن بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثم كفر به بعد بعثته، وحتى يوم يبعثون. ومعنى «**كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ..**» أي كيف يرشدهم للصواب ويوفق للإيمان قوماً جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد تصديقهم إياه وإقرارهم به. وبما جاء به من عند ربه «**وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ**» أي الحجج والبراهين والمعجزات الدالة على صحة نبوته صلى الله عليه وسلم التي بمثلها تثبت النبوة «**وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**» الواضعين للشيء في غير موضعه وذلك أن الخصال الثلاث. أعنى الإيمان والشهادة ومشاهدة المعجزات توجب مزيد الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم المبعوث في آخر الزمان لا الكفر والعناد. وفيه دليل على أن زلة العالم أقبح من زلة الجاهل، ولهذا صرح في آخر الآية بأنه تعالى لا يهديهم بعد أن عرض بذلك في أول الآية، ثم أردفه بغاية الوعيد قائلاً «**أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ**» يعنى الذين كفروا بعد إيمانهم على العموم إلى يوم الدين في كل من يرتد عن الإسلام، الجزاء هو «**أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**» أي ولعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين، مؤمنين وكافرين. ولعنة الله الطرد من رحمته، ولعنة الملائكة والناس بغضاً وتحقيراً لهم «**خَالِدِينَ فِيهَا**» أي في اللعنة أو النار المدلول بها عليها أي على الثار «**لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ**» يمهلون أي لا يؤخرون عن وقت العذاب. ولا يؤخر عنهم من وقت إلى وقت، ثم استثنى سبحانه وتعالى فقال «**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ**» يعنى من بعد ارتدادهم وكفرهم «**وَأَصْلَحُوا**» أي ضموا إلى التوبة الأعمال الصالحة، فبين سبحانه وتعالى: أن التوبة وحدها لا تكفى حتى يضاف إليها العمل الصالح لقوله تعالى: «**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى**» «**فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**» غفور لقبائهم في الدنيا بالستر، رحيم في الآخرة بالعضو، وقيل غفور بإزالة العذاب، رحيم بإعطاء الثواب.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

**«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ»** سورة آل عمران (الآية: ٩٠)

في الواحدى: قال الحسن وقتادة وعطاء الخرساني: نزلت في اليهود كفروا ببعيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، وقال أبو العالية: نزلت في اليهود والنصارى: كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بنعته وصفته، ثم ازدادوا كفراً بإقامتهم على كفرهم «وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ» أي الثابتون على الضلالة فلا يتوبون بعلم الله تعالى ليقبلها منهم، أولن يقبل توبتهم عند الموت عن الذنوب التي ارتكبوها قبل كفرهم * وفي القرطبي: وقال قطرب: هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة، قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون. فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا، فأنزل الله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ» الآية. أي لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر. فسماها توبة غير مقبولة لأنه لم يصح من القوم عزم. والله تعالى يقبل التوبة كلها إذا صح العزم * وفي الطبرى: عن قتادة قال في الآية: أولئك أعداء الله اليهود كفروا بالإنجيل وبعيسى، ثم ازدادوا كفراً حتى حضرهم الموت. وقال أبو العالية عن هذه الآية: قال هم اليهود والنصارى والمجوس أصابوا ذنوباً في كفرهم، فأرادوا أن يتوبوا منها، ولن يتوبوا من الكفر ألا ترى أنه يقول: «وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ» وأولى الأقوال في تأويل الآية قول من قال عنى بها اليهود كما ذكره الطبرى في تفسيره، وسنده في ذلك أن الآيات قبلها وما بعدها فيهم نزلت فأولى أن تكون هي في معنى ما قبلها وبعدها لأنها سياق واحد والخازن: وقيل نزلت في جميع الكفار، وذلك أنهم أشركوا بالله بعد اقرارهم بأن الله خالقهم، ثم ازدادوا كفراً يعنى بإقامتهم على كفرهم حتى هلكوا عليه، وقيل زيادة كفرهم هو قولهم: نتربص بمحمد ريب المنون. وقيل نزلت في أحد عشر رجلاً من أصحاب الحارث بن سويد الذين ارتدوا عن الإسلام، فلما رجع الحارث إلى الإسلام أقاموا على كفرهم بمكة. وقالوا: نقيم على الكفر ما بدا لنا. ومتى أردنا الرجعة ينزل فينا مثل ما نزل في الحارث، فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، فن دخل منهم في الإسلام قبلت توبته، ونزل فيمن مات منهم على كفره: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ٩٣)

في الواحدي: قال الكلبي: نزلت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم إنه على ملة إبراهيم، فقالت اليهود: كيف تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نُحلُّه. فقالت اليهود: كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه فإنه كان على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا. فأنزل الله عز وجل تكذيباً لهم «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ...» الآية وفي الخطيب: فقالوا: كل ما نحرمه اليوم كان حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا فنزل «كُلُّ الطَّعَامِ...» وفي الطبري: عن ابن عباس، أن عصابة من اليهود حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون إسرائيل — أي يعقوب — مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فندرت الله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: نعم، قال الطبري فكان ذلك من أعظم الحجج عليهم بأنه نبي الله صلى الله عليه وسلم إليهم، لأن ذلك من أخبار أوائلهم الذي خفي علمه عليهم، ولا يعمل به إلا الخاصة منهم. فحينما أعلمه الله بذلك أفحمهم، وأقام عليهم الحجج البالغة بأنه نبي مرسل إليهم وغيرهم من الناس كافة قوله: «كَانَ حِلالًا» الحل في اللغة: الحلال كما أن الحرم لغة: الحرام أي كل أنواع المطعومات كان حلالاً أكلها «لبني إسرائيل» أي لبني يعقوب عليه السلام «إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ» يعقوب «عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ» أي ليس الأمر على ما قالوه من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم. بل كان الكل حلالاً له، ولبني إسرائيل، وإنما حرّمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، فليس في التوراة حرمتها، واختلفوا في الطعام الذي حرّمه إسرائيل على نفسه وفي سببه فقال مقاتل والكلبي: كان ذلك الطعام الإبل وألبانها، وسبب ذلك أنه مرض

مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لئن عافاه الله من سقمه ليحرمنَّ أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان ذلك أحب إليه فحرّمه * وقال ابن عباس والضحاك: هي العروق، وسبب ذلك أنه اشتكى عرق النَّسا (عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ، وكان أصل وجعه) أنه كان نذراً لله وهبه الله اثني عشر ولداً، وأتى بيت المقدس صحيحاً أن يذبح آخرهم، فتلقاه ملك من الملائكة فقال: يا يعقوب إنك رجل قوى فهل لك في الصراع. فعالجه فلم يصرع واحد منها صاحبه، فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النَّسا، ثم قال له: أما إني لو شئت أن أصرّعك لفعلت، ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحاً ذبحت ولدك، فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجاً. فكان لا ينام بالليل من الوجع، فحلف يعقوب لئن عافاه الله تعالى ألا يأكل عرقاً ولا طعاماً فيه عرق فحرّمه على نفسه، وكان بنوه بعد ذلك يتتبعون العروق يخرجونها من اللحم * وقال ابن عباس: لمّا أصاب يعقوب عرق النساء، وصف له الأطباء أن يجتنب لحمان الابل فحرّمها يعقوب على نفسه، ثم اختلفوا في حالة هذا الطعام المحرّم على بني إسرائيل بعد نزول التوراة. فقال السدي: حرّم الله عليهم في التوراة ما كان يحرمونه قبل نزولها * وقال الضحاك: لم يكن شيء من ذلك حراماً عليهم وإنما حرموا على أنفسهم اتباعاً لأبيهم، ثم أضافوا تحريمه إلى الله عز وجل، وأكذبهم الله تعالى فقال: «(قُلْ) لهم: يا محمد «فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَاتْلُوهَا» ليتبين صدق قولكم «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فيه، فبهتوا ولم يأتوا بها * وبأن كذبهم فيما ادعوا من حرمة هذه الأشياء على إبراهيم عليه السلام وعرق النَّسا: بفتح النون والقصر. ودواؤه ما ذكره القرطبي: ونصه: وأخرج الثعلبي في تفسيره من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم في عرق النساء (تؤخذ ألية كبش عربي لا صغير ولا كبير، فتقطع قطعاً صغاراً، وتُسلى على النار، ويؤخذ دهنها، فيجعل ثلاثة أقسام يشرب المريض بذلك الدواء على الريق كل يوم ثلاثاً) قال أنس فوصفته لأكثر من مائة كلهم يبرأ بإذن الله تعالى * وفي ابن كثير: قال ابن عباس: حضرت عصابة من اليهود نبي الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهنَّ لا يعلمهنَّ إلا نبي، قال: سلوني عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام؟ قالوا: فذلك لك. قالوا: أخبرنا عن أربع خلال، أخبرنا أيّ الطعام حرّم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة

وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأُمِّي في النوم، ومن
وليه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعته، فقال: أنشدكم بالذي أنزل
التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض شديداً، وطال سقمه، فندرتُ الله نذراً لئن
شفاهُ الله من سقمه ليحرمَ أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان أحبَّ الطعام إليه لحم
الإبل، وأحبَّ الشراب، إليه ألبانها؟ فقالوا: اللهم، نعم، فقال: اللهم اشهد عليهم.
وقال: انشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن
ماء الرجل أبيض غليظ. وماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن
الله. قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم قال: وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى
هل تعلمون أن هذا النبي الأُمِّي تنام عيناه ولا ينام قلبه. قالوا: اللهم، نعم، قال: اللهم
اشهد. قال: وإن ولي جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه. قالوا: فعند ذلك
نفارقك، ولو كان وليك غيره لتبعناك. فعند ذلك قال الله تعالى: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا
لجبريل...» الآية. وعن ابن عباس أيضاً قال: أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهنَّ عرفنا أنك نبي
الله. واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: والله على ما نقول وكيل.
قال: هاتوا. قالوا أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه. قالوا: أخبرنا
كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر؟ قال: يلتقي المآن فإن علا ماء الرجل ماء المرأة
أذكرت، وإذا علا ماء المرة أنثت. قالوا: أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان
يشتكى عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا وكذا. قال أحمد: قال بعضهم يعني
الإبل (فحرم لحومها) قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة
الله عز وجل موكل بالسحاب بيده (أوفي يده) مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه
حيث أمره الله عز وجل. قالوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: صوته قالوا: صدقت،
إنما بقيت واحدة وهي التي نتبعك إن أخبرتنا بها: إنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه
بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام. قالوا: جبريل ذاك ينزل
بالحرب والقتال والعذاب، عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر
لكان، فأنزل الله تعالى «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لَجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ
مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» والآية بعدها. رواها أحمد. وروى

الأخير الترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن الوليد العجلي به نحوه، وقال الترمذي: حسن غريب. وفي الخازن والغرائب: أن اليهود كانوا يَقُولُونَ بإنكار شرع محمد صلى الله عليه وسلم على إنكار النسخ فأورد عليهم أن الطعام الذي حرمه اسرائيل على نفسه كان حلالاً ثم صار حراماً عليه وعلى أولاده، وهو النسخ، ثم إن اليهود لما توجّه عليهم هذا السؤال زعموا أن ذلك كان حراماً من لدن آدم، ولم يحدث نسخ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يطالبهم بإحضار التوراة إلزاماً لهم وتفضيحاً، ودلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بأن يطالبهم بإحضار التوراة إلزاماً لهم وتفضيحاً ودلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان أمياً، فامتنع أن يعرف هذه المسئلة الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر من السماء. وثانيها أن اليهود قالوا له: إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها، وتفتى بجلها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم، فأجيبوا بأن ذلك كان حلالاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب إلا أن يعقوب حرّمه على نفسه بسبب من الأسباب. وبقيت تلك الحرمة في أولاده. فأنكروا ذلك فأمروا بالرجوع إلى التوراة، وثالثها لما نزل قوله تعالى: «فَبَطَّلْنَا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ» وقوله: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ» إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه إنما حرّم عليهم كثير من الأشياء جزاءً لهم على بغيهم وظلمهم، غاظهم ذلك واشمأزوا وامتنعوا من قبل أن ذلك يقتضى وقوع التسخ ومن قبل أنه تسجيل عليهم بالبغى والظلم وغير ذلك من مساوئهم، فقالوا: لسنا بأول من حرّمت هي عليه، وما هو إلا تحريم قديم، فنزلت «كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ» كذا في الغرائب.

والخلاصة: إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه على دين إبراهيم في جزئيات الأحكام وكلياتها، فأحلّ ما أحلّه الله من أكل لحوم الإبل وألبانها، ودعا إلى التوحيد والبراءة من كل معبود سوى الله وما كان إبراهيم صلوات الله عليه إلا على هذا الدين.

**** (القول في سبب نزول قوله تعالى :) ****

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»
سورة آل عمران (الآية: ٩٦، ٩٧)

في الواحدى والخازن : تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود، بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء، وفي الأرض المقدسة وأرض المحشر، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي الخازن: وقيل لما ادعت اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم أكذبهم الله تعالى وأخبرهم أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. وأمرهم باتباعه فقال تعالى: في الآية المتقدمة «فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» وكان من أعظم شعائر ملة إبراهيم الحج إلى الكعبة، ذكر في هذه الآية فضلية البيت ليفرغ عليها إيجاب الحج * وفي الغرائب قال مجاهد «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» هو جواب عن شبهة أخرى لليهود. وذلك أنهم قالوا: بيت المقدس أفضل من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وأرض المحشر، وقبله الأنبياء، فكان تحول القبلة منه إلى الكعبة كالطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم * أي فأنزل الله الآية تكذيباً لهم، وبياناً لأفضلية بيت الله الحرام على بيت المقدس، وقوله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» اختلف العلماء في معنى الأولية على قولين:

الأول : أنه أول في بنائه، ووضعه جميعاً، روى الواحدى رحمه الله في البسيط بإسناده عن مجاهد أنه قال: خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً في الأرضين * وفي رواية أخرى خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين بألفى سنة، وإن قواعد لنى الأرض السابعة السفلى * وروى أيضاً عن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب عن آبائه قال: إن الله بعث ملائكة فقال ابنوا لى في الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور، وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، وهذا كان قبل خلق آدم * وقد ورد في سائر كتب التفسير عن عبدالله بن عمر ومجاهد والسدى أن أول بيت ظهر على وجه الماء عند خلق الأرض والسماء، وقد خلقه

الله قبل الأرض بألني عام. وكان زبدة بيضاء على الماء، ثم دحيت الأرض من تحته. وعن الزهري قال: بلغني أنهم وجدوا في مقام إبراهيم ثلاثة صفوف في كل صفح منها كتاب: في الصفح الأول أنا الله ذوبكة وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر، وحفظتها بسبعة أملاك حنفاء، وباركت لأهلها في اللحم واللبن. وفي الثاني: أنا الله ذوبكة، خلقت الرحم وشققت لها إسماً من اسمي من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته. وفي الثالث: أنا الله ذوبكة خلقت الجن والإنس فطوني لمن كان الخير على يديه، وويل لمن كان الشر على يديه.

وقد يستدل على صحة هذا القول بما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة: [ألا إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض] وتحريم مكة لا يمكن إلا بعد وجودها، ولأنه تعالى ستمها أم القرى، وهذا يقتضى سبقها على سائر البقاع، ولأن تكليف الصلاة كان ثابتاً في أديان جميع الأنبياء، وأيضاً قال تعالى في سورة مريم: «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم» إلى قوله: «خروا سُجُوداً...» والسجدة لا بد لها من قبله، فلو كانت قبلتهم غير الكعبة لم تكن هي أول بيت وضع للناس، هذا محال خلف.

القول الثاني: روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع للناس: فقال: [المسجد الحرام، ثم بيت المقدس] فسئل كم بينها؟ قال: [أربعون سنة] وعن علي أن رجلاً قال له: هو أول بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت. ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة. (*)

وقوله تعالى: «لَلَّذِي بِبَكَّةَ» أي للبيت الذي في مكة. وردت بالباء لغة في مكة. أي تقلب الميم بباء، وسميت مكة لأنها قليلة الماء، تقول العرب: مكّ الفصيل ضرع أمه وأمكّه إذا امتص كل ما فيه من اللبن. وقيل إنها تمك الذنوب. كذا في الخازن. وفي الخطيب: سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة. أي تدقها، فلم يرمها جبار بسوء إلا وقصمه الله، وتدعى أم رحم لأن الرحمة تنزل بها «مباركاً» أي ذوبركة، فهو كثير الخير والنفع لمن صحبه واعتمره واعتكف عنده، أو طاف حوله أذ يكثر ثوابه وتكفر ذنوبه، روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام]

«وَهَدَى لِلْعَالَمِينَ» أي قبة وتمعبد المؤمنين، وقيل لأن فيه دلالة على وجود الصانع المختار لما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيره، وقيل هو هدى للعالمين إلى الجنة لأن من قصده بأن صلى إليه أو حجّه فقد أوجب الله تعالى له الجنة برحمته، وقوله تعالى: «فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ» ترى بالأنظار للدلالة على حرمة ومزيد فضله من هذه الآيات انحراف الطيور عن موازة البيت على مدى الأعصار فلا تعلقو فوقه لا بالليل ولا بالنهار، ومنها أن ضواري السباع تخالط الطيور في الحرم ولا تتعرض لها، وإذا قصدت الجارحة صيداً فدخلت الحرم كفت عنه. وأنه باد صار إليه الأنبياء والمرسلون والأولياء والأبرار والصالحون... الخ. ما تقدم من فضله وقوله: «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» مبتدأ خبره محذوف أي منها مقام إبراهيم، أو خبر مبتدأ محذوف أي إحداها، أو بدل من آيات بدل بعض من كل. وهو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وكان أثر قدمه فيه. فاندرس من كثرة المسح بالأيدي، ولعل الذي اندرس بعضه، قال الخطيب: فإني رأيت أثر القدمين فيه * إن أثر القدم في الصخرة الصماء آية. وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاء هذا الأثر دون آثار سائر الأنبياء آية لإبراهيم خاصة. وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين. وأهل الكتاب والملاحدة أوفاً من السنين آية. وكذا في الغرائب * وفي السمين: وقال ابن عطية والراجح عندي أن المقام، وأمن الداخلين جُعلاً مثلاً لما في حرم الله تعالى من الآيات وخصاً بالذكر لعظمتها، وأنها تقوم بها الحججة على الكفار إذ هم مدركون لهاتين الآيتين بجواستهم، وقوله: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آهِناً» أي ومن الآيات أن من دخله أمن على نفسه ما دام فيه. قلت: ومنها آيات: الصفا، والمروة والركن والحطيم وزمزم والمشاعر كلها. ومنها إذا كان الغيث من ناحية الركن اليماني كان الخصب باليمن، وإذا كان بناحية الشامى كان الخصب بالشام، وإذا عمّ البيت كان الخصب في جميع البلدان * وفي الطبرى: في قوله: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آهِناً» قال قتادة: وهذا كان في الجاهلية كان الرجل لو جرّ كل جريرة على نفسه ثم لجأ إلى حرم الله لم يتناول، ولم يطلب، فأتم في الإسلام فلا يمنع من حدود الله. من سرق فيه قطع، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد. ومن قتل فيه قُتل * وعن قتادة: أن الحسن كان يقول: إن الحرم لا يمنع من حدود الله، لو أصاب حداً في غير الحرم فلجأ إلى الحرم لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد. وقال مجاهد: في الرجل الذي يقتل ثم يدخل الحرم. قال: يؤخذ

فيخرج من الحرم. ثم يقام عليه الحد. يقول القتل. فيكون الأمن في الآية بناء على هذه الأقوال مخصوصاً في الجاهلية. فقد كان الحرم مفزع كل خائف، وملجأ كل جان لأنه لم يكن يهاج به ذو جريرة، ولا يعرض الرجل فيه لقاتل أبيه وابنه بسوء. وروى أن ابن الزبير قد أخرج من لجأ من العيون إليهم، فصلبهم بعد أن نهأه ابن عباس عن ذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: من أحدث حدثاً ثم استجار بالبيت فهو آمن، ليس للمسلمين أن يعاقبوه على شيء إلى أن يخرج، فإذا خرج أقاموا عليه الحد. وقال ابن عمر: لو وجدت قاتل عمر في الحرم ما هجته. وحدث الليث عن عطاء أن الوليد بن عتبة أراد أن يقيم الحد في الحرم، فقال له: عبيد عمير لا تقم عليه الحد في الحرم إلا أن يكون أصابه فيه. وقال عامر: إذا أصاب الحد ثم هرب إلى الحرم فقد أمن، فإذا أصابه في الحرم أقيم عليه في الحرم. وحدث مجاهد عن ابن عباس قال: إذا أصاب الرجل الحد، قتل أو سرق فدخل الحرم، لم يسابع ولم يؤو حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحد. وهذا ما أخذ به أبو حنيفة رضي الله عنه. قال الطبري: وأولى الأقوال عندنا بالصواب قول ابن الزبير ومجاهد والحسن ومن قال معنى ذلك ومن دخله من غيره فمن لجأ إليه عائداً به كان آمناً ما كان فيه، ولكنه يخرج منه فيقام عليه الحد إن كان أصاب ما يستوجه في غيره ثم لجأ إليه، وإن كان أصاب فيه أقيم عليه فيه، فتأويل الآية إذا «فيه آيات بينات مقام إبراهيم» ومن يدخله من الناس مستجيراً به يكن آمناً مما استجار منه ما كان فيه حتى يخرج منه. قلت: وجهور العلماء على أن الحدود تقام في الحرم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل ابن خطل وهو معلق بأستار الكعبة. وقيل المراد «ومن دخله كان آمناً» أي من النار. (*)

قال الله تعالى: «فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف» «أولم يروا أننا جعلنا حرمًا آمناً ويتخطف الناس من حولهم» وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها، وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، وفي حديث فتح مكة [لا يعضد شوكة، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يحتل خلاها] فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم وليبوتهم فقال: [إلا الأذخر] وروى مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [لا يحمل لأحد أن يحمل السلاح بمكة] وقال يحيى بن بن جعدة بن هبيرة، في قوله

تعالى: «وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» قال: آمناً من النار. وقوله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» هذه آية وجوب الحج عند الجمهور، وقيل بل هي قوله: «وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ» والأول أظهر. والمعنى: والله على من استطاع من الناس حج البيت، ويجوز أن ينوى الاستئناف بمن والخبر أو الجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: من استطاع إليه سبيلاً فالله عليه حج البيت. هذا قول الفراء، وقال ابن الأنباري: يحتمل أن يكون محله رفعاً على البيان كأنه قيل من الناس الذين عليهم الله حج البيت؟ فقيل: هم من استطاع. والضمير في إليه. للبيت أو الحج. واستطاعة السبيل إلى الشيء هي إمكان الوصول إليه، واحتج أصحاب الشافعي بالآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع لأن الناس يعم المؤمن والكافر، وعدم الإيمان لا يصلح أن يكون معارضاً ومخصصاً لهذا العموم لأن الدهري مكلف بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم مع أن شرط صحة الإيمان غير حاصل. والمحدث مكلف بالصلاة مع أن الوضوء الذي هو شرط صحة الصلاة ليس بحاصل. واعلم أن الحج ركن من أركان الإسلام لا يجب بأصل الشرع في العمر إلا مرة واحدة لما روى عن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج]. فقام الأقرع بن حابس فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها، الحج مرة فمن زاد فتطوع] وقد يجب أكثر من مرة واحدة لعارض كالنذر والقضاء.

* ((ما هي الشروط التي يصح بها الحج ؟)) *

لصحة الحج على الإطلاق شرط واحد، وهو الإسلام، فلا يصح حج الكافر كصومه وصلاته، ولا يشترط فيها التكليف بل يجوز للولي أن يحرم عن المجنون وعن الصبي الذي لا يميز، وحينئذ يصح حجها لما روى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بامرأة وهي في محفتها فأخذت بعضد صبي كان معها فقالت: ألهذا حج؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نعم، ولك أجر] وعن جابر قال: حججنا مع النبي صلى الله عليه وسلم، ومعنا النساء والصبيان، فلبينا عن الصبيان، ورمينا عنهم. ولصحة المباشرة شرط زائد على الإسلام. وهو التمييز، فلا تصح مباشرة الحج من المجنون والصبي الذي لا يميز كسائر العبادات، ويصح من الصبي المميز أن يحرم ويحج بإذن الولي، ولا يشترط فيها الحرية كسائر العبادات. ولو وقع عن حجة الإسلام شرطان زائدان: البلوغ والحرية لقوله صلى الله عليه وسلم: [أيما صبي حج ثم بلغ فعليه حجة الإسلام، وأيما عبد حج ثم عتق فعليه حجة الإسلام] والمعنى فيه أن الحج عبادة عُمر لا تتكرر، فاعتبر وقوعها في حالة الكمال، ولأن التكليف تابع للتمييز، فشرط هذا الحكم إذن يعود إلى ثلاثة: الإسلام والتكليف والحرية. ولو تكلف الفقير الحج وقع حج الإسلام شرط زائد على الثلاثة المذكورة آنفاً وهو الاستطاعة بالآية: والاستطاعة نوعان: استطاعة مباشرته بنفسه، واستطاعة تحصيله بغيره: النوع الأول. يتعلق به أمور أربعة: أحدهما. الراحة، والناس قسمان: أحدهما من بينه وبين مكة مسافة القصر، فلا يلزمه الحج إلا إذا وجد راحة سواء كان قادراً على المشي، أو لم يكن لما روى أنه صلى الله عليه وسلم فسّر استطاعة السبيل إلى الحج بوجود الزاد والراحة. نعم لو كان قادراً على المشي يستحب له أن لا يترك الحج. وعند مالك القوي على المشي يلزمه الحج، ويعتبر مع وجدان الراحة وجدان المحمل أيضاً إن كان لا يستمسك على الراحة، ويلحقه مشقة شديدة، ثم العادة جارية بركوب اثنين في المحمل، فإن وجد مؤنة محمل أو شق محمل، ووجد شريكاً يجلس في الجانب الآخر لزمه الحج، وإذ لم يجد الشريك فلا، القسم الثاني: من ليس بينه وبين مكة مسافة القصر، فإن كان قوياً على المشي لزمه الحج، وإلا فلا يجب إلا مع الراحة، أو معها ومع المحمل، كما في حق البعيد، والمراد بوجود الراحة أن يقدر على تحصيلها ملكاً أو استنجاراً بثمان المثل، أو بأجرة المثل وكذا في المحمل. المتعلق الثاني. الزاد وأوعيته، وما

يحتاج إليه في السفر مدة ذهابه وإيابه سواء كان له أهل أو عشيرة يرجع إليهم أولاً، فحب الوطن من الإيمان، وكذا الراحلة للإياب وأجرة البذرة. كل ذلك بعد قضاء الديون جميعها، وردّ الودائع ونفقة من يلزمه نفقتهم حينئذ إلى العود، وبعد مؤن النكاح إن خاف العنت وبعد مسكنه، ودست ثوب يليق به، وخدام يحتاج إليه لزمانته أو لمنصبه، ولو كان له رأس مال يتجر فيه وينفق من ربحه ولو نقص لبطلت تجارته، أو كان له مستغلات يرتفق منها نفقته فالأصح عند الأئمة أنه يكلف بيعها لأنه واجد للزاد والراحلة في الحال، ولا عبرة لخوف الفقر في الاستقبال. المتعلق الثالث: الطريق ويشترط فيه غلبة ظن الأمن على النفس من نحو سبغ وعدو، والأمن على المال من عدو أو رصدى وإن رضى بشيء يسير، والأمن على البضع للمرأة بخروج زوج أو محرم أو نسوة ثقات، وفي البحر يعتبر غلبة السلامة. وفي البر وجود علف الذابيه المتعلق الرابع. البدن ويشترط فيه أن يقوى على الاستمسك على الراحلة فإن ضعف عن ذلك لمرض أو غيره فهو غير مستطيع للمباشرة، ولا بد للأعمى من قائد، وعند أبي حنيفة لا حج عليه، ويروى أنه يستنيب. قال الأئمة: لا بد مع الشرائط من إمكان المسير، وهو أن يبقى من الزمان بعد الاستطاعة ما يمكنه المسير فيه إلى الحج به: السير المعهود، فإن احتاج إلى أن يقطع في يوم مرحلتين أو أكثر لم يلزمه الحج، ولو خرجت الرفقة قبل الوقت الذي جرت عادة أهل بلده بالخروج فيه لم يلزمه الخروج معهم ووجوب الحج في العمر مرة كالصلاة في وقتها، فيجوز التراخي، لكنه إن دامت الاستطاعة وتحقق الإمكان، ولم يحج حتى مات عصى الله على الأظهر، وإن كان شاباً. وقال أحمد ومالك وأبو حنيفة في رواية أنه على الفور حجة الشافعى أن فريضة الحج نزلت سنة خمس من الهجرة وأخره النبي صلى الله عليه وسلم من غير مانع، فإنه خرج سنة سبع لقضاء العمرة ولم يحج، وفتح مكة سنة ثمان وبعث أبا بكر أميراً على الحاج سنة تسع، وحج هو سنة عشر، وعاش بعدها ثمانين يوماً. وأما النوع الثاني. فهو عن الإستتابة لأن المحجوج عنه قد يكون عاجزاً عن المباشرة بسبب الموت، أو الكبر أو زمانة أو مرض لا يرجى زواله، وعن ابن عباس أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله: إن أختي نذرت أن تحج وماتت قبل أن تحج أفأحج عنها؟ فقال: [لو كان على أختك دينٌ أكنت قاضيه؟] قال: «نعم» وقد تكون الإستتابة بطريق الاستتجار لأنه عمل يدخله النيابة، فيجرى فيه الإستتجار كتفريق الزكاة، وعند

أبي حنيفة وأحمد لا يجوز، ولكن يرزق عليه، ولو استأجر كان ثواب النفقة للآمر، وسقط عنه الخطاب بالحج، ويقع الحج عن الحاج، والحج بالرزق أن يقول حج عنى وأعطيتك نفقتك، وهذا أيضاً جائز عند الشافعي كالإجارة، ولكن لا يجوز أن يقول استأجرتك بالنفقة لأنها مجهولة، والأجرة لا بد أن تكون معلومة وقوله: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» أي الإنس والجن والملائكة وعن عبادتهم، يعني ومن جحد ما ألزمه الله من فرض حج بيته وكفر به، فإن الله غني عنه وعن حجه وعمله وجميع خلقه. وقيل: نزلت فيمن وجد ما يحج ولم يحج فهو كفر به لما روى عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً، وذلك أن الله تعالى يقول: «وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلاً» أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفي اسناده مقال. وقيل: نزلت في اليهود وغيرهم من أصحاب الملل حيث قالوا: إنا مسلمون فنزلت: «وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ» فلم يحجوا، وقالوا الحج إلى مكة غير واجب وكفروا به، فنزلت: «وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» والله أعلم.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ» * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا

وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»
سورة آل عمران (الآية: ١٠٠ - ١٠٥)

في الواحدى: قال عكرمة: كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال في الجاهلية، فلما جاء الإسلام اضطلحوا وألّف الله بين قلوبهم، وجلس يهودى في مجلس فيه نفر من الأوس والخزرج، فأنشد شعراً قاله أحد الحيين في حربهم، فكأنهم دخلهم من ذلك، فقال الحى الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا كذا كذا، فقال الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا كذا وكذا، فقالوا: تعالوا نرد الحرب جذعاً كما كانت، فنادى هؤلاء: يا آل أوس، ونادى هؤلاء: يا آل خزرج، فاجتمعوا وأخذوا السلاح، واصطفوا للقتال، فنزلت هذه الآية، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنصتوا وجعلوا يستمعون، فلما فرغ ألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً، وجعلوا يبكون، قال جابر بن عبد الله: ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيت يوماً أقيح ولا أوحش أولاه، وأحسن آخره من ذلك اليوم. وفي الخطيب: ولما مرّ شاس بن قيس اليهودى، وكان شيخاً عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم. على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مسجد لهم يتحدّثون، فغاضه ذلك حيث تآلفوا، واجتمعوا بعد الذى كان بينهم في الجاهلية من العداوة. وقال: مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم، ويذكرهم يوم بعث - وهو موضع بالمدينة - وينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار، وكان يوماً اقتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس، ففعل، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، فقال: [أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، وألّف بينكم] فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيدهم من عدوهم، فألقوا السلاح وبكوا، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين. نزل: «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب» أى شاساً وأصحابه: ... وفي الطبرى: عن السدى قال: نزلت في ثعلبة بن غنمة الأنصارى.

كان بينه وبين أناس من الأنصار كلام، فشى بينهم يهودى من قينقاع فحمل بعضهم على بعض حتى همت الطائفتان من الأوس والخزرج أن يحملوا السلاح، فيقاتلوا فأنزل الله عز وجل: «إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ..» يقول: إن حملتم السلاح فاقتلتهم كفرتم * وعن مجاهد: قال: كان جماع قبائل الأنصار بطنين: الأوس والخزرج. وكان بينهما في الجاهلية حروب ودماء، وشتان — تباغض — حتى من الله عليهم بالإسلام وبالنبي صلى الله عليه وسلم، فأطفأ الله الحرب التي كانت بينهم، وآلف الله بينهم بالإسلام، قال: فبينما رجل من الأوس والخزرج قاعدان يتحدثان ومعهما يهودى جالس.. الخ... ما تقدم حتى قوله: وضعوا السلاح، فأنزل الله عز وجل القرآن في ذلك: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» إلى قوله: «عَذَابٌ عَظِيمٌ» كذا في الطبرى. وكذا في بقية التفاسير. لكن في ابن كثير. وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تشاوروا في قضية الإفك. والله أعلم. وقوله: «يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ» تقدم قول جابر رضى الله عنه: ما رأيت يوماً أفجع أولاً ولا أحسن آخرًا مثل ذلك اليوم. ثم قال تعالى على وجه التعجب والانكار والتوبيخ: «وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ» أى ولم تكفروا، وعبارة أبى السعود في توجيه الانكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر مبالغة، لأن كل موجود لا بد أن يكون وجوده على حال من الأحوال، فإذا أنكر ونفى جميع أحوال وجوده، انتفى وجوده بالكلية على الطريق البرهاني * والمعنى: من أين يدخل إلى قلوبكم الكفر بعد الإيمان والحال أن آيات الله تتلى عليكم على لسان الرسول في كل واقعة، ومقيم بين أظهركم يبين لكم ما يشتهه عليكم، ويزيل عنكم كل علة، ومع هذين النورين لا يبقى لظلمة الضلال عين ولا أثر فعليكم أن لا تلتفتوا إلى قول المخالف، وترجعوا فيما يعنُّ لكم إلى الكتاب والنبي صلى الله عليه وسلم. قال صاحب الغرائب: أما الكتاب فإنه باق على وجه الدهر، وأما النبي صلى الله عليه وسلم وورثته يقومون مقامه بحسب الظاهر أيضاً، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم [إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا: كتاب الله وعترتي] وقال: [إن العلماء ورثة الأنبياء] اللهم اجعلنا من زميرهم بعصمتك وهدايتك. وفي هذا بشارة لهذه الأمة أنهم لا يضلون أبداً إلى يوم القيامة * قلت: ما داموا معتمدين بحبل الله وستة نبيه صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ» أى يستمسك بالله أى بحبله وهو القرآن أو ومن

يستمسك بدينه، أو يلتجئ إليه في مجامع أموره: «فَقَدْ هُدِيَ» أى فقد حصل له الهدى لا محالة لأن المعتصم بالله متوقع للهدى. كما أن قاصد الكرم متوقع للفلاح عنده: «إلى صراط» أى إلى طريق: «مُسْتَقِيم» واضح وهو الحق المؤدى إلى الجنة، وقوله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ» لما بين ضلال الكفار في أنفسهم، وضلالهم لغيرهم شرع في بيان يكمل المؤمنين لأنفسهم بهذه الآية ولغيرهم كما أتى. وقوله: «حَقُّ تَقَاتِهِ» فسر ابن عباس: «حَقُّ تَقَاتِهِ» بقوله: (وهو أن يطاع الله فلا يُعصى طرفه عين. وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا يُنسى) أو هو القيام بالواجبات كلها، والاجتناب عن المحارم بأسرها، وأن لا يأخذ في الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه. أو والوالدين والأقربين. ولما نزلت: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ» شق ذلك على المسلمين فنزلت: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» والجمهور على أنها غير منسوخة، لأن معنى حق تقاته: واجب تقواه. تقاة: مصدر وهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها. إذ الأصل اتقوا الله اتقاء الحق. أى الشابتة كقوله: ضربت زيدا أشدَّ الضرب، تريد الشديد. أى وكما يحق أن يتقى. وهو أن يجتنب جميع معاصيه، ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ، وإلا كان إباحة لبعض المعاصي. وقوله: «وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» ليس نهياً عن الموت، وإنما هو نهى عن أن يدركهم الموت على خلاف حال الإسلام. والمراد دوامهم على الإسلام. وذلك أن الموت لا بد منه، فكأنه قيل: داوموا على الإسلام إلى الموت. والجملة في محل نصب على الحال، والاستثناء مفرغ من الأحوال العامة. أى لا تموتن على حالة من سائر الأحوال إلا على هذه الحالة الحسنة، وجاءت الحالة جملة اسمية لأنها أبلغ وأكد. ثم إنه تعالى أمرهم بما هو كأصل لجميع الخيرات وإصلاح المعاش والمعاد، وهو الاجتماع على التمسك بدين الله، واتفاق الآراء على إعلاء كلمته فقال: «وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً» حال كونكم مجموعين. وقولهم: اعتصمت بحبله، يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به، وثوقه بعنايته باستمسك المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه لأن وجه الشبه وصف غير حقيقي، ومنتزع من عدة أمور، ويجوز أن يكون الحبل استعارة للعهد والاعتصام. وثوقه بالعهد بناء على أن في الكلام تشبيهين، ويجوز أن تفرض الاستعارة في الحبل فقط، ويكون الاعتصام ترشيحاً لها. والحاصل: أن طريق الحق دقيق والسائر عليه غير مأمون أن تنزل قدمه عن الجادة، فيراد بالحبل ههنا ما يتوصل به إلى الثبات على الحق، وإن

كانت عبارات المفسرين متخالفة، فعن ابن عباس: هو العهد كما يجيء إلاّ يجبل من الله وحبل من الناس، وقيل: إنه القرآن كما روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [أما إنها ستكون فتنة] قيل: فما المخرج منها؟ قال صلى الله عليه وسلم [كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو حبل الله المتين] وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم [هذا القرآن حبل الله] وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم [إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله حبل متين، ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي] وقيل: إنه طاعة الله. وقيل إخلاص التوبة. وقد جرى الجلال على أنه دين الله أو كتابه لقوله صلى الله عليه وسلم [القرآن حبل الله] رواه الحاكم وصححه. استعار له الحبل من حيث أنّ التمسك به سبب للنجاة عن التردى، كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة عن التردى والاعتصام للوثوق به والاعتماد عليه، ترشيحاً للمجازة وقوله: «جميعاً ولا تفرّقوا» بعد الإسلام. والعطف للمغايرة لأنه نهى عن التفرّيق في الابتداء، والحق لا يكون إلاّ واحداً. وما بعد الحق إلاّ الضلال. ويد الله مع الجماعة بالنصر والتأييد قال صلى الله عليه وسلم [ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة. الناجي منهم واحد] فقيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: [الجماعة] وروى: السواد الأعظم. وروى [ما أنا عليه وأصحابي] وقال صلى الله عليه وسلم [لا تجتمع أمتي على الضلالة] ثمّ إنه تعالى: ذكرهم نعمته عليهم، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية بينهم الإيمن والبغضاء والحروب المتطاولة فقال: «وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» يامعشر الأوس والخزرج: «إِذْ كُنْتُمْ» قبل الإسلام: «أَعْدَاءً فَأَلَّفَ» جمع: «بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» بالإسلام: «فَأَصْبَحْتُمْ» فصرتم: «بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» متراحين، متناصحين مجتمعين على أمر واحد، وهو الأخوة في الله جعلت بينهم رابطة أقوى من رابطة النسب، وقيل: هم الأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأمّ، فوقع بينهما العداوة بسبب قتل، وتناولت الحرب والعداوة بينهم مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام، وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا» أى طرف في المصباح: وشفا كل شيء حرفة مثل النوى وفي السمين. الشفا طرف الشيء وحرفته: «حُفْرَةٌ مِنَ النَّارِ» أى حفرة ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلاّ أن تموتوا كفاراً: «فَاتَّقَدُوا مِنْهَا» أى من الشفا لأنه المحدث عنه، وتأنيث الضمير لاكتساب

المضاف التأنيث من المضاف إليه. أى بالإسلام: «كَذَلِكَ» أى مثل ذلك البيان السليغ: «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ» أى دلالته: «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» إرادة أن تزدادوا هدى: «وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ» أى إلى الإسلام: «وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» والمعنى: ولتكن منكم أيها المؤمنون أمة أي جماعة يدعون الناس إلى الخير أى إلى الإسلام وشرائعه التي شرعها الله لعباده، ويأمرون بالمعروف. أى يأمرون الناس ابتاع محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الذي جاء به من عند الله. وينهون عن المنكر أى وينهون عن الكفر بالله والتكذيب بمحمد وبما جاء به من عند الله بجهادهم بالأيدى والجوارح حتى ينقادوا لكم بالطاعة: «أُولَئِكَ» الداعون الآمرون الناهون: «هُمُ الْمُفْلِحُونَ» الفائزون بكمال الفلاح. روى الإمام أحمد وغيره أنه صلى الله عليه وسلم سئل وهو على المنبر: من خير الناس؟ قال [آمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم للرحم] وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان] وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال [والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده، ثم لتدعته فلا يستجاب لكم] رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من حديث عمرو بن أبى عمرو به، وقال الترمذى: حسن لذا يجب على كل مكلف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إما بيده أو بلسانه أو بقلبه. فعلى هذا يكون معنى الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، ومن قال بهذا القول يقول: إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية إذا قام به واحد سقط الفرض به عن الباقيين. وقيل: إن من من قوله: «منكم» للتبويض، وذلك لأن فى الأمة من لا يقدر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعجز أو ضعف، فحسن إدخال لفظ من فى قوله: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير.» وهم العلماء خاصة وولاية الأمر فعلى هذا يكون المعنى ليكون بعض الأمة القادرين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يقوموا بذلك، ويكون الفلاح حليفهم روى البخارى عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال [مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذى فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن

تركوهم وما أرادوا هلكو جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً] وقوله تعالى: «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا» يعنى ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تفرقوا يعنى أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى فى قول أكثر المفسرين، قال الربيع فى هذه الآية: هم أهل الكتاب نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا ويختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات فى الدين وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأمة: «مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ» يعنى الحجج الواضحات، فعلموها ثم خالفوها: «وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» يعنى لهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا عذاب عظيم فى الآخرة. وفيه زجر عظيم للمؤمنين عن التفرق والخلاف عن أبى ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [من فارق الجماعة شبراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه] وعن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْكُنَ بِمَجْبُوحَةِ الْجَنَّةِ فَعَلِيهِ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْفَيْدِ، وَهُوَ مِنَ الْإِثْنَيْنِ أَبْعَدُ] ربقة الإسلام: عقد الإسلام. مجبوحه الجنة: وسطها. والفد: الواحد.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ... » سورة آل عمران (الآية: ١١٠)

فى الواحدى : قال عكرمة ومقاتل: نزلت فى ابن مسعود وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة، وذلك أن مالك بن الصيِّف وهب بن يهودا: اليهوديين قالاهم: إنَّ ديننا خير ممَّا تدعوننا إليه، ونحن خير وأفضل منكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد تقدّم الكلام عنها.

* ((من هم أهل الخَيْرِية ؟)) *

فى القرطبى: قال أبوهريرة رضى الله عنه: نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام وقال ابن عباس: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وشهدوا بدرًا والحديبية وقال عمر بن الخطاب: من فعل فعلهم كان مثلهم وقيل: هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم يعنى الصالحين منهم وأهل الفضل، وهم الشهداء على النَّاسِ يوم القيامة ... وقال مجاهد كنتم خير أمة إذا أمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكره وقد بين

الحديث الشريف أن أول الأمة هي أفضل الأمم فقال عليه الصلاة والسلام: [خيرُ القرون قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم] وقيل: إن قرنه صلى الله عليه وسلم إنما فضّل لأنهم كانوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم، وتمسكهم بدينهم، وإن أواخر هذه الأمة إذا أقاموا الدين وتمسكوا به، وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشرِّ والفسق والهرج والمعاصي والكبائر كانوا عند ذلك أيضاً غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الوقت كما زكت أعمال أوائلهم. وما يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام: [بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ فطوى للغرباء] وروى أن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة كتب إلى سالم بن عبدالله: أن اكتب إليّ بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها، فكتب إليه سالم: إن عملت بسيرة عمر فأنت أفضل من عمر لأنّ زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر، قال: وكتب إلى فقهاء زمانه فكلهم كتب إليه بمثل قول سالم وقد عارض بعض الجلّة من العلماء قوله صلى الله عليه وسلم: [خير الناس قرني] بقوله صلى الله عليه وسلم: [خير الناس من طال عمره وحسن عمله، وشرُّ الناس من طال عمره وساء عمله] لكن في الطبري: قال عمر بن الخطاب: لو شاء الله تعالى أنتم فكنّا كلنا، ولكن قال: «كنتم» في خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صنع مثل صنيعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكره فيستوى حينئذ أول هذه الأمة بآخرها بفضل العمل إلاّ أهل بدر والحديبية، ومن تدبّر آثار هذا الباب بان له الصواب، فعن درة بنت أبي لهب قالت: قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله أئى الناس خير؟ قال: [خيرُ الناس أقرأهم وأتقاهم لله وأمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم] رواه أحمد في مسنده، والنسائي في سنته والحاكم في مستدركه.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَىٰ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ»
 ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ
 وَبِأَوْ بَغَضٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
 يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
 يَعْتَدُونَ» سورة آل عمران (الآية: ١١١، ١١٢)

في الواحدى: قال مقاتل: إن رؤوس اليهود: كعب، وعدى، والنعمان، وأبورافع وأبوياسر وابن صوريا عمدوا إلى مؤمنهم: عبدالله بن سلام وأصحابه فأذوهم لإسلامهم فأنزل الله تعالى هذه الآية: وكذا في الخازن: وليس في بقية التفاسير غير الذي ذكرنا. قوله: «لَنْ يَضُرُّوكُمْ» أي اليهود يا معشر المسلمين بشيء «إِلَّا أَدَى» باللسان من سب ووعيد أي مجرد لقلقة لسان «وَأَنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلِّتُوكُمْ الْأُدْبَارَ» منهزمين. وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلتهم الله وأرغم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة. بنى قينقاع وبنى التضير وبنى قريظة كلهم أذلم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم، وهو كذلك، ويحكم بملة الإسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام، «ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ» عليكم بل لكم النصر عليهم «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْتَمًا تُفِيقُوا» حيثما وجدوا، فلا عز لهم ولا اعتصام في سائر أحوالهم، فقد أهدرت أنفسهم، وأبيحت أموالهم، وسبى أهلهم، أو ضرب الجزية عليهم «إِلَّا» في حال اعتصامهم «بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ» أي إلا بعهد من الله وهو أن يسلموا فتزول عنهم الذلة «وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ» المؤمنين، وهو عهدهم إليهم بالأمان على أداء الجزية، أي لا عز لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية «وَبَأْوًا» رجعوا «بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ» أي مستوجبين له «وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ» كما يضرب البيت على أهله، فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها يظهرون الفقر والمسكنة. وأكثر المفسرين على أن معنى المسكنة: الجزية. وهم اليهود أي فلا منعة لهم «ذَلِكَ» أي ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب كائن «بِأَنَّهُمْ» أي بسبب أنهم «كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ» أي الكفر والقتل «بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ» أي كائن بسبب عصيانهم، واعتدائهم بقتل الأنبياء وتعدي حدود الله تعالى، فإن الإصرار على الصغائر يفضى إلى الكبائر، والإصرار على الكبائر — والعياذ بالله — يفضى إلى الكفر. قال القرطبي: الآية وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن أهل الكتاب لا يغلبونهم، وأنهم منصورون عليهم لا يناههم منهم اصطلام — استئصال — إلا إيذاء بالبهت والتحريف، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين. ويستقيم هذا القول إذا كان

الإستثناء متصلأً، أما إذا كان منقطعاً فإنهم لن ينألوا من المؤمنین البتة، لكن يؤذونهم بما يسمعونهم من كلمة الكفر، وقولهم في عيسى وأمه وعزير، ودعاؤهم إياكم إلى الضلالة، ولا يضرؤنكم بذلك، وهذا من الاستثناء المنقطع الذي هو مخالف معنى ما قبله كما قيل: ما اشتكى شيئاً إلاً خيراً. وهذه الكلمة محكية عن العرب سماعاً. قال قتادة: لن يضرؤنكم إلاً أذى تسمعونه منهم وهو قول الربيع أيضاً. وقال ابن جريج: «لن يضرؤنكم إلاً أذى» إشراكهم في عزير وعيسى. وقال الحسن: تسمعون منهم كذباً على الله و يدعونكم إلى الضلالة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))*

«لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ» * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١١٣، ١١٤)

في الواحدى: قال ابن عباس ومقاتل: لما أسلم عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سعنة، وأسيد بن سعنة وأسد بن عبيد، ومن أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن محمد إلاً شرارنا، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم، وقالوا لهم: لقد خنتم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره، فأنزل الله تعالى «لَيْسُوا سَوَاءً» الآيات. وقال ابن مسعود: نزلت الآية في صلاة العتمة يصلها المسلمون، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصلها. وعن ابن مسعود قال: أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة، فقال: إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله في هذه الساعة غيركم. قال: فأنزلت هذه الآية «لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ» إلى قوله «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» ونحو القول الأول في الخطيب والجلال. وفي أبي السعود: وقيل: هم أربعون رجلاً من نصارى نجران، واثنتان وثلاثون من الحبشة، وثلاثة من الروم، كانوا على دين عيسى، وصدقوا محمداً صلى الله عليه وسلم، وكان من الأنصار فيهم عدة قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم. منهم: سعد بن زرارة والبراء بن

معروور، ومحمد بن مسلمة، وأبوقيس: صرمة بن أنس رضي الله عنهم كانوا موحدّين يغتسلون من الجنابة، ويقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية حتى بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم فصدهٗ ونصروه. وفي ابن كثير ذكر سبب انتظار الصلاة، ثم قال: والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبدالله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم. وكذا في الخازن. وفي قوله: «لَيْسُوا سَوَاءً» قولان:

أحدها: أنه كلام تام يوقف عليه، والمعنى أن أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ليسوا سواء. وقيل: معناه لا يستوى اليهود وأمة محمد صلى الله عليه وسلم القائمة بأمر الله، الثابتة على الحق.

والقول الثاني: أن قوله: «لَيْسُوا سَوَاءً» متعلق بما بعده ولا يوقف عليه.

وفي السمين: الظاهر في هذه الآية أن الوقوف على سواء تام، فإن الواو اسم ليس، وسواء خبر والواو تعود على أهل الكتاب المتقدم ذكرهم. والمعنى أنهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر. لقوله: منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. فانتنى استواؤهم. وسواء في الأصل مصدر، فلذلك وحده وعبارة أبي السعود: ليسوا سواءً جملة مستأنفة سبقت تمهيداً وتوطئة لتعداد محاسن مؤمنى أهل الكتاب. وتذكيراً لقوله تعالى: «منهم المؤمنون» والضمير في ليسوا لأهل الكتاب جميعاً لا للفاسقين خاصة، وهو اسم ليس خبره سواء، وإنما أفرد لأنه في الأصل مصدر، وقوله: «من أهل الكتاب أمة قائمة» استئناف مبين لكيفية عدم تساويهم ومزيل لما فيه من الإبهام، كما أن ما سبق من قوله تعالى: «تأمرن بالمعروف» الخ. مبين لقوله: «كنتم خير أمة» الخ. لكن في الطبري عن ابن مسعود أنه كان يقول في قوله: «لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» قال: لا يستوى أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم. وعن السدي: «لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» الآية. يقول: ليس هؤلاء اليهود كمثل هذه الأمة التي هي قائمة ومعنى قائمة: مستقيمة على الهدى وكتاب الله وفرائضه وشرائع دينه بالعدل والطاعة وغير ذلك من أسباب الخير من صفة أهل الاستقامة على كتاب الله وستة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونظير ذلك الخبر الذي رواه النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينة..] ثم ضرب لهم

مثلاً، فالقائم على حدود الله هو الثابت على التمسك بما أمره الله به، واجتناب ما نهاه الله عنه، فتأويل الكلام: من أهل الكتاب جماعة معتصمة بكتاب الله متمسكة به ثابتة على العمل بما فيه، وما سنَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله: «يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ» أي يقرؤون كتاب الله، وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم «آنَاءَ اللَّيْلِ» أي في ساعاته «وَهُمْ يَسْجُدُونَ» يصلون، لأن التلاوة لا تكون في السجود، والجملة حال من فاعل يتلون. وقيل: هي صلاة التهجد بالليل، وقيل: هي صلاة العشاء، لأن اليهود لا يصلونها، وقيل: يحتمل أنه أراد بالسجود الخضوع والخشوع لأن العرب تسمى الخشوع سجوداً. «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» وذلك أن إيمان أهل الكتاب فيه شرك، و يصفون اليوم الآخر بغير ما يصفه المؤمنون. وقيل: إنَّ الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله، واليهود يؤمنون ببعض الأنبياء و يكفرون ببعض، والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من فعل المعاصي، واليهود لا يحترزون منها، فلم يحصل الإيمان الخالص بالله واليوم الآخر «وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» يعني غير مدهنين كما يدهن اليهود بعضهم بعضاً، وقيل: يأمرون بالمعروف: يعني بتوحيد الله تعالى والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وينهون عن المنكر: يعني عن الشرك، وعن كتم صفة محمد صلى الله عليه وسلم «وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ» المسارعة في الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمر يسارع توليه والقيام به. أي يبادر مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات القاصرة والمتعدية. فإن قيل: أليس أن العجلة مذمومة كما قال صلى الله عليه وسلم: [العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن] فما الفرق بين السرعة والعجلة؟ فالجواب: أن السرعة مخصوصة بأن يُقدَّم ما ينبغي تقديمه، والعجلة مخصوصة بأن يقَدِّم ما لا ينبغي تقديمه، فالمسارعة مخصوصة بفرط الرغبة فيما يتعلق بالدين لأن من رغب في الآخرة آثر الفور على التراخي. قال تعالى: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» مع أن العجلة ليست مذمومة على الإطلاق قال تعالى: «وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّي لِتَرْضَى»: الكرخي. الموصوفون بما ذكر «وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ» ومنهم من ليسوا كذلك. أي ليسوا موصوفين بالصفات السابقة بل بأضدادها. أي أن ذكر أحد الضدَّين يُغني عن ذكر الآخر. والمراد بالصلحين ممن صلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقوا رضاه وثنائه والجنة، ومن باب مفهوم المخالفة أن الأمم الأخرى من اليهود والنصارى غير قائمة على الحق بل منحرفون

عنه، غير متعبدين بالليل، ملحدون في صفاته لا يؤمنون باليوم الآخر كما ينبغي الإيمان به من شفاعة المصطفى صلى الله عليه وسلم... متشاكلين عن فعل الخيرات «وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ» أي تعدموا ثوابه. بل تجازون عليه، والخطاب للأمة القائمة «والله عليمٌ بالمتقين» بشارة لهم، وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل، وإن الفائزين عند الله هم أهل التقوى.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))*

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ»
سورة آل عمران (الآية: ١١٨)

في الواحدى : قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصفون المنافقين ويواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصدقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم * بطانة الرجل ووليجهته: خصيصه ووصفيته الذي يفضى إليه بشؤنه ثقة به. شبه ببطانة الثوب كما يقال: فلان شعارى. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: [الأنصار شعار والناس دثار] رواه الشيخان. والشعار ما يلى الجسد، والدثار فوقه * وفي الطبرى عن مجاهد في قول الله عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» في المنافقين من أهل المدينة. نهى الله عز وجل المؤمنين أن يتولاهم * وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تستضيئوا بنار أهل الشرك، ولا تنقشوا في خواتيمكم عربياً] قال: فلم ندر ما ذلك حتى أتوا الحسن، فسألوه، فقال: نعم، أما قوله: لا تنقشوا في خواتيمكم عربياً فإنه يقول: لا تنقشوا في خواتيمكم محمداً، وأما قوله: ولا تستضيئوا بنار أهل الشرك: فإنه يعنى به المشركين. يقول: لا تستشيرهم في شيء من أموركم. قال الحسن: وتصديق ذلك في كتاب الله ثم تلا هذه الآية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ» * وفي ابن كثير: قيل لعمران الخطاب رضي الله عنه: إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتباً؟ فقال: قد اتخذت

إذا بطانة من دون المؤمنين. قال ابن كثير: في هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعماهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب. ولهذا قال: «لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ» جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى الإجتنب عنهم، أو صفة لبطانة، يقال: آلا في الأمر إذا قصر فيه. ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قولهم: لا آلوك نصحاً، ولا آلوك جهداً على تضمين معنى المنع والنقص. والخبال الفساد، وأصله ما يلحق الحيوان من مرض وفنور فيورثه فساداً واضطراباً، وعبارة السمين: قال ابن عطية: معناه لا يقصرون لكم فيما فيه الفساد عليكم. فعلى هذا يكون الضمير في كاف الخطاب وخبالاً منصوبين على إسقاط الخافض وهو اللام وفي. ومعنى «لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشر والفساد بدعوتهم إياكم إلى الضلالة. وقوله: «وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ» أي يتمنون عنتكم، وهو ما يشق عليكم من الضرر والشر والهلاك. والعنت: المشقة، وهو استئناف مؤكد للنهي، موجب لزيادة الاجتناب «قَدْ بَدَتْ» ظهرت «الْبَغْضَاءُ» العداوة لكم، لأنهم لا يتمالكون ضبط أنفسهم مع مبالغتهم فيه، ومع ذلك يتفلت من ألسنتهم ما يعلم به الطعن بالمسلمين «مِنْ أَفْوَاهِهِمْ» بالوقعة فيكم، واطلاع المشركين على سرّكم «وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ» من العداوة «أَكْبَرُ» متى بدا من أفواههم «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ» الدالة على عداوتهم «إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» ذلك فلا توالوهم.

والمعنى: قد لاح على صفحات وجوههم وفتلت ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل. ولهذا قال تعالى: «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ» ابن كثير: أو إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه، وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم، ومبلغ عائدته عليكم. وقد أكدت الآية الزجر عن الركون إلى الكفار، نهى المؤمنين عن مصانعة أهل الأهواء والدخلاء، وكل من كان على خلاف ديننا أن نسند إليه أمراً من مهمات أمورنا، فيما يتعلق بأسرار دولتنا، أو نشره في البت في آرائنا، وما أحسن قول الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى
وقال ابن مسعود: اعتبروا الناس بإخوانهم. وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي

الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: [المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال] وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشاء واستعينوا على أموركم، وعلى رعييتكم بالذين يخشون الله تعالى. وفي البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى] والحق أن الجمل مستأنفات كلها على جهة التعليل للتهى، فكأنه قيل: لم لا نتخذهم بطانة؟ فقيل: لأنهم لا يقصرون، فقيل: لهم لم يفعلون ذلك؟ قيل: لأنهم يودون عنكم ثم قيل: وما آية ودادة العنت؟ فقيل: قد بدت. والله أعلم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))*

«وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» «سورة آل عمران (الآية: ١٢٢)

في الواحدى: نزلت هذه الآية في غزوة أُحُدٍ وكذا في الخطيب: قاله ابن عباس والسدى وابن اسحاق وقيل: يوم الأحزاب قاله الحسن. والأول أصح لتضافر الأخبار عليه، وبديل الآية التالية لهذه الآية «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا» والطائفتان هما بنو سليم وبنو حارثة بلا خلاف، وقد نزل المشركون أحداً يوم الأربعاء، وكان خروجه صلى الله عليه وسلم إليهم بعد صلاة الجمعة، وأصبح بالشعب يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، ونزل في غدوة الوادى أي جانبه، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وسوى صفوفهم، وأجلس خمسين من الرماة وأمر عليهم عبدالله بن جبير بسفح الجبل، وقال: [انضحوا عتاً بالنبل، لا يأتونا من ورائنا، ولا تبرحوا غلبنا أو نُصِرنا] حدّث الطبرى عن السدى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: أشيروا على ما أضع. فقالوا: يا رسول الله. اخرج إلى هذه الأكلب. فقال الأنصار: يا رسول الله ما غلبتنا عدو لنا أتنا في ديارنا، فكيف وأنت فينا، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله بن أبى ابن سلول، ولم يدعه قط قبلها، فاستشاره، فقال: يا رسول الله

اخرج بنا إلى هذه الأكلب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدخلوا عليه
 المدينة، فيقاتلوا في الأزقة، فأتاه النعمان بن مالك الأنصاري، فقال: يا رسول الله، لا
 تحرمني الجنة، فوالذي بعثك بالحق لأدخلن الجنة، فقال له: بَمَ؟ قال: فإني أشهد أن لا
 إله إلا الله وأنتك رسول الله، وإني لا أفر من الزحف. قال: صدقت. فقتل يومئذ، ثم إنَّ
 رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بدرعه فلبسها فلمَّا رأوه وقد لبس السلاح ندموا،
 فقاموا واعتذروا إليه، وقالوا: اصنع ما رأيت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا
 ينبغى لني أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل * وحدث أيضاً عن ابن شهاب الزهري،
 ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة والحسين، بن عبدالرحمن بن عمر
 وبن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا، قالوا: لمَّا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم
 والمسلمون بالمشركين قد نزلوا منزلهم من أحد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني
 رأيت بقرة (في الخطيب: مذبحه حولي) فأولتها خيراً، ورأيت في ذباب سفي ثلماً (وفي
 الخطيب: فأولته هزيمة) ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة، فأولتها المدينة، فإن
 رأيتم أن تقيموا المدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرمقام، وإن هم دخلوا
 علينا قاتلناهم فيها. وكان رأي عبدالله بن أبي سلول مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،
 يرى رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك أن لا يخرج إليهم، وكان رسول الله صلى
 الله عليه وسلم يكره الخروج من المدينة، فقال رجال من المسلمين: ممن أكرمهم الله
 بالشهادة يوم أحد وغيرهم: ممَّن كان فاته بدر وحضوره، يا رسول الله أخرج بنا إلى
 أعدائنا لا يرون أنا جبتنا عنهم وضعفنا، فقال عبدالله بن أبي سلول: يا رسول الله أقم
 بالمدينة، لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب متاً، ولا دخلها
 علينا قط إلا أصابنا منه، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا
 قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا
 رجعوا خائين كما جاؤا، فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم: الذين كان من
 أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لأمته، فكانت
 تَبَوُّثُهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين مقاعد للقتال ما ذكر من مشورته على
 أصحابه بالرأى الذي ذكرنا على ما وصفه الذين حكينا قولهم * وقوله تعالى: «وَأَذِّ
 عَدُوَّتَ مِنْ أَهْلِكَ» أي من حجرة عائشة رضي الله عنها، أو من المدينة، والغدوُ الخروج

أول النهار، يقال غدا يغدو من باب سما أي خرج غدوة، ويستعمل بمعنى صار عند بعضهم فيكون ناقصاً، يرفع الاسم وينصب الخبر، والمقصود خروجه أول النهار أي بكرة على خلاف ما ذكر من خروجه بعد صلاة الجمعة، فلا يقال لذلك الوقت غدوة، قال عليه الصلاة والسلام: [لو توكلتُم على الله حقّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدّوا خِمَاصاً وتروح بطاناً] ولعل يكون المعنى اللغوي هو المقصود، فالمعنى عليه: وإذ غدوتُ: أي صرت «تُبَوِّءُ للمؤمنين» أي تنزلهم في منازل، وهذا أظهر من المعنى الآخر لأن المذكورة في القصة أنه سار من أهله، بعد صلاة الجمعة، وبات في شعب أحد، وأصبح ينزل أصحابه في منازل القتال ويدبر لهم أمر الحرب. فيكون معنى تبوىء: تنزل. والجمللة يجوز أن تكون حالاً من فاعل غدوت، وهي حال مقدرة، أي قاصداً تبوىء للمؤمنين لأن وقت الغدو ليس وقت للتبوىء، ويحتمل أن تكون حالاً مقارنة لأنّ الزمان متسع. وتبوىء أصله من الباءة. وهي الرجع. واللام في القتال فيها وجهان: أظهرها أنها متعلقة بتبوىء على أنها لام العلة، والثاني: أنها متعلقة بمحذوف لأنها صفة لمقاعد، أي مقاعد كائنة ومهيئة للقتال. ولا يجوز تعلّقها بمقاعد. وإن كانت مشتقة لأنه مكان، والأمكنة لا تعمل. وقوله «والله سميعٌ» لأقوالكم «عليهم» بأحوالكم. ومعلوم أن غزوة أحد كان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرفهم يوم بدر، وسلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبي سفيان قال: أبناء من قتل ورؤساء من بقى لأبي سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد فانفقها في ذلك، فجمّعوا الجموع والأحباش وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أحد... الخ. ما ذكر. وقوله تعالى: «إذ» بدل من إذ قبله لأنه هو المقصود بالسياق «هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ» بنو سلمة وبنو حارثة جناحا العسكر. والهَمُّ العزم. وقيل: بل هو دونه وذلك أن أول ما يخطر بقلب الإنسان يستمى خاطر، فإذا قوى سَمِيَ حديث نفس، فإذا قوى سَمِيَ همّاً، فإذا قوى سَمِيَ عزمّاً، ثم بعده إما قول وإما فعل. وبعضهم يعبر عن الهَمِّ بالارادة. تقول العرب: هممت بكذا أهُمُّ به (بضم الهاء، من باب ردّ) والهَمُّ أيضاً الحزن الذي يذيب صاحبه وهو مأخوذ من قولهم: هممت الشحم أي أذبتة، والهَمُّ الذي في النفس قريب منه لأنه قد يؤثر في نفس الإنسان كما يؤثر الحزن. (سمين) «أَنْ تَفْشَلَا» تجبنا عن القتال وترجعاً لَمَّا رجع عبدالله بن أبي: المناق وأصحابه، وقال: علامَ نقتل أنفسنا وأولادنا. وقال لأبي

جابر السلمى القائل له: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم لنعلم قتالاً لا تبعناكم، فثبتها الله، ولم ينصرفا. أي فهو خطاب من أبي جابر لابن أبي اللعين ومن رجع معه، فقال ابن أبي اللعين لنعلم قتالاً لا تبعناكم، فهم الحيان باتباعه فثبتهم الله ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الزمخشري: والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس. وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردّها صاحبها إلى الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه. «والله وليّهما» أي ناصرهما «وعلى الله فليتوكّل المؤمنون» أي ليقوا به دون غيره. قال البخارى: حدثنا على بن عبدالله وحدثنا سفيان. قال: قال عمر سمعت جابر بن عبدالله يقول: فينا نزلت: «إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا» الآية. قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب. وقال سفيان مرة: وما يسرنى أنها لم تنزل لقوله تعالى: «والله وليّهما» وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينه.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :))***

«وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٢٣)

قال الجلال: ونزل لما هزموا تذكيراً لهم بنعمة الله «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ» موضع بين مكة والمدينة* أي فيها: وكانت وقعت في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية (أبو السعود). «وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» بقلّة العَدَدِ والسّلاح «فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» نعمه. فقد كان المسلمون يوم بدر ثلاثمائة وبعثة عشر رجلاً، ولم يكن فيهم إلا فرس واحد، وأكثرهم كانوا رجالة، وربما كان الجمع منهم يركبون جملاً واحداً. والمشركون كانوا قريباً من ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس، وأسلحة كثيرة، وهم بعدة كاملة، لذا كان تأويل «أَذِلَّةٌ» بمعنى القلّة وعدم المنعة من الناس، مع ضعف الحال، وقلّة السلاح والمال فأظهرهم الله على عدوّهم، وتجد غزوة بدر مع آياتها مجمّلة ومفصلة في كتب السير فلا حاجة لذكرها هنا.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ»
والله ما في السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ
والله غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة آل عمران (الآية: ١٢٨، ١٢٩)

في الواحدى : عن أنس بن مالك قال: كسرت رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، ودمى وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم، قال: فأنزل الله تعالى «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ» وعن سالم عن أبيه قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاناً وفلاناً، فأنزل الله عز وجل «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...» الآية رواه البخارى عن حيان عن ابن المبارك. عن معمر. وفي رواية كان دعاؤه صلى الله عليه وسلم على المنافقين بعد أن يرفع رأسه من الركوع في صلاة الفجر، وبعد أن يقول: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، ثم يقول وهو قائم: اللهم انج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين. اللهم اشد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف، اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية عصت الله ورسوله. وقد ترك عليه الصلاة والسلام الدعاء حين نزلت «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ» رواه البخارى عن موسى بن اسماعيل عن ابراهيم وسعد عن الزهرى. وفي الخطيب: وقال قوم: نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من القراء، بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ليعلموا الناس القرآن والعلم. أميرهم المنذر بن عمر، قتلهم عامر بن الطفيل، فوجد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجداً شديداً، وقتت شهراً في الصلوة كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللعن والسنين. وفي القرطبي: وقيل: استأذن في أن يدعو في استئصالهم، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيُسلم، وقد آمن كثير منهم خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم. ورى الترمذى عن ابن عمر قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على أربعة نفر. فأنزل الله عز وجل «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ»

فهداهم الله للإسلام. وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وفي الطبري: قال الربيع بن أنس: أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وقد شج رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه، وأصيبت ربايعته، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم، فقال: كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى الله وهم يدعونه إلى الشيطان، ويدعوهم إلى الهدى ويدعونه إلى الضلالة، ويدعوهم إلى الجنة، ويدعونه إلى النار، فهم أن يدعو عليهم، فأنزل الله عز وجل: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...» الآية فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء عليهم. وهكذا بقية الأقوال تدور في فلك الذي ذكرت قوله تعالى: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» المراد من الأمر إصلاحهم وتعذيبهم، أي لست تملك إصلاحهم ولا تعذيبهم بل ذلك ملك لله تعالى، يفعل بهم ما يشاء من التعذيب «أو» بمعنى إلى أن «يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» بالإسلام. غاية في الصبر. أي فإذا تاب عليهم فلك من الأمر السرور، وإذا عذبهم فلك التشفي فيهم «أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ» بالكفر ومحاربتك بدون حق وفي الغرائب: وقيل: نزلت في حمزة بن عبدالمطلب، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما رآه، ورأى ما فعلوا به من المثلة: قال: لأمثلنَّ منهم بثلاثين فنزلت * وقيل: أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره، والذين انهزموا، فمنعه الله عن ذلك، مروى عن ابن عباس * وقيل: أراد أن يستغفر للمسلمين الذين عصوا أمره فنزلت * وقال القفال: كل هذه الأمور وقعت يوم أحد، فلا يمنع حمل نزول الآية في الكل * ولا يخفى أن ظاهر الآية يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يفعل فعلاً فنع منه، وحيث يتوجه الإشكال بأن فعل ذلك الفعل إن كان من الله تعالى فكيف منعه منه؟ وإلا فهو قدح في عصمته، ومناف لقوله: «وما ينطق عن الهوى» والجواب: أن المنع من الفعل لا يدل على أن المنوع مشتغل به كقوله: «وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ» مع أنه ما أطاعهم، وقوله: «لَنْ أَسْرَكَتَ لِيَحْبِظَنَّ عَمَلَكَ» مع أنه ما أشرك قط، ولعله عليه الصلاة والسلام شاهد من قتل حمزة وغيره ما أورثه حزناً شديداً، وكان من الممكن أن يحمل ذلك على ما لا ينبغى من الفعل والقول، فنص الله تعالى على المنع تقوية لعصمته صلى الله عليه وسلم. وتأكيذاً لطهارته، ولئن سلمنا أنه كان مشغولاً بذلك الفعل والقول، فإنه محمول على ترك الأولى، والنهي إرشاد إلى اختيار الأفضل، وأيضاً أن دعاءه صلى الله عليه وسلم لا يكون بمجرد التشهي، وإنما هو بطلب الأصلاح، فالذي يظن به أنه

خلاف مسئوله صلى الله عليه وسلم وقد وقع فهو بالحقيقة سؤاله صلى الله عليه وسلم، ولهذا سأل الله تعالى أن يجعل لعنه على من لا يستحقه طهراً وزكاةً ورحمة. انتهى كلام صاحب الغرائب. قلت: وما رواه البخارى هو الأصح: قال البخارى: قال محمد بن عجلان، عن نافع بن ابى عمر رضي الله عنها قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم حتى أنزل الله تعالى: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» الآية. وقد روى عدة روايات في هذا المعنى. فيكون المراد من الأمر (كما تقدم) اصلاحهم وتعذيبهم، ولا يملك ذلك صلى الله عليه وسلم، وقوله: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» يؤيد الذي ذكرت. أي ملكاً وخلقاً وعبيداً. فهو كالدليل على قوله: ليس لك من الأمر شيء.. الخ. «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ» المغفرة له «وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ» تعذيبه «وَاللَّهُ غَفُورٌ» لأوليائه «رَحِيمٌ» بأهل طاعته فضلاً وإحساناً.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ وَلَا يُلْقُوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جِزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ»
سورة آل عمران (الآية: ١٣٥، ١٣٦)

وفي الواحدى: قال ابن عباس: في رواية عطاء. نزلت الآية في بنان التمار. أتمته امرأة حسناء باعها تمراً فضمتها إلى نفسه وقبلها، ثم ندم على ذلك، فأق النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية. * وقا ابن عباس: في رواية الكلبي: إن رجلاً أنصاريًا وثقيفياً آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما، فكانا لا يفترقان، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه، وخرج معه الثقيفى، وخلف الأنصارى في أهله وحاجته، وكان يتعاهد أهل الثقيفى، فأقبل ذات يوم فأبصر امرأة صاحبه قد اغتسلت، وهى ناشرة شعرها، فوقعت في نفسه، فدخل ولم يستأذن حتى انتهى إليها، فذهب ليقبلها، فوضعت كفها على وجهها، فقبل ظاهر كفها، ثم ندم واستحيا، فأدبر راجعاً، فقالت: سبحان الله!! خنت أمانتك، وعصيت ربك، ولم تصب حاجتك،

قال: فندم على صنيعه، فخرج يسبح في الجبال ويتوب إلى الله تعالى من ذنبه، حتى وافى الثقفى، فأخبرته أهله بفعله، فخرج يطلبه حتى دل عليه، فواقه ساجداً، وهو يقول: رب ذنبي قد خنت أخى. فقال له: يا فلان قم فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسله عن ذنبك لعل الله أن يجعل لك فرجاً وتوبة. فأقبل معه حتى رجع إلى المدينة، وكان ذات يوم عند صلاة العصر نزل جبريل عليه السلام بتوبته، فتلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ..» إلى قوله: «وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» فقال عمر: يا رسول الله أخاص هذا لهذا الرجل. أم للناس عامة؟ قال: بل للناس عامة وعن عطاء: أن المسلمين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أبنا اسرائيل أكرم على الله منا؟ كانوا إذا أذنب أحدهم أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه: اجدع اذنك، اجدع أنفك، افعل كذا، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت «وسارعوا إلى مغفرة من ربكم» إلى قوله «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» فقال: ألا أخبركم بخير من ذلك، فقرأ هذه الآيات وكذا في الخازن: وفيه روايات نحو الأولى قوله تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً» ذنباً قبيحاً كالزنا لأن المراد العموم في الفاحشة لا الزنا فقط «أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» بما دون الزنا كالقبلة واللمسة، والنظرة ونحوهما، وفيه إشارة إلى أنه إنما صرح بذكر الفاحشة مع دخولها في ظلم النفس، وترك مقتضى الظاهر لأن المراد بها نوع من أنواع ظلم النفس، أو ليدل به على عدم المبالاة في الغفران، فإن الذنوب وإن جلت فعفوه أعظم. «فاستغفروا لذنوبهم» بالندم والتوبة. وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل الاستغفار منها ما روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعني الله منه ما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من الصحابة استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر وصدق أبو بكر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [ما من عبد مؤمن (أو قال: ما من رجل) يذنب ذنباً، فيقوم فيطهره، ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ..» الآية] أخرجه أبو داود والترمذى، وقال: هذا حديث قد رواه غير واحد عن عثمان بن المغيرة فرفعه، ورواه مسعر وسفيان عن عثمان بن المغيرة فوقاه ولم يرفعه ولا يعرف لأسماء إلا هذا الحديث وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

عليه وسلم قال: [من لزم الإستغفار جعل الله له من كل ضيقٍ مخرجاً، ومن كل همٍ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب] أبو داود. وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [والذي نفسي بيده لو لم تذنّبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم] وأخرج الشيخان عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن الربّ تبارك وتعالى قال: [إذا أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، قال تبارك وتعالى أذنب عبدي ذنباً علم أنّ له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب. فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب] وفي رواية [اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك] قال عبد الأعلى: لا أدري أقال في الثالثة، أو الرابعة اعمل ما شئت. وعن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة] أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. عَتَانَ السَّاءِ بفتح العين، قيل: هو السحاب: وقيل: هو ما عنّ لك منها، أي ما ظهر لك منها. وقُرَابُ الأَرْضِ: بضم القاف، وروى بكسرهما والضم أشهر، وهو ما يقارب ملأهاه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من قال استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد قرّم من الزحف] أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم، وقال: حديث حسنٌ صحيح على شرط البخارى ومسلم. وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [كل ذنب عسى الله أن يغفره (أو قال: عسى أن يغفره الله) إلا من مات مشركاً، ومن قتل مؤمناً متعمداً] أخرجه أبو داود. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بلغني أنّ إبليس حين نزلت هذه الآية «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ..» الآية. بكى. وروى أحمد في مسنده عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [قال إبليس: يارب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني] وقوله تعالى: «وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» أى لا يغفرها أحد سواه. روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بأسير، فقال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد، فقال النبي صلى

الله عليه وسلم: [عرف الحق لأهله] وقوله: «وَلَمْ يُصِّرُوا عَلَى مَا فَعَلُوا..» أي ولم يقيموا على قبيح فعلهم بأن أقلعوا عنه مستغفرين. وفي الحديث [ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة] وفي الحديث [لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار] «وهم يعلمون» أي ولم يصيروا على قبيح فعلهم عالين به «أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم، وجنات تجري من تحتها الأنهار» إشارة إلى الفريقين، أو الموصوفون في قوله «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم..» الآية.

ومعنى الآية: أن المطلوب بالتوبة أمران: أحدهما: الأمن من العقاب وإليه الإشارة بقوله «مغفرة من ربهم» والثاني: إيصال الثواب وإليه الإشارة بقوله: «وجنات تجري من تحتها الأنهار» أي ذلك لهم ذخراً يبخس وأجر لا يوكس. «خالدين فيها» أي في الجنات، وهي حال من الضمير في جزاؤهم لأنه مفعول به في المعنى، لأن المعنى: يجزيهم الله جنات في حال خلودهم، وتكون حالاً مقدره ولا يجوز أن تكون حالاً من جنات في اللفظ، وهي لأصحابها في المعنى إذ لو كان كذلك لبرز الضمير لجران الصفة على غير من هي له. والجملة من قوله: «تجري من تحتها الأنهار» في محل رفع نعتاً للجنات. والمخصوص بالمدح محذوف في قوله: «ونعم أجر العاملين» تقديره، ونعم أجر العاملين الجنة، روى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: [ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل، كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي] وحدث شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حق وجهالة. وعن الحسن يقول الله تعالى يوم القيامة: جوزوا الصراط بعموى، وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم. وعن رابعة البصرية كانت تنشد:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))*

«وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا

الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» سورة آل عمران (الآية: ١٣٩ - ١٤٣)

في الواحدى : قال ابن عباس: انهزم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد، فبينما هم كذلك إذا أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبى صلى الله عليه وسلم [اللهم لا يعلون علينا، اللهم لا قوة لنا إلا بك، اللهم ليس يعبدك في هذه البلدة إلا هؤلاء النفرا] فأنزل الله تعالى هذه الآيات، وثاب نفر من المسلمين رماة، فصعدوا الجبل، ورموا خيل المشركين حتى هزموهم فذلك قوله تعالى «وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ» الوهن: الضعف أى لا تضعفوا عن الجهاد ولا يورثتكم يوم أحد وهناً وجبناً، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح، وأنتم الأعلون. أى وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر مما أصابوا منكم يوم أحد، وأنتم الأعلون شأناً لأن قتالكم لله، وقتالهم للشيطان، وقتالكم في الجنة وقتالهم في النار، وأنتم الأعلون بالحجة والعاقبة الحميدة كقوله «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» وفي هذا تسلية وبشارة. أى عزاهم وسلاهم بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح وحثهم على قتال عدوهم، ونهاهم عن العجز والفسل «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا» على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة، والحال وأنتم الأعلون. أى الغالبين على الأعداء بعد أحد، فلم يخرجوا بعد ذلك عسكرياً إلا ظفروا في كل عسكري كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي كل عسكري كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحون في ذلك الوقت، وهذه الآية بيان فضل هذه الأمة لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه لأنه قال موسى «إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى» وقال لهذه الأمة «وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ» وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى، فهو سبحانه العلى، وقال للمؤمنين «وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ» وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» إما أن يكون قيداً لقوله: «وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ» أى إن كنتم مصدقين بما يعدكم الله وبيشركم به من الغلبة، وإما أن يكون قيداً لقوله: «وَلَا تَهِنُوا» أى إن صح إيمانكم بالله وبحقيقة هذا الدين، فلا تضعفوا لثقتكم بأن الله سيبتم هذا الأمر، قال راشد بن سعد: لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد كئيباً حزيناً جعلت المرأة تجيء بزوجها وأبيها وابنها مقتولين، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: [أهكذا تَفَعَلُ برسولك؟] فنزلت: «إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ».. والمراد بالفرح الجراحة. ومعنى الآية إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتُم منهم قبل ذلك في يوم بدر، ثم لم يثبّطهم ذلك عن معاودة القتال، فأنتم أولى بأن لا تفتقوا ولا تجبنوا، ونظيره: «فإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ» وقوله تعالى: «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ» موصوفاً وصفته مبتدأ خبره نداؤها، أو تلك مبتدأ والأيام خبره كقولك هي الأيام تبلى كل جديد، فإن الضمير لا يوصف، ويكون تلك إشارة إلى الوقائع والأحوال العجيبة التي يعرفها أهل التجارب من أبناء الزمان. والمراد بالأيام ما في تلك الأوقات من الظفر والغلبة والحالات الغريبة، وقوله: «نداولها» كالتفسير لما تقدمه. والمداوله نقل الشيء من واحد إلى آخر، ويقال: تداولته الأيدي. أى تناقلته، والدنيا دول أى تنتقل من قوم إلى آخرين لا تدوم مسارتها ومغاقمها، فيوم يحصل فيه السرور له والغم لعدوه، ويوم آخر بالعكس، فلا يبقى شيء من أحوالها، ولا يستقر أثر من آثارها ونظيره قولهم: الحرب سجال. شَبَّهت بالدلاء لكونها تارة مملوءة وأخرى فارغة، وليس المراد من هذه المداوله أنه تعالى ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين، بل المراد أنه تارة يشدّد المحنة على الكافرين وأخرى على المؤمنين. وذلك أنه لو شدّد المحنة على الكفار في جميع الأوقات وأزاهها عن المؤمنين في جميعها لحصل العلم الاضطرارى بأن الإيمان حقٌ وما سواه باطلٌ، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب. فالحكمة في المداوله أن تكون الشبهات باقية، والمكلف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدالة على صحة الإسلام. فيعظم ثوابه عند الله، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» وحذف المعطوف عليه ليذهب الوهم كل مذهب. ويقرر الفوائد. والتقدير: نداؤها بين الناس ليكون كيت وكيت وليعلم، وفيه إيذان بأن المصلحة في هذه المداوله ليست بواحدة، ولكن في ضمنها مصالح جمة لو عرفوها انقلبت مساءتهم مسرة منها أن يعلم الله أى ليظهر معلومنا وهو المخلص من المنافق، والمؤمن من الكافر. وقيل: معناه ليحكم بالامتياز، فوضع العلم مقام الحكم، وقيل: ليعلمهم علماً يتعلّق به الجزاء، وقيل: ليعلم أولياء الله. فأضاف إلى نفسه تفضيلاً لهم. وعلى الأقوال العلم بمعنى العرفان، ولهذا تعدّى إلى مفعول واحد، وقيل: بمعنى فعل القلب الذى يتعدّى إلى مفعولين. والتقدير وليعلمهم مميّزين عن غيرهم. وقوله: «وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» ممن يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة. كقوله تعالى: «لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» وهذا منصب شريف لا يناله إلا

هذه الأمة. ولن يكونوا من الأمة إلا بالصبر على ما ابتلوا به من الشدائد، أو المراد ليكرم ناساً منكم بالشهادة، والشهداء جمع شهيد كالكرماء والظرفاء. والمقتول من المسلمين بسيف الكفار يسمى شهيداً. قال النضر بن شميل: لأنهم أحياء حضروا دار السلام كما ماتوا بخلاف غيرهم، وقال ابن الأنباري: لأن الله وملائكته شهدوا له بالجنة «والله لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» أى المشركين «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» قاله ابن عباس رضى الله عنها، وقيل: لا يحب من ليس من هؤلاء الثابتين على الإيمان الصابرين على البلوى. وبين الحكمة بقوله: «وَلِيَمْتَحِنَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» والمحص في اللغة التنقية، والمحق النقصان. وفي القاموس ومحص الذهب بالتار من باب منع أخلصه مما يشوبه. والتمحيص الابتلاء والاختباره وفي البيضاوى: «وَلِيَمْتَحِنَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا» ليطهرهم ويصفىهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم «وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» يهلكهم إن كانت الدولة عليهم، والمحق نقص الشيء قليلاً قليلاً وقال المفضل: هو أن يذهب الشيء كله حتى لا يرى منه شيء وقال الزجاج: معنى الآية إنه إن حصلت الغلبة للكافرين على المؤمنين كان المراد تمحيص ذنوب المؤمنين أى تطهيرهم وتصفيتهم، وإن كان بالعكس فالمراد محو آثار الكفار، وهذه مقابلة لطيفة لأن تمحيص هؤلاء بإهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك بإهلاك أنفسهم لا بالكلية فإن ذلك غير واقع، بل بتدريج ومهل وقوله: «أَمْ حَسِبْتُمْ» أى بل. أم منقطعة والهمزة للاستفهام الانكارى أى لا ينبغي منكم أنكم تحبون أى تظنون أنكم تدخلون الجنة مع أنكم لم تجاهدوا ولم تصبروا على شدائد الحرب. وعبارة أبي السعود: هذا خطاب للمنهزمين يوم أحد، وأم منقطعة، وما فيها من كلمة بل للاضراب عن تسليتهم إلى توبيخهم، والهمزة المقدرّة معها للانكار والاستبعاد «أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ» أى علم ظهور. قال أبو السعود: نفي العلم كناية عن نفي المعلوم لما بينها من اللزوم المبنى على لزوم تحقق الأول لتحقيق الثانى ضرورة استحالة تحقق شيء بدون علمه تعالى به، وإنما وجه النفي إلى الموصوفين مع أن المنفى هو الوصف فقط، وكان يكتفى أن يقال: ولما يعلم الله جهادكم كناية عن معنى، ولما تجاهدوا للمبالغة فى بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلاً، وفى كلمة لَمَّا إيدان بأن الجهاد متوقع منهم فيما يستقبل إلا أنه غير معتبر فى تأكيد الانكاره أى ولما هنا بمعنى لم مع زيادة التوقع، وليس المراد نفي العلم بالمجاهدين. ولكن المراد نفي

المعلوم، وإنما حسن إقامة ذلك مقام هذا لأن العلم متعلق بالمعلوم كما هو عليه، فلما حصلت بينها هذه المطابقة حسن إقامة أحدهما مقام الآخر تقول: ما علم الله في فلان خيراً، أى ما فيه خير حتى يعلمه. فحاصل الكلام: لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم تجاهدوا بعد. وإنما أنكر هذا الحسبان لأنه تعال أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة وأوجب الصبر على تحمل متاعها، وبين وجوه المصالح المنوطة بها في الدين والدنيا، وإذا كان كذلك فمن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنة مع إهمال مثل هذه الطاعة، وقوله: «وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» في الشدائد. ونصب الفعل بأن مقدره بعد الواو المقتضية للجمع كهى في قولك: لا تأكل السمك وتشرب اللبن أى لا تجمع بينها وهو مذهب البصريين، أو بواو الصرف وهو مذهب الكوفيين. كأنه قيل إن دخول الجنة وترك المصابرة على الجهاد ممّا لا يجتمعان، فليس كلُّ من أقرّبدين الله كان صادقاً ولكن الفيصل فيه تسليط المكروهات ومخالفات النفس فإن الحبّ هو الذى لا ينقص بالجفاء ولا يزداد بالوفاء. وقيل: التقدير أظننتم أن تدخلوا الجنة قبل أن يعلم الله المجاهدين وأن يعلم الصابرين هذا على تقدير أنّ، ووجه آخر وهو أن يكون مجزوماً لكنّ الميم حرّكت للساكنين حرّكت بالفتحة اتباعاً للفتحة قبلها، وقوله تعالى: «وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمْتَوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ» حيث قلتم ليث لنا يوماً كيوم بدر لننال ما نال شهداؤه. في الخازن: قال ابن عباس: لما أخبر الله عزّ وجلّ المؤمنين على لسان نبيّه صلى الله عليه وسلم بما فعل بشهدائهم يوم بدر من الكرامة رغبوا في ذلك فتمتّوا قتالاً يستشهدون فيه، فيلحقون بإخوانهم، فأراهم الله يوم أحد، فلم يلبثوا أن انهزموا إلّا من شاء الله منهم فأنزل الله هذه الآية ومعنى قوله: «تَمْتَوْنَ الْمَوْتَ» أى تطلبون أسباب الموت وهو القتال والجهاد «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ» أى من قبل أن تلقوا يوم أُحُد، والخطاب للذين لم يشهدوا بداراً بدليل إلحاحهم يوم أحد على الخروج. وقوله: «فَقَدْ رَأَيْتُمْوهُ» أى سببه بالحرب. وهى رؤية بصرية. قال البيضاوى: أى قد رأيتموه معانين له حين قتل دونكم. أى قدامكم وبين أيديكم من قتل من إخوانكم. وهو توبيخ لهم على أنهم تمتوا الحرب وتسببوا فيها، ثم جبنوا وانهزموا عنها، أو توبيخ لهم على الشهادة فإن في ثمنها تمتى غلبة الكافرين * ويدل عليه تذييل الآية «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» أى بصراء تتأملون الحال كيف هى فليّم انهزمتُم، وفي إثارة الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة في مشاهدتهم له.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُوَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَّنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٤٤ - ١٤٨)

في الواحدى وابن كثير قال عطية العوفى: لما كان يوم أحد انهزم الناس، فقال بعض الناس: قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم، فإنما هم إخوانكم، وقال بعضهم: إذا كان محمد أصيب ألا ما تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلقوا به. فأنزل الله في ذلك — «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» — إلى قوله — «وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ» — إلى قوله — «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» * وعبارة ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إن محمداً قد قُتل، ورجع ابن قننه إلى المشركين، فقال لهم: قتلتم محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشجّه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس، واعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، وجوّزوا عليه ذلك كما قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ففى ذلك أنزل الله تعالى: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» أى لهُ أسوة بهم فى الرسالة وفى جواز القتل عليه. قال ابن أبى نجيح عن أبيه: أن رجلاً من المهاجرين مر على رجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل؟ فقال

الأنصارى: إن كان محمد قد قتل فقد بلغ فقاتلوا عن دينكم فنزل: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة. وروى بقية المفسرين قصة معركة أحد بطولها نقلاً عن أصحاب السير والمغازي فلا حاجة لذكرها ولأنه سيأتي طرفاً منها أثناء الشرح قوله تعالى: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» فسيخلو كما خلوا بالموت، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو المستغرق لجميع المحامد لأن الحمد لا يستوجه إلا الكمال، والتَّحْمِيدُ فوق الحمد فلا يستحقه إلا المستولى على الأمر في الكمال، وأكرم الله تعالى نبيه وصفيه محمداً صلى الله عليه وسلم باسمين مشتقين من اسمه جلَّ وعلا محمد وأحمد، وفيه يقول حسان بن ثابت:

وشق له من اسمه لِيُجَلَّهُ فذو العرش محمود وهذا محمداً

وقوله: «أفإن مات أوقتل انقلبتم على أعقابكم» إنكاراً لارتدادهم، وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلوه صلى الله عليه وسلم بموت أوقتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله، وبقاء دينهم متمسكاً به «وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً» بارتداده، وإنما يضر نفسه، وقد أوجب الدين قتل المرتد بعد ثلاثة أيام إذا لم يرجع إليه لأن رتداده عن الدين تشجيع للناس على حركة الردة ومحاربة الإسلام. «وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» يعنى الثابتين على دينهم الذين لم ينقلبوا عنه لأنهم شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام وثباتهم عليه، فستأهم الله شاكرين لما فعلوا، وسيثيب الله من شكره على توفقه وهدايته. وروى ابن جبير عن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه في قوله: «وسيجزى الله الشَّاكِرِينَ» قال الثابتين على دينهم: أبا بكر وأصحابه، وكان علي يقول: أبو بكر أمين الشَّاكِرِينَ، وأمين أخبار الله، وكان أكرمهم وأحبهم إلى الله تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» ووجه السياق أن المنافقين أرجفوا محمداً قتل فارجعوا إلى ما كنتم عليهم من الأديان فأبطل قوهم بأن القتل مثل الموت في أنه لا يحصل إلا في الوقت المقدر، وكما أنه لومات في بلده لم يدل ذلك على فساد دينه، فكذا لو قتل، وفيه تحريض المؤمنين على الجهاد باعلامهم أن الحذر لا يغنى عن القدر، وأن أحداً لا يموت قبل الأجل، وإن خاض المهالك واقتحم المعارك، أو الغرض بيان حفظه وملائكته لنبيه، فإنه ما بقى في تلك الواقعة سبب من أسباب الهلاك والشر إلا وقد حصل إلا أنه تعالى لما كان حافظاً لنبيه، ولم يقدر في ذلك الوقت أجله لم يضره ذلك، وفيه

تقريع لأصحابه أنهم قد قصرُوا في الذب عنه صلى الله عليه وسلم، وجواب عما قاله المنافقون للصحابة لَمَّا رجعوا: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتِلُوا. قال الأَخفش والزجاج: تقدير الكلام وما كانت نفس تموت إلا بإذن الله وقال ابن عباس: الإذن هو قضاء الله وقدره فإنه لا يحدث شيئاً إلا بمشيئة الله وإرادته فأورد الكلام على سبيل التمثيل كأنه فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله فيه، وذلك أن إسناد الموت إلى النفس نسبة الفعل إلى القابل لا إلى الفاعل، فاقيم القابل مقام الفاعل. وقال أبو مسلم: الاذن هو الأمر. والمعنى أن الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأرواح فلا يميت أحد إلا بهذا الأمر وقيل: المراد التكوين والتخليق لأنه لم يقدر على خلق الموت والحياة أحد إلا الله. وقيل: التخلية والإطلاق وترك المنع بالقهر والاجبار، والمعنى ما كان لنفس أن تموت بالقتل إلا بأن يخلى الله بين القاتل والمقتول. وفيه أنه تعالى لا يخلى بين نبيه وبين أحد ليقتله صلى الله عليه وسلم، ولكنه جعل من بين يديه صلى الله عليه وسلم ومن خلفه رصداً ليم على يديه بلاغ ما أرسله به، فلا تنهوا في غزواتكم بعد ذلك بإرجاف مرجف. وقيل: الاذن العلم، أى لن تمت نفس إلا نفس إلا في الوقت الذى علم الله موتها فيه. وفي الآية دليل على أن المقتول يميت بأجله، وأنَّ تغيير الآجال ممتنع ولذا أكد هذا المعنى بقوله: «كِتَاباً مُّؤَجَّلًا» وهو مصدر مؤكّد لنفسه لدلالة ما قبله عليه، أى كتب الموت كتاباً مؤجلاً مؤقتاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر. وقيل: الكتاب المؤجل هو اللوح المحفوظ الذى كتب فيه جميع الحوادث من الخلق والرزق والأجل والسعادة والشقاوة. قال القاضى: الأجل والرزق مضافان إلى الله تعالى، وأما الكفر والفسق والإيمان والطاعة، فكل ذلك مضاف إلى العبد، فإذا كتب تعالى ذلك فإنما يكتب ما يعلمه من اختيار العبد من أن يكون مذموماً أو ممدوحاً والحق أن هذا تعكير للقضية فإن الله تعالى إذا علم من العبد الكفر استحال أن يأتي هو بالإيمان، وإلا انقلب علم الله جهلاً، وإذا كان هو غير قادر على الإيمان حينئذ فما معنى اختياره؟ «ومن يُردُّ ثواب الدُّنيا نُؤْتِه مِنْهَا» أى من ثوابها. تعريض بالفريق الدنيوي، وهم الذين شغلتهم الغنائم، وبقاى الآية مدح للفريق الآخر الأخرى، وإن فضله تعالى وعطيته شامل لكلا الفريقين، لكن ثواب الفريق الثانى هو المعتد به فى الحقيقة «ومن يُردُّ ثواب الآخرة نُؤْتِه مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ» فأبهم الجزاء وأضافه إلى نفسه تنبيهاً على أن جزاء الذين شكروا نعمة الإسلام فلم يشغلهم

عن الجهاد شيء لا يكتنه كنهه، وتقصرنه العبارة. «وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا» الخ .. نزلت في الذين تركوا المركز وطلبوا الغنيمة. وقوله: «وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ..» نزلت في الذين ثبتوا مع النبي، وهذه الآية وإن نزلت في الجهاد خاصة لكنها عامة في جميع الأعمال كما قال صلى الله عليه وسلم: [إنما الأعمال بالنيات] وذلك لأن المؤثر في جانب الثواب والعقاب القصد والدواعي، فمن وضع الجبهة على الأرض والوقت ظهراً والشمس أمامه فإن قصد بذلك السجود عبادة لله تعالى كان من الإيمان، وإن قصد تعظيم الشمس كان من الكفر، وقوله: «وَكَاثِنٌ» كم. والأكثر على أنها في الأصل مركبة من كاف التشبيه وأى التي هي في غاية الإيهام إذا قطعت عن الاضافة، كما أنّ كذا مركبة من الكاف وذا المقصود به الإشارة، فكأين مثل كذا في كون المجرورين مبهمين عند السامع إلا أنّ في ذا إشارة في الأصل إلى ما في ذهن المتكلم بخلاف أئ فإنه للعدد المبهم، فهي بمعنى كم الخبرية وتمييزها «مِنْ نَبِيٍّ» وتنويه للتكثير. أئ أنبياء كثيرون «قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ» قال ابن عباس: جموع كثيرة. وقيل: الربيون: الألوف، وقيل: الربية: الواحدة عشرة آلاف، وقيل: ألف. وقيل: ربيون يعني فقهاء علماء، وقيل الربيون هم الأتباع. وفي قراءة «قُتِلَ» أى وكأين من نبي قُتِلَ ممن كان معه وعلى دينه ربيون كثير «فَمَا وَهَنُوا» ضعفوا أى الباقون «وما استكاثوا» لقتل من قتل من إخوانهم، بل مضوا على جهاد عدوهم إعلاء لكلمة الله، ثم إنه تعالى مدح هؤلاء الربيين بصفات، وذلك قوله: «فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» الخ.. ولا بد من تغايرهما، ففليل: فاهنوا عند قتل النبي، وما ضعفوا عن الجهاد بعده، وما استكانوا للعدو، أى لم يخضعوا له، وفيه تعريض بما أصاب المسلمين من الوهن والانكسار عند الأرجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبضعفهم عند ذلك عن جهاد الكفار، واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبد الله بن أبي في طلب الأمان من أبي سفيان، وقيل الوهن استيلاء الخوف عليهم، والضعف ضعف الإيمان، واختلاج الشبهات في صدورهم. والاستكانة الانتقال من دينهم إلى دين عدوهم، وقيل: الوهن ضعف يلحق القلب، والضعف مطلقاً اختلال القوة الجسمية، والاستكانة إظهار ذلك العجز والضعف. واستكان قيل: افتعل من السكون كأنه سكن لصاحبه ليفعل به ما يريد ويؤيد هذا قوله: «والله يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» على الشدائد والحن ومشقة الجهاد فيثيبهم

الجئّة عرفها لهم، ثم أخبر أن الربيين كانوا مستعينين عند ذلك بالتصبر والتجلّد بالدعاء والتضرّع وطلب الامداد والنصر من الله تعالى. والغرض أن تقتدى هذه الأمة بهم فقال: «وما كان قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتُبْنَا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» أي أنهم تجاوزوا الحد في الإسراف، وهذا إيذان بأن ما أصابهم كان لسوء فعلهم. لذا طلبوا مغفرة ذنوبهم قاطعين على أنفسهم القيام بالأعمال الصالحة. منها الجهاد في سبيل الله، والنصر على القوم الكافرين. أي فهلا قُلْتُمْ وفعلتُم مثل ذلك يا أصحاب محمد؟! فكان من جزائهم أن «فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا» بالنصر والغنيمة والعزّ وحسن الذكر «وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ» أي بالجنة والنعم المقيم «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» أي فيكثر لهم الثواب، وهم الذين يفعلون مثل ما فعل هؤلاء، وهذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يقولوا مثل هذا عند لقاء العدو، وفيه دققة لطيفة، وهى أنهم لما اعترفوا بذنوبهم وكونهم مسيئين سَمَّاهم الله تعالى محسنين. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. وهنا سرّاً أيضاً وهو أنه تعالى وفقهم للطاعة، ثم أثابهم عليها، ثم مدحهم على ذلك فسَمَّاهم محسنين ليعلم العبد أن الكل بعنايته وفضله.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«سَتَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ بِمَا أَسْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ»
سورة آل عمران (الآية: ١٥١)

في الواحدى: قال السدى: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين إلى مكة، انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق، ثم إنهم ندموا وقالوا: بس ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم نبق منهم إلا الشزيمة تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به، وأنزل الله تعالى هذه الآية. وفي الخطيب. وذلك أن الكفار لما هزموا المسلمين في أحد أوقع الله الرعب في قلوبهم فتركوهم وفروا منهم بغير سبب، حتى روى أن أبا سفيان صعد الجبل — أى وهو منزماً — ونادى يا محمد: موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن شاء الله» ثم ذكر ما أورده الواحدى. بلفظ وقيل: إنهم لما ذهبوا منتصرين متوجهين إلى

مكة، فلما كانوا في بعض الطريق ندموا الخ... * وفي الطبري عن السدي قال: لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أحد متوجهين نحو مكة، انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق، ثم إنهم ندموا فقالوا: بش ما صنعتم إنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم!. ارجعوا فاستأصلوهم، فقذف الله عز وجل في قلوبهم الرعب، فانهزموا، فلقوا أعرابياً فجعلوا له جعلاً، وقالوا: إن لقيت محمداً فأخبره بما قد جمعنا لهم، فأخبرنا الله عز وجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلبهم حتى بلغ حراء الأسد فأنزل في ذلك: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لَهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ» — نعيم بن مسعود الأشجعي — «إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنها ذلکم الشیطان یخوف أولیاءه * فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنین» وستأتى هذه الآيات فيما بعد إن شاء الله تعالى. وأكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في موعده أبي سفيان في بدر الصغرى، فلم يخرج إليها إذ وصل بجيشه إلى مر الظهران يريد بدرأ الصغرى، فألقى الله في قلبه الرعب، وذكر له أن نعيماً بن مسعود الأشجعي كان معتمراً قاصداً المدينة، فجعل له عشرياق على أن يشبط محمداً وأصحابه عن الخروج إلى بدر الصغرى، فجاءهم وهم يتجهزون، وقال لهم: ماذا تفعلون؟ قالوا: نريد الخروج إلى أبي سفيان، فقال لهم: لقد غزاكم في قعر داركم، فقتل منكم سبعين، ولم ينج منكم إلا من كان شريداً أو طريداً، فكيف تخرجون إليه وقد جمع لكم جموعاً؟! فتشبط الكثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن الخروج، فقال عليه الصلاة والسلام [والله لأخرجن إليهم ولو كنت وحدي] فخرج معه قرابة ثلاثمائة فارس، وجاؤا بدرأ، ولم يأت أبو سفيان، فباعوا ما معهم من الذهب في السوق وربحوا الدرهم درهمين، وذلك قوله تعالى: «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله..» وفي ابن كثير: وروى العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: «سئلني في قلوب الذين كَفَرُوا الرُّعْبَ» قال: قذف الله في قلب أبي سفيان الرعب فرجع إلى مكة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب] رواه ابن أبي حاتم. والرعب: الخوف الشديد حتى رجعوا عما هموا به، فعلى هذا

القول يكون الوعد بالقاء الرعب في قلوب الكفار مخصوصاً بيوم أحد، وقيل: إنه عام وإن كان السبب خاصاً لقوله صلى الله عليه وسلم: [نصرت بالربع من مسيرة شهر] فكأنه قال: سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب منكم حتى تقهروهم ويظهر دينكم على سائر الأديان، وقد فعل الله ذلك بفضلته وكرمه حتى صار دين الإسلام ظاهراً على جميع الأديان والملل كما قال الله تعالى: «لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ» وفي شرح المواهب. بعد ارتحالهم من أحد وقد نزلوا بملل — بوزن جبل — موضع قريب من المدينة، فقال بعضهم لبعض: ما صنعتم شيئاً فقد بقى من القوم وجوه ورؤساء يجمعون عليكم، فارجعوا لنستأصل من بقى، فقال بعض آخر منهم: لا تفعلوا، فإن الدولة لكم فلورجعتم لربما كانت عليكم * وخرج صلى الله عليه وسلم في أثرهم في ستمائة وثلاثين على الصحيح وهم الذين شهدوا أحداً حتى نزل بجمراء الأسد، وهو مكان على ثمانية أميال من المدينة فلم يدرك منهم أحداً. وتمام الكلام مبسوط في كتب المغازي والسير: وقوله تعالى: «بِمَا أَسْرَكُوا» أى إنما كان إلقاء الرعب في قلوب الكافرين بسبب إشراكهم بالله وفيه وجه معقول وهو أن الدعاء إنما يصير في محل الاجابة عند الاضطرار كما قال: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ» ومن اعتقد أن الله شريكاً لم يحصل له الاضطرار لأنه يقول إن كَانَ هذا المعبود لا ينصرفي فذاك الآخر ينصرفي فلا يحصل له الإجابة فيلزمهم الرعب والخوف هذا تقدير أن معبوديهم يصح منهم الاجابة كيف وانهم لا يملكون نفعاً ولا ضرراً «مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا» حجة. أي لم ينزل الله بإشراكها حجة، وهو دليل على أنه واحد أحد لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وعمّا يقوله المشركون والملحدون والزنادقة ظلماً وعدواناً «وَمَا وَاهُمْ» أى المكان الذى يأوون إليه «التَّارُوتَ وَمَثْوَى الظَّالِمِينَ» مقام المشركين من ثوى بالمكان يثوى إذا أقام به.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأُمِيرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُضْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى

أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا
عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»
سورة آل عمران (الآية: ١٥٢، ١٥٣)

في الواحدى : قال محمد بن كعب القرظى: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد. قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر؟ فأنزل الله تعالى: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ..» إلى قوله: «مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا..» يعنى الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد. وكذا في الخطيب وغيره وقوله: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ» نزلت لما اجتمع المؤمنون بعد رجوعهم إلى المدينة، وقال بعضهم لبعض: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر، وهو ما وعدهم على لسان نبيه حيث قال للرماة لا تبرحوا من مكانكم، ولن تزالوا غالبن ما ثبتم مكانكم، وقد كان كذلك، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرمونهم والباقون يضرّبونهم بالسيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً حتى قتلوا منهم فوق العشرين * وفي السمين في قوله: «بِأَذْنِهِ» متعلق بمحذوف لأنه حال من فاعل تحسّونهم أى تقتلونهم مأذوناً لكم * والمراد بإذنه: إرادته «حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ» جبتم عن القتال. في المصباح فشل فشلاً، فهو فشل من باب تعب، وهو الجبان الضعيف القلب. وفي حتى هذه قولاً: أحدهما أنها حرف جرّ بمعنى إلى، وفي متعلقها حينئذٍ ثلاثة أوجه: أحدها أنها متعلقة بتحسّونهم. أى تقتلونهم إلى هذا الوقت، والثانى: أنها متعلقة بصدقكم وهو ظاهر قول الزمخشري حيث قال: ويجوز أن يكون المعنى صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم، والثالث: أنها متعلقة بمحذوف دلّ عليه السياق تقديره دام لكم ذلك إلى وقت فشلكم. القول الثانى: أنها حرف ابتداء داخله على الجملة الشرطية، وإذا على بابها من كونها شرطية، وفي جوابها حينئذٍ ثلاثة أوجه: أحدها، أنه وتنازعتم قال الفراء، وتكون الواو زائدة. والثانى أنه ثم صرفكم، وثم زائدة، وهذان القولان ضعيفان جداً. والثالث وهو الصحيح أنه محذوف. واختلفت عبارتهم في تقديره، فقدّره ابن عطية انهزمتم، وقدّره الزمخشري، منعكم نصره، وقدّره أبوالبقاء بأن لكم أمركم. ودلّ على ذلك قوله: «مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا..» وقدّره غيره امتحنتم، وقدّره بعضهم انقسمتم إلى قسمين.. والمعنى

على الأول. قد نصركم الله إلى حين كان منكم الفشل لأن وعدهم بالنصر كان مشروطاً بالشباب والصبر «وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ» أى الشأن، وذلك أن الرماة لما انهمز المشركون ونساؤهم يصعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخلهن، قالوا: الغنيمة. فقال عبدالله بن جبير: أمير الرماة، عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نبرح هذا المكان، فأبوا عليه وذهبوا إلى طلب الغنيمة، وبقي عبدالله مع طائفة دون العشرة إلى أن قتلهم المشركون فهذا هو تنازعهم فى الأمر أى الشأن والقصة، أو بمعنى الأمر الذى يضاد النهى. أى تنازعتم فيما أمركم الرسول به، وعصيتم بترك ملازمة ذلك المكان «مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَيْتُمْ» الله «مَا تَحْبُونَ» من النصر، وجواب إذا دلّ عليه ما قبله أى منعكم نصره «مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا» فترك المركز للغنيمة «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» فثبت به حتى قتل كعبدالله بن جبير وأصحابه. وفى هذا تنبيه لهم على عظم شأن المعصية لأنهم لما شاهدوا أن الله أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها سلهم الله ذلك الاكرام وأذاقهم وبال أمرهم قوله: «ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ» قالت الأشاعرة: معنى هذا الصرف أنه تعالى ردّ المسلمين عن الكفار وحالت الريح دبوراً وكانت صباءً، حتى وقعت الهزيمة على المسلمين، وقتل منهم من قتل، واستولى الكفرة. ولا يتوجه عليهم إشكال، لأن من مذهبهم أن الخير والشر بإرادة الله تعالى وتخليقه، وأما المعتزلة فلم يرضوا بهذا التفسير، وقالوا: كيف يضيف الصرف بهذا المعنى إلى نفسه. والصرف عن الكفار معصية، وقد أضافها إلى الشيطان فى قوله: «إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا» وأيضاً أنه تعالى عاتبهم على ذلك الانصراف ولو كان بفعل الله لم يجز معاتبة القوم عليه كما لا يجوز المعاقبة على طولهم وقصرهم وصحتهم ومرضهم فعند ذلك ذكروا فى تأويل الآية وجوهاً. قال الجبائى: إن الرماة كانوا فريقين: بعضهم فارق المكان أولاً لطلب الغنائم، وبعضهم، بقوا هناك إلى أن أحاط بهم العدو، وعلموا أنهم لو استمروا على المكث هناك لقتلهم العدو ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الجبل فى جماعة من أصحابه فتحصنوا به. فلما كان ذلك الانصراف جائز أضافه الله إلى نفسه بمعنى أنه كان بأمره وبإذنه، ثم قال: «لِيَبْتَلِيَكُمْ» والمراد أنه تعالى لما صرفهم إلى ذلك المكان، وتحصنوا فيه أمرهم هناك بالجهاد والذبّ عن بقية المسلمين، ولا شك أن الاقدام على الجهاد بعد الانهزام. وبعد أن شاهدوا فى تلك المعركة قتل اقرارهم

وأحباؤهم من أعظم أنواع الابتلاء. فاذن الآية مشتملة على المعذورين في الانصراف، وعلى غير المعذورين، فقوله: «**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ**» يرجع إلى المعذورين، وقوله: «**وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ**» يرجع إلى غير المعذورين، وسبب العفو ما علم من ندمهم على ما فرط منهم من عصيان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال الكعبيُّ «**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ**» بأن لم يأمركم بمعاودتهم من فورهم ليبتليكم بكثرة الانعام عليكم والتخفيف عنكم. وقال أبو مسلم الأصفهاني: المعنى من الصرف أنه تعالى أزال ما كان في قلوب الكفار من الرعب من المسلمين عقوبة لهم على عصيانهم وفشلهم، ومعنى الابتلاء أنه جعل ذلك الصرف محنة عليهم ليتوبوا عما خالفوا فيه أمره، ثم أعلمهم أنه قد عفا عنهم. قال القاضي: ظاهر قوله تعالى: «**وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ**» يقتضى تقدم ذنب منهم، فإن كان ذلك الذنب من الصغائر صح أن يصف نفسه بالعفو عنهم من غير توبة. وإن كان من باب الكبائر فلا بد من اضممار توبتهم لقيام الدلالة على أن صاحب الكبيرة إذا لم يتب لم يكن من أهل العفو. وقالت الأشاعرة: لا شك أن ذلك الذنب كان من الكبائر لأنهم خالفوا صريح نص الرسول، وصارت تلك المخالفة سبباً لانزهاج عسكر الإسلام، ولقتل جم غفير من الصحابة، ثم إن ظاهر الآية دل على أنه تعالى قد عفا عنهم من غير توبة لأنها غير مذكورة، فصارت الآية دليلاً على أنه قد يعفو عن أصحاب الكبائر أى تفضلاً لما علم من ندمهم على المخالفة، والندم قريب من التوبة إن لم نقل جزءاً منها «**وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**» بالعفو، أو هو متفضل عليهم في جميع الأحوال سواء كانت الدولة لهم أو عليهم، لأن الابتلاء رحمة، كما أن النصر رحمة، وقد يستدل بالآية على أن صاحب الكبيرة مؤمن لأنه سماهم مؤمنين خلافاً ما يقوله المعتزلة من أنه وسط بينها أى لا مؤمن ولا كافر. وقوله تعالى: «**إِذْ تُصْعِدُونَ**» تبعدون في الأرض هارين من العدو يوم أحد، وهو متعلق بعفا والتقدير: ولقد عفا عنكم حين صعودكم هارين في الجبل، وقيل هو استئناف، أو ابتداء كلام لا تعلق له بما قبله، وقرأ الحسن **تَصْعِدُونَ** — بفتح التاء — من الصعود. وهو الارتقاء من أسفل إلى أعلى كالصعود على الجبل وعلى السلم، وللمفسرين في معنى الآية قولان: أحدهما. أنه صعودهم في الجبل عند الهزيمة، والثاني أنه الابعاد في الأرض في حال الهزيمة ووقت الحرب. وقوله: «**وَلَا تَلُونَّ عَلِيَّ أَحَدٍ**» أى لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره. أى لأن من شأن المنتظر أن يلوى عنقه نحو من يريد انتظاره «**وَالرَّسُولُ**

يدعوكم في أخراكم» عبارة أبي السعود «في أخراكم» في ساقتم وجماعتكم الأخرى. وفي البيضاوي يقول: إلى عباد، الله إلى عباد الله، أنا رسول الله من يكرّ فله الجنة* فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى نفسه حتى يجتمعوا عنده ولا يتفرقوا، وهو الأقرب. ويحتمل أنه كان يدعوهم إلى محاربة العدو وهو بعيد إذ لا يمكنهم تلك المحاربة وهم على حالهم تلك من التفرق والتولية، وقد صح أن القوم تقدموه منزهين وبقى هو صلى الله عليه وسلم في الجماعة المتأخرة «فَأَتَابِكُمْ غَمًّا بَعَثَ» أى جازاكم غمّ الهزيمة بسبب غمكم للرسول بالمخالفة والهزيمة، وسميت العقوبة التي نزلت بهم ثواباً على سبيل المجازل لأن لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، وقد يجوز استعماله في الشر لأنه مأخوذ من ثاب إذا رجع، فأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيراً أو شراً، فتي حملنا لفظ الثواب على أصل اللغة كان حقيقة، ومتى حملناه على الأغلب كان مجازاً. كذا في الخازن. وقيل الباء بمعنى على. أى مضاعفاً على غم فوق الغنيمة «لِكَيْلًا» لكنى متعلق بعبء، ولا من لكيلا نافية لا زائدة كما ذكر الجلال. أى عفا عنكم لأجل أن ينتفى حزنكم «تَحَزَّنُوا عَلَيَّ مَا فَاتَكُمْ» من الغنيمة «وَلَا مَا أَصَابَكُمْ» من القتل والهزيمة. وقد روى أنهم لما سمعوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل نسوا ما أصابهم وما فاتهم من الغنيمة «وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» أى هو عالم بجميع أعمالكم خيرها وشرها فيجازيكم عليها* والآيات فيما بعدها في غزوة أحد.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ* أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ
كَمَنْ بَاءَ بِسَخِطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ»
سورة آل عمران (الآية: ١٦١، ١٦٢)

في الواحدى: عن ابن عباس قال: فقدت قطيفة حمراء يوم بدر مما أصيب من المشركين، فقال أناسٌ — أي من المنافقين — لعل النبي صلى الله عليه وسلم أخذها، فأنزل الله تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ..» قلت: والحديث أخرجه أبو داود والترمذي وقال هذا حديث حسن غريب. وقال قتادة: نزلت، وقد غل طوائف من

أصحابه ۞ وقال الكلبي ومقاتل: نزلت حين ترك الرماة يوم أحد طلباً للغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أخذ شيئاً فهو له، وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [ظننتم أننا نغفل ولا نقسم لكم] فأنزل الله هذه الآية ۞ زاد الخطيب عما في الواحدى: وقال محمد بن اسحاق بن يسار. هذا في الوحي يقول: ما كان لنبي أن يكتم شيئاً من الوحي رغبة أو رهبة، أو مداهنة كان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن، وفيه سب دينهم، وسب آلهتهم، فسألوه أن يترك ذلك فنزلت ۞ وروى أنه صلى الله عليه وسلم غنم في بعض الغزوات، وجمع الغنائم، وتأخرت القسمة لبعض الموانع، فجاؤ قوم وقالوا: ألا تقسم غنائمنا؟ فقال عليه السلاة والسلام: [لو كان لكم مثل أخذ ذهباً ما حبست عليكم منه درهماً، أتحسبون أنى أغلکم مغنمکم] فنزلت «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» وكل ما ذكر موجود في الخازن وابن كثيره وفي الزمخشري: أنه بعث طلحة فغنمت غنائم فقسّمها ولم يقسم للطلحة، فنزلت. يعنى وما كان لنبي أن يعطى قوماً ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية، وسمى حرمان بعض الغزاة غلواً تغليظاً وتقبيحاً لصورة الأمر.

والغلول: هو الخيانة، وأصله أخذ الشيء في خفية يقال غل فلان يغل — قرىء بفتح الياء وضم الغين — أي وما كان لنبي أن يخون. لأن النبوة والخيانة لا يجتمعان ذلكم أن منصب النبوة أعظم المناصب وأشرفها وأعلاها فلا تليق به الخيانة لأنها في نهاية الدناءة والخسة، والجمع بين الضدين محال، فثبت بذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يخن أمته في شيء لا من الغنائم ولا من الوحي، وقيل: المراد به الأمة لأنه قد ثبت براءة ساحة النبي صلى الله عليه وسلم من الغلول والخيانة. فدل ذلك على أن المراد بالغلول غيره. وقيل: اللام فيه منقولة معناه، ما كان لنبي ليغل على نفي الغلول عن الأنبياء ۞ وقيل: معناه ما كان لنبي الغلول. أراد ما غلّ نبي قط، فنفي عن الأنبياء الغلول، وقيل: وما كان يحل لنبي الغلول، وإذا لم يحل له لم يفعله... وقرىء يغل — بضم الياء وفتح الغين — ولها معنيان أحدهما أن يكون من الغلول أيضاً، ومعناه: وما كان لنبي أن يخان. أي تخونه أمته. والثاني: أن يكون من الأغلال، ومعناه: وما كان لنبي أن يخون أي ينسب إلى الخيانة. الخازن ۞ وقوله «وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» حاملاً له على عنقه. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات يوم فذكر الغلول فعضمه وعظم أمره حتى قال: [لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاء يقول يا رسول الله: أغثنى، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكَ. لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حَمَحَمَةٌ، فيقول يا رسول الله: أغثنى، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتكَ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول يا رسول الله: اغثنى، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتكَ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول يا رسول الله: أغثنى، فأقول: لا أملك لك شيئاً فقد أبلغتكَ] لفظ مسلم، الرغاء: صوت البعير، والثغاء: صوت الشاة، والصامت: الذهب والفضة، وروى الشيخان عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهباً ولا ورقاً، غنمنا المتاع والطعام والثياب، ثم انطلقنا إلى الوادي. يعني وادي القرى، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد له، وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة بن زيد من بني الضبيب، فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلّ رحله، فرمى بسهم عائر فكان فيه حتفه، فقلنا: هنيئاً له، شملته الشهادة يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كلا، والذي نفس محمد بيده إنَّ الشملة لتلتهب عليه ناراً أخذها من الغنائم يوم خيبر، لم تصبها المقاسم] قال: ففزع الناس، فجاء رجل بشراك أو شركين، فقال: أصبها يوم خيبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [شراك من نار، أو شرأ كان من نارٍ الشراك: سير النعل الذي يكون على ظهر القدم، والسهم العائر: هو السهم الذي لا يدري من رماه، والأحاديث في وعيد الغلول والغال كثيرة يكتبني بما ذكر «ثُمَّ تُوفَى كُلُّ نَفْسٍ» الغال وغيره جزاء «بِمَا كَسَبَتْ» عملت، «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» شيئاً، وجملة ثم توفي كل نفس... معطوفة على الشرطية، وفيها إعلام بأنَّ الغال وغيره من جميع الكاسبين لا بدَّ أن يجازوا، فيندرج الغال تحت هذا العموم أيضاً فكأنه ذكر مرتين وفي السمين: قال الزمخشري: فإن قلت هلاًّ قيل، ثم يُوفى ما كسب ليتصل به. قلت: جىء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره. فاتصل به من حيث المعنى، وهو أثبت وأبلغ أي كل نفس لا يظلمون شيئاً لأنّه عادل في حكمه.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

« أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذِنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ »

سورة آل عمران (الآية: ١٦٥ - ١٦٨)

في الواحدى: قال ابن عباس: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذه الفداء، فقتل منهم سبعون، وفرت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله تعالى «أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» إلى «صادقين» وفي «قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ» قال: بأخذكم الفداء كما عملت. أي «أَوْلَمَّا» أي حين «أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ» بأحد قتل سبعون منكم «قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا» ببدر بقتل سبعين وأسر سبعين «قُلْتُمْ» متعجبين «أَنَّى» أي من أين لنا «هَذَا» القتل والهزيمة، ونحن مسلمون ورسول الله فينا، والجملة الأخيرة في محل الاستفهام الإنكارى. «قُلْ» لهم يا محمد «هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ» أي هو مما اقترفته أنفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات في المركز والمطوعة في الأمر. أي لما خالفتم نبيكم وكلمت لأنفسكم، روى عبيدة السلماني عن علي رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: [إن الله قد كره ما صنع قومك من أخذهم الفداء من الأسارى، وقد أمرك أن تخيرهم بين أن يُقَدِّمُوا — أي الأسارى — فتضرب أعناقهم وبين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عددهم] فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

للناس، فقالوا: يا رسول الله عشائرتنا وإخواننا، لا بل نأخذ منهم فداءهم، فنتقوى به على قتال أعدائنا، ويستشهد منا عدتهم، فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى بدر، وهذا معنى قوله تعالى: «هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ» أي بأخذكم الفداء واختياركم للقتل «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فيقدر على النصر وعلى منعه، وعلى أن يصيب منكم تارة، ويصيب منكم أخرى تأديباً لكم. «وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّيِّ الْجَمْعَانِ» جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة «فَبِأُذُنِ اللَّهِ» أي فهو كائن بعلمه وقضائه وإرادته «وَلْيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ» أي يميز ويظهر للعيان ما كان في علمه الأزلّي «وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَبُوا» المنافق من: يظهر كلمة الإيمان ويطن الكفر. قال أبو عبيدة: مشتق من نافقاء اليربوع لأن جحر اليربوع له بابان: القاصعاء والنافقاء، فإن طلب من أيها يخرج من الآخر، فقييل للمنافق إنه منافق، وهو اسم إسلامي لأنه صنع لنفسه طريقين، إظهار الإسلام، وإضمار الكفر، فن أيها طلب خرج من الآخر، «وَقِيلَ لَهُمْ» أي وليظهر للعيان الذين قيل لهم، وهم الذين تفرقوا عن القتال، وقالوا: علام نقاتل، ونلقى أنفسنا في القتل فيقتل بعضنا بعضاً فرجعوا، وهم عبد الله بن أبي وأصحابه، وكانوا ثلاثمائة من جملة الألف، الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم «تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» الكفار «أَوْادِفَعُوا» عتا أي إن كان في قلبكم حب الإيمان فقاتلوا للدين، وإن لم تكونوا فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأهلكم وأموالكم لأن الكفار لا يفرقون في حربهم بين المنافقين والمؤمنين «قَاتِلُوا لَوْ نَعَلَّمُ» أنكم تلقون حرباً «لَا تَبْعَنَا كُمْ» ولكن لا تلقون قتالاً. قال الله تكديباً لهم: «هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ» أي يوم إذ قالوا لو نعلم قتالاً لا تبعنناكم «أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ» لانقطاعهم وارتدادهم، وما ذكروه من النفاق مؤذن بكفرهم. وقيل: المعنى على حذف مضاف. أي هم لأهل الكفر أقرب منهم لأهل الإيمان. بما أظهروا من خذلانهم للمؤمنين بسبب أنهم كانوا «يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ» أي يظهرون خلاف ما يضمرون، ولا تواطىء قلوبهم ألسنتهم بالإيمان، فهم وإن كانوا يُظهرون الإيمان باللسان لكنهم يضمرون في قلوبهم الكفر، ومما يدل على نفاقهم أن إيمانهم موجودٌ في أفواههم فقط «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ» في ضمائرهم من النفاق والحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ومما يخلو به بعضهم إلى بعض فإنه يعلم ذلك مفضلاً بعلم واحد. وأنتم تعلمونه مجملًا بأمارات

«الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ» أي لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد، أو إخوانهم بالنسب، أو في سكنى الدار، أو عداوة النبي صلى الله عليه وسلم «وَقَعَدُوا» حال مقدرة أي قالوا قاعدين عن القتال «لَوْ أَطَاعُونَا» في القعود «مَا قُتِلُوا» كما لم نقتل. وأكثر المفسرين على أن القائل ذلك هو أبي بن خلف وأصحابه «قُلْ» لهم «فَادْرُوا» ادفعوا «عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» في أن القعود ينجى من الموت لأنكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت لم تقدرُوا على دفع سائر أسبابه المبشوة، ولا بُدَّ لكم أن يتعلق بكم بعضها، روى أنه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» فَرَحِينِ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ»
سورة آل عمران (الآية: ١٦٩ - ١٧١)

في الواحدى: عن ابن عباس رضي الله عنها قال: لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أرواحهم في أجواف طير خضيرٍ تردُّ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب ما كلهم ومشهم ومقبلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا أننا في الجنة نرزق لثلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا في الحرب، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا» إلى «لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ» وهو الصحيح. وقال جابر بن عبد الله: نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [مألى أراك منكساً مهتماً؟ قلت: يا رسول الله قتل أبى وترك ديناً وعبالاً، فقال: ألا أخبرك؟ ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وإنه كلم أباك كفاحاً، فقال: عبدى سلى أعطك، قال: أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية. فقال: إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون، قال: يارب فأبلغ من ورائى، فأنزل الله تعالى «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا...» [قلت:

أخرجه ابن ماجه في سننه. والترمذى في جامعه، وقال: هذا حديث حسن غريب. وقال سعيد بن جبیر: لَمَّا أُصِيبَ حَمَزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ، وَمَصْعَبُ بْنُ عَمِيرِیَوْمٍ أَحَدًا، وَرَأَوْا مَا رَزَقُوا مِنَ الْخَيْرِ، قَالُوا: لَيْتَ إِخْوَانُنَا يَعْلَمُونَ مَا أَصَابَنَا مِنَ الْخَيْرِ كَمَا يَزِدَادُوا فِي الْجِهَادِ رَغْبَةً، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنْكُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ «وَفِي الْبَيْضَاوَى: وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي شُهَدَاءِ بَدْرٍ أَيْ وَكَانُوا أَرْبَعَةَ عَشْرَةَ شَهِيدًا ثَمَانِيَةً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَسِتَّةً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ» إِلَّا أَنَّ الْمُتَعَارِفَ عِنْدَ الْمُفَسِّرِينَ اعْتِمَادًا عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْقَاضِي زَكَرِيَّا أَنَّ شُهَدَاءَ بَدْرٍ نَزَلَ فِيهِمْ آيَةُ الْبَقْرَةِ «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَمْوَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» «وَفِي الْقُرْطُبِيِّ: وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي شُهَدَاءِ بَدْرٍ مَعُونَةٍ وَقِيلَ: هِيَ عَامَةٌ فِي جَمِيعِ الشُّهَدَاءِ. قُلْتُ: وَهُوَ الصَّحِيحُ لِأَنَّهُ خُطَابٌ عَامٌ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. وَفِي الْقُرْطُبِيِّ أَيْضًا: وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّ أَوْلِيَاءَ الشُّهَدَاءِ كَانُوا إِذَا أَصَابَتْهُمْ نِعْمَةٌ وَسُرُورٌ تَحَسَّرُوا، وَقَالُوا: نَحْنُ فِي النِّعْمَةِ وَالسُّرُورِ وَأَبْنَاؤُنَا وَأَبْنَاؤُنَا وَإِخْوَانُنَا فِي الْقُبُورِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، تَنْفِيسًا عَنْهُمْ وَإِخْبَارًا عَنْ حَالِ قِتْلِهِمْ» قَوْلُهُ تَعَالَى «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا» الْخُطَابُ لِلرَّسُولِ أَوْ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَمَنْ قَرَأَ عَلَى الْغَيْبَةِ فَالضَّمِيرُ لِلرَّسُولِ. أَوْ الْمُرَادُ لَا يَحْسَبَنَّ حَاسِبًا. أَوْ لَا يَحْسَبْتَهُمْ أَمْوَاتًا. وَالْحَسْبَانُ: هُنَا بِمَعْنَى الظَّنِّ أَيْ وَلَا تَظُنَّنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِأَجْلِ دِينِهِ أَمْوَاتًا «بَلْ» هُمْ «أَمْوَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» أَيْ ذُو لَقَبٍ مِنْهُ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ الْقُرْبَ الْمَكَانِي لِاسْتِحَالَتِهِ. وَلَا بِمَعْنَى فِي عِلْمِهِ وَحُكْمِهِ لِعَدَمِ مَنَاسِبَةِ الْمَقَامِ لَهُ، بَلْ بِمَعْنَى الْقُرْبِ شَرَفًا وَرَبَّةً وَقَوْلُهُ «يُرْزَقُونَ» مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ. رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: [أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خَضِرٍ تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلٍ مَعْلُوقَةٍ تَحْتَ الْعَرْشِ] رَوَاهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ. وَقَوْلُهُ «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» وَهُوَ شَرَفُ الشَّهَادَةِ وَقَبُولُهَا، وَالْقُرْبَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْفَوْزَ بِالْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَالتَّمَتُّعَ بِنِعْمِ الْجَنَّةِ «وَيَسْتَبْشِرُونَ» أَيْ يَفْرَحُونَ، أَوْ يَسْتَبْشِرُونَ بِمَا تَبَيَّنَ لَهُمْ مِنْ حَسَنِ حَالِ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَرَكَوهُمْ، وَهُوَ أَنَّهُمْ عِنْدَ قَتْلِهِمْ أَوْ مَوْتِهِمْ يَفُوزُونَ بِحَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ لَا يَكْذُرُهَا خَوْفٌ وَقَوَعٌ مَحْذُورٌ، وَلَا خَوْفُ فَوَاتٍ مَطْلُوبٌ كَذَا فِي أَبِي السَّعُودِ. وَقَوْلُهُ «بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ» أَيْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَرَكَوهُمْ أَحْيَاءَ فِي الدُّنْيَا عَلَى مَنَاهِجِ الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ لَعَلَّهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا اسْتَشْهَدُوا التَّحَقُّوا بِهِمْ، وَنَالُوا مِنَ الْكِرَامَةِ مَا نَالُوا، فَلِذَلِكَ يَسْتَبْشِرُونَ «مِنْ خَلْفِهِمْ» أَيْ الَّذِينَ مِنْ خَلْفِهِمْ زَمَانًا أَوْ

رتبة «أن» بأن «لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ» أي الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم «وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ» في الآخرة على ما فاتهم من نعيم الدنيا، ومفارقتهم أهلهم وأموالهم. وفي ذكر حال الشهداء، واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقيين بعدهم على ازدياد الطاعة والجد في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء، وإصابة فضلهم، وإحاد لحال من يرى نفسه في خير فيتمتى مثله لإخوانه لأن الله تعالى مدحهم على ذلك وقوله «يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ» لما بين تعالى أنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، بين هنا أنهم يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من التعميم، ولذلك أعاد لفظ الاستبشار، وهو الفرح التام، فلا يتوهم التكرير بتفسير الاستبشار بالفرح «وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ» لَمَّا ذكر إيصال الثواب العظيم إلى الشهداء. بَيَّنَّ أن ذلك ليس مخصوصاً بهم، بل كل مؤمن يستحق شيئاً من الأجر والثواب فإن الله تعالى يوصل ثوابه إليه ولا يضيِّعه * وفي ابن كثير: قال: روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعدّه الله لها من الكرامة، وهو إسناد صحيح عزيز اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة: أصحاب المذاهب المتبعة. فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه] قوله (يعلق) أي يأكل وفي هذا الحديث: أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، أمّا أرواح الشهداء — فكما تقدم — في أجواف طير — وفي رواية: حواصل طير خضر — فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها * وهذا هو الصحيح لأن ما صح به النقل فهو الواقع، وما ذكره ابن كثير فهو نص يرفع الخلاف. وقد ذكر القرطبي في التذكرة: أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء والشهداء والعلماء والمؤذنين المحتسبين وحمة القرآن * فنسأل الله الكريم المنان أن يمتتنا على سنتهم، ويحشرنا تحت لواء سيّد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وهل الشهيد يُغسَلُ ويصلى عليه؟ : ذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة والثوري إلى أن الشهداء يغسلون ويصلى عليهم إلا قتيل المعتك في قتل العدو خاصة، لحديث جابر، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: [ادفونهم بدمائهم وثيابهم] وهذا قال أحمد وإسحاق

والأوزعى وداود بن عليّ وجماعة فقهاء الأمصار، وأهل الحديث، وابن عليّة. وقال سعيد بن المسيّب والحسن يَغْسَلُونَ: وقالوا: إنما لم تَغْسَلْ شهداء أحد لكثرتهم، والشغل عن ذلك. قال أبو عمر: ولم يقل أحد بقول سعيد والحسن هذا أحد من فقهاء الأمصار إلا عبد الله بن الحسن العبري، وليس ما ذكروا من الشغل عن غسل شهداء أحد علة، لأن كل واحد منهم كان له وليٌّ يشتغل به، ويقوم بأمره، والعلّة في ذلك — والله أعلم — ما جاء في الحديث في دمائهم [أنها تأتي يوم القيامة كريح المسك] فبان أن العلة ليست الشغل كما قال من قال ذلك أما الصلاة عليهم. فذهب مالك والليث والشافعي وأحمد وداود إلى أنّه لا يصلّي عليهم لحديث جابر المتقدم، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتل أحد في ثوب واحد، ثم يقول: أيها أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير إلى أحدهم قدّمه في اللحد وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة. وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يَغْسَلُوا ولم يصل عليهم * وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشام: يصلّي عليهم. ورووا آثاراً كثيرة لا تخلوا من الضعف، بل أكثرها مراسيل منها أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على حمزة، وعلى سائر شهداء أحد، لكن أجمع العلماء على أن الشهيد إذا حمل حياً ولم يميت في المعترك، وعاش وأكل فإنّه يُصَلَّى عليه، كما قد صنع بعمر رضي الله عنه * واختلّفوا فيمن قتل مظلوماً كقتيل الخوارج. وقطاع الطريق وشبه ذلك. قال أبو حنيفة والثوري: كل من قتل مظلوماً لم يَغْسَلْ، ولكنّه يصلّي عليه، وعلى كل شهيد، وهو قول سائر أهل العراق، ورووا من طرق كثيرة صحاح عن زيد بن صوحان، وكان قتل يوم الجمل، (لا تنزعوا عنى ثوباً، ولا تَغْسَلُوا عنى دماً) وثبت عن عمّار بن ياسر أنه قال مثل قول زيد هذا، وقتل عمّار بن ياسر بصقّين، ولم يَغْسَلْهُ عليٌّ كرم الله وجهه. وللشافعي في المظلوم قولان: أحدهما: يَغْسَلْ كجميع الموقى إلّا من قتله أهل الحرب، وهذا قول مالك: لا يَغْسَلْ من قتله الكفار، ومات في المعترك. وكل مقتول بغير المعترك فإنه يَغْسَلْ ويصلّي عليه، وهذا قول أحمد رضي الله عنهم جميعاً، والقول الآخر للشافعي: لا يُغْسَلْ قتيل البغاة، ويرجح قول مالك لأن غسل الموقى قد ثبت بالاجماع ونقل الكافة، فواجب غسل كل ميت إلّا من أخرجه إجماع أو سنة. وهذه الآية تدل على عظيم ثواب القتل في سبيل الله، والشهادة فيه حتى أنّه يكفر الذنوب كما قال صلى الله عليه وسلم: [القتل في سبيل الله يكفر كل شيء إلّا الدّين، كذلك قال جبريل آنفاً] وذكر الدّين تنبيه على ما في معناه

من الحقوق المتعلقة بالذم، كالغضب، وأخذ المال بالباطل، وقتل العمد وجراحه، وغير ذلك من التبعات، فإنَّ كل هذا أولى ألا يغفر بالجهاد، ومن الدّين فهو أشدُّ. والقصاص في كل هذا بالحسنات والسيّات حسبها وردت به السنة الثابتة. روى عبد الله بن أنيس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [يحشر الله العبادَ — أو قال الناسَ — وأوماً بيده إلى الشام عرأةً عزلاً بهماً. قلنا: ما بئهم؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من قرب، ومن بعد: أنا الملك. أنا الديان لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وأحدٌ من النَّاس يطلبه بمظلمة حتى اللطمة. قال: قلنا: كيف وإنا نأتى الله حفاة عرأةً عزلاً؟ قال: بالحسنات والسيّات] أخرجه الحارث بن أبي أمامة وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس من فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إنَّ المفلس من أمتي من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا. وأكل مال هذا، وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النَّار] وقال عليه الصلاة والسلام: [والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحبي، ثم قتل، ثم أحبي، ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى عنه] وروى الترمذي عن المقداد بن معدٍ كَرِبَ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لشهيدي عند الله ست خصال] كذا في الترمذي وابن ماجه — (ست) وهي في العدد سبع كذا في حاشية السندی على سنن ابن ماجه — [يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار. الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين. ويشفع في سبعين من أقاربه] قال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وهذا الحديث كيان للنعمة والفضل في قوله تعالى: «**يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ**»، ومن كرامة الشهداء على الله تعالى أنه جل جلاله يتولى قبض أرواحهم. روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [أكرم الله تعالى الشهداء بخمس كرامات لم يكرم بها أحداً من الأنبياء، ولا أنا. أحدها: أن جميع الأنبياء قبض أرواحهم ملك الموت، وهو الذي سيقبض روحى، وأما الشهداء فالله هو الذي يقبض أرواحهم بقدرته كيف يشاء، ولا يسلط على أرواحهم

ملك الموت. والثاني: أن جميع الأنبياء قد غسلوا بعد الموت، وأنا أغسَل بعد الموت، والشهداء لا يغسلون، ولا حاجة لهم إلى ماء الدنيا، والثالث: أن جميع الأنبياء قد كُفِّتُوا وأنا أكفن، والشهداء لا يكفنون بل يدفنون في ثيابهم، والرابع: أن الأنبياء لمَّا ماتوا سُمُّوا أمواتاً، وإذا مِتُّ يقال مات، والشهداء لا يسمون موتى. والخامس: أن الأنبياء تعطى لهم الشفاعة يوم القيامة، وشفاعتي أيضاً يوم القيامة، وأما الشهداء فإنهم يشفعون في كل يوم فيمن يشفعون [القرطبي] * وفي الطبري: عن مسروق بن الأجدع قال: سألت عبد الله بن مسعود عن هذه الآيات «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا» قال: أما إنا قد سألتنا عنها فقيل لنا: (إنه لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فيطلع الله إليهم إطلاعة فيقول: عبادى ما تشتهون فأزيدكم. فيقولون: ربنا لا فوق ما أعطيتنا الجنة نأكل منها حيث شئنا ثلاث مرات، ثم يطلع فيقول: يا عبادى ما تشتهون فأزيدكم، فيقولون: ربنا لا فوق ما أعطيتنا الجنة نأكل منها حيث شئنا. إلا أنا نختار أن ترد أرواحنا في أجسادنا ثم تردنا إلى الدنيا فنقاتل فيك مرة أخرى). وفي رواية مسروق: (إني قد قضيت أن لا ترجعوا) وفي رواية محمود بن لبيد الأنصارى عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً] وبقية ما في التفاسير لا زيادة فيها عمَّا ذكر إلا في تغيير بعض الألفاظ والمعنى واحد.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَتَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَتَكُنُّبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ»

سورة آل عمران (الآية: ١٨١، ١٨٢)

في الواحدى: قال محمد بن اسحاق: دخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه ذات يوم بيئت مدارس اليهود، فوجد ناساً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يُقال له فنحاص بن عازوراء، وكان من علمائهم، فقال أبو بكر لفنحاص: اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم

أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فأمن وصدّق، وأقرض الله قرضاً حسناً يدخلك الجنة، ويضاعف لك الثواب، فقال فنحاص: يا أبا بكر، تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا، وما يستقرض إلاّ الفقير من الغنى، فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذن فقير، ونحن أغنياء، ولو كان غنياً ما استقرض أموالنا. فغضب أبوبكر رضي الله عنه، وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك لضربت عنقك، يا عدو الله. فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد انظر إلى ما صنع بي صاحبك؟ فقال: يا رسول الله إنّ عدو الله قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء، فغضبت لله وضربت وجهه، فجدد ذلك فنحاص، فأنزل الله عز وجل رداً على فنحاص، وتصديقاً لأبي بكر: «لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ..» وهذا فنحاص هو الذي قال: يد الله مغلولة، قاله شبل * وفي الخطيب: قال الحسن ومجاهد: لما نزل قوله تعالى «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهُ قَرْضاً حَسَنًا» قالت اليهود: إنّ الله فقير يستقرض منّا ونحن أغنياء، فأنزل الله تعالى «لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ..» وذكر الحسن أن قائل هذه المقالة حييُّ بن أخطب. وقال عكرمة: هو فنحاص بن عازوراء * وقال عكرمة والسدي ومقاتل ومحمد بن اسحاق: كتب النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر الصديق إلى يهود بني قينقاع يدعوهم إلى الإسلام، وإلى إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً. فدخل أبوبكر رضي الله عنه ذات يوم بيت مدارس اليهود... الخ. ما في الواحدى * وكذا في الطبرى: إلاّ أنه بلفظ: فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، قال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتصرّع إليه كما يتصرّع إلينا، وإنا عنه لأغنياء. ولو كان غنياً ما استقرض منّا كما يزعم صاحبكم، ويناهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبوبكر... الخ. ما تقدم في الواحدى * ولفظه في ابن كثير، وقال: رواه أبوحاتم، وفي الكرخي القائل ذلك: جماعة من اليهود منهم حييُّ بن أخطب وفنحاص بن عازوراء وكعب بن الأشرف * وفي المراعى: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ

الله قَرَضاً حَسَناً» فقالوا: يا محمد، أفقيرُ ربِّكَ، يسألُ عباده القرض؟ نحنُ أغنياءُ،
فأنزل اللهُ «لَقَدْ سَمِعَ..» الآية. والحقُّ أن النزولَ كان إلى قوله تعالى: «وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ» وقوله تعالى «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ
أَغْنِيَاءُ» أي علمه وأحصاه، والمقصود من هذا تهديد القائلين ما ذكره، وإعلامهم أَنَّهُمْ لا
يفوتهم من جزائه شيء، وقد علمت أن هذه المقالة قد صدرت عن جمع من اليهود، ولا
يخلو إِمَّا أن يكونوا قالوا هذه المقالة عن اعتقاد لذلك القول، أو قالوها استهزاءً، وأيها
كان فهذه المقالة عظيمة القبح لا تصدر عن عاقل، وإنما صدرت عن كافر متمردٍ في كفره
وضلاله. وموسى عليه السلام لما طلب من اليهود الجهاد ببذل النفوس قالوا له «إِذْهَبْ
أَنْتَ وَرَبِّكَ فَفَاتِنَا..» فلا يبعد أنَّ محمداً صلى اللهُ عليه وسلم لَمَّا طلب منهم الأموال
قالوا له: لو كان الإله غنياً فأبي حاجته إلى أموالنا، ثم إنَّ القائل لو كان فنحاص وحده
فإنما يستقيم قوله «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا» لأنَّ اختبار الرجل والمقتدين به
حكّمهم حكمه، ثم إنَّه تعالى لم يجبه عن شبهتهم. إِمَّا على قول أهل السنة فبأن يقول: يفعل
الله ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا يبعد أن يأمر عبده ببذل المال مع كونه أغنى الأغنياء،
وأَمَّا على قوانين المعتزلة: فبأن في هذا التّكليف فوائد، منها إزالة حبِّ المال عن القلب،
ومنها التوسُّل إلى الثواب المُخلَّد، ومنها تسخير البعض للبعض، فبذلك ترتبط أمور التمدن
وتنتظم أحوال صلاح المعاش والمعاد، وإنما لم يجب لكثرة ورودها في القرآن «لن ننالوا
البرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ
أَضْعَافاً كَثِيرَةً».. الخ. ما هنالك من آيات في الموضوع. ولأنَّ وجوب الوجود عبارة عن
الغنى المطلق حتّى لا يحتاج في ذاته ولا في شيء من صفاته، ولا بجهة من جهاته إلى ما
سوى ذاته، فمن اعترف بوجوب وجوده، ثم شك في كمال غناه في وجوده فقد عابه
بالنقص على موضوعه، فلا يستحق الجواب عند أولى الألباب، وإنما يستأهل صنوف من
العتاب، وضروباً من العذاب، فلهذا قال على جهة الوعيد «سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا» في
صحائف الحفظه، أو نستحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب فلا ينسى،
وفي التفسير الكبير: سنكتب عنهم هذا الجهل في القرآن حتى يبق على لسان الأمة إلى يوم
القيامة، ثم عطف عليه قتلهم الأنبياء فقال: «وَ» نكتب «وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ»
وذلك ليبدل على أنهم كما لم يقدرُوا اللهُ حقَّ قدره حتى نسبوا إليه ما نسبوه، فكذلك لم

يقضوا حقوق الأنبياء ففعلوا بهم ما فعلوا «ونقول» على لسان الملائكة «ذوقوا عَذَابَ الحريق» النار، ويقال لهم إذا ألقوا فيها «ذَلِكَ» العذاب «بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ» عبر بها عن الانسان لأن أكثر الأفعال تراول بها كالسب والقتل أي جعل كل عمل كالواقع بالأيدى على سبيل التغليب، وإن كان بعضه باللسان، أو بسائر الجوارح والآلات، وإنما جمع لأن المخاطب جمع، ولو كان مفرداً قيل: بما قدمت يداك مثني كما في سورة الحج قوله «وَأَنَّ اللَّهَ» أي وبأن الله، فهو معطوف على مدخول الباء «لَيْسَ بِظُلَّامٍ» أي بذي ظلم «للعبيد» فيعذبهم بغير ذنب، بل هو سبحانه وتعالى عادل، ومن العدل أن يعاقب المسيء ويثيب المحسن.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا الْأَنْتُومِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنَّ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاؤَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالرُّبْرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ»

سورة آل عمران (الآية: ١٨٣، ١٨٤)

في الواحدى: قال الكلبي: نزلت في كعب بن الأشرف. ومالك بن الصيف، وهب بن يهوذا وزيد بن تابوه، وفنحاص بن عازوراء، وحيي بن أخطب، أتورسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: تزعم أن الله بعثك إلينا رسولاً، وأنزل عليك كتاباً، وأن الله قد عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي الخطيب: وقال السدي: هذا الشرط جاء في التوراة ولكنه مع شرط آخر، وهو أن الله تعالى أمر بني إسرائيل: من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتياكم بقربان تأكله النار، حتى يأتياكم المسيح ومحمد، فإذا أتياكم فآمنوا بها فإنها يأتيا بغير قربان، وقيل: كان أمر المقرين ثابتاً إلى أن نسخت على لسان عيسى بن مريم، وعن ابن عباس في قوله تعالى «حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ» قال: كان الرجل يتصدق، فإذا تُقْبِلَ منه أنزلت عليه نار من السماء فأكلته * وقيل: إن ادعاء هذا الشرط كذب على التوراة، وهو من كذب اليهود

وتحريفهم، ويدل على ذلك أن المقصود في الدلالة على صدق النبي هو ظهور المعجزات الخارقة للعادة، فأُتي معجزة أتى بها النبي قبلت منه، وكانت دليلاً على صدقه، وقد أتى النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه، فوجب على كافة الخلق اتباعه، والقربان: كل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل من أعمال البر من نسك وصدقة وذبح وكل عمل صالح، ويدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: [الصوم جُنَّةٌ والصلاة قربان] يعني أنها مما يتقرب بها إلى الله عز وجل. وكانت القربان والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا إذا قَرَّبُوا قرباناً، أو غنموا غنيمَةً جمعوا ذلك، وجاءت نارُ بيضاء من السماء لا دخان لها، ولها دوىٌ وحفيف، فتأكل ذلك القربان أو الغنيمة وتحرقه، فيكون ذلك دليلاً وعلامة على القبول، وإذا لم يقبل بقى على حاله، ولم تنزل ناره وقال عطاء: كانت بنو إسرائيل يذبحون لله فيأخذون الثوب وأطياب اللحم فيضعونها في وسط بيت والسقف مكشوف فيقوم نبيهم عليه السلام في البيت ويناجي ربه عز وجل، وبنوا إسرائيل خارجون حول البيت، فتنزل نار بيضاء لها دوىٌ وحفيف.. الخ. ثم قال تعالى «قُلْ» توبيخاً، وإقامة للحجة عليهم «قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ» بالمعجزات «وَبِالَّذِي قُلْتُمْ» يعني ما طلبوا من القربان، وجاءكم به كزكريا ويحيى قتلتموهم، والخطاب لمن في زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإن كان الفعل لأجدادهم لرضاهم به «فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» في أنكم تؤمنون بالرسول عند الإتيان بالقربان، وقد ذكر الله تعالى مجيء الرسل بالبينات ولم يقتصر على مجيء القربان ليطمئئ الإلزام وذلك أن القوم يحتمل أن يقولوا إن الإتيان بهذا القربان شرط النبوة لا موجب لها، والشرط يلزم من عدمه عدم المشروط لكن لا يلزم من وجوده وجود المشروط، فلوا اكتفى بذكر القربان لم يتم الإلزام، وحيث أضاف إليه البينات ثبت أنهم أتوا بالموجب وبالشرط جميعاً، فكان الأقرب بالنبوة واجباً، ثم سلق رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «فَإِنْ كَذَّبُوكَ» في أصل الشريعة والنبوة، أو في قولك إن الأنبياء الأقدمين جاؤهم بالبينات فقتلتموهم «فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤًا بِالْبَيِّنَاتِ» المعجزات «وَالزُّبُرِ» كصحف إبراهيم والزُّبُرُ واحده زُبُورٌ، وكل كتاب فيه حكمة زُبُورٌ وأصله من الزبر: وهو الزجر، وسمى الكتاب الذي في الحكمة زبوراً لأنه يزبر أي يزجر عن الباطل ويدعو إلى الحق، وهو بمعنى مذبور، أي مكتوب «وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ»

الواضح هو التوراة والإنجيل، وهو عطف خاص إن أريد بالزبر مطلق الكتب، وعطف مغاير إن أريد بها خصوص الصحف، وعطف الكتاب المنير على الزبر لأن الكتاب بوصفه بالإنارة، أو بالاستنارة أشرف من مطلق الزبر، وأنه نص بعد العموم لشرفه. مثل وملائتكه وجبريل وميكال.

*** (القول في سبب نزول قوله تعالى :) ***

«لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آوَتْوَا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أُشْرِكُوا أُذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» سورة آل عمران (الآية: ١٨٦)

في الواحدى: ذكر المفسرون أن كعب بن الأشرف كان شاعراً، وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم، ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون ومنهم المشركون ومنهم اليهود، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستصلحهم، فكان المشركون واليهود يؤذونه و يؤذون أصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ذلك، وفيهم أنزل الله **«وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آوَتْوَا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أُشْرِكُوا أُذَى كَثِيرًا..»** الآية وقال عروة بن الزبير: أخبرني أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمارٍ على قطيفة فديكة، وأردف أسامة بن زيد، وسار يعود سعد بن عبادة في بني الحرث بن الخزرج قبل وقعة بدر، حتى مرّ بمجلس فيه عبدالله بن أبيّ، وذلك قبل أن يسلم عبدالله بن أبيّ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، وفي المجلس عبدالله بن رواحة، فلما غشى المجلس عجاجة الدابة حمّر عبدالله بنى أبيّ أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبروا علينا، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم وقف، فنزل ودعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبدالله بن أبيّ: أيها المرء إنه لا أحسن مما نقول إن كان فليم تؤذينا به في مجلسنا؟ ارجع إلى رحلك، فن جاءك فأقصص عليه. فقال عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك، واستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتساورون فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يُخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته وسار حتى دخل على سعد بن عبادة

فقال له: يا سعد ألم تسمع ما قال أبو حباب؟ يريد عبد الله بن أبي: قال: كذا وكذا، فقال سعد بن عباد: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي نزل عليك، وقد أصلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجه، ويعصوه بالعصاة، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرف بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى «**وَلتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آؤتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيراً**». قلت: وأصل هذا في الصحيحين* وفي الخطيب: واختلف في سبب نزول هذه الآية. قال ابن جريج والكلبي ومقاتل: نزلت في أبي بكر وفنحاص، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر إلى فنحاص اليهودى ليستمده، وكتب إليه كتاباً، فجاء أبو بكر رضي الله عنه وهو متوشح بالسيف فأعطاه الكتاب، فلما قرأه قال: احتاج ربك إلى أن نمده، فهم أبو بكر رضي الله عنه أن يضربه بالسيف فتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: [لا تفتتن عليّ بشيء ترجع] ونزلت* وقال الزهري: نزلت في كعب بن الأشرف كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعره، ويسب المسلمين، ويحرض المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه في شعره، ويتشبه بنساء المسلمين، حتى بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة وأصحابه فقتله القتلة المشهورة كما في السير وصحيح الخبر، وهي: أن انطلق خمسة نفر من الأنصار فيهم محمد بن مسلمة، ورجل يقال له: أبو عيس، فأتوه وهو في مجلس قومه بالعوالي، فلما رأهم ذعر منهم، فأنكر شأنهم، وقالوا: جئناك لحاجة، قال: فليدن إلى بعضكم فليحدثني بحاجته، فجاءه رجل منهم: فقال: جئناك لنبيعك أدرعاً عندنا لنستنفق بها، فقال: والله لئن فعلتم لقد جهدتم منذ نزل بكم هذا الرجل، فواعدوه أن يأتوه عشاء حين هدأ عنهم الناس، فأتوه فنادوه، فقالت امرأته: ما طرقت هؤلاء ساعتهم هذه لشيء مما تحب، قال: إنهم حدثوني بحديثهم وشأنهم، قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة أنه أشرف عليهم فكلهم فقال: أترهنوني أبناءكم، وأراد أن يبيعهم تماً، قال: فقالوا: إنا نستحي أن تعير أبناءنا، فيقال هذه رهينة وسق، وهذا رهينة وسقين، فقال: أترهنوني نساءكم؟ قالوا: أنت أجمل الناس ولا نأمنك، وأي امرأة تمتنع منك لجمالك، ولكننا نرهنك سلاحنا، فقد علمت حاجتنا إلى السلام اليوم، فقال: اثتوني بسلاحكم، واحتملوا ما شئتم، قالوا: فأنزل إلينا نأخذ عليك وتأخذ علينا،

فذهب ينزل فتعلقت به امرأته وقالت: أرسل إلى أمثالهم من قومك يكونون معك. قال: لو وجدني هؤلاء نائماً ما أيقظوني، قالت: فكلمهم من فوق البيت، فأبى عليها، فنزل إليهم يفوح ريحه، قالوا: ما هذه الريح يا فلان؟ قال: هذا عطر أم فلان. امرأته، فتقدم إليه بعضهم يشتم رائحته، ثم اعتنقه، ثم قال: اقتلوا عدو الله، فطعنه أبو عبس في خصرته، وعلاه محمد بن مسلمة بالسيف فقتلوه، ثم رجعوا فأصبحت اليهود مذعورين، فجاؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: قُتِلَ سَيِّدُنَا غِيْلَةً، فذَكَرَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَنِيعَهُ، وَمَا كَانَ يَحْضُ عَلَيْهِمْ، وَيَحْرُضُ فِي قِتَالِهِمْ وَيُؤْذِيهِمْ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ صَلْحاً، قَالَ: فَكَانَ ذَلِكَ الْكِتَابَ مَعَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى «لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ» اللام جواب القسم المقدّر، والنون دخلت مؤكدة وضمت الواو للساكنين، والتقدير: والله لتُبْلَوْنَ، أي لتختبرن ما ينالهم من الفقر والضر والقتل والجرح والتكاليف الشاقة البدنية والمالية من الصلاة والزكاة والصوم والجهاد، والذي كانوا يسمعون من الكفرة كالطعن في الدين الحنيف وأهله، وإغراء المخالفين وتحريضهم عليهم، وإغواء المنافقين وتنفيرهم عنهم «وأنفسكم» بالعبادات والبلاء «وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» اليهود والنصارى «وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا» من العرب «أدّى كثيراً» من السب والطعن، والتشبيب بنسائكم «وإن تصبروا» على ذلك من قوله: لتبْلَوْنَ في أموالكم، «فإن ذلك من عزم الأمور» أي المذكور من الأمرين: الصبر والتقوى. قال الواحدى: كان هذا قبل نزول آية القتال، وقال الففال: الظاهر أنها نزلت بعد قصة أحد فلا تكون منسوخة بآيات السيف، والمراد الصبر على ما يؤذن به الرسول على طريق الأقوال الجارية فيما بينهم واستعمال مداراتهم في كثير من الأحوال، والأمر بالقتال لا ينافى الأمر بالمصابرة على هذا الوجه.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا
فَلَا تَحْسَبْتَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»
سورة آل عمران (الآية: ١٨٨)

في الواحدى: قال أبوسعيد الخدرى: إن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله صلى

الله عليه وسلم كان إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلّفوا عنه، فإذا
 قدم اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يحمّدوا بما لم يفعلوا فنزلت «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ
 يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا..» الآية رواه مسلم عن الحسن بن عليّ الحلواني عن أبي مريم وفي
 الخطيب: يروى أنه صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء ممّا في التوراة، فكتّموا
 الحقّ، وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدّقوا، وفرحوا بما فعلوا، فأطلع الله تعالى رسوله
 صلى الله عليه وسلم ذلك، وسأله بما أنزل من وعيدهم، أي لا تحسبن اليهود الذين
 يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك، ويحبّون أن يحمّدوا بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق
 عمّا سألتهم عنه ناجين من العذاب * وقيل: هم المنافقون. فإنهم يفرحون بمنافقتهم،
 ويستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذين لم يفعلوه على الحقيقة. ويجوز أن يكون شاملاً
 لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح اعجاب، ويحبّ أن يحمده الناس، ويشنوا عليه
 بالديانة والزهد بما ليس فيه * وفي القرطبي: وفي الصحيحين أن مروان: أي بن الحكم بن
 العاص، وكان يومئذ أميراً على المدينة من قبل معاوية، قال لبّوابه: اذهب يا رافع إلى
 ابن عباس فقل له: لأن كان كل امرئ منا فرح بما أوتي، وأحبّ أن يحمّد بما لم يفعل
 معذباً لتعذبن أجمعون. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما لكم وهذه الآية!! إنما نزلت
 هذه الآية في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا
 وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا..» وقال ابن عباس: سألهم النبي صلى الله عليه
 وسلم عن شيء فكتّموه إياه وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أنه قد أخبروه بما سألهم
 عنه * وقال محمد بن كعب القرطبي: نزلت في علماء بني إسرائيل الذين كتّموا الحقّ، وأتوا
 ملوكهم من العلم ما يوافقهم في باطنهم «واشترّوا به ثمناً قليلاً» أي بما أعطاهم الملوك
 من الدنيا، فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا
 وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ» فأخبر أن لهم عذاباً أليماً بما أفسدوا من الدين على عباد الله * وقال الضحاك: إن
 اليهود كانوا يقولون للملوك: إننا نجد في كتابنا أنّ الله يعث نبيّاً آخر الزمان يحتم به النبوة،
 فلما بعثه الله سألهم الملوك: أهو هذا الذي تجدونه في كتابكم؟ فقال اليهود طمعاً في
 أموال الملوك، هو غيره هذا فأعطاهم الملوك الخزائن فقال الله تعالى: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ
 يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا..» الملوك من الكذب حتى يأخذوا عرض الدنيا * وقال عبيد بن

سليمان: سمعت الضحاك بن مزاحم يقول في قوله «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا» فإنهم فرحوا باجتماعهم على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقالوا: قد جمع الله كلمتنا، ولم يخالف أحداً منا أحداً أنه نبي، وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أهل الصلاة والسلام، وكذبوا وهم أهل كفر وشرك وافتراء على الله تعالى يجنون أن يحمداً بما لم يفعلوا؛ وذكر الضحاك نحو هذا، وقال السدى: إنهم كتموا اسم محمد صلى الله عليه وسلم، وفرحوا بذلك حين اجتمعوا عليه، وكانوا يزكون أنفسهم فيقولون نحن أهل الصيام وأهل الزكاة، ونحن على دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيهم «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا» من كتمان محمد صلى الله عليه وسلم. ويجنون أن يحمداً بما لم يفعلوا، أحبوا أن تحمدهم العرب بما يزكون أنفسهم، وليسوا كذلك. من القرطبي والطبري * وقوله تعالى: «لَا تَحْسَبَنَّ» بالتاء على الخطاب. أي لا تحسبن يا محمد الفارحين الذين يفرحون.. الخ. وبالياء على الغيبة، أي ولا يحسبن الفارحون. أي لا يحسبن الذي يفرحون فرحهم منجياً لهم من العذاب «الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا» أي بما فعلوا من الكتمان وإضلال الناس «وَيُجِبُونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا» من التمسك بالحق وهم على ضلال «فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ» بالتاء والياء «بِمَقَازَةٍ» بمكان ينجون فيه «وَمِنَ الْعَذَابِ» في الآخرة بل هم في مكان يعذبون فيه وهو جهنم «وَأَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» مؤلم فيها * ونحن إذا انصفنا وجدنا أكثر مجارى أمورنا على هذا الحالة، فنسأله العصمة والهداية.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ» سورة آل عمران (الآية: ١٩٠)

في الواحدى وابن كثير: عن ابن عباس قال: أتت قريس اليهود، فقالوا: ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا: عصاً ویده بيضاء للناظرين، وأتوا التصارى، فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ فقالوا: يبرىء الأكمه والأبرص ويحى الموتى، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ادع لنا ربك يجعل الصفا ذهباً، فأنزل الله «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ..» الآية * وفي الخازن: قال ابن عباس: إن أهل مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية، فنزلت هذه الآية. وهكذا في

بقية التفاسير. وقوله تعالى «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي تفكروا واعتبروا أيها الناس فيما خلقتة وأنشأته من السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لمعاشكم وأرزاقكم «وَإِخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» وفيما عقبته من ذلك بين الليل والنهار، واختلافها في الطول والقصر، فجعلتها مختلفان و يعتقان عليكم لكي تتصرفوا فيها لمعاشكم، تطلبون أرزاقكم في النهار وتسكنون في الليل لراحة أجسادكم، فاعتبروا وتفكروا في هذه الآيات «يَا أُولِي الْأَلْبَابِ» أي يا ذوى العقول الصافية أي الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، فيكون إيمانهم عن يقين لا عن تقليد، وإنما وقع الاقتصار على الدلائل السماوية لأنها أهدى وأبهر، والعجائب فيها أكثر، وانتقال النفس منها إلى عظمة الله أيسر.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :))***

«فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ»

سورة آل عمران (الآية: ١٩٥)

في الواحدى: قالت أم سلمة رضي الله عنها يا رسول الله: لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى» رواه الحاكم أبو عبد الله في صحيحه عن ابن عون محمد بن أحمد بن ماهان، عن محمد بن علي بن زيد عن يعقوب بن حميد عن سفيان: قلت: وأخرجه على هذا النحو الترمذي وكذا رواه ابن كثير والحازن عن أم سلمة رضي الله عنها وقوله «فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ» أي دعاءهم المذكور فيما سبق في هذه الآية من قولهم: «سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ». الآيات «أَنِّي» باتى هكذا قرأ أبى رضي الله عنه، والباء سببية كأنه قيل فاستجاب لهم ربهم بسبب أنى لا أضيع عمل عامل، أي سنته مستمرة على ذلك، والالتفات إلى التكلم والخطاب لآظهار كمال الإعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين. قاله أبو السعود، وقوله: فاستجاب أخص من أجب لأنه يفيد حصول جميع المطلوب لكثرة مبانیه، لأن كثرة المباني تدل على كثرة المعاني. ويعدى

بنفسه وباللام، وقوله «لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ» كائن «مِنْ بَعْضٍ» أي الذكور والإناث وبالعكس، وهذه الجملة استثنائية جيء بها لتبين شركة النساء مع الرجال في الثواب الذي وعد الله به عباده العاملين، وهى في محلّ التعليل للتعميم في قوله «مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى» فكأنه قيل: إنما سوى بين الفريقين في الثواب لاشتراكهم في الأصل والدين. والمعنى كما أنكم من أصل واحد، وأن بعضكم مأخوذ من بعض فكذلك أنتم في ثواب العمل لا يثاب رجل عامل دون امرأة عاملة «فَالَّذِينَ هَاجَرُوا» أي من مكة إلى المدينة «وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ» بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله «وَأُودُوا فِي سَبِيلِ» أي ديني «وَقَاتَلُوا» الكفار «وَقَاتَلُوا» أي استشهدوا في سبيل إعلاء كلمة الدين جزاء من جميع هذه الصفات «لَا كَفَرْنَا عَنْهُمْ سِيَئَاتِهِمْ» أسترها بالمغفرة، وهو جواب قسم محذوف تقديره والله لا أكفرن «وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا» مصدر من معنى لا كفرن مؤكداً له، أي ولأدخلنهم، فعنى المجموع لأثيبنهم، فيكون ثواباً مصدراً موافقاً في المعنى فكأنه قيل: لأثيبنهم ثواباً، والثواب هنا بمعنى الإثابة التي هذ المصدر. وإن كان في الأصل هو المقدار من الجزاء «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» فيه التفات عن التكلم «وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ» الجزاء وهو أن يرجع على العامل من جزاء عمله.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا وَآهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ» سورة آل عمران (الآية: ١٩٦ - ١٩٧)

في الواحدى: نزلت في مشركى مكة، وذلك أنهم كانوا فى رخاء ولىن من العىش، وكانوا ىتجرون وىتنعمون، فقال بعض المؤمنىن: إن أعداء الله فىما نرى من الخىر، وقد هلكنا من الجوع والجهد، فنزلت الآىة * وكذا فى القرطبى والهازن. وقال: الخطاب للنبى صلى الله علیه وسلم والمراد به غىره من الأمة لأنه صلى الله علیه وسلم لم ىغترقط * وفى القرطبى: وقىل: للجمىع، أى لا ىغرتك، أو لا ىغرتكم سلامتهم بتقلبهم فى أسفارهم * وفى الطبرى عن السدى فى قوله: «لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فى الْبِلَادِ» ىقول: ضرهم فى البلاد، وإمهال الله إىاهم مع شركهم وجحودهم نعمه، وعبادتهم غىره * وقال

قتادة في قوله: «لَا يَغُرَّتْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ»، والله ما غرّوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، ولا وكل إليهم شيئاً من أمر الله حتى قبضه الله على ذلك * وعبارة الخازن: لا يغرنك أيها السامع قلب الذين كفروا في البلاد يعني ضرهم في الأرض وتصرفهم في البلاد للتجارات وطلب الأرباح والمكاسب * وفي الغرائب في سبب نزول هذه الآية: وقيل: كانت اليهود تضرب في الأرض فتصيب الأموال فنزلت * والمراد بتقلبهم: تبسطهم وتصرفهم في المكاسب والمزارع والمتاجر، ذلك التقلب أو الكسب والربح متاع قليل في جنب ما فاتهم من نعم الآخرة. أو في جنب ما وعد الله المؤمنين من الشواب، أو هو قليل في نفسه إذ لا نسبة لمدته إلى ما بين أمدى الأزل والأبد، ومع قلته سبب للوقوع في نار جهنم أبد الآبدين والنعمة القليلة إذا كانت سبباً للمضرة العظيمة لم تكن في الحقيقة نعمة * وقوله: «وَبَشِّرِ الْمِيهَادِ» الفراش هي. وهذه الآية كقوله تعالى: «مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرِكُ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ»، وقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ» * متاع في الدنيا ثمّ إلتنا مزجعتهم ثمّ نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون».

*(القول في سبب نزول قوله تعالى :) * *

«وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» سورة آل عمران (الآية: ١٩٩)

في الواحدى والخازن: قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة: نزلت في النجاشى (ملك الحبشة واسمه أصمحه، وهو بالعربية عطية) وذلك لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: [اخرجوا فصلوا على أجد لكم مات بغير أرضكم. فقالوا: ومن هو؟ قال: النجاشى] فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البقيع، وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشى، وصلى عليه وكبر أربع تكبيرات، واستغفر له، وقال لأصحابه: استغفروا له. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصل على علع حبشى نصرانى لم يره قط وليس على دينه، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي الخطيب:

وقال عطاء: نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانوا على دين عيسى فأمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم * وقال ابن جريج: نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه * وقال مجاهد: نزلت في مؤمنى أهل الكتاب * قوله تعالى: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ..» يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان «وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ» أي ويؤمنون بما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة «وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ» أي مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه «لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكر صفة ونعته. وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هوداً أو نصارى. «أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» يؤتونه مرتين كما في سورة القصص ففيها «أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ» «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» يجاسب الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا، أو بيان سرعة وصول الأجر الموعود به إليهم. كذا في أبي السعود. فتكون به بشارة بسرعة حصول الأجر.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» سورة آل عمران (الآية: ٢٠٠)

في الواحدي: قال مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير: حدثني داود بن صالح قال: (قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: يا ابن أخي هل تدري في أي شيء نزلت هذه الآية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا»؟ قال: قلت: لا، قال: إنه يا ابن أخي لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ثغر يُرابط فيه، ولكن انتظار الصلاة خلف الصلاة) رواه الحاكم أبو عبد الله في صحيحه * قلت: ولعل أبا سلمة احتج بقوله عليه الصلاة والسلام: [ألا أدلكم على ما يحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات، اسبغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط ثلاثاً] قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا» يعني على دينكم الذي أنتم عليه. ولا تدعوه لشدة ولا لغيرها. وأصل الصبر حبس النفس عما لا يقتضيه شرع ولا عقل، والصبر لفظ عام تحته أنواع من المعاني، قال بعض الحكماء: الصبر ثلاثة أقسام:

ترك الشكوى، وقبول القضاء، وصدق الرضا، وقيل في معنى الآية: اصبروا على البلاء. وقيل: اصبروا على الجهاد. وقيل: اصبروا على أحكام الكتاب والسنة. «وصابروا» يعني الكفار والأعداء وجاهدوهم، أي غالبوا أعداء الله في الصبر على شدائد الحرب، فلا يكونوا أشدَّ صبراً منكم «ورابطوا» أي أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو، قال تعالى: «وَمَنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ» روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقيامه لا يفطر ولا ينفقل عن صلاته إلا لحاجة] وفي الحديث الصحيح [رباط يوم في سبيل الله يعدل عبادة شهر] وروى الشيخان عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها] وروى مسلم عن سلمان الخير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان].

وقال أهل المعاني في معنى هذه الآية: يا أيها الذين آمنوا اصبروا على بلائنا وصابروا على نعمائنا، وابطوا على مجاهدة أعدائنا، واتقوا محبة سوائنا لعلكم تفلحون بلقائنا. وقيل: اصبروا على النعماء، وصابروا على البأساء والضراء، وابطوا في دار الأعداء، واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون في دار البقاء. وقيل: اصبروا على الدنيا ومحنها رجاء السلامة. وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة، وابطوا على مجاهدة النفس اللوامة، واتقوا ما يعقبكم الندامة لعلكم تفلحون غداً في دار الكرامة، من الخازن. والحق أن هذه الآية جامعة مشتلمة على كنوز الحكم والمعارف، وجامعة لآداب الدين والدنيا، وذلك أن أحوال الإنسان قسمان: الأول: ما يتعلق به وحده، فأمر فيه بالصبر، ويتدرج فيه الصبر على مشقة النظر والاستدلال في معرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والصبر على آداء الواجبات والمندوبات، والاحتراز عن المنهيات، والصبر على شدائد الدنيا وآفاتنا ومخاوفها. الثاني ما يتعلق بالمشاركة مع أهل المنزل والمدينة، فأمر فيه بالمصابرة، ويدخل فيه تحمّل الأخلاق الرديئة من الأقارب والأجانب، وترك الانتقام منهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد مع أعداء الدين بالحجة وبالسيف، وباللسان، أو بالسنان،

ثم إنه لا بُدَّ للإنسان في تكلف أقسام الصبر والمصابرة من قهر القوى النفسانية البهيمية، والسبعية الباعثة على أزداد ذلك، فأمر بالمرابطة من الربط: الشد، فكل من صبر على أمر فقد ربط قلبه عليه وألزم نفسه إيَّاه، ثم لا بد في جميع الأعمال والأقوال من ملاحظة جانب الحق حتى يكون معتداً بها، فلهذا أمر بتقوى الله، والآية على اختصارها فهي كالإعادة لما تقدم في هذه السورة من الأصول، وهي تقرير التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، ومن الفروع كأحكام الحج والزكاة والجهاد، وعن الحسن قال: اصبروا على دينكم فلا تتركوه بسبب الفقر والجوع، وصابروا عدوكم فلا تفشلوا بسبب ما أصابكم يوم أحده وقال الفراء: اصبروا مع نبيكم وصابروا عدوكم فلا ينبغي أن يكون أصبر منكم وقال الأصم: لما كثرت تكاليف الله تعالى في هذه السورة أمرهم بالصبر عليها، ولما كثرت غيب الله تعالى في الجهاد فيها، أمرهم بالمصابرة مع الأعداء.

*** (سورة النساء وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها) ***

*** (القول في سبب نزول قوله تعالى :) ***

« بسم الله الرحمن الرحيم »

«وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ
وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا»

سورة النساء (الآية: ٢)

في الواحدي: قال مقاتل والكلبي: نزلت في رجل من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب المال، فنعه عمه، فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية، فلما سمعها العم، قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، ونعوذ بالله من الحُوب الكبير، فمدفَع إليه ماله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [مَنْ يوق شح نفسه ويطع ربّه هكذا فإنه محلٌّ داره] يعني جنته، فلما قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [ثبت الأجر وبقى الوزر. فقالوا يا رسول الله: قد عرفنا ثبت الأجر فكيف بقى الوزر وهو ينفق في سبيل الله؟ فقال: ثبت الأجر للغلام وبقى الوزر على والده]، قلت: ولعله لم يخرج زكاة ماله أو كان مشركاً. والله أعلم بما في الواحدي في الخازن، وفي الخطيب في قوله «وَأَتُوا» للأولياء والأوصياء، واليتامى جمع يتيم، وهو الصبي الذي مات أبوه، واليتيم في اللغة: الانفراد، ومنه الدرّة اليتيمة لانفرادها، واسم اليتيم يقع على الصغير والكبير لغة لبقاء الانفراد عن الآباء، لكن في العرف أختص اسم اليتيم بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، فإذا بلغ الصبى وصار يستغنى بنفسه من غيره زال عنه اسم اليتيم. وسئل ابن عباس عن اليتيم متى ينقطع عنه اسم اليتيم: قال: إذا أونس منه الرشد، وإنما سَمَّاهم يتامى بعد البلوغ على مقتضى اللغة، أو لقرب عهدهم باليتيم، وإن كان قد زال عنهم بالبلوغ، وقيل المراد باليتامى: الصغار الذين لم يبلغوا. والمعنى: وَأَتُوا اليتامى أموالهم بعد البلوغ وتحقق الرشد، وقيل: معناه وَأَتُوا اليتامى الصغار ما يحتاجون إليه من نفقة وكسوة. قال الخازن: والقول الأول هو الصحيح إذ المراد باليتامى البالغون لأنه لا يجوز دفع المال إلى اليتيم إلا بعد البلوغ وتحقق الرشد. قلت: وفي الحديث [تستأمر

اليتيمة في نفسها ولا تستأمر إلا وهي بالغه] وعلى هذا يكون في الآية إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم عن حد البلوغ، ولا يطلوا إن أونس منهم الرشد. وقوله تعالى «**وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ**» قال الفراء والزجاج: أي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم وما أبيع لكم من المكاسب. ورزق الله المبتوث في الأرض فتأكلوه مكانه * وفي الطبرى: عن ابراهيم «**وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ**» كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل مكانها الشاة المهزولة. ويقول: شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد، وي طرح مكانه الزيف. ويقول درهم بدرهم * لكن قال مجاهد: «**وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ**» لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذي قدر لك وقوله «**وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ**» إلى بمعنى مع أي مع أموالكم، وقيل معناه، ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم في الانفاق. واعلم أن الله تعالى نهى عن أكل مال اليتيم، وأراد به جميع التصرفات المهلكة للمال، وإنما ذكر الأكل لأنه معظم المقصود. خازن. والآية كقوله «**مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ**» أي مع الله، أي ألا تنفقوها معاً، ولا تسووا بينها، فأكلكم أموالكم حلال لكم، وأكلكم أموالهم حرام عليكم، فلا يحل لكم من أموالهم ما زاد على قدر الأكل من أجرتكم ونفقتكم * وفي الخطيب: فإن قيل: قد حرم الله عليهم أكل مال اليتيم وحده ومع أموالهم، فلم ورد النهى عن أكله معها؟ أجيب بأنهم كانوا يفعلون كذلك، فأنكر عليهم فعلهم، وسمع بهم ليكون أزرهم، ولأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال، وهم مع ذلك يطمعون فيها، كان القبح أبلغ، والذم أحق * وقوله «**إِنَّهُ**» أي أكلها «**كَانَ حُوباً**» أي ذنباً «**كَبِيراً**» عظيماً، أي فهو من الكبائر. قال الحسن: لما نزلت هذه الآية في أموال اليتامى كرهوا أن يخالطوهم، وجعل وليُّ اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله. فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى «**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**» قال: فخالطوهم واتقوا.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا»

سورة النساء (الآية: ٣، ٤)

في الواحدي: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت هذه في الرجل يكون له اليتيمة وهو وليها، ولها مال، وليس لها أحد يخاصمونها، فلا يُنكحها حباً لما لها. ويضرها ويسىء صحبتها، فقال الله تعالى: «وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ..» يقول: ما أحللت لك ودع هذه. رواه مسلم عن أبي كريب عن أبي أسامة عن هشام* وقال سعيد بن جبيرة وقتادة والربيع والضحاك والسدي: كانوا يتحرجون عن أموال اليتامى، ويترخصون في النساء، ويتزوجون ما شاؤوا، فرموا عدلوا، وربما لم يعدلوا. فلما سألوها عن اليتامى — نزلت آية اليتامى — «وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ» الآية أنزل الله تعالى أيضاً «وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ»، فكذلك فخافوا في النساء أن لا تعدلوا فيهن، فلا تتزوجوا أكثر مما يمكنكم القيام بحقهن لأن النساء كاليتامى في الضعف والعجز. وهذا قول ابن عباس في رواية الوالبي* وفي الخطيب: عن شعبة عن سماك قال: سمعتُ عكرمة يقول في هذه الآية: «وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ..» قال: كان الرجل من قريش يكون عنده النسوة ويكون عنده الأيتام، فيذهب ماله، فيميل إلى مال الأيتام، قال: فنزلت هذه الآية* وفي رواية عنه قال: كان الرجل يتزوج الأربعة والخمس والست والعشر، فيقول الرجل ما يمنعني كما تزوج فلان، فيأخذ مال يتيمه فيتزوج به. فنهوا أن يتزوجوا فوق الأربعة* وعن طاوس عن ابن عباس قال: قصر الرجل على أربعة من أجل أموال اليتامى* ونحوه بقية الأقوال «وَأَنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ»، أي وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتموهن فانكحوا الغرائب «فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» يعني ما حل لكم من النساء* قال الخازن: الظاهرية على وجوب النكاح، قالوا: إن قوله «فَانكِحُوا» أمر، والأمر للوجوب،

وأجيب عنه بأن قوله تعالى «فانكحوا» إنما هو بيان لما يحلُّ من العدد في النكاح *
 وتمسك الشافعي في بيان أنَّ النكاح ليس بواجب بقوله «ومَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا
 أَنْ يَنْكِحَ» إلى قوله «ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَإِنْ تَضَرُّوا خَيْرٌ لَكُمْ» الآية.
 فحكم في هذه السورة بأن ترك النكاح خير من فعله، وذلك يدل على أنه ليس بواجب ولا
 مندوب، والاقساط: العدل، وقرىء بفتح التاء فقليل: هو من قسط أي جار ولا زيادة
 كما في قوله «لثلاً يعلم» وقيل: هو بمعنى أقسط فإن الزجاج حكى أن قسط يستعمل
 استعمال أقسط، والمراد بالخوف العلم كما في قوله تعالى «فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ
 جَنَفًا» عبر عنه بذلك إيداناً بكون المعلوم مخوفاً محذوراً، وهو شروع في النهي عن منكر
 آخر، كانوا يباشرونه متعلق بأنفس اليتامى أصالة، وبأموالهم تبعاً عقيب النهي عما يتعلق
 بأموالهم خاصة، وتأخيرها عنه لقلّة وقوع المنهي عنه بالنسبة إلى الأول وتزليله منه منزلة
 المركب من المفرد، وذلك أنهم كانوا يتزوَّجون من يحل لهم من اليتامى اللاتي يلونهن لكن
 لا لرغبة فيهنّ، بل في ماهنّ، ويسبون في الصحبة والمعاشرة، ويطربصون بهن الموت
 ليرثوهن، وهذا قول الحسن. وقيل هي اليتيمة تكون في حجر وليها فيرغب في ما لها
 وجمالها، ويريد أن ينكحها بأدنى من سُنّة نساءها فنوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا هنّ
 في إكمال الصّداق. وأمروا أن ينكحوا ما سواهنّ من النساء، وهذا قول الزهري * وفي
 رواية عن عروة عن عائشة رضي الله عنها. أبو السعود * وقوله «مَا طَابَ لَكُمْ» في ما هذه
 أوجه:

أحدها: أنها بمعنى (الذي) وذلك عند من يرى أن ما تكون للعاقل، وهي مسألة
 مشهورة، قال بعضهم: وحسن وقوعها هنا أنها واقعة على النساء، وهنّ ناقصات العقول،
 وبعضهم يقول هي لصفات من يعقل، وبعضهم يقول لنوع من يعقل. كأنه قيل: النوع
 الطيب من النساء، وهي عبارات متقاربة، فلذلك لم يعدها وجهاً.

الثاني: أنها نكرة موصوفة، أي انكحوا جنساً طيباً وعدداً طيباً.

الثالث: أنها مصدرية. وذلك المصدر واقع موقع اسم الفاعل إن كانت ما مفعولاً

بانكحوا.

وقوله «مِنَ النِّسَاءِ» من بيانية، وقيل: تبعية، والمراد بهنّ غير اليتامى بشهادة
 قرينة المقام. أي ما استطابتها نفوسكم من الأجنبيةات وقوله «مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ» أي

اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً وذلك أن الواو في قوله «مَتْنِي وَثَلَاثٌ..» ليست للعطف كما أوضح ذلك في الكشف، أي ولا تزيدوا على الأربعة، وهذا هو المقصود بالسياق. وأمّا إباحة الأربعة فمادونها فكان معلوماً من قبل، فالمقصود المنع والنهي عن الزيادة، وقوله «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا» فيهن بالنفقة والقسم «فَوَاحِدَةً» أنكحوها «أَوْ» اقتصروا على «مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» من الاماء إذ ليس لهنّ من الحقوق ما للزوجات، وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة، وإن الزيادة على أربع من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم التي لا يشاركه فيها أحد من الأمة، ويدل على أن الزيادة على أربع غير جائزة وأنها حرام ما روى عن الحرث بن قيس، أو قيس بن الحرث، قال: أسلمت وعندى ثمان نسوة. فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [اختر منهنّ أربعاً] أخرجه أبو داود وعنه ابن عمر أن غيلان بن سملة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار منهنّ أربعاً. أخرجه الترمذي قال العلماء: فيجوز للمرء أن يجمع بين أربع نسوة حرائر، ولا يجوز للعبد أن ينكح أكثر من امرأتين. وهو قول أكثر العلماء، لأنه خطاب لمن ولي ومملك وذلك للأحرار دون العبيد، وقال مالك في إحدى الروايتين عنه وربيعة: يجوز للعبد أن يتزوج بأربعة نسوة، واستدل بهذه الآية، وأجاب الشافعي بأن هذه الآية مختصة بالأحرار، ويدل عليه آخر الآية، وهو قوله «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» والعبد لا يملك شيئاً فثبت بذلك أن المراد من حكم الآية الأحرار دون العبيد.

فيكون المعنى: فإن خفتم الأربع فثلاثاً، وإن خفتم فاثنتين، وإن خفتم فواحدة، فمن قرأ بالنصب، أراد فاخترأوا، أو أنكحوا، أو الزموا الواحدة، ومن قرأ بالرفع أراد فكفتم واحدة، أو فحسبكم واحدة، وذروا الجمع، والأمر كله يدور مع العدل، فأينما وجدتموه فعليكم به، ثم قال: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فسوى في السهولة بين الحرة الواحدة وبين ما شاء من الإماء لأنهنّ أقلّ تبعة وأخف مؤنة من المهائر أي الزوجات الحرائر ذوات المهور، ولا مؤاخذه عليه عدل بينهنّ أم لم يعدل، عزل عنهنّ أم لم يعزل، ولما كانت التسوية بينها وبينهنّ احتج بها الشافعي في بيان أن نوافل العبادات أفضل من النكاح لأن الزائد على أحد المتساويين يكون زائداً على المساوي الآخر وقوله «ذَلِكَ

أذنتي ألا تعولوا» أي اختيار الواحدة. أو التسرى أقرب أن لا تميلوا، أو لا تجوروا، وكلا اللفظين مروى عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم من قولهم: عال الميزان عولاً إذا مال، وعال الحاكم في حكمه إذا جار، ومنه عالت الفريضة إذا زادت سهامها، وفيه الميل عن الاعتدال، وقيل معناه أن لا تفتقروا. ورجل عائل أي فقير، وذلك أنه إذا قلّ عياله قلّت نفقاته، فلم يفتقر، ونقل عن الشافعي أنه قال: معناه أن لا تكثر عيالكم، وطعن فيه بعض القاصرين بأن هذا في اللغة معنى تميلوا لا معنى تعولوا، يقال: أعال الرجل إذا كثر عياله، ومنه قراءة طاوس: أن لا تميلوا، وأيضاً أنه لا يناسب أول الآية: «وإن خِفْتُمْ أن لا تقسطوا» وأيضاً هب أنه يقل العيال في اختيار الحرّة الواحدة، فكيف يقول عند اختيار التسرى ولا حصر لهنّ * والجواب عن الأول: أن الشافعي لم يذهب إلى تفسير اللغة، وإنما زعم أنه تعالى أشار إلى الشيء بذكر لازمه. أي جعل الميل والجور كناية عن كثرة العيال لأن كثرة العيال لا تنفك عن الميل والجور وقوله تعالى: «وأتوا النساء صدقاتهنّ» أي مهرهنّ، والخطاب للأزواج وهو قول علقمه وقتادة والنخعي، واختيار الزجاج، لأن ما قبله خطاب للناكحين. وقيل الخطاب للأولياء لأن العرب كانت في الجاهلية لا تعطى البنات من مهرهنّ شيئاً ولذلك كانوا يقولون لمن ولدت له ابنة: هنيئاً لك النافجة. يعنون أنك تأخذ مهرها إبلاً فتضمها إلى إبلك فتتضح مالك، أي تعظمه، وقال ابن الأعرابي: النافجة ما يأخذ الرجل من الحلوان إذا زوج ابنته، فهي الله عن ذلك، وأمر بدفع الحق إلى أهله، وهذا قول الكلبي وأبي صالح، واختيار الفراء وابن قتيبة، قال القفال: يحتمل أن يكون المراد من الإيتاء المناولة، فيكون قد أمر بدفع المهور التي ستموها لهنّ، ويحتمل أن يراد الالتزام كقوله «حتى يعطوا الجزية عن يدي» أي حتى يضموها ويلتزموها. فيكون المعنى أن الفروج لا تستباح إلا بعوض يلتزم سواء سمي ذلك أو لم يسم إلا ما خصّ به الرسول صلى الله عليه وسلم من الموهوبة. قال: ويجوز أن يراد الوجهان جميعاً أما قوله «نحلة» أي عطية وهبة قال الكلبي: فيكون مفعولاً له أو حالاً من الخاطبين. أي آتوهنّ ناحلين طيبتي النفوس بالاعطاء من غير مطالبة منهنّ لأن ما يؤخذ بالمطالبة لا يُسمى نحلة، أو حالاً من الصدقات أي ديناً من الله شرعه وفرضه، وإنما سميت عطية من الزوج لأن الزوج لا يملك بدله شيئاً لأن البضع في ملك المرأة بعد النكاح كهو قبله، وإنما استحقه الزوج هو

الاستباحة لا الملك والنحلة العطية من غير بدل. وقال قوم: إن الله تعالى جعل منافع النكاح من قضاء الشهوة والتوالد مشتركاً بين الزوجين، ثم أمر الزوج بأن يؤتي الزوجة المهر. وكان ذلك عطية من الله تعالى ابتداءً، وقوله «فإن طِبْنَ» يعني النساء المتزوجات «لكنَّ» يعني الأزواج «عنَّ شيءٍ» منه يعني من الصداق. ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض لأنها لو وهبت المرأة لزوجها جميع صداقها جاز «نفساً» نصب على التمييز أي فإن طابت نفوسهنَّ عن شيء من ذلك الصداق المعين فوهبن ذلك لكم فنقل الفعل من النفوس إلى أصحابها فخرجت النفس مفسراً فلذلك وحّد النفس. وقيل: لفظه واحد ومعناه الجمع «فكلوه» يعني ما وهبته لكم «هنيئاً مريئاً» أي طيباً سائغاً، وهما صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، وقيل: الهنيء: ما يستلزه الآكل، والمرىء: ما تحمد عاقبته. وقيل: هو ما ينساغ في مجراه، والمراد بإباحة ذلك * وذهب صاحب الفرائب: أن قوله «مينه» للتبعيض اخراجاً للكلام مخرج الغالب مع فائدة البعث المذكور لأنه لا يجوز هبة كل الصداق إذا طابت نفسها عن المهر بالكلية. قال: ومن غفل عن هذه الدقيقة زعم أن من للتبيين. قلت: وقد ذكر عن الليث أنه قال: إنها للتبعيض وقد منع أنها للتبيين. والله أعلم * وفي القرطبي: تعلق أبو حنيفة بهذه الآية في تجويزه نكاح اليتيمة قبل البلوغ. وقال: إنما تكون يتيمة قبل البلوغ، وبعد البلوغ هي امرأة. وذهب مالك والشافعي: والجمهور من العلماء على أن ذلك لا يجوز حتى تبلغ وتستأمر لقوله تعالى: «ويستفتونك في النساء» والنساء اسم يطلق على الكبار كالرجال في الذكور، واسم الرجل لا يتناول الصغير، فكذلك اسم النساء، والمرأة لا تتناول الصغيرة وقد قال: (في يتامى النساء) والمراد به هناك اليتامى هنا كما قالت عائشة رضي الله عنها، فقد دخلت اليتيمة الكبيرة في الآية فلا تزوج إلا بإذنها. روى ابن أبي ذئب عن عمر بن حسين، عن نافع عن عبد الله بن عمر، أنه تزوج بنت خاله عثمان بن مظعون قال: فذهبت أمها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن ابنتي تكره ذلك. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يفارقها. وقال: [لا تنكحوا اليتامى حتى تستأمرنَّ وهنَّ، فإذا سكتن فهو إذنها] فهذا يرد ما ذهب إليه أبو حنيفة إذا بلغت لا تحتاج إلى ولي بناء على أصله في عدم اشتراط الولي في صحة النكاح.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا»

سورة النساء (الآية: ٦)

في الواحدى : نزلت في ثابت بن رفاعه وفي عمه، وذلك أن رفاعه توفى وترك ثابناً وهو صغير، فأق عم ثابت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: إن ابن أختي يتيم في حجرى، فما يحلُّ لى من ماله، ومتى أَدفع إليه ماله؟ — وكذا في الخازن وغيرهما من التفاسير قوله تعالى: «وَابْتَلُوا الْيَتَامَى» أى اختبروهم قبل البلوغ في دينهم وتصرفهم في أحوالهم، وهذا شروع في تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، وبيان شرطه بعد الأمر بإتيانها على الاطلاق، والنهى عنه عند كون أصحابها سفهاء أى واختبروا من ليس منهم بين السّفه قبل البلوغ بتتبع أحوالهم في صلاح الدين. والاهتداء إلى ضبط المال وحسن التصرف فيه، وجرّبوهم بما يليق بحالهم، فإن كانوا من أهل التجارة فأن تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه بيعاً وابتاعاً، وإن كانوا مّما لهم ضياع وأهل وخدم فأن تعطوهم منه ما يصرفونه إلى نفقة عبيدهم وخدمهم وأجرائهم، وسائر مصارفهم حتى يتبين لكم كيف أحوالهم. والمراد بذلك اختبار عقولهم، ومن هنا قال أبو حنيفة تصرفات الصبى العاقل بإذن الولى صحيحه لأن الابتلاء بالمأور به قبل بلوغهم إنما يحصل إذا أذن له في البيع والشراء وقال الشافعى: الابتلاء قبل البلوغ لا يقتضى الاذن يتوقف على دفع المال إليهم، ولكن لا يصح دفع المال إليهم، لأنه موقوف على الشرطين، بل المراد بالابتلاء اختبار عقله واستبراء حاله حسبما يليق بكل طائفة، فولد التاجر يختبر في البيع والشراء بحضوره، ثم باستكشاف ذلك البيع والشراء منه. وما فيها من المصالح والمفاسد، وقد يدفع إليه شيئاً لبيع أو يشتري فيعرف بذلك مقدار فهمه وعقله، ثم الولى بعد ذلك يتم العقد لو أراد. وولد الزارع يختبر في أمر المزارعة والانفاق على القوام بها، وولد المحترف فيما يتعلق بحرفته، والمرأة في أمر القطن والغزل، وحفظ الأقمشة، وصون الأطعمة عن الهرة

والفأرة وما أشبهها، ولا يكفي المرة الواحد في الاختبار، بل لا بد من مرتين وأكثر على ما يليق بالحال، ويفيد غلبة الظن أنه رشد. وقوله: «حَتَّى إِذَا بَلَغُوا التَّكَاحَ» أى صاروا أهلاً له إما بالسن وهو استكمال خمس عشرة سنة تحديدية لخبر ابن عمر رضى الله عنه [عرضت على النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى ولم يرنى بلغت، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى ورأى بلغت] رواه ابن حبان، وأصله في الصحيحين، وابتدأها من انفصال جميع الولد، قيل: عرض صلى الله عليه وسلم سبعة عشر من الصحابة، وهم أبناء أربع عشرة فلم يجزهم، وعرضوا عليه وهم أبناء خمس عشرة فأجازهم. وإما بخروج النى في وقت إمكانه وكذا الحيض على تفصيل في الفروع. وقوله: «فَإِنْ آنَسْتُمْ» أى أبصرتُم أو علمتم وهو الأصح فى المصباح وآنست الشيء بالمد علمته وآنسته أبصرته. «مِنْهُمْ رُشْدًا» صلاحاً فى دينهم ومالهم. قال أبوحنيفة: إذا بلغ مهتدياً إلى وجوه مصالح الدنيا فهو رشيد يدفع إليه ماله. وقال الشافعى [لا بُدَّ مع ذلك من الاهتداء لمصالح الدين، فإن الفاسق لا يخلوا من إتلاف المال فى الوجوه الفاسدة المحرمة] وقد نفى الله تعالى الرشد على فرعون فى قوله: «وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» مع أنه كان يراعى مصالح الدنيا. ويتفرع على القولين: أن الشافعى يرى الحجز على الفاسق، وأبوحنيفة لا يراه. كم إنه إذا بلغ غير راشد واستمر على ذلك لم يدفع إليه ماله بالاتفاق إلى خمس وعشرين سنة، وفيما وراء ذلك خلاف. فعند أصحاب أبى حنيفة وعند الشافعى لا يدفع إليه أبداً إلا بإيناس الرشد كما هو مقتضى الآية، وعند أبى حنيفة يدفع لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانى عشرة سنة، فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغيير أحوال الانسان لقوله صلى الله عليه وسلم: [مروهم بالصلاة لسبع] دُفع إليه ماله، أو نسى منه رشد أو لم يونس وقوله: «فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ» من غير تأخير «وَلَا تَأْكُلُوهَا» أيها الأولياء «إِسْرَافًا» أى بغير حق «وَيَبْدَأَرًا» حالان. أى مسرفين ومبادرين إلى انفاقها مخافة «أَنْ يَكْبُرُوا» رشداً فيلزمكم تسليمها إليهم. «وَمَنْ كَانَ» من الأولياء «غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ» أى أن يعف عن مال اليتيم، ويمتنع عن أكله «وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ» منه «بِالْمَعْرُوفِ» أى بقدر الأكل من حاجته وأجرة سعيه. روى النسائى وغيره أن رجلاً قال للنبى صلى الله عليه وسلم: إن فى حجرى يتيماً أفأكل من ماله؟ قال: «بِالْمَعْرُوفِ» وللعلماء خلاف

في أن الوصي هل له أن ينتفع بمال اليتيم. قال الشافعي: لَه أن يأخذ بقدر ما يحتاج إليه،
 وبقدر أجرة عمله لأن النهي في الآية عن الاسراف مشعر بأن له أن يأكل بقدر الحاجة،
 ولا سيما إذا كان فقيراً. ولما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً قال له: إن في
 حجري يتيماً أفأكل من ماله؟ قال: [بالمعروف غير متأثر مالاً ولا واق مالك بما له]
 قال: أفأضربه؟ قال: [مما كنت ضارباً منه ولدك] وروى أن عمر بن الخطاب رضي
 الله عنه كتب إلى عمار وابن مسعود وعثمان بن حنيف: سلام عليكم: أما بعد: فإني قد
 رزقتكم كل يوم شاة شطرها لعمار وربعها لعبدالله بن مسعود، وربعها لعثمان. ألا وإني
 قد أنزلت نفسي وإياكم من مال الله منزلة وإلى مال اليتيم «مَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ
 وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» وأيضاً قياساً على الساعي في أخذ الصدقات
 وجمعها فإنه يضرب له في تلك الصدقات بسهم، فكذا هنا وعن سعيد بن جبير ومجاهد
 وأبي العالية. أن له أن يأخذ بقدر ما يحتاج إليه قرضاً — أي لقوله: «بالمعروف» ثم إذا
 أيسر قضاءه، وإن مات ولم يقدر على القضاء فلا شيء عليه وأكثر العلماء على أن هذا
 الاقتراض إنما جاء في أصول الأموال من الذهب والفضة وغيرهما، وأما تناول من ألبان
 المواشي. واستخدام العبيد وركوب الدواب فباح له إذا كان غير مضرّ بالماله وقال
 أبو بكر الرازي: الذي نعرفه من مذهب أصحابنا أنه لا يأخذه لا على سبيل القرض ولا
 على سبيل الابتداء سواء كان غنياً أو فقيراً. واحتج بقوله تعالى: «وَأَتُوا الْيَتَامَى
 أَمْوَالَهُمْ» وأجيب بأنها عامة. وقوله: «فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ» خاص، والخاص مقدم على
 العام. قال: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا» وأجيب بأن محل النزاع هو أن
 أكل الوصي مال اليتيم ظلم، أو لا. وقوله: «فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا
 عَلَيْهِمْ» اتفق العلماء على الوصي إذا دفع المال إلى اليتيم بعد بلوغه رشيداً فالأولى
 والأحوط أن يشهد عليه إظهاراً للأمانة، وبراءة من التهمة، ولكن اختلفوا في أن الوصي
 إذا ادّعى بعد بلوغ اليتيم أنه قد دفع المال إليه، فهل هو مصدق؟ فقال أبو حنيفة
 وأصحابه يصدق بيمينه كسائر الأمانة، وقال الشافعي: لا يصدق إلا بالبينة لأنه تعالى
 نصّ على الإشهاد فقال: «فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ» وظاهر الأمر
 للوجوب، ولأنه أمين من جهة الشرع لا من جهة اليتيم، وليس له نيابة عامة كالقاضي،
 ولا كمال الشفقة كالأب، نعم يصدق في قدر النفقة وفي عدم التقدير والاسراف لعسر

إقامة البيّنة على ذلك، وتنفيذه الناس عن قبول الوصاية. وقوله: «وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا» حافظاً لأعمال خلقه ومحاسبهم أى كافياً في الشهادة عليكم بالدفع والقبض، وفيه تهديد للولّى ولليتيم أن يتصادقوا ولا يتكاذبوا.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا»

سورة النّساء (الآية: ٧)

في الواحدى : قال المفسرون: إنّ أوس بن ثابت الأنصارى تُوفى وترك امرأة يقال لها أم كحّه، وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه، يقال لهما: سويد وعرفجة، فأخذوا ماله ولم يُعطيا أمّراته شيئاً ولا بناته، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء، ولا الصغير وإن كان ذكراً، وإنما يورثون الرجال الكبار، وكانوا يقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة، فجاءت أم كحّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت يا رسول الله: إنّ أوس بن ثابت مات وترك على بنات، وأنا امرأة وليس عندى ما أنفق عليهنّ، وقد ترك أبوهنّ مالا حسناً، ولا يسقيان ولا يرفعان هن رأسا، فدعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالا يا رسول الله: ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلاً ولا ينكب عدوّاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله فيهنّ] فانصرفوا. فأنزل الله هذه الآية * فأثبت هنّ الميراث، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تقرّبا من مال أوس شيئاً، فإنّ الله جعل لبناته نصيباً] * وكذا في الخازن وابن كثير والخطيب وغيرها من التفاسير: وقوله «لِلرِّجَالِ» الأ ولاد والأقرباء «نَصِيبٌ» حظّ «مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ» المتوفون من الأموال وكذلك «لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ» حظّ من التركة «مِّمَّا قَلَّ مِنْهُ» أى المال «أَوْ كَثُرَ» جعله الله «نَصِيبًا مَّفْرُوضًا» مقطوعاً بتسليمه إليهم، فلا يسقط باسقاطهم، قال البيضاوى: في الآية دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه بالاعراض * وفي رواية ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى أم كحّه الثمن، والبنات الثلثين، والباقي لابنى العمّ. واحتجّ بعض أصحاب أبى حنيفة بهذه الآية على توريث ذوى الأرحام،

كالعمات والخالات والأخوال وأولاد البنات لأن الكل من الأقربين، غاية ما في الباب أن مقدار أنصبائهم غير مذكور ههنا إلا أنا نثبت بالآية استحقاتهم لأصل النصيب، ونستفيد المقادير من سائر الدلائل. وأجيب بأنه تعالى قال: «نصيباً مفروضاً»، وبالإجماع ليس لذوى الأرحام نصيب مقدر. وأيضاً الواجب عندهم ما علم ثبوته بدليل مضمون، والمفروض ما علم بدليل قاطع، وتوريث ذوى الأرحام ليس من هذا القبيل بالاتفاق، فعرفنا أنه غير مراد من الآية. وأيضاً ليس المراد بالأقربين من له قرابة ما، وإن كانت بعيدة وإلا دخل جميع أولاد آدم فيه، فالمراد إذن أقرب الناس إلى الوارث. وما ذلك إلا الوالدين والأولاد، ودخول الوالدين في الأقربين يكون كدخول النوع في الجنس. فلا يلزم تكرار والله أعلم. (الغرائب) وفيه قال المفسرون: إنه تعالى لما ذكر في الآية للنساء أسوة بالرجال في أن هن حظاً من الميراث، وعلم أن في الأقارب من يرث وفهم من لا يرث، وربما حضروا القسمة فلا يحسن حرمانهم. قال: «وإذا حضر القسمة أولوا القُرْبَى» الآية ثم منهم من قال بوجوبه، ومنهم من قال باستحبابه وعلى الوجوب فعن سعيد بن المسيب والضحاك أنها منسوخة بآية الموارث. وعن أبي موسى الأشعري وإبراهيم النخعي والشعبي والزهرى ومجاهد والحسن وسعيد بن جبیر أنها محكمة، ولكنها مما تهاون به الناس. قال الحسن: أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات واليتامى والمساكين من الورق والذهب فإذا آل الأمر إلى قسمة الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك، قالوا لهم: قولاً معروفاً، كانوا يقولون لهم: ارجعوا بورك فيكم وعلى الاستحباب، وهو مذهب فقهاء الأمصار اليوم. قالوا: إن هذا الرضخ يستحب إذا كانت الورثة كباراً، أما إذا كانوا صغاراً فليس إلا القول بالمعروف. كأن يقول الولي: إني لا أملك هذا المال إنما هو لهؤلاء الضعفاء الذين لا يعرفون ما عليهم من الحق. وإن يكبروا فسيعرفون حَقَّكم.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ

نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا» سورة النساء (الآية: ١٠)

في الواحدي: قال مقاتل بن حيان: نزلت في رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد، وولّى مال ابن أخيه، وهو يتيم صغير فأكله، فأنزل الله فيه هذه الآية. وكذا في الخازن

وبقية التفسير: قوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا» أي بغير حق «إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا» أي سيأكلون يوم القيامة، فسَمِيَ الذين يأكلون ناراً بما يؤكل إليه أمرهم يوم القيامة * قال السدي: يبعث آكل مال اليتيم ظلماً يوم القيامة، وهب النار يخرج من فيه، ومن مسامعه وأذنيه وعينه وأنفه، يعرفه من رآه يأكل مال اليتيم * وفي حديث أبي سعيد الخدري قال: حَدَّثَنَا النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة أُسرى به، قال: [نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخرًا من نار يخرج من أسافلهم، قلت يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا إنما يأكلون في بطونهم نارًا] * وقيل: إنما ذكر أكل النار على سبيل التمثيل والتوسع في الكلام. والمراد أنَّ أكل مال اليتيم ظلمًا يفضى به إلى النار، وإنما خص الأكل بالذكر، وإن كان المراد سائر أنواع الإلتافات وجميع التصرفات الرديئة المتلفة للمال لأن الضرر يحصل بأكل ذلك لليتيم، فعبر عن جميع ذلك بالأكل لأنه معظم المقصود، وإنما ذكر البطون للتأكيد، فهو كقولك رأيت بعيني وسمعت بأذني. وقوله: «وَسَيُضْلَوْنَ سَعِيرًا» السعير النار. أي مسعورة، والتنكير للتعظيم، أي ناراً مبهمة الوصف لا يعلم شدتها إلا خالقها. ولَمَّا نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس، واحترزوا من مخالطة اليتامى، وأموالهم بالكلية، فشق ذلك على اليتامى فنزل قوله تعالى: «وَأَنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ» وقد توهم بعضهم أن قوله «وَأَنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ» ناسخ لهذه الآية. وهذا غلط ممن توهمه لأنَّ هذه الآية واردة في المنع من أكل أموال اليتامى ظلمًا، وهذا لا يصير منسوخاً، لأنَّ أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وإن تخالطوهم فأخوانكم. وارد على سبيل الإصلاح في أموال اليتامى، والإحسان إليهم، وهو من أعظم القرب.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا بَوَإِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنِ آبَائِكُمْ وَأُمَّتِكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا»
سورة النساء (الآية: ١١)

يتبع إلى قوله: «وَلَهُ عَدَّتْ مُهَيِّنٌ»

في الواحدي: قال ابن جريج: أخبرني ابن المنكدر عن جابر قال: عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر في بني سلمة يمشيان، فوجداني لا أعقل، فدعا بقاء فتوضأ، ثم رش على منه فأفقت، فقلت: كيف أضعت في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ»، الآية رواه البخاري * وعن جابر بن عبد الله قال: جاءت امرأة بابتنتين لها. فقالت يا رسول الله: هاتان بنتا ثابت بن قيس، (أوقالت: سعد بن الربيع) قتل معك يوم أحد وقد استفاء عمهما مالهما وميراثهما. فلم يدع لهما مالاً إلا أخذته. فأتى يا رسول الله؟ فوالله ما ينكحان أبداً إلا ولهما مال. فقال: يقضي الله في ذلك. فنزلت سورة النساء وفيها «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ»، إلى آخر الآية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ادع لي المرأة وصاحبها. فقال لعمهما: أعطهما الثلثين، وأعط أمهما الثمن، وما بقي فلك] أخرجه الترمذي. ونحوه في الخطيب والحاازن وفيه، وقال السدي: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجوارى، ولا الضعفاء من الغلمان لا يرث الرجل من ولده إلا من أطاق القتال، فأت عبد الرحمن: أخو حسان الشاعر وترك امرأة وخمس بنات، فجاء الورثة وأخذوا ماله. فشكت امرأته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة * وبقي ما في التفاسير لا زيادة فيها عما ذكر. قوله تعالى: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ» يأمركم «في أولادكم»، أي في شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة. وهذا إجمال تفصيله «للذكور» منهم «مثل حظ» نصيب «الأنثيين» إذا

اجتمعتا معه. فله نصف المال، ولهما النصف، فإن كان معه واحدة فلها الثلث وله الثلثان. وإنما فضل الذكر على الأنثى لاختصاصه بلزوم ما يلزم الأنثى من الجهاد وتحمل الدية وغيرها، وله حاجتان: حاجة لنفسه وحاجة لزوجته، والأنثى حاجة واحدة لنفسها. بل هي غالباً مستغنية بالتزويج عن الإنفاق من مالها. ولكن لما علم الله تعالى احتياجها إلى النفقة، وإن الرغبة تقل فيها إذا لم يكن لها مال جعل لها حظاً من الإرث. وأبطل حرمان الجاهلية لها قال الخطيب: فإن قيل: هلاً قيل للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظ الذكر؟ أجيب بأنه إنما بدأ ببيان حظ الذكر لفضله، كما ضعف حظه لذلك، ولأن قوله: «لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» قصد إلى بيان فضل الذكر. وقوله: للأنثيين مثل حظ الذكر قصد إلى بيان نقص الأنثى، وما كان قصداً إلى بيان فضله كان أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره منه، ولأنهم كانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان، وكان في ابتداء الإسلام بالمخالفة قال تعالى: «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَفْسَهُمْ» ثم صارت الوراثة بالهجرة قال تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» ثم نسخ ذلك بالآية الكريمة * وقوله: «فَإِنْ كُنَّ» أي الأولاد، وهو عائد على الإناث اللاتي هن بعض الأولاد المتقدم ذكرهم في قوله تعالى «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ» أي الذكور والإناث. لكن في السمين «فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً» الضمير في كُنَّ يعود على الإناث اللاتي شملهن قوله في أولادكم، فإن التقدير في أولادكم: الذكور والإناث، فعاد الضمير على أحد قسمي الأولاد. وقوله «نِسَاءً» فقط «فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثَلَاثًا مِمَّا تَرَكَ» الميت وكذا الاثنتان لأنه للأختين بقوله «فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ» فهما أولى أي البنات، وذلك لأنها أقرب للميت من الأختين كما هو ظاهر. ويدل عليه قوله «وَإِنْ كَانَتْ» المولودة «وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَأَبْوَانِ» أي الميت، وهو شروع في إرث الأصول «لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَوَلَدٌ» ذكر أو أنثى، وألحق بالولد ولد الإبن، وبالاب الجد «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَوَلَدٌ وَوَرِثَةٌ أَبَوَاهُ» فقط أو مع زوج «فَلَأَقَمَهُ الثَّلَاثُ» أي ثلث المال، أو ما يبقى بعد الزوج والباقي للأب وفي كل من المسئلتين «فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ» أي الميت اثنان فصاعداً ذكوراً وإناثاً «فَلَأَقَمَهُ الشُّدُسُ» والباقي للأب ولا شيء للأخوة، وتقسّم التركة على نحو ما ذكر «مِنْ بَعْدِهِ» تنفيذ «وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا» الميت «أَوْ» قضاء

«دِينِي» عليه. وتقديم الوصية على الدين وإن كانت مؤخره عنه في الوفاء للاهتمام بها لكون أدائها شاقاً على الورثة في أخذها من غير عوض كان إخراجها مما يشقُّ على الورثة بخلاف الدين. فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدمت على الدين حثاً على وجوبها، والمسارعة إلى إخراجها مع الدين، ولذلك جرى بكلمة أو للتسوية بينها في الوجوب. وقوله «آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً» في الدنيا والآخرة فظان أن ابنه أنفع له فيعطيه الميراث فيكون الأب أنفع، وبالعكس، وإنما العالم بذلك الله وحده ففرض لكم الميراث «فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا» بخلقهم «حَكِيمًا» فيما دبره لهم أي لم يزل متمصفاً بذلك. وذلك أن الخبر عن الله بهذا اللفظ كالخبر بالحال والاستقبال بمعنى لم يزل كذلك عليمًا حكيمًا، وكان كذلك وهو الآن على ما كان عليه لأنه منزّه عن الدخول تحت الزمان. وعلى هذا المعنى تتخرج جميع الصفات الذاتية المقترنة بكان، ومعلوم أن كان في القرآن على أوجه بمعنى الأزل والأبد، وبمعنى الماضي المتقطع، وهو الأصل في معناها. وبمعنى الحال وبمعنى الاستقبال وبمعنى صار، وبمعنى ينبغي، وبمعنى حضر أو وجد، وترد للتأكيد وهي الزائدة وقوله تعالى «وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وُلْدٌ» أي ذكر أو أنثى منكم أو من غيركم «فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وُلْدٌ» على نحو ما ذكر «فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دِينٍ» وألحق بالولد في ذلك ولد الابن بالاجماع سواء كان ذكراً أو أنثى بخلاف ولد البنت فلا يجب الزوج «وَلَهُنَّ» أي الزوجات تعددت أولاً «الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وُلْدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وُلْدٌ» منهن أو من غيرهن «فَلَهُنَّ الثَّمَنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينٍ» وولد الإبن في ذلك كالولد إجماعاً «وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً» أي لا والد له ولا ولد وهذا أحسن ما قيل في تفسير الكلاله، ويدل على صحته أن اشتقاق الكلاله من كَلَّتِ الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة بينهما. فسميت القرابة البعيدة كلاله من هذا الوجه. قال الليث: الكلُّ الرجلُ الذي لا ولد له ولا والد. وقيل: ما لم يكن من النسب لحماً فهو كلاله، وقالوا: هو ابن عم الكلاله، وابن عم كلاله. وقيل: الكلاله من تكَلَّلَ نسبه بنسب كابن العم ومن أشبهه. وقيل: هم الأخوة للأُم وهو المستعمل. وقال اللحياني: الكلاله: من العصبه من ورث معه الإخوة من الأم والعرب تقول: لم يرث كلاله أي لم يرثه عن عُرُضٍ بَلْ عَنْ قُرْبٍ واستحقاق، قال الفرزدق:

وَرِثْتُمْ قَنَاةَ الْمَلِكِ غَيْرَ كِلَالَةٍ عَنْ ابْنِ مَنَافٍ: عُبَيْدِ شَمْسٍ وَهَاشِمٍ
وقال ابن الأعرابي: الكِلَالَةُ بنو العمّ الأباعده وحكى عن أعرابي أنه قال: مالى كثير،
ويرثنى كِلَالَةٌ متراجح نسبهم، والقول الأول هو الأصح لأن الكِلَالَةَ مصدر من تكَلَّمه
التَّسَبُّب، أي تطرفه كأنه أخذ طرفيه من جهة الولد والوالده وليس لها منها أحدٌ وعليه
أكثر الصحابة. قال الشعبي: سئل أبو بكر رضي الله عنه عن الكِلَالَةَ فقال: إني سأقول
فيها برأى، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فني ومن الشيطان، أراه ما خلا الوالد
والولده وقضى به، ولَمَّا استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إني لأستحي من
الله أن أردَّ شيئاً قاله أبو بكره وذهب طاوس إلى أن الكِلَالَةَ من لا ولد له، وهى إحدى
الروايتين عن ابن عباس. وأحد القولين عن عبدالله بن عمر. وقال عمر رضي الله عنه:
ثلاث لأن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بينهنَّ لنا أحبُّ إلينا من الدنيا وما فيها:
الكِلَالَةَ، والخِلافة، وأبواب الرِّبَا، وما نقل عن أبي بكر رضي الله عنه فيها قول جمهور
اللغويين. ويؤيد ذلك أن الآية نزلت في جابر رضي الله عنه، ولم يكن له يوم أنزلت أُمُّ
ولا ابن. وقوله تعالى: «أَوْامِرًا» تورث كِلَالَةَ أي خالية من الوالد والولد، وهى عطف
على رجل «وَلَهُ» أي للمورث كِلَالَةَ «أَخٌ أَوْ أُخْتٌ» أي من أم فقط، وقرأ به ابن
مسعود وغيره. وقد احتج بها الشافعي فيما حكاها البويطي عنه في باب الرضاع. وباب
تحريم الجمع، وعليه جمهور أصحابها لأنها منقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم. ولا يلزم من
انتفاء خصوص قرآنيتهما انتفاء خصوص خبريتهما. «فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ» وقد
أجمعوا على أن المراد به الأخ والأخت من الأم، هذا عند الإفراد «فَإِنْ كَانُوا» أي
الإخوة والأخوات من الأم «أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ» أي من واحد «فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ»
يستوى فيه ذكرهم وأنثاهم ولإدلائهم بمحض الأنوثة ذلك التقسيم «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ
يُوصَى بِهَا أَوْ ذَيْنِ غَيْرِ مُضَارٍّ» أي غير مدخل الضرر على الورثة بأن يوصى بأكثر من
الثلاث ذلكم «وَصِيَّةٌ» مصدر مؤكد ليوصيكم الله في أولادكم. أي يوصيكم الله وصيةً
كائنةً «مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ» بما دبره لخلقه من الفرائض «حَكِيمٌ» أي عادل فيما أعطاه
لكل وارث من التركة. وقد خصت الستة الشريفة توريث من ذكر بمن ليس فيه مانع
من قتل أو اختلاف دين أورد. «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» أي ما حدّه من شرائع لعباده
ليعملوا بها، ولا يعتدوها، وفيه إشارة إلى أن حدود الله نوعان: منها ما لا يفعل كالزنا

ونحوه، ومنها ما لا يتعدى كالمذكورات ونحوها كتزويج الأربع. وقوله: «وَمَنْ يُطِغِ اللَّهُ
 وَرَسُولَهُ» فإيا حكم به «بُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ»
 فيها «عَذَابٌ مُهِينٌ» ذو إهانة. هذه الآية ركن من أركان الدين، وعمدة من عمدة
 الأحكام، وأم من أمهات الآيات، فإن الفرائض عظمة القدر حتى أنها ثلث العلم،
 وروى نصف العلم، وهو أول علم ينزع من الناس ويُنسى. روى الدارقطني عن أبي
 هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلَّمُوهُ النَّاسَ
 فَإِنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ، وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْسَى مِنْ أُمَّتِي] وروى أيضاً عن ابن مسعود قال: قال
 رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ، وَتَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلِّمُوهَا
 النَّاسَ، وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَعَلِّمُوهُ النَّاسَ فَإِنِّي أَمْرٌ مَقْبُوضٌ، وَإِنَّ الْعِلْمَ سَيَقْبُضُ. وَتَظْهَرُ
 الْفِتْنُ حَتَّى يَخْتَلِفَ الْإِثْنَانُ فِي الْفَرِيضَةِ لَا يَجِدَانِ مِنْ يَفْصَلُ بَيْنَهُمَا] ولذا فقد اهتم الصحابة
 بهذا العلم، بل كان علم الفرائض أكثر علومهم، بدليل قول ابن عباس رضي الله عنهما:
 من لم يتعلم الفرائض والطلاق والحج فبم يفضل أهل البادية * وقد كثرت المناظرات بين
 الصحابة في علم الفرائض دون غيره بدليل ما رواه عكرمة، قال: أرسل ابن عباس إلى
 زيد بن ثابت يسأله عن امرأة تركت زوجها وأبوها. قال: للزوج النصف، وللأم ثلث ما
 بقى. فقال: تجده في كتاب الله أو تقوله برأى؟ قال: أقوله برأى. لا أفضل أمأ على أبي *
 قال أبو سليمان: فهذا من باب تعديل الفريضة إذا لم يكن فيها نص. وذلك أنه اعتبرها
 بالمنصوص عليه. وهو قوله تعالى «وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ» فلما وجد نصيب الأم
 الثلث. وكان باقى المال فى الثلثان للأب قاس النصف الفاضل من المال بعد نصيب
 الزوج على كل المال إذا لم يكن مع الوالدين ابن، أو ذو سهم فقسمة بينهما على ثلاثة،
 للأم سهم وللأب سهمان وهو الباقي، وكان هذا أولى فى القسمة من أن يعطى الأم من
 النصف الباقي ثلث جميع المال، وللأب ما بقى وهو السدس ففضلها عليه، فيكون لها وهي
 مفضولة فى أصل الموروث أكثر مما للأب وهو المقدم والمفضل فى الأصل. وذلك أعدل مما
 ذهب إليه ابن عباس حيث ردة الثلث على الأم وردة السدس على الأب، فترك قوله،
 وصار عامة الفقهاء إلى زيد، ومن حجج زيد على ابن عباس أن الأبوين إذا اشتركا فى
 الورثة ليس معها غيرهما كان للأم الثلث، وللأب الثلثان، وكذلك إذا اشترط فى

النصف الذي يفضل عن الزوج كانا فيه كذلك ثلث وثلثين، وهذا صحيح في النظر والقياس. وقال: عبدالله بن عباس رضي الله عنها في زوج وأبوين. للزوج النصف وللأم ثلث جميع المال وللأب ما بقى. وقال في امرأة وأبوين: للمرأة الربع وللأم ثلث جميع المال والباقي للأب. وتبعه على هذا خلق منهم شريح القاضي ومحمد بن سيرين وداود بن علي وغيرهم. فأنت ترى الخلاف بينها أن زيداً يعطى الأم ثلث ما بقى بعد نصيب الزوج، وعبدالله بن عباس يعطيها ثلث جميع المال. أي قبل أن يأخذ الزوج نصيبه. إذ يبقى ثلثان نصفهما للزوج والباقي للأب أخذاً بظاهر النص «فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَةُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ» وهنا يكون نصيبها أكثر من الأب مع أن له ضعفها لذا رُجِحَ مذهب زيد رضي الله عنه وهو أفرض الصحابة جميعاً ولا ينسى فضل ابن مسعود في هذا العلم كذلك، فقد روى عن هذيل بن شرحبيل، قال: وسئل أبو موسى عن (ابنة وابنة ابن وأخت) فقال: للابنة النصف وللأخت النصف، وأخبر ابن مسعود بقول أبي موسى فقال ابن مسعود: بعد أن سئل عنها: لقد ضللتُ وما أنا من المهتدين. ثم قال: أقضي فيها بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: للابنة النصف وللأخت النصف. فقال: لا تسألوني ما دام هذا الخبر فيكم * أخرجه البخارى. (من القرطبي والحازن والسمين وأبي السعود).

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُنَّ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا» سورة النساء (الآية: ١٩)

في الواحدي: قال ابن عباس رضي الله عنها في سبب نزول هذه الآية: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤا زوجهها، وإن شاؤا لم يزوجهها، وهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك رواه البخارى في التفسير عن محمد بن مقاتل * وقال المفسرون: كان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الإسلام، إذا مات الرجل ولّه امرأة جاء ابنه من غيرها، أو قرابته من عصبته فألقى ثوبه

على تلك المرأة فصار أحقّ بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء أن يتزوجها تزوّجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوّجها غيره. وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً. وإن شاء عضلها وضارّها لتفتدى منه بما ورثت من الميت. أو تموت هي فيرثها، فتوفى أبو قيس ابن الأسلت الأنصاري، وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له حصن — وقال مقاتل: اسمه قيس بن أبي قيس — فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها. ثم تركها فلم يقربها، ولم ينفق عليها، يضارّها لتفتدى منه بما لها، فأتت كبيشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله: إنَّ أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحي وقد أضرتني وطول عليّ، فلا هو ينفق عليّ ولا يدخل بي، ولا هو يخلّي سبيل. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقعدى في بيتك حتى يأتيك فيك أمر الله. قال: فانصرفت، وسمعت بذلك النساء في المدينة، فأتين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلن: ما نحن إلّا كهياة كبيشة غير أنّه لم ينكحنا الأبناء ونكحنا بنو العم. فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وفي الخطيب: نحو هذا وفيه: فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلتقى عليها عصبه الميت ثوبه فهي أحقّ بنفسها ﴾ وقال ابن عباس: هذا الرجل يكون له المرأة وهو كارهٌ صحبتها ولا عليه مهر فيضارّها لتفتدى، وتردّ إليه ما ساق إليها من المهر، فنبى الله تعالى عن ذلك ﴿ وكذا في الطبري والقرطبي وغيرهما من التفاسير وقوله تعالى «يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا» ﴾ الخطاب لأقارب الميت ولأزواج الزوجات أي لا يحلُّ لكم ميراث نكاح النساء ولا أن ترثوا أموالهن وهن كارهات «ولاً» أن «تَغْضُلُوهُنَّ» أي تمنعوا أزواجكم عن نكاح غيركم إياهنَّ بإمساكهنَّ ولا رغبة لكم فيهنَّ ضراراً. «لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ» من المهر «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ» بفتح الباء وكسرهما أي زناً بيناً يبينها من يدعيها أو ضحها وأظهرها. أو نشوزاً، فلكنَّ أن تُضَارَّوهنَّ حتى يفتدين منكم ويختلن. وفي الخطيب: قال عطاء: كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشةً (زنا) أخذ منها ما ساق إليها، وأخرجها فنسخ ذلك بالحدود ولا يجوز في أي مذهب من المذاهب مضارة الزوجة لأجل أن تفتدى بما لها إذا لم ترتكب فاحشة أو تكون ناشزة، بل أوجب علينا «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» أي بالإجمال في القول والنفقة والمبيت، وقيل: هو أن يتصنَّع لها كما تتصنَّع لهُ. «فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ» أي بالطبع من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك فاصبروا «فَعَسَى

أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا» ولعله يجعل فيهن ذلك بأن يرزقكم منهنّ ولدًا صالحاً. فتنقلب تلك الكراهة محبة، وقيل في الآية نذب إلى إمساك المرأة مع الكراهية لها لأنه إذا كره صاحبها وتحمل ذلك المكروه طلباً للثواب، وأنفق عليها وأحسن صحبتها استحق الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، وقيل: في معنى الآية إنكم إن كرهتموهنّ، ورغبتم في فراقهنّ، فرما جعل الله في تلك المفارقة لهن خيراً كثيراً، وذلك بأن تخلص من هذا الزوج الكاره لها وتتزوج غيره خيراً منه.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا» سورة النِّسَاءِ (الآية: ٢٢)

في الواحدي: نزلت في حصن بن أبي قيس، تزوج امرأة أبيه كبيشة بنت معن، وفي الأسود بن خلف تزوج امرأة أبيه، وصفوان بن أمية بن خلف تزوج امرأة أبيه مليكة بنت خارجة، وقال أشعث بن سوار: توفي أبوقيس وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأة أبيه، فقالت إني أعدك ولداً، ولكن أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره. فأتته فأخبرته. فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي القرطبي: وكان في العرب من تزوج ابنته، وهو حاجب بن زرارة، تمجّس وفعل هذه الفعلة، ذكر ذلك التضربن شمل في كتاب المثالب * وفي الطبرى: عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، قال: فأنزل الله «وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» قال السهيلي: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمه تزوج بامرأة أبيه فأولدها أبيه التضرب بن كنانة، فأراد أنهم كانوا يعدّونه نكاحاً مستساغاً، واستشهد بقوله صلى الله عليه وسلم: [ولدت من نكاح لا من سفاح] وفيما ذكره السهيلي من قصة كنانة تحتاج إلى نظر والله أعلم. قوله تعالى «وَلَا تَنْكِحُوا مَا» بمعنى من «نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا» لكن «مَا قَدْ سَلَفَ» من فعلكم ذلك فإنه معفو عنه.

ومن المعلوم أن المحرمات بالمصاهرة أربعة: زوج الأب، وزوجة الإبن، وأم الزوجة، وبنت الزوجة. وكلها يحصل فيها التحريم بمجرد العقد، وإن لم يحصل دخول إلا الربيبة

فلا يحرم إلا بشرط الدخول بأتمها. وقوله «إِنَّهُ» أي نكاحهن «كَانَ فَاحِشَةً» قبيحاً «وَمَقْتًا» سبباً للمقت من الله. وهو أشد البغض. وفي أبي السعود في قوله تعالى «إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا» تعليل للتهمي، وبيان لكون المنهَى عنه في غاية القبح مبغوضاً أشد البغض. وإنه لم يزل في حكم الله تعالى وعلمه موصوفاً بذلك ما رخص فيه لأمة من الأمم * وقوله تعالى «وَسَاءَ سَبِيلًا» أي بس طريقاً ذلك أي سبيل هذا النكاح.

قيل: مراتب القبح ثلاث: القبح العقلي، والقبح الشرعي، والقبح العادي، وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بكل ذلك، فقوله: فاحشة مرتبة قبحه العقلي، وقوله: ومقتاً مرتبة قبحه الشرعي، وقوله: وساء سبيلاً مرتبة قبحه العادي، وما اجتمعت فيه هذه المراتب فقد بلغ أقصى مراتب القبح. والعرب تُسمى ولد الرجل من امرأة أبيه مقيتاً، وكان منهم الأشعب بن قيس وأبومعيط بن أبي عمرو بن أمية. روى البغوي بسنده عن البراء بن عازب قال: مرّ بي خالي ومعه لواء، فقلت: أين تذهب؟ قال: بعثني النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل تزوج امرأة أبيه آتية برأسه. (الخانز).

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا»
سورة النساء (الآية: ٢٤)

في الواحدى: قال أبو سعيد الخدرى: أصبنا سبايا يوم أوطاس لهنّ أزواج، فكرهنا أن نقع عليهنّ فسألنا النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فاستحللناهنّ * وفي رواية عنه في الخطيب: نزلت في نساء كُنَّ هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهنّ أزواج، فتزوجن بعض المسلمين، ثم قدم أزواجهن مهاجرين. فهى الله المسلمين عن نكاحهنّ، ثم استثنى فقال: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» أي من الإماء بالسبى، فلكم وطؤهنّ، وإن كان لهنّ أزواج في دار الحرب بعد الاستبراء، لأنّ بالسبى يرتفع النكاح بينها وبين زوجها، قال أبو سعيد: بعث رسول

الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين جيشاً إلى أوطاس .. الخ. * وقال الخطيب: وقيل: نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نُسخَتْ، كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً ليلة أو ليلتين، أو أسبوعاً بثوب أو غير ذلك، ويقضى منها وطره ثم يسرحها، سميت متعة لاستمتاعه بها، أو لتمتيعه لها بما يعطيها، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أباحها، ثم أصبح يقول: [يا أيُّها الناس إني كنتُ أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء، إلاَّ أنَّ الله حرَّم ذلك إلى يوم القيامة]. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا أوقى برجل تزوج بامرأة إلى أجل إلاَّ رجمتها بالحجارة * وعن ابن عباس أنه قال: هي محكمة. أي لم تنسخ * وكان يقرأ «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» ويروى أنه رجع عن ذلك عند موته، وقال: اللهم إني أتوب إليك من قولي بالمتعة * وقيل: إنها أبيحت مرتين وحرمت مرتين * وما رواه الواحدى والخطيب رواه الامام أحمد في مسنده وابن كثير في تفسيره نقلاً عنه وعن مسلم والترمذى عن أبي سعيد الخدرى * وروى الطبرانى من حديث الضحاك عن أنس أنها نزلت في سبايا خيبر. وهذه كلها نصوص صحيحة تثبت أن الآية نزلت بسبب تحرّج أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن وطء المسبيات ذوات الأزواج، فأنزل الله في جوابهم: «إِلَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» أى وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابه والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور. وهو الصحيح. قوله تعالى: «وَوَ» حرمت عليكم «الْمُحْصَنَاتُ» أى ذوات الأزواج «مِنَ النِّسَاءِ» أن تنكحوهنّ قبل مفارقة أزواجهن حرائر مسلمات كُنّ أولاً. وقد ورد الاحصان في القرآن لأربعة معان: الأول التزوّج كما في هذه الآية. وكما في قوله: مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ. الثانى: الحرية كما في قوله: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ» الثالث: الإسلام كما في قوله: «فَإِذَا أُحْصِنَتْ» قيل: في تفسيره أسلمن. الرابع: العفة كما في قوله: «مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ» وقوله: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» من الإماء بالسبى فلكم وطؤهن، وإن كان لهنّ أزواج في دار الحرب بعد الاستبراء. أى فهى حلال لكم، وكان الاستبراء على زمن الصحابة للسبايا بجيضة واحدة. لحديث أبى سعيد الخدرى فى سبايا أوطاس: (لا تُوطأ حامل حتّى تضع، ولا حائل حتّى تحيض). ولم يجعل لفراش الزوج السابق أثراً حتى يقال إن المسيية مملوكة، ولكنها لما كانت زوجة وزال نكاحها فتعتدّ عدّة الاماء على ما نقل عن الحسن بن

صالح قال: عليها العدة حيزتان إذا كان لها زوج في دار الحرب. وكافة العلماء رأوا استبراءها، واستبراء التي لا زوج لها بحيضة واحدة. والمشهور من مذهب مالك أنه لا فرق بين أن يُسبى الزوجان مجتمعين أو متفرقين، لكن روى عن ابن بكير أنها إن سُبيا جميعاً، واستبق الرجل أقرَّ على نكاحها فرأى في هذه الرواية أنه استبقاء لما يملكه، لأنه قد صار له عهد، وزوجته من جملة ما يملكه فلا يحال بينه وبينها، وهو قول أبي حنيفة والثوري، وبه قال ابن القاسم. ورواه عن مالك، والصحيح الأول لقوله تعالى: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فأحال الحَلَ بالشرط المتقدم على ملك اليمين، وجعله هو المؤثر في الإباحة، فيتعلق الحكم به من حيث العموم إلا ما نُصَّ الدليل وقوله: «كِتَابَ اللَّهِ» نصب على المصدر المؤكد لأنه لما قال: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْهَاتِكُمْ إِلَى هُنَا كِتَابًا وَفَرَضَهُ فَرْضًا عَلَيْكُمْ: «وَأَحْلَى» بالبناء للفاعل وللمفعول: «لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» أى سوى ما حرم عليكم من النساء هذا عام مخصوص فقد دلت السنة على تحريم أصناف آخر سوى ما ذكر، فن ذلك أنه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة ونخالها، ومن ذلك نكاح المعتدة، ومن ذلك أن من كان في استطاعته نكاح الحرّة لا يجوز له نكاح الأمة، ومن ذلك من عنده أربع زوجات لا يجوز له نكاح خامسة، ومن ذلك الملاعنة فإنها محرمة على الملاعن أبداً فهذه أصناف من المحرمات سوى ما ذكر في الآية كذا في الخازن. قلت: وكذا المطلقة ثلاثاً لا تحلّ لقوله تعالى: «فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ» وكذا الحربية والمرتدة حتى يؤمنا لقوله تعالى: «وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَنَّ» وقوله تعالى: «أَنْ تَبْتَغُوا» أى تطلبوا النساء: «بِأَمْوَالِكُمْ» بصداق أو ثمن، وفيه دليل على أن النكاح لا يكون إلا بمهر، وإنه يجب وإن لم يسم، وإن غير المال لا يصح مهراً، وإن القليل لا يصلح مهراً إذ الحبة لا تُعدّ مالاً. ذكره الخازن قلت: قال أبو حنيفة: لا يجوز المهر بأقلّ من عشرة دراهم لأنه تعالى قيد التحليل بالأموال. والدرهم والدرهمان لا يُسمّى أموالاً وقال الشافعي: يجوز بالقليل والكثير لأن قوله: «بِأَمْوَالِكُمْ» مقابلة الجمع بالجمع فيقتضى توزع الفرد على الفرد، فيتمكن كل واحد من ابتغاء النكاح بما يسمّى مالاً، والقليل والكثير في هذه الحقيقة سواء. وعن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال [من أعطى امرأة في نكاح كَفَّ دَقِيقَ أَوْ سَوْيْقَ فَقَدْ اسْتَحَلَّ]. وقال أبو حنيفة: لو تزوج بها على تعليم سورة من القرآن لم يكن ذلك مهراً.

ولها مهر مثلها لأن أبو حنيفة قال: لو تزوج بها على تعليم سورة من القرآن لم يكن ذلك مهراً. ولها مهر مثلها لأن الابتغاء بالمال شرط، والمال اسم للأعيان لا للمنافع. وكذا قوله: «وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُنَّ نَفْسًا فَكُلُوهُ» والإيتاء والأكل من صفة الأعيان. وإن تزوج امرأة على خدمة سنة فإن كان حراً فلها مهر مثلها. وإن كان عبداً فلها خدمة سنة. وقال الشافعي: الآية تدل على أن الابتغاء بالمال جائز، وليس فيه أن الابتغاء بغيره جائز أولاً، وأيضاً قد خرج الخطاب مخرج الأعم الأغلب فلا يدل على نفي ما سواه، ومما يدل على جواز جعل المنفعة صداقاً قوله تعالى: في قصة شعيب: «عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَابٍ» والأصل في شرع من قبلنا البقاء إلى أن يظهر الناسخ. وأيضاً التي وهبت نفسها لِمَا لم يجد الرجل الذي أراد التزوج بها شيئاً قال صلى الله عليه وسلم: [هَلْ مَعَكَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ..] ومنه يعلم جواز عتق الأمة صداقاً لها لا سبياً وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها، وكونه من خواصه ممنوع. وقوله: «مُخَصِّنِينَ» يعني غير متزوجين وقيل: متعفين: «غَيْرُ مُسَافِحِينَ» أي غير زانين. وأصل السفح، وهو الصبُّ، وإنما سُمِّيَ الزنا سفاحاً لأن الزاني لا غرض له إلاَّ صبَّ النطفة فقط. وقوله تعالى: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» في الخازن: اختلفوا في معناه. فقال الحسن ومجاهد: أراد ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بنكاح صحيح. لأن أصل الاستمتاع في اللغة الانتفاع. وكل ما انتفع به فهو متاع. أي ما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو عقد عليهن أو خلوة صحيحة عند أبي حنيفة: «فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ» عليه والمراد بالأجور: المهور لأن المهر ثواب على البضع كما يسمى بدل منافع الدار والدابة أجراً: «فَرِيضَةً» حال من الأجور بمعنى مفروضة، وفي الخازن: وقال قوم: المراد من حكم الآية هونكاح المتعة، وهو أن ينكح امرأة إلى مدة معلومة بشيء معلوم، فإذا انقضت تلك المدة بانتهى منه بغير طلاق، وستبريء رحمها. وليس بينهما ميراث. وكان هذا في ابتداء الإسلام. ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال [أيها الناس إني كنت أذنتُ لكم في الاستمتاع في النساء، وإن الله قد حَرَّمَ ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً] قال الخازن: وإلى هذا ذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم. أي أن نكاح المتعة حرام. والآية منسوخة، واختلفوا في ناسخها. فقيل: نُسخت بالستة، وهو ما تقدم

من حديث سبرة الجهني. وروى الشيخان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال [نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية] وهذا على مذهب من يقول: إن السنة تنسخ القرآن. ومذهب الشافعي أن السنة لا تنسخ القرآن. فعلى هذا يقول: إن ناسخ هذه الآية قوله تعالى في سورة المؤمنون: «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» والمنكوحه بالمتعة ليست بزوجة ولا ملك يمين. واختلفت الروايات عن ابن عباس في المتعة فروى أن الآية محكمة. وكان يرخص في المتعة، قال عمارة: سألت ابن عباس عن المتعة: أسفاح هي أم نكاح؟ فقال: لا سفاح ولا نكاح. قلت: فاهي؟ قال: متعة قال الله تعالى: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» قلت: هل لها عدة؟ قال: نعم حيضة. قلت: هل يتوارثان؟ قال: لا. وروى أن الناس لما ذكروا الأشعار في فتياهم ابن عباس بالمتعة قال: قاتلهم الله أنا ما أفتيت بإباحتها على الإطلاق لكن قلت: إنما يجلي للمضطر كما تحل الميتة له. وروى أنه رجع عنه وقال بتحريمها. وروى عطاء الخرساني عن ابن عباس في قوله: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» أنها صارت منسوخة بقوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ» وروى سالم بن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما بال أقوام ينكحون هذه المتعة، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، لا أجد رجلاً نكحها إلا رجته بالحجارة، وقال: هدم المتعة النكاح والطلاق والعدة والميراث. قال الشافعي: لا أعلم في الإسلام شيئاً أحل ثم حرم، ثم أحل ثم حرم غير المتعة، وقال أبو عبيد السلماني: اليوم مجمعون على أن متعة النساء قد نسخت بالتحريم نسخها الكتاب والسنة. هذا قول أهل العلم جميعاً من أهل الحجاز والشام والعراق من أصحاب الأثر والرأى، وأنه لا رخصة فيها لمضطر ولا لغيره. قال ابن الجوزي في تفسيره: وقد تكلف قوم من مفسري القرآن فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلف لا يحتاج إليه لأن النبي صلى الله عليه وسلم أجاز المتعة، ثم منع منها فحرمها، فكان قوله منسوخاً بقول: وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة لأنه تعالى قال فيها: «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُخَصَّنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» فدل ذلك على النكاح الصحيح. قال الزجاج: ومعنى قوله: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» فما نكحتموه على

الشرائط التي جرت، وهو قوله: «مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» أي عاقدين التزويج * وقال ابن جرير الطبري: أولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل من تأوله. فما نكحتموه منهن فجامعتوهن فأتوهن أجورهن يعني مهورهن * قلت: وعبرة الزجاج كما في اللسان: أن هذه الآية آية غلط فيها قوم غلطاً عظيماً لجهلهم باللغة، وذلك أنهم ذهبوا إلى قوله: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» فما نكحتم منهن على الشريطة التي جرى في الآية أنه الإحصان: «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَفْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ» أي عاقدين التزويج، أي فما استمتعتم به منهن على عقد التزويج الذي جرى ذكره. فأتوهن أجورهن فريضة، أي مهورهن، فإن استمتع بالدخول بها أتى المهر تاماً، وإن استمتع بعقد النكاح أتى نصف المهر * وقال الأزهرى: ومن زعم أن قوله: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» التي هي الشرط في التمتع الذي يفعله الرافضة فقد أخطأ خطأ عظيماً لأن الآية واضحة مبينة، قال: فإن احتج محتج من الروافض بما يروى عن ابن عباس أنه كان يراه حلالاً، وأنه كان يقرؤها: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فالثابت عندنا أن ابن عباس كان يراها حلالاً ثم لما وقف على نهى النبي صلى الله عليه وسلم رجوع عن إحلالها، قال عطاء: سمعت ابن عباس يقول: ما كانت المتعة إلا رحمة رحم الله بها أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فلولا نهيها عنها ما احتاج إلى الزنا أحد إلا شفى والله. ولكني أسمع قوله: إِلَّا شَفَى، عطاء القائل. قال عطاء: فهي التي في سورة النساء: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» إلى كذا وكذا من الأجل على كذا وكذا شيئاً مسمياً، فإن بدا لهما أن يتراضيا بعد الأجل وإن تفرقا فهو ليس بنكاح. قال الأزهرى: وهذا حديث صحيح، وهو الذي يبين أن ابن عباس صح له نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المتعة الشرطية، وأنه رجوع عن إحلالها إلى تحريمها * وقوله: إِلَّا شَفَى أَي إِلَّا أَنْ يُشْفَى أَي يَشْرَفُ عَلَى الزَّانَا وَلَا يُوَافِقُهُ.. وَإِنَّمَا بَيَّنَّتْ هَذَا الْبَيَانَ لِثَلَاثِ سَبَبَاتٍ: بَعْضُ الرَّافِضَةِ غَيْرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَيَحِلُّ لَهُ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ النَّهْيَ عَنِ الْمَتْعَةِ الشَّرْطِيَّةِ صَحَّ مِنْ جِهَاتٍ لَوْلَمْ يَكُنْ فِيهِ غَيْرُ مَا رَوَى عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَنَهْيِهِ ابْنَ عَبَّاسٍ عَنْهَا لَكَانَ كَافِيًا، وَهِيَ الْمَتْعَةُ الَّتِي كَانَتْ يَنْتَفِعُ بِهَا إِلَى أَمَدٍ مَعْلُومٍ، وَقَدْ كَانَ نِكَاحُهَا مَبَاحًا فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ حُرِّمَ. وَهُوَ الْآنَ جَائِزٌ عِنْدَ الشَّيْخَةِ وَقَوْلُهُ: «فَرِيضَةٌ» يَعْنِي لَازِمَةً وَوَاجِبَةً وَقَوْلُهُ: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ» قَالَ الْخَازِنُ: اخْتَلَفُوا

فيه، فن حمل ما قبله على نكاح المتعة، قال: أراد أنها إذا عقدا عقداً إلى أجل على مال، فإذا تم الأجل، فإن شاءت المرأة زادت في الأجل وزاد الرجل في الأجر، وإن لم يتراضيا فارقها — وقد تقدم أن ذلك جائز ثم نسخ وحرّم — ومن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح قال: المراد بقوله: «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ» يعني من الإبراء من المهر، والافتداء والاعتياض، وقال الزجاج: معناه لا جناح عليكم أن تهب المرأة للزوج مهرها، وأن يهب الرجل للمرأة التي لم يدخل بها نصف المهر الذي لا يجب عليه * وقوله: «مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ» أى من حطها أو بعضها أو زيادة عليها: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا» بخلقه: «حكيماً» فيما دبره لهم، ومن جملة ما شرع لهم من هذه الأحكام رافةً بحالهم.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا وَاللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» سورة النساء (الآية: ٣٢)

في الواحدي: عن مجاهد قال: قالت أم سلمة رضي الله عنها يا رسول الله: تغزو الرجال ولا تغزوا، وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تعالى «وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ» الآية * وقال قتادة والسدي: لما نزل قوله تعالى: «لِلذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» قال الرجال: إنا لنرجوا أن نفضل عن النساء بحسنتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث، فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء، وقالت النساء: إنا لنرجوا أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا، فأنزل الله تعالى «وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ» * وكذا في القرطبي والخازن وفيه: وقيل: لما جعل الله للذكر مثل حظ الأنثيين من الميراث قالت النساء: نحن أحق وأحوج إلى الزيادة من الرجال لأننا ضعفاء، وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش فأنزل الله تعالى هذه الآية * ومثله في الطبري وابن كثير * وفيه عن ابن عباس في الآية قال: أتت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله: للذكر مثل حظ الأنثيين، وشهادة امرأتين برجل. أفنحن في العمل هكذا؟ إن فعلت امرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية «وَلَا

تَمَمْتَنُوا...» فإنه عدل مني وأنا صنعته» وقال السدي في الآية: إن رجالاً قالوا: إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء كما لنا في السهام سهمان، وقالت النساء: إنا نريد أن يكون لنا من الأجر مثل أجر الشهداء فإننا لا نستطيع أن نقاتل، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا. فأبى الله ذلك. ولكن قال لهم: سلوني من فضلي: قال: ليس بعرض الدنيا» وقد روى عن قتادة نحو ذلك، وعن ابن عباس في تفسير الآية قال: ولا يتمنى الرجل فيقول: ليت لو أن لي مال فلان وأهله. فنهى الله عن ذلك، ولكن يسأل الله من فضله» وفي الغرائب: وقيل: أتت وافدة النساء إلى الرسول، وقالت: رب الرجال والنساء واحد، وأنت الرسول إلينا وإليهم، وأبونا آدم وأمنا حواء، فما السبب في أن الله يذكر الرجال ولا يذكرنا. فنزلت الآية. فقالت: وقد سبقنا الرجال بالجهاد، فما لنا، فقال صلى الله عليه وسلم: [إِنَّ لِلْحَامِلِ مِنْكِ أَجْرَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ، وَإِذَا ضُرِبَ الْطَلْقُ لَمْ يَدْرُ أَحَدٌ مَا لَهَا مِنَ الْأَجْرِ، فَإِنْ أَرْضَعَتْ كَانَ لَهَا بِكُلِّ مِصَّةٍ أَجْرُ إِحْيَاءِ نَفْسٍ] فيكون المعنى لكل فريق جزاء ما اكتسب من الطاعات، فلا ينبغي أن يضيعه بسبب الحسد المذموم. وتلخيصه: لا تضيع مالك بتمنى ما لغيرك، فنهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن التمنى لأن فيه تعلق بالبال ونسيان الأجل» وقوله: «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا» بسبب قيامهم بالنفقة على النساء «وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ» بحفظ فورجهن وطاعة أزواجهن والقيام بمصالح البيت. «وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ» فعنده من ذخائر الأنعام ما لا ينفده مطالب الأنام فخرائن نعمه لا نفاذ لها ولا نقصان «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» ومنه محلّ الفضل وسؤالكم، فالله عالم به فيجيبه.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا»

سورة النساء (الآية: ٣٣)

في الواحدي: قال سعيد بن المسيّب: نزلت هذه الآية في الذين كانوا يتبتون أبناء ويورثونهم فأنزل الله فيهم، أن يجعل لهم نصيب في الوصية، وردّ الله تعالى الميراث إلى الموالى من ذوى الرحم والعصبة، وأبى أن يجعل للمدعين ميراث من ادعاهم وتبتاهم.

ولكلّ جعلنا نصيباً في الوصية* وفي البخارى في كتاب الفرائض من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس «وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ..» الآية* قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصارى المهاجرى دون ذوى رحمه، للأخوة التي آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم، فلما نزلت «وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ» قال: نسختها «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ» قال أبو الحسن بن بطلال: وقع في جميع النسخ «وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ» قال: نسختها «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ»* لكن قال الطبرى: والصواب أن الآية الناسخة «وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ» والمنسوخة «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ»* وعلى التحقيق أنه لا نسخ بين الآيتين ويمكن الجمع بينهما بأن آية «وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ» محكم وليس بمنسوخ. وإنما أمر الله المؤمنين أن يعطوا الحلفاء أنصباؤهم من النصرة. والرفادة والنصيحة وما أشبه ذلك وهو قول مجاهد والسدى واختاره النحاس. ورواه عن سعيد بن جبير* وذلك الآية «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ» نزلت في إبطال ميراث المتبنين، وهذا ما رواه الزهري عن سعيد بن المسيب قال: أمر الله عز وجل الذين تبنوا غير أبنائهم في الجاهلية، وورثوا في الإسلام، أن يجعلوا لهم نصيباً في الوصية، ورد الميراث إلى ذوى الرحم والعصبة* والمعنى: ولكن أيها الناس جعلنا عصبه يرثونه ممّا ترك والده وأقرباؤه من ميراثهم له. ولا يوجد في التفاسير غير ما ذكر. قوله تعالى: «وَلِكُلِّ» من الرجال والنساء «جَعَلْنَا مَوَالِيَ» عصبه يعطون تركته إرثاً «مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ» أي أن الوالدين والأقربون هم الموروثون. وعبارة الخازن: ولكل من الرجال والنساء جعلنا موالى. يعنى ورثة من بنى عم وإخوة وسائر العصبات مما ترك يعنى يرثون مما ترك الوالدان والأقربون. فعلى هذا الوالدان والأقربون هم الموروثون. وقيل: معناه: ولكن جعلنا موالى أي ورثة مما ترك، وتكون ما بمعنى تركهم الميت، ثم فسر الوالى فقال: الوالدان والأقربون فعلى هذا الوالدان والأقربون هم الوارثون. والمعنى ولكل شخص جعلنا ورثة ممن تركهم وهم والداه وأقرباؤه. والقول الأول أصح لأنه مروى عن ابن عباس وغيره* وملخص القولين: بحيث يكون الوالدان والأقربون هم وارثين وبحيث يكونان موروثاً منها. والمولى لفظ مشترك بين معان: منها الْمُعْتَقُ لأنه ولّى نعمته في عتقه، ومنها العبد المعتق لا اتصال ولاية مولاه في إنعامه عليه. وهذا كما يسمى الطالب غريباً لأن له اللزوم والمطالبة بحقه، ويُسَمَّى المطلوب غريباً لكون

الدين لازماً له، ومنها الخليف لأن الحالف يلى أمره بعقد اليمين. ومنها ابن العم لأنه يليه بالنصرة، ومنه المولى للناصر قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا»، ومنها العصبية وهو المراد في الآية. وهو الأليق بها كقوله صلى الله عليه وسلم: [أنا أولى بالمؤمنين من مات وترك مالا فإله للموالى العصبية، ومن ترك كلاً فأنا وليه] وقوله «وَالَّذِينَ عَاقَدْتَ» بالألف ودونها، أي قرأ الكوفيون عقدت، والباقون عاقدت بألف، وروى عن حزة: عقدت بالتشديد. والمفاعلة هنا ظاهرة لأن المراد المحالفة. والمفعول محذوف على كل من القراءات أي حلفهم. وقوله «أَيْمَانُكُمْ» جمع يمين، بمعنى القسم، أو اليد، أو هما جميعاً أي الحلفاء الذين عاهدتموهم في الجاهلية على النصر والإرث، وذلك أنهم كانوا إذا تحالفوا أخذ كل واحد منهم بيد صاحبه، وتحالفوا على الوفاء بالعهد والتمسك بذلك العقد، وكان الرجل يحالف الرجل في الجاهلية ويعاقده، فيقال: دمي دمك، وهدمي هدمك، وحرني حربك وسلمي سلمك، ترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك، فيكون لكل واحد من الحلفين السدس في مال الآخر، وكان الحكم ثابتاً في الجاهلية وابتداء الإسلام وذلك قوله تعالى «فَأْتَوْهُمْ نَصِيْبُهُمْ» يعني اعطوهم حظهم من الميراث، ثم نسخ الله هذا الحكم بقوله «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ» وقوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً» الشهيد بمعنى الشاهد والمراد منه علمه بجميع الأشياء جزئياتها وکلياتها. وقيل الشهيد هو الشاهد على الخلق يوم القيامة بكل ما عملوه. فيجازيكم عليها في الدار الآخرة. وفيه وعيد للعاصين ووعيد للمطيعين.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ أَطَعْتِكُم مَّا فَتَوَّاعًا فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً» سورة النساء (الآية: ٣٤)

في الواحدي: قال مقاتل: نزلت هذه الآية في سعد بن الربيع، وكان من النقباء،

وامراته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، وهما من الأنصار، وذلك أنها نشزت عليه، فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أفرشته كرمعتي فلطمها، فقال صلى الله عليه وسلم: لتقتص من زوجها، وانصرفت مع أبيها لتقتص منه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ارجعوا هذا جبريل عليه السلام أتاني. وأنزل هذه الآية، فقال صلى الله عليه وسلم: أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذي أراد خير، ورفع القصاص * وفي القرطبي: وقال أبو روق: نزلت في جميلة بنت عبدالله بن أبي، وفي زوجها ثابت بن قيس بن شماس * وقال الكلبي: نزلت في عميرة بنت محمد بن مسلمة، وفي زوجها سعد بن الربيع — وقد تقدم أن اسمها في الواحدى حبيبة. كذا في الفرائد وغيره * وقوله تعالى «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» أي يقومون عليهن قيام الولاية على الرعية من نفقة وذبح عنهن، وعلل ذلك بأمرين: أحدهما وهبى والآخر كسبى. وقد ذكر الأول بقوله تعالى «بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» أي بسبب تفضيله الرجال على النساء بكمال العقل، وحسن التدبير، ومزيد القوة في الأعمال والطاعة، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية، وإقامة الشعائر والشهادة في مجامع القضايا، ووجود الجهاد والجمعة والتعصيب، وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفراق، والرجعة، وعدد الأزواج، وإليه الانتساب. وهم أصحاب اللحي والعمائم. بل المرأة يعود أصلها إلى الرجل، وأعنى بذلك حواء وآدم عليها السلام. ثم ذكر الثاني بقوله «وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» في نكاحهن كالمهر والنفقة، وإكرام الضيفان روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها] وفي الآية دليل على أن الولاية إنما تستحق بالفضل لا بالتغلب والاستطالة والقهر. وقال العلماء: لا قصاص بين الرجل وامراته فيما دون النفس. ولو شجها. ولكن يجب العقل. وقيل: لا قصاص إلا في الجرح والقتل، وأما اللطمة ونحوها فلا. وقوله تعالى «فَالصَّالِحَاتُ» منهن «قَانِتَاتٌ» مطيعات لأزواجهن «حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ» أي لفروجهن وغيرها في غيبة أزواجهن «بِمَا حَفِظَ اللَّهُ» حيث أوصى عليهن الأزواج فأنت ترى أن الله تعالى قسم النساء قسمين: فوصف الصالحات منهن بأنهن قانتات مطيعات لله وللزوج، حافظات للغيب، قانتات بحقوق الزوج في غيبته، وذلك بأن تحفظ نفسها عن الزنا لئلا يلحق الزوج العار بسبب زناها، ولئلا يلحق به الولد الحاصل من نطفة غيره فيرثه ظلماً وعدواناً. وأن تحفظ أسرارها عن الإفشاء، وماله

عن الضياع، ومنزلها عما لا ينبغى شرعاً وعرفاً. عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [خيرُ
النِّسَاءِ امرأةٌ إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في
مالك ونفسها وتلا الآية] وما في قوله «بِمَا حَفِظَ اللهُ» موصولة، والعائد محذوف، أي
بالذي حفظ الله له. أي عليهم أن يحفظن حقوق الزوج في مقابلة ما حفظ الله حقوقهن
على أزواجهن حيث أمرهم بالعدل فيهن في قوله «فإِمْسَاكُ بَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعُ
بِإِحْسَانٍ» فقوله «بِمَا حَفِظَ اللهُ» يجرى مجرى قولهم: هذا بذاك أي هذا في مقابلة ذلك،
أو أنها مصدرية، فيكون المعنى: أنهن حافظات للغيب بحفظ الله إيتائهن، فإنهن لا يتيسر
لهن حفظ الغيب إلا بتوفيق الله تعالى. وقوله تعالى «وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ» النشوز
العصيان. مأخوذ من النشز. وهو ما ارتفع من الأرض. وعليه انشزوا، أي قوموا، أي
تعلمون وقوع النشوز منهن أولاً «فَعِظُوهُنَّ» أي خوّفوهن، كان يقول لزوجته: اتق الله في
الحق الواجب لي عليك، واحذري العقوبة من الله، وبين لها أن النشوز يُسقط النفقة
والقسم، فإن لم تُجد هذه العظة بها، فينتقل الزوج إلى التطبيق العملي وهي العقوبة
المادية الجسدية بعد الثانية «وَاضْرِبُوهُنَّ» ضرباً غير مبرح، وهو الذي لا يחדش وجهاً
ولا يكسر عظماً، أو يؤدي إلى التهلكة. والأولى ترك الضرب لما روى أنه صلى الله عليه
وسلم قال: [لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللهِ] فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
ذئرت النساء على أزواجهن، أي اجترأت، فرخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله
صلى الله عليه وسلم نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
[لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهن ليس أولئك بخياركم] ومعناه أن
الذين ضربوا أزواجهم ليسوا خيراً ممن لم يضربوا، وإذا ضربها وجب أن لا يكون مفضياً
إلى الهلاك البتة، وأن يكون مفرقاً على بدنها لا يوالى به في موضع واحد، ويتقى الوجه لأنه
مجمع المحاسن، وأن يكون دون الأربعين. وقيل: دون العشرين لأنه حد كما في شرب
العبد، ومنهم من لا يرى الضرب، بالسياط ولا بالعصا، وبالجملة فالتخفيف مرعى في
هذا الباب، ولهذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: يعظها بلسانه، فإن انتهت فلا
سبيل له عليها، فإن أبت هجر مضجعها: فإن أبت ضربها، فإن لم تتعظ بالضرب بعث
الحكمين. وقال آخرون: هذا الترتيب مرعى عند خوف النشوز، فأما عند تحقق النشوز فلا
بأس بالجمع بين الكل. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: [علق سَوْطُكَ حيث يراه

أهلك [وقوله تعالى «فَإِنْ أَظْفَقَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا» بالأذى والتوبيخ، واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن. وإطاعتهن فيما يراد منهن من طلاقة وجه وطيب كلام وحسن معايشة.

* ((ما تدل عليه الآية)) *

دلّت الآية على ما يلي :

- ١ — على الرجال تأديب نساءهم بما يحفظ حقوقهم، فإذا حفظن حقوق الرجال فلا ينبغي أن يساء عشرتهن.
- ٢ — القوامه وهي تدبير شؤون الانفاق، وتأديب النساء وإمساكهن في بيوتهن ومنعهن من البروز كاسيات عاريات كما يفعل بعض نساء اليوم.
- ٣ — على المرأة طاعة زوجها، وقبول أمره ما لم تكن في معصية.
- ٤ — وإذا أعسر الزوج عن النفقة فللزوجة حق فسخ العقد، وذلك لزوال المقصود مما شرع لأجله النكاح، وهذا مذهب مالك والشافعي لقوله تعالى: «وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» وخالف أبوحنيفة بقوله: «وَأِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ» وقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا» فاحذروه أن يعاقبكم إن ظلمتموهن.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا» سورة النساء (الآية: ٣٧ - ٣٩)

في الواحدي: قال أكثر المفسرين: نزلت في اليهود. كتموا صفة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يُبينوها للناس، وهم يجدونها مكتوبة عندهم في كتبهم * قال ابن عباس وابن زيد: نزلت في جماعة من اليهود، كانوا يأتون رجالاً من الأنصار يخاطبونهم، وينصحونهم، ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم فإننا نخشى عليكم الفقر، فأنزل الله تعالى: «الَّذِينَ

يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ..» إلى «عَلِيمًا» كما في القرطبي * وفيه وقيل: نزلت في مطعمى يوم بدر، وهم رؤساء مكة. أنفقوا أموالهم على الناس ليخرجوا إلى بدره قلت: هذا القول أصح من سابقه لأن اليهود يؤمنون بالله واليوم الآخر، وكفار مكة ليسوا كذلك فيرجح أن تكون الآية نزلت فيهم. أو أن الآية الأولى نزلت في اليهود، والثانية والثالثة في مطعمى بدر. وحدث وهب عن ابن زيد في قوله «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ..» قال: هؤلاء يهود. وقرأ: ويكتمون ما آتاهم الله مِنْ فَضْلِهِ. قال: يبخلون بما آتاهم الله من الرزق، ويكتمون ما آتاهم الله من الكتاب إذا سئلوا عن الشيء، وما أنزل الله كتموه، وقرأ: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا» من بخلهم * وفي الطبري والقرطبي عن ابن عباس ومجاهد: كان النزول إلى قوله «وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا» وفي الخازن بعد أن أورد قول ابن عباس: وقيل: يحتمل أن يكون لمراد بالبخل كتمان العلم، ومنع المال لأن البخل في كلام العرب منع السائل من فضل ما لديه، وإمساك المقنيات، وفي الشرع البخل عبارة عن إمساك الواجب ومنعه. وإذا كان ذلك أمكن حمله على منع المال ومنع العلم. وقوله تعالى «وَالَّذِينَ يَبْخَلُونَ» بما يجب عليهم «وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ» به «وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» من العلم والمال، وهم اليهود في قول. أو مطعمى يوم بدر في قول آخر «وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ» هيئنا للكافرين بذلك وبغيره «عَذَابًا مُهِينًا» ذا إهانة، وهذا دليل على أن من أنكر نعم الله وكفر بها، فله عذاب يبينه كما أهان نعم الله عليه بالبخل والاختفاء وفي الحديث كما رواه أحمد في مسنده [وإذا أنعم الله على عبد نعمة أحب أن يظهر أثرها عليه] وعلى هذا فيكون معنى الكافرين هنا الجاحدين نعم الله عليهم ومثلهم «وَالَّذِينَ» عطف على الذين قبله في صدر الآية، أو على الكافرين بناء على إجراء التغاير الوصفي مجرى التغاير الذاتي. «يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ» مرائين لهم في الانفاق لا يبتغون بها وجه الله، أنفقوها ليقال عنهم: ما أسخاهم وما أجودهم، ومثل هذا الانفاق يدل على أن صاحبه كما قال تعالى: «وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» لأنه لم ينفق لله ولا لليوم الآخر، ولو كان يؤمن بذلك لكان مخلصاً لله في إنفاقه. «وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا» في الدنيا أمرأ له بالبخل والفحشاء «فَسَاءَ قَرِينًا» في الآخرة يقرن به في النار، ثم استفهم تعالى على سبيل الإنكار فقال: «وماذا عليهم؟» أي أي تبعة ووبال عليهم، أو ماذا عليهم في

باب الإيمان والانفاق في سبيل الله، والمراد بقوله: «وماذا عَلَيْهِمْ لَوَآمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ» التوبيخ كما يقال للمنتقم: ما ضَرَكَ لو عفوت، وللعاق:
ما كان يرزؤك لو كنت باراً، وقوله «وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا» فيجازهم بما عملوا. وفي
هذا حث على إصلاح أفعال القلوب التي يطلع عليها علام الغيوب، وردع عن دواعي
النفاق والرياء، والسمعة والفخار بل ينبغي أن يكون الانفاق لا ابتغاء وجه الله تعالى
وطلب ثوابه.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا
تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى
سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا» سورة النساء (الآية: ٤٣)

ورد في سبب نزول الآية سببان: الأول في الواحدي: نزلت الآية في أناس من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يشربون الخمر ويحضرون الصلاة وهم
نشاوى. فلا يدرون كم يصلون ولا ما يقولون في صلاتهم. وقال عطاء: صنع عبد الرحمن
بن عوف طعاماً، ودعا أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فطعموا وشربوا،
وحضرت صلاة المغرب، فتقدم بعضهم، فصلى بهم المغرب فقراً (قل يا أيها الكافرون -
أعبد ما تعبدون - بحذف لا إلى آخر السورة) فلم يتمها فأنزل الله هذه الآية والثاني عن
عائشة رضي الله عنها أنها قالت: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض
أسفارنا حتى كنا بالبيداء، أو بذات الحيس، انقطع عقد لى، فأقام رسول الله صلى الله
عليه وسلم على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، وليس معهم ماء، فأقى الناس
إلى أبي بكر، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم،
وبالناس معه وليس معهم ماء!! فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع
رأسه على فخذي قد نام أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه وليسوا على
ماء وليس معهم ماء؟ قالت: فعاتبنى أبو بكر: وقال: ما شاء الله أن يقول فجعل يطعن

بيده في خاصرقي فلا يمنعي من التحرك إلا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح على غير ماء. فأنزل الله تعالى آية التيمم فتيّموا، فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر. قالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته. رواه البخاري عن اسماعيل بن أبي أويس. وفي رواية ابن عباس عن عمّار بن ياسر قال: فقام المسلمون فضربوا بأيديهم الأرض، ثم رفعوا أيديهم إلى الآباطة قال الزهري: وبلغنا أنّ أبا بكر قال لعائشة: والله إنك ما علمت إلاّ مباركة* وفي السبب الأول جاء في الخطيب: روى أن عبدالرحمن بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نفرأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان الخمر مباحاً، فأكلوا وشربوا، فلما سكروا جاء وقت صلاة المغرب. فقدموا أحدهم يصلي بهم، فقراً: (قل يا أيّها الكافرون - أعبد ما تعبدون - بحذف لا هكذا إلى آخر السورة) فنزلت. فكانوا لا يشرّبونها في أوقات الصلاة، فإذا صلوا العشاء شربوها، فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر، وعلموا ما يقولون، ثم نزل تحريمها. وقيل: أراد بالصلاة مواضعها، وهي المساجد، وقيل: أراد بالسكر سكر النوم - وهو مروي عن الضحاك. وقال عبيدة السلماني «وَأَنْتُمْ سُكَارَى» أي حاقنا الحديث [لا يصلينّ أحدكم وهو حاقب] كذا في الخطيب* وهذا مخالف لما ورد من سبب نزولها، في الخازن: سبب نزول هذه الآية ما روى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: صنع لنا ابن عوف طعاماً فدعانا فأكلنا وأسقانا خمرأ قبل أن تحرم الخمر فأخذت منا وحضرت الصلاة أي صلاة المغرب فقدموني فقترأت: (قل يا أيها الكافرون - أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون) قال: فخلطت فنزلت: «وَلَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب حسن صحيح. والسكر لغة: السد. ومنه قيل لما يعرض للمرء من شرب المسكر لأنه يسد ما بين المرء وعقله. وأكثر ما يقال: السكر لازالة العقل بالمسكر. وقد يقال ذلك لازالته بغضب ونحوه من عشق وغيره. والسُّكْرُ: بالفتح وسكون الكاف، حبس الماء، وبالكسر، نفس الموضع المسدود، وأما السُّكْرُ: بفتح الحاء فما يسكره من المشروب، ومنه «سُكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا» وقد ردّ على الضحاك ابن جرير كما في ابن كثير بقوله: والصواب أن المراد سكر الشراب، قال: ولم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب لأن ذلك في حكم المجنون، وإنما خوطب

بالنهي التمثل الذي يفهم التكليف. وهذا حاصل ما قاله. وقد ذكره غير واحد من الأصوليين وهو أن الخطاب يتوجه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدري ما يقال له: فإن الفهم شرط التكليف. وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهي عن السكر بالكلية لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً وفي القرطبي: روى أبو داود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمَ الْخَمْرِ قَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبَقْرَةِ «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ» قَالَ: فَدَعَى عُمَرَ فَقَرَأَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي النَّسَاءِ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى» فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينادي: أَلَا لَا يَقْرَبُ الصَّلَاةَ سُكَارَى. فَدَعَى عُمَرَ فَقَرَأَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيْنَ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا فَنَزَلَتِ آيَةُ «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ» إِلَى قَوْلِهِ: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» قَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا يَا رَبِّهِ وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: كَانَ النَّاسُ عَلَى أَمْرِ جَاهِلِيَّتِهِمْ حَتَّى يُؤْمَرُوا أَوْ يَنْهَوْا، فَكَانُوا يَشْرَبُونَهَا أَوَّلَ الْإِسْلَامِ حَتَّى نَزَلَتْ «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ» قَالُوا: نَشَرْنَا لِلْمَنْفَعَةِ لَا لِلْإِثْمِ، فَشَرَبَهَا رَجُلٌ فَتَقَدَّمَ يَصْلِي بِهِمْ فَقَرَأَ: (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ - أَعْبُدُوا مَا تَعْبُدُونَ -) فَنَزَلَتْ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى» فَقَالُوا: فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، فَقَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شَافِيًا فَنَزَلَتْ «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ» الْآيَةَ فَقَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا، ثُمَّ طَافَ مَنَادِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حَرَّمَهَا وَعَامَّةُ الْمَفْسُرِينَ ذَكَرُوا حَدِيثَ عَائِشَةَ فِي آيَةِ التَّيْمِمِ، وَسَبَبَ نَزْوِهَا. إِلَّا الْقُرْطُبِيُّ قَالَ: آيَةُ التَّيْمِمِ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَصَابَتْهُ جَنَابَةٌ وَهُوَ جَرِيحٌ، فَرَخَّصَ لَهُ فِي أَنْ يَتَّيْمِمَ، ثُمَّ صَارَتْ عَامَّةً فِي جَمِيعِ النَّاسِ. وَالْأَوَّلُ أَصْحَحُ لِأَنَّهُ مَخْرَجٌ فِي الصَّحِيحِينَ، وَأَجْمَعَ الْمَفْسُرُونَ عَلَى أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْخَمْرِ قَوْلَهُ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى» فِي لَفْظِ الصَّلَاةِ هَهُنَا قَوْلَانِ:

أحدها: أن المراد منه المسجد، وهو قول ابن عباس وابن مسعود والحسن، وإليه يذهب الشافعي، وليس فيه إلا حذف المضاف. أي لا تقربوا مواضع الصلاة.

وثانيها: وعليه الأكثر أن المراد نفس الصلاة. أي لا تصلوا إذا كنتم سكارى.

ومعنى الآية على القول الأول: لا تقربوا المسجد في حالتين: أحدهما حالة السكر: وذلك أن الإنسان إذا أتى المسجد فإنما يأتيه للصلاة. ولا شك أن الصلاة فيها أقوال مخصوصة يمنع السكر منها، وثانيها حالة الجنابة: واستثنى من هذه الحالة حالة العبور. أي الاجتياز في المسجد بأن كان الطريق إلى الماء فيه، أو كان الماء فيه.

والمعنى على القول الثاني: النهى عن الصلاة في حالتين: الأولى حالة السكر أيضاً إلا إذا علموا ما يقولون (وقد علمت أنها حرمت على التأييد) ومعنى قربان الصلاة: غشيانها، والقيام إليها، والثانية حالة الجنابة: ويستثنى منها حالة عبور السبيل، ويراد به في هذا القول السفر، أي لا تقربوا الصلاة في حالة الجنابة إلا ومعكم حال أخرى تعذرون فيها، وهي حال السفر.

ويجوز أن يكون إلا عابري سبيل صفة لقوله جنبا: أي لا تقربوها جنبا غير عابري سبيل أي جنبا مقيمين غير معذورين. والعبور: الجواز «حتى تَغْتَسِلُوا» فلكم أن تصلوا وقوله: «وإن كنتم مرضى» مرضاً يضره الماء «أو على سفر» أي مسافرين. وأنتم جنب أو محدثون حدثاً أصغر «أو جاء أحد منكم من الغائط» هو المكان المعد لقضاء الحاجة أي أحدث بالخروج «أو لامستم النساء» وفي قراءة «أو لمستم» وكلاهما بمعنى اللمس: وهو الجس باليد، قاله ابن عمر، وعليه الشافعي، وألحق به الجس بياق البشر. وعن ابن عباس هو الجماع وهو قول أبي حنيفة. وهي مسألة خلافية مبسطة في الفروع. وقوله «فلم تجدوا ماء» تطهرون به للصلاة بعد الطلب والتفتيش، وهو راجع إلى ما عدا المرضى لأنه يباح لهم ذلك في حالة مرضهم «فتيمموا» اقصدوا بعد دخول الوقت «صعيداً طيباً» تراباً طاهراً، فاضربوا به ضربتين «فامسحوا بوجوهكم وأيديكم» مع المرفقين منه «إن الله كان عفواً غفوراً» وهو كالتعليل للترخيص المستفاد مما قبله. فعلم أن المسافر إذا أجنب ثم لم يجد الماء تيمم وصلى مع الجنابة حتى يجد الماء، وكذا المقيم المريض الذي يضره الماء يتيمم ويصلى حتى يشفى من مرضه «ما جعل عليكم في الدين من حرج» روى أن بعض الصحابة أصابته جنابة، وكان به جراحة عظيمة فسأل بعضهم فلم يفته بالتيمم فاغتسل فات. فسمع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قتلوه قتلهم الله. حتى قال مالك وداود: يجوز له التيمم بجميع أنواع المرض. وفي معنى المرض: البرد المؤدى إلى المرض. وأكثر العلماء ألقوا بالغائط كل ما يخرج من

السبيلين من معتاد أو نادر. وعلى مذهب الشافعي قال بعض أهل الظاهر: إنما ينتقض وضوء اللامس دون الملموس لقوله لمستم. والصحيح أنه ينتقض وضوءهما معاً لاشتراك اللامس والملموس في ابتغاء اللذة. وقيل: عند عدم القصد لا نقض لكليهما. أي بأن يكون اللمس عفواً لا عن قصد، بأن أراد أن يتناول من المرأة متاعاً فأصاب يدها بيده.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً» * انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إنمياً مبيناً،
سورة النساء (الآية: ٤٩، ٥٠)

في الواحددي: قال الكلبي: نزلت في رجال من اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأطفالهم وقالوا يا محمد: هل على أولادنا هؤلاء ذنب؟ قال: لا، فقالوا: والذي نخلف به ما نحن إلا كهيتهم، ما من ذنب نعمله بالنهار إلا كفر عتاً بالليل. وما من ذنب نعمله بالليل إلا كفر عتاً بالنهار. فهذا الذي زكوا به أنفسهم * وكذا في الخطيب: وفي الخازن: وقال ابن عباس: نزلت في رفاة بن زيد ومالك بن دخشم اليهوديين. كانا إذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم لويأ ألسنتها وعاباه. فأنزل الله الآية * وفي الجلال: نزلت في اليهود حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه * وقيل: هم النصارى لأن هذه المقالة لها * في ابن كثير: قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية وهي قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ» في اليهود والنصارى حين قالوا «نحن أبناء الله وأحباؤه» وفي قولهم: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى» وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمنونهم، ويزعمون أنهم لا ذنوب لهم * وكذا قال عكرمة وأبومالك، وروى ذلك ابن جرير * وقال العوفي عن ابن عباس في قوله «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ» وذلك أن اليهود قالوا: إن أبناءنا توفوا وهم لنا قرابة، ويشفعون لنا. ويزكوننا. فأنزل الله على محمد «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ» الآية ... وفيه أقوال لا زيادة في معناها على ما ذكر. وقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ» الاستفهام تعجبي، أي ألم ترى الذين يزكون أنفسهم تعجب من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان، وقد علمت أن المراد بهم اليهود الذي يقولون:

نحن أبناء الله وأحباؤه. أي انظر إليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أركياء عند الله تعالى مع ما هم عليه من الكفر والإثم العظيم. أو من ادعائهم التكفير مع استحالة أن يغفر للكافر شيء من كفره، أو معاصيه، وفيه تحذير من اعجاب المرء بنفسه، وقوله تعالى: «بَلْ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ» تنبيه على أن تزكيته تعالى هي المعتد بها دون تزكيتهم أنفسهم. وفي صحيح مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سَمِيَتْ ابْنَتِي بُرَّةَ، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ هَذَا الْإِسْمِ، وَسَمِيَتْ بُرَّةَ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لَا تُرَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ] فقالوا: بِمِ نَسَمِيهَا؟ فقال: سَمُّوْهَا زَيْنَبَ. قال القرطبي: فقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه، ويجرى هذا المجرى ما قد كثُر في هذه الديار المصرية من نعم أنفسهم بالنعوت التي تقتضي التزكية، كزكى الدين، ومعنى الدين، وما أشبه ذلك. لكن لما كثرت قبائح المسلمين بهذه الأسماء ظهر تخلف هذه النعوت عن أهلها فصارت لا تفيد شيئاً، فأما تزكية الغير ومدحه له، فعن البخارى من حديث أبي بكر أن رجلاً ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [وَيَحْكُ قَطْعَتْ عُنُقَ صَاحِبِكَ — يَقُولُهُ مَرَاراً — إِنْ كَانَ أَحَدَكُمْ مَادِحاً لِمَا لَا مَحَالَةَ، فليقل: أَحْسَبُ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَحَسْبِيهِ اللَّهُ، وَلَا يَزْكِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا] وعلى هذا تأوّل العلماء قوله عليه الصلاة والسلام: [احْتُوا التُّرَابَ فِي وَجْهِهِ الْمَدَّاحِينَ] أن المراد به، المدّاحون في وجوههم بالباطل، وبما ليس فيهم حتى يجعلوا ذلك بضاعته يستأكلون به الممدوح وَيَفْتَنُونَهُ، فأما مدح الرجل بما فيه من الفعل الحسن والأمر المحمود ليكون ذلك ترغيباً له في أمثاله وتحريضاً للناس على الاقتداء به في أشباهه فليس بمدّاح، وإن كان قد صار مادحاً بما تكلم به من جميل القول فيه، وهذا راجع إلى النيات «وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ» وقد مدح صلى الله عليه وسلم في الشعر والخطب والمحاطبة، ولم يحث التراب في وجوه المدّاحين، وقد مدح أصحابه بقوله: [إِنَّكُمْ لَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ، وَتَكْرَهُونَ عِنْدَ الْفِرْعِ] وأما قوله عليه الصلاة والسلام: [لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَقَوْلُوا: عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ] فعناه لا تصفوني بما ليس فيّ من الصفات تلتمسون بذلك مدحى، كما وصفت النصارى عيسى بما لم يكن فيه، فنسبوه إلى أنه ابن الله. فكفروا بذلك وضلّوا وهذا يقتضى أن من رفع امرأ فوق حدّه وتجاوز مقداره بما ليس فيه فعتد

أثيم، لأن ذلك لوجاز في أحد لكان أولى الخلق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله «وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» أي لا ينقصون من أعمالهم الصالحة بقدر قشرة النواة. أو «وَلَا يُظْلَمُونَ» عطف على جملة قد حذفت تعويلاً على دلالة الحال عليها، وإيداناً بأنها غنية عن الذكر. أي يعاقبون بتلك الفعل القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب فتيلاً. أي أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيظ الذي في شقّ النواة، يضرب به في القلّة، والحقارة. وقيل: التقدير، يشاب المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلاً، ولا يساعده مقام الوعيد. «انظُرْ» متعجباً «كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» بذلك القول السابق «وَكَفَى بِهِ» بالافتراء وحده «إِنَّمَا مُبِينًا» بيناً.

*((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا»

سورة النساء (الآية: ٥١ - ٥٤)

في الواحدي: قال عكرمة: جاء حبيُّ بن أخطب، وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم. فأخبرونا عتاً وعن محمد؟ فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ قالوا: نحر الكوماء، ونسقى اللبن على الماء، ونفك العاني، ونصل الأرحام، ونسقى الحجيج، وديننا القديم ودين محمد الحديث. قالوا: بل أنتم خير منه وأهدى سبيلاً فأنزل الله تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ» إلى قوله تعالى «وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا» بل كان النزول إلى «ملكاً عظيماً» وفيه وقال المفسرون: خرج كعب بن الأشرف في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفوا قريشاً على غدر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينقضوا العهد الذي كان

بينهم، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل كعب على أبي سفيان، ونزل اليهود في دور قريش، فقال أهل مكة: إنكم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكرأ منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما. فذلك قوله «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ» ثم قال كعب لأهل مكة: ليجيء منكم ثلاثون ومنا ثلاثون فنلزم أكبادنا بالكعبة، فنعاهد رب البيت لتجهدن على قتال محمد، ففعلوا ذلك، فلما فرغوا، قال أبو سفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أميون لا نعلم، فأيتنا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق؟ أم نحن أم محمد؟ فقال كعب: اعرضوا علي دينكم فقال أبو سفيان: نحن نخرج للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقرى الضيف، ونفك العاني، ونصل الرحم، ونعمر بيت ربنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فارق دين آبائه، وقطع الرحم، وفارق الحرم، وربنا القديم، ودين محمد الحديث. فقال كعب: أنتم والله أهدى سبيلاً مما هو عليه. فنزل الله تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَتَوَا نَصِيْباً مِنَ الْكِتَابِ» يعني كعباً وأصحابه الآيات. وكذا في الخازن: «يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ» يعني سجودهم للصنمين، قال الخازن: واختلف العلماء فيها. فقيل: الجبت والطاغوت: كل معبود دون الله عز وجل، وقيل: هما صنمان كانا لقريش، وهما اللذان سجد اليهود لهما لمرضاة قريش. وقيل: الجبت اسم للأصنام، والطاغوت شياطين الأصنام، ولكل صنم شيطان يعبر فيه، ويكلم الناس، فيعتروا بذلك. وقيل: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر. وفي القرطبي: اختلف أهل التأويل في تأويل الجبت والطاغوت، فقال ابن عباس وابن جبير وأبو العالية: الجبت: الساحر بلسان الحبشة، والطاغوت: الكاهن. وقال الفاروق عمر رضي الله عنه: الجبت: السحر. والطاغوت: الشيطان. وقال ابن مسعود: الجبت والطاغوت ههنا: كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب. وعكس عكرمة فقال: الجبت حيي بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف. ودليله قوله تعالى «يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ» أي كعب بن الأشرف. وروى عن مالك بن أنس: الطاغوت: ما عبد من دون الله. وكلمة جبت في اللغة: تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك. وقيل: الجبت: كل ما حرم الله، والطاغوت: كل ما يطغى الإنسان. ومثل ما في الخازن من القول في سبب نزولها في الطبرى. قال: وأنزل إلى قوله «وَأَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» وفي الجلال: الجبت

والطاغوت: صنمان لقريش * وفي الغرائب: زيادة على ما ذكر. فلما رجعا — إلى كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب — إلى قومها. قال لها قومها: إنَّ محمداً يزعم أنه قد نزل فيكما كذا وكذا، قالوا: صدق والله ما حملنا على ذلك إلا بغضه وحسده * وقوله «وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» أي إلى أبي سفيان وأصحابه حين قالوا لهم: نحن أهدى سبيلاً، ونحن ولاة البيت نسق الحاج ونقرى الضيف.. الخ. أي لأجلهم أو في شأنهم. والقائل كعب: لكن لما أقره الباقون صاروا كأنهم قائلون. «هَؤُلَاءِ» أي أنتم فالقول بالمشافهة، والأظهر أنه حكاية بالمعنى. «أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً» أقوم طريقاً «أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ» يعنى كعب بن الأشرف وأصحابه، وهو استئناف لبيان حالهم وما يصيرون إليه «وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ» أي ومن يلعنه الله «فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً» ما نعا من عذابه وقوله: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ» الاستفهام انكارى بمعنى بلى ليس لهم من الملك شيء البتة، وذلك أن اليهود كانوا يقولون نحن أولى بالملك والنبوة فكيف نتبع العرب. فأكذبهم الله تعالى وأبطل دعواهم. وما قالوا ذلك إلا من حيث أن النبوة كانت في بنى إسرائيل وكان فيهم الملوك فطمعوا أن تعود فيهم النبوة، وتعود الملوك منهم ولو كان الأمر كما تمتوا «فإِذَا لَا يَأْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً» أي شيئاً تافها قدر النقرة في ظهر النواة لفرط بخلهم، والمراد بقدر نقرة النواة أي ما يملؤها. فكيف يستحقون ذلك، وهذه الآية كقوله تعالى: «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً» أي بخيلاً. وقوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» يعنى بذلك حسدهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومنتعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب، وليس من بنى إسرائيل. وأخرج الطبراني عن ابن عباس في قوله «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ» الآية قال: نحن الناس دون الناس. قال الله تعالى: «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً» الآية أي فقد جعلنا في أسباط بنى إسرائيل الذي هم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتاب وحكموا فيهم بالسنن، وهى الحكمة، وجعلنا منهم الملوك، ومع هذا فمنهم من آمن به أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام، ومنهم من صد عنه أي كفر به وأعرض عنه، وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم أي من بنى إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل * وقال مجاهد:

فمنهم من يؤمن به أي بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومنهم من صدّ عنه، فالكفرة منهم أشدُّ تكذيباً لك وأبعد عمّا جشّتهم به من الهدى، والحق المبين، ولهذا قال متوعداً لهم «وكفى بجهنّم سعيراً» أي وكفى بالنار عقوبة على كفرهم وعنادهم. ومخالفتهم كتب الله ورسله * هذا والحسد مذموم، وصاحبه مغرم وهو يأكل الحسنات كما تأكل الثّار الحطب، رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال الحسن: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسدٍ، نفس دائم، وحزن لازم. وعبرة لا تنفذ وقال عبدالله بن مسعود: لا تعادوا نعم الله؟ قيل له: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله * يقول تعالى في بعض الكتب. (الحسود عدوّ نعمتي، متسخّط لقضائي، غير راضى بقسمتي) * ولنصور الفقيه :

ألا قل لمن ظلّ لي حاسداً أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه إذا أنت لم ترضى لي ما وهب
ويقال : الحسد: أول ذنب عُصى الله به في السماء، وأول ذنب عُصى به في الأرض،
فأماً في السماء: فحسد ابليس لآدم، وأماً في الأرض : فحسد قابيل لهابيل.
وما أحسن من قال :

أصبر على حسد الحسو دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلَهُ
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً»

سورة النساء (الآية: ٥٨)

في الواحدي: نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بني عبد الدار سادن الكعبة، فلماً دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب البيت، وصعد السطح فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح، فقيل: إنه مع عثمان، فطلب منه فأبى وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أئتمعه المفتاح، فلوى على بن أبي طالب يده وأخذ المفتاح وفتح الباب، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وصلّى فيه ركعتين،

فلما خرج سألُه العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السّقاية والسّدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً أن يردّ المفتاح إلى عثمان و يعتذر إليه، ففعل ذلك علىّ فقال عثمان: أكرهت وآذيت، ثم جئت ترفق؟ فقال: لقد أنزل الله تعالى في شأنك، وقرأ عليه هذه الآية، فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله، وأسلم. فجاء جبريل عليه السلام، فقال: ما دام هذا البيت فإنّ المفتاح والسّدانة في أولاد عثمان، وهو اليوم في أيديهم * وفي رواية مجاهد: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان فدفع إليه المفتاح، وقال: خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله، لا ينزعها منكم إلا ظالم * وكذا في الخازن لكنه زاد على ما تقدم هو والخطيب: فكان المفتاح معه إلى أن مات فدفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسّدانة في أولادهم إلى يوم القيامة * قال الخازن: قلت: وفيما ذكره البغوي رحمه الله من إسلام عثمان بن طلحة يوم الفتح، ومنعه المفتاح، وقوله: لو أعلم أنّ رسول الله لم أمنعه المفتاح. فيه نظر، والصحيح ما حكاه أبو عمر بن عبد البر، وابن منده، وابن الأثير أنّ عثمان بن طلحة هاجر إلى المدينة في هدنة الحديبية سنة ثمان مع خالد بن الوليد ولقيها عمرو بن العاص مقبلاً من عند النجاشي، فرافقها وهاجر معها، فلما رأهم النبي صلى الله عليه وسلم قال: [رمتكم مكة بأفلاذ كبدها] يعني أنهم وجوه مكة فأسلموا، وسلم عثمان بن طلحة المفتاح للنبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، فردّه النبي صلى الله عليه وسلم إليه، وقال: [خذوها يا بني طلحة خالدة مخلدة لا ينزعها منكم إلا ظالم] ولم يذكروا سؤال العباس السّدانة. والله أعلم * وثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: أقبل النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح وهو مردف أسامة على القصواء، ومعه بلال وعثمان حتى أناخ عند البيت ثم قال لعثمان: ائتنا بالمفتاح فجاء بالمفتاح ففتح الباب. وذكر الحديث * وكذا ذكر ابن الجوزي في تفسيره ما يفيد تقديم إسلامه على فتح مكة * وكذا في ابن كثير، وعبارته: وقد ذكر كثير من المفسرين أنّ هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، واسم أبي طلحة عبدالله بن عبدالعزيز بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب: القرشي البدرى: حاجب الكعبة المعظمة، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الذي صارت الحجابة في نسله اليوم. أسلم هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأما عمّه عثمان بن

أبي طلحة فكان معه لواء المشركين يوم أحد وقتل يومئذ كافرأ، قال ابن كثير: وإنما نبهنا على هذا النسب لأن كثيراً من المفسرين قد يشبهه عليه هذا بهذا، وسبب نزولها فيه لما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة يوم الفتح، ثم رده عليه قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» ذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. وورد بصيغة الجمع تشريراً له، وهو أنه تعالى أمره برد مفتاح البيت إلى عثمان بن طلحة. وقيل: هو خطاب لولاة أمور المسلمين من الأمراء والحكام وغيرهم. ويدل عليه سياق الآية وهو قوله «وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» والمعنى إن الله تعالى يأمركم يا لولاة الأمور أن تؤدوا ما ائتمتم عليه من أمور رعيتكم، وأن توفوهم حقهم، وأن تعدلوا بينهم. وقيل إن الآية عامة في جميع الأمانات لأنه لا يمتنع من خصوص السبب عموم الحكم فيدخل في ذلك جميع الأمانات التي يحملها الإنسان، وينقسم ذلك إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: رعاية الأمانة في عبادة الله تعالى، وهو فعل المأمورات وترك المنهيات، قال ابن مسعود: الأمانة لازمة في كل شيء حتى في الوضوء والغسل من الجنابة والصلاة والزكاة والصوم، وسائر أنواع العبادات.

القسم الثاني: هو رعاية الأمانة مع نفسه، وهو ما أنعم الله به عليه من سائر أعضائه، فأمانة اللسان حفظه من الكذب، والغيبة والنميمة ونحو ذلك. وأمانة العين غضها عن المحارم، وأمانة السمع ألا يشغله بسماع شيء من اللهو والفحش والأكاذيب ونحوه، ثم سائر الأعضاء على نحو ذلك.

القسم الثالث: وهو رعاية أمانة العبد مع سائر عباد الله تعالى، فيجب عليه ردّ الودائع والعواري إلى أربابها الذين ائتمنوه عليها ولا يخونهم فيها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أَدْ الْأَمَانَةَ إِلَىٰ مَنْ ائْتَمَنْكَ، وَلَا تَخُنْ مِنْ خَانِكَ] أخرجه أبو داود والترمذي، وقال حديث حسن غريب. ويدخل في ذلك وفاء الكيل والميزان فلا يطفف فيهما، ويدخل في ذلك أيضاً عدل الأمراء والملوك في الرعية ونصح العلماء للعامة، فكل هذه الأشياء من الأمانة التي أمر الله عز وجل بأدائها إلى أهلها.

روى البيهقي بسنده عن أنس قال: قلنا خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا

قال: [لا إيمانَ لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له] الخازن * والظاهر أن هذه الآية مرتبطة بقوله سابقاً «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا...» وذلك أن اليهود كانوا يعرفون الحق، وأوصاف النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة في التوراة، وهي أمانة عندهم، ومع ذلك كتموها وأنكروها، وقالوا لأهل مكة: أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه، فلما خائفوا في هذه الأمانة الخاصة أمر الله تعالى عموم المكلفين بأداء جميع الأمانات بقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» أي ما ائتمن عليه من الحقوق «وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ» يأمركم «أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» أي بالسواء بأن تأمروا من وجب عليه الحق بأدائه إلى من هو له، فإن ذلك من أعظم الصالحات الموجبة لحسن المقيل في الظلّ الظليل * أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه: إمام عادل، وإنّ أبغض النَّاسِ إلى الله يوم القيامة، وأشدّهم عذاباً إمام جائر] «إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا» فيه إدغام ميم نعم في ما النكرة الموصوفة، أي نعم شيئاً «بِعِظْمِكُمْ بِهِ» تأدية الأمانات والحكم بالعدل «إِنَّ اللَّهَ كَانَ» ولم يزل ولا يزال «سَمِيعًا» لكل ما يقال «بَصِيرًا» بكل ما يفعل. أي إذا حكمت فهو يسمع حكمكم، وإذا أدتيم الأمانات فهو يبصر فعلكم.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» سورة النساء (الآية: ٥٩)

في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدى بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية، رواه البخارى عن صدقة بن فضل . ورواه مسلم عن زهير بن حرب : كلاهما عن حجاج . وقال ابن عباس في رواية أخرى : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في سرية إلى حنّ من أحياء العرب ، وكان معه عمار بن ياسر ، فسار خالد حتى دنا من القوم عرس لكى يُصَبِّحهم ، فأتاهم النذير ، فهربوا عن رجل قد كان أسلم ، فأمر أهله أن يتأهبوا للمسير ، ثم انطلق حتى أتى عسكر خالد ، ودخل مع عمار . فقال : يا أبا اليقظان إني منكم ، وإنّ قومي لمّا سمعوا بكم

هربوا وأقت لإسلامي، أفنافعي ذلك، أو أهرب كما هرب قومي؟ فقال: أقم فإن ذلك نافعك. وانصرف الرجل إلى أهله، وأمر بالمقام، وأصبح خالد فغار على القوم، فلم يجد غير ذلك الرجل. فأخذه وأخذ ماله. فأتاه عمّار فقال: خلّ سبيل الرجل فإنه مسلم. وقد كنت أمتته وأمرته بالمقام. فقال خالد: أنت تحير عليّ وأنا الأمير!!؟ فقال: نعم، أنا أجز عليك وأنت الأمير، فكان في ذلك بينها كلام، فانصرفوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبروه خبر الرجل فأتمنه النبي صلى الله عليه وسلم، وأجاز أمانة عمّار، ونهاه أن يجير بعد ذلك على أمير بغير إذنه، قال: واستبّ عمّار وخالد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأغلظ عمار لخالد، فغضب خالد، وقال يا رسول الله: أتدع هذا العبد يشتمني، فوالله لولا أنت ما شتمني، وكان عمّار مولى لهاشم بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا خالد: كفت عن عمار، فإنه من يسبّ عمّاراً يسبّ الله، ومن يبغض عمّاراً يبغضه الله، فقام عمار، فتبعه خالد فأخذ بثوبه، وسأله أن يرضى عنه، فرضى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمر بطاعة أولى الأمره وكذا في الخطيب والحاظران نقلا عن السدي. لكن في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدى السهمي إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سرية وكذا في ابن كثير: وفي مسند الإمام أحمد عن عليّ رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا، وجدّ عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنّها. قال: فقال لهم شابّ منهم: إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار، فلا تعجلوا حتّى تلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال لهم: لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف. أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش به. وقوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسولَ وأولى» أصحاب «الأمر» أي الولاة منكم إذا أمروكم بطاعة الله ورسوله. والمراد بهم أمراء الحق، لأن أمراء الجور، الله ورسوله بريثان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم كما يدعى ذلك بعض المرثين. وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لها في إيثار العدل، واختيار

الحق، والأمر بهما، والنهي عن أضدادهما كالخلفاء الراشدين، ومن تبعهم بإحسان. وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وقيل: هم أمراء السرايا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: [من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع أميرى فقد اطاعنى، ومن يعص أميرى فقد عصاني] وقيل: هم العلماء الدينيون الذين يُعلّمون الناس الدين، ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر كما في قوله تعالى «وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» وقوله: «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ» أي إلى كتابه «وَالرَّسُولِ» مدّة حياته، وبعده إلى سنته أي اكشفوا عليه منها، واحكموا به، وفي الآية إشارة لأدلة الفقه الأربعة، فقوله: «أطيعوا الله» إشارة للكتاب، وقوله: «وأطيعوا الرسول» إشارة إلى السنة، وقوله: «وأولى الأمر» إشارة للإجماع. وقوله: «فإن تنازعتم».. الخ. إشارة للقياس. وقوله: «إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» أي فإن الإيمان يوجب هذا «ذَلِكَ» الردُّ إليها «خَيْرٌ» لكم من التنازع والقول بالرأى «وأحسنُ تأويلًا» أي من تأويلكم بلا ردّ.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :))*

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا* فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا* أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا* وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا* فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»

سورة النساء (الآية: ٦٠ - ٦٥)

في الواحدي: قال ابن عباس: رضي الله عنهما: كان أبو بردة الأسلمي كاهناً يقضى بين اليهود فيما يتنافرون إليه، فتنافر إليه أناس من أسلم، فأنزل الله تعالى «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ» إلى قوله: «وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» * وحدث سعيد عن قتادة قال: أنزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له قيس، وفي رجل من اليهود في مارة كانت بينها في حق تنازعا فيه، فتنافرا إلى كاهن بالمدينة ليحكم بينهما، وتركا نبي الله صلى الله عليه وسلم، فعاب الله تعالى ذلك عليهما، وكان اليهودي يدعو إلى نبي الله، وقد علم أنه لن يجور عليه، وجعل الأنصاري يأبى عليه، وهو يزعم أنه مسلم، ويدعوه إلى الكاهن، فأنزل الله تعالى كما تسمعون وعاب على الذي يزعم أنه مسلم، وعلى اليهودي الذي هو من أهل الكتاب، فقال: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا» إلى قوله: «يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا». والأصح أنها نزلت إلى «وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي:

انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل نأتى كعب بن الأشرف، وهو الأذى سمّاه الله تعالى الطاغوت، فأبى اليهودى إلا أن يخاصمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاختمها إليه، ففضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهودى، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق، وقال: ننطلق إلى عمر بن الخطاب، فأقبلا إلى عمر: فقال لليهودى: اختصمنا أنا وهذا إلى محمد ففضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه مخاصم إليك، وتعلّق بي فجئت إليك معه، فقال عمر للمنافق: أكذاك؟ قال: نعم، فقال لهما: رويدا حتى أخرج إليكما، فدخل عمر فأخذ السيف فاشتمل عليه، ثم خرج إليهما، وضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أفضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله، وهرب اليهودى، ونزلت هذه الآية * وقال جبريل عليه السلام: إنّ عمر فرق بين الحقّ والباطل، فسّمى الفاروق وكذا في الخازن * وفي الواحدى أقوال أخرى في نفس المعنى. وفي الخطيب اسم المسلم: بشر المنافق. ولكن في الصحيح أن الآية نزلت في الزبير وخضم له من الأنصار— وقد شهد بدرًا— في شراج من الحرّة كانا يستقيان بها التخل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير: إسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك، فغضب الأنصارى، وقال يا رسول الله: أنّ كان ابن عمّتك، فتلّون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: إسق يا زبير، حتى يبلغ الجدر، واستوف حقك ثم أرسله إلى جارك، فنزلت الآية * وفي الخازن: وقال السدى: كان ناس من اليهود قد أسلموا وناق بعضهم، وكانت قريظة والنضير في الجاهلية، وكانت قريظة حلفاء الخزرج، والنضير حلفاء الأوس، وكان إذا قتل رجل من بنى قريظة رجلاً من بنى النضير قتل به، أو أخذت ديتة مائة وسق من تمر، وإذا قتل رجل من بنى النضير رجلاً من قريظة لم يقتل به، وأعطى ديتة ستين وسقاً، فلما جاء الإسلام وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فاختموا في ذلك، فقال بنو النضير: كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلوا متاً، وديتنا مائة وسق، وديتكم ستون وسقاً، فنحن نعطيكم ذلك، فقالت الخزرج: هذا شيء كنتم فعلتموه في الجاهلية لكشركم وقلتنا فقهرتمونا على ذلك، فالיום نحن إخوة في الدين، فلا فضل لكم علينا. فقال المنافقون منهم: ننطلق إلى أبى بردة الكاهن الأسلمى، وقال المسلمون من الفريقين: بل ننطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأبى المنافقون: وانطلقوا إلى أبى بردة الكاهن

ليحكم بينهم، فقال: أطعموا اللقمة، يعني الخضر، فقالوا: لك عشرة أوسق، فقال: بل مائة وسق ديتي، فأبوا أن يعطوه إلا عشرة أوسق، وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله عز وجل آية القصاص، وأنزل هذه الآية «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ..» وعلى كل فالآية أعم من ذلك كله فإنها ذممة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواها من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هنا. وقوله «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ..» الزعم بضم الزاي وفتحها لغتان، وأكثر ما يستعمل الزعم بمعنى القول الذي لا يتحقق. وقيل: هو حكاية قول يكون مطقة للكذب، ولذلك قيل: زعم مطية الكذب، والمراد به في هذه الآية الكذب لأن الآية نازلة في المنافقين. وظاهر الآية يدل على أنها نازلة في الذين نافقوا من مؤمنى أهل الكتاب، ويدل عليه قوله: «آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ» يعني كعب بن الأشرف في قول ابن عباس: سَمَّاهُ اللهُ طَاغُوتًا لِإِفْرَاطِهِ فِي الطُّغْيَانِ، وَعِدَاوَةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقِيلَ: هُوَ أَبُو بَرْدَةَ الْكَاهِنِ فِي قَوْلِ السَّدى «وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ» يعني بالطاغوت لأن الكفر بالطاغوت إيمانٌ بالله عز وجل «وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ» بإرادتهم ذلك التحاكم إلى الطاغوت «أَنْ يُضَلَّهُمْ» أي المتحاكم إليه «ضَلَالًا بَعِيدًا» أي بحيث لا يمكنهم الرجوع إلى الهدى. «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ» في القرآن من الحكم «رَأَيْتَ الْمُتَنَافِقِينَ يَصُدُّونَ» يُعْرَضُونَ عَنْكَ إِلَى غَيْرِكَ «صُدُّودًا» أي إعراضاً بالكلية. فذكر المصدر للتأكيد والمبالغة والآية سبقت لمادة التعجب ببيان إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى كتاب الله ورسوله إثر بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى الطاغوت. وقوله تعالى: «فَكَيْفَ» يصنعون «إِذَا أَصَابَتْهُمُ مِصْيَبَةٌ» عقوبة «بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ» من الكفر والمعاصي. أي أيقنوا على الاعراض والفرار منها؟ لا «ثُمَّ جَاؤُكَ» معطوف على يصدون «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ» مَا «أَرَدْنَا» بالحاكمة إلى غيرك «إِلَّا إِحْسَانًا» صُلْحًا «وَتَوْفِيقًا» أي تأليف بين الخصمين. بالتقريب في الحكم، ولم نرد مخالفتك «أَوَّلَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» من النفاق والبغض للإسلام وأهله. وإن اجتهدوا في إخفائه وكذبهم في حلفهم «فَاعْرِضْ عَنْهُمْ» أي عن عتابهم بالصفح لأنهم أقلُّ من أن يحسب لهم حساب، وهذه الجملة جواب شرط محذوف دل عليه السياق. أي إذا كان حالهم كذلك فأعرض عن

قبول عذرهم. وقوله «وَعَظْمُهُمْ» خوفهم الله القادر على استئصالهم، «وَقُلْ لَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ» أي سرّاً، أو خالياً بهم، فإنّ النسخ في السرّ أجمع وقل لهم «قَوْلًا بَلِيغًا» أي مؤثراً فيهم، أي ازجرهم ليرجعوا عن كفرهم. وقيل: هذا منسوخ بأية القتال، وفي هذه الجملة وجوه:

أحدها: أن في الآية تقدماً وتأخيراً. والمعنى قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يفتنون به اغتماماً، ويستشعرون منه الخوف.

الثاني: وقل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة، وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغاً هو أن الله يعلم ما في قلوبكم فلن يغني عنكم الإخفاء، فطهروا قلوبكم عن دنس النفاق، وإلا فسينزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك، أو سرّاً من ذلك، وأغلظ.

الثالث: الذي ذكرت، أي قل لهم في أنفسهم خالياً بهم مساراً لهم بالنصيحة فإنّ التّصحّ بين الملائق تقرّيع وفي السرّ أنفع وأنجع قولاً يؤثر فيهم.

وقيل: القول البليغ يتعلق بالوعظ، وهو أن يكون كلاماً حسناً، وجزياً المباني غزير المعاني يدخل الأذن بلا إذن مشتملاً على الترغيب والترهيب والاعذار والإنذار. وقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ» فيما يأمر به ويحكم. وهذه علة إرسال الرسل فمن لم يطعه، ولم يرضى بحكمه ولم يقبل رسالته، ومن كان كذلك كان كافراً يستوجب القتل «بِإِذْنِ اللَّهِ» أي بأمر الله ولا ليُصْى ويخالف. ثم بين رحمته الواسعة بقوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» بتحاكمهم إلى الطاغوت «جَاؤُكَ» تائبين «فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ» أي بالتوبة والاحلاص «وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ» أي سأل الله أن يغفر لهم ما تقدم من تكذيبهم، وفي ذلك التفات عن الخطاب تفضيماً لشأنه أي حيث عدل عن خطاب إلى ما هو من عظيم صفاته، فهو على طريقة حكّم الأمير بكذا مكان حكمت بكذا. ووجه التفضيم أن شأن الرسول أن يستغفر لمن عظم ذنبه، وهو مستجاب لا محالة بدليل قوله: «لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَّابًا» عليهم «رَحِيمًا» بهم وقوله: «فَلَا وَرَبِّكَ» لا زائدة للتأكيد، وهو اختيار الزمخشري فهي معنى القسم كما زيدت في لثلا يعلم. لتأكيد وجوب العلم «لَا يُؤْمِنُونَ» جواب القسم «حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرًا» أي اختلط «بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا» ضيقاً أو شكاً «مِمَّا قَضَيْتَ» به «وَيُسَلِّمُوا» ينقادوا لحكمك «تَسْلِيمًا» من غير معارضة، أي ينقادوا لحكمك انقياداً لا شبهة فيه ظاهراً وباطناً وهذا

يناسب أن يكون المراد بالإيمان الإيمان الكامل لأن أصل الإيمان المقابل للكفر لا يستلزم الانقياد لظاهر بل هو أمر باطنى قلبى.

***(القول في سبب نزول قوله تعالى : ((**

«وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا»
ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا» سورة النساء (الآية: ٦٩، ٧٠)

في الواحدى : قال الكلبي: نزلت في ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان شديد الحب له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم، وقد تغير لونه، ونخل جسمه، يعرف في وجهه الحزن، فقال له: يا ثوبان ما غير لونك؟ فقال يا رسول الله: ما بي من ضُرٍ ولا وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، وأخاف ألا أراك هناك، لأنى أعرف أنك ترفع مع النبيين، وإنى وإن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة فذاك أحرى ألا أراك أبداً، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وعن مسروق قال: قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينبغي لنا أن نفارقك في الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا، فأنزل الله تعالى: **«وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...»** وقالت عائشة رضى الله عنها: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله: إنك لأحب إلى من نفسى وأهلى وولدى، وإنى لأكون فى البيت، فأذكرك فما أصبر حتى أتيتك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النسيين، وإنى إذا دخلت الجنة حيث لا أراك، فلم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: **«وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ...»** وكذا فى الخازن وابن كثير وغيرهما. قوله تعالى: **«وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ»** فى أمرابه أمر إيجاب، أو نذب. وفيما نهبها عنه نهب تحريم، أو كراهة، فالمراد بالطاعة الانقياد التام لجميع الأوامر والنواهي، ويطيع الرسول فى السنن التى سنها **«فأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»** يعنى بالهداية والتوفيق فى الدنيا، ويدخل الجنة فى الآخرة **«مِنَ النَّبِيِّينَ»** أى أن المطيعين مع النبيين فى الجنة لا تفوتهم رؤية الأنبياء فى

الجنة، ومجالستهم، لا أنهم يكونون في درجتهم في الجنة لأن ذلك يقتضى التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول «وَالصَّادِقِينَ» أفاضل أصحاب الأنبياء وُسُومُوا صديقين لمبالغتهم في الصدق «وَالشُّهَادَاءِ» القتلى في سبيل الله «وَالصَّالِحِينَ» غير من ذكر، وهم القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، وإنما قلت غير من ذكر لتحصل المغايرة في العطف، لأن الأصناف الثلاثة صالحون «وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ» أى كل واحد من الأصناف الأربعة «(رفيقاً)» أى رفقاء في الجنة بأن يستمتع فيها برويتهم وزيارتهم، والحضور منهم، وإن كان مقرهم في الدرجات العالية بالنسبة إلى غيرهم. وفيه معنى التعجب، وإنما وحد الرفيق وهو صفة جمع لأن العرب تعبر به عن الواحد والجمع. «ذَلِكَ» أى كونهم مع من ذكر «الفضلُ مِنَ اللَّهِ» أى تفضل به عليهم لا أنهم نالوه بطاعتهم «وَكَفَى بِاللَّهِ عَليماً» أى بجزء من أطاعه، أو بمقادير الفضل واستحقاق أهله، روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [قَارِبُوا وَسِيدُوا، واعلموا أنه لا ينجو أحدٌ منكم بعمله] قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: [ولأنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته منه وفضل].

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظَلِّمُونَ فَتِيلًا»
سورة النساء (الآية: ٧٧)

في الواحدى : قال الكلبي : نزلت هذه الآية في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: منهم عبدالرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وقدامة بن مظعون، وسعد بن أبي وقاص، فيقول لهم كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ، فَإِنِّي لَمْ أَمُرْ بِقِتَالِهِمْ، فَلَمَّا هَاجَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ كَرِهَهُ بَعْضُهُمْ، وَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ. وقال ابن عباس: إنَّ عبد الرحمن وأصحابه أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، فقالوا يا نبي الله: كنا في عزٍ ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلةً، فقال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلما حوِّله الله إلى المدينة أمره بالقتال

فكفّوا، فأنزل الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفّوا أَيديكم..» أخرجه النسائي في سننه وكذا في الطبري والخازن وابن كثير وغيرها. وقوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ» تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من إجماعهم عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حرصاً عليه بحيث كانوا يباشرونه كما ينيء عنه الأمر بكتف الأيدي «كفّوا أَيديكم» فإن ذلك مشعر بكونهم يصدد بسطها إلى العدو، فلما نزلت الآية بعد الهجرة وأمروا بقتال المشركين: كرهوا ذلك، والذي كرهه إمام مؤمن وتاب، أو منافق لم يتب وقوله: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ» الخطاب لجماعة المسلمين، وفيهم المنافقون والضعفاء، والمعنى. ألم تَرَ إلى أولئك الذين أمرهم الله بحقن الدماء، وكف الأيدي من الاعتداء، وإقام الصلاة والخشوع لله، وإيتاء الزكاة التي تمكن الإيمان في القلوب، وتشد أواصر التراحم بين الخلق، وقد كانوا من قبل ذلك أصحاب إحن وأحقاد وتخاصم وتلاحم وحروب مستمرة، فلما جاء الإسلام أحبوا أن يكتب عليهم القتال ليسيروا على ما تعودوه، ولكن حين كتب عليهم قتال الكفار كرهه الضعفاء منهم، وخافوا إن قاتلوهم أن ينزل بهم الكفار النكال والوبال بدليل قوله: «فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ» أي فرض عليهم «إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ» يخافون «النَّاسَ» كخشية الله مفعول مطلق أي خشية كخشية الله، وأشد خشية حال منه، لأن نعت النكرة إذا تقدم عليها يعتبر حالاً، أي أو أشد خوفاً من خوفهم له، وجواب لما دلّ عليه إذا وما بعدها أي فاجأتهم الخشية «وَقَالُوا..» خوفاً من الموت بمقتضى الجبلة لا اعتراضاً على حكمه تعالى لأنهم من خيار الصحابة. وفي الكرخي: قال الحسن البصري: وهذا كان منهم لما في طبع البشر من المخافة لا لكرهاتهم أمر الله بالقتال أو هو سؤال عن وجه الحكمة في فرض القتال عليهم لا اعتراض لحكمه، بدليل أنهم لم يوبخوا على هذا السؤال، بل أجيبوا بقوله: «قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ» آيلٌ إلى الفناء وفي أبي السعود: أي قل لهم تزهيداً لهم فيما يأملونه بالقعود من المتاع الفاني وترغيباً فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقي «وَالْآخِرَةُ» أي الجنة «خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى» عقاب الله بترك معصيته «وَلَا تُظَلِّمُونَ فَتِيلاً» قدر قشرة النواة. أي تجزون فيها ولا تظلمون أدنى شيء.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«أَيْتِمَا تَكُونُوا يَدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ
حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ
قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا
أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ
لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» سورة النَّسَاء (الآية : ٧٨ ، ٧٩)

في الواحدى : قال ابن عباس في رواية أبى صالح : لما استشهد الله من المسلمين يوم
أحد، قال المنافقون: الذين تحلفوا عن الجهاد: لو كان إخواننا الذين قتلوا عندنا ما ماتوا
ولا قُتِلُوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكذا في الخطيب والحازن، وفيه: وقيل: نزلت في
الذين قالوا ربنا لم كتب علينا القتال، فردَّ الله عليهم بقوله تعالى: «أَيْتِمَا تَكُونُوا
يَدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ» يعنى ينزل بكم الموت * وفي الطبرى عن مجاهد قال: كان فيمن كان
قبلكم امرأة، وكان لها أجير، فولدت جارية، فقالت لأجيرها: اقتبس لنا ناراً، فخرج
فوجد بالباب رجلاً، فقال له الرجل: ما ولدت هذه المرأة؟ قال: جارية، قال: أما إن
هذه الجارية لا تموت حتى تبغى بائة، وبتزوجها أجيرها، ويكون موتها بالعنكبوت،
قال: فقال الأجير في نفسه: فأنا أريد هذه بعد أن تفجر بائة، فأخذ شفرة فدخل، فسقّ
بطن الصبيّة، ووجلّت فبرئت، فشبت، وكانت تبغى، فأنت ساحلاً من سواحل البحر،
فأقامت عليه تبغى، ولبث الرجل ما شاء الله، ثم قدم ذلك الساحل، ومعه مال كثير،
فقال لامرأة من أهل الساحل: ابغى امرأة من أجل امرأة في القرية أتزوجها، فقالت:
ههنا امرأة من أجل الناس، ولكنها تبغى. قال: ائتنى بها، فأتها، فقالت: قد قدم رجلٌ له
مال كثير، وقد قال لي كذا، فقلت له: كذا. فقالت: إني تركت البغاء، ولكن إن أراد
تزوجته، قال: فتزوجها، فوعدت منه موقعاً، فبينما هو يوماً عندها إذ أخبرها بأمره، فقالت:
فإنه قال لي يكون موتها بالعنكبوت، قال: فبني لها برجاً بالصحراء، وشيّدته، فبينما هما يوماً
في ذلك البرج إذا عنكبوت في السقف، فقالت: هذا يقتلني، لا يقتله أحدٌ غيرى
فحركته فسقط، فأنته فوضعت إبهام رجلها عليه فشدخته، وساخ سمه بين ظفرها
واللحم، فاسودت رجلها فانت، فنزلت هذه الآية «أَيْتِمَا تَكُونُوا يَدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ..»

وكذا ذكرها ابن كثير نقلاً عن الطبري ولم يذكره: فاتت فنزلت هذه الآية لأنه لا ارتباط بين عرض القصة ونزول الآية وحكاية مجاهد لها. والأصح أنه خطاب عام للمنافقين وضعفة الإيمان الذين قالوا: «لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ» أي «أَيُّهَا تَكُونُوا» أيها الناس كلكم مطيعكم وعاصيكم.. لأنه كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب، وصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المخاطبين اعتناء بالزامهم إثر بيان حقارة الدنيا، وعلو شأن الآخرة، فلا محل له من الاعراب. هذا: ويحتمل أنه في محل نصب داخل تحت القول المأمور به، والمعنى: قل لهم: أيُّنا تكونوا في الحضر أو السفر، أو في القصور المشيدة يُذركم الموت الذي تكرهون القتل لأجله زعماً منكم أنه من مظانه. وفي لفظ الإدراك إشعاراً بأنهم آخذون في الهرب من الموت وهو مُجِدٌّ في طلبهم. كما في قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ»، وأين اسم مكان وشرط يجزم فعلين، وما زائدة على سبيل الجواز مؤكدة لها، وتكونوا مجزومٌ بها، ويدرككم جوابه وقوله: «وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرُوجٍ مَّشِيدَةٍ» البروج في كلام العرب الحصون والقلاع كذا في الخازن، وفي أبي السعود: «ولو كنتم في بروج مشيدة» في حصون رفيعة، أو قصور محصنة. وقال السدي وقتادة: بروج في السماء. قلت: وهو ضعيف لأن المخاطبين في الأرض لا في السماء، ولأنها الكواكب العظام. ويقال: شاد البناء وأشاده وشيده، أي رفعه، وشيد القصر رفعه، وشيد القصر رفعه، أو طلاه بالشيد، وهو الجبس. وجواب لو محذوف اعتماداً على دلالة ما قبله عليه. أي ولو كنتم في بروج مشيدة يدرككم الموت. والجملة معطوفة على أخرى مثلها. وقوله: «وَأَنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» نزلت في المنافقين واليهود، وذلك أن المدينة كانت ذات خير وأرزاق وعند مقدم النبي صلى الله عليه وسلم، فلما ظهر نفاق المنافقين وعناد اليهود أمسك الله عنهم بعض الإمساك، فقال المنافقون واليهود: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه، فقال الله تعالى: «وَأَنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ» أي جذب في الثار وغلاء في السعر «يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ» يا محمد أي بشؤمك. أي قالوا: هذا بسبب شؤمه وشؤم أصحابه. والشؤم ضد اليُمن وهو البركة، وفي المصباح الشؤم الشر، ورجل مشؤم غير مبارك، وتشاءم القوم به مثل تطيروا به «قُلْ» أي يا محمد لهم: «كُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» يعني الحسنة والسيئة. أي كل واحدة من النعمة والبلية من جهة الله تعالى

خلقاً وإيجاداً من غير أن يكون له مدخل في وقوع شئ منها بوجه من الوجوه كما تزعمون، بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلاً ونعمة، ووقوع الثانية بسبب ذنوب من ابتلى بها عقوبة من قبله تعالى، ابتلاء منه لهم «فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا»، أى فما شأن هؤلاء القوم المنافقين واليهود الذين قالوا ما قالوا لا يقاربون أن يفهموا معاني القرآن التي بُيِّنَ فيها أن الأشياء كلها من الله عزَّ وجلَّ خيرها وشرَّها. (مأ) من (فمأ) مبتدأ، وتقييح حالهم، والتعجب من كمال غوايتهم، وقوله: لا يكادون يفقهون حديثاً. هذه الجملة حال من هؤلاء، والعامل فيها ما في الظرف من معنى الاستقرار، أى وحيث كان الأمر كذلك فأى شئ حصل لهم حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثاً. أو هو استثناء مبنى على سؤال نشأ من الاستفهام، كأنه قيل: ما لهم، وماذا يصنعون حتى يتعجب منه؟! أو حتى يسأل عن سببه؟ فقيل: لا يكادون يفقهون حديثاً من الأحاديث أصلاً، فدعهم يقولون ما يقولون. إذ لو فهموا شيئاً من معاني القرآن لفهموا هذا النَّصَّ وغيره بأن الكل من عند الله تعالى: «مَا أَصَابَكَ» أيها الإنسان. أى جنس الإنسان «مِنْ حَسَنَةٍ» خير ونعمة «فَمِنْ اللَّهِ» أتتك فضلاً منه «وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ» بليّة من قحط وجذب وشدة ومكروه.. «فَمِنْ نَفْسِكَ» أتتك، حيث ارتكبت ما يستوجبها من الذنوب، وفي هذا إشارة إلى الجمع بين قوله: ما أصابك من حسنة فن الله. وبين قوله: قل كل من عند الله. الواقع ردّاً لقول المشركين، وإن تصبهم حسنة الآية بأن قوله: «قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» أى إيجاداً. وقوله: وما أصابك من سيئة فن نفسك. أى كسبك، كما في قوله تعالى: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ» فحاصله. أنك إذا نظرت إلى الفاعل الحقيقي فالكل منه، وإذا نظرت إلى الأسباب فما هى إلا من شؤم ذنب نفسك يوصله الله إليك بسببه مجازاة وعقوبة لا من محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا» أى مقتصراً على تبليغ الرسالة، وليس إليك الحسنة والسيئة «وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» بأنك رسوله والآية مسوقة لبيان جلالته منصفه صلى الله عليه وسلم، ومكانته عند الله بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد في حقه صلى الله عليه وسلم بناءً على جهلهم بشأنه الجليل صلوات الله عليه إلى يوم الدين.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)(

«فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتَرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا * وَذُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليَاءَ وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ السَّلَامُ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا»

سورة النساء (الآية : ٨٨ - ٩٠)

في الواحدي: قال عبدالله بن ثابت: إن قوماً خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد فرجعوا، فاختلف فيهم المسلمون فقالت فرقة: نقتلهم، وقال فرقة لا نقتلهم، فنزلت هذه الآية. رواه البخارى عن بندار، ورواه مسلم عن عبدالله بن معاذ عن أبيه كلاهما عن شعبة وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن: حدثني أبى أن قوماً من العرب أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا فأصابوا وباءً بالمدينة وحماها، فأركسوها، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: مالكم رجعتكم؟ فقال: أصبنا وباء المدينة فاجتويناها، فقالوا: ما لكم في رسول الله أسوة حسنة؟ فقال بعضهم: نافقوا، وقال بعضهم لم ينافقوا: هم مسلمون. فأنزل الله تعالى «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا..» الآية وقال مجاهد في هذه الآية: هم قوم خرجوا من مكة حتى جاؤا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون، ثم ارتدوا بعد ذلك، فاستأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة ليأتوا ببضائع لهم يتجرون فيها، فاختلف فيهم المؤمنون، فقاتل يقول: هم منافقون، وقاتل يقول: هم مؤمنون، فبين الله تعالى نفاقهم؛ وأنزل هذه الآية، وأمر بقتلهم في قوله: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ

حيث تُقِفْتُمُوهُمْ» فجاؤا ببضائعهم إلى هلال بن عويمر الأسلمى، وبينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم حلف، وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المؤمنين، فرفع عنهم القتل بقوله: «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمِ بَيْنِكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ..» وكذا في الخطيب، وفي القرطبي: روى مسلم عن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد فرجع ناس ممن كان معه، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين، فقال بعضهم نقتلهم.. الخ. ما تقدم في الواحدى. والمعنى بالمنافقين هنا عبدالله بن أبى وأصحابه الذين خذلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد ورجعوا بعسكرهم بعد أن خرجوا. وفي القرطبي أيضاً قال ابن عباس: هم قوم بمكة آمنوا وتركوا الهجرة. قال الضحاك: وقالوا: إن ظهر محمد صلى الله عليه وسلم فقد عرفنا، وإن ظهر قومنا فهو أحبُّ إلينا، فصار المسلمون فيهم فئتين، قوم يتولونهم وقوم يتبرؤون منهم فقال الله عز وجل «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ» وعبارة الطبرى: عن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى أحد رجعت طائفة ممن كان معه، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين: فرقة تقول نقتلهم، وفرقة تقول لا، فنزلت هذه الآية «فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ..» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة: إنها طيبة، وإنها تنفى خبيثها كما تنفى الثَّارِ خبث الفضة. قلتُ: فقوله عليه الصلاة والسلام: [إنها طيبة].. الخ. زيادة للترمذي. وقال حديث حسن صحيح. وهذه الزيادة تتفق مع قول من قال هم المنافقون الذين جاؤا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون، ثم خرجوا منها مُعْتَلِينَ بوبائها.. الخ. وفي الغرائب: وعن عكرمة هم قوم أخذوا أموال المشركين وانطلقوا بها إلى اليمامة وقيل: هم العرنيون الذين أغاروا على السرح وقتلوا يساراً: مولى النبي صلى الله عليه وسلم وقال ابن زيد: نزلت في أهل الإفك. قال الحسن: سَمَّاهُمُ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنْ أَظْهَرُوا الْكُفْرَ بِاعْتِبَارِ حَالِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَا لَكُمْ» أَي مَا شَأْنَكُمْ صرتم «فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ» فرقتين «وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ» رَدَّهم إِلَى الْكُفْرِ وَالْجُمْلَةَ حَالٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَهُوَ الظَّاهِرُ، أَوْ مُسْتَأْنَفَةٌ، وَالرَّكْسُ وَالْإِرْكَاسُ رَدُّ الشَّيْءِ مَقْلُوباً، وَيُقَالُ لِلرَّفْثِ الرَّكْسُ لِأَنَّهُ رَدٌّ إِلَى حَالَةِ خَسِيسَةٍ، وَهِيَ حَالُ النَّجَاسَةِ، وَيَسْمَى رَجْعِيًّا أَيْضاً لِذَلِكَ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ رَدُّوا إِلَى أَحْكَامِ الْكُفَّارِ مِنَ الذَّلِّ وَالصَّفَارِ وَالسَّبْيِ وَالْقَتْلِ «بِمَا كَسَبُوا» أَي

بما أظهروا من الارتداد بعد ما كانوا على النفاق «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مَن أَضَلَّ» أي أضله «الله» أي تعدوهم من جملة المهتدين، والاستفهام في الموضعين للإنكار والتوبيخ، أي لا ينبغي لكم أن تختلفوا في قتلهم، ولا ينبغي أن تعدوهم في المهتدين، والتوبيخ للفريق القائل للنبي لا تقتلهم. أي ينبغي لكم أن تجمعوا على قتلهم بظهور كفرهم «وَمَن يُضِلِّلِ» أي يضلله «الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا» طريقاً إلى الهدى «وَدُّوا» تمنوا «لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكْفُرُونَ» أنتم وهم «سواء» في الكفر «فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ» ثوالونهم وإن أظهروا الإيمان. والمراد النهي عن أن يتخذ منهم ولياً ولو واحداً «حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ» أي الهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يخرج للقتال في سبيله مخلصين صابرين محتسبين. والهجرة على ثلاثة أقسام: هجرة المؤمنين في أول الإسلام، وهي قوله تعالى: «للفقراء المهاجرين» وقوله: «وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ» ونحوهما من الآيات. وهجرة المنافقين: وهي خروج الشخص مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صابراً محتسباً لأغراض الدنيا، وهي المرادة ههنا. وهجرة من جميع المعاصي قال صلى الله عليه وسلم: [المهاجر من هجر ما نهى الله عنه] «فَإِن تَوَلَّوْا» أي عرضوا عن التوحيد والهجرة. وأقاموا على ما هم عليه من النفاق «فَعُذُّوهُمْ» بالأسر «وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» أي في حل أو حرم، فإن حكمهم حكم سائر المشركين قتلاً وأسراً، وهذا مما يدل على أنهم مرتدون عن الدين، وصرخوا بالكفر علناً حتى أبيع قتلهم «وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيَاءَ» ثوالونه «وَلَا نَصِيرًا» تنتصرون به على عدوكم «إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ» أي يلجئون ويستندون «إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ» أي عهد بالأمان، ولمن وصل إليهم، وهم الأسلميون، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت خروجه إلى مكة، وكان قد وادع هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال، وقيل: هم بنو بكر بن زيد، وقيل: هم خزاعة، والمعنى: أن من كان دخل في عهد من كان داخلاً في عهدكم فهم أيضاً داخلون في عهدكم «أَوْ جَاؤُكُمْ» عطف على الصلة، أي أو الذين جاؤكم «حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ» أي ضاقت عن «أَنْ يُقَاتِلُواكُمْ» وهم بنو مدليج جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين «أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ» معكم. أي ممسكين عن قتالكم وقتالهم فلا تتعرضوا إليهم بأخذ ولا قتل، وهذا وما بعده

منسوخ بآية السيف الآمرة بقتالهم سواء قاتلوا أو لا، وسواء التجاؤا إلى المعاهدين أو لا *
وعبارة الخازن: وقال جماعة من المفسرين: معاهدة المشركين وموادعتهم في هذه الآية
منسوخة بآية السيف، وذلك لأن الله لما أعز الإسلام وأهله أمر أن لا يقبل من مشركي
العرب إلا الإسلام، أو القتل * ولكن يقال: إن آية السيف عامة وما من عام إلا
وخصص، وقد خصص عمومها بغير المؤمنين والمعاهدين مثل قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» وقوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ» تسليطهم عليكم «لَسَلَّطْتُمْ
عَلَيْكُمْ» بأن يقوى قلوبهم بإزالة الرعب عنها «فَلَقَاتَلُوكُمْ» ولكنه لم يشأه فألقى في قلوبهم
الرعب «فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ» أي انقادوا للصالح
والأمان ورضوا به «فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا» طريقاً بالأخذ والقتل.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُقْتَلَ إِثْمًا إِلَّا إِثْمًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ
رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ
لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ
مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٌ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ
شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا»
سورة النساء (الآية: ٩٢)

في الواحدي: حدث عبدالرحمن بن القاسم عن أبيه أن الحارث بن زيد كان شديداً
على النبي صلى الله عليه وسلم فجاء وهو يريد الإسلام فلقية عياش بن أبي ربيعة
والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر فقلته، فأنزل الله تعالى هذه الآية «وَمَا كَانَ
لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُقْتَلَ إِثْمًا إِلَّا إِثْمًا...» وشرح الكلبي هذه القصة فقال: إن عياش بن أبي
ربيعة المخزومي أسلم، وخاف أن يظهر إسلامه، فخرج هارباً إلى المدينة فقدمها، ثم أتى
أطماً من أطامها، فتحصن فيه، فجزعت أمه جزعاً شديداً، وقالت: لابنها أبي جهل
والحارث بن هشام، (وهما لأمه) لا يظنني سقفي بيت، ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى
تأتوني به، فخرجنا في طلبه. وخرج معهم الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة،

فأتوا عياشاً وهو في الأطم، فقالا له: انزل فإن أمك لم يأوها سقف لبيت بعدك، وقد حلفت لا تأكل طعاماً ولا شرباً حتى ترجع إليه، ولك الله علينا ألا نكرهك على شيء، ولا نحول بينك وبين دينك، فلما ذكرا له جزع أمه، وأوثقا له نزل إليهم، فأخرجوه من المدينة، وأوثقوه، وجلده كل واحد مائة جلدة، ثم قدموا به على أمه، فقالت: والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به، ثم تركوه موثوقاً في الشمس، وأعطاهم بعض الذي أرادوا، فاتاه الحارث بن زيد، وقال عياش: والله لئن كان الذي كنت عليه هدى لقد تركت الهدى، وإن كان ضلالة لقد كنت عليها، فغضب عياش من مقاله: وقال: والله لا ألقاك خالياً إلا أقتلك، ثم أن الحارث أسلم بعد ذلك، وهاجر إلى المدينة، وليس عياش يومئذ حاضراً ولم يشعر بإسلامه، فبينما هو يسير بظهر قبا إذ لقي الحارث بن زيد، فلما رآه حمل عليه فقتله، فقال الناس: أي شيء صنعت؟ إنه قد أسلم، فرجع عياش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله: كان من أمرى وأمر الحارث ما قد علمت، وإنى لم أشعر بإسلامه حين قتلته، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً..» الآية قال نزل هذا في رجل قتله أبو الدرداء كانوا في سرية، فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له، فوجد رجلاً من القوم في غنم له، فحمل عليه بالسيف، فقال: لا إله إلا الله، قال: فضره، ثم جاء بغممه إلى القوم، ثم وجد في نفسه شيئاً، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ألا شققت عن قلبه؟] فقال: ما عسيت أجد، هل هو يارسول الله إلا دمٌ أو ماء، قال: فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه؟ قال: كيف بي يا رسول الله؟ قال: فكيف بلا إله إلا الله. حتى تمنيبت أن يكون ذلك ابتداء إسلامي. قال: ونزل القرآن «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً..» حتى بلغ «إِلَّا أَنْ يَصْدُقُوا» قال: إلا أن يضغوهاه وعلى كل فسوء قلنا إن الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقتيله، أم في أبي الدرداء وصاحبه، أم غير ذلك فقد أرسلت الآية أحكاماً شرعية على كل من يقتل مؤمناً خطأ إلى يوم الدين، فعليه كفارة، وهي عتق رقبة مؤمنة، فإن عجز، فالصيام، والدية كما سيأتى إيضاحه في الشرح إن شاء الله تعالى. قوله: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا» أي لا يليق ولا يصح أن يصدر منه قتل له «إِلَّا خَطَأً» أي مخطئاً في قتله من غير قصد، ونصب خطأ على الحال. أي وليس من شأن المؤمن أن يقتل

مؤمناً في حالة من الأحوال إلا حال الخطأ، وإما مفعول لأجله أي لا يقتله لعلّة إلاّ للخطأ، وقيل: إلاّ: بمعنى ولا، أي ليس له قتله في حال من الأحوال ولا خطأ. «وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً» كأن قصد رمى غيره كصيد أو شجر فأصابه، أو لم يعلم بإسلامه فظنه حربياً فقتله «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» أي فعله وجوباً تحرير رقبة كاملة الرق، فلا يجزى مكاتب كتابة صحيحة، ولا أم ولد، والتحرير الاعتاق، ويعبر عن التّسمّة بالرقبة، كما يعبر عنها بالرأس على شرط «مُؤْمِنَةً» أي محكوم بإسلامها، وإن كانت صغيرة، وكذلك عليه «وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ» أي مؤداة «إلى أهليه» أي ورثة المقتول يقتسمونها كسائر الموارث. ومن يختص بها من أب ونحوه دون الورثة فقد عَصَى الله تعالى واستحقّ دخول النار، إذ لا فرق بين هذه الدية، وبين سائر الأموال، وفي أنه يُقضى منها اللّتين، وينفذ منها الوصية، ويقسم الباقي بين الورثة على فرائض الله لما روى أن امرأة جاءت في أيام عمر تطلب نصيبها من دية الزوج، فقال عمر: لا أعلم لك شيئاً، إنما الدية للعصبة الذين يعقلون عنه، فشهد بعض الصحابة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تورث الزوجة من دية زوجها، فقضى عمر بذلك * وعن ابن مسعود: يرث كل وارث من الدية غير القاتل * وعن شريك: لا يُقضى من الدية ولا تُنفذ وصيّتة (الغرائب والحازن) * وقوله «إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا» أن يتصدّقوا بها عليه بأن يعفوا عنه، وسمى العفو عنها صدقة حتاً عليها، وتنبها على فضله، قال عليه الصلاة والسلام: [كل معروف صدقة] وبيّنت السنة أنّ دية الخطأ مائة من الإبل: عشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون، وعشرون ابن لبون، وعشرون حقة، وعشرون جذعة، وإن عاقلة القاتل تتحملها عنه، وهم عصبته إلاّ أصله وفرعه، موزعة عليهم على ثلاث سنين على الغنى منهم نصف دينار، والمتوسط ربع دينار كل سنة، فإن لم يستطيعوا فن بيت المال، فإن تعذّر فعلى الجاني «فَإِنْ كَانَ» يعنى المقتول «مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» أراد أنه إذا كان رجل مسلم في دار الحرب وهو منفرد مع قوم كفار فقتله من لم يعلم بإسلامه، فلا دية عليه، وعليه الكفارة، وقيل: المراد منه أنه إذا كان المقتول مسلماً في دار الإسلام، وهو من نَسَب قَوْمِ كُفْرٍ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ يَرْتُونَهُ فِي دَارِ الْحَرْبِ. وهم حرب للمسلمين فيه الكفارة ولا دية لأهله. وكان الحرث بن زيد من قوم كفار حرب للمسلمين، فكان فيه الكفارة تحرير رقبة مؤمنة دون الدية لأنه لم يكن بين قومه وبين المسلمين عهده «وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ» أي عهد «فَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤَمَّنَةً» أي إذا كان المقتول كافراً معاهداً، أو ذمياً فتجب فيه الدية والكفارة. «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ» يعني الرقبة «فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَابَعِينَ» أي فعله صيام شهرين متتابعين بين أيامها وشهريهما بدلاً عن الرقبة، حتى لو أفطريوماً واحداً لغير حيض أو نفاس، وجب الاستئناف، ولم ينتقل تعالى إلى الطعام كالظهار، وبه قال الشافعي رضي الله عنه في أظهر قوليته. أي اقتصاراً منه على الوارد من الاعتاق، ثم الصوم ولم يحمل المطلق هنا على المقيد فيما ذكره، لأنَّ المطلق إنما يحمل على المقيد في الأوصاف دون الأصول كما حمل مطلق اليد في التيمم على تقييدها بالمرافق في الوضوء، ولم يحمل ترك الرأس والرجلين فيه على ذكرها في الوضوء وعن مسروق: أن الصوم بدل من مجموع الرقبة والدية «تَوْبَةٌ مِنَ اللَّهِ» أي شرع لكم ما شرع من أحكام قتل الخطأ، قبولاً من الله ورحمة منه من تاب الله عليه إذا قبل توبته. ومعنى التوبة عن الخطأ أنه لا يخلو من ترك احتياط، من ندم وأسف على ما فرط منه. ويجوز أن يكون المعنى نقلكم من الرقبة إلى الصوم توبة منه، أي تخفيفاً منه لأن التخفيف من لوازم التوبة. وتوبة: نصبت على المصدر. أي وتاب عليكم توبة، أو على المفعول له أي شرع لكم ذلك توبة «وَكَانَ اللَّهُ» أي ولم يزل «عَلِيماً» أي بأحوالكم، وبما يصلحكم في الدنيا والآخرة «حَكِيماً» فيما دبره لكم من نصب الزواجر بالكفارات وغيرها فالزموا أوامره وابعدوا زواجره لتفوزوا برضوانه.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :))*

«وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا» سورة النساء (الآية: ٩٣)

حدَّث الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: أن مقيس بن ضبابة وجد أخاه هشام بن ضبابة قتيلاً في بني النجار. وكان مسلماً، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر له ذلك، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه رسولاً من بني فهد، فقال له: أتت بني النجار فأقرتهم السلام، وقل لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم إن علمتم قاتل هشام بن ضبابة أن تدفعوه إلى أخيه فيقتص منه، وإن لم تعلموا له قتيلاً أن تدفعوا إليه ديته، فأعطوه مائة من الإبل، ثم انصرفا راجعين نحو المدينة، وبينها وبين المدينة

قريب، فأق الشيطان مقيساً فوسوس إليه، فقال: أي شيء صنعت؟ تقبل دية أخيك فيكون عليه سبّة، اقتل الذي معك، فيكون نفس مكان نفس، وفضل الدية، ففعل مقيس ذلك، فرمى الفهدى بصخرة فشخ رأسه، ثم ركب بعيراً منها، وساق بقيتها راجعاً إلى مكة كافراً، وجعل يقول في شعره:

قتلتُ به فهِراً وحملتُ عقله سُراةُ بني النجار أربابَ فارح
حلتُ به وترى وأدركتُ ثأرتي وكنْتُ إلى الأوثان أوَّلَ راجع

فنزلت هذه الآية «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا...» الآية. ثم أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه يوم فتح مكة، فأدركه الناس في السوق فقتلوه قتل: وقد أجمع الأئمة أنها نزلت في كافر قتل مؤمناً. وكذا في الغرائب والخطيب والحازن والطبرى، وبقية التفاسير قوله تعالى: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا» بأن يقصد قتله بما يقتل غالباً عالماً بإيمانه «فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا» يعنى بكفره وارتداده وهو الذي استثناه النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة عمّن أمتّه من أهلها، فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة، والمراد بالخلود في حق المؤمن المكث الطويل، فإنّ الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم، ولهذا لم يذكر في الآية: أبداً، وما روى عن ابن عباس أنه قال: قاتل العمد لا تقبل توبته. كما رواه البخارى أراد به التشديد كما قاله البيضاوى إذ روى عنه خلافه ورواه البيهقي في سننه، وبيّنت آية البقرة، أن قاتل العمد يقتل، وأن عليه الدية من ماله، وقد أجمع العلماء على أن العاقلة لا تحمل شيئاً من دية العمد. وبيّنت السنة أنّ بين العمد والخطأ قتلاً يُسمّى شبه العمد. وهو أن يقتله بما لا يقتل غالباً كمن ضربه بعضاً خفيفة فقتل، فلا قصاص فيه، بل فيه دية العمد في الصفة والخطأ في التأجيل والحمل. وفي القرطبي: وأنكر مالك قتل شبه العمد، وقال: ليس في كتاب الله إلاّ العمد والخطأ. وذكره الخطابى أيضاً عن مالك وزاد: وأما شبه العمد فلا نعرفه، وقال أبو عمر: أنكر مالك والليث بن سعد شبه العمد، فمن قُتل عندهما بما لا يقتل مثله غالباً كالعضة واللطمه وضربة السوط والقضيب وشبه ذلك فإنه عمد. وفيه القود. قال أبو عمر: وقال يقولها جماعة من الصحابة والتابعين. وذهب جمهور فقهاء الأمصار إلى أن هذا كله شبه عمد، ويؤيدهم ما روى أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إلاّ إنّ دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل، منها أربعون

في بطونها أولادها] وروى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [العمد قود اليد، والخطأ عقل، ولا قود فيه، ومن قُتِل في عَمِيَّةٍ: بجري أو عصا، أو سوط فهو دية مُغلَظة في أسنان الإبل] وروى أيضاً من حديث سليمان بن موسى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [عقل شبه العمدة مغلظ مثل قتل العمدة. ولا يقتل صاحبه] وهذا نص في قتل شبه العمدة. والدية المغلظة في شبه العمدة عند عطاء والشافعي: ثلاثون حقه، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفه. الحقه: هي التافة التي دخلت في السنة الرابعة، والجذعة: هي التي دخلت في الخامسة. وإذا دخل البعير في العاشرة: فهو خلف. قلت: وعند عدم وجود الإبل فهي ألف دينار ذهباً، أو اثنا عشر ألف درهم من الفضة وعليها علماء الأمصار، واختلف العلماء في الجماعة يقتلون رجلاً واحداً خطأ، فقالت طائفة: على كل واحد منهم كفارة. وهو قول الحسن وعكرمة والنخعي والحارث العكلي ومالك والثوري والشافعي وأحمد، وإسحاق وأبو ثور وأصحاب الرأي. وقالت طائفة: عليهم كلهم كفارة واحدة هكذا قال أبو ثور، وحكى ذلك عن الأوزعي، وفرق الزهري بين العتق والصوم، فقال في الجماعة يرمون بالمنجنيق فيقتلون رجلاً: عليهم كلهم عتق رقبة، وإن كانوا لا يجدون فعل كل واحد منهم صوم شهرين متتابعين. قوله: «وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ» أبعد من رحمة «وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً» في النار، وهذا مؤول بمن يستحل القتل بدون حق إذ لا يحل قتل النفس إلا بثلاثة أمور. زنا بعد إحصان، وردة بعد إيمان، والنفس بالنفس. والأحاديث كثيرة في بيان عظم جرم قتل المؤمن. فيها ما روى عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا] وقال عبد الله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أول ما يُحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يُقضى بين الناس في الدماء] وعن عبد الله بن عباس أنه سأله سائل فقال: يا أبا العباس: هل للقاتل توبة؟ قال ابن عباس: ويحك!! أنى له توبة!! سمعتُ نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: [يأتى المقتول مُعلّقاً رأسه بإحدى يديه مُتَلَبِّياً قاتله بيده الأخرى تشخبُ أوداجه دماً حتى يوقف، فيقول المقتول لله سبحانه وتعالى: رب، هذا قتلتني، فيقول الله تعالى للقاتل: تَعِسْتَ وَيُذْهِبُ بِهِ إِلَى النَّارِ] وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما نزلتُ ربّي في شيء ما نزلتُه — أي راجعته وسألته

مرة بعد أخرى - في قتل المؤمن فلم يُجبنى] وأخرج الإمام أحمد عن أبي ادريس، قال: سمعت معاوية رضي الله عنه يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: [كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلَ يَمُوتُ كَافِرًا، أَوْ الرَّجُلَ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا] عصمى الله وإياكم من ذلك برحمته ورضوانه.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمَ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» سورة النساء (الآية: ٩٤)

في الواحدي: قال ابن عباس: لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا الغنيمة، فنزلت هذه الآية «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» تلك الغنيمة رواه البخاري عن علي بن عبد الله، ورواه مسلم عن أبي بكر بن شيبة: كلاهما عن سفيان. وقال الحسن: إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا يطوفون فلحقوا المشركين فهزموهم، فشدّ منهم رجلاً، فتبعه رجل من المسلمين. وأراد متاعه، فلما غشيه بالسنان قال: إني مسلم: إني مسلم، فكذّبه، ثم أوجره بالسنان فقتله، وأخذ متاعه، وكان قليلاً، فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قتلته بعدما زعم أنه مسلم؟ فقال يا رسول الله: إنما قالها تعوداً قال: فَهَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ لِنَنْظَرِ صَادِقٍ هُوَ أَمْ كَاذِبٌ؟ قال: فالبث القاتل أن مات. فدفن فأصبح وقد وضع إلى جانب قبره. قال: ثم عادوا حفروا له، وأمكثوا، ودفنوه، فأصبحوا وقد وضع إلى جانب قبره مرتين أو ثلاثاً، فلما رأوا الأرض لا تقبله ألقوه في بعض تلك الشعاب، قال: وأنزل الله تعالى هذه الآية قال الحسن: إنَّ الأرض تحبس من هو شرُّ منه، ولكن وعظ القوم ألا يعودوا وقال السدي: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد على سرية، فلحق مرداس بن نهيك، فقتله، وكان من أهل فدك، ولم يُسلم من قومه غيره، وكان يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ويُسلم عليهم، قال أسامة: فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته، فقال: قتلت رجلاً

يقول لا إله إلا الله!! فقلت: يا رسول الله: إنما تَعَوَّذُ من القتل. فقال: كيف أنت إذا خاصمك يوم القيامة بلا إله إلا الله؟ قال: فإزال يردّها عليّ: أقتلت رجلاً يقول لا إله إلا الله. حتى تمنيتُ لو أن إسلامي كان يومئذٍ — فنزلت — «إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا..» الآية وعبارة الخطيب. روى أن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم غزت أهل فدك، فهربوا، وبقي رجل يقال له مرداس لأنه كان على دين المسلمين، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل، وصعد هو إلى الجبل، فلما تلاحقت الخيل سمعهم يكبرون، فلما سمع التكبير علم أنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر ونزل، وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. السلام عليكم، فتغشاه أسامة بن زيد فقتله، واستاق غنمه، فنزلت، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجداً شديداً، وقد كان سبقهم قبل ذلك الخبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قتلتموه إرادة ما معه!! ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على أسامة بن زيد، فقال يا رسول الله: استغفر لي فقال: وكيف بلا إله إلا الله؟ قال أسامة: فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررها عليّ حتى وددت أني لم أكن أسلمتُ إلا يومئذٍ، ثم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لي ثلاث مرات، وقال: اعتق رقبةً وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديتة إلى أهله، وردَّ عليه غنيماته على طريق الإئتلاف. وهناك روايات أخرى في التفسير منثورة بألفاظ متقاربة المعنى، ولعل تلك الأقوال جرت في زمان متقارب فنزلت الآية في الجميع، وقد دلت الآية على أن المسلم إذا لقي الكافر ولا عهد له جاز له قتله، فإن قال لا إله إلا الله لم يجز قتله لقوله عليه الصلاة والسلام: [أمرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله] وذلك لأنه اعتصم بعصام الإسلام المانع من دمه وماله وأهله، فإن قتله بعد ذلك قُتل به، وإنما سقط القتل عن هؤلاء لأجل أنهم كانوا في صدر الإسلام. وتأولوا أنه قالها متعوذاً وخوفاً من السلاح. قوله تعالى: «وَإِذَا ضَرَبْتُمْ» أي سافرتم للجهاد «فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا» أي تثبتوا. أي اطلبوا الثبوت أو البيان من لقيكم «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ» أي تحية الإسلام. أو الانقياد لكم بقول كلمة الحق، وهي الشهادة التي هي أمانة على الإسلام. واللام في قوله: لمن. لام التبليغ هنا ومن موصولة، أو موصوفة. وألقى هنا ماضى اللفظ إلاً

أنه بمعنى المستقبل. أي لمن يلقى، لأن النهي لا يكون عمّا وقع وانقضى، والماضي إذا وقع صلة صلح للمضى والاستقبال. «لَسْتُ مُؤْمِنًا» وإنما قلت هذا تقيّة لنفسك ومالك فتقتلوه. وهو عطف على قوله: ولا تقولوا. أي فلا تقتلوه وهذا هو المقصود بالتوبيخ والنهي «تَبْتَغُونَ» تطلبون بذلك «عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا» من الغنيمة. وتبتغون حال من فاعل لا تقولوا، لكن لا على أن يكون النهي راجعاً للقيّد فقط كما في قولك: لا تطلب العلم تبتغى به الجاه. بلى على أنه راجع إليهما جميعاً. أي لا تقولوا له ذلك، ولا تبتغوا العرض الفاني. «فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَايِمٌ كَثِيرَةٌ» تغنيكم عن قتل مثله لما له، وقوله: «فَعِنْدَ اللَّهِ» تعليل للنهي المذكور، والمغائم جمع مغنم، وهو يصلح للمصدر والزمان والمكان، ثم يطلق على ما يؤخذ من مال العدو اطلاقاً للمصدر على اسم المفعول. «كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ» تُعَصِّمُ دِمَاؤَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ بمجرد نطقكم بالشهادة. والمقصود: التعريض. أي كنتم مثل الرجل المذكور في مبادئ الإسلام لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحية الإسلام ونحوها «فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنُكُمْ» بالاشتهار بالإيمان والاستقامة أي قبل منكم تلك المرتبة ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم «فَتَبَيَّنُوا» أن تقتلوا مؤمناً، وافعلوا بالداخل في الإسلام كما فعل بكم، فتبينوا: تأكيد لفظي للأول، وقيل: ليس تأكيداً باختلاف متعلقها، فإن تقدير الأول: فتبينوا في أمر من تقتلونه، وتقدير الثاني: فتبينوا نعمة الله، أو تلبّثوا فيها، والسياق يدل على ذلك لأن الأصل عدم التأكيد. «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» فيجازيكم به.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» سورة النساء (الآية: ٩٥ - ٩٦)

في الواحدي: قال زيد بن ثابت كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت «لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ولم يذكر أول الضرر. فقال

ابن مكتوم: كيف وأنا أعمى لا أبصر، قال زيد: فتغشى النبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه الوحي، فاتكأ على فخذي، فوالذي نفسي بيده لقد ثقل عليّ فخذي حتى خشيت أن يرضها، ثم سرى عنه، فقال: [اكتب: «لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر»] فكتبها [رواه البخاري عن اسماعيل بن عبدالله، عن ابراهيم بن سعد بن صالح عن الزهري] وفي رواية البراء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [ادع لي زيدا، وقل له يجيء بالكتف والدواة، أو اللوح، وقال: اكتب لي «لا يستوى القاعدون من المؤمنين»] (أحسبه قال: والمجاهدون في سبيل الله) فقال: ابن مكتوم: يا رسول الله: بعيني ضرر، قال: فنزلت قبل أن يبرح «غير أولى الضرر» [رواه البخاري عن محمد بن يوسف، عن اسرائيل، عن أبي اسحاق] وهكذا في بقية التفاسير مع اختلاف في اللفظ دون المعنى. وقوله: «لا يستوى القاعدون من المؤمنين» عن الجهاد، وهذا بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوتهم في الجهاد بعد ما مرّ من الأمر به وتحريض المؤمنين عليه ليأنف القاعدون عنه «غير أولى الضرر» من زمانة أو عمى، أو نحوه كالعرج. «والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة» يعني فضلا في الآخرة قال ابن عباس: أراد بالقاعدين هنا أولى الضرر. أي فضل الله المجاهدين على أولى الضرر درجة لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النية، وألوا الضرر كانت لهم نية، ولم يباشروا الجهاد فتزّلوا عن المجاهدين درجة «وكلاً» من الفريقين «وعند الله الحسنى» الجنة بإيمانهم «وقضّل الله المجاهدين» في سبيل الله «على القاعدين» يعني الذين لا عذر لهم، ولا ضرر «أجراً عظيماً» أي ثواباً جزيلاً، ثم فسّر ذلك الأجر العظيم فقال: «درجات منه» قال قتادة: كان يقال للإسلام درجة، وللهجرة في الإسلام درجة، وللجهاد في الهجرة درجة، وللقتل في الجهاد درجة. وقال ابن زيد: الدرجات سبعة: وهي التي ذكر الله في سورة براءة حين قال: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ» إلى قوله: «وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ» وقال ابن عمير: الدرجات سبعون درجة ما بين كل درجتين سير الفرس الجواد المضمّر سبعون سنة، روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [من رضِيَ بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسلاً وجبت له الجنة. فتعجب لها أبو سعيد: فقال: أعدّها يا رسول الله عليّ، فأعادها عليه، ثم قال:

وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجةٍ في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله [«دَرَجَاتٍ مِنْهُ» منازل بعضها فوق بعض من الكرامة وفيما ينالونه من الثواب الذي يكرمهم الله به «وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً» منصوبان بفعلها المقدر، بمعنى وغفر لهم مغفرة، ورحمهم رحمة، أو أنها معطوفان على درجات «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا» لأوليائه لما عسى يفرط منهم. قال الرازي: المغفرة والغفران ستر الذنب، ومنه الغافر والغفور والغفار لستره ذنوب العباد وعيوبهم، يقال: استغفر الله لذنبه. ومن ذنبه بمعنى واحد فغفر له، أي فستره عليه وعفا عنه «رَحِيمًا» بأهل طاعته.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا* إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا* فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا»

سورة النساء (الآية: ٩٧ - ٩٩)

في الواحدي: نزلت الآية في ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا، وأظهروا الإيمان وأسروا النفاق، فلما كان يوم بدر خرجوا مع المشركين إلى حرب المسلمين، فقتلوا، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، وقالوا لهم: ما ذكر الله سبحانه وتعالى و كذا في الخطيب والقرطبي، وعبارته: المراد بها جماعة من أهل مكة كانوا قد أسلموا وأظهروا للنبي صلى الله عليه وسلم الإيمان به، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم أقاموا مع قومهم، وفتن منهم جماعة فافتتنوا، فلما كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار، فنزلت الآية وقيل: إنهم لما استحقروا عود المسلمين. دخلهم شك في دينهم، فارتدوا فقتلوا على الردة، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكروهوا على الخروج، فاستغفروا لهم فنزلت الآية وروى البخاري عن محمد بن عبد الرحمن قال:

قطع على أهل المدينة بعث — أي أُلزِمُوا بإخراج جيش لقتال أهل الشام في خلافة عبد الله بن الزبير على مكة — فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشدَّ التهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين ليكثرُوا سواد المشركين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتي السهمي فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله تعالى «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...» وفي الطبري: عن عكرمة في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ» إلى قوله «وَسَاعَتٌ مُّصِيرًا» قال: نزلت في قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زعدة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبي العاص بن منبه بن الحجاج، وعلى بن أمية بن خلف، قال: لما خرج المشركون من قريش وأتباعهم لمنع أبي سفيان بن حرب وعير قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأن يطلبوا ما نيل منهم يوم نخلة، خرجوا معهم بشبان كارهين كانوا قد أسلموا، واجتمعوا ببدر على غير موعد، فقتلوا ببدر كفاراً، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء الذين سميناهم * وأخبر ابن وهب قال: سألته: يعني ابن زيد عن قول الله: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...» فقرأ حتى بلغ: «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ» فقال: لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم وظهر، ونبع الإيمان نبغ النفاق معه، فأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالاً، فقالوا يا رسول الله: لولا أننا نخاف هؤلاء القوم يعذبوننا و يفعلون و يفعلون لأسلمنا، ولكننا نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فكانوا يقولون ذلك، فلما كان يوم بدر، قام المشركون فقالوا: لا يتخلف عنا أحد إلا هدمنا داره واستبحنا ماله، فخرج أولئك الذين كانوا يقولون ذلك القول للنبي صلى الله عليه وسلم معهم، فقتلت طائفة منهم، وأسرت طائفة، قال: فأما الذين قتلوا فهم الذين قال الله فيهم «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ...» الآية. والأقوال كلها تكاد تجمع على أن الآية نزلت في جماعة أسلموا ولم يهاجروا فقتلوا يوم بدر مع الكفار وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» بالمقام مع الكفار وترك الهجرة. قال الجمهور: معنى تتوفاهم: تقبض أرواحهم عند الموت. ولا منافاة بينه وبين قوله: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ» «قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ» لأنه تعالى هو المتوفى والفاعل لكل الأشياء بالحقيقة إلا أن الرئيس المفوض إليه هذا العمل ملك

الموت، وسائر الملائكة أعوانه. وعن الحسن: توفاهم الملائكة: أي يحشرونهم إلى النار. أما قوله: «ظالمى أنفسهم» فنصوب على الحال من مفعول توفى، والإضافة فيه لفظية، ولذا لم تفد تعريباً فصح وقوعه حالاً. والظلم قد يراد به الشرك هنا. «إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» فالمراد أنهم ظالمون أنفسهم بنفاقهم وكفرهم، وتركهم الهجرة «قَالُوا» لهم موبخين «فِيمَ كُنْتُمْ» أي في أي حالة كنتم في أمر دينكم؟ وهو سؤال تقرير وتوبيخ. أي كنتم في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أم كنتم مشركين؟ «قَالُوا» معتذرين ومواريين في جوابهم «كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ» أي عاجزين عن إقامة الدين «فِي الْأَرْضِ» أرض مكة، وهذا اعتذار غير صحيح إذ كانوا يستطيعون الحيلة ويهدون السبيل، ثم أوقفهم الملائكة على دينهم فـ «قَالُوا» لهم توبيخاً «أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا؟» من أرض الكفر إلى بلد آخر كما فعل غيركم. ومفاد هذا السؤال والجواب أنهم ماتوا مسلمين ظالمين أنفسهم في تركهم الهجرة، وإلا فلو ماتوا كافرين لم يُقبل لهم شيء من هذا «فَأُولَئِكَ مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» هي وفي الآية الكريمة إشارة إلى وجوب المهاجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة الدين بأي سبب كان. وقوله تعالى: «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ» الذين صدقوا في استضعافهم، وهم الذين «لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً» أي لا قوة لهم على الهجرة ولا يملكون المال لينفقوه في سبيلها «فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ» أي عن خطر الهجرة بحيث يحتاج المعذور إلى العفو، وفي البرهان: وعسى ولعل في كلام الله واجبتان، وإن كانتا رجاء وطمعاً في كلام المخلوقين، لأنَّ المخلوق هو الذي تعرض له الشكوك والظنون، والبارى سبحانه منزّه عن ذلك. «وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا» أي مبالغاً في المغفرة، فيغفر لهم ما فرط منهم من ذنوبهم التي من جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج، والولدان: كعباس بن ربيعة وسلمة بن هشام وغيرهما من الذين دعا لهم الرسول عليه السلام. قال ابن عباس: كنت أنا وأمى مَمَّنْ عفا الله عنه بهذه الآية وذلك أنه كان من الولدان إذ ذاك، وأمّه هي أم الفضل بنت الحرث، واسمها لبابة، وهي أخت ميمونة رضي الله عنها، وأختها الأخرى لبابة الصغرى، وهنّ تسع أخوات، قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهنّ: [الأخوات مؤمنات].

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا»

سورة النساء (الآية: ٩٩)

في الواحدي: قال ابن عباس في رواية عطاء: كان عبد الرحمن بن عوف يخبر أهل مكة بما ينزل فيهم من القرآن، فكتب الآية التي نزلت «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ..» فلما قرأها المسلمون، قال خبيب^(١) بن ضمرة الليثي لبيه، وكان شيخاً كبيراً: احمولني فإني لست من المستضعفين، وإني لا أهدى إلى الطريق، فحمله بنوه على سريره متوجهاً إلى المدينة، فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت. صفق يمينه على شماله. وقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك، أبايعك على ما بايعتك يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات حميداً. فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتم أجراً، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي القرطبي: وذكر أبو عمر وأنه قد قيل فيه: خالد بن حزام بن خويلد ابن أخي خديجة رضي الله عنها، وأنه هاجر إلى أرض الحبشة فنهشته حيّة في الطريق فأت قبل أن يبلغ أرض الحبشة، فنزلت فيه الآية * والقول الأول ذكره الخازن وزاد بعد: أتم أجراً. وضحك المشركون وقالوا: ما أدرك ما طلب، فأنزل الله عز وجل قوله: «وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ..» الآية * ومثله في الغرائب، ولم يوجد غير الذي ذكرت في بقية التفاسير.

قوله تعالى «وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا» أي متحولاً ينتقل إليه، فهو اسم مكان. أي مكاناً يهاجر إليه. وعبر عنه بالمراعم للاشعار بأن المهاجر يرغم أنف قومه، أي يذلهم، والرغم الذل والهوان، وأصله لصوق الأنف بالزعام، وهو التراب. وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: [بُعِثْتُ مَرَعَمَةً] أي بعثت هواناً وذلاً للمشركين.

(١) الصحيح أن اسمه جندع بن ضمرة الليثي. كما ذكره الجلال والخازن نقلاً عن ابن عباس رضي الله عنهما. (المؤلف).

وقوله «كثيراً وسعةً» في الرزق وإظهار الدين، وهذا ترغيب في الهجرة في سبيل الله لإعلاء دينه «وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ» في الطريق، كما وقع لجنود بن ضمرة «فَقَدْ وَقَعَ» ثَبَّتَ «أَجْرُهُ» أي أجر هجرته «عَلَى اللَّهِ» فأجابه على نفسه بحكم الوعد والتفضل والكرم، لا وجوب استحقاق، وتحمم. قال بعض العلماء: ويدخل في حكم الآية من قصد فعل طاعة من الطاعات ثم عجز عن إتمامها فيكتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملاً تفضلاً منه ونعمة. وقال بعضهم: إنما يكتب له أجر ذلك القدر الذي عمل وأتى به، أمّا تمام الأجر فلا، والقول الأول أصح لأن الآية إنما نزلت في معرض الترغيب في الهجرة، وأن من قصدها ولم يبلغها بل مات دونها، فقد حصل له ثواب الهجرة كاملاً فكذلك من قصد فعل طاعة ولم يقدر على إتمامها كتب له ثوابها كاملاً. وقد قسم العلماء الذهاب في الأرض قسمين (هرباً وطلباً) فالهرب ينقسم إلى ستة أقسام:

القسم الأول: الهجرة وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام كهجرة الصحابة من مكة إلى المدينة، وكانت فرضاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي باقية إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان أسلم في دار الحرب، وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام.

القسم الثاني: الخروج من أرض البدعة، قال مالك: لا يحل لأحد أن يقيم بأرض يُسبُّ فيها السلف ويستدل لقول الإمام مالك بقوله تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» إلى قوله: «فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

القسم الثالث: الخروج من أرض غلب عليها الحرام، لأن طلب الحلال فرض على كل مسلم.

القسم الرابع: الفرار من الأذى في البدن ليخلص نفسه من التهلكة اقتداء بإبراهيم عليه السلام، قال لما خاف من قومه «إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي» وقال «إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سيهدين» وقال مخبراً عن موسى عليه السلام «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ» والآيات كثيرة في الموضوع.

القسم الخامس: خوف المرض في البلاد الموبوءة والخروج منها إلى الأرض

الصحيّة، فقد أذن الرسول عليه الصلاة والسلام للرعاة حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى السرح فيكونوا فيه حتى يصحّوا وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون للحديث الصحيح.

القسم السادس : الفرار خوف الأذية في المال. فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه. أما الطلبُ فينقسم إلى قسمين (طلبُ دين، وطلبُ دنيا) القسم الأول وهو طلب الدين ينقسم إلى تسعة أقسام:

القسم الأول : مندوب وهو السفر للاعتبار في مخلوقات الله. قال تعالى: «**أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**» ويقال: إن ذا القرنين: إنما طاف الأرض ليرى عجائبها وقيل: لينفذ الحقّ فيها.

القسم الثاني : فرض وهو سفر الحج عندما تتوفر الشروط المطلوبة في الشخص والسفر.

القسم الثالث : سفر الجهاد وله أحكام.

القسم الرابع : سفر المعاش فقد يتعدّر على الرجل اكتساب معاشه في بلده فيخرج في طلبه، لا يزيد عليه من صيد أو احتطاب، أو احتشاش، وهو فرض في حقه، لأن المسئلة مع القدرة على العمل محرّمة في الشرع.

القسم الخامس : سفر التجارة والكسب الزائد على القوت لقوله تعالى: «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ**» يعني التجارة، وهي نعمة من الله بها في سفر الحج، فكيف إذا انفردت.

القسم السادس : الخروج لطلب العلم، اطلبوا العلم ولو في الصين.

القسم السابع : قصد البقاع قال عليه الصلاة والسلام: [لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ].

القسم الثامن : الثغور للرباط بها، وتكثير سوادها للذب عنها.

القسم التاسع : زيارة الإخوان في الله تعالى قال عليه الصلاة والسلام: [زار رجل أخاً له في قرية، فأرصد الله له ملكاً على مدرجته، فقال: أين تريد؟ فقال: أريد أخاً في هذه القرية، قال: هل لك من نعمة تربّها عليه، قال: لا، غير أنني أحببته في الله عز وجل: قال: فإني رسول الله إليه بأن الله أحبك كما أحببته فيه] رواه مسلم وغيره. وقوله تعالى في آخر الآية: «**وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**» أي بإكمال ثواب هجرته.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ
وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ
أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً
وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِّنْ مَّظْرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى
أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ
أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا» سورة النساء (الآية: ١٠٢)

في الواحدي والخطيب : قال مجاهد: حدثنا أبو عبيد بن الزرق، قال: صلينا مع رسول
الله صلى الله عليه وسلم الظهر، فقال المشركون: قد كانوا على حال لو كنا أصبناهم غرة،
قالوا: تأتي عليهم صلاة هي أحب إليهم من آبائهم، قال: وهي العصر، قال: فنزل
جبريل في هذه الآية بين الأولى والعصر «وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ»
وكان بعُسقان، وعلى المشركين خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، وذكر صلاة
الخوف، وقد فصل ابن عباس بقوله: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقى المشركين
بعُسقان، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر، فرأوه يركع ويسجد هو
وأصحابه، قال بعضهم لبعض: كان هذا فرصة لكم لو أغرتم عليهم ما علموا بكم حتى
تواقعوهم، فقال قائل منهم: فإن لهم صلاة أخرى هي أحب إليهم من أهلهم وأموالهم،
استعدوا حتى تُغيروا عليهم فيها فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه «وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ
فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ..» إلى آخر الآية. وأعلم ما ائتمره المشركون، وذكر صلاة
الخوف. وكذا في الخازن. وكذا روى الإمام أحمد وأهل السنن كما هو في ابن كثير. وقوله
تعالى: «وَإِذَا كُنْتَ» يا محمد حاضراً «فِيهِمْ» وأنتم تخافون العدو «فَأَقَمْتَ لَهُمُ
الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ» وتتأخر طائفة بإزاء العدو «وَلْيَأْخُذُوا» أي الطائفة
التي قامت معك «أَسْلِحَتَهُمْ» معهم، في الخازن: اختلفوا في هؤلاء الذين أمرهم الله
بأخذ السلاح، فقيل: أراد بهم الذين قاموا معه إلى الصلاة فإنهم يأخذون أسلحتهم في

الصلاة، فعل هذا القول إنما يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة، ولا يؤدي به
 من إلى جنبه كالسيف والخنجر، وذلك لأنه أقرب إلى الإحتياط، وأمنع للعدو من
 الإقدام عليهم، فإن كان السلاح يشغل بحركته، وثقله عن الصلاة كالترس الكبير، أو
 يؤدي من إلى جانبه كالرمح فلا يأخذه. وقيل أراد بهم الطائفة التي بقوا في وجه العدو،
 فإنهم يأخذون أسلحتهم للحراسة. وقيل: يحتمل أن يكون أمراً لفريقين يحمل السلاح
 لأن ذلك أقرب للاحتياط. والظاهر أنَّ الأمر بأخذ السلاح للطائفة القائمة مع رسول الله
 صلى الله عليه وسلم. والمعنى: لا يضعوها ولا يلقوها. وإنما عبر عن ذلك بالأخذ للإيدان
 بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء. وقوله: «فَإِذَا سَجَدُوا» أي شرعوا في
 الصلاة «فَلْيَكُونُوا» أي الطائفة الأخرى «مِنْ وَرَائِكُمْ» يحرسون إلى أن تقضوا الصلاة،
 وتذهب هذه الطائفة تحرس «وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا» وهى الطائفة التي كانت
 في وجه العدو «فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ» الركعة الثانية التي بقيت عليك، ويتموا بقية صلاتهم
 «وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ» معهم إلى أن تقضوا الصلاة، وقد فعل صلى الله عليه
 وسلم ذلك ببطن نخل. رواه الشيخان كذا حملها الجلال على صلاة بطن نخل، وحملها
 بعض المفسرين على صلاة عُشْفَانَ كما علمت، وحملها بعض آخر منهم على ذات الرقاع،
 وقوله: «وَدَّ السَّيِّدِينَ كَفَرُوا» أي تمنَّ الذين كفروا «لَوْ تَقَفَلُونَ» إذا قمتم إلى الصلاة
 «عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ» أي حوائجكم التي بها بلاغكم في أسفاركم فتسهون عنها،
 والخطاب للفريقين بطريق الالتفات. «فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً» أي فيهجمون
 عليكم هجمة واحدة ليأخذوكم. وهذا علة الأمر بأخذ السلاح «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»
 أي لا حرج ولا وزر «إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَقْطِرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا
 أَسْلِحَتَكُمْ» فلا تحملوها. وهذا يفيد إيجاب حملها عند عدم العذر، وهو أحد القولين
 للشافعى، والثاني أنه سنَّه، ورجحه الشيخان «وَأَخُذُوا حِذْرَكُمْ» مِنَ الْعَدُوِّ أَي
 احترزوا منه ما استطعتم قال ابن عباس: نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أنه
 غزا بني محارب وبنى أنمار. ولا يرون من العدو أحداً، فوضع الناس السلاح فخرج رسول
 الله صلى الله عليه وسلم لحاجته حتى قطع الوادى، والساء ترش بالمطر، فسال الوادى،
 فحال السيل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أصحابه، فجلس تحت شجرة،
 فبصر به غوث بن الحارث المحاربي، فقال: قتلتى الله إن لم أقتله، ثم انحدر من الجبل،

ومعه السيف ولم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وهو قائم على رأسه، وقد سل سيفه من غمده، وقال يا محمد: من يمنعك متى الآن؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله، ثم قال: اللهم اكفني غورث بن الحارث بما شئت، فأهوى غورث بالسيف ليضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم به فأكب لوجهه من زلخة زلخها، فندر السيف من يده، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ السيف، ثم قال يا غورث: من يمنعك متى الآن؟ فقال: لا أحد. فقال: أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله؟ فقال: لا، ولكن أشهد أن لا أقاتلك، ولا أعين عليك عدواً، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه، فقال غورث: أنت خيرٌ متى. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنا أحقٌ بذلك منك. فرجع غورث إلى أصحابه، فقالوا له: ويلك يا غورث ما منعك منه؟ فقال: والله لقد أهويت إليه بالسيف لأضربه به، فوالله ما أدري زلخني بين كتفي، فخررت لوجهي. وذكر لهم حاله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وسكن الوادي، فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الوادي إلى أصحابه، وأخبرهم الخبر وقرأ هذه الآية «وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أْدَى..» الآية * والزلخة: الدفعة، وفي القاموس زلخه بالرمح يزلخه من باب ضرب زجحه * وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ» أي هياً «للكافرين عَذَاباً مُّهِيناً» أي ذا إهانة.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس يا أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان عفواً رحيماً * ولا تجادل عن الذين يخفون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً * يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يببئون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً * هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً * ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله عفواً رحيماً * ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً * ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به

بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ
لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ
شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا» سورة النساء (الآية: ١٠٥ - ١١٢)

هذه الآيات أنزلت كلها في قصة واحدة وذلك أن رجلاً من الأنصار يقال له: طعمة
بن أبيرق، أحد بنى ظفر ابن الحارث، سرق درعاً من جاره له يقال له: قتادة بن النعمان،
وكان الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى
الدار، وفيها أثر الدقيق، ثم خبأها عند يهودى يقال له: زيد بن السمين، فالتمست الدرع
عند طعمة، فلم توجد عنده، وحلف لهم، والله ما أخذها وماله به علم، فقال أصحاب
الدرع: بل والله قد أدلج علينا فأخذها، وطلبنا أثره حتى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق،
فلما أن حلف تركوه، وآتبوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودى، فأخذوه، فقال
اليهودى: دفعها إلى طعمة بن أبيرق، وشهد له أناس من اليهود على ذلك، فقال بنوا
ظفر، وهم قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلموه في ذلك،
فسألوه أن يجادل عن صاحبهم، وقالوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا، واقتضح وبرىء
اليهودى، فهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل، وكان هواه معهم، وأن يعاقب
اليهودى، فأنزل الله تعالى «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...» الآيات كلها. وهذا قول
جماعة من المفسرين منهم الخطيب والقرطبي والجلال والحازن والكشاف وابن كثير وابن
جرير عن قتادة، زاد وكان طعمة قذف بها بريئاً، فلما بين الله شأن طعمة نافق ولحق
بالمشركين بمكة، فأنزل الله فيه «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ» الآية. قرأت في بعض الكتب
أنه أراد السرقة بمكة فبينما هو ينقب الحائط فإذا به يسقط عليه، فقتله وشخص بصره فأنزل
الله تعالى «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ
الْأَبْصَارُ» قوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ» القرآن «بالحق» بالصدق، وهو متعلق
بأنزل، وهو في محل نصب على الحال المؤكدة فيتعلق بمحذوف وصاحب الحال
هو الكتاب، أي أنزلناه ملتبساً بالحق «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ» أي بما علمك
الله وأوحى إليك وإنما سمي العلم اليقيني رؤية لأنه جرى مجرى الرؤية في قوة الظهور،

روى عن عمر أنه قال: لا يقولن أحدكم قَضَيْتُ بما أَرَانِي اللهُ فَإِنَّ اللهُ لم يجعل ذلك إلا لنبيِّه صلى اللهُ عليه وسلم. ولكن ليجتهد رأيه لأن الرأي من رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم كان مصيباً لأن الله تعالى كان يريه إِيَّاهُ، وإن رأى أحدنا يكون ظناً ولا يكون علماً قال المحققون: دلت هذه الآية على أن رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم ما كان يحكم إلا بالوحي الإلهي، والنص المنزل عليه كذا في الخازن، وفي النسفي: قال الشيخ أبو منصور رحمه اللهُ: بما ألهك اللهُ في أصوله المنزلة، وفيه دلالة على جواز الاجتهاد ولكنَّ المعنى: بما أراك: أعلمك. والعلم لا يكون إلا بوحي، والكلام صحيح إذا قصد الوحي الإلهامى. وقوله «وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ» كطعمة «خَصِيماً» أي مخاصماً عنهم وهم قوم طعمة بأن تجادل عن طعمة مدافعاً عنه، ومعيناً له، واللام في للخائنين، للتعليل، ومفعول خصيماً مخذوف، أي مخاصماً للبريء من السرقة، وهو اليهودي، أشار إلى هذا البيضاوي «وَأَسْتَغْفِرُ اللهُ» ممَّا هَمَّتْ به من القضاء على اليهودي بقطع يده تعويلاً على شهادتهم. «إِنَّ اللهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً» غفوراً لذنوب عباده يسترها عليهم، ويغفرها لهم رحيماً بعباده المؤمنين. قال الخازن: وقد تمسك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الأنبياء، وقالوا: لو لم يقع من الرسول صلى اللهُ عليه وسلم ذنب لما أمر بالاستغفار. والجواب: عمَّا تمسكوا به من وجوه:

أحدها: أن رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم لم يفعل المنهى عنه في قوله «وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً» ولم يخاصم عن طعمة لما سأله قومه أن يذب عنه وأن يلحق السرقة باليهودي فتوقف رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم عن ذلك، وانتظر ما يأتيه من الوحي السماوي والأمر الإلهي فنزلت هذه الآية، وأعلم رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم بأن طعمة كذاب، وأن اليهودي بريء من السرقة. وإنما مال صلى اللهُ عليه وسلم إلى نصرة طعمة وهمَّ بذلك بسبب أنه في الظاهر من المسلمين. فأمره اللهُ بالاستغفار لهذا القدر.

الوجه الثاني: أن قوم طعمة لما شهدوا عند رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم ببراءة طعمة من السرقة، ولم يظهر في الحال لرسول الله صلى اللهُ عليه وسلم ما يوجب القدح في شهادتهم همَّ بأن يقضى على اليهودي بالسرقة، فلما أطلع الله على كذب قوم طعمة عرف أنه لو وقع ذلك الأمر لكان خطأ في نفس الأمر فأمره اللهُ بالاستغفار منه، وإن كان معذوراً.

الوجه الثالث : يحتمل أن الله تعالى أمره بالاستغفار لقوم طعمة لذبتهم عن طعمة فإنَّ استغفاره صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون لذنب قد سبق قبل النبوة. وأن يكون لذنوب أمته.

الوجه الرابع : إنَّ درجة النبي صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات ومنصبه أشرف المناصب فلعلو درجته وشرف منصبه، وكمال معرفته بالله عزَّ وجلَّ، فما يقع منه على وجه التأويل أو السهو المقربين، وذلك بالنسبة إلى منازلهم ودرجاتهم. انتهى. ولماذا لا يقال هو من باب أن للسيد أن يخاطب عبده بما شاء. كما أن النهي عن الشيء لا يقتضى كون المنهى مرتكباً للمنى عنه.

وقوله : «وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ» يعنى طعمة ومن عاونه من قومه ممن علموا كونه سارقاً والاختيان كالخيانة يقال: خانه واختانه، والعاصي خائن نفسه لأنه يجرم نفسه الثواب ويوصلها إلى العقاب «إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا» قال المفسرون: إنَّ طعمة خان في الدرع أولاً، ثم في نسبة اليهودى إلى تلك السرقة، وخَوَّانًا فعلاً وأثيماً فعلاً بئيتاً على المبالغة والعموم ليتناول طعمة وكل من يخون خيانه. أي فلا تخصص لخائن قط، ولا تجادل عنه لأن الله لا يُجِبُهُ، وأيضاً كان الله عالماً من طعمة بالافراط في الخيانة وركوب الإثم، وقد تقدم أنه هرب إلى مكة مرتداً ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فمات، ومن كانت تلك خاتمة أمره لا يشك في حاله. قال العقلاء: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات. وعن عمر أنه أمر بقطع يد سارق فجاءت أمه تبكى وتقول: هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه، فقال: كذبت إنَّ الله لا يؤاخذ عبده في أول مرة. وفي الآية دليل على أن من كان قليل الخيانة والإثم لم يكن في معرض السخط من الله تعالى. وقوله «يَسْتَخْفُونَ» يستترون «مِنَ النَّاسِ» حياءً منهم، وخوفاً من ضررهم «وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ» أي لا يستحيون منه لأن الاستخفاء لازم الإستحياء. «وهو مَعَهُمْ» بالعلم والقدرة والرؤية فلا يخفى عليه شيء من حالهم لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، وكفى بذلك زاجراً للإنسان عن المعاصى وقوله: «إِذْ يُبَيِّتُونَ» يدبرون «مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ» وهو تدبير طعمة أن يرمى الدرع في دار اليهودى: زيد في السمين. ليسرق دونه ويحلف ببراءته. أو لعلهم اجتمعوا في الليل ورتبوا كيفية المكر فسمى الله تعالى كلامهم ذلك بالقول المبيت الذي لا يرضاه الله، أو المراد

بالقول الخلف الكاذب الذي حلف به بعد أن بيّت الدرع عند اليهودى. «وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا» أي لا يخفى عليه شيء من أسرار عباده، وهو مطلع عليهم ومحيط بهم لا تخفى عليه خافية «هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ» ها للتنبيه في أنتم وما بعدها مبتدأ وخبر. ويعنى يا هؤلاء الذين هو خطاب لقوم من المؤمنين كانوا يذبون عن طعمة، وعن قومه «جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ» جملة موضحة للأولى. أي هبوا أنكم خاصمتم عن طعمة وقومه في الدنيا «فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» أي فن الذي يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذه الله بعذابه فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتفريع. «أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً» حافظاً ومحامياً عن عذاب الله إذا نزل بهم، وهذا الاستفهام معطوف على الأول، وكلاهما للإنكار والتفريع ثم أردف الوعيد والتهديد بذكر التوبة فقال تعالى: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ» نزلت هذه الآية في ترغيب طعمة في التوبة وعرضها عليه، وقيل: نزلت في قومه الذي جادلوا عنه. وقيل: هي عامة في كل مسيء ومذنب لأن خصوص السبب لا يمنع من إطلاق الحكم. ومعنى الآية: ومن يعمل سوءاً سييء به إلى غيره كما فعل طعمة بالسرقه من قتادة واليهودى، أو يظلم نفسه بما يجازى به كالحلف الكاذب «ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ» يعنى من ذنوبه. وقد يستدل بالآية على أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب وإن كان كفراً أو قتلاً عمداً، أو غضباً للأموال، بلى على أن مجرد الاستغفار كافٍ. وعن بعضهم أن الاستغفار لا ينفع مع الإصرار فلا بد من اقترانه بالتوبة. وإنما قلت الذي ذكرت لأن الاثم يشمل كل ما يآثم بفعله الإنسان. والظلم يشمل الشرك فادونه، أي ثم يستغفر الله من ذنوبه «يَجِدِ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» ولهذا قال الخازن: في هذه الآية دليل على حكيم: أحدها: أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب الكبائر والصغائر لأن قوله «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ» عمّ الكل.

والحكم الثاني: أن ظاهر الآية يقتضى أن مجرد الاستغفار كافٍ. وقال بعضهم إنه مقيد بالتوبة لأنه لا ينفع الاستغفار مع الإصرار على الذنوب قلت: بل لا بد من أن يصدق في التوبة فليس المراد مجرد الاستغفار باللسان.

قال الكرخى: وهذه الآية دلت على أن التوبة مقبولة من جميع الذنوب سواء كانت كفراً أو قتلاً عمداً أو غضباً للأموال، لأن السوء والظلم يعمّ الكل وفي الطبرى: قال عبد الله: كانت بنو اسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب

على بابيه، وإذا أصاب البول شيء منه قرضه بالمقارض، فقال: رجل: لقد آتى الله بنى إسرائيل خيراً. فقال عبدالله: ما آتاكم الله خيراً مما آتاهم: جعل الله الماء لكم طهوراً، وقال: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» وقال: «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا» قال محمد بن جرير الطبرى: حدثني يعقوب، قال: ثنا هشيم، قال: ثنا ابن عوف عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبدالله بن مغفل، فسألته عن امرأة فجرت فحبلت، فلما ولدت قتلت ولدها، فقال ابن مغفل: ما لها إلا النار، فانصرفت وهي تبكى فدعاها، ثم قال: ما أرى أمرك إلا أحد أمرين «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِم نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا» قال: فسحت عنها ثم مضت. وقال: حدثني المشنى قال: ثنا عبدالله بن صالح، قال: ثنى معاوية عن علي عن ابن عباس قوله «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِم نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا» قال: أخبر الله عباده بجله وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً. قال: ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال. وكذا ذكره ابن كثير في التفسيره وروى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً نفغنى الله فيه بما شاء أن ينفغنى منه. وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما من مسلم يذنب ذنباً، ثم يُصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له] وقرأ هاتين الآيتين «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِم نَفْسَهُ» الآية «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ..» الآية. وروى أحاديث في الموضوع بعضها صحيحة الأسناد، وبعضها لا يصح. وقوله تعالى: «وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا» ذنباً «فَأِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ» لأن وبالها عليها ولا يضر غيره «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» يعنى لا يغنى أحد عن أحد، وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها لغيرها «وَوَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» في صنعه لا يظلم أحداً، يعنى إذا حكم عليه بالقطع، وقيل: معناه عليم بما في قلب عبده عند إقدامه على التوبة إذا كان صادقاً. حكيماً: تقتضى حكمته أن يتجاوز عن التائب، ويغفر له، ويقبل توبته «وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا» قيل: إن الخطيئة: هى الصغيرة من الذنوب، والاثم: هو الكبيرة، وقيل: الخطيئة هى الذنب المختص بفاعله، والاثم

الذنب المتعدى إلى الغير، وقيل: إن الخطيئة هي سرقة الدرع والاثم هو يمينه الكاذبة*
 وقوله: «ثُمَّ يَرْمِ بِهِ» أي بالخطيئة والاثم، وتوحيد الضمير مع تعدد المرجع لمكان أو
 تذكيره لتغليب الإثم على الخطيئة كأنه قيل: ثم يرم بأحدهما «بريئاً» منه كاليهودى: زيد
 في السمين في واقعة طعمة «فَقَدَّ اخْتَمَلَ» تحمّل «بَهْتَانًا» برميته. البهتان: من البهت
 وهو الكذب الذي يتمييز في عِظْمِهِ «وَأَثْمًا مُبِينًا» يبتأ بكسبه، أي فله عقوبتان لأنه
 جامع بين الأمرين، فلا جرم يلحقه الذم في الدارين وقوله: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ
 وَرَحْمَتُهُ» أي لولا أن خصك الله بالفضل وهو التوبة، الرحمة، وهي العصمة، وما أوحى
 إليك من الاطلاع على أسرار قوم طعمة فهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة
 «لَهَمَّتْ ظَائِفَةٌ مِنْهُمْ» يعنى من بنى ظفروهم قوم طعمة «أَنْ يُضِلُّوكَ» يعنى عن
 القضاء بالحق، وتوخى طريق العدل. وقيل: معناه يخطؤك في الحكم، و يلبسوا عليك
 الأمر حتى تدفع عن طعمة، وذلك لأن قوم طعمة عرفوا أنه سارق، ثم سألوا النبي صلى الله
 عليه وسلم أن يدافع عنه وينزهه عن السرقة، ويرمى بها اليهودى «وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا
 أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ» زائدة في المفعول المطلق. أي شيئاً من الضرر لا قليلاً ولا
 كثيراً لأن وبال إضلالهم عليهم «وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ» القرآن «وَالْحِكْمَةَ»
 الستة بما فيها من الأحكام لتقضى بها «وَعَلَّمَكُمَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ» من الأحكام والغيب
 «وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ» بذلك وغيره «عَظِيمًا» فلا فضل أعظم من النبوة العامة
 والرسالة التامة. في هذه الآية تنبيه من الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على
 ما حباه من الطافه، وما شمله من فضله وإحسانه ليقوم بواجب حقه، وقد قام به صلى الله
 عليه وسلم حق القيام شاكرًا مولاه على ما حباه به من الفضل والإحسان.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ
 وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» سورة النساء (الآية: ١٢٣)

في الواحدى: قال أبو صالح: جلس أهل الكتاب: أهل التوراة، وأهل الإنجيل،
 وأهل الأديان. كل صنّف يقول لصاحبه: نحن خيرٌ منكم، فنزلت هذه الآية* وقال
 مسروق وقتادة: احتج المسلمون وأهل الكتاب: فقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم،

نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: نحن
 أهدي منكم، وأولى بالله، نبينا خاتم الأنبياء، وكتابنا يقضى على الكتب التي قبله،
 فأنزل الله تعالى هذه الآية: «ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان
 بقوله تعالى «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ» وبقوله «وَمَنْ
 أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ» الآيتين وكذا في الخطيب في القرطبي: ومن أحسن
 ما روى في نزولها ما رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: قالت اليهود
 والنصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان متئا، وقالت قريش: ليس نبعث، فأنزل الله
 «لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ..» ومال إليه الطبري: وعلل ذلك بأن
 المسلمين لم يجبر لأمانيتهم ذكر فيما نص من الآي قبل قوله: «لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ..» وقال:
 حدث الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: لما نزلت «لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي
 أَهْلَ الْكِتَابِ..» قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء فنزلت هذه الآية «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ
 الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ..» وهكذا بقية الأقوال في مفاخرة أهل
 الكتاب والمسلمين.. كان أهم السبب في نزل الآية وقوله تعالى: «لَيْسَ» الأمر مرتبطاً
 «بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ» بل بالعمل الصالح، والخطاب للمسلمين لأنه لا
 يؤمن بوعد الله إلا من آمن به وقيل: قالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن
 أصحاب الجنة، وكذلك النصارى، وقالت قريش: لا نبعث. فنزلت: أي ليس ما
 ادعيتموه يا كفار قريش بأمانيتكم، والأمانى جميع أمنية مأخوذة من التمتى وهو تقدير
 الشيء في النفس وإرادته، فالأمنية ما يقدره الإنسان في نفسه ويصوره فيها كأن يتصور
 أنه يثاب أو يعاقب، أو أنه يفعل كذا وكذا، فيؤول المعنى إلى أنها نوع من الشهوة والمحبة
 والإرادة «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ» المؤمن والكافر، لأن السوء يشمل الكفر، والجزاء
 إما في الآخرة، أو في الدنيا بالبلاء والمحن كما ورد في الحديث المخرج في الترمذي وغيره
 أن أبا بكر لما نزلت قال يا رسول الله: وأينا لم يعمل السوء، وأنا لمجزيون بكل سوء
 عملناه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أما أنت وأصحابك المؤمنون فتجزن بذلك في الدنيا
 حتى تلقوا الله وليس عليكم ذنوب. وأما الآخرون فيجتمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم
 القيامة وكذا في الكرخى وأسد الغابة وغيرها وفي الخازن: قال الضحاك: يقول ليس
 لكم ما تمنيتم وليس لأهل الكتاب ما تمتموا، ولكن من عمل سوءاً يعنى شركا فأت عليه

يجزبه الثَّارِه وقال الحسن: هذا في حق الكفار خاصة لأنهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير ولا يجزى المؤمن بسوء عمله يوم القيامة، ولكن يجزى بأحسن عمله ويتجاوز عن سيئاته. قال الخازن: ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله: «وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا»، وهذا هو الكافر. فأما المؤمن فله وليٌ ونصيره وقال آخرون: هذه الآية في حق كل من عمل سوءاً من مسلم ونصراني وكافر. قال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه: لما نزلت هذه الآية شقَّت على المسلمين مشقَّة شديدة، وقالوا يا رسول الله: وأيننا من لم يعمل سوءاً غيرك، فكيف الجزاء؟ قال: [منه ما يكون في الدنيا، فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات، ومن جوزى بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته، وبقيت له تسع حسنات، فويل لمن غلبت آحاده أعشاره. وأما من كان جزاؤه في الآخرة فيقابل بين حسناته وسيئاته، فيلقى مكان كل سيئة حسنة، وينظر في الفضل، فيعطى الجزاء في الجنة، فيؤتى كل ذى فضل فضله]. ويدل على صحة هذا القول ما روى عن أبي هريرة قال: لما نزلت «من يعمل سوءاً يجزى به» بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [قاربوا وسددوا في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها] أخرجه مسلم.

فإن قلنا: إن هذه الآية خاصة في حق الكفار فتأويلها ظاهر، وإن قلنا: إنها في حق كل عامل سوء من مسلم وكافر، فإنه لا وليٌّ لأحدٍ من دون الله يوم القيامة، ولا ناصر، فالمؤمن لا وليٌّ لهم غير الله وشفاعة الشافعين تكون بإذن الله، فليس يمنع أحدٌ أحداً عن الله، قلت: وإذا كانت شفاعة الملائكة والأنبياء بإذن الله صدق أنه لا وليٌّ لأحدٍ ولا نصيراً إلا الله.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :))***

«وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»، سورة النساء (الآية: ١٢٥)

في الواحددي: قال عمر رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يا جبريل: لم اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ قال: لاطعامه الطعام يا محمد] وقال عبد الله بن عبد الرحمن بن البرزى: دخل إبراهيم فجاءه ملك الموت في صورة شاب لا يعرفه، قال له

إبراهيم: بإذن من دخلت؟ فقال: بإذن رب المنزل؟ فعرفه إبراهيم عليه السلام: فقال له ملك الموت: إنَّ ربك اتخذ من عباده خليلاً، قال إبراهيم: ومن ذلك؟ قال: وما تصنع به؟ قال: أكون خادماً له حتى أموت. قال: فإنه أنت؟ وفي رواية أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وإن لم يكن نبياً إلاَّ له خليل ألاً وإنَّ خليلي أبو بكر] وفي رواية أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اتخذ الله إبراهيم خليلاً، وموسى نجياً، واتخذني حبيباً، ثم قال: وعزني لأ وثرني حببي على خليلي ونجيتي] قوله تعالى: «وَقَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ» أي ومن أحكم ديناً ممن أسلم نفسه (وعبر بالوجه لأنه أشرف الأعضاء) وهو موحد لله عز وجل لا يشرك به شيئاً. قاله ابن عباس في تفسيره. وإنما صار دين الإسلام أحسن الأديان لأن فيه طاعة الله ورضاه وهما أحسن الأعمال. «وَأَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ» الموافقة للملة الإسلام وقوله: «حَنِيفاً» حال أي مائلاً عن الأديان كلها إلاَّ الدين القيم. «وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» أي صفتياً خالص المحبة. وإنما أعاد ذكره ولم يضمه تفيخماً له، وتنصيماً على أنه الممدوح. والخلة: من الخلال. فإنه ودَّ تخلل النفس وخالطها. قال الزجاج: الخليل الذي ليس في محبته خللٌ. والخلة: الصداقة، فسمى خليلاً لأنَّ الله تعالى أحبَّه واصطفاه. روى أن إبراهيم عليه السلام كان يسمى أباً الضيفان. وكان منزله على ظهر الطريق يُضيف من مرَّ به من الناس، فأصاب الناس سنةً، فحشروا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكانت الميرة له كل سنة من صديق له بمصر، فبعث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي بمصر، فقال خليله لغلمانه: لو كان إبراهيم يريد لنفسه لعلتُ، ولكن يريد للأضياف، وقد أصابنا ما أصاب الناس من الشدة. فرجع غلمانه فرُّوا ببطحاء، أي بأرض ذات حصي، فقالوا: لو أننا حملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أننا قد جئنا بميرة، فإننا نستحي أن نمر بهم وإبلنا فارغة، فلما الغرائز، ثم أتوا إبراهيم، فلما أخبروه بذلك، وسارة (زوجته) نائمة ساءه الخبر، فقلبت عيناه فنام، واستيقظت سارة، وقد ارتفع النهار فقالت سبحان الله!! ما جاء الغلمان؟ قالوا: بلى، فقامت إلى الغرائز ففتحتها فإذا هو أجود حواري (بضم الحاء المهملة وتشديد الواو) وفتح الراء) الدقيق الذي نخل مرَّة بعد أخرى، فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناس، فاستيقظ إبراهيم فوجد رائحة الخبز، فقال: من أين هذا لكم؟ فقالت: من خليلك

المصرى، فقال: بل من عند خليلي: الله عز وجل فسماه خليلاً ۞ وما ورد في القرطبي في سبب تسميته خليلاً: قيل: إنه أضاف رؤساء الكفار، وأهدى لهم هدايا، وأحسن إليهم، فقالوا له: ما حاجتك؟ قال: حاجتي أن تسجدوا سجدة، فسجدوا فدعا الله تعالى وقال: اللهم إني قد فعلت ما أمكنني فأفعل، اللهم فأنت أهل لذلك. فوفقهم الله تعالى للإسلام، فاتخذه الله خليلاً لذلك ۞ ويقال: لما دخلت عليه الملائكة بشبهه الآدميين، وجاء بعجل سمين. فلم يأكلوا منه، وقالوا: إننا لا نأكل شيئاً بغير ثمن. فقال لهم: اعطوا ثمنه واكلوا. قالوا: وما ثمنه؟ قال: أن تقولوا في أوله بسم الله، وفي آخره الحمد لله، فقالوا فيما بينهم: حق على الله أن يتخذه خليلاً، فاتخذه الله خليلاً ۞ وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [اتخذ الله إبراهيم خليلاً لإطعامه الطعام، وإفشائه السلام، وصلاته بالليل والناس نيام] كذا في القرطبي والخازن. وقيل: لما أراه الله ملكوت السموات والأرض وحاج قومه في الله ودعاهم إلى توحيده ومنعهم من عبادة النجوم والشمس والقمر والأوثان وبذل نفسه للإلقاء في النيران. وبذل ولده للقربان، وماله للضيفان اتخذ الله خليلاً وجعله إماماً للناس يقتدى به، وجعل النبوة فيه وفي ذريته. وقيل: إن إبراهيم عليه السلام لما كسر الأصنام وعادى قومه في الله عز وجل. اتخذ الله خليلاً ۞ وقد ثبتت الخلة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً] وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: [لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكنه أخى وصاحبي، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً] أخرجه مسلم وقد رواه الترمذي بلفظ أطول وفيه ألاً وأنا حبيب الله ولا فخر.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا»
سورة النساء (الآية: ١٢٧)

في الواحدى: قالت عائشة رضي الله عنها: ثم إنَّ الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية «ويستفتونك في النساء» الآية، قالت: والذي يتلى عليهم في الكتاب الآية الأولى التي قال فيها «وإن خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى» قالت عائشة رضي الله عنها: وقال الله تعالى في الآية الأخرى «وتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ» رغبة أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال. فنها أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من باقى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن. رواه مسلم بهذا اللفظ عن حرمة بن وهب وفي القرطبي: نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في الميراث وغير ذلك، فأمر الله نبيّه عليه السلام أن يقول لهم: الله يفتيكم فيهنّ. أي يبيّن لكم حكم ما سألتكم عنه. روى أشهب عن مالك قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يُسأل فلا يجيب حتى ينزل عليه الوحي. وذلك في كتاب الله «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ» «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى» «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ» «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ» وفي الطبرى عن ابن جريج قال: أخبرني عبد الله بن كثير أنّه سمع سعيد بن جبيرة يقول في قوله «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ..» الآية قال: كان لا يرث إلا الرجل الذي قد بلغ، ولا يرث الرجل الصغير ولا المرأة، فلمّا نزلت آية الموارث في سورة النساء، شقّ ذلك على الناس، وقالوا: يرث الصغير الذي لا يعمل في المال ولا يقوم فيه، والمرأة التي هي كذلك، فيرثان كما يرث الرجل الذي يعمل في المال. فرجوا أن يأتي في ذلك حدث من السماء، فانتظروا فلمّا رأوا أنّه لا يأتي حدث، قالوا: لننّ تمّ هذا إنه الواجب ما منه بدّ، ثم قالوا: سلّوا فسألوا

النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ فَلِئَلَّهِ يَفْتِكُمْ فِيهِنَّ..» قال سعيد بن جبير. وكان الوليُّ إذا كانت المرأة ذات جمال ومال انكحها ولم ينكحهاه وحدث عن أسباط عن السد في قوله تعالى: «وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ..» إلى قوله «بِالْقِسْطِ» قال: كان جابر بن عبد الله الأنصاري، ثم السلمى له ابنة عم عمياء، وكانت دميمة، وكانت ورثت عن أبيها مالاً، فكان جابر يرغب عن نكاحها، ولا ينكحها رهبة أن يذهب الزوج بما لها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وكان ناس في حجورهم جوارٍ أيضاً مثل ذلك، فجعل جابر يسأل النبي صلى الله عليه وسلم: أترثُ الجارية إذا كانت قبيحة عمياء، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: نعم، فأنزل الله فيهنَّ هذه وفي الخازن: «وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ فَلِئَلَّهِ يَفْتِكُمْ فِيهِنَّ» الآية. قال ابن عباس: نزلت في بنات أم كحة. وقد تقدمت قصتهن في أول السورة. وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: هي اليتيمة تكون في حجر الرجل، وقد شركته في ماله فيرغب عنها فلا يتزوجها لدمامتها، ويكره أن يزوجه غيرها، فيدخل عليه ويشركه في ماله، فيحبسها حتى تموت، فنهاهم الله عن ذلك، وأنزل هذه الآية قال المفسرون: والذي استفتوه فيه هو ميراث النساء، وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا الصغار من الأولاد، فلما نزلت آية الموارث قالوا يا رسول الله: كيف ترث المرأة والصغير؟ فأجابهم بهذه الآية: «فَلِئَلَّهِ يَفْتِكُمْ فِيهِنَّ» يعني قل يا محمد: الله يفتيكم في شأن النساء وحالهن «وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ» أي اللوح المحفوظ، والغرض تعظيم حال هذه الآية. وأن الخلل بها وبمقتضاها من رعاية حقوق اليتامى ظالم متهاون بما عظمه الله، ونظيره في تعظيم القرآن «وَأَنَّهُ فِي أُمَّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلُّ حَكِيمٍ» والمعنى: أن الله يفتيكم في النساء بما أنزل في كتابه عليكم الميثب أصله في اللوح المحفوظ بأن العدل والإنصاف في حقوق اليتامى من أعظم الأمور عند الله تعالى التي تجب مراعاتها، وأن الخلل بها ظالم «فِي يَتَامَى النِّسَاءِ» أي في النساء اليتامى وقيل: في اليتامى أولاد النساء، وفيه خمسة أوجه:

أحدها: أنه بدل من في الكتاب، وهو بدل اشتمال، ولا بد من حذف مضاف. أي في حكم يتامى النساء، ولا شك أن الكتاب مشتمل على ذكر أحكامهن.
والثاني: أن يتعلق بيتي، فإن قيل كيف يجوز تعلق حرف جر بلفظ واحد ومعناه

واحد. فالجواب: إنَّ معناها مختلف لأن الأولى للظرفية على بابها والثانية بمعنى السببية مجازاً أو حقيقة عند من يقول بالاشترار، قال أبو البقاء: كما تقول: جئتكَ في يوم الجمعة في أمر زيد.

والثالث: إنه بدل من فيهنَّ بإعادة العامل، ويكون هذا بدل بعض من كل.

والرابع: أن يتعلق بنفس الكتاب. أي فيما كتب في حكم اليتامى.

والخامس: أنه حال، فيتعلق بمحذوف. وصاحب الحال هو المرفوع بيتلى، أي كائناً

في حكم يتامى النساء، وإضافة يتامى إلى النساء من إضافة الصفة إلى الموصوف إذا الأصل في النساء اليتامى.

«اللاتى لا تُؤثونهنَّ ما كُتِبَ» فرض «لهنَّ» وهى صفة لليتامى، وذلك أنهم

كانوا يرثون الرجال دون النساء والكبار دون الصغار «وترغبون أن تنكحوهنَّ» أي لما

لهن وجاهن بأقل من صداقهن، وقيل: معناه ترغبون عن نكاحهنَّ لقبهجنَّ ودمايتهنَّ،

وتمسكوهن رغبة في ماهنَّ، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: هذه اليتيمة

تكون في حجر وليها فيرغب في جاهها وماها ويريد أن ينقص صداقها فنها عن نكاحهنَّ

إلا أن يقسطوا لهنَّ في اكمال الصداق، وأمروا بنكاح من سواهنَّ. قالت عائشة رضي الله

عنها: فاستفتى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فأنزل الله عز وجل

«ويستفتونك في النساء» إلى قوله «وترغبون أن تنكحوهنَّ» فبين لهم أن اليتيمة إذا

كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها. ولم يلحقوها بسنتها في اكمال الصداق. وإذا

كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها واتمسوا غيرها، قال: فكما يتركونها حين

يرغبون عنها، فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلا أن يقسطوا لها، يعطوها حقها،

الأوفى من الصداق. الخازنه «و» في «المستضعفين» الصغار «من الولدان» أن

تعطوهم حقوقهم، كانوا يقولون في الجاهلية لا نورث إلا من يحمى الحوزة ويذب عن

الحرم، فيحرمون المرأة والصغير فنزلت «و» يأمركم «أن تقوموا لليتامى بالقسط»

بالعدل في الميراث والمهر «وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليمًا» فيجازيكم به.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وإن امرأة خافت من بعلها نُشُوزاً أو إغراضاً فلا جناح عليهما أن يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً»

سورة النساء (الآية: ١٢٨)

قالت عائشة رضي الله عنها: نزلت الآية في المرأة تكون عند الرجل فلا يستكثر منها، ويريد فراقها، ولعلها أن تكون لها صحبة و يكون لها ولد فيكره فراقها، وتقول له: لا تطلقني وأمسكني وأنت في حلّ من شأني. فأنزلت هذه الآية رواه البخاري عن محمد بن مقاتل، عن ابن المبارك، ورواه مسلم عن أبي كريب وأبي أسامة: كلاهما عن هشام * وحدث الزهري عن المسيب، أنّ بنت محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن صبيح فكره منها أمراً، إمّا كبيراً وإمّا غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقني وأمسكني، وأقسم لي ما بدا لك، فأنزل الله تعالى «وإن امرأة خافت من بعلها نُشُوزاً أو إغراضاً..» الآية * كذا في الواحدي * وفي الخطيب: قال سعيد بن جبير: كان رجل له امرأة قد كبرت، وله منها أولاد فأراد أن يطلقها، ويتزوج غيرها، فقالت له: لا تطلقني ودعني على ولدي، وأقسم لي من كل شهرين إن شئت، وإن شئت فلا تقسم لي، فقال: إن كان يصلح ذلك فهو أحبُّ إليّ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى «وإن امرأة..» الآية * وفي القرطبي: نزلت بسبب سودة بنت زمعة. روى الترمذي عن ابن عباس قال: خَشِيتِ سودة أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: لا تطلقني. وأمسكني، واجعل يومي منك لعائشة، ففعل، فنزلت «فلا جناح عليهما أن يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ» فا اصطلاحا عليه من شيء فهو جائز، قال: هذا حديث حسنٌ غريب * وفي الطبري: عن سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار: أن رافع بن خديج كان تحتها امرأة قد خلا من سنتها، فتزوج عليها شابة فأثر الشابة عليها، فأبت امرأته الأولى أن تقيم على ذلك، فطلقها تطليقة حتى إذا بقى من أجلها يسير قال: إن شئت راجعتك وصبرت على الأثرة، وإن شئت تركتك حتى يخلوا أجلك؟ قالت: راجعني وأصبر على الأثرة، فراجعها. ثم آثر عليها فلم تصبر على الأثرة. فطلقها أخرى، وآثر عليها الشابة، قال: فذلك الصلح

الذي بلغنا أن الله أنزل فيه «وإن امرأة خافت من بعلها نُشوراً أو إغراضاً فلا جناح عليهما أن يضلحا بئتها صلحاً» وفي زيادة عن عبيدة على حديث الزهري: فإن أضرها الثالثة فإن عليه أن يوفيا حقها أو يطلقها. وفي ابن كثير: عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت له: يا ابن أخي: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها، فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة رضي الله عنها حين أسئت وفرقت أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله: يومي هذا لعائشة، فقبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة رضي الله عنها: ففى ذلك، أنزل الله «وإن امرأة خافت من بعلها نُشوراً أو إغراضاً»، رواه أبو داود عن أحمد بن يونس به، والحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وهكذا الألفاظ والمعاني متقاربة في بقية الأقوال لدى المفسرين. وقوله تعالى: «وإن امرأة خافت من بعلها نُشوراً أو إغراضاً»، البعل: هو السيد، وسمى البعل زوجاً لأنه سيد المرأة. وفي حديث الإيمان [وأن تلد الأمة بعلها] المراد بالبعل هنا الملك يعنى كثرة السبي والتسرى. والنشور: أصله من التنشز، وهو المرتفع من الأرض. قال أبو اسحاق: النشور يكون بين الزوجين، وهو كراهة كل واحد منهما صاحبه، ونشزت المرأة بزوجها وعلى زوجها: ارتفعت عليه واستعصت عليه، وأبغضته، وخرجت عن طاعته وفركته. قال:

سرت تحت أقطاع من الليل حتى ليخمان بيتي فهي لا شك ناشر

ونشز هو عليها نشوراً كذلك، وضربها وجفاها وأضرها، أي أن نشوز الزوج هو كما قال تعالى «أو إغراضاً» يعنى بوجهه عنها، أو يعبس في وجهها، أو يترك مضاجعتها، أو يسىء عشرتها، أو يشتغل بغيرها، وقيل: المراد من النشور إظهار الخشونة في القول والفعل، والمراد من الإغراض السكوت عن الخير والشر والإيذاء، بل يعرض عنها بوجهه أو يشتغل بغيرها. «فلا جناح» أي لا إثم على الزوج والمرأة «أن يضلحا» فيه ادغام التاء في الأصل في الصاد، وفي قراءة يضلحا من أصلح «بئتها صلحاً» في القسم والنفقة بأن تترك له شيئاً طلباً لبقاء الصلحة، فإن رضيت بذلك، وإلا فلعلى الزوج أن يوفيا حقها، أو يفارقها، ونفى الجناح عن الزوج ظاهر لأنه يأخذ شيئاً من قبلها، والأخذ مظنة الجناح،

ومظنة أن يكون من قبيل الرشوة المحرمة، وأما نفي الجناح عنها، مع أن الذي من قبلها هو الدافع لا الأخذ فلبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطي والآخذ، وذلك بأن يقول الزوج لها: إنك قد دخلت في السن، وأنا أريد أن أتزوج امرأة شابة جميلة أوثرها عليك في القسم ليلاً ونهاراً، فإن رضيتي بهذا فأقيمى، وإن كرهت خليت سبيلك، فإن رضيت كانت هي المحسنة، وإن لم ترضى بدون حقها كان على الزوج أن يوفىها حقها من القسم والنفقة أو يُسرحها بإحسان، فإن أمسكها ووفىها حقها مع كراهته فهو المحسن. «والصلح» بأن يترك كل منها حقه أو بعضه «خيراً» من الفرقة والنشوز والإعراض كما فعلت سودة بنت زمعة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في بيان ما جبل عليه الإنسان «وَأُخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ» أي شدة البخل. أي جبلت عليه، فكأنها حاضرت لا تغيب عنه، والشُّح مفعول ثانٍ لأحضرت. والمعنى: أن المرأة لا تكاد تسمح بنصيبها من زوجها، والرجل لا يكاد يسمح عليها بنفسه إذا أحب غيرها أو كرهها. والشُّح: أقبح البخل، وحقيقته الحرص على منع الخير. لذا حث المولى جلّ وعلا على الإحسان والتقوى وحسم مادة الخصومة رأساً فقال: «وإن تُحْسِنُوا» عشرة النساء بالاقامة على ما كنتم عليه من الإحسان إليهنَّ «وَتَتَّقُوا» الجور عليهنَّ «فإنَّ الله كان بما تعملون خبيراً» فيثيبكم على ذلك، وعلى هذا فالخطاب للأزواج وقيل للزوجين أن يحسن كل منهما إلى صاحبه، ويحترز عن الظلم، وقيل: لغيرهما أن يحسنا في المصالحة بينهما، ويتقوا الميل إلى واحد منهما. يحكى أن عمران بن خطاب الخارجي كان من آدم بنى آدم، وامرأته من أجهلهم، فأجالت يوماً نظرها في وجهه، ثم قالت الحمد لله. فقال مالك؟ فقالت: حمدت الله على أنى وإياك من أهل الجنة لأنك رزقت مثل فشكرت ورزقت مثلك فصبرت. والشاكرين والصابرين من أهل الجنة. قلت: وفي الآية دليل على أن كل صلح يقع بين الزوجين مباح بلا استثناء. ذكر ابن خويزمئذاد في أحكامه عن عائشة رضي الله عنها قالت: وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفيية في شيء. فقالت لى صفيية: هل لك أن ترضين رسول الله صلى الله عليه وسلم عني ولك يومى، قالت: فلبستُ حماراً كان عندى مصبوغاً بزعفران، ونضحته، ثم جئتُ فجلستُ إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إليك عني فإنه ليس بيومك. فقلت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وأخبرته الخبر، فرضى عنها. وفي الآية دليل على أن ترك التسوية بين النساء، وتفضيل بعضهن على بعض لا يجوز إلا بإذن المفصلة ورضاها.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» سورة النَّسَاء (الآية: ١٣٥)

في الواحدي: روى أسباط عن السدي قال: نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم اختصم إليه غنيٌّ وفقير، وكان ضلعه مع الفقير، فقال: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ» حتى بلغ «إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا» إلى «خَبِيرًا» وعبارة الخازن عن السدي: «إِنَّ فَقِيرًا وَغَنِيًّا اخْتَصَمَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ صَفْوَهُ مَعَ الْفَقِيرِ، يَرَى أَنَّ الْفَقِيرَ لَا يَظْلِمُ الْغَنِيَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَأَمَرَ بِالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ مَعَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ وَقِيلَ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِقِصَّةِ طَعْمَةِ بَنِ أَبِي بَرْقٍ، فَهِيَ خُطَابٌ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ جَادَلُوا عَنْهُ، وَشَهِدُوا لَهُ بِالْبَاطِلِ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَكُونُوا قَائِمِينَ بِالْقِسْطِ شَاهِدِينَ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَأَقْرَبِهِمْ. وَمَا فِي الْوَاحِدِيِّ فِي الطَّبْرِيِّ، وَلَمْ أَرِ فِي التَّفَاسِيرِ زِيَادَةَ عَلَى مَا ذَكَرْتُ» قوله «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ» أي قائمين قياماً بليغاً مواظباً عليه مجتهداً فيه في الكرخي: أي مدينين القيام ومن عدل مرة أو مرتين لا يكون في الحقيقة قواماً» وقوله «بِالْقِسْطِ» بالعدل «شُهَدَاءَ» أي شاهدين بالحق «لِلَّهِ وَلَوْ» كانت الشهادة «عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ» ومعنى: شهادة الشخص على نفسه: بالتزام الحق ولا يكتمه. وعبارة السمين: قوله «وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ» لو هذه يحتمل أن تكون على بابها من كونها حرفاً لما كان سيقع بوقوع غيره وجوابها محذوف، أي ولو كنتم شهداء على أنفسكم لوجب عليكم أن تشهدوا عليها، وأجاز الشيخ أن تكون بمعنى إن الشرطية ويتعلق قوله: على أنفسكم. بمحذوف تقديره وإن كنتم شهداء على أنفسكم فكونوا شهداء لله. هذا تقدير الكلام. وحذف كان بعد لو كثير. تقول اثنى بتمر ولو حشفاً. أي وإن كان التمر حشفاً فأتني به والمعنى فأشهدوا عليها بأن تقرؤوا بالحق ولا تكتموا «أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ» أي ولو كانت الشهادة على والديكم وأقاربكم «إِن يَكُنْ» المشهود عليه من الوالدين والأقربين وغيرهم من الأجانب «غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا» فلا تمتنعوا

من الشهادة عليها طلباً لرضى الغنى أو ترحمًا على الفقير «فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا» أي أولى بجنس الغنى والفقير المدلول عليها بما ذكر، ولولا أنَّ الشهادة عليها فيها مصلحة لها لما شرعها لذا «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ» في شهادتكم بأن تحابوا الغنى لرضاه والفقير رحمة له «أَنْ تَعْدِلُوا» أي إرادة أن تعدلوا، فقد بان لكم أن لا عدل في ذلك، أو لئلا تعدلوا: أي تميلوا عن الحق. أي فهو من العدول عن الحق ولا مقدرة فيكون علةً للتبهي. أن نهيتمكم لئلا تميلوا وفي الكرخي: قوله: لأن لا تعدلوا: أشار إلى أن تعدلوا مفعول لأجله كما اختاره القاضي على أنه من العدول لا من العدل. وقيل: كراهة أن تعدلوا على أنه من العدل. وهو القسط. وهذا ما اختاره صاحب الكشاف. «وَإِنْ تَلَوْنَا» أي ألسنتكم لتحرفوا الشهادة «أَوْ تُعْرِضُوا» عن أدائها «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» فيجازيكم به.

* (حكم شهادة الأقرباء بعضهم على بعض) *

قال ابن شهاب الزهري: كان من مضي من السلف الصالح يجيزون شهادة الوالدين والأخ، ويتأولون في ذلك قول الله تعالى: «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ» فلم يكن أحد يُنَّهَى في ذلك من السلف الصالح رضوان الله عليهم، ثم ظهرت من الناس أمور حملت الولاية على اتهامهم، فتركت شهادة من يُنَّهَى، وصار ذلك لا يجوز في الوالد والولد، والأخ والزوج والزوجة، وهو مذهب الحسن والنخعي، والشعبي وشريح ومالك والثوري والشافعي وابن حنبل، وقد أجاز قوم شهادة بعضهم لبعض إذا كانوا عدولاً، وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أجازهم، وكذلك روى عن عمر بن عبدالعزيز، قال اسحاق والثوري والمزني. وفي رواية عن مالك أنه جَوَّزَ شهادة الأخ على أخيه إذا كان عدلاً إلا في التَّسْبِ، وروى عنه ابن وهب أنها لا تجوز إذا كان في عياله، أو في نصيب مال يرثه، وقال مالك وأبو حنيفة: شهادة الزوج والزوجة لا تقبل لتواصل منافع الأملاك بينها. وهى محل الشهادة. وقال الشافعي: تجوز شهادة الزوجين بعضهما على بعض لأنها أجتَبِيان، وإنما بينها عقد الزوجية وهو معرض للزوال والأصل قبول الشهادة إلا حيث خص فيما عدا المخصوص فيسبق على الأصل. كذا في القرطبي: لكنه ضعف هذا القول معللاً ذلك بأن الزوجية توجب الحنان والمواصلة والألفة والمحبة، فالتهمة قوية ظاهرة. وقد روى أبو داود من حديث سليمان بن موسى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [شهادة الخائن والخائنة، وذى الغمير على أخيه، ورد

شهادة القانع لأهل البيت، وأجازها لغيرهم]. قال الخطابي: ذو الغيمر هو الذي بينه وبين المشهود عليه عداوة ظاهرة فتردّ شهادته عليه للثمة. والقانع: السائل والمستطعم، وأصل القنوع السؤال. ويقال في القانع: إنه المنقطع إلى القوم يخدّمهم، ويكون في حوائجهم وذلك مثل الأجير، أو الوكيل ونحوه. ومعنى ردّ هذه الشهادة التهمة في جرّ المنفعة إلى نفسه. لأن القانع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم من نفع. وكل من جرّ إلى نفسه بشهادته نفعاً فشهادته مردودة كمن شهد لرجل على دارٍ هو شفيعها، أو كمن حكم له على رجل مدين وهو مفلس، فشهد المفلس على رجل بدين ونحوه. قال الخطابي بعد هذا: ومن ردّ شهادة القانع لأهل البيت بسبب جرّ المنفعة فقياس قوله: أن يردّ شهادة الزوج لزوجته لأن ما بينها من التهمة، في جرّ المنفعة أكثر وإلى هذا ذهب أبو حنيفة كما علمت. قلت: وإذا قبلها الله تعالى في الملاعنة، وهي أخطر شهادة، بها يهدم بيت الزوجية ووقوع في التهمة، وانتهاك للعرض، وحرمة على التأييد أفلا تقبل في عرض من الدنيا؟

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي نَزَّلَ
عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا»

سورة النساء (الآية: ١٣٦)

قال الكلبي: نزلت في عبدالله بن سلام، وأسد وأسيد ابني كعب، وثعلبة بن قيس وجماعة من مؤمني أهل الكتاب، قالوا يا رسول الله: إنا نؤمن بك وبكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وفي الخازن: زيادة على ما ذكره الواحدى عن الكلبي، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: بل آمنوا بالله وبرسوله محمد والقرآن وبكل كتاب كان قبله فأنزل الله تعالى هذه الآية. وكذا في الخطيب والغرائب، وقيل الخطاب للمسلمين كما في القرطبي. والظاهر أن الخطاب لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى والتوراة وبعيسى والانجيل. أي آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وبجميع الكتب المنزلة من قبل لا ببعضها فقط لأنّ طريق العلم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم هو المعجز، وإنه حاصل في الكل، فالخطاب لليهود

والنصارى أو «يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا» باللسان «آمِنُوا» بالقلب، فهم المنافقون. أو يا أيها الذين آمنوا باللائت والعزى آمِنُوا بالله، فهم المشركون «آمِنُوا بالله ورسوله»، أي داوموا على الإيمان بهما «و» داوموا على الإيمان بـ «الكتاب» القرآن «الذى نزل على رسوله» محمد صلى الله عليه وسلم «والكتاب الذى أنزل من قبل» على الرسل: أي جنس الكتاب. بمعنى الكتب «ومن يكفر بالله» .. الخ. الآية. فقد ضل عن الحق ضلالاً بعيداً بحيث يعسر العود منه إلى سواء الطريق. وزيادة الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لما أنه بالكفر بأحدهما لا يتحقق الإيمان أصلاً، وجميع الكتب والرسل لما أن الكفر بكتاب أو رسول كفر بالكل * وعبارة صاحب الغرائب: فإن قيل: لم ذكر في مراتب الإيمان أموراً ثلاثة: الإيمان بالله وبالرسل وبالكتب، وذكر في مراتب الكفر أموراً خمسة؟ أجيب بأن الإيمان بالثلاثة يلزم منه الإيمان بالملائكة واليوم الآخر لكتبه ربنا ادعى الانسان أنه يؤمن بالثلاثة. ثم إنه ينكر الملائكة واليوم الآخر لتأويلات فاسدة، فلما كان هذا الاحتمال قائماً نصّ على أن منكر الملائكة والقيامة كافر بالله. فإن قيل: لم قدّم في مراتب الإيمان الرسول على ذكر الكتاب وفي مراتب الكفر عكس الأمر، فالجواب: أنّ الكتاب مقدّم على الرسول في مرتبة المنزول من الخالق إلى الخلق، وأمّا في العروج فالرسول مقدّم على الكتاب * وبوجه آخر الرسول الأول هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والرسل عام له ولغيره. فلما خصّ ذكره أولاً للتشريف جعل ذكره تالياً لذكر الله لمزيد التشريف، ولبیان أفضليته صلى الله عليه وسلم.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِن تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ نَخَفُوا أَوْ تَعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا» سورة النساء (الآية: ١٤٨، ١٤٩)

في الواحدى : قال مجاهد : إن ضيفاً تضيف قوماً فأساؤا قراه فاشتكاهم، فنزلت هذه الآية رخصة في أن يشكوه وكذا في الخطيب والحاظن. وفيه، وقال مقاتل نزلت في أبى بكر الصديق، وذلك أن رجلاً نال منه، والنبي صلى الله عليه وسلم حاضر، فسكت عنه أبو بكر مراراً، ثم ردّ عليه، فقام النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر يا رسول

الله: شتمنى فلم تقل له شيئاً حتى إذا رددت عليه قت؟ قال [إن ملكاً كان يجيب عنك، فلما رددت عليه ذهب الملك، وجاء الشيطان فقامت] ونزلت هذه الآية. وليس في التفاسير أقوال غير ما ذكرت قوله تعالى: «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ» أي رفع الصوت بالسوء أتي بأحوال الناس المكتومة كغيبية ونميمة، فإن العاقل من اشتغل بعيوبه، والجهر ليس قيماً، بل مثله الاسرار بذلك، وإنما خص الجهر لأنه الذي كان سبباً للنزول فهو بيان للواقع فلا مفهوم له، والسبب (كما علمت) أن رجلاً أضاف قوماً فلم يحسنوا ضيافته، فلما خرج تكلم فيهم جهراً، وخصهم، وقوله: «مِنَ الْقَوْلِ» حال من السوء، وهو غير قيد أي من أحد فيعاقبه عليه. أي أن عدم المحبة منه تعالى كناية عن العقاب الذي هو غاية عدم المحبة لاستحالة المحبة التي هي الميل القلبي عليه تعالى. وقوله: «إِلَّا مَنْ ظَلِمَ» أي فلا يؤاخذ بالجهر به بأن يخبر عن ظلم ظالمه، ويدعو عليه دعاء جائزاً بأن يكون بقدر ظلمه فلا يدعو عليه بخراب دياره لأجل أخذ ماله منه. ولا يسب والده وإن كان هو فعل كذلك ولا يدعو عليه لأجل ذلك بالهلاك. بل يقول: اللهم خلص حق منه، أو اللهم جازه، أو كافئه، ولا يجوز أن يدعو عليه بسوء الخاتمة، أو الفتنة في الدين، فإن بعضهم منعه مطلقاً وهو الظاهر، وأجازه بعضهم إذا كان ظالماً متمرداً. وفي الخازن قال ابن عباس: لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً، فإنه قد أُرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله: «إِلَّا مَنْ ظَلِمَ» وإن صبر فهو خير له. وهذا مما يدل على أن الاستثناء منقطع. ومعناه لكن المظلوم يجوز أن يجهر بظلم الظالم. وقوله: «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً» فليتق الله ولا يقل إلا الحق ولا يقذف مستوراً، ثم حث على العفو بقوله: «إِنْ تَبَدُّوا خَيْراً أَوْ تُخَفُّوهُ» وهو إشارة إلى إيصال النفع «أَوْ تَعَفُّوا عَن سُوءٍ» وهذا إشارة إلى دفع الضرر. وعلى هذين تدور المعاشرة مع الخلق: «فَإِنْ اللَّهُ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا» قال الحسن: أي يعفو عن الجاني مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتلدوا بسنة الله، وقيل: عفو لمن عفا، قديرٌ على إيصال الثواب إليه، قال الكلبيُّ معناه إن الله أقدر على عفو ذنوبك منك على عفو صاحبك. وقوله: «إِنْ تَبَدُّوا خَيْراً أَوْ تُخَفُّوهُ» قد ذكر في حيز الشرط ثلاثة أشياء. وقوله: «فَإِنْ اللَّهُ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا» إنما يظهر كونه جزاءً للثالث. وقد أشار البيضاوي إلى الجواب عن ذلك بما حاصله. أن المقصود هو الثالث، والأولان ذكرا توطئة له، ونصه. إن تبدوا خيراً: طاعة وبراً. أو تخفوه: أي تفعلوه سراً. أو تعفوا عن

سوء. لكم المؤاخذة عليه، وهو المقصود، وذكر ابداء الحيز وإخفائه توطئة له، ولذلك رتب عليه قوله. فإن الله كان عفواً قديراً، أى ولم يزل ذا عفوم قدرته على الانتقام، فاعفوا أنتم عمن ظلمكم يعف عنكم يوم القيامة لأنه أهل للتجاوز والعفو عنكم * «وَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ».

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مَبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا»

سورة النساء (الآية: ١٥٣ - ١٥٦)

فى الواحدى : نزلت فى اليهود قالو للنبى صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبياً فأتنا الكتاب جملة من السماء كما أوتى به موسى. فأنزل الله تعالى هذه الآية * بل الآيات كما ذكره الطبرى عن محمد بن كعب القرظى. قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن موسى جاء بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك، فأنزل الله تعالى: يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء. إلى قوله: وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وما فى الواحدى قريباً منه فى ابن كثير وأبى السعود. وعبارة الخازن: يعنى يسألك يا محمد أهل الكتاب وهم اليهود، وذلك أن كعب بن الأشرف، وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبياً فأتنا بكتاب جملة واحدة من السماء كما أوتى موسى بالتوراة، وقيل: سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً مختصاً بهم، وقيل: سألوه أن ينزل

عليهم كتاباً إلى فلان وكتاباً إلى فلان ليشهدا لك بأنك رسول الله، وكان هذا السؤال من اليهود سؤال تعنت واقتراح لا سؤال استرشاد وانقياد. والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح العباد، ولأن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت قد تقدمت وظهرت، فكان طلب الزيادة من باب التعنت * وفي أبي السعود: ولو سأله لكى يبين الحق لأعطاهم * قوله تعالى: «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ» أى يسألك يا محمد اليهود: «أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ» جملة كما أنزل على موسى تعنتاً لا استرشاداً، وإلا لنزل كما طلبوا، فعاقبهم على هذا الوصف القائم به، والتعنت طلب الوقوع فى العنت أى المشقة، وفى المختار: وَالْعَتَتْ بفتحتين، الاثم. فإن استكثرت يا محمد ذلك فلا تبال بسؤالهم وتشطيطهم فإنها عادتهم «فَقَدْ سَأَلُوا» أى آباؤهم «مُوسَى أَكْبَرَ» أعظم «مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً» عياناً أى معانين له، وذلك أن سبعين رجلاً من بنى إسرائيل خرجوا مع موسى عليه السلام إلى الجبل، فبعد أن سمعوا كلام الله يخاطب به موسى قالوا: نريد أن نراه «فَأَخَذْتَهُمُ الصَّاعِقَةَ» الموت عقاباً لهم «بِظُلْمِهِمْ» حيث تعنتوا بالسؤال، وإنما كان سؤال الرؤية أكبر من سؤال تنزيل الكتاب جملة واحدة لأن تنزيله على ما ذكروا أمرٌ ممكن فى ذاته، بخلاف رؤية الله عياناً فإنها ممتنعة فى الدنيا: «ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ» أى إلهاً لهم، وهم الذين خلفهم موسى مع أخيه هارون حين خرج إلى ميقات ربه. وثم تفيد الترتيب للأخبار. أى ثم كان من أمرهم أن اتخذوا العجل. «مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ» فى البيئات وجوه. أحدهما: أن البيئات الصاعقة لأنها تدل على قدرة الله تعالى وعلى علمه وعلى قدمه، وعلى كونه مخالفاً للأجسام والأعراض، وعلى صدق موسى عليه السلام فى دعوى النبوة. وثانيها: أنها إنزال الصاعقة وإحياءهم بعد اماتتهم. وثالثها: أنها الآيات التسع من العصا واليد وقلق البحر. وغيرها. وفحوى الكلام: أن هؤلاء يطلبون منك يا محمد أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فاعلم أنهم لا يطلبون منك، إلاً عناداً ولجاجاً، فإن موسى عليه السلام قد أنزل عليه هذا الكتاب، وأنزل عليه سائر المعجزات الباهرة، ثم إنهم طلبوا الرؤية على سبيل العناد، وأقبلوا على عبادة العجل وكل ذلك يدل على أنهم مجبولون على اللجاج والعناد والبعد عن طريق الحق «فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ» حيث لم نستأصل عبدة العجل. أى أن أولئك الذين أجرموا من آباؤهم لما تابوا عفونا عنهم كل ما سلف من ذنوبهم فتوبوا أنتم نعف عنكم وقوله: «وَأَتَيْنَا

مُوسَى سُلْطَانًا مَبِينًا» تسلطاً بيناً ظاهراً عليهم حيث أمرهم بقتل أنفسهم توبة فأطاعوه. في المختار: السلاطة: . يقال سلط لكرم وسمع سلاطة وسلوة بالضم، وقد سلطه الله تسليطاً فتسلط عليهم، والسلطان: الوالى، والسلطان أيضاً الحجة والبرهان، ولا يثنى ولا يجمع لأن مجراه مجرى المصدر، أو المراد: قوة أمره وكمال حاله وانكسار خصومه فيه بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندونه فإنه بالأخرة يستولى عليهم و يقهرهم، ثم حكى عنهم سائر جهالاتهم وإصرارهم على أباطيلهم منها: **«وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مَبِينًا لَهُمْ»**، أى جبل الطور المعروف بفلسطين العربية، وذلك بسبب أخذ الميثاق عليهم ليخافوا فيقبلوه، وذلك أنهم امتنعوا من قبول شريعة التوراة، فرفع الله عليهم الطور فقبلوها. ومنها: **«وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا»**، أى دخولهم بيت المقدس ساجدين سجود انحناء. أى مطأطين الرؤوس فهو سجود تواضع وخضوع، فخالفوا ودخلوا زحفاً على أستاهم. ومنها: **«وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ»** باصطياد الحيتان. **«وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا»**، أى العهد المؤكدة غاية التوكيد على أن يتمسكوا بالتوراة ويعملوا بما فيها. وفي أبى السعود: قيل: إنهم أعطوا الميثاق على أنهم إن هموا بالرجوع عن الدين فالله يعذبهم بأى أنواع العذاب أراد: **«فَبِمَا نَقُضِهِمْ»** ما مزيدة للتوكيد أى فبنقضهم: **«مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ، وَقَوْلِهِمْ»** للنبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم: **«قُلُوبُنَا غُلْفٌ»** لا تعى كلامك: **«بَلْ طَبَعَ»** ختم: **«اللَّهُ عَلَيَّهَا بِكُفْرِهِمْ»**، فلهذا لا يصل أثر الدعوة والبيان إليها: **«فَلَا يُؤْمِنُونَ»** منهم: **«إِلَّا قَلِيلًا»** كعبد الله بن سلام وأصحابه: **«وَبِكُفْرِهِمْ»** ثانياً بعيسى عليه السلام. وتكرير ذكر الكفر إيذاناً بتكرار كفرهم، فإنهم كفروا بعيسى، ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام، فكانه قيل: فبجمعهم بين نقض الميثاق، والكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقولهم قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم: **«وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْتَمٍ بُهْتَانًا عَظِيمًا»**، حيث رموها بالزنا، فأنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من غير أب، ومنكر قدرة الله تعالى على ذلك كافر لأنه يلزمه أن يقول كل ولد مسبوق بوالد لا إلى مبدأ، وذلك يوجب القول بقدم العالم والدهر والقدر في وجود الصانع المختار. فقد ظهر لهم عند ولادة عيسى من الكرامات والمعجزات ما دلهم على براءتها من كل سوء. وذلك كما قصه الله علينا في سورة مريم عليها السلام * ولذلك فقد سمي الله رميها بالزنا بهتاناً عظيماً.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ
وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً» سورة النساء (الآية: ١٦٦)

في الواحدى : قال الكلبي في رواية عن ابن عباس : إن رؤساء أهل مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : سألنا عنك اليهود فزعموا أنهم لا يعرفونك ، فأتنا بمن يشهد لك أن الله بعثك إلينا رسولاً ، فنزلت هذه الآية : «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ...» الآية . وكذا في الخطيب . وفي الطبري عن ابن عباس قال : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من يهود ، فقال لهم : إني والله أعلم أنكم لتعلمون أني رسول الله . فقالوا : ما نعلم ذلك ، فأنزل الله : «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ...» الآية ، قال قتادة في والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً : شهود والله غير متهمة . وكذا في ابن كثير ، والحازن ، وفيه : في رواية عن ابن عباس أن رؤساء مكة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد : إنا سألنا عنك اليهود ، وعن صفتك في كتابهم فزعموا أنهم لا يعرفونك ، فأنزل الله عز وجل : «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ...» يعني إن جحد هؤلاء اليهود يا محمد وكفروا بما أوحينا إليك ، وقالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء فقد كذبوا فيما ادعوا فإن الله يشهد لك بالنبوة ، ويشهد بما أنزل إليك من كتابه ووحيه ، وقوله : «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ» لا بد له من مستدرك لأن لكن لا يبتدأ به ، وفي ذلك المستدرك وجهان : أحدهما أن هذه الآيات بأسرها جواب عن قول اليهود : لو كان نبياً لنزل عليه الكتاب جملة .. وكزعمهم ذلك يتضمن أن هذا القرآن ليس كتاباً نازلاً عليه من السماء . فلا جرم قيل : لكن الله يشهد بأنه نازل عليه من السماء . الثاني : أنه تعالى لما قال : إنا أوحينا إليك ، قال القوم : نحن لا نشهد لك بذلك فنزل : «لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ» ومعنى شهادة الله انزال القرآن بحيث عجز عن معارضته الأولون والآخرون أى يشهد لك بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذى أنزله إليك ، ثم فرس ذلك وأوضح بقوله : «أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ» أى أنزله متلبساً بعلمه .. الخ . الذى لا يعلمه غيره ، أو بسبب علمه الكامل : «وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ» لأنهم لا يسبقونه بالقول ، فشهادته تستتبع شهادتهم ، ومن صدقه رب العالمين وملائكة السموات والأرضين لم يلتفت إلى

تكذيب أحسن الناس إياه : «وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً» أى على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة، وحججاً ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها. ففيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن شهادة أهل الكتاب له، فإن الله يشهد له وملائكته كذلك.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خيراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً» سورة النساء (الآية: ١٧١)

في الواحدي: نزلت في طوائف من النصارى حين قالوا: عيسى ابن الله، فأنزل الله تعالى «لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ..» الآية وكذا في الخازن ونحوهما في بقية التفاسير. وقوله تعالى: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا» أي تجاوزوا الحدَّ «في دينكم» الخطاب للفريقين: غلّت اليهود في حق عيسى حتى رموه بالزنا. والنصارى في رفعه حتى اتخذوه إلهاً. وقيل: الخطاب للنصارى خاصة، والمراد بالكتاب الإنجيل فإنه أوفق، وهذا ما جرى عليه الجلال، أي فالكتاب عام مراد به خاص، وكذا أهل الكتاب المراد بهم النصارى، فكل منها عام مراد به خاص. وذلك لأن ما بعده يدل لذلك «وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا» الْقَوْلُ «الْحَقَّ» من تنزهه عن الشريك والولد. «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ» أي أنه تكوّن بكلمته وأمره الذي هو كن من غير واسطة أب ولا نطفة «أَلْقَاهَا» أوصلها «إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ» أي ذوروح «مِنْهُ» أضيف إليه تعالى تشرifaً له، وليس كما زعمت ابن الله، أو إلهاً معه، أو ثالث ثلاثة لأنّ ذا الروح مركب والإله منزّه عن التركيب، وعن نسبة المركب إليه، وإنما سمي روحاً لأنه حصل من الريح الحاصل من نفخ جبريل عليه السلام في جيب درع مريم عليها السلام فوصل النفخ إلى فرجها فحملت به. ومن ابتدائية لا تبعيضية كما زعمت النصارى، وهي متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح، أي كائنة من جهته تعالى. وجعلت منه، وإن كانت بنفخ جبريل عليه السلام لكون النفخ بأمره تعالى. حكى أن طبيباً حاذقاً نصرانياً جاء للرشيد، فناظره على

بن الحسين الواقدي ذات يوم، فقال له: إنَّ في كتابكم ما يدلّ على أنّ عيسى جزء من الله، وتلا هذه الآية، فقرأ له الواقدي: «وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ» فقال: إذا يلزم أن تكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه سبحانه!! فانقطع النصراني، وأسلم وفرح الرشيدي فرحاً شديداً وأعطى للواقدي حلة فاخرة. «آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» كما آمن النَّاسُ «وَلَا تَقُولُوا» الآلهة «ثَلَاثَةٌ» الله وعيسى وأمه. واعلم أنّ أصناف النصارى أربعة: اليعقوبية، والملكانية، والنسطورية، والمرقوسية:

فأمّا اليعقوبية والملكانية: فقالوا في عيسى: إنّه الله!!.

وقالت النسطورية: إنّه ابن الله!!.

وقالت المرقوسية: ثالث ثلاثة!! وقيل إنهم يقولون: إنّ عيسى جوهر واحد. ثلاثة أقانيم: اقنوم الأب، وأقنوم الابن. وأقنوم روح القدس. وأنهم يريدون بأقنوم الأب: الذات. وبأقنوم الابن: عيسى. وبأقنوم روح القدس: الحياة الحالة فيه فتقديره عندهم. الإله ثلاثة. وقيل: إنهم يقولون في عيسى ناسوتية وألوهية: فناسوتيته: من قبل الأم. وألوهيته: من قبل الأب. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

يقال: إن الذي أظهر هذا للنصارى رجل من اليهود يقال له: بولص. تنصّر ودس هذا في دين النصارى ليضلّهم بذلك ولذا قال لهم: «انتهوا خيراً لكم» أي ليكن الانتهاء عن هذا القول خيراً لكم من القول بالتثليث المبدع «إنّا الله إله واحد» فهو سبحانه وتعالى منزّه عن التثليث وعن الولد «سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ»!!! أي لا ينبغي أن يكون له ولد لأن الولد جزء من الأب، وتعالى الله عن التجزئة، وعن صفات الحدوث «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» خلقاً وملكاً وعبيداً وعيسى ومريم من جملة من فيها، فهما عبيده وملكه. فإذا كانا عبدين له فكيف يعقل مع هذا أن له ولداً وزوجة!!! ومن الذي يقول إنّ المُلْكَ جزء من المالك؟ كما أن التجزئة إنما تصح في الأجسام والله تعالى منزّه عن صفات الأعراض والأجسام «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» «وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا» أي شهيداً على ذلك، ومستقلاً بتدبير خلقه فلا حاجة له إلى ولد يُعيّنه. ثم ساق الله تعالى الآيات مبيناً فيها عبودية عيسى عليه السلام. وكذا غيره من المخلوقين ومنهم الملائكة الكرام فقال: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ..» الآية.. التي نحن في صدد بيان نزولها.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا»
سورة النساء (الآية: ١٧٢)

في الواحدي: قال الكلبي: إن وفد نجران قالوا يا محمد: لِمَ تَعِبَ صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى. قال: وأي شيء أقول فيه؟ قالوا: إنه عبد لله ورسوله. فقال لهم: إنه ليس بعار لعيسى أن يكون عبداً لله. قالوا: بلى. فنزلت «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ..» الآية وكذا في الخازن. وما عداها لا يوجد فيها شيء زائداً على ما ذكرنا. قوله: «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ» الاستنكاف الأنفة والترفع من نكفت الدمع إذا نحيت عن وجهك بالأصبع، والتكف: العدول والامتناع عن الشيء أنفة كبراً. والمفسرون يقولون: الاستنكاف والاستكبار واحد والاستكبار أن يتكبر ويتعظم: أي ليس يستنكف الذي يزعمون أنه إله أن يكون عبداً لله. «وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ» وهم أكبر من البشر، لا يستنكفون أن يكونوا عبيداً، وهذا من أحسن الاستطراد ذكر للرد على من زعم أنها آلهة، أو بنات الله، ولا يخفى أن الاستطراد هو الانتقال من معنى إلى معنى آخر متصلاً به، ولم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني. وعليه قوله تعالى: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا..» الآية هذا أصله. وقد يكون هو المقصود في ذكر الأول قبله ليتوصل إليه كما هنا، فيكون من الإسطراد الحسن. «وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا» في الآخرة وجميعاً حال من الهاء في يحشرهم أو توكيد له. والفاء في قوله: «فَسَيَحْشُرُهُمْ» يجوز أن تكون جواباً للشرط في قوله: وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ» أي ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فيعذبه عند حشره إليه ومن لم يستنكف ولم يستكبر فيثيبه. والضمير في فسبحشهرهم يرجع إلى عموم الناس، ومنهم عيسى وأمه، فلوا كانا إلهين لما حسن حشرهما مع الناس، فتبين أنها مخلوقان لله وأنها من جنس البشر يقع عليها ما يقع على البشر من الصحة والمرض، والغنى والفقر، والحشر والنشر والحساب والثواب.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُؤُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَالدُّ وَلَهُ
أُخْتُ فَلَهَا نِصْفٌ مِمَّا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَالدُّ فَإِنْ كَانَتَا
أُنثَىٰ فَلَهُمَا التُّلْتَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ
مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»

سورة النساء (الآية: ١٧٦)

في الواحدي: حدث الزبير عن جابر قال: اشتكيت، فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندى سبع أخوات، فنفخ في وجهي، فأفقت، فقلت يا رسول الله: أوصي لأخواتي بالثلثين؟ قال: اجلس، فقلت: الشطر، قال: اجلس. ثم خرج فتركني. قال: ثم دخل علي وقال: يا جابر إني لا أراك تموت في وجعك هذا. إن الله قد أنزل فيبين الذي لأخواتك الثلثين. وكان جابر يقول: نزلت في «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ...» الآية. وفي الخازن: روى الشيخان عن جابر بن عبد الله قال: مرضت فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه يعودان ماشيين، فأغمى علي، فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صب علي من وضوئه، فأفقت، فإذا النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، كيف أصنع في مالي؟ كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد علي شيئاً حتى نزلت آية الموارث «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ...» وفي الطبري: عن قتادة: أن الصحابة أهمهم شأن الكلاله فسألوا عنها النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية. وهكذا الأقوال في بقية التفاسير قوله: «يَسْتَفْتُونَكَ» في الكلاله والمستفتي في الكلاله هو جابر لما عاده النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه كما علمت «قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ» متعلق بيفتيكم على إعمال الثاني. تقدم في البقرة أن الكلاله ما عدا الوالد والولد من القرابة وقيل الإخوة من الأم. والمعنى: يطلبون منك أيها النبي الفتيا فيمن يُورث كلاله كجابر بن عبد الله ليس له والد ولا ولد، وله أخوات من العصبه لم يفرض لهنَّ شيء في التركة من قبل، والآية حجة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه القائل فيها: الكلاله ما عدا الوالد والولد. وإنما فرض للأخوة من الأم السدس للواحد منهم، والثالث لما زاد على الواحد. وهم شركاء فيه مهما كثروا لأن ميراث أهمهم ليس لها سواه.

فقل لهم جواباً عمّا سألتهم عنه: «إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ» أي ان امرؤ مات غير ذي ولد، وترك أختاً شقيقة أو من أبيه فقط فلها نصف التركة «وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ» أي يأخذ جميع تركتها إذا لم يكن لها ولد ذكر ولا أنثى. ولا والد يحجبه عن إرثها. «فَإِنْ كَانَتَا أُثْنَيْنِ فَلَهُمَا الشُّلْثَانِ مِمَّا تَرَكَ» أي فإن كان للأخ الميت أختان فما فوق فيأخذن ثلثي التركة «وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» أي وإن كان من يرث بالأخوة كلاله: ذكوراً وإناثاً. فتقسم التركة بين الجميع للذكور مثل حظ الأنثيين كما هي القاعدة في كل صنف اجتمع منه أفراد في درجة واحدة. إلا أولاد الأم فإنهم شركاء في سُدُوسِ أمهم لخلوهم محلها. ولولا ذلك لم يرثوا. إذ هم ليسوا من عصبه الميت. «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا» أي يبين الله لكم أمور دينكم كراهة أن تضلوا. أي لتتقوا بمعرفتها الضلال في قسمة التركات وغيرها. «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» فهو لم يشرع لكم من الأحكام إلا ما علم أن فيه الخير لكم. وذلك شأنه جل جلاله في كل ما شرع من أحكام، فكلها موافقة للحكمة. دالة على واسع العلم، وعظيم الرحمة، فيكون بيانه حقاً وتعريفه صدقاً. ختم هذه السورة ببيان كمال العلم كما أنه ابتدأها بكمال القدرة فبها تم الإلهية، ويحصل الترهيب والترغيب للعاصي والمطيع، والحمد لله في الإبتداء والانتها. آخر سورة النساء.

* (سورة المائدة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها) *

* (القول في سبب نزول قوله تعالى :) *

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ
وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَتَفَعُونَ فُضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا
وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ
وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ»

سورة المائدة (الآية: ٢)

في الواحدي: قال ابن عباس: نزلت في الحطيم، واسمه شريح بن ضبيح الكندي،
أتى النبي صلى الله عليه وسلم من اليمامة إلى المدينة فخلف خيله خارج المدينة، ودخل
وحده على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إلام تدعو الناس؟ قال: إلى شهادة أن لا إله
إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فقال: حسن إلا أن لي أمراء لا تقطع أمراً دونهم.
ولعلني أسلم وأتى بهم. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: يدخل عليكم
رجل يتكلم بلسان شيطان؟؟ ثم خرج من عنده، فلما خرج قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم: لقد دخل بوجه كافر وخرج بعقبى غادر، وما الرجل مسلم. فربسرح المدينة
فاستاقه، فطلبوه فعجزوا عنه، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام القضية سمع
تلبية حجاج اليمامة، فقال لأصحابه: هذا الحطيم وأصحابه وكان قد قلد هدياً من سرح
المدينة، وأهدى إلى الكعبة، فلما توجهوا في طلبه أنزل الله تعالى «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ» يريد ما أشعر الله وإن كانوا على غير دين الإسلام. وكذا في الغرائب
والخازن. وفيه: لقد دخل بوجه كافر وخرج بقفا غادر، وما الرجل بمسلم، فربسرح من
سرح المدينة، فاستاقه وانطلق به، وهو يرتجز ويقول:

قد لقيها بالليل سواق حطم
ليس براعى إبل ولا غم
ولا يجزار على ظهر وضم
بأثونياماً وابن هند لم يم
بات يقاسها غلام كالزلم
خدلج الساقين ممسوح القدم

يجب أن يكون مخدج حتى لا ينكسر البيت، فتبعوه فلم يدركوه. فلما كان العام القابل خرج شريح حاجاً مع حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة، وقد قلد الهدى، فقال المسلمون يا رسول الله: هذا الحطم قد خرج حاجاً فخلّ بيننا وبينه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إِنَّهُ قَلَدٌ الْهُدَى. فقالوا: يا رسول الله هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية، فأبى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ..» قال ابن عباس: هي المناسك. كان المشركون يحجون ويهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك في الغرائب والواحدى: وقال زيد بن أسلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالحديبية حين صدهم المشركون. وقد اشتد ذلك عليهم، فزبرهم ناس من المشركين يريدون العمرة. فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: نصدّ هؤلاء عن البيت كما صدنا أصحابهم فأنزل الله «لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ..» الآية. أي لا تعتدوا على هؤلاء العمار إن صدكم أصحابهم. قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ» جمع شعيرة. وقد علمت أنّ ابن عباس قال في الشعائر: هي المناسك. وقيل: الشعائر الهدايا المشعرة، وإشعارها أن يطعن في صفحة سنام البعير بحديدة حتى يسيل دمه. فيكون ذلك علامة على أنّه هدى، وهو ستة في الإبل والبقر دون الغنم. وعند أبي حنيفة لا يجوز إشعار الهدى. بل وفي رواية عن ابن عباس قال في معنى الآية: «لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ» هي أن تصيد وأنت محرم. وقيل: شعائر الله. شرائع الله، ومعالم دينه. والمعنى: لَا تَحْلُوا شَيْئاً من فرائضه التي فرضها عليكم. ولا من نواهيه التي نهاكم عنها. قال أبو حيان: والشعائر هي ما حرم الله مطلقاً سواء كان في الإحرام، أو في غيره، والمعطوفات الأربعة (ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا أمين البيت الحرام) بعده مندرجة في عموم قوله: «لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ» فكان ذلك تخصيصاً بعد تعميم. فالشهر الحرام: شهر الحج، أعنى ذا الحجة، أو المراد رجب وذوالقعدة، وذوالحجة والمحرم، وعبر عنها بلفظ الواحد اكتفاء باسم الجنس. أي لا تحلوا القتال في هذه الأشهر. والهدى: ما أهدى إلى بيت الله، وتقرب به إلى الله من النسائك. جمع هدية. والقلائد: جمع قلادة وهي ما قلده به الهدى من نعل أو عروية مزادة، أو لحاء شجر الحرم، والمراد لا تحلوا ذوات القلائد من الهدى. ولا أمين: قاصدين البيت أي ولا تحلوا قتال قوم. أو ذى قوم قاصدين البيت للحج أو العمرة. وفي الخازن:

وقيل: أراد أصحاب القلائد: وذلك العرب في الجاهلية كانوا إذا أرادوا الخروج من الحرم
 قلدوا أنفسهم وإبلهم من لحاء شجر الحرم. فكانوا يأمنون بذلك فلا يتعرض لهم أحد،
 فنهى الله المؤمنين عن ذلك الفعل، ونهاهم عن استحلال نزع شيء من شجر الحرم
 فالمعنى: على هذا: لا تحلوا أخذها من شجر الحرم وفي القرطبي: والقلائد: ما كان
 الناس يقلدونه أمانة لهم. فهو على حذف مضاف أي ولا أصحاب القلائد. وقيل: أراد
 بالقلائد نفس القلائد، فهو نهى عن أخذ لحاء شجر الحرم حتى يتقلد به طلباً للأمن قاله
 مجاهد وعطاء وغيرهما، وللمفسرين خلاف في الآية. فذهب كثير منهم كابن عباس
 ومجاهد والحسن والشعبي وقتادة إلى أنها منسوخة. وذلك أن المسلمين والمشركين كانوا
 يحجون جميعاً، فنهى المسلمون أن يمنعوا أحداً عن حج البيت بقوله: «لا تُحلُّوا»، ثم نزل
 بعد ذلك «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» «مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ»
 وهؤلاء فسروا ابتغاء الفضل بالتجارة، وابتغاء الرضوان بأن المشركين كانوا يظنون في
 أنفسهم أنهم على شيء من الدين وأن الحج يقرهم إلى الله بظنهم «يَبْتَغُونَ فَضْلاً» رزقاً
 «مِنْ رَبِّهِمْ» بالتجارة «وَرِضْوَاناً مِنْهُ» بقصده بزعمهم الفاسد. وقال آخرون: إنها
 محكمة: وأنه تعالى أمرنا أن لا نخيف من يقصد بيته من المسلمين بدليل قوله تعالى:
 «يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ» أي ثواباً «وَرِضْوَاناً» أي يرضى عنهم. وهذا إنما يليق بالمسلم
 لا بالكافر. وقال أبو مسلم: المراد بالآية الكفار الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله
 عليه وسلم. فلما زال العهد بسورة براءة زال ذلك الخطر. قلت: وفي ابن كثير: وقد حكى
 ابن جرير الاجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان، وإن أم البيت الحرام، أو
 بيت المقدس، وأن هذا الحكم منسوخ في حقهم، والله أعلم. فأما من قصده بالإلحاد فيه
 والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ
 فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا»، ولهذا بعث رسول الله صلى الله عليه
 وسلم عام تسع لما أمر الصديق على الحجيج علياً وأمره أن ينادى على سبيل النياحة عن
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت
 عريان. وقوله: «وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا»، ظاهر الأمر للوجوب. إلا أنه يفيد ههنا
 الإباحة لأنه لما كان المانع من حل الاصطياد هو الإحرام رجع إلى أصل الإباحة. أي
 إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتهم منه فقد أجبنا لكم ما كان محرماً عليكم في حال الإحرام

من الصيد. وقال علماء الأصول: إنَّ هذا الأمر يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي. فإن كان واجباً رده واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب. أو مباحاً فباح. وقوله «ولا يجرمَنَّكُمْ» معطوف على لا تحلُّوا. وجرم بمعنى كسب من حيث المعنى. ومن حيث تعديه إلى مفعول واحد تارة وإلى مفعولين أخرى. تقول: جرم ذنباً نحو كسبه، وجرمته ذنباً كسبته إيَّاه. وهذا هو المذكور في الآية. وعبارة المفسرين: أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل، فإن العدل واجب في كل أحد. وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأرض. وعلى القول الأول: «ولا يجرمَنَّكُمْ» يكسبَنَّكُمْ «شَتَّانَ» بغض «قَوْمٍ» لأجل «أَنْ صَدَّدْتُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا» عليهم بالقتل وغيره. وقوله «ولا يجرمَنَّكُمْ» نهي. فإن الذين يصدون المسلمين عن دخول مكة كانوا كفاراً حربيين. فكيف ينهى عن التعرض لهم وعن مقاتلتهم الله إلا إذا كان هذا النهي منسوخاً أو يقال: إن النهي عن التعرض لهم بسبب عقد الصلح الذي وقع في الحديبية فصاروا به مؤمنين، وعلى هذا الأساس لا يجوز التعرض لهم. وشَتَّانَ مأخوذ من شئء المتعدى كعلم. يقال: شنت الرجل أشنته أي بغضته، وهذا المصدر سماعي مخالف للقياس من وجهين: تعدى فعله وكسر عينه لأنه لا ينقاس إلا في مفتوحها اللازم كما قال في الخلاصة. وفعل اللازم مثل قعده «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ» أي فعل ما أمرتم به «وَالْتَقَوَى» على العفو والاغضاء أو على كل ما يعدُّ برّاً وتقوى. أي بترك ما نهيتم عنه «وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ» المعاصي «وَالْعَدْوَانِ» الانتقام والتشني، أو على كل ما يورث الإثم والتجاوز عن الحد. والحاصل: إن الباطل والإثم لا يصلح لأن يقتدى به، ويعان عليه، وإنما اللائق بالاعتداء به والتعاون عليه هو الخير والبر وما فيه تقوى الله سبحانه وتعالى، ثم بالغ في هذا المعنى بقوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» أي في استحلال محارمه «إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» لمن خالفه في أوامره ففيه وعيد وتهديد عظيم

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِيمَانِهِ
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٣)

في الواحدى: والخطيب: قال المفسرون: نزلت هذه الآية يوم الجمعة. وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر، والنبي صلى الله عليه وسلم بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق من ثقلها فبركت. قال طارق بن شهاب: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين: إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً فقال: أي آية هي؟ قال: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي» فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التي نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم: عشية يوم عرفة، في يوم عرفة، في يوم الجمعة. رواه البخارى عن الحسن بن صباح. ورواه مسلم عن عبدالله بن حيمد، كلاهما عن جعفر بن عوف. وحدث حماد عن عباد بن أبي عمارة قال: قرأ ابن عباس هذه الآية، ومعه يهودى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» فقال اليهودى: لو نزلت هذه علينا في يوم لاتخذناه عيداً. فقال ابن عباس: فإنها نزلت في عيدين اتفقا في يوم واحد، يوم الجمعة وافق ذلك يوم عرفة. انتهى الواحدى. وفي أبى السعود: لما نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك يا عمر؟ قال أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فإذا قد كمل، وأنه لا يكمل شيء إلا نقص. فقال عليه الصلاة والسلام: صدقت. فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما لبث بعد ذلك إلا أحداً وثمانين يوماً قلت: وانتقل عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة إلى جوار ربّه عز وجل يوم الإثنين بعد ما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة. وقيل: في يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول وكانت هجرته في الثاني عشر منه. وفي القرطبي: وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين كان بمكة لم تكن إلا فريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة

أنزل الله عليه الحلال والحرام إلى أن حج، فلما حج وكمل الدين نزلت هذه الآية: «اليوم أكملت لكم دينكم..» الآية. وفي الخازن: قال ابن عباس: إن في ذلك اليوم خمسة أعياد: يوم جمعة، ويوم عرفة، وعيد لليهود، وعيد للنصارى، وعيد للمجوس. ولم تجتمع أعياد لأهل الملل في يوم واحد قبله ولا بعده. وأما تفسير الآية: فقوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم» يعني بالفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام، ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام، ولا شيء من الفرائض. هذا معنى قول ابن عباس: وقال سعيد بن جبيرة وقتادة: معنى أكملت لكم دينكم، أي حيث لم يحج معكم مشرك. وخلا الموسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين. فيكون المعنى: بأن كفيتمكم خوف عدوكم وأظهرتمكم عليهم. كما يقول الملوك: اليوم كمل لنا الملك. أي كفيتمنا من كنا نخافه. وقيل: اكتمال الدين لهذه الأمة أنه لا يزول ولا ينسخ. وأن شريعتهم باقية إلى يوم القيامة، وقال ابن الأنباري: اليوم أكملت لكم شرائع الإسلام على غير نقصان كان قبل هذا الوقت، وذلك أن الله تعالى كان يتعبد خلقه بالشيء في وقت، ثم يزيد عليه في وقت آخر، فيكون الوقت الأول تاماً في وقته، وكذلك الوقت الثاني تاماً في وقته، فهو كما يقول القائل: عندى عشرة كاملة، ومعلوم أن العشرين أكمل منها، والشرائع التي تعبد الله بها عباده في الأوقات المختلفة مختلفة، وكل شريعة منها كاملة في وقت التعبد بها، فكمّل الله عزّ وجلّ الشرائع في اليوم الذي ذكره، وهو يوم عرفة، ولم يوجب ذلك أنّ الدين كان ناقصاً البتة، بل كان أبداً كاملاً إلا أن الأول كمال إلى يوم مخصوص، والثاني كمال إلى يوم القيامة، فلأجل هذا المعنى قال: «اليوم أكملت لكم دينكم» هـ ويقال أيضاً: رأيت نقصان الشهر هل يكون عيباً؟ ونقصان صلاة المسافر أهو عيب لها؟ ونقصان العمر الذي أراده الله بقوله «وما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ» أهو عيب له؟ ونقصان أيام الحيض عن المعهود، ونقصان أيام الحمل... لما أنكرت أن نقصان أجزاء الدين في الشرع قبل أن تلحق به الأجزاء الباقية في علم الله تعالى؟ هذه ليست بشيء ولا عيب، روى ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: أخبر الله نبيه والمؤمنين أنّه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً. وقد أتمه فلا ينقص أبداً. وقد رضىه فلا يسخط أبداً. وقوله «وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين، وهدم منار الجاهلية وإبطال منا سورها، وأن لم يحج

معكم مشرك، ولم يطف بالبيت عريان. «وَرَضِيْتُ» اخترت لكم الإسلام ديناً من بين الأديان، وهو الذي عند الله لا غيره ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وقوله تعالى: «فَمَنْ اضْطُرَّ» متصل بذكر المحرمات. أى فى قوله تعالى: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ..» وما بينها اعتراض بما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناوله فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل، والنعمة التامة، والإسلام المرضي. يعنى فن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات وكان «فى مَحْمَصَةٍ» أى جماعة حال كونه «غَيْرَ مُتَجَانِفٍ» أى مائل متعمد «الإثم» معصية «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» له لما أكل مما حرم عليه فى الآية المتقدمة: «رَحِيمٌ» به فى إباحته له بخلاف المائل لاثم أى المتلبس به كقاطع الطريق والباغى مثلاً فلا يحل له الأكل. أى إذا كانا مسافرين. أما إذا كانا مقيمين فلها الأكل منها عند الاضطرار. «فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ».

(القول فى سبب نزول قوله تعالى :)

«يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ يَعْلَمُونَهنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»
سورة المائدة (الآية : ٤)

فى الواحدى: قال أبورافع: أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب. فقال الناس يا رسول الله: ما أحل لنا من هذه الأمة التى أمرت بقتلها؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: وهى «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ» رواه الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه عن أبى بكر بن بالويه عن محمد بن سادان، عن يعلى بن منصور، عن ابن أبى زائدة. وذكر المفسرون شرح هذه القصة فقالوا: قال أبورافع: جاء جبريل عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وسلم واستأذن عليه، فأذن له فلم يدخل، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قد أذننا لك يا رسول الله. فقال: أجل يا رسول الله، ولكننا لن ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب. فنظروا فإذا فى بعض بيوتهم جرو، قال أبورافع: فأمرنى ألا أدع كلباً بالمدينة إلا قتلته حتى بلغت العوالى، فإذا امرأة عندها كلب يحرسها فرحمها فتركته، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأمرنى بقتله، فرجعت إلى الكلب فقتلته، فلما أمر رسول الله

صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب جاء ناسٌ فقالوا يا رسول الله: ماذا يحلُّ لنا من هذه الأمة التي تقتلها؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلما نزلت أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها. ونهى عن إمساك ما لا ينفع فيه منها. وأمر بقتل الكلب الكلب والعقور، وما يضرُّ ويؤذى، ورفع القتل عمًّا سواهما وما لا ضرر فيه. وقال سعيد بن جبيرة: نزلت هذه الآية في عدى بن حاتم وزيد بن المهلهل: الطائين، وهوزيد الخليل: الذي سماه الرسول صلى الله عليه وسلم زيد الخير. فقالا يا رسول الله: إننا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فإن كلاب آل درع وآل حورية تأخذ البقر والحمر والظباء والضب، فنه ما يدرك زكاته، ومنه ما يقتل فلا يدرك زكاته، وقد حرم الله الميتة، فاذا يحلُّ لنا منها؟ فنزلت هذه الآية «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ؟» «قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ» يعني الذبائح «وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ» يعني وصيد ما علمتُم من الجوارح، وهي الكواشب من الكلاب وسباع الطير. انتهى الواحدي. وما في الواحدي في الغرائب بحروفه، وقريب من ذلك في الخازن، وذكر اسماء الناس بقوله: فدخل عاصم وسعد بن أبي خيشمة وعم بن ساعدة على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ماذا أحلَّ لنا؟ فنزلت «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ..» ومثله في الطبري مع عدم ذكر لأسماء. أمَّا التفسير: فقوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ» أي يسألك أصحابك يا محمد ما الذي أحلَّ لهم أكله من المطاعم والمآكل، كأنهم لما تلا عليهم من خبائث المآكل ما تلا، سألوهم عما أحلَّ لهم: تلك عبارة الخازن. أي كأنهم حين تلى عليهم ما حرم عليهم من خبيثات المآكل سألوهم عما أحلَّ لهم، والسؤال في معنى القول، وإنما لم يقل ماذا أحلَّ لنا على حكاية قولهم نظراً إلى ضمير الغائب في يسألونك، ومثل هذا يجوز فيه الوجهان. تقول: أقسم زيد ليفعلن، أو لأفعلن. والسؤال من المؤمنين «مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ» من الطعام «قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ» المستلذات عند أصحاب الطباع السليمة، وهذا مقيد بما لم يرد نص بتحريمه من كتاب أو سنة أو إجماع ولا قياس كذلك، والمراد ما ذبح على اسم الله عز وجل فالآية الكريمة نصاً فيما يحل ويحرم من الأطعمة. وأعلم أن الأصل في الأعيان الحل لأنها خلقت لمنافع العباد: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» واستثنى من ذلك أصول: الأول: تنصيص الكتاب على تحريمه كالميتة والدم.. وغيرهما كما هو منصوص عليه في الكتاب العزيز. الثاني: تنصيص السنة كما روى عن جمع من الصحابة

أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عام خبير عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية
 والبغال والحمير. ولا تحرم الخيل عند الشافعي لما روى عن جابر أنه قال: نهانا رسول الله
 صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل. الثالث: ما هو في معنى
 المنصوص كالنبيذ فإنه مسكر كاخمر فيشاركها في التحريم. الرابع: كل ذى ناب من
 السباع وذى مخلب من الطيور، فيدخل تحت هذا الأصل الكلب والأسد والذئب والنمر
 والفهد والدب والقرد والفيل لأنها تعدو بأنبيائها، ولا يحل من الطيور البازي والشاهين
 والصقر والعقاب وجميع جوارح الطير. الخامس: ما أمر بقتله من الحيوانات فهو حرام لأن
 الأمر بقتله إسقاط لحرمته ومنع من اقتنائه ولو كان مأكولاً لجاز اقتناؤه للتسمين وإعداده
 للأكل وقت الحاجة. ومنه الفواسق الخمس، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [خمس
 فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والفأرة والغراب الأبقع والكلب والحدأة].
 السادس: ما ورد النهي عن قتله فهو حرام لأنه لو كان مأكولاً لجاز ذبحه ليؤكل كما روى
 أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الخطاطيف، وكذا الصرد والتملة والنحلة والهدهد
 والحفاش. السابع: الاستطابة والاستخبثات لقوله تعالى: «**قُلْ أَحِلٌّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ**»
 قال العلماء: فيبعد الرجوع إلى طبقات الناس، وتنزيل كل قوم على ما يستطيعون
 ويسخبتون لأن ذلك يوجب اختلاف الأحكام في الحل والحرم. وذلك يخالف موضوع
 الشرع، فالعرب أولى أمة بالاعتبار لأن الدين عربى وهم المخاطبون أولاً، وليس لهم ترفه
 وتنعم يورث تضيق المطاعم على الناس، ولكن المعتبر استطابة سكان القرى، والبلاد
 دون أجلاف البوادي الذين لا تميز لهم. وأيضاً يعتبر أصحاب اليسار والترفه دون
 أصحاب الضرورات والحاجات. وأيضاً المعتبر حال الخصب والرفاهية دون حال الجذب
 والشدة. والحشرات بأسرها مستخبثة كالذباب والخنفساء والجعلان وحمارقان إلا
 الضب فإنه صلى الله عليه وسلم قال: [لا آكله ولا أحرّمه] وفي رواية [لكن نفسى
 تعافه]. وقوله: «(و)» أحل لكم صيد «**مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ**» الكواسب من الكلاب
 والسباع والطيور إذا كنتم «**مُكَلِّبِينَ**» لها. حال من كلبت الكلب إذا علمته على الصيد،
 وهو مراد في الكلام لدلالة الباقي عليه ولأنهم سألوا عن الصيد. والجوارح جمع جارحة،
 وهى الكواسب من السباع والطيور كالفهد إلى آخر ما قدمته لك، وسميت جوارح من
 الجرح لأنها تجرح الصيد عند امساكه وقوله: «**تَعَلَّمُونَهُنَّ**» أي تؤدبونهنَّ «**مِمَّا عَلَّمَكُمُ**»

الله» من علم التكليب لأن بعضه إلهام من الله تعالى، أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وانزجاره بزجره، واعلم أنه يعتبر في صيرورة الكلب معلماً أمور. منها: أن ينزجر بزجر صاحبه في ابتداء الأمر، وكذا إذا انطلق واشتد عدوه وحدته يشترط أن ينزجر بزجره أيضاً على الأشبه فيه يظهر التأدب. ومنها أن يسترسل باسترسال صاحبه. أي إذا أغرى بالصيد هاج. ومنها: أن يمسك الصيد لقوله: «فَكُلُّوا مِمَّا أَمْسَكَنَ عَلَيْكُمْ» وفي هذا اعتبار وصفين أحدهما أن يخطفه ولا يخليه. والثاني: أن لا يأكل منه لقوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم: [فإن أكل فلا تأكل منه، فإنما أمسكه على نفسه] وجوارح الطير يشترط فيها أن تهيج عند الاغراء، وأن تترك الأكل، ولكن لا مطمع في انزجارها بعد الطيران. ويشترط عند الشافعي تكرار هذه الأمور بحيث يغلب على الظن تأديب الجارحة بها، وأقله ثلاث مرات، ولم يقدر الأكثرون عددة المرات، كأنهم رأوا العرف مضطرباً وطباع الجوارح مختلفة فيرجع إلى أهل الخبرة بطباعها، وعن سلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص وابن عمرو وأبي هريرة: أنه يحل، وإن أكل. فعندهم الإمساك هو أن يحفظه ولا يتركه. ومعنى الآية: كلوا ما تبقى لكم الجوارح، وإن كان بعد أكلها منه. ومن في ممّا أمسكن. قيل زائدة: نحو كلوا من ثمره، وقيل: مفيدة وذلك أن بعض الصيد لا يؤكل كالعظم والدم والريش. وقال سعيد بن جبير وأبو حنيفة والمزني: يؤكل ما بقي من جوارح الطير، ولا يؤكل ما بقي من الكلب. والفرق تأديب الكلب بالضرب على الأكل ممكن، وتأديب الطير عليه غير ممكن، ولا خلاف أنه إذا كانت الجارحة معلمة، ثم تصيد صيداً وجرحته وقتلته وأدركه الصائد ميتاً فهو حلال. وجرح الجارحة كالذبح. وإن قتلتها بالفم من غير جرح ففي حله خلاف. الفرائض وقوله: «وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ» قال ابن عباس: يعني إذا أرسلت جارحك فقل بسم الله. وإن نسيت فلا حرج. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعدي: [إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكل] فعلى هذا يكون الضمير في عليه عائداً على ما علمتم من الجوارح، أي سمّوا الله عليه عند إرساله. وقيل: الضمير عائداً إلى ما أمسكن عليكم. والمعنى: سمّوا الله عليه إذا أدركتم ذكاته. وقيل: يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الأكل. يعني واذكروا اسم الله عليه عند الأكل، فعلى هذا تكون التسمية شرطاً عند إرسال الجوارح، وعند الذبيحة وعند الأكل. الخازن * وعلى الأول فالتسمية محمولة على

الندب عند الشافعي. وعلى الوجوب عند أبي حنيفة. وقوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» يعني واحذروا مخالفة الله. يعني فيما أحل لكم وحرم عليكم. «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» إذا حاسب عباده يوم القيامة، ففيه تخويف لمن خالف أمره وفعل ما نهاه عنه.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ
أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» سورة المائدة (الآية: ١١)

في الواحدى: حدث جابر بن عبد الله الأنصارى رضي الله عنه: أن رجلاً من محارب يقال له غورث بن الحارث، قال: لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتل لكم محمداً؟ قالوا: نعم، وكيف تقتله؟ قال: أفنك به، قال: فأقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس وسيفه في حجره، فقال يا محمد: أنظر سيفك هذا؟ قال: نعم، فأخذه فاستله، ثم جعل يهزه ويهيم به، فكبته الله عز وجل، ثم قال يا محمد: ما تخافني؟ قال: لا. قال: ألا تخافني وفي يدي السيف؟ قال: يمنعني الله منك، ثم أغمد السيف. وردّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى هذه الآية «اذكروا» نصر الله عليكم «إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ..» وفي رواية لجابر أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلاً. وتفرق الناس في العضاة يستظلون تحتها، فعلق النبي صلى الله عليه وسلم سلاحه على شجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قام عليه. فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله. قال ذلك الأعرابي: مرتين أو ثلاثاً، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: الله، فأغمد الأعرابي السيف. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه. فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جانبه لم يعاقبه. وقال مجاهد والكلبي وعكرمة: قتل رجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من بني سليم، وبين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قومها موادة فجاء قومها يطلبون الدية، فأق النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، فدخلوا على كعب بن الأشرف وبني النضير يستقرضهم في عقلها، فقالوا: نعم، يا أبا القاسم. قد آن لك أن تأتينا وتسالنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس هو وأصحابه، فخلا

بعضهم ببعض، وقالوا: إنكم لن تجدوا محمداً أقرب من الآن فن يظهر إلى هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيرحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا، فجاء إلى رجا عظيمة ليطرحها عليه، فأمسك الله يده، فجاء جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل الله هذه الآية * كذا في الواحدى والغرائب بحروفه وألفاظه * وفي الغرائب: وقيل: نزلت في قصة عُسفانَ حين همّ الأعداء أن يواقعهم فنزلت صلاة الخوف * وقيل: إنها لم تنزل في واقعة خاصة، ولكن المراد أن الكفار أبداً كانوا يريدون إيقاع البلاء والنهب والقتل بالمسلمين فأعز الله المسلمين، وفلّ شوكة الكفار، وقوى دين الإسلام، وأظهره على الأديان * وقد أورد الخطيب قصة عُسفان بقوله: روى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر، يصلون معاً وذلك بعسفان (وهو واد بينه وبين مكة مرحلتان) في غزوة ذى أثمار، فلما صلّوا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم، فقالوا: إنَّ لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آبائهم، وأبنائهم يعنون صلاة العصر، وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها، فنزل جبريل عليه السلام بصلاة الخوف. رواه مسلم وغيره. والآية أشارت إلى ذلك. وفي الطبرى زيادة على ما ذكرت لك من الأقوال عن مجاهد في: «اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قومٌ أن ينسطوا إليكم أيديهم فكفّت أيديهم عنكم» يهود حين دخل النبي صلى الله عليه وسلم حائطاً لهم، وأصحابه من وراء جدارهم، فأستعانهم في مغرم في دية غرمها، ثم قام من عندهم فأتمروا بينهم بقتله، فخرج يمشى معترضاً ينظر إليهم خيفتهم، ثم دعا أصحابه رجلاً رجلاً حتى تتأموا إليه، قال الله عز وجل: «فكفّت أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون» وهكذا بقيّة الأقوال في نفس المعنى.

أما التفسير: «يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» النعمة في الحقيقة هي قوله تعالى: «فكفّت أيديهم عنكم» وهو المراد بقوله: «إذ» حين «هم قومٌ» في الجلال: هم قريش وقد علمت منهم من قال اليهود ومنهم من قال قريش، ولا مانع من حمل الآية على العموم «أَنْ يَنْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ» أي بالقتل والبطش بكم فصرفهم عنكم، وحال بينكم وبين ما أرادوه بكم «فكفّت أيديهم عنكم» أي منعهم مما أرادوه بكم «واتقوا الله» يعنى فيما أمركم به ونهاكم عنه «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» أمر الله المؤمنين بالتوكل عليه لأنه هو الكافي عباده جميع أمورهم، فإذا فعلوا ذلك وتوكلوا عليه

حفظهم ورعاهم ممن أرادهم بسوء كما كتف أيدى اليهود وقريش عنهم لما أرادوا أن يفتكون به، ومن قال إن المراد بالقوم في قوله «إِذْ هَمَّ قَوْمٌ» هم اليهود فهو أولى بالصواب لأنه عقب الآية بدم اليهود، وذكر قبح أفعالهم وخيانتهم * وذلك قوله تعالى: «ولقد أخذنا ميثاقَ بني إسرائيل..» الآيات.

*** ((القول في سب نزول قوله تعالى :)) ***

«إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٣٣، ٣٤)

في الغرائب: عن قتادة، عن أنس أن الآية نزلت في العرنيين الذين قتلوا راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستاقوا الذود، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثرهم وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم ثم سمل أعينهم، وتركهم حتى ماتوا وقيل: نزلت في قوم أبي برة الأسلمي، وكان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد، فربهم قوم من كنانة يريدون الإسلام، وأبو برة غائب، فقتلوه وأخذوا أموالهم * وقيل: إنها في بني إسرائيل الذي حكى الله عنهم أنهم مسرفون في القتل * وقيل: في قطاع الطريق من المسلمين.. وهذا قول أكثر الفقهاء. قالوا: ولا يجوز حمل الآية على المرتدين لأن قتل المرتد لا يتوقف على المحاربة وإظهار الفساد في الأرض، ولأنه لا يجوز الاقتصار في المرتد على قطع اليد أو النفي، ولأن حده يسقط بالتوبة قبل القدرة عليه وبعدها. ولأن الطلب غير مشروع في حقه، ولأن اللفظ عام * والأول أصح لما رواه الواحدى: عن أنس رضي الله عنه: أن رهطاً من عُكْلٍ وَعُرَيْتَةَ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله: إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف فاستوخنا المدينة، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذود أن يخرجوا فيها فليشربوا من ألبانها وأبوالها، فقتلوا راعي رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستاقوا الذود فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في آثارهم فأتى بهم

فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، فتركوا في الحرة حتى ماتوا على حالهم. فنزلت الآية «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...» الآية. رواه مسلم عن عبيد الأعلى عن سعيد إلى قول قتادة عن أنس ورواه عنه أحمد والبخارى. زاد البخارى أن قتادة الذي روى الحديث عن أنس. وروى أبو داود والنسائي عن أبي الزناد: أن رسول الله لما قطع الذين سرقوا لقاحه، وسَمَلَ أعينهم بالنار، عاتبه الله في ذلك وأنزل «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَبَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا» الآية. وفي رواية للبخارى قال أبو قلابة: وأتى شيء أشد مما صنع هؤلاء، ارتدوا عن الإسلام وقتلوا وسرقوا قلت: ولذا قال مالك والشافعي وأبو ثور نزلت الآية فيمن خرج من المسلمين يقطع السبيل ويسعى في الأرض بالفساد وفي رواية لأبي قلابة: فهؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله. زاد في رواية له: وأنزل الله عز وجل «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...» الآية.

أما تفسير الآية: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» بمحاربة المسلمين على حذف مضاف. أي أولياء الله وأولياء رسوله. وهم المسلمون، وفيه إشارة إلى أن ذكر الله تمهيد لرسول الله، فإن محاربة المسلمين في حكم محاربة الرسول، لأن ما ذكر فيها من حكم قطع الطريق شامل للقطاع على المسلمين ولو بعد الرسول بأعصار لأنهم يحاربونه حيث يحاربون من هو على طريقته وأهل شريعته «وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا» بقطع الطريق، هذا هو معنى محاربة المسلمين. وفي نصب فساداً ثلاثة أوجه: الأول: أنه مفعول لأجله أي يحاربون ويسعون لأجل الفساد. والثاني: أنه مصدر واقع موقع الحال. أي ويسعون في الأرض مفسدين. والثالث: أنه منصوب على المصدر أي يفسدون في الأرض بسعيهم إفساداً «أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ» أي أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى «أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ» أو لترتيب الأحوال. فالقتل لمن قتل فقط والصلب لمن قتل وأخذ المال. والقطع لمن أخذ المال ولم يقتل. والنفي لمن أخاف فقط قاله ابن عباس وعليه الشافعي وأصح قوليّه. فتقدير الآية أن يقتلوا إن قتلوا.. الخ. والنفي مقيد بأن أخافوا السبيل فقط. وكانوا ينفونهم إلى دهلك وهو بلد في أقصى تهامة، وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة. الكشاف: وعن جماعة منهم الحسن والنخعي: أن الإمام يختار بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق من غير تفصيل، وذلك فيما يرى فيه المصلحة

للمسلمين «ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا» ذكٌ وفضيحةٌ، وذلك إشارة إلى الجزاء المتقدم «في الدنيا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» هو عذاب النَّار. استحقاق الأمرين إنما هو للكافر، وأمَّا المسلم فإنه إذا أقيم عليه الحد في الدنيا سقطت عنه عقوبة الآخرة، فالآية محمولة على الكافر، أو أنَّ فيها تقديرًا في قوله: وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ . الخ. أي إن لم تقع عليه الحدود المذكورة في الدنيا «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا» من المحاربين والقطاع «مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» لهم ما أتوه «رَحِيمٌ» بهم. عبر بذلك دون فلا تحذوهم ليفيد أنه لا يسقط عنه بتوبته إلا حدود الله، دون حقوق الآدميين. وعبارة المنهج مع شرحها وتسقط عنه بتوبته قبل أن تقدروا عليهم. فلا يسقط عنه ولا عن غيره بها قول ولا مال. ولا باقى الحدود من حدِّ زنا وسرقة وشرب وقذف لأن العمومات الواردة فيها لم تفصل بين ما قبل التوبة وما بعدها، بخلاف قاطع الطريق. ومحل عدم سقوط باقى الحدود بالتوبة في الظاهر، أمَّا بينه وبين الله تعالى فتسقطه وقال الشافعى إذا تاب بعد القدرة عليه لم يسقط عنه ما يختص بقطع الطريق من العقوبات لأنه متهم حينئذٍ بدفع العذاب عنه، وفي سائر الحدود بعد القدرة عليه قيل: يكفي في التوبة إظهارها كما يكفي إظهار الإسلام تحت ظلال السيوف، والأصح أنه لا بد مع التوبة من إصلاح العمل لقوله تعالى في الزنا «فَان تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضْنَا عَنْهَا» وفي السرقة «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ».

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٣٨، ٣٩)

في الواحدى : قال الكلبي: نزلت في طعمة بن أبيرق سارق الدرع. وقد مضت قصته. وكذا في الخازن قال ابن السائب: نزلت في طعمة بن أبيرق. أى الذى تقدمت قصته في سورة النساء. ولم يذكر المفسرون غير ما ذكره الواحدى والخازن. قوله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ» أل فيها موصولة مبتدأ ولشبهه بالشرط دخلت الفاء في خبره وهو: «فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» أى يمين كل واحدٍ منها من الكوع، وبيّنت السنة أن الذى يقطع

فيه ربع دينار فصاعداً، وأنه إذا عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم، ثم اليد اليسرى، ثم الرجل اليمنى، وبعد ذلك يعزّر. وإنما سمي السارق سارقاً لأنه يأخذ الشيء الذى ليس له أخذه في خفاء. ومن حرز مثله. ومنه استرق السمع مستخفياً. وقد قطع السارق في الجاهلية، وأول من حكم بقطع يده في الجاهلية. الوليد بن المغيرة، وأقر الله قطعه في الاسلام، فكان أول سارق قطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام من الرجال: الخيار بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، ومن النساء مرة بنت سفيان بن عبد الأسد من بنى مخزوم، وقطع أبو بكر اليمنى الذى سرق عقداً لأسهاء بنت عميس: زوج أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فقطع يده اليسرى. وقطع عمريد ابن سمرة. أخى عبد الرحمن بن سمرة. ولا خلاف فيه، ولا حجة قاطعة لمن قال: تقطع يد السارق بأقل من ربع دينار، وما ورد في أقل من ذلك، فإنه خرج مخرج التحذير بالقليل عن الكثير كما جاء في معرض الترغيب بالقليل مجرى الكثير في قوله عليه الصلاة والسلام [من بنى لله مسجداً ولو مثل مَفْحَصِ قِطَاةِ بَنِي اللَّهِ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ] والمراد بسرقة البيضة أنها بيضة الحديد كما فسرها البخارى: لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، والحبل فتقطع يده. ولا قطع على المختلس والمنتهب والمعتمد على القوة، ولا على المودع إذا جحد خلافاً لأحمد. وأما السارق فيشترط فيه التكليف والتزام الأحكام والاختيار. فيقطع الذمى والمعاهد، ولا يقطع المكره. وإنما تثبت السرقة بثلاث حجج باليمين المردودة، أو بالقرار، أو بشهادة رجلين. ويتعلق بها حكمان: الضمان والقطع. وقال أبو حنيفة: القطع والغرم لا يجتمعان. وهو خلاف ما قاله الشافعى. دليله قوله عليه الصلاة والسلام [على اليد ما أخذت حتى تؤدى] يوجب الضمان. وقد اجتمع في هذه السرقة أمران، وحق الله لا يمنع حق العباد، ولهذا يجتمع الجزاء والقيمة في الصيد المملوك، ولو كان المسروق باقياً وجب رده بالاتفاق. وحجة أبى حنيفة: قوله تعالى: «جَزَاءُ بِمَا كَسَبْنَا نَكَالًا»، أى عقوبة لهم. والجزاء هو الكافي، فهذا القطع كافٍ في جنابة السرقة. ورد بلزوم رد المسروق عند كونه قائماً. ولأن القطع علة لفعل السرقة لا لعله المسروق. أما كيفية القطع، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطع يمينه. قال الشافعى: فإن سرق ثانياً قطعت رجله اليسرى، فإن سرق ثالثاً فيده اليسرى، فإن سرق رابعاً فرجله اليمنى وبه قال مالك، وروى ذلك عن أبى هريرة عن النبى سئى الله عليه وسلم. وعن أبى حنيفة وأحمد: لا

يقطع في الثانية وما بعدها لما روى عن ابن مسعود أنه قرأ فاقطعوا أيما نها. وضغفه الشافعي. بأن القراءة الشاذة لا تعارض ظاهر القرآن المقتضى لتكرار القطع بتكرار السرقة. مكان القطع: اتفقوا على أنه تُقطع اليد من الكوع والرجل من المفصل بين الساق والقدم. والسيد يملك إقامة الحد على مماليكه لعموم قوله: «فاقطعوا» ولم يجوزه أبو حنيفة، واحتج المتكلمون بالآية في أنه يجب على الأمة نصب الإمام لأن هذا التكليف لا يتم إلاً به. وما لا يتم الواجب إلاً به — وكان مقدوراً للمكلف فهو واجب — وانتصاب جزاء ونكالاً على أنه مفعول لها. والعامل اقطعوا أي جازوهم ونكلوا بهم جزاء بما كسبا نكالاً من الله. «فَمَنْ تَابَ» من السرقة «مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ» أي سرقته فرجع عنها بعد أن ظلم غيره بها «وَأَصْلَحَ» عمله، ومن جملة الاصلاح ردّ ما سرقه، أو بدله لصاحبه: «فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ» بشروط التوبة المعروفة. وهي الندم على ما مضى، والعزم على تركه في المستقبل. عن أبي أمية المخزومي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ما أخالك سرقت] فقال: بلى، فأعاد عليه مرتين أو ثلاثاً. كل ذلك يعترف، فأمر به فقطع، ثم جيء به فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: [استغفر الله وتب إليه] فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [اللهم تب عليه] أخرجه أبو داود والنسائي بمعناه. «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ» له «رَحِيمٌ» به.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٤١)

في الواحدى : قال البراء بن عازب: مرّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودى مُحَمَّماً مجلوداً فدعاهم. فقال [أهكذا تجدون هذا الزانى في كتابكم]؟ قالوا: نعم، قال: فدعا رجلاً من غلمانهم فقال [أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى عليه السلام:

هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم]؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتنى لم أخبرك، نجد حدّ الزاني في كتابنا الرجم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الوضيع أقمنا عليه الحدّ، فقلنا: تعالوا نجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم، والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرجم. فأنزل الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ» — إلى قوله: «إِنْ أوتيتُمْ هذا فخذوه» — يقولون أتتوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوا به، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا — قوله تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» — قال في اليهود إلى قوله: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ» — «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ» قال: نزلت كلها في الكفار. رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وعبارة الخطيب: روى أن شريفاً في خيبر زنى بشريفة، وكانا محصنين، وحدهما الرجم في التوراة، فكرهوا رجمها لشرفها، وقالوا: إن هذا الرجل الذي يبثرب ليس في كتابه الرجم، ولكن الضرب، فأرسلوهما مع رهط منهم إلى بني قريظة ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه. وقالوا: إن أمركم بالجلد والتحميم — أى تسويد الوجه من الحمة وهى السواد — فاقبلوا، وإن أمركم بالرجم فلا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا يا محمد: أخبرنا عن الزنا والزانية إذا أحصنا ما حدّهما في كتابك؟ فقال: هل ترضون بقضائي؟ فقالوا: نعم، فنزل جبريل بالرجم، فأخبرهم بذلك، فأبوا أن يأخذوا به، فقال له جبريل: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا ووصفه. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدى يقال له ابن صوريا؟ قالوا: نعم فقال هو أى رجل فيكم؟ فقالوا: هو أعلم يهودى بقى على وجه الأرض بما أنزل الله على موسى بن عمران في التوراة، قال: فأرسلوا إليه، ففعلوا فأتاهم، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: أنت ابن صوريا؟ قال: نعم، قال: أعلم اليهود؟ قال: كذلك يزعمون. قال: تجعلونه بيني وبينكم؟ قالوا: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [أُنشِدْكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي فَلَاحَ الْبَحْرِ لِمُوسَى، وَرَفَعَ فَوْقَهُمُ الطُّورَ، وَأَنْجَاكَ وَأَغْرَقَ آلَ فِرْعَوْنَ، وَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ كِتَابَهُ وَحَلَّالَهُ وَحَرَامَهُ هَلْ تَجِدُونَ فِيهِ الرَّجْمَ عَمَّنْ أَحْصَنَ؟] قال: نعم، فوثب عليه سفلة اليهود، فقال: خفت

إن كذبت أن ينزل علينا العذاب، ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه، فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأنت رسول الله النبي الأمي العربي الذي بشر به المرسلون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب مسجده، وقال [اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه] فأنزل الله عز وجل: «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر...» الآية وروى أن اليهود جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلاً منهم وأمرأة زنيا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ قالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبدالله بن سلام: كذبتم إن فيها آية الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، وقرأ ما بعدها، فقال له عبدالله: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم. قالوا: صدقت يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما، قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: فرأيت الرجل يقي بيده عن المرأة الحجارة. رواه مسلم عن ابن عمر: قلت: وقد كانت آية الرجم في القرآن فنسخت تلاوتها وبقى حكمها. روى البيهقي عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم أنه قال في خطبته: إن الله بعث محمداً وأنزل عليه كتاباً. وكان فيما أنزل آية الرجم فتلوتها ووعيناها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم. وفي ابن كثير: قيل نزلت في أقوام من اليهود قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا نتحاكم إلى محمد. فإن حكم بالدية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه. والصحيح أنها نزلت في اليهوديين اللذين زنيا. وعليه علماء التفسير وعبارة الخازن: قال علماء التفسير: إن رجلاً وامرأة من أشرف يهود خيبر زنيا وكانا محصنين، كان حدهم الرجم عندهم في حكم التوراة، فكرهت اليهود رجمها لشرفها، فقالوا: إن هذا الرجل بيثرب يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم، وليس في كتابه الرجم. ولكن الضرب، فأرسلوا إلى اخوانكم بني قريظة، فإنهم جيرانه، وصلح معه فليسألوه عن ذلك، فبعثوا رهطاً منهم مستخفين، وقالوا لهم: أسألو محمداً عن الزانيين إذا أحصنا ما حدّهما، فإن أمركم بالحد فاقبلوا منه. وإن أمركم بالرجم فاحذروه، ولا تقبلوا منه، وأرسلوا معهم الزانيين، فقدم رهط حتى نزلوا على بني قريظة والنضير، وقالوا لهم: إنكم جيران هذا الرجل، ومعه في بلده، وقد حدث فينا حدث، وذلك أن فلاناً وفلاناً قد زنيا، وقد أحصنا، فنحِبُّ أن تسألوه عن قضائه في ذلك، فقال لهم بنو قريظة والنضير: إذا

والله يأمركم بما تكرهون، ثم انطلق قوم منهم فيهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسد، وسعيد بن عمرو، ومالك بن الصيف. وكنانة بن أبي الحقيق وغيرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقالوا يا محمد: أخبرنا عن الزاني والزانية إذا أحصنا ما حدهما في كتابك؟ فقال هل ترضون بقضائي؟ قالوا: نعم، فنزل جبريل عليه السلام بآية الرجم. فأخبرهم بذلك. فأبوا أن يأخذوا به، فقال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، ووصفه له. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فذك يقال له ابن صوريا؟ قالوا: نعم، قال: فأئ رجل هو فيكم؟ فقالوا: هو أعلم يهودى بقى على وجه الأرض بما أنزل على موسى عليه السلام في التوراة، قال: فأرسلوا إليه، ففعلوا، فلما جاء قال له النبي صلى الله عليه وسلم: أنت ابن صوريا؟ قال: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن صوريا: ناشدتك بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى، وأخرجكم من مصر، وفلق لكم البحر، وأنجاكم وأغرق آل فرعون، وبالذى ظلل عليكم الغمام، وأنزل عليكم المن والسلوى، وأنزل عليكم كتابه في حلاله وحرامه، تجدون في كتابكم الرجم على المحسن؟ فقال ابن صوريا: اللهم نعم، والذى ذكرتني به لولا خشيتي أن ينزل علينا العذاب إن كذبت أو غيرت ما اعترفت لك، ولكن كيف هي في كتابك يا محمد؟ قال: إذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخله فيها كما يدخل الميل في المكحلة وجب عليها الرجم، فقال ابن صوريا: والذى أنزل التوراة على موسى. هكذا أنزل الله في التوراة على موسى، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم، فما كان أول ما رخصتم به في أمر الله تعالى: فقال ابن صوريا: كنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقننا عليه الحد، فكثر الزنا في أشرافنا حتى زنى ابن عم ملك لنا فلم نرجمه، ثم زنى رجل آخر في امرأة من قومه، فأراد الملك رجمه، فقام قومه دونه، وقالوا: والله لا نرجمه حتى ترجم فلاناً لابن عم الملك، فقلنا: تعالوا نجتمع فلنصنع شيئاً دون الرجم يكون على الشريف والوضيع، فوضعنا الجلد والتحميم، وهو أن يجلد أربعون جلدة بجبل مطوى بقار، ثم تسود وجوهها، ثم يحملان على حارين، ووجوههما من قبل دبر الحمار، ويطاف بهما، فجعلوا ذلك مكان الرجم. فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته، وما كنت لما أثنينا عليك بأهل، ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن نغتائبك، فقال لهم ابن صوريا: إنه قد ناشدني بالتوراة، ولولا خشيتي أن ينزل علينا

العذاب ما أخبرته، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بها فرجا عند باب المسجد، وقال: [اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه] فأنزل الله تعالى هذه الآية: أما التفسير: قوله تعالى: «يا أيها الرسول لا يحزنك» صنع «الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ» يقيمون فيه بسرعة. أى يظهرونه إذا وجدوا فرصة: «مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنُ قُلُوبُهُمْ» يعنى المنافقين لأنهم أظهروا الإيمان بالقول وكنتموا الكفر وهذه صفة المنافقين: «وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا» أى وطائفة من اليهود: «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ» الذى افترته أحبارهم سماع قبول. وهو المراد لأنك تقول: تسمع من فلان لا تقبل منه. وقيل: سماعون لأجل أن يكذبوا عليك، وذلك أنهم كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يخرجون من عنده، ويقولون سمعنا منه كذا وكذا. ولم يسمعوا ذلك منه بل كذبوا عليه. وقوله: «سَمَاعُونَ» منك: «لِقَوْمٍ» لأجل قوم: «آخِرِينَ» من اليهود: «لَمْ يَأْتُوكَ» وهم أهل خيبر زنى فيهم عصيان فكرهوا رجحها فبعثوا قريظة ليسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن حكمها الخ...: «يَحْرِفُونَ الْكَلِمَةَ» الذى فى التوراة. كآية الرجم: «مِنَ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ» التى وضعها الله عليها. أى يبدلونه وذلك إما تحريفاً لفظياً بإبدال كلمة بكلمة أو بإخفائه وكتمانه، أو بالزيادة فيه، أو بالنقص منه، وإما تحريفاً معنوياً بحمل اللفظ على غير ما وضع له: «يَقُولُونَ» لمن أرسلوهم: «إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا» الحكم المحرف المزال عن موضعه: «فَخُذُوهُ» فهو الحق واعملوا به: «وَأِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ» بل أفتاكم بخلافه: «فاحذروا» أن تقبلوه: «وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ» إضلاله: «فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً» فى دفع الفتنة عنهم: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ» من الكفر، وهو إشارة إلى المذكورين من المنافقين واليهود، وما فى اسم الإشارة من معنى البعد للإيدان ببعدهم منزلتهم فى الفساد: «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ» ذلٌ بالفضيحة بإظهار نفاقهم، وبيان تحريفهم. وضرب الجزية على المحلدين من أهل الكتاب: «وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» يعنى الخلود فى النار للمنافقين واليهود.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُّخْتِ إِنْ جَاؤَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ
أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم
بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ
التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ»

سورة المائدة (الآية: ٤٢، ٤٣)

في الخازن: نزلت في حُكَّام اليهود مثل كعب بن الأشرف ونظرائه، كانوا يرتشون
ويقضون لمن رشاهم. قال الحسن: كان الحاكم منهم إذا أتاه أحدهم برشوة جعلها في
كفه، ثم يريها إِيَّاهُ، ويتكلم بحاجته، فيسمع منه، ولا ينظر إلى خصمه، فيسمع الكذب،
ويأكل الرشوة، وهي السحتة وفي الغرائب: وقيل: كان فقراؤهم يأخذون من
أغنيائهم مالا ليقيموا على ما هم عليه من اليهودية، فكانوا يسمعون أكاذيب الأغنياء
ويأكلون السحتة وقيل: إنه في أمر خاص. وهو رجم المحسن قاله ابن عباس ومجاهد
والزهري وقيل: في قتل من اليهود في بني قريظة والنضير، وكان في بني النضير
شرف، وكانت ديتهم كاملة، وفي قريظة نصف دية، فتحاكموا إلى النبي صلى الله عليه
وسلم فجعل الدية سواء وعن النخعي والشعبي وقتادة وعطاء وأبي بكر الأصم وأبي
مسلم أن الآية عامة في كل من جاء من الكفار. وأن الحكم ثابت في سائر الأحكام غير
منسوخة قلت: والحق إن الآية متصلة بما قبلها، ويتضح ذلك من أقوال العلماء في
تفسيرها. قوله في آخر الآية السالفة الذكر: «وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» هم
«سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْأَلُونَ لِلْسُّخْتِ» الحرام كالرشا وأصل السُّخْتِ الاستئصال.
يقال سحتته: إذا استأصله، وسميت الرشوة في الحكم سُخْتًا: لأنها تستأصل دين
المرتشي، والسحت كله حرام يحمل عليه شدة الشره، وهو يرجع إلى الحرام الخسيس الذي
لا تكون له بركة، ولا يأخذه مروءة، ويكون في حصوله عار بحيث يخفيه لا محالة، فهو
كالآخذ المال خفيةً، ولذلك حرمت الرشوة على الحكام. أخرج الترمذي وأبو داود عن
أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الراشي والمرتشي في
الحكم قال الحسن: إنما ذلك في الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلاً أو يبطل عنك حقاً

وقال ابن مسعود: الرشوة في كل شيء فمن شفع شفاعه ليردّ بها حقاً، أو يدفع بها ظلماً، فأهدى بها إليه فقبل فهو سحت. فقبل له يا أبا عبد الرحمن: ما كنا نرى ذلك إلا الآخذ على الحكم. فقال: الأخذ على الحكم كفر قال تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» والسحت الرشوة في الحكم. ومهر البغي وعسب الفحل. وكسب الحجام وثمان الكلب وثمان الخمر وثمان الميتة، وحلوان الكاهن والاستكساب في المعصية. روى ذلك عن عليّ رضي الله عنه وعمر وعثمان وابن عباس وأبي هريرة ومجاهد. كذا في الغرائب * وكل ذلك يرجع إلى الحرام الخسيس الذي لا يكون فيه بركة «فإن جاؤك» لتحكم بينهم. لما بين تفاصيل أحوالهم المختلفة الموجبة لعدم المبالاة بهم خواطب ببعض ما ينبغي عليه من الأحكام. أي فإن جاؤك متحامين إليك «فاخكم بينتهم أو أعرض عنهم» فانت مختارين الحكم بينهم والاعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم. وأوهنا للتخيير فهي خاصة بالمعاهدين دون أهل الذمة. فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم في بلادهم وإن تحاكموا إليهم، بل هم مختارون يرجحون في كل حال ما يرونه من المصلحة. وأمّا أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام في البيوع والمواريث، وسائر العقود إلا في بيع الخمر والخنزير فإنهم يقرّون عليه، بشرط عدم الاعلان بشربه في الأسواق، ويمنعون من الزنا كالمسلمين لأنهم نوعه لكن لا يرجون لأن من شرط الرجم الإسلام. «وإن تُعريض عنهم فلن يضرّوك شيئاً» فالله حافظك من ضررهم إذا أخترت الاعراض عنهم ولم تحكم بينهم «وإن حكمت» أي اخترت الحكم بينهم «فاخكم بينتهم بالقسط» أي بالعدل الذي أمرت به في القرآن الكريم «إن الله يُحبّ المقسطين» العادلين في الحكم أي يثيبهم عليه «وكيف يحكمونك» !!؟ تعجب من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من تحكيمهم من وجوه. منها: «وعندهم التوراة فيها حكم الله» ومنها رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدونه مبطلاً. ومنها: إعراضهم عن حكمه بعد أن حكموه، وهذا غاية الجهالة ونهاية العناد. وما سبب ذلك إلا أنهم ليسوا مؤمنين «ثم يتولّون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين» بك ولا بالتوراة من قبلك إيماناً صحيحاً لأن المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره، اللهم إلا إذا آمن بنسخه بالحكمة اقتضت ذلك وقد جاء في سفر التثنية بعد بيان أن من تزوج عذراء فوجدها ثيباً

ترجم عند باب أبيها، وإذا وُجد رجل مضطجع مع امرأة زوج بعل يقتل الإثنين. الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتزنع الشر من إسرائيل. وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدتها رجل في المدينة. فاضطجع معها فأخرجوها كليهما إلى باب المدينة وأرجوهما بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنه أذّن امرأة صاحبه فتزبل الشر من وسطك. المراعى.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّاتِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»
سورة المائدة (الآية: ٤٤)

في الواحدى: قال أبوهريرة رضي الله عنه: زنى رجل من اليهود وامرأة. قال بعضهم لبعض، اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه نبي مبعوث للتخفيف، فإذا أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها، واحتججنا عند الله، وقلنا: فتيا نبي من أنبيائك، فاتوا النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد مع أصحابه. فقالوا يا أبا القاسم: ما ترى في رجل وامرأة زنيا؟ فلم يكلمها حتى أتى بيت مدراستهم، فقام على الباب فقال: أنشدكم الله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحتم ويحبته ويجلد. والتجبية أن يحمل الزانيان على الحمار ويقابل أفتيها ويطاف بها. قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم ألح عليه في النشدة، فقال: اللهم إذا أنشدتنا فإننا نجد في التوراة الرجم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فا أول ما أرخصتم أمر الله عز وجل؟ قال: زنى رجل ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأختر عنه الرجم، ثم زنى رجل من سراة الناس، فأراد رجمه، فأحال قومه دونه، فقالوا: لا يرحم صاحبنا حتى يجيء بصاحبكم فيرجمه. فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فإنى أحكم بما في التوراة، فأمر بها فرجما. قال الزهرى: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ...» الآية وكذا في الطبرى. والحازن، وفي ابن كثير: عن الإمام أحمد

عن ابن عباس في «ومن لم يخكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» «وأولئك هم الظالمون» «وأولئك هم الفاسقون» أنزلها الله في الطائفتين من اليهود. وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق (الوسق: جملٌ بعير) فكانوا على ذلك حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم. فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق. فقالت الذليلة: وهل كان في حيتين دينها واحد، ونسبها واحد، وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض، إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا، وفرقاً منكم (خوفاً) فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم، ثم ذكرت العزيزة، فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا، وقهراً لهم، فدموا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه، فدموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأمرهم كله، وما أرادوا، فأنزل الله تعالى «يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر» إلى قوله «الفاسقون» ففهم. والله أنزل. وإياهم عنى عز وجل. رواه أبو داود من حديث أبي الزناد عن أبيه بنحوه. قلت: والآية التي بعد هذه الآية: «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين..» يؤيد أنها في قضية القصاص، ولا مانع من أن يجتمع لنزول الآية سببان فأكثر في وقت واحد لأن الأمر بالحكم بما أنزل الله يشمل الجميع، أي استفتاء اليهود في أمر الزانيين والقصاص في القتل.

أما التفسير: «إنا أنزلنا التوراة» على موسى عليه السلام وهو كلام مستأنف سيق لبيان علو شأن التوراة، ووجوب مراعاة أحكامها، وأنها لم تزل مرعية من الأنبياء ومن يقتدى بهم كابراً عن كابر مقبولة لكل أحد من الحكام والمتحامين، محفوظة عن المخالفة والتبديل تحقيقاً لما وصف به المحرفون من عدم إيمانهم بها وتقريراً لكفرهم وظلمهم. «فيها هدى» من الضلالة «ونور» بيان الأحكام. وقيل: الهدى بيان الأحكام. والنور بيان التوحيد والنبوة، والمعاد. قال الزجاج: الهدى: بيان الحكم الذي جاؤا يستفتون فيه،

والنور بيان أمر النبي صلى الله عليه وسلم حقٌ وقيل: فيها هدى يهدى للحق والعدل، ونورٌ يبين ما استبهم من الأحكام. فهما عبارتان عن معبر واحد، وقد يستدل بالآية على أن شرع من قبلنا يلزمنا لأن الهدى والنور لا بد أن يكون أحدهما يتعلّق بالفروع والآخر بالأصول. وإلا كان تكراراً أيضاً أنها نزلت في الرجم، ومورد الآية لا بد أن يكون داخلياً فيما سواه. قال صاحب الغرائب: إن غيره داخل أو خارج، ويمكن أن يجاب بأن التكرار بعبارتين غير محذور، أو بأن في الكلام تقدماً وتأخيراً، والمراد فيها هدى ونور للذين هادوا «يَخُكِّمُ بِهَا النَّبِيُّونَ» وقوله: «الَّذِينَ أَسْلَمُوا» فأورد عليه أن كل نبيّ مسلم فالفائدة في هذا الوصف؟ وأجيب بأنها صفة جارية على سبيل المدح لا التوضيح والكشف، وفيه تعريض باليهود أنهم بعداء عن ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء قديماً وحديثاً، لأن غرض الأنبياء الانقياد لتكاليف الله، وغرضكم من ادعاء الحكم بالتوراة أخذ الرشا من العوام، فالفريقان متباينان ولهذا أردفه بقوله: «لِلَّذِينَ هَادُوا» أي يحكمون لأجلهم وهادوا متعلق بيحكم أي يحكمون بها فيما بينهم. كأنه قال أنزلنا التوراة فيها هدى ونور لأجل أن يحكموا بها، ففيه تعريض بالمحرّفين، أو متعلّق بأنزلنا، وقيل: بهدى ونور. وفيه الفصل بين المصدر ومعموله، وقيل: متعلق بمحذوف وقع صفة لها. أي هدى ونور كائنان للذين هادوا. أبو السعود: وفي الخازن: أراد بالثبّين الذين بعثوا بإقامة التوراة وأحكامها. ومعنى أسلموا: أي انقادوا لأمر الله تعالى، والعمل بكتابه، وهذا على سبيل المدح لهم، وفيه تعريض باليهود لأنهم بعدوا عن الإسلام الذي هو دين الأنبياء عليهم السلام. قال الحسن والزهرى وعكرمة وقتادة والسدى: يحتمل أن يكون المراد بالثبّين الذين أسلموا هو محمد صلى الله عليه وسلم. وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً وتشريفاً له صلى الله عليه وسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم حكم على اليهود بالرجم، وكان هذا الحكم في التوراة قال ابن الأنباري: هذا ردٌّ على اليهود والنصارى لأن الأنبياء عليه السلام ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين لله تعالى منقادين لأمره ونبيه وقوله: «وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ» أي الزهاد والعلماء من ولد هرون عليه السلام: الذين التزموا طريقة النبيين، وجانبوا دين اليهود وعن ابن عباس: الربّانيون: الذين يسوسون الناس بالعلم، ويربّونهم بصغاره قبل كباره. والأحبار: هم الفقهاء، والأحبار: واحد جَبْرٌ بالفتح والكسر، والثاني أفصح، وهو رأي الفراء مأخوذ من

التحجير والتحسين. فإنهم يجبرونه ويزيّنونه، أي هم أيضاً يحكمون بأحكامها، فهم خلفاء ونواب عن الأنبياء في تطبيق أحكامها «بِمَا» أي بسبب الذي «اسْتَحْفِظُوا» أي استحفظهم الله إياه «مِنْ كِتَابِ اللَّهِ» أن يحرفوه أو يبدلوه «وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» أنه حق «فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ» أيها اليهود في إظهار ما عندكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم والرجم وغيرها «وَإِخْشَوْنَ» خافوا عقابي العظيم في كتمانها «وَلَا تَشْتَرُوا» تستبدلوا «بِآيَاتِي تَمَنَّا قَلِيلًا» من الدنيا تأخذونه على كتمانها «وَمَنْ لَمْ يَخُكْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» يعني أن اليهود لما أنكروا حكم الله تعالى المنصوص عليه في التوراة. وقالوا إنه غير واجب عليهم فهم كافرون على الإطلاق بموسى والتوراة وبمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن.

* ((اختلاف العلماء فيمن نزلت آيات الحكم بما أنزل الله)) *

الآيات هي قوله تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَخُكْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» «وَمَنْ لَمْ يَخُكْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» «وَمَنْ لَمْ يَخُكْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» ورد عن جماعة من المفسرين أنّ الآيات الثلاث نزلت في الكفار. ومن غير حكم الله من اليهود لأن المسلم وإن ارتكب كبيرة لا يقال إنه كافر، وهذا قول ابن عباس وقتادة والضحاك قال الخازن: ويدل على صحة هذا القول ما روى عن البراء بن عازب قال: أنزل الله تبارك وتعالى: «وَمَنْ لَمْ يَخُكْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» «وَمَنْ لَمْ يَخُكْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» «وَمَنْ لَمْ يَخُكْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» في الكفار كلها. أخرجه مسلم وعن ابن عباس قال: «وَمَنْ لَمْ يَخُكْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» إلى «الْفَاسِقُونَ» هذه الآيات الثلاث في اليهود خاصة: قريظة والنضير أخرجه أبو داود وقال مجاهد في هذه الآيات الثلاث: من ترك الحكم بما أنزل الله ردّاً لكتاب الله فهو كافر ظالم فاسق وقال عكرمة: ومن لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فقد كفر، ومن أقر به، ولم يحكم به فهو ظالم فاسق وهذا قول ابن عباس أيضاً، واختيار الزجاج لأنه قال: من زعم أن حكماً من أحكام الله تعالى التي أتت بها الأنبياء باطل فهو كافر وقال طاوس: قلت لابن عباس: أكافر من لم يحكم بما أنزل الله؟ فقال: به كفر، وليس بكفر

ينقل عن الملة كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ونحو هذا. روى عن عطاء قال: هو كفر دون الكفره وقال ابن مسعود والحسن والنخعي: هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود وفي هذه الأمة، فكلُّ من ارتشى، وبدل الحكم فحكم بغير حكم الله فقد كفر وظلم وفسق، وإليه ذهب السدى لأنه ظاهر الخطاب * وقيل: هذا فيمن علم نص حكم الله ثم رده عياناً عمداً، وحكم بغيره، وأما من خفي عليه النص، أو أخطأ في التأويل فلا يدخل في هذا الوعيد. الخازن * قال الرازي نقلاً عن عكرمة: إن الحكم بالكفر على من حكم بغير ما أنزل الله إنما يكون فيمن أنكر بقلبه وجحد بلسانه أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله ولكنه تارك له فلا يدخل تحت هذه الآية * وعن الشعبي أنه قال: الثلاث الآيات التي في المائة أولها: في هذه الأمة، والثانية: في اليهود، والثالثة: في النصارى. وخلاصة المعنى: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به، منكرأ له، وأن حكم غير ما أنزل أفضل منه كان كافراً لجحوده به واستخفافه بأمره وحكمه.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»
سورة المائدة (الآية: ٤٩، ٥٠)

في الواحدى: قال ابن عباس: إن جماعة من اليهود منهم كعب بن أسيد، وعبدالله بن صوريا، وشاس بن قيس، قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد عليه الصلاة والسلام لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه، فقالوا يا محمد: قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإن بيننا وبين قوم خصومة ونحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيهم «واحدزهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك..» الآية * وكذا في الخطيب والخازن قيل: ولعلمهم طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يحكم بما كان

يحكم به الجاهليون من التفاضل بين القتلى. أي بين ديات بعضهم على بعض، وكذا في بقية التفاسير. وقوله: «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ» في محل نصب على الكتاب، والتقدير: وأنزلنا إليك الكتاب، وأن تحكم به بينهم أي والحكم بينهم. كذا في السمينه أو وأنزلنا إليك أن احكم على أن أن المصدرية وصلت بالأمر لأنه فعل كسائر الأفعال، أو على قوله بالحق، أي أنزلناه بالحق وبأن احكم، ويحتمل أن تكون أن مفسرة، وفعل الأمر محذوف أي وأمرناك أن احكم. وتكرار الأمر بالحكم إمّا للتأكيد، وإمّا لأنها حكمان لأنهم احتكموا إليه في زنا المحصنين، ثم احتكموا في قتل كان بينهم «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ» ميولاتهم الفاسدة «وَاحْذَرُهُمْ أَنْ» لا «يَفْتَنُوكَ» يضلوك «عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ» أي احذر أن يصرفوك عن بعضه ولو كان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق «فَإِنْ تَوَلَّوْا» عن الحكم المنزل وأرادوا غيره «فَاعْلَمْ أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ» بالعقوبة في الدنيا «بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ» لا بجميعها، وذلك كما عاقبهم بالقتل والسبي والجلد، وأما في الآخرة فيجازيهم على الجميع، وفي ذلك إشارة إلى أن مجازاتهم ببعض الذنوب كافية في إهلاكهم وتدميرهم وإذلالهم، وأراد بالبعض ذنب التولى عن حكم الله، وفيه أن لهم ذنوباً جمة، وأن هذا الذنب عظيم جداً «وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ» يعني اليهود لأنهم ردوا حكم الله تعالى «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ» أي أفحكّم الجاهلية يطلب هؤلاء اليهود قال ابن عباس: يعني بحكم الجاهلية ما كانوا عليه من الضلال والجور في الأحكام، وتحريفهم أياها عما أمر الله به وفي أبي السعود: والمراد بالجاهلية إما الملة الجاهلية التي هي متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة في الأحكام، وقد جرى المفسرون على هذا، وإما أهل الجاهلية وحكمهم، وهو ما كانوا عليه من المفاضلة بين القتلى من النصير وقريظة. قوله: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا» انكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكم الله تعالى، أو مساو له؟! روى أن بنى النصير تحاكموا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام في خصومة كانت بينهم وبين بنى قريظة، وطلب بعضهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل، وجعل دية القرظي ضعف دية النصيري لمكان القوة والضعف، فقال عليه الصلاة والسلام: القتلى بواء - سواء - فقال بنو النصير: نحن لا نرضى بذلك فنزلت الآية. وخلاصة المعنى: توبيخهم والتعجب من حالهم كيف لا وهم أهل كتاب وعلم،

ومع ذلك فهم لا يرضون بحكم الله تعالى العادل، بل يريدون حكم الجاهلية القائم على محض الجهل والمداهنة وصريح الهوى. أي لا أحد أحسن حكماً من حكم الله تعالى «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» بدينه ويزعون لشرعه لأنه حكم جامع بين منتهى العدل والحق من الحاكم، والقبول والاذعان من المحكوم له والمحكوم عليه. فهو جلّ جلاله منزّه عن الهوى أو الميل إلى هذا أو ذاك، فالكل خلقه وملكه وعبيده، ومن أجلّ استتباب الأمن بينهم، وطمأنينة الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وللمحافظة على كرامتهم أنزل حكمه العادل ليشعر كل منهم بالهدوء وراحة الضمير «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ»؟ بلى.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ» سورة المائدة (الآية: ٥١، ٥٢)

في الواحددي: قال عطاء العوفي: جاء عبادة بن الصامت فقال يا رسول الله: إن لي موالى من اليهود، كثير عددهم، حاضر نصرهم، وأتى أبوء إلى الله ورسوله من ولاية اليهود، وآوى إلى الله ورسوله، فقال عبدالله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية اليهود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا الحباب، ما تجلب به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت، فهو لك دونه. فقال: قد قبلت، فأنزل الله تعالى فيها «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ» وقد فصل الخطيب ما أجلمه الواحددي بقوله: اختلف في سبب نزول هذه الآية فقال قوم: نزلت في عبادة بن الصامت، وعبدالله بن أبي سلول المنافق، وذلك أنها اختصما، فقال عبادة: إن لي أولياء من اليهود كثير عددهم، شديدة شوكتهم، وإني أبرأ إلى الله وإلى رسوله من مواليتهم، ولا مولى لي إلا الله ورسوله، فقال عبدالله: لكنتى لا أبرأ من ولاية اليهود لأنى أخاف الدوائر ولا بد لي منهم. فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال السدى: لما كانت وقعة أحد اشتدت

على طائفة من الناس، وتخوفوا أن توالى عليهم الكفار، فقال رجل من المسلمين: أنا ألحقُ بفلان اليهودى آخذ منه أماناً، إني أخاف أن تدال علينا اليهود، وقال الآخر: أما أنا فألحق بفلان النصارى من أهل الشام، وآخذ منه أماناً، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن المنذر بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة حين حاصروهم، فاستشاروه في النزول، وقالوا: ماذا يصنع بنا إذا نزلنا؟ فجعل أصبعه على حلقة، يعنى إنه الذبح. أي يقتلكم. فنزلت «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ...» وفي أبي السعود. قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» خطاب يعمُّ حكمة كافة المؤمنين من المخلصين وغيرهم، وقوله: آمنوا ولو ظاهراً، وإن كان سبب نزولها في غير المخلصين فقط، وهم المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه الذين كانوا يسارعون في موالاته اليهود ونصارى نجران، وكانوا يعتذرون إلى المؤمنين بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم ظروف الزمان كما قال تعالى: «يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ...» وهكذا بقيت الأقوال التي في التفسير. وأولى الأقوال بالصواب كما قال الطبرى: أن يقال إنَّ الله تعالى ذكره. نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أن من اتخذهم نصيراً وحليفاً وولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم في التحزب على الله ورسوله والمؤمنين. وإن الله ورسوله والمؤمنين منه بريثان. وقد تكون الآية قد نزلت في شأن عبادة بن الصامت وعبدالله بن أبي سلول وحلفائهما من اليهود، ويجوز أن تكون نزلت في أبي لبابة بسبب فعله في بني قريظة، ويجوز أن تكون نزلت في شأن الرجلين اللذين ذكر السدى أنَّ أحدهما هم باللحاق بيهودى والآخر بنصرانى، ولم يصح بواحد من هذه الأقوال الثلاثة خبر يثبت بمثله حجة فالصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم. أي قصده يقول: وإن كان حكمها عاماً لجميع المؤمنين إلا أنَّ خصوص السبب الوارد في المنافقين لا يمنع من نهى جميع المؤمنين من موالاته الكافرين. وقوله: «لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ» أي لا يتخذ أحدكم أحداً منهم ولياً تعاهدونه على التناصر من دون المؤمنين رجاء أن يحتاج إلى نصره إذا خذِل المسلمون وغلبوا على أمرهم، ثم ذكر جل جلاله علّة هذا النهي فقال: «بَغْضُهُمْ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ» أي إن اليهود بعضهم أنصار بعض، والنصارى بعضهم أنصار بعض، ولم يكن للمؤمنين منهم وليٌّ ولا نصير إذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول معهم من العهد من غير أن يبدأهم بقتال ولا عدوان فصار الجميع

حرباً للرسول ومن معه من المؤمنين. ومن ضرورة موالة بعضهم لبعض اجتماع الكل
 على مضاررتكم فكيف يتصور بينكم وبينهم موالة، ولذلك توعد من يفعل ذلك بقوله
 «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» أي ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين
 وهم في الحقيقة أعداء الله ورسوله والمؤمنين فهو لا شك منهم، ومن أهل دينهم لأنه لا يوالى
 أحداً أحداً إلا وهو عنه راضٍ، فإذا رضي عنه رضي دينه، فصار من أهل ملته، وهذا على
 سبيل المبالغة في الزجر، ومن هذا تعلم أنه إذا وقعت الموالة والمخالفة والمناصرة بين
 المختلفين في الدين لمصالح دنيوية لا تدخل في النهي الذي في الآية. كما إذا حالف
 المسلمون أمة غير مسلمة على أمة مثلها لا تفارق مصلحة المسلمين مع مصلحتها فليس يكون
 محظوراً، بل لا بأس به «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» بموالاتهم الكفار، وهو تعليل
 لكون من يوالىهم منهم. أي لا يهديهم إلى الإيمان بل يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر
 والضلال، ثم أخبر تعالى أن فريقاً من ضعاف الإيمان يفعل ذلك فقال: «فَتَرَى الَّذِينَ
 فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ» أي ترى المنافقين الذين اعتلَّ إيمانهم ولم يصل إلى
 درجة الإيمان الكامل أو اليقين كعبدالله بن أبي وغيره من المنافقين يُسارعون في موالاتهم
 «يَقُولُونَ» للمؤمنين معتذرين عنها «نَحْشَى أَنْ نُصِيبَ دَائِرَةً» يدورها الدهر علينا من
 جذب، أو غلبة الكفار على المؤمنين، ولا يتم أمر محمد فلا يميرونا، أي لا يعطون الميرة:
 بكسر الميم، وهي الطعام. قال تعالى: «فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ» بالنصر لنبية
 لإظهار دينه. وفي هذا ردُّ على أولئك المنافقين، وقطع لعلهم الباطلة وأطماعهم الفارغة.
 وتبشير للمؤمنين بالظفر الواقع لا محالة لأن عسى منه تعالى وَعَدُّ محتوم لا يتخلف «أَوْ أَمْرٍ
 مِنْ عِنْدِهِ» بهتك ستر المنافقين وافتضحهم، وقد هتكوا وافتضحوا «فَيُضْبِحُوا» أي
 المنافقون المتعللون بما مر «تَحَلَّى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ» من الشك وموالة الكفار
 «نَادِمِينَ» على ما فعلوا من اتخاذ الأولياء من اليهود والنصارى على المؤمنين وتقع الدوائر
 عليهم.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» سورة المائدة (الآية: ٥٥، ٥٦)

في الواحدي: قال جابر رضي الله عنه: جاء عبد الله بن سلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: إن قوماً من بني قريظة والنضير قد هاجرونا وفارقونا وأقسموا ألا يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعث المنازل، وشكى ما يلقى من اليهود فنزلت هذه الآية، فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: رضيينا بالله ورسوله وبالمؤمنين أولياءه ونحو هذا قال الكلبي: وزاد في آخر الآية أنها في علي بن أبي طالب رضوان الله عليه لأنه أعطى خاتمه سائلاً وهو راعٍ في الصلاة وذكر الأول الجلال، وعبارة الخازن: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبادة بن الصامت حين تبرأ من موالاته اليهود، قال: أتولى الله ورسوله والمؤمنين. يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر قول جابر المتقدم لكنه قال: رضيينا بالله رباً ورسوله نبياً وبالمؤمنين أولياءه وفي رواية ابن عباس عن أبي صالح قال: أقبل عبد الله بن سلام، ومعه نفر من قومه قد آمنوا، فقالوا يا رسول الله: إن منازلنا بعيدة، وليس لنا مجلس ولا متحدث، وإن قومنا لما رأونا آمناً بالله ورسوله، وصدقناه رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا، ولا يكلمونا، فشق ذلك علينا، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» الآية. ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراعي، فنظر سائلاً، فقال: هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم، خاتم من ذهب. قال: من أعطاكه؟ قال: ذلك القائم، وأوماً بيده إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: علي أي حال أعطاك؟ قال: أعطاني وهو راعٍ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ «وَمَنْ يَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» إذا فنزلت الآية كان متعلقاً بسببين كما علمت ولا مانع من ذلك، وعلى القول بأن الآية نزلت في علي كرم الله وجهه حين تصدق بخاتمه وهو راعٍ فيكون العمل القليل في الصلاة لا يفسدها. وقد اختلف العلماء في المراد من الركوع في الآية، فمنهم من قال: إن المراد به

الخشوع والمعنى أن المؤمنين يصلُّون ويزكُّون، وهم منقادون خاضعون لأوامره ونواهيه *
ومنهم من قال إنَّ المراد منه أن من شأن المؤمنين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإنما خصَّ
الركوع بالذكر تشريفاً له * ومنهم من قال: إنَّ الآية نزلت وهم ركوع. ومنهم من قال
اعتماداً على ما حكاه السدي أنها نزلت في شخص واحد معين وهو علي بن أبي طالب،
روى عن عبد الملك بن سليمان قال: سألت أبا جعفر: محمد بن علي الباقر رضي الله عنها
عن هذه الآية «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» من هم؟ فقال: المؤمنون،
فقلت: إن ناساً يقولون هو عليٌّ. فقال: عليٌّ من الذين آمنوا والقول بالعموم أولى فني
ابن كثير: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» نزلت في المؤمنين وعلي ابن أبي طالب أوَّلُهُمْ *
وقال أسباط عن السدي: نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن علي بن أبي طالب مرَّ
به سائل وهو راعٍ في المسجد فأعطاه خاتمه، وقد تقدَّم أن هذه الآيات نزلت في عبادة بن
الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف اليهود ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين،
ولهذا قال تعالى: «وَمَنْ يَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ
الْغَالِبُونَ» * فالآية نزلت على وفق ما مر من قصة عبادة بن الصامت * وفي الغرائب:
روى عن أبي ذر أنه قال: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة الظهر،
فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم أشهد أني
سألت في مسجد الرسول فما أعطاني أحد شيئاً، وعليٌّ كرم الله وجهه كان راعياً، فأومأ
إليه بخنصره اليمنى، وكان فيها خاتم، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم فرآه النبي صلى الله
عليه وسلم، فقال: اللهم إن أخي موسى سألك، فقال: «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي» إلى
قوله: «وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي» فأنزلت قرآناً ناطقاً «سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ
سُلْطَاناً» اللهم، وأنا محمد نبيك وصفيك، فاشرح لي صدري ويسر لي أمري، واجعل
وزيراً من أهلي عليّاً أشدد به أزرى. قال أبو ذر: فوالله ما أتمَّ رسول الله صلى الله عليه
وسلم هذه الكلمة حتى نزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد: اقرأ «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ..»
الآية.

أمَّا التفسير: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» أي لا وليَّ لكم أيها
المؤمنون، ولا ناصر ينصركم إلا الله ورسوله والمؤمنون الصادقون الذين اتَّصفوا بتلك
الصفات الآتية وهي: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ»

خاشعون، أو يصلُّون صلاة التطوع، وعبارة أبي السعود: وهم راكعون حال فاعل الفعلين، أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى * وقيل: هو حال مخصوصة بإيتاء الزكاة والركوع. ركوع الصلاة. والمراد بيان كمال رغبتهم في الإحسان ومسارعتهم إليه. أي إن المؤمنين الذين يقيمون بحق الولاية والنصرة لكم هم الذين يقيمون الصلاة ويؤدونها حق الأداء باشتغالها على الآداب الظاهرة والباطنة، ويعطون الزكاة مُستحقِّها، وهم خاضعون لأمر الله مع طيب نفس وهدوء بال لا خوفاً ولا رياء ولا سمعةً، دون المنافقين الذين يقولون: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. ويأتون بصورة الصلاة لا بروحها ومعناها المقصود منها، فإذا هم قاموا إليها قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً. وقوله: «وَمَنْ يَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» فيعينهم وينصرهم «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» بالحجة والبرهان فإنها مستمرة أبداً لا بالدولة والصولة، وإلا فقد غلب حزب الله غير مرة حتى في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. الكرخي * وعبارة الخازن: «وَمَنْ يَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» يعني ومن يتولى القيام بطاعة الله ونصر رسوله والمؤمنين. قال ابن عباس: يريد المهاجرين والأنصار ومن يأتي بعدهم. «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ» يعني أنصار دين الله «هُمُ الْغَالِبُونَ» لأنَّ الله ناصرهم على عدوهم * أي في أغلب الأحوال إذا أخلصوا نصرتهم لدين الله قال تعالى: «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» * وقال: «كَتَبَ اللَّهُ لأَعْلِينَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» «لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..» إلى قوله: «أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، فهو من جند الله وحزبه، وهم المفلحون في الدنيا والآخرة، ومنصورون في الدنيا والآخرة، ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على عدوهم، وفي رواية قائمة على الحق حتى يأتي أمر الله، أي نصره. «أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ» بلى.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا
وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» سورة المائدة (الآية: ٥٧)

في الواحدى والحازن والنسفى والغرائب وغيرها قال ابن عباس: كان رفاعه بن زيد، وسويد بن الحارث قد أظهرهما الإسلام، ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يواذونها، فأنزل الله تعالى هذه الآية ومعنى اتخذوا دينكم هزواً ولعباً هو إظهارهم الإسلام بألسنتهم قولاً، وهم مع ذلك يطنون الكفر ويسرونه وقوله: «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ» أي اليهود «وَالْكَفَّارَ» أي عبدة الأصنام قال الحازن: وإنما فصل بين أهل الكتاب والكفار، وإن كان أهل الكتاب من الكفار لأن كفر المشركين من عبدة الأصنام أغلظ وأفحش من كفر أهل الكتاب «أَوْلِيَاءَ» أي لا تتخذوا أهل الكتاب والكفار الذين يسخرون من دينكم أولياء وأنصاراً «وَاتَّقُوا اللَّهَ» بترك مواليتهم «إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» صادقين في إيمانكم.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ» سورة المائدة (الآية: ٥٨)

في الواحدى: قال الكلبي: كان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نادى إلى الصلاة فقام المسلمون عليها، قالت اليهود: قوموا صلوا اركعوا على طريق الاستهزاء، والضحك فأنزل الله تعالى هذه الآية قال السدى: نزلت في رجل من نصارى المدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله، قال: حرق الكاذب. فدخل خادمه بنار ذات ليلة، وهو نائم وأهله نيام، فطارت منها شرارة في البيت فاحترق هو وأهله وقال آخرون: إن الكفار لما سمعوا الأذان حضروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على ذلك، وقالوا يا محمد: لقد أبدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم، فإن كنت تدعى النبوة، فقد خالفت فيما أحدثت من هذا الأذان الأنبياء من

قبلك، ولو كان في هذا خير كان أولى الناس به الأنبياء والرسل من قبلك. من أين لك صياح كصياح البعير، فما أقيح من صوت، ولا أسمع من كفر، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وأنزل «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا» كذا في الغرائب والخازن والطبرى. قوله تعالى: «وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا» أي ومن شدة عداوتهم لدينكم أن إذا أذن مؤذنكم داعياً إلى الصلاة سخروا من دعوتكم إليها واستهزؤا بكم واعتبروا صلاتكم لعباً «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ» أن هزوهم ولعبهم من أفعال السفهاء والجهال الذين لا عقل لهم. أو ذلك الاتخاذ بأنهم قوم لا يعقلون ما في الصلاة من المنافع لأنها التوجه إلى الخالق والاشتغال بخدمة المعبود، أو لا يعلمون ما في اللعب والهزء من السفه والجهل. قال بعض الحكماء: أشرف الحركات الصلاة وأنفع السككات الصيام.

*** (القول في سبب نزول قوله تعالى :) ***

«قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ» سورة المائدة (الآية: ٦٠)

في الواحدي: قال ابن عباس: أتى نفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عمن يؤمن به من الرسل، فقال: أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله ونحن له مسلمون. فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم. فأنزل الله تعالى «قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ..» الآية وكذا في الغرائب والكشاف قوله «قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ» أخبركم «بشراً من» أهل «ذَلِكَ» الذي تنقمونه وهو ديننا «مَثُوبَةٌ» ثواباً بمعنى عقوبة، واستعملت المَثُوبَةُ هنا التي هي بمعنى الإحسان بمعنى العقوبة تهكماً مثل. فبشرهم بعذاب أليم. «عِنْدَ اللَّهِ» هو «مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ» أبعده عن رحمته «وَعَظِبَ عَلَيْهِ» أي وانتقم منه لأن الغضب إرادة الانتقام من العصاة «وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ» وفي هذا انتقال بهم من تبيكيت لهم بإقامة الحججة على هزئهم ولعبهم بما ذكر (إلى ما هو أشد منه تبيكيتاً وتشنيعاً عليهم،

ذلك هو التذكير بسوء حال آبائهم مع أنبيائهم، وما كان من جزاء الله لهم على فسقهم وقردهم بأشد ما جازى به الفاسقين الذين ظلموا أنفسهم) من اللعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت «أولئك» يعنى الملعونين والمغضوب عليهم والمسوخين «شر مكاناً» يعنى من غيرهم، ونسب الشر إلى المكان والمراد به أهله، فهو من باب الكناية. وقيل: أراد مكانهم سقر في جهنم ولا مكان أشد شراً منه «وأضل عن سوائ السبيل» أي وأخطأ عن قصد طريق الحق ووسطه الذي لا إفراط فيه ولا تفريط. ومثل هؤلاء يحملهم على الاستهزاء بدين المسلمين وبصلاتهم وأذانهم إلا الجهل وعمى البصيرة.

* ((أقوال العلماء في ماهية المسخ وسببه)) *

قال ابن جرير الطبري: حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة بن الفضل، عن ابن اسحاق عن عمرو بن كثير بن أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري قال: حدثت أن المسخ في بني إسرائيل من الخنازير كان أن امرأة من بني إسرائيل كانت في قرية من قرى بني إسرائيل، وكان فيها ملك بني إسرائيل، وكانوا قد استجمعوا على الهلكة إلا أن تلك المرأة كانت على بقیة من الإسلام، متمسكة به فجعلت تدعو إلى الله حتى إذا اجتمع إليها ناس، فتابعوها على أمرها. قالت لهم: إنه لا بد لكم من أن تجاهدوا عن دين الله. وأن تُنادوا قومكم بذلك، فاخرجوا إني خارجة، فخرجت، وخرج إليها ذلك الملك في الناس، فقتل أصحابها جميعاً. وانفلتت من بينهم، قال: ودعت إلى الله حتى تجتمع الناس إليها حتى إذا رضيت منهم، أمرتهم بالخروج فخرجوا وخرجت معهم، وأصيبوا جميعاً، وانفلتت من بينهم، ثم دعت إلى الله حتى إذا اجتمع إليها رجال واستجابوا لها أمرتهم بالخروج فخرجوا وخرجت معهم فأصيبوا جميعاً، وانفلتت من بينهم فرجعت وقد أيست، وهي تقول سبحان الله!! لو كان لهذا الدين وليٌ وناصر لقد أظهره بعد. قال: فباتت محزونة، وأصبح أهل القرية يسعون في نواحيها خنازير قد مسخهم الله في ليلتهم تلك. فقالت حين أصبحت ورأت ما رأت اليوم: أعلم أن الله قد أعز دينه. وأمر دينه، قال: فما كان مسخ الخنازير في بني إسرائيل إلا على يد تلك المرأة وفي الخنازير: قال ابن عباس: إن المسوخين كلاهما أصحاب السبت، فشبأنهم مسخوا قرده ومشأخهم مسخوا خنازيرهم وقيل: إن مسخ القرده كان في أصحاب السبت من اليهود، ومسخ الخنازير كان في الذين

كفروا بعد نزول المائدة في زمن عيسى عليه السلام. ولمّا نزلت هذه الآية عيّر المسلمون اليهود. وقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير، وافترضوا بذلك* وفي ابن كثير: في تفسير قوله تعالى «كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» البقرة. قال ابن عباس: إنّ الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم (يوم الجمعة) فخالفوا إلى السبت فعظّموه، وتركّوا ما أمروا به، فلمّا أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه فحرّم عليهم ما أحل لهم في غيره، وكانوا في قرية بين أيلة والطور يقال لها مَدْيَنُ، فحرّم الله عليهم في السبت الحيتان: صيدها وأكلها، وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعاً إلى ساحل بحرهم حتى إذا ذهب السبت ذهب هذين، فلم يروا حوتاً صغيراً ولا كبيراً حتى إذا كان يوم السبت أتين شرعاً حتى إذا ذهب السبت ذهب هذين، فكانوا كذلك حتى طال عليهم الأمد. وقرموا إلى الحيتان. عمد رجل منهم فأخذ حوتاً سراً يوم السبت، فحزمه بخيط ثم أرسله في الماء وأوتد له وتداً في الساحل، فأوثقه ثم تركه، حتى إذا كان الغد جاء فأخذه وقال: إني لم آخذه في يوم السبت (فانطلق به فأكله حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ريح الحيتان، فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل، قال: ففعلوا كما فعل، وصنعوا سراً زماناً طويلاً لم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها في الأسواق. فقالت طائفة منهم من أهل البقيّة: ويحكم اتقوا الله، ونهوهم عما كانوا يصنعون. فقالت طائفة أخرى: لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عما صنعوا: لِمَ يَعْظُونَ قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً؟ قالوا معذرة إلى ربكم. بسخطنا أعمالهم ولعلمهم يتقون. قال ابن عباس: فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقيّة في أنديتهم ومساجدهم. ففقدوا الناس فلم يروه. قال: فقال بعضهم لبعض: إنّ للناس شأناً فانظروا ما هو؟ فذهبوا ينظرون في دورهم فوجدوها مغلقة عليهم قد دخلوها ليلاً فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم. فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد. والمرأة بعينها وإنها لقردة. والصبي بعينه وإنه لقرد. قال: قال ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنّه نجى الذين نهوا عن السوء لقد أهلك الله الجميع منهم. قال: وهي القرية التي قال جل ثناؤه لمحمد صلى الله عليه وسلم: «وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ» الآية وقال السدي في قوله تعالى «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ»

قال: هم أهل أيلة. وهي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت (وقد حرّم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً) لم يبق في البحر حوت إلاّ خرج حتى يخرجن خراطيمهنّ من الماء. ويوم الأحد لزمّن سفّل البحر فلم يُرْ منهنّ شيء حتى يكون يوم السبت فذلك قوله تعالى «وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْتَدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا تَسْبِتُونَ إِلَّا تَأْتِيَهُمْ» فاشتى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفرة ويجعل لها نهراً إلى البحر. فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضرها حتى يلقبها في الحفرة، فيرد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فيها، فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوى السمك فيجد جاره ورائحه فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماءهم: وبحكم إنما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم. فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه فقال الفقهاء: لا ولكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل، قال: وغلبوا أن ينتهوا. فقال بعض الذين نهوهم لبعض «لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا» يقول: لم تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم. فقال بعضهم «مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» فلما أبوا قال المسلمون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسّموا القرية بمقدار ففتح المسلمون باباً، والمعتدون في السبت باباً، ولعنهم داود عليه السلام. فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم، فلما أبطثوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض. فذلك قول الله تعالى: «فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» وذلك حين يقول: «لَعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ» الآية. فهم القردهة (قلت): والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً. بل الصحيح أنه معنوي صوري. قاله ابن كثير: وهو الحق. فلفظ «مَسْخُوبَةٌ» في آية المائدة. عقوبة يدل عليه وأن المسلمين يعيرونهم بعد نزول الآية باخوان القردهة والخنازير فينكسون رؤسهم. ولعن داود من أحد الأسباب الموجبة لمسخهم، ولعله كان قد طلب ذلك من الله تعالى فاستجاب الله دعاءه. وعن ابن مسعود قال: سئل

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير: أهي ممّا مسخ الله؟ فقال: إنّ الله لم يَهْلِكَ قَوْمًا، أو قال: لم يسخ قومًا فيجعل لهم نسلًا ولا عقبًا. وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك * وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ومسعر كلاهما عن مغيرة بن عبد الله اليشكري به * وعن ابن مسعود أيضاً قال: سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير: أهي من نسل اليهود؟ فقال: [لا، إنّ الله لم يلعن قومًا قط فيمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم] رواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات به. ولم يقل صلى الله عليه وسلم: أنه مسخ معنوي لأنه لو وقع كذلك لكان الجواب إيضاحاً له. وهذه كلها دلائل وقرائن تثبت صحة مسخهم معنويًا وصورياً. ومما يدل عليه قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» وقوله «فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ فُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ» وجهرة العلماء على أنهم مسخوا قردة وخنازير على الحقيقة الصورية وانقرضوا لأنّ المسوخ لا يكون له نسل كما علمت. وما نقله ابن جرير عن مجاهد أنه قال: مسخت قلوبهم ولم يسخوا قردة لا دليل له لا من كتاب ولا سنة، وهو معارض بما ذكرناه.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»
سورة المائدة (الآية: ٦٧)

في الواحدى: قال الحسن: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما بعثني الله تعالى برسالاتي ضقت بها ذرعاً، وعرفت أنّ من الناس من يكذبني. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يهيب قريشاً واليهود والنصارى. فأنزل الله تعالى هذه الآية وفي الطبرى: عن محمد بن كعب القرظي وغيره قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة ظلييلة فيقبل تحتها، فأتاه أعرابيٌّ فاخترط سيفه ثم قال: من يمنعك مني؟ قال: الله، فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه، قال: وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله «والله يعصمك من الناس» وعن ابن جرير قال: كان

النبي صلى الله عليه وسلم يهاب قريشاً فلما، نزلت هذه الآية: «والله يعصمك من الناس» استلقى. ثم قال من شاء فليخذلني مرتين أو ثلاثاً» وفي الغرائب: «يا أيها الرسول بلِّغ» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن هذه الآية نزلت في فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه يوم غدِير خَم، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده، وقال: من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه: اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، فلقيه عمر، وقال: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن عليّ وقيل: لما نزلت آية التخيير: «يا أيها النبي قل لأزواجك» فلم يعرضها عليهنَّ خوفاً من اختيارهم الدنيا. نزلت: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» وقيل: نزلت في أمر زيد وزينب بنت جحش. وقيل: لما نزل: «ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله» سكت النبي صلى الله عليه وسلم عن عيب آهتهم، فنزلت. أي بلغ معايب آهتهم ولا تخفها. وقيل: إنه صلى الله عليه وسلم لما بين الشرائع والمناسك في حجة الوداع. قال: هل بلغت؟ قالوا: نعم. فقال صلى الله عليه وسلم: اللهم اشهد فنزلت. وعبارة القرطبي قالت عائشة: سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فقلت يا رسول الله: ما شأنك؟ قال: ألا رجل صالح يحرسني الليلة، قالت: فبينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح، فقال: من هذا؟ قال: سعد وحذيفة جئنا لنحرسك. فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيته فنزلت هذه الآية. فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قبة آدم. فقال: انصرفوا أيها الناس فقد عصمتي الله، وفي رواية ابن عباس: قد عصمتي من الجن والإنس. وفي الخازن وقيل: نزلت في اليهود، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام، فقالوا: أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤون، ويقولون: تريد أن تتخذك حناناً كما اتخذت النصراني عيسى حناناً، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منهم سكت، فأُنزل الله هذه الآية، وأمره أن يقول لهم: «يا أهل الكتاب لستم على شيء» وقيل: نزلت هذه الآية في أمر الجهاد لما علم من كراهية بعضهم له، فأُنزل الله هذه الآية. وقيل: نزلت في قصة الرجم والقصاص وما سأل عنه اليهود وأصح الأقوال (والله أعلم): ما ذكر من أنها نزلت في أمر زينب بنت جحش. أي بلغ ما أنزل إليك في أمر زينب بنت جحش، وهو مذكور في البخاري. وقريب من الصحة أيضاً: بلغ ما أنزل

إليك في أمر نسائك، أو من حقوق المسلمين في حجة الوداع. وعند الجوزى بلغ ما أنزل الله إليك من الرجم والقصاص. وفي البخارى عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدثك أن محمداً صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب. والله يقول: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» الآية. أي يا أيها الرسول بلغ إلى الخلق جميع ما أنزل إليك من ربك مالك أمرك، ولا تخشى في ذلك أحداً، ولا تخف أن ينالك من الناس مكروه، «وإن لم تفعل» أي لم تبلغ جميع ما أنزل إليك، «فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» بالافراد والجمع — رسالاته — لأن كتمان بعضها ككتمان كلها، وظاهر التركيب: وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، اتحاد الشرط والجزاء لأنه يؤل ظاهراً إلى وإن لم تفعل فما فعلت مع أنه لا بد أن يكون الجواب مغايراً للشرط لتحصيل الفائدة ومتى اتحدا اختل الكلام. وأجاب عن ذلك ابن عطية بقوله: وإن تركت شيئاً فقد تركت الكل وصار ما بلغته غير معتد به، فصار المعنى وإن لم تستوف ما أمرت بتبليغه فحكمتك في العصيان وعدم الامتثال حكم من لم يبلغ شيئاً أصلاً، وقد أشار الجلال إلى هذا بقوله: أي لم تبلغ جميع ما أنزل إليك لأن كتمان بعضها ككتمان كلها. السمين. أي أن التركيب جار على طريق التهديد، والمراد إن لم تبلغ منها أدنى شيء فأنت كمن لم يبلغ شيئاً لأن أداء بعضها ليس أولى من أداء البعض الآخر. كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها. أو المراد إن لم تفعل فلنك ما يوجب كتمان الوحي كله، فوضع السبب موضع المسبب، ويعضده ما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [بعثنى الله برسالاته وضقت بها ذراعاً، فأوحى الله إلي إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك، وضمن لي العصمة، فقويت] كذا في الغرائب. وقوله: «والله يعصمك من الناس» المراد بالعصمة هنا القتل. أي والله يعصمك من الناس أن يقتلوك. وقد علمت أنه صلى الله عليه وسلم كان يحرس حتى نزلت فقال: انصرفوا فقد عصمني الله. رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح الاسناد ولم يخرجاه. وروى الترمذي وأبو الشيخ والحاكم وأبونعيم والبيهقي عن بضعة رجال من الصحابة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحرس في مكة قبل نزول هذه الآية، وكان العباس ممن يحرسه، فلما نزلت ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرس. وروى: أن أبا طالب كان يبعث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من يحرسه إذا خرج حتى نزل «والله يعصمك من الناس» فذهب ليبعث معه، فقال يا عم: إن الله حفظني لا حاجة

لى إلى من تبعث. وهذه دلائل وقرائن تفيد أن الآية مكية، ولا صحة لقول من قال إنها مدنية بعد أحد. نعم، ادرجت الآية في سياق تبليغ أهل الكتاب وهو مدنى لتدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عرضة لإيذاء أهل الكتاب ورصدهم له أكثر من غيرهم، ولذا فقد حاولوا اغتياله أكثر من مرة فعصمه الله منهم. ثم ذكر ما هو كالسبب في العصمة فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» أي إنه تعالى يصرف وجوه أولئك الكافرين الذين هم بصدد قتلك وإيذاك إلى أن يكونوا دائماً خائبين لتبلغ رسالات ربك التي يتم بها إكمال الدين، وقد فعل الله ما أَرَادَ، وهدى به من شاء من العباد.

*** (القول في سبب نزول قوله تعالى :) ***

«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ
مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى
الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ
رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» سورة المائدة (الآية: ٨٢، ٨٣)

قال الواحدي: نزلت في النجاشي وأصحابه. قال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يخاف على أصحابه من المشركين، فبعث جعفر بن أبي طالب، وابن مسعود في رهط من أصحابه إلى النجاشي، وقال: إنه ملك صالح لا يظلم ولا يُظلم عنده أحد، فاخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً. فلما وردوا عليه أكرمهم. وقال لهم: تعرفون شيئاً مما أنزل عليكم؟ قالوا: نعم، قال: اقرأوا فقرؤا وحوله القسيسون والرهبان. فلما قرأ آية انحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق. قال الله تعالى: «ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ» قال الله تعالى: «ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ» وفي رواية عروة والزبير وغيرهما فقرأ سورة مريم عليها السلام، فآمنوا بالقرآن، وأفاضت أعينهم من الدمع. وهم الذين أنزل فيهم «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى» إلى قوله «واكتبنا مع الشاهدين» قال السيوطي في لبابه. أخرج هذا ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب وأبي بكر عن عبد البر، وعروة بن الزبير وقال الجلال: إنها نزلت في وفد النجاشي القادمين

عليهم من الحبشة قرأ صلى الله عليه وسلم عليهم سورة يس فبكوا وأسلموا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى ؑ وعبارة الخازن قال ابن عباس وغيره من المفسرين في قوله تعالى «وَلْتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى» قالوا: إن قريشاً ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثب كل قبيلة على من آمن منهم، فأذوهم وعذبوهم، فافتتن من افتتن منهم، وعصم الله من شاء منهم، ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل بأصحابه ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين، ولم يكن قد أمر بالجهاد. أمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة. وساق الهجرة الحبشية بكاملها، وهي مطولة جداً، وقيل: نزلت في ثمانين رجلاً: أربعين من نصارى نجران من بني الحرث بن كعب، واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم. وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء بها عيسى عليه السلام. فلما بعث صلى الله عليه وسلم آمنوا به وصدقوه، فأثنى الله عليهم بقوله «وَلْتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قَسِّيْسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» يعني لا يتعاطمون عن الإيمان والإذعان للحق. كذا مجمل ما في الخازن والقرطبي وجميع الأقوال في بقية التفاسير تدور في فلك الذي ذكرناه.

أما التفسير: قوله تعالى: «لْتَجِدَنَّ» يا محمَّد. اللام للقسم. وهذا كلام مستأنف لتقرير ما قبله من قبائح اليهود. «أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا» المسلمين «الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا» من أهل مكة عباد الأوثان الذين اتخذوها آلهة يعبدونها لتقرهم إلى الله، وقد ذكر أصحاب التواريخ والسير أن أشد ما لاقى المصطفى صلى الله عليه وسلم من العداوة والإيذاء كان من يهود الحجاز في المدينة وما حولها، ومن مشركى العرب ولا سيما بمكة وما قرب منها، وقد كان يجمع بين اليهود والمشركين الكثير من قبيح الصفات التي جعلتهم مقتدرين بعضهم ببعض كالكبر والعتو والبغى والمكر والكذب والاستهزاء والسخرية، وغلبة الحياة المادية المترفة، والأثرة، وحب الذات، والقسوة على الضعفاء، والعصبية الجنسية والحمية القومية، وإن كان مشركوا العرب أرق من اليهود قلوباً وأعظم سخاءً وإيثاراً ونجدة، وأكثر استقلالاً في الرأي وحرية الفكر، ويدل على هذا تقديم ذكر اليهود على المشركين إيداناً بتفوقهم على مشركى العرب بالصفات الذميمة فضلاً عما

امتازوا به من مخالفة الله وقتل الأنبياء، واستحلال أكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك من الجرائم الجمة، وكذلك فعل تعالى في تقديمهم في قوله: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أُشْرِكُوا» في الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ما خلا يهوديان بمسلم إلا هماً بقتله] وذلك لبيان عتوبى إسرائيل وشدة عداوتهم وتمردهم، وقد علل سبحانه وتعالى سهولة مأخذ النصارى وقرب مودتهم للمؤمنين فقال: «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى» أي أنصار دين الله. وموادون لأهل الحق، وقد صدق من قال: مذهب اليهود يوجب عليهم إيصال الشر والأذى إلى من خالفهم في الدين. ومذهب النصارى تحريم الأذى مطلقاً. وكذا يقال: إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الملك والرياسة والعلو ومن كان كذلك كان شديد العداوة لغيره. أما النصارى فإن فيهم من هو معرض عن الدنيا ولذاتها، وترك طلب الملك والرياسة والعلو على الخلق، ومن كان كذلك فإنه لا يحسد أحداً ولا يعاديه بل يكون ألين عريكة في طلب الحق والمودة لأهله فلذا قال جل جلاله: «ذَلِكَ» أي قرب مودتهم للمؤمنين «بِأَنَّ» بسبب أن «مِنْهُمْ قَتْسِيِّينَ» علماء «وَرُؤُوبَانَا» عبّاداً «وَأَنَّهَمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» عن اتباع الحق كما يستكبر اليهود وأهل مكة. وقَتْسِيِّينَ جمع قَتْسِيٍّ على فعيل، وهو مثال مبالغة كصديق، وهو هنا رئيس النصارى وعالمهم، وأصله من تقسّس الشيء إذا اتبعه وتطلبه بالليل، يقال: تقسّستُ أصواتهم، أي تتبعتها بالليل. قال الراغب: وقال غيره: القسُّ بفتح القاف: تتبع الشيء، ومنه سُمي عالم النصارى قَتْسِيًّا لتتبعه العلم. وزعم ابن عطية أنه أعجميّ معرّب. وقال عروة بن الزبير: ضيّعت النصارى الإنجيل وما فيه، وبقى منهم رجل يقال له قَتْسِيٌّ يعني بقى على دينه لم يبدله، فن بقى على هديه ودينه يقال له قَتْسِيٌّ. وقسّ بن ساعدة كان أعلم أهل زمانه، وهو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: [يبعث أمةً وحده] وقوله: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ» الضمير في سمعوا يعود على النصارى المتقدمين بعمومهم. وقيل: إنما يعود لبعضهم، وهو من جاء من الحبشة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عطية: لأن كل النصارى ليسوا كذلك وفي الخازن: قال ابن عباس: يريد النجاشي وأصحابه لما قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم، قال: فما زالوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة. وهذا معنى قوله «تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ» أي كان فيض

الدمع من أجل سماع الحق وبسببه هذا على القول بأن من الأولى لا ابتداء الغاية أي أن الدمع ابتدئ ونشأ من معرفة الحق، والثانية لبيان الموصول الذي هو ما عرفوا، ويجوز أن تكون للتبعيض أي عرفوا بعض الحق ففاضت أعينهم، وهو أن عيسى عبد الله ورسوله * «يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا» صدقنا بنبيك وكتابه. وهذه الجملة استثنائية لأنها مبنية على سؤال كأنه قيل فاذا يقولون بعد أن عرفوا الحق قال: يقولون ربنا.. «فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» المقربين بتصديقها. أي أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون على الناس يوم القيامة بالحق كما في قوله تعالى: «لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» قالوا ذلك: لأنهم وجدوا ذكرهم في الإنجيل كذلك.

*** ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) ***

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ» سورة المائدة (الآية: ٨٧، ٨٨)

في الواحدى: قال المفسرون: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فذكر الناس، ووصف القيامة، ولم يزدهم على التخويف، فرق الناس وبكوا، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحى، وهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو وأبوذر الغفارى، وسالم مولى أبى حذيفة، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسى ومعل بن مضر. واتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحوم ولا الودك (دسم اللحم والشحم) ويترهبوا، ويجبوا المذاكير. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجمعهم فقال: ألم أنبأ بأنكم اتفقتم على كذا وكذا، فقالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلا الخير، فقال: إني لم أؤمر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وأكل اللحم والدسم، ومن رغب عن سنتى فليس منى، ثم خرج إلى الناس، وخطبهم فقال: ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم، وشهوات الدنيا، أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ولا رهباناً، فإنه ليس في دينى ترك اللحم والنساء ولا اتّخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتى الصوم ورهبانيتها الجهاد، واعبدوا الله ولا

تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَحُجُّوا وَعَاتَمَرُوا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَصَوْمُوا رَمَضَانَ فَإِنَّمَا هَلَكَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِالتَّشْدِيدِ، شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. فَأَوْلَيْتُكَ بَقَايَا فِي الدِّيَارَاتِ وَالصَّوَامِعِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: كَيْفَ نَصْنَعُ بِأَيْمَانِنَا الَّتِي حَلَفْنَا عَلَيْهَا؟ وَكَانُوا حَلَفُوا عَلَى مَا عَلَيْهِ اتَّفَقُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ..» الْآيَةَ وَكَذَا فِي الْغَرَائِبِ. زَادَ السِّيُوطِيُّ فِي لِبَابِهِ: وَرَوَى بَنُو أَبِي حَاتِمٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمٍ أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ أَضَافَهُ ضَيْفٍ مِنْ أَهْلِهِ. وَهُوَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَوَجَدَهُمْ لَمْ يَطْعَمُوا ضَيْفَهُ انْتِظَاراً لَهُ، فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ: حَبَسْتَ ضَيْفِي مِنْ أَجْلِ هُوَ حَرَامٌ عَلَيَّ، فَقَالَتْ امْرَأَتُهُ: هُوَ عَلَيَّ حَرَامٌ. فَقَالَ الضَّيْفُ: هُوَ عَلَيَّ حَرَامٌ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ، وَضَعَ يَدَهُ وَقَالَ: كُلُوا بِسْمِ اللَّهِ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ الَّذِي كَانَ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ..» وَرَوَى بَنُو جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدُودٍ عَنْ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ..» الْآيَةَ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي رَهْطٍ مِنَ الصَّحَابَةِ. قَالُوا: نَقَطَعَ مَذَاكِيرَنَا وَنَتْرَكَ شَهْوَاتِ الدُّنْيَا، وَنَسِيحَ فِي الْأَرْضِ كَمَا تَفْعَلُ الرُّهْبَانُ، فَلَبِغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ فَذَكَرَهُمْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَكُنْتُمْ أَصُومُ وَأُفْطِرُ، أَصَلِي وَأُنَامُ وَأُنْكَحُ النِّسَاءَ فَمَنْ أَخَذَ بِنِسْتِي فَهُوَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِنِسْتِي فَلَيْسَ مِنِّي] وَهَكَذَا بَقِيَّةُ الْأَقْوَالِ فِي التَّفَاسِيرِ. قَوْلُهُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ»، أَيُّ مَا طَابَ وَلَدَمْنَهُ، مِثْلُ قَوْلِهِ: «فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» أَيُّ مَا تَسْتِطِيعُهُ نَفُوسِكُمْ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشْرَابِ وَالْمَنَاكِحِ. وَكَأَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا تَضَمَّنَ مَا سَلَفَ ذَكَرَهُ مِنْ مَدْحِ النَّصَارَى عَلَى التَّرْهِيْبِ، وَتَرْغِيبِ الْمُؤْمِنِينَ فِي كَسْرِ النَّفْسِ، وَرَفْضِ الشَّهْوَاتِ عَقَبَ ذَلِكَ النَّهْيَ عَنِ الْإِفْرَاطِ فِي الْبَابِ. أَيُّ لَا تَمْنَعُوهَا أَنْفُسَكُمْ كَمَنْعِ التَّحْرِيمِ، أَوْ لَا تَقُولُوا حَرَمْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا مِبَالِغَةً مِنْكُمْ فِي الْعَزْمِ عَلَى تَرْكِهَا تَزْهَداً مِنْكُمْ وَتَقَشِفاً وَمَنْ اعْتَقَدَ تَحْرِيمَ شَيْءٍ أَحَلَّهُ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَقَدْ كَفَرَ، أَمَّا تَرْكُ لَذَاتِ الدُّنْيَا وَشَهْوَاتِهَا وَالانْقِطَاعَ إِلَى اللَّهِ وَالتَّضَرُّغَ لِعِبَادَتِهِ مِنْ غَيْرِ حَرَمَانِ النَّفْسِ حَقَّهَا فَهَذَا لَا شَيْءَ فِيهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَا تَعْتَدُوا» أَيُّ بِالْإِسْرَافِ فِي الطَّيِّبَاتِ «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ» الْمُتَجَاوِزِينَ الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ «وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» أَيُّ تَمَتَّعُوا بِأَنْوَاعِ الرِّزْقِ، وَخَصَّ الْأَكْلَ لِأَنَّهُ أَغْلَبُ

الانتفاع بالرزق «حَلَالاً طَيِّباً» مفعول. أي كلوا شيئاً حلالاً مما رزقكم الله إياه «وَاتَّقُوا اللَّهَ» في كسبه «الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ» مصدقون. والمعروف من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم أنه كان يأكل ما وجدته فتارة يأكل أطيب الطعام كلحوم الأنعام والطيور والدجاج، وتارة يأكل أخشنه كخبز الشعير بالملح، أو الزيت أو الخَلّ، وحيناً يجوع وأخرى يشبع، فكان في ذلك قدوة للموسر والمغسر، وما كان يهجم أمر الطعام لكنه يُعْتَنَى بأمر الشراب. ففي حديث عائشة رضي الله عنها [كان أحبّ الشراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلو البارد] قال المحدثون: ويدخل في ذلك الماء القراح، والماء المحلى بالعسل، أو نقيع التمر أو الزبيب.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» سورة المائدة (الآية: ٨٩)

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما نزلت «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم» في القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم على أنفسهم، قالوا يا رسول الله: كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ فأنزل الله تعالى «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ» وأخرج أبو الشيخ عن يعلى بن مسلم قال: سألت سعيد بن جبيرة عن هذه الآية. قال: اقرأ ما قبلها فقرأت «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم» إلى قوله: «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ» وكذا في الخازن: قوله تعالى «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ» الكائن «في أَيْمَانِكُمْ» هو ما يسبق إليه اللسان من قصد الحلف كقول الانسان لا والله، وبلى والله، وهذا اللغو في اليمين يسمى اليمين الساقط الذي لا يتعلق به حكم، وهو أن يحلف على شيء يظنّ أنه كذلك، وليس كما يظن وهو قول مجاهد. قيل: كانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظنّ أنه قرينة فلما نزل النهي قالوا: كيف بأيماننا فنزلت * وعند الشافعي رحمه الله: ما يبدو من المرء غير قصد

كقوله: لا والله، وبلى والله، وهو قول عائشة رضي الله عنها، وفي معنى من كما قاله القرطبي: والمعنى لا يؤخذكم الله بالأيمان التي تحلفونها بلا قصد، فلا كفارة عليها في الدنيا ولا عقوبة في الآخرة «وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ الْأَيْمَانَ» أي بما صمتم عليه من الأيمان وقصدتموه إذا أنتم حنثتم فيه. وهذه المؤاخذة بينها سبحانه بقوله «فَكَفَارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَخْرِيرَ رَقَبَةٍ» فإذا حنث الحالف في يمينه عليه أن يكفر عنها على التخيير بإحدى هذه المكفرات الثلاث:

١ - أن يطعم عشرة مساكين وجبته واحدة من غالب الطعام الذي يأكله أهله في البيت. لا من أردئه ولا من أعلاه. وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام.

٢ - أو كسوة عشرة مساكين إذا لم يطعمهم كالجلاية ونحوها مما يستر البدن كله، ولا يجزىء ما يوضع على الرأس من طربوش أو عمامة فلا يقال لها كسوة.

٣ - أو اعتاق رقيق ولا يشترط إيمانها عند أبي حنيفة خلافاً للأئمة الثلاثة فقد اشترطوا إيمانها

«فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ» ذلك «فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» متتابعات. فإن كان مريضاً صام عند القدرة، فإن لم يقدر يرجى له عفو الله ورحمته. «ذَلِكَ كَفَّارَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ» بالله أو بأحد أسمائه وحنثتم «وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ» فلا تبدلوا في أتفه الأمور وأحقرها، ولا تكثروا من الأيمان الصادقة فضلاً عن الأيمان الكاذبة قال تعالى «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ» وإذا حلفتم فلا تنسوا ما حلفتم عليه ولا تحنثوا فيه إلا لضرورة تعرض، أو مصلحة تجعل الحنث راجحاً. «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» أي بين الله لكم أعلام شريعته، وأحكام دينه ليعدكم بذلك إلى شكر نعمه على الوجه الذي يحبّه ويرضاه.

* ((مسائل تتعلق بالأيمان لا بده من معرفتها)) *

١ - لا يجوز الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته. قال عليه الصلاة والسلام: [من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله] رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر. وفي رواية عنه لأحمد والبخاري [من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت] ويدخل في النهي الحلف

بالنبي والكعبة وسائر ما هو معظم شرعاً تعظيماً يليق به فالتعظيم لا يجوز إلا لله تعالى في هذا الأمر. ولقد كان غلّوا الناس في تعظيم الأنبياء والصالحين منهم سبباً لهدم الدين.

٢ — يجوز الحنث في اليمين لمصلحة راجحة مع التكفير. روى أحمد والشيخان عن عبدالرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأتت الذي هو خير وكفرت عن يمينك] وفي لفظ عن أبي داود والنسائي [فكفرت عن يمينك ثم أتت الذي هو خير] دلّ اختلاف الرواية في تقديم الأمر بالكفارة أو تأخيره على جواز الأمرين.

* ((الحلف باعتبار المحلوف عليه على أقسام)) *

أولاً: أن يكون الحلف على فعل واجب أو ترك حرام. وهذا تأكيد لما كلف الله به الحنث ويكون الاثم مضاعفاً.

ثانياً: أن يكون على ترك واجب أو فعل حرام. ويجب في هذا الحنث لأن اليمين معصية، ومن ذلك الحلف على إيذاء الوالدين وعقوقهما، أو منع ذى حقّ حقّه الواجب له، والحلف على ترك المباح كالطيب من الطعام، فإن ذلك تشريعاً بتحريم ما أحلّ الله كما فعلت الجاهلية في تحريم بعض الطيبات.

ثالثاً: أن يكون على فعل مندوب أو ترك مكروه. وهذه طاعة يندب له الوفاء به، ويكره الحنث ومن ذلك الحلف على ترك طعام معين كالطعام الذي في هذه الصفحة مثلاً كما فعل عبدالله بن رواحة في تحريمه الطعام على نفسه، ثم أكل منه لأجل الضيف، وقد تقدم ذلك من قريب في آية «يا أيّها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم...».

* ((الأيمان ثلاثة أقسام)) *

الأول: ما ليس من أيمان المسلمين كالحلف بالمخلوقات نحو الكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء. وهذه يمين غير منعقدة ولا كفارة فيها، وهي منهي عنها، وتعمدها إثم، ويخشى أن تكون كفراً لما روى [من حلفت بغير الله فقد كفر].

الثاني: يمين بالله تعالى كقوله: والله لأفعلنّ كذا، وهذه يمين منعقدة فيها كفارة عند الحنث.

الثالث : أيمان في معنى الحلف بالله يريد بها الحلف تعظيم الخالق كالحلف بالنذر والحرام والطلاق والعتاق. كقوله: إن فعلت كذا فعلى صيام شهر، أو الحج إلى بيت الله، أو على الحرام لا أفعل كذا. أو الطلاق يلزمني لا أفعل كذا. أو إن فعلته فزوجتي طالق فيجزئه كفارة يمين. لأنها واردة في صيغة اليمين نيّة وقصدًا.

* ((اليمين الغموس)) *

هي التي يُهَضَمُ بها الحق، أو يقصد بها الخيانة والغش، لا يكفرها عتق ولا صدقة، ولا صيام، بل لا بُدَّ من التوبة وأداء الحقوق لأربابها والاستقامة، قال تعالى: «وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» وقال صلى الله عليه وسلم: [مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ صُبْرٍ وَهُوَ فِيهَا فَاجِرٌ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضِبَانٌ] رواه البخاري ومسلم. وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم لأنه حلف كاذباً على علم منه.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » سورة المائدة (الآية: ٩٠، ٩١)

في الواحدي: روى مسلم عن أبي خيثمة قال: حدثنا حسن أبو موسى قال: حدثنا الزبير قال: حدثنا سماك بن حرب، قال: حدثني مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أتيت على نفر من المهاجرين، فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمرًا، وذلك قبل أن يحرم الخمر، فأتيتهم في حش، والحش: البستان، وإذا رأس جزور مشوياً عندهم ودنّ خمر، فأكلت وشربت معهم، وذكرت الأنصار والمهاجرين، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، فأخذ رجل لحي الرأس، فجدع أنفي بذلك، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأنزل الله تعالى في شأن الخمر «إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ.» إلى قوله «فهل أنتم منتهون» كذا في كثير من الروايات * وفي رواية أبي مسير عن عمر بن الخطاب قال:

اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في البقرة «يسألونك عن الخمر والميسر» فدعى فقرئت عليه. فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في النساء «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى» فكان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقم الصلاة ينادى: لا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه. فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية «إنما الخمر والميسر..» فدعى عمر فقرئت عليه، فلما بلغ «فهل أنتم منتهون» قال عمر: انتهينا يارب كما في بعض الرويات وقال علي رضي الله عنه: كانت لي شارف (ناقة) من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني شارفاً من الخمس، ولما أردت أن أبتى بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعدت رجلاً صواغاً من بنى قيثاق أن يرتحل معي فنأق بأذخر، أردت أن أبيع من الصواغين فأستعين به في وليمة عرسى، فبينما أنا أجمع لشارفي من الأقتاب، والغرائر والحبال، وشارفي مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، فإذا أنا بشارفى قد أجبت أسنتها، وبقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، فلم أملك عيني حين رأيت ذلك المنظر!! من فعل هذا؟ فقالوا: فعله حمزه، وهو في البيت في شرب الأنصار، عنده قينة وأصحابه، فقالت في غنائها:

ألا يا حمزة للشرف النواء	وهن معقلات بالفناء
فرج المسكين في اللبات منها	فضرجهن حمزة بالدماء
فأطعم من شرائحها كبابا	ملهوجة على رهج الصلاء
فأنت أبا عمارة المرجى	لكشف الضر عنا والبلاء
فوئب إلى السيف	فأجبت أسنتها
وبقر خواصرها	وأخذ من أكبادها

قال علي رضي الله عنه: فانطلقت حتى أدخل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده زيد بن حارثة، قال: فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لقيت، فقال: ما لك به؟ فقلت يا رسول الله: ما رأيت كالיום!! عدا حمزة على ناقتي، وجبت أسنتها، وبقر خواصرهما، هوذا في بيتي، معه شرب. قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بردائه، ثم انطلق يمشي، فاتبعت أثره أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي هوفيه، فاستأذن

فأذن له، فإذا هم شرب، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم لوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل حمل محرمة عيناه، فنظر حمزة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال: وهل أنتم إلا عبيد أبي، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ثمل، فنكص على عقبيه القهقري، فخرج وخرجنا. رواه البخارى عن أحمد بن صالح. كذا ذكره الواحدى، وصاحب الغرائب وفي لباب السيوطى: روى أحمد عن أبي هريرة قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها: فأُنزل الله «يسألونك عن الخمر والميسر..» فقال الناس: ما حرم علينا إنما قال إنهم كبير، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين: أم أصحابه في المغرب، فخلط في قراءته. فأُنزل الله آية أشد منها «يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» ثم نزلت آية أشد من ذلك «يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ» إلى قوله «فهل أنتم منتهون» قالوا: انتهينا يا رب. فقال الناس يا رسول الله: ناس قُتلوا في سبيل الله، وماتوا على فراشهم وكانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان، فأُنزل الله «ليس على الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا» وفي اللباب: وروى النسائى والبيهقى عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا، فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض. فلما صحوا جعل الرجل ير الأثر في وجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع بى هذا أخى فلان وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغان، فيقول: والله لو كان بى رؤفاً رحيماً ما صنع بى هذا، حتى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأُنزل الله هذه الآية «يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ..» الآية. فقال ناس من المتكلفين: هي رجسٌ وهي في بطن فلان، وقد قتل يوم أحد. فأُنزل الله «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ..» وفي رواية حماد عن أنس (كما في الواحدى) قال: كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبى طلحة، وما شربهم إلا الفضيخ والبسر والتمر، وإذا منادي ينادي: إنَّ الخمر قد حرمت، قال: فأريقت في سكك المدينة، فقال أبو طلحة: اخرج فأرقها، قال: فأرقتها، فقال بعضهم: قتل فلان وقتل فلان، وهى في بطونهم قال: فأُنزل الله تعالى «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ..» رواه مسلم عن أبى الربيع، ورواه البخارى عن النعمان

كلاهما عن حماد، وفي البخارى قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما كان لنا خمرٌ غير فضيخكم هذا الذي تسمونه الفضيخ (شراب يتخذ من البسر وحده من غير أن تمسه النار) فإني لقاتم أسقى أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل، فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذلك؟ قال: حرمت الخمر. فقالوا: أهرق هذه القلّال (جرار) يا أنس قال: فما سألوها عنها، ولا راجعوها بعد خبر الرجل * وفي رواية له وفي آخرها: قال: فجرت في سلك المدينة. قال: وكانت خمرهم يومئذ الفضيخ، فقال بعض القوم قتل قوم وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات حناخ فيما طعموا» وهنا روايات كثيرة في التفاسير جميعها متقاربة اللفظ والمعنى فيما ذكرت.

أما التفسير: «يا أيها الذين آمنوا إنمّا الخمر» المسكر الذي يخامر العقل أي يستره ويغطيه. روى البخارى عن ابن عمر قال: سمعت عمر رضي الله عنه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أما بعد أيها الناس، إنّه نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة: من العنب والتمر والعسل والحنطة، والشعير، والخمر ما خامر العقل. أي ستره وغطاه، وصار عليه كالخمار، وهو بعمومه يتناول كل ما أزال العقل. سواء كان متخذاً من العنب والزبيب والحبوب بأنواعها، أو نباتاً كجوز الهند والحشيش ولبن الخشخاش، وكل ذلك إذا أسكر حرم، وما ورد في رواية مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم [الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب] لا تعارض بين هذا وبين الذي ذكرناه، لأن كل واحد من الرواة حفظ ما سمعه من الأصناف وأن مفهوم العدد ليس بجمعة على الصحيح وعليه الجمهور. وقوله «والميسر» القمار هو اللعب بالملاهي كالطاب والمنقلة والطاولة. وسمى القمار. أي اللعب ميسراً لأن فيه أخذ المال بيسر. «والأنصاب» الأصنام «والأزلام» قدام الاستقسام. أي قطع رقيقة من الخشب بهيئة السهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم «رجس» في السمين قال الزجاج: الرجس اسم لكل ما استقدر من عمل قبيح، يقال: رجس ورجس (بكسر الجيم وفتحها) يرجس رجساً إذا عمل عملاً قبيحاً، وأصله من الرجس، وهو شدة صوت الرعد، وفرق ابن دريد بين الرجس والرجز والركس، فجعل الرجس: الشر، والرجز: العذاب، والركس: القذرة والتن * وفي القاموس: ورجس كفرح، وكرم إذا عمل عملاً قبيحاً، والرجس: المستقدر حساً أو معنى، يقال رجل رجس. ورجال أرجاس، والرجس على

أوجه: إمّا من جهة الطبع، وإمّا من جهة العقل، وإمّا من جهة الشرع كالخمر والميسر، وإما من كل ذلك كالميتة لأنها تُعاف طبعاً وعقلاً وشرعاً «مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» الذي يزيه من الأمور للنفس، فليس المراد بعمله ما يعمله بيده «فاجتنبوه» أي الرجس المعبر به عن هذه الأشياء أن تفعلوه «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» أي رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم، وسلامة أبدانكم، والتواذ فيما بينكم. وبعد أن أمر الله باجتنب الخمر والميسر ذكر أنّ فيها مفسدتين: احدهما: دنيوية، وثانيتهما: دينية، وقد أشار إليهما بقوله «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ» أي إنه الشيطان يريد لكم شراب الخمر ومباشرتكم بالقرداح ليعادى بعضكم بعضاً، ويبغض بعضكم إلى بعض عند الشرب والمباشرة، فيشتت أركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم باخوة الإسلام، ويصرفكم بالسكر والاشتغال بالميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم، وعن الصلاة التي فرضها عليكم، تزكية لنفوسكم، وتطهيراً لقلوبكم.

* ((ما هي الدلائل على تحريم الخمر)) *

قال العملاء : هذه الآية تدلّ على تحريمها من وجوه. منها تصدير الجملة بإمّا الدالة على الحصر، معناه ليست الخمر إلا الرجس وعمل الشيطان * ومنها أنه قرنها بعبادة الأصنام. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: [شاربُ الخمر كعابد الوثن] * ومنها أنه جعلها رجساً كما قال في موضع آخر [فاجتنبوا الرّجس من الأوثان] ، وأصل الرجس العمل القبيح، والقدر — كما علمت — قال تعالى: «وجعل الرجس على الذين لا يعقلون» أي العقاب والغضب * ومنها أنه جعلها من عمل الشيطان، ومن المعلوم أنه لا يصدر منه إلا الشرّ البحت * ومنها أنه أمر بالاجتناب، وظاهر الأمر للوجوب * ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح فيكون القرب منه خيبة * ومنها أنها شرُّ أنواع المفاسد المنتجة. منها التعادى والتباغض والصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة خصوصاً، وفيه أن غرض الشرب من الاجتماع تأكيد الألفة والمودة، ثم إنها تورث نقيض المقصود لأن العقل إذا زال استولت الشهوة والغضب، ويؤدى إلى التنازع واللجاج وكذا القمار يفضى إلى افناء المال، وإلى أن يقامر على خليلته وأهله ولده، وكل ذلك يورث العداوة والفتن، وهذان

من مكاييد الشيطان، ومضاداً آن لمصالح الإنسان. وأيضاً الخمر يسبب تهيج اللذة الجسمية، والقمار يورث لذة الغلبة الحالية، وكلتاها توجب الاشتغال عن اللذات الحقيقية الحاصلة من الاستغراق في طاعة المعبود، وإنما أفرد ذكر الخمر والميسر ثانياً لأن الخطاب مع المؤمنين، فقرنها أولاً بذكر الأنصاب والأزلام تنبيهاً على أنها جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، ثم أفردهما لأن الكلام مسوق لتحريمهما على مخاطبين حيث إنهم كانوا يتعاطون سوى هذين * ومنها سوق الكلام بطريق الاستفهام في قوله: «فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» كأنه قيل: قد تلى عليكم ما هو كافٍ في باب المنع، فهل أنتم منتهون، أم أنتم على ما كنتم عليه في الجاهلية.. وكأنكم لم تزجروا. ولهذا قالوا قد انتبهنا يارب. لأنهم فهموا التحريم المؤكده ومنها أنه قال بعد: «مُنْتَهُونَ»: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا» والمراد بالطاعة الاجتناب والحدز عن المخالفة، وقوله: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ..» الآية أى إن أعرضتم فالحجة قد قامت عليكم، والرسول قد خرج عن عهدة البلاغ، وقد أعذر من أنذر، وجزاء المخالف إلى الله المقتدره وقد ورد الوعيد من الرسول عليه الصلاة والسلام لشاربيها في كثير من الأحاديث منه [لعنت الخمر على عشرة أوجه: لعنت الخمر بعينها وشاربها وساقها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وأكل ثمنها] رواه أبو داود وابن ماجه من حديث وكيع به. وفي رواية عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا مَرَّةً وَاحِدَةً فَكَأَنَّمَا كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا فِلسُفًا، وَمَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ سُكْرًا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ] قيل: وما طينة الخبال؟ قال: [عصارة أهل جهنم] رواه أحمد من طريق عمرو بن شعيب، وفي رواية ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [كُلُّ مُخْمَرٍ خَمْرٌ. وَكُلُّ مَسْكِرٍ حَرَامٌ، وَمَنْ شَرِبَ مَسْكِرًا بَخَسَتْ صَلَاتُهُ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ. قِيلَ: وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: [صديد أهل النار، ومن سقاه صغيراً لا يعرف حلاله من حرامه كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال] تفرد به أبو داود، وفي رواية للشيخين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا حَرَمَهَا فِي الْآخِرَةِ] ، وفي رواية التَّسَائِي عن عمرو بن علي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر والمثان بما أعطى] والأحاديث في الموضوع كثيراً جداً. (*)

وكان يؤتى بالشارب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فيضرب بالأيدى والجريد والسياب والنعال * وفي حديث أنس [أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب الخمر فجلده بمجريدتين نحو أربعين] وفعل ذلك خليفته أبو بكر الصديق، وفي صحيح مسلم أن عثمان أتى بالوليد وقد صلى الصبح ركعتين، وقال: أزيدكم وشهد عليه الشهود أنه شرب الخمر فأمر بجلده وعلى كرم الله وجهه يعد حتى بلغ الأربعين، فقال: أمسيك. ثم جلد النبي وأبو بكر أربعين وعمر ثمانين وكُلُّ سِنَّةٍ. وهذا أحبُّ إلى — يريد الأربعين جلدة — وقوله: وكُلُّ سِنَّةٍ أي إنه جرى العمل به فعلاً. وقد روى الدارقطني عن علي كرم الله وجهه: إذا شرب سَكِرَ، وإذا سَكِرَ هذى، وإذا هذى افتري، وعلى المفتري ثمانون جلدة.

* ((القول في سبب نزول قوله تعالى :)) *

«قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ * فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» سورة المائدة (الآية: ١٠٠)

في الواحدى : حدث محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال إن الخمر لعن شارها وعاصرها وساقها، وبائعها وآكل ثمنها، فقام إليه أعرابي، فقال يا رسول الله: إني كنت رجلاً كانت هذه تجارتي، فاقتنيتُ من بيع الخمر مالا فهل ينفعني ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [إن أنفقت في حج أو جهاد أو صدقة لم يعدل عند الله جناح بعوضه فيه، إن الله لا يقبل إلا الطيب] فأنزل الله تعالى تصديقا لقوله عليه الصلاة والسلام: «قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ ..» الحرام كالزنا والكسب الحرام، ومنه الخبائث، وهي التي كانت العرب تستخبثها مثل الحية والعقرب ... والأخبثان: البول والغائط. وشيء خبيث بخس * «وَالطَّيِّبُ» الكسب الحلال وهو نقيض الحرام، يعني لا يستوى الحلال ولا الطالح، ولا الضار ولا النافع، ولا الظالم ولا العادل الخ ... فلكل منها حكم يليق به عند الله الذي يضع كل شيء في موضعه بحسب علمه: «وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ» أي ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث من الناس أو من الأموال المحرمة لسهولة تناولها، والتوسع في التمتع بها كأكل الربا وتجارة الخمر والرشوة والخيانة، أي لا يستويان لا في أنفسهما ولا

عند الله، ولو فرض أن كثرة الخبيث أعجبتك وغرتك، فصرت بعيداً عن إدارك تلك لمقيدة - وهى أن القليل من الكسب الحلال خير من الكثير من الكسب الحرام. ألا ترى أن القليل الجيد من الغذاء أو المتاع خير من الكثير الرئى الذى لا يغنى غناه ولا يفيد فائدته بل ربما يضر ويؤذى صاحبه، فكذلك الحلال بالنسبة إلى الناس. فالقليل الطيب منهم خير من الكثير الخبيث، فطائفة قليلة من شجعان المؤمنين تغلب الطائفة الكثير من الجبناء المتخاذلين، وجماعة قليلة من ذوى البصيرة والرأى تأتى من الأعمال ما يعجز عنه الكثير من أهل الحمق والبلاهة، فالعبرة بالصفة لا بالعدد، والكثرة لا تكون خيراً إلا بعد التساوى فى الصفات الفاضلة: «فاتقوا الله» يعنى فيما أمركم به أو نهاكم عنه، ولا تعتدوه: «يا أولى الألباب» يعنى يا ذوى العقول السليمة: «لعلكم تفلحون» تفوزون برضوان الله.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءَ
 إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُوا وَإِن تُسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ
 عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا
 كَافِرِينَ»

سورة المائدة (الآية: ١٠١، ١٠٢)

فى الواحدى : قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى قوم كانوا يسألون النبى صلى الله عليه وسلم استهزاءً، فيقول الرجل تفضل ناقته. أين ناقتى؟ فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية * وفى اللباب. روى البخارى عن أنس بن مالك قال: خطب النبى صلى الله عليه وسلم خطبة، فقال رجل: من أبى؟ فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية: «يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا...» حتى فرغ من الآية كلها. وروى أحمد والترمذى والحاكم عن على قال: لما نزلت والله على الناس حج البيت، قالوا يارسول الله: أفى كل عام؟ فسكت. قالوا يا رسول الله: أفى كل عام؟ قال: لا، ولو قلت: نعم، لوجبت، فأنزل الله تعالى: «لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّ لَكُمْ...» قال الحافظ ابن حجر: لا مانع أن تكون نزلت فى الأمرين قلت: رواية البخارى عن أنس رضى الله عنه قال: [خطب رسول الله صلى

الله عليه وسلم خطبة ما سمعتُ مثلها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قال: فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوههم لهم حنينٌ، فقال رجل من أبي؟ قال: فلائُ فنزلت هذه الآية «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم»، وأخرجه مسلم في فضائل النبي صلى الله عليه وسلم عن محمد بن معمر وغيره، وأخرجه الترمذى في التفسير عن محمد بن معمر، وأخرجه النسائى في الرقاق عن محمود بن غيلان مختصراً. قال الخطابى: الحنين بكاء دون الانتحاب * وأصله من حنين المرأة، وهو نزاعها إلى ولدها وإن لم يكن لها صوت عند ذلك * وفي رواية أخرى كما في الخازن: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج حين زاغت الشمس، فصلى الظهر، فقام على المنبر فذكر الساعة، فذكر فيها أموراً عظيماً، ثم قال: من أحب أن يسألنى عن شيء فليسأل، فلا تسألونى عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامى، فأكثر النساء البكاء، وأكثر أن يقول سلونى فقام عبدالله بن حذافة السهمى، فقال: من أبى؟ فقال: أبوك حذافة، ثم أكثر أن يقول سلونى، فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، فسكت، ثم قال: عرضت على الجنة والنار أنفاً في عرض هذا الحائط، فلم أر كاليوم في الخير والشر، قال ابن شهاب: فأخبرنى عبيد الله بن عبدالله بن عتبة، قال: [قالت أم عبدالله بن حذافة لعبدالله بن حذافة: ما سمعت بابن قط أعق منك، أمنت أن تكون أمك فارقت بعض ما تفارق أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس، فقال عبدالله بن حذافة: لو ألحقتنى ببعد أسود للحقته] أخرجاه في الصحيحين * وروى مجاهد عن ابن عباس: لا تسألوا عن أشياء، قال: هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، ألا ترى أنه يقول بعد ذلك ما جعل الله من بحيرة ولا كذا وكذا ولا كذا * وقال عكرمة: إنهم كانوا يسألون عن الآيات فهوا عن ذلك، ثم قال: «قد سألها قوم من قبلكم ثم أضبخوا بها كافرين».

أما تفسير الآيات: «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم»، أي لا تسألوا عن أشياء: جميع شيء، إن تبد لك: تظهر لكم، وتبين لكم تسؤكم. يعنى إن أمرتم بالعمل بها، فإن من سأل عن الحج لم يأمن أن يؤمر به. فلا يقدر عليه فيسؤوه ذلك، ومن سأل عن نسيه لم يأمن أن يلحقه النبي صلى الله عليه وسلم بغير أبيه فيفتضح ويسؤوه ذلك، وهذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهى لهم عن أن

يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها في الطبرى: عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأله حتى أحفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم، فصعد المنبر، فقال: [لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينتُه لكم..]. «وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم»، أي وإن تسألوا عن جنس تلك الأشياء التي من شأنها أن يكون إبدائها ممًا يسوءكم حين ينزل القرآن في شأنها أو حكمها لأجل فهم ما نزل إليكم فإن الله يبيده لكم على لسان رسوله. قال الحافظ بن كثير: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعله ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو توضيق. وقد ورد في الحديث [أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته] ولكن إذا نزل القرآن بها جملة فسألتم عن بيانها بينت لكم حينئذٍ لاحتياجكم إليها «عفاً الله عنها» أي ما لم يذكره في كتابه فهو ممًا عفا عنها، فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها، وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم] وفي الحديث الصحيح أيضاً [إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها]. «قد سألتها قومٌ من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين»، أي قد سألت أمثال هذه المسائل قوم من قبلكم من الأمم، ثم أصبحوا بعد إبدائها كافرين بها. فإن من أكثر الأسئلة عن الأحكام الشرعية من الأمم السالفة لم يعملوا بها، بل عتوا عن أمر ربهم استثقلاً للعمل بها، وذلك هو الكفران المبين، فاستحقوا بسبب ذلك الهلاك في الدنيا قبل الآخرة كقوم صالح وغيرهم من الأمم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون»

سورة المائدة (الآية: ١٠٥)

في الواحدي: قال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل هجر، وعليهم منذر بن ساوى يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا

فليؤدوا الجزية، فلما أتاه الكتاب عرضه على من عنده من العرب واليهود والنصارى والصابئين والمجوس، فأقرؤوا بالجزية وكرهوا الإسلام، وكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أما العرب فلا تقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وأما أهل الكتاب والمجوس فأقبل منهم الجزية، فلما قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلمت العرب، وأما أهل الكتاب والمجوس فأعطوا الجزية، فقال منافقوا العرب: عجباً من محمد يزعم أن الله بعثه ليقاتل الناس كافة حتى يُسلموا، ولا يقبل الجزية إلا من أهل الكتاب، فلا نراه إلا قبل من مشركى أهل هجر ماردة على مشركى العرب. فأنزل الله تعالى «عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يضرركم من ضلَّ إذا اهتديتم..» يعنى من ضلَّ من أهل الكتاب * وفي الخازن: قال سعيد بن جبير ومجاهد: نزلت هذه الآية في أهل الكتاب: اليهود والنصارى. يعنى عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ من أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم. وقيل: لما قبلت الجزية من أهل الكتاب قال بعض الكفار: كيف تقبل الجزية من بعض دون بعض فنزلت هذه الآية. وقيل: إنَّ المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار على كفرهم، فقيل لهم عليكم أنفسكم واجتهدوا في صلاحها لا يضركم ضلال الضالين ولا جهل الجاهلين إذا كنتم أنتم مهتدين * وفي الطبرى: قال ابن زيد في قوله: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ..» قال كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك وضللتهم وفعلت وفعلت، وجعلت آباءك كذا وكذا كان ينبغى لك أن تنصرهم وتفعل فقال الله تعالى: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يضرركم من ضلَّ» * روى ابن كثير: أن أبا بكر رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ» وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [إنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَمْ يَغْيِرُوهُ يَوْشَكُ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ] * وروى الترمذي عن أبي أمية الشيباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، فقلت: ما تصنع في هذه الآية؟ قال: آية آية؟ قلت: قول الله تعالى: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يضرركم من ضلَّ إذا اهتديتم» قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام، فإن من

ورائكم أيتاماً الصابرين فيهنّ مثل القابض على الجمر، للعامل فيهنّ أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم] * وروى ابن جرير عن ابن عقّال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فإن الله قال «عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم» فقال ابن عمر رضي الله عنهما: إنها ليست لي ولا لأصحابي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ألا ليبلغ الشاهد الغائب] فكنا نحن الشهود، وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم * وفي الكرخي: أن الآية ليست نازلة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل جاء عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: تعدّونها رخصة، والله ما نزل آية أشدّ منها، وإنما المراد لا يضركم من ضلّ من أهل الكتاب كما جاء عن مجاهد وابن جبیر. هي في اليهود والنصارى خذوا منهم الجزية واتركوهم * وفي أبي السعود: ولا يتوهم أنّ في هذه الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتها، كيف لا، ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسبما تفي به الطاقة، قال صلى الله عليه وسلم: [من رأى منكم منكراً فاستطاع أن يغيّره فليغيّره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه] وقد روى أن الصديق رضي الله عنه قال يوماً على المنبر: يا أيّها الناس إنكم تقرّون هذه الآية وتضعونها غير موضعها، ولا تدرون ما هي، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [إنّ الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيّروه عمهم الله بعقاب] فأمروا بالمعروف وانها عن المنكر، ولا تغفروا بقول الله عز وجل «يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم»، فيقول أحدكم على نفسه، والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لهم. وعنه صلى الله عليه وسلم: [ما من قوم عمل فيهم منكر، وسنّ فيهم قبيح، فلم يُغيّروه ولم ينكروه إلا وحقّ على الله أن يعمهم بالعقوبة جميعاً. ثم لا يستجاب لهم]. والآية نزلت لما كان المؤمنون يتحسّرون على الكفرة، وكانوا يتمتّون بإيمانهم، وهم من الضلال بحيث لا يكادون يراعون عنه بالأمر والنهي. قوله تعالى: «عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ» الجمهور على نصب أنفسكم وهو منصوب على الإغراء بعلينكم لأن عليكم هنا اسم فعل إذ التقدير الزموا أنفسكم: أي هدايتها وحفظها مما يؤذيها، وقرأ نافع بن أبي نعيم «أنفسكم» رفعاً فيما حكاه عنه صاحب الكشاف أي ورفعها إما على الابتداء وعلينكم خبره مقدّم. وهو إغراء أيضاً. ومنه قراءة بعضهم «ناقّة

الله وسقياها» وهذا تحذير نظير الاغراء. وإما أن يكون توكيداً للضمير المستتر في عليكم، والمفعول محذوف أي عليكم أنتم أنفسكم: صلاح حالكم وهدايتكم * أي عليكم أنفسكم وما كلفتم به من إصلاحها والمشى بها في طريق الهدى «لَا يَضُرُّكُمْ» الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين كما قال عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام: «فَلَا تُذْهِبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ» وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصي ولا يزال يذكر معاييبهم ومناكيرهم فهو مخاطب به. وقوله: «إِذَا اهْتَدَيْتُمْ» قيل: المراد لا يضركم من ضلّ من أهل الكتاب وعلى هذا القول تكون الآية ليست نازلة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد علمت ما ذكره أبو السعود «إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً» أي أيها المؤمنون الطائعون ومرجع الضالين في الآية اكتفاء على حد: سراييل تقيكم الحرب * وفي هذا وعد ووعيد للفريقين، وتنبيه على أن أحداً لا يؤاخذ بعمل غيره «فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فيجازيكم به.

(القول في سبب نزول قوله تعالى :)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنَ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ لَا نَشْرَى بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّسِنَ الْأَيْمِينِ» سورة المائدة (الآية: ١٠٦)

في الواحدي: قال ابن عباس: كان تميم الدارى وعدى بن زايد يختلفان إلى مكة، فصحبها رجل من قريش من بنى سهم، فات بأرض ليس بها أحد من المسلمين، فأوصى إليها بتركة، فلما قدما دفعاها إلى أهله، وكتبا جاماً كان معه من فضة كان مخصوصاً بالذهب، فقالا: لم نره، فأتى بهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستحلفهما بالله ما كتبا ولا اطلعا، وخلق سبيلهما، ثم إن الجاه وجد عند قوم من أهل مكة فقالوا: ابتعناهُ من تميم الدارى وعدى بن زيد. فقام أولياء السهمى فأخذوا الجاه، حلف رجلان منهم بالله إن هذا الجاه جام صاحبنا، وشهادتنا أحق من شهادتها وما اعتدينا فنزلت هذه الآية والتي تليها * وعبارة السيوطى في لبابه: روى الترمذى (وضعه غيره) عن ابن عباس عن تميم

الدارى في هذه الآية «يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ» قال: برىء الناس منها غيرى وغير عدى بن زيد، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له: بديل بن أبى مريم بتجارة، ومعه جام من فضة فرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله. قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعته بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدى، فلما قدمنا أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجام فسألونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع غيره، فلما أسلمت تأملت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألهم البيعة فلم يجذوا، فأمرهم أن يستحلفوه، فحلف فأنزل الله «يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ» إلى قوله «أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ» فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا، فنزعت الخمسمائة درهم من عدى بن بداءه وعبارة ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: كان تميم الدارى وعدى بن بداءه رجلين نصرانيين يتجران إلى مكة في الجاهلية، ويطيلان الإقامة بها، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم حولا متجرهما إلى المدينة، فخرج بدليل مولى عمرو بن العاص تاجرا حتى قدم المدينة، فخرجوا جميعا تجارا إلى الشام حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل، فكتب وصية بيده، ثم دسها في متاعه، وأوصى إليهما، فلما مات فتحا متاعه فأخذاه منه شيئا، ثم حجراه كما كان، وقدما المدينة على أهله، فدفعنا متاعه، ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به، وفقدوا شيئا فسألوهما عنه، فقالوا: هذا الذي قبضنا له ودفع إلينا، فقالوا لهما: هذا كتابه بيده، قالوا: ما كتمنا له شيئا، فترافعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية «يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ» إلى قوله: «إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ» فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستحلفوهما في دُبُر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما قبضنا غير هذا ولا كتمنا. فكنا ما شاء الله أن يمكننا. ثم ظهر معها إناء من فضة منقوش مُمَوَّه بالذهب. فقال أهله: هذا من متاعه، قالوا: نعم ولكننا اشتريناه منه، ونسينا أن نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذب نفوسنا، فترافعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية «فَإِنْ غُيِّرَ عَلَيَّ أَتَيْتُهَا اسْتَحْقَاقًا لِمَا...» فأمر النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتبا وغيبا ويستحقانه ثم إن قيميا

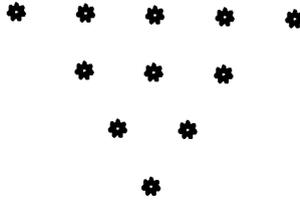
الدارى أسلم وبايع النبي صلى الله عليه وسلم وكان يقول: صدق الله ورسوله. أنا أخذتُ الإناء، ثم قال يا رسول الله: إن الله يظهرك على أهل الأرض كلها فهب لي قرية عينون من بيت لحم. وهي القرية التي ولد فيها عيسى، فكتب له بها كتاباً، فلما قدم عمر الشام أتاه تميم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر: أنا حاضر ذلك فدفعها إليه. وعبارة الخطيب: فلما قدموا الشام مرض بديل، فدون ما معه في صحيفة وصرها في متاعه ولم يخبرها بها، وأوصى إليها بأن يدفعها متاعه إلى أهله، ومات ففتشاه وأخذنا منه إناء من فضة وزنه ثلاثمائة مثقال منقوشاً بالذهب. وكان بديل أراد به ملك الشام. ثم قضيا حاجتهما، وانصرفا إلى المدينة، ودفعوا المتاع إلى أهل الميت، ففتشوا فأصابوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه، فجاؤا تيمماً وعدياً فقالوا: هل باع صاحبنا شيئاً؟ قالوا: لا. قالوا: فهل إتجر تجارة؟ قالوا: لا. قالوا: فهل طالب مرضه فأنفق علي نفسه؟ قالوا: لا. قالوا: فإننا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه، وإننا فقدنا منها إناءً من فضة مموهاً بالذهب. وزنه ثلاثمائة مثقال من فضة. قالوا: ما ندرى إنما أوصى لنا بشيء. وأمرنا أن ندفعه لكم فدفعناه، وما لنا علمٌ بالإناء، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصروا على الإنكار وحلفوا فأنزل الله «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا...» الآية وذكر الجلال رواية البخارى: وهي أن رجلاً من بنى سهم خرج مع تيم الدارى وعدى بن بداء: أي وهما نصرانيان، فات السهمى بأرض ليس فيها مُسَلِّمٌ، فلما قدما بتركته فقدوا جِاماً من فضة مخصّصاً بالذهب. فرفعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت، فأحلفهما، ثم وجد الجام بمكة، فقال: ابتعناه من تميم وعدى، فنزلت الآية الثانية، فقام رجلان من أولياء السهمى فحلفاه قلت: والذي ذكره البغوى وغيره من المفسرين أنه إناء من فضة منقوش بالذهب كما هي عبارة الخطيب، وابن جرير عن عكرمة.

أمّا التفسير: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا» استئناف مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بأمر دنياهم أثر بيان الأحوال المتعلقة بأمر دينهم «شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ» اختلف في هذه الشهادة: فقيل: هي الشهادة المعروفة: التي هي الإخبار بحق للغير على الغير. وقيل: هي حضور وصية المحتضر. وعبارة الخطيب: المعنى أن المحتضر إذا أراد الوصية ينبغي أن يُشهد عدلين من أهل دينه على وصيته، أو ما يوصى إليهما احتياطاً، فإن لم يجدهما فأخاران من غيرهم. «إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» أي أسبابه من غيبوبة ونزع «حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا

عَدْلٍ مِنْكُمْ» خبر بمعنى الأمر أي هذه الجملة وهي قوله: شهادة بينكم .. الخ. خبرية ومعناها الطلب: أي ليشهد، وإضافة شهادة بينكم على الاتساع والتجوز. أي وحق الشهادة أن تضاف إلى المشهود به كأن يقال شهادة الحقوق المشروعة بينكم وهي شهادة اثنين من المسلمين ذوى العدل والاستقامة يُشهدهما الموصى على وصيته، فيشهدان بذلك عند الحاجة «أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» أي غير ملتكم «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ» أي سافرتم للتجارة ونحوها «فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ» أي أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين إن كنتم مسافرين، ونزلت بكم مقدمات الموت، وأردتم الايضاء، «تَخْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ» أي صلاة العصر لأنها وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار، ولأن جميع الملل يعظمون هذا الوقت، ويحبتون فيه الحلف الكاذب. وقال الحسن: صلاة الظهر وقيل: أي صلاة كانت، وقيل: من بعد صلاتها لأنها كافران (القرطبي) والأصح أنها صلاة العصر لأن النبي صلى الله عليه وسلم حلف عدياً وقيماً بعدها، ولأن العمل قد جرى عليه، فكان التحليف فيه هو المعروف، وروى عن ابن عباس أن الشهيدين إذا كانا غير مسلمين فالمراد بالصلاة صلاة أهل دينها «فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ارْتَبْتُمْ» أي وتستقسمون الشاهدين وتطلبون حلفها على الوصية، إن شككتم في صدقهما فيقسمان: أما الأمين فيصدق بلايين. لأن التقدير: إن ارتبتم فحلفوهما. هذا ما جرى عليه الأكثر، وهو جواب إن ارتبتم «لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» أي يقسمان بقولهما: لا نشترى بيمين ثمناً، ولو كان المُقْسَم له من أقاربنا. أي لا نجعل يمين الله كالسلعة التي تبذل لأجل ثم ينتفع به في الدين «وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ» التي أمرنا بها كما قال «وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ» «إِنَّا إِذَا» إن كتمناها «لِمَنْ الْآثِمِينَ» أي متحملين للإثم الذي نستحق الجزاء عليه من الله تعالى «فَإِنْ عُثِرَ» اطلع بعد حلفها «عَمَلَىٰ أَتَّهُمَا اسْتَحْقَاقًا إِنَّمَا» أي فعلاً ما يوجب من خيانة، أو كذب في الشهادة بأن وجد عندهما مثلاً ما اتها به، وادعيا أنها ابتاعاه من الميت، أو وصى لها به. أو دفعه إلى شخص زاعماً أن الميت أوصى له به كما ورد في ادعائها في الأقوال المنقولة في القصة في سبب نزول الآية «فَآخِرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهَا» أي فالواجب حينئذ أن تُردَّ اليمين إلى الورثة بأن يقوم رجلان آخران مقامها من أولياء الميت الوارثين له المفهوم من قوله «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ» الوصية، وهم الورثة «الْأَوْلِيَاءِ» بالميت. أي الأقربان إليه فيحلفان

«فَيُفْسِمَانِ بِاللَّهِ» على خيانة الشاهدين، ويقولان «لَشَهَادَتُنَا» میناً «أَحَقُّ» أصدق «مِنْ شَهَادَتِهِمْ» مینها «وَمَا اعْتَدِينَا» تجاوزنا الحق في اليمين «إِنَّا إِذَا لَمِينَ الظَّالِمِينَ» أي ويقولان في مینها إنا إذا اعتدینا الحق فحلفنا مبطلین كاذبین لنكونن من الظالمین لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وانتقامه. «ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ» أي أذنی الطرق وأقربها إلى أن يؤدي الشهداء الشهادة «عَلَى وَجْهِهَا» بلا تبديل ولا تغير، تعظيماً لله ورهبة من عذابه ورغبة في ثوابه. أو خوفاً من الفضيحة بين الناس «أَوْ» أقرب إلى أن «يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ» على الورثة المدعين، فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحون ويغرمون فلا يكذبوا باليمين، وعبارة أبي السعود. فلا يحلفوا على موجب شهادتهم إن لم يأتوا بها على وجهها فيظهر كذبهم بنكولهم «وَاتَّقُوا اللَّهَ» بترك الخيانة والكذب «وَأَسْمِعُوا» ما تؤمرون به سماع قبول «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» الخارجين عن طاعته إلى سبيل الخير.

إلى هنا تم بعون الله الجزء الأول ويليهِ الجزء الثاني أوله سورة الأنعام وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها من قوله تعالى: «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ..»



مطابع الاشعاع

الرياض ت : ٤٤٨٦٣٥٨ - ٤٠٤١٣٦٦

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠	٨	يَعْظُكُمْ	يَعِظُكُمْ
٤٧	٢٥	يَشْعُرُنَّ	يشعرون
٤٩	١٥	الصفاهات	السفاهات
٦٧	٤	فعظم	فعظم
٧٠	٢١	كبيرت	كبيرت
٨٩	١	الشيطن	الشیطان
٩٦	٢٦	الوحدى	الواحدى
١٤٦	٢٢	عليه	عليها
١٥٤	٨	أَلْتَكِ (وأينما وجدت)	أولئك
١٦١	٦	الَّذى	الَّذى
١٦٢	١٤	الصَّبِيعِ	الصبيغ
١٦٩	٢٢	وَكَا	وكان
٢٠٤	٦	بِالمساواة	بالمساواة
٢١١	٤	المسلمين	المسلمين
٢٣٧	٤	فَكَانُوا	فكانوا
٢٣٩	٩	وليسوا	وليسوا
٢٧٦	الأخير	بن	بنت
٢٩١	٦	بعضه	بغضه
٢٩٣	١٧	لجميع	لجميع
٢٩٦	٢٢	الْحَيْثُ	الْحَيْثُ (حينما وجدت)
٢٩٨	١٥	تُبْدُوا	تُبْدُوا
٣٠٥	٢٥	الطرفية	الطرفية
٣٠٨	١	المخصوصو	المخصوص
٣١٤	١٥	الدينا	الدينا
٣٢١	٢١	للتقال	للتقاتل
٣٢١	٢٣	المسلمين	المسلمين (حينما وجدت)
٣٣٠	١٠	موسى	موسى
٣٣٢	٢٠	سَلْمًا	سلمان
٣٥٤	١٠	بِاستبعاد	باستبعاد
٣٨٠	١٢	تَفَقَّوْا	تَفَقَّوْا (حينما وجدت)
٤٠١	١٣	رَتَدَادِهِ	ارتداده

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٠٨	١٨	الشيطان	الشيطان
٤٢٣	١٢	فَانْ	فَانْ
٤٢٤	٢٣	فَقَدْ	فَقَدْ
٤٢٨	٢	تَحْسَبَنَّ	تَحْسَبَنَّ
٤٢٩	٢٠	فَرِس	فَرِس
٤٣١	١١	تَحْتَهَا	تَحْتَهَا
٤٣٧	٨٠٣	تَتَبَدَّلُوا	تَتَبَدَّلُوا
٤٣٧	الأخير	تُخَالِطُهُمْ	تُخَالِطُهُمْ
٤٤٩	٢٤،١٧	يُوصِيكُمْ	يُوصِيكُمْ
٤٥٨	١٩	ظَوْلًا	ظَوْلًا
٤٧٥	٦	يُرْكُونَ	يُرْكُونَ
٤٩٣	٢	يَذَرِكُمْ	يَذَرِكُمْ
٤٩٣	٢	نُصِبَهُمْ	نُصِبَهُمْ
٥٠١	١٥	يَصَدُّقُوا	يَصَدُّقُوا
٥٠٥	٧	إِلَيْكُمْ	إِلَيْكُمْ
٥٠٥	٨	مَغَائِمَ	مَغَائِمَ
٥٠٧	٢١،٢٠	فَقْضَلْ	فَقْضَلْ
٥٣٩	١٢	عَلْفَ	عَلْفَ
٥٥٤	١٢	لَكُمْ	لَكُمْ
٥٩٦	١١	أَهْلِكُمْ	أَهْلِكُمْ
٦٠٢	٧	حُنَاحُ	حُنَاحُ
٦١٥	٢	شَهَادَتِهِمْ	شَهَادَتِهِمَا

جامع النقول في أسباب النزول

صدر الإذن بطباعة هذا الكتاب من :

١ - الإدارة العامة لشئون المصاحف ومراقبة المطبوعات برئاسة
إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد برقم
٥/٧٩١٠ وتاريخ ٥/٧/١٤٠٤هـ.

٢ - ومن المديرية العامة للمطبوعات بوزارة الاعلام برقم
٥٥٥٨٠ وتاريخ ٥/٨/١٤٠٤هـ.

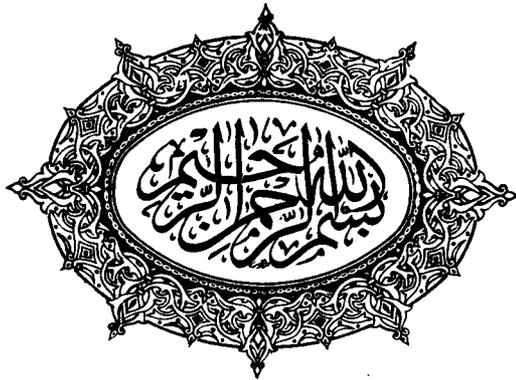
ابن خليفه، عليوى
خريج جامعة الأزهر الشريف

جَامِعُ النُّقُولِ فِي سَبَابِ التَّرْوِكِ وشرح آياتها

الجزء الثاني

الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



الجزء الثاني

(من كتاب جامع النقول في أسباب النزول)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ في الواحددي : قال الكلبي : إن مشركى مكة قالوا يا محمد : والله لا تؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله . وأنك رسوله فنزلت هذه الآية * وفي الحازن : قال الكلبي ومقاتل : نزلت في النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ، ونوفل بن خويلد : قالوا يا محمد : لن تؤمن لك حتى تأتينا بكتاب ... الخ .. ما في الواحددي ومثله في الغرائب وأبى السعود . وفي المراغي . وروى ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن اسحاق : سبب نزول الآية الثانية : قال : دعا رسول الله ﷺ قومه إلى الإسلام ، وكلمهم فأبلغ إليهم ، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب والنضر بن الحارث بن كلدة وعبد بن عبد يغوث ، وأبي بن خلف والعاصى بن وائل بن هشام : لو جعل معك يا محمد ملك يحدث عنك الناس ، ويرى معك - فأنزل الله في ذلك : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ... ﴾ قال المراغي : ورجح بعضهم أن هذا السبب لا يصح في هذه الآية ، لأن اقتراح المعاندين من المشركين إنزال الملك مع الرسول المذكور في سور من القرآن أنزلت قبل هذه السورة ، فما فيها . إنما هو رد على شبهة سبقت وحكيث عليهم ، وكذلك اقتراح إنزال كتاب من السماء ، وإنزال القرآن جملة واحدة المذكور في سورة الفرقان * أما التفسير ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا ﴾ مكتوبا ، لأن الكتاب مصدر بمعنى اسم المفعول وهو الشيء الذى يكتب من المعانى والألفاظ ﴿ فِي قُرْطَاسٍ ﴾ رَقِي يتخذ من الجلد يكتب فيه ، وفسره البيضاوى والزحشرى بالورق ، وهو تفسير بالأخص . لأن القرطاس في اللغة أعم منها . ففى المصباح ، والقرطاس ما يكتب فيه ، وفي

القاموس . القرطاس مثلث القاف كجعفر ودرهم : الكاغد * وفي السمين القرطاس الصحيفة يكتب فيها تكون من ورق وكاغد وغيرها ، ولا يقال قرطاس إلا إذا كان مكتوباً ، وإلا فهو طرس وكاغد ، * قلت : والمعروف لدى العامة أن القرطاس كيس من الورق . والظاهر أن المراد . ولو أنزل عليهم مكتوباً في قرطاس كناية عن حفظه ﴿ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي القرطاس الذي فيه المكتوب . ولم يقل عاينوه لأن اللمس أبلغ من المعاينة . وأنفى للشك ، والباء للاستعانة كعملت بالقدم ، لأن السحر يجري على المرئى ولا يجري على الملموس ، ولأن الغالب أن اللمس بعد المعاينة ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ ﴾ ما ﴿ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مِّبِين ﴾ تعنتا وعنادا ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا ﴾ هلا ﴿ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ﴾ على محمد ﷺ ﴿ مَلَكٌ ﴾ يصدقه . والظاهر أن هذه الجملة مستأنفة سيقت للاخبار عنهم بفرط تعنتهم وتضليلهم في كفرهم . أي أن النبي ليس صادقاً عندهم بل لا بد له من ملك يشهد له في دعوى النبوة ، فرد الله على ذلك ﴿ لَقَضَى الْأَمْرَ ﴾ بهلاكهم ﴿ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ﴾ يمهلون لتوبة أو معذرة كعادة الله فيمن قبلهم من إهلاكهم عند وجود مقترحهم إذا لم يؤمنوا ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ ﴾ أي المنزل إليهم ﴿ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي الملك ﴿ رَجُلًا ﴾ أي على صورته ليمكنوا من رؤيته إذ لا قوة للبشر على رؤية الملك . وعبارة الخازن . وذلك أن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها ، ولو نظر إلى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ، ولذلك كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الإنس كما جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي ، وكما جاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين ، وكذلك أتت الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام ، ولما رأى النبي ﷺ جبريل في صورته التي خلق عليها صعق لذلك وغشى عليه . ﴿ وَ ﴾ لو أنزلناه وجعلناه رجلاً ﴿ لِلْبَشَرِ ﴾ شهباً ﴿ عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ على أنفسهم حينئذ بأن يقولوا له : إنما أنت بشر ، ولست بملك ، ولو استدلل على ملكيته بالقرآن المعجز الناطق بها ، أو بمعجزات أخر غير ملجئة إلى التصديق لكذبوه كما كذبوا النبي عليه السلام ، ولو أظهر لهم صورته الأصلية لصعقوا ، ولم يتمكنوا من تكليمه . وفيه تأكيد لاستحالة جعل النذير ملكاً . أو من غير جنس البشر ، فكأنه قال تعالى لو فعلناه لفعلنا ما لا يليق بشأننا من لبس الأمر عليهم . وذكر البخاري في تفسير قضاء الأمر عدة وجوه . الأول - أن سنة الله جرت بأن

أقوام الرسل إذا اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا بها يعذبهم الله عذاب استئصال ، والله لا يريد أن يستأصل هذه الأمة التي بعث فيها خاتم رسله نبي الرحمة ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الثاني - أنهم لو شاهدوا الملك بصورته الأصلية لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون . الثالث - أن رؤية الملك بصورته آية ملجئة يزول بها الاختيار الذي هو قاعدة التكليف . الرابع - أنهم اقترحوا ما لا يتوقف عليه الإيمان ، فلو أعطوه ولم يجد ذلك معهم نفعا دل ذلك على تمتي العناد الذي يستدعى الإهلاك وعدم النظرة *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ في الواحدي : روى الكلبي عن ابن عباس أن كفار مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد : إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعوا إليه الحاجة ، فنحن نجعل لك نصيبا في أموالنا حتى تكون أغنانا رجلا وترجع عما أنت عليه . فنزلت هذه الآية * وكذا في الغرائب ، ولم أعر على غير ما ذكرنا . أما التفسير . قوله : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ ﴾ أي وما تحرك أيضا كقوله : ﴿ سَرَّابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ . أي تقيكم الحر والبرد فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر للقريظة . هذا إذا كان مشتقا من السكنى كما يقال فلان سكن ببلد كذا أي حل فيه ، والمراد كل ما حل في الوقت والزمان سواء كان متحركا أو ساكنا ، وذلك أن الدخول تحت الزمان يستلزم التغيير والحدوث ، فلا بد من محدث يتقدم عليه وعلى نفس الزمان . ومن فسر ذلك بالاستقرار عنى بذلك شمول القسمين ، وخص الساكن بالذكر دون المتحرك لأن الساكن من المخلوقات أكثر عددا من المتحرك . أو لأن السكون هو الأصل والحركة طارئة . والمعنى : لله ما في السموات وما في الأرض الساكن منهما والمتحرك وفي ذلك تنبيه إلى تصرفه تعالى بهذه الخفايا ، ولا سيما إذا جن الليل وهذا الخلق ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ لما يقال ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بما يفعل . أي المحيط سمعه بكل ما من شأنه أن يسمع مهما يكن خفيا عن غيره ، فهو يسمع ديبب العملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصما ، والمحيط علمه بكل شيء في هذا الوجود مهما دق أو كبر ﴿ يَغْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي

الصدور ﴿ فقد أعطى محمداً ﷺ النبوة والمقام المحمود في الآخرة ، وهما خير مما يعرض عليه كفار مكة من الأموال *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ في الواحدي : قال الكلبي : إن رؤساء مكة قالوا يا محمد : ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة ، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى . فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة . فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم فأنزل الله تعالى هذه الآية * وكذا في الغرائب والغازن وفي اللباب : أخرج ابن اسحاق وابن جرير من طرق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال جاء النحام بن زيد وقروم بن كعب وبحرى بن عمرو فقالوا يا محمد : ما نعلم مع الله إلهاً غيره ، فقال : لا إله إلا الله بذلك بعثت وإلى ذلك أدعوا . فأنزل الله في قولهم : ﴿ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ على صدق . والمراد بشهادة الله اظهار المعجزة على يد النبي ﷺ ، فإن حقيقة الشهادة ما بين به المدعى ، وهو كما يكون بالقول يكون بالفعل ، ولا شك أن دلالة الفعل أقوى من دلالة القول لعروض الاحتمالات في الألفاظ دون الأفعال ، فإن دلالتها لا يعرض لها الاحتمال ، وأن المعجزة نازلة من قوله تعالى صدق عبدي في كل ما يبلغ عنى . وشهادة الله بين الرسل وقومه ضربان : شهادته برسالة الرسول ، وشهادته بصدق ما جاء به : والأول أنواع ثلاثة : الأول - اخباره بها في كتابه بنحو قول : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ والثاني - تأييده بالمعجزات الكثيرة التي من أعظمها القرآن الكريم فهو المعجزة المحسوسة الدائمة إلى يوم الدين ، فقد ثبت عجز البشر عن الاتيان بمثله حتى ولو من أقصر سوره عدا عما فيه من أخبار الغيب ، ووعده الرسول والمؤمنين بنصر الله الثالث - شهادة كتبه السابقة ، وبشارة الرسل السابقين به ، ولا تزال هذه الشهادة طى كتب اليهود والنصارى . والثاني : ثلاثة أنواع أيضا . الأول : شهادة كتبه بذلك كقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ الثاني : ما أقامه من الآيات في الأنفس والآفاق مما يدل على

توحيده واتصافه بصفات الكمال . الثالث : ما أودعه جل شأنه في الفطرة البشرية من الإيمان بإله واحد له صفات الكمال ، والبقاء الذى لا نهاية له . ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ أي بلغه القرآن من يأتي بعد إلى يوم القيامة من العرب والعجم ، وغيرهم من سائر الأمم * في الخازن قال محمد بن كعب القرطبي : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ وكلمه * . وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس مرفوعاً قال : - (من بَلَغَهُ الْقُرْآنَ فَكَأَنَّمَا شَافَهُتُهُ بِهِ) - ثم قرأ : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَنَّكُمْ بِهِ ﴾ وأخرج أبو الشيخ عن أبي كعب قال : أتى رسول الله ﷺ بأسارى فقال لهم : « هل دعيتم إلى الاسلام ؟ » قالوا : لا ، فخلى سبيلهم ، ثم قرأ : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأَنَّكُمْ بِهِ ﴾ ثم قال : « خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمئهم من أجل أنهم لم يدعوا » وفي الخازن : وقال أنس بن مالك : لما نزلت هذه الآية كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر وكل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل . وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاصي أن النبي ﷺ قال : « بلغوا عنى ولو آية وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوا مقعده من النار » وقد شرح الخازن الحديث بقوله : فيه الأمر بإبلاغ ما جاء به النبي ﷺ إلى من بعده من قرآن وسنة . وقوله : وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج . الحرج الضيق ولائم . ومعنى الحديث . أنه مهما قلتم عن بنى إسرائيل فإنهم كانوا في حال أكثر مما قلتم وأوسع . وليس هذا فيه إباحة الكذب والاختبار عن بنى إسرائيل لكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على بعض البلاغ . وإن لم يتحقق ذلك بنقل لأنه أمر قد تعذر لبعده المسافة وطول المدة . عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نضر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع » أخرجه الترمذي * والمعنى : وهو نذير لكل من بلغه من الملائكة والإنس والجن ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالتَّارِ مَوْعِدُهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أَنْتُمْ لَشَٰهِدُونَ ﴾ أيها المشركون أي ﴿ أَنْ مَعَ اللَّهِ آهَةٌ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ ﴾ كقوله : ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ ﴾ * وآلهة الكفار : الأصنام التى كانوا يعبدونها . أي لا أشهد بما تشهدون به أن مع الله آلهة أخرى ، بل أجد ذلك وأنكره ﴿ قُلْ هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ أي وبذلك أشهد . وقد قامت الدلائل العقلية والنقلية على صدق ذلك

﴿ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي وأنا برىء من كل ما تعبدون سوى الله . فبالتوحيد بعثت ، وبكسر الأصنام أمرت ، وبدين الإسلام رضيت *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس في رواية أبي صالح : إن أبا سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث ، وعتبة وشيبة ابني ربيعة وأمية وأبيا ابني خلف . استمعوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ما يقول محمد ، قال : والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول إلا أني أرى يحرك شفثيه يتكلم بشيء ، وما يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية ، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى ، وكان يحدث قريشا فيستملحون حديثه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * زاد المراغي : قال أبو سفيان : إني لأرى بعض ما يقول حقا ، فقال أبو جهل : كلا فأنزل الله الآية * وفي الخازن : قال أبو جهل : كلا لا نقر بشيء من هذا . وتجيء رواية : للموت أهون علينا من هذا فأ نزل الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ... ﴾ وكذا في الغرائب والكشاف أما التفسير : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ يا محمد إذا قرأت ، وفي يونس يستمعون بالجمع لأن ما هنا في قوم قليلين فنزلوا منزلة الواحد ، وما في يونس في جميع الكفار مناسب للجميع فأعيد الضمير على معنى من . ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أعطية مستقرة على قلوبهم ﴿ أَنْ ﴾ لا ﴿ يَفْقَهُوهُ ﴾ يفهموا القرآن ﴿ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أي وجعلنا في آذانهم صمما فلا يسمعون سماع قبول ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ ﴾ دالة على صدق رسالتك ﴿ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا ﴾ لعدم استعمال عقولهم والتفكير فيما جتتهم به ، حال كونهم ﴿ يُجَادِلُونَكَ ﴾ في الرسالة والقرآن ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ ﴾ ما ﴿ هَذَا ﴾ القرآن ﴿ إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أساطير جمع أسطورة نحو أحداثثة وأحاديث . ومعنى الأساطير الأحاديث الباطلة وهى الخرافات والترهات . وجائز أن يكون الواحد أسطارا مثل أبيات وأبايت وأقوال وأقاويل من قول الله تعالى : وكتاب مسطور ، فإن كان هذا فإن معناه ما هذا إلا ما كتبه الأولون ، وعن ابن عباس : معناه إن هذا إلا أساطير

الأولين . وعن السدى : أساجيع الأولين ، وعن ابن عباس في تفسير ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ ﴾ قال : هم المشركون يجادلون المسلمين في الذبيحة يقولون : أما ما ذبحتم وقتلتم تأكلون ، وأما ما قتل الله فلا تأكلون . وأنتم تتبعون أمر الله تعالى * وإنما نسبوا القرآن إلى أساطير الأولين بمعنى أنه ليس بوحي من الله تعالى . وإنما هو أخبار مجردة كما تروى أخبار الأولين * ثم إن غرض القوم من هذا القول هو القدح في كون القرآن معجزاً كما أن الكتب المشتملة على الأخبار والقصص ليست بمعجزة . والجواب : إن هذا القرآن مقرون بالتحدى وقد عجزوا جميعاً عن الاتيان بمثل أقصر سورة منه فظهر الفرق بين تلك الأساطير وتراكيب ألفاظ القرآن الكريم * كما أن تلك الأساطير من كلام البشر كحديث رستم وغيره ، والقرآن كلام الله العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه * وكانوا يعنون بالأساطير الحرافات الباطلة التى لا يكون فيها فائدة معتبرة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ في لباب السيوطي : نزلت في عمومة النبي ﷺ . وكانوا عشرة . فكانوا أشد الناس معه في العلانية ، وأشد الناس عليه في الشر * وفي الغرائب : وعن عطاء ومقاتل عن ابن عباس أنها نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ، ويتباعد عما جاء به . روى أن قريشا اجتمعوا إلى أبي طالب يريدون سؤاً بالنبي ﷺ ، فقال أبو طالب :

والله لئن يصلوا إليك بجمعهم * حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة * وابشر وقرّ بذاك منك عيونا
وعرضت ديناً لا محالة أنه * من خير أديان البرية دينا
ودعوتنى وزعمت أنك ناصحى * ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
لولا الملامة أو حذارى سبة * لوجدتنى سمحاً بذاك مبينا

وكذلك في الخازن : وفي الكرخي ، وقيل : نزلت في عمه أبي طالب وهو قول ابن عباس وعمرو بن دينار وسعيد بن جبير * والقائل بأنها نزلت في المشركين جماعة منهم الكلبي والحسن . وفي مجمع الزوائد قوله : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ ﴾ عن ابن عباس : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ نزلت في أبي طالب كان ينهى عن أذى النبي ﷺ

وينأى عن اتباعه . قال الهيثمى : رواه الطبراني ، وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة وغيره وضعفه ابن معين وغيره ، وبقية رجاله ثقات * وفي مستدرک الحاكم : حدثنا علي بن حمشاذ العدل : ثنا محمد بن منده الأصهباني ، ثنا بكر بن بكار ، ثنا حمزة بن حبيب بي أبي ثابت عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ﴾ قال نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويتباعد عما جاء به * قال الحاكم حديث حمزة بن حبيب صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبي * وحينئذ فجمع الضمير المرفوع من حيث استتباعه لأتباعه . وقوله كان ينهى المشركين الخ .. فعلى الأول وهم ينهون عنه يعنى عن اتباعه وهو عام فيدخل فيهم أبو طالب ، وعلى الثاني يعنى عن أذاه . وقوله : ﴿ إِنَّ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ أي بما تقدم ذكره . ولكن النهى عن أذيته حسن لا يوجب الهلاك . ويمكن أن يجاب بأن الذم توجه على الهيئة الاجتماعية الحاصلة من النهى مع النأى كقوله : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ ولو سلم فلم لا يجوز أن يرجع الذم إلى القسم الأخير فقط ، وعبرة أبي السعود : بالنهى والنأى . أي ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ يَهْلِكُونَ ﴾ بالنأى عنه ﴿ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ لأن ضرره عليهم ﴿ وما يشعرون ﴾ بذلك أي بإهلاك أنفسهم . وهذه الآية متصلة بما قبلها إذ هي تأكيد لقطعهم في القرآن الكريم ونهيم عن اتباع النبي ﷺ *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ ﴾ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴿ في الواحدى : قال السدى : التقى الأحنس بن شريق وأبو جهل بن هشام . فقال الأحنس لأبي جهل . يا أبا الحكم : أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس هنا من يسمع كلامك غيرى . فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجامة والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال أبو ميسرة : إن رسول الله ﷺ مر بأبي جهل وأصحابه فقالوا يا محمد : إنا والله ما نكذبك ، وإنك عندنا لصادق ، ولكن نكذب ما جئت به . فنزلت ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَ ﴾ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴿ وفي الخازن عن

علي رضي الله عنه أن أبا جهل قال للنبي ﷺ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب الذي جئت به * فأنزل الله فيهم ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ ... ﴾ أخرجه الترمذي من طريقين ، وقال في أحدهما وهذا أصح . قلت : وفي المستدرک عن علي رضي الله عنه قال : قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : قد نعلم يا محمد إنك تصل الرحم وتصدق الحديث ولا نكذبك ولكن نكذب الذي جئت به ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وكذا في بقية التفاسير . وقوله تعالى : ﴿ قَدْ ﴾ للتحقيق ﴿ نَعْلَمُ إِنَّهُ ﴾ أي الشأن ﴿ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴾ لك من التكذيب وهو استئناف مسوق لتسلية النبي ﷺ عن الحزن الذي يعتره مما حلّ عن الكفرة من الاصرار على التكذيب والمبالغة في بيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله تعالى . وأن ما يفعلون في حقه فهو راجع إليه تعالى في الحقيقة ، وأنه يتقم منهم لا محالة أشد انتقام ، وكلمة قد للتحقيق وتأکید العلم بما ذكر المقيد لتأكيد الوعيد كما في قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ وقوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوقِينَ ﴾ * ونحوها بإخراجها إلى معنى التكثير ، والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة متعلقاته . وقوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ ﴾ في السر لعلمهم أنك صادق . والفاء للتعليل ، ووجه التعليل بأن التكذيب في الحقيقة لي ، وأنا الحليم الصبور فتخلق بأخلاقى ، ويحتمل أن يكون المعنى إنه يحزنك قولهم لأنه تكذيب لي ، فأنت لم تحزن لنفسك بل لما هو أهم . ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ وضعه موضع المضمّر ، وهم ﴿ بآيَاتِ اللَّهِ ﴾ القرآن ﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ يكذبون في العلانية . والتعبير عن الكذب بالجحود للايذان بأن آياته تعالى واضحة بحيث يشاهد صدقها كل أحد ، وإن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذى هو الانكار مع العلم ، والجحد والجحود نفى ما في القلب ثباته أو إثبات ما في القلب نفيه . وهو نقيض الاقرار كالانكار * وفي السمين وقيل : الجحد انكار المعرفة فليس مرادا للنفي من كل وجه * قلت : ولذا وصفهم بالظلم لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وفي المثل : من استرعى الذئب فقد ظلم . وأصل الظلم الجور ومجاوزة الحد ، والميل عن القصد . لذا كان وصفهم بالظلم والجحود أمرا لازما . (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا)

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ . في الواحدي : حدث المقداد بن شرحبيل عن أبيه عن سعد قال : نزلت هذه الآية فيّ وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد وبلال . قالت قريش لرسول الله ﷺ : إنا لا نرضى أن نكون أتباعا لهؤلاء . فأطردهم ، فدخل قلب رسول الله ﷺ من ذلك ما شاء أن يدخل ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ الآية رواه مسلم عن زهير بن حرب ، عن عبد الرحمن عن سفيان عن المقداد . وفي رواية خباب بن الأرت قال : فينا نزلت كنا ضعفاء عند النبي ﷺ بالغداة والعشي ، فعلمنا القرآن والخير ، وكان يخوفنا بالجنة والنار ، وما ينفعنا ، والموت والبعث ، فجاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصين الفزاري . فقالا : إنا من أشرف قومنا ، وإنا نكره أن يرونا معهم فأطردهم إذا جالسناك . قال : نعم قالوا : لا نرضى حتى نكتب بيننا كتابا ، فأتى بأديم ودوات ، فنزلت هؤلاء الآيات ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ . وفي لباب السيوطي : مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب بن الأرت وصهيب وبلال ، فقالوا يا محمد : أرضيت بهؤلاء ؟ وهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ لو طردت هؤلاء لاتبعناك . فأنزل الله فيهم القرآن : ﴿ وَأَنْذِرِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا ﴾ . إلى قوله : ﴿ سبِيلِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ * وكذا روى أحمد وابن جرير والطبراني . وعبرة الحازن : جاء الأقرع بن حابس التميمي وعتبة بن حصين الفزاري - وفي أبي السعود : وعيينة - وعباس بن مرداس : وهم المؤلفقة قلوبهم . فوجدوا النبي ﷺ جالسا مع ناس من ضعفاء المؤمنين كعمار بن ياسر وصهيب وبلال ، فلما رأوهم حوله حقروهم ، وقالوا يا رسول الله : لو جلست في صدر المجلس . وأبعدت عنك هؤلاء ، ورائحة جبابهم - وكانت عليهم جيب من صوف لها رائحة كريهة

لمدائمة لبسها لعدم غيرها - لجالسناك ، وأخذنا عنك ، فقال النبي : « ما أنا بطارد المؤمنين ، قالوا : فإننا نحب أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فستحى أن ترانا مع هؤلاء الأعبد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت . قال : نعم ، قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك ، فأتى بالصحيفة ، ودعا علياً ليكتب فنزل جبريل بقوله : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ ... ﴾ الآية فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة ، ثم دعانا ، وهو يقول : «سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة» فكنا نقعد معه ، وإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فنزل الله : ﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ ... ﴾ الآية فكان يقعد معنا بعد ذلك وندنوامنه حتى كادت ركبنا تمس ركبته ، فإذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم * وقال لنا : الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي ، معكم الحيا ومعكم الممات * وأورد بعدها روايات كثيرة كلها في نفس المعنى . وفي مجمع الزوائد قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ عن ابن مسعود قال : مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ . وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار . فقالوا يا محمد : أرضيت بهؤلاء فنزل فيهم القرآن ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال : فقالوا يا محمد : أهؤلاء من الله عليهم من بيننا لو طردت هؤلاء لأتبعناك ، فنزل الله : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعُدَاةِ وَالْعَشَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ . ورجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس وهو ثقة . قوله تعالى ﴿ واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : نزلت هذه الآية على النبي ﷺ ، وهو في بعض أبياته . فخرج يتلمس ، فوجد قوما يذكرون الله : منهم نائر الرأس وحاف الجلد ، وذو الثوب الواحد . فلما رآهم جلس معهم ، فقال : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم * قال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح . وقد ذكر الطبراني عبد الرحمن في الصحابة * أما التفسير : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعُدَاةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ ﴾ بعبادتهم ﴿ وَجْهَهُ ﴾ تعالى

لا شيئاً من أغراض الدنيا ، وهم الفقراء كما علمت أى ولا تطرد أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحدين الصابرين على البأساء والضراء الذين يعبدون ربهم في كل الأوقات ، وخص الغداة والعشى لأنها طرفي الليل والنهار . قال ابن عباس : يعنى يعبدون ربهم بالغداة والعشى يعنى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ويروى عنه أن المراد منه الصلوات الخمس ، وإنما ذكر هذين الوقتين تنبيها على شرفهما ، ولأنهم مواظبون عليهما مع بقية الصلوات ، ولأن الصلاة تشمل على القراءة والدعاء ، والذكر ، فعبر الدعاء عن الصلاة لهذا المعنى . قال مجاهد : صليت الصبح مع سعيد بن المسيب ، فلما سلم الإمام ابتدر الناس القاضي . فقال سعيد بن المسيب : ما أسرع الناس إلى هذا المجلس ؟ فقال مجاهد : يتأولون قوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ قال : أو في هذا ، إنما هو في الصلاة التي انصرفنا عنها الآن * وقيل : المراد منه حقيقة الدعاء والذكر . قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ يعنى لا تكلف أمرهم ولا يكلفون أمرك . وقيل : ما عليك حساب رزقهم ، فتطردهم عنك ولا رزقهم عليك إنما هو على الله ، قوله : ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ هذا تميم . ومجرد فائدة وإلا فالكلام قد تم بدونه . أويقال : إن الطرد جزاء والجزاء لا يكون إلا على سىء الأعمال ولا يثبت ذلك إلا بالحساب ، وحسابهم ليس على الرسول كما أنهم ليسوا محاسبين عن أعماله ، وكلا الحسابين مرادة الله تعالى ﴿ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ يعنى بطردهم عنك وعن مجلسك ، وفي هذا تعريض بأولئك الذين طلبوا طردهم بأنهم ظالمون ، وقد علمت أن الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه ، فيكون المعنى إن أولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب ، فلا تهم بطردهم عنك ، فتضع الشيء في غير موضعه ، وذلك بأن تحرمهم من مجالستك ومحادثتك . فهو من باب ترك الأفضل والأولى لا من باب ترك الواجبات . وحاشا رسول الله ﷺ من الظلم ، وإنما ورد الخطاب على التحذير قبل الطرد فلم يطردهم لذا انتهى أن يكون ﷺ من زمرة الظالمين وإيضاحه أن تطردهم منصوب على جواب النفي بأحد معنيين فقط وهو انتفاء الطرد لانتفاء كون حسابهم عليه وحسابه عليهم لأنه ينتفى المسبب بانتفاء سببه ، ولنوضح ذلك في مثال : وهو ما تأتينا فتحدثنا بنصب فتحدثنا . وهو يحتمل

معنيين : أحدهما انتفاء الاتيان وانتفاء الحديث كأنه قيل : ما يكون منك إتيان فكيف يقع منك حديث . وهذا المعنى هو مقصود الآية الكريمة أى ما يكون مؤاخذاً كل واحد بحساب صاحبه فكيف يقع طرد؟! والمعنى الثاني انتفاء الحديث ، وثبوت الاتيان كأنه قيل : ما أتأتينا محدثاً بل تأتينا غير محدث ، وهذا المعنى لا يليق بالآية الكريمة * وقوله : فتكون معطوف على فتطردهم . فيكون المعنى المفهوم هو انتفاء الحساب وانتفاء الطرد والظلم المسبب عن الطرد * وبما ذكرت يرد به على الطاعنين في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية ، فقالوا : إن النبي ﷺ لما هم بطرد الفقراء عن مجلسه لأجل الأشراف عاتبه الله على ذلك ، ونهاه عن طردهم . وذلك يقدر في العصمة . وقد علمت كيف ترد عليهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ أي وكذلك ابتلينا الغنى بالفقير والفقير بالغنى ، والشريف بالوضيع والوضيع بالشريف .. فكل أحد مبتلى بضده ، فكان ابتلاء الأغنياء الشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم إلى الإسلام وتقدموا عليهم فامتنعوا من الدخول في الإسلام لذلك ، فكان ذلك فتنتهم وابتلاؤهم ، وأما فتنة الفقراء بالأغنياء فلما يرون من سعة رزقهم وخصب

عيشهم فكان ذلك فتنة لهم . والكاف من كذلك في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف، والتقدير ومثل ذلك الفتون المتقدم الذى فهم من سياق أخبار الأمم الماضية . فتنا بعض هذه الأمة ببعض والاشارة بذلك إلى الفتون المدلول عليه فتنا . ﴿ لَيَقُولُوا ﴾ الشرفاء والأغنياء منكرين ﴿ أهؤلاء ﴾ الفقراء ، استفهام انكارى ﴿ من الله عليهم من بيننا ﴾ بالهداية إلى الاسلام قبلنا . لو كان ما هم عليه هدى ما سبقونا إليه قال تعالى : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ له فيهديم ؟ بلى * أي إن المستحق لمن الله وزيادة نعمه إنما هو من يقدرها قدرها ، ويعرف حق المنعم بها فيشكره عليها لا من سبق الانعام عليه فكفر وبطروا واستكبر ، وفي الآية إيماء إلى أن ما اغتروا به من النعم لن يدوم ، ولا يبقى المؤمنون على الضعف الذى صبروا عليه ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ كذلك فيها إشارة إلى أن تركهم للإيمان لم يكن إلا جحوداً ناشئاً عن الكبر والعلو فى الأرض لا عن حجة ولا عن شبهة ، وإلى أن ضعفاء المؤمنين السابقين لم يفتنوا بغنى كبراء المشركين وقوتهم *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ في الواحدي : قال عكرمة : نزلت في الذين نبى الله تعالى نبيه ﷺ عن طردهم ، فكان إذ رآهم النبي ﷺ بدأهم بالسلام ، وقال : الحمد لله الذى جعل في أمتى من أمرى أن أبدأهم بالسلام ، وقد تقدم الكلام عليها ، أي وإذا جاءك القوم الذين يصدقون بكتابتنا وحججنا ، ويقرون بذلك قولنا وعملا ، سائلين عن ذنوبهم ، التى فرطت منهم : هل لهم منها توبة ؟ فلا تُؤتسهم منها ، وقل لهم : سلام عليكم ، أي أمنةُ الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها لأنه تعالى أوجب على ذاته المقدسة تفضلاً منه وإحساناً . الرحمة بخلقه أنه من عمل منهم عملاً تسوء عاقبته حال كونه ملبساً بجهالة دفعته إلى ذلك السوء ، كغضب شديد حمله على السب والضرب ، أو شهوة مغتلمة قادتة إلى انتهاك العرض ، ثم تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن علم أنه شاعراً بقبحه نادماً عليه خائفاً من عاقبته ، وأصلح عمله بأن اتبع ذلك العمل السيء بعمل يضاده ويذهب أثره من قلبه حتى يعود إلى النفس زكاؤها وطهارتها ، وتصير أهلاً للقرب من ربها - فشأنه تعالى في معاملته أنه واسع المغفرة والرحمة ، فيغفر له ما تاب عنه ، ويتغمده برحمته وإحسانه *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ أَلْحَمُّ إِلَّا اللَّهُ يُقْضَى الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ في الواحدي : قال الكلبي : نزلت في النضر بن الحارث ورؤساء قريش كانوا يقولون يا محمد : اتنا بالعذاب الذى تعدنا به استهزاء منهم . فنزلت هذه الآية * ولم يوجد في التفاسير غير هذا القول . أما التفسير : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ ﴾ بيان أي دليل وبرهان واضح وهو القرآن ﴿ مِنْ رَبِّي ﴾ أي منزل من عند ربى ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ كَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾ أي بوحدايته حيث أشركتم غيره معه ﴿ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ من العذاب وفي الخازن أن سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم ، وكانوا يستعجلون به استهزاء كما في آية الأنفال : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اتُّنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ الْحَقُّ ﴾ في ذلك

وغيره أي في التقديم والتأخير ﴿ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وحده ﴿ يَقْصُ ﴾ القضاء وفي قراءة بكر الصاد من قص الحديث ، ومن قص الأثر أي تتبعه . ﴿ الْحَقُّ ﴾ فيحكم به ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ الحاكمين بين الخصمين ، فلا يقع في حكمه وقضائه جور ولا حيف على أحد من خلقه *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : لما نزلت ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ... ﴾ الآية قال رسول الله ﷺ « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف » قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال بعض الناس : لا يكون هذا أبداً أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن مسلمون فنزلت : ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ * وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ * وفي ابن كثير : عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أعوذ بوجهك » أو ﴿ أعوذ بوجهك ﴾ « أو من تحت أرجلكم » قال : ﴿ أعوذ بوجهك ﴾ أو ﴿ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هذا أهون وأيسر » قلت : رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه وفي آخره : هذا هو أو هذا أيسر . وقوله أعوذ بوجهك . أي بذاتك وقوله : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : يعنى يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل * وقوله : ﴿ وَهَذَا أَهْوَنُ ﴾ لأن الفتن من المخلوقين ، وعذابهم أهون من عذاب الله . وبالفتن ابتليت هذه الأمة وقوله : ﴿ أَوْ هَذَا أَيْسَرُ ﴾ شك من الراوى . ووقع في الاعتصام : هاتان أهون وأيسر . أي خصلة الالباس وخصلة إذافة بعضهم بأس بعض * وفي مجمع الزوائد قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾ عن أبي كعب في قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ الآية قال : « هن أربع وكلهن واقع لا محالة ،

فمضت اثنتان بعد رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة فألبسوا شيعاً . وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان واقعتان لا محالة : الخسف والرجم « قال الهيثمي ورواه أحمد ورجاله ثقات * وكذا رواه بن جرير الطبري عن أبي العالة . وفي آخره : الخسف والمسوخ . بدل الرجم . وروى ما ذكره السيوطي والبخاري . وروى عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَيُذِيقُ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ . قال الحسن : ثم قال لمحمد ﷺ ، وهو يشهده عليهم (انظروا كيف نصرف الآيات لعلمهم يفقهون) ، فقام رسول الله ﷺ فتوضأ فسأل ربه أن لا يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم ، ولا يلبس أمته شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض كما أذاق بنى اسرائيل فهبط إليه جبريل عليه السلام فقال يا محمد : «إنك سألت ربك أربعاً فأعطاك اثنتين ومنعك اثنتين : لن يأتيهم عذاب من فوقهم ولا من تحت أرجلهم يستأصلهم ، فإنهما عذابان لكل أمة اجتمعت على تكذيب نبيها ورد كتاب ربه ، ولكنه يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض وهذا عذابان لأهل الاقرار بالكتاب والتصديق بالأنبياء ، ولكن يعذبون بذنوبهم ، وأوحى إلي ﴿ فَإِنَّمَا نَذَبْنَا بِكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مُتَّقِمُونَ ﴾ « يقول : من أمتك ، أو نريك الذي وعدناهم من العذاب وأنت حى ، فإنما عليهم مقتدرون فقام نبي الله ﷺ فراجع ربه فقال : أي مصيبة أشد من أن أرى أمتى يعذب بعضها بعضاً ، وأوحى إليه ﴿ أَلَمْ أَحْسَبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ فأعلمه أن أمته لم تخص دون الأمم بالفتن ، وأنها ستبلى كما ابتليت الأمم ، ثم أنزل عليه ﴿ قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ يَمُنَ بِمَا وَعدتَهُمْ رَبِّ فَمَا تَجْعَلُنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ فتعوذ في الله . فأعاده الله لم ير من أمته إلا الجماعة والألفة والطاعة ، ثم انزل عليه آية حذر فيها أصحابه الفتنة ، فأخبره أنه إنما يخص بها ناس منهم دون ناس فقال : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب » . فخص بها أقواماً من أصحاب محمد ﷺ بعده وعصم بها أقواماً * قلت : وفي ابن كثير عن الحسن في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : هذه للمشركين . وعن مجاهد قال : لأمة محمد وعفا عنهم . قال الطبري : والصواب من القول عندى أن يقال إن الله

تعالى توعده بهذه الآية أهل الشرك به من عبدة الأوثان وإياهم خاطب بها لأنها بين أخبار
عندهم وخطاب لهم ، وذلك أنها تتلو قوله : ﴿ قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَأَنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ قُلْ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا
وَمَنْ كَلَّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿ ويتلوها قوله ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾
وغير جائز أن يكون المؤمنون كانوا به مكذبين ، فإذا كان غير جائز أن يكون ذلك
كذلك . وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين كان بيناً أن ذلك وعيد لمن تقدم وصف الله
إياه بالشرك ، وتأخر الخبر عنه بالتكذيب لا لمن لا يجر له ذكر، غير أن ذلك ، وإن كان
كذلك فإنه قد عم وعيده بذلك كل من سلك سبيلهم من أهل الخلاف على الله وعلى
رسوله والتكذيب بآيات الله من هذه وغيرها . وأما عن الأخبار التي رويت عن رسول
الله ﷺ أنه قال : «سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة» فجائزاً أن هذه الآية
نزلت في ذلك الوقت وعيدا لمن ذكرت من المشركين ، ومن كان على مناهجهم من
المخالفين ربهم ، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعيد أمته مما ابتلى به الأمم الذين استوجبوا
من الله تعالى بمعصيتهم إياه هذه العقوبات فأعادهم بدعائه إياه ، ورغبته إليه من المعاصي
التي يستحقونها بها من هذه الخلال الأربع من العقوبات أغلظها ، ولم يعدهم من ذلك
ما يستحقون به اثنتين منها . وقال : وأما الذين تأولوا أنه عنى بجميع ما في هذه الآية
هذه الأمة ، فإنى أراهم تأولوا أن في هذه الأمة من سيأتى من معاصي الله وركوب
ما يسخط الله نحو الذي ركب من قبلهم من الأمم السالفة من خلافه والكفر به ، فيحل
بهم مثل الذى حل بمن قبلهم من المثلات والنقمة . وكذلك قال أبو العالية ، ومن قال
بقوله . جاء منهن اثنتان بعد رسول الله ﷺ . بخمس وعشرين سنة ، وبقيت اثنتان
الحسب والمسح ، وذلك أنه روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «سيكون في هذه الأمة
خسف ومسح وقذف» ، وإن قوما من أمته سيبيتون على لهُو ولعب ، ثم يصبحون قرده
وخنازير ، وذلك إذا كان فلاشك أنه نظير الذى في الأمم الذين عتوا على ربهم في
التكذيب وجحدوا آياته * أما التفسير ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾ استئناف مسوق لبيان أنه
تعالى هو القادر على القائم في المهالك أثر بيان أنه هو المنجى لهم منها ﴿ عَلَى أَنْ يَعْتَبَ ﴾
يرسل ﴿ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ قَوْقُمْ ﴾ من السماء كالحجارة التي نزلت على أصحاب

الفيل ، والصيحة كصيحة جبريل التي صرخها على ثمود قوم صالح فتهلكوا ﴿ أَوْ مِنْ
تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ كالخسف الذي وقع بقارون وغرق فرعون . وقيل : من قبل أكابركم
وسلاطينكم ، أو من جهة سفلتكم وعبيدكم قاله ابن عباس ولاشك أن لفظ العذاب
نكرة مبهم قصد به الشمول ، ولا يخفى أن حروب العصر الحديث هي نوع من العذاب
بما تقذفه الطائرات من الصواريخ والقنابل التي تحمل كل منها الآلاف المؤلفة من المواد
المتفجرة من الحديد والمعادن الأخرى المهلكة ، ومن المواد المحرقة ، وصارت تطير آلاف
الكيلو مترات لتصل إلى أهدافها المقصودة فتخرب المدن والقرى وتجعل عاليها سافلها بما
تصب من عل حتى لكأنها بركان ثائر يريد أن يتلع كل ما حوله ، وكذلك مقذوفات
المدافع والألغام وصواريخ الغواصات في البحار فكم من سفينة أُحرقت بما فيها وغرقت ،
وأصبح أهله وما فيها طعاما للسماك وحيوان البحر ، ولا شك أن أم أوروبا لا تزال حتى
يومنا هذا وستبقى ما شاء الله شيعة متعادية يذيق بعضها بأس بعض ، وترى الناس من
هول ما يصيبهم سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد . روى أحمد
والترمذي عن سعد بن أبي وقاص قال : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية - ﴿ قُلْ
هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ ... ﴾ الآية فقال : . أما إنها كائنة
ولم يأت تأويلها بعُد . ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا ﴾ فرقا مختلفة الأهواء . وفي القاموس :
وشيعة الرجل بالكسر أتباعه وأنصاره ، والفرقة على حدة ، وتقع على الواحد والاثنين
والجمع والمذكر والمؤنث ، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته حتى
صار اسما لهم خاصة ، والجمع أشياع وشيع كعنب . وفي الخازن : وقيل : الشيعة هم
الذين يتقوى بهم الانسان . قال الزجاج في قوله : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا ﴾ يعني يخلط
أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق فيجعلكم فرقا مختلفين يقاتل بعضكم بعضا وهو
معنى قوله ﴿ وَيُذِيقُ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال ابن عباس : قوله : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ
شِيْعًا ﴾ . يعني الأهواء المختلفة ، ويذيق بعضكم بأس بعض . أنه يقتل بعضكم بيد
بعض . أي ينطبق ما عليه الناس اليوم من الاختلاف والأهواء وسفك بعضهم دماء
بعض ، وهذا يرجح قول أبي العالية وأبي بن كعب ، وقول القائل : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ
شِيْعًا ﴾ ما كان بينهم من الفتن والاختلاق ، ويذيق بعضكم بأس بعض ، يعني ما كان

فيهم من القتل بعد وفاة رسول الله ﷺ . ويؤيده ما رواه البخاري من قوله عليه الصلاة والسلام في آخر الحديث : « هذا أهون أو هذا أيسر » ويعنى قوله : « أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » وعن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي ﷺ ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد ابن معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلاً ، ثم انصرف إلينا فقال : « سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فنعنيها » أخرجه مسلم والترمذي عنه به * وقوله : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ أي انظر يا محمد كيف نبين دلائلنا وحججنا لهؤلاء المكذبين ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يعلمون أن ما هم عليه باطل * فيزجروا ويرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن زحر ، عن بكر بن سواده . قال : حمل رجل من العدو على المسلمين فقتل رجلاً ، ثم حمل فقتل آخر ، ثم حمل فقتل آخر ، ثم قال : أينفعني الإسلام بعد هذا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم » فضرب فرسه فدخل فيهم ، ثم حمل على أصحابه ، فقتل رجلاً ، ثم آخر ، ثم آخر ، ثم قتل . قال : فيرون أن هذه الآية نزلت فيه : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ... ﴾ الآية * وفي ابن كثير : عن جرير عن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ . فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضح نحونا ، فقال رسول الله ﷺ : « كأن هذا الراكب إياكم يريد » فانتبه إلينا الرجل ، فسلم فرددنا عليه . فقال له النبي ﷺ : « من أين أقبلت ؟ » قال من ولدي وأهلي وعشيرتي . قال : « فأين تريد ؟ » قال : أريد رسول الله ﷺ . قال : « فقد أصبته » قال : يا رسول الله : علمني ما الإيمان ؟ قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » قال : قد أقررت ، قال : ثم إن بعيره دخلت يده في سبكة جردان فهوى بعيره وهوى الرجل فوقع على هامته فمات ، فقال رسول الله ﷺ : « على بالرجل » فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان ،

فأقعده ، فقالا يا رسول الله : قبض الرجل . قال : فأعرض عنها رسول الله ﷺ ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ : « أما رأيتم إعراضى عن الرجل ، فإني رأيت ملكين يديسان فيه من ثمار الجنة ، فعلمت أنه مات جائعا » ثم قال رسول الله ﷺ : « هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ الآية . ثم قال : « دونكم أحاكم » فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطناه وكفناه وحملناه إلى القبر ، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال : « ألدوا ولا تشقوا فإن اللحد لنا والشق لغيرنا » * اللحد : الشق في جانب القبر . وأخرج عن ابن عباس قال : كنا مع رسول الله ﷺ في مسرى ساره إذ عُرِضَ له أعرابي . فقال يا رسول الله : والذي بعثك بالحق لقد خرجت من بلادى وتلادى - عبيدى - ومالى لأهتدى بهداك ، وآخذ من قولك ، وما بلغتك حتى ما لى طعام إلا من خضر الأرض ، فأعرض عني ، فعرض عليه رسول الله ﷺ فقبل ، فازدحمنا حوله ، فدخل خف بكره في بيت جرذان فتردى الأعرابي فانكسرت عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق ، والذي بعثني بالحق لقد خرج من بلاده وتلاده وما له ليهتدى بهداى ، ويأخذ من قولى ، وما بلغنى حتى ما له طعام إلا من خضر الأرض ، أسمعتم بالذى عمل قليلا وأجره كثيرا ؟ هذا منهم ، أسمعتم الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك هم الأمن وهم مهتدون ؟ فإن هذا منهم » والمراد بالظلم الذى يلبس به المرء إيمانه بالله وغلطه به فينقص منه ، أو ينقصه هو الشرك في العقديّة أو العبادة يدل على هذا التفسير ما رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس ، وقالوا يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه ؟ فقال ﷺ : « إنه ليس الذى تعنون . ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) إنما هو الشرك ، والمراد بالأمن من عذاب الله الذى يحل بمن لا يرضى إيمانه ولا عبادته ، والمعنى : إن الذين آمنوا بالله تعالى ، ولم يخلطوا إيمانهم بظلم عظيم وهو الشرك به سبحانه وتعالى . أولئك هم الأمن يوم الفرع الأكبر ، « وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ » ، وهم مهتدون في الدنيا إلى سبيل الهدى والرشاد قال البخاري : حدثني محمد بن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة ، عن سليمان عن ابراهم ، عن علقمة ، عن عبد الله رضي الله عنه

قال : لما نزلت «وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» قال أصحابه : وأينا كم يظلم ، فنزلت : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ روى الحاكم في مستدركه في كتاب التفسير عن زياد بن حرمله قال : سمعت علي بن أبي طالب يقرأ هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ . قال : هذه في ابراهيم وأصحابه ، وليست في هذه الأمة * قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وسكت الذهبي . وهو دليل على اقراره . نعم إن الآية وردت في وسط قصة إبراهيم عليه السلام ، وهو يؤيد ما ذكره علي كرم الله وجهه ، فهي جواب من الله ، به فصل القضاء بين ابراهيم ومن حابه من قومه ، وروى ابن جرير عن عكرمة ، قال هي لمن هاجر إلى المدينة . قال : وأولى القولين بالصحة في ذلك ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ وهو الخبر الذي رواه ابن مسعود عنه أنه قال : الظلم ذكره الله تعالى في هذا الموضع إنما هو الشرك . قلت : ولا مانع من كون الآية على العموم لأن الله لم يخص به معنى من معاني الظلم على التقييد في هذه الآية ولذا اختلفت أقوال المفسرين فعن مجاهد في قوله : «وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» قال : عبادة الأوثان . وعن أبي عبد الرحمن : قال : بشرك . كما اختلفوا في الآية فقال بعضهم : عنى بها ابراهيم . وقال بعضهم : عنى بها المهاجرين . فلا أقل من أن تحمل على العموم وأعنى بذلك أعمال الشرك كلها تمسكاً بالحديث الصحيح وبقوله تعالى : ﴿ وَفَايُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ وبقوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ والعبادات معروفة في الإسلام . وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج ، فيجب أن تكون خالصة لوجه الله بريئة عن الرياء . أي لا يشرك به سواه ، لا إشراكاً جلياً كما فعل الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ، ولا إشراكاً خفياً كما فعل أهل الرياء ممن يطلب بعمله الدنيا ، وهذا هو الشرك الأصغر كما صح في الحديث ، وروى مستفيضاً في الأخبار من أن كل عمل أريد به الدنيا لا يقبل فقد أخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يرويه عن ربه عز وجل قال : ﴿ أَنَا خَيْرُ الشُّرَكَاءِ ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي ، فَأَنَا بَرِيءٌ مِنْهُ ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ ﴾ فيكون المراد بالظلم . الشرك في العقيدة والعبادة كمن يعتقد ببعض المخلوقين نفعاً وضراً بذاته ، أو بتأثيره في مشيئة الله وقدرته مسنداً السبب إليه لا إلى

الله ، وهذا الشرك الأكبر . لا ظلم الانسان لنفسه أو لغيره ببعض التصرفات والأحكام ، فهو ظلم جور لا شرك * نسأل المولى العظيم الرحمن الرحيم أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، لأيراد به رضا أحد من خلقه *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا مَبْدُونَهَا وَتُحْفُونَ كَثِيراً وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ قال ابن عباس في رواية الوالبي : قالت اليهود يا محمد : أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : « نعم » قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى ... ﴾ . وقال سعيد بن جبیر : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف ، فخاصم النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : «أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله ييغض الحبر السمين» وكان حبراً سمينا ، فغضب ، وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال له أصحابه الذين معه ، ويحك ولا على موسى ؟! فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وكذا في الغرائب والخازن . زادا ، فقال أصحابه الذين معه : ويحك ولا على موسى ؟! فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، فلما سمعت اليهود تلك المقالة عتبوا عليه ، وقالوا : أليس الله أنزل التوراة على موسى ؟ فُلِمَ قُلْتَ هذا ؟ قال : أغضبنى محمد فقلته ، فقالوا : وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق ، فعزلوه من الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف * وفي ابن كثير : قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله بن كثير : نزلت في قريش . واختاره ابن جرير . وقيل : نزلت في طائفة من اليهود . وقيل : في فنحاص رجل منهم . وقيل : في مالك الصيف . قال ابن كثير : والأول أصح لأن الآية مكية ، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ لأنه من البشر * قلت : وفي الآية يقول تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ . يحتم أن الآية نزلت في طائفة من اليهود ، ويؤكد هذا قوله : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا مَبْدُونَهَا ﴾ . أي يكتبونه في دفاتر مقطعة بيدون ما يحبون إبداءه منها وهم

الأخبار من اليهود بقصد إخفاء صفة النبي ﷺ وما يوافق هواهم بخلاف ما لو جمعوا الكل في مجلد واحد كالمصحف فرمما اطلع غيرهم على جميع ما فيه . والقرشيتون لا يلبق بهم ذلك ، والقول في أنها نزلت في اليهود هو قول سعيد بن جبير وعكرمة والسدى ومحمد بن كعب القرظي وفتادة وابن عباس . روى الطبري في تفسيره عن سعيد بن جبير في تفسير الآية قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف . وساق الحديث . وروى عكرمة في قوله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ... ﴾ قال نزلت في مالك بن الصيف كان من قريظة من أخبار يهود .. وعن السدى : قال : فنحاص اليهودى . وعن محمد بن كعب القرظي قال : جاء ناس من يهود إلى النبي ﷺ فقالوا يا أبا القاسم : ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً يحملها من عند الله ، فأنزل الله : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا ارنا الله جهرة ﴾ ... الآية فجثا رجل من يهود فقال : ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئاً فأنزل الله : ﴿ وما قدرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ ... ﴾ قال محمد بن كعب : ما علموا كيف الله إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً .. وعن فتادة : ﴿ وما قدرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ في خوضهم يلعبون ﴾ . هم اليهود والنصارى : قوم آتاهم الله علماً فلم يبتدوا به ولم يأخذوا به . ولم يعملوا به فذمهم الله ، في عملهم ذلك .. وعن ابن عباس قوله : ﴿ وما قدرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء . يعنى من بنى اسرائيل قالت اليهود يا محمد : أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : « نعم » قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً ، قال : فأنزل الله ﴿ قل يا محمد من أنزل الكتاب ... ﴾ إلى قوله : ﴿ ولا آباؤكم ﴾ . قال : الله أنزله . قال الإمام الرازى وهو يرد على ابن جرير الذى صحح القول الأول بأنها نزلت في قريش : إن كفار قريش ينكرون نبوة جميع الأنبياء فكيف يمكن إلزامهم نبوة موسى . وأيضاً فما بعد هذه الآية لا يلبق بكفار قريش إنما يلبق بحال اليهود . كما أن كفار قريش واليهود كانوا مشركين في إنكار نبوة محمد ﷺ لذا قيل : لا يبعد أن بعض الآية يكون خطاباً لكفار قريش وبعضها خطاباً لليهود . وفي الخازن أن الآية نزلت في اليهود وهو قول

جمهور المفسرين . وهذا على قول من يقول إن هذه الآية مدنية، وأنها من الآيات المدنية التي في السور المكية . قال ابن عباس : نزلت سورة الأنعام بمكة إلا ست آيات منها قوله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ فإنها نزلت بالمدينة . وبه ينحل الاشكال . أما التفسير : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ قال ابن عباس : أي ما عظموا الله حق تعظيمه حيث أنكروا النبوة والرسالة . وقال أيضا في رواية : ما آمنوا بأن الله على كل شيء قدير . وقال أبو العالية : ما وصفوه حق صفته . وقال الأخفش : ما عرفوه حق معرفته أي في اللطف بأوليائه أو في القهر لأعدائه . وقال الجوهري : قدر الشيء مبلغه ، وقدرت الشيء أقدره قدراً من التقدير ، أي حرره وعرف مقداره ، ثم بين سبب عدم عرفانه بقوله : ﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ وإنما كان منكر البعث والرسالة غير عارف بالله تعالى لأنه إما أن يدعى أنه تعالى ما كلف أحدا من الخلائق تكليفا أصلا وهو باطل لأنه فتح باب المنكرات والقبائح بأسرها ، وإما أن يُسَلِّمَ أنه تعالى كلف الخلق بالأوامر والنواهي ، ولكن لا على ألسنة الرسل ، وهذا أيضا جهل ، فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون العقل كافيا في إيجاب الواجبات وحظر المنكرات . فالجواب : هب أن الأمر كذلك إلا أنه لا يمتنع تأكيد التصرف العقلي بل يجب تفصيل ذلك المجمل بالتصرفات المشروعة على ألسنة الرسل لأن أكثر العقول قاصرة عن إدراك مدارك الأحكام الشرعية ، كما أن نور البصر قاصر عن إدراك المبصرات إلا إذا أُعِين بنور من خارج كنور الشمس أو السراج ، وأيضا تفويض مصالح العباد إلى مقتضى عقولهم يؤدي إلى التنازع والتشاجر لتصادم الأهواء وتناقض الآراء . فلا بد من أن يتفقوا على واحد يصدر عن رأيه . وتعيين ذلك الواحد من الخلق ترجيح بلا مرجح وإشراف على الضلال لاحتمال الخطأ في اجتهادهم ، فلعل الخير في نظرهم يكون شرا في نفس الأمر فلزم أن يكون التعيين من الله سبحانه بكونه أعرف بالبوطن كقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ وإنما يعرف ذلك المعيين بظهور المعجزة على وفق دعواه تصديقا له . ومن أنكر ذلك ولم يجوز خرق العادة فقد وصف الله تعالى بالعجز ونقصان القدرة * الغرائب . وقال : وقد طعن بعض الملحدة في الآية بأن هؤلاء القائلين إن كانوا كفار قريش أو البراهمة فهم ينكرون رسالة كل الأنبياء كما ينكرون رسالة محمد ﷺ فكيف

يمكن إبطال قولهم بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى ﴾ على أن قوله : تجعلونه قراطيس . بناء الخطاب إنما يليق باليهود وإن كانوا أهل الكتاب فهم لا يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء ، بل يقرون بنزول التوراة على موسى والانجيل على عيسى ، وأيضا الأكثرون اتفقوا على أن السورة مكية ، وأنها نزلت دفعة واحدة ، ومناظرات اليهود مع رسول الله ﷺ كانت مدنية ، فكيف يمكن حمل الآية على تلك المناظرة ؟ والجواب : أنهم إن كانوا كفار قريش فإنهم كانوا مختلطين باليهود والنصارى ، وكانوا قد سمعوا من الفريقين على سبيل التواتر ظهور المعجزة على يد موسى كالعصا وقلق البحر وإظلال الجبل وغيرهما ، وكان جاريا مجرى ما يوجب عليهم الاعتراف بنبوة موسى ، وعلى هذا لا يبعد إيراد نبوة موسى إلزاما لهم في قولهم : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ . ولما كان كفار قريش مع اليهود والنصارى متشاركين في إنكار نبوة محمد ﷺ لم يبعد أن يكون الكلام الواحد خطابا لكفار قريش أولا ولأهل الكتاب آخرا . وأما إن كانوا أهل الكتاب وهو المشهور عند الجمهور فالوجه ما روى عن ابن عباس أن مالك بن الصيف من أحيار اليهود ورؤسائهم ، وكان رجلا سمينا دخل على الرسول ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله ييغض الحبر السمين فأنت الحبر السمين قد سميت من مالك الذي يطعمك اليهود » ، فضحك القوم ، فغضب ، ثم التفت إلى عمر ، فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء . فقال له قومه : ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ فقال : إنه أغضبني ، ثم إن اليهود لأجل هذا الكلام عزلوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف ، فلعل مالك بن الصيف لما تأذى من الكلام المذكور طعن في نبوة الرسول ﷺ . وأنه ما أنزل عليه شيء البتة ، فأمر أن يقول في جوابه : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى .. * وأما قول الخصم أن السورة مكية والمناظرات مدنية ، فأجيب عنه بأن السورة مكية إلا ست آيات منها هذه الآية كما علمت . وهو قول ابن عباس رضي الله عنه كما هو في الخازن وغيره ، قلت : ومما يؤيد أن الخطاب لليهود قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ أي علمتم على لسان محمد ﷺ مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم .. وأنتم حملة التوراة ، ولم تعلمه آبائكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم - إن هذا القرآن يقص

على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وقوله : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ أي أنزله الله ، فإنهم لا يقدرُونَ أن يناكروك ﴿ ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ ﴾ في باطلهم الذى يخوضون فيه ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ يستهزؤون ويسخرون ، وفيه وعيد وتهديد للمشركين *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذَا الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أخرجوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُعْجَزُونَ عَذَابِ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ذكر الواحدى أنها نزلت في مسيلمة الكذاب الخنفي كان يسجع ويتكهن ويدعى النبوة ، ويزعم أن الله أوحى إليه . ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح . كان قد تكلم بالاسلام ، فدعاه رسول الله ﷺ ذات يوم يكتب شيئاً فلما نزلت الآية التى في المؤمنين - ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ ﴾ - أملاها عليه ، فلما انتهى إلى قوله - ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ - عجب عبد الله في تفصيل خلق الانسان فقال : تبارك الله أحسن الخالقين . فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت علي ، فشك عبد الله حينئذ ، وقال : لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إليّ كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال . وذلك قوله - ومن قال : «سأنزل مثل ما أنزل الله - وارثه عن الإسلام ، وهذا قول ابن عباس في رواية الكلبي ، وفي رواية شرحبيل بن سعد ، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة أتى به عثمان رسول الله ﷺ فاستأمن له * وفي الباب : ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ قال السيوطي : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ ، فيملى عليه عزيز حكيم فيكتب غفور رحيم ، ثم يقرأ عليه فيقول : نعم سواء فرجع عن الإسلام ، ولحق بقريش .. وأخرج عن السدى نحوه وزاد قال ابن سرح : إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إليّ ، وإن كان الله ينزل فقد أنزلتُ مثل ما أنزل الله ، قال : محمد سميعاً عليماً ، فقلت أنا : عليماً حكيماً * وكذا في الخازن . وفيه : وقال ابن عباس : نزل قوله : ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ . في المستهزئين وهو جواب لقولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا * قلت : وقد دخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذباً في ذلك الزمان وبعده

لأنه لا يمنع خصوص السبب من عموم الحكم بدليل ما في الكشف . وقيل : هو النضر بن الحارث والمستهزئون * أي فقد كان النضر بن الحارث يدعى معارضة القرآن وهو قوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ * وقال المفسرون : نزلت في الكذابين : مسيلمة الكذاب والأسود العنسي ، كان مسيلمة يقول : محمد رسول الله في بنى قريش وأنا رسول الله في بنى حنيفة . وخصها الجلال في مسيلمة . أي أنه تارة ادعى النبوة ، وتارة ادعى الإيحاء . واعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . فكل من نسب إلى الله تعالى ما هو برىء إما في الذات وإما في الصفات ، وإما في الأفعال كان داخلا تحت هذا الوعيد . أما التفسير : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بادعاء النبوة ولم ينبأ ﴿ أَوْ قَالَ أَوْحَى إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ هو عام في كل من مسيلمة والأسود وابن سرح والنضر ومن على شاكلتهم من الذين يفترون على الله الكذب ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ وهم المستهزئون قالوا : لو نشاء لقلنا مثل هذا . ويدخل فيهم مسيلمة الكذاب . فإنه لم يُضَلَّح بمعارضته القرآن فافتضح أمره وأتى بمخرقة يتضحك منها الناس إلى قيام الساعة حيث قال : يا ضفدع نقي كما تنقن أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الماء تكدرين ولا الشراب تمنعين . فلما سمع أبو بكر الصديق رضي الله عنه هذا قال : إنه لكلام لم يخرج من (إل) قال ابن الأثير أي من ربوية . والاعل بالكسر هو الله تعالى . وقيل : الاعل هو الأصل الجيد . أي يجيء من الأصل الذي جاء منه القرآن ، ولما سمع مسيلمة الكذاب - لعنه الله - ﴿ والتازعات غرقاً ... ﴾ قال : والزراعات زرعاً والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحناً والحافرات حفراً ، والشاردات ثرداً واللاقمات لقماً . لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر . إلى غير ذلك من الهذيان . وقال آخر من المستهزئين : ألم تر كيف فعل ربك بالحلبى أخرج من بطنها نسمة تسعى ، من بين شراسيف وأحشى . وقال آخر : الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل ، له ذنب وثيل ، ومشفر طويل ، وإن ذلك من خلق ربنا لقليل . ففى هذا الكلام مع قلة حروفه من السخافة ما لا يخفاء فيه على من لا يعلم فضلاً عما يعلم . وجزاء أمثال هؤلاء ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ يا محمد . والرؤية بصرية ومفعولها محذوف أى ولو ترى الظالمين إذ هم ﴿ في

غَمَرَاتٍ ﴿ سَكَرَاتٍ ﴿ الموت ﴾ الغمرة هي الشدة العظيمة ، وأصلها من غمرة الماء إذا ستره كأنها تستر بغمها من تنزل به ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ ﴾ إليهم. بالضرب والتعذيب يقولون لهم تعنيفاً ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي أرواحكم الخبيثة لنقبضها . وفي الحديث : « إن أرواح الكفار تأتي الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج » ، فيفيد أن أرواح الكفار لا تخرج إلا به ، أو المراد أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد وخلصوها من هذه الآفات والآلام ، أو هاتوا أرواحكم وأخرجوها إلينا من أجسادكم . وهذه عبارة عن العنف والتشديد في إزهاق الروح من غير تنفيس وإمهال ، وإنهم يفعلون بهم فعل الغريم الملازم الملح ييسط يده إلى من عليه الحق ، ويقول : أخرج إليّ ويقول : أخرج إلى ما لي عليك ، ولا أريم مكاني حتى أترعه من أحداقك . فهؤلاء الكفار يكرههم الملائكة على نزع الروح وعلى فراق المألوف بالضرب الشديد ، وهو أول عذاب ينزل بهم في آخر ساعة من حياتهم الدنيوية متصلاً بالعذاب الأخروي الذي لا ينتهي قائلين لهم : ﴿ الْيَوْمَ نُحْزِنُكَ بِعَذَابِ الْهُونِ ﴾ الهوان ، وإضافة العذاب إلى الهون إيذاناً بأنه متمكن فيه ، وذلك لأنه ليس كل عذاب يكون فيه هون لأنه قد يكون على سبيل الزجر والتأديب كضرب الوالد ولده ، كل ذلك بسبب ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ بدعوى النبوة والايحاء كذباً . ﴿ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي تتكبرون عن الإيمان بها . يعني أن هذا العذاب الشديد إنما حصل بمجموع الأمرين . الافتراء على الله والتكبر على آيات الله . وهو عدم الإيمان بها . قال الواحدي : « وكنتم عن آياته تستكبرون .. أي لا تُصَلُّون له . لقوله ﷺ : « من سجد لله سجدة واحدة بنية صادقة فقد برىء من التكبر » * قلت : وفي الآية دلالة على أن النفس الانسانية شيء غير هذا الهيكل المحسوس لأن المخرج يجب أن يكون مغايراً للمخرج منه *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير وغيره عن عكرمة قال النضر بن الحارث سوف تشفع إليّ اللات والعزى . فنزلت هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ

شفعاءكم* ولم أعر في التفاسير على غير هذا القول . إلا ما ذكره ابن جرير الطبري . وقيل إن ذلك كان قول كافة عبدة الأوثان * أما التفسير : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على قول الملائكة : أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون . ويحتمل أنه في قول الله تعالى إن جوزنا أنه يتكلم مع الكفار . وقوله : ﴿ فَرَادَى ﴾ يعني وحدانا لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم . والأولى أن يكون هذا خبراً من الله عز وجل عن حال الكافرين يوم القيامة ، وكيف يحشرون إليه ، وماذا يقول لهم في ذلك اليوم قول تقرير وتوبيخ لهم لأنهم صرفوا همهم في الدنيا إلى تحصيل المال والولد والجاه . وأفنوا أعمارهم في عبادة الأصنام ، فلم يغن عنهم كل ذلك شيئاً في يوم القيامة فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه في الدنيا ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ يعني جئتمونا حفاة عراة غرلاً ، يعني قلفاً كما ولدتهم أمهاتهم في الدنيا . أي بدون طهور وقطع سرة لا شيء عليهم ولا معهم . أخرج الشيخان عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال أيها الناس : « إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين » .. وأخرج الشيخان عن عائشة . قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تحشر الناس حفاة عراة غرلاً » . قالت عائشة : فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : « الأمر أشد من أن يههم ذلك » روى الطبري بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ . فقالت يا رسول الله : واسوأته . إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سواة بعض؟! فقال رسول الله ﷺ : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال . شغل بعضهم عن بعض » قوله : ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أي أعطينا وتفضلنا به عليكم . ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أي أنها كلها أصبحت كالشئ الذي يبقى وراء ظهر الانسان فلا يمكنه الانتفاع به ، وربما بقى معوج الرأس بسبب التفاته إليه ، تركوها بغير اختيارهم ﴿ وَ ﴾ يقال لهم توييخا ﴿ وَمَا تَرَى مَعَكُمْ شَفَعَاءَكُمْ ﴾ الأصنام التي كنتم تعبدونها وادعيتم شفاعتها : ﴿ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ ﴾ أي في استحقاق عبادتكم ﴿ شُرَكَاءَ ﴾ الله !! تعالى عن ذلك ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ وصلكم بينكم أي تشتت

جمعكم ﴿ وَضَلَّ ﴾ ذهب ﴿ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ في الدنيا من شفاعتها . أي إن آمالكم قد خابت في كل ما تزعمون وتوهمون من شفاعتها ونصرتها ودفاعها عنكم فهي حجارة لا تضر ولا تنفع . فلا فداء ولا شفاعاة ولا نصرة ، ولا ما يغنى عنكم من عذاب الله من شيء *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ * بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ في الواحدي : قال الكلبي : نزلت هذه الآية في الزنادقة . قالوا إن الله تعالى . وإبليس إخوان ، والله خالق الناس والدواب . وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب . فذلك قوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ... ﴾ زاد المراغي : وإبليس خلق السباع والحيات والعقارب والشر . ورجح الرازي هذا الرأي . قال : إن المراد من الزنادقة الجوس الذين قالوا : إن كل خير في العالم فهو من يزدان ، وكل شر فهو من أهر من أي إبليس . وذكر الجلال أنهم مشركوا العرب حيث أطاعوا الجن في عبادة الأوثان ، وقيل : هم طائفة من الملائكة يسمون الجن ، كان بعض العرب يعبدها . وقيل : هي في اليهود والنصارى ومشركي العرب فاليهود والنصارى اختلقوا له البنين . ومشركوا العرب اختلقوا له البنات . وعبارة الخازن : قال الحسن ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ أطاعوا الجن في عبادة الأوثان . وهو اختيار الزجاج .. وقال الكلبي : نزلت في الزنادقة أثبتوا الشرك الاثني في الخلق . فقالوا : الله خالق النور والناس والدواب والأنعام . وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب . ونقل هذا القول ابن الجوزي عن ابن السائب ، ونقله الرازي عن ابن عباس ، قال الامام فخر الدين الرازي وهذا مذهب الجوس ، وإنما قال ابن عباس هذا قول الزنادقة لأن الجوس يتلبسون بالزندقة ، لأن الكتاب الذي زعم زردشت أنه نزل من السماء . سماه بالزند ، والمنسوب إليه زندي ، ثم عَرَبَ فقييل : زنديق ، فإذا جمع فقييل زنادقة ، ثم إن الجوس قالوا : كل ما يكون في هذا العالم من الخير فهو من يزدان يعني النور ، وجميع ما في العالم من الشر فهو من الظلمة يعني إبليس ، ثم اختلف الجوس ، فالأكثر منهم على أن إبليس محدث ، ولهم

في كيفية حدوثه أقوال عجيبة ، والأقلون منهم قالوا : إنه قديم ، وعلى كلا القولين فقد اتفقوا على أنه شريك لله في تدبير هذا العالم ، فما كان من خير فمن الله ، وما كان من شر فمن إبليس * . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . قاله في التفسير الكبير : والحاصل أنهم يقولون عسكر الله تعالى هم الملائكة ، وعسكر إبليس هم الشياطين ، والملائكة فيهم كثرة عظيمة وهم أرواح طاهرة مقدسة تلهم الأرواح البشرية الطاعات ، والشياطين فيهم أيضاً كثرة عظيمة يلقون الوسوس إلى الأرواح البشرية ، والله تعالى مع عسكره يحاربون إبليس مع عسكره - إلى آخر ذلك من الهذيان والكفریات .. فلهذا أثبتوا لله شركاء من الجن بلفظ الجمع ، وإن كان شريكه عندهم بالحقيقة واحداً ، وهو أهر من . أما التفسير : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ أي وجعلوا الجن شركاء لله ، عبارة الخازن : واختلفوا في معنى هذه الشركة . فمن قال : إن الآية في كفار العرب قال : إنهم لما أطاعوا الجن فيما أمرهم به من عبادة الأصنام فقد جعلوهم شركاء لله . ومن قال : إنها في الجوس قال : إنهم أطاعوا إلهين اثنين النور والظلمة ، وقيل : إن كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله وهم شركاؤه . فعلى هذا القول فقد جعلوا الملائكة من الجن وذلك لأنهم مستورون عن الأعين . قوله : ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ فيه الدليل القاطع على إبطال الشريك . والضمير في خلقهم إما أن يعود إلى الجن ، أو إلى الجاعلين ، فإن عاد إلى الجن فإن قلنا إن الآية نزلت في الجوس ، فتقريره أن الأكثرين منهم معترفون بأن إبليس محدث ، ولو لم يعترفوا بذلك ، والبرهان العقلي قائم على أن ما سوى الحق الواحد ممكن لذاته . وكل ممكن لذاته فهو محدث . فنقول حينئذ : كل محدث مخلوق وله خالق ، وما ذلك إلا الله سبحانه ، وحينئذ يلزمهم نقض قولهم لأنه ثبت أن إله الخير قد فعل أعظم الشرور وهو خلق إبليس الذي هو مادة كل شر . وإن قلنا إنها نزلت في كفار العرب القائلين الملائكة بنات الله فظاهر لأنهم يسلمون أن الملائكة مخلوقون .. وإن عاد الضمير إلى الجاعلين فالمعنى وعلموا أن الله خلقهم دون الجن . (الغرائب) وقرئ وخلقهم بسكون اللام أي اختلقهم للافك . ثم حكى عن قوم آخرين نوعاً آخر من الشرك حيث قال : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾ وذلك قول أهل الكتاب في المسيح وعزير وقول قريش في الملائكة . ومعنى خرقتوا ، اختلقوا . قال

الفراء : معنى خرقوا افتعلوا ذلك كذباً وكفراً . ﴿ بَغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ حيث قالوا عزيز ابن الله وعيسى ابن الله ، والملائكة بنات الله ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ هذا من جانبه تعالى فنزه ذاته بنفسه تنزيها لاثقا به ﴿ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ بأن له ولداً أو شريكاً . وعبرة أبي السعود : تباعد عما يصفونه من أن له شريكاً أو ولداً * أو هو المتعالى عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد ﴿ يَدْبِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي خالقها ومنشئها على غير مثال سبق ، وهذا دليل قاطع على إبطال قول من خرق له بنين وبنات . وتقرير الدليل إنكم إما أن تريدوا بكون عيسى ولداً له فقد أحدثه على سبيل الابداع من غير تقدم نطفة ولا أب وحينئذ يلزمكم القول بأنه والد السموات والأرض بكونه مبدعاً لهما وهذا باطل بالاتفاق ، وإما أن تريدوا به الولادة كما هو المؤلف في الحيوانات ، وهذا أيضاً محال لأن تلك الولادة لا تصح إلا ممن كانت له صاحبة من جنسه وينفصل منه جزء يحتبس في رحمها ، وهذه الأحوال إنما تثبت في حق الذي يصح عليه الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون والحد والنهاية والشهوة واللذة وكل ذلك على الله محال . وهذا معنى قوله : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً ﴾ لأن الولد لا يكون إلا من صاحبة أنثى ، ولا ينبغي أن تكون لله صاحبة لأنه ليس كمثل شيء . ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ على الإطلاق من شأنه أن يخلق وهذه الجملة سبقت لتحقيق ما ذكر من الاستحالة فهي مستأنفة ، أو حال مقررة لها . أي أنى يكون له ولد والحال أنه خلق جميع الأشياء ، ومن جملتها ما سموه ولداً له فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه؟! وهذه الآية حجة قاطعة على فساد قول النصارى ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي عالم بجميع خلقه لا يغرب عن علمه شيء ، وعلمه محيط بكل شيء . - ﴿ جَلَّ جَلَالُهُ وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ ﴾ - *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا

اللَّهُ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) في الواحدى: قال ابن عباس في رواية الوالى: قالوا يا محمد: لتتبين عن سبك آهتنا أو لنهجون ربك، فهى الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدواً بغير علم * وقال قتادة: كان المسلمون يسببون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم . فنهاهم الله عن

ذلك لئلا يسبوا الله فإنهم قوم لا علم بالله عز وجل * وقال ابن عباس : لما نزلت (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) قال المشركون يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك * وقال السدي : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، قالت قريش : انطلقوا بنا لندخلن على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى ابن أخيه فإننا نستحي أن نقتله بعد موته ، فتقول العرب : كان عمه يمنعه ، فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية وأبي خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وعمرو بن العاصي والأسود بن أبي النحرى إلى أبي طالب . فقالوا يا أبا طالب : أنت كبيرنا وسيدنا ، وأن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه ، فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولدعاه وإلهه ، فدعاه ، فجاء النبي ﷺ ، فقال له أبو طالب : إن هؤلاء قومك وبنو عمك ، فقال رسول الله ﷺ : ((وما يريدون؟)) قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك ، فقال له أبو طالب : قد أنصفك قومك فاقبل منهم ، فقال النبي * : «أرأيتم إن أعطيتكم هذا ، فهل أنتم معطى كلمة إن تكلمتم بها ملككم العرب ودانت لكم العجم ، وأدت لكم الخراج؟» فقال أبو جهل : نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها ، فما هي ؟ فقال : «قولوا لا إله إلا الله» فأبوا ونفروا ، فقال أبو طالب : قل غيرها يا ابن أخي ، فقال يا عم : «ما أنا بالذي أقول غيرها ، ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها» فقالوا : لتكفن عن شتمك آلهتنا ، أو لنسبن من يأمرك . فأنزل الله : ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ يعني ولا تسبوا أيها المؤمنون الأصنام التي يعبدها المشركون فيسبوا الله عدوا بغير علم . لأنهم جهلة بالله عز وجل * الخازن والغرائب : رواه ابن أبي حاتم عن السدي . بطوله . قلت : وفيه تنبيه على أن خصمك إذا بادرك بالسب جهلا منه وسفاهة لا يجوز لك أن تقابل سيئة بسيئة مثلها فإن ذلك يفتح باب الجهالة بالمشاتمة والمسافهة وأنه لا يليق بالمؤمنين . قال بعض العلماء : إن القوم كانوا مقرين بوجود الله تعالى - «ولكن سألتهم من خلّفهم ليقولن الله» - فكيف يتصور إقدامهم على شتمه ؟ أجيّب لعل بعضهم كان قائلًا بالدهر ونفى الصانع فما كان يبالي هذا النوع من السفاهة ، أو ربما أرادوا شتم الرسول ، فأجرى الله تعالى شتمه مجرى شتم الله كما في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْيَعُونَكَ إِنَّمَا يَأْيَعُونَ اللَّهَ﴾ أو لعلهم وهو الأصح أن الشيطان يحمله على ادعاء الرسالة فأقدموا على شتمه . قال صاحب الغرائب : وهنا سؤال ، وهو

أن شتم الأصنام من أصول الطاعات فكيف يحسن من الله تعالى أن ينهى عنه ؟
 والجواب : إن هذا الشتم وإن كان طاعة إلا أنه إذا وقع على وجه يستلزم منكراً وجب
 الاحتراز عنه لأن هذا الشتم كان يستلزم اقدامهم على شتم الله سبحانه ، وشتم رسوله ،
 وفتح باب السفاهة ، ويقتضى تنفيرهم عن قبول الدين وإدخال الغيظ والغضب في
 قلوبهم ، إلى زيادة منكر ، وغلبة الظن قائمة مقام اليقين في هذا الباب ، وفيه تأديب لمن
 يدعو إلى الدين كيلا يتشاغل بما لا يفيد في المطلوب ، فإن وصف الأوثان بأنها جمادات
 لا تنفع ولا تضر يكفي في القدح في سبها فلا حاجة مع ذلك إلى شتمها * وفي الخازن :
 وقال ابن الأنباري : هذه الآية منسوخة أنزلها الله عز وجل والنبي ﷺ بمكة ، فلما قواه
 بأصحابه نسخ هذه الآية ، ونظائرهما بقوله تعالى : ﴿ أَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
 وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ * وقال الزجاج نهوا في ذلك الوقت قبل القتال أن يلعنوا الأصنام التي
 كانت تعبدها المشركون * قلت : وفي قوله تعالى ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ ﴾ عامة في أهل الكتاب وكفار قريش عباد الأصنام والأوثان . فإذا قلنا إن السب
 منسوخ في حق الأصنام ، فهل يجري الحكم أيضا على الصليب ؟ فظاهر الآية وإن كانت
 نهيا عن سب الأصنام فحقيقتها النهي عن سب الله تعالى لأن سبها سب لسب الله تعالى
 لذا لا يجوز سب الصليب لئلا يجر ذلك إلى سب الرسول . وفي ذلك من الفتن والمفاسد
 ما لا يخفي . والسب عموما منهي عنه لأن معناه اللعن وهو مضاف إلى الله تعالى .
 وقوله : ﴿ فَيَسُبُّوا اللَّهَ ﴾ تأكيد للنهي عن السب لأن يسبوا منصوب على جواب النهي
 باضمار أن بعد الفاء فيكون المعنى أنها كم عن سب آهتهم لما يترتب عليه ما تكرهون من
 سب الله ورسوله . وكذا إذا قلنا مجزوم نسقا على فعل النهي أي لا تسبوا آهتهم فیسبوا
 إلهكم . ولذا لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ : « لا تسبوا آهتهم فیسبوا ربكم »
 فأمسك المسلمون عن سب آهتهم . وقوله : ﴿ عَدُوا ﴾ أي اعتداء وظلماً وهو مفعول
 مطلق أو مفعول لأجله . أو واقع موقع الحال المؤكدة لأن السب لا يكون إلا عدوا .
 ﴿ يَغْيِرْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي جهلا منهم بالله بما يجب في حقه ويذكر به ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي كما زينا
 هؤلاء ما هم عليه ﴿ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ﴾ من الخير والشر فأتوه . وعبرة الخازن :
 كما زينا هؤلاء المشركين عبادة الأصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان كذلك زينا

لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية . قال : وفي هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا : لا يحسن من الله خلق الكفر وتزيينه * أي أن المراد أنه تعالى زين لهم ما ينبغي لهم أن يعملوا وهم لا يفقهون . والأحسن من هذا أن يقال خليناهم وشأنهم وأمهلتهم حتى حسنَ عندهم سوء عملهم ، أو أمهلتنا الشيطان حتى زين لهم بسبب جهلهم بالله فعملوا ما أمرهم الشيطان به . وهو أصحها لقوله تعالى : ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ولقوله : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ التُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ . والخلاصة إن سننا في أعمال البشر بأن يستحسنوا ما تعودوا منها تقليداً لآبائهم أو استحداثاً بأنفسهم بدون أن نخبرهم ولا نكرههم عليها كما في قوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أي طريق الخير والشر ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ ولا يجوز أن نقول : إن الله خلق في قلوب بعض الأمم تزيين الكفر والشر ، وفي قلوب بعضها تزيين الايمان والخير لأن ذلك يعد من الغرائز الخلقية التي تعد الدعوة إليها من العبث ، فكان إرسال الرسل وتأديب الناس عملاً لا فائدة فيه ، وهذا هو الحق إن شاء الله تعالى . وقوله : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ﴾ يعني المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يعني في الدنيا من أعمال الخير والشر فيجازيهم على ذلك * وفي هذا التذييل نفى لعقيدة الجبر ، وإبطال لقول الأشاعرة : إن الله تعالى هو الذي زين للكافرين الكفر وللمؤمنين الايمان وللعاصي المعصية . ذكر قولهم هذا . صاحب الغرائب *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ في الواحدي : قال محمد بن كعب : كلمت رسول الله ﷺ قريش ، فقالوا يا محمد : تخبرنا أن موسى عليه السلام كانت معه عصا ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، وأن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا ببعض تلك الآيات حتى نصدقك . فقال رسول الله ﷺ : « أي شيء تحبون أن آتيكم به ؟ فقالوا : تجعل لنا الصفا ذهاباً . قال : « فإن فعلت تصدقوني » ؟ قالوا : نعم ، والله لئن فعلت لتبتعنك أجمعين ، فقام رسول الله ﷺ يدعو ، فجاء جبريل عليه السلام . قال :

إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولكن لم أرسل آية فلم يصدق بها إلا أنزلت العذاب . وإن
 شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول الله ﷺ : «أتركهم حتى يتوب تائبهم»
 فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ... ﴾ إلى
 قوله : ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴾ الآية .. وكذا رواه ابن جرير أيضا
 عن محمد بن كعب القرظي . فأنزل الله إلى قوله : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ وكذا
 صاحب الغرائب والحازن وابن كثير كلهم عن محمد بن كعب به . أما التفسير :
 ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي حلفوا بالله جهد أيمانهم أي أوكد ما قدرُوا عليه
 من الايمان ، والغرض حكاية شبهة أخرى لهم . وهى أن هذا القرآن كيفما كان أمره
 فليس من جنس المعجزات البتة ولو أنك يا محمد جئتنا بمعجزة باهرة وبيننا قاهرة لآمنا
 بك ، وأكدوا هذا المعنى بالايمان والأقسام . قال الواحدي : إنما اليمين بالقسم لأن اليمين
 موضوعة لتوكيد الخير ، وكانت الحاجة إلى ذكر الحلف عند انقسام الناس وقت سماع
 الخبر إلى مصدق ومكذب . فمعنى الاقسام إزالة القسمة ، وجعل الناس كلهم مصدقين
 بواسطة الحلف واليمين . ﴿ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ ما تقدم ذكره من جعل الصفا ذهباً . أو
 يعود على طلبهم في قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجَرَنَا مِنَ الْأَرْضِ
 يَنْبُوعاً ... ﴾ الآيات . ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي أمر تنزيلها له لا إلى ، فهو
 مختص بالقدرة على تنزيل أمثال الآيات التى تطلبونها . إن المعجزات على يدي الأنبياء
 لا تحصل إلا بتخليق الله تعالى وليس لكم أن تتحكموا في تخصيصها وإنزالها كما تشاؤون
 في الشكل والمكان والزمان ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ ما يكون منهم ؟ ﴿ أَلَيْهَا إِذَا جَاءَتْ
 لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي . وأي شيء يعلمكم بإيمانهم . أي لا تعلمون ذلك : فالله هو العليم
 قال تعالى : (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ) وقال : (وَإِنْ
 يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ الْآيَةِ لَا يُؤْمِنُوهَا) وقال : (قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
 لَا يَعْلَمُونَ) والآيات كثيرة في هذا الموضوع . أي لا يؤمنون لما سبق في علمه تعالى .
 فلماذا يُنزل الآيات ؟ ويؤكد هذا بقية آيات النزول : ﴿ وَثَقَّلْنَا بِأَيْدِيهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ
 كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ
 الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
 اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ قوله : ﴿ وَثَقَّلْنَا بِأَيْدِيهِمْ ﴾ أي نحول قلوبهم عن الحق

فلا يفهمونه ونصرف ﴿ أَبْصَارَهُمْ ﴾ عنه فلا يبصرونه ، فلا يؤمنون ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ أي بما أنزل من الآيات ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي فلا يؤمنون ثانيا عند نزول مقترحهم لو نزل بدليل قوله ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أما عند نزول الآيات السابقة على اقتراحهم كانشقاق القمر . قال ابن عباس : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ يعنى ونحول بينهم وبين الايمان فلو جئناهم بالآيات التي سألوها لما آمنوا بها * والتقليب هو تحويل الشيء وتحريكه عن وجهه إلى وجه آخر . قلت : ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ ﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَنَذَرَهُمْ ﴾ نتركهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ ﴾ ضلالهم وتكبرهم عن الايمان ﴿ يَغْمَهُونَ ﴾ يترددون متحيرين فيما سمعوا من الآيات ، محدثين أنفسهم أهذا هو الحق المبين أم السحر الذي يخدع عيون الناظرين ، وهل الأرجح اتباع الحق بعد ما تبين أو المكابرة والجدل كبرا وأنفة من الخضوع لما يروونه دونهم ؟ وإنما أسنده الخالق إلى نفسه جل جلاله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ ... ﴾ لبيان سنته الحكيمة في ربط المسببات بأسبابها إذ أن رسوخهم في الطغيان هو غاية الكفر والعصيان ، هو سبب تقليب القلوب والأبصار . أي الختم عليها فلا تفقه ولا تبصر . كما في قوله تعالى : ﴿ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ... ﴾ عقوبة لهم . ثم بين الله طغيانهم وعنادهم بقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ جميعا ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْثِقَى ﴾ كما اقترحوا بقولهم ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ ﴾ وقولهم : ﴿ فَأَنزَلْنَا بِآبَائِنَا ... ﴾ ﴿ وَحَشَرْنَا ﴾ جمعنا ﴿ عَلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ قُبْلًا ﴾ جمع قبيل فوجاً فوجاً فشهدوا بصدق النبي ﷺ ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ لما سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ إيمانهم فيؤمنون . الاستثناء هنا منقطع لأن المشيئة ليست من جنس إرادتهم . ومن قال متصل على الحال . قال معناه : ما كانوا ليؤمنوا في حال من الأحوال إلا في حال مشيئته أو في سائر الأزمان إلا في زمن مشيئته . وقيل : استثناء من علة عامة أي ما كانوا ليؤمنوا لشيء من الأشياء إلا لمشيئة الله الايمان . وهو الأولى . أي لكن إن شاء الله إيمان أحدهم طالبا له مختارا قبله الله منه وشاء له . والمراد أنهم ما داموا على صفاتهم من اقتراح الآيات .. فهم لا يؤمنون لعلم الله ذلك منهم لكن

إن شاء الله أن يزيلها فعل وهو على كل شيء قدير . والخلاصة . ما دام القوم غير مستعدين للإيمان لا يشاء الله إيمانهم ، وإنما عليه أن يقيم الحجة عليهم بإرسال الرسل ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ ذلك أنهم لو أتوا بكل آية لم يؤمنوا . فيقسمون بالله جهد إيمانهم على ما لا يشعرون ، ولذلك أسند الجهل إلى أكثرهم . ولعل الباقين قد آمنوا . أو لكن أكثر المسلمين يجهلون أنهم لا يؤمنون فيتمنون نزول الآيات طمعاً في إيمانهم . قال ابن عباس : كان المستهزؤن بالقرآن خمسة : الوليد بن المغيرة المخزومي ، والعاصي بن وائل السهمي ، والأسود بن يغوث الزهري ، والأسود بن عبد المطلب ، والحارث بن حنظلة . أتوا رسول الله ﷺ في رهط من أهل مكة ، وقالوا : أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله ، أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألكم أحق ما تقول أم باطل ؟ . أو اثنتا بالله والملائكة قبيلة ، فنزلت الآية . كذا ذكره المراغي في تفسيره *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ في الواحدي : قال المشركون يا محمد : أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟ قال : «الله قتلها» ، قالوا : فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال ، وما قتل الكلب والصقر حلال ، وما قتله الله حرام ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : أتى ناس إلى النبي ﷺ ، فقالوا يا رسول الله : إنا نأكل ما نقتل ، ولا نأكل ما يقتل الله ؟ فأنزل الله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ * وفي الواحدي أيضا . وقال عكرمة : إن الجوس من أهل فارس لما أنزل الله تحريم الميتة كتبوا إلى مشركي قريش ، وكانوا أولياءهم في الجاهلية ، وكانت بينهم مكاتبة أن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال * وما ذبح الله فهو حرام ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب أيضا : عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خصموا محمداً فقولوا له : ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال . وما ذبح الله

بشمشار من ذهب يعنى الميتة فهو حرام . فنزلت هذه الآية ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ قال الشياطين من فارس . وأولياؤهم من قريش * ونحو الأول في الخازن ، وما بعده في الغرائب والطبرى ، وفيه : وعن عكرمة قال : كان مما أوحى الشياطين إلى أوليائهم من الانس كيف تعبدون شيئا لا تأكلون مما قتل ، وتأكلون أنتم ما قتلتم .. فروى الحديث حتى بلغ النبي ﷺ فنزلت : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ... ﴾ وقال ابن وكيع : جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : نأكل ما قتلنا ولا نأكل ما قتل الله ؟ فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ... ﴾ وهناك أقوال أخرى في نفس المعنى والموضوع .. أما التفسير : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ بأن مات ، أو ذبح على اسم غير الله مما ذبحه المشركون لأوثانهم فإن ذلك فسق ومعصية كما جاء في الآية الأخرى ﴿ أَوْ فَسَقًا أَهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ قال الامام مالك : كل ما ذبح ولم يذكر اسم الله تعالى عليه فهو حرام ترك الذكر عمداً أو سهواً * وقال أبو حنيفة : إن ترك الذكر عمدا حرم ، وإن ترك نسيانا حل * وقال الشافعى : متروك التسمية عمدا أو سهوا حلال إذا كان الذابح مسلماً * قاله ابن عباس : وأخذ به الشافعى . ولعله استدلل بقوله ﷺ حينما سئل عن ذبيحة المسلم فقال : « كلوا ، فإن تسمية الله في قلب كل مؤمن » . وفي حديث أيضا « ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليها » . قوله ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي الأكل منه ﴿ لَفِسْقٌ ﴾ خروج عما يحل ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ ﴾ المراد به إبليس وجنوده يوسوسون ﴿ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ الكفار . قال عكرمة : وإن الشياطين يعنى مردة الجوس ليوحون إلى أوليائهم من مشركى قريش .. وقد تقدم ذلك ﴿ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ في تحليل الميتة ﴿ وَإِنْ أَظْفَقْتُمُوهُمْ ﴾ يعنى في استحلال الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ قال الزجاج : وفيه دليل على أن كل من أحل شيئا مما حرم الله تعالى أو حرم شيئا مما أحل الله تعالى فهو مشرك ، لأنه أثبت مشرعا سوى الله ، وهذا هو الشرك بعينه . ومما يذبح عند استقبال ملك أو أمير أو وزير أفتى بعض الحنفية بتحريم أكله ، لأنه ما أهل به لغير الله . وأباحه بعض الشافعية لانهم إنما يذبحونه استبشارا بقدمه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود ، ومثل هذا لا يوجب التحريم ، وهذا هو الصحيح والمعول عليه ، في الخازن : قال ابن عباس : الآية في تحريم الميتة وما في معناها من المنخقة وغيرها * وقال عطاء :

الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام . إذاً فلا يدخل فيها ما يذبح عند استقبال ملك ونحوه إكراماً له *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِمَخْرَجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : يريد حمزة بن عبدالمطلب وأبا جهل . وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله ﷺ بفرث وحمزة لم يؤمن بعد ، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه ، ويده قوسه ، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس . وهو يتضرع إليه ويقول يا أبا يعلى : أما ترى ما جاء به ؟ سفه عقولنا وسب آلهتنا ، وخالف آباءنا ؟ قال حمزة : ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله ؟ أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال زيد بن أسلم في قوله عز وجل : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ ... ﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكمن مثله في الظلمات ليس بمخارج منها ، قال : أبو جهل بن هشام * وكذا في الخازن . وفيه وقال عكرمة والكلبي : نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل * وقال مقاتل : نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل ، وذلك أن أبا جهل ، قال : زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا نحن وهم كفر سقى رهان ، قالوا : منا نبي يوحى إليه ، والله لا تؤمن حتى يأتينا وحى كما يأتيه . فنزلت هذه الآية * والأصح أن هذه الآية عامة في حق كل مؤمن وكافر ، لأن المعنى إذا كان حاصلاً في الكل دخل فيه كل أحد . وإنما جعل الكفر موتاً لأنه جهل والجهل الحيرة والوقفة ، فهو كالموت الذي يوجب السكون . وأيضاً الميت لا يهتدى إلى شيء ، وكذلك الجاهل . والهدى علم وبصيرة وهما يوجبان الفوز بالمطالب كالحياة والنور ، ومعنى قوله : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ أي أو من كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالايان ، وهو تمثيل ، أي وإنما جعل الكفر والايان حياة لأن الحي صاحب بصيرة وبصر يهتدى بهما إلى الرشد . ولما كان الايمان يهتدى إلى الفوز العظيم في الحياة الأبدية شبه بحياة الجسم بعد الموت ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ أي وجعلنا له نوراً يستضيء به في الوصول إلى الاسلام واعتناقه والاية كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ . وقال قتادة : هو

كتاب الله : القرآن . لأنه بيّنه من الله مع المؤمن بما يعمل به * وهو قول جمع من المفسرين . وهذا هو مثل المؤمن في الحياة ، وأما مثل الكافر فهو : ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ وفيه أن ظلمات الجهل ، والأخلاق الذميمة صارت كالصفة اللازمة لا تكاد تزول عنه ، فيبقى متحيراً فزعاً ، نعوذ بالله من هذه الحالة . ومعنى المثل هنا الصفة الغريبة . أي كمن صفة هذه ، والمراد كمن هو في الظلمات . جمع ظلمة ، وهي ظلمة الكفر وظلمة الجهل وظلمة عمى البصيرة .. إشارة إلى أن الكفر يدعو إلى الصفات الذميمة الكثيرة . ووحيد النور وهو الاسلام ، أو القرآن لأنه يدعوا إلى الصفات الحميدة ﴿ كَذَلِكَ ﴾ كما زين للمؤمنين الايمان ﴿ زَيْنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الخازن : قال أهل السنة المزين هو الله تعالى ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ ولأن حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعي ، وحصولها لا يكون إلا بخلق الله تعالى . فدل بذلك على أن المزين هو الله تعالى . وقالت المعتزلة : المزين هو الشيطان . ومن أحب الاطلاع على حجج الطائفتين فليرجع إلى الخازن * وأنت ترى أن قوله تعالى : ﴿ زَيْنًا ﴾ قد أضيف إلى الله تعالى ، فلا يمكن صرف الاضافة عن حقيقتها إلى المجاز إلا بدليل . فالشيطان يزين للكافرين أعمالهم ليردبهم في الجحيم كقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ ﴿ وَجَدُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ... ﴾ وهل هي اضافة حقيقية إلى الشيطان . أو على المجاز ؟ فيها خلاف . والاضافة إلى الله بالحقيقة أو المجاز أولى لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي وكما جعلنا في مكة صنائديها ليمكروا فيها بالصد عن الايمان كذلك زيننا للكافرين أعمالهم . كذلك جعلنا ﴿ في كل قرية أَكْبَرًا ﴾ فيجب أن يكون التزيين والجعل مضافين إلى الله تعالى . أي كما زيننا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها .. وقد تقدم بحث ذلك عند قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ في الخازن :

قال عكرمة : نزلت فيمن يمد البنات من ربيعة ومضر ، وكان الرجل يقاضى الرجل على أن يستحى جارية ويمد أخرى ، فإذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل ، أو راح من عند امرأته ، وقال لها : أنت عليّ كظهر أمي إن رجعت إليك ولم تتديها فتحذ لها في الأرض خدا ، وترسل إلى نسائها فيجتمعن عندها ، ثم يتداولنها بينهن حتى أبصرته راجعا دستها في حفرتها ، ثم سوت عليها التراب * وقال قتادة : هذا من صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنه مخافة السبي والفاقة ، ويغذو كلبه * روى البخاري عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من الأنعام : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ وما نقل على السنة بعض الناس من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دفن ابنته فهو محض افتراء ولم يثبت عنه مثل ذلك البتة لا في سير العرب ولا في التواريخ . ومعنى الآية : قد خسروا الذين قتلوا أولادهم في الدنيا باعتبار السعى في نقص عددهم ، وإزالة ما أنعم الله به عليهم ، وفي الآخرة باستحقاق العذاب الأليم . وقوله : ﴿ سَفَّهَا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي جهلا منهم بغير حجة ، وما ذلك إلا لخفة عقلهم وجهلهم بأن الله هو الرزاق لهم ولأولادهم ، بل قدم الله الأولاد في الرزق عليهم فقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ خشية إملاق : خشية فقر . وقوله : ﴿ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ أي بافترائهم على الله وذلك أنهم فعلوا تلك الأفعال المذمومة وزعموا أن الله أمرهم بها ، وهو من أعظم الجهالات لأن الجراءة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر . ولذا قال : ضلوا في فعلهم عن طريق الحق ، وما كانوا مهتدين إلى الصواب في فعلهم وهو بيان أنهم لم يحصل لهم اهتداء لوصفهم أولا بالضلال ، ثم بعد ما ضلوا لم يهتدوا مرة أخرى . وما دام الضلال ملازما لهم فليسوا مهتدين أبدا *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن أبي العالية قال : كانوا يعطون شيئا سوى الزكاه ، ثم تسارفوا . فنزلت هذه الآية . وأخرج عن ابن جريج أنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جد نخلة فأطعم حتى أمسى وليس له ثمرة . أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردودية عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله : ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال : « ما سقط من السنبل » * وقال مجاهد فيه : إذا حصدت

فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل ، فإذا دسته فحضرك المساكين فاطرح لهم ، فإذا أدريته وجمعتة وعرفت كيله فاعزل زكاته ، وإذا بلغ النخل وحضرك المساكين فاطرح لهم من التفاريق والبسر . فإذا جذذته (قطعته) فحضرك المساكين فاطرح لهم منه . فإذا جمعتة وعرفت كيله فاعزل زكاته * وعن ميمون بن مهران وزيد بن الأصم أن أهل المدينة كانوا إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيضعونه في المسجد فيجىء السائل فيضربه بالعصا فيسقط منه ، فهو قوله : ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ * وعن سعيد بن جبير قال : كان هذا قبل أن تنزل الزكاة : الرجل يعطى من زرعه ، ويعلف الدابة ويطعم اليتامى والمساكين ، ويعطى الضغث . يريد أن هذا الأمر في الصدقة المكلفة غير المعينة * وهذا هو الصحيح لأن الزكاة المحدودة فرضت بالمدينة في السنة الثانية من الهجرة وهذه السورة مكية وقوله : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي كلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً من غير اسراف في الأكل قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ والاعتداء والاسراف مجاوزة الحد . والحد الذي ينهى الله عن تجاوزه . إما شرعي كتجاوز الحلال من الطعام والشراب وما يتعلق بهما إلى الحرام وإما فطري طبعي ، وهو تجوز حد الشبع إلى البطنة الضارة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ذكر المراغى في تفسيره أنه ذهب بعض مفسرى السلف إلى أن الآية نزلت في أهل الكتاب إذ فرقوا دين ابراهيم وموسى وعيسى ، فجعلوه أديانا مختلفة ، ولكل منها مذاهب تتعصب لها شيع مختلفة ، يتعادون ويتقاتلون فيه * وذهب بعض آخر إلى أنها في أهل البدع والفرق الاسلامية والمذاهب التي استحدثت فمزقت وحدة الأمة . قال : ولا مانع من الجمع بين الرأيين ، فإنه تعالى ذكر أهل الكتاب وشرعهم ، وأمر من استجاب لدعوة الاسلام بالوحدة وعدم التفرق كما تفرق من قبلهم كما جاء في سورة آل عمران : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم بين أن رسوله برىء من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كما فعل أهل الكتاب ، فهو يحذر من

صنيعهم ، وينهى عن سلوك طريقهم ، فمن اتبع سنتهم في هذا التفريق فالرسول برىء منه ، كما هو برىء من أولئك المفرقين من سالفى الأمم . أخرج ابن حاتم عن ابن عباس قال : اختلفت اليهود والنصارى قبل أن يبعث محمد ﷺ . فلما بعث محمد أنزل عليه : ﴿ إِنَّ الدِّينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ... ﴾ الآية . قال : هم في هذه الأمة * وأخرج الترمذي وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال لعائشة : « يا عائش : إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا . هم أصحاب البدع ، وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ليست لهم توبة ، يا عائشة : إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ليس لهم توبة . أنا منهم برىء وهم منى برءاء » . قال : وليس المراد بنفى التوبة عنهم أنهم لا تقبل لهم توبة إذا ظهر لهم خطوهم وعرفوا بدعتهم فرجعوا وتابوا إلى ربهم . بل المراد أنهم لا يتوبون لزعمهم أنهم على الصواب . وسواهم على الباطل * وفي الخازن قال الحسن : ﴿ إِنَّ الدِّينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً ﴾ هم جميع المشركين لأن بعضهم عبدوا الأصنام . وقالوا : هذه شفعاؤنا عند الله ، وبعضهم عبدوا الملائكة ، وقالوا : إنهم بنات الله ، وبعضهم عبدوا الكواكب ، فكان هذا تفريق دينهم ، وقال مجاهد : هم اليهود * وقال ابن عباس وقتادة والسدى والضحاك : هم اليهود والنصارى لأنهم تفرقوا فكانوا فرقا مختلفة * وقال أبو هريرة : هم أهل الضلالة من هذه الأمة . وروى ذلك مرفوعا قال : قال ﷺ « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء وليسوا منك ، هم أهل البدع وأهل الشبهات ، وأهل الضلالة من هذه الأمة » أسنده الطبري قال الخازن : فعلى هذا يكون المراد من هذه الآية الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة ، وأن لا يتفرقوا في الدين ولا يبتدعوا البدع المضللة * قال ابن كثير : إن إسناد أبو هريرة هذا لا يصح ، فإن عباد بن كثير متروك الحديث ، ولم يختلف هذا الحديث ولكنه وهم في رفعه فإنه رواه سفيان الثوري عن ليث ، وهو ابن أبي سليم عن طاوس عن أبي هريرة في الآية . أنه قال : نزلت في هذه الأمة * وقال أبو غالب عن أبي أمامة في قوله : ﴿ وَكَانُوا شِيعاً ﴾ قال هم الخوارج . وروى عنه مرفوعا ولا يصح ، وقال عن حديث عائشة : ﴿ إِنَّ الدِّينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً ﴾ قال لها النبي ﷺ : « هم أصحاب البدع » . هذا رواه ابن مردويه وهو غريب أيضا ولا يصح رفعه . قال ابن كثير : والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له . فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق

ليظهره على الدين كله . وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق * وقوله : ﴿ لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ أي إنك بعيد من أقوالهم ومذاهبهم والعقاب اللازم على تلك الأباطيل مقصور عليهم لا يتعداهم إليك . وقال السدي : معناه لم تؤمر بقتالهم فلما أمر بقتالهم نسخ * أي فلا تتعرض لهم بالقتل حتى تؤمر به ، فعليك بتبليغ الرسالة وإظهار شعائر الدين الحق الذي أمرت بالدعوة إليه ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﴾ يتولاه ﴿ ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ فيجازينهم به . قال الجلال : وهذا منسوخ بآية السيف * أي على القول بأن الآية نزلت في اليهود والنصارى * والخلاصة : إن المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً- فرقا وأحزابا هم أهل الكتاب ، والمقصود من براءة الرسول منهم تحذير أمته من مثل فعلهم . ليعلم أن من فعل فعلهم وحذا حذوهم من هذه الأمة فالرسول منه برىء . لأن الله أمرنا بالوحدة وحذرنا من الفرقة فقال : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وما جرى على أحد المثلين * يجرى على الآخر ، فالتنازع على الملك والعصية الجنسية أو المذهبية والقول في الدين بالرأى منهى عنها في الاسلام لأنها تسبب التنازع والتفريق في الدين ، وهو هدم له *

القول في سبب نزول قوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَابِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أُخْلِدَ إِلَى الْأَرْضِ وَابَّعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في الواحدي : قال ابن مسعود نزلت في بلعم بن باعوراء : رجل من بني اسرائيل * وقال الوالبي : هو رجل من مدينة الجبارين يقال له : بلعم . وكان يعلم اسم الله الأعظم ، فلما نزل بهم موسى عليه السلام أتاه بنو عمه وقومه وقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى : ومن معه . قال : إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهب دنيابي وأخرتي . فلم يزالوا به حتى دعا عليهم . فسלخه الله مما كان عليه . فذلك قوله : ﴿ فانسَلخ منها ﴾ وروى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال : هو رجل أعطى ثلاث دعوات يستجاب له فيها : كانت له امرأة يقال لها البسوس ، وكان له منها ولد . وكانت له حجة . فقالت : اجعل لي منها دعوة واحدة .

قال : لك واحدة فماذا تأمرين . قالت : أدع الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني اسرائيل . فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه وأرادت شيئا آخر . فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نباحة . فذهبت فيها دعوتان فجاء بنوها ، فقالوا : ليس لنا على هذا قرار قد صارت أمنا كلبة نباحة يعيرنا بها الناس ، فادع الله أن يردها إلى الحال التي كانت عليها فدعا الله فعادت كما كانت . وذهبت الدعوات الثلاث . وهي البسوس . وبها يضرب المثل في الشؤم . فيقال : أشأم من البسوس * وذكر الجلال : أنها نزلت في بلعم بن باعوراء من علماء بني إسرائيل سئل أن يدعو على موسى . وأهدى إليه شيء فدعا فانقلب عليه واندلع لسانه على صدره . وفي القرطبي : وكان بلعم من بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام . وكان بحيث إذا نظر رأى العرش . وهو المعنى بقوله : ﴿ **وَأَثَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا** ﴾ ولم يقل آية . وكان في مجلسه اثنا عشر ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه . ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا أن ليس للعالم صانع . قال مالك بن دينار : بعث بلعم بن باعوراء إلى ملك مدين يدعو إلى الإيمان فأعطاه وأقطعه فاتبع دينه ، وترك دين موسى . فنزلت هذه الآيات . وكان بلعم قد أوتى النبوة . وكان مجاب الدعوة * وفي الخطيب وقصته على ما ذكره ابن عباس وغيره : أن موسى عليه السلام لما قصد قتال الجبارين ، ونزل أرض بني كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم إليه . وكان عنده اسم الله الأعظم . فقالوا : إن موسى رجل حديد . ومعه جنود كثير ، وأن قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ، ويخلى بني اسرائيل ، وأنت رجل مجاب الدعوة ، فاخرج فادع الله تعالى أن يردهم عنا . فقال : ويلكم نبئ الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم ، وأنا أعلم من الله مالا تعلمون . وإني إن فعلت هذا ذهبت دنياي وآخرتي . فراجعوه وألحوا عليه ، فقال : حتى أوامر ربي . وكان لا يدعو حتى ينظر ما يؤمر به في المنام . فأمر ربه في الدعاء عليهم . فقيل له في المنام : لا تدع عليهم . فقال لقومه : إني قد أمرت ربي . وإني نهيت أن أدعو عليهم . فأهدوا إليه هدية قبلها ، وراجعوه . فقال : حتى أوامر ربي . فأمر فلم يؤمر بشيء . فقال : قد أمرت ربي فلم يأمرني بشيء ، فقالوا له : لو كره ربك أن تدعو عليهم لنهاك كما نهاك في المرة الأولى . فلم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه ، فاقتتن ، فركب أتانا له متوجها إلى جبل يطلعه على عسكر بني اسرائيل يقال له حبان ، فلما سار على أتانه غير بعيد ربيضت فنزل عنها وضربها ، فقامت فركبها فلم تسر به كثيراً حتى ربيضت ،

فضربها وهكذا مراراً ، فأذن الله تعالى لها في الكلام فأنطقها له . فكلمته حجة عليه .
فقلت : ويحك يا بلعم أين تذهب . أما ترى الملائكة أمامي تردني عن وجهي ؟! ويحك
تذهب إلى نبي الله والمؤمنين فتدعو عليهم ؟ فلم ينزجر ، فخلى الله سبيل الأنان ،
فانطلقت به حتى أشرف على جبل حسيبان ، فجعل يدعو عليهم ، بشر إلا صرف الله
تعالى به لسانه إلى قومه . ولا يدعو بخير لقومه إلا صرف الله تعالى به لسانه إلى بني
اسرائيل . فقال له قومه يا بلعم : أتدري ما تضع إنما تدعو لهم وتدعو علينا ؟! فقال :
هذا ما لا أملكه . هذا شيء قد غلبه الله عليه ، فاندلع لسانه فوق على صدره ، فقال
لهم : الآن قد ذهب مني الدنيا والآخرة ، ولم يبق إلا المكر والحيلة . فأمر لكم
وأحتال . احملاوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع . ثم أرسلوهن إلى عسكر بني
اسرائيل . يبعنها فيه . ومروهن أن لاتمنع امرأة نفسها من رجل أرادها ، فإنه إن زنى
رجل بواحدة كفيتموهم ففعلوا . فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين
على رجل من عظماء بني اسرائيل . وكان رأس سبط شمعون بن يعقوب ، فقام إلى المرأة
وأخذ بيدها حين أعجبه جمالها . ثم أقبل بها حتى وقف على موسى ، وقال : إني أظنك
أن تقول هذه حرام عليك ؟ قال : أجل هي حرام عليك لاتقربها : قال : فوالله
لا نطعك . ثم دخل بها قبته فوق عليها . فأرسل الله تعالى عليهم الطاعون في الوقت
فهلك منهم سبعون ألفاً ساعة من النهار * وفي المصباح : وربضت الدابة ربضاً من باب
ضرب وربوضاً مثل بروك الإبل . أما التفسير : ﴿ وَاثُلٌ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على
اليهود ﴿ نَبَأٌ ﴾ خبر ﴿ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ وهي علوم الكتب القديمة والتصرف
بالإسم الأعظم . فكان يدعوهم حيث شاء فيجاب بعين ما طلب في الحال ﴿ فَاسْلَخَ
مِنْهَا ﴾ خرج بكفره كما تخرج الحية من جلدها ، وهو بلعم بن باعوراء كما اطلعت على
قصته ﴿ فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ فأدركه فصار قرينه . أي أصبح قدوة للشيطان على سبيل
المبالغة ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أي صار من الضالين الفاسدين ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾
إلى رتبة العلماء بسبب الآيات بأن نوقفه للعمل ﴿ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَحْلَدَ ﴾ سكن ﴿ إلى
الْأَرْضِ ﴾ الدنيا ومال إليها واطمأن بها . ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ في دعائه إياه أي إن الهوى
دعا بلعام إلى الدنيا والميل إليها . ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ صفته ﴿ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ ﴾
بالطرد والزر ﴿ يَلْهَثُ ﴾ يدلغ لسانه أي يخرج منه ﴿ أَوْ ﴾ إن ﴿ تَتْرَكُهُ ﴾ بدون طرد
وزجر ﴿ يَلْهَثُ ﴾ وليس غيره من الحيوان كذلك . وبه كان أخس الحيوانات .

والمعنى : إن هذا الرجل : بلعم بن باعوراء الإسرائيلي كالكلب في صفته الخسيسة هذه ، فكذلك حال الحريص على الدنيا إن وعظته فهو حريص لا يقبل الوعظ ولا ينجع فيه ، وإن تركته ولم تعظه فهو حريص أيضاً لأن الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما أن اللهث طبيعة لازمة للكلب * وذلك كشأن عباد الأهواء . وطلاب الأموال ترى المرء منهم كاللاهث من الإعياء والتعب . وإن كان ما يعني به حقيراً لا يتعب ولا يعي . وتراه كلما أصاب سعة وبسطة في الدنيا زاد طمعاً فيها .

فَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لُبَاتَهُ * وَلَا انْتَهَى أَرْبٌ إِلَى أَرْبٍ ﴿ ذَلِكَ ﴾ المثل ﴿ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي ذلك المثل البالغ الحد في الغرابة مثل هؤلاء القوم الذين جحدوا بآياتنا واستكبروا عنها جهلاً وتقليداً للآباء والأجداد والمراد منهم ﴿ فاقصص القصص ﴾ على اليهود ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يتأملون في المخلص مما هم فيه . وفيما جنتهم به من الحق فيؤمنوا . وقيل : هذا المثل لكفار مكة . وذلك أنهم كانوا يتمنون هادياً يهديهم ويدعوهم إلى طاعة الله عز وجل فلما جاءهم محمد ﷺ يدعوهم إلى الله وإلى طاعته . وهم يعرفونه ويعرفون صدقه كذبوه ولم يقبلوا منه . ثم قال تعالى : ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ ﴾ أي مثل القوم ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ بالتكذيب بها *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ في لباب السيوطي : أخرج أبو حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أن النبي ﷺ قام على الصفا فدعا قريشاً ، فجعل يدعوهم فخذأ فخذأ : يا بني فلان . يحذركم بأس الله ووقائعه . فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا مجنون . بات يهوت (يصيح) إلى الصباح . فأنزل الله : ﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ ... ﴾ * وكذا رواه ابن جرير وابن المنذر عن قتادة به . وكذا في الخطيب والمراغي وابن كثير والخازن وغيرها من التفاسير قوله : ﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ فيعلموا ﴿ مَا بِصَاحِبِهِمْ ﴾ محمد ﷺ ﴿ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ قد جرت عادة الكفار أن يرموا رسلهم بالمجنون لأنهم ادعوا أن الله خصهم برسالته ووجهه على كونهم بشراً كغيرهم لا يمتازون من سائر الناس بزعمهم فهام قوم نوح يرمونه بالمجنون : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتَرَبِّصُوا بِهِ حَتَّى

حين ﴿ وقال فرعون عن موسى : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ وحكى عنهم بوجه عام فقال : ﴿ كَذَلِكَ مَا أتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ وحكى عنهم بوجه عام فقال : ﴿ كَذَلِكَ مَا أتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ وحقيقة الجنون أن رسول الله ﷺ رأى قوماً مجتمعين على إنسان : فقال : « ما هذا » ؟ فقالوا : مجنون : قال : « هذا مصاب ، إنما الجنون الذي يضرب بمنكبيه وينظر في عطفه ويتمطى في مشيته » وحاشا رسول الله ﷺ من ذلك . وإنما نسبوه إلى الجنون لأنه ﷺ خالفهم في الأقوال والأفعال لأنه كان معرضاً عن الدنيا ولذاتها مقبلاً على الآخرة ونعيمها ، مشتغلاً بالدعاء إلى الله تعالى وإنذار بأسه ونقمته ليلاً ونهاراً من غير ملل ولا ضجر . فعند ذلك نسبوه إلى الجنون ، فبرأه الله من الجنون وهو برىء منه صلوات الله وسلامه عليه . ﴿ إِنَّ ﴾ ما ﴿ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مبین ﴾ بين الإنذار في دعوته ، ناصح أمين ، والتعبير ﴿ بِصَاحِبِهِمْ ﴾ تذكيرهم بأنهم يعرفونه من أول نشأته حتى تجاوز الأربعين من عمره وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين . أي لا يكذب ولا يخون الأمانات فكان ﷺ موضع ثقة الجميع كما شهد بذلك أحد زعمائهم إذ قال : إن محمداً لم يكذب قط على أحد من الناس أفيدع الكذب عليهم ويكذب على الله ؟ ومن ثم قال تعالى في أولئك الزعماء : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : قال جبل بن قشير وشموال بن زيد من اليهود يا محمد : أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً ، فإننا نعلم متى هي . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال قتادة : قالت قريش لمحمد : إن بيننا وبينك قرابة فأشر إلينا متى تكون الساعة ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ .. ﴾ * وحدث قرظة بن حسان قال : سمعت أبا موسى في يوم الجمعة على منبر البصرة يقول : سئل رسول الله ﷺ عن الساعة وأنا شاهد ، فقال : « لا يعلمها إلا الله . لا يجليها لوقتها إلا هو . ولكن سأحدثكم بأشراطها وما بين يديها . إن بين يديها ردما من الفتن وهرجا . فقيل : ما الهرج يارسول الله ؟ :

قال : هو بلسان الحبشة : القتل . وأن تحصر قلوب الناس . وأن يلقي بينهم التناكر فلا يكاد أحد يعرف أحداً ، ويرفع ذو الحجى . وتبقى رجاحة من الناس لاتعرف معروفاً ولا تنكر منكرأ * وقال ابن كثير : قيل نزلت في قريش . وقيل : في نفر من اليهود . والأول أشبه لأن الآية مكية . وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ عن القيامة وسميت ساعة لأنها تقوم في ساعة غفلة وبغته ، أو لأن حساب الخلائق ينقضي فيها في ساعة واحدة . وقوله : ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ أيان سؤال استفهام عن الوقت الذي تقوم فيه الساعة . ومعناه . متى مرساها . قال ابن عباس : يعني متى متهاها . أي متى وقوعها . أو محطها . وكأنه شبهها بالسفينة العائمة في البحر . وقال الطيبي : الرسو إنما يستعمل في الأجسام الثقيلة وإطلاقه على الساعة تشبيه للمعاني بالأجسام * قلت مثله قوله تعالى : ﴿ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ﴾ أثبتنا على وجه الأرض لتسكن . ومنه مرسة السفن . وفي المختار رسا الشيء ثبت ، وبابه عدا ، ورست السفينة وقفت عن الجرى . أي لكأنهم قالوا : متى وقوف العالم عن الحركة وبه خرابه . وهو قيام الساعة . ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا ﴾ أي علم وقت إرسائها ﴿ عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّئُهَا ﴾ يظهرها ﴿ لَوْفِئِهَا ﴾ أي في وقتها ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا يكشف عنها ولا يظهر للناس أمرها إلا هو بالذات من غير أن يشعر به أحد من المخلوقين . قال المحققون : والسبب في إخفاء الساعة على العباد ، هو أن يكونوا على حذر . فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة . وأزجر عن المعصية . فإن متى علمها المكلف تقاصر عن التوبة . وأخرها . وكذلك أخفى الله ليلة القدر ليجتهد المكلف في كل ليالي الشهر في العبادة . وكذلك أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة ليكون المكلف مجداً في الدعاء في كل اليوم . ﴿ ثَقُلَتْ ﴾ أي عظمت على أهلها ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لأن فيها فناءهم . وذلك يثقل على القلوب لمصيرهم إلى البعث والحساب والسؤال والخوف ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ ﴾ الساعة ﴿ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ أي إلا فجأة على غفلة . روى الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا

يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ،
ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة ، وقد رفع أكلته إلى
فيه فلا يطعمها» وعليه قول تعالى : ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ
يَخِصِّمُونَ ﴾ أي يتخاصمون في بيعهم وشرائهم ﴿ فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى
أهلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لقحته . بفتح اللام وكسرهما . الناقة القريبة العهد بالولادة . ويليظ
حوضه . يطينه ويصلحه . وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ أي يسألونك
كأنك حفي : مبالغ في سؤال ربك عنها . وقد يكون المعنى : يسألونك عنها كأنك
حفي بهم . وبينك وبينهم مودة . أو كأنك صديق لهم . ويؤيد هذا ماورى عن ابن
عباس قال : لما سأل الناس النبي ﷺ عن الساعة : سأله سؤال قوم كأن محمدا حفي
بهم . فأوحى الله إليه — إنما علمها عنده استأثر به فلا يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا
رسولاً * وتقدم ماورى قال : قالت قريش لمحمد ﷺ : إن بيننا وبينك قرابة فأشر إلينا
متى الساعة ؟ فقال الله عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ﴾ . قلت :
والحفي : المستعصى من الشيء المهتل به المعتني بأمره . قال الأعشى : والاحفاء
الاستقصاء . ومنه احفاء الشوارب . والحافي لأنه حفيت قدمه في استقصاء السير
والحفاوة البر واللطف * أي كأنك كاشف بحفاوتك عنها حتى علمتها !! وقوله : ﴿ قُلْ
إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ تأكيد لفظي للجواب السابق لأنه عينه . وقد أمر عليه الصلاة
والسلام بإعادة الجواب الأول بدون زيادة أو نقص عليه تأكيداً للحكم المذكور وإشعاراً
بعلمته أنها باقية على نفي العلم بها . وأنها من اختصاص المولى عز وجل الأمر بتبليغها
وقيامها قال تعالى : (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا) وقوله
تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ
مُنْتَهَاهَا) (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن علمها عنده *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ في الواحدي : قال أبو هريرة : نزلت في رفع الأصوات وهم خلف
رسول الله في الصلاة * وقال قتادة : كانوا يتكلمون في صلاتهم في أول ما فرضت كان
الرجل يجيء فيقول لصاحبه كم صليمت ؟ فيقول : كذا وكذا ، فأنزل الله تعالى هذه
الآية * وقال ابن عباس : إن رسول الله ﷺ قرأ في الصلاة المكتوبة . وقرأ أصحابه
وراءه رافعين أصواتهم ، فخلطوا عليه ، فنزلت هذه الآية * وقال سعيد بن جبير ومجاهد

وعطاء وعمرو بن دينار وجماعة : نزلت في الإنصات للإمام في الخطبة يوم الجمعة * وقال الزهري : نزلت في فتي من الأنصار كان رسول الله ﷺ كلما قرأ شيئاً قرأ هو . فنزلت هذه الآية * وفي اللباب : وقال سعيد بن منصور في سننه : حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب قال : كانوا يتلقفون من رسول الله ﷺ إذا قرأ شيئاً قرؤوا معه حتى نزلت هذه الآية التي في الأعراف ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا .. ﴾ وقال السيوطي : إن ظاهر الآية يدل على أنها مدنية .. ورجح الجلال أنها نزلت في ترك الكلام في الخطبة . وعبر عنها بالقرآن لاشتغالها عليه . وقيل : في قراءة القرآن مطلقاً * هذان قولان في سبب نزولها . وبقي قولان آخران . حكاهما الخازن : ونصه . واختلف العلماء في الحال التي أمر الله بالاستماع لقارئ القرآن والانصات له إذا قرئ لأن قوله : فاستمعوا له وأنصتوا أمر . وظاهر الأمر الوجوب . فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين . وللعلماء في ذلك أقوال : القول الأول : وهو قول الحسن . وأهل الظاهر أن فحوى هذه الآية على العموم . ففي أي وقت . وفي أي موضع قرئ القرآن يجب على كل أحد الاستماع له والسكوت * والقول الثاني : أنها نزلت في تحريم الكلام في الصلاة روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بجوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن . وقال عبد الله : كان يسلم بعضنا على بعض في الصلاة سلام على فلان . سلام على فلان قال : فجاء القرآن : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ * القول الثالث : أنها نزلت في ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام . روى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : نزلت هذه الآية في رفع الأصوات وهم خلف رسول الله ﷺ * وعن ابن مسعود أنه سمع ناساً يقرؤون مع الإمام فلما انصرف قال : أما أن لكم أن تفقهوا : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ كما أمركم الله * وقال الكلبي : كانوا يرفعون أصواتهم في الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار * القول الرابع : أنها نزلت في السكوت عند الخطبة يوم الجمعة — وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء * قال مجاهد : الانصات للإمام يوم الجمعة * وقال عطاء : وجب الصمت في اثنتين عند الرجل يقرأ القرآن . وعند الإمام وهو يخطب . وهذا القول قد اختاره جماعة . قال الخازن : وفيه بعد لأن الآية مكية . والخطبة إنما وجبت بالمدينة * وكذا ذكره الخطيب والقرطبي — وقال الخازن : واتفقوا على أنه يجب الانصات حال الخطبة . بدليل السنة، وهو ما روى عن أبي هريرة أن إذا قلت

لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت» أخرجاه في الصحيحين * قلت : وكون الأمر بالانصات للوجوب على إرادة الخطبة لا يلاقي مذهب الشافعي الجديد لأن استماع الخطبة سنة . نعم تتمشى مع مذهبه القديم . وعبرة المنهاج مع شرحها للمحلى . وإسماع أربعين كاملين . والجديد أنه لا يحرم عليهم الكلام فيها . ويسن الانصات لها . واستدل له بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ ذكر في التفسير أنها نزلت في الخطبة ، وسميت قرآناً لاشتغالها عليه . والأمر للوجوب . وعلى الأول الأمر في الآية للاستجباب * قال الطبري : وأولى الأقوال ذلك بالصواب قول من قال : أمروا باستماع القرآن في الصلاة إذا قرأ الإمام وكان من خلفه ممن يأتيه به يسمعه وفي الخطبة . وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ . أنه قال : إذا قرأ الإمام فأنصتوا ، وإجماع الجميع على أن من سمع خطبة الإمام من عليه الجمعة الاستماع والانصات لها مع تتابع الأخبار بالأمر بذلك عن رسول الله ﷺ . وأنه لا وقت يجب على أحد استماع القرآن والانصات لسماعه من قارئه إلا في هاتين الحالتين على اختلاف في أحدهما . وهي حالة أن يكون خلف إمام مؤتم به . وقد صح الخبر عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا من قوله : إذا قرئ القرآن فأنصتوا . فالإنصات خلفه لقراءته واجب على كل من كان مؤتماً به سامعاً قراءته بعموم ظاهر القرآن والخبر عن رسول الله ﷺ * قلت : وفي الآية تفسير آخر . وهو أن الخطاب في الآية مع الكفار . وذلك أن كون القرآن بصائر وهدى ورحمة لا يظهر إلا بشرط مخصوص . وهو أن النبي إذا قرأ عليهم القرآن عند نزوله . استمعوا له وأنصتوا ليقفوا على مبانيه ومعانيه ، فيعترفوا بإعجازه . ويستغنوه بذلك عن طلب سائر المعجزات . ومما يؤكد هذا التفسير قوله في آخر الآية : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴾ والترجي إنما يناسب حال الكفار لاحتال المؤمنين الذين حصل لهم الرحمة جزماً في قوله : ﴿ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقيل المراد باستماع القرآن العمل بما فيه *

سورة الأنفال وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ في الواحدي : سبب نزول هذه الآية سعد بن أبي وقاص قال : لما كان يوم بدر قتل أخي عمير . وَقَتَلْتُ سعيد بن العاص وأخذت سيفه . وكان يسمى ذا الكتيفة ، فأتيت به النبي ﷺ . قال : اذهب فاطرحه في القبض قال : فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي ، وأخذ سلبى ، فما جاوزت حتى نزلت سورة الأنفال . فقال رسول الله ﷺ : اذهب فخذ سيفك * وفي المراغي : نزلت هذه الآيات في غنائم غزوة بدر ، إذ تنازع فيها من حازها من الشبان وسائر المقاتلة . فقد روى أبو داود والنسائي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « من قتل قتيلاً فله كذا ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا » فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات . وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : إنا كنا لكم رداءً ، ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا . فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ .. ﴾ وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص أنه قتل سعيد بن العاص . وأخذ سيفه ، واستوهبه النبي ﷺ فمنعه إياه . وأن الآية نزلت في ذلك فأعطاه إياه لأن الأمر كله إليه ﷺ * وكذا في الواحدي . وروى الواحدي عن عبادة بن العاص : قال : لما هزم العدو يوم بدر ، وأتبعتم طائفة يقتلونهم . وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ ، واستولت طائفة على العسكر والنهب . فلما نفى الله العدو . ورجع الذين طلبوهم . وقالوا : لنا النفل . بحسن طلبنا العدو . وبنا نفاهم وهزمهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : والله ما أنتم أحق به منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ لا ينال العدو منه غرة فهو لنا . وقال الذين استولوا على العسكر والنهب ، والله ما أنتم بأحق به منا نحن أخذناه واستولينا عليه فهو لنا . فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ... ﴾ فقسمه رسول الله ﷺ بالسوية * ونحوه ذكر السيوطي في لبابه . والهيشمي في مجمه * وأخرج البخاري عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضی الله عنهما سورة

الأنفال : قال : نزلت في غزوة بدر * قوله سورة الأنفال : أي ما سبب نزول سورة
 الأنفال . قلت : وهذا أحد قولين في الآية ، والقول الثاني : قال مقاتل : نزلت في أبي
 اليسر إذ قال للنبي ﷺ : أعطنا ما وعدتنا من الغنيمة ، وكان قتل رجلين وأسر رجلين
 العباس بن عبد المطلب . وآخر يقال له سعد بن معاذ . وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد
 أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن الخمس بعد الأربعة أخماس فنزلت ﴿ يَسْأَلُونَكَ ... ﴾
 ذكره العيني في شرح صحيح البخاري قلت : وفي ذلك اليوم لم يكن فيه خمس ، وإنما
 كان فيه طاعة الله ورسوله وصلاح ذات البين ، وهو ما ذكره الحاكم في مستدركه في
 آخر رواية عبادة بن الصامت . وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم . ولم
 يخرجاه . وأقره الذهبي . وفي مجمع الزوائد في كتاب التفسير سئل عبادة بن الصامت
 رحمة الله عن الأنفال . فقال : فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل -
 الغنيمة - وساءت فيه أخلاقنا ، فانتزعه الله من أيدينا . وجعله إلى رسول الله ﷺ .
 فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء - يقول على سواء - وذكر أن رجاله
 ثقات - وليس في بقية التفاسير أقوال في الآية غير الأقوال التي ذكرت . أما التفسير :
 ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ . الأنفال : هي الأموال المأخوذة من الكفار قهراً . قال
 الأزهري : هو ما كان زيادة عن الأصل فسميت الغنائم بذلك لأن المسلمين فضلوا بها
 على سائر الأمم الذين لم تحل الغنائم لهم وهو الصحيح * وصلاة التطوع نافلة لأنها زائدة
 على الفرض . وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أي زيادة على
 ما سأل . والضمير في يسألونك عائد إلى جمع معينين من الصحابة ، لهم تعلق بالغنائم كما
 ذكرت من الأقوال في سبب نزولها ذلك لدلالة الحال عليهم . والسؤال وإن كان مبهماً
 لكن جوابه بين أن سؤلهم كيف مصرفها ومن المستحق لها . قال الزجاج إنما سألوا عنها
 لأنها كانت حراماً على من كان قبلهم . وضعف بأن الآية دلت على أنها مسبوقه بالتنازع
 والتنافس ، فسألوا عن كيفية قسمتها لا عن حلها وحرمتها . وفي الكشاف : والنفل
 ما ينقله الغازي . أي يعطاه زائداً على سهمه من المغنم . وهو أن يقول الإمام تحريضاً
 على البلاء في الحرب : من قتل قتيلاً فله سلبه . أو قال لسرية : ما أصبتم فهو لكم . أو
 فلکم نصفه أو ربه . ولا يخمس النفل ، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه * وذكر عن
 الشافعي في أحد قوليهِ : لا يلزم . وما ذكر في الكشاف يناسب خبر سعد بن أبي وقاص
 في إعطاء السيف إياه . وذكر صاحب الغرائب عن ابن عباس في بعض الروايات ، أن

المراد بالأنفال ما شذ عن المشركين إلى المسلمين من غير قتال من دابة أو عبد أو متاع إلى النبي ﷺ يضعه حيث يشاء * قلت : النفل بالتحريك في اللغة الغنيمة والهبة . قال لبيد :

إن تقوى ربنا خير نفل * وبإذن الله ريشى والعجل
وقال أبو ذؤيب :

فإن تك أنثى من معد كريمة * علينا فقد أعطيت نافلة الفضل
قال أبو منصور : وجماع معنى النفل والنافلة ما كان زيادة على الأصل ، وهو يرجح قول الأزهري في أول البحث : سميت الغنائم أنفالاً لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذي لم تحل لهم الغنائم * ثم أمر بالشروع في الجواب : فقال : ﴿ قَالِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ أي حكمهما مختص بالله ورسوله يأمر الله بقسمتها على ماتقتضيه حكمته ، ويمثل الرسول أمر الله في قسمتها لا إلى رأي أحد سواه . قال مجاهد وعكرمة : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ﴾ وضعف بأن جعل أربعة أخماسها ملكاً للغنائمين لا ينافي في كون الحكم فيها لله والرسول ثم أمر المسلمين بقوله : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي اجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة والتنازع والاختلاف الموجب لسخط الله ، لما فيه من المضار ، ولا سيما في حال الحرب ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي وأصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفق ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما يأمرانكم به وينهانكم عنه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ حقا أي مصدقين بوعد الله ووعيده . أو إن كنتم كاملي الإيمان للام في قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ... ﴾ إشارة إليهم . أي إنما الكاملوا الإيمان من صفتهم كيت وكيت . والدليل عليه في آخر الآية : الثالثة : أولئك هم المؤمنون حقا *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ... في لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال : ونحن بالمدينة بلغ رسول الله ﷺ أن عير أبي سفيان قد أقبلت . فقال رسول الله ﷺ : ماترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا فخرجنا فسرنا يوماً أو يومين . فقال : ماترون فيهم ؟ فقلنا يارسول الله : مالنا طاقة في قتال القوم إنما أخرجنا

للعير ، فقال المقداد : لا تقولوا كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾ فأنزل الله ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ قلت : وبيان ذلك . أن رسول الله ﷺ لما سمع بأبي سفيان مقبلاً بعيره من الشام ندب المسلمين إليهم . وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها . فحلف بعضهم . وثقل بعضهم ظناً منهم أن رسول الله ﷺ لا يلقي حرباً — وكان أبو سفيان قد استنفر حين دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقي الركبان تخوفاً على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك . فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ، فبعثه إلى أهل مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة وخرج رسول الله ﷺ في أصحابه ، حتى بلغ وادياً يقال له : ذفران حتى إذا كان ببعضه نزل وأتاه الخبر عن مسير قريش إليهم ليمنعوا عيرهم . فأخبر رسول الله ﷺ بذلك واستشارهم ، فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن . ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو . فقال يا رسول الله : امض لما أمرك الله به ، فنحن معك . والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ﴾ ولكن اذهب أنت وربك إنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مدينة باليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال رسول الله ﷺ : خيراً ودعاه له بخير ، ثم قال رسول الله ﷺ : « أشيروا علي أيها الناس » وإنما يريد الأنصار ، وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا يا رسول الله : إنا بُرَأُوا من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه آبائنا ونساءنا ، وكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصرته إلا من دمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم . فلما قال رسول الله ﷺ ذلك : قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله . قال : أجل . فقال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدناك أن ما جئت به هو الحق . وأعطيناك على ذلك عهداً ومواثيقاً على السمع والطاعة . فامض يا رسول الله لما أمرك الله . فوالذي بعثك بالحق ، لكن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه منك . وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا إنا لصبرٌ عند الحرب صدق عند اللقاء . ولعل الله يريك

ماتقر به عينك . فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ لقول سعد ونشطه ذلك ، ثم قال : « سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين : العير القادمة من الشام على رأسها أبو سفيان ، أو النفير الآتي من مكة لنجدتهم ، وعلى رأسهم أبو جهل . والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم » * وفي السمين في قوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ . قال : فيه عشرون وجهاً : أحدها : أن الكاف نعت لمصدر محذوف تقديره : الأنفال ثابتة لله ثبوتاً كما أخرجك . أي ثبوتاً بالحق كما إخراجك من بيتك بالحق . يعني إنه لامرية في ذلك . الثاني : أن تقديره وأطيعوا الله ورسوله طاعة ثابتة محققة كما أخرجك . أي كما أن إخراج الله إياك لامرية فيه ولاشبهة ... الرابع : تقديره يتوكلون توكلأً حقيقياً كما أخرجك ربك الخامس : تقديره هم المؤمنون كما أخرجك فهو صفة لحقاً . إلى أن قال : الخامس عشر : أنها في محل رفع على خبر ابتداء مضمرة تقديره هذه الحال كحال إخراجك . بمعنى أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنقل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجهم للحرب . السادس عشر : أنها صفة لخبر مبتدأ . وقد حذف ذلك المبتدأ وخبره .

والتقدير قسمتك الغنائم حق كما كان إخراجك حقاً . السابع عشر : أن التشبيه بين إخراجين . أي إخراج ربك إياك من بيتك وهو مكة وأنت كاره للخروج وكان عاقبة ذلك الإخراج النصر والظفر كما إخراجك إياك من المدينة وبعض المؤمنين في أنه يكون عقيب ذلك الخروج الظفر والنصر والخير كما كانت عقيب ذلك الخروج الأول * قلت : إن الكاف في (كما أخرجوك) هي بالتأكيد صفة المصدر محذوف يقدر بأن الأنفال ثابتة في تقسيمها لله كما ثبت إخراجك إياك من بيتك بالحق وما مصدرية لدخولها فعل ماض . فهي لا توصل إلا بالفعل الماضي أو المضارع . وذكر السهيلي أن شرط كون (ما) مصدرية صلاحية وقوع (ما) الموصولة موقعها . أي كالذي أخرجك من بيتك . وذكر بعضهم أن الكاف هنا بمعنى الواو . فهي مقسم بها . وضعف هذا القول . وتقدير مصدريتها : أخرجك من المدينة لتأخذوا العير التي مع أبي سفيان أي لتغنمها ، فأصل خروج النبي والمؤمنين لأجل أن يغنموا القافلة فلم يكن في خروجهم كراهة . وإنما عرضت لهم الكراهة بعد الخروج قريب بدر لما أخبروا أن العير بخت منهم . وإن قريشاً أتوا إلى بدر . وأشار عليهم النبي ﷺ بأنهم يمضون إلى قتال قريش الذين خرجوا ليدبوا المسلمين عن القافلة ، فكره المسلمون القتال لا عصياناً بل بالطبع حيث خرجوا من غير

استعداد للقتال لا بعدد ولا بعدد . وإنما كان أصل خروجهم لأخذ الغنيمة فقلوه : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ حال مقدرة أن الكراهة لم تقارن الخروج . بل كانت لما عاينوا النفير . فما ذكره الجلال أن الجملة حال من كاف أخرجك . وكما خبر مبتدأ محذوف . أي هذه الحال في كراهتهم لها مثل إخراجك في حال كراهتهم * غير واضح المعنى . والحاصل أنه وقع للمسلمين في وقعة بدر كراهران : كراهة قسمة الغنيمة على السوية ، وهي واقعة من شباهم بسبب تأويلهم بأنهم باشروا القتال دون الشيوخ ... والكراهة الثانية : كراهية قتال قريش وعذرهم فيها أنهم خرجوا من المدينة للغنيمة للقتال لأنهم لم يتهيئوا له . فشبّه الله تعالى إحدى الحالتين بالأخرى في مطلق الكراهية المتساوية في الحالتين . ولعل أشدها القتال لقلوه : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ أي في القتال ﴿ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ ﴾ ظهر لهم ، فالكراهية الأولى أدت إلى السؤال لحل النزاع والثانية أدت إلى الجدل المنهي عنه لأنه يؤدي إلى الخصام : وشبه شدة كراهتهم للقتال بقلوه : ﴿ كَانَهُمْ يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ إليه عياناً . وقد كان خروجهم خيراً لهم لما ترتب عليه من النصر والظفر . والكراهية الأولى خيراً لهم لأنها أرست حكماً شرعياً في تقسيم الغنائم حتى يوم الدين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ في لباب السيوطي : روى الترمذي عن عمر بن الخطاب قال : نظر نبي الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف . وأصحابه ثلاثمائة ، وبضعة عشر رجلاً . فاستقبل القبلة ، ثم مد يديه وجعل يهتف بربه : اللهم أنجز لي ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض . فمازال يهتف بربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه . فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ، وألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال يا نبي الله : كفك منا شدت ربك فانه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ فأمدهم الله بالملائكة * قلت : وقد روى الحديث عن مسلم عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب . قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين ... وفي آخره . فأمده الله بالملائكة ، فقتلوا يومئذ سبعين وأسرنا سبعين * وروى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال يوم بدر : « هذا جبريل أخذ برأس فرسه . عليه أداة الحرب : يعني آلة الحرب » وروى أنه ﷺ نام نومة وهو في العريش .

ثم انتبه . فقال يا أبا بكر : أتاك نصر الله : هذا جبريل أخذ بعنان فرسه ، يقوده على ثنايا النقع * وروى البخاري عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ يوم بدر : « اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حسبك . فخرج وهو يقول : « سبهم الجمع ويولون الدبر » أما التفسير : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ تطلبون منه الغوث بالنصر عليهم . وهو تذكير لهم بنعمة أخرى . فهو في المعنى معطوف على قوله : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ أَحَدَى الطَّائِفِينَ ﴾ العير أو النفير . والمقام للماضي لأن الاستغاثة وقعت منهم لما توافقوا على القتال وخافوا من العدو ، فاستغاثوا الله . أي اذكروا وقت استغاثتكم ربكم قائلين ربنا انصرنا على عدوك : يا غياث المستغيثين أغثنا . وفي الخازن : إذ تستغيثون ربكم . أي تستجيرون * بربكم من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر . قال : وفي المستغنين قولان : أحدهما أنهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه قاله الأزهري . والقول الثاني أنه رسول الله ﷺ وحده إنما ذكر بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ، وقد تقدم حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب الذي رواه عنه مسلم في هذا الخصوص . والأمر بهذا الذكر لبيان نعمة الله عليهم حين التجأهم إليه إذ ضاقت عليهم الحيل في الخروج من المأزق الذي وقعوا فيه . فطلبوا مخلصاً منه فاستجاب دعاءهم ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ السين والتاء في تستغيثون . للطلب زائدتان في (فاستجاب) مبالغة في إجابة الدعاء . فاستجاب أبلغ من أجاب . ووقعت الإجابة وفق الطلب فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِ ﴾ أي بآتي ﴿ مُمِدَّتْكُمْ ﴾ معينكم بامدادى إياكم ﴿ بِاللَّيْلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَرَدِّينَ ﴾ متتابعين ، يردف بعضهم بعضاً ، وعدمهم بها أولاً ، ثم صارت ثلاثة آلاف ، ثم خمسة آلاف كما في آل عمران . ثم بين الله تعالى علة الإمداد بقوله : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ أي الامداد ﴿ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ﴾ أولاً بالنصر . ثانياً ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ أي ولتسكن به قلوبكم من الزلزال الذي عرض لكم . فكان من مجادلتكم للرسول في أمر القتال ما كان . ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ فلا يتوقف على التأهل والتهىء بالعدد والعدد كما تعلمت بذلك حين كرهتم القتال . ﴿ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في تدبير شؤون خلقه . فهو وحده بيده الظفر والاعانة ، فيجب التوكل عليه في جميع الأحوال ، وهناك روايات كثيرة تفيد أن الملائكة قد باشرت القتال يوم بدر ، وفي يوم أخذ وعدهم الله وعداً معلقاً على الصبر والتقوى : « بلى إن تصبروا وتتقوا يأتوكم من فورهم هذا » ولكن الشرط الأخير قد انتفى فانتفى

ماعلق عليه . وفي بدر لم يكن نزولهم بشيء فباشروا القتال . وقيل : قد باشر بعض الملائكة بالقتال يوم أحد دفاعاً عن رسول الله ﷺ . وهو ما أوضحته في كتابي / صحيح السيرة وفقها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيَلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ في الواحدي : حدث ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : أقبل أبي بن خلف يوم أحد إلى النبي ﷺ يريد . فاعترض له رجال من المؤمنين . فأمرهم رسول الله ﷺ فخلوا سبيله . فاستقبله مصعب بن عمير أحد بني عبد الدار ، ورأى رسول الله ﷺ ترقوة أبي من فرجة بين سابغة البيضة والدرع . فطعنه بجرته ، فسقط أبي عن فرسه . ولم يخرج من طعنته دم . وكسر ضلعاً من أضلاعه . فأثاه أصحابه وهو يخور خوار الثور ، فقالوا له : ما أعجزك إنما هو خدش ، فقال : والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي الحجاز لماتوا أجمعين . فمات أبي إلى النار ، فسحقاً لأصحاب السعير قبل أن يقدم مكة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ... ﴾ قلت : هذا الحديث صحيح رواه في مستدركه ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبي . وفيه : فقالوا له : ما أعجزك إنما هو خدش — زاد — فذكر لهم قول رسول الله ﷺ : بل أنا أقتل أبا .. * وفي الواحدي : وروى ابن جبير أن رسول الله ﷺ يوم خيبر دعا بقوس . فأتى بقوس طويلة . فقال : جيئوني بقوس غيرها ، فجاؤه بقوس كبداء ، فرمى رسول الله ﷺ الحصن ، فأقبل السهم يهوى حتى قتل كنانة بن أبي الحقيق . وهو على فراشه فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ... ﴾ قال السيوطي : إن هذه الرواية مرسلة جيدة الاسناد غريبة * وأكثر المفسرين أن الآية نزلت في رمي النبي ﷺ القبضة من حصباء الوادي يوم بدر حين قال للمشركين : شأهت الوجوه . ورماهم بتلك القبضة ، فلم يبق عين مشرك إلا دخلها منه شيء . قال حكيم بن حزام : لما كان يوم بدر سمعنا صوتاً وقع من السماء إلى الأرض وكأنه صوت حصاة وقع في طست ، ورمى رسول الله ﷺ تلك الحصاة فانهمزنا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ وهذه الرواية هي المشهورة . أخرج أبو الشيخ نحوها عن جابر وابن

عباس ، ولابن جرير من وجه آخر مرسلأ نحوه . ذكره السيوطي في لبابه . وفي الغرائب : ولما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ : وهذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك . اللهم إني أسألك ما وعدتني . فأتاه جبرائيل عليه السلام . فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها . فقال : لما التقى الجمعان لعل . اعطني قبضة من حصباء الوادي . فأعطاه فرمى بها في وجوههم . وقال : شامت الوجوه . فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه . فانهمزوا فنزلت : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .. ﴾ وما رميت أنت يا محمد إذا رميت . ولكن الله رمى . أثبت الرمية للرسول ﷺ لأن صورتها وجدت منه عليه السلام . ونفاها عنه لأن أثرها فوق حد تأثير القوى البشرية . قال : وهذا الأصح . نعم لا يبعد أن يدخل تحته سائر الوقائع لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . أما التفسير : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ يا محمد أعين القوم بالحصباء ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ حين رميت بالحصى لأن كفاً من الحصى لا يملأ عيون الجيش الكثير برمي البشر ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ بإيصال ذلك الحصى إلى أعينهم . فأنت ترى أن قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ نفي وقوله : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ إثبات على حد قولك : وما ضربت وضربت . الجواب إن المنفى الرمى الذي هو إيصال الحصى لأعينهم . وهذا فعل الله تعالى . فيصدق على أن الرسول ما فعله . والمثبت للرسول ﷺ . فعلى الرمى أي مباشرته بدون علم تحقيق نتائجه . فنفاها عنه باعتبار الایجاد وأثبتته له باعتبار إتيانه صورة الرمى لأعلى سبيل التمثيل بل باعتبار الحقيقة والواقع . إذ الموجد له حقيقته هو الله تعالى . وقد أشكل هذا الأمر على كثير من المفسرين قوله : ﴿ وَلِيُبَيِّنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ ﴾ أي الابلء لأنه أقرب مذكور له ﴿ بَلَاءٌ ﴾ مصدر لأبلى أي عطاء . ﴿ حَسَنًا ﴾ هو الغنيمة * وعبارة البيضاوي . أي ولينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والغنيمة ومشاهدة الآيات * وأنت خبير بأن البلاء يقع على النعمة والحنة لأن أصله الاختبار . فهو لفظ مشترك بالخير والشر والبلاء هنا محمول على النعمة كما ذهب إليه المفسرون . أي فكما يكون البلاء حنة لاظهار الصبر يكون نعمة أيضاً لإظهار الشكر، والاختبار من الله تعالى إظهار ما علم كما علم لا تحصيل علم مالم يعلم *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَّ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ في الواحدي : قال ابن شهاب : حدثني عبد الله بن ثعلبة بن صغير ،

قال : كان المستفتح أبا جهل . وإنه قال حين التقى بالقوم : اللهم أينما كان أقطع للرحم . وأتانا بما لم نعرف . فافتح له الغداة ، وكان ذلك استفتاحه فأنزل الله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ * قلت وقد رواه الحاكم في مستدركه ، فقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبي . وفي الواحدي : أيضاً قال السدي والكلبي : كان المشركون حين خرجوا إلى النبي ﷺ من مكة أخذوا بأستار الكعبة . وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين : وأهدي الفتتين . وأكرم الحزبين ، وأفضل الدينين . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن عطية قال أبو جهل : اللهم انصر أعز الفتتين . وأكرم الفرقتين . فنزلت : وكذا في البيضاوي والجلال وعبارة الأول : قال أبو جهل وغيره من قريش حين أرادوا الخروج إلى بدر وتعلقوا بأستار الكعبة . وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين . وأهدي الفتتين . وأكرم الحزبين ودعوا بما ذكروا . وهو في نفس الأمر دعاء عليهم وإن أرادوا به الدعاء على محمد وحزبه * وعبارة الثاني : قال أبو جهل : اللهم أينما كان أقطع للرحم . وأتانا بما لم نعرفه . فأحنه الغداة . أى أهلكه * فأحنه الغداة . في المختار الحين بالفتح الهلاك وقد حان الرجل أى هلك وأحانه الله أهلكه وفي الطبرى عن الزهرى : إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح . قال : استفتح أبو جهل فقال : اللهم يعنى محمداً ونفسه ، أينما كان أفجر لك اللهم وأقطع للرحم ، فأحنه اليوم قال الله ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ فضربه ابنا عفراء : عوف ومعوذ وأجهز عليه ابن مسعود * وعن قتادة : قوله إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح .. الآية يقول : قد كانت بدر قضاء وعبرة لمن اعتبر * وقال ابن زيد في قوله : إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، قال : إن تستفتحوا العذاب فعذبوا يوم بدر قال : وكان استفتاحهم بمكة قالوا : «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم» قال : فجاءهم العذاب يوم بدر وأخبر عن يوم احدلا وإن تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين» وحدث الطبرى عن يزيد بن رومان وغيره . قال أبو جهل يوم بدر : اللهم انصر أحب الدينين إليك ديننا العتيق أم دينهم الحديث . فأنزل الله ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ إِلَى قَوْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ * وهكذا بقية الأقوال في التفاسير لا تخرج عما ذكرت لك . أما التفسير ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا ﴾ خطاب لأهل مكة على سبيل التهكم لأنهم الذين وقع بهم الهلاك والذلة .

أى تطلبوا الفتح . أى قضاء الحكم بينكم وبين محمد بنصر الحق وخذلان المبطل وقيل : الخطاب للمؤمنين والمعنى إن تستنصروا فقد جاءكم النصر وإن تنهوا عن التكاسل في القتال والرغبة عما يختاره الرسول فهو خير لكم . وإن تعودوا إليه نعد عليكم بالإنكار أو تبيح العدو ولن تغنى حيثئذ كثرتكم إذا لم يكن الله معكم بالنصر . فإنه مع الكاملين في إيمانهم ولعل هذا القول هو الأصح ويؤيده قوله بعد ذلك الخطاب الذى يليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ هم المنافقون أو المشركون . وقوله ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ أى القضاء بهلاك من هو كذلك . وهو أبو جهل ومن معه دون النبى ﷺ والمؤمنين هذا يؤيد ماقلته من صحة القول الثانى أن الخطاب للمؤمنين . لكن يعكر عليه قوله : ﴿ وَإِنْ تَنَهَوْا ﴾ عن الكفر والحرب ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا ﴾ لقتال النبى ﷺ ﴿ نَعُدُّكُمْ ﴾ لنصره عليكم ﴿ وَلَنْ نُغْنِيَنَّ ﴾ تدفع ﴿ عَنْكُمْ فَتُكْمَكُمْ ﴾ جماعاتكم ﴿ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرْتُمْ ﴾ وإن الله مع المؤمنين ﴿ بالنصر لهم عليكم معشر الكافرين . وفى أن الكسر على الاستناف والفتح على تقدير اللام . ففى السمين قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم بالفتح . والباقون بالكسر فالفتح من أوجه : أحدها أنها على لام العلة والمعلل تقديره ولأن الله مع المؤمنين كان كيت وكيت والثانى أن التقدير ولأن الله مع المؤمنين امتنع عنادهم والثالث أنه خبر مبدأ محذوف أى والأمر أن الله مع المؤمنين . قال : وهذا الوجه الأخير يقرب فى المعنى من قراءة الكسر لأنه استئناف قلت : وقدر الزمخشرى قراءة الفتح ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك .

القول فى سبب نزول قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَحُونُوا أَمْثَالَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ذكر الواحدى أنها نزلت فى أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصارى . وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة ، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بنى النضير على أن يسيروا بإخوانهم إلى أذرعات وأيحا من أرض الشام فأبى أن يعطيهم ذلك إلى أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ . فأبوا وقالوا : أرسل لنا أباً لبابة وكان مناصحاً لهم ، لأن عياله وماله وولده كانت عندهم . فبعثه رسول الله ﷺ فاتاهم فقالوا يا أباً لبابة : ماترى أننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه إنه الذبح فلا تفعلوا قال أبو لبابة : والله

ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله فنزلت في هذه الآيات، فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد ، وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليه . فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه ، فقليل له يا أبا لبابة : قد تيب عليك فقال : لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يخلنى فجاء فحله بيده ، ثم قال ابو لبابة : من تمام توبتى أن أهجّر دار قومي التى أصبت فيها الذنب، وأن اخلع من مالى فقال رسول الله ﷺ يجزيك الثلث أن تتصدق به * وفي لباب السيوطى : روى ابن جرير وغيره عن جابر بن عبد الله أن أبا سفيان خرج من مكة ، فأقى جبريل النبي ﷺ فقال : إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا فاخرجوا اليه، واكتبوا فكتب رجل من المنافقين إلى أبى سفيان إن محمدا يريدكم فخذوا حذرکم فأنزل الله : ﴿ لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ الآية قال السيوطى غريب جدا في سنده وسياقه نظر. وأخرج ابن جرير عن السدى قال : كانوا يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه حتى يبلغ المشركين * فنزلت وذكر القول الأول في الكشاف والمراعى والخازن والغرائب. وفي الغرائب زيادة على الأقوال المتقدمة : وقال الزهرى والكلبى : نزلت في حاطب بن أبى بلتعة حين كتب إلى أهل مكة بخروج النبي ﷺ إليها . حكاه الأصم . قال القاضى والأقرب أنها في الغنائم ، فالخيانة فيها خيانة لله لأنها عطيته . وخيانة للمؤمنين الغانمين فلكل منهم فيها حق قلت : والقول الأول هو المشهور في سبب نزول الآية ، ويؤيده قوله تعالى فيها : ﴿ وَاَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ فقد كانت عيال أبى لبابة وماله وولده عند بنى قريظة وإن كان ذلك الأمر بالنسبة لحاطب بن بلتعة فقد وردت قصته في الصحيحين أن كتب إلى قريش يعلمهم بقصد رسول الله ﷺ إياهم عام الفتح فأطلع الله رسوله على ذلك فبعث في أثر الكتاب فاسترجعه واستحضر حاطباً فأقر بما صنع واعتل بماله عند المكّين وما فعل ذلك إلا ليتخذ يدا عندهم ، فقام عمر بن الخطاب فقال يارسول الله: ألا أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، المؤمنين؟ فقال: « دعه فإنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » والقول بأن الآية عامة في كل ما ذكر هو الأصح ، لأنها وإن صحت أنها وردت في سبب خاص ، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند جماهير العلماء . أما التفسير : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ فاعادة النهى إشارة إلى أن النهى عنه كل واحد

من الأمرين مستقلاً ، وليست الواو للمعية ، فالثاني مجزوم نسقاً على الأول ولا يجوز أن يقال : نهي عن الجمع بينهما لأنه لا يلزم من النهي عن الجمع النهي عن كل واحد على حدة أى لا تخونوا الله فتعطلوا فرائضه ، أو تتعدوا حدوده وتنتهكوا محارمه التي بينها لكم في كتابه ولا تخونوا الرسول فترغبوا عن سنة إلى سنة آباؤكم وزعمائكم ، ولا تخونوا أماناتكم فيما بين بعضكم وبعض من المعاملات المالية والودائع وغيرها من افشاء الأسرار التي أوتنتم عليها .. ويحتمل أن يراد بالأمانة كل ما تعبد به ، وكان معنى الآية إيجاب أداء التكاليف بأسرها في الغنيمة وغيرها على سبيل التمام والكمال من غير نقص وإخلال . ومعنى الخون النقص كما أن معنى الوفاء التمام ، فإذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه . وعبرة صاحب الغرائب : ولا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه ورسوله بأن لا تستنوا به ، وآماناتكم فيما بينكم بأن لا تحفظوها ، وأنتم « تعلمون » تبعاً لذلك ووباله ، أو تعلمون أنكم تخونون ، يعنى أن الخيانة توجد منكم عمداً لا سهواً ثم لما كان الداعى إلى الخيانة محبة الأموال والأولاد ولعل ما فرط من أبى لبابة كان بسبب ذلك ، نبه الله سبحانه على أنه يجب على العاقل أن يحترز عن المضار المتولدة من ذلك الحب فقال : ﴿ **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ أى أنها سبب الوقوع في الفتنة وهى الأثم، أو العذاب، أو هى محنة من الله ليلوكم كيف تحافظون على حدوده في ذلك الباب ﴿ **وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ فعليكم أن تزهدوا في الدنيا وما يتعلق بها ، وتوطوا هممكم بما يقضى إلى السعادات الروحانية الباقية . ويمكن أن يتمسك بالآية في بيان أن الاشتغال بالنوافل لكونه مفضياً إلى الأجر العظيم عند الله هو أفضل من الاشتغال بالنكاح لأدائه إلى الفتنة * ونزل في توبة أبى لبابة : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَشَاءُوا اللَّهَ** ﴾ بالانابة وغيرها ﴿ **يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا** ﴾ بينكم وبين ما تخافون فتنجون ﴿ **وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ** ﴾ والله ذو الفضل العظيم ﴿ **لأنه هو الذى يفعل ذلك بكم** فله الفضل العظيم عليكم وعلى غيركم من خلقه * وقيل : إنه يتفضل على الطائعين بقبول الطاعات ويتفضل على العصاة بغفران السيئات وقيل : معناه إن بيده الفضل العظيم فلا يطلب من عند غيره . والفضيلة والفضل الخير *

والقول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْنِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ قال السيوط في لبابه أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن نفراً من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا

ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد سمعتُ بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم منى رأى ونصح قالوا أجل ؛ ادخل فدخل معهم فقال: انظروا في شأن هذا الرجل فقال قائل احبسوه في وثاق ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابعة فإنما هو كأحدهم فقال عدو الله الشيخ النجدى : لا والله ما هذا برأى والله ليخرجن رائد من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أنه يشيوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ، ثم يمنعه منكم فما آمن عليكم أن يُخرجوكم من بلادكم . فأنظروا غير هذا الرأى فقال قائل : أخرجوه من بين أظهركم واستريحوا منه فإنه إذا أخرج لن يضركم ماصنع ، فقال الشيخ النجدى : والله ما هذا لكم برأى . ألم تتروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه وأخذه للقلوب بما يمتنع من حديث والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليسرنَّ إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم قالوا : صدق والله فأنظروا رأيا غير هذا ، فقال أبو جهل : والله لأشيرنَّ عليكم برأى أراكم أبصرتموه بعد ما أرى غيره قالوا : وما هذا ؟ قال تأخذوا من كل قبيلة وسيطا شابا جلدا ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ثم يضربوه ضربة رجل واحد فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقدرون على حرب قريش كلها ، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل - الدية - واسترحنا وقطعنا عنا أذاه فقال الشيخ النجدى : هذا والله هو الرأى القول ما قال الفتى لا أرى غيره ففترقوا على ذلك وهم مجمعون له فأتى جبريل النبى ﷺ فأمره ألا يبيت في مضجعه الذى كان يبيت ، وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك في الخروج ، وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة يُذكره نعمته عليه : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية ورواه ابن سحاق في سيرته وابن كثير والحازن وغيرهم من أهل السير والمفسرين * وأخرج ابن جرير من طريق عبيد بن عمر عن المطلب بن أبى وداعة أن أبا طالب قال للنبي ﷺ : ما يأتمر بك قومك ؟ قال : يريدون أن يسجنوني أو يقتلوني ، أو يخرجوني قال : من حدثك بهذا ؟ قال : ربي قال : نعم الرب ربك فاستوصى به خيرا قال : أنا استوصى به بل هو يستوصى بى فنزلت : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الآية قال ابن كثير : ذكر أبى طالب فيه غريب بل منكر لأن القصة ليلة الهجرة وذلك بعد موت أبى طالب بثلاث سنين. قلت وفي مجمع الزوائد عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ» قال: تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ وقال بعضهم بل اقتلوه وقال بعضهم: بل أخرجوه فأطاع الله عز وجل نبيه على ذلك فبات على رضى الله عنه على فراش رسول الله ﷺ وخرج رسول الله ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبي ﷺ فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا ردَّ الله مكرهم فقالوا أين صاحبك هذا ؟ قال لا أدري فأقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا نسج العنكبوت على بابه فبات فيه ثلاث ليال * قال الهيثمي : رواه احمد والطبراني وفيه عثمان بن عمرو الجزرى وثقه ابن حبان وضعفه غيره وبقية رجاله رجال الصحيح * وفسر البخارى في صحيحه * **لِيُثْبِتُوكَ** : ليحبسوك * وبه فسر عطاء وابن زيد وقال السدى : الاثبات هو الحبس والوثاق ، وقال ابن عباس ومجاهد وقتاده : ليثبتوك ليقيدوك وفي شرح المواهب مانصه : فقال بعضهم لبعض : والله إنها لسببة - أى عارٌ - في العرب أن يتحدثوا عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم وهتكنا سر حرمتنا فهذا الذى أقامهم بالباب حتى أصبحوا * أما التفسير : ﴿ وَ ﴾ اذكر يا محمد ﴿ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ المكر في اللغة : احتيال في خفية، وأصله الخداع ومكرهم اجتماعهم للمشاورة في شأن الرسول ﷺ بدار الندوة أى الدار التى تقع فيها الندوة أى الاجتماع والتحدث فالندوة مصدر. في المصباح ندا القوم ندوا من باب قتل : اجتمعوا ومنه النادى وهو مجلس القوم ومتحدثهم، ولا يقال فيه ذلك إلا والقوم مجتمعون فيه فإذا تفرقوا زالت عنه هذه الأسماء ، والندوة المرة من الفعل ، ومنه سميت دار الندوة بمكة التى بناها قصى لأنهم كانوا يندون فيها ، أى يجتمعون ثم صار مثلا لكل دار يرجع اليها ويجتمع فيها وجمع النادى أندية * وذكر الزرقانى على المواهب أنها أول دار بنيت بمكة فلما حج معاوية اشتراها من الزبير العبدري بمائة ألف درهم ثم صارت كلها مسجد الحرام ، وهى جانبه الشمالى * ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ تقدم بيان ذلك وقوله ﴿ أَوْ تَقْتُلُوكَ ﴾ كلهم قتلة رجل واحد ، إشارة لرأى أبى جهل الذى صوبه صديقه ابليس لعنهما الله ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ من مكة منفيا كما أشار بذلك هشام بن عمرو ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ بك يا محمد أى يتحالفون ويتدبرون فى أمرك وقد تقدم معنى المكر فى اللغة ﴿ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج وحفظك حتى أبلغك مأمنك واستدرجهم إلى بدر فقتل المسلمين أعينهم حتى حملوا عليهم فقتلوا وهذا مكر الله بهم أى جزاؤه بهم أى سُمى

باسم مكر المجازى كما قال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ فالثانية ليست بسئة في الحقيقة بل هي مجازة وإنما سميت سئة لآزدواج الكلام . وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ فالأول ظلم والثاني ليس بظلم ولكنه سمي باسم الذنب ليعلم أنه عقاب عليه وجزاء به . ويجرى مجرى هذا القول قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ بجازيم وذلك بإيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه وقوله ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ أعلمهم به كذا قال الجلال وفيه شبهة تفضيل ولو قال : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ لما هيأه لهم من الجزاء العادل بيدرك لكان أولى إذ هو المشار اليه بقوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِفُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيَخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ويؤيده مارواه الحاكم في مستدرکه عن ابن عباس قال : دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكى فقال : « ما يبكيك يا بنية ؟ » قالت يا أبتى : ومالى لا أبكى وهؤلاء الملاء من قريش في الحجر - حطيم مكة وهو المدار بالبيت من جهة الميزاب - يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى : لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك فقال : « بابنية ائتنى بوضوء » فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد فلما رأوه قالوا : هاهو ذا فطأطؤا رؤوسهم وسقطت رقابهم بين أيديهم فلم يرفعوا أبصارهم فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال « شامت الوجوه » فما أصاب رجلاً منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافراً * قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه قال ابن كثير : ولا أعرف لهذا الحديث علة *

القول في سبب نزول قوله تعالى ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ في لباب السيوطى أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبیر قال : قتل النبی ﷺ يوم بدر صبوا عقبه بن أبى معيط وصعيمة بن عدى فقال رسول الله ﷺ إنه كان يقول في كتاب الله مايقول قال : وفيه أنزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ الآية * وقد أوضح القصة بن كثير بقوله : وقد قيل إن القائل لذلك لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم : رستم واسفنديار ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله وهو يتلو على الناس القرآن فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النظر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول : بالله أينما أحسن قصصاً أنا أو محمد ؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع في

الأسر فأمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبتة صبراً بين يديه ففعل ذلك والله الحمد. وكان
 الذى أسره المقداد بن الأسود رضى الله عنه كما قال ابن جرير وساق الذى ذكره
 السيوطى * وفي الخازن : نزلت في النضر بن الحارث بن علقمة من بنى عبد الدار وذلك
 أنه كان يختلف إلى أرض فارس والحيرة ، ويسمع أخبارهم عن رستم واسفنديار
 وأحاديث العجم وكان يمر بالعباد من اليهود والنصارى فيراهم يقرؤن التوراة والانجيل
 ويركعون ويسجدون ويكفون فلما جاء مكة وجد النبي ﷺ قد أوحى إليه وهو يقرأ
 ويصلى فقال النضر بن الحارث : قد سمعنا مثل هذا الذى جاء به محمد ، لو نشاء لقلنا
 مثل هذا فذمهم الله بدفعهم الحق الذى لا شبهة فيه بادعائهم الباطل بقولهم : لو نشاء
 لقلنا مثل هذا بعد التحدى وأبان عجزهم عن ذلك ولو قدروا ما تخلفوا عنه وهم أهل
 الفصاحة وفرسان البلاغة فبان بذلك كذبهم في قولهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » في
 الكشف وقيل : قاتلة النضر بن الحارث المقتول صبراً حين سمع اقتصاص الله أحاديث
 القرون : لو شئت لقلت مثل هذا وهو الذى جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم
 واسفنديار فرعمتم أنه مثل ذلك وأنه من جملة تلك الأساطير قال : وهو القائل « إن كان
 هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » * وسأيت بيان ذلك بعد هذه
 الآية إن شاء الله. وفي الغرائب : روى أن النضر بن الحارث خرج إلى الحيرة تاجراً
 واشترى أحاديث كليلة ودمنة وقصة رستم واسفنديار وكان يقعد مع المستهزئين
 والمقتسمين فيقرأ عليهم ويقول : هذا مثل ما يذكره محمد من قصص الأولين ولو شئت
 لقلت مثل مقوله * ولم أر في بقية التفاسير قولاً زائداً في معناه على ما ذكرت بل ذكروا
 كلهم أنها نزلت في النضر بن الحارث ، أما التفسير : ﴿ وَإِذَا تُنذِرُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ آيات
 كتاب الله الواضحة البيان لمن يشرح الله صدره للإسلام ﴿ قَالُوا ﴾ أولئك المستهزؤن
 جهلاً منهم وعناداً للحق وإنهم ليعلمون إنهم لكاذبون ﴿ قَدْ سَمِعْنَا ﴾ ما يتلى علينا ﴿ لَوْ
 نَشَاءُ ﴾ نريد ﴿ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ الذى يتلى علينا من القرآن الذى وصفوه بأنه أساطير
 الأولين والتعبير بلو دلالة على عجزهم وكذبهم فهى حرف يدل على تعليق فعل بفعل
 فيما مضى فقوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ لم يقله لا في الماضى ولا في الحاضر
 ولا في المستقبل أى قصدى أقول : لم يتحقق شرطها ولا جوابها وإيضاح ذلك باختصار
 إن قوله ﴿ مِثْلَ هَذَا ﴾ المشار إليه وهو القرآن . وهل للقرآن مثيلة تشبهه في بلاغته
 وإعجازه كان النضر وامثاله على علم بها ؟ هذا ما لم يأتوا به فثبت كذبهم أن ليس للقرآن

مثيلة ليتعرضوا بها ولذا عللوا دعوتهم الكاذبة بما هو أشد منها كذبا فقالوا : « إن هذا إلا أساطير الأولين » السطر والسطر : الصف من الكتاب والشجر والنخل ونحوها . وجمع ذلك أسطر وأسطار وأساطير والسطر الخط والكتابة أي أنهم يريدون ماجاء به نبينا محمد ﷺ هو مما سطره الأولون وكتبوه بأيديهم قال تعالى ﴿ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ أي وما تكتب الملائكة وقال تعالى : ﴿ وَكُلٌّ صَغِيرٌ وَكَبِيرٌ مُسْتَطَرٌّ ﴾ مكتوب والأساطير في أصل اللغة أحاديث لا نظام لها فهي تشبه الباطل إذ يقال هو يسطر مالا أصل له أي يؤلف وفي حديث الحسن سأله الأشعث عن شيء من القرآن فقال له : والله إنك ما تسيطر على بشيء * أي ماتروج يقال : سطر فلان على فلان إذا زخرف الأقاويل ونمقها وتلك الأقاويل الأساطير والسطر والمعنى أن أخبار القرآن عن الرسل وأقوامهم تشبه قصص أولئك الأمم فهم يستطيعون أن يأتوا بمثلها فما هي من خير الغيب الدال على أنه وحى من عند الله قالوا هذه المقالة الشيعة وهم يعتقدون صدق ماجاء به نبينا محمد ﷺ لأنهم يعلمون أنه أمى لا يقرأ ولا يكتب قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تُنْزِلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ يَمِينُكَ إِذَا لَازَتْكَ الْمُبْتَلُونَ ﴾ بل قالوا ذلك ليصدوا العرب عن القرآن وقد كذبهم الله فيه فما استطاعوا له إثباتا. روى أن النضر هو الذى أنزل فيه

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قد اشترى قينة جميلة تغنى الناس بأخبار الأمم لصرفهم عن سماع القرآن وهذا منتهى الجحود والعناد، وقد كان النضر نفسه وأبو جهل والوليد بن المغيرة يستمعون ليلا خفية من رسول الله ﷺ ويعجبون منه حتى قال الوليد بن المغيرة كلمته المشهورة في القرآن الكريم : إنه يعلم ولا يعلم عليه ، وإنه يحطم ماتحته، أعلاه مثمر وأسفله مغدق وما هو من كلام البشر. فلما سمع العرب كلمته هذه خافوا أن يؤمن فألحوا عليه ليقول نقيضا فقال : « إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ »

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ قال أهل التفسير نزلت في النضر بن الحارث وهو الذى قال : إن كان مايقول محمد حقا فأمطر علينا حجارة من السماء. ولكن في البخارى أن القائل أبو جهل أخرج عن أنس بن مالك قال أبو جهل : اللهم إن

كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم فنزل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَالَهُمْ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ الآية والحديث أخرجه مسلم أيضا في ذكر المنافقين والكفار عن عبيد الله عن أبيه عن شعبة وفي لباب السيوطي : وأخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قال : قالت قريش بعضها لبعض : محمد أكرمه الله من بيننا : اللهم إن كان هذا هو الحق فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ إلى قوله : لَا يَعْلَمُونَ ﴿ وهكذا بقية الأقوال الأخرى في التفاسير لا تخرج عن هذه الأقوال الثلاثة : النضر - أبو جهل - قريش - روى أن معاوية قال لرجل من سبأ : مأجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة !! فقال أجهل من قومي قومك حين قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ ولم يقولوا : فاهدنا له قلت : ولا منافاة بين الأقوال الثلاثة لاحتمال أن يكون كل من القرشيين والنضر وأبو جهل قالوا ذلك مجتمعين أو منفردين ولا دليل على دعوى الأولوية بل لقائل أن يقول نسبه إلى أبي جهل أولى لورود ذلك في صحيح البخاري وصحيح مسلم فالأخذ بهما أولى من غيرهما وهو الحق أما التفسير ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا ﴾ الذى يقرؤه محمد ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴾ أما المنزل العامة على نصب الحق وهو خبر كان وهو فصل زائد على قول الأخفش ويرفع على أنه خبر هو والجملة خبر الكون وقوله : ﴿ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من سجيل لأن المطر لا يكون من السماء، وتوصيف الحجارة بقوله من السماء للدلالة على أن المراد بالحجارة السجيل وهو حجارة مسومة أى معلمة معدة لتعذيب قوم من العصاة. روى أنها حجارة من طين أحميت بنار جهنم مكتوب عليها أسماء القوم، فلا بد من ذكر السماء لتعيين أن المراد من الحجارة السجيل ، وهى التى أرسلت الى قوم لوط قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سَجِيلٍ مَنضُودٍ مُسَوَّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أهل مكة ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ أى فإنهم بظلمهم حقيق بأن تمطر عليهم ، وفيه وعيد لكل ظالم. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه سأل جبريل عليه السلام فقال له جبريل : يعنى ظلمي أمتك ما من ظالم منهم إلا وهو بمعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة * وقيل : الضمير للقرى أى هى قرية من ظالمى مكة يمرون بها في أسفارهم إلى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان ذكره البيضاوى في تفسيره وقوله : ﴿ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قاله أبو جهل

أو النضر أو غيره استهزاء قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ بما سألوه ﴿ وَأَنْتَ ﴾ يا محمد ﴿ فِيهِمْ ﴾ لأن العذاب إذا أنزل عم ولم تعذب أمة إلا بعد خروج نبيها منها قال تعالى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ أى كان إهلاك أهلها بعد خروج أنبيائها والمؤمنين منها ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ ﴾ أى مرید تعذيبهم ﴿ وَهُمْ يَسْتَعْفِرُونَ ﴾ حيث يقولون في طوافهم غفرانك غفرانك وقيل : هم المؤمنون المستضعفون فيهم كما قال تعالى : ﴿ لَوْ تَزِيلُوا ﴾ أى المؤمنون تميزوا عن الكفار ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ وقوله : ﴿ وَمَالَهُمْ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ بالسيف بعد خروجك والمستضعفين وقد عذبهم الله بيدر وغيره ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ ﴾ يمنعون النبي ﷺ والمسلمين ﴿ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أن يطوفوا به ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاؤُهُ ﴾ أى مستحقين ولاية أمره مع شركهم وهذا رد لما كانوا يقولونه : نحن ولاية البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء قال تعالى ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ ﴾ عن الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره : وقوله ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ كأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ويعاند أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم أى لا يعلمون أن لا ولاية لهم عليه *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ في الواحدى : حدث قره عن عطية عن ابن عمر قال : كانوا يطوفون بالبيت ويصفقون ووصف التصفيق بيده ، ويصفرون ووصف صفيرهم ويضعون حدودهم بالأرض فنزلت هذه الآية * وفي لباب السيوطى : وأخرج ابن جرير عن سعيد قال : كانت قريش يعارضون النبي ﷺ في الطواف يستهزؤن به : يصفرون ويصفقون فنزلت الآية * وفي السمين : إن المشركين كانوا إذا سمعوا رسول الله ﷺ يصلى ويتلو القرآن صفقوا بأيديهم ، وصفروا بأفواههم ليشغلوا عنه من يسمعه ويخلطوا عليه قراءته وهذا مناسب لقوله : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ وفي الطبرى : عن مجاهد قال : المكاء ادخال أصابعهم في أفواههم والتصديفة التصفيق وهم نفر من بنى عبد الدار كانوا يخلطون بذلك كله على محمد صلواته * وفيه : وعن سعيد بن جبير في قوله وما كان صلواتهم عند البيت إلا مكاء وتصديفة قال المكاء كانوا يشبكون بين أصابعهم ويصفرون بها فذلك المكاء قال : وأرأى سعيد بن جبير المكان الذى كانوا يمكنون فيه نحو أبى قبيس * وعن قتادة قال : كنا نحدث أن المكاء التصفيق بالأيدى

أو النضر أو غيره استهزأ قال تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ» بما سأله «وَأَنْتَ» يا محمد «فِيهِمْ» لَأَنَّ الْعَذَابَ إِذَا نَزَلَ عَمَّ. ولم تعذب أمة إلا بعد خروج نبيها منها، قال تعالى: «وَكَايُنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ» أي كان إهلاك أهلها بعد خروج أنبيائها والمؤمنين منها «وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ» أي مرید تعذيبهم «وَهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ» حيث يقولون في طوافهم غفرانك .. غفرانك. وقيل: هم المؤمنون المستضعفون فيهم كما قال تعالى: «لَوْ تَرَىٰ تَلَوَّا» أي المؤمنون تميزوا عن الكفار: «لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» وقوله: «وَمَا لَهُمْ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ» بالسيف بعد خروجك والمستضعفين، وقد عذبهم الله بيدرو غيره: «وَهُمْ يَصُدُّونَ» ينعون النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين «عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» أن يطوفوا به «وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ» أي مستحقين ولاية أمره مع شركهم، وهذا رد لما كانوا يقولونه: نحن ولاة البيت والحرم فصد من نشاء وتدخل من نشاء قال تعالى: «إِنَّ» ما «أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ» عن الشرك الذين لا يعبدون فيه غيره، وقوله: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» كأنه نبه بالأكثر على أن منهم من يعلم ويعاند، أو أراد به الكل كما يراد بالقلة العدم. أي لا يعلمون أن لا ولاية لهم عليه.

القول في سبب نزول قوله تعالى: «وَمَا كَانَ صَلَاةُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَضِيدَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» في الواحدي: حَدَّثَ قُرَّةٌ عَنْ عَطِيَّةَ، عَنْ ابْنِ عَمْرِو قَالَ: كَانُوا يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ وَيَصْفَقُونَ وَوَصَفَ التَّصْفِيقُ بِيَدِهِ، وَيَصْفَرُونَ صَفِيرَهُمْ، وَيَضَعُونَ خَدُودَهُمْ بِالْأَرْضِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي لِبَابِ السِّيُوطِيِّ: وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ سَعِيدِ قَالَ: كَانَتْ قَرِيشٌ يِعَارِضُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الطَّوَافِ يَسْتَهْزِؤْنَ بِهِ، وَيَصْفَرُونَ وَيَصْفَقُونَ. فَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِي السَّمِينِ: إِنَّ الْمَشْرِكِينَ كَانُوا إِذَا سَمِعُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصَلِي وَيَتْلُو الْقُرْآنَ، صَفَّقُوا بِأَيْدِيهِمْ، وَصَفَرُوا بِأَفْوَاهِهِمْ لِيُشْغَلُوا عَنْهُ مِنْ سَمْعِهِ، وَيُخَلِّطُوا عَلَيْهِ قِرَاءَتَهُ. وَهَذَا مَنَاسِبٌ لِقَوْلِهِ: «لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْفِ» فِي الطَّبْرِيِّ: عَنْ جَاهِدِ قَالَ: الْمَكَاءُ إِدْخَالُ أَصَابِعِهِمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ. وَالتَّضِيدَةُ: التَّصْفِيقُ. قَالَ: نَفَرْنَا مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ كَانُوا يَخْلُطُونَ بِذَلِكَ كُلَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ: وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ فِي قَوْلِهِ: «وَمَا كَانَ صَلَاةُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مَكَاءً وَتَضِيدَةً» قَالَ: الْمَكَاءُ: كَانُوا يَشْبِكُونَ بَيْنَ أَصَابِعِهِمْ، وَيَصْفَرُونَ بِهَا، فَذَلِكَ الْمَكَاءُ. وَقَالَ: وَأَرَانِي سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ الْمَكَانَ الَّذِي كَانُوا يَمْكُونُ فِيهِ نَحْوَ أَبِي قَبَيْسٍ. وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: كُنَّا نَحْدُثُ أَنَّ الْمَكَاءَ التَّصْفِيقُ بِالْأَيْدِي، وَالتَّضِيدَةُ صِيَاغٌ كَانُوا

يعارضون به القرآن * وعن السدى المكاء الصغير على نحو صير أبيض يقال له المكاء بأرض الحجاز والتصدية التصفيق وقد قيل في التصدية أنها الصد عن بيت الله الحرام قال أبو جعفر: وذلك قول لا وجه له لأن التصدية مصدر من قول القائل صدية تصدية وأما الصد فلا يقال منه صديت إنما يقال منه: صدت... الخ * قلت: والمكاء في اللغة فعال بوزن الثغاء والرغاء من مكا يمكوا إذا صفر ومنه المكاء كأنه سمي بذلك لكثرة مكائه والتصدية التصفيق ففعله من الصدى أو من صد يصد «إِذَا قَوْمَكَ مِنْهُ يُصُدُّونَ» قال: صداهم عن بيت الله الحرام وقال أبو يزيد: صداهم عن الصلاة وعن دين الله * وفي الخازن قال الأزهرى والمكاء والتصدية ليسا بصلاة ولكن الله سبحانه وتعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية قال حسان بن ثابت: صلاتهم التصدى والمكاء، فعلى قول ابن عباس: كان المكاء والتصدية نوع عبادة لهم وعلى قول غيره كان نوع أذى للنبي صلى الله عليه وسلم قال الخازن: وقول ابن عباس أصح لأن الله سبحانه وتعالى سمي ذلك صلاة * أي كانوا يعتقدون أن ذلك المكاء والتصدية صلاة * وعلى القول الثالث: منع الناس من التعبد في المسجد الحرام * وهذه الآية كالتعليل لقوله في الآية قبل هذه «وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ...» وقوله: «فَذُوقُوا الْعَذَابَ» بيدر، وهو عذاب القتل والأسر في الدنيا «بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» أي بسبب كفركم. وقيل: يقال لهم في الآخرة فذوقوا العذاب..

القول في سبب نزول قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» في الواحدى: قال مقاتل والكلبي: نزلت في المطعنين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً: أبو جهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ونبية ومنبه ابنا حجاج، وأبو البحتري ابن هشام، والنضر بن الحارث، وحكيم بن حزام، وأبى بن خلف، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبدالمطلب. وكلهم من قريش، وكان يطعم كل واحد كل يوم عشرة جزور * وقال سعيد بن جبير وابن أبى: نزلت في أبي سفيان بن حرب، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبي صلى الله عليه وسلم سوى من استجاب له من العرب، وفيهم يقول كعب بن مالك:

فجئنا إلى موج من البحر وسطه أحابيش منهم حاسرٌ ومقنَّعٌ
ثلاث آلاف ونحن بقيّة ثلاث مئتين إن كثرن فأربع

وقال الحكم بن عتبة: أنفق أبو سفيان على المشركين يوم أحد أربعين أوقيةً من ذهب. فنزلت فيه الآية * وقال محمد بن اسحاق عن رجاله: لَمَّا أُصِيبَتْ قريش يوم بدر فرجع فلّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بغيره، مشى عبدالله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش، أصيب أبأؤهم وأبنأؤهم وإخوانهم ببدر، فكلّسوا أبا سفيان بن حرب. ومن كانت له في تلك العير تجارة. فقالوا يا معشر قريش: إنَّ محمداً قد وتركم وقتل خياركم. فأعيثونا بهذا المال الذي أفلت على حربته لعلنا ندرك منه ثأراً بمن أصيب مئاً. ففعلوا، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية إلى قوله: «يُخَشِرُونَ» وهذه الأقوال كلها في الخازن والمراغي والغرائب والطبري. وفيه بدل قول كعب. ونحن بقيّة. ونحن نَظَّهَ.. قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي ما قلنا: وهو أن يقال إن الله أخبر عن الذين كفروا به من مشركي قريش أنهم ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله. لم يخبرنا بأى أولئك عنى، غير أنه عمّ بالخبر الذين كفروا، وجائز أن يكون عنى المنفقين أموالهم لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأحد. وجائز أن يكون عنى المنفقين منهم ذلك ببدر، وجائز أن يكون عنى الفريقين، وإذا كان ذلك كذلك فالصواب في ذلك أن يعمّ كما عمّ جلّ ثناؤه الذين كفروا من قريش أي أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب * وعليه ابن كثير: وقال الضحاك: نزلت في أهل بدر. قال ابن كثير: وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدّوا عن اتباع طريق الحق، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم، ثم تكون عليهم حسرة. أي ندامة حيث لم تُجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق، والله متمّ نوره، ولو كره الكافرون. وناصر دينه، ومعلن كلمته، ومظهر دينه على كل دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا، وهم في الآخرة عذاب النار. فن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه. ومن قُتل منهم أو مات بإلى الخزي الأبدى والعذاب السرمدى. ولهذا قال: «فَسَيُنْفِثُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخَشِرُونَ» وهكذا فسرها ابن كثير إجمالاً أما تفسيرها تفصيلاً «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا»

كَفَرُوا بِاللَّهِ أَي جحدوه وأنكروه . وأصل الكفر في اللغة : الكفر والتغطية . ومنه سمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته . قال الشاعر: في ليلة كفر النجوم غمامها . أي سترها . والكفر على أربعة أضرب : كفر إنكار، وهو أن لا يعرف الله أصلاً ككفر فرعون، هو قوله : «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي» وكفر جحود : وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقرّ بلسانه ككفر إبليس . وكفر عناد : وهو أن يعرف الله بقلبه ويقرّ بلسانه ولا يدين به ككفر أمية بن أبي الصلت وأبي طالب حيث يقول في شعره :

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ مُحَمَّدٍ
لولا الملامةُ أو حذارِ مسبّةِ
لوجدتني سمحاً بذلك مبيناً
من خيرِ أديانِ البريّةِ ديناً

وكفر نفاق : وهو أن يقر بلسانه ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه . فجميع هذه الأنواع كفر . وحاصله : أن من جحد الله ، أو أنكر وحدانيّته ، أو أنكر شيئاً ممّا أنزله على رسوله ، أو أنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو أحداً من الرسل فهو كافر، فإن مات على ذلك فهو في النار خالداً فيها . ولا يغير الله له . ولفظ كفروا عام يشمل كفار مكة ومشركي أهل الكتاب، ومن على شاكلتهما من حين نزولها حتى يوم الدين ، وقوله : «يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ» في حرب النبي صلى الله عليه وسلم «لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أي ليصرفوا الناس عن الإيمان بالله ورسوله . وقيل : ينفقون أموالهم على أمثالهم من المشركين ليتفقوا بهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . وقد وقفت على الأقوال في سبب نزول الآية «فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ» في عاقبة الأمر «عليهم حَسْرَةٌ» ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه . أي فسيعلمون عاقبة إنفاقها من الخيبة وعدم الظفر بالمقصود ، فحصلت المغايرة «ثُمَّ يُغْلَبُونَ» في الدنيا ، ولا يظفرون بما يؤملون «وَالَّذِينَ كَفَرُوا» أي منهم لأن منهم من أسلم . ولهذا قال : والذين كفروا ، يعنى المنفقين أموالهم «إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» أي يساقون إلى النار .

القول في سبب نزول قوله تعالى : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف ، فأنزل الله «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ...» الآية * وفي البيضاوي : وذلك أنهم لما

بلغوا الجحفة، وافاهم رسول أبي سفيان وقال لهم: إرجعوا فقد سلمت غيركم، فقال أبو جهل: لا والله حتى نقدم بدرأ، ونشرب بها الخمر... * وفي الخازن: نزلت هذه الآية في كفار قريش حين خرجوا إلى بدر، ولهم فخر وبغى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني به * قال ابن عباس: إن أبا سفيان لما رأى أنه قد أحرز غيره أرسل إلى قريش إنكم إن خرجتم لتمنعوا غيركم ورحالكم وأموالكم فقد نجاها الله، فارجعوا. فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرأ، وكان في بدر موسم من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق في كل عام. قال: فنقيم عليها ثلاثاً، وننحر الجزور ونطعم الطعام. ونسقى الخمر، وتعزف عليها القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً فامضوا. زاد غيره. قال: فلما أفوا بدرأ سقوا كؤس الحمام عوضاً عن الخمر، وناحت عليهم النوايح مكان القيان، فبنى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم * أي بطرين طرين مرثين بأعمالهم. وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله عز وجل مخلصين أعمالهم له * وكذا في بقية التفاسير * قوله: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ» كفار مكة ليمنعوا غيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها خرجوا حال كونهم «بَطْرًا» الْبَطْرُ وَالْأَشْرُ (بفتحين) الطغيان في النعمة بترك شكرها، وجعلها وسيلة إلى ما لا يرضاه الله. وقيل: معناها الفخر بالنعمة ومقابلتها بالتكبر والخيلاء والفخر بها (زاده وشهاب) وفي الحديث: (لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بَطْرًا) وفي الحديث: (الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ) هو أن يجعل ما جعله الله حقاً من توحيده وعبادته باطلاً. وفي رواية ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَعَمَطُ النَّاسِ) وحال كونهم «وَرِثَاءَ النَّاسِ» حيث قالوا: لا نرجع حتى نشرب الخمر، وننحر الجزور، وتضرب علينا القيان ببدر فيتسامع بذلك النَّاسُ فيثتوا علينا بالشجاعة والسماحة، وهذا هو رياؤهم «وَيَصُدُّونَ» النَّاسِ «عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» أي يمتنون الناس عن الدخول في دين الله «وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» فيه وعيد وتهديد أي إنه تعالى عالم بجميع الأشياء لا يخفى عن علمه شيء لأنه محيط بأعمال العباد كلها فيجازى المحسنين ويعاقب المسيئين.

والخلاصة: وصف الله تعالى كفار مكة بثلاثة صفات:

أولها : البطر وهو الطغيان في النعمة ، وعليه قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ »
أن رآه استغنى» والتحقق أن النعم إذا كثرت من الله على العبد. فإن صرفها إلى مرضاته، وعرف حق الله فيها. فذاك هو الشكر، وإن توّسل بها إلى المفاخرة على الأقران والمكاثرة على أبناء الزمان فذاك هو البطر.
وثانيها : رياء الناس، وهو القصد إلى إظهار الجميل مع قبح النية وفساد الطوية، أو هو إظهار الطاعة مع إبطان المعصية كالنفاق.
وثالثها : ويصدون الناس عن الدخول في دين محمد صلى الله عليه وسلم وهذه أقبحها صفة، وأعظمها عقوبة.

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ الأنفال آية (٤٩) .

في الطبري قال : حدثنا محمد بن المنثري . قال : ثنا عبد الأعلى ، قال : ثنا داود عن عامر في هذه الآية : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ .. ﴾ قال : كان ناس من أهل مكة ، تكلموا بالإسلام ، فخرجوا مع المشركين يوم بدر ، فلما رأوا قلة المسلمين . قالوا : غر هؤلاء دينهم * . وعن مجاهد قال : فئة من قريش : الوليد بن المغيرة ، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة ، والحارث بن زمة بن الأسود بن المطلب ، وعلى بن أمية بن خلف ، والعاصي بن منبه بن الحجاج . خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياح ، فحبسهم ارتياحهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : غر هؤلاء دينهم حتى قدموا على ما قدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم * وذكر أقوالاً غير هذين القولين لا تخرج عن معنيهما . أى أن المنافقين الذين كانوا بالمدينة . والذين في قلوبهم مرض ، وهم ضعفاء المسلمين الذين لم يقو إسلامهم الكائنون بمكة خرجوا مع قريش . فلما رأوا قلة المسلمين ، وكثرة الكفار ارتدوا ورجعوا إلى الكفر . وماتوا عليه ، لكن المنافقين لم يخرجوا مع النبي ﷺ إلى بدر إذ لم يحضر وقعتها منافق إلا واحد وهو عبد الله بن أبي على التحقيق . والذين في قلوبهم مرض . يجوز أن يكون من صفة المنافقين . وأن يراد قوم من قريش أسلموا ، وما قوى الإسلام في قلوبهم ، ولم يهاجروا . ثم إن قريشا لما خرجوا إلى رسول الله ﷺ . قال أولئك نخرج مع قومنا . فإن كان محمد في كثرة خرجنا إليه . وإن كان في قلة أقمنا في قومنا . قال محمد بن اسحاق ، ثم قتلوا جميعاً مع المشركين يوم بدر . وقوله : ﴿ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ قال ابن عباس : معناه أنه خرج بثلاثمائة وثلاثة عشر إلى زهاء ألف ، وما ذلك إلا أنهم اعتمدوا على دينهم * كذا في الغرائب . وقيل : المراد إن هؤلاء يسعون في قتل أنفسهم رجاء أن يجعلوا أحياء بعد الموت ، ثم قال جواباً لهم : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ يكل أمره إليه . ويتق بفضله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب . يسلط الضعيف القليل على القوى الكثير ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يوصل العذاب إلى أهله والرحمة إلى أوليائه * وفي ابن كثير : قال عليُّ وقلل المشركين في أعين المسلمين . فقال المشركون : غر هؤلاء دينهم . وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم . فظنوا أنهم سيهزمون لا يشكون في ذلك * وقال قتادة : رأوا عصابة من المؤمنين تشددت لأمر الله . وذكر لنا أن أبا جهل عدو الله

لما أشرف على محمد ﷺ وأصحابه قال : والله لا يعبد الله بعد اليوم قسوةً وَعُتُوًّا * أما التفسير ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ النِّفَاقُ بالكسر . فعل المنافق . والنفاق : الدخول في الإسلام من وجه والخروج من آخر . مشتق من نافقاء اليربوع ، لحجرته بابان إذا قصد من أحدهما خرج من الآخر . وكلمة منافق . إسلامية لم تكن معروفة ولا مستعملة في الجاهلية ، وهو الذى يستركفره ويظهر إيمانه ، وفي حديث حنظلة « نَافِقٌ حنظلة » أراد أنه إذا كان عند النبي ﷺ أخلص وزهد في الدنيا . وإذا خرج عنه ترك ما كان عليه ورغب فيها ، فكأنه نوع من الظاهر والباطن ما كان يرضى أن يسامح به نفسه . وفي الحديث أكثر منافقى هذه الأمة قُرَاؤُهَا . أراد بالنفاق هنا الرِّبَاءَ لأن كليهما إظهار غير ما فى الباطن . أى ذكر قول منافقى أهل المدينة ﴿ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ ضعف اعتقاد . يجوز أن يكون من المرض من صفة المنافقين ، وهو مرض الشك الذى دخلهم فى الإسلام . وأن يراد الذين هم على حرف ليسوا بثابتى الأقدام فى الإسلام ، وعن الحسن : المشركون . وقوله : ﴿ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ يعنون أن المسلمين اغتروا بدينهم . وأنهم يتقوون به ، وينصرون من أجله ، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف كما تقدم . دينهم فاعل غر . أى غر هؤلاء المسلمين دينهم . إذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجمع الكثير توها أنهم ينصرون بسبب دينهم . قال تعالى فى جوابهم ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ يثق به يغلب ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب على أمره ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى صنعه *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فإِذَا تَلَقَّوْنَهُمْ فى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرْنَ ﴾ فى لباب السيوطى : أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبیر قال : نزلت : إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ .. فى ستة رهط من اليهود فىهم * ابن التابوت . وفى الخازن : قال المفسرون : إن رسول الله ﷺ كان عاهد يهود بنى قريظة أن لا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه . فنقضوا العهد . وأعانوا مشركى مكة بالسلاح على قتال رسول الله ﷺ . وأصحابه . ثم قالوا : نسينا وأخطأنا . فعاهدتهم الثانية ، فنقضوا العهد أيضا . ومالوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق . وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فوافقهم على مخالفة رسول الله ﷺ ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ يعنى أنهم لا يخافون الله فى نقض العهد أى لا يخافون عاقبة الغدر ولا يبالون ما فيه من العار والنار * وفى الغرائب قال ابن عباس : هم بنو قريظة نقضوا

عهد رسول الله ﷺ . وأعانوا عليه المشركين بالسلاح يوم بدر ، وقالوا قد نسينا . وأخطأنا ، ثم عاهدوا فنكثوا . وأعانوا عليه يوم الخندق * وقال مجاهد : نزلت في يهود المدينة وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف ، وهو فهم كأبي جهل في مشركي مكة . * ولعل هذا القول أصحها لموافقة معناه لمدلول الآية . أما التفسير : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ الشر : السوء والفعل للرجل الشرير . وقوم أشرار ضد الأخيار . وفي حديث الدعاء . والخير كله بيدك والشر ليس إليك * أى لأن الشر لا يتقرب به إليك ولا يتغنى به وجهك . أو أن الشر لا يصعد إليك وإنما يصعد إليك الطيب من القول والعمل : وهذا كلام إرشاد إلى استعمال الأدب في الثناء على الله . وفي الحديث : ولد الزناشر الثلاثة قيل : هذا جاء في رجل بعينه كان موسوماً بالشر . قال الجوهري : ولا يقال أشر الناس إلا في لغة رديئة . والداية : اسم لمادب من الحيوان على الأرض مميزة وغير مميزة . وفي التنزيل ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى إن شر ما يدب على وجه الأرض في حكم الله وعدله هم الكافرون الذين اجتمعت فيهم صفات :

الصفة الأولى : الإصرار على الكفر والرسوخ فيه بحيث لا يرجى إيمان جملتهم أو إيمان جمهورهم . لأنهم إما رؤساء حاسدون للرسول ﷺ معاندون له جاحدون بآياته المؤيدة لرسالته على علم منهم . وفيهم يقول سبحانه : ﴿ يَغْرُقُونَ كَمَا يَغْرُقُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ وإما مقلدون جاحدون لا ينظرون في الدلائل والآيات . وقد لقبهم الله بالدواب . وهو اللفظ الذى غلب استعماله في ذوات الأربع لافادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط . بل هم أضل من العجماوات . لأن لها منافع . وهؤلاء لا خير فيهم . ولا نفع لغيرهم منهم كما قال تعالى في أمثالهم : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ لذا نفى الإيمان عنهم ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الصفة الثانية : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ .. ﴾ الآية التعبير بنقض العهد بصيغة المضارع لافادة تكرير نقض العهد منهم مرة أخرى . وقد كان النبي ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرتهم إليهم عهداً أقرهم فيه على دينهم ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم .

فنفض كل منهم عهده وقد علمت نقض بنى قريظة العهد مرتين كما ذكره ابن عباس وغيره وقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ أى لا يخافون الله ولا يتقونه فى نقض العهد ، ولا فيما قد يترتب عليه من قبلهم والظفر بهم . وقوله : ﴿ فَإِذَا تَثَقَّفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾ يعنى : فإما تجدن هؤلاء الذين نقضوا العهد وتظفرون بهم فى الحرب ﴿ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ حَلَفَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : معناه فنكل بهم من ورائهم * وقال سعيد بن جبير : أندر بهم من خلفهم * وأصل التشريد فى اللغة التفريق مع اضطراب . ومعنى الآية أنك إذا ظفرت بهؤلاء الكفار الذين نقضوا العهد فافعل بهم من القتل والتنكيل ماتفرق به جمع كل ناقض للعهد حتى يخافك من ورائهم من أهل مكة واليمن ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴾ أن انتقامهم ذلك يمنهم من نقض العهد فيتعضون بما يقع لهم *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَبِيذُ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ فى اللباب : روى أبو الشيخ عن ابن شهاب قال : دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال : قد وضعت السلاح . ومازلت فى طلب القوم ، فاخرج فإن الله قد أذن لك فى قريظة ، وأنزل فيهم . ﴿ وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ... ﴾ الآية * وهو قول مجاهد كما فى الطبرى وغيره . ولم أر أقوالا أخرى غيره فى بقية التفاسير . ﴿ وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ ﴾ عاهدوك ﴿ خِيَانَةً ﴾ فى عهد بأمانة تلوح لك كما ظهرت من بنى قريظة والنضير ﴿ فَأَبِيذُ ﴾ اطرح عهدهم . النبذ : الطرح . وهو مجاز عن اعلامهم بأن لا عهد لهم بعد اليوم . فشبه العهد بالشيء الذى يرقى لعدم الرغبة فيه وأثبت التبدل له تحيلاً . ومفعوله محذوف وهو عهدهم . (الشهاب) وقوله : ﴿ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ يعنى على طريق ظاهر مستو . والمراد : لا تخاربهم قبل أن تعلمهم أنك فسخت العهد الذى بينك وبينهم حتى تكون أنت وهو فى العلم بنقض العهد سواء . فلا يتوهوا أنك نقضت العهد بنصب الحرب عليهم . ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ إن الخيانة مبغوضة . بجميع ضرورها ، ولا وسيلة لاتقاء ضررها من الكفار إذا ظهرت أماراتها إلا بنبذ عهدهم جهرة . روى البيهقى أن النبى ﷺ قال : « ثلاثة المسلم والكافر فيمن سواء من عاهدته فوقى بعهده مسلما كان أو كافراً فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها . مسلما كان أو كافراً . ومن ائتمنتك على أمانة فأدأها إليه مسلما

كان أو كافرا» (المراغبي) . وقال أهل العلم : إذا ظهرت آثار نقض العهد من هادئهم الإمام من المشركين بأمر ظاهر مستفيض استغنى الإمام عن نبد العهد وإعلامهم بالحرب ، وإن ظهرت الخيانة بأمارات تلوح وتتضح له من غير أمر مستفيض فحينئذ يجب على الإمام أن ينبذ إليهم العهد ، ويعلمهم بالحرب . وذلك لأن قريظة كانوا قد عاهدوا النبي ﷺ . ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرهم على رسول الله ﷺ فحصل لرسول الله ﷺ خوف الغدر به وبأصحابه . فهنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم على سواء ويعلمهم بالحرب . وأما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً فلا حاجة للإمام إلى نبد العهد ، بل يفعل كما فعل رسول الله ﷺ بأهل مكة لما نقضوا العهد بقتل خزاعة . وهم في ذمة رسول الله ﷺ . فلم يرعهم إلا وجيش رسول الله ﷺ بمر الظهران . وذلك على أربع فراسخ من مكة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ في الواحدى : روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً ، ثم إن عمر أسلم . فصاروا أربعين ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وفي الباب : وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال : لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ، ثم أسلم عمر نزلت ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ... ﴾ الآية . وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال : لما أسلم عمر أنزل الله في إسلامه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ .. ﴾ الآية * وفي مجمع الزوائد : عن ابن عباس قال : أسلم مع النبي ﷺ تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة وأسلم عمر تمام الأربعين فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ .. ﴾ الآية قال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه اسحق بن بشر الكاهلي وهو كذاب * وعلى هذا القول في إسلام عمر تكون الآية مكية لأنه أسلم بمكة كتبت في سورة مدنية بأمر رسول الله ﷺ . وفي الكشف والحاظن نزلت بالبيداء في غزوة بدر قبل القتال . فعلى هذا القول أراد جل جلاله بقوله : ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني إلى غزوة بدر * وقيل : أراد بهم الأنصار . فتكون الآية نزلت بالمدينة . وقيل : أراد جميع المهاجرين والأنصار . ولا سيما من شهد منهم

بدرأ أما التفسير: «يا أيها النبي حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أي يكفيك الله ويكفي من اتبعك . أي كافيتهم ما يهيمهم من أمر أعدائهم وناصرهم عليهم . ونحو الآية قوله تعالى: «الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» وقوله تعالى: «قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ» وقوله تعالى: ﴿ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا ﴾ وإذا كان دأب المؤمنين أن يقولوا: ﴿ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ فأجدر بأنبيائه أن يكونوا أكمل توحيدا وتوكلا عليه من غيرهم . ولا سيما خاتم المرسلين عليه وعليهم أفضل الصلوات وأتم التسليم *

القول في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

في لباب السيوطي: أخرج اسحق بن راهوية في مسنده عن ابن عباس قال: لما افترض عليهم أن يقاتل الواحد منهم عشرة ثقل ذلك عليهم . وشق فوضع الله عنهم إلى أن يقاتل الواحد الرجلين . فأنزل: ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ .. ﴾ * قلت: وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ» فكتب عليهم أن لا يفرَّ واحد من عشرة فقال سفيان غير مرة: أن لا يفر عشرون من مائتين ، ثم نزلت: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ .. ﴾ الآية . فكتب أن لا يفر مائة من مائتين ، وزاد سفيان مرة . نزلت: ﴿ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ ﴾ قال سفيان: وقال ابن شبرمة ، وأرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا * سفيان: هو ابن عينية . قوله: غير مرة أراد به أن سفيان كان يرويه بالمعنى . فتارة يقول باللفظ الذي وقع في القرآن محافظة على التلاوة وهو الأكثر وتارة يرويه بالمعنى وهو أن لا يفرَّ واحد من عشرة ، ويحتمل أن يكون اسمه باللفظين ، ويكون التأويل من غيره . وقوله: زاد

سفيان . أى أنه حدّث مرة بالزيادة ومرة بدونها . وابن شبرمة : عبد الله التابعى . قاضى الكوفة وعالمها ، مات سنة أربع وأربعين ومائة . وأخرج أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفرّ واحد من عشرة فجاء التّخفيف ، فقال : (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعيفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) قال : فلما خفف الله عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم ، كذا روى البخارى هاتين الروایتين بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما . والآية وإن كانت بلفظ الخبر . ولكن المراد منه الأمر ، فلذلك دخلها النسخ لأنه لما شق ذلك عليهم حظ الفرض إلى ثبوت الواحد للثنتين ، فهو على هذا تخفيف لا نسخ . وقال القاضى أبو بكر بن الطيب : إن الحكم إذا نسخ بعضه ، أو بعض أوصافه . أو غير عدده فجائز أن يقال إنه نسخ ، لأنه حيثئذ ليس بالأول بل هو غيره * وقد نص مقاتل على أنه كان بعد بدر * والآية متعلقة بأنهم كانوا يفقهون ما يقاتلون ، وهو الثواب . والكفار لا يفقهونه . وقيل : إنهم كانوا فى أول الإسلام قليلا فلما كثروا خفف . ثم هذا فى حقا . وأما سيدنا رسول الله ﷺ فيجب عليه مصابرة العدو الكثير لأنه موعود بالنصر كامل القوة . وفى مجمع الزوائد عن ابن عباس قال : افترض عليهم أن يقاتل كل رجل منهم عشرة ، فتقل ذلك عليهم ، وشق عليهم ، فوضع عنهم إلى أن يقاتل الرجل الرجلين . فأنزل الله فى ذلك : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ﴾ إلى آخر الآيات . وكذا بقية الأقوال فى التفاسير لا تخرج عن هذا المعنى . أما التفسير : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ﴾ التحريض فى اللغة الحث على الشئ بكثرة الترغيب وتسهيل الخطب فيه كأنه فى الأصل إزالة الحرض . وهو الهلاك . وفى المختار والتحريض على القتال الحث والاحماء عليه * أى يا أيها النبى حث ﴿المؤمنين على القتال﴾ للكفار ورجبهم فيه وإعلاء لكلمة الله ودفعاً لعدوانهم لأن حق الدفاع عن الدين والنفس والعرض والوطن واجب قوله : ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ﴾ منهم ، والصبر كناية عن القوة والشجاعة . أى ليصابرن الواحد العشرة ، فجماعة المؤمنين الصابرين ترجح جماعة الكافرين بهذه النسبة العشرية . سواء قتلوا أو كثروا بحيث يؤمرون بقتلهم وعدم الفرار

منهم إذا بدؤهم بالقتال . والسبب في ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أي أنتم تغلبونهم بهذه النسبة . ثم نسخ لما كثروا بقوله : ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ بالضم والفتح — عن قتال عشرة أمثالكم — قال الخطيب : فإن قيل حاصل هذه العبارة المطولة أن الواحد يثبت للعشرة ، فما الفائدة في العدول إلى هذه العبارة المطولة ؟ أجيب بأن هذا إيماء ورد على وفق الواقعة . فكان رسول الله ﷺ يبعث السرايا . والغالب أن تلك السرايا ما كان ينقص عددها عن العشرين ، وما كانت تزيد على المائة . فلهذا المعنى ذكر الله هذين العددين * ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ منهم ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته . وهو خبر

كما تقدم بمعنى الأمر أي لتقاتلوا مثليكم ولتثبتوا لهم ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بعونه ونصره . وبمعنى الآية قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وفي هذا تحذير للمؤمنين أن يغتروا بدينهم . ويظنوا أن الإيمان وحده يقتضى النصر والغلب ، وإن لم يقترن بالصفات اللازمة لكماله ، ومن أهمها وأعظمها الصبر المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا .. ﴾ أي كونوا أشد صبرا من عدوكم على تحمل الشدائد ، وأهوال الحرب . فإنه لا يظفر بها إلا الشجعان من الرجال المتحلين بصفتي الإيمان والصبر *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْأَرْضِ تُسْرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ في الواحدى : قال مجاهد : كان عمر يرى رأى فيوافق رأيه ما يجيء من السماء وإن رسول الله ﷺ استشار في أسارى بدر ، فقال المسلمون : بنو عمك أفدهم ، قال عمر : لا يارسول الله اقتلهم . نزلت هذه الآية . ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ .. ﴾ وقال ابن عمر : استشار رسول الله ﷺ في الأسارى أبا بكر : فقال : قومك وعشيرتك خل سبيلهم ، واستشار عمر فقال : اقتلهم ففاداهم رسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى .. ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ * وأخرج

مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر ، والتقوا فهزم الله المشركين ، وقتل منهم سبعون رجلاً ، وأسر سبعون رجلاً ، استشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعلياً ، فقال أبو بكر يارسول الله : هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون مأخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله ، فيكونوا لنا عضداً ، فقال رسول الله ﷺ : ماترى يا ابن الخطاب ؟ قال : قلت والله ما أرى رأى أبو بكر . ولكن أن تمكني من ثلاثة قريب لعمر . فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان : أخيه فيضرب عنقه حتى يعلم الله عز وجل أنه ليس في قلوبنا مادة للمشركين . هؤلاء صنائدهم وأئمتهم وقادتهم ، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر . ولم يهو ما قلت ، فأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد قال عمر : غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق . وإذا هما يكيان . فقلت يارسول الله : أخبرني ماذا يكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاءً تباكيت . فقال النبي ﷺ : أبكى للذي عرض على أصحابك من الفداء ، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة : لشجرة قرية . وأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُفْخَنَ فِي الْأَرْضِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ مِنْ الْفِدَاءِ — عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ * وفي لباب السيوطي : وروى الإمام أحمد وغيره عن أنس قال : استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر . فقال : إن الله أمكنكم منهم ، فقام عمر بن الخطاب ، فقال يارسول الله : اضرب أعناقهم ، فأعرض ، فقام أبو بكر فقال : ترى أن تغفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فأنزل الله : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ .. ﴾ الآية * وأخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : لم تحل الغنائم لأحد من قبلكم ، كانت تنزل نار من السماء فتأكلها ، فلما كان يوم بدر واختلفوا في الغنائم قبل أن تحل لهم فأنزل الله : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ * وأخرج الحاكم النيسابوري في مستدركه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : استشار رسول الله ﷺ في الأسارى أبا بكر . فقال : قومك وعشيرتك

فحلّ سبيلهم ، فاستشار عمر فقال اقتلهم ، قال : ففداهم رسول الله ﷺ . فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً ﴾ قال : فلقى النبي ﷺ عمر . قال : كاد أن يصيبنا في خلافتك بلاء * قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأقره الذهبي أنه على شرط مسلم * وفي الخازن : روى عن عبد الله بن مسعود قال : لما كان يوم بدر . وجيء بالأسرى . قال رسول الله ﷺ : ماتقولون في هؤلاء ؟ فقال أبو بكر يارسول الله : قومك وأهلك استبقهم واستأذن بهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار ، وقال عمر يارسول الله : كذبوك وأخرجوك فدعهم نضرب أعناقهم . مكن علياً من عقيل فيضرب عنقه ، ومكن حمزة من العباس فيضرب عنقه ، ومكن من فلان : نسيب لعمر فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وقال عبد الله بن رواحة يارسول الله : وادياً كثير الخطب ، فأدخلهم فيه ، ثم أضرمه عليهم ناراً ، فقال له العباس : قطعت رحمتك . فسكت رسول الله ﷺ فلم يجيبهم ، ثم دخل فقال ناسٌ : يأخذ بقول أبي بكر . وقال ناسٌ : يأخذ بقول عمر . وقال قوم : يأخذ بقول ابن رواحة ، ثم خرج رسول الله ﷺ . فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، ويشد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وأن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال : فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم * ومثلك يا عمر . مثل نوح . قال رب لا تنذر على الأرض من الكافرين دياراً . ومثلك يا عبد الله بن رواحة كمثلك موسى قال ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . ثم قال رسول الله ﷺ : اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء ، أو ضرب عنق . قال عبد الله بن مسعود : إلا سهل بن بيضاء . فإني سمعته يذكر الإسلام فسكت رسول الله ﷺ . قال : فما أريتنى في يوم أخوف أن تقع عليّ الحجارة من السماء من ذلك اليوم حتى قال رسول الله ﷺ : إلا سهل بن بيضاء ، قال ابن عباس : قال عمر بن الخطاب فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر وأخذ منهم الفداء ، فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان

بيكيان ، فقلت يا رسول الله : أخبرني من أى شىء تبكي أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاءً بكيت الخ .. ماتقدم قال الخازن : أخرج هذا الحديث الترمذى مختصراً ، وقال فى الحديث قصة ، وهى هذه القصة التى ذكرها البغوى * ولا تخرج بقية الأقوال فى التفاسير عما ذكر . أما التفسير : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ ﴾ أى ما كان ينبغى ولا يجب لنبى ذلك ، فلا يكون لك يا محمد ﴿ أَنْ يَكُونَ ﴾ بالتاء والياء ﴿ لَهُ أُسْرَى ﴾ حرب ﴿ حَتَّى يُبَخِّنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى يبلغ فى قتل الكفار وأنت لم تبلغ إذ ذاك فقتلهم حينئذ أولى وأليق ﴿ تُرِيدُونَ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ حقيرها بأخذ الفداء . وسميت منافع الدنيا عرضاً لأنها لا ثابت لها ، ولا دوام ، فكأنها تعرض ، ثم تزول ، ولهذا سمى المتكلمون الأعراض أعراضاً لأنها لا ثابت لها ، فإنها تطراً على الأجسام ، ثم تزول عنها ﴿ وَاللَّهُ يَرِيدُ ﴾ لكم ﴿ الْآخِرَةَ ﴾ أى ثوابها بقتلهم ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وهذا منسوخ بقوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَثًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ ﴾ باحلال الغنائم والأسرى لكم كما هو مكتوب ومثبت فى اللوح المحفوظ ﴿ لَمَسَّكُمْ ﴾ أصابكم ﴿ فِيمَا أَخَذْتُمْ ﴾ من الفداء . فى القرطبى أن الفداء كان أربعين أوقية من الذهب عن كل واحد من الأسرى إلا العباس فكان فداؤه مضاعفاً . أى ثمانين أوقية من الذهب ﴿ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً ﴾ فقد أباحها لكم خاصة ، ولم تبح إلى من كان قبلكم ... أى كلوا أكلاً حلالاً ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى وخافوا الله أن تعودوا ، وأن تفعلوا شيئاً من قبل أنفسكم قبل أن تؤمروا به . واعلموا أن الله قد غفر لكم ما أقدمتم عليه من هذا الذنب . ورحمكم . وقيل فى قوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ إشارة إلى المستقبل ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ إشارة إلى الحالة الماضية .*

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَتْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فى الواحدى: قال الكلبى: نزلت فى العباس بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبى طالب ، ونوفل بن الحرث ، وكان العباس أسرى يوم بدر ، ومعه عشرون أوقية من الذهب ، كان خرج بها معه إلى بدر ليطعم بها الناس ، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا إطعام أهل

بدر ، ولم يكن بلغته النبوة حتى أسر ، فأخذت معه ، وأخذها رسول الله ﷺ منه ، قال : فكلمت رسول الله ﷺ أن يجعل لي العشرين الأوقية الذهب التي أخذها مني من فدائي ، فأبى عليّ وقال : أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا ، وكفنتني فداء ابن أخي عقيل بن أبي طالب عشرين أوقية من فضة ، فقلت له : تركنتي والله أسأل قريشاً بكفى ، والناس ما بقيت . قال : وأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل مخرجك إلى بدر . وقلت لها : إن حدث بي حدث في وجهي هذا فهو لك ولعبد الله والفضل وقم ، قال : قلت وما يدريك ؟ قال : أخبرني الله في ذلك . قال : أشهد أنك لصادق . وإني قد دفعت لها ذهباً ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله . وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، قال العباس : فأعطاني الله خيراً ممّا أخذ مني كما قال : عشرين عبداً كلهم يضرب بمال كبير . مكان العشرين أوقية ، وأنا أرجو المغفرة من ربي * وفي المراغي : روى أبو الشيخ عن ابن عباس : أن العباس وأصحابه قالوا للنبي ﷺ : آمنة بما جئت به . ونشهد أنك رسول الله فنزل : ﴿ إِنَّ يَعلَمُ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً .. ﴾ الآية * وفي مجمع الزوائد : فقال العباس : في والله نزلت حين أخبرت رسول الله ﷺ بإسلامي ، وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي وجدت معي . فأعطاني بها عشرين عبداً كلهم تاجر بمال في يده مع ما أرجو من مغفرة الله جل ذكره . قال الهيثمي : في الصحيح بعضه — رواه الطبراني في الأوسط والكبير باختصار ، ورجال الأوسط رجال الصحيح غير ابن اسحاق وقد صرح بالسماع . وهكذا بقية الأقوال : أمّا التفسير : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ﴾ وفي قراءة من الأسارى . جمع أسرى ، جمع أسير ، فهو جمع الجمع . يعنى الذين أسرتوهم يوم بدر وأخذتم منهم الفداء ، والخطاب موجه لجميعهم ﴿ إِنَّ يَعلَمُ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً ﴾ أى إيماناً وتصديقاً وإخلاصاً ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ﴾ من الفداء ، بأن يضاعفه لكم في الدنيا ويثيبكم في الآخرة ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ عما وقع منهم قبل إسلامهم ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم إذ قبلهم . أو يغفر لكم ما كان من الشرك ، وما استتبعه من السيئات والأوزار ، والله غفور لمن تاب من كفره وذنوبه ، رحيم بالمؤمنين فيشملهم بعنايته وتوفيقه ، ويعدهم للسعادة في الدنيا والآخرة *

بِغَضٍ ... ﴿ الآية . وأخرج ابن سعد من طريق هشام بن عروة عن أبيه قال : ألقى الرسول عليه الصلاة والسلام بين الزبير بن العوام وبين كعب بن مالك . قال الزبير : لقد رأيت كعباً أصابته الجراحة بأحد . فقلت لو مات فانقلع عن الدنيا وأهلها لورثته ، فنزلت هذه الآية . ﴿ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ فصارت الموارث بعد للأرحام والقربات . وانقطعت تلك الموارث في المؤاخاة * وفي الخازن : قال ابن عباس : كانوا يتوارثون بالهجرة والاخاء حتى نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ .. ﴾ أى في الميراث فيبين بهذه الآية أن سبب القرابة أقوى . وأولى من سبب الهجرة والاخاء ، ونسخ بهذه الآية ذلك التوارث . وقوله : ﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ في حكم الله . وقيل : أراد به اللوح المحفوظ . وقيل : أراد به القرآن ، وهى أن قسمة الموارث المذكورة في سورة النساء من كتاب الله ، وهو القرآن : وتمسك أبو حنيفة بهذه الآية في توريث ذوى الأرحام . وأجاب عنه الإمام الشافعى رضى الله عنه بأنه لما قال : في كتاب الله كان معناه في حكم الله الذى بينه في سورة النساء ، فصارت هذه الآية مقيدة بالأحكام التى ذكرها في سورة النساء من قسمة الموارث . وإعطاء أهل الفروض فروضهم . ومابقى فللعصبات * وفي مجمع الزوائد : عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ آخى بين أصحابه فجعلوا يتوارثون بذلك حتى نزلت : ﴿ وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ فتوارثوا بالنسب * رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح . والخلاصة : إن القريب ذا الرحم أولى من غيره من المؤمنين بولاء قريبه ، وبره ومقدم عليه في جميع الولايات المتعلقة به كولاية النكاح وصلاة الجنازة وغيرها . وإذا وجد قريب وبعيد يستحقان البر والصلة . فالقريب أولى كما قال تعالى : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِالْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ومنه حكمة الموارث . أى التوارث بمقتضى الإيمان والهجرة ولو بدون قرابة الذى قد نسخ بهذه الآية *

سورة براء وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَثُرُوا أَيَّمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَلِئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ في الواحدى : قال

ابن عباس : نزلت في أبي سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبي جهل . وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد ، وهموا بإخراج الرسول * وكذا في الخازن . وقال مجاهد : هم فارس والروم * وقال حذيفة بن اليمان : ما قوتل أهل هذه الآية بعد ، ولم يأت أهلها * ولعل حذيفة أراد بذلك الذين يظهرون مع الدجال من اليهود ، فإنهم أئمة الكفر في ذلك الزمان . قلت : والأول أصح أخرج الحاكم في مستدركه عن ابن عمر رضی الله عنهما في قوله : فقاتلوا أئمة الكفر . قال : أبو جهل بن هشام وأمّية بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وأبو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو ، وهم الذين نكثوا عهد الله ، وهموا بإخراج الرسول من مكة . قال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبي . وليس في التفاسير أقوال غير ما ذكرت ، والأولى أن يقال إن الآية عامة لهم ولغيرهم . لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . أما التفسير : ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ﴾ أى نقضوا عهودهم . مثل نقضهم صلح الحديبية ﴿ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ ﴾ أى من بعد ما عاهدوكم عليه أن لا يقاتلوكم ، ولا يظاهروا عليكم أحداً من أعدائكم ﴿ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ عابوه واستهزؤا به وصدوا الناس عنه . ومن ذلك الطعن في القرآن وفي النبي ﷺ كما كان يفعل شعراؤهم الذين أهدر النبي ﷺ دماءهم ﴿ فَقاتلوا ﴾ هم ﴿ أئمة الكفر ﴾ وحملة لوائه المقدمون على غيرهم بزعمهم ، فهم الأجدر بالقتل والقتال ﴿ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ أى لا عهوا لهم . فهي مخادعة لسانية لا يقصد الوفاء بها كما قال سبحانه ﴿ يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ فما أسرع ما تنقض إذا وجدت الفرصة سانحة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ عن الكفر . ومما يؤيد صحة القول الأول الآية التي تلي هذه الآية ﴿ أَلَا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ﴾ حيث قاتلوا خزاعة حلفاءكم مع بنى بكر فما يمنعكم أن تقاتلوهم ﴿ أتخشونهم فالله أحق أن تحشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ * وهم الذين أنزل الله فيهم ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله ﴾ بقتلهم ﴿ بأيديكم ويخزهم ﴾ يذلهم بالأسر والقهر ﴿ وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ بما فعل بهم . هم بنو خزاعة . أخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في خزاعة حين جعلوا يقتلون بنى بكر

بمكة * وأخرج عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية في خزاعة حلفاء النبي ﷺ . يشف صدورهم من بكر . (الباب) *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ قال المفسرون : لما أسر العباس يوم بدر أقبل عليه المسلمون فعيروه بكفره بالله وقطيعة الرحم ، وأغلظ علي له القول . فقال العباس : مالكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسنا ، فقال له علي : ألكم محاسن ؟ قال : نعم . إنا لنعمر المسجد الحرام . ونحجب الكعبة ونسقي الحاج ، ونفك العاني . فأنزل الله عز وجل ردا على العباس : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ .. ﴾ الآية (الواحدي) وفي لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قال العباس حين أسر يوم بدر : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد . لقد كنا نعمر المساجد ونسقي الحاج ونفك العاني . فأنزل الله : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ .. ﴾ الآية ومعنى نحجب الكعبة . أى نخدمها . ونفك العاني : يعني الأسير . (الخانن) وفي الغرائب : عن النعمان بن بشير ، قال كنت عند منبر رسول الله ﷺ : فقال رجل لأبالي أن لأعمل عملا بعد أن أسقي الحاج . وقال الآخر : ما أبالي أن أعمل عملا بعد أن أعمر المسجد الحرام ، وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قلت ، فزجرهم عمر . وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ ، وذلك يوم الجمعة ، ولكني إذا صليت دخلت فاستفتيت رسول الله ﷺ فيما اختلفتم فيه ففعل عمر فأنزل الله الآية وفيه يروى عن الحسن والشعبي أن طلحة قال : أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه . ولو أشاء بت فيه . وقال العباس وذلك بعد إسلامه : أنا صاحب السقاية والقائم عليها . وقال علي رضي الله عنه : ما أدري ماتقولان ! لقد صليت ستة أشهر قبل الناس ، وأنا صاحب الجهاد فنزلت : وعن ابن سيرين قال علي رضي الله عنه للعباس بعد أن كان أسلم : ألا تهاجر ؟ ألا تلحق بالنبي ﷺ ؟ فقال : أأست في أفضل من الهجرة . أأست أسقي حاج بيت الله وأعمر المسجد الحرام . فنزلت هذه الآية . فقال العباس : ما أراني إلا تارك سقايتنا . فقال النبي ﷺ أقيموا على سقاييتكم ، فإن لكم فيها خيرا * أما

التفسير : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ماصح لهم وما استقام ﴿ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾
بالافراد والجمع : مسجد . ومساجد قراءتان سبعيتان . أى بدخوله والقعود فيه
وخدمته . فإذا دخل الكافر بغير إذن مسلم عزر وإن دخل بإذنه لم يعزر لكن لا بد من
حاجة ، فيشترط للجواز الاذن والحاجة . ويدل على جواز دخول الكافر المسجد بالإذن
أن النبي ﷺ شد ثمامة بن أثال إلى سارية من سواري المسجد وهو كافر ﴿ شَاهِدِينَ
عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ ﴾ إذ أنهم نَصَبُوا أصنامهم حول البيت ، فكأنوا يطوفون عراة ،
ويقولون : لانطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي ، وكلما طافوا بها شوطاً سجدوا
لها . وقيل هو قولهم : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك .
(الكشاف) وفي الكرخي : قوله : ﴿ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكَفْرِ ﴾ قال ابن
عباس : شهادتهم على أنفسهم بالكفر سجودهم للأصنام . وذلك لأن كفار قريش قد
نصبوا أصنامهم خارج البيت الحرام عند القواعد ، وكانوا يطوفون بالبيت عراة كلما
طافوا طوفة سجدوا للأصنام ، فلم يزدادوا بذلك إلا بعدا . وقال الحسن : إنهم لم يقولوا
نحن كفار ولكن كلامهم بالكفر شهادة عليهم (الخازن) زاد الكرخي : لبيك لا شريك
لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك مع قولهم : نحن نعبد اللات والعزى * وفي
الخازن : وقال السدي : شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن النصراني يسئل من أنت ؟
فيقول : نصراني ، واليهودي يقول يهودي ، والمشرک يقول مشرك * ﴿ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ
أَعْمَالُهُمْ ﴾ أي أعمال البر والعمارة والحجابة والسقاية وفك العناة في حال الكفر
﴿ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ أى من مات منهم على كفره . وقوله في الآية الثانية :
﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فيه
حذف تقديره كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر ﴿ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى
وكجهاد من جاهد في سبيل الله : وقوله ﴿ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ استثناء مؤكد لما
علم من إبطال المساواة بالتوبيخ المستفاد بالاستفهام . أى لا يستوي الفريقان . وقوله :
﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ تعليل في المعنى لنفى المساواة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحْبَبْتُمْ الْكُفْرَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَصْمِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي عن ابن مالك قال : قال رجل : نورث أرحامنا المشركين ، فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَصْمِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ ﴾ وكذا في الطبري . وفيه . عن ابن عباس قال : في مواريث مشركي أهل العهد * ولم أعر على غير هذين القولين أما التفسير : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَصْمِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ ﴾ ظاهرة لبيان الموالاتة بينهم ، والغرض نهى المسلمين عن موالاتهم . وإن كانوا أقارب ، وأن يتركوا توارث بعضهم بعضا . وفيه أن المشركين واليهود والنصارى لما اشتركوا في عداوة محمد ﷺ صارت هذه الجهة موجبة لانضمام بعضهم إلى بعض ، وقرب بعضهم من بعض ، وإن كان كل واحد منهم في نهاية الإنكار لصاحبه . وذلك من أدل الدلائل أن تلك العداوة ليست لأجل الدين ، ولكنها محض الحسد والعدا ، ومن جعل الولاية في هذه الآيات بمعنى الارث استدل بذلك على أن الكفار في التوارث على اختلاف مللهم كأهل ملة واحدة ، فالجوسي يرث الوثني ، والنصراني يرث الجوسي ، واليهودي يرث النصراني ، وبالعكس . ﴿ بِعَصْمِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ ﴾ في النصرة والأرث فلا يرث بينكم وبينهم ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ أى بأن قاطعتم المسلمين وواليتم الكفار ﴿ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ بقوة الكفر وضعف الإسلام . وعبارة المراعى : أى إن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضهم لبعض ، ومن تناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم ، ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضى عهدهم وينذوه على سواء — يقع من الفتنة والفساد في الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم بتخاذلكم الذى يقضى إلى فشلكم ، وظفر الأعداء بكم ، واضطهادكم في دينكم بصدكم عنه كما وقع ذلك بضعفائكم بمكة قبل الهجرة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن ابن الزبير قال : كان الرجل يعاقد الرجل . ترثنى وأرثك فنزلت : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ

الظَّالِمُونَ ﴿١٠٠﴾ * في الواحدي : قال الكلبي : لما أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، جعل الرجل يقول لأبيه وأخيه وامرأته : إنا قد أمرنا بالهجرة ، فمنهم من يسرع إلى ذلك ويعجبه ، ومنهم من يتعلق به زوجته وعياله وولده ، فيقولون : نشدناك الله أن تدعنا إلى غير شيء فنضيع ، فيرق فيجلس معهم . ويدع الهجرة ، ونزلت فيمن تخلف بمكة ولم يهاجروا قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وفي الخازن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ قال مجاهد : هذه الآية متصلة بما قبلها نزلت في قصة العباس وطلحة وامتناعهما من الهجرة . ثم روى ما ذكره الواحدي : وفيه . وقال مقاتل : نزلت في التسعة الذين ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بمكة . فنهى الله المؤمنين عن موالاتهم . وأنزل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعني بطانة وأصدقاء تفشون إليهم أسراركم وتوثرون المقام معهم على الهجرة * وفي الكشف : وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هي في المهاجرين خاصة . كان قبل فتح مكة ، من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم . فقالوا يارسول الله : إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آبائنا وأبنائنا وعشائرتنا وذهبت تجارتنا . وهلكت أموالنا . وخربت ديارنا . وبقين ضائعين . فنزلت : فهاجروا . فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه ، أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا ينفق عليه ، ثم رخص لهم بعد ذلك .. وعن النبي ﷺ : « لا يطعم أحدكم طعام الإيمان حتى يحب في الله ويبغض في الله ، حتى يحب في الله أبعد الناس ، ويبغض في الله أقرب الناس إليه » أما التفسير : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ توادونهم وتنصرونهم ، في القتال ، وتظاهرون لأجهل الكفار ، أو تطلعونهم على أسرار المؤمنين ، وما يستعدون به لقتال المشركين ﴿ إِنْ اسْتَحْبَبُوا ﴾ اختاروا ﴿ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾ فلا توالوهم فإن في ذلك قوة للمشركين على قتال المؤمنين . وكان من الموالين لهم حاطب بن بلتعنة البدرى أخذته نعة القرابة فكتب إلى مشركي مكة خفية يعلمهم بما عزم عليه النبي ﷺ من

قتلهم ليتخذ له بذلك يداً عندهم . يكافونه عليها بحماية ما كان له عندهم من قرابة . وفي ذلك نزلت سورة الممتحنة للنبي عن موالة أعداء الله وأعدائهم . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لأنفسهم وجماعتهم المؤمنين بوضعهم الموالة في غير موضعها ونحو الآية قوله : ﴿ إِنَّمَا ينهاكم الله عن الَّذِينَ قَاتَلوكم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجوكم مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قوله : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَقْرَبَاؤُكُمْ . وَقرىء : وعشيرتكم . وقرأ الحسن : وعشائركم ﴾ أموال افتقرتموها ﴾ اكتسبتموها : القرفة : الكسب . وفلان يقرف لعياله : أى يكسب . والتعير بالافتراق يوهم التهمة باكتسابها لأن من معانى القرفة : التهمة . وفلان قرفنى أى تهمنى ، أو هو الذى أتهمه . وفي الحديث أن النبي ﷺ كان لا يأخذ بالفرق أى التهمة . وقلما يوجد كسب خال من الغش أو شبه حرام فصح عنه التعبير بالافتراق : وقوله : ﴿ وَتِجَارَةٌ تَحْشُونَ كَسَادَهَا ﴾ عدم نفاذها بفراقكم لها ﴾ وَمَسَاكِينُ تُرَضُّونَهَا ﴾ أى تستوطنونها راضين بسكنائها ﴾ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ يعنى أحب إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله ﴾ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ﴾ لإعلاء كلمته . أى إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية عندهم أولى من طاعة الله وطاعة رسوله . ومن المجاهدة فى سبيله ﴾ فَتَرَبَّصُوا ﴾ أى فانتظروا ﴾ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ يعنى بقضائه ، وهذا أمر تهديد وتخويف . قال مجاهد ومقاتل : يعنى بفتح مكة *

القول فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَدَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فى اللباب : أخرج البيهقي فى الدلائل عن الربيع بن أنس أن رجلاً قال يوم حنين : لن نغلب من قلة وكانوا اثني عشر ألفاً . فشق ذلك على رسول الله ﷺ . فأنزل الله : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ... ﴾ وحنين واد بين مكة والطائف . كانت فيه الوقعة بين المسلمين . وهم اثنا عشر ألفاً الذين حضروا

فتح مكة منضماً إليهم ألفان من الطلقاء . وبين هوزان وثقيف ، وهم أربعة آلاف فيمن ضامنهم من أمداد سائر العرب . فكانوا الجح الغفير ، فلما التقوا قال رجل من المسلمين : لن نغلب اليوم من قلة . فسألت رسول الله ﷺ . وقيل : قائلها رسول الله ﷺ . (وهذا بعيد) وقيل : أبو بكر الصديق رضي الله عنه . (الكشاف) قلت : وفي شرح المواهب ، أن الكفار كانوا أكثر من عشرين ألفاً . وقتل من المسلمين أربعة . ومن المشركين أكثر من سبعين * وفي الخازن : فلما التقى الجمعان . قال رجل من الأنصار يقال له : سلمة بن سلامة بن رقيش . لن نغلب اليوم من قلة . فسأ رسول الله ﷺ كلامه . ووكلوا إلى كلمة الرجل . وفي رواية : فلم يرض الله قولهم ووكلمهم إلى أنفسهم . وذكر ابن الجوزي عن سعيد بن المسيب أن القائل لذلك أبو بكر الصديق . وما في الكشاف والطبري من نسبتها إلى رسول الله ﷺ بعد لأنه ﷺ كان في جميع أحواله متوكلاً على الله عز وجل لا يلتفت إلى كثرة عدد ، ولا إلى غيره . بل نظره إلى ما يأتي من عند الله عز وجل من النصر والمعونة . قالوا : فلما التقى الجمعان اقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم المشركون . وخلوا عن الذراري ، ثم تنادوا : يا حماة السواد اذكروا الفضائح فترجعوا وانكشف المسلمون . أخرج الشيخان عن أبي اسحق قال : جاء رجل إلى البراء فقال : أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة ؟ فقال : أشهد على نبي الله ﷺ ماولى ولكنه انطلق أخفاء من الناس وحسر إلى هذا الحى من هوزان ، وهم قوم رماة ، فرمهم برشق من نبل كأنها رجل من جراد ، فانكشفوا فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن حرب يقود به بغلته ، فنزل ودعا واستنصر ، وهو يقول : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب . اللهم أنزل نصرك » * زاد أبو خيثمة ثم صفهم . قال البراء : كنا والله إذا احمر البأس نتقى به وإن الشجاع منا للذي يحاذي به . يعني النبي ﷺ (والصحيح) ولمسلم عن أنى إسحاق : قال رجل للبراء بن عازب . يا أبا عمارة : فررتم يوم حنين ؟ قال : لا والله ما ولى رسول الله ﷺ . ولكنه خرج شبان أصحابه وأخفاؤهم حسراً ليس عليهم سلاح ، أو كثير سلاح . فلقوا قوماً رماة لا يكاد يسقط لهم سهم : جمع هوازن وبنى نصر ، فرشقوهم رشقاً ما يكادون يخطئون . فأقبلوا هناك إلى رسول الله ﷺ وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب

يقود به .. الحديث . أما التفسير: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ ﴾ للحرب
﴿ كَثِيرَةٍ ﴾ كيدر وقرينة والنضير ، وهو تذكير للمؤمنين بنعمه عليهم ﴿ وَ ﴾ اذكر
﴿ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ وإد بين مكة والطائف بينه وبين مكة ثمانية عشر ميلاً كما في الخازن :
أي يوم قتالكم فيه ، هوازن . وذلك في شوال سنة ثمان . وهوازن هم قبيلة حليلة
السعدية ﴿ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ فاقتتلوا قتالاً شديداً . وأدركت المسلمين كلمة
الإعجاب بالكثرة . وزلّ عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود . فانهزموا حتى بلغ فلهم
مكة ، وبقي رسول الله ﷺ وحده ، وهو ثابت في مركزه لا يتحلحل ليس معه إلا
عمه العباس رضي الله عنه آخذٌ بلجام دابته . وأبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب
آخذ بركاب دابته . وقال ﷺ للعباس : وكان صبيّاً ، وهو دليل على الشجاعة . صيح
بالناس . فنادى الأنصار فخذاً فخذاً ، ثم نادى يا أصحاب الشجرة : فكروا عنقاً
واحداً . وهم يقولون : لبيك لبيك . ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيل بلق .
فنظر رسول الله ﷺ إلى قتال المسلمين . فقال : هذا حين حمى الوطيس ، ثم أخذ كفاً
من التراب فرماهم به . ثم قال : انهزموا ورب الكعبة . فانهزموا . قال العباس : لكأني
أنظر إلى رسول الله ﷺ يركض خلفهم على بغلته . ويقول : أنا النبي لا كذب أنا ابن
عبد المطلب . وهذه شهادة صدق على تناهى شجاعته ﷺ ورباطة جأشه ، وما هي إلا
آيات بينات من آيات النبوة . وقوله : ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ﴾ أي لم تدفع عنكم
الكثرة شيئاً من هزيمتكم ﴿ وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ ما مصدرية . والباء
بمعنى مع أي مع رحبها وسعتها . أي لا تجدون موضعاً تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم
لفرط الرعب . فكأنها ضاقت عليكم ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ منهزمين لا تلوون على أحد
﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ بعد الهزيمة . السكينة الطمأنينة والأمنة . وذلك أن الإنسان
إذا خاف رجف فؤاده . فلا يزال متحركاً حتى يأمن ويطمئن فيسكن فؤاده وإنزالها
« على رسوله وعلى المؤمنين » كناية عن الأمن والظفر وهي رحمة من الله تعالى ينصر بها
عباده . وفي حديث عليّ رضي الله عنه وبناء الكعبة : فأرسل الله إليه — إلى ابراهيم عليه
السلام — السكينة ، وهي ريحٌ خجوجٌ . أي سريعة المَرِّ ، وفيها أقوال كثيرة في شكلها
أضربت عنها لأنها لا يطمئن إلى صحتها ، وروى عن ابن مسعود أنه قال : السكينة

مغرم ، وتركها مغرم * قيل : أراد بها الرحمة . ولهذا قال بعضهم : السكينة الرحمة .
وقيل : هي النصر . وقيل : هي الوقار . قال الخازن : إنما كان إنزال السكينة على
المؤمنين لأن الرسول ﷺ كان ساكن القلب ليس عنده اضطراب كما حصل للمؤمنين
من الهزيمة والاضطراب في هذه الواقعة ، ثم من الله عليهم بإنزال السكينة عليهم حتى
رجعوا إلى قتال عدوهم بعد الهزيمة . ورسول الله ﷺ ثابت لم يفر * قلت : ولماذا
لا يكون اضطراب قلب النبي ﷺ خوفا على المؤمنين لما انهزموا من إنزال العقوبة بهم ؟
كيف لا وقد توعد الله الفارين بالغضب وسوء المصير . وقد ذكر الله تعالى إنزالها على
رسوله ، وعلى المؤمنين . والواو تقتضي التشريك في الحكم . ودلالته على التخصيص ،
فدل على ماقلته إن شاء الله تعالى . وذكر تقديم لفظ الرسول للاعتناء به ، وعلو
مرتبته . فهو جدير بإنزال السكينة عليه والمؤمنون تبع له ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وقيل : إنزال السكينة كانت على الرسول ﷺ وعلى من ثبت معه من
المؤمنين حين وقع الهرب ﴿ وَأَنْزَلْ جُنُودًا ﴾ يعني الملائكة ، وكانوا ثمانية آلاف ، وقيل
خمسة آلاف . وقيل : ستة عشر ألفاً . وقد قيل : إن الكفار كانت تراهم . في
المواهب ، وروى أبو جعفر بن جرير بسنده عن عبد الرحمن عن رجل كان في المشركين
يوم حنين ، قال : لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا
حلب شاة ، فلما لقيناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهوا إلى صاحب البغلة
البيضاء ، فإذا هو رسول الله ﷺ . قال : فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسناً .
فقالوا لنا : شأهت الوجوه ، ارجعوا . فانهزنا وركبوا أكتافنا * وفي سيرة الدمياطي :
قال : كان سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمر أرخوها بين أكتافهم * وروى أن رجلاً
من بنى النضير قال للمؤمنين بعد القتال : أين الخيل البلق ، والرجال عليهم ثياب بيض ؟
ما كنا نراكم إلا كهيفة الشامة . وماقتلنا إلا بأيديهم . فأخبروا بذلك النبي ﷺ . فقال :
تلك الملائكة . (الخطيب) وفي هذا دلالة على أن الملائكة قاتلت يوم حنين كما قاتلت يوم
بدر . ولاضحة لقول من قال : إن نزولهم يوم حنين كان لتقوية قلوب المسلمين ، وإن
كانوا لا يرونهم . وقوله : ﴿ وَعَدَّابِ الدِّينِ كَفَرُوا ﴾ بالقتل والأسر لستة آلاف من
نسائهم وصبيانهم . ولم تقع غنيمة أعظم من غنيمتهم . فقد كان فيها من الإبل على

ما ذكره أصحاب السير اثنا عشر ألفاً . ومن الغنم ما لا يحصى عدداً . ومن الأسر ما سمعته ، وكان فيها غير ذلك ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ الذي يستحقونه في الدنيا ، ثم إذا أفضوا إلى الآخرة كان عذابهم أشدَّ وأنكى . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُتُوبُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فيهديه إلى الإسلام كبقية هوازن ، أسلموا وقدموا على رسول الله ﷺ تائبين ، فمن عليهم نبي الرحمة بإطلاق سبيلهم . ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ لمن تاب حتى محاربة الله ورسوله ﴿ رَحِيمٌ ﴾ كثير الرحمة بعباده . في الكشف والخطيب وغيرهما . روى أن أناساً منهم جاؤا فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام . وقالوا له يا رسول الله : أنت خير الناس . أوبرأ الناس . وقد سبى أهلونا وأولادنا . وأخذت أموالنا . فقال : إن عندي ماترون . إن خير القول أصدقه . اختاروا إما ذراريكم ونساءكم . وإما أموالكم . قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئا . والحسب ما يعده الإنسان من مفاخر آبائه . كنوا بذلك عن اختيار الذراري والنساء على استرجاع الأموال . لأن تركهم في ذل الأسر يفضي إلى الطعن في أحسابهم ، فقام رسول الله ﷺ . فقال : إن هؤلاء جاؤا مسلمين . وإنا خيرناهم بين الذراري والأموال ، فلم يعدلوا بالأحساب شيئا . فمن كان بيده شيء . وطابت نفسه أن يرده . فشأنه . ومن لا . فليعطنا . وليكن قرضاً علينا . أي بمنزلة القرض حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه . فقالوا : رضينا وسلمنا ، فقال : إني لأدري لعل فيكم من لا يرضي فمروا عرفاءكم فليرفعوا إلينا أي عليه رضوا ، فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عِمْلَةَ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : كان المشركون يجيئون إلى البيت . ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه . فلما نهوا عن أن يأتوا البيت قال المسلمون : أين لنا الطعام ؟ فأنزل الله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عِمْلَةَ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ الآية * وفي الخطيب : ولما أمر رسول الله ﷺ علياً أن يقرأ على المشركين : مشركي مكة . أول براءة ، وينبذ إليهم عهدهم . وأن الله برئ من المشركين ورسوله ، قال أناسٌ يا أهل مكة : ستعلمون ماتلقون من الشدة لانقطاع

السييل ، وفقد الحمولات ، وذلك أن أهل مكة كانت معاشهم من التجارات ، وكان المشركون يأتون مكة بالطعام ، ويتجرون ، فلمَّا امتنعوا من دخول الحرم خاف أهل مكة الفقر ، وضيق العيش ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ أي فقر وحاجة ، بانقطاع تجارتهم عنكم ، فسوف يغنيكم الله من فضله . أي من عطائه وتفضله من وجه آخر . وقد أنجز الله تعالى وعده بأن أرسل عليهم المطر مدراراً فكثرت خيرهم ، وأسلم أهل جدة وصنعاء وتباله وجرش — بضم الجيم وفتح الراء — قريتان من قري اليمن . وقيد ذلك بقوله : إن شاء الله ، لتقطع الآمال إليه تعالى ، ولينبه على أنه متفضل في ذلك ، وأن الغني الموعود به يكون لبعض دون بعض ، وفي علم دون علم * وفي الكشاف : وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف ، وقال : من أين تأكلون ؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغناهم من فضله بالجزية * وفي الطبري نحو ما ذكر . وفيه قال عبيدة بن سليمان : سمعت الضحاك يقول في قوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ كان ناس من المسلمين يتألفون العير . فلما نزلت براءة بقتال المشركين حينئذ ثقفوا . وأن يقعدوا لهم كل مرصد . قذف الشيطان في قلوب المؤمنين : فمن أين تعيشون ، وقد أمرتم بقتال أهل العير . فعلم الله من ذلك ما علم . فقال : أطيعوني وامضوا لأمري وأطيعوا رسولي فإني سوف أغنيكم من فضلي . فتوكل الله لهم بذلك * وهكذا بقية الأقوال لا تخرج في معناها عما ذكرت : أما التفسير : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ قدر لخبث باطنهم كذا قال الجلال ، فهو مجاز عن خبث الباطن ، وفساد العقيدة ، فهو استعارة لذلك . وفي الخازن : قيل : أراد بالمشركين عبدة الأصنام وغيرهم من اليهود والنصارى . والنجس الشيء القدر من الناس وغيرهم . وقيل : النجس الشيء الخبيث ، وأراد بهذه النجاسة نجاسة الحكم لانجاسة العين سموا نجيسا على الذم لأن الفقهاء اتفقوا على طهارة أبدانهم : وقيل : هم أنجاس العين كالكلب والخنزير حتى قال الحسن بن صالح من مس مشركا فليتوضأ ، ويروى هذا عن الزيدية من الشيعة . قال الخازن : والقول الأول أصح ، وقال قتادة : سماهم نجساً لأنهم يجنبون فلا يغتسلون ، ويحدثون فلا يتوضئون * قلت والنَّجْسُ والنَّجْسُ والنَّجْسُ : القدر من الناس ومن كل شيء

قدرته . ولاشك أن المشركين أنجاس أخبيث ، وفي الحديث : أن النبي ﷺ كان إذا دخل الخلاء قال : « اللهم إن أعوذ بك من النجس الرجس الخبيث الخبيث » قال : وجارية ملبونة ومنجس * وطارقة في طرقها لم تسدد . يصف أهل الجاهلية أنهم بين متكهن وحداس ، وراق ومنجس ، ومتنجم حتى جاء النبي ﷺ ، والعامّة تقول للمرائي الماكر المخادع نجس . أي لأمانة له فيجتنبون مجالسته ومحادثته . وقوله : ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ أي يمنعون من دخول الحرم لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا من المسجد الحرام ، ويؤكد هذا قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أراد به الحرم لأنه أسرى به ﷺ من بيت أم هانئ . في الخطيب : قال العلماء : وجملة بلاد الإسلام في حق الكفار على ثلاثة أقسام : أحدها : الحرم فلا يجوز للكافر أن يدخله بحال ذمياً كان أم مستأمناً لظاهر هذه الآية . وإذا جاء رسول من دار الكفر إلى الإمام . والإمام في الحرم لا يأذن له في دخول الحرم . بل يخرج إليه الإمام ، أو يبعث إليه من يسمع رسالته خارج الحرم . وجوز أبو حنيفة وأهل الكوفة للمعاهد دخول الحرم . القسم الثاني من بلاد الإسلام الحجاز فيجوز للكافر دخوله بإذن . ولا يقيم فيه أكثر من ثلاثة أيام لما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلماً وأجلاهم عمر في خلافته ، وأجله لمن قدم منهم تاجراً ثلاثة . وجزيرة العرب من أقصى عدن إلى ريف العراق في الطول . وأما في العرض فمن جدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام . والقسم الثالث . سائر بلاد الإسلام يجوز للكافر أن يقيم فيها بدمية . أو أمان لكن لا يدخل المساجد إلا بإذن مسلم لحاجة * والمراد فلا يحجوا ولا يعتمروا كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿ بَعْدَ غَامِهِمْ هَذَا ﴾ بعد حج عامهم هذا ، وهو غام تسع من الهجرة حين أمر أبو بكر على الموسم ، ويدل عليه قول عليّ كرم الله وجهه حين نادى ببراءة : ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك . وقد علمت مذهب أبي حنيفة . وعند الشافعي : يمنعون من المسجد الحرام خاصة . وعند مالك : يمنعون منه ومن غيره من المساجد ، وقوله : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً ﴾ أي فقراً بسبب منع المشركين من الحج . ما كان لكم في قدومهم عليكم من الإرفاق والمكاسب ﴿ فَسَوْفَ يُعْطِيكُمْ اللَّهُ

مِنْ فَضْلِهِ ﴿﴾ قد تقدم تفسير ذلك .. وقوله : ﴿﴾ إِنَّ شَاءَ اللهُ . واشترط المشيئة في
 الغنى المطلوب ليكون الإنسان دائم التضرع والابتهاال إلى الله تعالى في طلب الخيرات
 ودفع الآفات وأن يقطع العبد أمله من كل أحد إلا من الله تعالى . وقد حقق الله عز
 وجل لهم مشيئته ، ونحو الآية : ﴿﴾ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴿﴾ وقد
 دخلوه آمين . ﴿﴾ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ ﴿﴾ بمصالحكم فيعطيكم من الرزق ما لا يطغيكم
 ولا يشغلکم عن واجباتكم الدينية ﴿﴾ حَكِيمٌ ﴿﴾ أي لا يفعل إلا عن حكمة وصواب
 فمكن حكمته أنه منع المشركين من دخول الحرم وأوجب الجزية على أهل الكتاب *
 القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
 الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَهُنَّ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ
 أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿﴾ في اللباب : أخرج بن أبي حاتم عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ
 سلام بن مشكم . ونعمان بن أوفى ، وشاش بن قيس ، ومالك بن الصيف ، فقالوا :
 كيف نتبعك . وقد تركت قبلتنا ، وأنت لاتزعم أن عزيراً ابن الله ، فأنزل الله في
 ذلك : ﴿﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ... ﴿﴾ وكذا في الخازن وفيه قال عبيد بن عمير إنما قال هذه
 المقالة رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء ، وهو الذي قال : إن الله فقير
 ونحن أغنياء * ... وروى عطية العوفي عن ابن عباس أنه قال : إنما قالت اليهود ذلك من
 أجل أن عزيراً كان فيهم ، وكانت التوراة عندهم ، والتابوت فيهم ، فأضاعوا التوراة
 وعملوا بغير الحق فرفع الله سبحانه وتعالى عنهم التابوت ، وأنساهم التوراة ، ونسخها
 من صدورهم ، فدعا الله عزير ، وابتهل إليه أن يرد إليه التورا ، فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى
 الله عز وجل . نزل نور من السماء ، فدخل جوفه فعادت إليه ، فأذن في قومه ، وقال
 يا قوم : قد آتاني الله التوراة وردها إلى فعلقوا به يعلمهم ثم مكثوا ماشاء الله ، ثم إن
 التابوت نزل بعد ذهابه منهم . فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان يعلمهم عزير على ما في
 التابوت فوجدوه مثله ، فقالوا : ما أوتي عزير هذا إلا لأنه ابن الله * وقال الكلبي : إن
 يختنصر لما عزل بيت المقدس ، وظهر على بني إسرائيل ، وقتل من قرأ التوراة كان عزير
 إذ ذاك صغيراً . فلم يقتله لصغره ، فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم
 من يقرأ التوراة بعث الله لهم عزيراً ليجدد لهم التوراة . ويكون لهم آية بعد ما أماته الله

مائة سنة . قال : فأتى ملك بإناء فيه ماء فشرب منه فمثلت له التوراة في صدره . فلما أتاهم ، قال : أنا عزيز ، فكذبوه ، قالوا : إن كنت كما تزعم فامل علينا التوراة ، فكتبها لهم من صدره . ثم إن رجلاً منهم قال : إن أبي حدثني عن جدي أن التوراة جعلت في خابية ودفنت في كرم . فانطلقوا معه حتى أخرجوها ، فعارضوها بما كتب لهم عزيز . فلم يجدوه غادر حرفاً . فقالوا : إن الله لم يقذف التوراة في قلب عزيز إلا أنه ابنه . ومنذ ذلك قالت اليهود عزيز ابن الله * فعلى هذين القولين . يكون هذا القول فاشياً في اليهود جميعاً . ثم إنه انقطع واندرس . فأخبر الله تعالى به عنهم . وأظهره عليهم ، ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك . فإن خبر الله عز وجل أصدق وأثبت من إنكارهم . وأما قول النصارى : المسيح ابن الله . فكان السبب فيهم أنهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام احدى وثمانين سنة يصلون إلى القبلة ويصومون رمضان حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب ، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له : بولص ، قتل جماعة من أصحاب عيسى عليه السلام ، ثم قال بولص لليهود : إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا . فنحن مغلوبون إن دخلنا النار ودخلوا الجنة فإني سأحتال وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ، ثم إنه عمد إلى فرس كان يقاتل عليه . فعرقبه وأظهر الندامة والتوبة . ووضع التراب على رأسه . ثم أنه أتى إلى النصارى . فقالوا له : من أنت ؟ قال : أنا عدوكم بولص . فقد نوديت من السماء أنه ليس لك توبة حتى تنتصر ، وقد تبت وأتيتكم ، فأدخلوه الكنيسة ونصروه ، وأدخلوه بيتاً منها لم يخرج منه سنة حتى تعلم الإنجيل ، ثم خرج وقال : قد نوديت إن الله قد قبل توبتك . فصدقوه وأحبوه ، وعلا شأنه فيهم ، ثم إنه عمد إلى ثلاثة رجال : اسم الواحد منهم نسطور ، والآخر يعقوب ، والآخر ملكان . فعلم نسطور أن عيسى ومريم (الإله) ثلاثة . وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان ، ولكنه ابن الله ، وعلم ملكان أن عيسى هو الله لم يزل ، ولا يزال ، فلما استمكن ذلك فيهم دعا كل واحد منهم في الخلوة ، وقال له أنت خالصتي ، وادع الناس لما علمتكم ، وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد ، ثم قال لهم : إني رأيت عيسى في المنام وقد رضي عني ، وقال لكل واحد منهم : إني سأذبح نفسي تقرباً إلى عيسى ، ثم ذهب إلى المذبح فذبح نفسه ، وفرق أولئك الثلاثة ، فذهب واحد

إلى الروم ، وواحد إلى بيت المقدس ، والآخر إلى ناحية أخرى ، وأظهر كل واحد مقالته . ودعا الناس إليها ، فنبعه على ذلك طوائف من الناس ، فنفرقوا واختلفوا . ووقع القتال ، فكان ذلك سبب قولهم : المسيح ابن الله . وقال الإمام فخر الدين الرازي بعد أن حكى هذه الحكاية . قال : والأقرب عندي أن يقال لعله ذكر لفظ الابن في الانجيل على سبيل التشريف . كما ورد لفظ الخليل في حق ابراهيم على سبيل التشريف . فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنة الحقيقية ، والجهال قبلوا ذلك منهم ، وفشا هذا المذهب الفاسد في اتباع عيسى عليه السلام . والله أعلم بحقيقة الحال . — نقلاً من الخازن — من التفسير الكبير — وفي الكشاف : وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام . فرجع الله عنهم التوراة ومحامها من قلوبهم ، فخرج عزيز وهو غلام يسبح في الأرض . فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال له : إلى أين تذهب ؟ قال : أطلب العلم فحفظ التوراة . فأملأها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً فقالوا : ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه . قال : والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على التكذيب . ثم قال : فإن قلت : كل قول يقال بالفم ، فما معنى قوله : ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يراد أنه قول لا يعضده برهان فما هو إلا لفظ يقومون به فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لاتدل على معانٍ . وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم . ومعناه مؤثر في القلب . ومالا معنى له بالفم لا غير . والثاني : أن يراد بالقول المذهب كقولهم قول أبي حنيفة . يريدون مذهبه . وما يقول به . كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد * وقوله : ﴿ يُضَاهُونَ ﴾ قال ابن عباس : يشابهون . والمضاهات المشابهة ، وقال مجاهد : يواطئون ، وقال الحسن : يوافقون ﴿ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ قال قتادة والسدي : معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم . فقالوا : المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزيز ابن الله . وقال مجاهد معناه يضاهاون قول المشركين من قبل لأن المشركين كانوا يقولون : الملائكة بنات الله . وقال الحسن : شبه الله كفر

اليهود والنصارى بكفر الذين مضوا من الأمم الخالية الكافرة * وقال القتيبي : يريد أن من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أولهم * وقوله : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ قال ابن عباس : لعنهم الله * وقال ابن جريج : قتلهم الله * وقيل : ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب . أي حق أن يقال لهم هذا القول تعجبا من بشاعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلا يتعجب منه . قاتله الله ما أعجب فعله . ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ كيف يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل ، وإقامة الحجة بأن الله واحد أحد فجعلوا له ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ في الواحدي : نزلت في العلماء والقراء من أهل الكتاب كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم ، أو هي المآكل التي كانوا يصبونها من عوامتهم * في الخازن : واختلفوا في السبب الذي من أجله أكلوا أموال الناس بالباطل . فقيل : إنهم كانوا يأخذون الرشا من سفلتهم في تخفيف الشرائع والمساحة في الأحكام . وقيل : إنهم كانوا يكتبون كتباً يحرفونها ويبدلون ، ويقولون هذه من عند الله . ويأخذون بها ثمناً قليلاً . وهي المآكل التي كانوا يصبونها من سفلتهم على تغيير نعت النبي ﷺ وصفته في كتبهم ، لأنهم كانوا يخافون لو آمنوا به وصدقوه لذهبت عنهم تلك المآكل . وقيل : إن التوراة كانت مشتملة على آيات دالة على نعت النبي ﷺ . وكان الأحرار والرهبان يذكرون في تأويلها وجوهاً فاسدة باطلة ، ويحرفون معانيها طلباً للرياسة ، وأخذ الأموال ، ومنع الناس عن الإيمان به . وذلك قوله : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يعني ويمنعون الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ . والدخول في دين الإسلام * والآية شروع في بيان حال الأحرار والرهبان في إغوائهم لأراذلهم أثر بيان سوء حال الأتباع في اتخاذهم لهم أرباباً يطعمونهم في الأوامر والنواهي ، واتباعهم فيما يأتون وما يذرون . والأحرار من اليهود والرهبان من النصارى . وفي قوله : ﴿ إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ﴾ دليل على الأقل من الأحرار والرهبان لم يأكلوا أموال الناس بالباطل ، ولعلمهم الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ . وعبر عن أخذ الأموال بالأكل في قوله : ﴿ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ وأن المقصود الأعظم من

جمع المال الأكل فسمى الشيء باسم ما هو أعظم مقاصده *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فذُوقُوا مَا كَنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ في الواحدي : قال وهب بن زيد ، مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر . فقلت له : ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ فقال معاوية : نزلت في أهل الكتاب . فقلت : نزلت فينا وفيهم . وكان بيني وبينه كلام في ذلك . وكتب إلى عثمان يشكوني . وكتب إلى عثمان أن أقدم المدينة . فقدمتها ، وكثر الناس عليّ حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك . فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحيت وكنيت قريباً . فذلك الذي أنزلني هذا المنزل . ولو أمروا عليّ حبشياً لسمعت وأطعت . رواه البخاري عن قيس ، عن جرير عن حصين . قال الواحد : والمفسرون أيضاً مختلفون ، فعند بعضهم أنها في أهل الكتاب خاصة . وقال السدي : هي في أهل القبلة * وقال الضحاك : هي عامة في أهل الكتاب والمسلمين * وقال عطاء عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ .. ﴾ قال : يريد المؤمنين * وقال ثوبان : لما نزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ قال رسول الله ﷺ : تباً للذهب والفضة . قالوا يارسول الله : فأى المال نكتن ؟ قال : « قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً ، وزوجة صالحة » . وفي رواية : « وزوجة تعين أحدكم على دينه » وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والحاكم عن ابن عباس : قال لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ كبر ذلك على المسلمين وقالوا : ما يستطيع أحد منا ألا يبقى لولده مالا بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق وتبعه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال يانبي الله : إنه كبر على أصحابك هذه الآية . فقال : إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض الموارث عن أموال تبقى بعدكم . فكبر عمر رضي الله عنه ، ثم قال له النبي ﷺ : « ألا أخبرك بخير ما يكتن ؟ المرأة الصالحة التي إذا نظر إليها الرجل سرته ، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته » أما التفسير : ﴿ وَالَّذِينَ

يكنزون الذهب والفضة ﴿ أصل الكنز في اللغة . جعل المال بعضه على بعض وحفظه .
والمال مكنوز أي مجموع * والكنز غالباً ما يجمع من الذهب والفضة ويدفن في الأرض .
والذين يكنزون الأحبار والرهبان . لما وصفهم بالحرص الشديد أراد أن يصفهم
بالامتناع من إخراج الواجبات عن أموالهم هذا على قول . وقيل : المقصود مانعوا الزكاة
من المسلمين . واختلف علماء الصحابة في هذا الكنز المذموم . فقال الأكثرون : هو
المال الذي لم تؤد زكاته : عن عمر بن الخطاب قال : مأل أديت زكاته فليس بكنز *
وقال ابن عمر : كل ما أديت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين . وكل ما لم
تؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض * وقال جابر : إذا أخرجت الصدقة من مالك
فقد أذهبت عنه شره وليس بكنز * وقوله : ﴿ ولا ينفقونها في سبيل الله ﴾ قال ابن
عباس : يريد الذين لا يؤدون زكاة أموالهم * قال القاضي : ويندرج فيه سائر الحقوق
الكفارات والديون ونفقة الحج . والجهاد والانفاق على الأهل والعيال . وضمن
المتلفات وأرش الجنابات * وقال الأقلون : كل مال كثير فهو مذموم سواء أديت زكاته
أو لم تؤد . وحجة الأولين قوله تعالى : ﴿ لها ما كسبت ولا يسألكم أموالكم ﴾ ،
وقوله عليه الصلاة والسلام : « كل امرئ أحق بكسبه . نعم المال الصالح للرجل
الصالح . ما أديت زكاته فليس بكنز . وإن كان باطنياً ، وما بلغ أن يزكى ولم يزك فهو
كنز وإن كان ظاهراً » * وقد كان في عهد رسول الله ﷺ جمع من الأغنياء كعثمان بن
عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكان يعدهم من أكابر المؤمنين ، وقد ندب إلى إخراج
الثلث ، أو الأقل في المرض . ولو كان جمع المال محرماً لكان يأمر المريض أن يتصدق
بالكل . حجة القائلين : عموم الآية . وماروى سالم بن الجعد أنها لما نزلت قال رسول
الله ﷺ : تبا للذهب والفضة قالها ثلاثاً . فقالوا له . أي مال نتخذ ؟ قال لساناً ذاكراً
وقلباً خاشعاً ، وزوجة تعين أحدكم على دينه . فقالوا له : من ترك صفراء أو بيضاء
كوى بها . وتوفى رجل فوجد في مئزره دينار ، فقال رسول الله ﷺ ترك (كية) .
وتوفى آخر فوجد في مئزره ديناران . فقال : (كيتان) . وعن علي رضي الله عنه : كل
مال زاد على أربعة آلاف فهو كنز أديت زكاته أو لم تؤد . وقد رام طائفة من العلماء
الجمع بين القولين ، فقالوا : كان هذا قبل أن تفرض الزكاة . فأما بعد فرض الزكاة ،

فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له فيه ، ويؤدعنه ما أوجب عليه
 ثم يعاقبه * وأما ظاهر الفتوى فهو أن صاحب المال الكثير لا عتب عليه إذا أدى منه
 حقوقه . هذا ومن حمل الآية على وعيد مانعي الزكاة في النقود قاس الزكاة في المواشي
 عليه . أخرج الشيخان عن أبي ذر قال : انتهيت إلى النبي ﷺ ، وهو جالس في ظل
 الكعبة . فلما رأيته قال : هم الآخرون ورب الكعبة ، قال : فجئت حتى جلست ...
 فقلت يا رسول الله : فذاك أبي وأمي من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالاً إلا من قال
 هكذا وهكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله . وقليل ما هم مامن
 صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمه
 تنطحه بقرونها ، وتطؤه بأظلافها كلما نفذت آخراها عادت عليه أولها حتى يقضي
 بين الناس * هذا لفظ مسلم . وفرقه البخاري في موضعين . ولا ريب أن الأصل المعتبر
 في الأموال هو النقدان ، وسائر الأمتعة إنما تحصل بهما ، وتدور عليهما ، ولمن أوجب
 الزكاة في الحلى المباح . الاستدلال بالآية لأن الذهب والفضة يشمله ، ومن لم يوجب
 الزكاة فيه خصص عموم الآية بما روى أنه ﷺ قال : لا زكاة في الحلى المباح . ولم
 يصححه أبو عيسى الترمذي . وبتقدير أن يصح حملوه على اللالى لقوله تعالى :
 ﴿ وَتَسْتَخْرِجُ نَحْلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ ولقائل أن يقول : لو حملنا الحلى في الحديث على
 اللالى لم تبق لقيد المباح فائدة . وقوله : ﴿ يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى ﴾
 تحرق ﴿ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ في مجمع الزوائد عن عبد الله . يعني ابن
 مسعود قال : « لا يكوى رجل بكنز فيمس درهم درهما ولا ديناراً يوسع جلده حتى
 يوضع كل دينار ودراهم على حدته » رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح * وفي صحيح
 البخاري عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر . فقال : « هذا قبل أن
 تنزل الزكاة . فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال » وقد ذكر سبحانه وتعالى شيئين :
 الذهب والفضة . ثم قال : ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَهَا ﴾ فليل الضمير عائد على المعنى . وهو
 الكنوز والأموال . أو لأن كل واحد منهما جملة واحدة وافية وعدة كثيرة ، ودراهم
 ودنانير ، فهو كقوله : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلَا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هَذَا
 مَا كُنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذَرَفْتُمْ ﴾ عذاب ﴿ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ أي جزاء إشارة إلى أن

المكنوز لا يذاق . وما بمعنى الذي . والعائد محذوف . ويجوز أن تكون مصدرية . أي وبال كونكم تكثرزون . والآية عامة في كل ما يجب فيه الزكاة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّسْبِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن أبي مالك قال : كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً فيجعلون المحرم صفرًا فيستحلون فيه الحرمات . فأنزل الله : ﴿ إِنَّمَا التَّسْبِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ... ﴾ الآية * وعبارة الخازن : وذلك أن العرب في الجاهلية كانت تعتقد حرمة الأشهر الحرم ، وتعظيمها ، وكانت معاش العرب من الصيد والغارة . وكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية ، وربما وقعت حروب في بعض الأشهر الحرم . فكانوا يكرهون تأخير حروبهم إلى الأشهر الحلال . فنسأوا . يعني أخرجوا تحريم شهر إلى شهر آخر . فكانوا يؤخرون حروبهم إلى الأشهر الحلال ،

فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر ، فيستحلون المحرم ، ويجرمون صفر ، فإذا احتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع الأول ، وكانوا يصنعون هكذا ، يؤخرون شهراً بعد شهر حتى استدار التحريم على السنة كلها . وكانوا يحجون في كل شهر عامين ، فحجوا في ذي الحجة عامين ، ثم حجوا في المحرم عامين ، ثم حجوا في صفر عامين . وكذلك باقي شهور السنة ، فوافقت حجة أبي بكر في السنة التاسعة قبل حجة الوداع ذا القعدة ، ثم حج رسول الله ﷺ في العام المقبل حجة الوداع فوافق حجه في شهر ذي الحجة وهو شهر الحج المشروع ، فوقف بعرفة في اليوم التاسع ، وخطب الناس في اليوم العاشر بمبنى ، وأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان ، وعاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض ، وهو قوله ﷺ : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض .. » وأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل في مستأنف الأيام * أخرج البخاري عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض : السنة اثنا عشر شهراً : منها أربعة حرم . ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر

الذي بين جمادى وشعبان» * والمعنى : رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه ، وعاد الحج في ذي الحجة ، وبطل النسيء الذي كان في الجاهلية ، وهو تأخير شهر إلى شهر لاستباحة ما حرم الله . أما التفسير ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ ﴾ أي التأخير لحرمه شهر إلى آخر كما كانت الجاهلية تفعله من تأخير حرمة المحرم إذا هل وهم في القتال إلى صفر ... والنسيء مصدر نساء إذا أخره وقوله : ﴿ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ لكفرهم بحكم الله فيه حيث يجحدون تحريم القتال في المحرم ويثبتونه في صفر . وفي الشهاب : أنهم لما توارثوه على أنه شريعة ، ثم استحلوه كان ذلك مما يعد كفراً * وبيان ذلك : أن العرب ورثت في ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تحريم القتال في الأشهر الحرم لتأمين الحج وطرقة ، ولما طال عليهم الأمد غيروا وبدلوا في المناسك ، وفي تحريم الأشهر الحرم . وبه ازدادوا كفرا على كفرهم . وقوله : ﴿ يُضِلُّ ﴾ بالضم والفتح ﴿ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ ﴾ أي النسيء ﴿ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُؤَاطِئُوا ﴾ يوافقوا بتحليل شهر وتحريم آخر بدله ﴿ عِدَّةً ﴾ عدد ﴿ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ من الأشهر ، فلا يزيدون على تحريم أربعة ولا ينقصون ولا ينظرون إلى الأربعة الأشهر التي حرّمها الله تعالى : ﴿ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ ﴾ الشيطان فظنوه حسناً ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي لا يرشد من هو كافر أثم إلى الصواب لمعاندته له ، ولما سبق له في الأزل أنه من أهل النار * ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ﴾ ؟ .

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ في الواحدي : نزلت في الحث على غزوة تبوك . وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من الطائف وغزوة حنين . أمر بالجهاد لغزو الروم ، وذلك في زمن عمرة من البأس ، وجذب من البلاء وشدة من الحر ، حين أخرفت النخيل ، وطابت الثمار ، فعظم على الناس غزو الروم ، وأحبوا الظلال والمقام في المساكن والمال ، وشق عليهم الخروج إلى القتال ، فلما علم الله تناقل الناس أنزل الله هذه الآية * وكذا في الغرائب والجلال والخازن والكشاف وبقية التفاسير : أما التفسير :

« كانت غزوة تبوك في رجب في السنة التاسعة بعد رجوعه ﷺ من الطائف وتبوك — مكان على طرف الشام بينه وبين المدينة أربع عشرة مرحلة — أمر النبي ﷺ بالخروج إلى الروم وكانوا في عسرة . أي قحط وضيق عيش . وسببها ما بلغ رسول الله ﷺ من أن هرقل جمع أهل الروم ، وأهل الشام . وأنهم قدّموا مقدماتهم إلى اللقاء ، وكان ﷺ قليلاً ما يخرج في غزوة إلا ورى عنها غيرها إلا ما كان من غزوة تبوك فقد أعلنها ، وذلك لبعدها المسافة وشدة الزمان ، وكثرة العدو ليأخذوا الناس أهبتهم ، فأمرهم بالجهاد ، وبعث إلى مكة ، وقبائل العرب ، وحض أهل الغنى على النفقة والحمل في سبيل الله . وهي آخر غزواته . وأنفق عثمان نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها ، فجهز عشرة آلاف ، وأنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل ، وهي تسعمائة بعير ومائة فرس ، وغير الزاد . وما يتعلق بذلك حتى ماتربط به الأسقية . وأنفق غيره من الأغنياء . وأول من جاء بالنفقة أبو بكر ، فجاء بجميع ماله : أربعة آلاف درهم . وجاء عمر بنصف ماله ، وجاء ابن عوف بمائة أوقية ، وجاء العباس بمال كثير ، وكذا طلحة ، وبعثت النساء بكل ما يقدرن عليه من حلين ، فلما تجهز رسول الله ﷺ بالناس وهم ثلاثون ألفاً ، وقيل أربعون ألفاً . وقيل سبعون ألفاً ، وكانت الخيل عشرة آلاف فرس . خلّف على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري . وقيل : عليّ بن أبي طالب ، وتخلّف عبد الله بن أبي ومن كان معه من المنافقين بعد أن خرجوا إلى ثنية الوداع . متوجهاً إلى تبوك ، وعقد الألوية ، والرايات فدفع لواء الأعظم لأبي بكر . ورايته العظمى للزبير ، وراية الأوس لأسيد بن حضير وراية الخزرج للحباب بن المنذر ، ودفع لكل بطن من الأنصار ، ومن قبائل العرب لواء وراية ، ولما نزل بتبوك ، وجدوا عينها قليلة الماء ، فاغترف رسول الله ﷺ غرفة من مائها ، فمضمض بها فاه ، ثم بصقه فيها ، ففارت عينها حتى امتلأت ، وارتووا هم وخيلهم ، وركابهم ، وأقاموا بتبوك بضع عشرة ليلة ، وقيل عشرين ليلة فأتاه . بجنة : صاحب أيلة . وأهدى له بغلة بيضاء ، فكساه النبي رداء ، وصالحه على إعطاء الجزية بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم ، وكتب له ولأهل أيلة كتاباً تركه عنده ليعملوا به . وقد استشار ﷺ أصحابه في مجاوزة تبوك . فأشاروا عليه بعدم مجاوزتها ، فانصرف هو والمسلمون راجعين إلى المدينة ، ولما دنا من المدينة تلقاه الذين

تخلفوا ، فقال لأصحابه لا تكلموا رجلاً منهم ، ولا تجالسوهم حتى آذن لكم . فأعرض عنهم والمسلمون حتى إن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه إلى آخر ما في قصة تبوك . فقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ افِرُّوا ﴾ اخرجوا للقتال : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّا قَاتَلْنَا ﴾ تباطأتم عن الخروج وأخذتم ﴿ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعه . أي ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم ﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ولذاتها وهو استفهام توبيخ وتعجب ﴿ مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ أي بدل نعيمها ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي ﴾ جنب متاع ﴿ الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ حقير لأن لذات الدنيا خسيصة في نفسها ومشوبة بالآفات والبليات ، ومنقطعة عن قرب الاحالة ، ومنافع الآخرة شريفة غالية خالصة عن كل الآفات دائمة أبدية سرمدية ، وذلك يوجب القطع بأن متاع الدنيا في جنب متاع الآخرة قليل . وقوله : ﴿ إِلَّا تَنْفَرُوا ﴾ تخرجوا مع النبي ﷺ للجهاد ﴿ يُعَذِّبُكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ مؤلماً يعني في الآخرة لأن العذاب الأليم لا يكون إلا في الآخرة . وقيل : إن المراد به احتباس المطر في الدنيا قال جنادة بن نفيع : سألت ابن عباس عن هذه الآية . فقال : استنفر رسول الله ﷺ حياً من أحياء العرب فتشاقلوا فأمسك الله عنهم المطر . فكان ذلك عذابهم * وقال الحسن وعكرمة : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفَرُوا كَافَّةً ﴾ وقال الجمهور : هذه الآية محكمة لأنها خطابٌ لقوم استنفرهم رسول الله ﷺ فلم ينفروا . أي فلا نسخ . ومن إتمام العقوبة ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ أي يذهبكم ويأتي بهم بدلکم فيكونوا أطوع منكم وأشد حماسة لدين الله منكم . قال سعيد بن جبیر : هم أهل اليمن . وفيه تنبيه على أن الله عز وجل قد تكفل بنصرة نبيه ﷺ ، وإعزاز دينه فإن سارعوا معه إلى الخروج إلى حيث استنفروا حصلت النصره بهم ، ووقع أجرهم على الله عز وجل ، وإن تشاقلوا وتخلفوا عنه حصلت النصره بغيرهم وحصلت العتبي لهم ، ولئلا يتوهوا أن اعزاز رسول الله ﷺ ونصرته لا تحصل إلا بهم . وهو قوله : ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً ﴾ أي بترك نصره ، فإن الله ناصر دينه ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه نصر دينه ونبيه ولو من غير واسطة *

القول في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ افِرُّوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ

وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿﴾ نزلت في الذين اعتذروا بالضعفة والشغل عن الجهاد .. فأبى الله تعالى أن يعذرهم دون أن ينفروا على ما كان منهم . قال أنس : قرأ أبو طلحة — انفروا خفافاً وثقالاً — فقال : ما أسمع الله عذر أحد فخرج إلى الشام حتى مات . وفي الواحدي : قال السدي : جاء المقداد بن الأسود إلى رسول الله ﷺ . وكان عظيماً سميناً ، فشكا إليه وسأله أن يأذن له ، فنزلت فيه : ﴿﴾ انفروا خفافاً وثقالاً ﴿﴾ فلما نزلت هذه الآية اشتد شأنها على الناس ففسخها الله تعالى ، وأنزل : ﴿﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى .. حَرْجٌ ﴿﴾ الآية ثم أنزل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين قوله تعالى : ﴿﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا .. ﴿﴾ الآية . وقوله تعالى : ﴿﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ... ﴿﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ لما خرج ضرب عسكره على ثنيته الوداع ، وضرب عبد الله بن أبي عسكره على ذي حده : أسفل من ثنيه الوداع ، ولم يكن بأقل من العسكرين فلما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبي بجن تخلف من المنافقين وأهل الريب ، فأنزل الله يعزى نبيه : ﴿﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا .. ﴿﴾ الآية * وفي مجمع الزوائد : عن ابن راشد قال : رأيت المقداد : فارس رسول الله ﷺ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ، قد فصل عليها من عظيمه يريد الغزو ، فقلت له : لقد أعذر الله إليك ، قال : أتت علينا سورة البعوث ﴿﴾ انفروا خفافاً وثقالاً ﴿﴾ رواه الطبراني وفيه بقية بن الوليد وفيه ضعف ، وقد وثق ، وبقية رجاله ثقات * الخفاف واحدهما خفيف . والثقال واحدهما ثقيل . وهما يكونان في الأجسام وصفاتها من صحة ومرض . ونخافة وسمن ونشاط وكسل ، وشباب وكبر ، ويكونان في الأسباب والأحوال كالقللة والكثرة في المال ، ووجود الراحلة وعدم وجودها . ووجوه الشواغل أو انتقالها . أي انفروا على كل حال من يسر أو عسر ، وصحة أو مرض ، وغني أو فقر ، وقلة العيال أو كثرتهم ... فإذا أعلن النفير العام وجب على كل قادر على حمل السلاح أن يدفع عن دينه ووطنه وعرضه وماله .. على العموم أي على الصفة التي يخف عليكم الجهاد فيها ، وعلى الصفة التي يثقل عليكم الجهاد فيها . ومن العلماء من حمل الأمر على الوجوب . ومنهم من حمله على الندب ، ومنهم من قال الآية منسوخة بقوله : ﴿﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا

على المرضى ... ﴿ الآية . والأصح أنه للوجوب أي إذا دخل الأعداء ديار الإسلام
ووجب على كل قادر على حمل السلاح أن يخرج . فعن مجاهد رضي الله عنه قال : إن أبا
أيوب الأنصاري شهد بداراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ . ولم يتخلف عن غزوة
غزاها المسلمون بعده ، فقيل له في ذلك : فقال : سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ انْفِرُوا
خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ ولا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً * وقال الزهري : خرج ابن المسيب ،
وقد ذهبت إحدى عينيه ، فقيل له : إنك عليل صاحب ضر ، فقال : استنفر الله
الخفيف والثقل فإن لم يمكنني الحرب كثرت السواد ، وحفظت المتاع * وقال صفوان بن
عمرو : كنت والياً على حمص ، فلقيت شيخاً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل
دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت له ياعم : أنت معذور عند الله . فرجع حاجبيه ،
وقال يا ابن أخي : استنفرنا الله خفافاً وثقالاً . إلا أنه من حبه بيتليه * ولا يستبعد أن
تكون الآية منسوخة في حكم ما إذا لم يدخل الأعداء ديار الإسلام فحينئذ يكون الأمر
فرض كفاية . وبه يوفق بين الأقوال التي سمعتها . وقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ
وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال الخازن : فيه قولان : الأول أن الجهاد إنما يجب على من
له مال يتقوى به على تحصيل آلات الجهاد . ونفس سليمة قوية صالحة للجهاد فيجب
عليه فرض الجهاد . والقول الثاني : أن من كان له مال وهو مريض . أو مقعد أو
ضعيف لا يصلح للحرب . فعليه الجهاد بماله بأن يعطيه غيره ممن يصلح للجهاد ، فيغزو
بماله ، فيكون مجاهداً بماله دون نفسه * أي إيجاب الجهاد بهما معاً إن أمكن وهو الأفضل
وأعلى درجة . أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة ، وقد فعل الأول كثير من
الصحابة الكرام كأبي بكر الصديق وعثمان وعمر وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين .
وقوله : ﴿ ذَلِكَكُمْ ﴾ أي ذلكم الجهاد بالمال والنفس ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ من القعود والتشاغل
به تدفون عن دينكم وأموالكم وأنفسكم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك ونحو الآية قوله
تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ أي يهلككم العدو إذا
لم تخرجوا إليه وكم من أمة كان عددها كثير فتقاعست عن الخروج . فاستولى عليها
أعداؤها ذوّوا العدد القليل *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ

لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون الأزدي قال : اثنتان فعلهما رسول الله ﷺ لم يؤمر فيهما بشيء : إذنه للمنافقين ، وأخذه الفداء من الأسارى . فأنزل الله ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ .. ﴾ وكذا في الكشاف والخازن والغرائب والطبري وغيرها : أما التفسير : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ، والعفو يستدعى سابقة ذنب . وقوله : ﴿ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ﴾ استفهام إنكار وبيان لما كنى عنه بالعفو . وذلك عتاب على طريق الملاحظة . والذي عليه المحققون أنه جاء على عادة العرب في التعظيم والتوقير ، فيقدمون أمثال ذلك بين يدي الكلام يقولون : عفا الله عنك ما صنعت في أمري رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي ، وعافاك الله ألا عرفت حقي ، وبعد حصول العفو من الله تعالى يستحيل أن يكون قوله : لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ وارد على سبيل الذم والإنكار . بل يحمل على ترك الأكمل ، والأولى ، لاسيما وهذه الواقعة كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا ، قال كثير من العلماء : في الآية دلالة على جواز الاجتهاد لأنه ﷺ أذن لهم من تلقاء نفسه من غير أن يكون لله في ذلك إذن * وتقديم العفو إشارة إلى أن من عظمة نبينا محمد ﷺ عند ربه سبحانه وتعالى : أن قدم العفو على العتاب على ما كان الأولى أن لا يفعله مما هو متعلق بالمصالح الدنيوية من باب التدبير في الحروب مع تلمظ في الخطاب كما هو دأب الحبيب مع حبيبه مطمئنا لقلبه * وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ في العذر . قال ابن عباس : لم يكن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين يومئذ حتى نزلت سورة براءة * ﴿ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ فيه وعبرة الطبري في تفسير الآية : هذا عتاب من الله عز وجل . عاتب الله به نبيه محمداً ﷺ . أي في إذنه لمن أذن له في التخلف عنه من المنافقين حين تبوك لغير الروم ، والمعنى : عفا الله عنك يا محمد ما كان منك في إذذك لهؤلاء المنافقين الذين استأذنوا في ترك الخروج معك إلى تبوك *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَنْفِي الْأَفْئِةَ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ في الواحدي : نزلت في جد بن قيس المنافق وذلك أن رسول الله ﷺ لما تجهز لغزوة تبوك قال له : يا أبا هب : هل لك في

جلاد بني الأصفر تتخذ منهم سرارى ووصفاء؟ فقال يارسول الله: لقد عرف قومي
أني مغرم بالنساء وإني أخشى إن رأيت بنات الأصفر أن لأصبر عنهن فلا تفتني بهن،
وائذن لي في القعود عنك، وأعينك بمالي، فأعرض عنه النبي ﷺ. وقال: قد أذنت
لك. فأنزل الله تعالى هذه الآية. فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لبني
سلمة. وكان الجد منهم. من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الجد بن قيس غير أنه بخيل
جبان، فقال النبي ﷺ: «وأي داء أدوأ من البخل!! بل سيدكم الأبيض الفتى الجعد
بشر بن البراء بن معرور» * وكذا روى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله
رضي الله عنه. وهو في مجمع الزوائد عن ابن عباس. وعبارته أن النبي ﷺ قال:
اغزوا تغنموا بنات بني الأصفر، فقال رجل من المنافقين إنه ليفتنكم بالنساء فأنزل الله
عز وجل ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي ﴾ رواه الطبراني، وفيه أبو شيبة
ابراهيم بن عثمان وهو ضعيف * وكذا في الكشاف والخازن. وفي آخر القصة قال ابن
عباس: اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق فأعرض عنه رسول الله ﷺ.
وقال: قد أذنت. فأنزل الله عز وجل فيه. ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ... ﴾ وكذا في بقية
التفاسير أما التفسير: ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي من المنافقين ﴿ مَنْ يَقُولُ ﴾ للنبي ﷺ حين
خرج إلى تبوك ﴿ ائْذَنْ لِي ﴾ في التخلف ﴿ وَلَا تَفْتِنِي ﴾ وهو الجد بن قيس.. أي
لا توقعني في الفتنة والمعصية والاثم رد الله عليه ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ بالتخلف عن
الخروج. ومخالفة الله ورسوله ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ على ما فعلوا ﴿ غِيظَةً بِالْكَافِرِينَ ﴾
تحيط بهم وتجمعهم فيها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى: ﴿ إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَبِتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ في اللباب: أخرج ابن
أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي
ﷺ أخبار السوء، يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا،
فبلغهم تكذيب حديثهم، وعافية النبي ﷺ وأصحابه. فسأهم ذلك. فأنزل الله:
﴿ إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ... ﴾ الآية وكذا رواه المراغي، والطبري. أما التفسير:
﴿ إِنْ تُصِيبْكَ حَسَنَةٌ ﴾ في بعض مغازيك كنصر وغنيمة ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ أي تحزنهم

﴿ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ ﴾ شدة من هزيمة ونحوها ﴿ يَقُولُونَ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا ﴾ بالحزم حين تخلفنا . قالوا ذلك متعجبين بما صنعوا حامدين لرأيهم . قد أخذنا أمرنا أي تلافينا وأدركنا أمرنا أي ما أهمنا من الأمور يعنون به الاعتزال عن المسلمين والقيود عن الحرب . والمدارة مع الكفرة وغير ذلك من أمور الكفر والنفاق قولاً وفعلاً * وقوله ﴿ مِنْ قَبْلِ ﴾ قبل هذه المصيبة ﴿ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بما أصابك ، وسلامتهم منهم أمر الله نبيه أن يقول لهم : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قال الجدد بن قيس : إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتن . ولكن أعينك بمالي . قال : فقيه نزلت : ﴿ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ .. ﴾ * وكذا في الكشاف والخازن والخطيب والطبري قال الخطيب : وهذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المنافقين فهي عامة في حق كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل أنفقه رياء وسمعة فإنه لا يقبل منه . أما التفسير : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا ﴾ في طاعة الله ﴿ طَوْعاً ﴾ من غير إلزام من جهته عليه الصلاة والسلام ﴿ أَوْ كَرْهاً ﴾ أي إلزاماً من جهته . وليس المراد بالطوع الرغبة لما سيأتي من قوله : ﴿ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ أي لا رغبة لهم ﴿ لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ﴾ ما أنفقتموه لأن هذا الانفاق إنما وقع لغير الله ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ فَاسِقِينَ ﴾ خارجين عن طاعة الله ورسوله . والأمر في قوله أنفقوا بمعنى الخبر ، فالمعنى نفقتكم غير مقبولة سواء كانت طوعاً أو كرها * وقد علل الله تعالى عدم قبولها بقوله : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ * النفقة لأنهم يعدونها مغرمًا لا يرجون عليها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْ مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ في الواحدي : قال أبو سعيد الخدري : بينا رسول الله ﷺ يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي ، وهو

حرقص بن زهير : أصل الخوارج . فقال : أعدل فينا يا رسول الله . فقال : ويلك ،
 ومن يعدل إذا لم أعدل؟! فنزلت : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ رواه البخاري
 عن عبيد بن محمد عن هشام عن معمر * وقال الكلبي : نزلت في المؤلفة قلوبهم وهم
 المنافقون . قال رجل يقال له أبو الخويصرة للنبي ﷺ : لم تقسم بالسوية . فأنزل الله
 تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ وكذا في الكشاف . وفي الطبري . عن
 داود بن أبي عاصم قال : أتى النبي ﷺ بصدقة فقسّمها ها هنا وها هنا حتى ذهبت ،
 ورأى ذلك رجل من الأنصار . فقال : ما هذا بالعدل . فنزلت هذه الآية . ومجموع
 الروايات يدل على أنّ أشخاصا من منافقي المدينة . قالوا ذلك لحرمانهم العطية ، ولم يقله
 أحد من المهاجرين ، ولا من الأنصار الأولين الذين بايعوا النبي ﷺ في منى . أما
 التفسير : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ اللمز : العيب والظن في الوجه ،
 والهمز : الظن في الغيبة . أي ومن المنافقين من يعيبك ويظن عليك في قسمة
 الصدقات ، وهي أموال الزكاة المفروضة . إذ يزعمون أنك تحابي فيها ، وتوتى من تشاء
 من الأقارب وأهل المودة ، ولا تراعى العدل في ذلك ، ثم بين تعالى أسباب لمزهم ﴿ فَإِنْ
 أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ﴾ ولم يلمزوا ﴿ وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي وإن لم
 يعطوا من الزكاة ، وهم ليسوا من أهلها فاجتوك بالسخط ، والهمز واللمز . فهم لاهم
 لهم إلا المنفعة الدنيوية ، ونيل حطام الدنيا *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ
 أُذُنٌ قُلٌّ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ
 يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الواحدي : نزلت في جماعة من المنافقين كانوا
 يؤذون رسول الله ﷺ . ويقولون : ما لا ينبغي ، قال بعضهم : لا تفعلوا فإننا نخاف أن
 يبلغه ماتقولون فيقع بنا ، فقال الجلاس بن سويد : نقول ماشئنا ، ثم نأتيه فيصدقنا بما
 نقول . فإنما محمد أذنٌ سامعة . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال محمد بن اسحاق بن
 يسار وغيره : نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحارث ، وكان رجلاً أذم
 أحمر العينين ، أسفح الخدين مشوه الحلقة ، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ : من أراد أن
 ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث ، وكان ينم حديث النبي ﷺ إلى

المنافقين ، فقيل له : لاتفعل . فقال : إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه . نقول
 ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال السدى : اجتمع
 ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت ، فأرادوا أن يقموا
 في النبي ﷺ . وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس . فحقره . فتكلموا
 وقالوا : لئن كان محمد حقاً لنحن أشر من الحمير ، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره . فدعاهم
 فسأهم ، فحلفوا أن عامراً كاذباً وحلف عامر أنهم كذبة . وقال : اللهم لاتفرق بيننا
 حتى تبين صدق الصادق من كذب الكاذب . فنزلت فيهم ﴿ وَمَنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ
 النَّبِيَّ .. ﴾ ونزل قوله : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ ... ﴾ وكذا في الخازن
 والطبري . أما التفسير : ﴿ وَمَنْهُمْ ﴾ أي المنافقين ﴿ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾ بعينه
 وينقل حديثه ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ إذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه ﴿ هُوَ أَذْنٌ ﴾ أي يسمع كل
 قيل ويقبله ، فإذا خلفنا له أننا لم نقل صدقنا ، وفي البيضاوي : وسمي بالجراحة للمبالغة
 كأنه من فرط استماعه صار جملة آلة الاستماع كما سمي الجاسوس عينا لذلك . ﴿ قُلْ ﴾
 هُوَ ﴿ أَذْنٌ ﴾ مستمع ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ كأنه قيل سلمنا أنه أذن . أي مستمع . أي كثير
 الاستماع لكنه يسمع الخير فقط ، لا الخير والشر كما تقولون ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ تفسير
 لكونه أذن خير لهم ﴿ وَيُؤْمِنُ ﴾ يصدق ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يسلم ويرضى لهم فيما
 أخبروه به لالغيرهم ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالرفع عطفاً على خير ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ أي
 للذين أظهروا الإيمان منكم يقبله منهم لكن لاتصدقهم في ذلك بل رفقاً بهم وترحمأ
 عليهم ، ولا يكشف أسرارهم ، ولا يهتك أستارهم . ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم في الآخرة . وقوله : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ ﴾ في
 الخازن : وقال مقاتل والكلبي : نزلت في رهط من المنافقين خلفوا عن غزوة تبوك ،
 فلما رجع رسول الله ﷺ أتوه يعتذرون ، ويخلفون ، فأنزل الله هذه الآية * والمعنى :
 يخلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعني فيما بلغكم عنهم من أذى رسول
 الله ﷺ . وقوله : ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم
 مؤمنين كما ترعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاء * ووحد الضمير في
 قوله ﴿ يُرْضَوْهُ ﴾ لأنه لاتفاوت بين رضا الله ورضا رسوله . فكانا في حكم شيء

واحد . أو والله أحق أن يضره ورسوله كذلك *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهْزَأُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ في الواحدي : قال السدي : قال بعض المنافقين . والله لو ددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة ، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا ، فأنزل الله هذه الآية * وقال مجاهد : كانوا يقولون القول بينهم . ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا * وفي الخازن : قال ابن كسيان : نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا لرسول الله ﷺ على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به ، إذا علاها ، وتنكروا له في ليلة مظلمة ، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بما أضمرُوا له ، وأمره من يرسل إليهم من يضر وجهه وراحلهم . وكان معه عمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله ﷺ ، وحذيفة يسوقها ، فقال لحذيفة : اضرب وجهه وراحلهم . فضربها حذيفة حتى نحاهم عن الطريق ، فلما نزل قال لحذيفة : من عرفت من القوم ؟ قال : لم أعرف منهم أحداً يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : فإنهم فلان وفلان حتى عدّهم كلهم . فقال حذيفة : هلا بعثت إليهم من يقتلهم ؟ فقال : أكره أن تقول العرب : لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم . بل يكفيناهم الله بالدبيلة * وقد أوضح رسول الله ﷺ الدبيلة في حديث مسلم عن قيس بن عباد . قال : قلت لعمار : أرايت قتالكم ، أراياً رأيتموه ؟ فإن الرأي يخطيء ويصيب ، أم عهداً عهده إليكم رسول الله ﷺ ؟ فقال : ما عهد إلينا رسول الله ﷺ شيئاً يعهده إلى الناس كافة وقال : إن رسول الله ﷺ قال : إن في أمتي قال شعبة : وأحسبه قد حدثني حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : إن في أمتي اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنة . ولا يجردون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط ، ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة : جراح من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم * أما التفسير : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ أي يخشى المنافقون . وقيل معنى يحذر : الأمر بالحدز : أي ليحذر المنافقون . ﴿ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾ أي على المؤمنين ﴿ تُنَبِّئُهُمْ ﴾ أي تخبر المؤمنين ﴿ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين . وذلك أن المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ، ويسترونه ويخافون الفضيحة ، ونزول القرآن

في شأنهم . قال قتادة : وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة المبعثرة . يعني أنها فضحت المنافقين . وبعثت عن أخبارهم وأثارها ، وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم . وقال ابن عباس : أنزل الله ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمةً منه على المؤمنين لتلا يعير بعضهم بعضاً لأن أولادهم كانوا مؤمنين * ﴿ قُلْ اسْتَهِزُوا ﴾ أمر تهديد لقوله تعالى : اعملوا ما شئتم ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَخْرُجٌ ﴾ مظهر ﴿ مَا تَخَذُرُونَ ﴾ أي ما كنتم تحذرونه من إظهار نفاقكم . في الكشف : بينا رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه . فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه ! هيات هيات . فأطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك . فقال : أحسبوا علي الركب . فأتاهم فقال : قلم كذا وكذا . فقالوا : يانبي الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ، ولا من أمر أصحابك . ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر * وما أورده الكشف هنا هو سبب لنزول الآية التالية .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ في الواحدي : قال قتادة : بينا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين إذ قالوا : يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها ، هيات له ذلك . فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال نبي الله : احسبوا على الركب فأتاهم فقال : قلم كذا وكذا . فقالوا يارسول الله : إنا كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وفي لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً . ولا أكذب ألسنة ، ولا أجبن عند اللقاء منهم ، فقال له رجل : وهو عوف بن مالك كما في الواحدي — ولكنك منافق . لأخبرن رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن ، قال ابن عمر : فأريته متعلقاً . بحقب رسول الله ﷺ والحجارة تنكبه ، وهو يقول يارسول الله : إنما كنا نخوض ونلعب : ورسول الله ﷺ يقول : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون * ثم أخرج من وجه آخر عن ابن عمر نحوه ، وسمى الرجل . عبد الله بن أبي . ففي الخازن : قال محمد بن اسحاق : الذي قال

هذه المقالة فيما بلغني هو ودبيعة بن ثابت : أخو أمية بن زيد بن عمر بن عوف . وذكر الخازن القولين المتقدمين ، وفيه وقال الكلبي ومقاتل : كان رسول الله ﷺ يسير في غزوة تبوك ، وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين : اثنان منهم يستهزئان بالقرآن والرسول . والثالث يضحك . قيل : كانوا يقولون : إن محمداً يزعم أنه أنزل في أصحابنا قرآن ، إنما هو قوله وكلامه . فأطلع الله بنية ﷺ على ذلك . فقال : أحبسوا على الركب . فدعاهم ، وقال لهم . قلم كذا وكذا ، فقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب . أما التفسير : ﴿ وَلَئِن ﴾ لام قسم ﴿ سَأَلْتَهُمْ ﴾ عن استهزائهم بك والقرآن وهم سائرون معك إلى تبوك ... ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ معتذرين لك ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ في التحدث ولم نقصد الاستهزاء بك ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَبالله ﴾ أي بفرائض الله وحدوده وأحكامه ﴿ وآياته ﴾ كتابه ﴿ ورسوله ﴾ محمد ﷺ ﴿ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ ﴾ . قال الخازن : يحتمل أن المنافقين لما قالوا كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام . قال بعض المسلمين : الله يعينه على ذلك . فذكر بعض المنافقين كلاماً يشعر بالقدح في قدرة الله . وإنما ذكر ذلك على طريق الاستهزاء * أي لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه ، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم . وبأنه موجود منهم حتى وبجوا .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَخْلِفُونَ بالله مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرٌ لَهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يُعَذِّبُهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ في الواحدى : قال الضحاک : خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك . وكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا في الدين . فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ يا أهل النفاق : ما هذا الذي بلغني عنكم ، فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا : رجلاً من جهينة ، ورجلاً من غفار . فظهر الغفاري على الجهني ، فنادى عبد الله بن أبي : يا بني الأوس انصروا أخاكم . فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما القائل : سمن كلبك يأكلك ، فوالله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل ، فسمع بها رجل من المسلمين ، ف جاء إلى رسول الله ﷺ

فأخبره ، فأرسل إليه ، فجعل يحلف بالله ما قال : وأنزل الله تعالى هذه الآية * وروى ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ . وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ جالساً في ظل شجرة ، فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان . فإذا جاء فلا تكلموا . فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله . فقال له : علام تشمتني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه . فحلفوا بالله ما قالوا ، فتجاوز عنهم ، فأنزل الله : يحلفون بالله ما قالوا ... » الآية * أما همهم بمالم ينالوا . فهو اغتيال رسول الله ﷺ في العقبة منصرفه من تبوك — ذاك أنه لما رجع رسول الله ﷺ قافلاً من تبوك إلى المدينة حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله ﷺ ناس من المنافقين . فتأمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق ، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه فلما غشيمهم رسول الله ﷺ أخبر خبرهم . فقال : من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادي فإنه أوسع لكم . وأخذ رسول الله ﷺ العقبة ، وأخذ الناس ببطن الوادي إلا نفر الذين هموا بالمكر لرسول الله ﷺ ، فإنهم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا ، وقد هموا بأمر عظيم ، وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه ، وأمر عماراً أن يأخذ زمام الناقة . وأمر حذيفة أن يسوقها . فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه ، فغضب رسول الله ﷺ ، وأمر حذيفة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ فرجع ومعه محجن ، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضرباً بالمحجن ، وأبصر القوم وهم متلثمون ولا شعر إلا أن ذلك فعل المسافر ، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه . فأسرعوا حتى خالطوا الناس . وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ ، فلما أدركه قال : « اضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمر ورائها » فأسرعوا حتى استووا بأعلاها فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس . فقال رسول الله ﷺ لحذيفة : « هل عرفت من هؤلاء الركب أحداً » ؟ قال حذيفة : عرفت راحلة فلان وفلان . وقال : كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون ، فقال رسول الله ﷺ : « هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا » ؟ قالوا : لا والله يا رسول الله ، قال : « فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت في العقبة طرحوني منها » قالوا : أولاً تأمر بهم يا رسول الله

إذا فنضرب أعناقهم؟ قال: «أكره أن يتحدث الناس ويقولوا: إن محمداً قد وضع يده
 في أصحابه» فسماهم لهما. وقال: «اكتاهم» * (المراغي) وفي الخازن: قال عروة بن
 الزبير: نزلت في الجلاس بن سويد أقبيل هو وابن امرأته مصعب من قباء، فقال الجلاس
 إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن شر من حمرنا هذه التي نحن عليها، فقال مصعب:
 أما والله يا عدو الله لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت، وخفت أن ينزل في القرآن، أو
 أن تصيبي قارعة. أو أن أخلط بخطيئة، فأتيت النبي ﷺ، فقلت يا رسول الله:
 أقبلت أنا والجلاس من قباء، فقال: كذا وكذا، ولولا مخافة أن أخلط بخطيئة أو تصيبي
 قارعة ما أخبرتك، قال: فدعا الجلاس، فقال: يا جلاس، أقلت ما قال مصعب؟
 فحلف ما قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا...﴾ الآية: وكذا في
 الطبري * وذكر البغوي عن الكلبي قال: نزلت في الجلاس بن سويد، وذلك أن
 رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك، فذكر المنافقين وسماهم رجسا وعابهم، فقال
 الجلاس: لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير. فلما انصرفوا إلى المدينة أتاه عامر
 بن قيس، فأخبره بما قال الجلاس، فقال الجلاس: كذب يا رسول الله عليّ. فأمرهما
 رسول الله ﷺ أن يخلفا عند المنبر، فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر، فحلف بالله
 الذي لا إله إلا هو ما قاله. ولقد كذب عليّ عامر، ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله
 إلا هو لقد قاله وما كذبت عليه، ثم رفع عامر يده إلى السماء. فقال: اللهم أنزل على
 نبيك تصديق الصادق منا. فقال رسول الله ﷺ والمؤمنون آمين، فنزل جبريل عليه
 السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فإن يتوبوا يك خيراً لهم. فقام الجلاس. فقال
 يا رسول الله: اسمع الله قد عرض عليّ التوبة. صدق عامر بن قيس فيما قاله. لقد قلته
 وأنا استغفر الله، وأتوب إليه، فقبل رسول الله ﷺ ذلك منه، فتاب وحسنت توبته،
 فذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا
 بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ..﴾ يعني أظهروا كلمة الكفر بعد إسلامهم، وتلك الكلمة هي سب
 النبي ﷺ. فقيل: هي كلمة الجلاس بن سويد: لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من
 الحمير. وقيل: هي كلمة عبد الله بن أبي سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز
 منها الأذل..» أما التفسير: ﴿يَخْلِفُونَ﴾ أي المنافقون ﴿بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ ما بلغك

عنهم من السب ، ويحلفون وما بعده استئناف سيق لبيان ما صدر عنهم من الجرائم الموجبة للأمر بجهادهم والغلظة عليهم ، ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ أظهروا كلام الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ من الفتك بالنبي ليلة العقبة عند عوده من تبوك ... ﴿ وَمَا نَقَمُوا ﴾ أنكروا ﴿ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام وبعثة الرسول ﷺ فيهم شيئاً يقتضي الكراهة والهم بالانتقام — إلا إغناء الله تعالى إياهم ورسوله من فضله بالغانم التي هي عندهم أحب الأشياء لديهم في هذه الحياة وكانوا كسائر الأنصار فقراء فأغناهم الله ببعثة الرسول ونصره ، ومن ثم قال رسول الله ﷺ للأنصار « كنتم عالة فأغناكم الله بي » والمعنى أن المنافقين عملوا بضد الواجب ، فجعلوا موضع شكر النبي ﷺ أن نقموا عليه ، وقيل : إنهم بطروا النعمة فنقموا أشراً وبطراً . قال الكلبي : كانوا قبل قدوم النبي ﷺ المدينة في ضنك من العيش . فلما قدم النبي ﷺ استغنموا بالغانم * وقال عكرمة : إن مولى لبنى عدى قتل رجلاً من الأنصار ، فقاضى له النبي ﷺ بالدية اثني عشر ألفاً . وفيه نزلت : وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله .. فعلى هذا القول يكون الكلام عاماً . وقوله : ﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أي فإن يتوبوا من كفرهم . ونفاقهم بك ذلك خيراً لهم في العاجل والآجل ﴿ وَإِنْ يَتُوبُوا ﴾ عن الإيمان والتوبة ﴿ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا ﴾ بالخزى والإذلال ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ في النار ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي وما لهم في الأرض كلها من يتولى أمورهم . ولا من ينصرهم ويدافع عنهم . إذ من خذله الله فلا يجدر أحد أن يجيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبتهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أحلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴿ أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ .. ﴾ الآية . أن رجلاً من الأنصار يقال له ثعلبة أتى مجلساً فأشهدهم قال : لئن آتاني

الله من فضله آتيت كل ذي حق حقه ، وتصدقت ، وجعلت منه للقرابة ، فابتلاه الله
فآتاه من فضله ، فأخلف ما وعده فأغضب الله بما أخلفه ما وعده ، فقص الله شأنه في
القرآن * وفي اللباب : أخرج الطبراني وابن مردويه ، وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل
بسند ضعيف . عن أبي أمامة ، أن ثعلبة بن حاطب ، قال يارسول الله : ادع الله أن
يرزقني مالاً . قال : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ، قال :
والله لئن آتاني الله مالاً لأوتين كل ذي حق حقه ، فدعا له فاتخذ غنماً فتمت حتى
ضاعت عليه أزقة المدينة ، فتنحى بها ، وكان يشهد الصلاة ، ثم يخرج إليها ، ثم تمت
حتى تعززت عليه مراعي المدينة ، فتنحى بها ، فكان يشهد الجمعة ، ثم يخرج إليها ثم
تمت فتنحى بها ، فترك الجمعة والجماعات ، ثم أنزل على رسوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ
صَدَقَةً تَطْهَرُ بِهِمْ ﴾ فاستعمل على الصدقات رجلين . وكتب لهما كتاباً ،
فأتيا ثعلبة ، فأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال : انطلقا إلى الناس فإذا فرغتم فمروا بي ،
ففعلا ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية ، فانطلقا ، فأنزل الله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ
لَنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ يَكْذِبُونَ ﴾ وأخرج ابن جرير وابن مردويه من
طريق العوفي عن ابن عباس نحوه . وكذا رواه صاحب الكشاف . وفي آخره : وقال :
ارجعا حتى أرى رأيي ، فلما رجعا قال لهما رسول الله ﷺ قبل أن يكلماه : يا ويح
ثعلبة مرتين ، فنزلت ، فجاء ثعلبة بالصدقة فقال : إن الله منعني أن أقبل منك ، فجعل
التراب على رأسه ، فقال : هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني فقبض رسول الله ﷺ .
فجاء بها إلى أبو بكر رضي الله عنه فلم يقبلها ، وجاء بها إلى عمر رضي الله عنه في
خلافته فلم يقبلها ، وهلك في زمان عثمان بن عفان رضي الله عنه * وكذا رواه الجلال
والخازن . قال الخازن : وهذا أحد قولين في سبب نزولها . والآخر أنه حاطب بن
بلتعة . قال السائب : إن حاطب بن بلتعة كان له مال بالشام . فأبطأ عليه . فجهد
لذلك جهداً شديداً . فحلف بالله لئن آتاني الله من فضله . يعني ذلك المال لأصدقن
منه . ولأصلن قرابتي . فلما آتاه ذلك المال لم يف بما عاهد الله عليه . فأنزل الله هذه
الآية وكذا بقية الأقوال في التفاسير مع بعض زيادة أو نقص في الألفاظ والمعنى واحد .
أما التفسير ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي المنافقين ، وإن كان ثعلبة صحيح الإسلام في ابتداء أمره .

لكنه صار منافقاً في آخر أمره ، فصح كونه من المنافقين . وفي الشهاب قيل : كان ثعلبة
 قبل ذلك ملازماً لمسجد رسول الله ﷺ حتى لقب بحمامة المسجد ، ثم رآه النبي ﷺ
 يسرع الخروج من المسجد عقب الصلاة ، فقال له رسول الله ﷺ : مالك تفعل فعل
 المنافقين فقال : إني افتقرت ولى ولا امرأتى ثوب أجيء به للصلاة * ثم أذهب فأزعه
 لتلبسه وتصلى به ، فادع الله أن يوسع في رزقي إلى آخر ما في القصة ... ﴿ من عاهد
 الله ﴿ فيه معنى القسم ﴿ لئن آتانا من فضله ﴾ تفسير لقوله عاهد . أي من الرزق
 ﴿ لنصدقن ﴾ جواب القسم . أن نعطي كل ذي حق حقه . وفي الكرخي : ﴿ ومنهم
 من عاهد الله ﴿ فيه معنى القسم ، فلذلك أجيب بقوله : لنصدقن ، وحذف جواب
 الشرط لدلالة هذا الجواب عليه ، واللام للتوطئة ، ولا يمتنع الجمع بين القسم واللام
 الموطئة للقسم * ﴿ ولتكونن من الصالحين ﴾ أي ولنعملن في ذلك المال ما يعمله أهل
 الصلاح بأموالهم من صلة الأرحام والانفاق في سبيل الله ، وجميع وجوه البر ، والخير .
 وإخراج الزكاة ، وإيصالها إلى أهلها . والصلاح ضد الفساد . والمفسد هو الذي يبخل
 بما يلزمه في حكم الشرع . وقيل : إن المراد بقوله لنصدقن إخراج الزكاة الواجبة ،
 وقوله : ولتكونن من الصالحين . إشارة إلى كل ما يفعله أهل الصلاح على الإطلاق من
 جميع أعمال البر والطاعة (الخازن) وقوله : ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا ﴾
 عما عاهدوا الله عليه حال كونهم ﴿ وهم معرضون ﴾ عن العهد ﴿ فأعقبهم نفاقاً ﴾
 أي فجعل الله عاقبة فعلهم ذلك نفاقاً وسوء اعتقاد ﴿ في قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾ أي
 الله وهو يوم القيامة . أي إنه تعالى حرمهم التوبة إلى يوم القيامة فيوافونه على النفاق
 فيجازيهم عليه . ﴿ بما أحلفوا الله ﴾ أي بسبب إخلافهم الله الوعد الذي قطعوه على
 أنفسهم ﴿ ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ فيه ، فجاء بعد ذلك إلى النبي ﷺ
 بزكاته ، فقال : إن الله منعه أن أقبل منك صدقتك ، فجعل يحثو على رأسه التراب .
 فقال له رسول الله ﷺ : هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني . فلما أتى رسول الله ﷺ
 أن يقبض صدقته رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله ﷺ ، ولم يقبل منه شيئاً . ثم أتى
 أبا بكر رضي الله عنه حين استخلف ، فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله
 وموضعي من الأنصار ، فأقبل صدقتي . فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ

وأنى أن يقبلها ، فقبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما ولى عمر رضي الله عنه أتاه ، فقال
 يا أمير المؤمنين : اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر . وأنا
 أقبلها منك ! فقبض ولم يقبلها فلما ولى عثمان رضي الله عنه أتاه فقال : اقبل صدقتي ،
 فقال : لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر . وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها
 منه ، فهلك ثعلبة في خلافة عثمان (ابن كثير) . وقوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ أي المنافقون
 مطلقاً لا بقيد كونهم الذين عاهدوا الله إذ الآيات الواردة في خصوص المعاهدين قد
 انقضت بقوله يكذبون . فهذا رجوع لما سبق في قوله : المنافقون والمنافقات .. ﴿ أَنْ
 اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ﴾ ما أسروه في أنفسهم ﴿ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ ما تناجوا به بينهم أي ما تحدثوا
 به من الفتك بالنبي ومنع الزكاة .. ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ما غاب عن العيان *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي
 الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ ﴾ في الواحدي : قال ابن مسعود : لما نزلت آية الصدقة جاء رجل فتصدق
 بصاع ، فقالوا : إن الله لغنى عن صاع هذا ، فنزلت : ﴿ الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
 الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ .. ﴾ رواه البخاري عن أبي قدامة : عبيد الله بن سعد عن أبي
 النعمان وفي مجمع الزوائد في قوله : ﴿ الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ عن
 أبي سلمة ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : تصدقوا ، فإني أريد أن أبعث
 بعثاً . قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف . فقال يارسول الله : عندي أربعة آلاف :
 ألفان أقرضتها ربي ، وألفان لعيالي ، فقال رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما
 أمسكت ، وبات رجل من الأنصار ، فأصاب صاعين من تمر ، فقال يارسول الله : إني
 أصبت صاعين من تمر ، صاع لربي ، وصاع لعيالي ، قال : فلمزه المنافقون . وقالوا :
 ما أعطى مثل الذي أعطى ابن عوف إلا رياء ، أو قالوا : ألم يكن الله ورسوله غنيين عن
 صاع هذا . فأنزل الله : ﴿ الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ
 وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ إلى آخر الآية . قال الهيثمي : رواه البزار من طريقين :
 إحداهما متصلة عن أبي هريرة ، والأخرى عن أبي سلمة مرسلة .. وروى عن أبي عقيل
 أنه بات بجزر الحجر على ظهره على صاعين من تمر ، فانفلت بأحدهما إلى أهله ينتفعون

به ، وجاء بالآخر يتقرب به إلى الله عز وجل ، فأقى به رسول الله ﷺ ، فقال له : انثره في الصدقة ، فقال فيه المنافقون ، وسخروا منه : ما كان أغنى هذا أن يتقرب إلى الله بصاع من تمر ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ الآيتين : رواه الطبراني . ورجاله ثقات إلا أن خالد بن يسار لم أجد من وثقه . ولا جرحه . وفي الواحدي : وقال قتادة وغيره : حث رسول الله ﷺ على الصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال يارسول الله : مالى ثمانية آلاف جئتك بنصفها . فاجعلها في سبيل الله ، وأمسكت نصفها لعياي ، فقال رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت * فبارك الله في مال عبد الرحمن حتى أنه خلف امرأتين يوم مات . فبلغ ثمن ماله لهما مائة وستون ألف درهم ، وتصدق يومئذ عاصم بن عدى بن العجلان بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما لأهلي وأتيتك بالآخرة . فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات . فلمزه المنافقون . وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء . وإن كان الله ورسوله غنيين عن صالح أى عقيل ، ولكنه أحب أن يزكي نفسه . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي لباب السيوطي : روى الشيخان عن ابن مسعود قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقالوا : مرأى ، وجاء فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغني عن صدقته ، فنزل : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ .. ﴾ الآية وكذا رواه المراغي . والخازن والكشاف والخازن . وفيه : وقا

يوماً . فنادى فيهم أن

بصاع من تمر . فقال

والخازن . وفيه : وقال العوفي : عن ابن عباس : إن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوماً . فنادى فيهم أن اجمعوا صدقاتكم فجمع الناس صدقاتهم ، ثم جاء رجل آخرهم بصاع من تمر . فقال يارسول الله : هذا صاع من تمر بت ليلتي أجر بالجرير الماء ، حتى نلت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخرة . فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات فسخر منه رجال . وقالوا : إن الله ورسوله لغنيان عن هذا ، وما يصنعون

بصاعك من شيء؟ ثم إن عبد الرحمن بن عوف قال لرسول الله ﷺ : هل بقي أحد من أهل الصدقات؟ فقال رسول الله ﷺ : لم يبق أحد غيرك * فقال له عبد الرحمن بن عوف ، فإن عندي مائة أوقية من الذهب في الصدقات ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أجنون أنت؟ قال : ليس بي جنون . قال : أفعلت ما فعلت؟ قال : نعم ، مالي ثمانية آلاف ، أما أربعة آلاف ، فأقرضها لربي . وأما أربعة آلاف فعلي ، فقال له رسول الله ﷺ : بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت . ولمزه المنافقون ، فقالوا : والله ما أعطى عبد الرحمن عطية إلا رياءً . وهم كاذبون إنما كان به متطوعاً . فأنزل الله عز وجل عذره ، وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر ، فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ الآية . أما التفسير : ﴿ الَّذِينَ يَلْمُزُونَ ﴾ يعيرون . في الصباح . لمزه لمزاً . من باب ضربه عابه . وقرأ بها السبعة . ومن باب قتل لغة ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها . ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ أصله المتطوعين . أي المتفليين ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ أي صدقات النفل لالغرض ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ ﴾ من المال ﴿ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ طاقتهم فيأتون به . في القرطبي : الجهد شيء يسير يعيش به المقل فيأتون به أي يجهدهم . وقوله : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ أي يستهزئون بهم ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ جازاهم على استهزائهم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم في الدار الآخرة * وبعد هذه الآية قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال المفسرون : لما نزلت الآيات المتقدمة في المنافقين ، وبيان نفاقهم . وظهر للمؤمنين . جاؤا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون ويقولون : استغفر لنا . فنزلت : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يا محمد ﴿ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وهذا كلام خرج مخرج الأمر . ومعناه الخبر . تقديره . استغفارك لهم وعدمه سواء . ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ بيان لاستحالة المغفرة لهم بعد المبالغة في الاستغفار أثر بيان الاستواء بينه وبين عدمه . ﴿ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ وفي البخاري حديث : لو أعلم أني لو زدت على السبعين غفر لزدت عليها . في الخازن : قال الضحاك : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ : إن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين لعل الله أن يغفر لهم ، فأنزل الله

تعالى : ﴿ سِوَاءَ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أي فَيَنْ لَهُمْ حَسْمُ الْمَغْفِرَةِ بِآيَةِ (سِوَاءَ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ *) ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي امتناع المغفرة لهم بسبب أنهم ﴿ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي إن سنة الله قد جرت فيمن أصروا على كفرهم وتمردوا في نفاقهم وأحاطت بهم خطاياهم — أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان فلا يهتدون إليهما سبيلاً . ومن خرج من الطاعة وأكب على المعصية فقلما تؤثر فيه المواعظ ويرعوى عما فيه . وعلى الأخص ممن علم الله عنادهم وإصرارهم على الكفر ، فلن يهتدوا أبداً *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ في الباب : أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ الناس أن يبيعثوا معه ، وذلك في الصيف ، فقال رجال يارسول الله : الحر شديد . ولانستطيع الخروج ، فلا ننفر في الحر . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ... ﴾ الآية . وأخرج عن محمد بن كعب القرظي : قال خرج رسول الله ﷺ في حر شديد إلى تبوك . فقال رجل من بني سلمة : — لاتنفروا في الحر فأنزل الله : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا .. ﴾ * وكذا في الطبري والخازن . أما التفسير : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أي فرح المخلفون عن غزوة تبوك ، في ابى السعود : أي الذين خلفهم النبي ﷺ بالاذن لهم في القعود عند استئذانهم ، أو خلفهم الله تعالى بتبسيطه إياهم لما علم في ذلك من الحكمة الخفية ، أو خلفهم كلهم أو نفاقهم * وهو عام ﴿ خِلَافَ ﴾ أي بعد ﴿ رسول الله ﴾ حيث مضى إلى الجهاد ، وتخلفوا عنه ، أو بقعودهم لمخالفتهم له . وإليه ذهب الطبري والزجاج ويؤيدهما قوله : ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قال الخازن : المعنى إنهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الخروج إلى الجهاد ، وذلك أن الإنسان يميل بطبعه إلى إثارة الراحة والقعود مع الأهل والولد ويكره اتلاف النفس والمال * ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي قال بعضهم لبعض . سرا أو علانية فالقول تام فيهما . ﴿ لَا تَنْفِرُوا ﴾ تخرجوا إلى الجهاد ﴿ فِي الْحَرِّ ﴾ قالوا ذلك حينما دعاهم الرسول عليه

الصلاة والسلام إلى الخروج إلى تبوك . وكانت في شدة حر وقحط . وفي ابن كثير : في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار . قال تعالى في الرد عليهم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ مما فررتم منه من الحر بل أشد حرا من النار كما قال الإمام مالك عن أبي الزناد . عن الأعرج ، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « نار بنى آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا يا رسول الله : إن كانت لكافية ، فقال : « فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » أخرجه في الصحيحين من حديث مالك به . وقوله : ﴿ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ أي يعلمون ذلك ما تخلفوا *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا تَوْأَمَتْهُمُ فَاسِقُونَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عمر : لما توفي عبد الله بن أبي جء ابنه إلى رسول الله ﷺ صلوات الله عليه . وقال : اعطني قميصك حتى أكفنه فيه ، وصل عليه واستغفر له ، فأعطاه قميصه ، ثم قال : آذني حتى أصلي عليه ، فأذنه ، فلما أراد أن يصلي عليه جذبه عمر بن الخطاب . وقال : أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : أنا بين خيرتين : أستغفر لهم أو لا أستغفر لهم ، ثم نزل عليه هذه الآية : ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره — فترك الصلاة عليه . رواه البخاري عن مسدد ، ورواه مسلم عن أبي قدامة : عبید الله بن أبي سعيد ، كلاهما عن يحيى بن سعيد * قلت : وأخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه بلفظ قال : لما توفي عبد الله بن أبي ، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ . فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلي ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ ، فقال يا رسول الله : أتصلي عليه . وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما خيرني الله فقال : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة . وسأزيده على السبعين قال : إنه منافق قال : فصلى عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ وأخرج عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعى له رسول الله

ﷺ ليصلي عليه ، فلما قام رسول الله ﷺ ، وثبت إليه ، فقلت يا رسول الله : أتصلي
 على ابن أبي . وقد قال يوم كذا وكذا . قال : أعدد عليه قوله ، فتبسم رسول الله
 ﷺ ، وقال : أخر عني يا عمر . فلما أكثرت عليه . قال : إني خيرت فاخترت ، لو
 أعلم إني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ، قال فصلى عليه رسول الله ﷺ ،
 ثم انصرف ، فلم يمكث يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة : ولا تصل على أحد منهم
 مات أبداً — إلى قوله — وهم فاسقون . قال : فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله
 ﷺ ، والله ورسوله أعلم» قوله لما توفي عبد الله . يعني ابن أبي سلول . قال الواقدي :
 إنه مات منصرفهم من تبوك . وذلك في ذي القعدة سنة تسع ، وكانت مدة مرضه
 عشرين يوماً ، وابتدأها من ليال بقيت من شوال .. وكذا ذكره الحاكم في الإكليل ،
 وقالوا : وكان قد تخلف هو ومن معه عن غزوة تبوك وفيهم نزلت ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ
 مَا زَادُواكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ قيل : هذا يدفع قول ابن التين أن هذه القصة كانت في أول
 الإسلام قبل تقرير الأحكام . قوله : فأعطاه . أى أعطى النبي ﷺ قميصه عبد الله .
 قال الكرمانى : لم أعطى قميصه المنافق ؟ ثم أجاب بقوله : أعطى لابنه . وما أعطى
 لأجل أبيه عبد الله بن أبي . وقيل : كان ذلك مكافأة له على ما أعطى يوم بدر قميصاً
 للعباس لثلاثين يوماً للمنافق مئة عليهم . قوله : ثم سأله أن يصلي عليه . إنما سأله بناءً على
 أنه حمل أمر أبيه على ظاهر الإسلام ، ولدفع العار عنه وعن عشيرته ، فأظهر الرغبة في
 صلاة النبي ﷺ . ووقعت إجابته إلى سؤاله على حسب ما ظهر من حاله إلى أن كشف
 الله الغطاء عن ذلك . وقول عمر رضي الله عنه : هناك ربك أن تصلي عليه . لعله استفاد
 النهي من قوله تعالى : « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » أو من
 قوله : « إن تستغفر لهم .. » وقال القرطبي : لعل ذلك وقع في خاطر عمر رضي الله
 عنه : فيكون من قبيل الإلهام . هذا : وذهب بعض أهل الحديث إلى تصحيح إسلام عبد
 الله بن أبي بصلاة النبي عليه . وهذا ليس بصحيح لمخالفته الأحاديث الصريحة بما ينافي
 ذلك . أخرج الطبراني من طريق سعيد بن قتادة في هذه القصة قال : فأنزل الله :
 ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره . قال : فذكر لنا النبي ﷺ قال :
 وما يغني عنه قميص من الله . وإني لأرجو أن يسلم بذلك ألف من قومه : قوله : فأنزل

الله تعالى إلى آخره .. زاد مسدد في حديثه عن يحيى القطان عن عبد الله بن عمر في
آخره : فترك الصلاة عليهم . وزاد ابن اسحاق في المغازي في حديث اللباب : فما صلى
رسول الله ﷺ على منافق بعده حتى قبضه الله تعالى . وقد أثبت الله لهم صفتي الكفر
والفسق ، وهما من صفات ابليس اللعين . أما التفسير : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾
من المنافقين ﴿ مَا تَأْتِيهِمْ مِنْ قَبْرِهٖ ﴾ لدفن أو زيارة وقد كان رسول الله ﷺ
إذا دفن الميت وقف على قبره . ودعا له . فممنع ههنا منه . وقال الكلبي : لاتقم
باصلاح مهمات قبره . وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا ﴾ تعليل للنهي المؤبد قال في الكشف :
وإنما قيل مات وماتوا بلفظ الماضي ، والمعنى على الاستقبال . على تقدير الكون الوجود
لأنه كائن موجود لا محالة ، وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر . لأن الكافر قد
يكون عدلاً في دينه ، والكذب في النفاق والخداع والجبن والخبث مستقبح في جميع
الأديان * أي أن الكافر قد يكون عدلاً في دينه بأن يؤدّي الأمانة . ولا يضمّر لأحد
سوءاً ، وقد يكون خبيثاً في نفسه كثير الكذب والمكر والخداع ، وإظهار السوء للغير ،
وهذا أمر مستقبح عند كل أحد ، ولما كان المنافق بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله تعالى
بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر . فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا
وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ . كافرون كما عبر به المفسرون . قالوا : لأن الكفر أعم من الفسق .
كل كافر فاسق وليس كل فاسق كافراً ، وقد أثبت لهم صفة الكفر فتعم * قلت : ومن
مات مسلماً تاركاً للصلاة كافراً بالله ورسوله باستحلال ما حرم أو بتحريم ما أحل الله
فلا يصلي عليه ولا يقام على قبره ، فهو أسوأ حالاً من عبد الله بن أبي ، فهذا كان يحضر
الصلاة ويخرج الزكاة مع كفره باطنياً وذلك كافر ظاهراً وباطناً . والله أعلم *
القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى
وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ذكر السيوطي في لبابه : أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن
ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله ﷺ فكنت أكتب براءة . فإني لو اضع القلم على
أذني إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه إذ جاءه أعمى ، فقال :
كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى . فنزلت : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ .. ﴾ الآية * وفي

الخازن : قال قتادة : نزلت الآية في عائذ بن عمرو وأصحابه * وقال الضحاك : نزلت في عبد الله بن أم مكتوم . وكان ضرير البصر * وقيل : هم مزينة وجهنية وبنو عذرة . أما التفسير : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ ﴾ كالشيوخ والنساء والولدان . ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ﴾ كالعمى والزمنى في المختار : الزمانة آفة في الحيوان . ورجل زمن أي مبتلى بالزمانة . ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ ﴾ في الجهاد لفقركم لجهينة ومزينة وبنى عذرة ﴿ حَرَجٌ ﴾ إثم في التخلف عن الجهاد ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ في حال قعودهم . بعدم الارجاف وإثارة الفتن ، ويسعوا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو ، ويقوموا بمصالح بيوتهم ، ويخلصوا الإيمان والعمل لله . ويتابعوا الرسول ، فجملة هذه الأمور تجري مجرى النصح لله ورسوله * وقوله : ﴿ مَا عَلَى الْمُخْسِنِينَ ﴾ بذلك ﴿ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ طريق بالمؤاخذة . أي ليس على من أحسن فنصح لله ورسوله في تخلفه عن الجهاد لأنه سد إحسانه طريق العقاب عن نفسه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلْتُمْ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيِبُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ في الواحدي : نزلت في البكائين ، وكانوا سبعة : معقل بن يسار وصخر بن خنيس . وعبد الله بن كعب الأنصاري . وسالم بن عمير . وثعلبة بن غنيمة . وعبد الله بن مغفل . أتوا رسول الله ﷺ . فقالوا يا نبي الله : إن الله عز وجل قد ندبنا للخروج معك . فاحملنا على الجفاف والمرقوعة والنعال المخصوصة فنزوا معك . فقال : لا أجد ما أحملكم عليه . فتولوا وهم يكون * قوله وكانوا سبعة . من الأنصار . أي من فقراهم جاؤا للنبي ﷺ يستحملونه . أي يسألونه أن يحملهم ، فقال : لا أجد ما أحملكم عليه . وعند ذلك تولوا . وأعنيهم تفيض من الدمع .. الآية . ومن ثم قيل لهم : البكاؤون . فحمل العباس منهم اثنين . وعثمان ثلاثة زيادة على الجيش الذي جهزه ، وهو ألف كما سبق . وحمل ياسين بن عمرو النضري اثنين . وفي الغرائب : قال مجاهد : هم أبناء مقرن : معقل وسويد والنعمان . وقيل أبو موسى

الأشعري وأصحابه أتوا رسول الله ﷺ يستحملونه . ووافق منه غضباً ، فقال : والله ما أحملكم ، ولا أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا وهم مدبرون سيكون ، فدعاهم وأعطاهم ذوداً . فقال أبو موسى : ألسنت حلفت يارسول الله . فقال : أما إني إن شاء الله لأحلف بيمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني * وفي الطبري : وقال آخرون : بل نزلت في عرياض بن سارية . وهكذا بقية الأقوال في التفاسير لا تخرج عما ذكرت . أما التفسير : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا آتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ معك إلى غزوة تبوك . وهم سبعة من الأنصار وقد تقدمت أسماؤهم . وقيل : غيرهم . وقيل هم أصحاب موسى الأشعري كما في البخاري وهو الصحيح ﴿ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ في أبي السعود : في إثارة هذا التعبير على لئس عندي .. لطف في الكلام ، وتطبيب لقلوب السائلين كأنه قال : أنا أطلب ماتسألونه . وأفتش عليه فلا أجده ، فأنا معذور . ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ جواب إذا أي انصرفوا ﴿ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ تسيل ﴿ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا ﴾ لأجل ﴿ أَنْ لَا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴾ في الجهاد ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ الطريق للمعاقبة . والطريق هي الأعمال السيئة . أي حصرانه ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ أي واجدون لأهبة الغزو مع سلامتهم من الضعف والعمى والزمانة ، لا علة لهم إلا أنهم ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ أي من النساء والأطفال والمعدورين ومن المنافقين المفسدين الفاسقين : ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي وأحاطت بهم خطاياهم وذنوبهم بحسب سنن الله في أمثالهم . فهم لا يعلمون حقيقة أمرهم ، ولا سوء عاقبتهم . وما هو سبب ذلك من أعمالهم ، فهم قد رضوا بالمهانة في الدنيا بانتظامهم في سلك النساء والأطفال * القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ في الواحدي : نزلت في أعراب من أسد وغطفان . وأعراب من أعراب حضري المدينة * وفي الخازن : نزلت في سكان البادية * يعني أهل البدو ، أشد كُفْرًا وَنِفَاقًا من أهل الحضرة * أي لجفائهم وقسوة قلوبهم وتوحشهم ، ونشأتهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم ، وهذا من باب وصف الجنس بوصف بعض أفرادها كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

كفوراً ﴿ إذ ليس كلهم كما ذكر . أما التفسير ﴿ الأعراب ﴾ أهل البدو . أي سكان
البادية . وهي ضد الحاضرة ، ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ من أهل المدن لجفائهم وغلظ
طباعهم ، وبعدهم عن سماع القرآن ﴿ وأجدر ﴾ أولى وأحق ﴿ أن ﴾ أي بأن
﴿ لا يعلموا ﴾ جاهلون ﴿ حُدِّدَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ من الأحكام والشرائع
﴿ والله عليهم ﴾ بخلقه ﴿ حكيم ﴾ في صنعه بهم *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ
اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن مجاهد . أنها نزلت
في بني مقرن الذين نزلت فيهم : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ .. ﴾ .
وأخرج عبد الرحمن بن معقل المزني ، قال : كنا عشرة ولد مقرن فنزلت فينا هذه
الآية . وكذا في الخازن والمراغي والطبري ، وقال الكلبي : هم أسلم وغفار وجهينة *
وكذا في الجلال . وكذا بقية الأقوال أما التفسير ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ أي بعض
الأعراب ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ كجهينة ومزينة ، وأسلم وغفار ، روى
الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : أسلم سالمها الله ، وغفار غفر
الله لها ، زاد مسلم في رواية له : أما إني لم أقلها لكن الله قالها . وأخرج الشيخان عن أبي
هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع
وغفار موالى ليس لهم مولى إلا الله تعالى * ﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ جمع
قربة . أي يطلب بما ينفق القربة إلى الله تعالى . ﴿ وَصَلَوَاتِ ﴾ دعوات ﴿ الرَّسُولِ ﴾
وذلك أنهم يرغبون في دعاء النبي ﷺ . فقد كان ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير
والبركة . ويستغفر لهم . ومنه قوله ﷺ : اللهم صل على آل أبي أوفى . ﴿ أَلَا إِنَّهَا ﴾
أي نفقتهم ﴿ قُرْبَةٌ ﴾ لهم عند الله ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ جنته ﴿ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ ﴾ لأهل طاعته ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ
وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ
يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ في الواحدي : قال الكلبي : نزلت في جهينة ومزينة

وأشجع وأسلم وغفار من أهل المدينة . يعني عبد الله بن أبي ، وجد بن قيس ومعتب بن بشير ، والجلال بن سويد وأبي عامر الراهب * العبارة مقتضبة وغير ظاهرة . والآية شروع في بيان أحوال منافقي أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان حال أهل البادية منهم . ومن حول بلدتكم منافقون كانوا نازلين حولها . ومن تبعضية . أي ومنافقون بعض من حولكم من القبائل : وبعض أهل المدينة . وقد علمت أن رسول الله ﷺ قد مدح جهينة وأسلم ومزينة .. نعم يستقيم القول إذا كان المراد بعض هؤلاء القبائل . أي القليل منها منافق ومدح النبي لها يحمل على الأكثر والأغلب منها . قال الخازن : ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين كالبيهقي والواحدي وابن الجوزي أنهم من أعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وكانت منازلهم حول المدينة . يعني : ومن هؤلاء الأعراب منافقون . قال : وما ذكروه مشكل لأن النبي ﷺ دعا هؤلاء القبائل ، ومدحهم فإن صح نقل المفسرين ، فيحمل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن حولكم من الأعراب ﴾ منافقون على القليل لأن لفظه من للتبعيض أي وهم الذين كانوا نازلين حولها قلت : ولعل نزول الآية كان قبل إسلام البعض منهم . ومدح الرسول لتلك القبائل كان بعد إسلامهم لسابقة بلاء حسن لهم في الإسلام . أخرج الشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيراً من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة أن الأقرع بن حابس قال للنبي ﷺ : إنما تابعتك سراف الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة خيراً من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان . قال : خابوا وخسروا . قال نعم * ولعل المنافقين مما ذكر من القبائل والله أعلم . « ومن أهل المدينة » عطف على خير المبتدأ الذي هو ممن حولكم . والمبتدأ منافقون أي من الأوس والخزرج منافقون . وقوله ﴿ مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ أي مرنوا عليه وتجهروا فيه . وما وصف الشيطان بالمارد إلا أنه اتخذ المعصية حرفته . ومرن وثبت عليها واعتادها ولم يتب منها . فالمنافقون أقاموا على نفاقهم . وأتقنوا صنيعه . ولم يتوبوا منه . ومما يدل على حذقهم في النفاق ومرانهم عليه ، ومهارتهم فيه قوله : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾ أي يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لأنهم يظهرون لك الإسلام ويضمرون الكفر ، وأنت تحكم على

الظاهر ، والله يعلم الظاهر والباطن ولذا قال ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ أي لا يعلمهم إلا الله . ولا يطلع على سرهم غيره . وقوله ﴿ سَعْدُيُهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ قيل : الفضيحة وعذاب القبر . وعن ابن عباس رضي الله عنه أنهم اختلفوا في هاتين المرتين ، فقال : قام رسول الله ﷺ خطيباً يوم الجمعة فقال : اخرج يا فلان فإنك منافق . اخرج يا فلان فإنك منافق . فأخرج ناساً وفضحهم ، فهو العذاب الأول . والثاني : عذاب القبر * وعن الحسن : أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم . الكشاف . وفي الطبري : قال : ثنا سعيد عن قتادة ﴿ سَعْدُيُهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ عذاب الدنيا وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم . ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثنى عشر رجلاً من المنافقين . فقال ستة منهم تكفيهم الدبيلة : سراج من نار جهنم يأخذ في كتف أحدهم حتي يفضي إلى صدره . وستة يموتون موتاً . وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رحمه الله كان إذا مات رجل يرى أنه منهم نظر إلى حذيفة فإن صلى عليه صلى عليه وإلا تركه . وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة : أنشدك الله أمنهم أنا ؟ قال : لا والله ، ولا أو من منها أحداً بعدك * وقال ابن زيد : ﴿ سَعْدُيُهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ قال : أما عذاب الدنيا فالأموال والأولاد . وقرأ قول الله : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالمصائب فيهم ، هي لهم عذاب . وهي للمؤمنين أجر . قال : وعذاب في الآخرة في النار ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ قال النار * ولم يرجح الطبري أحد الأقوال بل قال : وليس عندنا علم بأى ذلك . على أن في قوله جل ثناؤه : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ دلالة على أن العذاب في المرتين كليهما قبل دخولهم النار ، والأغلب من إحدى المرتين أنها في القبر *... قلت : ويرجح قول من قال : القتل وعذاب القبر . قياساً على عذاب آل فرعون . فقد ذاقوا عذاب الغرق . وعذاب القبر قال تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل * فعند قتلهم يذوقون ألم السلاح . وسيات الملائكة . إذ يضربون وجوههم وأدبارهم في ذلك الحين . ثم يردون إلى عذاب القبر . ثم إلى العذاب العظيم يوم القيامة . في الدرك الأسفل من النار *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجُوا بِدُئُوبِهِمْ مَخَضًا وَعَمِلُوا فِئْتَانًا يَلْمِزُونَ ﴾

صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت في قوم كانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . ثم ندموا على ذلك ، وقالوا : نكون في الكن والظلال مع النساء ورسول الله ﷺ وأصحابه في الجهاد . والله لئوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون الرسول هو يطلقها ويعذرنا . وأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد . فلما رجع رسول الله ﷺ مر بهم فرآهم . فقال : من هؤلاء ؟ قالوا هؤلاء تخلفوا عنك ، فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون أنت الذي تطلقهم ، وترضى عنهم . فقال النبي ﷺ : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم . رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين . فأنزل الله تعالى هذه الآية . فلما نزلت أرسل إليهم النبي ﷺ . وأطلقهم وعذرهم ، فلما أطلقهم قالوا يارسول الله : هذه أموالنا التي خلفتنا عنك . فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا . فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً . فأنزل الله عز وجل : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم .. ﴾ الآية . وقال ابن عباس كانوا عشرة رهط * وفي اللباب : أخرج ابن مردويه . وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال : غزا رسول الله ﷺ . فتخلف أبو لبابة وخمسة معه ، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلاك . وقالوا : نحن في الظلال والطمأنينة مع النساء ورسول الله ﷺ والمؤمنون معه في الجهاد . والله لئوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقها . ففعلوا . وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم . فرجع رسول الله ﷺ من غزوته فقال : من هؤلاء الموثقون بالسواري ؟ فقال رجل : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا . فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم ، فقال : لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم ، فأنزل الله ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ .. ﴾ فلما نزلت أطلقهم وعذرهم . وبقي الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم لم يذكروا بشيء وهم الذين قال الله فيهم ﴿ وَآخَرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ الآية . فجعل أناس يقولون هلكوا إذ لم ينزل عذرهم ، وآخرون يقولون : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ حتى نزلت ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفُوا ... ﴾ الآية وفي رواية قتادة : أنها نزلت في سبعة : أربعة . منهم ربطوا أنفسهم في السواري ، وهم أبو لبابة ومرداس

وأوس بن خذام وثلعة بن وديعة * وأخرج أبو الشيخ وابن منده في الصحابة من طريق الثوري عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : كان ممن تخلف عن رسول الله ﷺ في تبوك ستة : أبو لبابة وأوس بن خذام وثلعة بن وديعة ، وكعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فجاء أبو لبابة وأوس وثلعة . فربطوا أنفسهم بالسواري ، وجاءوا بأموالهم . فقالوا يارسول الله : خذ هذا الذي حبسنا عنك . فقال : لأحلهم حتى يكون قتال . فنزل القرآن ، ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ الآية قال السيوطي : اسناده قوي . وأخرج ابن مردويه بسند فيه الواقدي عن أم سلمة . قالت : إن توبة أبي لبابة نزلت في بيتي ، فسمعت رسول الله ﷺ يضحك في السحر ، فقلت : ما يضحك يارسول الله ؟ قال : تيب على ابن لبابة ، فقلت : أؤذنه بذلك ؟ فقال : ماشئت ، فقممت على باب الحجر . وذلك قبل أن يضرب الحجاب ، فقلت يا أبا لباب : أبشر فقد تاب الله عليك ، فثار الناس ليطلقوه ، فقال حتى يأتي رسول الله ﷺ فيكون هو الذي يطلقني ، فلما خرج إلى الصبح أطلقه فنزلت : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ * أما التفسير : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ أي وقوم آخرون من المتخلفين اعترفوا بذنوبهم أي تخلفهم * خلطوا جهادهم الصالح قبل ذلك بتخلفهم السيئ ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ أن يقبل توبتهم المفهوم من قوله اعترفوا بذنوبهم وعبر بعسى للأشعار بأن ما يفعله تعالى ليس إلا على سبيل التفضل منه حتى لا يتكل المرء بل يكون على خوف وحذر . واتفق المفسرون على أن كلمة عسى من الله واجب . قال أهل المعاني لأن لفظ عسى تفيد الأطماع . ومن أطمع إنساناً في شيء ، ثم حرمه كان عاراً عليه . والله تعالى أكرم من أن يطمع أحداً في شيء ثم لا يعطيه إياه * ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ كثير المغفرة لذنوب عباده ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم * روى البخاري عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال : « أتاني الليلة — أي في المنام — ملكان فاتبعثاني . فاتبعاني إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فتلقتنا شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء . وشطر كأقبح ما أنت راء ، قال لهم : اذهبوا فقعدوا في ذلك النهر ، فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم . فصاروا في أحسن صورة ، قال لي : هذه جنة عدن . وهذا منزلك . قال : وأما القوم الذين كانوا شطرا

منهم حسن . وشطرا منهم قبيح . فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقد تجاوز الله عنهم » ولاشك أن هذا تمثيل في الرؤيا لتجميل العمل الصالح للنفس ، وتشويه العمل القبيح لها ، ولتطهيرها بالتوبة وصالح العمل حتى تكون كلها جميلة وأهلاً للكرامة بعد أن تبعث كلها في الصورة التي كانت عليها قبل التوبة * وتذليل الآية بالمغفرة والرحمة يفيد إنجاز الوعد *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرُوجُ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ في الواحدي : نزلت في كعب بن مالك : ومرارة بن الربيع أحد بني عمر بن عوف . وهلال من بني واقف تخلفوا عن غزوة تبوك . وهم الذين ذكروا في قوله : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا .. ﴾ الآية * وكذا في الخازن . وفي المراغي : قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة : هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة . وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية . قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً وميلاً إلى الدعة والتمتع بطيب الثمار والتفيؤ بالظلال لاشكاً ولا نفاقاً ، وكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري ، كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون . فنزلت توبة الأولين قبل توبة هؤلاء ، وأرجعت توبة هؤلاء ، حتى نزلت آية التوبة : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ .. ﴾ والقصة مشهورة . وذلك أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك أمر أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري . وإظهار الجزع والغم ، فلما علموا أن أحداً لا ينظر إليهم فوضوا أمرهم إلى الله تعالى . وأخلصوا له نياتهم . ونصحت توبتهم فرحمهم الله * وأنزل : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّهُ بِهِمْ رُؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ قال الزمخشري في قوله : ﴿ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ كقوله : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ .. وهو حث للمؤمنين على التوبة ، وأنه مامن مؤمن إلا وهو يحتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرين والأنصار . وقيل : تاب الله عن إذنه للمنافقين في التخلف عنه . وقوله في الآية هنا : ﴿ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أي

الشدة وضيق الحال . وقال جابر : عسرة الظهر ، وعسرة الزاد ، وعسرة المال . قال مجاهد وغيره — كما تقدم — نزلت هذه الآية في غزوة تبوك . وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة الحر في سنة مجدبة ، وعسر من الزاد والماء . وقال قتادة : ذكر أن الرجلين كانا يقتسمان التمرة بينهما . وكان نفر يتناولون التمرة بينهم يمصها هذا ، ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ، ثم يشرب عليها . فتاب الله عليهم وأقبلهم من غزوتهم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ ﴾ أن تميل قلوب فريق منهم عن الحق وتشك في دين رسول الله ﷺ بالذي نالهم من المشقة والشدة : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي رزقهم الله الإجابة إليه والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي إن الله ﴿ بِهِمْ رَوْفٌ رَحِيمٌ ﴾ أخرج البخاري عن ابن شهاب قال : أخبرني عبد الرحمن بن كعب . قال : أخبرني عبد الله بن كعب ، وكان قائد كعب من بنيه حين عمى ، قال سمعت كعب بن مالك في حديثه : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » قال في آخر حديثه « إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله ، فقال النبي ﷺ : أمسك بعض مالك . فهو خير لك » قلت : وأبناء كعب بن مالك ثلاثة وهم عبد الله ، وعبد الرحمن وعبيد الله . وكلهم رووا عن أبيهم * أما التفسير : ﴿ وَأُخْرُونَ مُّزَجَّوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي ومن المتخلفين ناس آخرون مؤخرون لحكم الله في أمرهم ﴿ إِمَّا أَنْ يُعَذِّبَهُمْ وَإِمَّا يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي إن أمرهم دائر بين هذين : التعذيب والتوبة . أي إما أن يعذبهم بأن يمتتهم بلا توبة . وهذا نوع من الترديد بالنظر لاعتقادنا فيهم ، وإلا فالله تعالى عالم يقين ماهو فاعله بهم . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بخلقه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في صنعه بهم . وهم الثلاثة المذكورون *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم ، فاتاهم فصلى فيه ، فحسداهم إخوتهم بنو عمرو ، وقالوا : نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله ﷺ ليصلى فيه كما يصلى في مسجد إخواننا . وليصل فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام . وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية وتنصر ولبس المسوح ، وأنكر دين الخليفة لما قدم رسول

الله ﷺ المدينة ، وعاداه ، وسماه النبي ﷺ أبا عامر الفاسق ، وخرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح . وابنوا إلى مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر فأتى بجند الروم . فأخرج محمداً وأصحابه ، فبنوا مسجداً إلى مسجد قباء ، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً . حزام بن خالد . ومن داره أخرج إلى المسجد . وثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير ، وأبو حبيبة بن الأرعن ، وعباد بن حنيف ، وحرثة وجارية وابناه : مجمع الزوائد ، ونبيل بن حارث ، ولحاد بن عثمان ، ووديعة بن ثابت . فلما فرغوا منه أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : إنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية . وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه . فدعا بقميصه ليلبسه فيأتيهم ، فنزل عليه القرآن ، وأخبر الله عز وجل خبر مسجد الضرار ، وما هموا به . فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ومعين بن عدى وعامر بن شكر ، والوحشي قاتل حمزة . وقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه وأحرقوه ، فخرجوا فانطلق مالك وأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه النار ، ثم دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه ، وتفرق عنه أهله ، وأمر النبي ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة تلقى فيها الجيف والتن والقمامة ، ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً * وكذا في الخازن . ولم يذكر آخر القصة في متن واحد . بل ذكرها مفرقة في تفسير الآية . قلت : وأبو عامر الراهب هو والد حنظلة غسيل الملائكة وعبارة الخازن : فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك . فقالوا يارسول الله : إنا قد بيننا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا ، وتصلي لنا فيه وتدعو بالبركة . فقال رسول الله ﷺ : إني على جناح سفر ، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا فيه . فلما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك راجعاً ، نزل بذي أوان — وهو قريب من المدينة — فأتاه المنافقون . وسألوه أن يأتي مسجدهم . فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية . وأخبره خبر مسجد الضرار ، وما هموا به فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم ... الخ ... ما ذكره الواحدي * وقال ابن كثير : سبب نزول هذه الآيات الكريمات . أن كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له : أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وقرأ علم

أهل الكتاب . وكان فيه عبادة في الجاهلية . وله شرف في الخزرج كبير . فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة . واجتمع المسلمون عليه . وصارت للإسلام كلمة عالية . وأظهرهم الله يوم بدر . شرق اللعين أبو عامر بريقة وبارز بالعداوة . وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ . فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب . وقدموا عام أحد . فكان من أمر المسلمين ما كان . وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين . وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ . وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت ربايعته اليمنى السفلى ، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار . فخاطبهم واستألمهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه . قالوا : لأنعم الله بك عينا يافاسق . ياعدو الله . ونالوا منه فسبوه . فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر . وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره . وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد . فدعا رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً ، فالتته هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنهم أن سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ . ويقبله ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه . ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء . فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاؤا فسألوه رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته . وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء ... الخ .. ماتقدم ذكره في نفس السياق والمعنى . وهكذا بقية الأقوال في التفاسير ﴿ وَ ﴾ منهم ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ﴾ وهم اثنا عشر من المنافقين كانوا يصلون في مسجد قباء ، فبنوا ذلك المسجد ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة بدليل قوله : ﴿ ضِراراً ﴾ أي مضارة لأهل مسجد قباء . وعلى القول بمصدرية ضراراً يكون المعنى . اتخذوه مضارين لإخوانهم

﴿ وَكُفْرًا ﴾ لأنهم بنوه بأمر أبي عامر الراهب ليكون معقلاً له . يقدم فيه من يأتي من عنده . وكان قد ذهب إلى الروم بالشام ليأتي بجنود من قيصر لقتال النبي ﷺ كما علمت : ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين يصلون بقاء بصلاة بعضهم في مسجدهم . ﴿ وَإِزْصَادًا ﴾ ترقباً ﴿ لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي قبل بنائه . وهو أبو عامر المذكور ﴿ وَلِيُخْلِفَنَّ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَرَدْنَا ﴾ بينائه ﴿ إِلَّا ﴾ الفعله ﴿ الْحُسْنَى ﴾ أي الخصلة الحسنى . لأن الحسنى صفة الموصوف محذوف . قال الزمخشري : ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى . أو الإرادة الحسنى . وهي الصلاة * أي ما قصدوا ببنائه لشيء من الأشياء إلا الإرادة الحسنى ، وذلك من الرفق بالمسكين في المطر والحر والتوسعة على المسلمين . وقد وقفت على عبارة الخازن في هذا قبل قليل : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في ذلك ، وكانوا سألوا النبي ﷺ أن يصلى فيه فنزلت : ﴿ لَا تَقُمْ ﴾ تصل ﴿ فِيهِ أَبَدًا ﴾ فامتثل وأرسل جماعة لهدمه وتحريقه ، وجعلوا مكانه كناسة تلقى فيها الجيف . ثم مدح الله مسجد بقاء بقوله : ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ أي أنه رسول الله ﷺ ، وصلى فيه أيام مقامه بقاء ، وهو يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس من مقدمة مهاجراً من مكة . وخرج صبيحة الجمعة فدخل المدينة . هذا على القول بأنه أقام هناك أربعة أيام . وقيل : أقام أربعة عشر . وقيل اثنين وعشرين . ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ وضع يوم حلت بدار الهجرة ، وهو مسجد بقاء كما في البخاري . وقيل : هو مسجد المدينة . وعبارة الكرخي : والتحقيق أن رواية نزوله في مسجد بقاء لاتعارض تنصيبه صلى الله عليه وآله وسلم على أنه مسجد المدينة . فإنها لاتدل على اختصاص أهل بقاء بذلك * والحق أنه لا منافاة بين الآية ، وبين الحديث الصحيح أنه مسجد المدينة . لأنه إذا كان مسجد بقاء قد أسس على التقوى من أول يوم من هجرة رسول الله ﷺ مع عدم إقامته الدائمة في بقاء ، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى . وقوله : ﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ أي تصلي فيه . ﴿ فِيهِ رِجَالٌ ﴾ هم الأنصار من بنى عامر بن عوف الذي بنوه ﴿ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ أي من الأحداث والجنابات وسائر النجاسات . وهذا قول أكثر المفسرين . قال الإمام فخر الدين الرازي : المراد من هذه الطهارة الطهارة من الذنوب

والمعاصي . وعلل بعد ذلك بعدة وجوه .. ﴿ وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ أي يشيهم . وأنت ترى أن الآية نزلت في مسجد قباء لعدة قرائن قد وقفت عليها * فقد كان أهل قباء يجمعون الحجارة والماء في غسل أديبارهم من الغائط ، فاستحقوا المدح بذلك . فالدين نظيف لاتليق به إلا النظافة . أما القذارة فمن الشيطان عدو الرحمن *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَغَدَاً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكمم الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ في الواحدي : قال محمد بن كعب القرظبي : لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً ، قال عبد الله بن رواحة يارسول الله : اشترط لربك ونفسك ماشئت : فقال : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة . قالوا : ربح البيع لانقيل ولا نستقبل ، فنزلت هذه الآية * وكذا رواه ابن جرير عن عبد الله بن رواحة * وأخرج ابن سعد في طبقاته عن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت . أن سعد بن زرارة أخذ بيد رسول الله ﷺ ليلة العقبة ، فقال يا أيها الناس : هل تدرون علام تبايعون محمداً ؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإنس كافة ؟ فقالوا : نحن حرب لمن حارب وسلم لمن سالم . فقال يارسول الله : اشترط عليّ فقال : « تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة . ولا تنازعوا الأمر أهله . وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهلكم » : قالوا : نعم . قال : قائل الأنصار : نعم هذا لك يارسول الله . فما لنا ؟ قال : « الجنة والنصر » . ونحوه في الخازن والكشاف وابن كثير وغيرها من التفاسير . قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ بأن يبذلوها في طاعته وعبارة أبي السعود : ترغيب للمؤمنين في الجهاد ببيان فضيلته إثر بيان حال المتخلفين عنه ، وقد بولغ في ذلك على وجه مزيد عليه حيث عبر عن قبول الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله وإثابته إياهم بمقابلتها بالجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ، ثم جعل المبيع

الذي هو العمدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم . وجعل الثمن الذي هو الوسيلة في الصفة الجنة ، ولم يجعل الأمر على العكس . بأن يقال : إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصود في العقد هو الجنة . وما بذله المؤمنون في مقابلتها وسيلة إليها إيدانا بكمال العناية بهم وبأموالهم . ثم إنه لم يقل بالجنة . بل قال : بأن لهم الجنة مبالغة في تقرير وصول الثمن إليهم ، واختصاصه بهم كأنه قيل : بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم * وقوله : ﴿ **بَأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ** ﴾ متعلق باشتري . وقرأ عمر بن الخطاب . إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بالجنة . وقوله : ﴿ **يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ في أبي السعود : يقاتلون في سبيل الله . استئناف لكن لا لبيان نفس الاشتراء لأن قتالهم في سبيل الله ليس باشتراء من الله أنفسهم وأموالهم بل لبيان البيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور . كأنه قيل كيف يبيعونها بالجنة ؟ فقيل يقاتلون .. الخ ﴿ **فَيُقَاتِلُونَ وَيُقْتَلُونَ** ﴾ أي فيقتل بعضهم ويقاتل الباقي لأنه لا يمكن اجتماع الأمرين في الشخص الواحد بل يتحقق الفضل العظيم ، وإن لم يوجد واحد من الوصفين كما إذا وجدت المضاربة من غير قتل ، بل يتحقق الجهاد بمجرد العزم وتكثير السواد . وقوله : ﴿ **وَعِدَاً عَلَيْهِ حَقًّا** ﴾ أي تحقق وثبت ﴿ **فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ** ﴾ وفي هذا دلالة على أن الوعد بالجنة لهذه الأمة مذكور في كتب الله المنزلة . ﴿ **وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ** ﴾ أي لأحد أوفى منه . فإن اخلاف الميعاد مما لا يكاد يصدر عن كرام الخلق مع إمكان صدوره منهم فكيف بجانب الخالق أكرم الأكرمين ؟ ﴿ **فَاسْتَبَشِرُوا** ﴾ الاستبشار إظهار السرور ، والسين هنا ليست للطلب فهي للمطوعة كاستوقد . والفاء ليست للتعصب بل للترتيب أي لترتيب الاستبشار على ما قبله وما بعده وهو ﴿ **يَبْعَثُكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ** ﴾ رسول الله ﷺ ﴿ **وَذَلِكَ** ﴾ البيع ﴿ **هُوَ الْفَوْرُ الْعَظِيمُ** ﴾ بالجنة والنعيم المقيم *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَعْفِفُوا** ﴾ للمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ في الواحدي : حدث سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله ﷺ . وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية . فقال : أي عم . قل معي لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل ، وابن أبي أمية : يا أبا طالب ،

أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به على ملة
أبي طالب . فقال النبي ﷺ : لأستغفرن لك ما لم أنه عنه . نزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ
وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ رواه البخاري عن إسحاق بن إبراهيم عن عبد الرازق عن معمر ،
عن الزهري . ورواه مسلم عن حرمة عن ابن وهب عن يونس كلاهما عن الزهري *
وفي اللباب : وأخرج الترمذي وحسنه الحاكم عن علي قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه
وهما مشركان ، فقلت له : أتستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : استغفر إبراهيم لأبيه
وهو مشرك . فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية : وأخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل وغيرهما عن ابن
مسعود قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فجلس إلى قبر منها . فناجاه
طويلاً . ثم بكى فبكيت لبكائه . فقال : إن القبر الذي جلست عنده قبر أمي ، وإني
استأذنت في الدعاء لها فلم يأذن لي . فأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية * قال الحافظ ابن حجر : يحتمل أن يكون لنزول الآية
أسباب متقدمة وهو أمر أبي طالب . ومتأخر وهو أمر آمنة وقصة علي . وجمع غيره
بتعدد النزول * وفي رواية مسروق بن الأجدع عن عبد الله بن مسعود قال : خرج
رسول الله ﷺ ينظر إلى المقابر ، وخرجنا معه فجلسنا ، ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى
قبر منها فناجاه مناجاة طويلاً ، ثم ارتفع ، وجئنا رسول الله ﷺ فبكينا لبكاء رسول الله
ﷺ ، ثم إنه أقبل إلينا ، فتلقاه عمر بن الخطاب ، فقال يارسول الله : ما الذي أبكاك ،
فقد أبكيتنا وأفزعتنا ؟ فجاء فجلس إلينا فقال : أفرعكم بكائي ؟ فقلنا : نعم ، فقال :
إن القبر الذي رأيتموني أناجي فهو قبر آمنة بنت وهب . وإني استأذنت ربي في زيارتها
فأذن لي فيها ، واستأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه — ونزل — ﴿ مَا كَانَ
لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ... ﴾ حتى ختم الآية : ﴿ وَمَا كَانَ
اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَنْ موعِدَةٍ وَعدها إِيَّاهُ ﴾ فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من
الركة ، فذلك الذي أبكاني * وليس في التفاسير زائد على ما ذكر . أما التفسير :
﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي ما ينبغي ولا يجوز للنبي والمؤمنين ﴿ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا

لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ كَازَرَ وَأَبَى طَالِبَ ﴾ ﴿ وَتَوَّ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ ﴾ ذُو قُرَابَةِ كَالْآبَاءِ
 وَالْأُمَّهَاتِ وَالْأَعْمَامِ وَالْعَمَاتِ ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ ﴿ بَانَ مَا تَوَّ عَلَى الْكُفْرِ ﴾ ﴿ أَنَّهُمْ
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ ﴿ النَّارَ لِمَوْتِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَهُمُ النَّذِيرَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَانَ
 اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدِّهَا إِيَّاهُ ﴾ بِقَوْلِهِ : سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي رَجَاءً أَنْ
 يَسْلَمَ . قَالَ الْكَرْخِيُّ : وَجْهٌ تَعَلَّقَ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَا قَبْلَهَا إِنَّهُ تَعَالَىٰ لَمَّا بَالِغٌ فِي وَجُوبِ
 الْإِنْقِطَاعِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ بَيِّنٌ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ غَيْرَ مُخْتَصٍّ بِبَدِينِ مُحَمَّدٍ
 ﷺ . بَلْ هُوَ مُشْرُوعٌ أَيْضًا فِي دِينِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَتَكُونُ الْمُبَالِغَةُ فِي وَجُوبِ
 الْإِنْقِطَاعِ أَكْمَلَ وَأَقْوَىٰ * وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ بِمَوْتِهِ عَلَى الْكُفْرِ
 ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ ﴿ تَحَلَّىٰ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ لَهُ . ﴾ ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْاهٍ ﴾ كَثِيرِ التَّضَرُّعِ وَالِدَعْوَاءِ
 ﴿ حَلِيمٍ ﴾ ﴿ صَبُورٍ عَلَى الْأَذَى . فِي أَبِي السَّعُودِ : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ... ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مَسْجُوقٌ
 لِبَيَانِ الْحَامِلِ عَلَى الْإِسْتِغْفَارِ قَبْلَ التَّبَيُّنِ . فَلَيْسَ لِغَيْرِهِ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ فِيهِ ، إِذْ لَيْسَ لِغَيْرِهِ مَالُهُ
 مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ ، فَلَا يَدْرَأُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَهُ أَكْثَرَ اجْتِنَابًا وَتَبَرُّيًا * وَالتَّأْوَهُ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ
 عِنْدَ الشُّكَايَةِ وَالتَّوَجُّعِ آه . وَالْأَوْاهُ الْكَثِيرُ التَّأْوَهُ . قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : هُوَ الْمُؤْمِنُ التَّوَابُ *
 وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : الْأَوْاهُ الرَّحِيمُ بَعْبَادِ اللَّهِ * وَقَالَ مُجَاهِدٌ : الْأَوْاهُ الْمُوقِنُ . (الْحَاظِنُ) *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ
 وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ
 تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ... ﴾ قد تقدم مارواه البخاري وغيره عن كعب بن
 مالك قال : لم أتخلف عن النبي ﷺ في غزوة غزاها إلا بدرأ حتى كانت غزوة تبوك ،
 وهي آخر غزوة غزاها . واذن الناس بالرحيل . فذكر الحديث بطوله . وفيه . فَأَنْزَلَ
 اللَّهُ تَوْبَتَنَا . ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ .. ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ
 التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ قال : وفينا أنزل أيضاً : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ
 مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ
 يَحْذَرُونَ ﴾ في الواحدي : روى الكلبي عن ابن عباس قال : لما أنزل الله تعالى عيوب
 المنافقين لتخلفهم عن الجهاد ، قال المؤمنون : والله لا نتخلف عن غزوة يغزوها رسول

الله ﷺ . ولا سرية أبداً . فلما أمر رسول الله ﷺ بالسرايا إلى العدو نفر المسلمون جميعاً . وتركوا رسول الله ﷺ وحده بالمدينة . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي الباب : أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَاباً أَيْمًا ﴾ وقد كان قد تخلف عنه ناس في البدو يفقهون قومهم . فقال المنافقون : قد بقي ناس في البوادي . هلك أصحاب البوادي . فنزلت هذه الآية : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ... ﴾ وكذا في الخازن وابن كثير ، وعبارته عن مجاهد : نزلت هذه الآية في أناس من أصحاب النبي ﷺ خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً ومن الخصب ما ينتفعون به . ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم : ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك تخرجوا . وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ فقال الله عز وجل : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ وليستمعوا ما في الناس ، وما أنزل الله فعذرهم * وفي ابن كثير أيضا عن ابن عباس : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾ إنها ليست في الجهاد . ولكن لما دعا رسول الله ﷺ على مضر بالسنين أجذبت بلادهم . وكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يُحلوا بالمدينة من الجهد . ويعتلوا بالإسلام وهم كاذبون . فضيقوا على أصحاب رسول الله ﷺ . وأجهدوهم . فأنزل الله تعالى يخبر رسوله أنهم ليسوا مؤمنين ، فردهم رسول الله ﷺ إلى عشائرتهم ، وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم . فذلك قوله : ﴿ وَلَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ الآية . وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية . كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة ، فيأتون النبي ﷺ فيسألونه عما يريد من أمر دينهم ، ويتفقهون في دينهم . ويقولون للنبي ﷺ ما تأمرنا أن نفعله ؟ وأخبرنا بما نأمر به عشائرتنا إذا قدمنا عليهم . قال : فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله . وطاعة رسوله ، ويعيثنهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة ، وكانوا إذا أتوا قومهم ، قالوا : إن من أسلم فهو منا ، وينذرونهم حتى إن الرجل ليفارق أباه وأمه ، وكان النبي ﷺ يخبرهم وينذر قومهم فإذا رجعوا إليهم يدعونهم إلى الإسلام ، وينذرونهم النار ويشرونهم بالجنة * فهذه ثلاثة روايات عن ابن عباس في الآية مختلفة في الألفاظ والمعاني . والظاهر قد تعددت الأسباب فنزلت الآية عامة في الجميع . وقد روى

الطبراني الروايات كلها . وقال : وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب أن يقال : تأويله : وما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ، ويتركوا رسول الله وحده وأن الله نهى بهذه الآية المؤمنين أن يخرجوا في غزو وجهاد ، وغير ذلك من أمورهم ، ويدعوا رسول الله ﷺ وحيداً ، ولكن عليهم إذا أسرى رسول الله ﷺ سرية أن ينفر معه فرقة من كل قبيلة من قبائل العرب . الفرقة : الطائفة * وعبارته هنا غير مستقيمة . ولم تؤد المفهوم المراد . ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا ﴾ إلى الغزو ﴿ كَافَّةً ﴾ جميعاً ﴿ فَلَوْلَا ﴾ هلا ﴿ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ قبيلة ﴿ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ جماعة ومكث الباقي ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا ﴾ أي الماكثون ﴿ فِي الدِّينِ ﴾ يتعلموا أحكامه وشرائعه ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ من الغزو بتعليمهم ما علموه من الأحكام ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ عقاب الله بامثال أمره ونهيه . قال الزمخشري : ووجه آخر . وهو أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث بعثاً بعد غزوة تبوك ، وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد ، استبق المؤمنون من آخرهم إلى النفير ، وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحي ، والتفقه في الدين ، فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ، ويبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر ، لأن الجدال بالحجة أعظم أثراً من الجلال بالسيف * وقوله : ليتفقهوا : الضمير فيه للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة من بينهم : ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ ﴾ ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين * وقال الخازن : وأما تفسير الآية فيمكن أن يقال إنها من بقية أحكام الجهاد ، ويمكن أن يقال إنها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد ، فعلى الاحتمال الأول ، فقد قيل : إن النبي ﷺ كان إذا خرج إلى الغزو لم يتخلف عنه إلا منافق . أو صاحب عذر ، فلما بلغ الله في الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم في تخلفهم عن غزوة تبوك قال المؤمنون : والله لا نتخلف عن شيء من الغزوات مع رسول الله ﷺ ، ولا عن سرية يبعثها ، فلما قدم المدينة ، وبعث السرايا نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوا رسول الله ﷺ وحده فنزلت هذه الآية . فيكون المعنى ما ينبغي للمؤمنين . ولا يجوز لهم أن ينفروا بكليتهم إلى الجهاد ، ويتركوا رسول الله ﷺ . بل يجب أن ينقسموا قسمين ، فطائفة يكونون مع رسول الله ﷺ . وطائفة ينفرون إلى الجهاد . لأن ذلك الوقت كانت الحاجة داعية إلى انقسام أصحاب رسول الله

ﷺ إلى قسمين : قسم للجهاد . وقسم لتعلم العلم ، والتفقه في الدين لأن الأحكام والشرائع كانت تتجدد شيئاً بعد شيء . فالملازمون لرسول الله ﷺ يحفظون ما نزل من الأحكام وما تجدد من الشرائع . فإذا قدم الغزاة أخبروهم بذلك * في الآية إشارة إلى وجوب التفقه في الدين ، والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة . وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذي تصلح به حالهم فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التي يجب على كل مؤمن أن يتعرفها *

سورة يونس وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّاحِرُ مُبِينٌ ﴾ في الواحددي : قال ابن عباس : لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت الكفار . وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي لباب السيوطي وأنزل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ... ﴾ الآية ، فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة ﴿ لَوْلَا أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ يقولون : أشرف من محمد . يعنون الوليد بن المغيرة بن مكة . ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف ، فأنزل عليهم : ﴿ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ... ﴾ الآية * ونحوه في الطبري والحازن وغيرهما : أما التفسير : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ ﴾ أي أهل مكة وهو استفهام انكاري ﴿ عَجَبًا ﴾ أي أن يتعجبوا من إرسال هذا الرسول لهم ، فهذا رد عليهم في قولهم : العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أي طالب ، وهو من فرط حماقتهم . وقصر نظرهم على الأمور العاجلة . وجهلهم بحقيقة الوحي مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يقصر عن عطائهم فيما يعتبرونه إلا في المال . مع أن خفة المال أليق بحاله ﷺ ، وما هو بصدده ، ولذلك كان أكثر الأنبياء عليهم السلام قبله كذلك .

والعجب : حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة ، ومجيء الرسول عليه الصلاة والسلام موافقاً لها : وما من أمة إلا خلا فيها نذير . وعبارة ابن كثير ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الآية . يقول تعالى منكرأ على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من قولهم : ﴿ أَبَشَّرْ يَهُدُونَنَا ﴾ وقال هود وصالح لقومهما ﴿ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾ وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا : ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ثم أورد السبب الذي ساقه الواحدي : وقوله تعالى : ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ إي إيجائونا بواسطة جبريل ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ محمد ﷺ . فيكفيم شرفاً نسبة محمد ﷺ إليهم لو كانوا يعقلون وقوله : ﴿ أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ ﴾ أي خوف الكافرين بالعذاب المنتظر إذا لم يؤمنوا (وَتَشِيرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) أي أجراً حسناً بما قدموا من الأعمال الصالحة المقرونة بالإيمان . وقدم صدق . من إضافة الموصوف إلى الصفة لمسجد الجامع . وحب الصيد ، وفائدة هذه الاضافة التنبيه على زيادة الفضل ، ومدح القدم لأن كل شيء أضيف إلى الصدق فهو ممدوح . وفي الخازن : واختلفت عبارات المفسرين . وأهل اللغة في معنى قدم صدق . فقال ابن عباس : أجراً حسناً بما قدموه من أعمالهم * وقال الضحاك : ثواب صدق * وقال مجاهد : الأعمال الصالحة : صلاتهم وصومهم وصدقهم وتسيبهم * إلى آخر ما ذكر من أقوال . وقوله : ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا ﴾ القرآن المشتمل على التوحيد والأحكام والمعاد والوعد والوعيد ﴿ لَيْسَ حَرْ مَبِينٌ ﴾ بين . وفي قراءة : لَسَاحِرٌ . والمشار إليه النبي ﷺ . والسحر ليس في شيء منها إذ هو طلاسيم الأولين جاء الإسلام للتنفير منه بتكفير متعاطيه إذ هو لا يضر ولا ينفع إلا بإذن الله ، وإن كانوا يعنون سحر بلاغته ، وأسرته للقلوب فهو حجة بينة على صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ * فتبين كذب ما يدعون *

سورة هود وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ

أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١﴾ في
 الواحدي : نزلت في الأحنس بن شريق ، وكان رجلاً حلو الكلام . حلو المنظر . بلقى
 رسول الله ﷺ بما يحب ويطوي بقلبه ما يكره * وقال الكلبي : كان يجالس النبي ﷺ
 يظهر له أمراً يسره . ويضمر في قلبه خلاف ما يظهر . فأنزل الله تعالى : ﴿ **أَلَا إِنَّهُمْ**
يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ ﴿٢﴾ يقول : يكتُمون ما في صدورهم من العداوة لمحمد ﷺ * وفي لباب
 السيوطي : روى البخاري عن ابن عباس في قوله : ﴿ **أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ ﴿٣﴾**
 قال : كان أناس يستحيون أن يتخلوا فيفضوا بفروجهم إلى السماء ، وأن يجامعوا
 نساءهم فيفضوا إلى السماء . فنزل ذلك فيهم * قلت : وقد فسر البخاري قوله ﴿ **يَشْتُونَ**
صُدُورَهُمْ ﴿٤﴾ شك وامتراء في الحق ليستخفوا منه : من الله إن استطاعوا * قال
 الزخشي : يزورون عن الحق ، وينحرفون عنه . لأن من أقبل على الشيء استقبله
 بصدرة ، ومن ازور عنه وانحرف ثنى عن صدره وطوى عن كشحه * وقيل نزلت في
 بعض المنافقين . وقيل في بعض المشركين كان النبي عليه السلام إذا مر عليه يشئ
 صدره ، ويطأطأ رأسه كيلا يراه . فأخبر الله تعالى نبيه عليه السلام بما ينطوي عليه
 صدورهم . ويشئون : يكتُمون ما فيها من العداوة . وقوله : ﴿ **لَيْسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴿٥﴾** أي من
 الله . وقيل من الرسول . وهو من القرآن . قلت : وأخرج البخاري عن ابن عباس أنه
 قرأ : **أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ** . قلت : أي القائل محمد بن عباد بن جعفر — يا أبا
 العباس : ما يشئون صدورهم ؟ قال كان الرجل يجامع امرأته فيستحي أو يتخلى
 فيستحي . فنزلت : ﴿ **أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ صُدُورَهُمْ ﴿٦﴾** وفيه . عن ابن عباس :
 ﴿ **يَسْتَعْشُونَ ﴿٧﴾** يغطون رؤسهم . وتفسير ذلك ما وقفت عليه في رواية أبي أسامة . في
 عمدة القارىء : كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط إلا وقد نَعَشَتُوا بشياهم كراهة أن يفضوا
 بفروجهم إلى السماء . فنزل ذلك . أي قوله : ﴿ **أَلَا إِنَّهُمْ يَشْتُونَ .. ﴿٨﴾** الآية . وهذا
 ما أوضحه ابن كثير في رواية ابن عباس قال رضى الله عنه : كانوا يكرهون أن يستقبلوا
 السماء بفروجهم . وحال وقاعهم . فأنزل الله هذه الآية . وروى عن مجاهد والحسن
 وغيرهما . أي أنهم كانوا يشئون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه فيظنون أنهم يستخفون
 من الله بذلك . فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون نياهم عند منامهم في ظلمة الليل

﴿ يَغْلَمُ مَا يُسْرُونَ ﴾ من القول ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ * إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي يعلم ماتكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر... وبقية الأقوال نحو ما ذكر . أما التفسير : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ يزورون عن الحق ، وينحرفون عنه ﴿ لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ ﴾ يعني من رسول الله ﷺ ذكره الخازن . وقال مجاهد : من الله عز وجل . وهو الصحيح لأن ما قبله أي الضمير ﴿ إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴾ * أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لَيْسَتْخَفُوا مِنْهُ ﴾ أي ليطلبوا الخفاء من الله فلا يطلع رسوله والمؤمنين على أزوارهم ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشَوْنَ ثِيَابَهُمْ ﴾ يتغطون بها بقصد الاستخفاء . ومن الجائز كراهة الاستماع لكلام الله كقول نوح عليه السلام في صفة قومه : جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا * على الكفر ومما يؤيد كون مرجع الضمير إلى الله تعالى قوله : ﴿ يَغْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أي لا تفاوت في علمه تعالى بين إسرارهم واعلانهم . فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء ، والله مطلع على ثيهم صدورهم ، واستغشاهم ثيابهم ونفاقهم غير نافع عنده ، قيل نزلت في المنافقين . وهو الصحيح . ولذا قال ابن جرير : واختلف قارئوا ذلك كذلك في تأويله . فقال بعضهم : ذلك كان من فعل بعض المنافقين . كان إذا مر رسول الله ﷺ غطى وجهه وثنى ظهره وأسنده إلى عبد الله بن شداد قال : كان المنافقون إذا مروا به ثنى أحدهم صدره . ويطأطئ رأسه فقال الله : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ﴾ وسياق الآية يدل عليه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَخْبِسُهُ إِلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما نزل : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناها ، فتناهى القوم قليلاً ، ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله : ﴿ وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ .. ﴾ الآية ، ولم أجد ما يعضد هذا القول فيما تحدى من التفسير . أما التفسير : ﴿ وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ ﴾ أي ولئن أخرنا عنهم عذاب الآخرة ، أو عذاب يوم

بدر إلى جماعة من الأوقات معدودة : معلومة ، أو قلائل . والمعنى إلى حين معلوم في علمنا وهو مقتضى سننا في خلقنا ، وبيناه في كتابنا بقولنا : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ استهزاء ﴿ مَا يَحْسِبُهُ ﴾ ؟ أي أئى شئ يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقاً . ثم توعدهم بنزوله فقال : ﴿ أَلَا يَوْمٌ يَأْتِيهِمْ ﴾ في الوقت المعلوم لنا ﴿ لَيْسَ مَصْرُوفًا ﴾ العذاب ﴿ عَنْهُمْ ﴾ إلى غيرهم . فلا يصرفه عنهم صارف ولا يجسه عنهم حابس ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي وسيحيط بهم العذاب من كل جانب . وهو ملاقيهم أينما كانوا . ولا منجى منه ولا مهرب ، ويقال لهم : ذوقوا ما كنتم به تستعجلون *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرُفَاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ * واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿ في الواجدي : عن عبد الله ابن مسعود قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إني عاجلت امرأة في أقصى المدينة . وإني أصبت منها دون أن آتيها ، وأنا هذا فاقض في ماشئت قال : فقال عمر : لقد سترك الله لو سترت نفسك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ . فانطلق الرجل ، فاتبعه رجل ودعاه فتلا عليه هذه الآية . فقال رجل يارسول الله : هذا له خاصة ؟ قال : لا . بل للناس كافة * رواه مسلم عن يحيى ، ورواه البخاري عن طريق يزيد بن زريع ، وفي رواية أنه أصاب منها قبلة ، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له . وفي رواية موسى بن طلحة أن كنية الرجل . أبو اليسر بن عمرو . قال أبو اليسر : أتتني امرأة وزوجها بعثه النبي ﷺ في بعث . فقالت : بعنى بدرهم تمراً ، قال : فأعجبنتني . فقلت : إن في البيت تمراً هو أطيب من هذا فالحقيني ، فغمزتها وقبلتها ، فأتيت النبي ﷺ

فقصصت عليه الأمر، فقال : خنت رجلاً غازياً في سبيل الله في أهله بهذا ، وأطرق عني ، فظننت أئى من أهل النار، وأن الله لا يغفر لى أبداً ، وأنزل الله تعالى : «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ..» الآية . فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم فتلاها عليه * قلت : والحديث أخرجه ابن أبي خيثمة . لكن قال : إن رجلاً من الأنصار يقال له :

معتب. وقيل: اسمه نهبان التمار. وقيل: عمرو بن غزوة. وقيل: عامر بن قيس. وقيل: عباد بن عمرو بن داود بن غنم بن كعب الأنصاري السلمي. والله أعلم. وحديث نهبان التمار أخرجه الثعلبي وغيره من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس. أن نهبان التمار أته امرأة حسناء جميلة تبتاع منه تمراً فضرب على عجزيتها، ثم ندم فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إياك أن تكون امرأة غاز في سبيل الله. فذهب يبكي ويصوم ويقوم فأنزل الله: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ» فأخبره، فحمد الله وقال يا رسول الله: هذه توبتي قبلت، فكيف لي بأن يتقبل شكري فنزلت: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ..» الآية * قيل: إن ثبت هذا حمل على واقعة أخرى لما بين السياقين من المغايرة وفي رواية أحمد والطبراني من حديث ابن عباس، فقال يا رسول الله: إلیّ خاصة، أم للناس عامة؟ فضرب عمر رضي الله عنه صدره، وقال: لا، ولا نعمة عين بل للناس عامة، فقال صلى الله عليه وسلم: صدق عمر. قال هيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني في الكبير وقال فيه: فرغ عمر يده فضرب صدره فقال: لا، والله ولا كرامة، ولكن للناس عامة، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: صدق عمر. وقال: وعن ابن عباس أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كان تحته امرأة، فأستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة، فأذن له، فانطلق في يوم مطير، فإذا بالمرأة على غدير ماء تغتسل، فلما جلس منها مجلس الرجل من المرأة ذهب يحرك ذكره، فإذا هو هاربة، فقام فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك به فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صل أربع ركعات. فأنزل الله تبارك وتعالى: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزَلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» الآية * قال الهيثمي: رواه البزار. ورجاله رجال الصحيح. وهكذا بقية الأقوال لا تخرج عما ذكرت.

أما التفسير: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ» داوم على إقامتها وأدها على الوجه القويم «طَرَفِي النَّهَارِ» من كل يوم والمراد: الغداة والعشي. أي صلاة الصبح والظهر والعصر. «وَزَلْفًا» جمع زلفة، أي طائفه «مِنَ اللَّيْلِ» المغرب والعشاء «إِنَّ الْحَسَنَاتِ» كالصلوات الخمس الواجبة والمندوبة «يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» الذنوب الصغائر، وقد علمت أنها نزلت فيمن غمز أو قبل امرأة أجنبية: «ذَلِكَ» المذكور من الأمر بالاستقامة

في قوله قبل هذه الآية: «فاسْتَقِيمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ...» وما بعده «ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ» عظة للمتعتزين. ولا يظنُّ أحد أن الشارع قد تهاون بمثل تلك الذنوب الصغيرة بتكفيرها بالصلوات ليتخذ ذلك ذريعة إلى العبث في أعراض الناس من غمز واحتكاك وقبلة، فإن الإصرار عليها كبيرة واجتناب الكبائر واجب. ثم أمر بالصبر على التكاليف المذكورة أمراً ونهياً. ونص على أن الإتيان بها إحسان وأن جزاءه سيحصل لا محالة فقال: «واصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» أي ووطن نفسك على احتمال المشقة في سبيل ما أمرت به، وما نهيت عنه، فإنه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً بل يوفيه ثواب عمله من غير بخس له، وفي الآية إيماء إلى أن الصبر من باب الإحسان.

سورة يوسف وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ»

في الواحدي: قال سعد بن أبي وقاص في قوله عز وجل: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا يا رسول الله: لو قصصت فأنزل الله تعالى: «الر» تلك آيات الكتاب المبين» إلى قوله: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ» الآية فتلاه عليهم زماناً، فقالوا يا رسول الله: لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ قال: كل ذلك ليؤمنوا بالقرآن *

رواه الحاكم أبو عبيد الله في صحيحه عن أبي بكر العنبري. وقال عوف بن عبد الله: مل أصحاب رسول الله ﷺ ملة. فقالوا يارسول الله: حدثنا، فأنزلنا الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ..﴾ الآية قال: ثم إنهم ملوا ملة أخرى فقالوا يارسول الله: فوق الحديث ودون القرآن. يعنون القصص. فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ فأرادوا الحديث فدلهم على أحسن الحديث. وأرادوا القصص. فدلهم على أحسن القصص * والتفسير واضح. وجميع الأقوال في التفاسير نحو ما ذكر.

سورة الرعد وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ في الواحدي : قال أنس بن مالك : إن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب . فقال : اذهب فادعه لي ، فقال يارسول الله : إنه أعتى من ذلك . قال : اذهب فادعه لي . قال : فذهب إليه ، فقال : يدعوك رسول الله . قال : وما الله ؟ أمن ذهب هو ؟ أو من فضة ؟ أو من نحاس ؟ قال : فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره وقال : وقد أخبرتك أنه أعتى من ذلك ، فقال : كذا وكذا . فقال : ارجع إليه الثانية فادعه ، فرجع إليه ، فعاد عليه مثل الكلام الأول . فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره . فقال : ارجع إليه . فرجع الثالثة . فأعاد عليه ذلك الكلام . فبينما هو يكلمه إذ بعثت إليه سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة ، فذهبت بقحف رأسه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ وقال ابن عباس في رواية أبي صالح وابن جرير وابن زيد : نزلت هذه الآية والتي تليها أي ﴿ سِوَاءَ مَنْكُم مَّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ نزلت في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة . وذلك أنهما أقبلا يريدان رسول الله ﷺ ، فقال رجل من أصحابه يارسول الله : هذا عامر بن الطفيل قد أقبل نحوك ، فقال : دعه فإن يرد الله به خيراً يهده . فأقبل حتى قام عليه . فقال يا محمد : مالي إن أسلمت ؟ قال : لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم . قال : تجعل لي الأمر بعدك . قال : لا ، ليس ذلك إلي ، إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء . قال : فتجعلني على الوبر ، وأنت على المدر . قال : لا . قال : فماذا تجعل لي ؟ قال : أجعل لك أعنة الخيل تغزو عليها . قال : أو ليس ذلك إلى اليوم ؟ وكان أوصى أربد بن ربيعة إذا رأيتني أكلمه فدر من خلفه واضربه بالسيف فجعل يخاصم رسول الله ﷺ ويراجعه . فدار أربد خلف النبي ﷺ ليضربه ، فاخترط من سيفه شبراً ، ثم حبسه الله تعالى فلم يقدر على سله . وجعل عامر يومئذ إليه ، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد

وما يصنع بسيفه ، فقال : اللهم اكفنيهما بما شئت . فأرسل الله تعالى على أربد صاعقة في يوم صائف صاح فأحرقته . وولى عمر هارباً . وقال يا محمد : دعوت ربك فقتل أربد . والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً وفتياً مرداً . فقال رسول الله ﷺ : يمنك الله تعالى من ذلك . وابنا قبيلة . يريد الأوس والخزرج ، فنزل عامر بيت امرأة سلولوية ، فلما أصبح ضم عليه سلاحه فخرج وهو يقول : واللات لئن أضحى محمد إلى وصاحبه — يعني ملك الموت لأنفذهما برحمتي . فلما رأى الله تعالى ذلك منه أرسل ملكاً فلطمه بجناحيه فأذراه في التراب ، وخرجت على ركبته غدة في الوقت كغدة البعير ، ومات في بيت السلولوية . ثم مات على ظهر فرسه . وأنزل الله تعالى فيه هذه القصة . ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ الآية . حتى بلغ : ﴿ وما دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ * وفي اللباب نحو قطعة منه وهو في الطبراني وفي الأوسط والكبير ذكروا الرواتين . ورواه أبو يعلى والبخاري بنحوه ورجال البزار — رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة . وكذا بقية الأقوال في التفاسير . أما التفسير : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ هي نار تتولد من السحاب وتنزل بقوة شديدة فرمما غاصت في البحر وأحرق الحيتان قال صاحب الغرائب : ووجه الاستلال بها على الصانع أن النار حارة يابسة ، وطبيعة السحاب يغلب عليها الرطوبة والبرودة للأجزاء المائية فيه ، وحصول الضد من الضد لا يكون بالطبع ، وإنما بتدبير القادر المختار وتسخيره * وقوله : ﴿ فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ أصابته بها فيهلكه . ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ أي يجادلون في شأنه تعالى ، وفيما وصفه به الرسول من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية . وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم يوم العرض والحساب . ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ أي وهو سبحانه لا يغالب ، فهو شديد البطش والكيد لأعدائه ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ أي له تعالى الدعاء والتضريح الواقع حيث ينبغي أن يكون ، والمجيب حين وقوعه . أي إن إجابة ذلك له تعالى دون غيره .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيْباً مِنْ

دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٠٠﴾ في الواحدى : أخرج الطبرانى وغيره عن ابن عباس قال : قالوا للنبي ﷺ : إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول نكلم من الموقى . وافسح لنا هذه الجبال حيال مكة التي قد زاحمتنا . فنزلت الآية * وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عطية العوفي قال : قالوا للنبي ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تنسع ، فنحرت فيها . أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح . أو أحبيت لنا الموقى كما كان عيسى يحى الموقى لقومه فأنزل الله الآية * وكذا في ابن كثير ومجمع الزوائد والطبري وفيه ألفاظ مختلفة وفي المعنى متقاربة أن كفار قريش طلبوا من محمد ﷺ دلالة على صدق نبوته أن يسير لهم الجبال لتتسع لهم أرض مكة ، أو يقرب لهم بلاد الشام لأنهم يتجرون إليها ، أو يحى لهم آباءهم ليكلموهم فنزلت الآية .

أما التفسير «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ» عن أماكنها وأزيلت عن مستقرها إلى مكان آخر . هذا طلب أول ، والثاني «أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ» أي شقت فجعلت أنهاراً وعيوناً من خشية الله عند قراءته . والثالث «أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى» بأن يخبوا بقراته فتكلم معهم بعد لَمَّا آمنوا . فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَقُولِهِ : «بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا» أي مرجع الأمور كلها بيد الله . فهو القادر على الاتيان بما اقترحوه من الآيات ، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك لعلمه أن قلوبهم لا تلين ، ولا يجدى هذا فائدة في إيمانهم . ونزل لما أراد الصحابة إظهار ما اقترحوه طمعاً في إيمانهم «أَفَلَمْ يَأْسِ» يعلم «الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا» ؟ إلى الإيمان من غير آية ، ولكن لم يفعل ذلك لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم ، وكلمة لو تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، والمعنى أنه تعالى لم يهد جميع الناس لعدم مشيئته ذلك «وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا» من أهل مكة «تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا» بصنعهم ، أي كفرهم ، ومعلوم أن الباء هنا سببية ، وما مصدرية «قَارِعَةً» داهية تفرغهم بصنوف البلاء من القتل والأسر والحرب والجذب «أَوْ تَحُلْ» يا محمد بجيشك «قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ» مكة ، وقد حل بالحديبية في السنة السادسة ، ومنعوه من دخول مكة ، وصالحوه على أن يكونه من الدخول في السنة التي بعدها ... «حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ» بالنصر عليهم ، وقد جاء بحمد الله بفتح مكة «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» «إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ» لما وعد ، وكان وعد الله مأتيا .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»

في اللباب: أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل «وما كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بَادُونَ اللَّهِ» ما نراك يا محمد تملك من شيء لقد فرغ من الأمر. فأنزل الله «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ» * وفي ابن كثير: فأنزلت هذه الآية تخويصاً ووعيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا * وفي الخازن: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ» وذلك أنهم لما اعتراضوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن محمداً يأمر أصحابه بأمر اليوم ثم يأمرهم بخلافه غداً، وما سبب ذلك إلا أنه يقول من تلقاء نفسه. فأجاب الله عن هذا الاعتراض بقوله: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ» وقال: جواب لشبهة أخرى من طرفهم. حاصلها أنهم قالوا: إن محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمر كاستقبال بيت المقدس ثم يأمرهم غداً بخلافه، كاستقبال الكعبة، وما ذلك إلا لكونه يقول من تلقاء نفسه، فأجابهم الله بقوله: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ...» * قوله: «وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ» أصله الذي لا يتغير منه شيء، وهو ما كتبه في الأزل. والأم الأصل * وفي الكرخي عن ابن عباس: الكتاب اثنان: كتاب يمحو الله ما يشاء فيه، وكتاب لا يغير، وهو علم الله، والقضاء المبرم * وأما نحو خبر: صلة الرحم تزيد في العمر. فحمول على زيادة البركة، أو على زيادة ما في اللوح المحفوظ لا ما في أم الكتاب * وقد أثر عن أئمة السلف في: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ» أقوال منها قول الحسن: يمحو الله من جاء أجله ويثبت من بقى أجله * ومنها قول عكرمة: يمحو الله القمر ويثبت الشمس * ومنها قول الربيع: يقبض الله الأرواح حين النوم فيميت من يشاء ويمحوه، ويرجع من يشاء فيثبته * ومنها قول السدي: مثل قول عكرمة، ومنها قول سعيد بن جبير وقتادة يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء من ذلك فلا ينسخه ولا يبدله * ومنها قول ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت الأرزاق والأجل والسعادة، والشقاوة، ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن حذيفة بن أسيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا مرَّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يارب: أذكر أم أنثى؟

فيقضى ربك ما يشاء، فيكتب الملك، ثم يقول يارب: أجله؟ فيقول ربك ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يقول الملك يارب، رزقه؟ فيقول ربك: ما يشاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك الصحيفة، فلا يزيد على أمر ولا ينقص) أخرجه مسلم. وأخرج الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق (أن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه نطفة أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وشقياً أو سعيداً، ثم ينفخ فيه الروح، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) وهذه يستحيل زيادتها ونقصانها وكذلك يستحيل أن ينقلب السعيد شقياً أو الشقى سعيداً

زيادة إيضاح لمعنى قوله: يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ

يجب الاعتقاد بأن الله عز وجل عالم بالآجال والأرزاق والسعادة والشقاوة وحقيقة العلم: معرفة المعلوم على ما هو عليه. ومثال ذلك: فإذا علم الله أن فلان من الناس سيموت في وقت كذا فهنا يستحيل أن يموت قبله أو بعده لقوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» إذا الآجال لا تزيد ولا تنقص أما زيادة العمر بصلة الرحم يجاب عنها:

١ - إما أن تكون زيادة بالبركة في عمره بالتوفيق لعمل الطاعات وعمارة وقته بما ينفعه في دنياه وآخرته.

٢ - وإما أن تظهر الملائكة على اللوح المحفوظ فيرويه أن عمره مثلاً سبعون سنة إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له عشر سنين. وقد علم الله في الأزل ما سيقع من ذلك، وهو معنى قوله: «يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ». ذلك بالنسبة لما يظهر

من تصور الزيادة. ونحو هذا المفهوم من انقلاب الشقى سعيداً وبالعكس. فيتصور في واقع الحال لأن الكافر الشقى قد يسلم

فينقلب من الشقى الأبدي إلى السعادة الأبدية . ومثله العاصي فقد يتوب ويحسن العمل
فينقلب من الشقاوة إلى السعادة ، وبالعكس . فقد يتقلبون — والعياذ بالله — من
السعادة إلى الشقاوة . فيرتد المسلم ويموت مرتدأ ، ويفتن الطائع في المعاصي ويموت على
معصيته وذلك انقلاب من السعادة إلى الشقاوة . والأصل في هذا الاعتبار بالخاتمة عند
الموت . وما يختم الله به له . وهو المراد من علم الله الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل .

أقوال العلماء في معنى المحو والإثبات

القول الأول : وهو حمل الآية على ظاهرها . وهي عامة في كل شيء : فيزيد الله
ما يشاء في الرزق والأجل الخ ... وهو قول عمر وابن مسعود رضي الله عنهما . قالوا :
يمحو السعادة والشقاوة . ويمحو الرزق والأجل ويثبت ما يشاء . روى أن عمر رضي
الله عنه كان يطوف بالبیت وهو يبكي ويقول : اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة
فأثبتني فيها . وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة ، فأحني منها . وأثبتني في أهل السعادة
والمغفرة . فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وروى مثله عن ابن
مسعود ، ورد في بعض الآثار عنه أن الرجل يكون قد بقى من عمره ثلاثة أيام فيصل
رحمه فيمتد إلى ثلاثين سنة ذكره البغوي بدون سند . وروى بسنده عن أبي الدرداء
قال : قال رسول الله ﷺ : ينزل الله تبارك وتعالى في ثلاث ساعات بقين من الليل
فينظر في الساعة الأولى منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره . فيمحو ما يشاء
ويثبت *

القول الثاني : حمل بعض العلماء معنى الآية على الخصوص في بعض الأشياء دون
بعض . فقالوا : المراد بالمحو والإثبات . نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر عوضاً
عن الحكم المتقدم *

القول الثالث : إن الحفظة يكتبون جميع أعمال بني آدم وأقوالهم فيمحوها الله ما يشاء من
ديوان الحفظة مما ليس فيه ثواب ولا عقاب . مثل قول القائل أكلت وشربت الخ .. وهو

قول الضحاك . وقال الكلبي يكتب القول كله حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب *

القول الرابع : لابن عباس رضي الله عنه . هو الرجل يعمل بطاعة الله ، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلاله ، فهو الذي يمحو ، والذي يثبت هو الرجل يعمل بطاعة الله ، ثم يموت وهو في طاعته ، فهو الذي يثبت *

القول الخامس : للحسن رضي الله عنه : يمحو الله ما يشاء . يعني من جاء أجله فيذبه . ويثبت من لم يجيء أجله .

القول السادس : لسعيد بن حبير : يمحو الله ما يشاء من ذنوب عباده فيغفرها . ويثبت ما يشاء منها فلا يغفرها *

القول السابع : لعكرمة : يمحو الله ما يشاء من الذنوب بالتوبة ، ويثبت بدل الذنوب حسنات *

القول الثامن : للسدي : يمحو الله ما يشاء يعني القمر ، ويثبت الشمس *

القول التاسع : للربيع . هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم . فمن أراد موته محاه وأمسكه . ومن أراد بقاءه أثبتته وردّه إلى صاحبه *

القول العاشر : إن الله يثبت في أول كل سنة حكمها فإذا مضت السنة محاه وأثبت حكما آخر للسنة المقبلة *

القول الحادي عشر : هو في المحن والمصائب فهي مثبتة في الكتاب ، ثم يمحوها الدعاء والصدقة * قلت : والذي تسكن إليه النفس هو قول من قال نسخ للأحكام الشرعية كمحو استقبال بيت المقدس في الصلاة إلى استقبال الكعبة ، ومحو حكم العدة من الحول إلى أربعة أشهر وعشر . ومحو التخفيف في القتال . ونحو ذلك . فيكون المعنى : يمحو الله ما يشاء أي ينسخ ما يشاء نسخه من الأحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت . ويثبت بدله ما فيه المصلحة أو يقيه على حاله غير منسوخ . والله أعلم .

سورة إبراهيم وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

لم أجد فيها إلا ذكر سبب نزول آية واحدة وهي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ ﴾ أخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت هذه الآية في الذين قتلوا يوم بدر . أي من المشركين * وفي ابن كثير : وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : هو جَبَلَةُ بن الأيهم . والذين اتبعوه من العرب . فلحقوا بالروم . وذكر عطاء أنه سمع ابن عباس ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال : هم كفار أهل مكة . قال ابن كثير : وهو الصحيح . وإن كان المعنى يعم جميع الكفار . فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين . ونعمة للناس فمن قبلها . وقام بشكرها دخل الجنة . ومن ردها وكفر دخل النار * وفيه أن ابن الكواء سأل علياً عن الذين بدلوا نعمة الله كُفْرًا وأحلوا قومه دار البوار : قال : هم كفار قريش يوم بدر . وفي رواية عنه قال : منافقوا قريش .. وفي قول عنه . مشركو قريش أتتهم نعمة الله بالإيمان فبدلوا نعمة الله كُفْرًا وأحلوا قومهم دار البوار . وفي رواية عنه قال : هم الأفجران من قريش : بنو أمية ، وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة . فأحلوا قومهم دار البوار يوم بدر . أو بنو أمية فأحلوا قومهم دار البوار يوم أحد . وكان أبو جهل يوم بدر . وأبو سفيان . يوم أحد . وأما دار البوار . فهي جهنم وأما التفسير فواضح .

سورة الحجر وبيان ما فيها أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : كانت تصلي خلف النبي ﷺ امرأة حسناء في آخر النساء ، وكان بعضهم يتقدم إلى الصف الأول لفلا يراها . وكان بعضهم يتأخر في الصف الآخر . فإذا ركع قال هكذا ونظر من تحت إبطه ، فنزلت : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ قلت : ورواه الترمذي والنسائي : والحاكم وغيرهم زاد الحاكم في مستدركه : وجاء في يديه * أي ينظر من تحت

إبطه . قال الحاكم : هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وأقره الذهبي . وفي الواحدي أيضا : وقال الربيع بن أنس : حرض رسول الله ﷺ على الصف في الصلاة ، فزادهم الناس عليه ، وكان بنو عذرة دورهم قاصية عن المسجد ، فقالوا : نبيع دورنا ونشتري دوراً قريبة من المسجد . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : وأخرج ابن مردويه عن داود بن صالح أنه سأل سهل بن حنيف الأنصاري : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ أنزلت هذه الآية في سبيل الله ؟ قال : لا ، ولكنها في صفوف الشام * وقد اعتبر ابن كثير أن حديث ابن عباس في الآية . فيه نكارة شديدة رغم رواية مسلم له والحاكم وغيرهما من أصحاب السنن . ونقل عن محمد بن كعب في ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ﴾ الميت والمقتول . ﴿ وَالْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ من يخلق بعد * قلت : ولعله ربط الآية التي سبقها فيها وهي قوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَخُنُّ لُحْيِي وَنُؤْمِئُ وَنَخُنُّ الْوَارِثُونَ ﴾ * وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ﴾ أي من تقدم من الخلق بالموت من لدن آدم ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ من يخلق ويقدم إلى يوم القيامة ، وهو توجيه سديد لأن الآية الثانية كالبيان للأولى لأنه لا يبقى أحد سواه . فيزول ملك كل مالك . ويبقى جميع المالكين المستقدمين والمستأخرين لنا . والتفسير واضح *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ في لباب السيوطي : أخرج الثعلبي عن سلمان الفارسي لما سمع قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فر ثلاثة هارباً من الحزن لا يعقل ، فجاء به للنبي ﷺ ، فسأله : فقال يارسول الله : أنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فوالذي بعثك بالحق ، لقد قطعت قلبي . فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ ولم أجد غير هذا القول في التفاسير . بل لم أجد فيها ما يعضده . أما التفسير ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي مستقرون فيها خالدون لكل واحد جنة وعين . أو لكل منهم عدة منها . كقوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ قال ابن عباس : المراد بالمتقين الذين اتقوا الشرك بالله سبحانه والكفر به * قال جمهور الصحابة والتابعين وهو الصحيح لأن المتقي هو الآتي بالتقوى ، ولو مرة واحدة . كما أن الضارب هو الآتي بالضرب ولو مرة واحدة . والقاتل هو الآتي بالقتل ولو مرة واحدة . فكما أنه

ليس من شرط صدق الوصف بكونه ضارياً وقاتلاً أن يكون آتياً بجميع أنواع الضرب والقتل . فكذلك ليس من شرط صدق الوصف بكونه متقياً أن يكون آتياً . بجميع أنواع التقوى لأن الآتي بفرد واحد من أفراد التقوى يكون آتياً بالتقوى ، لأن كل فرد من أفراد الماهية يحسب كونه مشتملاً على تلك الماهية . وبهذا التحقيق استدلووا على أن الأمر لا يفيد التكرار . وإذا ثبت ذلك فأجمعت الأمة على أن التقوى عن الكفر شرط في حصول الحكم بدخول الجنة . وقال الجبائي وجمهور المعتزلة : هم الذين اتقوا جميع المعاصي . قالوا : لأنه اسم مدح لا يتناول إلا من كان كذلك . (الكرخي) *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ بِمُخْرَجِينَ ﴿ في الواحدي : حدث علي بن هشام عن كثير النوا . قال : قلت لأبي جعفر إن فلاناً حدثني عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم — ﴿ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ ... ﴾ الآية ؟ قال : والله إنها لفيهم نزلت . وفيهم نزلت الآية . قلت : وأي غل هو ؟ قال : غل الجاهلية : إن بنى تيم وعدى وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة . فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا . فأخذت أبو بكر الحاضرة فجعل علي يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر . فنزلت الآية * وروى الطبري عن أبي موسى أنه سمع الحسن البصري يقول : قال علي : فينا نزلت والله أهل بدر : ﴿ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ ولم أعر على غير ما ذكر . أما التفسير : ﴿ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ ﴾ الغل الحقد الكامن في القلب ، ويطلق على الشحنة والعداوة والبغضاء . والحقد والحسد . فكل هذه الخصال المذمومة داخل في الغل لأنها كامنة في القلب . روى أن المؤمنين يقفون على باب الجنة وقفة بعضهم من بعض . ثم يؤمر بهم إلى الجنة . وقد نقى الله قلوبهم من الغل والغش والحقد والحسد . حال كونهم ﴿ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرة بهم . والسرير مشتق من السرور . فهو مجلس رفيع عال موطأ للسرور . قال ابن عباس : أي على سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت ، والسرير مثل ما بين صنعاء إلى الجابية ﴿ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ ﴾ تعب من كثرة التنزه

والسهر ، وليس هناك ليل ولا نهار . ﴿ وَمَاهُمْ بِمُخْرَجِينَ ﴾ أبداً *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ في الواحدي : روى ابن المبارك باسناده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أنه قال : طلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي دخل منه بنو شيبه . ونحن نضحك . فقال : لا أراكم تضحكون . ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر ، رجع إلينا القهقري ، فقال : إني لما خرجت جاء جبريل عليه السلام فقال يا محمد : يقول الله تعالى عز وجل : لِمَ تَقْنَطُ عِبَادِي ؟ ﴿ نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ * جلَّ جلاله ما ألطفه وأرحمه بعباده !!! وفي لباب السيوطي : أخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال : مر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه يضحكون . فقال : أتضحكون ؟ وذكر الجنة والنار بين أيديكم ، فنزلت هذه الآية : ﴿ نَبِيَّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ * أضاف الله عباده المؤمنين إليه تشريفاً لهم . فاللهم اجعلنا منهم لننال هذا الشرف العظيم . ألا ترى أنه قال لنبيه محمد ﷺ : « سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً » ولما ذكر تعالى الرحمة والمغفرة بالغ في

التأكيدات بألفاظ ثلاثة أولها قوله : أني . وثانيها : أنا . وثالثها : إدخالها الألف واللام على قوله : الغفور الرحيم . ولما ذكر العذاب لم يقل إني أنا المعذب وما وصف نفسه بذلك قال : « وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » . ولما أمر رسول الله ﷺ بإبلاغهم ذلك . فكأنه أشهد على نفسه في التزام المغفرة والرحمة . ولما قال : نبيء عبادي . أي أخبر عبادي . أي كل من كان معترفاً بعبوديتي وهذا كما يدخل فيه المؤمن المطيع كذلك يدخل فيه المؤمن العاصي . فكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة بعباده من الله تعالى . *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ لَأَتَمُّدَنَّ عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا حَتَّى حَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿ في الواحدي : قال الحسين بن الفضل : إن سبع قوافل وافت من بصري وأذرعات ليهود قريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البر — بالفتح نوع

من الثياب — وأوعية الطيب والجواهر . وأمتعة البحر . فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتوقينا بها . فأنفقناها في سبيل الله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال : لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع القوافل * ويدل على صحة هذا القول : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ .. ﴾ الآية . وكذا في الخازن . وفي ابن كثير . عن أبي رافع : صاحب النبي ﷺ قال : ضاف النبي ﷺ ضيف ، ولم يكن عند النبي ﷺ أمر يصلحه ، فأرسل إلى رجل من اليهود يقول لك محمد رسول الله : أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب ، قال : لا إلا برهن ، فأتيت النبي ﷺ ، فأخبرته ، فقال : أما والله إني لأمين من في السماء . وأمين من في الأرض ، ولئن أسلفني أو باعني لأودين إليه : فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ .. ﴾ الآية . كأنه يعزبه عن الدنيا * وهكذا بقية الأقوال : أما التفسير : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ المراد بالسبع المثاني فاتحة الكتاب : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .. ﴾ ، وهو قول عمر ، وعليّ وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبي ، ويروى ذلك مرفوعاً أخرج البخاري عن أبي سعيد بن المعلى . قال : مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي ودعاني فلم آته حتى صليت ، ثم أتيت . فقال « ما منعك أن تأتي » ؟ فقلت كنت أصلي ، فقال « ألم يقل الله : يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسوله » ثم قال : « ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد » ؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج من المسجد فذكرته . فقال : « الحمد لله رب العالمين : هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » . وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم » أم القرآن : الفاتحة . وإنا سميت بذلك لاشتغالها على المعاني التي في القرآن من الثناء على الله تعالى . ومن التعبد بالأمر والنهي ، ومن الوعد والوعيد . ولما فيها من الأصول الثلاثة : المبدأ والمعاش ، والمعاد . والقرآن العظيم عطف على أم القرآن ، وما ورد في مجمع الزوائد عن واثلة بن الأسقع « ولقد آتيناك سبع من المثاني » أن رسول الله ﷺ قال : أعطيت مكان التوراة السبع الطوال .. » قال الهيثمي : رواه أحمد وفيه عمران القطان . وثقة ابن حبان ، وغيره وضعفه النسائي وغيره * قال : وعن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ

المثنائي ﴿ قال : هي السبع الطوال .. رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح * قلت :
 ويعني بالسبع الطوال . السبع السور من القرآن . البقرة وما بعدها . فعن ابن عباس
 قال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف قال اسرئيل وذكر السابعة
 فنسيتها * وعن سعيد بن جبير قال : هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام
 والأعراف ويونس * فهن الفرائض والحدود * وسئل : ما المثنائي ؟ قال : يثنى فيهن
 القضاء والقصاص . وقال الطبري : حدثني سعيد بن يحيى الأموي قال : ثنى أبي . قال
 ثنا ابن جريج . قال : أخبرنا أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : في قوله تعالى
 ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ قال هي فاتحة الكتاب فقرأها عليّ ستاً ، ثم قال :
 بسم الله الرحمن الرحيم . الآية السابعة . وقال : قد أخرجها الله لكم وما أخرجها لأحد
 قبلكم * قلت ومارواه البخاري هو الصحيح لأنه نص صحيح صريح في أن الفاتحة هي
 السبع المثاني والقرآن العظيم . ولكن لا ينافي غيرها من السبع الطوال لما فيها من هذه
 الصفة . كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً لقوله تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ
 الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مِثْلِي ﴾ فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه . وهو القرآن
 العظيم * أما التفسير : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمِثْلَانِي ﴾ قد علمت قوله عليه الصلاة
 والسلام أنها الفاتحة رواه الشيخان . وأخرج الحاكم في مستدركه عن أبي بن كعب رضي
 الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « السبع المثاني فاتحة الكتاب » قال : هذا حديث
 صحيح الإسناد على شرط مسلم . ولم يخرجاه . قلت : وقد رواه مسلم أيضاً مرفوعاً
 عن أبي بن كعب به . وأخرج الحاكم أيضاً عن ابن عباس قال : أوتي رسول الله ﷺ
 سبعاً من المثاني والطوال . وأوتي موسى ستاً . قال : هذا حديث صحيح على شرط
 الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبي * وروايته هنا ليست تفسيراً للسبع المثاني بل هي
 إخبار عن الإتياء . وقد تقدم قبل قليل التوفيق بين الأقوال . وقوله : ﴿ وَالْقُرْآنَ
 الْعَظِيمَ ﴾ أي وآتيناك جميع القرآن العظيم . وهو من عطف الكل على البعض إن أريد
 بالقرآن المجموع الشخصي . أو من عطف العام على الخاص إن أريد به القدر المشترك
 الصادق على الكل والبعض . وقوله : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ أي لا تطمح ببصرك طموح
 راغب ﴿ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ ﴾ أي أصنافاً من الكفار فإنه مستحق للإضافة

إلى ما أوتيته من السبع المثاني والقرآن العظيم . فإنه كمال مطلوب بالذات مفضي إلى دوام اللذات . وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه : من أوتي القرآن فرأى أنّ أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أوتي فقد صغر عظيمًا . وعظم صغيراً ، قوله ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ لأجل عدم إيمانهم ﴿ وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ ﴾ ألن جانبك كناية عن الرفق بهم ، وحسن التدبير ، والشفقة من خفض الطائر جناحه على الفروخ وضمها إليه . ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴾ من عذاب الله أن ينزل بكم *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ وفي اللباب أخرج البزار والطبراني عن أنس بن مالك . قال : مر النبي ﷺ على أناس بمكة . فجعلوا يغمزون في قفاه . ويقولون : هذا الذي يزعم أنه نبي ، ومعه جبريل ، فغمز جبريل بأصبعه . فوقع مثل الظفر في أجسادهم . فصارت قروحاً حتى نتنوا ، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ * وكذا في ابن كثير . وفي الخازن ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ كانوا خمسة نفر من رؤساء قريش . كانوا يستهزئون بالنبي ﷺ وبالقرآن . وهم الوليد بن المغيرة المخزومي . وكان رأسهم . والعاص بن وائل السهمي ، والأسود بن المطلب بن الحرث بن أسد بن عبد العزى بن زمعة . وكان رسول الله ﷺ قد دعا عليه . فقال : اللهم أعم بصره ، واثكله بولده . والأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة . والحرث بن قيس بن عيطلة . كذا ذكره البغوي . وقال ابن الجوزي . الحرث بن قيس بن عيطلة . وقال الزهري : عيطلة أمه . وقيس أبوه . فهو منسوب إلى أبيه وأمه . قال المفسرون أتى جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ . والمستهزئون يطوفون بالبيت ، فقام جبريل ، وقام رسول الله ﷺ إلى جنبه ، فمر به الوليد بن المغيرة ، فقال جبريل يا محمد : كيف تجد هذا ؟ قال : بئس عبد الله فقال : قد كفيته . وأوماً إلى ساق الوليد . فمر الوليد برجل من خزاعة نبال يريش نبلا له ، وعليه برد يماني ، وهو يجر إزراره ، فتعلقت شظية من النبل بإزار الوليد ، فمنعه الكبر أن يطاطيء رأسه . فینزعها وجعلت تضربه في ساقه ، فخدشته ، فمرض منها فمات ، ومر بهما العاص بن وائل السهمي . فقال جبريل كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : بئس عبد الله فأشار جبريل إلى أخص قدمه . وقال :

قد كفيته ، فخرج العاصي على راحلة يتنزّه ، ومعه ابناه ، فنزل شعبا من تلك الشعاب فوطيء شبرقة ، فدخل منها شوكة في أحمض رجله . فقال : لدغت لدغت ، فطلبوا فلم يجدوا شيئا ، وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير ، فمات مكانه ، ومر بهما الأسود بن عبد المطلب ، فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : عبد سوء ، فأشار جبريل بيده إلى عينيه ، وقال : كفيته فعمى . قال ابن عباس : رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ، ووجعت عينه ، فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك . وفي رواية الكلبي . قال : أتاه جبريل ، وهو قاعد في أصل شجرة . ومعه غلام له . وفي رواية فجعل ينطح رأسه في الشجرة ، ويضرب وجهه بالشوك . فاستغاث بغلامه . فقال له غلامه : ما أرى أحدا يصنع بك شيئا غيرك . فمات وهو يقول : قتلني محمد ، ومر بهما الأسود بن عبد يغوث . فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : بش عبد الله على أنه خالي . فقال جبريل : قد كفيته ، وأشار إلى بطنه . فاستسقى بطنه فمات ، وفي رواية الكلبي : أنه خرج من أهله فأصابه سموم فاسود وجهه حتى صار حبشياً ، فأتى أهله فلم يعرفوه ، وأغلقوا دونه الباب ، فمات وهو يقول : قتلني رب محمد . ومر بهما الحرث بن قيس . فقال جبريل : كيف تجد هذا يا محمد ؟ فقال : عبد سوء ، فأوماً جبريل إلى رأسه ، وقال : قد كفيته . فامتخط قيحا فقتله . وقال ابن عباس : إنه أكل حوتا مالحا فأصابه العطش . فلم يزل يشرب الماء حتى أنقذ بطنه فمات . فذلك قوله : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ أما التفسير فواضح *

سورة النحل وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَمُرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : لما أنزل الله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَالشَّقُوقُ الْقَمَرُ ﴾ قال الكفار بعضهم لبعض : إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ، فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ما هو كائن . فلما رأوا أنه لا ينزل شيء . قالوا : ما نرى شيئا فأنزل الله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَعْرُضُونَ ﴾ فأشفقوا

وانتظروا قرب الساعة . فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد : ما نرى شيئاً مما تخوفنا به :
فأنزل الله : ﴿ أَمَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ فوثب النبي ﷺ . ورفع الناس رؤسهم . فنزلت :
﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ فاطمأنوا . فلما نزلت هذه الآية : قال رسول الله ﷺ : « بعثت
أنا والساعة كهاتين . وأشار بأصبعه إن كادت لتسبقني » وقال الآخرون : الأمر هاهنا :
العذاب بالسيف . وهنا جواب للنضر بن الحارث حين قال : اللهم إن كانا هذا هو الحق
من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » يستعجل العذاب . فأنزل الله تعالى هذه
الآية * ونحوه في الخازن وغيره . والتفسير واضح *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِيئْتُ اللَّهِ
مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ في الواحدي : قال
الربيع بن أنس عن أبي العالية : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين .
فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به : والذي أرجوه بعد الموت . فقال المشرك : وإنك
لتزعم أنك لتبعث بعد الموت ، فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت . فأنزل الله تعالى هذه
الآية * وكذا رواه الخازن . وفيه قاله أبو العالية . وكذا رواه الطبري عن أبي العالية . أما
التفسير : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أقسموا حلفوا . أي غاية اجتهادهم ،
وسمى الحلف قسماً لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب ﴿ لَئِيئْتُ اللَّهِ
مَنْ يَمُوتُ ﴾ قال الخازن : تقرير الشبهة التي حصلت للمشركين في انكار البعث بعد
الموت أن الإنسان ليس إلا هو هذه البنية المخصوصة . فإذا مات وتفرقت أجزاؤه ، وبلى
امتنع عوده بعينه لأن الشيء إذا عدم فقد فنى ولم يبق له ذات ، ولا حقيقة بعد فئائه
وعدمه . فهذا هو أصل شبهتهم ، ومعتقدهم في إنكار البعث بعد الموت . فذلك قوله
تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِيئْتُ اللَّهِ مَنْ يَمُوتُ ﴾ فرد الله عليهم ذلك
وكذبهم في قولهم فقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ ﴾ يعني بلى يبعثهم بعد الموت لأن لفظ بلى اثبات
لما بعد النفي . والجواب عن شبهتهم . أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وأوجده من
العدم ، ولم يك شيئاً فالذي أوجده بقدرته ، ثم أعدمه ، قادر على إيجاده بعد اعدامه ،
لأن النشأة الثانية أهون من الأولى * وقوله : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ مصدران مؤكداً

منصوبان بفعلهما المقدر أي وعد ذلك وعداً ، وحق حقاً . أي ثبت ثبوتاً . لأن الحق بمعنى ثبت ووجب . والتقدير : بلى بيعثهم وعد بذلك وعداً وحقاً لاخلف فيه : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يفهمون كيف يكون ذلك العود ، والله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لِنُبُوَّتِهِمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ في الواحدي : نزلت في أصحاب النبي ﷺ بمكة . بلال وصهيب ، وخباب وعامر وجندل بن صهيب . أخذهم المشركون بمكة فعذبوهم . فبوأهم الله تعالى بعد ذلك المدينة * وكذا في الخازن قال ابن كثير : يحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرة الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم . ومن أشرفهم عثمان بن عفان ، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ . وجعفر بن أبي طالب بن عم الرسول . وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقه رضي الله عنهم وأرضاهم * أما التفسير : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ ﴾ لاقامة دينه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ بالأذى من أهل مكة وهم النبي ﷺ وأصحابه ﴿ لِنُبُوَّتِهِمْ ﴾ نزلهم ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ داراً ﴿ حَسَنَةً ﴾ هي المدينة ﴿ وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ ﴾ أي الجنة ﴿ أَكْبَرُ ﴾ أعظم ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أي الكفار مال للمهاجرين من الكرامة لو افقوهم . هم ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على أذى المشركين والمهجرة لإظهار الدين ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيرزقهم من حيث لا يحتسبون . (الجلال) روى أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاء يقول له : خذ هذا بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أفضل ، ثم يقول : هذه الآية أي يقرأ هذه الآية *
الآية *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ في الواحدي : نزلت في مشركي مكة . انكروا نبوة محمد ﷺ . وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً . فهلا بعثت إلينا

ملكاً؟ فأنزل الله الآية * وكذا في الخازن وابن كثير والطبري والنهر . أما التفسير : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ لا ملائكة . ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ الخطاب لكفار مكة . والمراد بأهل الذكر العلماء بالتوراة والإنجيل ﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فإنهم يعلمونه . وأنتم إلى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد ﷺ . ذلك أن كفار مكة كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم بالكتب القديمة ، وقد أرسل الله إليهم رسلا منهم مثل موسى وعيسى وغيرهما من الرسل . وكانوا بشراً مثلهم ، فإذا سألوهم فلا بد أن يجيبوا بأن الرسل الذين أرسلوا إليهم كانوا بشراً ، فإذا أخبروهم بذلك زالت الشبهة عن قلوبهم . والمعنى إذا أخبركم أهل الكتاب عن حاله ، وأخبركم المؤمنون عن حاله كنتم إلى تصديق أهل الكتاب أقرب لاشتراكهم معهم في الكفر ، فبينكم وبينهم رباطة . فاسألوهم عن حاله المقرر في كتبهم . وعن كل الرسل السابقين بشراً وملائكة وغير ذلك *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في هشام بن عمرو . وهو الذي ينفق ماله سراً وجهراً ، ومولاه أبو الجوزاء الذي كان يباهه فنزلت . ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ .. ﴾ فالأبكم منها الكل — على مولاه — هذا السيد أسد بن العيص ، والذي يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم . وهو عثمان بن عفان . وذكر السيوطي في قوله : ﴿ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَم ﴾ قال : نزلت في عثمان ومولى له كان يكره الإسلام ويأباه . ونباهه عن الصدقة والمعروف . فنزلت فيهما : وفي الخازن وقال عطاء في قوله : ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ هو أبو جهل بن هشام ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه * وكذا في الطبري والغرائب وغيرهما نحوه . أما التفسير : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي ذكر وبين ووضح مثلاً للدلالة على وحدانيته ونفى الشريك ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ من التصرفات لعدم ملكه ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ أي يتصرف فيه كيف يشاء . والأول المملوك . مثل الأصنام . والثاني مثله تعالى . ومغزاه أن العبد

المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فما ظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين ولنا . قال : ﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ ﴾ في التعظيم والاجلال . الجواب . لا . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أي أهل مكة ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يصيرون إليه من العذاب . وحمد الله نفسه لأنه المستحق لجميع المحامد . لأنه المنعم المتفضل على عباده . وهو الخالق الرازق . لاهذه الأصنام التي عبدها هؤلاء ، فإنها لا تستحق الحمد لأنها جمادات عاجزة لا يدها على أحد ولا معروف فتحمد عليه . إنما الحمد الكامل لله تعالى لاغيره ، فيجب على جميع العباد حمد الله تعالى لأنه أهل الحمد والثناء الحسن *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله : فقراً عليه : ﴿ وَاللَّهِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ قال الأعرابي : نعم ، ثم قرأ عليه ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ قال : نعم . ثم قرأ عليه كل ذلك يقول نعم ، حتى بلغ ﴿ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ فولى الأعرابي فأنزل الله : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ * ولم أجد غير هذا القول فيما تحدى من تفاسير : أما التفسير : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ أي يقرون بأنها من عنده ﴿ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ بإشراكهم قال السدى : نعمة الله يعني محمداً ﷺ أنكروه وكذبوه . وقيل : نعمة الله هي الإسلام . وهي من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده ، ثم إن كفار مكة أنكروه وجحدوه * وقال مجاهد وقتادة : نعمة الله ما عدد عليهم في هذه السورة من النعم يقرون بأنها من عند الله ، ثم قيل صدقوا وامثلوا أمر الله فيها ينكرونها . ويقولون : ورثناها عن آبائنا . وقال الكلبي : لما ذكر الله هذه النعم قالوا : هذه النعم كلها من الله لكنها بشفاعة آلهتنا * والمعنى : لا يشكرونها بالتوحيد . وجيء بثم في قوله : ثم ينكرونها للدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة لأن من عرف النعمة حقه أن يعترف لا أن ينكرها . ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ بالتوحيد والنعم . أو وأقلهم الجاهلون بأنها أي النعمة منه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : بينما رسول الله ﷺ بفناء بيته بمكة جالساً إذ مر به عثمان بن مظعون فكشر — هكذا في جميع الروايات — إلى رسول الله ﷺ : ألا تجلس ؟ فقال : بلى . قال : فجلس رسول الله ﷺ مستقبله ، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء ، فنظر ساعة إلى السماء . فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض ، فتحرف رسول الله ﷺ عن جلسه عثمان إلى حيث وضع بصره ، فأخذ ينفذ رأسه كأنه يستفقه ما يقال له ، وابن مظعون ينظر . فلما قضى حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصره رسول الله ﷺ إلى السماء كما شخص أول مرة فاتبعه بصره حتى توارى إلى السماء . فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى فقال يا محمد : فيما كنت أجالسك ما رأيتك تفعل كفعلك الغداة ؟ فقال : « وما رأيتني فعلت » ؟ قال : رأيتك شخص بصرك إلى السماء ، ثم وضعته حيث وضعه على يمينك ، فتحرفت إليه وتركتني ، فأخذت تنفض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك . قال : « وفطنت لذلك » ؟ فقال عثمان : نعم ، قال رسول الله ﷺ : « أتاني رسول الله — أي جبريل عليه السلام — آنفاً وأنت جالس » قال : رسول الله ؟ قال : « نعم » قال : فما قال لك ؟ قال : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية . قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي . وأحبيت محمداً ﷺ * وهو باللفظ والحرف في ابن كثير : اسناده جيد متصل حسن قد بين فيه السماع المتصل ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً * قلت : وقد وقفت على معنى الكشر في الحديث : وهو ظهور الأسنان للضحك وكاشره : إذا ضحك في وجهه وباسطه . والحديث رواه أحمد والطبراني . وفي مجمع الزوائد وابن كثير وعن عمرو بن أبي العاص ، قال : كنت عند رسول الله ﷺ جالساً إذا شخص ببصره ، ثم صوبه حتى كاد أن يلزق بالأرض قال : وشخص ببصره قال : أتاني جبريل . فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ رواه أحمد واسناده حسن . أما التفسير : ﴿ إِنَّ اللَّهَ

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴿ أَي التوحيد أو الإنصاف . وعبارة البيضاوي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ أي بالتوسط في الأمور اعتقاداً كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك . والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر ، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ، وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير * ﴿ وَالْإِحْسَانَ ﴾ أداء الفرائض . أو أن تعبد الله كأنك تراه كما في الحديث ﴿ وَإِيتَاءَ ﴾ إعطاء ﴿ ذِي الْقُرْبَى ﴾ أي التصدق على ذي القرى . فإن إيتاءهم صلة وصدقة قال عليه الصلاة والسلام : « إن أعجل الطاعة ثواباً صلة الرحم » ﴿ وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾ الزنا ﴿ وَالْمُنْكَرِ ﴾ قال : اجتمع مسروق وشثير بن شكل في المسجد ، فقال مسروق : هل سمعت عبد الله بن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن حلال وحرام . وأمر ونهى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ إلى آخر الآية ؟ قال : نعم . وأناقد سمعته . رواه الطبراني . وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ تتعظون . أو تتنبهون . وليس مقصوداً منه الترجي والتمني . فإن ذلك محال على الله تعالى فوجب أن يكون معناه أنه تعالى يعظكم لارادة أن تذكروا طاعته *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ في الواحدي : حدث حصين عن عبيد الله بن مسلم قال : كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر : اسم أحدهما يسار والآخر خير ، وكانا يقرآن كتباً لهم بلسانهم . وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيسمع قراءتهما . وكان المشركون يقولون يتكلم منهم . فأنزل الله تعالى فأكذبهم — ﴿ وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ وفي اللباب : أخرج ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يعلم فينا بمكة اسمه بلعام . وكان أعجمي اللسان . وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام . فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ... ﴾ وفيه أيضاً . وأخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال : كان لنا

عبدان : أحدهما يقال له يسار والآخر جبر ، وكان صقليين ، فكانا يقرآن كتابهما ، ويعلمان علمهما ، وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيسمع قراءتهما . فقالوا : إنما يتعلم منهما : فنزلت * قوله : جَبْرٌ — بفتح الجيم وسكون الباء الموحدة . وفي البيضاوي : وهو غلام عامر بن الحضرمي ، وقيل يعنون جبراً ويساراً كانا يصنعان السيوف بمكة . ويقرآن التوراة والإنجيل . وكان الرسول ﷺ يمر عليهما . ويسمع ما يقرآنه . وقيل : يعنون عائشاً غلام وهو حويطب بن عبد العزى قد أسلم . وكان صاحب كتب . وقيل : يعنون سلمان الفارسي * وكذا في ابن كثير والطبري . وفي ابن كثير : وقال الزهري عن سعيد بن المسيب : الذي قال ذلك من المشركين رجل كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فارتد بعد ذلك عن الإسلام . وافترى هذه المقالة قبحة الله * وفي الخازن : وقال عكرمة : وكان رسول الله ﷺ يقرء غلاماً لبني المغيرة يقال له يعيش ، فكان يقرأ الكتب ، فقالت قريش : إنما يعلمه يعيش * وذكر عدة أقوال لا تخرج عما ذكر ثم قال : والحاصل أن الكفار تهموا رسول الله ﷺ . وقالوا : إنما يتعلم هذه الكلمات من غيره ، ثم إنه يضيفهما لنفسه . ويزعم أنه وحي من الله عز وجل ، وهو كاذب في ذلك ، فأجاب الله عنه . وأنزل هذه الآية تكديماً لهم فيما رموا به رسول الله ﷺ من الكذب * أما التفسير : ﴿ وَلَقَدْ ﴾ للتحقيق أي حقيق ﴿ نَعَلِمُ ﴾ علماً مستمراً ﴿ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ ﴾ القرآن ﴿ بَشَرٌ ﴾ إنما أداة حصر : أي لا يعلم محمداً القرآن إلا بشر أي لا جبريل كما يدعى فأكذبهم تعالى بقوله : ﴿ لِسَانٌ ﴾ لغة ﴿ الَّذِي يُلْحَدُونَ ﴾ يميلون ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي يضيفونه وينسبون إليه أنه يعلمه ﴿ أَعْجَمِي ﴾ الأعجمي الذي لم يتكلم بالعربية . وقال الراغب الأعجم من في لسانه عجمة عربياً كان أو غير عربي اعتباراً بقلة فهمه والأعجمي منسوب إليه ﴿ وهذا ﴾ القرآن الذي جاءكم به رسول الله ﷺ ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مَبِينٌ ﴾ ذو بيان وفصاحة . والأعجمي تمنعه عجمته من الاتيان بفصيح الكلام . ومحمد ﷺ جاءكم بهذا القرآن الفصيح الذي عجزتم أنتم عنه . وأنتم أهل الفصاحة والبلاغة ، فكيف يقدر من هو أعجمي على مثله . وأين فصاحة هذا القرآن من عجمة هذا الذي تشيرون إليه . فثبت بهذا البرهان أن الذي جاء به محمد ﷺ وحي أوحاه الله إليه ، وليس هو من تعليم الذي تشيرون إليه . ولا هو أتى به من تلقاء نفسه بل هو وحي من الله عز وجل . ويروى أن الرجل الذي كانوا يشيرون إليه أسلم وحسن إسلامه . (الخازن) *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت في عمار بن ياسر ، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسراً ، وأن سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالمًا . فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ووجيء قبلها بحربة ، وقيل لها : إنك أسلمت من أجل الرجال ، فقتلت ، وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين قتلوا في الإسلام ، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها . فأخبر النبي ﷺ بأن عماراً كفر . فقال : كلا ، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ، وقال : إن عادوا لك فعد لهم بما قلت : فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما أراد النبي ﷺ أن يهاجر إلى المدينة أخذ المشركون بلالاً وخباباً وعمار بن ياسر . فأما عمار فقال لهم كلمة أعجبهم تقيّة ، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ حدثه ، فقال : كيف كان قلبك حين قلت ؟ أكان منشرحاً بالذي قلت ؟ قال : لا . فأنزل الله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ ... ﴾ الآية * وفي الواحدي والسيوطي : وأخرج عن مجاهد قال : نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة آمنوا . فكتب إليهم بعض الصحابة بالمدينة أن هاجروا ، فخرجوا يريدون المدينة ، فأدركتهم قريش بالطريق . ففتنواهم . فكفروا مكرهين . ففهم نزلت هذه الآية * وعبارة الخازن : نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر . وذلك أن الكفار أخذوه وأباه ، وهو ياسر وأمه ، وهي سمية ، وأخذوا أيضاً صهيباً وبلالاً وخباباً فعذبوهم ليرجعوا عن الإيمان . فأما سمية أم عمار فربطوها بين بعيرين ، وضربها أبو جهل بحربة في فرجها ، وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فإنه أعطاهم بعض ما أرادوا بلسانه مكرهاً . فإنهم قالوا له : اكفر بمحمد . فبايعهم على ذلك ، وقلبه كاره . فأخبر النبي ﷺ أن عماراً كفر . فقال : كلا ، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار وهو يبكي . فقال : رسول الله ﷺ : ما وراءك ؟ قال : شر يارسول الله نلت منك ما ذكرت ، فقال : وكيف وجدت قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان . فجعل النبي ﷺ يمسح عينيه . وقال : إن عادوا لك فقل لهم ما قلت . فنزلت هذه الآية * وفي

البيضاوى : وفيما فعله عمار دليل على جواز التكلم بالكفر عند الإكراه . وإن كان الأفضل أن يتجنب عنه اعزازاً للدين كما فعله أبواه ولما روى أن مسيلمة أخذ رجلين . فقال : لأحدهما : ماتقول في محمد ؟ قال رسول الله . قال : ماتقول فيي قال أنت أيضاً . فخلاه ، وقال للآخر : ماتقول في محمد ؟ قال رسول الله . قال : ماتقول فيي ؟ قال : أنا أصم فأعاد عليه ثلاثاً . فأعاد جوابه فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ . فقال : أما الأول فقد أخذ برخصة الله . وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له * وتفسير الشق الأول من الآية واضح . وقوله : ﴿ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ له . أي فتحه ، ووسعه بمعنى طابت به نفسه ﴿ فَعَلَيْهِمْ غُضِبَ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الآخرة *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ الآية متصلة بما قبلها : في الواحدي : قال قتادة : ذكر لنا أنه لما أنزل الله تعالى قبل هذه الآية أن أهل مكة لا يقبل منهم إسلامهم حتى يهاجروا ، كتب بها أهل المدينة إلى أصحابهم من أهل مكة ، فلما جاءهم ذلك خرجوا فلحقهم المشركون فردوهم فنزلت : ﴿ أَلَمْ * أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ فكتبوا بها إليهم . فبايعوا بينهم على أن يخرجوا ، فإن لحقهم المشركون من أهل مكة قاتلوهم حتى ينجوا أو يلحقوا بالله . فأدركهم المشركون . فقاتلوهم فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ... ﴾ الآية . وفي الخازن : نزلت هذه الآية في عباس بن ربيعة ، وكان أخوا أبي جهل من الرضاة ، وقيل كان أخاه من أمه ، وفي أبي جندل بن سهل بن عمرو . والوليد بن الوليد بن المغيرة ، وسلمة بن هشام ، وعبد الله بن أوس الثقفي . فتنهم المشركون وعذبوهم . فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا . وجاهدوا * وقال الحسن وعكرمة نزلت في عبد الله بن أبي سرح كان قد أسلم ، وكان يكتب للنبي ﷺ فاستنزله الشيطان فارتد ، ولحق بدار الحرب ، فلما كان يوم فتح مكة أمر النبي ﷺ بقتله . فاستجاره عثمان . وكان أخاه لأمه . فأجاره رسول الله ﷺ . فأقى به فأسلم وحسن إسلامه . قال : وهذا القول الصحيح إنما يصح إذا قلنا إن هذه الآية مدنية نزلت

بالمدينة . فتكون من الآيات المدنية في السور المكيات . والله أعلم بحقيقة ذلك .
 قلت : وقال قتادة : إن هذه السورة مكية إلا خمس آيات وهي قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ بَعْدَ مَا ظَلَمُوا ... ﴾ وقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ وقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ إلى آخر السورة . وزاد مقاتل : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ .. ﴾ الآية ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً ﴾ أما التفسير :
 ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ إلى المدينة . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ عذبوا ، وتلفظوا بالكفر . أو فتنوا عن الإيمان كما وقع لبعضهم أن عبده أسلم . فعذبه وعاقبه حتى رده عن الإيمان وأرجعه للكفر ففتنه عن الإيمان . أي رده عنه ﴿ ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ على الطاعة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أي الفتنة ﴿ لَعَفُورٌ ﴾ لهم ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِ لَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِقْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَخْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ في الواحدي : حدث مجاهد عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون عن قتلى أحد انصرف رسول الله ﷺ . فرأى منظراً أساءه ، فرأى حمزة قد شق بطنه . واصطلم أنفه ، وجدعت أذناه فقال : لولا أن يجزن النساء أو يكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله تعالى من بطون السباع والطيور . لأقتلن مكانه سبعين رجلاً منهم . ثم دعا ببردة فغطى بها وجهه . فخرجت رجلاه ، فجعل على رجله شيئاً من الأذخر ، ثم قدمه وكبر عليه عشراً ، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلى عليه سبعين صلاة ، وكان القتلى سبعين ، فلما دفنوا أو فرغ منهم نزلت هذه الآية ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ... ﴾ إلى قوله ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ... ﴾ ولم يمثل بأحد . وفي رواية أبي هريرة : أشرف النبي ﷺ على حمزة فرآه صريعاً . فلم ير شيئاً كان أوجع لقلبه منه . وقال : والله ، لأقتلن بك سبعين منهم ، فنزلت — ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِقْتُمْ بِهِ ... ﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ . بل نصبر يارب . قال المفسرون : إن المسلمين لما رأوا ما فعل المشركون بقتلاهم يوم أحد من تبقيير البطون ، وقطع المذاكير ، والمثلة السيئة ، قالوا حين رأوا ذلك : لئن ظفرنا الله سبحانه

وتعالى عليهم لتزيدن على صنيعهم ، وتمثلن بهم مثلاً لم يمثلهما أحد من العرب بأحد قط . ولنفعن ولنفعن — وقف رسول الله ﷺ على عمه حمزة ، وقد جدعوا أنفه . وقطعوا مذاكيره . وبقروا بطنه . وأخذت هند بنت عتبة قطعة من كبده . فمضغتها ، ثم استرطنتها لتأكلها . فلم تلبث في بطنها حتى رمت بها ، فبلغ ذلك نبي الله ﷺ فقال : أما إنها لو أكلته لم تدخل النار أبداً ، حمزة أكرم على الله من أن يدخل شيئاً من جسده النار . فلما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة . نظر إلى شيء لم ينظر إلى شيء كان أوجع لقلبه منه . فقال : « رحمة الله عليك إنك ما علمت كنت وصولاً للرحم . فعلاً للخيرات ، ولولا حزني من بعدك عليك لسري أن أدعك حتى تحشر من أجواف شتى . أما والله لئن أظفرتني الله تعالى بهم لأمثلن بسبعين منهم مكانك » . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِقْتُمْ بِهِ .. ﴾ الآية . فقال النبي ﷺ : بلى نصبر . وأمسك عما أراد . وكفر عن يمينه * وفي البيضاوي : وفيه دليل على أن للمقتص أن يمثال الجاني ، وليس له أن يجاوزه * ونحوه في الكرخي وابن كثير وغيرهما أما التفسير : ﴿ اذع ﴾ الناس يا محمد ﴿ إلى سبيل ربك ﴾ إلى دين ربك ، وهو دين الإسلام ﴿ بالحكمة ﴾ بالقرآن ، وهو الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ يعني وادعهم إلى الله بالترغيب والترهيب بحيث لا يخفي عليهم أنك تناصحهم ، وتقصد ما ينفعهم ﴿ وجاد لهم بالتي هي أحسن ﴾ يعني بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف . وقيل : إن الناس خلقوا وجبلوا على ثلاثة أقسام : القسم الأول : هم العلماء الكاملون : أصحاب العقول الصحيحة والبصائر الثابتة الذين يطلبون معرفة الأشياء على حقائقها ، فهؤلاء هم المشار إليهم بقوله : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة . يعني : ادعهم بالدلائل القطعية النفسية حتى يعلموا الأشياء بحقائقها حتى ينتفعوا ، وينفعوا الناس . وهم خواص العلماء من الصحابة وغيرهم . القسم الثاني : وهم أصحاب النظر السليم ، والخلقة الأصلية ، وهم غالب الناس الذين لم يبلغوا حد الكمال ، ولم ينزلوا إلى حضيض النقصان ، فهم أوسط الأقسام ، وهم المشار إليهم بقوله : ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ أي ادع هؤلاء بالموعظة الحسنة . والقسم الثالث : وهم أصحاب جدال وخصام ومعاندة ، وهؤلاء المشار إليهم بقوله : ﴿ وجاد لهم بالتي هي أحسن ﴾ يعني : حتى ينقادوا إلى الحق ويرجعوا إليه . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ أي عالم . ﴿ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ

سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٠﴾ فيجازيهم ، فما عليك إلا البلاغ . وقوله : ﴿١١﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ عَنْ الانتقام . أي تركتموه بالكلية ﴿١٢﴾ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٣﴾ فكف ﷺ وكفر عن يمينه رواه البزار *

سورة بني إسرائيل وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿١٠﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١١﴾ في اللباب : أخرج ابن عبد البر بسند ضعيف عن عائشة قالت : سألت خديجة رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين . فقال : هم من آبائهم ، ثم سألته بعد ذلك فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين . ثم سألته بعد ما استحکم الإسلام . فنزلت : ﴿١٠﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... ﴿١١﴾ وقال : هم على الفطرة . أو قال : في الجنة . ولم أجد غير هذا القول في التفاسير : وتفسيرها باختصار : أي لا تحمل حامله ثقل أخرى من الآثام ، ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، بل كل أحد مختص بذنبه . ولعل قوله عليه الصلاة والسلام : «هم من آبائهم» أي مع آبائهم . أو أن من بمعنى مع . أو قل : لا تحمل نفس حامله للوزر وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها . ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم . بل إنما تحمل كل منهما وزرها . وهذا تحقيق لمعنى قوله تعالى : ﴿١٢﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴿١٣﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿١٤﴾ وَإِنَّمَا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوها فُقُلَ لَهُمْ قَوْلًا مِّسُورًا ﴿١٥﴾ في اللباب : أخرج سعيد بن منصور عن عطاء الخرساني . قال : جاء ناس من مزينة يستحملون رسول الله ﷺ . فقال : لا أجد ما أحملكم عليه . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً . ظنوا ذلك من غضب رسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿١٤﴾ وَإِنَّمَا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ... ﴿١٥﴾ الآية * وأخرج ابن جرير عن الضحاک قال : نزلت فيمن كان يسأل النبي ﷺ من المساكين * قلت : وهو الصحيح لصلة الآية بما قبلها من قوله : ﴿١٦﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ

الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كُفُورًا * وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ ... ﴿ وهو خطاب للكل ، وليس خاصاً بالرسول عليه الصلاة والسلام . ومنهم من زعم ذلك ، ففي الخازن : نزلت الآية في مهجع وبلال وصهيب وسالم وخباب كانوا يسألون النبي ﷺ في الأحايين ما يحتاجون إليه ولا يجد ، فيعرض عنهم حياءً منهم ، ويمسك عن القول فنزلت هذه الآية . والمعنى : إن تعرض عن هؤلاء الذين أمرت أن تؤتيهم ﴿ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا ﴾ أي انتظار رزق من الله رجوه أن يأتيك ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ أي لينا جميلاً : أي عدهم وعداً طيباً تطيب به قلوبهم . وقيل هو أن يقول : رزقنا الله وإياكم من فضله *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ في الواحددي حدث الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : جاء غلام إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أمي تسألك كذا وكذا ، فقال : ما عندنا اليوم شيء . قال : فتقول لك . أكسني قميصك . قال : فخلع قميصه فدفعه إليه ، وجلس في البيت حاسراً . فأنزل الله تعالى سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ .. ﴾ الآية * وقال جابر بن عبد الله بينا رسول الله ﷺ قاعداً فيما بين أصحابه أتاه صبي . فقال يا رسول الله أمي تستكسيك درعاً ولم يكن عند رسول الله ﷺ إلا قميصه ، فقال للصبي : من ساعة إلى ساعة * يعد وقتنا آخر . فعاد إلى أمه . فقالت له : أمي تستكسيك القميص الذي عليك ، فدخل رسول الله ﷺ داره ، ونزع قميصه ، وأعطاه وقعد عرياناً ، فأذن بلال للصلاة . فابتظروه فلم يخرج . فشغل قلوب الصحابة . فدخل عليه بعضهم . فراه عرياناً ، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية * وكذا في الخازن . وفي اللباب : وأخرج ابن مردويه عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال لعائشة : أنفقي ما على ظهر كتفي ، قالت : إذن لا يبقى شيء . فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ .. ﴾ الآية * وأخرج سعيد بن منصور عن سيار أبي الحكم قال : أتى رسول الله ﷺ بر وكان معطياً كريماً . فقسمه بين الناس ، فأتاه قوم فوجدوه قد فرغ منه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ .. ﴾ أما التفسير : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ .. ﴾ أي مضمومة إليه مجموعة معه في الغل : طوق من حديد يجعل في العنق . هذا معنى اللفظ في اللغة . وقد علمت المراد منه . أي لاتمسكها عن الانفاق كل الامسك ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا ﴾ في الانفاق

﴿ كَلَّ الْبَسُطُ اِفْتَقَعْدَ مَلُومًا ﴾ أي تصير تلوم نفسك ﴿ مَحْسُورًا ﴾ أي نادماً ، أو منقطعاً بك لاشيء عندك . من حسره السفر إذا بلغ منه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مَبِينًا ﴾ في الواحدي : نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك أنّ رجلاً من العرب شتمه فأمره الله تعالى بالعمو * وقال الكلبي : كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بالقول والفعل فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى هذه الآية * والأخير في الخازن . ولم أجد غيرهما في التفاسير : أما التفسير : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي ﴾ المؤمنين ﴿ يَقُولُوا ﴾ للكفار الكلمة ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ولا يتخاشنوا معهم في الكلام كان يقولوا لهم : إنكم من أهل النار ، فإنه يهيجهم إلى الشر مع أن عاقبة أمرهم مغيبة عنا ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ ﴾ يفسد ﴿ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مَبِينًا ﴾ بين العداوة *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ .. ﴾ الآية . خرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال : كان ناس من الإنس يعبدون نفراً من الجن ، فأسلم الجنيون ، واستمسك الآخرون بعبادتهم . فأنزل الله : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ الآية . وكذا في ابن كثير . وفيه عن ابن مسعود في قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ .. ﴾ الآية . قال نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن . فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم ، فنزلت هذه الآية . وفي رواية عن ابن مسعود : كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن : فذكره * وفي الخازن : وذلك أن الكفار أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف . فاستغاثوا بالنبي ﷺ ليدعو لهم . فقال الله عز وجل : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ ﴾ أنهم آلهة من دونه . ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ ﴾ أي الجوع والقحط ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ إلى غيركم ، أو تحويل الحال من العسر إلى اليسر . ثم ذكر رواية ابن مسعود سالفه الذكر . أما التفسير : ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ ﴾ أنهم آلهة ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ لطائفة من الملائكة وكعبسى بن مريم وعزيز وليس المراد بالآلهة هنا ما يشمل الأصنام . با خصوص من له عقل لأجل قوله فيما يأتي :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ .. ﴾ ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ له إلى غيركم . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ .. ﴾ أي أولئك الأنبياء الذين يدعونهم المشركون لكشف ضرهم . أو يدعونهم آلهة . أو أولئك الأنبياء الذين يدعون ربهم ، أو الناس إلى الهدى . والمعنى : أن هؤلاء المعبودين لهم مفتقرون إلى الله . وراجون رحمته . وخائفون عذابه ، فلا يصلحون للألوهية لأن الإله يكون غنياً . الغني المطلق . وقوله : ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ يطلبون ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ التقرب بالطاعة . ﴿ أَيُّهُمْ ﴾ بدل من واو يتتبعون أي يتتبعها الذي هو ﴿ أَقْرَبُ ﴾ إليه أي إلى مناجاته ، وهم الملائكة ، فكيف بغير الأقرب كعيسى ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ كغيرهم فكيف تدعونهم آلهة ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أي حقيقياً بأن يحذره كل أحد من ملك مقرب ، ونبي مرسل ، فضلا عن غيرهم من الخلائق *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ في الواحدي : حدث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً . وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعون . فقيل له . إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نحتبي منهم وإن شئت نعدهم الذي سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلك من قبلهم ؟ قال : لا . بل أستأني بهم . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ ... ﴾ وروى أحمد والبخاري والطبراني عن جابر في الآية : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ ... ﴾ قال : مر النبي ﷺ بالحجر . قال : لا تسألوا الآيات . فقد سأها قوم صالح ، فكانت ترد من هذا الفج . فعتوا عن أمر ربهم ففقروها . فأخذتهم صيحة أحمد الله من تحت آدم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله . قيل من هو يارسول الله ؟ قال : أبو رعال — بالعين وفي رواية — بالغين — فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه * وعن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً . وأن ينحي الجبال عنهم ليزرعوا . فقيل له إن شئت أن تستأني بهم ، وإن شئت نؤتيهم الذي سألوا . فإن كفروا وأهلكوا كما أهلكت من قبلهم . قال : بل أستأني بهم . وأنزل الله عز وجل هذه الآية : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ . وفي رواية : فدعا .

فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال : إن ربك يقرئك السلام . ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً . فمن كفر منهم بعد ذلك عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين . وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة * قال الهيثمي : ورجال الروایتین رجال الصحيح * ورواه الحاكم في مستدرکه إلا أنه قال : لعلنا نستحي منهم . فأنزل الله هذه : ﴿ وَمَا مَنَعْنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ ... ﴾ قال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وأقره الذهبي * أما التفسير : ﴿ وَمَا مَنَعْنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ أي لو أظهر تعالى تلك المعجزات التي سألوها ثم لم يؤمنوا بها لكان عذابهم محققاً لا محالة كسنة الله تعالى في الأولين . أخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله ﷺ : « لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم . فإن عصيتم هلكنم . فقالوا : لا نريدها . ثم بين تعالى أن الآيات التي التمسها هي مثل آية ثمود . وقد أوتوها واضحة بينة فكفروا بها فاستحقوا العذاب . فكيف يتمنى مثلها هؤلاء على سبيل الاقتراح فقال : ﴿ وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ والأمر واضح .. فعقروها . فأبادهم الله ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً ﴾ أي إن الله تعالى : يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون فيرجعوا *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ في الواحدي : حدث عكرمة عن ابن عباس قال : لما ذكر الله تعالى الزقوم خوف به هذا الحي من قريش ، فقال أبو جهل : هل تدرون ما هذا الزقوم الذي يخوفكم به محمد ؟ قالوا : لا ، قال : الثريد بالزبد . أما والله لئن أمكننا منها لنتزقمنها تزقماً ، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ... ﴾ يقول : الزقوم . ونحوفهم فما يزيدهم إلا صغياناً كبيراً . وأنزل : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأُنِيَمِ .. ﴾ * وفي اللباب أخرج أبو يعلى عن أم هانئ أنه ﷺ لما أسرى به أصبح يحدث نفرأ من قريش يستهزؤون به . فطلبوا منه آية . فوصف لهم بيت المقدس . وذكر لهم قصة العير ، فقال الوليد بن المغيرة : هذا ساحر . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ وفي الخازن : الأكثرون من المفسرين

على أن المراد منها ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا .. ﴾ ما رأى النبي ﷺ ليلة المعراج من العجائب والآيات . قال ابن عباس : رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة المعراج ، وهي ليلة أسرى به إلى بيت المقدس . أخرجه البخاري . وهو قول سعيد بن جبير والحسن ومسروق وقتادة ومجاهد وعكرمة ، وابن جرير وغيرهم * . . . وقيل : أراد بهذه الرؤيا ما رأى ﷺ عام الحديبية أنه دخل مكة هو وأصحابه ، فعجل المسير إلى مكة قبل الأجل ، فصدده المشركون ، فرجع إلى المدينة ، فكان رجوعه في ذلك العام بعد ما أخبر أنه يدخلها فتنة لبعضهم ، ثم دخل مكة في العام المقبل . وأنزل الله عز وجل : لقد صدق رسولنا بالحق * قال ابن جرير في تفسيره : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عنى به رؤيا رسول الله ﷺ ما رأى من الآيات والعبر في طريقه إلى بيت المقدس ليلة أسرى به . قال : وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لاجتماع الحججة من أهل التأويل على أن هذه الآية إنما نزلت في ذلك وإياها عنى الله عز وجل . فإذا كان ذلك كذلك . فتأويل الكلام : وما جعلنا رؤياك التي أريناك ليلة أسرينا بك من مكة إلى بيت المقدس إلا فتنة للناس يقول : الإ بلاء للناس الذين ارتدوا عن الإسلام لما أخبروا بالرؤيا التي رآها عليه الصلاة والسلام . وللمشركين من أهل مكة الذين ازدادوا بسماعتهم ذلك من رسول الله ﷺ تمادياً في غيهم ، وكفراً إلى كفرهم * قال . وأما قوله : ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ ﴾ . فإن أهل التأويل اختلفوا فيها . فقال بعضهم هي شجرة الزقوم . وأسند هذا القول إلى ابن عباس ومسروق . والحسن . وعبارته : كانوا يأكلون التمر والزبد ويقولون تزقموا هذا الزقوم . قال أبو رجاء حدثني عبد القدوس عن الحسن قال : فوصفها الله لهم في الصفات * وأبى مالك وسعيد بن جبير ومجاهد وإبراهيم . أنه كان يحلف ما يستثنى أن الشجرة الملعونة شجرة الزقوم . وعن قتادة قوله : ﴿ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ ... ﴾ الآية . قال : وهي شجرة الزقوم خوف الله بها عباده ، فاقتنوا بذلك حتى قال قائلهم : أبو جهل بن هشام ، زعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر . وإنا والله ما نعلم الزقوم إلا التمر والزبد ، فترقموا فأنزل الله تبارك وتعالى حين عجبوا أن يكون في النار شجرة أنها شجرة تخرج في أصل الجحيم أعذب بها من شئت من عبادي * وأنجاب ابن عباس حين سئل عن الشجرة الملعونة في القرآن . قال : هي هذه الشجرة التي تلوى على الشجرة ،

وتجعل في الماء . يعني الكشوثى * قال أبو جعفر وأولى القولين في ذلك بالصواب عندنا قول من قال عنى بها شجرة الزقوم لاجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك * ولا حاجة بعد هذا العرض إلى تفسير الآية خشية التكرار *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِئْنَا إِلَيْكَ لِفَتْنٍ عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَاتُخْذُوكَ خَلِيلاً ﴾ * وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ في الواحدى : قال سعد بن جبیر : قال المشركون للنبي ﷺ لا نكف عنك إلا بأن تلم بأهتنا ولو بطرف أصبعك . فقال النبي ﷺ : ما على لو فعلت . والله يعلم إني بار . فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِئْنَا إِلَيْكَ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ نصيراً ﴾ وقال قتادة : ذكر لنا أن قريشاً خلوا برسول الله ﷺ ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ، ويفحمنونه ويسودونه ويقاربونه ، فقالوا : إنك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من الناس . وأنت سيدنا ياسيدنا . ومازوا حتى كاد يقاربهم في بعض ما يريدون ، ثم عصمه الله تعالى عن ذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ... ﴾ وفي اللباب : أخرج ابن مردويه . وابن أبي حاتم من طريق اسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة ابن عباس . قال : خرج أمية بن خلف وأبو جهل بن هشام ورجاله من قريش . فأتوا رسول الله ﷺ . فقالوا يا محمد : تعال تمسح بأهتنا وندخل في دينك . وكان يحب إسلام قومه . فرق لهم . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِئْنَا إِلَيْكَ ﴾ إلى : ﴿ نصيراً ﴾ قال السيوطي : هذا أصح ما ورد في سبب نزولها ، وهو إسناد جيد ، وله شاهد . أخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبیر قال : كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر . فقالوا : لاندعك تستلم هذا حتى تلم بأهتنا ، فقال رسول الله ﷺ : وما عليّ لو فعلت ، والله يعلم في خلافه . فنزلت * وأخرج نحوه عن ابن شهاب . وأخرج عن جبیر بن نفيير أن قريشاً أتوا النبي ﷺ . فقالوا : إن كنت أرسلت إلينا . فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم ، فنكون نحن أصحابك ، فركن إليهم فنزلت الآية * وفي البيضاوي : نزلت في ثقيف قالوا له : لاندخل في أمرك حتى تعطينا خصالاً نفتخر بها على العرب . لاندعشر ولا نحشر ولا نجبي في صلاتنا . وكل رباة لنا فهو لنا . وكل رباة علينا فهو موضوع عنا ، وأن تمتعنا باللات سنة حتى نأخذ ما يهدي لها . فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا ، وأن

تحرم وادينا كما حرمت مكة . فإن قالت العرب لم فعلت ذلك . فقل إن الله أمرني * قولهم : لانعشر . أي لا يؤخذ منا عشر أموالنا الذي هو الزكاة . وقولهم ولا نحشر . أي الانساق إلى الجهاد . ولا نجبي في صلاتنا من التجبية . وهي وضع اليد على الركبتين أو على الأرض . أو الانكباب على الأرض فهو كناية عن عدم الركوع والسجود ، والمراد لأصلي * وعبارة الخازن : قال ابن عباس : قدم وفد ثقيف على النبي ﷺ ، فقالوا : نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال . قال : وما هي ؟ قالوا : لانجبي في الصلاة . أي لانحنني . ولا تكسر أصنامنا إلا بأيدينا . وأن تمتعنا باللات سنة من غير أن نعبدها . فقال عليه الصلاة والسلام : لا خير في دين لا ركوع فيه ولا سجود ، فأما أن تكسروا أصنامكم بأيديكم فذلك لكم . وأما الطاغية . يعني اللات والعزى ، فإني غير ممتعكم بها . قالوا يارسول الله : إنا نحب أن نسمع العرب أنك أعطيتنا ما لم تعط غيرنا ، فإن خشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا . فقل لهم : الله أمرني بذلك ، فسكت النبي ﷺ ، وطمع القوم في سكوته أن يعطيهم ذلك فأنزل الله : « وإن كادوا » أي هموا « ليفتنونك .. » والغريب أن ابن كثير لم يذكر حتى ولا قولاً واحداً من هذه الأقوال . أما التفسير : ﴿ وَإِنْ كَادُوا ﴾ قاربوا ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ أي يطلبون نزولك ﴿ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي عن الحكم الذي أوحيناه إليك من الأمر والنهي ، والوعد والوعيد بأن تحكم لهم بغيره ، وهو تحريم وادبهم الذي طلبوه ﴿ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ أي لتقول وتكذب علينا غيره . أي غير الذي أوحينا إليك ﴿ وَإِذَا ﴾ لو فعلت ذلك ﴿ لَا تَحْدُوكَ خَلِيلاً ﴾ أن والوك ووافوك وصافوك ﴿ وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَكَ ﴾ على الحق بعصمتنا إياك ﴿ لَقَدْ كَذَبْتَ تَرَكُنْ ﴾ تميل ﴿ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ أي قريب من الفعل ﴿ إِذَا ﴾ لو ركنت إليهم وتركت حكمتنا . ﴿ لِأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ . أي ضعف عذاب الحياة ... أي ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾ أي ناصرأ يمنعك من عذابنا *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِقُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : حسدت اليهود مقام النبي ﷺ بالمدينة . فقالوا : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام . فإن كنت نبياً فالحق بها ، فإنك إن خرجت إليها صدقناك ، وآمنا بك ، فوقع ذلك في قلبه لما يجب

من الإسلام ، فرحل من المدينة على مرحلة . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وروى عن عثمان أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا : إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام . فإن الشام أرض المحشر والمنشر ، وأرض الأنبياء ، فصدق ما قالوا وغزا غزوة تبوك لا يريد بذلك إلا الشام . فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفْزُقُواكَ مِنَ الْأَرْضِ ... ﴾ وقال مجاهد وقتادة والحسن : هم أهل مكة بإخراج رسول الله ﷺ من مكة . وأمره الله تعالى بالخروج . وأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي اللباب : ذكر رواية عثمان وساقها إلى قوله : فلما بلغ تبوك أنزل الله آيات من سورة بني إسرائيل : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفْزُقُواكَ مِنَ الْأَرْضِ ... ﴾ وأمره بالرجوع إلى المدينة . وقال له جبريل عليه السلام : سل ربك فإن لكل نبي مسألة . فقال : ما تأمرني أن أسأل ؟ قال رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً * وضعف هذه الرواية . وذكر شاهدها مارواه الواحدى : عن سعيد بن جبير عند أبي حاتم ولفظه . قالت المشركون للنبي ﷺ : كانت الأنبياء تسكن الشام فمالك والمدينة ، فهم أن يشخص فنزلت * وقد علمت أن اليهود قالوا له ذلك * وهو الصحيح . قال الخازن : قيل هذه الآية مدنية . وذلك أن النبي ﷺ لما قدم المدينة كره اليهود مقامه بالمدينة ، وذلك حسداً ، فأتوه فقالوا يا أبا القاسم : لقد علمت ما هذه برأض الأنبياء ، وإن أرض الأنبياء بالشام . وهي الأرض المقدسة . وكان بها إبراهيم والأنبياء عليهم السلام . فإن كنت نبياً مثلهم فأت الشام . وإنما يمنعك من الخروج إليها مخافة الروم . وإن الله سيمنعك من الروم إن كنت رسوله . فعسكر النبي ﷺ على ثلاثة أميال من المدينة * وفي رواية إلى ذي الحليفة حين يجتمع إليه أصحابه فيخرج . فأنزل الله هذه الآية * وقال : فالأرض هنا أرض المدينة ، وقيل الأرض أرض مكة ، والآية مكية . والمعنى : هم المشركون أن يخرجوه منها ، فكفهم الله عنه حتى أمره بالخروج للهجرة فخرج بنفسه وهذا أليق بالآية . لأن ما قبلها خبر عن أهل مكة . والسورة مكية ، وقيل : هم المشركون كلهم ، وأرادوا أن يستفزه من أرض العرب باجتماعهم وتظاهرهم عليه ، فمنع الله رسوله ، ولم ينالوا منه ما أملوه قال : والاستفزاز : الازعاج * وقد ضعف ابن كثير قول من قال نزلت في اليهود إذ شاروا على رسول الله ﷺ بسكنى الشام . قال : لأن هذه الآية مكية وسكنى المدينة بعد ذلك . وقيل إنها نزلت بتبوك وفي صحته نظر .

ثم ذكر رواية اليهود وخروجه إلى تبوك الخ .. وفي البيضاوي .. ولما قالت اليهود هذا القول وقع في نفسه ﷺ فخرج متوجهاً إلى الشام حتى قطع مرحلة ، فنزلت هذه الآية ، فرجع . ثم قتل منهم بنو قريظة وأجل بني النضير بعد زمن قليل * أما التفسير :

﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أرض المدينة ﴿ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾ إلى الشام بدعوى أنها أرض الأنبياء ﴿ وَإِذَا ﴾ لو أخرجوك ﴿ لَا يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ ﴾ بعدك فيها ﴿ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ ثم يهلكون . وقد علمت ما ذكره البيضاوي من قتله بني قريظة ... *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأُخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيراً ﴾ في الواحدي : قال الحسن : إن كفار قريش لما أرادوا أن يوثقوا النبي ﷺ ويخرجوه من مكة . وخرج مهاجراً إلى المدينة أنزل قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأُخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ . وهذا يقضي أن الآية مكية مع أنها آخر الثمان المدنيات . وقد ذكر البيضاوي أن السورة كلها مكية ، فلا إشكال . وفي الخازن : قال ابن عباس : معناه .

أدخلني مدخل صدق المدينة ، وأخرجني مخرج صدق من مكة * نزلت حين أمر رسول الله ﷺ بالهجرة * وكذا رواه ابن كثير : وقال الترمذي : حسن صحيح وفيه وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه . أو يطرده ، أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة أمره أن يخرج إلى المدينة ، فهو الذي قال الله عز وجل ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأُخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ الآية ... واختار صحة القول الأول . أما التفسير فواضح * وعبارة الخازن في قوله : ﴿ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيراً ﴾ أي حجة بينة ، وقيل : ملكاً قوياً تنصرتني به على من عاداني أو عزاً ظاهراً أقيم به دينك ، فوعده الله تعالى لينزعن ملك فارس والروم . وغيرهما ، ويجعله له . وأجاب دعاءه . وقال له : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ وقال : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ في الواحدي : روى علقمة عن عبد الله بن مسعود قال : إني مع النبي ﷺ في حرث بالمدينة . وهو متكئ على عسيب . فمر بنا ناس من اليهود . فقالوا : سلوه عن الروح . فقال بعضهم : لا تسألوه فيستقبلكم بما

تكرهون . فأتاه نفر منهم فقالوا يا أبا القاسم : ماتقول في الروح ؟ فأنزل الله عليه : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ رواه البخاري ومسلم جميعاً عن عمر بن حفص بن غياث عن أبيه عن الأعمش * وفي عمدة القاري : وعن ابن عباس : قالت اليهود للنبي ﷺ : أخبرنا عن الروح . وكيف يعذب ؟ وإنما هي من الله ؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء ، فلم يجز إليهم جواباً ، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه الآية * وقال المفسرون : إن اليهود اجتمعوا فقالوا لقريش حين سألوهم عن شأن محمد وحاله : سلوا محمداً عن الروح . وعن فتية فقدوا في أول الزمان ، وعن رجل بلغ شرق الأرض وغربها ، فإن أصاب في ذلك كله فليس نبي ، وإن لم يجد في ذلك فليس نبياً وإن أجاب في بعض ذلك . وأمسك عن بعضه فهو نبي ، فسألوه عنها . فأنزل الله في شأن الفتية — أم حسبت أن أصحاب الكهف — إلى آخر القصة . ونزل في الروح قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ الآية * وكذا في الخطيب وأبي السعود والخازن : قال ابن كثير يجمع بين الحديثين بتعدد النزول . وكذا قال الحافظ بن حجر . ومن شاء الوقوف على حقيقة الروح وأقوال العلماء فيها قديماً وحديثاً فليرجع إلى كتابي — سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلهية — الجزء الأول — فهو بحث مهمٌ يجب على كل مسلم الوقوف عليه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ في اللباب : اخرج ابن اسحاق وابن جرير من طريق سعيد ، أو عكرمة عن ابن عباس قال : أتى النبي ﷺ سلام بن مشكم في عامة من يهود سماهم . فقالوا : كيف نتبعك ، وقد تركت قبلتنا وإن هذا الذي جئت به لانراه مناسقاً كما تناسق التوراة . فأنزل علينا كتاباً نعرفه ، وإلا جئناك بمثل ماتأتي به . فأنزل الله : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ... ﴾ الآية * وقال الجلال : نزل . أي قوله : ﴿ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ .. ﴾ الخ ... رداً لقولهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » وهو صريح الخازن : فكذبهم الله عز وجل ، فالقرآن معجز في النظم والتأليف والأخبار عن الغيوب . وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة ، لا يشبه كلام الخلق لأنه كلام الخالق . وهو غير مخلوق . ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله * أما التفسير : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴾ وكذا الملائكة .

وإنما لم يذكروا لأن التحدي ليس معهم . والتصدي لمعارضته لا يليق بشأنهم * ﴿ عَلَى
أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ في الفصاحة والبلاغة ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ معيناً في تحقيق ما يتوخونه من الاتيان بمثله *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ
الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ إلى قوله : ﴿ بَشْرًا رَسُولًا ﴾ روى عكرمة عن ابن عباس : أن عتبة
وشيبة وأبا سفيان ، والنضر بن الحرث وأبا البخترى ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل
وعبد بن أمية ، وأمّية بن خلف ورؤساء قريش اجتمعوا على ظهر الكعبة فقال بعضهم
لبعض ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا به ، فبعثوا إليه . إنا أشرف
قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فجاءهم سريعاً ، وهو يظن أنه بدأ أمره بدء . وكان
عليهم حريصاً يحب رشدهم . ويعز عليهم تعنتهم حتى جلس إليهم فقالوا : يا محمد : إنا
والله لانعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ،
وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، وما بقى أمر قبيح إلا وقد جئته
فيما بيننا وبينك فإن كنت أي ماجئت به لتطلب به مالا جعلنا لك من أموالنا تكون به
أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا وإن كنت تريد ملكاً
ملكناك علينا . وإن كان هذا الرأي الذي يأتيك نراه قد غلب عليك — وكانوا يسمون
التابع من الجن الرأي — بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه . أو نعذر
فيك . فقال رسول الله ﷺ : ما بي ماتقولون . ماجئتمكم بما جئتمكم به لطلب
أموالكم ، ولالشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله عز وجل بعثني إليكم
رسولاً . وأنزل كتاباً . وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً . فبلغتكم رسالة ربي ،
ونصحت لكم . فإن تقبلوا مني ماجئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن
تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم . قالوا يا محمد : فإن كنت غير قابل
منا ما عرضنا فقد علمت أنه ليس أحد أضيق بلاداً ، ولا أقل مالا ، ولا أشد عيشاً منا .
سل ربك الذي بعثك بما بعثك ، فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا ، ويسط لنا
بلادنا . ويجري فيها أنهاراً كأنها الشام أو العراق ، وأن يبعث من مضي من آبائنا ،
وليكن ممن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب . فإنه كان شيخاً صدوقاً ، فנסأهم عما تقول
حق هو . فإن صنعت ما سألتناك صدقناك وعرفنا به منزلك عند الله . وأنه بعثك رسولاً

كما تقول : فقال رسول الله ﷺ : ما بهذا بعثت . إنما جئتمكم من عند الله سبحانه بما
 بعثني به ، فقد بلغتمكم ما أرسلت به ، فإن تقبلوا فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن
 تردوه أصبر لأمر الله . قالوا : فإن لم تفعل هذا فسل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك .
 وسله فيجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة ، ويغنيك بها عما نراك ،
 فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعاش . فقال رسول الله ﷺ : ما أنا بالذي ليسأل
 هذا ، وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله تعالى بعثني بشيراً ونذيراً . قالوا : فأسقط علينا
 كسفا من السماء كما زعمت إن شاء فعل ، فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله إن شاء
 فعل . فقال قائل منهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبلاً . وقال عبد الله بن
 أمية المخزومي . وهو ابن عاتكة بن عبد المطلب . ابنة عمه النبي ﷺ : لا أومن بك أبداً
 حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، وترقى فيه ، وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي بنسخة منشورة
 معك ، ونفر من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . فانصرف رسول الله ﷺ إلى
 أهله حزيناً بما فاته من متابعة قومه . ولما رأى من مبادئهم عنه . فأنزل الله تعالى :
 ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعاً ... ﴾ إلى قوله : ﴿ بِشراً
 رسولاً ﴾ نقلاً عن الواحدي واللباب للسيوطي * وهو نسخة ما في الخازن وابن كثير .
 قال ابن كثير : وهكذا رواه زياد بن عبد الله البكائي عن ابن اسحاق . حدثني بعض
 أهل العلم عن سعيد بن جبير ، وعكرمة عن ابن عباس فذكر مثله سواء * وقال ابن
 كثير : وهذا المجلس الذي اجتمع هؤلاء له . لو علم الله منهم أنهم يسألون ذلك
 استرشاداً لأجيبوا إليه . ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً . فقبل لرسول الله
 ﷺ : إن شئت أعطيناهم ما سألوا . فإن كفروا عذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من
 العالمين . وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة . والرحمة فقال : بل تفتح عليهم باب
 التوبة والرحمة . كما تقدم ذلك في حديثي ابن عباس والزيبر بن العوام عن قوله تعالى :
 ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ * وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرةً
 فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً ﴾ لا لما يقترحه الناس * فهو من باب
 التعجيز . وما هم بمعجزين من في الأرض . أما التفسير : ﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على قوله
 ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴾ جحود للحق وقالوا . ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ﴾ لما تبين
 اعجاز القرآن . وانضمت إليه معجزات أخر . وبينات ولزمتهم الحجة وغلّبوا أخذوا
 يتعللون باقتراح الآيات فقالوا : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبوعاً ﴾

عيناً لا ينضب ماؤها . أي لا يغور ولا يذهب . ﴿ أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ ﴾ بستان ﴿ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا ﴾ وسطها ﴿ تُفَجِّرُهَا ﴾ لسقيه . ﴿ أَوْ تُسْقَطُ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴾ أي أو تسقط علينا جرم السماء إسقاطاً مماثلاً لما زعمت في قولك ﴿ أَوْ تُسْقَطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي قطعاً من العذاب ﴿ أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيلاً ﴾ . حال من الله والملائكة . أي حال كونها متقابلين — بفتح الباء — ومرئيين لنا . وفي البيضاوي : قيبلاً . أي كقبلاً بما تدعيه . أي شاهداً على صحته ضامناً لدركه . أو مقابلاً * ونحو الآية قولهم : ﴿ لَوْلَا أَنْزَلْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ﴾ ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ﴾ ذهب . روى ابن عباس وقتادة وغيرهما ﴿ أَوْ تُرْفَى ﴾ تصعد ﴿ فِي السَّمَاءِ ﴾ بسلم فترقى معارجها ﴿ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَبِّكَ ﴾ لو رقيت فيها ﴿ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا ﴾ منها ﴿ كِتَابًا ﴾ فيه تصديقك ﴿ نَقْرُؤُهُ ﴾ بعد إنزاله فيه تصديقك ﴿ قُلْ ﴾ لهم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ تعجب من اقتراحهم . وتنزيه له تعالى عن إتيانه الذي طلبوه . أو عن أن يتحكم عليه . أو يشاركه أحد في القدرة ، فهو فعال لما يريد . لا كما يريدون ﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ هَلْ ﴾ ما ﴿ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ كسائر الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات . فليس أمر الآيات إليهم إنما هو إلى الله تعالى . واعلم أن الله تعالى قد أعطى النبي ﷺ من الآيات والمعجزات ما يغني عن هذا كله مثل القرآن وانشقاق القمر . ونبع الماء من بين أصابعه وما أشبهها من الآيات ، وليست بدون ما اقترحوه ، بل هي أعظم مما اقترحوه . والقوم عامتهم كانوا متعنتين . ولم يكن قصدهم طلب الدليل ليؤمنوا فرد الله عليهم سؤا لهم *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال ابن عباس : تهجد رسول الله ﷺ ذات ليلة بمكة ، فجعل يقول في سجوده : يارحمن يارحيم . فقال المشركون : كان محمد يدعو إليها واحداً فهو الآن يدعو إلهين اثنين : الله والرحمن . ما نعرف الرحمن إلا رحمان الإمامة . يعنون مسيلمة الكذاب فأنزل الله تعالى هذه الآية . كذا في الواحدي وفي اللباب : فقال في دعائه :

﴿ يَا اللَّهُ يَا رَحْمَنُ ﴾ فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ يهانا أن ندعو إليهن . وهو يدعو إليهن . فأنزل الله ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ... ﴾ وقال ابن عباس : في سبب نزول قوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ الآية قال : نزلت ورسول الله ﷺ محتف بمكة . وكانوا إذا سمعوا القرآن سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به . فقال الله لنبية : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ أي بقراءتك ، فيسمع المشركون فيسيبون القرآن ﴿ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا يسمعون . ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ رواه البخاري عن مسدد ، ورواه مسلم عن عمرو الناقد ، كلاهما عن هشيم . وأخرج البخاري أيضاً عن عائشة أنها نزلت في الدعاء ... وأخرج ابن مردويه من حديث أبي هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى عند البيت رفع صوته بالدعاء . فنزلت الآية . قال ابن حجر : لكن يحتمل الجمع بينهما بأنها نزلت في الدعاء داخل الصلاة * وفي مجمع الزوائد : قوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ ﴾ عن عائشة في قوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ نزلت في الدعاء * رواه البزار ورجاله الصحيح . ونحو الذي ذكر في بقية التفاسير . أما التفسير : ﴿ قُلِ ﴾ لهم ﴿ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ أي سموه بأيهما ، أو نادوه بأن تقولوا : يا الله يا رحمن ﴿ أَيًّا ﴾ شرطية ﴿ مَا ﴾ زائدة لتأكيد ما في أي من الابهام . أي أي هذين ﴿ تَدْعُوا ﴾ فهو حسن دل على هذا ﴿ فَلَهُ ﴾ أي لمسماهما ﴿ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ وهذان منهما *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلَّةِ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي . قال : إن اليهود والنصارى قالوا : اتخذ الله ولداً ، وقالت العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . وقال الصابئون والجوس : لولا أولياء الله لذل . فأنزل الله : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ... ﴾ الآية آخر سورة بني اسرائيل كما تسمى . وتسمى بالاسراء . وذكر السبب ابن كثير باللفظ والحرف . ولم أجد غير هذا القول في التفاسير : أما التفسير : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ أمر الله نبيه ﷺ بأن يحمده على وحدانيته . وقيل : معناه الحمد لله الذي عرفني أنه لم يتخذ ولداً . وقيل : إن

كل من له ولد فهو يمك جميع النعم لولده . وإذا لم يكن له ولد أفاض نعمه على عبيده . وقيل : إن الولد يقوم مقام والده بعد انقضائه ، والله عز وجل يتعالى عن جميع النقائص فهو المستحق لجميع المحامد . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ في الألوهية : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ ﴾ ينصره ﴿ مِنْ ﴾ أجل ﴿ الدُّلَّ ﴾ أي لم يذل فيحتاج إلى ناصر ﴿ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا ﴾ عظمه عظيمة تامة عن اتخاذ الولد والشريك والذل وكل مالا يليق به . وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على أنه المستحق لجميع الماحم لكمال ذاته ، وتفرد في صفاته . وروى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ الجهني عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول : آية العز . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ الآية .

سورة الكهف وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير من طريق ابن اسحاق ، عن شيخ من أهل مصر ، عن عكرمة عن ابن عباس : قال : بعثت قريش النضر بن الحارث . وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة . فقالوا لهم : سلوهم عن محمد . ووصفوا لهم صفته . وأخبروهم بقوله . فإنهم أهل الكتاب الأول . وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجوا حتى أتيا المدينة ، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ ، ووصفوا لهم أمره . وبعض قوله . فقالوا لهم : سلوه عن ثلاثة . فإن أخبركم بهن نبي مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ، فإنه كان لهم أمر عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فأقبلا حتى قدما على قريش . فقالا : جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . فجاؤا رسول الله ﷺ فسألوه . فقال : أخبركم غدا بما سألتكم عنه ولم يستثن ، فانصرفوا ، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله في ذلك إليه وحياً ، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة . وأحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف ، وفيها معاتبته إياه على حزنه عليهم . وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف

وقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ .. ﴾ وفي حزن رسول الله ﷺ نزل قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ ... ﴾ وفي قصة أصحاب الكهف : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا .. ﴾ وفي الباب : وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن عباس قال : أنزلت ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ .. ﴾ فقيل يارسول الله : سنين أو شهوراً فأنزل الله ﴿ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ وأخرجه ابن جرير عن الضحاك . وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس : قال : حلف النبي ﷺ على يمين فمضى له أربعون ليلة » فأنزل : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ... ﴾ الآية . في الواحدي : قال سلمان الفارسي : جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله ﷺ : عينية بن حصن والأقرع بن حابس ، وذوهم ، فقالوا يارسول الله : إنك لو جلست في صدر المجلس ، ونحيت عنا هؤلاء ، وأرواح جبابهم . يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين . وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها . جلسنا إليك . وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَائْتِلْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * وَاصْبِرْ نَفْسِكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ .. ﴾ حتى بلغ : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا ... ﴾ يتهدهم بنار ، فقام النبي ﷺ يلمسهم حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى . قال : الحمد ﷺ الذي لم يمتني حتى أمرت أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي . معكم المحيا ومعكم الممات * وكذا في الخازن . وفيه : وقيل نزلت هذه الآية في أصحاب الصفة . وكانوا سبعمائة رجل فقراء في مسجد رسول الله ﷺ لا يخرجون إلى تجارة . ولا زرع ولا ضرع . يصلون صلاة وينتظرون أخرى . فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معهم * ونحو هذا في النسفي وابن كثير وفيه عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبي ﷺ : اطرده هؤلاء لا يخرجون علينا . قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ، ورجلان نسيت اسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء أن يقع ، فحدث نفسه . فأنزل

الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعُدَاةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾
انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري . وهكذا بقية الأقوال نحو ما ذكر . أما التفسير :
﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ الصبر حبس النفس عن الجزع . أي احبسها ﴿ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي يعبدونه ﴿ بِالْعُدَاةِ وَالْعَشَىٰ ﴾ في الصباح والمساء ، والمراد جميع الأوقات : ﴿ يُرِيدُونَ ﴾ بعبادته ﴿ وَجْهَهُ .. ﴾ تعالى لاشيئاً من أغراض الدنيا وهم الفقراء الذين تقدم ذكرهم ﴿ وَلَا تَعُدْ ﴾ تنصرف ﴿ عَيْنَكَ عَنْهُمْ ﴾ إلى غيرهم ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي تريد مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا ﴿ وَلَا تُطِغْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أي القرآن : هو عينية بن حصن وأصحابه . وقد أسلم رضي الله عنه وحسن إسلامه . وكان في حنين من المؤلفقة قلوبهم ، فأعطاه النبي ﷺ منها مائة بعير ، وكذلك أعطى الأقرع بن حابس . وأعطى العباس بن مرادس أربعين بعيراً ... ﴿ وَاتَّبِعْ هَوَاهُ ﴾ في الشرك والتكبر عن مجالسة الفقراء ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطاً ﴾ إسرافاً . أي فرط في أمره ﴿ وَقُلْ ﴾ له أي لمن أغفلنا قلبه عن ذكرنا . وهو عينية بن حصن الفزاري الذي أمرك باجتنب الفقراء . هذا القرآن ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ﴾ به ﴿ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ به تهديداً لهم . ﴿ إِنَّا اغْتَدْنَا ﴾ هينا ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿ نَاراً أَحَاطَ بِهُمْ سُرَادِقُهَا ﴾ ما أحاط بها كالخيمة التي تحيط بأهلها ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا ﴾ لطلب الماء ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ كعكر الزيت المغلي . وقيل : العكر ما أذيب من الجواهر كالنحاس والرصاص . ﴿ تَشْوَى الْوُجُوهَ ﴾ من حره . إذا قرب إليها . والشئ الانضاج بنار من غير احراق كالشواء للحم ﴿ بِنَسِ الشَّرَابِ ﴾ أي قبح الشراب هو ﴿ وَسَاءَتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ تمييز منقول عن الفاعل أي قبح مرتفقها . قال ابن عباس رضي الله عنهما . منزلاً . وقيل مجتمعاً *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ في الواحدي والخازن . قال ابن عباس : قالت اليهود يا محمد : تزعم أننا قد أوتينا الحكمة وفي كتابك ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، ثم تقول : وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل لما نزل وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً . قالت اليهود : أوتينا علم

التوراة . وفيها علم كل شيء . فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ... ﴾ وعبارة السيوطي : أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ؟ فقالوا : سلوه عن الروح فسألوه . فنزلت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ قال اليهود : أوتينا علماً كثيراً : أوتينا التوراة . ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فنزلت : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً ... ﴾ وما بقى من الأقوال في التفسير نحوها . أما التفسير : ﴿ قُلْ ﴾ لليهود ولكل من يسمع هذا الخطاب . ﴿ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ ﴾ أي ماؤه ﴿ مِدَاداً ﴾ هو ما يكتب به من الخبر ﴿ لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ الدالة على حكمه وعجائبه بأن تكتب بالخبر ﴿ لَتَفِدَ الْبَحْرُ ﴾ في كتابتها ﴿ قَبْلَ أَنْ تَفِدَ ﴾ تفرغ ﴿ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أي البحر ﴿ مِدَاداً ﴾ زيادة فيه لنفد ، ولم تفرغ هي . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ الآية آخر سورة الكهف . في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت في جندب بن زهير الغامدي . وذلك أنه قال : إني أعمل العمل لله . فإذا اطَّلَع عليه سرني . فقال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى لا يقبل إلا طيباً ، ولا يقبل ماروئى فيه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال طاوس : قال رجل : يا نبي الله : إني أحب الجهاد في سبيل الله . وأحب أن يرى مكاني ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * صحيح على شرط الشيخين * وقال مجاهد : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني أتصدق . وأصل الرحم ، ولا أصنع ذلك إلا لله سبحانه وتعالى ، فيذكر ذلك مني ، وأحمد عليه ، فيسرني ذلك . وأعجب به فسكت رسول الله ﷺ ، ولم يقل شيئاً . فأنزل الله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ... ﴾ الآية * وفي لباب السيوطي : وأخرج ابن عساكر في تاريخه من طريق السدي الصغير ، عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس قال : قال جندب بن زهير : إذا صلى الرجل أو صام ، أو تصدق ، فذكر به بخير ارتاح له . فزاد في ذلك لمقالة الناس له . فنزلت في ذلك : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ... ﴾ الآية * روى

البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال : ﴿ مَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَأَى يُرَأَى اللَّهُ بِهِ ﴾ أي أن من عمل عملاً مراعاة للناس . وليشتهر به شهر الله به يوم القيامة * وروى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تبارك وتعالى يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه » *

سورة مريم وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا يَتَّبِعُنَا وَمَا نَحْنُ بِمُخْلِطِينَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ في اللباب : حدث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يا جبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ قال : فنزلت : ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... ﴾ الآية قال : كان هذا الجواب لمحمد رسول الله ﷺ . رواه البخاري عن أبي نعيم . عن زر * وقال عكرمة ومقاتل والضحاك وقتادة ومقاتل والكلبي : احتبس جبريل عليه السلام حين سأله قومه عن قصة أصحاب الكهف وذوي القرنين والروح . فلم يدر ما يجيبهم ، ورجا أن يأتيه جبريل عليه السلام بجواب ، فسألوه : فأبطأ عليه فشق رسول الله ﷺ مشقة شديدة ، فلما نزل جبريل عليه السلام ، قال له : أبطأت علي حتى ساء ظني . واشتقت إليك . فقال جبريل عليه السلام : إني كنت إليك أشوق . ولكنني عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... ﴾ وفي اللباب : وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : سأل النبي ﷺ جبريل : أي البقاع أحب إلى الله وأبغض إلى الله ؟ فقال : ما أدري حتى أسأل . فنزل . وكان قد أبطأ عليه . فقال : لقد أبطأت علي حتى ظننت أن قومي علي موجدة ، فقال : ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... ﴾ * وفي الخازن أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال يا جبريل : ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت : ﴿ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... ﴾ الآية قال : فكان هذا جواب جبريل لمحمد ﷺ * ثم روى سؤال اليهود عن الروح ... « أما التفسير : ﴿ وَمَا نُنزِّلُ ﴾ هذا على لسان جبريل أمره الله تعالى أن يقوله لمحمد ﷺ جواباً لسؤاله المذكور . ﴿ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ أي وماتنزل الملائكة

بالوحي على الرسل وقتنا بعد وقت إلا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته ، وتدعو إليه مصلحة عباده . ويكون فيه الخير لهم في دينهم ودنياهم . ثم علل ذلك جبريل عليه السلام بقوله : ﴿ لَهُ مَا يَبِينُ أَيْدِينَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا يَبِينُ ذَلِكَ ﴾ أي إنه تعالى هو المدبر لنا في جميع الأزمنة مستقبلها وماضيها وحاضرها . أي فلا تنتقل من مكان إلى مكان ، ولا تنزل في زمان دون زمان إلا بإذنه عز وجل . ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أي ليست من صفاته تعالى الغفلة والنسيان . أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم وابن مردويه . والطبراني في جماعة آخرين عن أبي الدرداء مرفوعاً قال : « ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية . فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ثم تلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ . والمعنى إن عدم النزول لم يكن إلا لعدم الأمر للحكمة بالغة . ولم يكن لتركه تعالى ذلك كما زعمت الكفرة . فلاك ربك *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ أو لا يذكر الإنسان أننا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴿ في الواحدي : قال الكلبي : نزلت في أبي بن خلف حين أخذ عظماً بالية يفتها بيده ، ويقول : زعم لكم محمداً أنا نبعت بعد ما نموت * وسيأتي بسط القول على هذه الآية — إن شاء الله تعالى في سورة يس عند قوله : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ .. ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴿ في القرطبي : روى الأئمة واللفظ لمسلم عن خباب قال : كان لي على العاصي بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لي لن أفضيك حتى تكفر بمحمد . فقلت لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث ، قال : وإني لمبعوث من بعد الموت؟! فسوف أعطيك إذا رجعت إلى مال وولد . قال : وكيع : كذا قال الأعمش فنزلت هذه الآية * وفيه : وقال الكلبي ومقاتل : كان خباب قيناً ، فصاغ للعاصي حلياً ثم تقاضاه أجرته ، فقال العاصي : ما عندي اليوم ما أفضيك فقال خباب : لست مفارقك حتى تعطيني ، فقال العاصي : يا خباب : مالك ما كنت هكذا ، وإن كنت لحسن القلب . فقال خباب : ذاك أني كنت على دينك ، فأما اليوم . فإني على دين الإسلام . مفارق لدينك . قال : أو لستم ترعمون أن في الجنة ذهباً

وفضة وحريراً؟ قال خباب : بلى . قال : فأخبرني حتى أقضيك في الجنة استهزاء ، فوالله
لئن كان ماتقول حقاً . إني لأقضيك فيها . والله لا تكون أنت يا خباب وأصحابك أولى
بها مني . فأنزل الله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ... ﴾ * وفي الواحدي نحوه . وفي
اللباب أخرج الشيخان وغيرهما عن خباب بن الأرت قال : جئت العاصي بن وائل
السهمي اتقاضاه حقاً عنده . فقال : لأعطينك حتى تكفر بمحمد . فقلت : لا حتى
تموت وتبعث . قال : فأني لميت ثم لمبعوث ! فقلت نعم ، فقال : إن لي هناك مالاً وولداً
فأقضيك . فنزلت : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالاً وَّوَلَدًا ﴾ رواه
البخاري عن الحميدي عن سفيان . ورواه مسلم عن الأشجع عن وكيع ، كلاهما عن
الأعمش . وفي التوضيح : العاص . أما التفسير : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾
العاصي بن وائل . وهو والد عمرو بن العاص الصحابي المشهور . كان له قدر في
الجاهلية . ولم يوفق للإسلام . وقال الكلبي : كان من حكام قريش . وفي التوضيح :
العاص بلا ياء . وليس من العصيان . إنما هو من عصي يعصو إذا ضرب بالسيف *
والظاهر أنه من العصيان . وإنما حذف الياء للتخفيف . ولذا تراه مكتوباً تارة بالياء
للتخفيف وتارة بحذفها . وقوله : ﴿ وَقَالَ ﴾ لخباب بن
الأرت القائل له تبعث بعد الموت . والمطالب له بمال ﴿ لَأُوتِينَ ﴾ على تقدير البعث
﴿ مَالًا وَّوَلَدًا ﴾ فأقضيك حقلك . قال هذا استهزاء ونكرا لليوم الآخر . قال تعالى :
﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ أي أعلمه ، وأن يؤتى ما قاله من المال والولد في الآخرة . ولما كان
مادعا له لا يحصل له العلم به إلا بأحد أمرين — الاطلاع على الغيب أو اتخاذه العهد . ولم
يحصل له واحد منهما ، فتكون دعوى لا برهان عليها . وهذا ما عناه سبحانه بقوله :
﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ ائْتَحَدَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ قال تعالى ردا عليه : ﴿ كَلَّا سَنَكْتُبُ
مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أي ونعلمه أنا كتبنا أقواله هذه وغيرها . ونزيده
عذاباً فوق عذاب كفره بما يقوله * كلا : كلمة ردع ورد على العاصي *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن عوف :
لما هاجر إلى المدينة وجد بنفسه على فراقه أصحابه بمكة ، منهم شيبه وعتبة ابنا ربيعة
وأمية بن خلف ، فأنزل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿١﴾ قال محبة في قلوب المؤمنين * والمعنى : إن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسله ، وبما جاؤهم به من عنده ، وعملوا به ، فأحلوه حلاله . وحرموا حرامه . سيجعل الله لهم محبته في قلوب عباده المؤمنين * وهذا من أسرار الله الظاهرة في محبة الناس لأوليائه وعباده الصالحين . أخرج البخاري ومسلم والترمذي في جمع كثير عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الله تعالى عبداً يقول لجبريل : إني قد أحببت فلاناً فأحبه ، فينادي في السماء ، ثم تنزل المحبة في الأرض . فذلك قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ﴾ الآية . وأخرج ابن مردويه والديلمي عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لعلى كرم الله وجهه : « قل اللهم اجعل لي عندك عهداً ، واجعل لي في صدور المؤمنين ودا . فأنزل الله سبحانه الآية * وكان هرم بن حيان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم * أي من غير اصطناع معروف أو قرابة أو صداقة . بل إقبال الناس عليهم يكون بتحريك قلوبهم بالمودة والرحمة لهم بأمر من الله تعالى . فهنيئاً لأولئك العاملين بمحبة الله والمؤمنين لهم . وقد خصهم الله بهذه الكرامة إجلالاً لمكانهم وعلواً لشأنهم في الدنيا والآخرة . والمفهوم المخالف يعني أنه قذف الرعب في قلوب العصاة من المؤمنين والكافرين منهم فلا ينالوهم نيلاً يحط من كرامتهم . وعلى هذا المستوى كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين . فقد أحبهم الناس لصلاحهم . فقد كانوا رهباناً بالليل فرساناً بالنهار . فأينما توجهوا كانت وجهتهم على خير فدخل الناس في دين الله أفواجا . ذكر قتادة أن عثمان بن عفان كان يقول : ما من الناس عبد يعمل خيراً ولا شراً إلا كساه الله رداء عمله * أي كالإشارة لإقبال الناس عليه . فأهل الخير يألفون بعضهم بعضاً . وأهل الشر يألفون بعضهم بعضاً . ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ * فالمسلم التقى يبغضه الكفار ، والعاصي الفاجر يبغضه الصالحون الأبرار * وتفسير الآية قد توضح جلياً بهذه الأقوال *

سورة طه وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ طه : مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ في

الواحدي : قال مقاتل : قال أبو جهل والنضر بن الحارث للنبي ﷺ : إنك لتشقى بترك ديننا . وذلك لما رآياه من طول عبادته واجتهاده . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وكذا في الغرائب والطبري عن ابن عباس ، روى البراز عن علي قال : كان النبي ﷺ يراوح بين قدميه يقوم على كل رجل حتى نزلت ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ * ولذا قيل أن « طه » فعل أمر . وأصله طأها . أي طأ الأرض بقدميك معاً . خوطب به لما كان يقوم في تهجدته على إحدى رجليه ويريح لأخرى من شدة التعب . وطول القيام * وفي القرطبي : وقال مجاهد : كان النبي ﷺ وأصحابه يربطون الحبال في صدورهم في الصلاة بالليل من طول القيام . ثم نسخ ذلك بالفرض ، فنزلت هذه الآية * وفيه . وقال الكلبي : لما نزل على النبي ﷺ الوحي بمكة اجتهد في العبادة ، واشتدت عبادته ، فجعل يصلي الليل كله زماناً حتى نزلت هذه الآية . فأمر الله أن يخفف عن نفسه . فيصلّي وينام . فنسخت هذه الآية قيام الليل . فكان بعد هذه الآية —————

يصلّي وينام * والمعنى : نزلت الآية فيما كان ﷺ يتكلفه من السهر والتعب ، وقيام الليل * قال الليث : بلغنا أن موسى عليه الصلاة والسلام لما سمع كلام الرب تعالى استقره الخوف حتى قام على أصابع قدميه خوفاً . فقال عز وجل : ﴿ طَهَّ ﴾ أي اطمئن * وفي تفسير ابن مردويه : قرأ رجل على ابن مسعود رضي الله عنه : طأها . فقال عبد الله : طه . فقال الرجل يا أبا عبد الله الرحمن . أليس إنما أمر أن يطأ قدمه ؟ قال : فقال عبد الله : طه هكذا أقرأ بنا رسول الله ﷺ وكذا نزل بها جبريل عليه الصلاة والسلام بكسر الطاء والهاء (طه) قال : وكان بعض القراء يقطعها . أما التفسير فواضح *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ في الباب : أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش يا محمد : كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ .. ﴾ * والظاهر أن سؤلهم على سبيل الاستهزاء ، فقالوا له : إنك تدعى أن هذه الدنيا تفتنى . وأنتا نبعث بعد الموت ، وأين تكون هذه الجبال ؟ فنزلت . وفي الخازن عن ابن عباس : سأل رجل من ثقيف رسول الله ﷺ . فقال : كيف تكون الجبال يوم القيامة . فأنزل الله تعالى هذه الآية . قال الخازن :

والنسف هو القطع . أي يقلعها من أصولها ، ولجعلها هباءً منثوراً * وقد فسر البخاري * صنفصفاً : بقوله : والصَّنْفُفُ المستوى مِنَ الْأَرْضِ * أي كأنها من استوائها على صفة واحدة . وقيل . هي التي لا أثر للجبال فيها . والتفسير واضح *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن أتعب نفسه في حفظه حتى يشق على نفسه فيخاف أن يصعد جبريل ولم يحفظ . فأنزل الله ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ... ﴾ الآية * أي بالقراءة ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ من قبل أن يفرغ جبريل من الإبلاغ ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ بالقرآن ومعانيه . وقيل أن يأمر رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم . وكان ابن مسعود إذ قرأ هذه الآية يقول : اللهم زدني علماً وإيماناً و يقيناً * وفي القرطبي : علم الله تعالى نبيه كيفية تلقى القرآن . قال ابن عباس : كان عليه الصلاة والسلام يبادر جبريل . فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على الوحي ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان فيها الله عن ذلك . وأنزل ولا تعجل بالقرآن . وهذا كقوله : ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ وفيه : وروى ابن أبي بريح عن مجاهد قال : لا تلتله قبل أن تتبينه ، وقيل : ولا تعجل أي لا تسأل إنزاله قبل أن يقضى أن يأتيك وحيه . وقيل المعنى . لا تلتقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله * والتفسير بين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنِكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ في الواحدي : حدث يزيد بن عبد الله بن فضل عن رافع مولى رسول الله ﷺ في سبب نزول هذه الآية أن ضيفاً نزل برسول الله ﷺ فدعاني . فأرسلني إلى رجل من اليهود يبيع طعاماً يقول لك محمد رسول الله ﷺ . نزل بنا ضيف ، ولم يلق عندنا بعض الذي نصلحه . فبعني كذا وكذا من الدقيق ، أو سلفني إلى هلال رجب ، فقال اليهودي : لا أبيع ولا أسلفه إلا برهن . قال : فرجعت إليه فأخبرته . قال : والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض . ولو أسلفني أو باعني لأدبت إليه ، اذهب بدرعي ، ونزلت هذه الآية . تعزية له عن الدنيا ، وتقدم القول فيها في سورة الحجر . ذكره الخازن وغيره . والمراد بالأزواج . في قوله : أزواجاً . أي أصنافاً من البضائع التي كانت تحملها قوافل اليهود . أي ولا تطل

النظر استحساناً ورغبة فيما متع به هؤلاء المترفون من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ونعمة حائلة نختبرهم بها . ونعلم هل يؤدون شكرها ، أو تكون وبالاً عليهم ، ونكالاً لهم ، ولقد آتاك ربك خيراً مما أتاهم . آتاك السبع المشى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَاقِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ فرضى *

سورة الأنبياء وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن قتادة . قال : قال أهل مكة للنبي ﷺ إن كان ماتقول حقاً ويسرك أن تؤمن . فحول لنا الصف ذهباً . فأتاه جبريل فقال : إن شئت كان الذي يسألك قومك ولكنه إن كان ثم لم يؤمنوا لم ينظروا . وإن شئت استأني بقومك فأنزل الله : ﴿ مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ * وكذا رواه المراغي . والمعنى : أن أهل القرى اقترحوا على أنبيائهم الآيات ، وعاهدوا أنهم يؤمنون عندها . فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله . فلو أعطينا هؤلاء ما يقترحون لنكثوا أيضاً وهلكوا . وتقدم الكلام عليها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ في لباب السيوطي : وأخرج ابن المنذر عن ابن جرير . قال : نعى إلى النبي ﷺ نفسه . فقال يارب : فمن لأمتي ؟ فنزلت : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ... ﴾ * بمحمد ريب المنون . نشمت بموته . فنفى الله عنه السماتة عنه بهذا . والمعنى أن الله تعالى قضى أن لا يخلد في الدنيا بشر لآنت ولاهم فإن مت أنت أفيبقى هؤلاء ؟ قلت وما أحسن قول القائل :

تمنى رجال أن أموت وإن مت * فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغى خلاف الذي مضى * تزود لأخرى مثلها فكأن قد
وأخرج ابن أبي حاتم عن البسدي : أنه ﷺ مر على أبي سفيان . وأبى جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك . وقال : هذا نبي بني عبد مناف ، فغضب أبو

سفيان . وقال : أتتكر أن يكون لعبد مناف نبي ؟ فسمعها النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به ، وخوفه . وقال : ما أراك متبها حتى يصبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة . وقال لأبي سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية . فنزلت الآية . كذا رواه المراغي في تفسيره : وفيه قصور عن بيان المعنى المراد ، وسيأتي بيانه عن قريب ، وقوله : ﴿ أَفَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك . ولا يكون هذا بل الكل إلى الفناء ، ولهذا قال بعد هذه الآية : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ فِئْتَةً وَإِنَّا نُرْجِعُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم . واستدل بعض العلماء من هذه الآية : وما ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ أن الخضر عليه السلام مات وليس بجي إلى الآن . لأنه بشر سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً . وهو استدلال صحيح إذ لو كان حياً لاستثناه الله تعالى . وعدم استثنائه دليل على موته *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : مر النبي ﷺ على أبي جهل ، وأبي سفيان . وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك الخ ... ما ذكره المراغي . وفي آخره : ما أراك متبهاً حتى يصيبك ما أصاب من غير عهده . فنزلت : ﴿ وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ الآية . ونحوه في الخازن والنسفي والغرائب . أما التفسير : ﴿ وَإِذَا رَأَىكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُونَكَ ﴾ أي ما يتخذونك ﴿ إِلاَّ هُزُوًا ﴾ فسر ذلك بقوله : ﴿ أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ بتقبيح أمرها وبطلان عبادتها . ثم بين تعالى جهالتهم وتعكيس قضيتهم بقوله : ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ قدم الجار والمجرور (بذكر) وكرر الضمير ليفيد أنهم عاكفون على ذكر آلهتهم من كونها شفعاء وشهداء .. ولو ذكرها ذاكر بخلاف ذلك ساءهم . وأما ذكر الرحمن الذي منه جلائل النعم . ودقائقها وأصولها وفروعها . فلا يخطر منهم ببال . ولو ذكر الرحمن ذاكراً استهزؤا به حتى إن بعضهم يقولون استهزاءً : ما نعرف الرحمن إلا مسيلمة أي الكذاب * وقولهم : « وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا »

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَنْعِبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ

جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿ في اللباب : أخرج الحاكم عن ابن عباس قال : لما نزلت : **﴿ إِيَّاكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... ﴾** الآية قال ابن الزبيري : عبد الشمس والقمر والملائكة وعزير فكل هؤلاء في النار مع آلهتنا فنزلت : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾** وفي الواحدي عن ابن عباس قال : آية لا يسألني الناس عنها . ولا أدري أعرفوها فلم يسألوا عنها . أو جهلوا فلا يسألون عنها ؟ قال : وما هي ؟ قال : لما نزلت : **﴿ إِيَّاكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾** شق على قريش . فقالوا : أيشتم آلهتنا ؟ فجاء ابن الزبيري . فقال : مالكم ؟ قالوا : يشتم آلهتنا . قال : فما قال ؟ قالوا : قال : **﴿ إِيَّاكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾** قال : ادعوه لي ، فلما دعى النبي ﷺ قال يا محمد : هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من عبد من دون الله ؟ قال : بل لكل من عبد من دون الله . فقال ابن الزبيري : خصمت ورب هذه البنية — يعني الكعبة — ألسنت تزعم أن الملائكة عباد صالحون . وأن عيسى عبد صالح . وهذه بنو مليح يعبدون الملائكة . وهذه النصارى يعبدون عيسى عليه السلام ، وهذه اليهود يعبدون عزيراً . قال : فصاح أهل مكة . فأنزل الله تعالى : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾** . أي الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام . أولئك عنها مبعدون * قلت : وابن الزبيري بكسر الزاي وفتح الباء وسكون العين وفتح الراء . ومعناه السوء الخلق ، وهو لقب والد عبد الله القرشي ، وقد أسلم بعد هذه القصة ذكره الشهاب أما التفسير : **﴿ إِيَّاكُمْ ﴾** يا أهل مكة **﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾** أي غيره من الأوثان ، والشمس والقمر ... **﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾** أي ما يرمى به إليها وتهيج به ، ولا يقال له حصب إلا وهو في النار . فأما قبل ذلك فحطب وشجر وغير ذلك . وفي المختار : والحصب ما تحصب به النار أي ترمى . وكل ما ألقىته في النار فقد حصبها به . وأخرج البيهقي عن أبي هريرة وصح به الخبر أن الشمس والقمر يكونان ثورين عقيرين في النار . وأصله في البخاري . وقوله : **﴿ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾** أي داخلون فيها **﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ ﴾** يعني الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله **﴿ آلهة ﴾** أي على الحقيقة **﴿ ماوردوها ﴾** أي ما دخل الأصنام النار وعابدوها **﴿ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾** يعني العابدون والمعبودين في الخازن قال ابن مسعود في هذه الآية : إذا بقى في النار من يخلد

فيها جعلوا في تواييت من نار ، ثم جعلت تلك التواييت في تواييت أخرى ، ثم تلك التواييت في تواييت أخرى ، عليها مسامير من نار ، فلا يسمعون ، ولا يرى أحد منهم أن في النار أحداً يعذب غيره * وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ شيئاً لشدة غليانها . وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ تقدم أنها نزلت لما قال ابن الزبيري عبد عزيز والمسيح والملائكة فهم في النار على مقتضى ما ذكر في عموم ما في قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ فخص هذا العموم باستخراج الذين سبقت لهم من الله الحسنى . أي الدرجة والرتبة الحسنى وهي السعادة في الدار الآخرة . فهم مبعدون عن عذاب جهنم وآلامها

سورة الحجج وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن أبي مالك في قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴾ قال : نزلت في النضر بن الحارث * وعبارة الخازن : نزلت في النضر بن الحرث كان كثير الجدل . وكان يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، وكان ينكر البعث . وإحياء من صار تراباً * وفي النسفي . وقال : كان يقول الملائكة بنات الله . والقرآن أساطير الأولين . وكان ينكر البعث ، وإحياء من صار تراباً * والمعنى واحد . والآية عامة في كل من تعاطى الجدل فيما لا يجوز على الله . وما لا يجوز من الصفات والأفعال ، ولا يرجع إلى علم فهو يتبع في ذلك خطوات كل شيطان عات متمرد على الله تعالى متجرد للفساد . والمراد إما رؤساء الكفرة الذين يدعون من دونهم إلى الكفر . وإما إبليس وجنوده *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكُمْ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُمِينُ ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : نزلت في أعراب كانوا يقدمون على رسول الله ﷺ المدينة مهاجرين من باديتهم ، وكان أحدهم إذا قدم المدينة فإن صح بها وتنجت فرسه مهراً حسناً . وولدت امرأته غلاماً . وكثر ماله وماشيته آمن به

واطمأن ، وقال : ما أصبت منذ دخلت في ديني هذا إلا خيراً . وإن أصابه وجع المدينة
 وولدت امرأته جارية . وأجهضت رماكه — الرمكة الأثني من البراذين والجمع
 رماك — المصباح — وذهب ماله . وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان فقال : والله
 ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شراً ، فينقلب عن دينه ، فأنزل الله تعالى :
 ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ... ﴾ الآية * وفي لباب السيوطي : أخرج
 البخاري عن ابن عباس نحوه . قلت : ونص البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما
 قال : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة . فإن
 ولدت امرأته غلاماً . ونجبت خيله قال : هذا دين صالح . وإن لم تلد امرأته ولم تنتج
 خيله ، قال هذا دين سوء وفي اللباب : وأخرج ابن مردويه من طريق عطية عن ابن
 مسعود قال : أسلم رجل من اليهود ، فذهب بصره وماله وولده فتشاءم بالإسلام . فأتى
 النبي ﷺ ، فقال : اقلني ، فقال : إن الإسلام لا يقال . فقال : إني لم أصب في ديني
 هذا خيراً أذهب بصري ومالي وولدي . فقال : يا يهودي ، إن الإسلام يسبك الرجال
 كما تسبك النار خيث الحديد والفضة والذهب . قال : ونزلت : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ
 يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ... ﴾ أما التفسير : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾
 أي شك في عبادته . أي مترزلاً شبه بالحال على حرف جبل في عدم ثباته ، والمعنى :
 أن فيه انحرافاً عن العقيدة ، وعلى طرف من الدين إلا في وسطه وقلبه ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ
 خَيْرٌ ﴾ صحة وسلامة في نفسه وماله وولده ﴿ اطمأن به ﴾ أي رضي به وسكن إليه
 ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي اختار بما يكرهه الطبع ويثقل على النفس كالجدب والمرض ،
 وسائر المحن ﴿ انقلب على وجهه ﴾ رجع إلى الكفر . والعياذ بالله ﴿ تحسّر الدنيا ﴾
 بفوات ما أمله منها . وهو كثرة ماله واجتماعه بأحبائه . قال الكرخي : ما أمله منها من
 العز والكرامة وإصابة الغنيمة ، وأهلية الشهادة ، والإمامة والقضاء * وتحسّر
 ﴿ الآخرة ﴾ بما فيها من النعيم يردته ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ البين خسران
 مثله *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ هَذَا نِ حَضْمَانِ احْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ
 فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ
 مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ . كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ

أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿﴾ في الواحدي : قال قيس بن عباد : سمعت أبا ذر يقول : أقسم بالله : لنزلت : ﴿ هَذَانِ حُضْمَانٍ اِخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ في هؤلاء الستة : حمزة وعبيدة ، وعلي بن أبي طالب وعتبة ، وشيبة والوليد بن عتبة . رواه الشيخان عن حجاج بن منهال * وحدث قيس بن عباد عن علي قال : فينا نزلت هذه الآية وفي مبارزتنا يوم بدر ﴿ هَذَانِ حُضْمَانٍ اِخْتَصَمُوا ... ﴾ إلى قوله : ﴿ الْحَرِيقِ ﴾ . أخرجه الشيخان * وقال ابن عباس : هم أهل الكتاب . قالوا للمؤمنين : نحن أولى بالله منكم ، وأقدم منكم كتاباً . ونبينا قبل نببيكم — وقال المؤمنون . نحن أحق بالله . آمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام . وآمنا بنببيكم ، وبما أنزل من كتاب — فأنتم تعرفون نبينا ثم تركتموه ، وكفرتم به حسداً . وكانت هذه خصومتهم . فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . وهذا قول قتادة * قال الخازن وهو ضعيف وكانت هذه خصومتهم ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية في الذين تبارزوا يوم بدر . حمزة وعلي . الخ ... » وفي تذكرة القرطبي : احتجت النار والجنة ، فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون ، وقالت هذه : يدخلني الضعفاء والمساكين . فقال الله تعالى لهذه : أنت عذابي أعذب بك من أشياء . وقال لهذه : أنت رحمتي أرحم بك من أشياء . ولكل واحدة منكما ملؤها . وخرجه مسلم والترمذي . وقال حديث حسن صحيح ، ومعنى احتجت النار والجنة . أي حجت كل واحدة منهما صاحبها وخاصمتها * أما التفسير : ﴿ هَذَانِ حُضْمَانٍ ﴾ أي المؤمنون خصم . والكفار خصم . وهو يطلق على الواحد والجماعة بأي لفظ واحدة وقد يعبر فيه بلفظ الجمع والتثنية . لأن الخصم في الأصل مصدر . ولذلك يوحد ويذكر غالباً وعليه قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَمَّاكَ نَبُؤُ الْخُضْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ ويجوز أن يثنى ويؤنث ، وعليه هذه الآية ، ولما

كان كل خصم فريقاً يجمع طوائف قال : ﴿ اِخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ أي في دينهم : بعضهم أثبتهم وبعضهم أنكره . ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ﴾ أي قدرت لهم على قدر جنتهم ﴿ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ يلبسونها . أو كناية عن إحاطة النار بهم كما يحيط الثوب بلباسه ، والأول أظهر لأنه لما كان الثوب يغطي الجسد غير الرأس قال تعالى : ﴿ يُصَبَّبُ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ الماء البالغ نهاية الحرارة ، فمن شدة حرارته أنه ﴿ يُصْنَعُ ﴾ يذاب ﴿ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴾ من شحوم وغيرها ﴿ وَ ﴾ تشوى به الجلود

﴿ الْجَلُودُ ﴾ بدون إحراقها ، أي كالشواء كما تقدم ﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ لضرب رؤسهم . وهي جمع مقمعة بكسر الميم لأنها آلة القمع ، وهي المطرقة . وقيل : السوط . ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ أي النار ﴿ مِنْ غَمٍّ ﴾ يلحقهم بها والمراد أنها ترفعهم إلى أعلاها . فلا خروج لهم لقوله تعالى : ﴿ وَمَاهُمْ بِخَارَجِينَ مِنْهَا ﴾ ولهذا قال : ﴿ أَعِيدُوا فِيهَا ﴾ دون إليها . وذكر الإرادة للدلالة على رغبتهم في الخروج منها ﴿ وَ ﴾ قيل لهم : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ البالغ نهاية الاحراق لأن فعيلاً من صيغ المبالغة * هذا الخصم الأول . وقال في المؤمنين : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ...*

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ في الواحدي : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : بعث النبي ﷺ عبد الله بن أنيس مع رجلين : أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار . فافتخروا في الأنساب ، فغضب عبد الله بن أنيس ، فقتل الأنصاري ، ثم ارتد عن الإسلام . وهرب إلى مكة فنزلت فيه : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ ... ﴾ الآية . قلت : والآية متصلة بما في أول الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ .. ﴾ روى ابن عباس رضي الله عنهما . أن الآية نزلت في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن المسجد الحرام ، وقد كره عليه الصلاة والسلام أن يقاتلهم ، وكان محرماً بعمرة ، ثم صالحوه على أن يعود في العام المقبل * المراعى : أما التفسير : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بما جاء به نبينا محمد ﷺ ﴿ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يمنعون المؤمنين من الحج والجهاد والإسلام وهو عام في كفار مكة وغيرهم إلى يوم القيامة للتعبير بالمضارع الدال على التكرير ﴿ وَ ﴾ تصدون عن ﴿ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ ﴾ قبلة لصلاتهم ومنسكاً ومتعبداً ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ ﴾ أي المقيم ﴿ فِيهِ ﴾ ويدخل فيه الغريب إذا جاور وأقام به ولزم التعبد فيه ﴿ وَالْبَادِ ﴾ القادم من البادية لأداء المناسك . ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ ﴾ أي عدول عن القصد والاعتدال ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي بسببه بأن ارتكب منياً ، ولو شتم الخادم ﴿ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾

مؤلم أي بعضه في الدنيا قال السدي : إلا أن يتوب . وروى عن عبد الله بن عمرو أنه كان له فسطاطان : أحدهما في الحل والآخر في الحرم . فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل . فسئل عن ذلك . فقال : إن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل كلا والله . وبلى والله *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : كان أهل الجاهلية يضمخون البيت بلحوم الإبل ودماؤها . فقال أصحاب النبي ﷺ : « فنحن أحق أن نضمخ » فأنزل الله تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا ... ﴾ * وكذا في الخازن . وفيه : يزعمون أن ذلك قربه إلى الله تعالى . فأنزل الله : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤَهَا ... ﴾ أي لن ترفع إلى الله لحومها ولادماؤها . ﴿ وَلَكِنَّ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ أن ترفع إليه الأعمال الصالحة والإخلاص . وهو ما أريد به وجه الله . أي لا يرفع نفس اللحم والدم . والمعنى : أنه لا يثيبكم على لحمها إلا إذا وقع موقعا من وجوه الخير الخالص لوجه الله تعالى . ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ ﴾ أي البدن لتأكلوا منها وتركبوها ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ وأرشدكم لمعالم دينه ومناسك حجه . وهو أن يقول : الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا . ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال ابن عباس الموحدين . والاحسان في اللغة ضد الإساءة . وفسر النبي ﷺ الإحسان حين سأله جبريل صلوات الله وسلامه عليهما فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وهو تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ . إشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة والمراد به الإخلاص وهو شرط في صحة الإيمان والإسلام معاً . فصح تفسير ابن عباس المحسنين : الموحدين .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ في الواحدي : قال

المفسرون : كان مشركوا أهل مكة يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ ، فلا يزالون يبيئون من مضروب ومشجوج ، فشكوهم إلى رسول الله ﷺ ، فقال لهم : اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال حتى هاجر رسول الله ﷺ . فأنزل الله تعالى هذه الآية * أي الأولى . ولاشك أن الآية الثانية لاتنفك عن الأولى بدليل ما ذكره الواحدي . وقال ابن عباس : لما أخرج رسول الله ﷺ من مكة قال أبو بكر رضي الله عنه : أخرجوا نبيهم ليهلكن . فأنزل الله : ﴿ أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ... ﴾ قال أبو بكر . فعرفت أنه سيكون قتال * والقول الأول في سبب نزولها في الحازن . وفيه وقيل نزلت هذه الآية في قوم بأعيانهم خرجوا مهاجرين من مكة إلى المدينة فاعترضهم مشركوا مكة ، فأذن الله لهم في قتال الكفار الذين يمنعونهم من الهجرة بأنهم ظلموا . أي بسبب ما ظلموا واعتدوا عليهم بالإيذاء * قلت : وهي أول آية نزلت في القتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية . كما رواه الحاكم في المستدرک عن ابن عباس رضي الله عنهما . أما التفسير : ﴿ أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ﴾ أي أبيع لهم قتال المشركين الظالمين ، وذلك بعد الهجرة ، وعلل الإذن لهم بأنهم ظلموا . أي بسبب ظلم الكافرين إياهم ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ وعد لهم بالنصر عن طريق الرمز والكناية كما وعد بدفع أذى الكفار عنهم . هم ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ مكة ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ في الإخراج الذي أخرجوه لالذنب ارتكبهوه ﴿ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ وحده . وهذا ذنب في نظر المشركين . فالتوحيد حق والإخراج به إخراج غير حق ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ ﴾ أي دفع الله الكافرين ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ أي ببعض المؤمنين . فكأنه قال تعالى ولولا دفع الله أهل الشرك بالمؤمنين بالإذن لهم في جهادهم ﴿ لَهَدَمْتُ ﴾ أماكن العبادة ﴿ صَوَامِعَ ﴾ بيوت الرهبان ﴿ وَبِيْعَ ﴾ كنائس النصارى ﴿ وَصَلَوَاتَ ﴾ كنائس اليهود ، وأصلها بالعبرانية صلوثا ﴿ وَمَسَاجِدَ ﴾ للمسلمين ﴿ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ والمعنى : لهدم في شرع كل نبي المكان الذي يصلى فيه ، فلولا الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه . وفي زمن عيسى الصوامع والبيع ، وفي زمن نبينا المساجد ، فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ . وقدمت الصوامع والبيع والصلوات على مساجد المسلمين لأنها أقدم في الوجود . ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أن ينصر دينه وأوليائه ﴿ إِنَّ اللَّهَ

لَقَوِيَّ ﴿﴾ عَلَى خَلْقِهِ ﴿﴾ عَزِيزٍ ﴿﴾ مَنِيعٍ فِي سُلْطَانِهِ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿﴾ في الواحدي : قال المفسرون : لما رأى رسول الله ﷺ تولى قومه عنه ، وشق عليه ما رأى من مباحثهم عما جاءهم به ، تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب به بينه وبين قومه . وذلك لحرصه على إيمانهم ، فجلس ذات يوم في نادٍ من أندية قريش كثيراً أهله . وأحب يومئذ أن يأتيه من الله تعالى شيء ينفر عنه ، وتمنى ذلك ، فأنزل الله تعالى سورة : ﴿﴾ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى .. ﴿﴾ فقرأها رسول الله ﷺ حتى بلغ : ﴿﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴿﴾ ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه وتمناه تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجي فلما سمعت قريش ذلك فرحوا . ومضى رسول الله ﷺ في قراءته . فقرأ السورة كلها ، وسجد في آخر السورة ، فسجد المسلمون بسجوده ، وسجد جميع من في المسجد من المشركين ، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد بن المغيرة وأبا أحيجه : سعيد بن العاص . فإنهما أخذوا حفنة من البطحاء . ورفعاهما إلى جبهتهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود ، وتفرقت قريش ، وقد سرها ماسمعوا ، وقالوا : قد ذكر محمد آهتنا بأحسن الذكر ، وقالوا قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ، ويخلق ويرزق لكن آهتنا هذه تشفع لنا عنده ، فإن جعل لها محمد نصيباً فحنن معه ، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال : ماذا صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله سبحانه وتعالى . وقلت ما لم أقل لك . فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً . وخاف من الله خوفاً كبيراً . فأنزل الله تعالى هذه الآية فقالت قريش : ندم محمد على ما ذكر من منزلة آهتنا عند الله فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه * وقد طعن ابن العربي وعباس في جميع طرق الرواية هذه ، وأنها روايات باطلة لأصل لها . وذكر السيوطي في اللباب قوله : وأخرجه البزار وابن مردويه من وجه آخر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فيما أحسبه . وقال : لا يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد ، وتفرد بوصله أمين بن خالد وهو ثقة مشهور ، وأخرجه البخاري عن ابن عباس بسند فيه الواقدي وابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن جرير من طرق العوفي عن ابن عباس ، وأورده ابن اسحاق

في السيرة عن محمد بن كعب ، وموسى بن عقبة ابن شهاب ، وابن جرير عن محمد بن قيس ، وابن أبي حاتم عن السدي كلهم بمعنى واحد ، وكلها إما ضعيفة أو منقطعة سوى طريق سعيد بن جبير الأول الذي أوردته . وفي فتح الباري كلام طويل لابن حجر أثبت بعض طرقها ، ورد على من قال ذلك في النوم ، وقد ذكر السيوطي القصة في تكملة الجلال . والحق أنه ينبغي أن يكون للآية سبب آخر لنزولها غير قصة الغرائيق إن كان لها سبب نزول آخر . وما ذهب إليه عياض وابن العربي هو الحق إن شاء الله . ويصدق قول القائل أن النبي ﷺ قال ذلك توبيخاً للكفار . وسجد شكراً لله . وهو ما جوزه القاضي عياض والباقلاني . كما يصدق قول من قال : كان النبي ﷺ يرتل القرآن في سورة النجم . فترصده الشيطان في سكتة من السكتات ونطق بتلك الكلمات محاكياً صوت النبي ﷺ بحيث سمعه من دنا إليه ، فظنها من قول النبي وأشاعها . قال القاضي عياض . وهذا أحسن الوجوه . وهو الذي يظهر ترجيحه ، ويؤيده ما روى عن ابن عباس في تفسير تمنى بتلا . فيكون معنى في أمنيته : في تلاوته . فأخبر تعالى في هذه الآية أن سنة الله في رسله إذا قالوا قولاً زاد الشيطان فيه

من قبل نفسه . فهذا نص في أن الشيطان زاد في قول النبي ﷺ لا أن النبي ﷺ قال لأنه معصوم . وقد صوب هذا المعنى الطبري . قال ابن كثير رضي الله عنه قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرائيق . وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طرق كلها مرسله . ولم أرها مسندة من وجه صحيح * أما التفسير فواضح *

سورة المؤمنون وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... ﴾ قال عبد الرحمن بن عبد القاري ، قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول كان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل . مكثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ورفع يديه . فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا . وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا ، ثم قال : لقد أنزلت علينا عشر آيات

من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ قد أفلح المؤمنون — إلى عشر آيات . رواه الحاكم أبو عبيد الله في صحيحه عن أبي بكر القطيعي ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه . عن عبد الرزاق . وكذا ذكر ابن كثير لكنه قال : رواه الترمذي في تفسيره والنسائي في الصلاة من حديث عبد الرزاق به . وقال الترمذي منكر لا يعرف أحداً رواه غير يونس بن سليم ويونس لا يعرفه . وقال الذهبي عن حديث الحاكم . سئل عبد الرزاق عن شيخه ذا . فقال : أظنه لاشيء * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ في الواحدي : حدث ابن سيرين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى رفع بصره إلى السماء فنزل : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ * وفي اللباب : فطأ رأسه . وفي الكشاف : رقى ببصره نحو مسجده * وفي الطبري : وقيل إنها نزلت من أجل أن القوم كانوا يرفعون أبصارهم فيها إلى السماء قبل نزولها فنوا بهذه الآية عن ذلك . وروى البخاري عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم . فاشتد قوله في ذلك حتى قال : لينتهين عن ذلك . أولتخطفن أبصارهم » وقال أبو هريرة كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة ، فلما نزل : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ رمقوا بأبصارهم إلى مواضع السجود . وقيل : الخشوع هو أن لا يعث بشيء من جسده في الصلاة لما روى أن النبي ﷺ أبصر رجلاً يعث بلحيته في الصلاة : فقال : « لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه » ذكره البغوي بغير سند . ومعنى الآية : الذين هم محبتون لله أذلاء منقادون له . خائفون من عذابه . والخشوع واجب على المرء في الصلاة لوجوه : ١ - التدبر فيما يقرأ ٢ - تذكر لقاء الله والخوف من وعيده ٣ - المصلى يناجي ربه فليحذر من الغفلة . قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ وقال : ﴿ وَرَأَى الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ أي لتقف على عجائب أسراره * ومن الخشوع أن يستعمل الآداب فيتوقى كف الثوب . والعبث بجسده وثيابه . والاتفات والتمطي . والتثاؤب والتغميض ، وتغطية الفم والسدل والفرقة . والتشبيك والاختصار ، وتقليب الحصا ، نظر الحسوق إلى رجل يعث بالحصا . وهو يقول : اللهم زوجني الحور العين . فقال : بئس الخاطب أنت تخطب وأنت تعث *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ في الواحدي : قال أنس بن مالك . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وافقت ربي في أربع . قلت يارسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ وقلت يارسول الله : لو اتخذت على نساءك حجاباً فإنه يدخل عليهن البر والفاجر فأنزل الله تعالى ﴿ سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ وقلت لأزواج النبي ﷺ

لتنتهين أو لبيدته الله سبحانه أزواجاً خيراً منكن ، فأنزل الله تعالى : «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن...» الآية * ونزلت : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» إلى قوله : «ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ» فقلت فتبارك الله أحسن الخالقين .

القول في بيان نزول قوله تعالى : «وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ»

في الواحدي : عن ابن عباس : قال : جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد : نشدك الله والرحم ، لقد أكلنا العلهز (يعنى الوبر بالدم) فأنزل الله تعالى : «وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ» وكذا في البيضاوى * وفي اللباب : أتى ابن إياز الحنفي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، وهو أسير فخلّى سبيله ، فلحق باليمامة ، فحال بين أهل مكة وبين الميرة من يمامة ، وأخذ الله تعالى قريشاً بسنى الجذب حتى أكلوا العلهز ، فجاء أبو سفيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أنشدكم الله والرحم إنك تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ، قال : بلى ، فقال : قد قتلت الآباء بالسيف ، والأبناء بالجوع ، فأنزل الله تعالى هذه الآية «وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ...» الآية * وفي الخطيب نحوه . وفيه ، والعهز أيضاً القراد الضخم . وبقية الأقوال نحو ما ذكر .

أما التفسير : «وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ» الجوع ، وذلك بسبب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عليهم بقوله : (اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها عليهم سنيئاً كسنى يوسف) وقد قحطوا كما علمت «فَمَا اسْتَكَانُوا» تواضعوا «لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ» يرغبون إلى الله بالدعاء .

سورة النور وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : قدم المهاجرون إلى المدينة ، وفيهم فقراء ليست لهم أموال . وبالمدينة نساء بغايا مسافحات يكرين أنفسهن . وهن يومئذ أخصب أهل المدينة ، فرغب في كسبهن ناس من فقراء المهاجرين . فقالوا : لو أنا تزوجنا منهن ، فعشنا معهن إلى أن يغنيننا الله تعالى عنهن . فاستأذنوا النبي ﷺ في ذلك . فنزلت هذه الآية . وحرّم فيها نكاح الزانية صيانة للمؤمن عن ذلك * وقال عكرمة : نزلت في نساء بغايا متعالمات بمكة والمدينة ، وكن كثيرات ، ومنهن تسع صواحب رايات . لهن رايات كرايات البيطار يعرفونها : وهن أم مهدون جارية السائب بن أبي السائب المخزومي . وأم غليظ جارية صفوان بن أمية ، وحية القبطية جارية العاص بن وائل ، ومرية جارية ابن مالك بن عثمة بن السياق . وجلاله جارية سهيل بن عمرو . وأم سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومي . وشريفة جارية زمعة بن الأسود . وقرينة جارية هشام بن ربيعة . وفتنا جارية هلال بن أنس . وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية المواخير . ولا يدخل عليهن ولا يأتين إلا زانٍ من أهل القبلة ، ومشرك من أهل الأوثان ، فأراد ناس من المسلمين نكاحهم ليتخذوهن مأكلة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . ونهى المؤمنين عن ذلك . وحرمه عليهم * وفي رواية القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمر أن امرأة يقال لها أم مهدون كانت تسافح ، وكانت تشترط للذي يتزوجها أن تكفيه النفقة . وأن رجلاً من المسلمين أراد أن يتزوجها فذكر

ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية * وفي اللباب : وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي والحاكم من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رجل يقال له مزيد يحمل من الأنبار إلى مكة حتى يأتيهم ، وكانت امرأة بمكة صديقة له يقال لها عناق فاستأذن النبي ﷺ أن ينكحها فلم يرد عليه شيئاً حتى نزلت : ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً .. ﴾ الآية . فقال رسول الله ﷺ : يا مزيد : الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة . فلا تنكحها * أي أن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والتغيب لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء واللاتي على خلاف صفته . وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله أو في مشركة . والفاسقة الخبيثة المسافحة كذلك لا يرغب في نكاحها الصالحاء من الرجال وينفرون عنها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ .. ﴾ الآيات . في الواحدي : حدث عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدْهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . قال سعد بن عباد : وهو سيد الأنصار . أهكذا نزلت يا رسول الله ؟! فقال رسول الله ﷺ : ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم ؟ قالوا يا رسول الله : إنه رجل غيور . والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيظه . فقال سعد : والله يا رسول الله !! إني لأعلم أنها حق ، وأنها من عند الله . ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاع قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه حتى آتى بأربعة شهداء فوالله إني لآتي بهم حتى يقضي حاجته . فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عشياً فوجد عند أهله رجلاً ، فرأى بعينه وسمع بأذنه ، فلم يهيجه حتى أصبح ، وغدا إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إني جئت أهلي عشياً فوجدت عندها رجلاً ، فرأيت بعيني ، وسمعت بأذني ، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به ، واشتد عليه ، فقال سعد بن عباد الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ، ويبتل شهادته في المسلمين . فقال هلال : والله إني لأرجو أن يجعل الله لي مخرجاً . فقال هلال يا رسول الله : قد أرى ما قد اشتد عليك مما جئتك به . والله يعلم إني لصادق . فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن

يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحي . وكان إذا نزل عليه عرفوا ذلك في تبرد جلده ، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي ، فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ... ﴾ الآيات كلها . فسرى عن رسول الله ﷺ فقال : أبشر يا هلال ، فقد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً ، فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربي* وفي رواية علقمة عن ابن مسعود قال : إنا ليلة الجمعة في المسجد إذ دخل رجل من الأنصار ، فقال : لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً ، فإن تكلم جلدتموه . وإن قتل قتلتموه ، وإن سكت على غيظ ، فقال : اللهم افتح ، وجعل يدعو . فنزلت آية اللعان : ﴿ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ... ﴾ الآية . فابتلى به الرجل من بين الناس فجاء هو وامرأته إلى رسول الله ﷺ . فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . فذهبت لتلتعن . فقال رسول الله ﷺ : مه . فلما أدبرت . قال : لعلها أن تجيء به أسوداً أجعداً . فجاءت به أسود جعداً . رواه مسلم عن أبي خيثمة* وفي لباب السيوطي : وأخرج الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد قال : جاء عويمر إلى عاصم بن عدي ، فقال : اسأل لي رسول الله ﷺ : أرايت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فقتله أيقتل به ؟ أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ . فعاب رسول الله ﷺ السائل . فلقية عويمر . فقال : ما صنعت ؟ قال : ما صنعت إنك لم تأتني بخير . سألت رسول الله ﷺ . فعاب السائل ، فقال عويمر : فوالله لآتين رسول الله ﷺ فلا سأله . فسأله . فقال : إنه أنزل فيك وفي صاحبك ... الحديث* قال الحافظ ابن حجر : اختلف الأئمة في هذه المواضع ، فمنهم من رجح أنها نزلت في شأن عويمر ، ومنهم من رجح أنها نزلت في شأن هلال . ومنهم من جمع بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال . وصادف مجيء عويمر أيضاً فنزلت في شأنهما معاً . وإلى هذا جنح النووي ،

وتبعه الخطيب . فقال العلماء : اتفق لهما ذلك في وقت واحد*.. وأخرج البراز من طريق زيد بن مطيع قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بكر : لو رأيت مع أم رومان رجلاً ما كنت فاعلاً به ؟ قال : كنت فاعلاً به شراً . قال : وأنت يا عمر ؟ قال : كنت أقول لعن الله الأعجز وزانة الخبيث . فنزلت . قال ابن حجر : لا مانع من تعدد الأسباب* وتفسير الآية باختصار : ﴿ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ ﴾ بالزنا ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ

شهداء ﴿ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وقد علمت أين وقع قذف الزوجة بالزنا لجماعة من الصحابة كهلal بن أمية وعويمr العجلاني ، وعاصم بن عدى ، فيتلاعنان وهو ﴿ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ .. ﴾ فيما رمى به زوجته من الزنا ، ﴿ وَالخَامِسَةَ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ في ذلك . فيقع الحد عليها ، وتدفعه عن نفسها ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ ﴾ فيما رماها به من الزنا . ثم تقول : ﴿ وَالخَامِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ في ذلك أي فيما رماها به . أي أن تحلف أربعة أيمان أن زوجها الذي رماها به من الفاحشة لمن الكاذبين فيما قال . والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقاً فيما تهماها به . وخصت الملاعنة بأن تحمس بغضب الله عليها تغليظاً عليها لأنها هي سبب الفجور ومنبعه بخديعتها ، وطماعها الرجل في نفسها . ومكان الملاعنة إن كانت بمكة ، فبين الركن والمقام . وإن كانت بالمدينة فعند منبر النبي ﷺ . وفي سائر البلاد في الجامع عند المنبر . وأما الزمان فهو أن يكون بعد العصر . وأما جمع الناس فأقله أربعة . وإن لاعن الحاكم بينهما وحده جاز * وعند الشافعي : يقام الرجل قائماً حتى يشهد ، والمرأة قاعدة . وتقام المرأة والرجل قاعد حتى تشهد . وعند الشافعي تقع الفرقة بينهما بلعان الزوج ، وتكون في حكم التطليقة البائنة عند أب حنيفة ومحمد رضي الله عنهما . فإذا كذب الرجل نفسه بعد ذلك جاز أن يتزوجها في قول وعند أبي يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي رضي الله عنهم هي فرقة بغير طلاق توجب تحريماً مؤبداً ليس لهما أن يجتمعا بعد ذلك بوجه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ إلى تمة عشر آيات بعدها . ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ الآية نزلت في براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيما رميت به ، وهو إجماع من المفسرين والمحدثين وليس فيها إلا قول واحد . وإليك تفسيرها باختصار . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ الإفك : ابلغ ما يكون من الكذب والافتراء . وأصله . الأفك وهو القلب لأنه قول مأفوك عن وجهه . والمراد مأفك به على عائشة رضي الله

عنها في غزوة بني المصطلق . والقصة مشهورة ﴿ غُصْبَةٌ ﴾ جماعة منهم عبد الله بن أبي
 رأس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة . وحمنة بنت جحش
 ومن ساعدهم ﴿ مِنْكُمْ ﴾ من جماعة المسلمين . وهم ظنوا أن الافك وقع من الكفار
 دون من كان من المؤمنين ﴿ لَا تُحْسَبُوهُ ﴾ الافك ﴿ شَرًّا لَكُمْ ﴾ عند الله ﴿ بَلْ هُوَ
 خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لأن الله يأجركم عليه ، وأنزل في البراءة ، منه ثماني عشر آية . والخطاب
 لرسول الله ﷺ وأبي بكر وعائشة رضوان الله عليهم ومن ساءه ذلك من المؤمنين
 ﴿ لِكُلِّ امْرِيءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾ أي على كل امرئ من العصبة جزاء إثم
 مقدار خوضه فيه ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ ﴾ أي تحمل معظمه ، وهو عبد الله بن أبي
 ﴿ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ هو النار في الآخرة ﴿ لَوْلَا ﴾ هلاً ﴿ إِذْ ﴾ حين ﴿ سَمِعْتُمُوهُ
 ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أي ظن بعضهم ببعض ﴿ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ
 مُبِينٌ ﴾ بين الكذب ﴿ لَوْلَا ﴾ هلاً ﴿ جَاؤَا ﴾ أي العصبة ﴿ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾
 شاهدوه ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي في حكمه ﴿ هُمْ
 الْكَاذِبُونَ ﴾ فيه ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا
 أَفَضْتُمْ ﴾ أي خضتم ﴿ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ في الآخرة ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أي
 يرويه بعضكم عن بعض ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا ﴾
 لإثم فيه ! ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ إثم كبير عند الله فهو من الكبائر . ﴿ وَلَوْلَا ﴾
 هلاً ﴿ إِذْ ﴾ حين ﴿ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ ﴾ ما ينبغي ﴿ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا
 سُبْحَانَكَ ﴾ للتعجب من عظم الأمر ﴿ هَذَا بُهْتَانٌ ﴾ كذب ﴿ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللَّهُ ﴾
 ينهاكم ﴿ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ يتعظون بذلك ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
 الْآيَاتِ ﴾ في الأمر والنهي ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بما يأمر به وينهى عنه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيه ﴿ إِنْ
 الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾ باللسان أي شيوخ خبرها ﴿ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾
 بنسبتها إليهم وهما المقدوفين وهما عائشة وصفوان ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ بالحد
 للقدف . فقد ثبت أن النبي ﷺ حدى القاذفين وهم الأربعة المذكورين ﴿ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ ﴾ انتفاءها عنهم ﴿ وَأَنْتُمْ ﴾ أيها العصبة ﴿ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وقوعها فيهم . ﴿ وَلَوْلَا
 فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أيها العصبة ﴿ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَوْفٌ رَحِيمٌ ﴾ بكم لعاجلكم
 بالعقوبة *

هذه الآيات نزلت دفعة واحدة في براءة عائشة رضي الله عنها * وإليك قصة الحادثة كما رواها البخاري في صحيحه . قال البخاري : حدثنا يحيى بن بكير . حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب . قال أخبرني عروة بن الزبير . وسعد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص . وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ، ما قالوا فبرأها الله مما قالوا . كل حدثني طائفة من الحديث . وبعض حديثهم يصدق بعضاً ، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض الذي حدثني عروة عن عائشة رضي الله عنها . أن عائشة رضي الله عنها : زوج النبي ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه . فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه . قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاه ، فخرج سهمي ، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب ، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه . فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ، ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل ، فقمنا حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع . فالتصت عقدي ، وجسني ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي . فاحتملوا هودجي ، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت ، وهم يحسبون أني فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يتقلهن اللحم إنما ناكل العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش ، فجمت منازلهم ، وليس بها داع ولا مجيب . فأمت منزلي الذي كنت به ، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي ، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فممت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ، ثم الذكواني من وراء الجيش ، فأدج فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رأي ، وكان يراني قبل الحجاب . فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخرمت وجهي بجلبائي ، والله ما كلمني كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطيء على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهرية فهلك من هلك . وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول ، فقدمنا المدينة فاشتكيك حين قدمت شهراً ، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر

بشيء من ذلك ، وهو يريني في وجعي أني لأعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي
 كنت أرى منه حين اشتكى إنما يدخل علي رسول الله ﷺ فيسلم . ثم يقول . كيف
 تيكم ، ثم ينصرف ، فذاك الذي يريني ، ولأشعر بالشرح حتى خرجت بعد ما نكتهت ،
 فخرجت معي أم مسطح قبل المناصع ، وهو متبرزنا ، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ،
 وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل
 الغائط ، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح ، وهي
 بنت أبي رهم بن عبد مناف وأمها بنت صخر بن عامر : خالة أبي بكر الصديق ، وابنها
 مسطح بن أثاثة . فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح
 في مرطها ، فقالت : تعس مسطح . فقلت لها : بئس ما قلت : أتسبين رجلاً شهد
 بدرأ؟! قالت : أي هتاه . أو لم تسمعي ما قال ؟ قالت : قلت وما قال ؟ قالت :
 فأخبرتني بأهل الإلفك ، فازددت مرضاً على مرضي ، فلما رجعت إلى بيتي ودخل علي
 رسول الله ﷺ . تعني سلم . ثم قال : كيف تيكم . فقلت أتأذن لي أن آتي أبوي .
 قالت : وأنا حينئذ أريد أن أن أستيقن الخبر من قبلهما . قالت : فأذن لي رسول الله
 ﷺ ، فجئت أبوي . فقلت لأمي : يا أمته : ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنتي هوني
 عليك . فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل محبها ، ولها ضرائر إلا كثرت
 عليها ، قالت : فقلت : سبحان الله !! ولقد تحدث الناس بهذا !! قالت : فبكيت تلك
 الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي ، فدعا
 رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب . وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبت
 الوحي يستأمرهما في فراق أهله . قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار علي رسول الله ﷺ
 بالذي يعلم من براءة أهله . وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود ، فقال يا رسول الله :
 أهلك . وما نعلم إلا خيراً . وأما علي بن أبي طالب ، فقال يا رسول الله ﷺ : لم يضيّق
 الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك . قالت : فدعا رسول الله
 ﷺ بريرة ، فقال : أي بريرة . هل رأيت من شيء يرريك ، قالت : بريرة : لا والذي
 بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن . تنام عن
 عجبن أهلها . فتأتي الداجن فتأكله . فقام رسول الله ﷺ . فاستعذر يومئذ من عبد الله
 بن أبي ابن سلول . فقال يا رسول الله ﷺ وهو على المنبر . يامعشر المسلمين من

يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله ما علمت أهلي إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي ، فقام سعد بن معاذ الأنصاري ، فقال يا رسول الله : أنا أعذرک منه . وإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک . قالت : فقام سعد بن عبادة . وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية . فقال لسعيد كذبت لعمر الله ، لا تقتله ولا تقدر على قتله * فقام أسيد بن حضير . وهو ابن عم سعيد ، فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لقتلته ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتأور الحيان : الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا . ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت . قالت : فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ، ولا أكتحل بنوم ، قالت : فأصبح أبوأي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ، ولا يرقأ لي دمع ، يظنان أن البكاء فالق كبدي . قالت : فبينما هما جالسان عندي . وأنا أبكي ، فاستأذنت على امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي . قالت : فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ، فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : أما بعد يا عائشة : فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئک الله ، وإن كنت ألمت بذنب ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه . فإن العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته ، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لأبي : أجب رسول الله ﷺ فيما قال : قال والله : ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ . قالت : ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ . قالت : فقلت وأنا جارية حديثة السن لأقرأ كثيراً من القرآن . إني والله لقد علمت . لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم ، وصدقتم به ، فلئن قلت لكم : إني بريئة والله يعلم أني بريئة لاتصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني . والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف . قال : فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون . قالت : ثم تحولت . فاضطجعت على فراشي . قالت : وأنا حينئذ أعلم أني بريئة ، وأن الله يرئني ببراءتي ، ولكن والله

ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيأ يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يرثني الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه ، قالت : فلما سرى عن رسول الله ﷺ سرى عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : يا عائشة : أما الله عز وجل فقد برأك ، فقالت أمي : قومي إليه . قالت : فقلت والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله عز وجل . وأنزل الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا نَحْسَبُوهُ .. ﴾ العشر الآيات كلها . فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : وكان ينفق على مسطح بن أثاة لقرابته منه وفقره — والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال : فأنزل الله : ﴿ وَلَا يَأْتِلْ أَوْلُوا الْفُضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال أبو بكر بلى والله إنني أحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه . وقال : والله لا أنزعها منه أبداً . فقالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري . فقال يا زينب : ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت يا رسول الله : أحمى سمعي وبصري ما علمت إلا خيراً . قالت : وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك » قلت : وكان مسروق رضي الله عنه إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ . المبرأة من السماء * وقول حسان في عائشة رضي الله عنهما : حَصَانُ رِزَانُ مَائِزُنُ بَرِييَةِ * وَتُصْبِحُ غَرْنِي مِنْ لُحُومِ الْعَوَافِلِ حَلِيلَةَ خَيْرِ النَّاسِ دِيناً وَمَنْصِباً * نَبِيَّ الْهُدَى وَالْمَكْرَمَاتِ الْفَوَاضِلِ الحِصَانُ : المتعففة . رِزَانُ : ثابتة . مَائِزُنُ : أي ترمى . وَلَا تَهْمُ بَرِييَةِ : أي بأمر يريب الناس . وَتُصْبِحُ غَرْنِي . أي جائعة من لحوم الغوافل . أي لا تغتاب أحداً ممن هو غافل عن مثل هذا الفعل . وكانت رضي الله عنها تستحق الثناء والمدح بما كانت عليه من

الحصانة والشرف والعقل والعلم والديانة . فمن رماها بالسوء فقد قلب الحق
بالباطل ...*

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ
بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْأَلُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ في
الواحدي : حدث أشعث بن سوار عن ابن ثابت قال : جاءت امرأة من الأنصار .
فقال يارسول الله : إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد لا والدي
ولا ولد . فيأتي الأب فيدخل علي ، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي . وأنا على
تلك الحال فكيف أصنع ؟ فنزلت هذه الآية : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ... ﴾
الآية * قال المفسرون : فلما نزلت هذه الآية قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه يارسول
الله : أفرأيت الحانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن فأنزل الله تعالى :
﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ ... ﴾ * وأخرج
ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال : لما نزلت آية الاستئذان في البيوت قال أبو بكر
يارسول الله : فكيف بتجار قريش الذين يختلفون بين مكة والمدينة والشام ، وهم بيوت
معلومة على الطريق فكيف يستأذنون : يسلمون وليس فيها سكان ؟ فنزلت ليس عليكم
جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة .. الآية * وكذا في القرطبي : وابن كثير وغيرهما :
وقال مقاتل في الآية : كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول :
حييت صباحاً ، وحييت مساءً ، وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى
صاحبه ، فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ونحو ذلك ، فيشق ذلك على
الرجل ، ولعله يكون مع أهله . فغير الله ذلك كله في ستر وعفة ، وجعله نقياً نزهاً من
الدنس والقذر والدرن فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ
بُيُوتِكُمْ .. ﴾ الآية . وهذا الذي قاله مقاتل حسن .. ولهذا قال تعالى ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ
لَكُمْ ﴾ أما التفسير : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى
تَسْأَلُوا ﴾ تستأذنون . من الاستئناس بمعنى الاستعلام من أنس الشيء إذا أبصره ، فإن
المستأذن مستعلم للحال مستكشف أنه هل يراد دخوله أو لا يؤذون له ، أو من
الاستئناس الذي هو خلاف الإيحاء ، فإن المستأذن متوحش خائف أن لا يؤذون له ،
فإذا أذن له استأنس أو تعرفوا هل ثم إنسان من الإنس . ﴿ وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ أي

لا يدخلوا إلى مالا يحل النظر إليه . قال الخازن : واختلفوا في أيهما يقدم فقبل يقدم الاستئذان فيقول : أدخل السلام عليكم كما في الآية من تقديم الاستئذان قبل السلام .

وقال الأكثرون : يقدم السلام فيقول : سلام عليكم أدخل ؟ وتقدير الآية حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا . وكذا هو في مصحف ابن مسعود ، وروى عن كند بن حنبل قال : دخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن . فقال النبي ﷺ : ارجع فقل السلام عليكم أدخل أخرجه أبو داود والترمذي . وعن ربعي بن حراش قال : جاء رجل مع بني عامر فاستأذن على رسول الله ﷺ . وهو في البيت . فقال : ألع ؟ فقال رسول الله ﷺ لخادمه أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان . فقل له : السلام عليكم أدخل . فسمع الرجل ذلك من رسول الله ﷺ . فقال : السلام عليكم أدخل . فأذن له رسول الله ﷺ . أخرجه أبو داود . وأخرج الشيخان عن أبي سعيد وأبي بن كعب عن أبي موسى . قال أبو سعيد : كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور . فقال : استأذنت على عمر ثلاثاً . فلم يؤذن لي ، فرحل ، قال : ما منعك ؟ قلت : استأذنت ثلاثاً ، فلم يؤذن لي ، فرجعت ، وقد قال رسول الله ﷺ : إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع . قال : والله لتقيمن عليه بينة أمنكم أخر سمعه من النبي ﷺ . قال أبي بن كعب : فوالله لا يقوم معك إلا أصغر القوم ، فكنت أصغر القوم ، فقامت معه ، فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك . قال الحسن : الأول إعلام . والثاني مؤامرة ، والثالث استئذان بالرجوع * وعن عبد الله بن بسر قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : السلام عليكم . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور * أخرجه أبو داود وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إذا دعى أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن . أخرجه أبو داود * وقيل : إذا وقع بصره على إنسان قدم السلام أو قدم الاستئذان ثم يسلم * وقال أبو موسى الأشعري وحذيفة : يستأذن على المحارم . يدل عليه ما روى عن عطاء بن يسار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ . فقال : أستأذن على أمي ؟ قال : نعم ، فقال الرجل : إني معها في البيت . فقال رسول الله ﷺ : أستأذن عليها ؟ فقال الرجل : إني خادمها . فقال رسول الله ﷺ : أستأذن عليها . أتحب أن تراها عريانة ؟ قال : لا ، قال : فاستأذن عليها .

أخرجه مالك في الموطأ * وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ هذه الآداب التي أدب الله بها عباده المؤمنين ، فهي آداب حسنة نافعة في بقاء الود وحسن العشرة بين المؤمنين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً آيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ في الباب : أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : بلغنا أن جابر بن عبد الله حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في نخل لها . فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما في أرجلهن . يعني الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذواتهن . فقالت أسماء : ما أقبح هذا . فأنزل الله في ذلك : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ .. ﴾ وأخرج ابن جرير عن حزمي أن امرأة اتخذت صرتين من فضة ، واتخذت جزعا ، فمرت على قوم . فضربت برجلها فوق الخلاخل على الجزع فصوت ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الآية * وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمزن بها مروطهن : جمع مرط . وهو الإزار . فاختمرن بها . أي غطين وجوههن بالمروط التي شققنها * وروى عنها قولها : لما نزلت الآية : وليضربن بخمرهن على جيوبهن أخذن أزرنهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمزن بها * وهو طريق آخر في الحديث المذكور عنها . وكذا رواه الحاكم في مستدركه . ثم قال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقد علمت تخرج البخاري له . هذا ولم أر في التفسير غير ما ذكرت من أقوال في أسباب نزولها ؟ أما التفسير : ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ عما لا يحل النظر إليه . وهو شروع في بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة . والغرض إطباق الجفن بحيث يمنع الرؤية روى عن أم سلمة قالت : كنت عند رسول الله ﷺ وعنده ميونة بنت الحرث إذ أقبل ابن مكتوم .

فدخل عليه . وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله ﷺ احتجبا منه . فقلنا يارسول الله : أليس أعمى لا يبصرنا . ولا يعرفنا * فقال : رسول الله ﷺ : أفعميا وان أنما ، ألسما تبصرانه . أخرجه الترمذي وأبو داود . ﴿ وَلَا يُبْدِينَ ﴾ أي لا يظهرن ﴿ زِينَتَهُنَّ ﴾ أي لغير محرم . وأراد بالزينة الخفية مثل الخللخال والحضاب في الرجل والسوار في المعصم والقرط في الأذن ، والقلائد في العنق ، فلا يجوز للمرأة اظهارها ، ولا يجوز للأجنبي النظر إليها . والمراد من الزينة النظر إلى مواضعها من البدن * وعبرة السيوطي في الجلال ﴿ وَلَا يُبْدِينَ ﴾ يظهرن ﴿ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ وهو الوجه والكفان فيجوز نظره لأجنبي إن لم يخف فتنة في أحد وجهين ، والثاني يحرم لأنه مظنه الفتنة ورجح حسما للباب * أي أن في غض البصر سداً لباب الشر ، ومنها لارتكاب المآثم والذنوب والله در أحمد شوقي حيث يقول :

نظرة فابتسامة فسلام * فكلام فموعد فلقاء

وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ إياكم والجلوس على الطرقات . قالوا يارسول الله : لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال ﷺ . إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر * وروى مسلم عن عبد الله الجلي قال : سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري * وروى أبو داود أن النبي ﷺ قال لعلي : « يا علي لا تتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى وليس لك الآخرة » وقوله : ﴿ وَلِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ أي يسترن الرؤس والأعناق والصدور بالمقانع . وهي ما يغطي به الرأس ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ الخفية التي لم يبح لمن كشفها في الصلاة ، ولا للأجانب ، وهي ما عدا الوجه والكفين ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ جمع بعل أي زوج . حاصل هذه المستثنيات اثنا عشر نوعاً آخرها أو الطفل فيجوز لهم نظرة إلا ما بين السرة والركبة ، فيحرم نظره لغير الأزواج . وخرج بنسائهن الكافرات . فلا يجوز للمسلمات الكشف لمن ، وشمل ما ملكت أيمنهن العبيد ﴿ أو التابعين ﴾ في فضول الطعام . قال ابن عباس : التابع هو الأحمق العينين ، وقيل هو الذي لا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن ، وقيل هو المحبوب ، وقيل هو الشيخ الهرم الذي ذهب شهوته . وقيل : هو الخنث . ﴿ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ ﴾ أي أصحاب الحاجة إلى

النساء ﴿ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ بأن لم ينتشر ذكر كل ﴿ أَوْ الطِّفْلِ ﴾ بمعنى الأطفال :
﴿ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا ﴾ لم يلبطوا ﴿ عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ للجماع ، فيجوز أن
يدين لهم ماعدا ما بين السرة والركبة ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ عند مشيهن ليقع
خلخاهن ﴿ لِيُعَلِّمَ مَا يَخْفَى مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ فإن ذلك يورث الرجال ميلاً إليهن
﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ مما وقع لكم من النظر الممنوع منه ومن غيره
﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ تنجون من ذلك لقبول التوبة منه . وفي قوله وتوبوا تغليب
للذكور على الإناث لوقوع النظر من الرجال أكثر من النساء * أخرج أحمد والبخاري
والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر أنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « أيها الناس !
توبوا إلى الله ، فإنني أتوب إليه كل يوم مائة مرة » * ومن شرط التوبة : الاقلاع عن
الذنب ، والندم على ماضى . والعزم على ألا يعودوا إليه . ورد الحقوق إلى أهلها .
لا كما يظن الناس الآن أنها كلمة تلاك باللسان دون أن يكون لها أثر في القلب ، ولا عزم
على عدم العود . حتى إن كثيراً مما يزعمون أنهم تابوا من الذنب يحكون ما فعلوه من
الآثام على وجه الفخر والاستلذاذ بذكره . وهذا دليل على أنهم كاذبون في توبتهم مراؤن
في أفعالهم *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَأَثْوَهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا
فَتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لَبْتَغُوْا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ
مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لنزول هذه الآية سببان الأول في المكاتبه والثاني في
إكراه الفتيات على الزنى . وهما : في الواحدى : نزلت في غلام الحويطب بن عبد العزى
يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه . فأبى عليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وكاتبه
حويطب على مائة دينار ، ووهب له منها عشرين ديناراً ، فأداها . وقتل يوم حنين في
الحرب * وفي لباب السيوطي : أخرج ابن المنكدر في معرفة الصحابة عن عبد الله بن
صبيح عن أبيه قال : كنت مملوكاً لحويطب بن عبد العزى فسألته الكتابة فنزلت :
﴿ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ ... ﴾ الآية . والثاني . أخرج مسلم من طريق أبي سفيان
عن جابر بن عبد الله قال : كان عبد الله بن أبي يقول لجارية له : اذهبي فابغينا شيئاً
فأنزل الله ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ... ﴾ إلى قوله ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

وأخرج أيضاً من هذا الطريق أن جارية لعبد الله بن أبي يقال لها مسيكة ، وأخرى يقال لها أميمة فكان يكرهما على الزنى ، فشكنا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ... ﴾ الآية . وأخرج الحاكم من طريق أبي الزبير عن جابر قال : كانت مسيكة لبعض الأنصار ، فقالت إن سيدي يكرهني على البغاء فنزلت : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ... ﴾ الآية . وفي الواحدي : أن معاذة كانت مسلمة . وكان عبد الله بن أبي يستكرها على البغاء ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ... ﴾ وقال المفسرون : نزلت في معاذة ومسيكة : جاريتي عبد الله بن أبي المنافق كان يكرهما على الزنا لضريبة يأخذها منهما ، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية يؤجرون إماءهم . فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة : إن هذا الأمر الذي نحن فيه لا يخلو من وجهين . فإن يك خيراً فقد استكثرنا منه ، وإن يك شراً ، فقد آن لنا أن ندعه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقال مقاتل : نزلت في ست جوار لعبد الله بن أبي كان يكرههن على الزنا . ويأخذ أجورهن . وهن معاذة ومسيكية وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة . فجاءت إحداهن ذات يوم بدينار ، وجاءت أخرى بدونه فقال لهما : ارجعا فازنيا . فقالتا : والله لا نفعل قد جاءنا الله بالإسلام . وحرّم الزنا ، فأتيا رسول الله ﷺ . وشكنا إليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية . وفي رواية معمر عن الزهري أن رجلاً من قريش أسر يوم بدر ، وكان عند عبد الله بن أبي أسيراً ، وكانت لعبد الله جارية يقال لها معاذة ، وكان القرشي الأسير يراودها عن نفسها ، وكانت تمتنع منه لإسلامها . وكان ابن أبي يكرها على ذلك ويضربها لأجل أن تحمل من القرشي ، فيطلب فداء ولده ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال : أغفر لمن ما أكرهن عليه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ قال المفسرون : هذه الآية والتي بعدها نزلت في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصاصهما في أرض ، فجعل اليهودي يجره إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما . وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف . ويقول : إن محمداً يحيف علينا ، وقد مضت هذه القصة عند قوله : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾ (النساء) فلا حاجة لإعادة ذكرها هنا . *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتُخْلِفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ في الواحدي : روى الربيع بن أنس عن أبي العالية في هذه الآية قال : مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعد ما أوحى إليه خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سبحانه وتعالى سراً وعلانية ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة . وكانوا بها خائفين يصبحون في السلاح ويمسكون في السلاح فقال رجل من أصحابه يارسول الله : ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع فيه السلاح . فقال رسول الله ﷺ : لن تلبثوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في المأ العظيم محبباً ليست فيهم حديدة . وأنزل الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴾ الآية . فأظهر الله تعالى نبيه على جزيرة العرب فوضعوا السلاح وأمنوا ، ثم قبض الله تعالى نبيه ، فكانوا آمنين . كذلك في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه ، وكفروا النعم . فأدخل الله عليهم الخوف ، وغيروا فغير الله بهم * وأخرج الحاكم وصححه . والطبراني عن أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة ، وآوتهم الأنصار . رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه . فقالوا : ترون أن نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لانخاف إلا الله فنزلت : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ... ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ يعني بالنعم . وكذا بقية الأقوال في التفسير : أما التفسير : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح . وفي الوعد معنى القسم لأن وعد الله محقق الوقوع ولذلك قال في جوابه ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ أو القسم محذوف . أي أقسم ليجعلنكم خلفاء في الأرض ﴿ كَمَا اسْتُخْلِفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ كما فعل بيني إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة . ما هنا مصدرية . أي استخلفا كاستخلاف الذين من قبلهم . ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ وهو الإسلام بأن يظهره على جميع الأديان ، ويوسع لهم في البلاد فيملكوها . ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ ﴾ من الكفار ﴿ أَمْنًا ﴾ وقد أنجز الله وعده لهم بما ذكر . وأثنى عليهم بقوله : ﴿ يَعْبُدُونَنِي ﴾

لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً ﴿١﴾ أي يعبدونني موحدين ﴿٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿٣﴾ الإِنْعَامِ مِنْهُمْ بِهِ ﴿٤﴾ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥﴾ قال السيوطي : وأول من كفر به قتلة عثمان رضي الله عنه فصاروا يقتتلون بعد أن كانوا إخواناً * أي لم يقم بحق هذه النعم من عدم التعرض للفتن * وتلك الأنعام الجسم هي الاستخلاف في الأرض بالتملك والأمن بعد الخوف .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١﴾ في الواحدي : قال ابن عباس : وجه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقت الظهر ليدعوه ، فدخل فرأى عمر على حال كرهها فقال يارسول الله : لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال مقاتل : نزلت في أسماء بنت مرثد كان لها غلام كبير . فدخل عليها في وقت كرهته . فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرها . فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية * وهل الآية منسوخة أم لا ؟ عبارة الخازن اختلف العلماء في حكم هذه الآية فقيل إنها منسوخة : حكى ذلك عن سعيد بن المسيب . وروى عكرمة أن نفرأ من أهل العراق قالوا لابن عباس : كيف ترى هذه الآية التي أمرنا بها ولا يعمل بها أحد . قول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ... ﴾ الآية . فقال ابن عباس : إن الله عليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر . وكان الناس ليس لبيوتهم ستور . ولا حجاب فرجما دخل الخادم ، أو الولد ، أو يتيم الرجل . والرجل على أهله . فأمر الله بالاستئذان في تلك العورات ، فجاءهم الله تعالى بالستور والحجب ، فلم أر أحداً يعمل بذلك بعد . أخرجه أبو داود في رواية عنه نحوه . وزاد . فرأى أن ذلك أغنى عن الاستئذان في تلك العورات * وذهب قوم إلى أنها غير منسوخة . روى سفيان عن موسى بن أبي عائشة قال : سألت الشعبي عن هذه الآية ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . أم منسوخة هي ؟ قال : لا والله . قلت : إن الناس لا يعملون بها . قال : الله المستعان . قال سعيد بن جبير في هذه الآية إن ناساً يقولون نسخت ، والله ما نسخت .

ولكنها مما تهاون بها الناس . قيل : ثلاث آيات ترك الناس العمل بهن هذه الآية .
وقوله : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . والناس يقولون أعظمكم بيتا وإذا حضر
القسمة أولى القرى . الآية . أما التفسير : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ ﴾ اللام
لام الأمر . وفيه قولان : أحدهما أنه على الندب والاستحباب . والثاني أنه للوجوب
وهو الأولى . ﴿ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ من العبيد والإماء . إن ظاهر الآية أمر
المالك والأطفال بالاستئذان ، والمقصود أمر المؤمنين بأن يمنعوا هؤلاء من الدخول
عليهم في هذه الأوقات ﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْفُؤُوا الْحِلْمَ مِنْكُمْ ﴾ من الأحرار . وعرفوا أمر
النساء . أي حكوا عورات النساء . بأن ميزوا بين الجميلة وغيرها . ليستأذنوا ﴿ ثَلَاثَ
مَرَّاتٍ ﴾ في ثلاث أوقات ﴿ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ ﴾ لأنه وقت القيام من المضاجع ،
وطرح ثياب النوم ، ولبس ثياب اليقظة . هذه المرة الأولى . والثانية ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ
ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ ﴾ أي وقت الظهر . أي تصنعونها لأجل القيلولة . والثالثة ﴿ وَمِنْ
بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والإلتحاق بالحاف . وقوله
﴿ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ أي هذه الثلاثة أوقات تبدو فيها العورات فأمرهم بالاستئذان
فيها عند دخولهم عليكم . وما بعدها : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي المالك
والصبيان ﴿ جُنَاحٌ ﴾ في الدخول عليكم بغير إذن ﴿ بَعْدَهُنَّ ﴾ أي بعد الأوقات
الثلاثة هم ﴿ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ للخدمة ﴿ بَعْضُكُمْ ﴾ طائف ﴿ عَلَى بَعْضٍ ﴾
والجملة مؤكدة لما قبلها ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ ﴾ أي الأحكام ﴿ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ ﴾ بأمور مختلفة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ بما دبره لهم *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى
الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْكُمْ مَفَاتِحَهُ
أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا
عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴾ لنزول هذه الآية سببان الأول : في الواحدي : قال ابن عباس : لما أنزل الله
تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ تخرج المسلمون عن مؤاكلة

المرضى والزمني والعرج . وقالوا : الطعام أفضل الأموال . وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل . والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والمرضى لا يستوفى الطعام ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وقال سعيد بن جبير والضحاك : كان العرجان والعميان يتنزهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يتقذرونهم ويكرهون مؤاكلتهم ، وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا أعرج ولا مريض تقذراً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي الباب : قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن ابن نجيح عن مجاهد قال : كان الرجل يذهب بالأعمى والمريض إلى بيت أبيه ، أو بيت أخيه ، أو بيت أخته أو عمته أو بيت عمته أو بيت خالته فكانت الزمني يتخرجون من ذلك . يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم . فنزلت هذه الآية رخصة لهم * . وأخرج ابن جرير عن قتادة . قال نزلت في حي من العرب كان الرجل منهم لا يأكل طعامه وحده ، وكان يحمله بعض يوم حتى يجد من يأكله معه * وأخرج عن عكرمة وأبي صالح . قالوا : كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم فنزلت رخصة لهم * وفي أبي السعود كان فريق من المؤمنين كني ليث بن عمرو بن كنانة يتخرجون أن يأكلوا طعامهم منفردين ، وكان الرجل منهم لا يأكل ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه . فإن لم يجد من يؤاكلة لم يأكل شيئاً ، وربما قعد الرجل والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح ، وربما كانت معه الإبل الحافلات فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه . فإذا أمسى ولم يجد أحداً أكل * أي فنزلت الآية . وقيل : كان الغني منهم يدخل عليه الفقير من ذوى قرابته وصداقته فيدعوه إلى طعامه . فيقول : إني أخرج أن آكل معك ، وأنا غني وأنت فقير . وفي البيضاوي : وقيل نزلت في قوم تخرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الآكلين في كثرة الأكل وقلته * أي فبين أنه لا حرج عليهم أن يأكلوا مجتمعين ولا متفرقين . والمقصود كما هو مفهوم ترجمة البخارى له إباحة الأكل جميعاً وإن اختلفت أحوالهم . وهو سنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم . وأكل الجماعة أعظم بركة . وأحسن أخلاقاً . وخير الطعام ما كثرت عليه الأيدي . وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ وهو من صدقكم في مودته . يجوز الأكل من بيوت من ذكر ، وإن لم يحضروا أي إذا علم رضاهم به . وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي قولوا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وفي القرطبي : اختلف

المتأولون في أي البيوت أراد تعالى * فقال ابراهيم النخعي والحسن : أراد المساجد .
 والمعنى سلموا على من فيها . فإن لم يكن في المسجد أحد . فالسلام علينا وعلى عباد الله
 الصالحين . وقيل المراد بالبيوت المسكونة أي فسلموا على أنفسكم قاله جابر وعبد الله
 بن عباس أيضاً وعطاء بن أبي رباح . قالوا : ويدخل في ذلك البيوت غير المسكونة .
 ويسلم المرء فيها على نفسه بأن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . قال ابن
 العربي : القول بالعموم في البيوت هو الصحيح . ولا دليل على التخصيص . وأطلق
 القول ليدخل تحت هذا العموم كل بيت كان للغير أو لنفسه . فإذا دخل بيتا لغيره
 استأذن كما تقدم . وقوله : ﴿ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أي ثابتة بأمره مشروعة من لدنه *
 القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ
 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ
 وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ في اللباب : أخرج ابن اسحاق والبيهقي في
 الدلائل عن عروة ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما ، قال : أقبلت قريش عام
 الأحزاب ، نزلوا بجمع الأسبال من رومة : بئر بالمدينة . قائدها أبو سفيان ، وأقبلت
 غطفان حتى نزلوا بنعمى إلى جانب أحد . وجاء رسول الله ﷺ الخبر . فضرب
 الخندق على المدينة ، وعمل المسلمون فيه . وأبطأ رجال من المنافقين ، وجعلوا يأتون
 بالضعيف من العمل ، فيتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ . ولا إذن .
 وجعل الرجل من المسلمين إذا نابه النابئة من الحاجة لا بد منها ، يذكر ذلك لرسول الله
 ﷺ . ويستأذنه في اللحوق لحاجته فيأذن له ، وإذا قضى حاجته رجع ، فأنزل الله في
 أولئك المؤمنين ﴿ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ
 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ
 وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وفي الجلال : نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كان يعرض بهم النبي
 ﷺ في مجالسه وخطبه * قوله : ﴿ إِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ
 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ
 وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أي الرسول ﷺ ﴿ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ﴾ كخطبة
 الجمعة والأعياد والحروب أو للتشاور في أمر ﴿ لَمْ يَذْهَبُوا ﴾ أي يتفرقوا عنه . ولم
 ينصرفوا عما اجتمعوا له ﴿ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا ﴾ في الخازن : قال المفسرون : كان رسول
 الله ﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة ، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر لم
 يخرج حتى يقوم بجبال رسول الله ﷺ بحيث يراه ، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن فيأذن

لمن شاء منهم . قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده . قال أهل العلم : وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بالإذن . وإذا استأذن الإمام إن شاء أذن له ، وإن شاء لم يأذن . فإن حدث سبب يمنعه من المقام بأن يكونوا في المسجد فتحيض امرأة منهم ، أو يجنب رجل ، أو يعرض له مرض فلا يحتاج إلى الاستئذان * وتفسير الآية واضح بقوله ﴿ وَاسْتَعْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي لما وقع منهم من التقصير في الاستئذان وإن كان جائزاً لكن اغتنام المجالسة أولى من الاستئذان *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ أخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق الضحاك عن ابن عباس قال : كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم . فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ * قلت : ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ الحجرات . فقولوا : يا نبي الله : يا رسول الله : أو المعنى : لا تجعلوا دعاء الرسول لكم كدعاء بعضكم بعضاً . أي في عدم الإجابة . أي لا تقيسوا دعاءه لكم على دعاء بعضكم بعضاً في التباطؤ . بل أجيئوه فوراً وإن كنتم في الصلاة . أو لا تجعلوا دعاء الرسول . أي سخطه عليكم . كدعاء . كغضب بعضكم على بعض * وفي الخازن : قال ابن عباس رضي الله عنهما يقول احذروا دعاء الرسول إذا أسخطتموه ، فإن دعاءه موجب ليس كدعاء غيره * ورجحه الطبري .

سورة الفرقان وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ في الواحدي : حدث جوهر عن الضحاك عن ابن عباس قال : لما غير المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة ، قالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . حزن رسول الله ﷺ ، فنزل جبريل من عند ربه معزياً له . فقال : السلام عليك يا رسول الله : رب العزة يقرئك

السلام ويقول لك : وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم كانوا ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق . أي يتغفون المعاش في الدنيا قال : فبينما جبريل عليه السلام والنبي ﷺ يتحدثان إذ ذاب جبريل حتى صار مثل الهدرة . قيل يا رسول الله . وما الهدرة ؟ قال العدسة . فقال رسول الله ﷺ : مالك ذبت حتى صرت مثل الهدرة . قال : قال يا محمد : فتح باب من تعبيرهم إياك بالفاقة . وأقبل النبي وجبريل عليهما السلام ييكيان . ثم عاد جبريل إلى حاله . فقال : أبشر يا محمد : هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك ، فأقبل رضوان حتى سلم ، ثم قال يا محمد : رب العزة يقرئك السلام — ومعه سفظ من نور يتلألأ . ويقول لك ربك . هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع مالا ينقص لك من عنده في الآخرة مثل جناح بعوضة ، فنظر النبي ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستبشر به فضرب جبريل بيده إلى الأرض ، فقال : تواضع لله . فقال يارضوان : لا حاجة لي فيها . الفقير أحب إليّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً . فقال رضوان عليه السلام : أصبت أصاب الله بك . وجاء نداء من السماء فرفع جبريل عليه السلام رأسه ، فإذا السموات قد فتحت أبوابها إلى العرش ، وأوحى الله إلى جنة عدن أن تدلي غصنا من أغصانها عليه عزق ، من زبر جدة خضراء لها سبعون ألف باب من ياقوتة حمراء فقال جبريل عليه السلام يا محمد : ارفع بصرك ، فرفع فرأى منازل الأنبياء وغرفهم ، فإذا منازلها فوق منازل الأنبياء فضلاً له خاصة ، ومنادٍ ينادى : أرضيت يا محمد ، فقال النبي ﷺ رضييت فاجعل ما أردت أن تعطيني في الدنيا ذخيرة

عندك في الشفاعة يوم القيامة . ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ ... ﴾ الآية وفي لباب السيوطي : أخرج ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن جرير وابن أبي حاتم عن خثيمة قال : قيل للنبي ﷺ : إن شئت أعطيناك مفاتيح الأرض . وخزائنها لا ينقصك ذلك عندنا شيئاً في الآخرة وإن شئت جمعنا لك في الآخرة . قال : بل اجمعها . يعني في الآخرة . فنزلت : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ ... ﴾ الآية * وهو في الطبري وابن كثير بلفظه وحرفه عن خثيمة * أما التفسير : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴾ أي من الذي قالوا وأفضل من البستان الذي ذكروا . قال ابن عباس : يعني خيراً من المشي في الأسواق والتماس المعاش . ثم بين ذلك الخير . فقال : ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴾ أي بيوتاً

مشيدة . في الخازن عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال : عرض علي ربي ليجعل لي بص . مكة ذهباً . قلت : لا يارب . ولكنني أشبع يوماً وأجوع يوماً . أو قال ثلاثاً . أو نحو هذا . فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك * عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : لو شئت لسارت معي جبال مكة ذهباً . جاءني ملك إن حجزته لتساوي الكعبة . فقال يا محمد : ربك يقرئك السلام ، ويقول إن شئت نبياملكاً . فنظرت إلى جبريل ، فأشار إلى أن ضع نفسك . فقلت : نبياً عبداً . قالت : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً . يقول : أنا عبد آكل كما يأكل العبد . وأجلس كما يجلس العبد ، قال الخازن : ذكر هذين الحديثين البغوي بسنده *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾ روى عطاء الخراساني عن ابن عباس قوله : كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ ويجالسه . ويستمع إلى كلامه من غير أن يؤمن به . فزجره عقبة بن أبي معيط عن ذلك فنزلت هذه الآية * وقال الشعبي : وكان عقبة خليلاً لأمية بن خلف . فأسلم عقبة . فقال أمية : وجهي من وجهك حرام إن تابعت محمداً . وكفر وارتد لرضا أمية . فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية : ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ... ﴾ كذا في الواحدي . وفيه . وقال آخرون : إن أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط كانا متحالفين . لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه . وكان يكثر مجالسة النبي ﷺ ، فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً فدعا الناس ، ودعا رسول الله ﷺ إلى طعامه . فلما قرب الطعام قال رسول الله ﷺ : ما أنا بآكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله . فقال عقبة : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فأكل رسول الله ﷺ من طعامه . وكان أبي بن خلف غائباً ، فلما أخبر بقصته قال : صبأت يا عقبة ؟ . فقال : والله ولكن دخل علي رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له . فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم ، فشهدت قطع . فقال أبي : ما أنا بالذي راض منك أبداً إلا أن تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ عنقه ، ففعل ذلك عقبة . فأخذ رحم دابة فألقاها بين كتفيه ، فقال رسول الله ﷺ : لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فقتل عقبة يوم بدر ، وأما أبي بن خلف فقتله النبي ﷺ يوم أحد في المبارزة . فأنزل الله تعالى فيها هذه الآية وقال الضحاک : لما

برن عقبه في وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقة في وجهه فشعب شعبتين ، فأحرق خديه .
 وكان أثر ذلك فيه حتى الموت * ونحو الذي ذكر في الخازن بلفظه وحرفه ، أما التفسير
 ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ ﴾ المشرك عقبه بن أبي معيط ﴿ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ عض الأيدي
 والأكتف ، وأكل البنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة . قال عطاء : يأكل الظالم
 يديه حتى يأكل مرفقيه ثم يبتنان ، ثم يأكلهما ، وهكذا كلما نبتت أكلهما على ما فعل
 تحسراً . ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ ﴾ محمد ﷺ ﴿ سَبِيلاً ﴾ طريقاً إلى
 الهدى . أي صاحبه في اتخاذ سبيل الهدى ثم قال تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا
 حَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ أي القرآن أو ذكر الله ، أو موعظة الرسول . والنطق
 بالشهادة ﴿ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ ﴾ أي الخليل المضل أو إبليس ﴿ وَكَانَ
 الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ ﴾ الكافر ﴿ حَذُولًا ﴾ أي يتركه ويتبرأ من البلاء فيترك نصرته بعد
 الموالة والمعونة *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ
 جُمْلَةً وَّاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ
 بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ في لباب السيوطي : وأخرج بن أبي حاتم والحاكم وصححه ،
 والضياء في المختار عن ابن عباس قال : قال المشركون : إن كان محمد كما يزعم نبياً فلم
 يعذبه ربه ؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة ، ينزل عليه الآية والآيتين فأنزل الله تعالى
 ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً .. ﴾ الآية وفي الطبري : عن
 الحسن في قوله : ورتلناه ترتيلاً . قال كان ينزل آية وآيتين جواباً لهم إذا سألوا
 عن شيء أنزله الله وجواباً لهم ورداً عن النبي فيما يتكلمون به ، وكان بين أوله وآخره
 نحو من عشرين سنة . وعن ابن جريج قوله : ورتلناه ترتيلاً . قال : كان بين ما أنزل
 القرآن إلى آخره . أنزل عليه لأربعين ومات النبي ﷺ لثنتين أو ثلاث وستين . قلت :
 والظاهر أن المراد بالكفار هنا اليهود القائلون : هلا أنزل القرآن على محمد دفعة واحدة
 كما أنزلت الكتب السالفة على الأنبياء كذلك . وهذا زعم باطل ، ودعوى داحضة ،
 وفضول من القول وممارسة بما لا طائل تحته ، لأن أمر الاعجاز والاحتجاج به لا يختلف
 بنزوله جملة واحدة أو مفزقاً . وعبارة البيضاوي : وهذا اعتراض منهم لا طائل تحته لأن
 الاعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو متفرقاً مع أن للتفريق فوائد . منها : ما أشار إليه

بقوله : « كذلك لثبت به فؤادك » أي كذلك أنزلناه مفزقاً لنقوى بتفريقه فؤادك على حفظه وفهمه لأن حاله يخالف حال موسى وداود وعيسى حيث كان أمياً ، وكانوا يكتبون ، فلو ألقى عليه جملة لعبي بحفظه ، ولعله لم يتبها له ، فإن التلقن لا يأتي إلا شيئاً فشيئاً ، ولأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة . وغوص على المعنى ، ولأنه إذا نزل منجماً ، وهو يتحدى بكل نجم فيعجزون عن معارضته زاد ذلك في قوة قلبه ، ولأنه إذا نزل به جبريل حالاً بعد حال ثبت به فؤاده . ومنها : معرفة الناسخ والمنسوخ ، ومنها : انضمام القرائن الحالية إلى الدلالات اللفظية ، فإنه يعين على البلاغة . وقوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ اليهود ﴿ تَوَلَّآ ﴾ هلا ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ كالتوراة والإنجيل والزبور ... ونزل هنا بمعنى أنزل كخبر بمعنى أخبر . قوله ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي أنزل متفرقا ﴿ لَثُبَّتْ بِهِ فُؤَادُكَ ﴾ نقوى قلبك ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ أي أتينا به شيئاً بعد شيء بتمهل وتؤدة ليتيسر فهمه وحفظه ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ﴾ في إبطال أمرك . وإنه مثل في البطلان . يريدون به القدح في نبوتك ﴿ إِلَّا جِنَّابَكَ بِالْحَقِّ ﴾ الدافع له . ﴿ وَأَحْسَنُ تَفْسِيرًا ﴾ بيانا وتفصيلا .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ . في الواحدى : حدث سعيد بن جبیر عن ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتو محمداً عليه الصلاة والسلام . فقالوا : إن الذي تقول ، وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أنا لما عملنا كفارة : فنزلت - ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ... ﴾ الآيات إلى قوله : ﴿ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ رواه مسلم عن ابراهيم بن دينار عن حجاج . وفي رواية أبي ميسرة عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ . قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال : قلت ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك . فأنزل الله تعالى تصديقاً لذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ... ﴾ إلى : ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ رواه البخاري . الند : بكسر النون وتشديد الدل . أي نظيراً . وقوله في الحديث : خشية أن يطعم معك . أي لأجل خشية اطعامك . وكانت عادتهم قتل الأولاد لحشيتهم ذلك . وقوله : بحليلة جارك . أي بامرأة

جارك . وسميت حليلة لأنها لا تحل له . وللبخاري روايات في الباب غير ما ذكر . وأخرج بن جرير عن عطاء عن ابن عباس قال : أتى وحشى إلى النبي ﷺ فقال يا محمد : أتيتك مستجيراً فأجرني حتى أسمع كلام الله . فقال رسول الله ﷺ : قد كنت أحب أن أراك على غير جوار . فإذا أتيتني مستجيراً فأنت في جوارى حتى تسمع كلام الله . قال : فإني أشركت بالله ، وقتلت النفس التي حرم الله تعالى . وزنيت . هل يقبل الله مني توبة ؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزل ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ... ﴾ فتلاها عليه . فقال : أرى شرطاً فلعلي لا أعمل صالحاً أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله فنزلت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ... ﴾ فدعا به فتلاها عليه . فقال : ولعلي ممن لا يشاء أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله تعالى فنزلت : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ فقال : نعم الآن لا أرى شرطاً فأسلم . ونحوه في بقية التفاسير مع بعض اختلاف في التعبير . أما التفسير : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ هذا شروع في بيان اجتنابهم للمعاصي بعد بيان اتيانهم بالطاعات . ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتلها ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أي لا يقتلونها إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وسمعتها . وفي الحديث : لا يجل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث . الشيب الزاني . والتارك لدينه المفارق للجماعة . وقاتل النفس عمداً . وقوله : ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ أي يرتكبون الفاحشة أى استحلال الأعراض على وجه غير مشروع ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ﴾ أي واحداً من الثلاثة ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ أي عقوبة . قال ابن عباس : إنما يريد جزاء الآثم . وقيل الآثام وإد في جهنم . ويروى في الحديث أن الغي والآثام بئران في جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار . ﴿ يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قال الخازن : وسبب تضاعف العذاب أن المشرك إذا ارتكب المعاصي مع الشرك يضاعف له العذاب على شركه ومعصيته * أي أنه يعذب على الشرك وعلى المعاصي جميعاً . فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه . ﴿ وَيَحْلُدُ فِيهِ ﴾ في العذاب ﴿ مُهَانًا ﴾ ذليلاً محتقراً جامعاً للعذاب الجماعي والروحاني ثم استثنى بقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾ منهم . لأن الاستثناء متصل من الضمير المستتر في يلق . أي إلا من تاب فلا يلق الآثام بل يزداد له في الاكرام المشار إليه ﴿ فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ المذكورة

وهي الثلاثة ﴿ حَسَنَاتٍ ﴾ في الآخرة ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لم يزل منصفاً
بذلك ..

سورة الشعراء وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن جهضم : قال : روى النبي ﷺ كأنه متحيراً ، فسأله عن ذلك . فقال : وَلِمَ ؟! ورأيت عدوى يكون من أمتى بعدى . فنزلت : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ ﴾ إلى ﴿ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴾ فطابت نفسه * ولم أعر على ما يقصده قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ ﴾ أخبرني ﴿ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ ﴾ المتاع في اللغة كل ما ينتفع به كالطعام واللبز وأثاث البيت .. وأصل المتاع ما يتبلغ به من الزاد . وهو اسم متعته بالثقل إذا أعطيته ذلك . والجمع أمتعة . وقوله ﴿ سِنِينَ ﴾ أي طوالاً . والمخاطبون في ذلك كفار مكة . أي متعناهم في الدنيا ولم نهلكهم كمن سبقهم ﴿ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ به . أي أي شيء أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون به من متاع الحياة الدنيا ؟ والاستفهام انكار . والمعنى : أنهم وإن طال تمتعهم بنعيم الدنيا . فإذا أتاهم العذاب لم يغن عنهم طول التمتع شيئاً ويكونوا كأنهم لم يكونوا في نعيم قط .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ في الباب : وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال : لما نزلت : ﴿ وَأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ بدأ بأهل بيته وفصيلته . فشق ذلك على المسلمين فأنزل الله : ﴿ وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ * روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما أنزل الله ﴿ وَأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ورجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : يا بني عبد المطلب . يا بني فهر ، يا بني لؤى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير

عليكم صدقتموني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم. أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ... وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ قال يا معشر قريش. أو كلمة نحوها « اشتروا أنفسكم لا أغني عنك من الله شيئاً. يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا صفية عمة رسول الله ﷺ لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً * » وهكذا بقية الأقوال أما التفسير: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب وقد أنذرهم جهاراً كما علمت ﴿ وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ ﴾ أُنْ جانبك. كناية عن التواضع واللطف بالمؤمنين أي بعد إنذار من آمن منهم تواضع له. ومن خالفك فتبرأ منه ومن عمله وهذا معنى قوله ﴿ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الموحدين * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ... ﴾ في اللباب وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس قال: تهاجى رجلان على عهد رسول الله ﷺ: أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وكان مع كل واحد مهما غواة من قومه، وهم السفهاء. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ... ﴾ الآيات * وفي الخازن: قال أهل التفسير: أراد شعراء الكفار الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ: منهم عبد الله بن الزبعرى السهمي، وهبيرة بن وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف، وأبو عزة: عمرو بن عبد الله الجمحي، وأميمة بن أبي الصلت الثقفي. تكلموا بالكذب والباطل. وقالوا: نحن نقول مثل ما يقول محمد، وقالوا الشعر، واجتمع إليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون النبي ﷺ وأصحابه. ويروون عنهم قولهم. فذلك قوله تعالى: ﴿ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾. أي الرواة الذين يروون هجاء المسلمين. وقيل الغاوون هم الشياطين. وقيل: هم السفهاء الضالون * وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعلم ﴿ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ ﴾ من أودية الكلام وفنونه. أي

فنون القول وطرقه . وهو تمثيل . وقوله : ﴿ يَهيمُونَ ﴾ يمضون فيجاوزون الحد مدحاً وهجاء ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾ فعلنا ﴿ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ أي يكذبون *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ في اللباب : وأخرج عن عروة قال : لما نزلت : والشعراء .. إلى قوله ما لا يفعلون * قال عبد الله بن رواحة قد علم الله أني منهم ، فأنزل الله إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... إلى آخر السورة * وأخرج ابن جرير والحاكم عن أبي الحسن البراد قال : لما نزلت : والشعراء . الآية جاء عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك وحسان بن ثابت ، فقالوا يا رسول الله : والله لقد أنزل الله هذه الآية ، وهو يعلم أنا شعراء . هلكننا . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾ الآية * وروى ابن جرير عن محمد بن اسحاق « أنه لما نزلت هذه الآية جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون . قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء » ، فتلا النبي ﷺ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال : أنتم ﴿ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً ﴾ قال : أنتم ﴿ وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ قال : أنتم - أي بالرد على المشركين - ثم قال النبي ﷺ : « انتصروا ولا تقولوا إلا حقاً ، ولا تذكروا الآباء والأمهات » فقال حسان لأبي سفيان :

هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه * وعندَ الله في ذاك الجزاءُ
وإنَّ أباي ووالدي وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء
أتشمه ولست له بكفاء * فشرُّكمَا لِخَيْرُكمَا الفِداءُ
لساني صارمٌ لا عيبَ فيه * وبَحْرِي لا تُكدرُهُ الدَّلاءُ
وقال كعب : يا رسول الله . إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت ، فكيف ترى فيه ؟ فقال النبي ﷺ : « إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه ، والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل » وقال كعب :

جاءت سخينة كي تغالب ربها * وليُعَلِّبَنَّ مُعَالِبُ الغلابِ .

فقال النبي ﷺ : « لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا : وقوله : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ أي وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم

وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات كفراً بها وعناداً أي مرجع يرجعون إلى الله بعد الموت ،
 وأي معاد يعودون إليه ؟ إنهم ليصيرون إلى نار لا يطفأ سعيها ، ولا يسكن لهيها .
 (المراغي) * والمنقلب : الانتقال إلى ضد ما هو فيه ، والمرجع العود من حال هو فيها
 إلى حال كان عليها ، فصار كل مرجع منقلبا . وليس كل منقلب مرجعاً . ذكره
 الماوردي . قال ابن عباس : إلى جهنم وبئس المصير * .

سورة القصص وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ
 يُؤْمِنُونَ ﴾

« ملاحظة »

طلباً للاختصار ولبهائة الطباعة بغلو الأسعار سأكتفى من هنا فصاعداً بذكر

الأقوال

في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير والطبراني عن رفاعة القرظي قال : نزلت :
 ﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ﴾ في عشرة : أنا أحدهم . وأخرج ابن جرير عن علي بن
 رفاعة قال : خرج عشرة رهط من أهل الكتاب : منهم رفاعة يعنى أباه إلى النبي ﷺ
 فآمنوا . فأوذوا فنزلت ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ... ﴾ * وفي المراغي : قال سعيد بن
 جبير : نزلت هذه الآية في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ . فلما
 قدموا عليه قرأ عليهم ﴿ يسّ والقرآن الحكيم ﴾ حتى ختمها ، فجعلوا يبكون وأسلموا
 * ونحوها في الطبري * وفي الجلال : نزلت في جماعة من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره
 من النصارى قدموا من الحبشة ومن الشام * وعبرة الخازن : نزلت في مؤمنى أهل
 الكتاب : عبد الله بن سلام وأصحابه . وقيل بل هم أهل الانجيل الذين قدموا من
 الحبشة ، وآمنوا بالنبي ﷺ : وهم أربعون رجلاً قدموا مع جعفر بن أبي طالب ، فلما
 رأوا ما بالمسلمين من الحاجة والخصاصة قالوا يا رسول الله : إن لنا أموالاً فإن أذنت لنا
 انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا بها المسلمين ، فأذن لهم فانصرفوا ، فأتوا بأموالهم فواسوا
 بها المسلمين ، فنزلت هذه الآيات إلى قوله : ومما رزقناهم ينفقون * وقال ابن عباس :
 نزلت في ثمانين من أهل الكتاب أربعون من نجران ، واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية
 من الشام * والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ في الواحدى : أخبر سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضر أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية . فقال رسول الله ﷺ يا عم . قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله سبحانه وتعالى . فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرض عليه ويعاودانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به : أنا على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول لا إله إلا الله . فقال رسول الله ﷺ : والله لأستغفرن لك ما لم أنه منك فأنزل الله عز وجل - ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرنى ... الآية . وأنزل في أبي طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ... ﴾ الآية . رواه مسلم عن محمد بن حاتم عن يحيى بن سعيد * وأجمع المفسرون كما ذكره الزجاج أنها نزلت هذه الآية في أبي طالب . أخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لعنه : « قل لا إله إلا الله أشهد لك يوم القيامة » . قال : لولا أن تعيرني نساء قريش يقلن إنه حملة على ذلك الجزع لأقررت بها عينك . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ . وهكذا بقية الأقوال * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَتَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نَأْمُرْكُمْ لَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ حَرَاماً آمِناً يُجِبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ في الواحدى : نزلت في الحارث بن عثمان بن عبد مناف ، وذلك أنه قال للنبي ﷺ : إنا لنعلم أن الذي تقول حق . ولكن يمنعنا من اتباعك أن العرب تخطفنا من أرضنا لاجتماعهم على خلافنا ، ولا طاقة لنا بهم . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي السيوطى : أن الذى قال ذلك : هو الحارث بن عامر بن نوفل * وكذا في الخازن وغيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَقْمِنْ وَعَدْنَاهُ وَغَدَاً حَسَباً فَهُوَ لِأَقْبِهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ في الواحدى : قال مجاهد : نزلت هذه الآية في علي وحمزة وأبي طالب * وقال السدى : نزلت في عمار

والوليد بن المغيرة * وقيل نزلت في النبي ﷺ وأبي جهل * والمقصود إنكار التساوي بين أهل الدنيا وأهل الآخرة * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ في الواحدي : قال أهل التفسير : نزلت جواباً للوليد بن المغيرة حين قال : فيما أخبر الله تعالى عنه ، أنه لا يعث الرسل باختياره * وعبارة الخازن ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ نزلت هذه الآية جواباً للمشركين حين قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . يعني الوليد بن المغيرة أو عروة بن مسعود الثقفي . أخبر الله تعالى أنه لا يعث الرسل باختيارهم لأنه المالك المطلق ، وله أن يخص من يشاء بما يشاء لا اعتراض عليه البتة * أي وربك يخلق ما يشاء خلقه وهو وحده سبحانه دون غيره يصطفى ما يريد أن يصطفى ويختاره ، فيختار أقواماً لأداء الرسالة وهداية الخلق . ونحو الآية ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ * وعبارة المراغي : روى مقاتل أنه عليه الصلاة والسلام خرج من الغار - حين الهجرة - وسار في غير الطريق مخافة الطلب ، فلما أمن رجع إلى الطريق ، ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة ، وعرف الطريق إلى مكة ، واشتاق إليها ، وذكر مولده ومولد أبيه ، فنزل جبريل عليه السلام . وقال له : أتشاق إلى بلدك ومولدك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : نعم فقال جبريل : فإن الله يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ * ونحوه في ابن كثير . وفي الخازن : قال ابن عباس : إلى مكة أخرجته البخاري عنه . ثم أورد ما ذكره السيوطي . وكذا في تفسير زاده * .

سورة العنكبوت وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ اَلَمْ . اَحْسِبِ النَّاسُ اَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴾ في الواحدي : نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالاسلام ، فكتب إليهم أصحاب النبي ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم اقرار ولا إسلام حتى تهاجرو ، فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون فأذوهم ، فنزلت هذه الآية . وكتبوا إليهم أن قد نزلت فيكم آية كذا وكذا . فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ ثُمَّ اِنْ رَبَكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ... ﴾ الآية . وقال مقاتل : نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب ، كان أول قتيل من المسلمين يوم بدر . رماه عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، فقال النبي ﷺ : « سيد الشهداء مهجع وهو أول من بدى إلى باب الجنة من هذه الأمة » ، فجزع عليه أبواه وامراته ، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية . وأخبر أنه لا بد من البلاد والمشقة في ذات الله تعالى . وفي لباب السيوطي : وأخرج ابن حاتم عن قتادة قال : أنزلت (الَمْ . اَحْسِبِ النَّاسُ اَنْ يُتْرَكُوا اَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) في أناس من أهل مكة خرجوا يريدون النبي ﷺ فعرض لهم المشركون فرجعوا ، فكتب لهم اخوانهم بما نزل فيهم ، فخرجوا فقتل من قتل ، وخلص من خالص ، فنزل القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ... ﴾ . وأخرج ابن سعد عن عبيد الله بن عبيد عن ابن عمر قال : نزلت في عمار بن ياسر إذ كان يعذب في الله : ﴿ اَحْسِبِ النَّاسُ اَنْ يُتْرَكُوا ... ﴾ الآية . وهكذا الأقوال في بقية التفاسير .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْاِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَاِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِيْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهٖ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا اِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَاَنْتُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : نزلت في سعد بن أبي وقاص . وذلك أنه لما أسلم قالت له أمه جميلة يا سعد : بلغني أنك صبوت ، فوالله لا يظلني سقف بيت من الفح والريح ، ولا آكل ولا أشرب حتى تكفر . بمحمد ﷺ وترجع إلى ما كنت

عليه . وكان أحب ولدها إليها . فأبى سعد ، فصبرت هي ثلاثة أيام لا تأكل ولم تشرب . ولم تستظل بظل حتى اغشى عليها فأبى سعد النبي ﷺ ، وشكا ذلك إليه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية في لقمان وفي الأحقاف * وفي مسلم عن أبي خيثمة عن الحسن عن زهير عن سماك بن حرب عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه ، قال : نزلت هذه الآية في . قال : حلفت أم سعد لا تكلم أبداً حتى يكفر بدينه ، ولا تأكل ولا تشرب . ومكث ثلاثة أيام حتى غشى عليها من الجهد : فأنزل الله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ... ﴾ أي وأمرناه بتعهدهما والبر بهما والإحسان إليهما كما قال

في آية أخرى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَالْحِفْضُ لَهُمَا جَنَاحُ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴾ وفي شطر الآية : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ ... ﴾ في الواحدي : أخبر داود بن أبي هند عن أبي عثمان النهدي أن سعد بن مالك قال : أنزلت في هذه الآية : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ... ﴾ الآية قال : كنت رجلاً برأ بأمي . فلما أسلمت قالت يا سعد : ما هذا الذي قد أحدثت لتدعن دينك هذا . أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي . فيقال : يا قاتل أمه . قلت : لا تفعل يا أمه ، فإني لا أدع ديني هذا لشيء . قال : فمكثت يوماً لا تأكل فأصبحت قد جهدت قال : فمكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل فأصبحت وقد اشتد جهدها . قال : فلما رأيت ذلك . قلت : تعلمين والله يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء . إن شئت فكلّي وإن شئت فلا تأكلي . فلما رأيت ذلك أكلت ، فأنزلت هذه الآية - ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ ... ﴾ الآية .. وكذا في القرطبي والحازن .. وفي الحديث : لا طاعة لمخلوق في معصية الله . وفي ابن كثير : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهها . فنزلت : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ ... ﴾ .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾ في الواحدي : قال مجاهد : نزلت في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله ومصيبة في أنفسهم افتتنوا * وقال

الضحاك : نزلت في أناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون . فإذا أودوا رجعوا إلى الشرك * وقال عكرمة عن ابن عباس : نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون عن الدين فارتدوا وهم الذين أنزل الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَقَّأَهُمِ الْمَلَائِكَةُ ظَلْمِي أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ الآية وما ذكر في الخازن وغيره * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِيهِمْ أَنْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والدارمي في مسنده . من طريق عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة قال : جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوا فيها بعض ما سمعوه من اليهود . فقال النبي ﷺ كفي بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم . فنزلت : ﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ... ﴾ ولم أجد ما يعضده ، ومعناه موافق لمدلول التنزيل .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ في الواحدى : حدث عطاء عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان الأنصار ، فجعل يلقط من التمر ويأكل . فقال يا عمر : ما لك لا تأكل : فقال لا أشتهي يا رسول الله . فقال : لكني أشتهي . وهذه صبيحة رابعة ما ذقت طعاماً . ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل كسرى وقیصر . فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يحبون رزق سنتهم ، ويضعف اليقين ؟ قال : فوالله ما برحنا حتى نزلت : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ... ﴾ الآية * وفي لباب السيوطي في بقية سبب نزولها . فقال رسول الله ﷺ : « إني لم يأمرني بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ألا وإني لا أكثر ديناراً ولا درهما ولا أحبأ رزقاً لغد » . قال السيوطي : وسنده ضعيف . وعبارة ابن كثير : فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإني لا أكثر ديناراً ولا أحبأ رزقاً لغد » قال ابن كثير : هذا حديث غريب . وأبو العطوف الجزرى ضعيف * . وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض ، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياماً حتى يسود الريش ، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد أبويه ،

فيقيض الله تعالى طيرا صغارا كالبراغيث فيغشاه ، فتفوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه ، والأبوان يتفقدانه كل وقت ، فكلما رآوه أبيض الريش نفرا عنه . فإذا رآوه قد اسود ريشه عطفوا عليه بالخصانة والرزق ولهذا قال الشاعر :

يا رازق التّعب في عشّه * وجابر العظم الكسير المهيبض *

وفي الخازن : وذلك أن النبي ﷺ قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة ، وقد آذاهم المشركون هاجروا إلى المدينة ، فقالوا : كيف نخرج إلى المدينة ، وليس لنا بها دار ولا مال ، فمن يطعمنا بها ، ويسقينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ ... ﴾ * وكذا نحوها بقية الأقوال * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَبَلْبَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ في لباب السيوطي : أخرج جوير عن الضحاك عن ابن عباس أنهم قالوا يا محمد : ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لتقتلنا ، والأعراب أكثر منا ، فمتى يبلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس . فأنزل الله : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا .. ﴾ ولم أعر على غيره * .

سورة الروم وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَمَنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : بعث كسرى جيشا إلى الروم ، واستعمل عليهم رجلا يسمى شهريان . فسار إلى الروم بأهل فارس وظهر عليهم ، فقتلهم وخرّب مدائنهم . وقطع زيتونهم . وكان قيصر بعث رجلا يدعى بخين ، فالتقى شهريان بذرعت في بصرى . وهى أدنى الشام إلى أرض العرب . فغلب فارس الروم ، وبلغ ذلك النبي ﷺ وأصحابه بمكة ، فشق ذلك عليهم ، وكان النبي ﷺ يكره أن يظهر الأميون من أهل الجحوس على أهل الكتاب من الروم ، وفرح كفار مكة وشمتموا . فلقوا أصحاب النبي ﷺ فقالوا : إنكم أهل الكتاب ، والنصارى أهل كتاب ونحن

أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، وإنكم وإن قاتلتمونا لنظهرن عليكم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ اَلَمْ * غَلِبَتِ الرُّومُ * فِي اَدْنَى الْاَرْضِ ﴾ - إلى آخر الآيات * وفي اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال : بلغنا أن المشركين كانوا يجادلون المسلمين وهم بمكة قبل أن يخرج رسول الله ﷺ ، فيقولون : الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل على نبيكم ، فكيف غلب المجوس وهم أهل كتاب فسنگلبكم كما غلب فارس الروم . فأنزل الله : ﴿ اَلَمْ * غَلِبَتِ الرُّومُ * فِي اَدْنَى الْاَرْضِ ... ﴾ وقد أطل المفسرون في سرد هذه القصة مطولة تارة ومختصرة أخرى ، وكلها تدور حول المعنى الذى ذكر . وفي بعضها فلما نزلت هذه الآيات خرج أبو بكر الصديق إلى كفار مكة ، فقال : فرحتم بظهور إخوانكم فلا تفرحوا . فوالله ليظهرن الروم على فارس . أخبرنا بذلك نبينا محمد ﷺ ، فقام إليه أبى بن خلف الجمحي . فقال : كذبت . فقال : أنت أكذب يا عدو الله ، فقال : اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه - والمناجبة بالحاء المهملة . القمار . والمراهنة أى أراهنك على عشرة قلائص منى ، وعشر قلائص منك ، فإذا ظهرت فارس على الروم غرمت وإذا ظهرت الروم على فارس غرمت ، ففعلوا ، وجعلوا الأجل ثلاث سنين ، فجاء النبي ﷺ وأخبره بذلك قبل تحريم القمار ، فقال النبي ﷺ ما هكذا إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع فزيده فى الخطر ومادده فى الأجل ، فاجعلها مائة قلووس ومائة قلووس إلى تسع سنين ، فقال : قد فعلت . فلما خشى أبى بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه ولزمه . وقال : إني أخاف أن تخرج من مكة فأقم لي ضامنا كفيلا ، فكفله ابنه عبد الله بن أبى بكر . فلما أراد أبى بن خلف أن يخرج إلى أحد . أتاه عبد الله بن أبى بكر فلزمه وقال : والله لا أدعك حتى تعطينى كفيلا ، فأعطاه كفيلا ، ثم خرج إلى أحد ، قال : ثم رجعت أبى بن خلف إلى مكة ومات بها من جراحته التى جرحه النبي ﷺ حين بارزه ، وظهرت الروم على فارس يوم الحديدية . وذلك على رأس سبع سنين من مناجبتهم ، وقيل : كان يوم بدر ، وربطت الروم خيولهم بالمدائن . وبنوا بالعراق مدينة وسموها رومية ، فقمرو أبو بكر أيباً ، وأخذ مال الخطر من ورثته ، وجاء به للنبي ﷺ . وذلك قبل أن يحرم القمار . فقال النبي ﷺ تصدق به ... * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : تعجب الكفار من إحياء الله الموتى . فنزلت ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَدَأُ الْخَلْقَ ... ﴾ * وكذا في الطبري ، ولا يوجد غيره * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَأْتُمْ فِيهِ سَوَاءً تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ في اللباب : وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : كان يلبي أهل الشرك : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك . فأنزل الله : ﴿ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ ... ﴾ * وهذا مثل ضربه الله للمشركين به . العابدين معه غيره .. وخلاصته إن أحدكم يأنف أن يساويه عبده في التصرف في أمواله فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه !؟ * .

سورة لقمان وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ... ﴾ في الواحدي : قال الكلبي ومقاتل : نزلت في النضر بن الحارث . وذلك أنه كان يخرج تاجرا إلى فارس فيشتري أخبار الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشا ، ويقول لهم : إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود . وأنا أحدثكم . بحديث رستم واسفنديار . وأخبار الأكاسرة فيستملحون حديثه . ويتركون استماع القرآن . فنزلت فيه هذه الآية * وقال مجاهد : نزلت في شراء القيان والمغنيات . حدث علي بن يزيد عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل تعليم المغنيات ولا بيعهن ، وأثمانهن حرام » . وفي هذا نزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ إلى آخر الآية * وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله تعالى

عليه شيطانين أحدهما على هذا المنكب ، والآخر على هذا المنكب . فلا يزالان يضربانه بأرجلهما حتى يكون هو الذي يسكت * وقال ثور بن أبي فاخته عن أبيه عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في رجل اشترى جارية تغنيه ليلاً ونهاراً * وفي اللباب : وأخرج جوبير عن ابن عباس قال : نزلت في النضر بن الحارث : اشترى قينة ؟ وكان لا يسمع بأحد يريد الاسلام إلا انطلق إلى قينته فيقول : أطعميه وغنيه ، هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام . وأن تقاتل بين يديه * وهكذا بقية الأقوال .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٍ وَالْبَحْرِ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ في الواحدي : قال المفسرون : سألت اليهود رسول الله ﷺ عن الروح . فأنزل الله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، أتاه أحبار اليهود ، فقالوا يا محمد : بلغنا عندك أنك تقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ، أفتعنيننا أم قومك ؟ فقال : كلاً ، قد عنيت . قالوا : ألسنت تتلو فيما جاءك إنا قد أوتينا التوراة . وفيها علم كل شيء ، فقال رسول الله ﷺ . هي في علم الله سبحانه قليل . ولقد آتاكم الله تعالى ما إن عملتم به انتفعتم به . فقالوا يا محمد : كيف تزعم هذا وأنت تقول : ﴿ وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ وكيف يجتمع هذا . علم قليل وخير كثير . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٍ ... ﴾ الآية * وكذا في المراغى ونحوه في القرطبي وابن كثير وبقية التفاسير * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ في الواحدي : نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة بن محارب بن حفصة من أهل البادية . أتى النبي ﷺ فسأل عن الساعة ووقتها . وقال : إن أرضنا أجدبت ، فمتى ينزل الغيث ؟ وتركت امرأتي حبل فماذا تلد ؟ وقد علمت أين ولدت فبأي أرض أموت . فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية * وكذا في الطبري * وعن المنصور أنه هم معرفة مدة عمره ، فرأى في منامه كأن خيالا أخرج يده من البحر . وأشار إليه بالأصابع الخمس . فاستفتى العلماء في ذلك . فتأولوها . بخمس

سنين ، وبخمسة أشهر . وبغير ذلك حتى قال أبو حنيفة : تأويلها أن مفاتيح الغيب
خمس لا يعلمها إلا الله ، وأن ما طلبت معرفته لا سبيل لك إليه * .

سورة السجدة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ في الواحدي : قال مالك بن دينار :
سألت أنس بن مالك عن هذه الآية فيمن نزلت؟ فقال : كان أناس من أصحاب رسول
الله ﷺ يصلون من المغرب إلى صلاة العشاء الآخرة فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية
* وحدث قتادة عن أنس بن مالك قال : فينا نزلت معشر الأنصار : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ
عَنِ الْمَضَاجِعِ ... ﴾ الآية * كنا نصلى المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلى العشاء
مع النبي ﷺ * وقال الحسن ومجاهد : نزلت في المتجهدين الذين يقومون الليل إلى
الصلاة * وفي حديث معاذ ما يدل عليه . قال : بينا نحن مع رسول الله ﷺ في غزوة
تبوك ، وقد أصابنا الحر ، فتفرق القوم ، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ أقربهم مني .
فقلت يا رسول الله : انبثني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال : لقد سألت
عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه . تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقم
الصلاة المكتوبة ، وتؤدى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، وإن شئت أنبأتك
بأبواب الخير؟ فقال : قلت أجل يا رسول الله : قال : الصوم جنة ، والصدقة تكفر
الخطيئة ، وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه الله تعالى قال : ثم قرأ هذه الآية :
﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ ... ﴾ الآية * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
لَا يَسْتَوُونَ ﴾ في الواحدي : نزلت الآية في علي بن أبي طالب والوليد بن عقبة . حدث
سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي بن أبي طالب
رضي الله عنه : أنا أحدُ منك سنأ ، وأبسط منك لساناً ، وأملاً للكيبية منك . فقال
علي : اسكت فإنما أنت فاسق - فنزل : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ... ﴾
يعنى بالمؤمن علي وبالفاسق الوليد بن عقبة * وكذا أخرجه ابن جرير عن عطاء بن
يسار . ورواه الخازن مرسلًا * .

سورة الأحزاب وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ في الواحدي : نزلت في أبي سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور السلمي . قدموا المدينة بعد قتال أحد . فنزلوا على عبد الله بن أبي . وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه ، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق . فقالوا للنبي ﷺ وعنده عمر بن الخطاب : ارفض ذكر آهتنا : اللات والعزى ومنات ، وقل إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها ، وندعك وربك ، فشق على النبي ﷺ قولهم . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ائذن لنا يا رسول الله في قتلهم . فقال : إني قد أعطيتهم الأمان . فقال عمر : اخرجوا في لعنة الله وغضبه . فأمر رسول الله ﷺ أن يخرجهم من المدينة . فأنزل الله عز وجل هذه الآية * وكذا في الخازن وغيره وفي لباب السيوطي : أخرج ابن جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال : إن أهل مكة منهم الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة دعوا النبي ﷺ أن يرجع عن قوله على أن يعطوه شطر أموالهم . وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه . فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ... ﴾ الآية * وكذا في المراغي .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ إِلَّا نُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ... ﴾ الآية * في الواحدي : نزلت في جميل بن معمر الفهري . وكان رجلا لييبا حافظا لما يسمع . فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان وكان يقول : إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ﷺ . فلما كان يوم بدر ، وهزم المشركون وفيهم جميل بن معمر . تلقاه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه بيده والأخرى في رجله . فقال له : يا أبا معمر : ما حال الناس ؟ قال : انهزموا . قال : فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك ؟ قال : ما شعرت إلا أنهما في رجلي ، وعرفوا يومئذ أن لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده * وفي اللباب : أخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس قال : قام النبي ﷺ

يوما يصلى ، فخطره خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترى أن له قلبين : قلبا معكم ، وقلبا معه ، فأنزل الله ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ... ﴾ * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ اذْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ ... ﴾ الآية * روى الشيخان والترمذي والتسائي في جماعة آخرين عن ابن عمر رضي الله عنهما : « أن زيد بن حارثة : مولى رسول الله ﷺ . ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد » حتى نزل القرآن ﴿ اذْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ ... ﴾ الآية * فقال النبي ﷺ أنت زيد بن حارثة * وكذا ذكره السيوطي : وعبارة الواحدي : نزلت في زيد بن حارثة . كان عند الرسول فأعتقه وتبناه قبل الوحي ، فلما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش ، وكانت تحت زيد بن حارثة ، قالت اليهود والمنافقون تزوج محمد امرأة ابنه ، وهو ينهى الناس عنها . فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ... ﴾ * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ * إذ جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم ... ﴾ في اللباب : أخرج البيهقي في الدلائل عن حذيفة ، قال : لقد رأيتنا ليلة الأحزاب صامتون قعوداً ، وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقرينة أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت قط ليلة أشد ظلمة ، ولا أشد ريحا منها ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ يقولون : إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ، فما يستأذن أحد إلا أذن له فيتسللون . إذا استقبلنا النبي ﷺ رجلا رجلا حتى أتى علي ، فقال : اثنتي بخبر القوم ، فجئت فإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شيئا ، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحاهم وفروشهم الريح تضربهم بها ، وهم يقولون : الرحيل الرحيل ، فجمته فأخبرته خبر القوم وأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... ﴾ الآيات * وجميع أقوال التفسير نحو هذا * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا ﴾ في الواحدي : أخبر سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال : غاب عمي أنس بن النضير وبه سميت أنا عن

قتال بدر ، فشق عليه لما قدم ، وقال : غبت عن أول مشهد شهده رسول الله ﷺ :
والله لئن أشهدني الله سبحانه قتالا ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف
المسلمون ، فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء المشركون . وأعتذر إليك مما
صنع هؤلاء يعني المسلمين . ثم مشى بسيفه فلقى سعد بن معاذ . فقال : أي سعد :
والذي نفسى بيده إني لأجد ريح الجنة دون أحد ، فقاتلهم حتى قتل ، قال أنس ،
فوجدناه بين القتلى به بضع وثمانون جراحة من بين ضربة بالسيف ، وطعنة بالرمح ،
ورمية بالسهم ، وقد مثلوا به ، وما عرفناه حتى عرفته أخته بينانه ، ونزلت هذه الآية :
﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ - قال : وكنا نقول أنزلت هذه
الآية فيه وفي أصحابه . رواه مسلم عن محمد بن حاتم عن بهز بن أسد . ورواه البخاري
عن بندار قال : نزلت هذه الآية في أنس بن النضر - ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا
ما عاهدوا الله عليه ... ﴾ * وفي الواحدي في قوله : ﴿ فمنهم من قضى نحبه ... ﴾
الآية نزلت في طلحة بن عبيد الله ثبت مع رسول الله ﷺ يوم أحد حتى أصيبت يده ،
فقال رسول الله ﷺ : « اللهم أوجب لطلحة الجنة » * وحدث الضحاك عن النزال بن
سبره عن علي قال : قالوا : أخبرنا عن طلحة ، قال ذلك امرؤ نزلت فيه آية من كتاب
الله : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ ... ﴾ طلحة ممن قضى نحبه لا حساب
عليه فيما يستقبل ، وفي رواية عيسى بن طلحة أن النبي ﷺ مر على طلحة فقال :
« هذا ممن قضى نحبه » . *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدْنَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ... ﴾ الآية * في الباب : أخرج مسلم . وأحمد والنسائي من
طريق ابن الزبير عن جابر قال : أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فلم يؤذن
له ، ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لهما فدخلا ، والنبي ﷺ جالس
وحوله نسائه ، وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك . فقال
عمر يا رسول الله : لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة ، أنفا فوجأت عنقها ،
فضحك النبي ﷺ حتى بدا ناجذه ، وقال : هن حولي يسألنني النفقة ، فقام أبو بكر
إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة . كلاهما يقول : تسألان النبي ﷺ ما ليس
عنده . وأنزل الله الخيار ، فبدأ بعائشة . فقال : إني ذاكر لك أمرا ما أحب أن تعجلني

فيه حتى تستأمرى أبويك . قالت : ما هو ؟ فتلا عليها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ ... ﴾ الآية . قالت عائشة : أفيك أستأمر أبوي ، بل أختار الله ورسوله * زاد المفسرون : قولها : وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى لم يبعثني مُعْتَفًا ولكن بعثني مُعَلِّمًا ميسراً ، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها » رواه مسلم والنسائي * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ في الباب أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة . قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب وهو يريد لها لزيد فظنت أنه يريد لها لنفسه . فلما علمت أنه يريد لها لزيد أبت فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ... ﴾ فرضيت وسلمت * وفي رواية عكرمة عن ابن عباس . خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فاستنكفت منه . وقالت : أنا خير منه حسبا . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ... ﴾ الآية * وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ، وكانت أول امرأة هاجرت من النساء ، فوهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فزوجها زيد بن حارثة ، فسخطت هي وأخوها . قالوا : إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فزوجنا عبده ، فنزلت الآية * وبقية الأقوال لا تخرج عن هذين القولين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَنَّ تُخْفَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ في لباب السيوطي : أخرج البخاري عن أنس أن هذه الآية : ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ نزلت في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة * وأخرج الحاكم عن أنس قال : جاء زيد بن حارثة يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أمسك عليك أهلك . فنزلت : ﴿ وَتُخْفِي مَا فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ * وأخرج مسلم وأحمد والنسائي . قال : لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

زيد : اذهب فاذكرها على ، فانطلق فأخبرها ، فقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربي ، فقامت إلى مسجدها . ونزل القرآن . وجاء رسول الله ﷺ . أطعمنا على الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام . فخرج رسول الله ﷺ واتبعته فجعل يتبع حجر نسائه ، ثم أخبر أن القوم قد خرجوا ، فانطلق حتى دخل البيت ، فذهبت أدخل معه ، فألقى الستر بيني وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعظ القوم بما وعظوا به : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ... ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ قال المفسرون : حين غار بعض نساء النبي ﷺ وآذينه بالغيرة ، وطلبن زيادة النفقة ، فهجرهن رسول الله ﷺ شهراً حتى نزلت آية التخيير ، وأمر الله تعالى ان يخيرهن بين الدنيا والآخرة . وأن يخلى سبيل من اختارت الدنيا ، ويمسك من اختارت الله سبحانه ورسوله على أنهن أمهات المؤمنين ، ولا ينحكن أبداً ، وعلى أن يؤى إليه من يشاء ويرجى منهن من يشاء ، فرضين به قسم لمن أو لم يقسم ، أو فضل بعضهن على بعض في النفقة والقسمة والعشرة ، ويكون الأمر في ذلك إليه يفعل ما يشاء . فرضين بذلك كله . فكان رسول الله ﷺ مع ما جعل الله تعالى له من التوسعة يسوى بينهن في القسمة * وروى البخاري عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ بعد ما نزلت — تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ — يستأذنا إذا كان في يوم المرأة منا ، قالت معاذة : ما كنت تقولين ؟ قالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلي لم أوتر أحدا على نفسي *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ ... ﴾ الآية . قال أكثر المفسرين : لما بنا رسول الله ﷺ بزینب بنت جحش أو لم عليها بتمر وسويق وذبح شاة . قال أنس : وبعثت إليه أمى : أم سليم بحيس في تور من حجارة ، فأمرني النبي ﷺ أن أدعوا أصحابه إلى الطعام ، فجعل القوم يجيئون فيأكلون فيخرجون ، ثم يجيء القوم ويأكلون ويخرجون ، فقلت يا نبي الله : قد دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه ، فقال : ارفعوا طعامكم ، فرفعوا ، وخرج القوم ، وبقي ثلاثة أنفار يتحدثون في البيت ، فأطالوا

المكث . فتأذى منهم رسول الله ﷺ . وكان شديد الحياء فنزلت هذه الآية ، وضرب رسول الله ﷺ بيني وبينه سترا . وهناك روايات أخرى في المعنى نفسه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِجُوا زُجَّاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ... ﴾ في الواحددي : قال ابن عباس في رواية عطاء : قال رجل من سادة قريش : لو توفى رسول الله ﷺ لتزوجت عائشة . فأنزل الله تعالى ما أنزل *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ في الواحددي : قال كعب بن عجرة قيل للنبي ﷺ قد عرفنا السلام عليك ، وكيف الصلاة عليك ، فنزلت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ... ﴾ * وقال الأصمعي : سمعت المهدي على منبر البصرة يقول : إن الله أمركم بأمر بدا به بنفسه ، وثنى بملائكته . فقال : إن الله وملائكته يصلون على النبي .. أثر ﷺ بها من بين الرسل ، واختصكم بها من بين الأنام ، فقابلوا نعمة الله بالشكر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ... ﴾ قال مجاهد : لما نزلت - ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ... ﴾ قال أبو بكر : ما أعطاك الله من خير إلا أشركنا فيه فنزلت - ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ... ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغير ما اكتسبوا ... ﴾ في الواحددي : قال عطاء عن ابن عباس : رأى عمر جارية من الأنصار متبرجة فضربها ، وكره ما رأى من زينتها ، فذهبت إلى أهلها تشكو عمر ، فخرجوا إليه فاذوه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي الخازن وغيره . قيل إنها نزلت في علي ابن أبي طالب كانوا يؤذونه ويسمعونه * وفيه : وقيل نزلت في شأن عائشة . وقيل نزلت في الزناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن ، فيتبعون المرأة ، فإن سكنت تبعوها ، وإن زجرتهم انتهوا عنها ، ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء . ولكن كانوا لا يعرفون الحرمة من الأمة لأن زى الكل كان واحد . تخرج الحرمة والأمة في درع وخمار . فشكوا ذلك إلى أزواجهن ، فذكرو ذلك لرسول

الله ﷺ . فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ... ﴾ الآية وكذا في
الواحدى *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ
الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ . ﴾ الآية في اللباب أخرج الترمذي
وحسنه ، والحاكم وصححه من طريق السدى عن أبي صالح عن ابن عباس عن أم هانئ
بنت أبي طالب قالت : خطبني رسول الله ﷺ . فاعتذرت إليه فعذرني ، فأنزل الله :
﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ .. إِلَى قَوْلِهِ : اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ... ﴾ فلم أكن أحل له لأنني لم
أهاجر وأخرج ابن أبي حاتم من طريق اسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي صالح عن أم هانئ
قالت : نزلت في هذه الآية : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ
خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ... ﴾ أي أحللنا لك ذلك زائدا على الأزواج اللاتي آتيت
أجورهن . على قول الجمهور *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ
بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ... ﴾ * في اللباب : أخرج
ابن سعد عن عكرمة قال : خير رسول الله ﷺ أزواجه فاخترن الله ورسوله فأنزل
الله : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ ... ﴾ الآية . وكذا في الخازن وغيره قولاً واحداً *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن
ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية . قال نزلت في الذين
طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي * وقال جوبير عن الضحاك عن ابن
عباس : أنزلت في عبد الله بن أبي وناس معه . قذفوا عائشة . فخطب النبي ﷺ
وقال : « من يعذرني من رجل يؤذيني . ويجمع في بيته من يؤذيني » فنزلت *

سورة سبأ وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَيِّئٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ... ﴾ في

اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال : حدثني فلان أن فروة بن مسيك العظفاني قدم على رسول الله ﷺ فقال يا نبي الله : إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز ، وإني أخشى أن يردوا عن الاسلام أفأقاتلهم ؟ فقال : ما أمرت فيهم بشيء بعد فأنزلت هذه الآية : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسِبْأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ ... ﴾ ولم أجد غيره .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قُرَيْشٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ في اللباب : وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سفيان عن عاصم عن ابن رزين قال : كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الشام وبقي الآخر ، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل ؟ فكتب إليه أنه يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم ، فترك تجارته ، ثم أتى صاحبه . فقال : دُلّني عليه ، وكان يقرأ بعض الكتب ، فأتى النبي ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ فقال : إلى كذا وكذا . فقال : أشهد أنك رسول الله ، فقال : وما علمك بذلك ؟ قال : إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم ، فنزلت هذه الآية . ولم أجد ما يعضده في التفاسير *

سورة فاطر وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ آتَىٰهُ مِنْهُ مَالٌ طَيِّبٌ لَقَدْ كَفَرَ يَكْفُرُهُمْ غَفْلًا شَدِيدًا وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا كَافِرُونَ ﴾ الآية : في اللباب : أخرج جويبر عن الضحاک عن ابن عباس قال : أنزلت هذه الآية حيث قال النبي ﷺ : اللهم أعز دينك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام ، فهدى الله عمر . وأضل أبا جهل . ففيها أنزلت * وفي الخازن : قال ابن عباس : نزلت في أبي جهل ومشركي مكة * وقيل : نزلت في أصحاب الأموال والبدع * ولا مانع من حملها على العموم .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ... ﴾ في اللباب : وأخرج عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس : أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي نزل فيه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ الآية . ولم أجد غيره في التفاسير

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ في اللباب : وأخرج البيهقي في البعث وابن أبي حاتم من طريق نفيح بن الحارث ، عن عبد الله بن أبي أوفى . قال : قال رجل للنبي ﷺ يا رسول الله : إن النوم مما يقرّ الله به أعيننا في الدنيا ، فهل في الجنة من نوم ؟ قال : لا ، إن النوم شريك الموت ، وليس في الجنة موت ، قال : فما راحتهم ؟ فأعظم ذلك رسول الله ﷺ وقال : ليس فيها لغوب . كل أمرهم راحة . فنزلت : ﴿ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ * أي لا يمسننا فيها عناء ولا إعياء الموجبة للنوم *

سورة يسّ وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَسّ ﴾ * إلى قوله : أمّ لم تُنذرهم لآ يؤمنون ﴾ في اللباب : أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في السجدة ، فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش ، حتى قاموا ليأخذوه ، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم ، وإذا بهم عمى لا يبصرون ، فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا : نشدك الله والرحم يا محمد : فدعا حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت : يسّ * والقرآن الحكيم . إلى قوله : أمّ لم تنذرهم لا يؤمنون ، قال : فلم يؤمن من ذلك نفر أحد * ولم يذكره أحد من المفسرين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْحَمُونَ ﴾ في اللباب : وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال : قال أبو جهل لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ * وعبارة الخازن : نزلت في أبي جهل وصاحبيه المخزومين . وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً ﷺ يصلي ليرضخن رأسه بالحجارة ، فأتاه وهو يصلي ، ومعه حجر ليدفقه به ، فلما رفعه اثنتت يده إلى عنقه ، ولزق الحجر بيده ، فلما رجع إلى أصحابه وأخبرهم بما رأى سقط الحجر ، فقال له رجل من بني مخزوم : أنا أقتله بهذا الحجر ، فأتاه وهو يصلي ليرميه بالحجر فأعمى الله تعالى بصره ،

فجعل يسمع صوته ولا يراه . فرجع إلى أصحابه فلم يرههم حتى نادوه ، فقالوا له : ما صنعت ؟ فقال : ما رأيته ولقد سمعت صوته ، وحال بيني وبينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه ، لو دنوت منه لأكلني ، فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً ... ﴾ * وكذا في القرطبي بحرفه ولفظه . *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ... ﴾ الآية . في الواحدي : قال أبو سعيد الخدري : كان بنو سلمة في ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فنزلت الآية : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ... ﴾ فقال النبي ﷺ : إن آثاركم تكتب فلم تنتقلون ؟ وفي رواية . عليكم منازلكم ، فإنما نكتب آثاركم * وكذا في الخازن عن أبي سعيد الخدري به . قال : أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد فكره رسول الله ﷺ أن تعرى المدينة ، فقال يا بني سلمة : ألا تحتسبون آثاركم فأقاموا * ولم يذكر النزول *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ... ﴾ في الواحدي : إن أبي بن خلف أتى النبي ﷺ بعظم حائل فقال يا محمد : أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رم ؟ فقال : نعم ويعثك ويدخلك في النار . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وكذا رواه الحاكم وصححه . قال : فنزلت الآيات : ﴿ أَو لَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ إِذَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ... ﴾ إلى آخر السورة * وأخرج ابن أبي حاتم من طرق عن مجاهد ، وعكرمة ، وعروة بن الزبير والسدي نحوه ، وسموا الإنسان أبي بن خلف . وكذا في الخازن وابن كثير وغيرهما .

سورة الصافات وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن قتادة قال : قال أبو جهل : يزعم صاحبكم هذا أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ، وإنا والله ما نعلم

الزقوم إلا التمر والزبد ، فأنزل الله حين عجبوا أن يكون في النار شجرة ﴿ إِنهَا تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ... ﴾ * أي أنهم لما سمعوا أنها في النار قالوا كيف ذلك . والنار تحرق الشجر ، ولم يعلموا أن من يقدر على خلق حيوان وهو السمندل يعيش في النار ، ويتلذذ بها يقدر على خلق الشجر في النار وحفظه منها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا ﴾ وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد قال : قال كبار قريش : الملائكة بنات الله ، فقال أبو بكر الصديق : فمن أمهاتهم ؟ قالوا : بنات سراة الجن فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي للنار . *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ في اللباب : وأخرج ابن جوير عن ابن عباس قال : قالوا يا محمد : أرنا العذاب الذي تخوفنا به ؟ عجله لنا . فنزلت : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ * ولم أعتز على غيره .

سورة ص - وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ص ﴾ * وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . إلى قوله : **إِنْ هَذَا اخْتِلاق** ﴿ في الواحدي : حدث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مرض أبو طالب ، فجاءت قريش ، وجاء النبي ﷺ ، وعند رأس أبي طالب مجلس رجل ، فقام أبو جهل كي يمنعه من ذلك . فشكوه إلى أبي طالب ، فقال يا ابن أخي : ما تريد

من قومك ؟ قال يا عم : إنما أريد منهم كلمة تذلل لهم بها العرب ، وتؤدى لهم الجزية بها العجم ، قال : كلمة واحدة ؟ قال : ما هي ؟ قال : لا إله إلا الله . فقالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً . قال : فنزل فيهم القرآن : ﴿ ص ﴾ . وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ . حتى بلغ : ﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلاق** ﴾ وفي اللباب : إلى قوله : ﴿ **بَلْ لَمَّا يَدُوْقُوا عَذَاب** ﴾ . وفي الواحدي : قال المفسرون : لما أسلم عمر بن الخطاب شق ذلك على قريش ، وفرح المؤمنون ، قال الوليد بن المغيرة لخصاص قريش . هم الصناديد والأشراف . امشوا إلى أبي طالب . فأتوه ، فقالوا له : أنت شيخنا

وكبيرنا ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء ، وإنما أتيناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فأرسل أبو طالب إلى النبي ﷺ ، فدعاه ، فقال يا بن أخي : هؤلاء قومك يسألونك ذا السؤال فلا تمل كل الميل على قومك . قال : وماذا يسألوني ؟ قالوا ارفضنا وارفض ذكر آهتنا وندعك وإلهك ، فقال النبي ﷺ : أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب ، وتدين كلم بها العجم : فقال أبو جهل : لله أبوك لنعطيكها وعشر أمثالها . فقال النبي ﷺ : قولوا لا إله إلا الله ، فنفروا من ذلك ، فقاموا . فقالوا : أجعل الآلهة إلهاً واحداً . كيف يسع الخلق إله واحد فأنزل الله فيهم هذه الآية : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نوح ... ﴾ *

سورة الزمر وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ... ﴾ في اللباب : أخرج ابن جوير عن ابن عباس قال في سبب نزول هذه الآية . أنزلت في ثلاثة أحياء : عامر وكنانة وبنو سلمة . كانوا يعبدون الأوثان . ويقولون : الملائكة بنات الله . فقالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى * ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَخْذُرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ... ﴾ الآية في الواحدي : قال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه * وقال ابن عمر : نزلت في عثمان بن عفان * وقال مقاتل : نزلت في عمار بن ياسر * وفي اللباب : وأخرج ابن جوير عن ابن عباس قال : نزلت في ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة * ولا مانع من نزولها في الكل . لأنها عامة في كل قانت . وهذه الأقوال المذكورة في الخازن بحرفها . وفي معناها في ابن كثير *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ... ﴾ قال ابن زيد : نزلت في ثلاثة أنفار كانوا في الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله . وهم : زيد بن عمرو وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي * وفي

القرطبي : روى أنها نزلت في عثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد وسعيد وطلحة
والزبير رضي الله عنهم سألو أبا بكر رضي الله عنه ، فأخبرهم بإيمانه فأمنوا * وفيه :
وقيل نزلت في عمرو بن نفيل وأبي ذر وغيرهما فمن وحد الله تعالى قبل مبعث النبي
ﷺ * وكذا القول في بقية التفاسير *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا
مَعَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ لِيْنٌ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ
اللَّهِ ... ﴾ في الواحددي : حدث مصعب بن سعد عن سعد قالوا يا رسول الله : لو
حدثتنا ؟ فأنزل الله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ... ﴾ الآية . ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ
بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ... ﴾ الآية . في اللباب : أخرج عبد الرازق عن معمر قال لي رجل :
قالوا للنبي ﷺ : لتكفن عن شتم آهتنا ، أو لنامرنها فلتخبلنك : فنزلت ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ
بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ... ﴾ وكذا في الجلال *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَلْسِنِهِمْ
لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ... ﴾ الآية . قال ابن عباس : نزلت في أهل مكة . قالوا :
يزعم محمد أن من عبد الأوثان ، وقتل النفس التي حرم الله لم يغفر له . فكيف نهاجر
ونسلم ، وقد عبدنا مع الله إلهنا آخر . وقتلنا النفس التي حرم الله . فأنزل الله تعالى هذه
الآية * وحدث يعلى بن مسلم أنه سمع سعيد بن جبیر يحدث عن ابن عباس : أن ناسا من
أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن
الذي تدعوا إليه لحسن أن نخبرنا لما عملناه كفارة . فنزلت هذه الآية : ﴿ يَا عِبَادِيَ
الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَلْسِنِهِمْ ... ﴾ الآية . ويروى أنها نزلت في وحشى قاتل حمزة .
وتقدم ذكر ذلك في آخر سورة الفرقان *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا
الْجَاهِلُونَ ﴾ في اللباب : وأخرج البيهقي في الدلائل عن الحسن البصرى قال : قال
المشركون للنبي ﷺ : أتفضل آباءك وأجدادك يا محمد ؟ فأنزل الله ﴿ قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ
تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ ... ﴾ الآية . وسيأتي الكلام عليها في سورة الكافرون إن شاء الله تعالى *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... ﴾ الآية في الواحدي : حدث الأعمش عن علقمة عن عبد الله قال : أتى النبي ﷺ رجل من أهل الكتاب . فقال يا أبا القاسم : بلغك أن الله يحمل الخلائق على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والثرى على أصبع ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ... ﴾ الآية * وفي اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : غدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة ، فلما فرغوا أخذوا يقدرونه . فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ... ﴾ * وأخرج عن سعيد بن جبير قال : تكلمت اليهود في صفة الرب ، فقالوا بما لم يعلموا ، ولم يروا . فأنزل الله الآية * وأخرج ابن المنذر عن الربيع بن أنس قال : لما نزلت : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... ﴾ قالوا يا رسول الله : هذا الكرسي هكذا فكيف العرش ؟ فأنزل الله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ الآية . في اللباب أخرج ابن أبي حاتم عن السدي ، عن مالك في قوله : ﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ قال : نزلت في الحارث بن قيس السهمي * وأخرج عن أبي العالية قال : جاءت اليهود إلى رسول الله ﷺ فذكروا الدجال ، فقالوا يكون منا في آخر الزمان ، فعظموا أمره ، وقالوا : يضع كذا ، فأنزل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ ... ﴾ فأمر نبيه أن يتعوذ من فتنة الدجال : ﴿ لَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ قال : من خلق الدجال *

سورة السجدة - فَصَّلَتْ - وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تُسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ... ﴾ الآية في الواحدي : حدث مجاهد عن أبي معمر ، عن ابن مسعود في هذه الآية قال : كان رجلان من ثقيف وختن لهما من قريش . أو رجلان من قريش وختن لهما من ثقيف في بيت ، فقال بعضهم : أترانا الله يسمع نجوانا أو حديثنا ؟ فقال

بعضهم : قد سمع بعضه ، ولم يسمع بعضه ، قالوا : لكن كان يسمع بعضه لقد سمع كله . فنزلت هذه الآية - ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ .. ﴾ رواه البخاري عن الحميدي ، ورواه مسلم عن أبي عمر وفي اللباب : أخرج الشيخان والترمذي وأحمد وغيرهم عن ابن مسعود قال : اختصم عند البيت ثلاثة نفر قرشيون ، وثقفي أو ثقفيان وقرشي ، فقال أحدهم : أترون الله يسمع ما نقول ؟ فقال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا . فأنزل الله : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ ﴾ الآية *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ... ﴾ الآية . قال عطاء عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في أبي بكر رضي الله عنه ، وذلك أن المشركين قالوا : ربنا الله والملائكة بناته ، وهؤلاء شفاعونا عند الله فلم يستقيموا . وقالت اليهود : ربنا الله : وعزير ابنه ، ومحمد ﷺ ليس بنبي ، فلم يستقيموا . وقال أبو بكر رضي الله عنه : ربنا الله وحده لا شريك له ، ومحمد ﷺ عبده ورسوله واستقام *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ... ﴾ في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن بشير بن فتح قال : نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر * وفي الخازن : وأخرج ابن المنذر عن بشير بن فتح قال : نزلت هذه الآية في أبي جهل وعمار بن ياسر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ... ﴾ الآية . في اللباب : وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : قالت قريش : لولا أنزل هذا القرآن أعجميا وعربيا فأنزل الله ﷻ ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ... ﴾ *

سورة الشورى وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُجَاجِرُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ ... ﴾ الآية في اللباب : أخرج ابن

المنذر عن عكرمة قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ... ﴾ قال المشركون بمكة لمن بين أظهرهم من المؤمنين : قد دخل الناس في دين الله أفواجا ، فأخرجوا من بين أظهرنا ، فعلام تقيمون بين أظهرنا ؟ فنزلت : ﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ ... ﴾ الآية .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ... ﴾ قال ابن عباس : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانت تنوبه نوابس وحقوق وليس في يده لذلك سعة ، فقال الأنصار : إن هذا الرجل قد هداكم الله به . وهو ابن اختكم ، وتنوبه نوابس وحقوق ، وليس في يده لذلك سعة فأجمعوا له من أموالكم ما لا يضركم ، فأتوه به ليعينه على ما ينوبه ، ففعلوا ، ثم أتوا به ، فقالوا يا رسول الله : إنك ابن أختنا ، وقد هداانا الله تعالى على يدك وتنوبك نوابس وحقوق ، وليست لك عندنا سعة ، فرأينا أن نجمع لك من أموالنا فنأتيك به فتستعين على ما ينوبك ، وهو هذا . فنزلت هذه الآية : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ... ﴾ وضغفه السيوطي في لبابه * وفي الخازن : وقيل إن هذه الآية منسوخة . وذلك لأنها نزلت بمكة ، وكان المشركون يؤذون رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فأمرهم فيها بمودة رسول الله ﷺ وصلته ورحمة ، فلما هاجر إلى المدينة ، وآواه الأنصار ونصروه أحب الله تعالى أن يلحقه بإخوانه من النبيين ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ... ﴾ فصارت هذه الآية ناسخة لقوله : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ يَحْتَسِبُ لَكُمْ إِيمَانَكُمْ وَأَنَّكُمْ عَلَى اللَّهِ حَكِيمُونَ ﴾ الأثر ... الآية . وذلك أنا نظرنا إلى أحوال قريظة والنضير فتمنينها ، فأنزل الله تبارك وتعالى : هذه الآية . وكذا في الخازن وغيره .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَخِيًّا ... ﴾ الآية . في الواحدي : وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ : ألا تكلم الله وتنظر إليه إن كنت نبيا كما كلم الله موسى ونظر إليه ، فإنا لن نؤمن بك حتى تفعل ذلك ، فقال : لم ينظر موسى إلى الله . وأنزلت هذه الآية * وكذا في الخازن .

سورة الزخرف وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانَا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ في اللباب : أخرج ابن المنذر عن قتادة . قال : قال ناس من المنافقين : إن الله صاهر الجن ، فخرجت من بينهم الملائكة فنزل فيهم : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانَا ... ﴾ * وفي الخطيب : قال الكلبي ومقاتل : لما قالوا هذا القول . سألهم النبي ﷺ فقال : ما يدريكم أنهم إناث ؟ قالوا سمعنا من آبائنا ، ونحن نشهد أنهم لم يكذبوا . فقال تعالى : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ * وكذا في الخازن *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : قال الوليد بن المغيرة : لو كان ما يقول محمد حقا أنزل على هذا القرآن ، أو على مسعود الثقفي . فنزلت * ومعناه في ابن كثير والخطيب : يعنون الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود بالطائف . قاله قتادة . وفي الخازن . وقيل : عتبة بن ربيعة من مكة ، وكنانة بن عبد ياليل الثقفي من الطائف *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي أن قريشا قالت : قيسوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه ، فقيضوا لأبي بكر طلحة ، فاتاه وهو في القوة ، فقال أبو بكر : إلام تدعوني ؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللات والعزى . قال أبو بكر : وما اللات ، وما العزى ، قال : وما العزى ؟ قال : بنات الله . قال أبو بكر : فمن أمهم ؟ فسكت طلحة فلم يجبه ؛ فقال طلحة لأصحابه : أجيئوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال طلحة : قم يا أبا بكر . أشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ * ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ

يَصُدُّونَ ﴿ في الواحدي : حدث ابن رزين عن أبي يحيى مولى ابن عفراء عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لقريش : يا معشر قريش لا خير في أحد يعبد من دون الله .. قالوا : أليس ترعم أن عيسى كان عبدا نبيا وعبدا صالحا ، فإن كان كما ترعم فهو كآلهتهم . فأنزل تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ... ﴾ وتقدم نظير هذا في آخر سورة الأنبياء عند قوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ... ﴾ والقصة في ابن كثير ج ٤ ص ١٣١ *

سورة الدخان وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ في اللباب : أخرج البخاري عن ابن مسعود قال : إن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى يوسف . فأصابهم قحط حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ... ﴾ فأتى رسول الله ﷺ فقيل يارسول الله : استسق الله لمضر فإنها قد هلكت فسقوا : فنزلت : ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ . يعنى يوم بدر * ونحوه في الخازن بدون ذكر النزول . وكذا في بقية التفاسير *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَيْمِ . ﴾ في لباب السيوطي : أخرج سعيد بن منصور عن أبي مالك قال : إن أبا جهل كان يأتي التمر والزبد فيقول : تزقموا فهذا الزقوم الذي يعدكم به محمد فنزلت : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَيْمِ ... ﴾ * ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ في اللباب : وأخرج الأموى في مغازيه عن عكرمة قال : لقي رسول الله ﷺ أبا جهل فقال : إن الله أمرني أن أقول لك : أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى . قال : فنزع ثوبه

من يده ، فقال : ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء . لقد علمت أني أمنع أهل البطحاء . وأنا العزيز الكريم . فقتله الله يوم بدر ، وأذله وعمره بكلمته ، ونزل فيه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . ﴾ * وكذا معناه في التفسير *

سورة الجاثية وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ... ﴾ الآية . قال ابن عباس : يريد عمر بن الخطاب خاصة . وأراد بالذين لا يرجون أيام الله عبد الله بن أبي . وذلك أنهم نزلوا في غزاة بني المصطلق على بئر يقال له المربع فأرسل عبد الله غلامه ليستقى الماء فأبطأ عليه ، فلما أتاه . قال : ما حسبك ؟ قال : غلام عمر قعد على قف البئر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبي وقرب أبي بكر ، وملأ لمولاه . فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك . فبلغ قوله عمر رضي الله عنه ، فاشتمل سيفه يريد التوجه إليه . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفي الخازن : قال ابن عباس : نزلت في عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من بني غفار شتمه بمكة ، فهمم عمر أن يبطش به . فأنزل الله هذه الآية . وأمره أن يعفو عنه * وقيل : نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة ، كانوا في أذى شديد من المشركين ، قبل أن يؤمروا بالقتال فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية . ثم نسخها بآية القتال *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ﴾ في اللباب : أخرج ابن المنذر وابن جرير عن سعيد بن جبيرة قال : كانت قريش تعبد الحجر حينما من الدهر فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأول وعبدوا الآخر . فأنزل الله تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ... ﴾ الآية * وكذا في الخازن بدون ذكر النزول *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ... ﴾ . في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة

قال : كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الدهر : الليل والنهار . فأنزل الله : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ... ﴾ * وكذا في القرطبي وغيره من التفاسير *

سورة الأحقاف وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاءِ مِنَ الرَّسْلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ... ﴾ قال الثعلبي عن أبي صالح عن ابن عباس : لما اشتد البلاء بأصحاب رسول الله ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء ، فقصها على أصحابه ، فاستشبروا بذلك ، ورأوا فيها فرجا مما هم فيه من أذى المشركين ، ثم إنهم مكثوا برهة لا يرون ذلك ، فقالوا يا رسول الله : متى نهاجر إلى الأرض التي رأيت ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ... ﴾ يعني لا أدري أخرج إلى الموضع الذي رأيت في منامي أولا ، ثم قال : إنما هو شيء رأيت في منامي ما أتبع إلا ما يوحى إلي * وفي القرطبي : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ يريد يوم القيامة . ولما نزلت فرح المشركون واليهود والمنافقون . وقالوا كيف نتبع نبيا لا يدري ما يفعل به ولا بنا ، وأنه لا فضل له علينا ، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعله به . فنزلت : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ . فنسخت هذه الآية ، وأرغم الله أنف الكفار . وقالت الصحابة هنيئا لك يا رسول الله . لقد بين الله لك ما يفعل بك ، فليت شعرنا ما هو فاعل بنا ، فنزلت ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ... ﴾ الآية . ونزلت : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ قاله أنس وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ... ﴾ الآية . في لباب السيوطي : أخرج الطبراني بسند صحيح عن عون بن مالك الأشجعي قال : انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم فقال لهم رسول الله ﷺ

يا معشر اليهود : أروني اثني عشر رجلا منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله يحط عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي حل عليه . فسكتوا ، فما أجاب منهم أحد ، ثم انصرف ، فإذا رجل من خلفه ، فقال : كما أنت يا محمد ، فاقبل ، فقال : أي رجل تعلموني منكم يا معشر اليهود . قالوا : والله ما نعلم فينا رجلاً كان أعلم بكتاب الله ولا أفقه منك ، ولا من أيبك قبلك ، ولا من جدك قبل أبيك ، قال : فإني أشهد أنه النبي الذي تجدون في التوراة ، قالوا : كذبت ، ثم ردوا عليه ، وقالوا فيه شراً فأنزل الله ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ... ﴾ الآية * وأخرج الشيخان عن سعد بن أبي وقاص قال : في عبد الله بن سلام نزلت : ﴿ وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ... ﴾ وكذا في ابن كثير . وغيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ... ﴾ . في اللباب : قال ناس من المشركين نحن أعز . ونحن ونحن ، فلو كان خيراً ما سبقنا إليه فلان وفلان . فنزل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ * وقد سماهم ابن كثير . فقال : يعنون بلالا وعمارا وصهيبا وخبابا رضي الله عنهم وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء ، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية * وفي اللباب أيضا : وأخرج ابن المنذر عن عون بن أبي شداد ، قال : كانت لعمر بن الخطاب أمة أسلمت قبله ، يقال لها زين . فكان عمر يضربها على إسلامها حتى يفتر ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان خيراً ما سبقتنا إليه زين . فأنزل الله في شأنها : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ... ﴾ والحمل على العموم أولى *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ... ﴾ . قال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وذلك أنه صحب رسول الله ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة ، ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة ، وهم يريدون الشام في التجارة فنزلوا منزلاً فيه سدرة فقعده رسول الله ﷺ ، ومضى أبو بكر إلى راهب هناك يسأله عن الدين ، فقال له : من الرجل الذي في ظل السدرة ؟ فقال : ذاك محمد بن عبد الله

بن عبد المطلب . قال : هذا والله نبي . وما استظل تحتها أحد بعد عيسى ابن مريم إلا حمد نبي الله ، فوقع في قلب أبي بكر اليقين والتصديق ، وكان لا يفارق رسول الله ﷺ في أسفاره وحضوره . فلما نبيء رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة ، وأبو بكر بن ثمان وثلاثين سنة . أسلم وصدق رسول الله ﷺ . فلما بلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ... * وفي الخازن : قيل نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص . وقد تقدمت القصة . وقيل : إنها على العموم . قال الخازن : والأصح أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وساق الذي ذكر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ مَا أُعِدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ حَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ... ﴾ الآية . في اللباب : نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر ، قال لأبويه . وكانا قد أسلما وأبى هو أن يسلم ، فكانا يأمرانه بالاسلام ، فإرد عليهما ويكذبهما ويقول : فأين فلان وأين فلان ؟ يعني مشايخ قريش ممن قد مات ، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه ، فنزل في توبته في هذه الآية : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ * لكن في البخاري من طريق يوسف بن ماهان . قال : قال مروان في عبد الرحمن بن أبي بكر . إن هذا الذي أنزل فيه ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري . وأخرج عبد الرزاق من طريق مكى . أنه سمع عائشة تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر . وقالت : إنما نزلت في فلان سميت رجلاً . قال الحافظ ابن حجر : ونفى عائشة أصح إسناداً وأولى بالقبول * والحق أن الآية لم ترد في شخص معين . بل المراد كل شخص يقول أمثال هذه المقالة فيدعوه أبواه إلى الايمان بالبعث وإلى الدين الصحيح فأبى وينكر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ ... ﴾ الآية في اللباب : وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : إن الجن هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن يبطن نخل فلما سمعوه قالوا : انصتوا وكانوا تسعة ؛ أحدهم : زوبعة . فأنزل الله ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِنَ الْجِنِّ ... ﴾ إلى قوله : ضلال مبين * وكذا في الجلال وابن كثير وغيرهما *

سورة محمد عليه الصلاة والسلام وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلُّ أَعْمَالَهُمْ ... ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم عن عباس في الآية . قال : هم أهل مكة نزلت فيهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات . قال : هم الأنصار *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ... ﴾ في الواحدي : ذكر ابن عباس أن هذه الآية نزلت يوم أحد ، ورسول الله ﷺ في الشعب ، وقد نشبت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون يومئذ : اعل هبل . ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل ، فقال المشركون : إن لنا العزى ولا عز لكم . فقال رسول الله ﷺ : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ في اللباب : وأخرج أبو يعلى عن ابن عباس قال : لما خرج رسول الله ﷺ تلقاء الغار نظر إلى مكة فقال : أنت أحب بلاد الله إلي ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك لم أخرج عنك ، فأنزل الله ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ... ﴾ الآية . وكذا في الخطيب وابن كثير . وبقية التفسير *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفا ... ﴾ الآية . في اللباب كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي ﷺ فيسمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه . ويسمعه المنافقون فلا يعونه ، فإذا خرجوا سألو المؤمنين ماذا قال آنفا فنزلت : ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ... ﴾ الآية . وفي الخطيب : روى مقاتل أن النبي ﷺ كان يحطب ويعيب المنافقين ، فإذا خرجوا من المسجد سألو عبد الله بن مسعود استهزاء ماذا قال محمد آنفا * أي الساعة الماضية القريبة . وكذا بقية الأقوال *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ... ﴾ في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم ومحمد بن نصر

المروزي في كتاب الصلاة عن أبي للعالية قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع من الشرك عمل . فنزل : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ فخافوا أي يبطل الذنب العمل * وكذا في ابن كثير والخطيب وغيرهما .

سورة الفتح وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخزومة ومروان بن الحكم قال : نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحديبية من أولها إلى آخرها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ في الواحدي : حدث قتادة عن أنس قال : لما رجعنا من غزوة الحديبية ، وقد حيل بيننا وبين نسكننا ، فنحن بين الحزن والكآبة ، أنزل الله عز وجل - : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ فقال رسول الله ﷺ : لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا وما فيها كلها * وقال عطاء عن ابن عباس : إن اليهود شتموا بالنبي ﷺ والمسلمين لما أنزل قوله : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بَكُمْ ﴾ وقالوا : كيف نتبع رجلاً لا يدري ما يفعل به ، فاشتد ذلك على النبي ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ * وفي اللباب : وأخرج الشيخان والترمذي والحاكم عن أنس قال : أنزلت على النبي ﷺ : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ مرجعه من الحديبية ، فقال النبي ﷺ : لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم ، فقالوا : هنيئاً لك يا رسول الله قد بين الله لك ماذا يفعل إلخ ... *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال : بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : البيعة البيعة . نزل روح القدس ، فسرنا إلى رسول الله ﷺ ، وهو تحت الشجرة سمرة فبايعناه ، فأنزل الله ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾

الآية . وسبب البيعة مشهور . روى البخاري من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشر مائة . والمشهور الذي رواه غير واحد أنهم كانوا أربع عشر مائة *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ... ﴾ الآية في الواحدي : حدث أحمد بن سلمة عن ثابت عن أنس ، أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم متسلحين يريدون غرة النبي ﷺ وأصحابه . فأخذهم أسراء فاستحياهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ... ﴾ الآية . وقال عبد الله مغل الهوني : كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن ، فيها نحن كذلك . إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم النبي ﷺ . فأخذ الله تعالى أبصارهم ، وقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال لهم رسول الله ﷺ هل جئتم في عهد أحد ؟ وهل جعل لكم أحد أماناً ؟ فقالوا : اللهم ، لا ، فحلى سبيلهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ... ﴾ الآية . ونحوه روى أحمد وابن أبي شيبه وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي في آخرين عن أنس *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيكُم مَّعْرَةً بَغَيْرِ عِلْمٍ ... ﴾ . في الباب : وأخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي جمعة : جنيد بن سبيع قال : قاتلت النبي ﷺ أول النهار كافراً ، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً ، وكنا ثلاثة رجال ، وسبع نسوة ، وفينا نزلت : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ ... ﴾ . وكذا في المراغي وابن كثير وغيرهما *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ... ﴾ الآية . في الباب : وأخرج الفريابي ، وعبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن مجاهد قال : أرى النبي ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين . فلما نحر الهدى

بالحدیبة . قال أصحابه : أين رؤياك يا رسول الله ؟ فنزلت : ﴿ لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ
الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ... ﴾ وكذا في التفاسير *

سورة الحجرات وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾ في الواحدي : حدث ابن جرير عن ابن أبي مليكة . أن عبد الله بن
الزبير . أخبره . أنه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ . فقال أبو بكر : أمر
القنقاع بن معبد . وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر : ما أردت إلا
خلافي . وقال عمر : ما أردتُ خلافتك . فتأريا حتى ارتفعت أصواتهما . فنزل في ذلك
قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَوْ
أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ... ﴾ رواه البخاري عن الحسن بن محمد
الصباح * وفي اللباب : وأخرج ابن المنذر عن الحسن . أن ناسا ذبحوا قبل رسول الله
ﷺ يوم النحر ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح ، فأنزل الله : ﴿ لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ ... ﴾ * وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الأضاحي بلفظ : ﴿ ذَبَحَ رَجُلٌ قَبْلَ
الصَّلَاةِ ... ﴾ فنزلت . * وأخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة : أن ناسا كانوا
يتقدمون الشهر فيصلومون قبل النبي ﷺ فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا
بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... ﴾ * وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن ناسا كانوا
يقولون لو أنزل كذا وكذا في كذا ، فأنزل الله : ﴿ لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ ﴾

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ
فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ... ﴾ . نزلت في ثابت بن قيس بن شماس . كان في أذنه وقر ،
وكان جهورى الصوت ، وكان إذا كلم اناسا جهر بصوته . فربما كان يكلم رسول الله
ﷺ فيتأذى بصوته . فأنزل الله تعالى هذه الآية * . وفي رواية جعفر بن سليمان
الضبي قال : أخبرنا ثابت عن أنس لما نزلت هذه الآية : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ
صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ . قال ثابت بن قيس : أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي ،

وأنا من أهل النار ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « هو في الجنة » رواه مسلم عن قطر بن نسير . وقال ابن أبي مليكة : كاد الخيران أن يهلكا : أبو بكر وعمر . رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم - وقد تقدم قبل أسطر - فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس ، وأشار الآخر برجل آخر - وقد علمت من هم - فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي ، وقال عمر : ما أردت خلافك ، وارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ... ﴾ الآية . وقال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه * وفي رواية ابن عباس : كان أبو بكر يكلم رسول الله ﷺ كأخي السرار . أي من شدة خفض صوته للنبي ﷺ .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ... ﴾ هناك روايات كثيرة عن ابن اسحاق في الموضوع . وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه فيما أورده غير واحد . ففي رواية أحمد أنه نادى رسول الله ﷺ فقال يا محمد يا محمد : وفي رواية يا رسول الله . فلم يجبه ، فقال يا رسول الله : إن حمدي لزين وإن ذمي لشين . فأنزل الله الآية . كذا في ابن كثير . وفي القرطبي : قال مجاهد وغيره : نزلت في أعراب بني تميم ، قدم وفد منهم على النبي ﷺ فدخلوا المسجد ، ونادوا النبي ﷺ من وراء الحجرات أن اخرج إلينا ، فإن مدحنا زين وذمنا شين ، وكانوا سبعين رجلا ، قدموا لعداء ذراري لهم ، وكان النبي ﷺ نام للقاتلة * وفيه : وقال مقاتل : كانوا تسعة نفر : قيس بن عاصم ، والزبرقان بن بدر ، والأقرع بن حابس ، وسويد بن هاشم ، وخالد بن مالك ، وعطاء بن حابس والقعقاع بن معبد ووكيع بن وكيع ، وعيينة بن حصن ، وهو الأحمق المطاع * وفي الخازن في رواية ابن عباس : فقدموا وقت الظهر ، ووافقوا رسول الله ﷺ قائلا في أهله . فلما رأتهم الذراري اجهضوا إلى آبائهم ليكون ، وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة ، فعملوا أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ فجعلوا ينادون الخ .. وهذا أصح ما ورد فيها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ * في ابن كثير : ذكر

كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حيث بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى المصطلق قال : وقد روى ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الامام أحمد في مسنده من رواية ملك بنى المصطلق . وهو الحارث بن ضرار بن أبي ضرار ، والد ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها . قال الامام أحمد : حدثنا محمد بن أبي سابق ، حدثنا عيسى بن دينار حدثني أنه سمع الحارث بن ضرار الخراعى رضي الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الاسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت يا رسول الله : أرجع إليهم فأدعوهم إلى الاسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي دفعت زكاته ، وترسل إلي يا رسول الله رسولا إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة استجاب له ، وبلغ الابان الذي أراد رسول الله ﷺ أن يبعث إليه ، احتبس عليه الرسول ولم يأت ، وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله ، فدعا سراوات قومه ، فقال لهم : إن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم كان قد وقت لي وقتا يرسل إلي رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق . أي خاف ، فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : إن الحارث قد منعني الزكاة ، وأراد قتلي ، فغضب رسول الله ﷺ ، وبعث البعث إلى الحارث رضي الله عنه ، وأقبل الحارث بأصحابه حتى استقبل البعث ، وفصل عن المدينة لقبهم الحارث ، فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيمهم ، قال لهم : إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك ، قال : ولم ؟ قالوا إن رسول الله ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة ، فزعم أنك منعت الزكاة ، وأردت قتله ، قال رضي الله عنه : لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما رأيته بته ، ولا أتاني فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال : « منعت الزكاة وأردت قتل رسولي » ؟ قال : لا ، والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني ، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول رسول الله ﷺ خشية أن يكون كانت سخطة من الله تعالى ورسوله : قال : فنزلت الحجرات : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَاءً ... ﴾ إلى قوله حكيم * وكذا في الواحدي في بعض رواياته *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ... ﴾ في الواحدي : حدث اسحاق بن اسرائيل عن معتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يحدث عن أنس قال : يا نبي الله : لو أتيت عبد الله بن أبي ، فانطلق إليه النبي ﷺ . قال : إليك عني . فوالله لقد آذاني نتن حمارك ، فقال رجل من الأنصار : لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك ، فغضب لعبد الله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما أصحابه ، وكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال ، فبلغنا أنه أنزلت فيهم - ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا ... ﴾ الآية رواه البخاري عن مسدد ، ورواه مسلم عن محمد بن عبد الأعلى كلاهما عن المعتمر * وفي اللباب : وأخرج ابن جرير ، وأبن أبي حاتم عن السدي قال : كان رجل من الأنصار يقال له عمران تحبه امرأة يقال لها أم زيد . وأن المرأة أرادت أن تزور أهلها ، فحسبها زوجها وجعلها في عليه له ، وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها ، وكان الرجل قد خرج فاستعان بأهله ، فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها ، فتدافعوا واجتلدوا بالنعال فنزلت فيهم هذه الآية : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا ... ﴾ * وأخرج عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية : نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة في حق بينهما ، فقال أحدهما للآخر : لآخذن عنوة . لكثرة عشيرته . وإن الآخر دعاه إلى النبي ﷺ فأبي فلم يزل الأمر حتى تدافعوا ، وحتى تناول بعضهم بعضا بالأيدي والنعال ، ولم يكن قتال بالسيوف * والأول أصح ، وأصح منه القول بالعموم .
للقاعدة : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ... ﴾ .
لنزول هذه الآية سبيان : الأول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ... ﴾ نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وذلك أنه كان في أذنه وقر فكان إذا أتى رسول الله ﷺ أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول . فجاء يوما وقد أخذ الناس مجالسهم ، فجعل يتخطى رقاب الناس . ويقول : تفسحوا تفسحوا . فقال له رجل : قد أصبت مجلسا فاجلس ، فجلس ثابت مغضبا ، فغمز الرجل فقال من هذا ؟ فقال : أنا فلان . فقال ثابت : ابن فلانة . وذكر أما كانت له يعير بها في الجاهلية . فنكس

الرجل رأسه استحياء * فأنزل الله تعالى هذه الآية : والثاني : نزلت في امرأتين من أزواج النبي ﷺ سخرتا من أم سلمة ، وذلك أنها ربطت حقوبها بسبينة ، وهي ثوب أبيض ، وسدلت طرفها خلفها ، فكانت تجره ، فقالت عائشة لحفصة انظري ما تجر خلفها كأنه لسان كلب ، فهذا كان سخريتهما * وقال انس : نزلت في نساء النبي ﷺ : عيرن أم سلمة بالقصر * وقال عكرمة عن ابن عباس : إن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت : إن النساء يعيرنني ويقلن يا يهودية بنت يهوديين ، فقال رسول الله ﷺ : هلا قلت : إن أبي هارون وإن عمي موسى ، وإن زوجي محمد . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ * في الواحدي : حدث الشعبي عن أبي جبيرة عن الضحاک عن أبيه وعمومه قالوا : قدم علينا النبي ﷺ ، فجعل الرجل يدعو للرجل يبنزه ، فيقال يا رسول الله إنه يكرهه فنزلت : ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ .. ﴾ وفي اللباب : أخرج أصحاب السنن الأربعة عن أبي جبيرة بن الضحاک قال : كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة فيدعى ببعضها فعسى أي يكره فنزلت : ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ... ﴾ وكذا في المراغي والحازن . قال الترمذي حديث حسن . وفي ابن كثير : ورواه أبو داود عن موسى بن اسماعيل عن وهيب عن داود به *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ * في لباب السيوطي : أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : زعموا أنها نزلت في سلمان الفارسي ، أكل ، ثم رقد فنفخ ، فذكر رجل أكله ورقاده . فنزلت . ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ... ﴾ الآية : في الواحدي : قال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس . وقوله في الرجل الذي لم يفسح له ابن فلانة . فقال رسول الله ﷺ : من الذاکر فلانة ؟ فقام ثابت ، فقال : أنا يا رسول الله . فقال : انظر في وجوه القوم ، فنظر فقال : ما رأيت يثابت ؟ فقال : رأيت أبيض وأحمر وأسود . قال : فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والتقوى . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وفيه . وقال مقاتل : لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله ﷺ بلالا حتى أذن على ظهر الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد بن أبي

العيص : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ؟ وقال سهيل بن عمرو : إن يرد الله شيئاً يغيره * وقال أبو سفيان : إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء . فأتى جبريل عليه السلام النبي ﷺ . وأخبره بما قالوا . فدعاهم وسألهم عما قالوا : فأقروا . فأنزل الله تعالى هذه الآية : وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال . والازدراء بالفقراء . وللواحدى أقوال غير ما ذكر . وفي اللباب : نزلت في أبي هند . أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجه امرأة منهم ، فقالوا يا رسول الله : نزوج بناتنا موالينا . فنزلت الآية . وما ذكر في الخازن والقرطبي وغيرهما *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قَل لَم نؤْمِنُوا وَلَكِن قَوْلُوا اسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ... ﴾ . في الواحدى : نزلت في أعراب من بني أسد ابن خزيمة . قدموا على رسول الله ﷺ المدينة في سنة جدبة ، وأظهروا الشاهدتين ، ولم يكونوا مؤمنين في السر . وأفسدوا طرق المدينة بالعدرات ، وأغلوا أسعارها ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ : أتيناك بالأنفال والعيال ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، فأعطنا من الصدقة ، وجعلوا يمينون عليه فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية إلى قوله : ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ اسْلَمُوا ... ﴾ وكذا في الخازن . وفي ابن كثير : عن ابن عباس رضي الله عنهما : قال : جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله : أسلمنا وقاتلتك العرب ، ولم نقاتلك ، فقال رسول الله ﷺ : إن فقههم قليل ، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم ، ونزلت هذه الآية : ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ اسْلَمُوا ... ﴾ الآية *

سورة ق وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ ﴾ * في الواحدى : حدث أبو بكر ابن عياش عن أبي سعد البقال عن عكرمة عن ابن عباس : أن اليهود أتت النبي ﷺ ، فسألت عن خلق السموات والأرض ، فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال

يوم الثلاثاء ، وخلق السموات يوم الأربعاء والخميس ، وخلق يوم الجمعة الشمس والقمر . قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش ، قالوا : قد أصبت لو تمت ثم استراح ، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً ، فنزلت - ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب . فاصبر على ما يقولون ... ﴾ ونحوه في ابن كثير عن قتادة ، وهو قول المفسرين كما في

سورة الذاريات وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ . في لباب السيوطي : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الحنفية أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأصابوا غيرا فجاء قوم بعد ما فرغوا فنزلت : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ ولم يوجد غيره .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ في اللباب : أخرج ابن منيع وابن راهويه والهيثم بن كليب في مسانيدهم من طريق مجاهد عن علي قال : لما نزلت ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ ولم يبق منا أحد إلا أيقن بالحكمة إذا أمر النبي ﷺ أن يتولى عنا فنزلت : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فطابت أنفسنا * وكذا في الخازن وهو قول المفسرين * وعبارتهم . لما نزلت هذه الآية - ﴿ فتول عنهم ... ﴾ حزن رسول الله ﷺ واشتد ذلك على أصحابه ، وظنوا أن الوحي قد انقطع ، وأن العذاب قد حضر . إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى عنهم فأنزل الله ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ فطابت نفوسهم بذلك *

سورة الطور وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أم يقولون شاعرٌ تتربصُ به ريباً المتوَبِّ * ﴾ في اللباب : أخرج ابن جرير عن ابن عباس أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ . قال قائل منهم : احبسوه في وثاق . ثم تربصوا به المنون حتى

يهلك كما هلك من قبل من الشعراء : زهير والنابعة ، فإنما هو كأحدهم فأنزل الله في ذلك ﴿ أم يقولون شاعر نتربصُ به رَبُّبُ المنون ﴾ *

سورة التجم ويان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ الآية . حدث الحارث بن زيد عن ثابت بن الحارث الأنصاري . قال : كانت اليهود تقول : إذ اهلك لهم صبي صغير : هو صديق . فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال : كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد ، فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَحِجَّةٌ فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ... ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ... ﴾ إلى آخر الآيات . في الواحدي : قال ابن عباس والسدي والكلبي والمسيب بن شريك : نزلت في عثمان بن عفان ، كان يتصدق وينفق بالخير . فقال له أخوه من الرضاعة : عبد الله بن أبي سرح : ما هذا الذي تصنع ؟! يوشك ألا يبقى لك شيء فقال عثمان : إن لي ذنوباً وخطايا ، وإني أطلب بما أصنع رضا الله سبحانه وتعالى ، وأرجوا عفوه ، فقال له عبد الله : أعطني ناقتك برحلتها وأنا أحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه ، وأشهد عليه ، وأمسك على بعض ما كان يصنع من الصدقة فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ... ﴾ إلى قوله : « يجزاه الجزاء الأوفى » . فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله * وقال مجاهد نزلت في الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه ، فغيره بعض المشركين ، وقال : لم تركت دين الأشياخ ، وضللتهم وزعمت أنهم في النار ؟ قال : إني خشيت عذاب الله . فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله سبحانه وتعالى ، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان له ، ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هذه الآية * وبقية الأقوال نحو ما ذكر *

سورة القمر وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ . في الواحدي : قال عبد الله بن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ . فقالت قريش : هذا سحر ابن أبي كبشة سحر كم . فاسألوه السفار . فسألوهم فقالوا : نعم ، قد رأينا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ وأخرج الشيخان والحاكم واللفظ له عن ابن مسعود قال : رأيت القمر منشقاً شقتين بمكة قبل مخرج النبي ﷺ ، فقالوا : سحر القمر . فنزلت ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ ﴾ في اللباب : وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قالوا يوم بدر : نحن جمع فنتنصر . فنزلت : ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ قال أبو هريرة : جاءت قريش يختصمون في

٢٠٥

القدر فأنزل الله تعالى - ﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ... ﴾ رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن سفيان . وقال عطاء : جاء أسقف نجران إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد : تزعم أن المعاصي بقدر ، والبحار بقدر ، والسماء بقدر ، وهذه الأمور تجرى بقدر ، فأما المعاصي فلا . فقال رسول الله ﷺ : أنتم خصماء الله . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ . إلى قوله : ﴿ إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ *

سورة الرحمن وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ * في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ . في كتاب العظمة عن عطاء . أن أبا بكر الصديق . ذكر ذات يوم القيامة والموازين والجنة والنار ، فقال : وددت أني كنت خضرا من هذه الخضرة تأتي على بهيمة تأكلني ، وإني لم أخلق فنزلت : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ * . وهناك روايات تدل على أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه * وهي عامة في كل من يخاف قيامه بين يديه للحساب فترك معصيته *

سورة الواقعة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ... ﴾ . أخرج مسلم عن ابن عباس قال : أمطر الناس على عهد رسول الله ﷺ - فقال رسول الله ﷺ : أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر . قالوا : هذه رحمة وضعها الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نؤ كذا . فنزلت هذه الآيات : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ . حتى بلغ : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ ﴾ .

سورة الحديد وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ ... ﴾ * في الواحدي : قال ابن عمر بينما النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر الصديق ، وعليه عباءة قد خلها على صدره بخلال إذ نزل عليه جبريل عليه السلام . فأقرأه من الله السلام . وقال يا محمد : مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلها على صدره بخلال ، قال يا جبريل أنفق ماله قبل الفتح علي . قال : فأقرئه من الله سبحانه وتعالى السلام ، وقل له : يقول لك ربك : أراضى أنت في مقرك هذا أم ساخط ؟ فالتفت النبي

ﷺ إلى أبي بكر فقال : يا أبا بكر : هذا جبريل يقرئك من الله سبحانه السلام ، ويقول لك ربك : أراض أنت في مقرك هذا أم ساخط ؟ فبكى أبو بكر ، وقال : على ربي أغضب ؟ أنا عن ربي راض ، أنا عن ربي راض * ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ... ﴾ . في الواحدي : قال الكلبي ومقاتل : نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة ، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا : حدثنا عما في التوراة ، فإن فيها العجائب . فنزلت هذه الآية * وقال غيرها نزلت في المؤمنين * وفي اللباب : أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد العزيز عن ابن رواد ، عن أصحاب النبي ﷺ : ظهر فيهم المزاح والضحك فنزلت : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ... ﴾ وفي المراغي : روى ابن مسعود أنه قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد أن كانوا في جهد جهيد ، فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه ، فعوتبوا فنزلت * وفيه : وعن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن : فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ... ﴾ الآية أي ألم يأت وقته ؟

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاْمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ... ﴾ * في لباب السيوطي : وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : لما نزلت : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ... ﴾ الآية . ففخر مؤمنوا أهل الكتاب على أصحاب النبي ﷺ . فقالوا : لنا أجران ولكم أجر ، فاشتد ذلك على الصحابة ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ... ﴾ الآية * . ولم أجد غيره وهو في المراغي بحرفه ولفظه .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء ... ﴾ . الآية . في اللباب : وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : بلغنا أنه لما نزلت : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ... ﴾ حسد أهل الكتاب المسلمين عليها ، فأنزل الله : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ... ﴾ الآية . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال : قالت اليهود : يوشك أن يخرج منا نبي فيقطع الأيدي والأرجل . فلما خرج من العرب كفروا . فأنزل الله : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ... ﴾ يعني بالفضل والنوبة * ونحوه في الخازن *

سورة المجادلة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ... ﴾ الآيات : في الواحدي : حدث عروة عن عائشة قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء . إني لأسمع فكلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفي علي بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهي تقول يا رسول الله : أبلئ شباي ، ونثرت له بطني ، حتى إذ كبر سني ، وانقطع ولدى ظاهر مني : اللهم إني أشكو إليك . قال : فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ... ﴾ الآية . وقصتها في القرطبي والغازن بطولها فمن أحب الاطلاع عليها فليرجع إلى أحدهما *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ... ﴾ في الآية . في الواحدي : قال ابن عباس ومجاهد : نزلت في اليهود والمنافقين ، وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم دون المؤمنين ، ويتغامزون بأعينهم ، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا : ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السريا قتل أو موت ، أو مصيبة أو هزيمة ، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم ، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم . فلما طال ذلك وكثر شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فأمرهم أن يتناجوا دون المسلمين ، فلم ينتهوا عن ذلك ، وعادوا إلى مناجاتهم فأنزل الله تعالى هذه الآيات * وفي اللباب : وأخرج أبي حاتم عن مقاتل بن حبان قال : كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادة ، فكانوا إذا مر بهم رجل من أصحابه جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله ، أو ربما يكرهه ، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا فأنزل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ... ﴾ وهكذا بقية الأقوال في التفاسير مع اختلاف أحيانا في التعبير *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاؤُكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ... ﴾ الآية . في الواحدي : حدث مسروق عن عائشة قالت : جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا : السَّامُ عليك يا أبا القاسم - يعنون الموت - فقلت : السام

عليكم . وفعل الله بكم فقال رسول الله ﷺ : مه يا عائشة فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش ، فقلت يا رسول الله : أأست تدرى ما يقولون ؟ قال : أأست ترين أرد عليهم ما يقولون . أقول وعليكم ، ونزلت هذه الآية في ذلك . ﴿ وإذا جاؤك حيوك بما لَمْ يحيك به الله ... ﴾ الآية . وهكذا بقية الأقوال *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس ... ﴾ الآية في اللباب والمراعي والكرخي والحازن ... * أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان قال : كان رسول الله ﷺ يوم الجمعة في الصفة . وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء ناس منهم ثابت بن قيس ، وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله ﷺ ، فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي ﷺ ، ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ ، فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ، قم يا فلان ، فأقام نقرأ بمقدار من قدم ، فشق ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته في وجوههم ، وطعن المنافقون وقالوا : والله ما عدل على هؤلاء ، إن قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرى منه أقامهم وأجلس من أبطأ عنه فنزلت الآية »

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ... ﴾ الآية : في الواحدي : قال مقاتل بن حبان : نزلت الآية في الأغنياء ، وذلك أنهم كانوا يأتون النبي ﷺ فيكثر من مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس حتى مل رسول الله ﷺ ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية ، وأمر بالصدقة عند المناجاة ، فأما أهل العسرة فلم يجدوا شيئاً وأما أهل الميسرة فبخلوا واشتد ذلك على أصحاب النبي ﷺ ، فنزلت الرخصة . وقال علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ... ﴾ كان لي دينار فبعته ، وكنت إذا ناجيت الرسول تصدقت بدرهم حتى نفذ ، فنسخت بالآية الأخرى : ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة ... ﴾ وفي اللباب : وأخرج من طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه ، فأراد

الله أن يخفف عن نبيه فأنزل ﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ... ﴾ الآية . وهناك أحاديث كثيرة في الموضوع منها الصحيحة والحسنة .
وأكتفى بما ذكرت ففيه الكفاية في الفهم والدراية *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ... ﴾ الآية : إلى قوله : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ في الواحدي : قال السدي ومقاتل : نزلت في عبد الله بن نبتل المنافق كان يجالس النبي ﷺ ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينما رسول الله ﷺ في جحره إذ قال : يدخل الآن عليكم رجل قلبه جبار ، وينظر بعين شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل ، وكان أزرق ، فقال له رسول الله ﷺ : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ذلك . فقال النبي ﷺ : فعلت ، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وكذا في الخازن ، وفي رواية ابن عباس : فقال رسول الله ﷺ : علام تشتمني أنت وفلان وفلان . نفر دعا بأسمائهم ، فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا بالله واعتذروا إليه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ * رواه الحاكم في صحيحه عن الأصم عن أبي عفان عن عمرو العنصرى عن إسرائيل ، عن سماك *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾ * في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال : نزلت هذه الآية في ابي عبيدة بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا ... ﴾ الآية . وفي الواحدي : وروى عن ابن مسعود أنه قال : نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد . وفي أبي بكر دعا ابنه يوم بدر إلى البراز ، فقال يا رسول الله : دعنى أكن في الرعدة الأولى . فقال رسول الله ﷺ : متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندي بمنزلة سمعي وبصري . وفي مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يوم أحد ، وفي عمر قتل خاله العاصى بن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وفي علي وحمة قتلوا عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر ، وذلك قوله : ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ *

سورة الحشر وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ... ﴾ الآية في الواحددي : قال المفسرون : نزلت الآية في بني النضير ، وذلك أن النبي ﷺ لما قدم المدينة صالح بنو النضير على أن لا يقاتلوه ، ولا يقاتلوا معه ، وقبل رسول الله ﷺ منهم ، فلما غزا رسول الله ﷺ بدرًا وظهر على المشركين . قالت بنو النضير : والله إنه لنبي الذي وجدنا نعته في التوراة لا ترد له راية ، فلما غزا أحد وهزم المسلمون نقضوا العهد ، وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين ، فحاصروهم رسول الله ﷺ ، ثم صالحهم عن الجلاء من المدينة ، وهناك روايات كثيرة في كتب التفسير والسير . أكتفى بما ذكرت للاختصار .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴾ الآية * لما نزل بنو النضير ، وتحصنوا في حصونهم أمر بقطع نخيلهم وإحراقها ، فجزع أعداء الله عند ذلك ، وقالوا : زعمت يا محمد أنك تريد الصلاح ، أفمن الصلاح عقر الشجر المثمر وقطع النخيل ؟ وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض ؟ فشق ذلك على النبي ﷺ ، فوجد المسلمون في أنفسهم من قولهم ، وخشوا أن يكون ذلك فسادا في ذلك ، فقال بعضهم : لا تقطعوا فإنه مما أفاء الله علينا ، وقال بعضهم : بل اقطعوا فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ... ﴾ تصديقا لمن نهي عن قطعه ، وتحليلا لمن قطعه ، وأخبر أن قطعه وتركه بإذن الله * وفي رواية للشيخين عن قتيبة أن رسول الله ﷺ حرق نخل النضير وقطع ، وهي البويرة ، فأنزل الله - ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا ... ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ... ﴾ الآية . في الواحددي : روى جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم أن الأنصار قالوا يا رسول الله : اقسم الثمرة بيننا وبين إخواننا من المهاجرين والأرض

نصفين . قال : ولكنهم يكفونكم المؤونة . وتقاسمونها الثمرة ، والأرض أرضكم . قالوا : رضينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ... ﴾ الآية .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ... ﴾ * في الواحدي : حدث فضيل بن غزوان بن أبي حازم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ دفع إلى رجل من الأنصار رجلا من أهل الصفة ، فذهب به الأنصاري إلى أهله . فقال للمرأة : هل من شيء ؟ قالت : لا ، إلا قوت الصبية . قال : فنوميهم ، فإذا ناموا فأتيني ، فإذا وضعت فاطفيء السراج . قال : ففعلت ، وجعل الأنصاري يقدم إلى ضيفه ما بين يديه ، ثم غدا به إلى رسول الله ﷺ . فقال : لقد عجب من فعالكما أهل السماء . ونزلت : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ... ﴾ رواه البخاري عن مسدد عن عبد الله بن داود . ورواه مسلم عن أبي كريب عن وكيع ، فكلهما عن فضيل بن غزوان . وفي رواية عبد الله بن الوليد عن محارب بن دثار ، عن عبد الله بن عمر قال : أهدى لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة ، فقال : إن أخي فلانا وعياله أحوج إلى هذا منا ، فبعث به إليه ، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى تداوله سبعة أهل أبيات حتى رجعت إلى أولئك قال : فنزلت : ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ الآية : في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : أسلم ناس من أهل قريظة ، وكان فيهم منافقون ، وكانوا يقولون لأهل النصير : لئن أخرجتم لنخرجن معكم .. فنزلت الآية فيهم *

سورة الممتحنة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوِّيكُمْ أَوْلِيَاءَ ... ﴾ . الآية . قال جماعة من المفسرين : نزلت في حاطب بن بلتعة ، وذلك أن سارة مولاة بن أبي صهيب بن هشام بن عبد مناف . أتت رسول الله ﷺ من

مكة إلى المدينة ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة ، فقال لها : أمسلمة جئت ؟ قالت : لا ، قال : فما جاء بك ؟ قالت : أنتم الأهل والعشيرة والموالي ، وقد احتجت حاجة شديدة ، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني . قال لها : فأين أنت من شباب أهل مكة ؟ وكانت مغنية . قالت : ما طلب مني شيء بعد وقعت بدر . فحث رسول الله ﷺ بنى عبد المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها . فأتاها حاطب بن أبي بلتعة ، وكتب معها إلى أهل مكة ، وأعطهاها عشرة دنانير على أن توصله لأهل مكة ، وكتب في الكتاب : من حاطب إلى أهل مكة . إن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذرکم ، فخرجت سارة . ونزل جبريل عليه السلام . فأخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب ، فبعث رسول الله ﷺ عليا وعمارا والزبير وطلحة والمقداد بن الأسود ، وأبو مرثد ، وكانوا كلهم فرسانا ، وقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن فيها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها واخلوا سبيلها ، فإن لم تدفعه فاضربوا عنقها ، فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان ، فقالوا لها : أين الكتاب ؟ فحلفت بالله ما معها كتاب ، ففتشوا متاعها ، فلم يجدوا معها كتاباً ، فهموا بالرجوع ، فقال علي : والله ما كذبتنا ولا كذبنا رسول الله ، وسل سيفه ، وقال : اخرجي الكتاب وإلا والله لأجزرنك ولأضربن عنقك . فلما رأته الجدة أخرجته من زوايتها قد خبأتها في شعرها . فخلوا سبيلها ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ . فأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فأتاه . فقال : هل تعرف الكتاب ؟ قال : نعم ، قال : فما حملك على

ما صنعت ؟ فقال يا رسول الله : والله ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أجبتهم منذ فارقتهم ، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنع عشيرته ، وكنت غريباً فيهم ، وكان أهلي بين ظهرانيتهم ، فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً ، وقد علمت أن الله ينزل بهم بأسه ، وكتابي لا يغني عنهم شيئاً فصدقه رسول الله ﷺ وعذره . فنزلت هذه السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ... ﴾ . فقام عمر بن الخطاب فقال : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . رواه البخاري ومسلم بالفاظ تقارب هذه الرواية * وكذا في القرطبي والحازن بحرفه ولفظه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ
وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... ﴾ إلى
قوله : ﴿ مَوَدَّة ﴾ قال الواحدي : لما نزلت هذه الآية عاد المؤمنون أقرباءهم المشركين
في الله وأظهروا لهم العداوة والبراءة ، وعلم الله تعالى شدة وجد المؤمنين بذلك ، فأُنزل
الله - ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ... ﴾ ثم فعل ذلك
بأن أسلم كثير منهم ، وصاروا لهم أولياء وإخوانا ، وخالطوهم ، وتزوج رسول الله
ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، فلان لهم أبو سفيان ، وبلغه ذلك الفحل
لا يقرع أنفه *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي
الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ... ﴾ * في الواحدي :
روى عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قدمت قتيبة بنت عبد العزى على ابنتها
أسماء بنت أبي بكر هدايا وضياب وسمن وأقط ، فلم تقبل هداياها ولم تدخلها منزلها ،
فسألت لها عائشة النبي ﷺ عن ذلك ، فقال : ﴿ لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ
يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ * فأذن في برهم حكاه المفسرون . وهل هي منسوخة أو محكمة ؟
قال أكثر أهل التأويل : هي محكمة واحتجوا بما ذكر ، أن أسماء بنت أبي بكر الصديق
سألت النبي ﷺ هل تصل أمها حين قدمت عليها مشركة . قال : نعم ، خرجه
البخاري ومسلم * وكذا في اللباب . والقرطبي *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ
مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ... ﴾ الآية . في الواحدي : قال ابن عباس :
إن مشركي مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة رده
إليهم ، ومن أتى من أهل مكة من أصحابه فهو لهم . وكتبوا بذلك الكتاب وختموه ،
فجاءت سبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب والنبي ﷺ بالحديبية ،
فأقبل زوجها وكان كافراً ، فقال يا محمد : رد علي امرأتي فإنك قد شرطت لنا أن ترد
علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تحف بعد . فأُنزل الله تعالى هذه الآية .
وهكذا فحوى الأقوال في التفاسير وهو بلفظه وحرفه في الخطيب . وفي البيضاوي :

فاستحلفها رسول الله ﷺ فحلفت ، فأعطى زوجها ما أنفق ، وتزوجها عمر بن الخطاب *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ ﴾ . في اللباب : وأخرج ابن منيع من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : أسلم عمر بن الخطاب ، فتأخرت امرأته في المشركين ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ ﴾ * أي زوجاتكم لقطع إسلامكم لها هذا إذا كانت مشركة تعبد الأصنام .. أما إذا كانت كتابية لا ينقطع نكاحها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَمْسُوكُمْ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَمْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ * في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن طريق ابن اسحاق عن محمد عن عكرمة ، وأبو سعيد عن ابن عباس قال : كان عبد الله بن عمر وزيد بن الحارث يودون رجلا من اليهود ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ... ﴾ * وفي الكرخي سبب نزولها . أن ناسا من فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود بأخبار المسلمين ليصيبوا من ثمارهم * وكذا في الخازن *

سورة الصف وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ * . في الواحدي : عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفر من أصحاب النبي ﷺ ، وقلنا : لو نعلم أي أحب إلى الله تبارك وتعالى عملناه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ إلى قوله - ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ - إلى آخر السورة . فقرأها علينا رسول الله ﷺ . وفي الخازن : قال المفسرون : لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه ، ولبدلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ وأنزل : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ ... ﴾ الآية فاختبروا بذلك

يوم أحد فولوا مدبرين . وكرهوا الموت ، وأحبوا الحياة فأَنْزَلَ اللهُ تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ونحوه في القرطبي * وهي في اللباب *

سورة الجمعة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ... ﴾ في الواحدي : روى حصين بن عبد الرحمن عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الرحمن قال : كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذا أقبلت غير قدمت ، فخرجوا إليها حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً فأَنْزَلَ اللهُ تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً ... ﴾ الآية رواه البخاري عن حفص بن عمر عن خالد بن عبد الله عن حصين * وقال المفسرون : أصاب أهل المدينة أصحاب الضرار جوع وغلاء سعر ، فقدم دحية بن خليفة الكلبي في تجارة من الشام ، وضرب لها طبل يؤذن الناس بقدمه ، ورسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة ، فخرج إليه الناس فلم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلاً منهم أبو بكر وعمر ، فنزلت الآية . فقال النبي ﷺ : والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبق أحد منكم لسال بكم الوادي ناراً . رواه البخاري في كتاب الجمعة عن معاوية بن عمر ، وعن زائدة كلاهما عن حصين . وفي اللباب : وأخرج ابن جرير قال : كان الجوارى إذا نكحو كانوا يملكون بالمكبر والمزامر ، ويتركون النبي ﷺ . قائماً على المنبر ، وينفضون إليها فنزلت : قال السيوطي : وكأنها نزلت في الأمرين معاً ، وقال : ثم رأيت ابن المنذر أخرجه عن جابر لقصة النكاح ، وقدم العير معاً من طريق واحد . وأنها نزلت في الأمرين *

سورة المنافقون وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر أهل التفسير والسير غزا رسول الله ﷺ بني المصطلق ، فنزل على ماء من مياههم يقال له المُرَيْسِع ، فوردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير من بني

غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود فرسه ، فازدحم جهجاه و سنان الجهني حليف بن العوف من الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني يا معشر الأنصار : وصرخ الغفاري يا معشر المهاجرين فلما أن جاء عبد الله بن أبي قال ابنه : وراءك . قال : مالك ويلك . قال : لا والله لا تدخلها أبداً إلا بإذن رسول الله ﷺ ما صنع ابنه ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ . فدخل ونزلت هذه وبان كذبه . قيل له : يا أبا حباب إنه قد نزلت فيك آى شداد ، فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك ، فلوى رأسه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ ... ﴾ الآية * . وفي القرطبي روى زيد بن أرقم قال : كنت مع عمي ، فسمعت عبد الله بن أبي بن سلول يقول : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمي ، فذكر ذلك عمي لرسول الله ﷺ ، فأرسل رسولاً إلى عبد الله بن أبي وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا فصدقهم رسول الله ﷺ وكذبتني ، فأصابني هم لم يصبني مثله . فجلست في بيتي فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزَّ مِنْهَا الْأَذْلَ ﴾ . فأرسل إلي رسول الله ﷺ ، ثم قال : إن الله قد صدقك . خرجه الترمذي . وقال : حديث حسن صحيح *

سورة التغابن وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ... ﴾ الآية . في الواحدي : قال ابن عباس : كان الرجل يسلم فإذا أراد أن يهاجر منعه أهله وولده . وقالوا : ننشدك الله أن تذهب فتدع أهلك وعشيرتك وتصير إلى المدينة بلا أهل ولا مال ، فمنهم من يرق لهم ويقيم ولا يهاجر . فأنزل الله تعالى هذه الآية * . وفي الخازن عن ابن عباس أن رجلاً أسلموا من أهل مكة ، وأرادوا أن يهاجروا إلى النبي ﷺ فمنعهم أزواجهم وأولادهم . وقالوا لهم . صبرنا على إسلامكم فلا صبر لنا على فراقكم فأطاعوهم وتركوا الهجرة * وفيه . وقال عطاء بن

يسار : نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد . فأراد أن يغزو . فبكوا إليه ورققوه ، وقالوا له إلى من تدعنا فرق عليهم وأقام عن الغزو *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ * في الواحددي : قال عكرمة عن ابن عباس : وهؤلاء الذين منعهم أهلهم عن الهجرة لما هاجروا . ورأوا الناس قد فقهوا في الدين . هموا أن يعاقبوا أهلهم الذين منعهم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا ... ﴾ الآية . أي يعاقبوا أهلهم بترك الانفاق عليهم *

سورة الطلاق وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ . الآية . في الواحددي : والقرطبي روى قتادة عن ابن عباس قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل له راجعها فإنها صوامة قوامة ، وهي من إحدى أزواجك ونسائك في الجنة * وقال السدي : نزلت في عبد الله بن عمر . ذلك أنه طلق امرأته حائضا . فأمره رسول الله ﷺ أن يراجعها ويمسكها حتى تطهر ثم تحيض حيضة أخرى ، فإذا طهرت طلقها إن شاء . قبل أن يجامعها . فإنها العدة التي أمر الله بها *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴾ * في الواحددي وفي الخطيب : قال أكثر المفسرين : نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي . أسر المشركون ابنا له يسمى سالما ، فأتي عوف إلى رسول الله ﷺ يشتكى إليه الفاقة . وقال : إن العدو أسر ابني وجزعت الأم فما تأمرني . فقال رسول الله ﷺ : اتق الله واصبر . وأمرك وإياها أن تستكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله . فعاد إلى بيته ، وقال لامرأته : إن رسول الله ﷺ أمرني وإياك أن نكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فقالت : نعم ما أمر به ، فجعلا يقولان ، فغفل العدو عن ابنه فساق غنمهم ، وجاء بها إلى المدينة ، وهي أربعة آلاف شاة ، فنزلت الآية ، وجعل النبي ﷺ تلك الأغنام له *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ يَسْئَرُ مِنْ الْخَيْضِ مِنْ نِسَاءِكُمْ إِنَّكُمْ لَرَبُّنَّكُمْ قَعِدْتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ ﴾ الآية . في الكرخي : لما نزل بيان عدة ذوات الأقران في سورة البقرة . قال بعض الصحابة : قد بقي الكبار ، والصغار لا يدري كم عدتهن فنزلت هذه الآية على هذا السبب * وفي الواحدي : قال مقاتل : لما نزلت : ﴿ وَالْمَطْلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ الآية قال خلاد بن النعمان بن قيس الأنصاري يا رسول الله : فما عدة التي تحيض وعدة التي لم تحض ، وعدة الحلبى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية *

سورة التحريم وبيان ما فيها من سبب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبِعْتِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرِجَالُكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ... ﴾ . في الخطيب : أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه ، فلما كان يوم حفصة استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها ، فأذن لها ، فلما خرجت أرسل إلى جاريتها مارية القبطية التي أهداها له المقوقس ملك مصر . فأدخلها بيت حفصة فوقع عليها ، فلما رجعت حفصة ، وجدت الباب مغلقاً ، فجلست عند الباب فخرج النبي ﷺ ووجهه يقطر عرقاً وحفصة تبكى ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقالت : إنما أذنت لي من أجل ذلك !! أدخلت أمتك بيتي ، ثم وقعت عليها في يومي على فراشي . أما رأيت لي حرمة وحقاً . فقال : أليست هي جاريتي قد أحلها الله لي . وهي حرام علي . أتمس بذلك رضاك . ولا تخبرى امرأة منهن ، فلما خرج قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين عائشة ، فقالت : ألا أبشرك أن رسول الله قد حرم عليه أمته مارية ، وأن الله قد أراحنا منها . وأخبرتها بما رأته ، وكانت متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي ﷺ . فنزلت الآية . وهناك روايات كثيرة متفقة المعنى متقاربة اللفظ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا ... ﴾ الآية * في الواحدي : حدث الزهري عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : وجدت رسول الله ﷺ مع أم ابراهيم في يوم عائشة ، فقالت لأخبرتها ،

فقال رسول الله ﷺ هي علي حرام إن قربتها ، فأخبرت عائشة بذلك ، فأعلم الله رسوله ذلك . فعرف حفصة بعض ما قالت ، فقالت له : من أخبرك ؟ قال : نبأني العليم الخبير . فآلى رسول الله ﷺ من نسائه شهراً . فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا ... ﴾ الآية * أي مالت إلى تحريم مارية . أي سرّاً ذلك مع كراهة النبي ﷺ له ، وذلك ذنب أمرها الله بالتوبة منه *

سورة الملك وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ ... ﴾ الآية * في الواحددي : قال ابن عباس : نزلت في المشركين ، كانوا ينالون من رسول الله ﷺ ، فخبره جبريل عليه السلام بما قالوا فيه ، ونالوا منه ، فيقول بعضهم لبعض : أسروا قولكم لئلا يسمع محمد ، فنزلت الآية * وكذا رواه الجلال والحازن وغيرهما *

سورة القلم وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ... ﴾ في لباب السيوطي : أخرج ابن المنذر عن أبي جريح قال : كانوا يقولون للنبي ﷺ إنه مجنون . فنزلت : ﴿ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ وهي واضحة المعني *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطِعْ كُلَّ خَلَّافٍ مَهِينٍ ﴾ في اللباب : نزلت في الأخنس بن شريق * وقال مجاهد : نزلت في الأسود بن عبد يغوث *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ... ﴾ الآية نزلت حين أراد الكفار أن يعينوا رسول الله ﷺ بالعين ، فنظر إليه قوم من قريش ، فقالوا : ما رأينا مثله ، ولا مثل حججه ، وكانت العين في بني أسد حتى أن كانت الناقة السمينية والبقرة السمينية تمر بأحدها فيعينها ، ثم يقول : يا جارية خذي المكتل والدرهم فأتينا بلحم من لحم هذه ، فما تبرح حتى تقع بالموت فتنحر *

وقال الكلبي : كان رجل يمكث لا يأكل يومين أو ثلاثة ، ثم يرفع جانب خبائه ، فتمر به النعم فيقول : ما رؤى اليوم إبل ولا غنم أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قريباً حتى يسقط منها طائفة وعدة ، فسأل الكفار هذا الرجل يصيب رسول الله ﷺ بالعين ، ويفعل به مثل ذلك ، فعصم الله تعالى بنبيه وأنزل هذه الآية . ونحوه في الخطيب ذكره الماوردي * وقال الحسن البصري : دواء الاصابة بالعين أن تقرأ هذه الآية على المعيون * ولا يوجد في الحاقه إلا قول ضعيف لم أذكره .

سورة المعارج وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ... ﴾ الآيات * في الواحدي والجلال نزلت في النضر بن الحارث حين قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء . فدعا على نفسه وسأل العذاب ، فنزل به ما سأل يوم بدر فقتل صبياً . ونزل فيه : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ وفي الخطيب أقوال غير هذا : وقيل هو الحارث بن النعمان ، وذلك أنه لما بلغه قول النبي ﷺ لعلي : من كنت مولاه فعلي مولاه ، ركب ناقته فجاء حتى أناخ راحلته بالأبطح ، ثم قال يا محمد : أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلناه منك وأن نحج فقبلناه منك ، وأن نصوم شهر رمضان في كل عام فقبلناه منك ، ثم لم ترض حتى فضلت ابن عمك علينا ، أفهذا شيء منك أم من عند الله تعالى : فقال النبي ﷺ : والذي لا إله إلا هو ، ما هو إلا من الله ، فولى الحارث وهو يقول : اللهم إن كان ما يقول محمد حقاً فأمطر علينا حجارة من السماء . فوالله ما وصل إلى ناقته حتى رماه الله بحجر فوقع على دماغه فخرج من دبره فقتله فنزلت * وقال الربيع : هو أبو جهل * وقيل : إنها نزلت في جماعة من كفار قريش * وقيل : هو نوح عليه السلام سأل العذاب على الكافرين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ * قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ يستمعون كلامه

ولا ينتفعون به ، بل يكذبون به ، ويستتزون ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم ، وليكونن لنا فيها أكثر مما لهم . فأنزل الله تعالى هذه الآية *

سورة الجنّ وبيان ما فيها من سبب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُوْحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ... ﴾ في الآيات * في اللباب : وأخرج البخاري والترمذي وغيرهما عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، ولكنه انطلق في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب فرجعوا إلى قومهم فقالوا : ما هذا إلا لشيء قد حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريها ، فأنظروا هذا الذي حدث ، فانطلقوا ، فانصرف النفر الذي توجهوا نحوتهما إلى رسول الله ﷺ ، وهو بنخلة يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم . فقالوا : يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا . فأنزل الله على نبيه : ﴿ قُلْ أُوْحَىٰٓ إِلَيَّ ... ﴾ الآيات ، وإنما أوحى إليه قول الجن *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ . في اللباب : وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن كرز بن أبي السائب الأنصاري قال : خرجت مع أبي إلى المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ﷺ ، فأوانا المبيت إلى راعي غنم ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعي ، فقال : عامر الوادي جارك ، فنادى مناد لا نراه : يا سرحان ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم وأنزل على رسول بمكة : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ ... ﴾ ونحو هذا بقية الأقوال *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً هَدَقًا ﴾ * في اللباب : نزلت في كفار قريش حين منع المطر سبع سنين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ

أحداً ﴿ في اللباب : وأخرج ابن أبي خاتم من طريق أبي صالح عن ابن عباس قال : قالت الجن يا رسول الله : ائذن لنا نشهد معك الصلوات في مسجدك فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ وفي ابن كثير بعد أن أورده عن الأعمش يقول : صلوا لا تخالطوا الناس . وفيه وعن سعيد بن جبير قال : قالت الجن للنبي ﷺ : كيف لنا أن نأتى المسجد ونحن ناؤن ؟ أي بعيدون عنك : وكيف نشهد الصلاة ونحن ناؤن عنك . فنزلت الآية * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ... ﴾ في اللباب : وأخرج ابن جرير عن حضرمي أنه ذكر له . أن جنيا من الجن من أشرفهم ذابع قال : إنما يريد محمد أن يجيره الله وأنا أجيره . فأنزل الله الآية * .

سورة المزمل وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ ... ﴾ * في اللباب : أخرج البزار والطبراني بسند رواه عن جابر . قال : اجتمعت قريش في دار الندوة . فقالت : سموا هذا الرجل اسما يصدر عنه الناس . قالوا : كاهن ، قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون ، قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فنزل في ثيابه ، فتدثر فيها ، فأتاه جبريل فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ - يَا أَيُّهَا الْمَدْتَرُ ﴾ * قلت : والمعروف أن نزول هذا كان في ابتداء ما أوحى إليه ، فإنه ﷺ لما جاءه الوحي في غار حراء ، رجع إلى خديجة : زوجته ، يرجف فؤاده ، فقال : زملوني زملوني . لقد خشيت على نفسي أن يكون هذا مبادئ شعر أو كهانة ، وكل ذلك من الشيطان . وأن يكون الذي ظهر بالوحي ليس الملك . وكان ﷺ يبغض الشعر والكهانة غاية البغض ، فقالت له خديجة ؛ وكانت وزيرة صدق رضى الله تعالى عنها : كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك تصل الرحم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . ونحو هذا فأنزل الله تعالى الآية * هذا هو المشهور من أقوال المفسرين * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فاقروا ما تيسر منه ﴾ الآية * في اللباب : وأخرج الحاكم عن عائشة قالت : لما نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا

قليلاً ﴿ قاموا سنة حتى ورمت أقدامهم فأنزلت : ﴿ فاقروا ما تيسر منه ﴾ * أي بأن
تصلوا ما تيسر . أي فالمراد بالقراءة الصلاة نفسها من اطلاق الجزء على الكل *

سورة المدثر وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر قم فأندِرْ * وربك فكبّر *
وثيابك فطهر ﴾ * في الواحدي : روى أبو سلمة عن جابر قال : حدثنا رسول الله
ﷺ فقال : جاورت بحراء شهراً ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن
الوادي ، فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر أحداً ، ثم نوديت
فرفعت رأسي ، فإذا هو على العرش في الهواء : يعنى جبريل عليه السلام ، فقلت :
دثروني دثروني ، فصبوا علي ماء . فأنزل الله عز وجل - ﴿ يا أيها المدثر قم فأندِرْ *
وربك فكبّر * وثيابك فطهر ... ﴾ رواه زهير بن حرب ، عن الوليد بن مسلم عن
الأوزاعي *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ... ﴾
الآيات : في الواحدي : روى عكرمة عن ابن عباس قال : إن الوليد بن المغيرة جاء إلى
النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، كأن رق له ، فبلغ ذلك أبو جهل ، فأثاه . فقال يا عم :
إن قومك يرددون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه . فإنك أتيت محمداً لتعرض لنا قبله ؟
قال : لقد علمت قريش أني من أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر
له ، وأنت كاره له ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا
برجزه ولا بقصيده . ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ووالله
إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه مشرق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى
عليه ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني
حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر بأثره عن غيره فنزلت :

﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ الآية . اسناده صحيح على شرط البخاري . وفي
الواحدي : قال مجاهد : إن الوليد بن المغيرة كان يغمى النبي ﷺ وأبا بكر رضي الله
عنه حتى حسبت قريش أنه يسلم ، فقال له أبو جهل : إن قريش تزعم أنك إنما تأتي

محمدًا وابن أبي قحافة تصيب من طعامهما ، فقال الوليد لقريش : إنكم ذو أحساب وأحلام ، وأنكم تزعمون أن محمدًا مجنون ، وهل رأيتموه يتكهن قط ؟ قالوا : اللهم لا . قال : تزعمون أنه شاعر ، هل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : لا ، قال : فتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ قالوا : لا ، قالت قريش للوليد : فما هو ؟ قال : فما هو إلا ساحر ، وما يقوله سحر . فذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ . إلى قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتِرُ ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ * في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن البراء أن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب النبي ﷺ عن خزنة جهنم ، فجاء فأخبر النبي ﷺ فنزلت عليه ساعة ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ الآية . أي ملكاً ، أو نقيبا ، وقيل : تسعة عشر ألف ملك . وفي القرطبي : قلت والصحيح إن شاء الله إن هؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء والنقباء *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ في اللباب : وأخرج عن ابن اسحاق قال : قال أبو جهل يوما : يا معشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس عدداً ، أفيعجز مائة رجل منكم عن رجل منهم . فأنزل الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ... ﴾ الآية . وأخرج عن السدي قال : لما نزلت : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ قال رجل من قريش ؛ يدعى أبا الأشد يا معشر قريش : لا يهولنكم التسعة عشر ؛ أنا أرفع عنكم بمنكبي الأيمن عشرة ، وبمنكبي الأيسر التسعة ، فأنزل الله ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ... ﴾ الآية .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشُورَةً ﴾ * في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن السدي قال : قالوا : لئن كان محمد صادقاً فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءة وأمنة من النار . فنزلت : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشُورَةً ﴾ . وفي الخطيب : أن أبا جهل وجماعة من قريش قالوا يا محمد : لن نؤمن بك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب من السماء عنوانه من رب العالمين إلى فلان بن فلان ، ونؤمن فيه باتباعك * ونحو الآية قولهم : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴾ . وقال الكلبي : إن المشركين

قالوا يا محمد : بلغنا أن الرجل من بنى إسرائيل كان يصبح مكتوباً عند رأسه ذنبه
وكفارته ، فأتنا بمثل ذلك ، وقالوا : إذا كانت ذنوب الانسان تكتب عليه فما لنا
لا نرى ذلك ؟ *

سورة القيامة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ ﴾ *
نزلت الآية في عمر بن ربيعة وذلك أنه أتى النبي ﷺ ، فقال : حدثني عن يوم القيامة
متى يكون ، وكيف أمرها وحالها ، فأخبره النبي ﷺ بذلك ، فقال : لو عاينت ذلك
اليوم لم أصدقك يا محمد ، ولم أؤمن به . أو يجمع الله هذه العظام . فأنزل الله تعالى هذه
الآية *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ... ﴾ *
أخرج البخاري عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يحرك به
لسانه يريد أن يحفظه ، فأنزل الله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ
وَقُرْآنَهُ ﴾ . وروى مسلم عن ابن جبير عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يعالج من
التنزيل شدة بتحريك شفثيه ، فقال لى ابن عباس : أنا أحركهما كما كان رسول الله ﷺ
يحركهما ، فحرك شفثيه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ * ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴾
في اللباب : وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ عَلَيْهَا
تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ قال أبو جهل لقريش : ثكلتكم أمهاتكم . يخبركم ابن أبي كبشة ، أن
خزنة جهنم تسعة عشر ، وأنتم الدهر ، أفيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل من
خزنة جهنم ، فأوحى الله إلى رسوله أن يأتي أبا جهل فيقول له : ﴿ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ *
ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴾ * وأخرج النسائي عن سعيد بن جبير أنه سأل ابن عباس عن
قوله : ﴿ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ﴾ أشيء قاله رسول الله ﷺ من قبل نفسه ؟ أم أمره الله
به ؟ قال : بل قاله من قبل نفسه ثم أنزله الله *

سورة الإنسان وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ * روى عطاء عن ابن عباس قال : وذلك أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه نوبة أجر نفسه يسقى نخلاً بشيء من شعر ليلة حتى أصبح وقبض الشعير وطحن ثلثه . فجعلوا منه شيئاً ليأكلوا يقال له الخزيرة ، فلما أتم انضاجه أتى مسكين فسأله فأطعموه ، ثم عمل الثلث الباقي ، فلما تم انضاجه أتى يتيم فسأله فأطعموه ، ثم عمل الثلث الباقي ، فلما تم انضاجه أتاها أسير من المشركين فأطعموه ، وطووا يومهم ذلك ، فأنزلت فيه هذه الآية * وهو قول عطاء ، وفي الخازن : واختلفوا في سبب نزول هذه الآية ، فقيل نزلت في رجل من الأنصار يقال له أبو الدحداح ، صام يوماً فلما كان وقت الافطار جاءه مسكين ويتيم وأسير فأطعمهم ثلاثة أرغفة . وبقي له ولأهله رغيف واحد فنزلت هذه الآية فيه * ثم أورد السبب الذي ذكر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ * في اللباب : وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وهو راقد على حصير من جريد ، وقد أثر في جنبه ، فبكى عمر ، فقال له ما يبكيك ؟ قال : ذكرت كسر وملكه ، وهرمز وملكه ، وصاحب الحبشة وملكه وأنت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير من جريد . فقال رسول الله ﷺ : أم ترضى أن لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ * ولم أجد غيره *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْغَمْنِهِمْ أَيْمَاناً أَوْ كُفُوراً ﴾ . في اللباب : وأخرج عبد الرزاق وابن جرير ، وابن المنذر عن قتادة أنه بلغه أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن عنقه . فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَطْغَمْنِهِمْ أَيْمَاناً أَوْ كُفُوراً ﴾ * وهو بعيد الارتباط جداً . ففي الخازن : قيل أراد به أبا جهل . وذلك أنه لما فرضت الصلاة على النبي ﷺ نهاه أبو جهل عنها ، وقال : لئن رأيت محمداً يصلي .. وهنا تم احكام الصلة بين المعنى والسبب . أى لا تطعيه : وقيل : إن عتبة بن ربيعة قال

للنبي ﷺ : اترك الصلاة وأنا أزوجك ابنتي وأسوقها إليك بلا مهر . وقيل : قال له الوليد بن المغيرة : أنا أعطيك من المال حتى ترضى إذا رجعت عن هذا الأمر . أى فلا تطع واحداً منهما ولا من غيرهما .

سورة المرسلات وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يركَعُونَ ﴾ في اللباب . اخرج ابن المنذر عن مجاهد في الآية . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يركَعُونَ ﴾ قال : نزلت في ثقيف * أي لا يصلون . ولم أجد غيره *

سورة النبا وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ ﴾ * في الواحدي : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن قال : لما بعث النبي ﷺ جعلوا يتساءلون بينهم فنزلت : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ ﴾ * وكذا في النهر *

سورة النازعات وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ في اللباب : وأخرج ابن أبي حاتم من طريق جوبير عن الضحاک عن ابن عباس : أن مشركي أهل مكة سألوا النبي ﷺ ، فقالوا : متى تقوم الساعة استهزاء منهم : فأنزل الله : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ... ﴾ وأخرج الطبراني وابن جرير عن طريق بن شهاب قال : كان رسول الله ﷺ يذكر الساعة حتى نزلت : ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذَاكِرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مِنْهَا مَا لَكَ ﴾ *

سورة عَبَسَ وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ... ﴾ الآيات . هو ابن مكتوم ، وذلك أنه أتى النبي ﷺ وهو يناجي عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام ، وعباس بن عبد المطلب ، وأبياً وأمياً ابني خلف . ويدعوهم إلى الله تعالى ، ويرجو إسلامهم ، فقام ابن مكتوم . وقال يا رسول الله : علمني مما علمك الله ، وجعل يناديه ويكرر النداء ، ولا يدري أنه مشغول مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعه كلامه ، وقال في نفسه : يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد ، فعبس رسول الله ﷺ ، وأعرض عنه ، وأقبل على القوم الذين يكلمهم ، فأنزل الله تعالى الآيات : فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه ، وإذا رآه يقول : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربي . وهو قول واحد .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ في الباب : أخرج ابن المنذر عن عكرمة في الآية قال : نزلت عتبة بن أبي لهب حين قال : كفرت برب النجم * وكذا في الخازن . وفيه : وقيل في أمية بن خلف . وقيل : في الذين قتلوا يوم بدر . وقيل الآية عامة في كل كافر * وهو الأصح لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . والمراد بالإنسان هنا جنس الكافر والمراد بالقتل اللعن . أي لعن الكافر *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ . روى عائذ بن شريح الكندي قال : سمعت أنس بن مالك قال : قالت عائشة للنبي ﷺ : أنخسر عراة ؟ قال : نعم قالت : واسوأناه !! فأنزل الله : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ * وعبارة الخازن : عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : تحشرون حفاة عراة غرلاً ، فقالت امرأة : أيبصر أحدنا ، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال يا فلانة : لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

سورة الانفطار ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ... ﴾ أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية : قال نزلت في أبي بن خلف * وفي الخازن : وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة . وقيل : في أبي الشريف ، واسمه أسيد بن كلدة ، وقيل : كلدة بن خلف وكان كافراً ضرب النبي ﷺ قلم يعاقبه الله ، وأنزل الله هذه الآية ، وقيل الآية عامة في كل كافر وعاص . وهو الأصح .

سورة التكوير وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وما تَشَاوَنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ . في الواحدي : روى سعيد بن عبد العزيز عن سلمان بن موسى قال : لما أنزل الله عز وجل : ﴿ وما تَشَاوَنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ... ﴾ وفي اللباب : أن القائل أبو جهل * ولم أجد غيره .

سورة المطففين ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ ... ﴾ روى عكرمة عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيَلِّ لِلْمُطَفِّينَ ... ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك * قال القرطبي : كان بالمدينة تجار يطففون ، وكانت بيعاتهم تشبه القمار . المنابذة والملامسة والمخاطرة . فأنزل الله تعالى هذه الآية . فخرج رسول الله ﷺ إلى السوق وقرأها * وقال السدي : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وبها رجل يقال له أبو جهينة ومعه صاعان يكيل بأحدهما ، ويكتال بالآخر * فأنزل الله تعالى هذه الآيات *

سورة الطارق ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ وما أذراك ما الطَّارِقِ ﴿ في الواحدي : نزلت في أبي طالب ، وذلك أنه أتى النبي ﷺ بجذب ولبن ، فبينما هو جالس إذا انخط نجم فامتلاً ما ثم نارا ، ففزع أبو طالب ، وقال : أي شيء هذا ؟ فقال : هذا نجم رمى به ، وهو آية من آيات الله . فعجب أبو طالب . فأنزل الله تعالى هذه الآية * وكذا في الخازن *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ... ﴾ في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في الآية : قال : نزلت في أبي الأشد ، كان يقوم على الأديم ، فيقول يا معشر قريش : من أزالني عنه فله كذا ، ويقول : إن محمداً يزعم أن خزنة جهنم تسعة عشر . فأنا أكفيكم وحدي عشرة ، واكفوني أنتم تسعة *

سورة الأعلى ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ سُنْقَرُوكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ في اللباب : أخرج الطبراني عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من الوحي حتى يتكلم النبي ﷺ بأوله مخافة أن ينساه ، فأنزل الله : ﴿ سُنْقَرُوكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ قال السيوطي : في إسناده جووير ضعيف جداً . والقول في الخازن *

سورة الغاشية ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ... ﴾ والآيات في اللباب : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما نعت الله ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فأنزل الله : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ... ؟ ﴾ . وكذا في الخازن *

سورة الفجر ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ... ﴾ الآيات .
في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم عن بريدة في الآية .. قال : نزلت في حمزة * وأخرج
من طريق جوبير عن الضحاك عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : من يشتري بئر رومة
يستعذب بها غفر الله له . فاشتراها عثمان ، فقال : هل لك أن تجعلها سقاية للناس ؟
قال : نعم ، فأنزل الله في عثمان : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ... ﴾ * والأصح أنها
عامة في كل مؤمن اطمأن قلبه بلقاء الله ، وأخلص عمله لله *

سورة الليل ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ... ﴾ * في اللباب :
وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة . أن أبا بكر أعتق سبعة كلهم يعذب في الله . وفيه
نزلت * إلى آخر السورة * وأخرج الحاكم عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال :
قال أبو قحافة لأبي بكر : أراك تعتق رقابا ضعافا ، فلو أنك أعتقت رجلا جلدًا
يمنعونك ويقومون دونك يا بني ، فقال : إنما أريد ما عند الله ، فنزلت هذه الآية فيه .
﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ... ﴾ إلى آخر السورة . وأخرج البزار عن ابن الزبير قال :
نزلت هذه الآية ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ... ﴾ إلى آخرها في أبي بكر
الصديق ، وفي الواحدي : روى عطاء عن ابن عباس أن بلالا لما أسلم ذهب إلى الأصنام
فسلح عليها ، وكان عبداً لعبد الله بن جدعان ، فشكى إليه المشركون ما فعل ، فوجه
لهم ومائة من الإبل ينحرونها لآلهم ، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء وهو يقول :
أحد أحد ، فمر به رسول الله ﷺ فقال : ينجيك أحد أحد ، ثم أخبر رسول الله ﷺ
أبا بكر أن بلالا يعذب في الله ، فحمل أبو بكر رطلا من ذهب . فابتاعه به ، فقال
المشركون : ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليد كانت لبلال عنده ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا
لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ... ﴾ إلى آخر السورة .

سورة الضحى ...

بسم الله الرحمن الرحيم

في الواحدى . روى الأسود بن قيس عن جندب قال : قالت امرأة من قريش للنبي ﷺ : ما أرى شيطانك إلا ودعك ، فنزل : ﴿ والضحى ﴾ إلى ﴿ وما قلى ﴾ *
رواه البخاري عن أحمد بن يونس عن زهير عن الأسود . ورواه مسلم عن محمد بن رافع عن يحيى بن آدم عن زهير * وفي رواية هشام بن عروة عن أبيه قال : أبطأ جبريل عليه السلام على النبي ﷺ ، فجزع جزعاً شديداً ، فقالت خديجة : قد فلاك ربك لما يرى من جزعك ، فأنزل : والضحى والليل إذا سجى * ما ودّعك ربك وما قلى * قلت : والمشهور أن هذا قول أم جميل زوجة أبي لهب . ويمكن الجمع بينهما بأن خديجة أم المؤمنين قالت ذلك توجعاً ، وأم جميل شماتة . والله أعلم . وحدث أبو النعيم عن حفص بن سعيد القرشي قال : حدثتني أمى عن أمها خولة ، وكانت خادمة رسول الله ﷺ أن جرواً دخل البيت ، فدخل تحت السرير فمات ، فمكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه الوحي . فقال يا خولة : ما حدث في بيتى ، جبريل عليه السلام لا يأتينى ؟ قالت خولة : لو هيأت البيت وكنته تحت السرير ، فإذا بشيء ثقيل ، فلم أزل حتى أخرجته فإذا جرواً ميت ، فأخذته فألقيته خلف الجدار ، فجاء نبي الله ﷺ ترعد لحياه ، وكان إذا نزل الوحي استقبلته الرعدة ، فقال يا خولة ذرينى . فأنزل الله تعالى : ﴿ والضحى والليل إذا سجى . ما ودّعك ربك وما قلى ﴾ * وفي الباب : قال الحافظ ابن حجر : قصة ابطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة لكن كونها سبب لنزول الآية غريب بل شاذ مردود بما في الصحيح *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وللآخرة خيراً لك من الأولى ﴾ * ولسوف يعطيك ربك فترضى * في الواحدى : روى على بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال : رأى رسول الله ﷺ ما يفتح على أمته من بعده ، فسر بذلك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وللآخرة خيراً لك من الأولى ﴾ * ولسوف يعطيك ربك فترضى * قال فاعطاه ألف قصر في الجنة من لؤلؤ ترابه مسك في كل قصر منها ما ينبغى له * وفي الباب : وأخرج

الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : عرض علي ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرتني ، فأنزل : ﴿ وَاللَّخْوَةَ خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى ... ﴾ * *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ... ﴾ * روى عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ إنه قد كانت الأنبياء قبلي منهم من سخرت له الريح ، وذكر سليمان وداود ، ومنهم من كان يحيى الموتى ، وذكر عيسى ابن مريم ومنهم ومنهم ، قال : قال : ألم أجدك يتيماً فأوتيتك ؟ قال : قلت بلى . قال : ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قال : قلت بلى يارب . قال : ألم أجدك عائلاً فأغنيتك . قال : قلت بلى يارب . قال : ألم أشرك لك صدرك ؟ ووضعت عنك وزرك ؟ قال : قلت بلى يارب * *

سورة ألم نشرح ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ... ﴾ * في اللباب : قال : نزلت سورة ألم نشرح لما عير المشركون المسلمين بالفقر * وأخرج عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ قال رسول الله ﷺ : أبشروا أتاكم اليسر لن يغلب عسر يسرين * *

سورة التين ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ * في اللباب : أخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس في الآية : قال : هم نفر ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله ﷺ ، فسئل عنهم حين سفهت عقولهم ، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم . وفي القرطبي : وقيل : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم لا يحزنون ولا تذهب عقولهم * اللهم اجعلنا منهم يا حي يا قيوم * *

سورة العلق ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ ... ﴿ الآيات . في اللباب : أخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقيل : نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطأن على رقبته ، ولأعفرن وجهه في التراب فأنزل الله : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ * .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَدَّغَ الزَّبَانِيَةَ ... ﴾ إلى آخر السورة . في الواحدي : روى أبو خالد : عبد العزيز بن هند عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يصلي فجاء أبو جهل فقال : ألم أنك عن هذا التصرف ؟ فانصرف إليه النبي ﷺ فزبره فقال أبو جهل : والله إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ * سَدَّغَ الزَّبَانِيَةَ ﴿ * قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لأخذه زبانية الله تبارك وتعالى . وفي اللباب : قال الترمذي : حسن صحيح .

سورة القدر ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ... ﴾ إلى آخر السورة * في الواحدي : قال مجاهد : ذكر النبي ﷺ رجلا من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، فتعجب المسلمون من ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ... ﴾ * وفي اللباب : أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن الحسن بن علي قال : إن النبي ﷺ رأى بني أمية على منبر فسأه ذلك ، فنزلت : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ... ﴾ * ونزلت : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ... ﴾ * ﴿ لَيْلَةَ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ . يحكمها بعدك بنو أمية . قال القاسم الحرائق : فعددنا وإذا هي ألف شهر لا تزيد ولا تنقص . قال الترمذي غريب . وقال المزني وابن كثير : منكر جداً * .

سورة إذا زلزلت ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ... ﴾ روى أبو عبد الرحمن الجليبي ، عن عبد الله بن عمر قال : نزلت : إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد فبكى أبو بكر . فقال رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا أبا بكر ؟ قال : أبكاني هذه السورة ، فقال رسول الله ﷺ : لو أنكم لا تخطئون ولا تذبون لخلق الله أمة من بعدكم يخطئون ويذبون فيغفر لهم .

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ... ﴾ إلى آخر السورة . قال : مقاتل نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل ، فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، ويقول : ما هذا شيء ، وإنما تؤجر على ما نعطي وعن ما نحبه . وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير : الكذبة والغيبة والهميمة ، والنظرة ، ويقول ليس علي من هذا شيء إنما أوعد الله النار على الكبائر ، فأنزل الله عز وجل يرغبهم في القليل من الخير ، فإنه يوشك أن يكثر ويحذرهم اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكثر فنزل : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ * كذا في الخطيب والواحدي .

سورة العاديات ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ... ﴾ في الواحدي : قال مقاتل : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى حي كنانة ، واستعمل عليهم المنذر بن عمرو والأنصاري ، فتأخر خبرهم ، فقال المنافقون : قتلوا جميعا ، فأخبر الله تعالى عنها ، فأنزل : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ - يعني تلك الخيل * وفي الباب : أخرج البزار وابن أبي حاتم والحاكم عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ خيلا ولبثت شهرا لا يأتيه منها خبر فنزلت : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ أي هم في حالة غزو ويغيرون على الأعداء في الصباح بعد أن يبيتوهم في المساء *

سورة التكاثر ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ... ﴾ في الواحدي : قال مقاتل والكلبي : نزلت في حين من قريش : بني عبد مناف ، وبني سهم كان بينهم لحا ، فتعاندا السادة والأشراف أيهم أكثر ، فقال بنو عبد مناف : نحن أكثر سيداً وعزا وعزيزا وأعظم نفرا ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكثروهم بنو سهم لأنهم كانوا أكبر عددا في الجاهلية * وقال قتادة : نزلت في اليهود . قالوا : نحن أكثر من بني فلان وبنو فلان أكثر من بني فلان ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضللا . وكذا بقية الأقوال نحو ما ذكر ، أي في تفاخر الناس وتكاثر بعضهم على بعض وهو مذموم في الشرع .

سورة الهمز ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ... ﴾ * في اللباب : أخرج ابن أبي حاتم ، عن عثمان وابن عمر قال : مازلنا نسمع أنه : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ ... ﴾ نزلت في أبي بن خلف * وأخرج ابن المنذر عن ابن اسحاق قال : كان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه ، فأنزل الله : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ ... ﴾ السورة كلها *

سورة الفيل ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ * إلى آخر السورة . نزلت في قصة أبرهة ملك اليمن وجيشه بنى بصنعاء كنيسة ليصرف إليها الحجاج عن مكة ، فأحدث رجل من كنانة فيها ، ولطخ قبلتها بالعدرة احتقارا بها فحلف أبرهة ليهدم الكعبة ، فجاء مكة بجيشه على أفيال مقدمها محمود ،

فحين توجهوا لهدم الكعبة أرسل الله عليهم ما في السورة ، والقصة مشهورة .

سورة قريش ...

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب نزول هذه السورة أنها نزلت في قريش : قال عليه الصلاة والسلام والسلام : إن الله فضل قريشا بسبع خصال لم يعطها قبلهم أحد ، ولا يعطها أحدا بعدهم . أن الخلافة فيهم ، والحجاجة فيهم ، وأن السقاية فيهم ، ونصروا على الفيل ، وعبدوا الله سبع سنين لم يعبدوا أحدا غيرهم ، فنزلت فيهم سورة لم يذكر فيها أحد غيرهم ﴿ لا يلاف قريش ... ﴾ رواه عمرو بن جعدة عن أبيه ، عن جدته أم هانئ بنت أبي طالب ، في السمين : سأل معاوية ابن عباس : لم سميت قريش قريشا ، فقال : سميت بدابة في البحر يقال لها القرش تأكل ولا تؤكل ، وتعلوا ولا تعلى * وقريش هم ولد النضر بن كنانة ، فكل من ولده النضر فهو من قريش ، ومن لم يلبده النضر فليس بقريشي .

سورة الماعون - أرأيت ...

بسم الله الرحمن الرحيم

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ... ﴾ * في الواحدي : قال مقاتل والكلبي : نزلت في العاصي بن وائل السهمي . وقال ابن جرير : كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل يوم جزورين ، فأتاه يتيم فسأله شيئا فقرعه بعضا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ... ﴾ . وفي الخازن : وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقيل : في عمرو بن عائذ المخزومي . وفي رواية ابن عباس أنها في رجل من المنافقين *

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ... ﴾ إلى آخر السورة . في اللباب : أخرج ابن المنذر عن طريق ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ الآية . قال : نزلت في المنافقين كانوا يراؤون المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية *

سورة الكوثر ...

بسم الله الرحمن الرحيم

نزلت سورة الكوثر في العاصي . قاله ابن عباس . وذلك أنه رأى رسول الله ﷺ يخرج من المسجد وهو يدخل . فالتقيا عند باب بنى سهم ، وتحدثا . وأناس من صناديد قريش في المسجد جلوس ، فلما دخل العاص ، قالوا : من الذي كنت تحدث ؟ قال : ذلك الأبر . يعنى النبي ﷺ ، وكان توفى قبل ذلك عبد الله بن رسول الله ﷺ ، وكان من خديجة ، وكانوا يسمون من ليس له ابن ابن ابتر فأنزل الله تعالى هذه السورة . وفي اللباب : أخرج البزار وغيره بسند صحيح / عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة ، فقالت له قريش : أنت سيدهم . ألا ترى إلى هذا المتبصر المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج . وأهل السقاية ، وأهل السدانة ، قال : أتم خير منه . فنزلت : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ / وفي الواحدي : وقال عطاء عن ابن عباس : كان العاصي بن وائل يمر بمحمد ﷺ ويقول : إني لأشتنوك - لأبغضك - وإنك لأبتر من الرجال . فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ... ﴾ من خير الدنيا والآخرة . ونحوها بقية الأقوال /

سورة الكافرون ...

بسم الله الرحمن الرحيم

نزلت السورة ﴿ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ لا أعبدُ ما تعبدون ... ﴿ إلى آخر السورة . نزلت في رهط من قريش ، قالوا يا محمد : هلم - اتبع ديننا وتبع دينك - تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً من ديننا قد شركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك قد شركت في أمرنا ، وأخذت بحظك ، فقال معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ... ﴾ إلى آخر السورة . فعدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام ، وفيه الملاء من قريش ، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك * وهو أصح الأقوال . وكذا في القرطبي عن ابن اسحاق وغيره . وفي ابن كثير ، بعد قوله : معاذ

الله أن أشرك به غيره ، قالوا : فاستلم بعض آهتنا نصدقك ونعبد إلهك . قال : حتى أنظر ما يأتي من ربي فأنزل الله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ... ﴾ إلى آخر السورة .. وقيل : إنهم لقوا العباس فقالوا يا أبا الفضل : لو أن ابن أخيك استلم بعض آهتنا لصدقناه فيما يقول ، ولآمنا بإلهه ، فاتاه العباس فأخبره بقولهم : فنزلت هذه السورة * وقيل نزلت في أبي جهل والمستهزئين ومن لم يؤمن منهم *

سورة تَبَّتْ - المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في الواحدي : سبب نزول السورة : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ... ﴾ إلى آخر السورة . روى سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا . فقال يا صباحاه ! فأجتمعت إليه قريش . فقالوا له ! مالك ؟ قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقون ؟ قالوا : بلى . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ . فقال أبو لهب : تَبَّا لك ألهذا دعوتنا جميعا . فأنزل الله عز وجل : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ... ﴾ . وفي رواية سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال : لما أنزل الله تعالى - ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ . أتى رسول الله ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى يا صباحاه . فاجتمع إليه الناس من بين رجل يجيء ، ورجل يبعث رسوله ، فقال يا بني عبد المطلب : يا بني فهر : يا بني لؤى : لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ما دعوتنا إلا لهذا . فأنزل الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ... ﴾ وفي اللباب : وأخرج ابن جرير من طريق اسرائيل عن ابن اسحاق عن رجل من همدان يقال له يزيد بن زيد أن امرأة أبي لهب كانت تلقى في طريق النبي ﷺ الشوك فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ - إلى - ﴿ وَاِمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ... ﴾ وكذا في القرطبي . وفيه : زاد الحميدى وغيره . فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، وفي يدها فهر من حجارة ، فلما وقفت عليه * أخذ الله بصرها عن رسول الله ﷺ ، فلم تر إلا أبا بكر ، فقالت يا أبا بكر : إن صاحبك قد بلغنا أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا

الفهر فاه ، والله إني لقائلة : مذمما عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا . ثم انصرفت . فقال أبو بكر يا رسول الله : أما تراها رأيتك ؟ قال : ما رأيتني . لقد أخذ الله بصرها عني *

سورة الاخلاص ...

بسم الله الرحمن الرحيم

في الواحدي : قال قتادة والضحاك ومقاتل : جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ ، فقالوا : صف لنا ربك فإن الله أنزل نعمته في التوراة ، فأخبرنا من أي شيء هو ؟ ومن أي جنس هو ؟ أذهب هو أم نحاس ، أم فضة ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ ومن ورث الدنيا ، ومن يورثها . فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السورة . وهي نسب الله خاصة . وفي رواية الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك . فأنزل الله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ... ﴾ . وفي الباب : أخرج أبو الشيخ في كتاب العظمة من طريق أبان عن أنس قال : أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ ، فقالوا يا أبا القاسم : خلق الله الملائكة من نور الحجاب ، وآدم من حمأ مسنون . وإبليس من هب النار . والسماء من دخان . والأرض من زبد الماء ، فأخبرنا عن ربك فلم يجيبهم ، فأتاه جبريل في هذه السورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ... ﴾ . وكذا في البحر والبيضاوى ، والحازن وغيرهما .

سورة المعوذتين ...

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المفسرون : كان غلام من اليهود يخدم النبي ﷺ . فأتت إليه اليهود ولم يزالوا به حتى أخذ مشاطة النبي ﷺ ، وعدة أسنان من مشطه . فأعطاهم اليهود فسحروه فيها ، وكان الذي تولى ذلك ليبد بن عاصم اليهودي ، ثم دسها في بئر لبنى زريق . يقال لها دروان ، فمرض رسول الله ﷺ ، وانتثر شعر رأسه ، ويرى أنه يأتي نساءه ولا يأتيهن ، وجعل يدور ولا يدري ما عراه . فبينما هو قائم ذات يوم أتاه ملكان فقعده أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجله ، فقال الذي عند رأسه : ما بال الرجل ؟ قال : طب .

لعله
ناشئ

قال : وما طب ؟ قال : سحر . قال : ومن سحره ؟ قال : لبيد بن أعصم اليهودي .
قال : ويم طبه ؟ قال : بمشط ومشاطة . قال : وأين هو ؟ قال : في جف طلعة تحت
راعوفة في بئر ذروان - والجف : قشر الطلع . والراعوفة : حجر في أسفل البئر يقوم
عليه المائح . فانتبه رسول الله ﷺ فقال يا عائشة : ما شعرت أن الله أخبرني بدائي ؟ ثم
بعث عليا والزبير وعمار بن ياسر فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا
الصخرة ، وأخرجوا الجف ، فإذا هو مشاطة رأسه وأسنان مشطه ، وإذا وتر معقد فيه
أحد عشر عقدة مغروزة بالابر ، فأنزل الله : سورة المعوذتين . فجعل كلما قرأ آية
انحلت عقدة ، ووجد رسول الله ﷺ عليه خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فقام كأنما
نشط من عقال ، وجعل جبريل عليه السلام يقول : بسم الله أريك . من كل شيء
يؤذيك ، ومن حاسد وعين الله يشفيك . فقالوا يا رسول الله : أولا نأخذ الخبيث
فنقتله ؟ فقال : أما أنا فقد شافاني الله ، وأكره أن أثير على الناس شراً . وروى هشام بن
عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : سحر النبي ﷺ حتى أنه ليتخيل إليه أنه
فعل الشيء وما فعله حتى إذا كان يوم وهو عندي دعا الله ودعا ، ثم قال : أشعرت
يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ قلت : وما ذاك يا رسول الله : قال : أتاني
ملك . وذكر القصة بطولها رواه البخاري عن عبيد بن اسماعيل عن أبي أسامة . وكذا
في الخطيب والمواهب وغيرهما : قال الراغب تأثير السحر في النبي ﷺ لم يكن من
حيث أنه نبي ، وإنما كان في بدنه من حيث أنه إنسان أو بشر كما كان يأكل ويتغوط
ويغضب ، ويشتهي ويحرض ، فتأثيره فيه من حيث هو بشر لا من حيث هو نبي . وإنما
يكون ذلك قادحاً في النبوة لو وجد للسحر تأثير في أمر يرجع للنبوة ، كما أن جرحه
وكسر ثنيتيه يوم أحد لم يقدح فيما ضمن الله له من عصمته في قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ
مِنَ النَّاسِ ﴾ . وكما لا يعتد بما يقع في الإسلام من غلبة بعض المشركين على بعض
النواحي فيما ذكر من كمال الإسلام في قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾
الكرخي * وعند البيهقي عن ابن عباس : مرض رسول الله ﷺ . وحبس عن النساء
والطعام والشراب * فدلّت هذه الطرق على ما قاله الراغب . أن السحر إنما تسلط على
ظاهر جسده لا على عقله .

وهل للسحر تأثير ؟ مذهب أهل السنة أنه حق وله حقيقة ، ويكون بالقول والفعل .
ويؤلم ويمرض ويقتل ويفرق بين الزوجين - بإذن الله - وقالت

المعتزلة وأبو جعفر من الشافعية . وأبو بكر الرازي من الحنفية : إن السحر لا حقيقة له
إنما هو تخيل . وبه قال البغوى . واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا
تَسْعَى ﴾ وذهب قوم إلى أن الساحر قد يقلب بسحره الأعيان ، ويجعل الإنسان حماراً
بحسب قوة السحر . وهذا واضح البطلان لأنه لو قدر على هذا لقدر أن يرد نفسه إلى
الشباب بعد الهرم . وأن يمنع نفسه من الموت . وهو محال * * * وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين *

إلى هنا تم بعونه تعالى كتاب جامع النقول في
أسباب النزول وكان الانتهاء منه يوم الاثنين الموافق لليوم الثاني
من شهر شعبان عام ١٤٠١ هجرى (٤) حزيران
١٩٨١ ميلادى

جامع النقول في أسباب النزول

صدر الإذن بطباعة هذا الكتاب من :

- ١ - الإدارة العامة لشئون المصاحف ومراقبة المطبوعات برئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد برقم ٥/٧٩١٠ وتاريخ ٥/٧/١٤٠٤هـ.
- ٢ - ومن المديرية العامة للمطبوعات بوزارة الاعلام برقم ٥٥٥٨٠ وتاريخ ١٤/٨/١٤٠٤هـ.

الصناعية : ٤٤٨٦٣٥٨
مطابع الإشعاع الرييل، ٤٠٤١٣٦٦

المملكة العربية السعودية - الرياض - تلفون شارع الرييل ٤٠٤١٣٦٦ - الصناعية ٤٤٨٦٣٥٨
Saudi Arabia - Riyadh Tel. Rael Street 4041366 - Industrial Area 4486358